

التيسير
في
أحاديث التفسير

التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

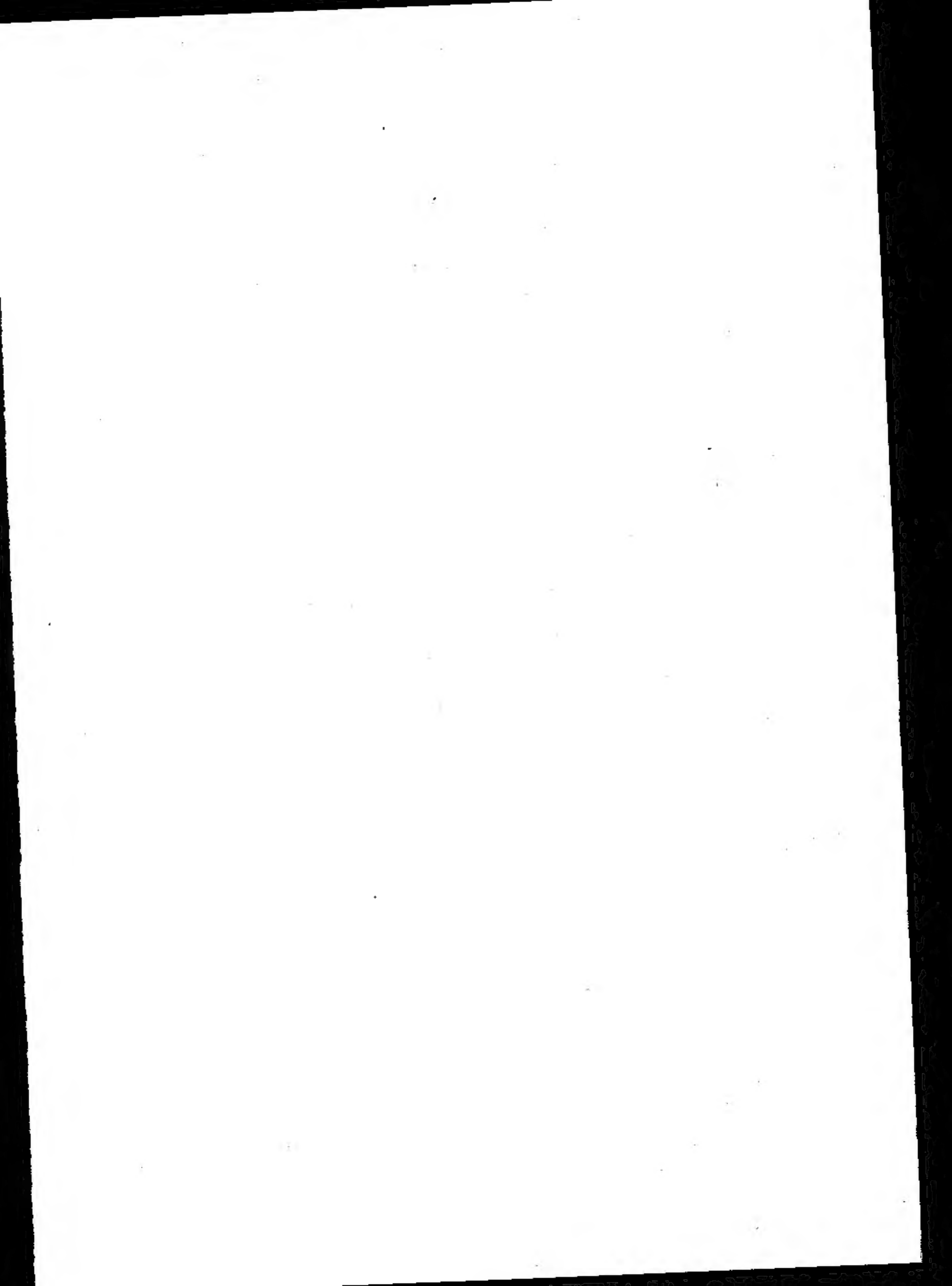
سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الأول





دار الغرب الإسلامي



الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

المُحتَويَاتْ

تفسير الحزب الرابع في المصحف الكريم

تفسير الحزب الخامس في المصحف الكريم

(وفيه نهاية سورة البقرة وبداية سورة آل عمران)

تفسير الحزب السادس في المصحف الكريم

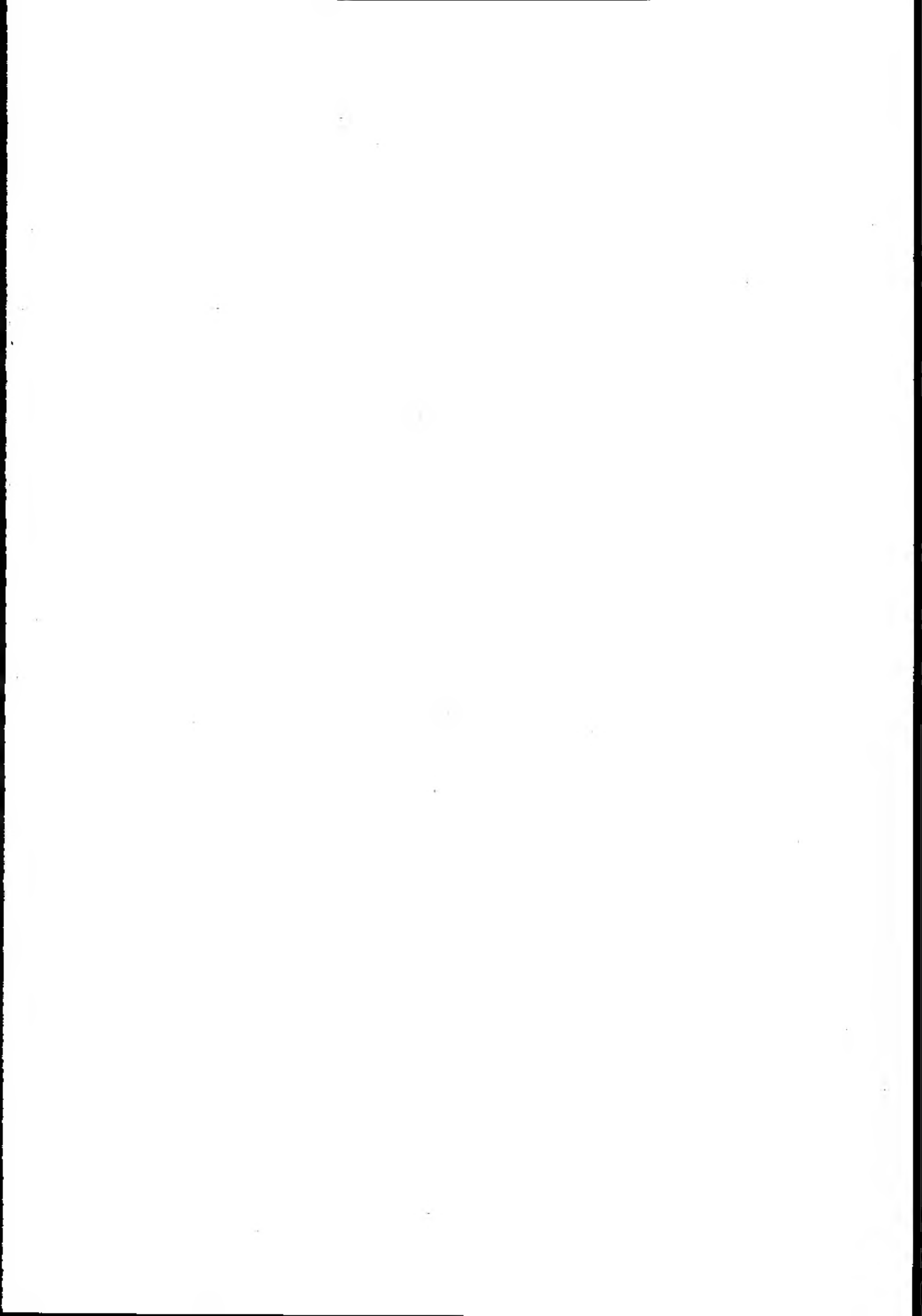
تفسير الحزب السابع في المصحف الكريم

تفسير الحزب الثامن في المصحف الكريم

(وفيه نهاية سورة آل عمران وبداية سورة النساء)

تفسير الحزب التاسع في المصحف الكريم

تفسير الحزب العاشر في المصحف الكريم



المُحتَويَات

تفسير الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

تفسير الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

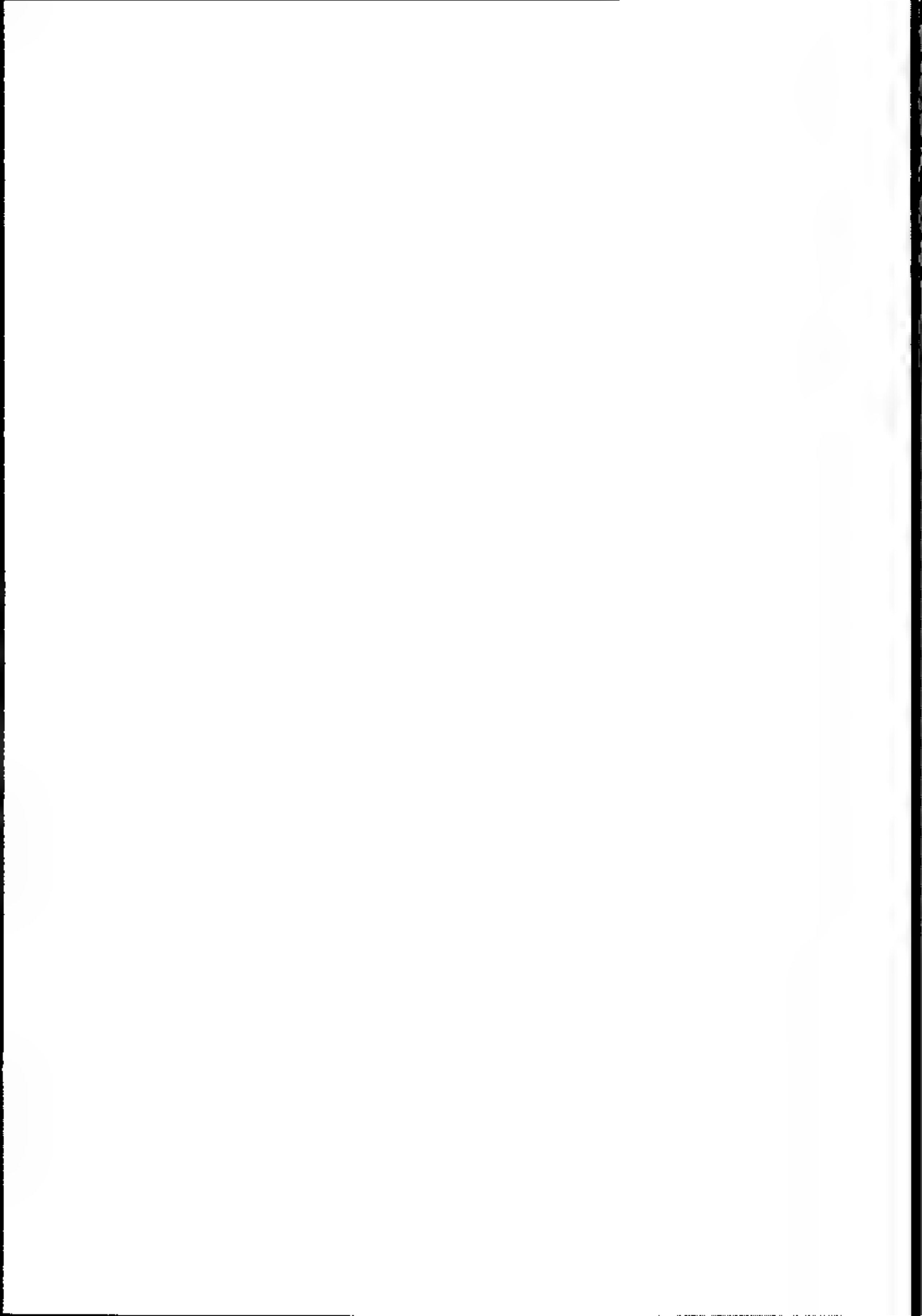
(وفيه نهاية سورة الأنعام)

تفسير الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

(وفيه بداية سورة الأعراف)

تفسير الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

تفسير الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم



محتويات الجزء الثالث
من
(التيسير في أحاديث التفسير)

تفسير الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

تفسير الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

تفسير الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

تفسير الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

تفسير الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

تفسير الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

تفسير الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

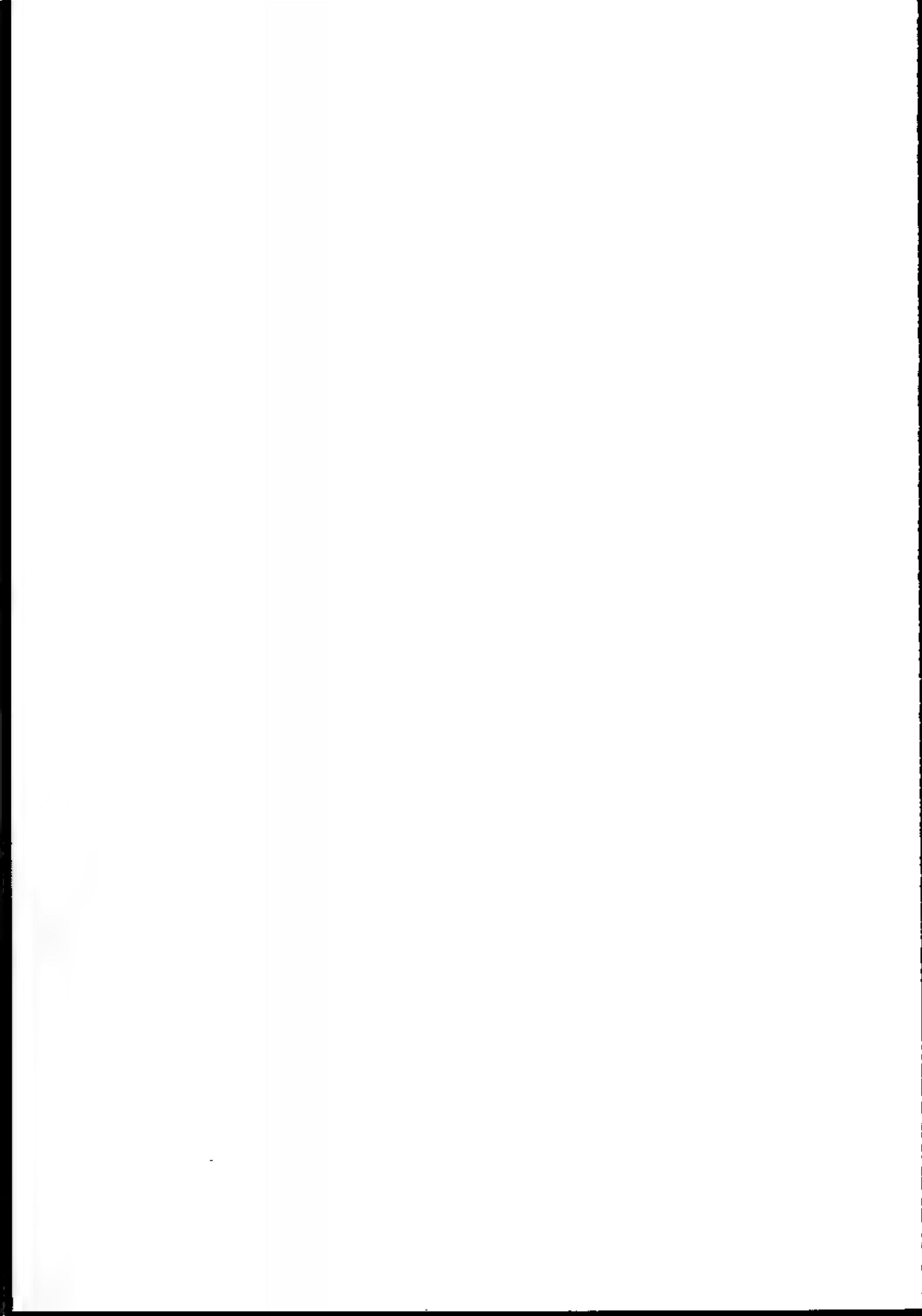
دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـ ص.ب. 113-5787 بيروت ـ لبنان

رقم الإيداع القانوني
١٩٨٣ - ٤٢٧
الرباط

الرقم 85/4/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ـ بيروت



فهرست

تفسير الحزب الواحد والثلاثين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الثاني والثلاثين من المصحف الكريم

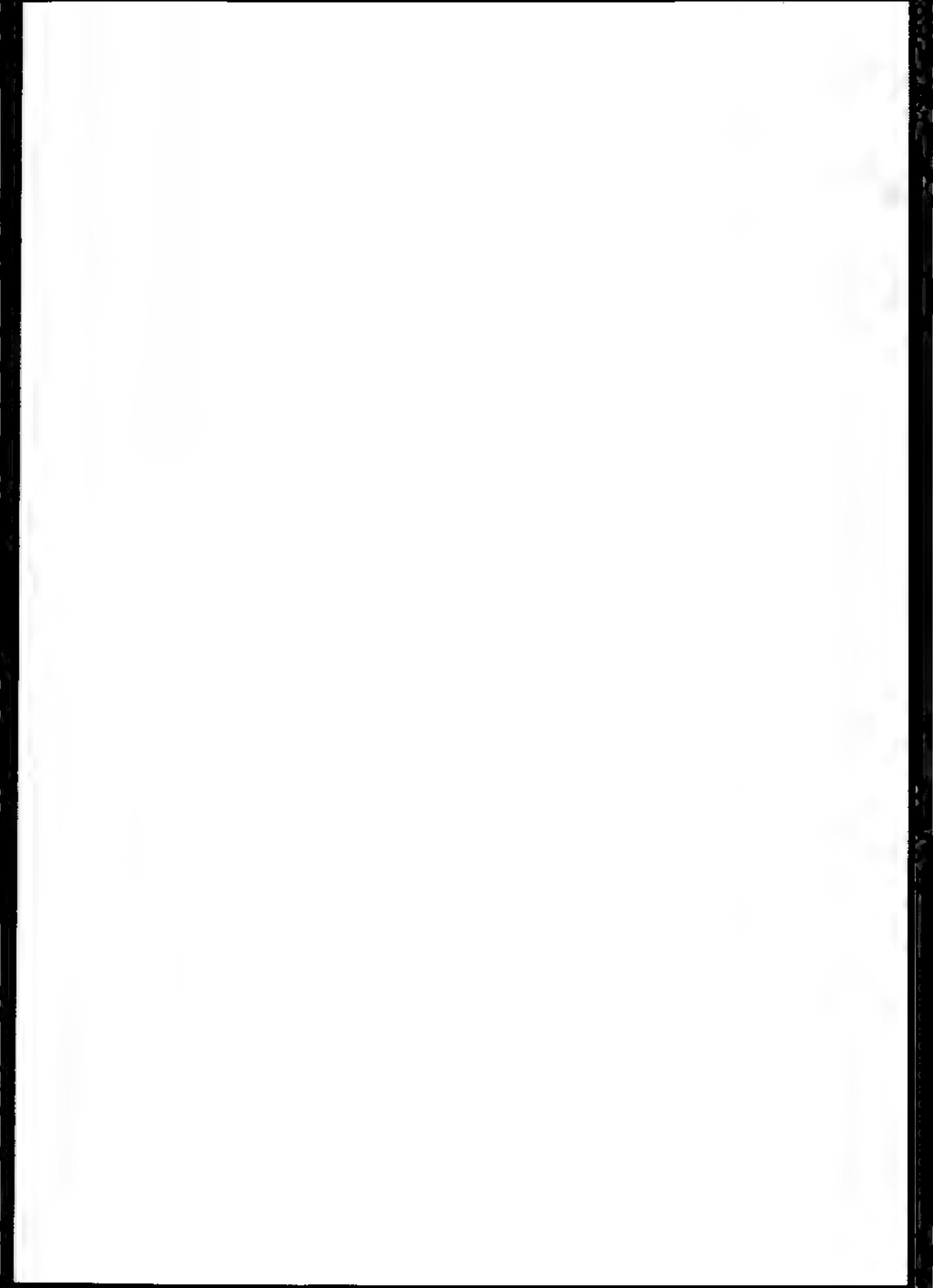
تفسير الحزب الثالث والثلاثين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الرابع والثلاثين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الخامس والثلاثين من المصحف الكريم

تفسير الحزب السادس والثلاثين من المصحف الكريم

رقم الإيداع القانوني
٤٢٧ - ١٩٨٣
الرباط



الفهرس

تفسير الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الخامس والأربعين من المصحف الكريم

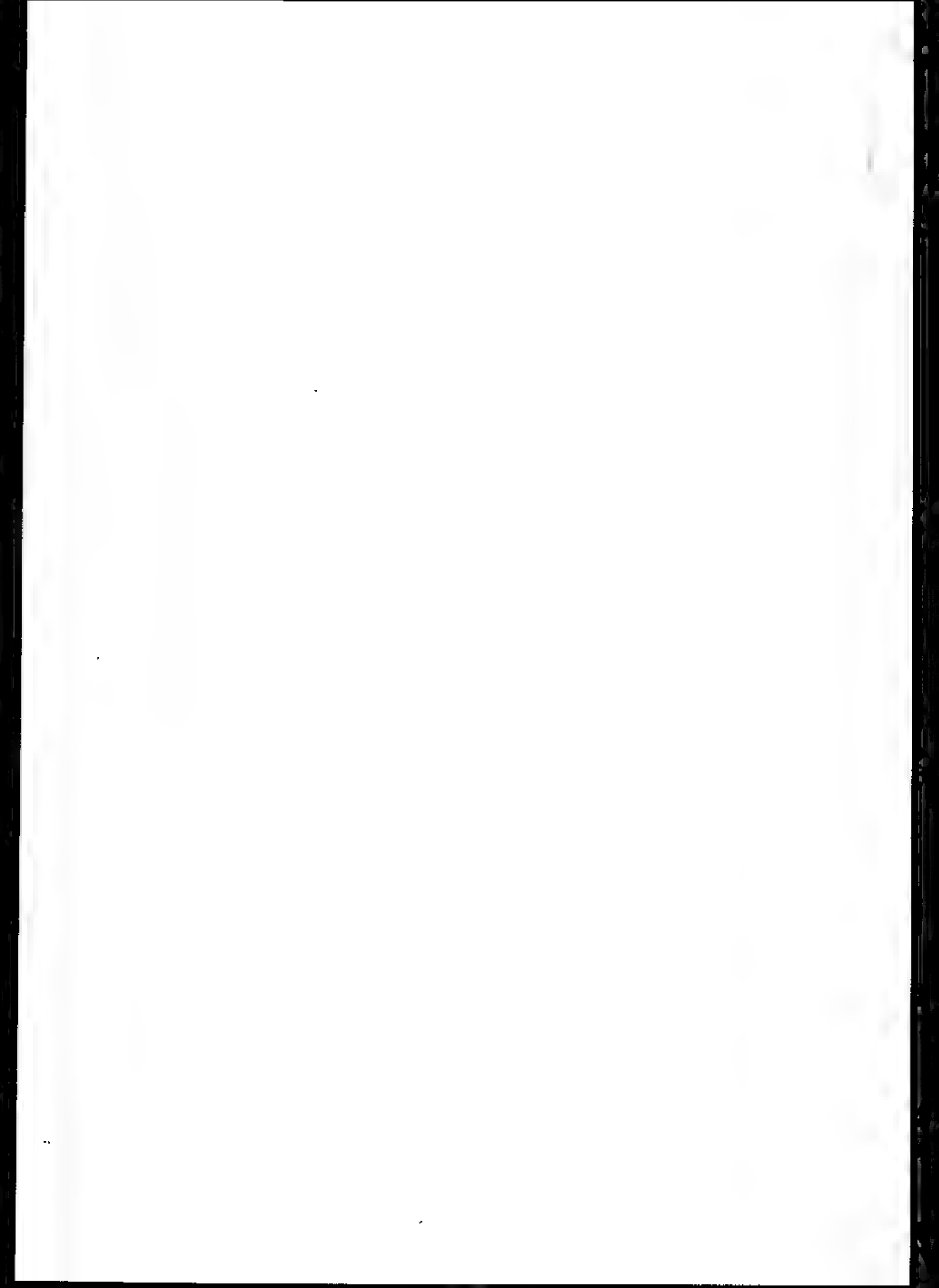
تفسير الحزب السادس والأربعين من المصحف الكريم

تفسير الحزب السابع والأربعين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الثامن والأربعين من المصحف الكريم

تفسير الحزب التاسع والأربعين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الخمسين من المصحف الكريم



الفهـرس

تفسير الحزب الواحد والخمسين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الثاني والخمسين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الثالث والخمسين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الرابع والخمسين من المصحف الكريم

تفسير الحزب الخامس والخمسين من المصحف الكريم



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مقدمة

منذ عهد مبكّر يسّر الله الأسباب للتمرّس بالقرآن الكريم، قراءةً وتجويداً، تلقّياً وتلقيناً، دراسة وتدريساً. ومن حُسْنِ الحظ أن أخذت علم التفسير على شيوخ كبار، بعضهم في المغرب وبعضهم في المشرق، فتعرّفت عن كثب، وأدركت عن بيّنة، عظمة رسالة القرآن، التي هي أكبر نعمة أنعم الله بها على الإنسان، واقتنعت كامل الاقتناع بأنّ مَنْ أهّلته الأقدار لتلقي هذه الرسالة يجب عليه أن يقوم بنشرها على أوسع نطاق، وأن يبذل النفس والنفيس في سبيل تبليغها إلى الناس كافة.

وكان من ذلك ما تطوّعت به في العشرينات والثلاثينات من إلقاء دروس ومحاضرات في تفسير بعض السور وبعض الآيات، بمساجد الرّباط ومساجد تطوان. ثم ما كرّست له قسماً كبيراً من وقتي وجهدي في الأربعينات، من الإقبال على تفسير القرآن الكريم كل يوم بين العشاءين، خلال سنتين متواليتين بالمسجد الأعظم بطنجة، وخلال سنة ثالثة بالمسجد المحمدي والمسجد العتيق بالدّار البيضاء. وكانت هذه الدروس العامة التي احتككت فيها بالشعب المؤمن احتكاكاً يومياً مباشراً فرصة للتأكد من جديد - إن كانت هناك حاجة إلى التأكيد - بما يحدثه كتاب الله من تعبئة روحية، وتأثير عميق، وانقلاب سريع في نفوس المؤمنين والمؤمنات. فكتاب الله هو الذي أحيا من المسلمين الموات،

وأعدّهم للبذل والعطاء وعظيم التضحيات، فانطلقوا كالسيل الجارف، والجيش الزاحف، يدكّون صروح الاستعمار، في مختلف الدّيار.

وبعد استرجاع الاستقلال في أواسط الخمسينات واصلت العمل على نشر رسالة القرآن، فألقيت عدة أحاديث ومحاضرات في موضوعات مختلفة من الدّراسات القرآنية المتنوعة، كان من بين ما عالجته فيها موضوع «المنهج العلمي لتفسير القرآن» وموضوع «كيف يعيش الإنسان طبقاً لتعاليم القرآن» وموضوع «دستور العمل في شريعة القرآن» وموضوع «رسالة القرآن رسالة خالدة» وموضوع «إعجاز القرآن على ضوء العلم الحديث». كما قمت خلال نفس الفترة بتفسير عدة سور مفردة، في مناسبات متعددة، لكن دون التزام بعقد مجالس عامة للتفسير بصورة منتظمة.

وذات يوم من أسعد أيام الستينات تلقيت دعوة ملحّة من الإذاعة الوطنية بالمغرب للقيام بإلقاء أحاديث يومية في تفسير القرآن الكريم، لفائدة المواطنين والمواطنات، وكافة المؤمنين والمؤمنات، وذلك برواية ورش عن نافع، التي هي القراءة المتبعة عند المغاربة منذ عدة قرون، فوجدت هذه الدعوة النبيلة هوى في النفس، وحنيناً في القلب، واستجابة روحية كاملة. لكنني أحسست في نفس الوقت بثقل المسؤولية، وصعوبة التكليف، فقد كانت الدُروس والمحاضرات التي اعتدت إلقاءها من قبل قاصرة على الجمهور الذي يتسع له هذا المسجد أو ذاك، وهذه القاعة أو تلك، وذلك الجمهور مهما يكن عدده كثيراً ووفيراً فإنه لا نسبة بينه وبين الجمهور الجديد والعديد الذي يستمع إلى الإذاعة الوطنية كل يوم، من مختلف الأذواق والمشارب والمستويات، داخل المغرب وخارجه.

وشاء الله تعالى أن يهديني سواء السبيل عندما عثرت على المفتاح، الذي يمكن أن يكون أول خطوة في طريق التوفيق والنجاح، فقد تبين لي

بما لا يدع مجالاً للشك أن المهمة الجلّى والكبرى التي يجب أن تؤديها «أحاديث التفسير» لجمهور المسلمين الكبير ـ بصفتها أحاديث يومية عامة ـ هي وضع أيديهم، كل مطلع فجر، على الكنوز التي أودعها الله في القرآن، وتذكيرهم بالرّسالة «الأصليّة» للقرآن، التي هي رسالة الحياة في كل يوم، رسالة التوجيه الإلّهي والتربية الرّبانيّة، التي يجب أن يتجلّى أثرها الطيب والدائم في حياتهم اليومية، ذلك أن آيات القرآن الكريم ليست قصّة من قصص الماضي السحيق يكتفي بحكايتها والتبرّك بها في فترات الرّاحة والاسترخاء، ولا خبراً من أخبار الغابرين يقتصر على التلهّي بها في مجالس التسلية والسمر. وإنما هي رسالة الحياة المتجددة في كل عصر وجيل، وقصة اليوم والغد والحاضر والمستقبل، وهي مرآة المسلم الصافية التي يجب أن ينظر وجهه فيها كل مطلع شمس، ويعيّر سلوكه بمعيارها، ويكيف حياته بها في كل حين. ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾.

ومن منن الله علينا أن كتاب الله العزيز جعله الله «تبياناً لكل شيء»، فوضّح لنا فيما وضّح، ما هي رسالة القرآن، بأعجز وأوجز بيان؟ فقال تعالى في سورة الأعراف ـ الآية ٢٠٣: ﴿ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ، وَهُدًى، وَرَحْمَةٌ، لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾. وقال تعالى في سورة إبراهيم ـ الآية ٥٢: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ، وَلِيُنذَرُواْ بِهِ، وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾. وقال تعالى في سورة القصص ـ الآية ٤٣: ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى، وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

فَلْتَدُرْ إذن «أحاديث التفسير اليومية» في فَلَك هذه الآيات البيّنات، التي حددت بمنتهى الدقة والوضوح رسالة القرآن «الأصلية» ولْتُقدّم للجمهور المسلم معاني القرآن، خالصة من جميع الشوائب التي تتنافى مع

روح القرآن، وَلْتُبَرِّئ ساحة القرآن من كل ما لا يمت بسبب ولا نسب إلى القرآن، أو السنّة الصحيحة التي هي بيان القرآن، وَلْتَسْتَعِنْ على بسط ما هو مجمل، وتقييد ما هو مطلق، وتخصيص ما هو عام، وتوضيح ما قد يعرض في فهمه إشكال أو غموض، بمقارنة الآيات القرآنية الواردة في كل موضوع موضوع وكل ميدان ميدان، فكتاب الله من بدايته إلى نهايته كتاب واحد يفسر بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً، وهو بمجموعه وبكافة سوره يُكَوّن «وحدة» متلاحمة لا تقبل التناقض ولا تعرف الاختلاف. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. فصلت ـ الآية ٤٢. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ ـ النساء ـ الآية ٨٢.

وتسهيلاً للوصول من أقصر الطرق وأيسرها إلى الغاية المتوخاة من «أحاديث التفسير اليومية» ارتأيت أن أقدّم بين يدي الآيات التي أنا مقبل على تفسيرها، والتي يكون المستمع مقبلاً على سماعها وتدبرها، مدخلاً تمهيدياً لتلك الآيات، ونظرة عامة عليها، حتى يستعد في يسر وأناة وتدرّج لفهمها واستيعابها، ويتبيّن له المحور الذي تدور عليه من أوّلها إلى آخرها.

وفي هذا المدخل التمهيدي أُدرج مسبقاً بطريقة أو بأخرى ـ ما يصلح أن يكون شرحاً لبعض المفردات المستعملة في تلك الآيات، إعانة له على فهمها، مما لا يجده اليوم مستعملاً بكثرة، أو لا يجده مستعملاً بالمرّة، حتى إذا ما واجه آيات الحصّة واجهها بمنتهى الوعي وكامل الإدراك، وحصل منها على الفائدة المرجوّة.

وعندما يضيق الوقت المخصص في الإذاعة لحصّة التفسير عن استيعاب القول في جميع الآيات الداخلة في نطاق الحصّة أكون مضطراً إلى التركيز على قسم من تلك الآيات، وأؤجل القول في بعضها الباقي

إلى أن يأتي ما يماثلها في حصة أخرى من نفس السورة، أو ما يماثلها في غيرها من السور. حتى إذا ما حلّت المناسبة المرتقبة جمعت الآيات المتعلقة بنفس الموضوع في صعيد واحد، وتناولت السابق منها واللاحق بالتفسير الكافي والشرح الوافي، بقدر الاستطاعة، وبذلك تكون أحاديث التفسير قد تناولت في مجموعها الجميع.

وحتى لا يتشعب القول في هذه الأحاديث، ولا تخرج عن الغرض الذي من أجله وقع التفكير في إملائها لم أجعل منها معرضاً للمصطلحات العلمية، ولا مرجعاً للخلافات المذهبية، ولا معتركاً للجدل والفضول وكثرة القيل والقال، والتوسع الزائد عن الحاجة المؤدي إلى الإملال، ولم أشحنها بذكر «القواعد العلمية» التي تضبط كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية، ولم أشرْ إليها إلا لماماً وعند الضرورة، إذ الغاية الأولى والأخيرة من هذه الأحاديث هي المساهمة العملية واليومية في التثقيف الشعبي والدّيني الذي هو حق كل مسلم ومسلمة، وإعداد برنامج إذاعي خاص، للتعريف كل يوم برسالة القرآن الجامعة، وهدايته النافعة «ولكل مقام مقال».

على أنّ ما نقدّمه ضمن هذه الأحاديث من البيانات والإيضاحات والفهوم، كله مبني وقائم على أساس نفس «القواعد العلمية» التي حرّرتها وضبطتها تلك العلوم، إذ بدونها وبتجاهلها لا يمكن لأحد منا أن يضرب في علم التفسير بسهم، ولا أن يفهم كتاب الله فهماً صحيحاً، لا لغوياً ولا شرعياً.

أما الأسلوب الذي اخترته لإملاء هذه الأحاديث فهو أسلوب مبسّط وَسَط يفهمه الأمّي ويرتاح إليه المتعلم، بحيث لا ينزل، حتى يُبْتَذل عند الخاصة، ولا يعلو، حتى يصعب على العامة، بل هو بين بين، يتجافى عن استعمال الوحشي والدخيل والغريب، ويتفادى كل ما

فيه تعقيد أو غموض، من بعيد أو قريب، ويتحدث إلى أهل العصر بلغة العصر، ويضع نفسه في جو المشاكل التي يتخبط فيها هذا العصر، وفي نفس المستوى الثقافي للعصر. وهذا النوع المتميز بالسهولة واليسر من أساليب البيان، يتجاوب كل التجاوب مع توجيهات القرآن، فقد قال تعالى في سورة القمر المكية ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ من مُّدَّكِرٍ ﴾ وأعاد كتاب الله هذه الآية بنفس النص في نفس السياق أربع مرات، فكانت هي الآية السابعة عشرة، والثانية والعشرين، والثانية والثلاثين، والآية الأربعين، كل ذلك ليؤكد معناها، ويلفت النظر إلى مغزاها.

وبديهيّ أن «تيسير القرآن» الذي يؤدي إلى التذكُّر والتدبُّر لا يقف عند حد تيسير تلاوته وحفظه، وإنما يشمل ويضع في الدّرجة الأولى تيسير فهمه وعلمه والعمل به، مصداقاً لقوله تعالى في نفس الآية: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ ﴾ وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ، لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. وما دام الأسلوب الذي وقع عليه الاختيار لتحقيق هذا الغرض النبيل مستمداً ومستوحىً من نص التنزيل القائل ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ ﴾ ففي إمكان قراء هذه الأحاديث أن يطلقوا عليها اسم (التيسير في أحاديث التفسير)، أو يطلقوا عليها بناءً على ما بَسَطناه من مختلف الاعتبارات اسم (النهج القَويم في تفسير الذكر الحكيم ﴾.

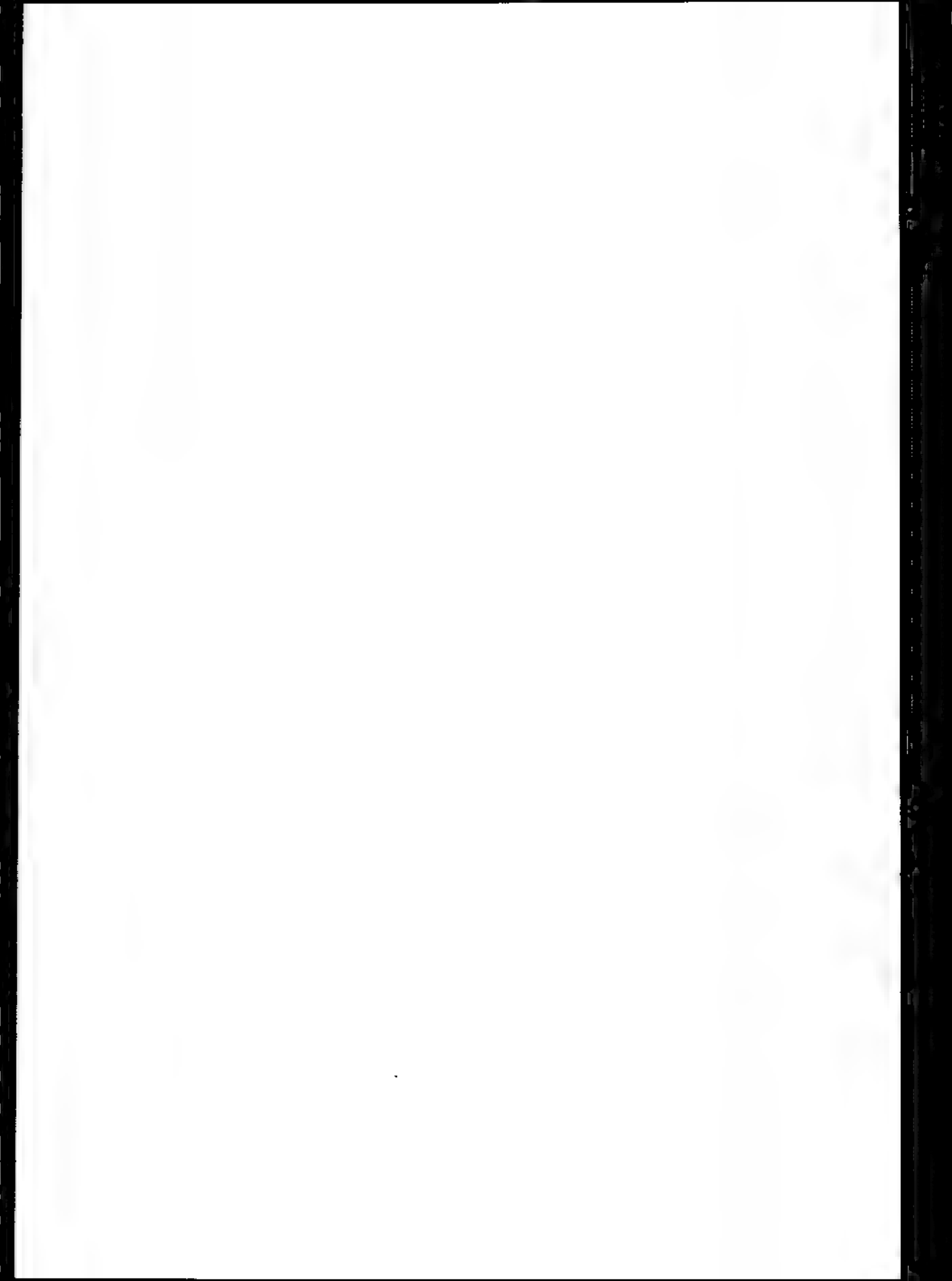
هذه كلمات مختصرة وضعتها بين أيدي هذه الأحاديث، قصد تعريف القرّاء الأعزّاء بالظروف التي أوحت بها، والغاية المتوخاة منها، والطريقة المتبعة في إملائها، حتى يكونوا على بيِّنة من أمرها، وعسى أن تكون هذه الأحاديث فاتحة عهد جديد، بصفتها أول تفسير إذاعي للمصحف الكريم عرفته الإذاعات العربية والإسلامية، في ميدان التوعية الدينية.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل عملاً مقبولاً، وأن يجعله لِعَفوه ورضاه سَنَداً موصولاً، وأن ينفعني وينفع بـه جمهرة المستمعـين والقرّاء، إنه سميع الدعاء.

أما حَمَلة «علم القرآن» في مختلف البلدان فإنني أرجو منهم قبول المعذرة عما قد يكون في هذا العمل من خللٍ أو نقصان، وعما قد أكون تعرضت له من خطأ أو نسيان، أو سبق لسان، وشفيعي لدى الجميع حسن النّية وسلامة القصد، والحرص على الوفاء بما لله ورسوله في ذمة «أهل الذكر» من الميثاق والعهد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ صدق الله العظيم.

رباط الفتح — محمد المكي الناصري





بسم الله الرحمن الرحيم

عبـــاد الله

القرآن الكريم هو الذِّكْرُ الحكيم الذي أنزله الله هداية خالدة لبني الإنسان، ونوراً ساطعاً لأهل الإيمان، وقد تعهّد الحق سبحانه وتعالى بحفظه من كل تحريف أو تبديل، كما قال في محكم التنزيل: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ - إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ فكان بفضل التحصين الإلهي الدائم هو الكتاب المقدّس الوحيد الذي يمثّل الوحي السماوي أصدق تمثيل.

ومما اقتضتهُ الحكمة الربَّانية أن يكون هذا الكتاب المنزّل مقسماً على ١١٤ سورة تحتوي في مجموعها على ٦٠٦١٦ من الآيات البيّنات، واقتضت أن يكون نزول آياته مُنجَّماً حسب الوقائع والأحداث، تسهيلاً لحفظه، وتيسيراً لتدبره، وعَوناً على الانتفاع به علماً وعملاً ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

وسيراً في نفس الاتجاه، وخدمة لنفس الغاية، ارتأى علماء القرآن أن يجزّئوا تلاوة المصحف الكريم وحفظه إلى عدة أجزاء، وأن يقسّموا الجزء الواحد إلى عدة أحزاب، كما يقسّمون الحزب الواحد إلى الأثمان والأرباع والأنصاف.

وجرياً على هذه الخطة المحكمة النافعة، سيستمع المومنون والمومنات في مثل هذه الحصة من كل يوم إلى تلاوة ربع حزب من المصحف الكريم، وسيتبع هذه التلاوة حديث توجيهي خاص يلفت انتباه المستمعين والمستمعات، إلى ما شنفوا به أسماعهم من الآيات البينات، تيسيراً لفهم القسم المتلو من كتاب الله، والمزيد من تدبره والتفقه فيه، امتثالاً لقوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ـ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ ﴾.

الرّبع الأول من الحزب الأول
في المصحف الكريم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ

بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ
اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ
فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ
الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ
الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾



الرّبع الأول من الحزب الأول
في المصحف الكريم

واليوم نتحدث في مدخل هذه الحصة بكلمة عامة عن سورة الفاتحة وسورة البقرة، ثم نتبع الكلمة العامة بإلقاء نظرة خاصة على الموضوع الرئيسي الذي عالجته الآيات البيّنات الواردة في هذا الربع الأول، من أول حزب في المصحف الكريم.

أما (سورة الفاتحة) فقد أُطلق عليها هذا الاسم لاعتبارات متعددة، أولاً أنها أول سورة تفتتح بها كتابة المصحف الكريم، ثانياً أنها أول سورة تفتتح بها قراءة القرآن العظيم، ثالثاً أنها أول ما يتلوه المصلِّي في صلاته فرضاً كانت أم نفلاً، وهو يرددها كل يوم وليلة سبع عشرة مرّة في صلواته المفروضة.

ثم إنها بالنسبة لكتاب الله كبراعة الاستهلال بالنسبة لغيره، إذ إن كل كلمة من كلماتها، وكل آية من آياتها، تشير من قريب أو بعيد، إلى جملة محتويات القرآن الكريم، ومقاصده المتعددة، وموضوعاته المتنوعة، بما فيها من عقائد وعبادات، وشرائع وأخلاق، وما يتصل بحياة الإنسان في مبدئه ومعاده، في دنياه وآخرته على السواء، ولهذه المعاني ـ والله أعلم ـ أطلق عليها أيضاً في الحديث النبوي الشريف (أم القرآن)، و(أم الكتاب)، كما جاء في حديث

خرّجه الترمذي في سننه، ووصفه بأنه حديث حسن صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أمّ القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني».

ففي قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إشارة إلى ما للخالق من حقوق على خلقه، خصوصاً حق العبادة والطاعة، وحق الشكر والثناء، وحق الحساب والجزاء.

وفي قوله تعالى: ﴿ وإِيَّاكَ نَستعينُ اهْدِنَا ﴾ إشارة إلى ما للمخلوقين من حاجة دائمة إلى إمداد خالقهم، تقتضيهم باستمرار طلب الهداية وطلب المعونة من رب العالمين، الرحمان الرحيم.

وفي قوله تعالى: ﴿ الصِّراطَ المُستَقِيمَ ﴾ إشارة إلى التوجيه السماوي الذي أكرم الله به المؤمنين، والقانون الإلهي الذي شرّعه لخيرهم ونفعهم، ضبطاً للصلة القائمة بين المخلوق والخالق، وتنظيماً للعلاقة القائمة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وفي قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى سلسلة النور، التي برزت أول حلقة من حلقاتها منذ أقدم العصور، من النبيئين والصدّيقين والشهداء والصالحين، الذين تعاقبوا على عرش الخلافة الإلهية في هذه الأرض، فعاشوا على هدىً من ربّهم، مؤدين الرسالة، مبلغين الأمانة، وكان لقاؤهم مع الله لقاء من سبقت له الحسنى ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ إشارة إلى الفآت المنحرفة من بني الإنسان، التي لم تستجب لنداء الرحمان،

والتي قابلت الهداية الإلهية بالتَّمَرُّد والعصيان، والجحود والكفران ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَـٰنِ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَـٰنِ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفُها لعبدي ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله: أثنى عليّ عبدي. فإذا قال: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله: مجدني عبدي. وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَٰطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وأما (سورة البقرة) فقد أطلق عليها هذا اللقب، أخذاً من المعجزة التي أيّد الله بها نبيّه موسى الكليم عندما قتل إسرائيلي أحد أقربائه رَغبة في إرث ماله، ولم يعرف من هو القاتل، بالرغم من جميع الوسائل، فأوحى الله إلى موسى أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقرة وضرب القتيل بعضو منها، فتعود إليه الحياة بأمر الله، ويكشف بهذه الطريقة عن هوية القاتل، ويكون ذلك معجزة لموسى الكليم تضافُ إلى معجزة العصا التي اشتهرت باسم (عصا موسى)، وإلى هذه القصة تشير الآيات الواردة في هذه السورة حيث تقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً، قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴾ ـ إلى قوله تعالى:

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ، وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وسورة البقرة هذه واحدة من تسع عشرة سورة كلها نزلت على رسول الله بالمدينة، علاوة على ٩٥ سورة أخرى سبق نزولها عليه بمكة قبل الهجرة.

وتعتبر سورة البقرة أطول سورة من سور القرآن، وأول سورة نزلت بالمدينة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إليها.

ونظراً لتنوع ما احتوت عليه هذه السورة من حِكَم وأحكام، وكونها تحتوي على أكبر جزء من الدستور التشريعي للإسلام، فقد قضى عمر بن الخطاب اثنتي عشرة سنة في تعلمها والتفقه فيها، ولما ختمها نَحر جزوراً احتفالاً بختمه لها، بينما ابْنُه عبدالله بن عمر صرف في تعلمها مدة ثمان سنين كما في موطأ الإمام مالك.

ونقل القاضي أبو بكر المشهور (بابْنِ العربي) المعافري عن بعض أشياخه أنه قال: «في سورة البقرة ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر».

وفي فضل هذه السورة روى الإمام مسلم عن أبي أُمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَة».

ورغماً عن تعدّد الموضوعات التي تشتمل عليها هذه السورة الكريمة، فإن هناك محوراً يضمها، ويربط بينها جميعاً، ذلك هو الحديث عن الجماعة الإسلامية الناشئة التي أخذت تنمو وتقوى

بالمدينة، وعن الجماعات الأخرى المناهضة لـلإسلام التي واجهت المسلمين بالسوء، وعلى رأسها الجالية الإسرائيليـة التي كانت قـد هاجرت إلى تلك البقاع منذ أمد بعيد، فهذه السورة تشرح كيف استقبل بنو إسرائيل الدعوة الإسـلامية، وكيف كـان موقفهم من الرسول وأتباعه المهاجرين والأنصار، ويمتد الحديث في نفس الموضوع حتى يشمل الأطوار التي مرَّ بها بنو إسرائيل عبر التاريخ، من سعادة إلى شقاء، ومن قوة إلى ضعف، ومن نصر إلى هزيمة، ومن اختيار لحمل الأمانة، إلى تجريد منها ودمغ بالخيانة، ﴿ وَضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِئَايَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَـانُوا يَعْتَدُونَ ﴾.

كما يتناول الحديث فيها توضيح المنهج الذي اختاره الله لسلوك المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم، وتحديد النظام الإسلامي الذي شرعه لتنظيم حياتهم الخاصة، وحياتهم العامة، فيما بينهم بعضهم مع بعض، وفيما بينهم وبين المِلَلِ الأخرى، وتتحدث سورة البقرة عن الأمانة الكبرى التي ادخرها الله للمسلمين، واختارهم لحملها إلى كافة الأمم، بعدما نكل عنها أولئك الذين نقضـوا عهد الله وميثاقه من أهل الكتاب، وتُحذِّر السورة المسلمين من عثرات بني إسرائيل وانتكاساتهم المتوالية، وتُبصِّرهم بما نالهم من سوء العاقبة، جزاءاً وفاقاً لعنادهم وتمرّدهم على الله ورسله ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾.

وهكذا جعل القرآن الكريم من بني إسرائيل مضرب المثل للمسلمين في حالتي السعادة والشقاء، والهدى والضلال، والرضى

والغضب، حتى يعتبروا بما وقع لهم، ويحذروا من أن يسلكوا سبيلهم.

والآن نلقي نظرة سريعة بالخصوص على الآيات الأولى من سورة البقرة:

لقد وصف القرآن الكريم في هذه الآيات ثلاث طوائف عايش بعضها بعضاً في بدء الهجرة المحمدية إلى المدينة، وهذه الأصناف من البشر وُجِدَتْ في كل جيل مضى وتوجد في كل جيل لاحق، فوصف القرآن الكريم لها وصف كاشف لها في جميع الأجيال والعصور.

تلك الطوائف الثلاث هي طائفة (المؤمنين) الذين أكرمهم الله بالإيمان، فساروا على هدى الأنبياء والرسل، وطبقوا التعاليم الإلهية على حياتهم الخاصة وحياتهم العامة.

ثم طائفة (الكافرين) الذين تمرّدوا على طاعة الله وتنكّروا لهدايته، وأشهروا الحرب، بالقول والفعل، على دعوته.

وأخيراً طائفة (المنافقين) الذين هم أخطر على المؤمنين من الكافرين، والذين يلعبون أدواراً شيطانية ملتوية تخفى على الكثير من الناس، ولشدة خطر هذه الطائفة جعل الله عقابها أشد عقاب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾.

فهذه الطوائف الثلاث التي عايشت كل الرسالات وعاصرت جميع الدعوات، ألقى عليها التنزيل الحكيم من أضوائه القوية ما كشف عنها القناع، فوضح سمات المؤمنين التي لا لبس فيها ولا

غموض في أربع آيات: ﴿ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُومِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وِمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، والَّذِينَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبِلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِّنْ رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

ووضح سمات الكافرين المعلنين بالكفر في آيتين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمُ ءَآنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرهُمْ لا يُومِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ، وَعَلَىٰ أَبْصـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ، ولَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ثم تطرق كتاب الله لوصف الطائفة الثالثة طائفة المنافقين، فأطال الحديث عنها، وخصص للكشف عن نفاقها ثلاث عشرة آية كاملة، ابتداء من قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُومِنِينَ، يُخَـٰدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءامَنُواْ، وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾، إلى قوله تعـالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَـٰرِهِمُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وإنما طال الحديث عن طائفة المنافقـين بما لم يـطل به عن الطائفتين الأخرَيَيْن، لأن طائفة المنافقين ذات ألوان مختلفة، وأقنعة متعددة، والكشف عن جوهرها المعقد، وعن شخصيتها المزدوجة، وعن تناقض مظهرها مع مَخْبَرها، يحتاج إلى مزيد من الأضـواء، وتنويع في الصور، وتكثير من الأمثال، وذلك حتى يكون المومنون على كامل البيِّنة ومنتهى الحذر من دسائس المنـافقين ومؤامـراتهم وأخطارهم، ويعرفوهم بسيماهم معرفة كاشفة.

ومن معجزات القرآن الكريم أن الأوصاف التي وصف بها هذه الطوائف الثلاث (المومنين، والكافرين، والمنافقين) كانت ولا تزال هي السمات البارزة والثابتة في كل طائفة منهم، تحقيقاً لمدلول هذه الآيات البيِّنات، التي أوحى بها خالق النفوس العليم الخبير بخلجات القلوب.

صدق الله العظيم وبلغ رسوله المصطفى الكريم.



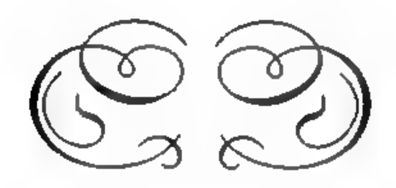
الرّبع الثاني من الحزب الأول في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ

فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ
وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ
وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ
فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾



الرّبع الثاني من الحزب الأول في المصحف الكريم

عبـــاد الله.

حصة التلاوة في هذا اليوم تشمل الرّبع الثاني من أول حزب في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مثَلاً ﴾ ونهاية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلا تَشْتَرُوا بِئَايَـٰتِي ثَمَناً قَلِيلاً، وإِيَّـٰيَ فَاتَّقُونِ ﴾.

الإشارة في مطلع هذه الآيات إلى الأمثال التي يضربها الله للناس في كتابه الحكيم، مثل قوله تعالى في وصف المنافقين في الربع الأول لهذا الحزب: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ وذلـك زيادة في كشف المعنى، وتوضيح المراد، وإقامة الحجة ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقد كانت الأمثال ولا تزال في جميع اللغات وعند جميع الأمم لها من التأثير في الإقناع ما جعل استعمالها شائعاً ذائعاً، ولا سيما عند العرَب، فنزل القرآن بلسان عربي مبين، وجرى على مألوف استعمالهم في ضرب الأمثال، غير أن الأمثال القرآنية تختلف عن الأمثال الأخرى التي عرفها العرب والعجم، بروْعتها وإعجازها، وكونها على غير نمط

سابق، ومن هنا كان وقعها مختلفاً باختلاف من يسمعها، فالمومن الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان يدرك مغزاها، ويزداد بواسطتها بصيرة ونوراً، والكافر الذي أطبقت عليه ظلمة الكفر يقابلها بالتجاهل والتساؤل، والتساؤل الذي لا يقصد من ورائه الرغبة في المعرفة، وإنما تساؤل المنكر الممعن في الإنكار والاستهزاء، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً﴾.

ورغماً عن أن «البعوضة» في الظاهر عند الناس تُعتبر كائناً حقيراً تافهاً قد يستغرب ضرب المثل بمثله، فإن الآية أشارت إلى أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً به، ما دام الغرض من ضرب الأمثال هو مزيد الكشف والإيضاح للسامعين، ولذلك ضرب الله المثل بالنمل والعنكبوت في آيات أخرى.

على أن العصور التالية منذ نزول القرآن حتى الآن، قد أثبتت ما لهذا الكائن الحقير الصغير (البعوضة) من خطورة وقوة وتأثير في الفتك والتخريب والتدمير، فقد أثبتت الدراسات الطبية أن فعل هذا الكائن بالإنسان، يفوق فعل الطاعون والطوفان، ولذلك جنَّدت الدول لحَربه ومقاومته كل ما في الإمكان، واتَّضح الآن لذوي الفكر المستنير حكمة ذكره في القرآن.

ثم لا بد أن نقف وقفة ولو قصيرة عند قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَـٰسِقِينَ﴾.

ذلك أن كثيراً من الناس عندما تسبق إلى نفوسهم فكرة من الأفكار يتعصبون لها، ويجمدون عليها، ويعتقدونها اعتقاداً أعمى، فإذا

أُلقِيَ إليهم بفكرة جديدة قالوا (قلوبنا غُلْف). كما أن كثيراً من الناس عندما يتورّطون في نوع مرذول من أنواع السلوك، ويألفون جوّه العفن، يصبحون أكثر الناس حذراً ومخافة من كل فكرة صالحة تلقي الأضواء على ما هم عليه من انحراف وشذوذ، باعتبار أن الفكرة الجديدة قد تكشف معايبهم، وتفضح أسرارهم، وتخرجهم عن مألوفاتهم التي أصبحوا أسراء لها، وتجعلهم حقراء مرذولين أمام أنفسهم أولاً، وأمام الناس أخيراً، وهكذا لا يكتفي الفاسقون بإقفال أسماعهم عن سماع أية فكرة صالحة، بل يتصدون لها بالمقاومة والمحاربة سراً وعلناً، وبذلك يزدادون فسقاً على فسق، وانحرافاً فوق انحراف، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَـٰسِقِينَ ﴾ فقد أثبتت لهم هذه الآية صفة الفسوق أولاً وسابقاً، وبتأثير هذه الصفة الملازمة لهم والمسيطرة عليهم زادوا عتواً وضلالاً، إذ الجريمة تدفع إلى أختها، والسيئة تعين على مثلها، على حد قوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ وذلك بعكس (المتّقين) الذين لازمتهم صفة التقوى، فانفعالهم من تلقاء أنفسهم يكون مزيداً من الهداية، ومزيداً من الرشد.

ومن هنا انتقلت الآيات الكريمة إلى تحليل أوصاف (الفاسقين) بعدما حلّلت آيات أخرى سابقة في مطلع هذه السورة أوصاف المتقين ﴿ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُومِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

وتتلخص أوصاف (الفاسقين) كما حدّدتها الآيات في ثلاثة أشياء: (١) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، (٢) ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، (٣) ويفسدون في الأرض.

أما نقض الفاسقين لعهد الله فيتجلّ في جحودهم له بعدما اعترفوا بألوهيته وربوبيته، وشهدوا بذلك على أنفسهم وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾.

ويتجلّ نقضهم لعهد الله في عصيانهم لرسله بعدما التزموا بطاعتهم، وفي كفرهم بكتبه وهجرهم لها بعد ما تعهدوا باتباعها ﴿ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ومن كان له من الجرأة ما ينقض به عهد الله ويتحدّى إرادته كان حَرِيّاً بأن لا يكون له عهد، بل أن ينقض عهوده مع الناس جميعاً.

وأما قطع الفاسقين لما أمر الله به أن يوصل فيتجلّ في قطعهم صلة الأرحام المشتركة، وفي قطعهم صلة العقائد المشتركة، وفي قطعهم صلة الروابط المشتركة، فهم أنانيون مغرقون في الأنانية لا يعرفون الرحمة ولا الإحسان، ولا يهمهم من العيش إلاّ أنفسهم، وشعارهم المميز: «أنا وبعدي الطوفان» ومن بلغت به الأنانية إلى هذا الحد لا يرجى منه خير، ولا ينتظر منه نفع، لا للقريب ولا للبعيد.

وأما فساد الفاسقين وإفسادهم في الأرض، فيتجلّ في سعيهم إلى تحطيم جميع المقدسات، وفي استهانتهم الظاهرة والباطنة بجميع القيم، وفي اعتداثهم المتوالي على حقوق الأفراد والجماعات، وفي إجبارهم للغير على الرضى بالفساد والعيش في ظله، ويتجلّ بالأخص في محاربتهم لأوامر الله وانتهاكهم لحرماته، والعمل بالخصوص على اقصاء تعاليمه وطردها من جميع مجالات العيش ومواكب الحياة.

وهذه الصفات الثلاث التي وصف الله بها «الفاسقين» من خيانة للعهد، وقسوة في القلب، وإفساد في الأرض، كانت ولا تزال هي شعار «الفاسقين» لا تتخلف واحدة منها عن الأخرى في أي عصر ولا في أي جيل.

وفي الآيات التالية من هذه الحصة عرض رائع لقصة آدم وترشيحه للخلافة عن الله في هذه الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾.

وفي هذه القصة إشارة أولى إلى بيان فضل آدم على الملائكة، وأن هذا الفضل يتجلّى في امتنان الله عليه بعلم ما لا يعلمونه، ومعرفة ما لا يعرفونه، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ - ﴿ قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وفيها إشارة ثانية إلى الفرق الجوهري القائم بين المَلَك والإنسان، فالملائكة ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ والإنسان خلقه الله حرّاً مختاراً بحيث يطيع ويعصي، ويمتثل ويتمرّد ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ - ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا ﴾ ولكن رحمة الله تنتظره في كل وقت بالتوبة المقبولة، والمغفرة المهداة، لقاء تحقيقه لمراد الله، وتنفيذه لأمره على سطح هذه الأرض، والقيام بعمارتها واصلاحها وعبادة الله فيها ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

وفي هذه القصة إشارة ثالثة إلى أن عصيان الإنسان لربه ليس نابعاً من ذاته، وإنما هو بتأثير عامل خارجي عنه، قد يستبد به ويهيمن عليه، ألا وهو (الشيطان) الذي يوحي إليه بالعصيان

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطـٰن عَنْهَا ﴾ ولو لم يكن هناك شيطان، ولا إيحاء منه بالعصيان، لاختار الإنسان طريق الخير الذي هو مجبول عليه ومندفع إليه دائماً.

وفيها إشارة رابعة إلى أن عداوة الشيطان للإنسان عداوة دائمة ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾. وفي هذه الإشارة تنبيه قويّ للإنسان، حتى يكون دائماً على حذر من الشيطان، فلا يثق بتغريره وإغرائه، ولا يمكنه من الأخذ بتلابيبه.

وأخيراً فيها إشارة خامسة إلى العهد الإلٰهي المتبادل بين الإنسان وربه، ألا وهو عهد إرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية الإنسان، رَحْمةً به وأخذاً بيده، وعهد اتباع الرسل وتطبيق الشرائع في حياة الإنسان طاعة وامتثالاً ﴿ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

فاتباع الهدى الإلٰهي هو الحصن الحصين للإنسان، من الوقوع في شبكة الشيطان، وهو الطريق الوحيد للحصول على السعادة والفلاح، بدلاً من الشقاء والخسران ﴿ فَمَن يَّعْمَلْ مِنَ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُ كَـٰتِبُونَ ﴾.

الرّبع الثالث من الحزب الأول
في المصحف الكريم

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ

عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ
فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ
الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم
مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرْ
لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

الرّبع الثالث من الحزب الأول
في المصحف الكريم

عبــاد الله.

في حصة هذا اليوم، نتناول الربع الثالث من الحزب الأول في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

والحديث في هذا الربع متجه إلى بني إسرائيل المقيمين بالمدينة وما حولها، فقد كانت جالية كبيرة منهم تعايش الرسول وأصحابه المهاجرين والأنصار خلال الفترة التي تلت الهجرة النبوية، وكان لها نشاط هدّام يتطلب من الإسلام يقظةً وحذراً بالِغَيْن، وعن طريق هؤلاء يتجه الحديث في الحقيقة إلى جميع بني إسرائيل في العالم، وإلى الكتابيين جميعاً.

فبعدما استغربت الآيات الكريمة موقفهم من الإسلام والقرآن، وأشارت إلى أن اعتراف الدعوة الإسلامية برسالة موسى الكليم كان يقتضي مبادرتهم إلى تصديق هذه الدعوة والدخول تحت لوائها، وأن المعقول والمنتظر منهم هو أن يكونوا أسبق الكتابيين إلى الإيمان بالقرآن، لا أوّل الكافرين به كما ارتضوا ذلك لأنفسهم،

فتحمّلوا وزرهم وأوزار جميع الكافرين الذين أتوا من بعدهم وقلّدوهم، كما قال تعالى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ توالت الآيات البيّنات في كشف القناع، وإلقاء الأضواء، على المساوىء التي اتصف بها بنو إسرائيل ومَنْ سلك طريقهم، فمن كتمان للحق وطمس لمعالمه، إلى تزييف للحق وتلبيس له بالباطل، إلى تبديل لكلمات الله وتحريف لمعانيها، إلى نفاق في السلوك وازدواج في الشخصية، ينشأ عنه تناقض صارخ بين الظاهر والباطن، واختلاف كبير بين الأقوال والأعمال، ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾، ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾.

ثم أخذت الآيات الكريمة في تذكير بني إسرائيل بالأطوار الغامضة المضطربة التي مرّوا بها، وفي تعريف غيرهم بتلك الأطوار، حتى يحسبوا لها ألف حساب في الموعظة والاعتبار.

فمن إشارة إلى المعاملة القاسية والمحنة الكبرى التي لاقوها على يد فرعون وقومه، وما نالهم بعدها على يد موسى الكليم من نجاة وحرية.

ومن إشارة إلى ما أكرم الله به موسى من تكليم ووحي، وما آتى قومه من نعم وارفة الظلال، حيث ظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأباح لهم أكل الطيّبات من الرزق، وقَبِل منهم التوبة بعد ارتكاب أكبر الذنوب والموبقات.

ومن تعريض بما ارتكبوه من انحراف عن الحق وانتكاس عن الهدى، حيث عبدوا العجل عندما غاب عنهم موسى، ثم طالبوه برؤية الله عياناً مُتحدِّين له عندما عاد إليهم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

وواضح أن ما تذمه هذه الآيات وتنعاه على بني إسرائيل، من كتمان للحق، وتلبيس له بالباطل، ونفاق في السلوك، وجرأة على الله، وعناد لرسله، وتجاهل لنعم الله المتوالية وكفران بها - رغماً عن أهميتها الكبرى - وإن كان الخطاب به متجهاً في الأصل إلى بني إسرائيل - ليس قاصراً عليهم وحدهم دون بقية الناس، بل إن ما فيه من الذم والنَّعي كما ينطبق عليهم بالأصالة، ينطبق بالتبع على جميع من سلك مسلكهم واقتدى بهم في خصالهم المستقبحة وسلوكهم المنحرف، وبذلك تعتبر هذه الآيات تنبيهاً دائماً للمسلمين، وتحذيراً لهم، وإنذاراً صريحاً للمنحرفين منهم عن سواء السبيل، بسوء العاقبة وقبح المصير.

ومما يناسب الوقوف عنده وقفة خاصة من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

ذلك أن الخطاب الإلهي في هذه الآيات يُعتبر توجيهاً عاماً لا خاصاً، فقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ فيه لفت نظر

المومن العاقل إلى ما بين الصبر والصلاة من تلازم في الغاية، وإلى ما بين الصبر والصلاة من تكامل في الطبيعة، بحيث يعتبر مجموعهما وكل منهما عوناً إلهياً على مجابهة متاعب الحياة، ومدداً ربانياً للتغلب على مشاكلها اليومية.

فبالصلاة يقوى الرجاء في الله، ويرتكز الإيمان بالقدر خيره وشره على أقوى أساس، وعن طريق الصلاة يستمد المومن الهداية والإعانة من ربه دون انقطاع.

وبالصبر يواجه المومن مسؤولياته الملقاة على عاتقه، بحكم أمانة الاستخلاف عن الله، مطمئن القلب، منشرح الصدر، معتصماً بالله، معتمداً عليه، وقد تكرر هذا المعنى في نفس سورة البقرة بخطاب إلهي موجه إلى المومنين بالذات، إذ قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ - ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ دعوة من الله إلى عباده المومنين للإقبال على مائدته، والتناول من بساط رزقه الممدود غير المحدود، لكن مع الاقتصار على (الطيِّبات) التي أحلَّها، والاكتفاء بها دون (الخبائث) التي حرَّمها ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰٓئِثَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وعد إلهي للمحسنين من عباده بالزيادة في رزقهم، وإغداق النِّعَم عليهم، وكما يقتضي منطوق هذا النص وعداً للمحسنين بالمزيد من فضل الله وكرمه،

فإن مفهومه يتضمن وعيداً للمسيئين بالنقص والحرمان، على حد قوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فيه تحذير من ظلم عباده والعدوان على حقوقهم، إذ الخَلْق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، طبقاً لما جاء في الأثر، كما أن فيه إنذاراً للظالمين بالعقاب الرادع والعذاب الشديد، ينزل عليهم من حيث لا ينتظرون ﴿ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾، وقوله: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ إدراج لمعنى الظلم في إطار الفسق نفسه، وتأكيد لما سبق من الآيات في وصف (الفاسقين) من خيانة للعهود، وقطع للأرحام، وإفساد في الأرض، فالظلم في حد ذاته أكبر مظهر للفساد في الأرض، وبذلك يندرج تحت الفسق ويُلازم الفاسقين.

أما قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ﴾ فإنه يشير إلى الفترة القصيرة التي استقاموا فيها على طريقة موسى الكليم، ففي تلك الفترة التي لم تطل كان المومنون من بني إسرائيل أفضل من غيرهم، ممن حولهم من الكفار والمشركين، حتى إذا ما بدَّلوا وظلموا عاقبهم الله بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

ولعل أعظم تأنيب يوجّه إلى الشخص بعد تجريده من شرفه

وإنزاله عن مكانته عقاباً له وتأديباً، هو تذكيره بما كان له من شرف سابق عند مولاه، ومكانة مرموقة عند الناس، حتى يقارن بنفسه بين يومه وأمسه، وسعده ونحسه، ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾.

الرّبع الأخير من الحزب الأول في المصحف الكريم

وَإِذِ اِسْتَسْقَىٰ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اَضْرِب بِّعَصَاكَ اَلْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ
مِنْهُ اُثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ
كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اِ۬للَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي اِلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ
وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ اُلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا
وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
اَ۬لذِے هُوَ أَدْنَىٰ بِالذِے هُوَ خَيْرٌ اِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا
سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اُلذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ
مِّنَ اَ۬للَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اِ۬للَّهِ وَيَقْتُلُونَ
اَلنَّبِيٓـِٕينَ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾
إِنَّ اَ۬لذِينَ ءَامَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِينَ مَنَ ـ امَنَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

الرّبع الأخير من الحزب الأول
في المصحف الكريم

عبـــاد الله.

في حصة هذا اليوم، نتناول الآيات الكريمة التي يشملها الربع الأخير من الحزب الأول في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُّومِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

في هذا الربع الأخير من الحزب الأول استمرار في الحديث عن قصة موسى الكليم وقومه من بني إسرائيل، ووصف لما ناله عليه السلام من إعنات وإرهاق في سبيل هدايتهم، وما قابلوا به رسالته من استكبار ودلال وعناد.

وفيه بالخصوص وصف موجز لمعجزة موسى عندما قام يستسقي لقومه، فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. ثم فيه وصف مستفيض لمعجزة موسى بعد ذبح البقرة، عندما استحالت عليه معرفة قاتل ارتكب جريمة القتل خِفْيَةً، فأمر بني إسرائيل بذبح بقرة، وإلقاء عضو منها على القتيل، فأحياه الله

بعد قتله، ونطق باسم القاتل، وكان ذلك معجزة جديدة لموسى الكليم.

وفي معرض الحديث عن هاتين المعجزتين، تناولت الآيات بالوصف الدقيق ما كان عليه بنو إسرائيل من شكّ وتردُّد وعناد، وإغراق في الجدل الفارغ، وتضييع للوقت في المناقشات الجزئية والجانبية بالمرة.

فها هم أولاء يعربون عن سخطهم وعدم رضاهم بما رزقهم الله، ويُلحُّون على موسى أن يدعو ربه، لتنبت لهم الأرض نباتات أخرى ترضي شهوتهم، وتكفي نهمهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾.

وها هم أولاء يجادلون موسى في شأن البقرة التي أمرهم الله بذبحها جدالاً عنيفاً، فيلقون عليه وابلاً من الأسئلة التي لا داعي إليها، مما يُعبِّر عن شكِّهم، ويعرب عن ارتيابهم، في أمر بسيط لا يستحق كل هذا التردد، ولا كل هذه الحيرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ - ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ - ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ثم كرروا مرة أخرى: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ - وأخيراً قالوا: ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

ويلاحظ فيما جرت حكايته على لسان بني إسرائيل أنهم بدلاً من أن يقولوا ادعُ لنا «ربّنا» يفضلون أن يقولوا «ادعُ لنا ربّك»،

ويكررونها عدة مرات بهذه الصيغة، كأنهم لا يزالون في شك من أمره، ولا يعتبرونه رباً لهم، بقدر ما يعتبرونه رباً لموسى وحده، وفي ذلك جحود منهم ظاهر لربوبية الله رب العالمين، وجرأة على مقامه الأقدس، وليس هذا بغريب عليهم، فقد قالوا من قبل لموسى كما سبق في الربع الماضي ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

ثم ها هو الحق سبحانه وتعالى ينعتهم بوصف خطير ومثير، ذلك هو وصفهم بالقسوة التي هي أشد من قسوة الحجارة، وهل يرجى التأثير في قلب أقسى من الحجر الصلد؟ ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الاَنهَـٰرُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾. وهذا الوصف الذي وصف الله به بني إسرائيل هو السر في عنادهم وإصرارهم على ما هم عليه، والحافز لهم على الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية موقف المعارضة والإنكار، والتبجح والاستكبار، كما كان موقفهم من المسيحية قبل الإسلام، وهو السر في موقفهم الانعزالي المتحفظ دائماً من بقية الأمم والملل عبر التاريخ.

ويتّجه الخطاب من جديد إلى المومنين، منبِّهاً إياهم إلى أن يقطعوا كل أمل في انتقال بني إسرائيل انتقالاً جماعياً من يهوديتهم إلى الإسلام، مذكراً بأن أولئك الذين سمعوا كلام الله بواسطة موسى الكليم، والذين عقلوا ما فيه، ـ وبالرغم عن ذلك كله تجرأوا على تحريفه عمداً وقصداً لحاجة في أنفسهم ـ قد تجاوز عنادهم كل

الحدود، بحيث أصبحت الموعظة لا تؤثِّر فيهم، والذكرى لا تنفعهم ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُومِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾؟.

ومن جهة أخرى، نجد الآيات الكريمة في هذا الربع تسجل غضب الله على بني إسرائيل، جزاء عصيانهم وعنادهم لأمره في مختلف المواقف، وكِفَاءَ تجاهلهم التام لإحسانه إليهم في مختلف المناسبات، إذ تقول الآيات: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِئَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّئِينَ بِغَيْرِالْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾.

ولا حاجة إلى التأكيد بأن عدل الله سبحانه يقتضي عقاب كل من عصاه وتعدَّى حدوده، في أي جيل، ومن أية ملة، إن لم يكن بنفس العقاب الذي ناله بنو إسرائيل، فيما يقرب منه ويدانيه، فضَرْبُ المثل بقصة موسى وقومه أولاً، والقصدُ إلى الاعتبار بمضمونها وفحواها ثانياً، كلٌّ منهما غرض شريف من أغراض القرآن الكريم، ولذلك جاء في نفس السياق بعد قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَسِئِينَ ﴾ـ:﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

الرّبع الأول من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾
أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ
أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً
قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ

سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٰٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا
مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ
لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيۡتُمُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤
ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَّٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ○
وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ
إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ
بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ
بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

الرّبع الأول من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

عبـــاد الله.

في حصة هذا اليوم، نتناول الربع الأول من الحزب الثاني في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾.

وواضح أن الآيات الكريمة في هذا الربع ما تزال تتوالى في وصف بني إسرائيل، وتعريف المسلمين بسوابقهم، والكشف عن أسرارهم، وذلك لإلقاءِ الأضواء الكاشفة عليهم، والتعريف بحقيقتهم من جهة، وتحذير المسلمين من الوقوع تحت تأثير دعاويهم الكاذبة وتأويلاتهم الباطلة من جهة أخرى، الأمر الذي أوجب لبني إسرائيل خزي الناس في الدنيا، وغضب الله في الآخرة ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمُ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾- ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

ومما كشفته هذه الآيات من الحقائق، أن صفة (الأمية) التي كان بنو إسرائيل يعيبون بها العرب، متبجحين بتفوّقهم عليهم في القراءة والكتابة، لم تكن قاصرة عليهم وحدهم، بل كانت خصلة

شـائعة بـين بني إسرائيـل أنفسهم، رغماً عن ادعـاءاتهم المزيّفـة وتظاهرهم بعكسها من العلم والمعرفة.

وهكذا تفضحهم الآية الكريمة أمام المسلمين والناس أجمعين، عندما تنطق بالأمر الواقع الذي ليس له من دافع، فتقول: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَـٰبَ إِلَّا أَمَانِيَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾.

ولا تكتفي بفضح ما يدَّعيه جمهورهم من العلم بالكتاب على ما هو عليه من جهل، حتى تَصِم النخبة الممتازة منهم، بوصمة التزوير والتلفيق، لا في النصوص العادية المجردة، بل في أقدس النصوص، نصوص الوحي الإلهي والكتب المنزلة، تـلاعبـاً منهم بالدين، ومتاجرة بالعقيدة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ،ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِم، وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

ثم تعود الآيات الكـريمة من جـديد لـلإشارة إلى المـواثيق الغليظة التي أخذها الله على بني إسرائيل ميثاقاً بعد ميثاق، لكنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى نقضوها عروة عروة، الواحد بعد الآخر ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ - ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَـا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ﴾ وفي آية سابقة: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ - ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

وتتصدى الآيات الكريمة للرد عليهم، وإبطال ما يـدعونـه لأنفسهم من امتياز وتفضيل على بقية الملل، بدعوى أنهم (شعب

الله المختار)، فتحكي قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾. ثم أكد القرآن الكريم أن حكم الله واحد لا يتبدل، بالنسبة لكل من انحرف عن سواء السبيل، كيفما كانت ملّته، ومهما كانت نسبته، وعقب على ذلك بمبدأ عام ينطبق على الجميع لا استثناء فيه ولا تخصيص، ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ وأعاد الحديث عنهم مرة أخرى فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

ومن أهم الموضوعات التي عالجها هذا الربع من القرآن الكريم، وصفه لما أبداه بنو إسرائيل من التعصب والاستكبار، والجحود والإنكار، إزاء الدعوة الإسلامية وكتابها الحكيم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ - ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ ﴾ - ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومما يستلفت النظر في هذا المقام ورود اسم (عيسى المسيح) إلى جانب اسم (موسى الكليم) لأول مرة في سورة البقرة، وفي ذلك تقرير لتسلسل الرسالات المنزلة من عند الله وتماسك حلقاتها، وتأكيد لترابطها وتكاملها، وإقامة للحجة على بني إسرائيل الذين أنكروا رسالة جميع الرسل بعد موسى، منذ عيسى بن مريم إلى محمد بن عبدالله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ - ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾.

وهكذا نجد القرآن الكريم يضع أيدي المسلمين على مواطن الدّاء والدواء، ويرشدهم بجميع الأساليب إلى ما فيه الهدى والشفاء، حتى يكونوا على بيِّنة من أمرهم، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾.

الرّبع الثاني من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا۟
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِيسَمَا يَامُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴿٩٣﴾
قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْءَاخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ

مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن
كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾
مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا
إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ
وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ
فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ
ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا
شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ
ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا
يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

الرّبع الثاني من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم، تحتوي على الربع الثاني من الحزب الثاني في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ ونهايته قوله تعـالى: ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِـرَحْمَتِـهِ مَنْ يَشَـآءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ ﴾.

في هذا الربع من القرآن الكريم، تشير الآيات الكريمة من جديد إشارة موجزة إلى أكبر كبيرة ارتكبها بنو إسرائيل، ورسولهم موسى الكليم لا يزال على قيد الحياة، ألا وهي اختيارهم عن قصد وهوى في النفس لعبادة العجل، وإقبالهم على هذا النوع من العبادة الوثنية البدائية التي ما أنزل الله بها من سلطان، بمجرد غيبة رسولهم موسى عليه السلام عنهم فترة قصيرة من الزمان.

وفيها كذلك لفت الأنظار مرة أخرى إلى الميثاق الذي أخذه الله عليهم عند جبل الطور، وهو أحد المواثيق الإلٰهية العديدة التي أخذها عليهم فنقضوها جميعاً، ولم يوفوا ولو بواحد منها ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾.

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى استعراض الشُّبَه والمزاعم التي أصبحوا يلوكونها بألسنتهم، ويردِّدونها بين المسلمين حتى يشكِّكوهم في دينهم، وبين المشركين حتى لا يدخلوا في هذا الدين.

وتتلخص هذه الشبه والمزاعم التي تتولى الآيات الكريمة في هذا الربع تفنيدها وإبطالها في أن الدار الآخرة ـ ويقصدون الجنّة ـ ستكون خالصة لبني إسرائيل من دون الناس جميعاً، وإذن فلن يكون فيها نصيب للمسلمين الذين أسلموا ولا للمشركين إذا أسلموا، وفي أن جبريل الملك الذي ينزل بالوحي على قلب رسول الله ﷺ، إنما هو عدو لبني إسرائيل، إذ هو في زعمهم لا يتنزل إلا بالشر والقحط والجدب، ولهذا السبب فهم يرفضون الوحي الذي ينزل بواسطته على سيدنا محمد ﷺ، وأن هذا الوحي لو نزل بواسطة ميكائيل، ملك الرخاء والمطر والخصب، وصديق بني إسرائيل في زعمهم، لقبلوه وصدقوا به.

وهكذا تصدع آيات القرآن بالرد عليهم وإفحامهم بالحجة البالغة ﴿ قُلِ ان كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ ـ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ ـ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

ثم تقرر الآيات الكريمة أن من عادى أحد الملائكة ـ وهو جبريل في هذا السياق ـ فقد عادى الملائكة جميعاً ومن بينهم نفس ميكائيل، لأن الإيمان بالملائكة كل لا يتجزأ، كما أن من عادى أحد

الرسل - وهو سيدنا محمد ﷺ في هذا السياق - فقد عادى الرسل جميعاً، وفي طليعتهم نفس موسى عليه السلام، لأن الإيمان بالرسل وحدة لا تنفصم ﴿ كُلٌّ - ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾.

وهكذا يؤكد القرآن الكريم بصورة قاطعة أن جبريل وميكائيل ينتميان إلى فصيلة واحدة لا فرق في خصائصها ولا في مزاياها، ولذلك يعتبر عدو أحدهما عدواً للثاني، أي عدواً لهما معاً ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وتعيد الآيات الكريمة إلى الأذهان معنى جوهرياً وأساسياً سابقاً، ألا وهو أن (فسق الفاسق) هو الذي يحجب قلبه عن الإيمان، وعقله عن الهداية، ويحدث فيه من مضاعفات الشر والكفر ما لا سبيل له إلى قلوب المتقين ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَٰسِقُونَ ﴾.

وفي نفس هذا السياق تلقي الآيات البيِّنات بعض الأضواء الخاصة على خصلة من خصال بني إسرائيل ومَنْ سار في طريقهم، ألا وهي خصلة الالتواء والتذبذب، والروح الانتهازية الصرفة، وهكذا إذا أعطت جماعتهم للمسلمين عهداً لم تلتزمه كلها وفي مجموعها التزاماً تاماً، بل إن فريقاً منها ينبذه في الحين وينتمي في السر إلى الجانب المعارض، بينما يحافظ الفريق الآخر على العهد ظاهراً، فيبقى مع الجانب الذي عاهده، وذلك ليضمنوا مصالحهم

مع كلا الجانبين، الجانب المتغلب اليوم، والجانب الذي يمكن أن يتغلب غداً، وهذا ما تشير إلى فحواه الآية الكريمة ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾.

وينتقل الحديث بعد ذلك إلى وصف ما اشتهر به بنو إسرائيل بين الأمم من إقبال على السحر وتهالك عليه، واستغلال لبسطاء العقول بواسطته، ولا سيما بين مشركي العرب الأمّيين.

ويشير القرآن الكريم إلى أن بني إسرائيل كانوا يذيعون بين الناس أن السحر إنما هو تراث أخذوه عن سليمان عليه السلام، كما كانوا ينسبونه إلى الملكين هاروت وماروت، وقصدهم من ذلك أن يجعلوا للسحر سنداً صحيحاً مرفوعاً إلى الأنبياء والملائكة، مع أن السحر من الأمور التي يتحاشى عنها مقام الأنبياء ومقام الملائكة جميعاً.

وهكذا ينفي القرآن الكريم تهمة السحر عن سليمان، كما ينفيها عن الملكين هاروت وماروت، وبذلك يهدم الأساس المزور الذي يبني عليه بنو إسرائيل سحرهم، ويثبت القرآن الكريم في نفس الوقت أن السحر إنما هو في الحقيقة من صنع الشياطين ووحيهم، وأن سند بني إسرائيل من السحر إنما مردّه إلى الشياطين وحدهم أولاً وأخيراً. ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ أي ما تكذب به الشياطين عليه، وتنسبه إليه ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ، وَلَـٰكِنَّ الشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾.

وواضح أن كلمة (الشياطين) كما تطلق على شياطين الجن

تطلق على شياطين الإنس، على حد قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ: تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾.

ومن هذه الآيات الكريمة تتضح للمسلمين أمور ثلاثة:

١ ـ الأمر الأول: أن تعلم السحر لاستعماله يضر ولا ينفع ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾.

٢ ـ الأمر الثاني: أن عمل السحر واستعماله كفر أو يؤدي إلى الكفر ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ ـ ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى عرّافاً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد».

٣ ـ الأمر الثالث: أن الضرر الذي يُراد إلحاقه بالمسحور عن طريق السحر لا يتحقق إلا إذا كان أمره قدراً مقدوراً ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

وفي ختام هذا الربع توضح الآية الكريمة النيَّة السيئة التي يُبيتها الكافرون من أهل الكتاب والمشركين للمسلمين، وتشير إلى أنهم يريدون صرفهم عن الدعوة الإسلامية بجميع الوسائل، وشغلهم عنها بالخرافات والأوهام والأماني، وبتعلم السحر وما شابهه مما لا خير فيه ولا نفع من ورائه، حتى لا يستنيروا بكتاب الله الذي فيه الهدى والنور، والعلم والحكمة، فيفتحوا أعينهم على آفاق

الكون الواسعة، ورحابه الشاسعة، ويقيموا في الأرض دولة العلم والعدل والتقوى ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾. وسيأتي في الربع القادم آية أخرى لها صلة وثيقة بهذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ لكن الله خيب سعيهم، وصدق المومنين الصادقين وعده، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

الرّبع الثالث من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟
رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ
ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ
كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ
كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ
فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ

قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

الرّبع الثالث من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم، تتألف من الربع الثالث للحزب الثاني من المصحف الكريم، وبدايتها قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنَ ايَـةٍ أَوْ نُنسِهَا نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ ونهايتها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عن نَّفْسٍ شَيْئاً، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَـدْلٌ، وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن رسالة الإسلام رسالة عامة موجهة إلى كافة البشر، وأن شريعته مهيمنة على ما سبقها من الشرائع.

ومن هنا انطلقت الدعوة الإسلامية في كل اتجاه، فاتجهت إلى نفس أهل الكتاب، وفي طليعتهم بنو إسرائيل الذين كانوا يتمتعون بين مشركي العرب بشيء من الاحترام، فطالبتهم بالدخول في دين الله، والاندماج في الأمة الإسلامية اندماجاً كاملاً، إذ إن الإسلام جاء ناسخاً لما قبله، ودعوته موجهة للجميع ﴿قُلْ يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الدعوة الموجهة إليهم، وإلى

كيفية جوابهم عنها، فحكى عنهم في آية سابقة موقفهم المتعنت ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ ﴾.

وهم في هذا الجواب الملتوي لم يكشفوا عن حقيقة رأيهم كاملاً، إذ إنهم في الحقيقة كانوا ينظرون من بعيد إلى اعتقادهم الراسخ بأن شريعتهم ليست موقتة بوقت محدود، ولا مغياة ببعثة رسول آخر يأتي من بعد مُوسى وَعيسى اسمه «أحمد»، بل إن شريعتهم ستظل مستمرة ومطلقة. وإذن فلا يمكن أن يدخل عليها أي نسخ، لأن نسخ الشريعة بأخرى في نظرهم مستحيل، وقد بنوا نظريتهم في استحالة النسخ على مزاعم واهية، واستنتاجات خيالية.

ورداً عليهم، وإبطالاً لنظريتهم، جاءت الآية الكريمة تقول: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنَ ءايَةٍ اوْ نُنسِهَا نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ فتؤكد ـ على عكس ما يدّعون ـ إمكان النسخ في الشرائع، بل تثبت وقوعه فيها فعلاً، ثم توضح وجه الحكمة فيه، وأن مردّه هو ضمان خير البشرية ونفعها تبعاً لاختلاف الظروف، وكأن هذه الآية الكريمة تقول لبني إسرائيل: إن الشريعة التي جاء بها الإسلام ودعاكم إليها قد نسخت شريعتكم ووضعت لها حداً، وعوضتكم عنها بشريعة أكمل وأفضل، هي نخبة الشرائع وخاتمة الأديان، فلا يسعكم الآن إلا أن تتخلوا عن شريعتكم وتدخلوا في دين الله أفواجاً.

وبعد ما أثبتت هذه الآية مبدأ النسخ، وبيَّنت وجه الحكمة فيه، وهو مصلحة المكلفين وخيرهم ـ رداً على مزاعم بني إسرائيل ـ عقَّبت على ذلك بما يؤكد أن الأمر في هذا المقام يتعلق

قبل كل شيء بقدرة الله المطلقة، ويرتبط بتصرفه الشامل، تلك القدرة وذلك التصرف اللذان لا يحدّهما شيء، فلله أن يرسل من يشاء، ولله أن يأمر بما يشاء، في أي وقت شاء، وبذلك تنطق هذه الآيات: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وفي مثل هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالاَمْرُ ﴾ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَٰكِمِينَ ﴾ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَٰلَتِهِ ﴾.

ومن البديهيات المتعارفة أن الإنسانية قد مرت بعدة أطوار، وأن الله تعالى بفضل ربوبيته، وفيض رحمته، لم يزل يبعث لهداية الإنسان الأنبياء والرسل، فوجاً إثر فوج، ما بين الفترة والأخرى، وكلفه على لسانهم في كل مرحلة من مراحل حياته بالتكاليف المناسبة لتلك المرحلة، أخذاً بيد الإنسان، الذي اقتضت حكمته أن يستخلفه في الأرض، إلى طريق الرشاد، وتدريجاً له في مدارج التكليف من حال إلى حال، على قدر إدراكه، وحسب استطاعته، وتبعاً لحاجته، وهكذا كلما بلغ الإنسان درجة أرقى في التطور رفع عنه الحق سبحانه وتعالى من التكاليف ما لم يعد مناسباً، وكلفه بشرع جديد هو أكثر ملاءمة لواقعه الجديد.

فلما استدار الزمان بحلول موعد البعثة المحمدية، وآذن الله بدخول الإنسان في بداية مرحلة الرشد، وإعداده لدرجة أعلى من الوعي والنضج، بعث الله خاتم الأنبياء بخاتمة الشرائع التي لا شريعة بعدها، والتي جاءت بنسخ ما قبلها مما لا يتفق معها.

ومن ثم كانت دعوة الرسول ﷺ عامة إلى الناس كافة،

للدخول تحت حكمها، والتزام القيام بتكاليفها، ومن ثم كان رفضه البات لعذر بني إسرائيل في التخلف عن ركب الإسلام، بدعوى استحالة النسخ وزعم (الالتزام).

وعلاوة على ذلك فإن في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنَ ايَةٍ اوْ نُنسِهَا نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ إشارة خفيفة وتمهيداً مبدئياً لأمر إلهي آخر، سيوحي به الحق سبحانه وتعالى إلى رسوله والمومنين خلال فترة قريبة غير بعيدة، ألا وهو الأمر بالتخلي عن استقبال بيت المقدس في الصلاة، بعد استقباله منذ بَدْءِ الهجرة حوالي سبعة عشر شهراً، والتحول عنه إلى استقبال البيت الحرام، مما ستوضحه آيات أخرى في الحصص القادمة.

نعم جاءت في حصتنا اليوم آية كريمة تمهّد الجو لهذا الحادث المهم، الذي سيخصص للمسلمين قبلة يستقلون بها عن بقية الملل، والآية التي أومأنا إليها تشير للأمر المنتظر بمنتهى الإجمال والإيجاز، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهِ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

ومن هنا يتجه الخطاب القرآني فجأة إلى المومنين، محذراً إياهم من تقليد بني إسرائيل في إلقاء أسئلتهم المحرجة، القائمة على روح الجدل والتعنت، فيقول: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ مِن قَبْلُ ﴾. والتشبيه هنا واقع بالأسئلة التي وجهها إلى موسى بنو إسرائيل في شأن البقرة وذبحها، طبقاً لِمَا حكته عنهم الآيات السالفة.

وتأتي في نفس المقام آية أخرى تستنكر أن يقف بعض البسطاء ممن لا يعلمون، موقفاً مشابهاً لموقف بني إسرائيل، تقليداً لأساليبهم الملتوية في العناد والتردد، إذ تقول حكاية عن هذا الفريق «الإسرائيلي الاتجاه»: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾. ثم تعقب على هذا القول كاشفة عن مصدره، ومبيّنة لسببه، إذ تقول: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وواضح أن تشابه القلوب، أي تشابه العواطف والمشاعر، عامل من عوامل التشابه في الأفكار والآراء والارتسامات، والذين قالوا مثل هذا القول من قبلهم هم بنو إسرائيل، قالوه لموسى كما حكته عنهم آية سابقة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وهكذا يكافح الإسلام كل ما يتسرب إلى مجتمعه من شُبَه بني إسرائيل وضلالاتهم ودعاياتهم.

ويواصل الخطاب الإلهي تحذيره للمسلمين من الوقوع في أشراك وحبائل الملل الأخرى، ومن السير في ركاب أهلها، مؤكداً بأقوى وجوه التأكيد أن الرضى التام من غير المسلمين عن المسلمين مرهون مسبقاً وقبل كل شيء بالاندماج فيهم وبالتنكر للإسلام، وهكذا يخاطب الله رسوله، وعن طريقه يخاطب كافة المومنين: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ثم يلقن الله لرسوله والمومنين الجواب الفاصل للدفاع في هذا الموقف ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ وإذن فلا هدى في سواه، وإنما في سواه الضلال والخبال، على حد ما جاء في الأثر في وصف القرآن

«من ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

ومن المعاني الجديدة في هذه الحصة، ما وصفه كتاب الله أحسن وصف وأوجزه، من انطباعات اليهود عن النصارى، وارتسامات النصارى عن اليهود، وما ظلت هاتان الملّتان تتبادلانه عبر الأجيال من التهم والشتائم والأحقاد، حتى أن كل واحدة منها لا تعترف بالأخرى اعترافاً صحيحاً، وفي ذلك نزلت هذه الآيات البيِّنات: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وقد جاوزت حدة النزاع بين الفريقين حدود الدنيا إلى الآخرة، فادّعى اليهود أن الجنة قاصرة عليهم، وزعم النصارى أن الجنة خالصة لهم، وهذا معنى الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

إلّا أن كتاب الله قد فضّ النزاع بينهم في هذا المجال، فقال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كما قال تعالى في آية أخرى من سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

الرّبع الأخير من الحزب الثاني في المصحف الكريم

وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ

عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن

رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟
بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ اِهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِي
شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اُللَّهُ وَهُوَ اَلسَّمِيعُ اُلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾
صِبْغَةَ اَللَّهِ وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اَللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾
قُلْ اَتُحَآجُّونَنَا فِي اِللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا
وَلَكُمُۥٓ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَالَاسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا اَوْ نَصَٰرَىٰ قُلَ ءَانتُمُۥٓ أَعْلَمُ
أَمِ اِللَّهُ وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ اَللَّهِ
وَمَا اَللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

الرّبع الأخير من الحزب الثاني
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تمس جوانب متعددة بالِغَة الأهمية، عميقة الأثر، في حياة الإسلام والمسلمين، مما أثارته الآيات البيِّنات في هذا الربع، وهو الربع الأخير من الحزب الثاني في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّـةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

ففي هذا الربـع من سورة البقـرة، يتولى القـرآن الكريم الحديث عن أكبر وأضخم شخصية عرفها التاريخ في عالم النبوة قبل البعثة المحمدية، ألا وهي شخصية «أب الأنبياء وخليل الرحمن» كما أطلقت عليه الأجيال اللاحقة من مختلف الأديان.

ولا يقتصـر الحديث هنـا على شخصيتـه الفذة، ومكـانتـه الفريدة، كأول رسول بعد نوح عليه السلام، ضرب الرقم القياسي في مكافحة الوثنية والوثنيين، حتى ألقى به قومه في أتون النار، فقال لها الله ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَـٰماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾، بل يتناول ملة

إبراهيم فيشرح حقيقتها، ويعيد الحق في شأنها إلى نصابه، كما يتناول بالذِكْر مقام إبراهيم، والبيت الحرام الذي أسسه باسم الله، ولأجل عبادته وحده لا شريك له، فكان أول بيت وضع للناس.

وفي هذا السياق المنسجم المتناسق يكشف القرآن الكريم عن حقائق أساسية، دينية وتاريخية، هوأول من كشف عنها الستار، ولفت إليها الأنظار.

ـ الحقيقة الأولى: إن ملَّة إبراهيم، القائمة على توحيد الله، وإفراده بالألوهية والربوبية دون سواه، كانت ولا تزال وستظل دائماً هي الملَّة الوحيدة التي بعث الله بها كافة الأنبياء والرسل، والعقيدة الجوهرية التي أوحى الله بها إلى الناس، وطالبهم بالإيمان بها في كتبه المنزلة، تعريفاً للخلق بخالقهم بديع السماوات والأرض ﴿ وَمَنْ يَّرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَـٰهُ فِي الدُّنْيا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ ـ ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنَ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً، وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ ﴾.

ـ الحقيقة الثانية: إن ملَّة إبراهيم هي وحدها الدين الخالد الذي توارثه الأنبياء والرسل، وتواصوا به خلفاً عن سلف، وأباً عن جد، وعاشوا عليه وماتوا في سبيله دون تبديل ولا تغيير ﴿ وَأَوْصَىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي، قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ، إِلَـٰهاً وَاحِداً، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ وفي مثل هذا المعنى نزل قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُم

مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾.

ـ الحقيقة الثالثة: إن إبراهيم الخليل الذي دعا الله أن يبعث في ذريته رسولاً منهم فقال وهو يناجي ربه: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمُ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ قد تقبّل الله دعاءه، واستجاب له، فبعث ذلك الرسول، المرتقب منذ عهد طويل، وهو محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، وأنزل ذلك الكتاب، المنتظر منذ أمد بعيد، وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ـ الحقيقة الرابعة: إن ملّة إبراهيم في صفائها ونقائها وبعدها عن كل شائبة من شوائب الشرك والانحراف، هي بنفسها ملّة الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمُ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ فهو الذي أرسله الله لإحيائها وتجديد معالمها بعد الاندثار، وهو الذي بعثه لبعثها بين الناس من جديد، تحقيقاً لدعوة إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

ـ الحقيقة الخامسة: إن أول بيت أقيم على وجه الأرض باسم الله ولعبادته وحده، عبادة خالصة من كل شرك، طاهرة من كل دنس، هو مقام إبراهيم الذي أمر الله باتخاذه مصلى، فهو بيت الله

الحرام، وهو البيت العتيق، وهو البيت المقدَّس قبل بيت المقدس ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً، وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَـٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ـ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وفي مثل هذا المقام نزل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَـٰرَكاً وَهُدىً لِّلْعَـٰلَمِينَ، فِيهِ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ، مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً، وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾.

ـ الحقيقة السادسة: إن اليهودية والنصرانية التي تنتمي كل واحدة منهما زوراً وبهتاناً إلى إبراهيم الخليل وملَّته الحنيفية، قد انقطعت علاقتهما مع ملَّة إبراهيم انقطاعاً تاماً منذ دخلهما التحريف والتأويل، والتغيير والتبديل، وإن وثنية الجاهلية التي يدين بها المشركون العرب هي نقيض الحنيفية السمحة، بحيث لا يمكن أن يلتقيا في أي خط من الخطوط، ومهما ادعت اليهودية أو النصرانية أو الوثنية من قرابة مع ملَّة إبراهيم، ومن اقتباس من عقائدها أو شعائرها، فإنما تدعي زوراً وتقول بهتاناً.

وعلى فرض أنها لم تزل تتناقل بعض العقائد أو بعض الشعائر عن ملَّة إبراهيم، فإن ذلك لا ينفي أنها قد غيَّرت حقيقة الملَّة الحنيفية، وشوَّهت معالمها، وأدخلت عليها من العناصر الغريبة والدخيلة ما جعلها مناقضة للأصل كل المناقضة، جوهراً ومظهراً ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً،

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نصارى، قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ - ﴿ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

هذه ست حقائق أساسية لفهم طبيعة الإسلام ومكانه بين الأديان، من جهة، ولإبراز أصالته وعراقته واتصال سنده وصحته، من جهة ثانية، ولتوجيه الأنظار إلى وجه الحكمة فيما سيؤول إليه الأمر عمّا قريب، من وقوع الاختيار الإلهي على البيت الحرام، وجعله دون سواه قبلة خالصة للمسلمين دون غيره، من جهة ثالثة.

والآن نقف وقفة قصيرة أمام بعض الآيات البيِّنات الواردة في هذا المقام.

فهذه آية تشير من قريب إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يرشّح من بين عباده للمقامات العليا إلاّ مَنْ برهنوا على أهليتهم لها، بأداء التكاليف التي كلفهم بها على وجهها، وجوازهم لامتحان الابتلاء الإلهي بنجاح تام، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ أي قدوة يقتدي به الأنبياء فمن دونهم، ويناسبه قوله تعالى في مكان آخر: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾، ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّى ﴾، ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾.

وهذه آية أخرى تشير إلى أن مجرد الانتساب إلى سلف صالح دون قيام المنتسب لهم بالعمل الصالح لا ينفع صاحبه في قليل ولا

كثير، إذ العبرة بالعمل قبل النسب، وذلك قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل ﴿ قَالَ: وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ فأجابه الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾. وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ ﴾ - ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وقوله ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وهذه آية ثالثة تسجل دعاء إبراهيم للبيت الحرام وما حوله بالأمن الدائم والرزق المستمر، فتمضي القرون تِلْوَ القرون منذ وقت دعائه إلى الآن، وإلى ما شاء الله من الأزمان، ودعوة إبراهيم التي استجابها الله بفضله وكرمه قائمة لا تتخلف، ومفعولها سار لاينقطع، فظلال الأمن فيه وارفة، وثمرات الرزق وافرة، والطائفون والعاكفون والركّع السجود لا يخلو منهم بيت الله لحظة من اللحظات، فقد جعله الله بفضله مثابة للناس وأمناً:

(مثابة) تشد إليه الرحال، ويأتيه الناس من كل فج عميق، ومن سعد بالحج إليه مرة حاول أن يعود إليه مراراً، لما يلازمه من شوق وحنين، وهوى في القلب دفين.

و(أمنا) يتناسى فيه المَوْتُورُون أحقادهم، والمغرضون أهواءهم، فلا يذكرون فيه إلاّ شيئاً واحداً هو عبادة الله الواحد الأحد، ولا يهتمون فيه إلاّ بشيء واحد هو تعظيم حرمات الله، والوقوف فيها عندما حد الله. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً ءَامِناً وَارْزُقَ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾.

وبما يتصل بهذا الموضوع اتصالاً وثيقاً قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل في سورة إبراهيم، وهو مسك الختام لهذا الحديث:
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الاَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ، فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَّبَّنَآ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ، فَاجْعَلَ اَفْئِـدَةً مِّنَ النَّـاسِ تَهْـوِيَ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَـرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ - ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾.

الرّبع الأول من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

سَيَقُولُ اُ۬لسُّفَهَآءُ مِنَ اَ۬لنَّاسِ مَا وَلَّيٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ اُ۬لتِے كَانُواْ
عَلَيْهَا قُل لِّلهِ اِ۬لْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِے مَنْ يَّشَآءُ إِلَيٰ صِرَٰطٖ
مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمُۥٓ أُمَّةٗ وَسَطاٗ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ
عَلَي اَ۬لنَّاسِ وَيَكُونَ اَ۬لرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداٗ وَمَا جَعَلْنَا
اَ۬لْقِبْلَةَ اَ۬لتِے كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَّتَّبِعُ اُ۬لرَّسُولَ مِمَّنْ يَّنقَلِبُ
عَلَيٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً اِلَّا عَلَي اَ۬لذِينَ هَدَى اَ۬للَّهُ
وَمَا كَانَ اَ۬للَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمُۥٓ إِنَّ اَ۬للَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٞ
رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَيٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِے اِ۬لسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
قِبْلَةٗ تَرْضَيٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ اَ۬لْمَسْجِدِ اِ۬لْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ اَ۬لذِينَ أُوتُواْ
اُ۬لْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ اُ۬لْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اَ۬للَّهُ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ
وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ
هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ
جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا
يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ
وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾
وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

الرّبع الأول من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

عبـــاد الله.

في حصة هذا اليوم، نتناول الربع الأول من الحزب الثالث في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التِي كَانُواْ عَلَيْهَا، قُل لِّلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ﴾ وآخر آيـة فيه: ﴿أُوْلَئِـكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

في هذا الربـع من سورة البقـرة يتركـز الاهتمام، ويـدور الحديث حول محور واحد هـو موضـوع القبلة التي اختارهـا الله للمسلمين، توحيداً لوجهتهم بعد توحيـد عقيدتهم، فجعلهـا في البيت العتيق، أول بيت لعبادة الله وضع للناس.

وها هنا ينبغي أن نعود إلى الوراء قليلاً لنجد في الربع الثالث من الحزب الثاني آية كريمة تقول: ﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعىٰ فِي خَرَابِهَآ، أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمُ أَنْ يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ، لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والإشارة في هذه الآية إلى الموقف المخزي الـذي وقفه المشركون بمكة، من المومنين الراغبين في ارتياد المسجد الحرام لعبادة

الواحد الأحد، والحيلولة بينهم وبين الصلاة فيه والحج إليه، على غرار ما جاء في آية كريمة أخرى تقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ، سَوَآءً الْعَـٰكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

فها هو القرآن الكريم يرفع عقيرته ضد احتكار المشركين للبيت الحرام، وتدنيسهم له بوضع التماثيل والأصنام، وتحويلهم إياه عن الهدف السامي الذي أقيم لأجله منذ أقدم الأيام.

وما دام الأمر هكذا، وقد هاجر المسلمون إلى المدينة وفارق كثير منهم مكة التي أصبحت (دار حرب) بالنسبة للمسلمين، وهم على أبواب تكوين مجتمع جديد، من طراز فريد، فَلِمَ لا يتوجهون بصلاتهم ـ ولو موقتاً ـ إلى صخرة بيت المقدس، التي لها نوع شَبَهٍ ولو بعيد بالبيت الحرام، وبذلك يوجّهون طعنة كبرى في الصميم إلى استغلال الشرك والوثنية، ويعلنون احتجاجهم الصارخ على احتكار مشركي قريش لبيت الله، وتحويلهم له عن هدفه الأول، الذي من أجله أقامه إبراهيم، وساعده فيه إسماعيل، ألاَ وهو عبادة الله وحده لا شريك له، لا عبادة الأوثان والأصنام.

على أن توجه المسلمين في المدينة إلى بيت المقدس موقتاً بدلاً من البيت الحرام الذي كان لا يزال الشرك مسيطراً عليه، ومحتكراً له إذ ذاك، يقوم في نفس الوقت مقام اختبار نفسي وديني لنفس المهاجرين والأنصار، فهو اختبار لقوة إيمانهم، وامتحان لدرجة امتثالهم، وجسّ لنبض من قد يكون مدسوساً بينهم من المنافقين

والمترددين، ولمثل هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾.

وهكذا تم التوجه إلى بيت المقدس في بَدْء الهجرة بأمر نبوي كريم، صادر عن اجتهاده عليه السلام، كما حكاه القرطبي في تفسيره عن عكرمه وأبي العالية والحسن البصري رضوان الله عليهم، واستمر المسلمون على ذلك خلال سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً.

غير أن الجالية الإسرائيلية بالمدينة وما حولها التي ناصبت الإسلام العداء من أول وهلة، وتصدت له بالمقاومة الدعائية سراً وعلناً، والتي واجهها الإسلام بحججه الباهرة، وبراهينه القاهرة، فكشف الستار عن ماضيها وحاضرها، وألقى عليها من الأضواء مَا لَم يسبق له نظير، أخذت تستغل، في سبيل الدفاع عن نفسها وعن موقفها، مسألة اتجاه المسلمين أنفسهم إلى بيت المقدس، واتخذت من ذلك ذريعة إلى القول بأنها هي وحدها التي على الحق، وأن ملَّتها هي الملَّة المثلى التي تقتدي بها بقية الملل، وكانت تظن أن هذا الاختيار النبوي الموقت إنما هو اختيار نهائي بالنسبة للقبلة الإسلامية، وأنها يمكن أن تستغله لبلبلة الأفكار زمناً طويلاً.

إلَّا أن قوة الإسلام التي مضت تنمو مع الأيام في المدينة وما حولها، ودعوة الحنيفية السمحة التي أخذت توتى أكلها بين قادة الشرك في مكة، حيث عرفتهم وجه الحق في نشأة البيت الحرام، والوظيفة الأساسية التي أقامه من أجلها إبراهيم وإسماعيل،

والأولوية التي يتمتع بها هذا البيت بين كافة بيوت الله في الأرض، كل ذلك مهَّد الجو لإعادة الحق إلى نصابه، وانتصار العقيدة الإسلامية الإبراهيمية في طبيعة المسجد الحرام ورسالته الخالدة.

ولم يلبث الرسول عليه السلام أن تلقَّى الوحي من ربه على هذا النحو الرقيق الرفيق ﴿ قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾. وتأتي آية ثانية في نفس المقام: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾. وتأتي آية ثالثة تركز نفس الاتجاه، وتوضح في نفس الوقت وجه الحكمة الإلهية فيه: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾. فخطب رسول الله ﷺ، وأعلمهم بما نزل من القرآن في شأن استقبال المسجد الحرام، وكانت أول صلاة صلَّاها إليه بهذه المناسبة التاريخية هي صلاة العصر كما ورد في الصحيحين من رواية البراء.

ولعل أحد السائلين يتساءل ما هو السر في ترادف هذه الآيات كلها على موضوع واحد هو الأمر باستقبال المسجد الحرام؟.

إنّ السر في ذلك على ما قاله ابن عباس ترجمان القرآن هو مجرد التأكيد، نظراً لأن الأمر يتعلق بأول نسخ وقع في الإسلام.

وأما السر في ذلك على ما وجهه فخر الدين الرازي فهو اختلاف الأحوال بالنسبة للمصلِّين عند الاستقبال.

فالأمر الأول: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ موجَّه لمن يشاهد الكعبة.

والأمر الثاني: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ موجَّه لمن هو في مكة، لكنه غائب عن الكعبة بحيث لا يشاهدها.

والأمر الثالث: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ موجَّه لمن هو في بقية البلدان والأقطار.

وقال القرطبي: الأمر الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار.

أما صلاة من صلَّى إلى بيت المقدس وقضى نحبه، أو من صلَّى إلى القبلتين معاً، فقد تعهد الحق سبحانه وتعالى بثوابها فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ - أي صلاتكم - إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وأما رد الفعل الذي نشأ في صفوف اليهود والمنافقين عند إعلان الاختيار الإلٰهي والنهائي لاستقبال المسجد الحرام، فقد توقعته هذه الآية الكريمة قبل وقوعه إذ قالت: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾.

ولقَّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله الرد المفحم على سفههم إذ قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ﴾.

وتأكيداً لمعرفة بني إسرائيل بأولية المسجد الحرام وأولويته على بيت المقدس، وتأييداً لكون استقبال المسجد الحرام الذي هو بناء إبراهيم، ومقام إبراهيم، وقبلة إبراهيم، هو الموقف الطبيعي والمنطقي من طرف الرسول الذي بعثه الله لإحياء ملّة إبراهيم، ومن طرف أمته التي تعتز بأبوة إبراهيم ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾: تأكيداً وتأييداً لكل هذه المعاني جاءت الآيات الكريمة التالية: ﴿ وَإِنَّ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ - ﴿ الذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْـرِفُونَـهُ كَمَا يَعْـرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وهكذا كان استقبال المسجد الحرام نعمة كبرى من نعم الله على المسلمين أبرزت شخصيتهم، ووحدت قلوبهم، كما قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

الرّبع الثاني من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

وَالْفُلْكِ اِ۬لتِے تَجْرِے فِے اِ۬لْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ اُ۬لنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اَ۬للَّهُ مِنَ
اَ۬لسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحْيَا بِهِ اِ۬لَارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن
كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصْرِيفِ اِ۬لرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ اِ۬لْمُسَخَّرِ بَيْنَ اَ۬لسَّمَآءِ
وَالَارْضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ اَ۬لنَّاسِ مَنْ يَّتَّخِذُ مِن
دُونِ اِ۬للَّهِ أَندَاداٗ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اِ۬للَّهِ وَالذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ
حُبّاٗ لِّلَّهِ وَلَوْ تَرَى اَ۬لذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ اَ۬لْعَذَابَ أَنَّ
اَ۬لْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاٗ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ شَدِيدُ اُ۬لْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ
اَ۬لذِينَ اَ۪تُّبِعُواْ مِنَ اَ۬لذِينَ اَ۪تَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ اُ۬لْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ
بِهِمُ اُ۬لَاسْبَٰبُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ اَ۬لذِينَ اَ۪تَّبَعُواْ لَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةٗ
فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اُ۬للَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ
حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ اَ۬لنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
اَ۬لنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِے اِ۬لَارْضِ حَلَٰلاٗ طَيِّباٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ اِ۬لشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اَ۬للَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اُ۪تَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اَ۬للَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔاٗ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا
لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ
بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ
وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ
عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

الرّبع الثاني من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

عبـــاد الله.

يتناول حديث اليوم موجزاً تفسيرياً للربع الثاني من الحزب الثالث في المصحف الكريم، وأول آية في هذا الربع هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَـٰئِرِ اللَّهِ ﴾ وآخر آية فيه هي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَـٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾.

في مطلع هذا الربع يتحدث كتاب الله عن السعي بين الصفا والمروة، ويؤكد تقرير الإسلام لحرمة كل منهما، بصفتهما من شعائر الله، وذلك إزالةً لمخاوف المسلمين الذين توقفوا في أمرهما، ظناً منهم أنه يسري عليهما حكم الإسلام في منع كثير من مظاهر الجاهلية وتقاليدها ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

وتشير الآيات البيِّنات بعد ذلك إلى عقيدة التوحيد الخالص، وبراهينها الكونية الساطعة، معتمدة على وسائل الإقناع الفطرية الملموسة، وطرقه التجريبية المحسوسة، التي يستوي في إدراكها وفهمها كل الناس، من مختلف المستويات والأجناس، ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ

إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَـٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ، وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَـٰحِ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ، لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وتتناول الآيات الكريمة في هذا السياق بالوصف والتعقيب طائفة من الناس غلبت عليها روح الانتهازية، فتجاهلت طاعة الله ومحبته، ونسيت قضاءه وقدره، والتزمت بدلاً من ذلك طاعة بعض المخلوقين، إذ ملأت قلوبها بمحبتهم والخضوع لهم، وسايرتهم في أهوائهم ابتغاء مرضاتهم، فجعلت من هواهم المدخول قانوناً متبعاً، ومن كلمتهم السفلى كلمة عليا، وبذلك كله أقامتهم مقام الأضداد المنافسين، أو الأشباه المماثلين، للحق جلّ جلاله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾.

ثم عقّبت الآية على ذلك بما يوضح البون الشاسع والفرق الكبير بين هذه الطائفة الخاسرة والمومنين الخُلَّص، فقالت: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ ﴾ وإذن فلن يستبدلوا بمحبة الله وطاعته طاعة ولا محبة أحد سواه.

وتنتقل الآيات الكريمة إلى رسم صورة كاشفة لموقف قادة الضلال من أتباعهم في سائر العصور، ولموقف الأتباع الضالين من قادتهم في الدنيا والآخرة، ومحاولة كل فريق منهما في نهاية المطاف التبرؤ من الفريق الآخر، وإنكار كل رابطة كانت تربط بين التابع والمتبوع، إذ تنقلب المحبة المصطنعة بينهما إلى عداوة، والثقة العمياء

إلى ضياع للثقة بالمرة، وتبلغ الحسرة بالأتباع أضعاف أضعاف ما بلغته حسرة القادة، حيث يكتشف الأتباع المخدوعون أنهم إنما كانوا آلة مسخّرة في أيدي القادة، ويدركون أن أعمالهم إنما كانت نكبة عليهم ووبالاً، وأنهم كانوا في الحقيقة من الأخسرين أعمالاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾.

ومن هناك اتجهت الآيات الكريمة إلى استنكار التقليد الأعمى، وإلى الحضّ على ترك التقاليد المستهجنة، المتوارثة عن عهود الجهالة والضلالة، والدعوة إلى اتباع الحق الذي أنزله الله نوراً وهدىً، وهذه الدعوة تتضمن إعمال الفكر فيما يجد عليه الأبناء آباءهم، وتتطلب عدم الاتكال على المألوف والرضى بالمتعارف دون نقد ولا تمحيص، وتقتضي هذه الدعوة بالأخص وزن التراث المتلقّى من الآباء والأجداد بميزان الوحي والعقل، فما وافقهما كان حَرِيّاً بالاتباع، وما خالفهما كان حَرِيّاً بالإهمال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ، قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾.

وأمامي الآن في هذا الربع من القرآن آيات كريمة، صيغتُها أكبر وأخطر من كل إنذار تعارف عليه الناس، وجّهها الحق سبحانه وتعالى إلى كل من علم علماً فكتمه، أو استغل علمه في سبيل منفعة

شخصية تعود على مقتضى علمه بالنقض والإبطال، أو وجّه علمه وجهة الشر والأذى، أو خان بعلمه الأمانة، أو غش بعلمه الأمة، بحيث يندرج تحت هذه الآيات كل استعمال للعلم في غير وجهه، وكل كتمان له حتى لا يستعمل في وجهه، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَـٰتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـٰبِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّـٰعِنُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ، وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ، فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾.

وقد كان لهذه الآيات بما تضمنته من وعيد وإنذار، أبلغ أثر في دفع علماء الإسلام من السلف والخلف إلى نشر العلم وروايته، مهما كلّف من المشاق والمتاعب، وإلى الجهر بالحق ونصرته، مهما اقتضى من التضحيات والمكاره، وبآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَـٰتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ استشهد عثمان بن عفّان عندما قال: «لأحدثنكم حديثاً لولا آية من كتاب الله عز وجل ما حدثتكموه»، وإليها استند أبو هريرة إذ قال: «إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ووالله لولا آية في كتاب الله ما حدثت شيئاً».

وآخر آية في هذا الربع تؤكد بشكل قاطع وصورة جازمة ما نزل به كتاب الله من الحق والصدق، وما نطق به من القول الفصل بالنسبة لبقية الملل والأديان المنقسمة على نفسها والمختلفة فيما بينها،

وبذلك كان القرآن الكريم هو المعيار الوحيد لما يُنسب إلى الكتب المنزلة، والحَكَم العدل في شؤونها المجملة والمفصلة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَـٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾.

الرّبع الثالث من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ
وَالنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ
وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا
وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ
بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ

يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ
فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ
ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ
مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن
تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ
ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا

هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

الرّبع الثالث من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم، نتناول الربع الثالث من الحزب الثالث في المصحف الكريم، وأول آية من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرُّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَـٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

في هذه الحصة من سورة البقرة، يتولى الحق سبحانه وتعالى تنظيم حياة المسلمين أفراداً وجماعات، ويصدر إليهم أحكاماً خالدة قاطعة في عدة شؤون من العبادات والمعاملات.

ففيها آيات عن الصيام وعن الاعتكاف من جهة، وفيها آيات عن طريقة كسب المال وعن وجوه إنفاقه وصاحبُه لا يزال على قيد الحياة، وعن الوصية به لمن ينتفع به بعد الموت، وعن القصاص وحكمته، وعن رشوة الحكام لصالح المحكومين.

أما الصيام فقد بيّن الحق سبحانه وتعالى للمسلمين أنه ليس بدعاً في التشريع الإسلامي، بل إنه شعيرة من شعائر الدين التي جاء بها الأنبياء والرسل السابقون ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾. كما بيّن وجه الحكمة فيه، وأن الغرض منه ليس هو إرهاق المكلفين بالجوع والعطش وكبت للشهوة، وإنما المراد منه ثمرته الروحية، التي تتجلّى في سلوك المومن أثناء صيامه، ثم بعد انقضاء شهر الصيام، طيلة بقية شهور العام، وهي ما يكتسبه الصائم بفضل الصوم من تقوى القلب وتهذيب النفس، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ بعد قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ على حد قوله تعالى في آية أخرى تشير إلى الأضاحي والهدايا بمناسبة موسم الحج وعيد الأضحى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا، وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.

ثم تفضّل الحق سبحانه وتعالى فأشعر المومنين برفقه ولطفه، إذ جعل فريضة الصيام ﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ فلم يفرض عليهم صوم الدهر، وإنما طالبهم بالصيام مدة شهر، هو أحق الشهور بالذكر والشكر ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ ﴾ - ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ - ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وتخفيفاً عن المسلمين ورحمة بهم، اكتفى منهم بصيام النهار دون وصال بالليل، فقال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ - ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الَابْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الَاسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَيْلِ ﴾.

وإمعاناً في الرفق والرحمة بعباده، لم يجعل الحق سبحانه وتعالى أيّ حرج على المريض والمسافر في الإفطار خلال أيام المرض وأثناء

السفر، بدلاً من الإمساك، على أن يقضي المُفْطِر بقدر عدد الأيام التي أفطر فيها أياماً أُخَر، تعويضاً عمّا أفطر، وإنما يُباح الفطر للمسافر إذا لم ينوِ إقامة أربعة أيام فأكثر بالمكان الذي انتقل إليه، فإذا نوى الإقامة به أربعة أيام فأكثر لزمه الصيام منذ وصوله، ولم يجزْ له الفطر، وقد اعتبر علماء الإسلام في حكم المريض المرأة الحامل والمرأة المرضع إذا خافتا على نفسهما من الصيام، أو خافت الأولى على حملها والثانية على رضيعها، وفي هذا السياق قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنَ اَيَّامٍ اخَرَ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾.

أما الذين فقدوا القدرة على الصيام كالشيخ الهرم الذي بلغ من الكبر عتيّا، والمرأة الكبيرة التي عجزت عن الإمساك، فقد رخّص الإسلام لهما ولمن ماثلهما بالإفطار، على أن يقوموا بإطعام مسكين واحد، فدية عن كل يوم، ولا قضاء عليهم بالمرة، وذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الذِينَ يُطِيقُونَهُ ـ أي يتشجمونه ويتكلفونه على مشقة ـ فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسَـٰكِينَ ﴾ على ما قاله ابن مسعود وغيره.

وفي نفس هذا السياق تناولت الآية الكريمة بالذكر عبادة أخرى لها شَبَه قريب بالصيام، ألاَ وهي عبادة الاعتكاف، حيث يعتزل المومن الحياة اليومية العادية، وينفرد عن أهله في ركن من أركان المسجد، مكرساً وقته للعبادة والتبتل دون بقية الشؤون، وهذه العبادة يمكن القيام بها في رمضان وغيره، ولمدة قصيرة أو طويلة، وكان الرسول ﷺ يفعلها في رمضان، ولا يتجاوز اعتكافه عشرة أيام، والشرط المجمع عليه في هذه العبادة هو الامتناع أثناء

مدة الاعتكاف عن المباشرة بتاتاً، ليلاً ونهاراً، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ، تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ، فَلَا تَقْرَبُوهَا، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ واتفق الإمامان مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما على اشتراط الصوم في الاعتكاف، استناداً إلى قوله ﷺ: «اعتكف وصم».

ومن أدب فقهاء الإسلام مع كتاب الله، أنهم اصطلحوا في مصنفاتهم على عقد باب خاص بالاعتكاف ووضعه في الترتيب بعد الانتهاء من الباب الخاص بالصيام، تأسياً بهذه الآيات الكريمة التي ذكرت الاعتكاف في أعقاب الآيات المتعلقة بالصيام.

أما طريقة كسب المال الحلال، فتنحصر في كسبه بالحق لا بالباطل، أي عن طريق الكسب المشروع الذي ارتضاه الشارع وأقرته حكمة التشريع، مقابل منفعة محققة يجنيها كلا الطرفين، على أن يتم ذلك عن طيب نفس، لا عن إكراه أو اضطرار أو إحراج، وكل كسب لم تتوفر فيه هذه الشروط وما ناسبها فهو كسب حرام، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض دون سبب مشروع، والتعبير هنا بكلمة (أموالكم) جاء على غرار التعبير الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وقوله تعالى في سورة النور: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ بمعنى: لا يقتل بعضكم بعضاً، وليسلّم بعضكم على بعض.

وهذا التعبير القرآني إنما جاء متشابهاً في هذه الآيات الكريمة كلها لحكمة ومغزى، وكأنه يلفت نظر المسلمين إلى ما يجب أن

يكونوا عليه من الامتزاج والاندماج فيما بينهم، حتى يكونوا أسرة واحدة، بل ذاتاً واحدة.

فمن أكل مال أخيه المسلم بالباطل فقد أكل مال نفسه في حقيقة الأمر، ومن اعتدى على أخيه المسلم بالقتل فقد اعتدى على نفسه قبل الغير، كما أن من سلَّم على أخيه المسلم فقد سلَّم في الحقيقة على نفسه، لأن المجتمع الإسلامي لا يكون (إسلامياً) إلّا إذا كان مجتمعاً قائماً على التضامن والتكافل والتعاون والتآخي التام، بحيث لا يسيء أي فرد من أفراده إلى الباقين.

أما إذا أساء المسلم إلى إخوانه، واعتدى على حقوقهم، وألحق الأذى بمصالحهم، فإنه يفتح الباب على مصراعيه ـ بحكم التقليد والعدوى وغريزة الانتقام ـ ليسيئوا بدورهم إليه، وليعتدوا على حقوقه، وليلحقوا أكبر الأذى بمصالحه، جزاءاً وفاقاً، وهكذا يصدق عليه المثل العربي الشهير: «على نفسها جَنَتْ بَرَاقِش».

وأما وجوه إنفاق المال التي يحضُّ عليها الإسلام ويعطيها الأولوية بعد كفاية حاجات النفس والعيال المشروعة، فهي الإنفاق في وجوه البرِّ التي لها أثر اجتماعي مباشر، ونفع إنساني مُحَقَّق.

وذلك مثل الإنفاق على الأقرباء المحتاجين، وعلى اليتامى الفقراء العاجزين عن الكسب، وعلى المساكين الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، وعلى السائلين الذين لا يسألون الناس إلحافاً، وعلى أبناء السبيل العابرين من بلد إلى بلد في طلب علم أو أداء عبادة، وعلى الأرِقَّاء، بغية تحريرهم من الرّق، وأسارى

المسلمين، اقتداء لهم من الأسر، وهذا ما ينص عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي الْقُرْبَىٰ، وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَالسَّآئِلِينَ، وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ، وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ ﴾.

ويتكرر هذا المعنى في نفس سورة البقرة بنزول قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ، وَالْأَقْرَبِينَ، وَالْيَتَٰمَىٰ، وَالْمَسَٰكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

وواضح بموجب هذه الآيات الكريمة، أن في المال حقاً سوى الزكاة، فقد ذكرت الزكاة على حِدَة، منفصلة ومستقلة في آخرها، كشيء زائد على بقية وجوه الإنفاق التي ذكرت مفصَّلة في أولها.

ولا حاجة إلى التنبيه على الأهمية الكبرى التي يعطيها كتاب الله لإنفاق المال في وجوه البرّ وأنواع الإحسان، بحيث لا يغني عنه ولا يقوم مقامه مجرد التعبّد الفردي والتبتل الشخصي الذي لا يستفيد منه إلا شخص المتعبد وحده، فمن رزقه الله المال ينبغي أن يجمع بين الحسنيين: عبادة الله بالصلاة وغيرها فرضاً ونفلاً، وشكر الله بالإنفاق في وجوه البر وجوباً وتطوّعاً، زكاة وصدقة، وبذلك يندرج في عداد العابدين الشاكرين، ويسجل في سجل الصابرين الصادقين.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ إلى

قوله: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ ﴾ إلى آخر الآية. وإلى المتّصفين بهذه الصفات يشير أيضاً قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ الذِينَ صَدَقوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

وسيراً في نفس الاتجاه الذي خطّه دستور الإسلام الخالد، وهو أن للمال وظيفة اجتماعية سامية، ألَا وهي الإسهام في إسعاد المجتمع ورفاهيته ورفع مستواه، وتوزيع الثروة بين أفراده على أوسع نطاق، لم يقتصر كتاب الله على ذكر نماذج من وجوه البر التي يطالب المسلمين بالإنفاق فيها وهم على قيد الحياة، بل امتد نظره إلى ماذا سيكون مآل أموالهم وماذا سيفعل بها بعد موتهم.

فنزلت آيات خاصة بالمواريث تحدد فرائض الوارثين في تركة مَوْرُوثهم تحديداً قاطعاً لا تبديل فيه ولا تغيير ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ إلى آخر آيات الميراث التي ستأتي مع تفسيرها بحول الله وقوته في سورة النساء.

وفي حق هؤلاء اكتفى الشارع بتحديد أنصبة الإرث الخاصة بكل وارث، ومنعهم من الانتفاع بالوصية، اكتفاء بما نالوه من إرث، طبقاً لقوله ﷺ عام الفتح: «لا وصية لوارث».

أما أقرباء المسلم وذوو أرحامه الذين لا يدخلون في عداد الوارثين ولا ينجر إليهم أدنى حق في التركة، فهؤلاء قد حضَّ الإسلام على الوصية لهم، إنْ كانت ثروة المسلم الـذي ينتمون لقرابته تتسع للورثة الأصليين وبقية الأقربين، وذلك ما ينبغي فهمه من قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ

ٱلْمَوْتُ إن تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

ولا يستغربن السامع ذِكْرَ الوالدين هنا في سياق الوصية دون الإرث، فهناك من الوالدين من لا حق له في الإرث، وهناك من الأقارب مَنْ لا حق لهم فيه أيضاً، مثال ذلك الأم الكتابية التي ليست على دين ابنها المسلم، والزوجة الكتابية التي ليست على دين زوجها المسلم، فهذه الأم لا ترث ابنها، وهذه الزوجة لا ترث زوجها، وإنما أباح الله في حق مثلهما الوصية دون الإرث، فيمكن لولد الأولى أو لزوج الثانية أن يوصي لها قبل وفاته بنصيب من ثروته، لكن يجب أن تكون هذه الوصية (بالمعروف) كما قال الله تعالى، أي بحيث لا تؤدي إلى الإجحاف بحقوق الورثة الشرعيين، وتكون في حدود الثلث الجائز فما دونه.

والوصية لهؤلاء ومَنْ في حكمهم ليست في درجة الوجوب، وإنما هي أمر مُرَغَّب فيه ومطلوب، وذلك بالنسبة لمن يرغب في صلة رحمه، وستر ذويه من بعده، جزاء ما بذلوا في سبيله من اعتناء وبرور، وجهد مشكور، حتى لا يُوصَم بالتقصير في حقهم، ونكران جميلهم، ولهذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه أحكام القرآن: «قوله تعالى ـ على المتقين ـ يدل على كونه ندباً، لأنه لو كان فرضاً لكان على جميع المسلمين، فلما خصَّ الله تعالى به من يتقي، أي مَنْ يخاف تقصيراً، دل على أنه غير لازم».

وفي هذا الربع أيضاً تناولت الآيات الكريمة حكم القصاص

والحكمة في تشريعه، وقد كان هذا الحكم الإسلامي الحاسم تدشيناً لعهد السلام والأمن بين الناس، إذ وضع حداً لسفك الدماء وإزهاق الأرواح بدون حق.

وأشارت نفس الآيات إلى أن تقرير حدّ القصاص على أساس من العدل والمساواة، إنما هو وسيلة فعّالة للحد من جرائم القتل، وإقامة حياة آمنة مطمئنة يعيش في ظلالها الجميع عيشة راضية، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى، ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وخُتمت آيات هذا الربع من القرآن الكريم باستنكار الرشوة والنهي عنها، والتحذير من أكل أموال الناس عن طريقها، والتنبيه إلى الإثم البالغ الذي يقع فيه الراشي والمُرتشي من المحكومين والحكام، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عطفاً على قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾.

وهكذا وقفت توجيهات القرآن الكريم، وتعاليمه السامية، تؤيد الحق ضد الباطل، وتنصر العدل ضد الظلم، وتضع حداً للأنانية والطمع في جميع المجالات، ولا سيما مجال العلاقات الاجتماعية وما تقوم عليه من المعاملات.



الرّبع الأخير من الحزب الثالث
في المصحف الكريم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ

بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾
وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا
ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ
ٱلْهَدْيِ ○ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا
رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا
رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ
مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ
ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم
مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن

قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

الرّبع الأخير من الحزب الثالث في المصحف الكريم

عبــاد الله.

يبتدىء الربع الأخير من الحزب الثالث الذي هو حصة هذا اليوم من قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

والموضوع الرئيسي في هذا الربع من سورة البقرة يكاد ينحصر في إعادة تنظيم فريضة الحج، وإرجاعها إلى أصلها الأصيل، حسبما كانت عليه في ملّة إبراهيم الخليل، بغية تخليصها من جميع شوائب الشرك، وتطهيرها تطهيراً تاماً من تقاليد الجاهلية ونزغاتها وشعاراتها ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ، فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ ـ ﴿ وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيٰكُمْ وَإِنْ كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوَ اَشَدَّ ذِكْراً ﴾.

وفي آيات هذا الربع من القرآن الكريم يتجلَّى رفق الإسلام، وما انبنى عليه من السماحة واليسر، حيث يسمح لمن أصابه مرض أو لحقه أذى، أثناء حجه، بارتكاب ما كان ممنوعاً عليه في حالة الصحة وعدم الأذى، والفدية عنه مقابل الرخصة التي رخص له بها الحق سبحانه وتعالى تيسيراً وتخفيفاً، وتعرف هذه الفدية بفدية الأذى ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾.

وفي نفس هذا الاتجاه وعلى أساس القاعدة الإسلامية، قاعدة اليسر ورفع الحرج التي تميّز بها الإسلام، نزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا في الإسلام أن يتجروا فيها (أي خافوا أن ينالهم إثم بالتجارة فيها) فنزلت الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني في مَوْسِم الحج. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه أحكام القرآن: «في هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه» إلى آخر كلامه.

ومما ينسجم مع هذه الآية ويؤكد معناها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ ﴾.

وما دام الحديث في معرض الحج الذي هو أحسن فرصة يتزود فيها المومنون من دعاء الخير ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ فقد أرشد الحق سبحانه وتعالى عباده إلى أحسن طريقة لسؤاله ودعائه أثناء قيامهم بعبادة الحج التي هي مظنة الإجابة، كما نبَّه إلى الطريقة التي ينبغي تجنبها في الدعاء، وبدأ في الذِكْر بالتنبيه على ما ينبغي تجنبه فقال عز من قائل: ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلَـٰقٍ، وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

وهذه الآية تتضمن أمرين:

١ ـ الأمر الأول: استنكار موقف الذين يقصرون دعاءهم في مواطن الخير على ما يهمهم من الشؤون المادية الصرفة، وإنذارهم بأن لا يكون لهم في الآخرة حظ ولا نصيب، ما داموا قد نسوا الدار الآخرة، وهذا يقتضي بطبيعة الحال ذمّهم والتنفير من التشبّه بهم، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، فأنزل الله فيهم: ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾.

٢ ـ الأمر الثاني: تحبيذ موقف الذين لا ينسون آخرتهم بدنياهم ولا دنياهم بآخرتهم، بل يجمعون في دعائهم بين خير الدنيا وخير الآخرة، اهتماماً منهم بالاثنين، وجمعاً بين الحسنيين، طبقاً لأمر الله، وتحقيقاً لمراده، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا

تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾ وهؤلاء هم الذين تعهد لهم الحق سبحانه وتعالى بالإجابة، قال ابن عباس: وكان يجيء آخرون من المومنين فيقولون: ربنا آتنا في الدُّنْيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فأنزل الله: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾، فمدح من يسأله الدنيا والآخرة. قال ابن كثير: «فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومَرْكَب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسّرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما أمر النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يستعمل في دعائه هذه الصيغة الثانية التي أثنى عليها القرآن الكريم. روى الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

ولا بد لنا من أن نقف وقفة خاصة عند قوله تعالى في هذا الربع ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

روى الإمام البخاري في الصحيح بسنده عن حذيفة قال: نزلت هذه الآية في النفقة (أي في الحض عليها، وعدم قبض اليد عنها).

وروى النسائي وأبو داود والترمذي عن أسلم مولى عمران التجيبي قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنكم لتتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سِرّاً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى على نبيِّه يَرُدُّ علينا ما قلنا: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾. وكانت التهلكة هي الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم. قال الترمذي: هذا الحديث حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: هذا الحديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وإذن، فالهلاك الذي هو معنى التهلكة إنما يكون في الواقع إذا اقتصر المسلمون على خدمة مصالحهم المادية، وانهمكوا في ترضية شهواتهم الشخصية، وتركوا حماهم مستباحاً دون قوة ولا قدرة على الدفاع عن أنفسهم، فيستولي عليهم العدو دون تعب كبير.

كما أن هلاك المسلمين يكون نتيجة للشّح والبخل، على

عكس ما يتوقعه بعض ضعفاء الإيمان، من أن الإنفاق والبذل في سبيل الله هما اللذان يؤديان إلى الضياع والخسران، إذ أنه عندما تنقبض الأيدي عن البذل في وجوه البِرِّ والخير ينقلب المجتمع إلى مجتمع بائس عاجز ضعيف منقسم على نفسه، بل ينقلب إلى مجتمع مشلول الحركة عديم النفع من جميع الوجوه ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الرّبع الأول من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ[1]
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾
سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ
نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾
كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ
وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ
بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾
أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟
مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ
يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ

إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ
أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ
كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

الرّبع الأول من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم، نشرع في الحزب الرابع من المصحف الكريم، وفاتحة الربع الأول منه قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ وخاتمته قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَالذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

تشير أول آية في هذا الربع إلى ما شرعه الله للمسلمين من التكبير جهراً عند انقضاء كل صلاة خلال أيام التشريق، ويبتدىء هذا التكبير على ما قاله ابن عمر وابن عباس ومالك والشافعي من صلاة الظهر يوم النحر إلى ما بعد صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وهذا التكبير كما يطالب به المسلم الحاج الذي توجه إليه الخطاب في الأصل، يطالب به أيضاً بقية المسلمين الذين لم يحضروا موسم الحج، وذلك تذكيراً لهم جميعاً بشعائر الحج الخالدة، وبأنهم ـ حاضرين وغائبين ـ أمة واحدة. على ذلك أجمع فقهاء الأمصار والمشاهير من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾.

قال مالك في الموطأ: «الأمر عندنا أن التكبير في أيام التشريق

دبر الصلوات، وأول ذلك تكبير الإمام والناس معه دبر صلاة الظهر من يوم النحر، وآخر ذلك تكبير الإمام والناس معه دبر صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، ثم يقطع التكبير».

قال مالك: «والتكبير في أيام التشريق على الرجال والنساء، من كان في جماعة أو وحده، بمنى أو بالآفاق كلها، واجب، وقال: «الأيام المعدودات أيام التشريق».

ثم تولى القرآن الكريم مرة أخرى في هذا الربع، ومن زاوية جديدة، بيان الوصف الواضح الكاشف، وتقديم التعريف الجامع المانع الذي يعرف المومنين بطائفة المنافقين، وذلك زيادة على ما سبق في وصفهم أول سورة البقرة، فبيّن أن طائفة المنافقين تحاول دائماً سلب العقول وبلبلة الأفكار عن طريق السفسطة والتضليل، وتواجه البسطاء بما يعجبهم ويغريهم، حتى يقعوا في شبكتها من أيسر طريق، ولا تتورّع أن تحلف الأيمان المغلظة، تأكيداً لصدقها المزعوم، وإثباتاً لحسن نيتها المزيفة، إذ أنها تحس من أعماقها بما هي عليه من تزييف يهددها بالفضيحة في كل حين، حتى إذا ما واتاها الحظ وأدركت القصد، انكشفت عورتها، وظهرت حقيقتها، وتبيّن للناس أنها عامل من عوامل الإفساد، لا من عوامل الإصلاح، وأنها سبب من أسباب الهلاك والخسران، لا من أسباب الفلاح والعمران، وذلك قوله تعالى في شأنها: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾ بعد قوله: ﴿ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ﴾ فيه تلميح إلى أن طائفة المنافقين تختار دائماً أن تضرب على الوتر الحسّاس، الذي يهم أكبر عدد من الناس، وهو وَتَر المصالح المادية القريبة، والمنافع الشخصية العاجلة، فعن ذلك الطريق السهل تحاول الوصول إلى أهدافها الملتوية، وأغراضها المنحرفة.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ فيه وصف دقيق لكل فرد من أفراد هذه الطائفة، وهو صورة ناطقة بما عليه المنافقون جميعاً من قدرة خاصة على الجدَل الفارغ، واستعداد خاص للمناقشات البيزنطية العقيمة، وطول نفَس في الأخذ والرد، فهم ثرثارون متفيهقون دائماً، وعليهم وعلى أمثالهم يصدُق قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾.

ثم تزيد الآية الكريمة توضيحاً لحقيقة المنافقين وكشفاً عن مواقفهم المتناقضة، فتنبِّه إلى أن المنافق بعد أن يستولي على العقول البسيطة، ويتمكن من الأمر والنهي في أصحابها طبقاً لشهواتهم، يبلغ به الكِبْر، والإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي، إلى درجة أن يعتقد أنه غني عن كل نصيحة، وغير محتاج إلى أي إرشاد، فمن اتجه إليه مرشداً إياه ولو باسم الله، وإلى تقوى الله، اعتبره مسيئاً إليه، أو متمرداً عليه، وذلك ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾ أي أنه يصبح ناسياً ما كان

يتظاهر به قبل ذلك، حيث كان أمام الناس ﴿ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ فتبين أخيراً أن قوله مجرد زور وبهتان، لا عن عقيدة وإيمان، ثم عقَّبت الآية على ذلك بما ينتظر المنافقين من عذاب شديد، إذ قالت: ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

وعلى عكس طائفة المنافقين التي وصفتها هذه الآيات أدق وصف، تحذيراً من ألاعيبها وتنبيهاً إلى مناوراتها، وتعريفاً بمظاهرها البراقة الخلاّبة حتى لا يقع المسلمون في أشراكها، تولت آيات أخرى وصف المومنين الصادقين أحسن وصف وأصدقه تعريفاً بهم، وتنبيهاً إليهم، حتى يلتف المسلمون حولهم كل الالتفاف، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وهذا يقضي أن هناك طائفة من الناس تكرّس حياتها، وتخصص جهودها، وتبيع نفسها في سبيل الله، ابتغاء مرضاة الله، لا ابتغاء مرضاة الناس، فهي لا تبخل بوقت ولا بجهد في سبيل الصالح العام والخير المشترك، والتعاون على البر والتقوى، وفي سبيل ذلك تتنازل عن شهواتها، وتتخلى عن أهوائها، وتتجرد من أنانيتها، حتى تتقمص فيها روح الجماعة وخيرها، ولا تتحرك إلا بها ولها، امتثالاً لأمر الله، وابتغاء مرضاة الله، ولا شك أن وجود هذه الطائفة من الناس في المجتمعات والأمم نعمة كبرى من أكبر النعم التي ينعم الله بها عليها، إذ بواسطتها يتحقق كثير من الإصلاح، وعلى يدها يزول كثير من الفساد، وبفضل توجيهها والمثل الصالح الذي تضربه لبقية الناس يتم كثير من التقدم والازدهار، وتنتشر بينهم ظاهرة التضحية والإيثار، فهي رحمة من

الله عميقة الأثر في الأفراد والجماعات، وقوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يهيىء لعباده من بينهم من يأخذ بيدهم، ويمهد لهم سبل الصلاح والفلاح، على غرار قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ومن المعاني السامية التي يحمل عليها قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ الرجل القويّ من المسلمين الذي يجاهد في سبيل الله، إذا أراد أن يحمل أثناء جهاده على جيش كبير من العدو، وكان ذلك منه بنيَّة خالصة، طلباً للشهادة، فهذا العمل جائز عند المدقِّقين من علماء الشريعة، وتنطبق عليه هذه الآية تمام الانطباق.

قال أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «والصحيحُ عندي جوازه، لأن فيه أربعة أوجه، الأول طلب الشهادة، الثاني وجود النكاية، أي النكاية في العدو، الثالث تجرئة المسلمين عليهم، الرابع إضعافُ نفوس الأعداء، ليروا أن هذا صنع واحد، فما ظنك بالجميع (أي إلقاء الرعب في قلوبهم).

وبهذه الآية استشهد أبو هريرة عندما حمل هشام بن عامر على الصف حتى شقه، فقال أبو هريرة: «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله».

وإليها استند عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أرسل جيشاً فحاصروا حصناً، فتقدم رجل عليه فقاتل فقتل، فقال

الناس: (ألقى بيده للتهلكة)، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال: «كذبوا» أو ليس الله تعالى يقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾.

وتعريفاً بالمنزلة الرفيعة عند الله التي ينالها المومنون المجاهدون في سبيله، قال تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَالذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الرّبع الثاني من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ اِ۬لْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذٗى فَاعْتَزِلُواْ اُ۬لنِّسَآءَ فِے
اِ۬لْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّيٰ يَطَّهَّرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَاتُوهُنَّ
مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اُ۬للَّهُ إِنَّ اَ۬للَّهَ يُحِبُّ اُ۬لتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ
اُ۬لْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٞ لَّكُمْ فَاتُواْ
حَرْثَكُمُۥٓ أَنّ۪يٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ
اُ۬للَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ اِ۬لْمُومِنِينَ ﴿٢٢٣﴾
وَلَا تَجْعَلُواْ اُ۬للَّهَ عُرْضَةٗ لِّأَيْمَٰنِكُمُۥٓ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ
وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ اَ۬لنَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُوَاخِذُكُمُ
اُ۬للَّهُ بِاللَّغْوِ فِےٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُّوَاخِذُكُم
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾
لِّلذِينَ يُولُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٖ فَإِن
فَآءُو فَإِنَّ اَ۬للَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ اُ۬لطَّلَٰقَ
فَإِنَّ اَ۬للَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَّكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اَ۬للَّهُ فِے
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُومِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِ۬لْأٓخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ
بِرَدِّهِنَّ فِے ذَٰلِكَ إِنْ اَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحاٗ وَلَهُنَّ مِثْلُ اُ۬لذِے

عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ
وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا
أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا
تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾
فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ
طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا
حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

الرّبع الثاني من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

عبــاد الله

حديث اليوم يتناول الـربع الثـاني من الحزب الـرابع في المصحف الكريم، وهذا الربع يبتدىء بقوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

في هذا الربع من سورة البقرة، يتناول القرآن الكريم عدة موضوعات في غايـة الأهمية، بـالنسبة لـلأسرة المسلمـة والمجتمع الإسلامي، فمن أحكام تتعلق بالحياة الزوجية العادية، وما قد ينشأ في طريقها من العوائق الطبيعية أو العارضة، كما تتعلق بكفـالة اليتامى وحضانتهم، ومن أحكام تتعلق بحلف الأيمان المقصود منها وغير المقصود، ومن أحكام تتعلق بخِطْبة النساء، وأخرى تتعلق بأمر الزواج بين المسلم وغير المسلمة، وبين المسلمة وغير المسلم، ومن أحكام تتعلق بالخمر والميسر، وحرص الإسلام على تطهـير المجتمع الإسلامي منهما ومن آثامهما وآثارهما.

وواضح أن ضيق الوقت المخصص لحصتنا اليومية لا يتسع

لإلقاء نظرة على هذه الموضوعات جميعاً، فسنقتصر على بعضها دون البعض، على أن نتدارك الباقي في أول مناسبة قادمة.

وأول آية تواجهنا في هذا الربع من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ فقد أحسَّ المسلمون بفطرتهم السليمة، التي أزال الإسلام عنها غشاوة الجاهلية أن الخمر والميسر لم يعد لهما مكان ولا معنى في المجتمع الإسلامي الناشىء، وأنهما قد فقدا كل مبرر كان يبررهما من تقاليد الجاهلية، الفاسدة، ونخوتها الكاذبة، وَفَوْضَاهَا الاجتماعية، وروحها الإباحية، فالإسلام كما يحسُّ ويشعر به كل مسلم يتلقى كلام الله من فم رسول الله غضاً طرياً بمجرد ما يوحى إليه، ليس دين لَهْوٍ، ولا ملَّة عبث، ولا شريعة فوضى وإباحية، والمسلمون الذين يُعِدُّهم الحق سبحانه وتعالى لحمل الأمانة إلى كافة البشر أخذوا يدركون من تلقاء أنفسهم أنه لا يناسب مقامهم، ولا ينسجم مع رسالتهم ـ وهم شهداء على الناس جميعاً ـ أن يكونوا سكارى معربدين، ولا مقامرين مخامرين، ولذلك وجَّه المسلمون السؤال إلى رسول الله عن الخمر والميسر، اقتناعاً مسبقاً منهم بأن طبيعة الإسلام ورسالة الإسلام لا تتفقان معهما في شيء، وكان الجواب هو ما تقتضيه حكمة التربية الإلهية التدريجية التي درج عليها الإسلام، بتوجيه من الله، في تربية المسلمين، وتنظيم حياتهم اليومية مرحلة بعد مرحلة: ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ فلم ينكر الجواب أن يكون لفريق من الناس منفعة مادية خاصة في تجارة الخمر وترويجها،

وفي مغامرة القمار وتنظيمه، إذ الواقع في حياة الناس يؤكد هذا المعنى، وإن كان معنى أنانياً مادياً صرفاً لا أساس له من الدين ولا من الأخلاق.

غير أن كتاب الله طبع على الخمر والميسر بطابع (الإثم) الذي يتحاشاه كل مسلم ولا يرضاه، وبطابع (الإثم الكبير) الذي هو أخطر وأفحش من الإثم اليسير.

وبديهي لمن عرف فطرة الإسلام وتملّى من روحه أن ما غلب جانب المفسدة فيه على جانب المصلحة كان حَرِيّاً بالتحريم، كما أنه من البديهي أن المومن بالله يتحرّى ما فيه الأجر والثواب لا ما فيه العقاب والتأثيم، وبذلك كان الجواب في شأن الخمر والميسر ضدهما لا في صالحهما، وإنذاراً لمن لا يزال مُبتلى بالإدمان عليهما، بِقُرب أجل تحريمهما تحريماً صريحاً لا رجعة فيه، وذلك عندما ينزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَـٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وقد أثبتت الأيام صدق نظر الإسلام، فأجمع علماء الطب، وعلماء الاقتصاد، وعلماء الاجتماع، الجديرون بحمل هذه الصفة، على أن الخمر والميسر لهما من الآثار الفاسدة على حياة الأفراد والجماعات ما يعتبران معه من أكبر أعداء الإنسانية، ومن أعظم عوامل التخريب والتدمير للحضارة والمدنية، وقد تكونت لمحاربتهما في مختلف البلدان ومن مختلف الملل والنحل عدة هيآت دولية، ونادت بمكافحتهما منظمة الصحة العالمية نفسها، وكان الإسلام هو

الرائد الأول للجميع في هذا الميدان الاجتماعي الإصلاحي الخطير كشأنه في بقية الميادين.

وأمامنا آية كريمة ينبغي الوقوف عندها لتوضيح معناها وتحديد مداها في موضوع زواج المسلم بغير المسلمة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ فهذه الآية الصريحة تنبه المسلمين إلى أن وحدة العقيدة التي ينطوي عليها قلب الزوج والزوجة أمر مطلوب ومرغوب، بل أمر ضروري لوحدة الأسرة وأمنها واستقرارها، إذ من المستحيل أن تقوم رابطة الزواج من الناحية المادية الصرفة مقام العقيدة الأساسية التي ينطوي عليها قلب الزوج والزوجة، والتي تضمن اشتراكهما الفعلي في نظرة واحدة، وَمِنْ زاوية واحدة، إلى الحياة الدنيا والحياة الأخرى معاً، وفي نظرة واحدة، وَمِنْ زاوية واحدة، إلى القِيَم الروحية والأخلاقية التي يجب أن تسود حياة الأسرة والأولاد.

ومن أجل ذلك منع على المسلم التزوج بالمُشْرِكة، ويدخل في عداد المشركة الممنوع زواج المسلم بها الكتابية المسيحية التي تعتقد أن المسيح ابن مريم هو الله أو ابن الله، واليهودية التي تعتقد أن عزير ابن الله، وذلك طبقاً لما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر أنه قال: (لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى) على أساس أن كل كافر هو في الحقيقة مُشْرِك، غير أن بقية العلماء رأوا أن الكتابية لا تدخل تحت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ وإنما تدخل تحت ظاهر آية أخرى وهي قوله تعالى:

﴿ وَالْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ﴾ فيباح التزوج بها على هذا الرأي، باعتبار أن المسلم والكتابية قد يلتقيان في أصل الاعتقاد بالله، وإنْ كان التصور الإسلامي لعقيدة التوحيد لا يتفق بتاتاً مع عقيدة التثليث، ولعل هذه الرخصة استقر العمل بها ودَوْلَةُ الإسلام في عنفوانها، ودعوة الإسلام تتلمس جميع الطرق لتسربها وانتشارها في العالم، فكانت حينئذ في صالح الإسلام لا في صالح غيره.

هذا وقد روى ابن جرير الطبري بسنده إلى عبدالله بن عباس أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلّا ما كان من المومنات المهاجرات، وحرم كل ذات دين غير الإسلام». قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بالإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ وقد نكح طلحة ابن عبدالله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر ابن الخطاب غضباً شديداً، حتى همَّ أن يسطو عليهما فقالا: «نحن نطلق يا أمير المومنين ولا تغضب». فقال: «لئن حلَّ طلاقهن لقد حلَّ نكاحهن، ولكنّني أنتزعهن منكم صَغَرة قُمَاة» أي أذلاء صاغرين.

كما روى ابن جرير عن شقيق وهو ابن سلمة الأسدي أنه قال: «تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر: خَلِّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال: لا. لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن»، أي تخوضوا في الزواج من الزانيات. ثم عقب ابن جرير على ذلك بقوله: «وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني».

واليوم قد تبدلت أوضاع الحياة، وانتشر هذا النوع من الزواج المختلط انتشاراً فاحشاً، وبرزت آثاره الحتمية الفاسدة في تربية أبناء المسلمين وبناتهم في أحضان الأمهات غير المسلمات، اللاتي يسيطرن على الزوج وبيته سيطرة تامة تجعل الأسرة كلها منعزلة عن المجتمع الإسلامي كل الانعزال، ومرتبطة قبل كل شيء بالأخوال والأصهار والجدات من غير المسلمين كل الارتباط، تتجدد مخاوف علماء الإسلام في كل بلد، وتعود نظرية عمر بن الخطاب في كراهية هذا الزواج المختلط، والتنديد به إلى الظهور، ويبرز من جديد بُعْدُ نظر هذا الخليفة العبقري الذي كان مفخرة الخلفاء الراشدين، ويبدو للجميع أن موقفه بالنسبة للظروف الحاضرة أصبح أوفق وأنسب بمصالح المسلمين.

على أن مضار الزواج المختلط وعواقبه الوخيمة أصبحت مسلماً بها من وجهة النظر القومية والسياسية البحتة عند كثير من الدول غير الإسلامية، إذ منعت هذه الدول من التوظف في مناصب الدولة العليا العسكرية والدبلوماسية كل المواطنين المتزوجين بزوجات من غير جنسيتهم، حتى ولو كُنَّ على نفس ديانتهم، كل ذلك احتياطاً على أسرار الدولة في الميدانين العسكري والدبلوماسي، تلك الأسرار التي لا شيء يضمن عدم تسربها إلى الأعداء في بيت مختلط الزوجية.

ومن لطائف التفسير المتعلقة بالآية التي هي موضوعنا ما ذكره القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه (أحكام القرآن) من أن كلمة (أَمَة) في قوله تعالى: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَو

أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ لم يُرِدْ بها الرقيق المملوك، وإنما أراد بها (الآدمية والآدميات)، والآدميون بأجمعهم هم عبيد الله وإماؤه، ونسب هذا التفسير إلى قاضي البصرة أبي العباس الجرجاني رحمه الله، إلا أن حملها على الرقيق المملوك ـ في نظره ـ أبلغ في المقارنة والتفضيل بينها وبين المشركة، إذ يكون المعنى عليه أن المومنة وإنْ كانت مسترقة وناقصة في درجتها بسبب الرِّقيّة، فإنها تعتبر أفضل من المشركة، رغماً عن كونها حرة وذات جمال، وذلك لإسلام الأولى وشِرْك الثانية.

وخير ما نختتم به هذا الموضوع ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تنكح المرأة لأربع، لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك» وما جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

الرّبع الثالث من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

وَالْوَٰلِدَٰتُ
يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى
ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا
وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى
ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا
وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟
أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾
وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ

فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ
سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ○ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)
لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ
تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ
وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)
وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ
فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي
بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)
حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ
قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

الرّبع الثالث من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم، تتناول الربع الثالث من الحزب الرابع في المصحف الكريم، وهذا الربع يبتدىء من قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَـيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وينتهي بقـولـه تعـالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌ بِالْمَعْرُوفِ، حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وقد تناولت الآيات الكريمة في هذا الربع بجـانب أحكام الرضاعة، عدة الوفاة، والتعريض بخِطْبة النساء أثناءها، فقـال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ إلى آخر ما نزل في هذا الموضوع، وتناولت الطلاق قبل التمكن من الدخول، والصداق المحدود حين العقد والمحدود بعده، فقال تعالى:﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّـوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُـواْ لَهُنَّ فَرِيضَـةً ﴾ إلى آخر مـا نزل في نفس الموضوع، وتناولت وجوب المحافظة على الصلوات في حالتي الأمن والخوف، فقال تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ إلى آخر الآيات، وتناولت كذلك المتعة التي

يقدمها الزوج لزوجته عند الفراق، فقال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

والآن فلنستعرض الآيات الأولى من هذا الربع المتعلقة بموضوع إرضاع الوالدات لأولادهن، ثم لنلق نظرة خاصة على كل واحدة منها، تحليلاً وتوضيحاً لهذا الموضوع، الذي حكم الله فيه من فوق سبع سماوات، لأهميته وخطورته، قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَـٰعَةَ، وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا، لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ، وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ، فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ، وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ومن هذه الآيات التي اشتمل عليها الدستور القرآني الكريم يتجلى مبلغ عناية الإسلام بتكوين نسل إسلامي صحيح سليم، ويتضح ما للطفل الوليد على ضعفه وضآلته من مكانة مرموقة وحرمة خاصة عند خالقه ورازقه، فهو سبحانه لم يترك أمره موكولاً إلى شهوة الأب والأم، يفعل به كل منهما ما يشاء، بل تدخل الحق سبحانه وتعالى لتقرير حقوق الطفل على والديه، وطالبهما بصيانة هذه الحقوق وضمانها على الوجه الأكمل، منذ اللحظة الأولى التي يفارق فيها بطن أمه ويرى النور.

وطبقاً لمقتضى هذه الآيات تتكفل الأم نفسها بإرضاع

وليدها، أداءً لرسالة الأمومة على وجهها الكامل، دون كبر ولا بخل ولا أنانية، ما دامت صحيحة سليمة، وتمتد مدة الرضاعة من ثدييها عامين كاملين، وذلك تمكيناً للوليد من تغذيته تغذية طبيعية نظيفة، وحماية له من الجراثيم والعناصر الغريبة من جهة، ومن المواد الغذائية التي لا يقوى جهازه الضعيف على هضمها، من جهة أخرى، حتى يمر الوليد بمرحلة نموه الأولى ـ وهي أخطر المراحل ـ في سلامة وأمان، وراحة واطمئنان، فهذه هي الرضاعة التامة التي ينصح بها كتاب الله، إذ يقول: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِمَنْ اَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَـٰعَةَ ﴾ قال الإمام مالك: كل أم يلزمها رضاع ولدها بما أخبر الله تعالى من حكم الشريعة فيها.

لكن إذا كانت للزوجين ـ الأب والأم ـ أو لأحدهما مصلحة مشروعة تستلزم التخفيض من مدة الرضاع المقدرة بسنتين، وتقتضي فطام وليدهما بعد مرور ما يقارب السنتين، ولم يكن ينتج عن هذا التخفيض والفطام المبكر أي ضرر على الوليد، فإن الشارع لا يقف في طريق التخفيض ولا يؤاخذ عليه، بشرط أن يتم كل ذلك بعد اتفاق الأب والأم عليه، وتشاورهما وتراضيهما في شأنه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَ اَرَادَا فِصَالاً ﴾ أي فطاماً لوليدهما ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾.

ولم يغفل كتاب الله الإشارة إلى الحكم المشروع في الأحوال التي قد يُضطر فيها إلى الاستغناء عن إرضاع الأم لوليدها، وتأجير ظئر لإرضاعه بدلاً منها إذا كان يقبل الرضاع من غير أمه، مثال ذلك أن تكون الأم غير قادرة على القيام بإرضاع وليدها بحيث

يخشى عليه من الضياع والتقصير إذا بقي في حضنها، أو أن يكون الأب في حالة فيزيولوجية لا تسمح له بالاستغناء عن زوجته مدة الرضاعة، بحيث يتضرر باشتغالها عنه، ويطالبها بالتفرغ له، أو أن يكون الأب والأم يخافان على وليدهما من آثار الغَيل وعواقبه السيئة، ففي مثل هذه الأحوال يتخيَّر الأبُ لوليده مرضعة بأجر تنوب عن أمه، إما حفظاً لمصلحة الوليد، وإما حفظاً لمصلحة الوالدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

ولا حاجة إلى التنبيه على أن قيام غير الأم بإرضاع الوليد خلال المدة المعتادة للرضاع ينزل مرضعته منه منزلة الأم، فتحرم عليه هي وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب، ومن صور هذا الحكم قوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ ﴾ عطفاً على قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ الآية. وثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب».

ونظراً إلى أن نفقة الولد تجب على والده بحكم الشرع، ونظراً إلى أن تغذية ولده الرضيع إنما تتم عن طريق الرضاعة التي تقوم بها والدته، أو مَنْ ينوب عنها في إرضاعه، فقد أوجب الله على والد الرضيع أن ينفق على والدته أو مرضعته من غير تقتير ولا إسراف، في حدود استطاعته وعلى قدر حاله من سعة أو ضيق، ويشمل الإنفاق كل ما يلزم لمعيشتها وكسوتها، ويظهر وجه الحاجة

إلى لزوم هذه النفقة بالنسبة للأم التي طلّقها الأب قبل ولادة الطفل، أو طلقها عقب ولادته وإبّان الرضاعة ولم يقبل الطفل إلا ثديها، وذلك قوله تعالى في هذا الربع من سورة البقرة: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾.

وكما حكم الله بالنفقة من أجل الرضاعة فقد حكم بها للمرأة الحامل، فأوجب الإنفاق عليها لصالح حملها إلى حين الوضع بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾.

وهذه الأحكام الشرعية التي نص عليها كتاب الله تؤكد صحة أصل شهير من أصول التشريع الإسلامي ألا وهو «أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب مثله»، وقد حكى ابن جرير وابن كثير عند تفسير قوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ أن على الوارث مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها، وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور فيما حكاه ابن كثير.

وفي هذا المجال العاطفي المعرض للضغط والاستغلال ـ وهو مجال رضاعة الطفل وتربيته الأولى ـ نبّه القرآن الكريم كلاً من الأب والأم إلى وجوب الابتعاد عن كل ما من شأنه إلحاق الضرر من أحدهما بالآخر، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾.

وبناء على هذا الحكم الإلٰهي القاطع لا يحلّ للأم أن تمتنع عن إرضاع وليدها وتدفعه عنها، رغبة في الإضرار بأبيه، كما لا يحلّ للأب أن ينتزع الوليد من أمه ويمنعها من إرضاعه، بغية الإضْرار بها.

ولعل من أوضح الواضحات أن الوالدات المسلمات إذا نفَّذن وصية القرآن الكريم على وجهها الكامل، وخصَّصْن لإرضاع أولادهن عامين كاملين دون حمل ولا غَيَل، فإنه يُسدِين بذلك أكبر خدمة لأولادهن من جهة، وإلى أنفسهن من جهة أخرى، فالأولاد يتمتعون بغذائهم الطاهر المفضل الذي يتلقونه من أثداء الوالدات مدة كافية، دون حدوث أي ارتباك في أمعائهم، والوالدات يأخذن وقتاً كافياً للراحة والاستجمام من عناء الوضع والحمل، وفي نفس الوقت يجدن من الفراغ ما يساعدهن على العناية بتنشئة وليدهن الرضيع تنشئة مثالية سليمة، دون إرهاق ولا اضطراب.

ومما يناسب التنبيه إليه في موضوعنا أن اشتراط كتاب الله لشرط التراضي والتشاور بين الأب والأم في شأن رضاع وليدهما وفطامه معناه أن الوليد ـ وإن كان ثمرة غرسهما ـ فإنما هو وديعة من الله بين أيديهما، وأن الواجب يقضي عليهما بأن ينظر كل منهما إلى مصلحته وسلامته، ويزنها بالوزن الدقيق، وأنه لا يجوز لأحد منهما أن يستبد دون الآخر بتقرير مصير الطفل، كما قاله سفيان الثوري وغيره، بحيث لا يتصرفان في شأنه ولو في هذا السن المبكر، إلا بما يضمن مصلحته ضمانة محققة من جميع الوجوه.

ويقوِّي هذا المعنى ويزيده تركيزاً وتثبيتاً صيغة التعقيب الذي

جاء بعد الانتهاء من موضوع رضاعة الأطفال بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ، وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مما فيه حضّ بالغ على وجوب التحري في هذا الأمر، ومراقبة الله فيه مراقبة دقيقة.

وإذا كان لأمر رضاعة الطفل وفطامه من الأهمية البالغة ما جعلهما موضوع عناية القرآن الكريم حتى خصص لهما عدة آيات بيّنات، فما بالك بتربية الطفل الأخلاقية، وتنشئته على الروح الإسلامية ليكون عضواً نافعاً للمجتمع، متمسكاً بالدين معتزاً بالوطن.

وإذا كانت رضاعة الطفل وفطامه مما تجب فيه المشاورة والتراضي بين الوالدين كما قال تعالى في هذا الربع من سورة البقرة: ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾ وكما قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ بعد ذكر المطلقات اللاتي يقمن بإرضاع أولادهن، وقوله: ﴿ فَإِنَ اَرْضَعْنَ لَكُمْ فَئَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ فما بالك ببقية شؤون الأسرة الأخرى، فالمشاورة فيها تعتبر من باب أولى وأحرى، وذلك توجيه من الله تعالى لعباده المومنين، أن يجعلوا من أسرهم أسراً قائمة على التعاون، ومن بيوتهم بيوتاً مؤسَّسة على التضامن، يتكامل فيها رأي الزوج برأي الزوجة، وتدبير الأب بتدبير الأم.

ثم إذا كانت مملكة البيت الصغرى يجب أن تقوم في نظر الإسلام ووحي القرآن على أساس الائتمار بالمعروف والتراضي والتشاور، تحصيناً لها من الدمار، وضماناً لما يلزمها من الاستقرار، فإن مملكة الإسلام الكبرى لا تزدهر ولا تستقر إلا إذا كانت

الشورى بالحق دستورها، والتعاون على البرِّ شعارها، والائتمار بالمعروف رائدها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾.

وبهذا يتجلى لمن ألقى السمع وهو شهيد، من القريب والبعيد، أن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الإسلام منطقي مع نفسه، بحيث تتناسق جزئياته مع كلياته، وتتوافق تطبيقاته مع نظرياته، ﴿ وَتَمَّتْ كلمات رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾.

الرّبع الأخير من الحزب الرابع في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيٰرِهِمْ وَهُمُۥٓ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيٰاهُمُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الذِے يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنۢ بَنِےٓ إِسْرَآءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِےٓءٍ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسِيتُمُۥٓ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ

قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن
فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾
فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ
ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا
دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ
ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

الرّبع الأخير من الحزب الرابع
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موعدنا اليوم مع الربع الأخير من الحزب الرابع في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيٰـرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْياهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ونهايته قوله تعـالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَـا عَلَيْـكَ بِـالْحَقِّ، وَإِنَّـكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

من خصائص القرآن الكريم أنه يقص على الرسول الأعظم وأمته المستخلفة في الأرض أحسن القصص، دفعـاً إلى الموعـظة والاعتبار من جهة، وضرباً للمثل بواقع التاريخ من جهة أخرى، وهذا الربع الذي نحن بصدده من هذا القبيل، فقد تناولت أغلب آياته الكريمة قصة تجري وقائعها بأرض فلسطين بعد مرور حقبة من الدهر انتصر فيها الفلسطينيون على بني إسرائيل، وهزموهم هزيمة شنعاء، واستولوا على التابوت الذي كان بنو إسرائيل يتحصنون به من قبل في حروبهم، تبركاً بما فيه من آثار موسى وهارون، فلما طال أمد الهزيمة على بني إسرائيل لجأوا إلى نبيهم صمويل يطلبون منه أن يختار لهم ملكاً يَلتفون من حوله، عسى أن يغسلوا العار

الذي لحقهم، ويسترجعوا مكانتهم، وهذه القصة تلتقي في بطولتها ثلاثة أسماء بارزة: جالوت وطالوت وداود؛ أما جالوت فهو ملك القوم الذين انتصروا على بني إسرائيل وهزموهم من قبل وأخذوا تابوتهم المقدس، وهو قائدهم الأعلى، وأما طالوت فهو الإسرائيلي الذي رشحه النبي صمويل ملكاً جديداً على بني إسرائيل، إجابة لطلبهم، وأملاً في إعادة الكرة على خصومهم، بعدما ضاع ملكهم واندثر نفوذهم زمناً طويلاً.

وأما داود فهو الفتى الشجاع الذي أردى جالوت قتيلاً بمقلاعه البسيط وأحجاره الملساء، بعدما رأى بني إسرائيل يتساقطون كالذباب أمام جالوت العملاق، وقد كان إقباله على هذه المغامرة بعد استيذان منه لملكه طالوت، الذي زوّجه بعد الانتصار على جالوت وجنوده ابنته (مكيال)، مكافأة له على شجاعته التي أصبحت مضرب الأمثال، الأمر الذي كان بعد ذلك من أقوى العوامل في ترشيح داود لملك بني إسرائيل عندما تخلى طالوت وساح في الفلوات، هائماً على وجهه يتلمس النجاة والتوبة ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَيٰهُ اللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ ﴾.

والذي يهمنا من هذه القصة بالذات، هو ما احتوت عليه مشاهدها من التوجيهات القرآنية السامية، التي يجب أن تكون نبراساً لحياة المسلمين في كل عصر.

أمامَنا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِيٓ إِسۡرَآءِيلَ مِن بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. فهذه الآية تشير إلى أن كبار الأمة وذوي الرأي فيها المعبَّر عنهم هنا

(بالملأ) يجب أن يفكروا دائماً في مصلحة أمتهم، وأن يحاولوا إنقاذها وإصلاح أمرها كلمااقتضى الأمر ذلك، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ كما أنها تشير إلى أن أي عمل جماعي له صبغة العموم والشمول لا ينجح ولا يثمر إلاّ إذا كانت تشرف عليه وتوجهه من أعلى قيادة عليا يطمئن إليها ويطيعها الجميع، وهذا ما يومىء إليه قولهم المحكي عنهم ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي ابعث لنا ملكاً نجتمع عليه، ونلتف من حوله، ونسير تحت قيادته.

أمامَنا قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ وهذه الآية تشير إلى أن الذين يتعرضون لعدوان خارجي تهون عليهم كل تضحية في سبيل الخلاص من يد العدو، ولذلك يقومون بالدفاع عن أنفسهم ويصدون عنهم العدوان بكل ما في الإمكان، على غرار قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.

أمامنا قوله تعالى في بيان فضل طالوت المرشح للملك على غيره من بَنِـي إسرائيل ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَيْهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُوتِي مُلْكَهُ مَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وهذه الآية تشير إلى جملة من الخصال الرئيسية المطلوبة في قائد الأمة ورئيسها الأعلى، وأنه لا يتأهل لرياسة الدولة إلاّ من آتاه الله حَظاً وافراً من الخصائص والمواهب الروحية والجسمية، وكان له شفوف على الباقين، ومكانة مرموقة بين الناس أجمعين.

ومن هذه الآية وما شابهها استنبط علماء الشريعة في (الأحكام السلطانية) التي تقابل في الفقه الإسلامي (القانون والنظام الدستوري الحديث) جملة من الشروط المعتبرة في الإمامَةِ العظمى، فذكروا في طليعتها العلم المؤدي إلى الاجتهاد وحسن النظر في النوازل والأحكام، والرأي المفضي إلى حسن سياسة الرعية وتدبير مصالحها العامة، والشجاعة المؤدية إلى حماية البَيْضَة وصدّ العدو، وسلامة الأعضاء والحواس من كل نقص يمنع من مباشرة المهام، التي هي في عهدة الإمام.

كما تشير نفس الآية إلى أن الرياسة العليا للأمة والدولة لاَ يكفي للبت في أمرها مجرد الهوى الشخصي ومَعسول الأماني، بل إن للحكمة الإلهية ـ التي كثيراً ما تبقى مطويَّة في عالم الغيب ـ دخلاً كبيراً في الترشيح لها والإعانة عليها، وإنْ كره الكارهون، وهذا ما تومىء إليه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُؤتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَآءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أمامَنا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيَ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةَم بِيَدِهِ﴾ وهذه الآية تشير إلى وجوب اختيار الرؤساء لمرؤوسيهم، وقادة الجيوش لعساكرهم، وتنبِّه إلى أن السر كل السر كَامِنٌ في طاعة القيادة العليا وامتثال أوامرها الرشيدة، دون تردد ولا اعتراض، فهذا هو مفتاح النجاح والنصر في مختلف المعارك وفي مختلف العصور.

والاختبار الذي تشير إليه هذه الآية هو في حد ذاته اختبار

بسيط ومهم في نفس الوقت، فالمحارب الذي انكب على النهر يشرب من مائه حتى يمتلىء وهو في طريقه مباشرة إلى الميدان، محكوم عليه مسبقاً بالهزيمة والخسران، إذ هو محارب فاقد للصبر، غير قادر على الاحتمال، قد أثقله العرق وأبطأ به اللهث، وقد أعطى الدليل قبل دُخول المعركة وهو في طريقه إليها على أنه لا يُعير لأوامر قائده الأعلى أدنى اهتمام، بل إنه يعصي هذه الأوامر دون تردد ولا إحجام، فهل يعتمد على مثل هذا في الحصول على النصر، أم أنه عامل أساسي من عوامل الهزيمة؟.

وعلى العكس من ذلك المحارب المتحلي بروح الامتثال، والملتزم لطاعة قائده في كل الظروف، فهذا المحارب الذي امتثل أمر ملكه وقائده طالوت، ولم يسمح لنفسه إلاّ بغرفة من الماء اغترفها بيده من النهر، دون أن يرتوي ولا أن يمتلىء، كان أقدر على مجابهة العدو، وأشد احتمالاً لهول المعركة، وهذا المحارب الصابر ومن ماثله من المحاربين المتحلّين بروح الامتثال والطاعة لقيادتهم، هم الذين تحملوا عبء المعركة، ووصفتهم الآية الكريمة أصدق وصف وأقواه تأثيراً، فقالت عنهم في صيغة إعجاب وثناء ما جعلهم أسوة لمن بعدهم: ﴿ قَالَ الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَم بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ، وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتَ اَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَـٰفِرِينَ، فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

وتختم الآيات الكريمة هذه القصة بتقرير مبدأ أساسي للحياة أقامته الحكمة الإلَهية لضمان التعايش السلمي بين البشر، وفرض

التعاون بينهم على عمارة الأرض وصلاحها، وهذا المبدأ هو مبدأ حفظ التوازن بين القوى المتصارعة، وبث الخوف والحذر في الجبهات المتنافسة، حتى يحسب بعضها الحساب للبعض الآخر، فيصدَّهم ذلك عن الطغيان والعدوان، ويتمكن الإنسان من تحقيق رسالته في الأرض، التي هي رسالة الإصلاح والعمران، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دِفَـٰعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ، ولَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

الرّبع الأول من الحزب الخامس
في المصحف الكريم

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ
مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾
اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ
إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ
أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ
قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ
اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ
كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ
مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ
إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ
قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ
سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ
فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

الرّبع الأول من الحزب الخامس
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

تستغرق حصة هذا اليوم الربع الأول من الحزب الخامس في المصحف الكريم، وأول آية في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنّاً وَلَآ أَذىً لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

في هذا الربع من سورة البقرة تقع آية الكرسي التي تكشف عن جملة من صفات الله العليا وأسمائه الحسنى، تعريفاً بسمات الألوهية وخصائص الربوبية، وهي من الآيات التي من شأن كل مسلم أن يعرفها ويحفظها كما يعرف ويحفظ فاتحة الكتاب: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾.

وفي هذا الربع قصة إبراهيم الخليل، وذكر مناظرته مع ملك من ملوك عصره ادَّعى الربوبية لنفسه، فانتصر عليه إبراهيم بما آتاه الله من حجج بالغة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنَ ـ اتَيٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وفي هذا الربع أيضاً ذكر الدعاء الذي دعا به إبراهيم ربه ليريه كيف يحيي الموتى ويدرك سر الحياة والموت، وذكر استجابة الدعاء الذي دعا به خليل الرحمن ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، قَالَ: أَوَلَمْ تُومِن، قَالَ: بَلَىٰ، وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ إلى آخر الآية.

وفيه كذلك تأكيد للمعاد الجسماني وضرب المثل لوقوعه ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ، فَانظُرِ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ أي لم يتغير أو لم يتعفن ﴿ وَانظُرِ إِلَىٰ حِمَارِكَ، وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ، وَانظُرِ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أي نحييها ونجمعها ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ومما اشتمل عليه هذا الربع إثبات التفاضل بين الرسل بعد تقرير فضلهم على الناس جميعاً، وأنهم درجات بعضها فوق بعض

في الفضل والمنزلة عند الله، وهذا التفاوت الواقع بينهم ليس تفاوتاً في طبيعة رسالتهم نفسها، ولا في مُحتوى عقيدتهم الإيمانية المشتركة، وإنما هو تفاوت في دائرة الاختصاص المحدودة لكل منهم، إذ تضيق بالنسبة لأحدهم فتنحصر في شعب مخصوص دون غيره، وتتسع بالنسبة لبعضهم حتى تشمل شعبهُ وشعوب العالم أجمع، وهو أيضاً تفاوت في المواهب والخصال التي يمنحها الحق سبحانه وتعالى لهم، فمنهم « أولو العزم» الذين يتحملون في سبيل رسالتهم أقسى المتاعب وأشد التضحيات، ومنهم من يتحمل ما دون ذلك، وهذا ما ينبغي فهمه من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ، فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ بعد قوله تعالى في نهاية الربع الماضي: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

ومن أبرز المبادىء والقواعد الأساسية في الإسلام التي اشتمل عليها هذا الربع قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّـٰغُوتِ ﴾ أي بالأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان ﴿ وَيُومِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. فهذه الآية تقرر أن الإسلام دين يقوم الإيمان به على الاقتناع بعقائده الواضحة، والاعجاب بشعائره الكاملة، والرضى بشرائعه العادلة، وأنه دين حجة وبرهان، يوجّهان الإنسان تلقائياً نحو الإيمان والإذعان، فمن آمن به كان له ما لبقية المُسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات، ومن لم يومن به وهو في دار الإسلام وجب عليه أن يلتزم طاعة الدولة

الإسلامية، التي تتكفل بحماية حقوقه وصيانتها، ووجب عليه أن يساهم في تمويلها مقابل حمايته ورعايته، وذلك عن طريق «الجزية» المحدودة، كما يساهم المسلمون أنفسهم في تمويل دولتهم عن طريق (الزكاة) المفروضة، فإن لم يومن بالإسلام وحاول علاوة على ذلك فتنة المسلمين عن دينهم، بالتآمر على الدولة الإسلامية، أو بتضليل المسلمين وإفساد عقيدتهم، أوقفه المسلمون عند حده، وعاملوه بنقيض قصده.

ومما ينبغي مزيد التأمل فيه من آيات هذا الربع قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُـمُ الطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـٰتِ، أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

فها هنا كلمتان هما محور الآية الذي يدور عليه موضوعها من أولها إلى آخرها: الكلمة الأولى كلمة (ظلمات) التي وردت بصيغة الجمع، والكلمة الثانية كلمة (نور) التي جاءت بصيغة الأفراد، فالنور الواحد الذي لا يتجزأ ولا يتعدّد هو المصباح الإلهي المنير، الذي يُضيء به قلوب أوليائه، ممن تغلب عليهم طاعة الله وتقواه، وامتثال أمره ونهيه، على حد قوله تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ ومن كان الله له ولياً كفاه كل شيء ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾. و(الظلمات) المتعددة التي لَا تنحصر أنواعها ولا أصنافها، من ظلمة الكفر والشرك، إلى ظلمة المعصية والفسق، ومن ظلمة الظلم والعدوان، إلى ظلمة الزُّور والبهتان، وهكذا إلى ما لا نهاية له، هي السحب السوداء، والغيوم

الكثيفة، التي تغشى أبصار الكافرين والمنافقين وبصائرهم، ممن أحاطت بهم خطيئاتهم من كل جانب، حتى أصْبحوا وهم لَا يهتدون سبيلاً، ولا يجدون بين أيديهم دليلاً، وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِن نُّورٍ ﴾.

وفي حصة هذا الربع آية أخرى كان لها أبلغ الأثر في تعميق عاطفة الإحسان بين المسلمين، ودفعهم إلى البذل في وجوه البرِّ والخير دون حساب، ألاَ وهي قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ اَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَـعِفُ لِمَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فها هنا تعهد صريح من الحق سبحانه وتعالى الذي لا يخلف وعده بمضاعفة ربح المومن المحسن سبعمائة مرة، مقابل الواحد الذي أنفقه في سبيل الله، بينما أقصى ما يمكن أن يصل إليه ربح الأناني المستغل ـ مهما بذل من الوسائل ـ لن يتجاوز في الغالب المائة في المائة، وهذا إغراء لمن رزقهم الله أن ينفقوا مما رزقهم، ووعد لهم بمضاعفة الرزق والأجر إلى أقصى الحدود، حتى لا يشحّوا ولا يبخلوا ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

غير أن الحق سبحانه وتعالى حذَّر المومنين المحسنين من أن يفسدوا صنيعهم، ويحبطوا عملهم، بالمن والأذى إذا أنفقوا وأحسنوا، فقال تعالى تهذيباً لهم وتعليماً: ﴿ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّاً وَلَآ أَذىً لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

والحكمة في ذلك أن المومن مهما كان فقيراً محتاجاً فإن

حرمته عند الله عظيمة لا يسوغ امتهانها، وكرامته مصونة لا ينبغي انتهاكها، بل يجب على المسلم الموسر أن يصون ماء وجـه أخيه المسلم المعسر، وأن يعامله معاملة كريمة لا تجرح عاطفته، ولا تؤذي شعوره، فذلك هو الإحسان على وجهه الشامل، والأدب الإسلامي الكامل.

الرّبع الثاني من الحزب الخامس
في المصحف الكريم

قَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللَّهُ
غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم
بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ
عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾
وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ
أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ

مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن
كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ
الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم
مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ
خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾
وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا
الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا
الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَنُكَفِّرْ عَنكُم
مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

الرّبع الثاني من الحزب الخامس
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم، يتناول الربع الثاني من الحزب الخامس في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذىً ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَنُكَفِّرْ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُم، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

مما نلاحظه بادىء ذي بدء في هذا الربع من سورة البقرة اقتصاره من البداية إلى النهاية على موضوع البذل والإنفاق في سبيل الله، وتحريكه لهمم المسلمين وعزائمهم بشتى الوسائل، حتى يقوموا بهذا الواجب الاجتماعي الجليل.

ففي الآية الأولى من هذا الربع يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى للمومنين من عباده أدب الصدقة وحسن الإنفاق، ويُعرِّفهم بأن الحكمة في إسداء المعروف من القادر إلى العاجز، ومن الغني إلى المحتاج ليست هي مجرد ترضية حاجاته المادية، وقضاء ضرورياته الحيوية، بقدر ما هي إكرام له، وإعزاز لجانبه، وترفيه عنه، وإشعار له بالإخاء الصادق من جانب بقية إخوانه المسلمين، والامتزاج التام

معهم، على أساس قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وقوله عليه السلام: «لا يومن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

أما إذا كان الشخص سيتصدق وينفق ساخطاً كارهاً، متسلطاً بالأذى على ضعفاء المسلمين، فإنه أولى به أن لا يتصدق مطلقاً، وإن أفضل صدقة يسديها إلى المحتاجين بالنسبة إليه هي كلمة طيبة ودعوة صالحة، تطييباً لخاطرهم، وتطميناً لقلوبهم، وإحياءً لروح الأمل والتفاؤل في نفوسهم، فقد كاد الفقر أن يكون كفراً، كما جاء في الأثر، وبالإجمال، فالأثر النفسي الطيب الذي تحدثه الصدقة في نفس المحتاج، والشعور الذي توحي به إليه من التضامن والتكافل القائم بينه وبين إخوانه المسلمين هو الغرض الأساسي الأول، والهدف الإسلامي الأسمى، المقصود من الصدقة والإنفاق في سبيل الله، والإسلام يحافظ بكل ما في الإمكان على شعور المسلم، ويعمل بكل الوسائل على صيانة كرامته كَيْفَمَا كانت الظروف، وهذه المعاني كلها وما يناسبها هي التي يومىء إليها قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذىً ﴾ ونظراً لأن الحق سبحانه وتعالى لا يقبل الصدقة التي يتبعها المن والأذى من جهة، ونظراً لأنه سبحانه وتعالى يريد من عباده الصالحين أن يقابلوا ضعفاء المسلمين بروح الحلم والتسامح، لا بالأذى والقول الجارح، جاء ختام هذه الآية بالصيغة الآتية ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (غني) عن المتبجِّحين بصدقاتهم، الذين يبذلونها كارهين مسيئين، (حليم) على الذين يبذلونها بحلم وكرم وإغضاء عن جفاء الفقير المضطر، إنْ بدرت منه بادرة قلق.

وفي الآية الثانية من هذا الربع نداء كريم من الرحمن الرحيم إلى عباده المومنين بأعز صفاتهم وأكرمها عند الله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم إرشاد لهم إلى أن يتفادوا الأثر السيِّء الذي ينشأ عن امتنان المتصدقين بصدقتهم وأذاهم للمتصدَّق عليهم، حيث يحبط الله عملهم، ولا يقبل صدقتهم، بل تكون وبالاً على صاحبها، بدلاً من أن تكون بركة وخيراً له وللمنتفع بها ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذىٰ ﴾ وفي نفس الوقت نبَّه القرآن الكريم إلى أن الصدقة الحقيقية التي يقبلها الله هي الصدقة التي تنبعث عن مجرد الإخلاص والإيمان بدافع قلبي صادق، بحيث لا يبتغي مَنْ بذلها من ورائها إلاَّ طاعة الله وامتثال أمره في الإحسان إلى إخوانه مما رزقه الله، ابتغاء مرضاة الله بالخصوص، وبحيث لا ينتظر عنها أي تعويض مادي أو أدبي، لا شكراً ممن أعطيت له، ولا ذكراً بين بقية الناس، وإن كان صانع الخير بنية صالحة مع الله لا يلقى من ربه ومن عباده إلاَّ الخير ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدّاً ﴾.

وهذا التوجيه الإسلامي هو المقصود من التنظير الذي جاء في الآية الكريمة ﴿ كَالذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأخِرِ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذىٰ ﴾.

ثم ضرب الله المثل للمنفق المرائي والمتصدق بالمن والأذى، فقال تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ، وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْكَـٰفِرِينَ ﴾.

فَمَثَلَ هذا النوع ببستان مزروع، غير أن الزرع فيه إنما يقع على طبقة ترابية غير سميكة، تنتهي بطبقة حجرية ملساء، ثم يفاجأ هذا الزرع بنزول مطر غزير عليه كالسيل، فيذهب بالقشرة الترابية التي كان ينبت فوقها الزرع، وتنكشف الأحجار الملساء على طبيعتها دون تراب ولا زرع؛ وتبلغ الحسرة بصاحبها إلى أقصى الحدود، عندما يبدو عجزه التام أمام القدرة الإلٰهية، فلا هو قادر على حفظ الزرع الذي ضاع له في الموسم الفلاحي، ولا هو قادر على تعويض التراب الذي ذهب من مزرعته مع السيل، وقد لا يعود أبداً.

فقلب المرائي والمتصدق بالمنّ والأذى يشبه الصخر الأملس الـذي لَا يمسك نباتاً ولا ماءً، وإيمانهما الضعيف الهزيل يشبه القشرة الترابية الخفيفة التي كانت تستر الصخر الأملس، ورياء المرائي ومنّ المنّان وأذاه يشبه السيل الذي فاجأ الزرع، فذهب به وبالتراب، فلم يبقَ منهما ولا لهما أي أثر، كما ذهبت صدقة المرائي والمنّان المؤذي أدراج الرياح.

أما المومن الواثق بربه وبفضله، الذي ينفق ابتغاء وجه الله بدءاً وختاماً، والذي يقوم بواجب الإحسان إلى إخوانه المسلمين عن عقيدة راسخة، وبنفس مطمئنة، فقد ضربت له الآية الكريمة المثل بما يتفق مع عقيدته وإيمانه، ويتناسب مع إخلاصه واطمئنانه، على عكس المثل المضروب من قبل للمرائي والمنان المؤذي، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، وَتَثْبِيتاً مِّنَ انفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرُبْوَةٍ ﴾ أي مزرعة بهضبة عالية ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ أي مطر غزير ﴿ فَئَاتَتُ اكُلَهَا ضِعْفَيْنِ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ

فَطَلٌّ ﴾ أي أن الله تعالى لا يعاقبها بالقحط والجدب، بل يسقيها من فضله أحياناً بالمطر الغزير، وأحياناً بالندى والرذاذ، ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثم عادت الآيات الكريمة مرة ثانية تحذر المومنين من نتائج الرياء والمنّ والأذى بصدقاتهم، وتنبههم إلى أن عاقبة ذلك إنما هي إحباط عملهم بالمرة، نظير المزرعة الغنيةِ بالنخيل والأعناب والمياه الجارية، عندما يسلط عليها الإعصار والنار، فيحترق كل ما فيها، وتذروها الرياح فتذهب هباءً منثوراً، هذا مع أنها كانت معقد الأمل وعدة الدهر، لشيخ أصابه الكبر وأعجزه الهرم، ولذرية ضعفاء لاَ يقوون على الكسب بأي وجه من الوجوه، فكم تكون حسرتهم بالغة، وكم يكون أملهم ضائعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ ايَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ، فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وفي نفس هذا الربع دعوة من الله لعباده المومنين إلى تجنب الإنفاق والصدقة بالدُّون من الأشياء، والرديء من الأصناف، الأمر الذي يقتضي أن يكون عمل البر بالطيب لا بالخبيث، وبالمحبوب لا بالمستكره، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِئَاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ ثم ختمت هذه التعليمات الإلٰهية بقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي (غني) عن الخبيث والمستكره الذي قد ينفق منه ضعفاءِ الإيمان، (حميد) لما ينفقه أقوياء الإيمان من طيبات ما رزقهم الله، ابتغاء مرضاة الله،

ويتصل بهذا الموضوع أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

وزيادة في إلقاء الأضواء على دوافع البر عند فريق ودوافع الشح عند فريق، قال الله تعالى: ﴿ الشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ فكل شح وبخل أولاً، وكل صدقة بالخبيث دون الطيب ثانياً، إنما مردهما إلى إغواء الشيطان، وتضليله للإنسان، فهو الذي يرسم لمن يغويه صورة قاتمة عن المستقبل الذي ينتظره، ويبعث في قلبه الرعب والخوف من تقلبات الدهر، ويخيلُ إليه موهماً إياه أنه إذا بخل وشح وكنز ماله، أو أنفق الخبيث من ماله دون الطيب، فإنه يصبح بمنجاة من الفقر، مضمون الرزق، ثابت الغنى إلى الموت، وهذه الضمانة التي يعطيها له الشيطان، إنما هي مجرد زور وبهتان، ولا يقوم على صدقها من واقع الحياة المتقلّبة أي برهان، بينما الحق سبحانه وتعالى يعد عباده ـ ووعده حق وصدق ـ بالفضل والغنى والرزق، ويعد المحسنين منهم بمضاعفة أرزاقهم في الدنيا وحسناتهم في الآخرة، وإذا أزل الشيطان بعض العباد فارتكبوا الفواحش ثم تابوا منها، وعدهم الله بمغفرة ذنوبهم، وشَمَلهم بواسع رحمته ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس
في المصحف الكريم

لَّيْسَ
عَلَيْكَ هُدَيٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِے مَن يَشَآءُ
وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ
إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِے
سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِے الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم
بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمُۥٓ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِے

يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ
مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ
مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾
يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ
فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسُرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ
ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا

يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي
عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ
كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ
مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى
وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ
اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ
كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نعالج الربع الثالث من الحزب الخامس في المصحف الكريم الذي يبتدىء بقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ، وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

لا يزال كتاب الله يوالي في هذا الربع الأوامر الإلٰهية والتوجيهات السامية في موضوع البرِّ والنفقة والصدقة، ولا يزال يتولى الدفاع عن حقوق الفقراء من المسلمين بأقوى الحجج وأبلغها تأثيراً في النفوس.

وفي هذا الربع نفسه يوجه القرآن الكريم أقوى الحملات إلى الربا، وأقسى الطعنات إلى المرابين المستغِلين، إلى حَدٍّ أن ينذرهم بإشهار حرب عليهم هي أخطر الحروب وأفتكها، إذ يشنها عليهم الله ورسوله، فلا مناص لهم من الخذلان والبوار، في هذه الدار وفي تلك الدار.

وفي هذا الربع أيضاً يتولى الحق سبحانه وتعالى إرشاد المسلمين إلى ما يجب أن تكون عليه معاملاتهم المالية، وعلاقاتهم الاقتصادية، إذ تناولت الآيات الكريمة موضوع الدَّيْن وكتابته، والاعسار به وانتظاره أو إسقاطه، وتناولت موضوع الشهادة والشهود من الرجال والنساء، وما للشهود من حقوق وما عليهم من واجبات، وتناولت موضوع التجارة الحاضرة التي يُصفَّى أمرها في الحين، والتجارة التي تدخلها الآجال بالنسبة للثمن أو المثمن، مما يوضح تعاليم الإسلام في النظام الاقتصادي الذي يجب أن يقوم بين المسلمين.

ففيما يخص النفقة على فقراء المسلمين جاء قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ وهذه الآية الكريمة توضح صفات الفقير المسلم، الذي لا ينزل به الفقر إلى درجة التطاول على الناس وإحراجهم، كما لا تنزل به الحاجة إلى درجة التبذل والاستغلال الدنيء، وفي نفس الوقت تشير نفس الآية إلى أن فقرَ هذا الفقير واحتياجه ليس صفة لازمة له، ولاصقة به على الدوام، وإنما هو أمر عارض في حياته، بسبب فقدان وسائل العمل، وتعذُّرِ وجوه الكسب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أقفلت في وجوههم كافة الطرق: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا يجدون مجالاً للكسب والاتجار، إذ الضرب في الأرض في لغة القرآن خاصة، والاستعمال العربي

عامة، معناه السعي للتكسب والتنقل للبيع والشراء ﴿ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ ﴾ أي أن الجاهل بحقيقة حالهم يعتقد أنهم في سعة وغنى ﴿ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أي لعدم قيامهم بأي إزعاج للغير، أو إلحاح عليه ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ أي يعرفهم أخوهم المومن بما له من صدق الفراسة، حيث إن المومن ينظر بنور الله، وهم لا يلحون في السؤال، فضلاً عن طلب ما يزيد على حاجتهم بقصد الاستغلال.

وهكذا لا ينزل الفقر بالمسلم حالة اضطراره إلى درجة البؤس والذلة والمهانة، لأن الإسلام حريص على إعزازه والأخذ بيده ورفع مستواه المادي المنخفض، إلى درجة مُستواه الروحي الإسلامي الممتاز.

وهذه الآية نفسها يقتضي مفهومها أنه بمجرد ما يجد الفقير المسلم وسيلة للعمل ووجهاً للكسب لا يسوغ له أن يتكل على غيره، ولا يسوغ لغيره أن يساعده على التواكل والكسل، باسم الاحتياج ووصف الفقر، بل يحاول أن ينتقل من صف الفقراء المعسرين، إلى صف القادرين على الكسب الموسرين.

ومما يجب التنبيه إليه في هذا المقام ما ذكره القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري إذ قال: «الواجب على معطي الصدقة ـ كان إماماً أو مالكاً ـ أن يراعي أحوال الناس، فمن علم فيه صبراً على الخصاصة، وتحلياً بالقناعة، آثر عليه من لا يستطيع الصبر، فربما وقع في التسخط. قال النبي ﷺ في الصحيح: إني لأعطي الرجل

وغيره أحب إليّ منه، مخافة أن يكبّه الله في النار على وجهه» انتهى.

وفي هذا السياق سياق بر الأغنياء بالفقراء، وإحسانهم إليهم دون مقابل، إحساناً لا منَّ فيه ولا أذى، والحضّ على أن يكون هذا الإحسان من الطيبات التي رزقهم الله لا من الخبائث، جاء الإنذار الصارخ إلى المرابين المستغِلين الذين يستغلون فقر الفقراء واحتياج المضطرين، وجاءت الدعوة الملحة إلى وجوب التنازل عن الربا والابتعاد منه ابتعاداً كلياً في المجتمع الإسلامي، فقال تعالى: ﴿ الذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـٰنُ مِنَ الْمَسِّ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ، فَمَنْ جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ، وَأَمْرُهُ إلى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُواْ ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰاْ إن كُنتُم مُّومِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَاذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾.

وهذا التشريع المفصّل القاطع في شأن الربا الذي نزلت به هذه الآيات في سورة البقرة ظهرت نواته الأولى لأول مرة في سورة الروم المكية، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّتَرْبُوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوْا عِندَ اللَّهِ، وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾. ثم جاءت آيات سورة البقرة التي هي موضوع حديثنا تقرر للمسلمين وللناس أجمعين خمسة مبادىء ثابتة وقواعد راسخة رئيسية:

١) المبدأ الأول - إبطال تشبيه البيع بالربا، ومنع قياس الأول على الثاني، لأن البيع عقد تبادل وتعادل بين البائع والمشتري لمصلحة الطرفين يقوم على أساس التراضي والاختيار، والربا يرافقه ويؤثر فيه من البداية إلى النهاية عامل الضغط والاحتياج والاضطرار، ولذلك تكون مصلحة المرابي فيه وأنانيته الجامحة هما الأساس والمقياس، ويكون الضرر المحقق هو نصيب من اضطر إلى قبوله من ضعفاء الناس، والبيع أكل مال بالحق عن عوض، بينما الربا أكل مال بالباطل دون عوض ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾.

٢) المبدأ الثاني - إقرار ما سبق وانتهى أمره من المعاملات الربوية التي تمت قبل تحريم الربا على ما كانت عليه، فلا رجوع من «مسلم» على «جاهلي» بما أخذه الجاهلي منه في رباه، قبل تحريم الإسلام للربا، إذا ليس لهذا التحريم مفعول رجعي ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ، وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي: «فله ما سلف: أي له ما كان أكل من الربا قبل التحريم».

٣) المبدأ الثالث - إسقاط حصة الربا الزائدة على رأس المال من المعاملات الربوية، التي صادف الحال - حين نزل القرآن بتحريم الربا - انها لم تكن قد تمت تسويتها من قبل، فحكم الله في هذه المعاملات التي بقيت معلقة إلى حين التحريم هو تسليم رأس المال غير منقوص إلى صاحبه، مع إعفاء دافع رأس المال من أداء حصة الربا، التي كان مطالباً بها قبل التحريم زيادة على رأس المال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ـ ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي لا تَظلِمون بأخذ الزيادة عليها، ولا تُظلَمون بالتنقيص منها.

٤) المبدأ الرابع ـ إعلان السخط الإلٰهي بأروع صورة وأقوى تعبير على المرابين المستغِلين، الذين يستغلون حاجة المحتاجين واضطرار المضطرين، فيختلسون منهم ثمرة أعمالهم، ويقطفون زهرة أموالهم، وذلك هو مغزى إشهار الحرب من الله ورسوله على عصابة المرابين، وعقابهم في الدنيا بمس الشياطين، وفي الآخرة بجعلهم في النار من الخالدين ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ معنى آخر يستحق الالتفات، وهذا المعنى حسبما عبرَّ عنه ابن عباس هو أن من كان مقيماً على الربا لا ينزِع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نَزَع وإلاَّ ضَرَب عنقَه. ومعنى «نَزَع» كَفَّ وانتهى عنه.

٥) المبدأ الخامس ـ صدور حكم الله تعالى الذي لا يقبل أي نقض بمحق الربا وبوار ربح المرابين المستغِلين، ونزع البركة مما تحت أيديهم من الثروات التي يكدسونها، ومن الأموال التي يكتنزونها.

ومن آثار هذا المحق المحكوم عليهم به من الله ما يعاقب به من يتعاطون الربا من الأفراد والجماعات، ولا سيما عن طريق الكوارث الطبيعية، كالزلازل والفيضانات والأعاصير والأوبئة والأمراض وأنواع القحط والجدب، أو عن طريق المآسي الاجتماعية كالسرقات والاختلاسات والحروب، وهكذا يقبض المرابون بيد وهم فرحون مستبشرون، ويدفعون باليد الأخرى ما قبضوه وهم متشائمون كارهون ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

ونظراً إلى أنه لا يوجد أمر استنكره الإسلام كما استنكر الربا، أو أغلظ فيه القول كما أغلظه في أمره، إذ هو الأمر الوحيد الذي هُدِّد مرتكبوه بحرب من الله ورسوله، فقد عالج علماء الإسلام من السلف والخلف موضوعه بكثير من اليقظة والحذر، واتفقوا على اثبات صفة (الربوية) لعدد محدود من المعاملات، فوقع الإجماع على إدراجها في الربا، وفي طليعة ما أجمعوا على منعه منعاً باتاً ربا الجاهلية، الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله في حجة الوداع: «ألا وإن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب»، وهذا ما تعارفوا عليه بقولهم: «أَنظِرْنِي أزِدْك»، ثم اختلف اجتهاد علماء السلف وأئمتهم في عدة صور ومعاملات، مما وجدوه متعارفاً بين أظهرهم، فأثبت بعضهم لها صفة الربوية وحَكَمَ بتحريمها، ونفى بعضهم الآخر عنها تلك الصفة وأباح التعامل بها.

قال ابن كثير في تفسيره: «ومن أَجْل هذا حرم الفقهاء أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا، والوسائل الموصلة

إليه، وتفاوَتَ نظرُهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾».

ثم عقب ابن كثير على ذلك فقال بالحرف الواحد: «وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث وَدَدْتُ لو أن رسول الله ﷺ عَهِدَ إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه، الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا». يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا».

ثم نقل ابن كثير بعد ذلك ـ برواية سعيد بن المسيب إلى عمر بن الخطاب ـ أنه قال في نفس الموضوع: «من آخر ما نزل آية الربا، وأن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة».

وعندما نراجع (أحكام القرآن) للقاضي أبي بكر (ابن العربي) المعافري نجده قد خصص لموضوع الربا بحثاً شافياً تبرز من خلاله أهمية الموضوع وخطورته، وَبَيَّنَ أن الرجل من العرب في الجاهلية كان يبايع الرجل إلى أجل، فإذا حلَّ الأجل قال له: «أتقضي أم تُرْبي وأصبر أَجَلاً آخر»، فحرم الله تعالى الربا وهو الزيادة، وأشار إلى اختلاف العلماء في حمل آية الربا هل هي عامة في تحريم كل ربا، أو مجملة لا بيان لها إلاّ من غيرها، ولم يهمل الاشارة إلى أن تطبيق آية الربا قد أشكل على أكثر العلماء، فقال ما نصه: «لأجل هذا صارت الآية مشكلة على الأكثر، معلومة لمن أيده الله تعالى بالنور الأظهر» ثم عقب على ذلك قائلاً حكاية عن نفسه: «وقد فاوضت فيها علماء، وباحثت رفعاء، فكل منهم أعطى ما عنده،

حتى انتظم فيها سلك المعرفة بدرره وجوهرته العليا» انتهى كلام ابن العربي.

وبناء على ما ذكر نرى أن المسلم يجب عليه أن يتفادى كل معاملة أجمع العلماء على اعتبارها معاملة ربوية محرَّمة، وفيما عدا المجمع على تحريمه من المعاملات ينبغي من باب الاحتياط والبعد عن التشهي أن يلتزم المسلم فيها مذهب إمامه، فما هو ممنوع تركه، وما لا منع فيه استباحه لنفسه.

أما الصور الجديدة والمعقدة من المعاملات التجارية والمالية التي ظهرت في العصر الحديث والتي لم يسبق لها نظير، وَلَمْ يُفْتِ فيها الأئمة والعلماء بحكم سابق، حيث لم تكن متعارفة ولا معهودة في وقتهم، فإن الواجب يقضي بإعمال النظر فيها طبقاً لمقاصد التشريع وأصوله الثابتة، وتمييز ما يندرج منها تحت اسم الربا وفي حقيقته، حتى يعلم المسلمون قاطبة حكم الله في شأن المعاملات الربوية الحديثة، كما عرفوا حكم المعاملات الربوية القديمة.

وفي نظرنا أن هذا الموضوع الحيوي الخطير يجب أن يتم النظر فيه على أساس اجتهاد فقهي جماعي يشترك فيه علماء الإسلام المعاصرون، ثم تعلن نتيجته على رؤوس الملأ في العالم الإسلامي كله، إنقاذاً للشعوب والدول الإسلامية من حيرتها الاقتصادية، وتوجيهاً لمنظماتها التجارية والمالية، ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيي عن بيِّنة.

الربع الأخير من الحزب الخامس في المصحف الكريم

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ
قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

٣ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ٢٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ

تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ
رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ
إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ
ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ
رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً
لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ
ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم سنجمع بحول الله وقوّته بين اختتـام سورة البقرة، وافتتاح سورة آل عمران، سائلين من الله المعـونة والتوفيق، والهداية إلى أقوم طريق.

فالربع الأخير من الحزب الخامس كما هو معلوم يحتوي على الثُّمُنِ الأخير من سورة البقرة والثُّمُنِ الأول من سورة آل عمران، وأول آية من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَـٰمِ وَالْحَرْثِ، ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَـَٔابِ ﴾.

أمامنا في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ بعد قوله تعالى في الـربع الماضي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾. وهذا إرشاد من الحق سبحانه وتعالى إلى المسلمين إذا تعاملوا فيما بينهم معاملة إلى أجل، ولم يجدوا من الشهود من يسجل لهم وثيقة

بحقوق الطرفين، فإن صاحب الحق يقبض رهناً من الطرف الثاني، ضماناً لحقه إلى حين الوفاء، ويمكن حيازة الرهن منه في السفر والحضر، وإن كانت الآية إنما أشارت إلى حالة السفر بالخصوص، لظهور الحاجة فيها إلى الرهن أكثر، وواضح أن الرهن هنا قام مقام الشاهد، بحيث إذا اختلف الراهن والمرتهن فالقول قول المرتهن.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَ اَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذِي اؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ يمكن تفسيره على وجهين:

الوجه الأول ـ إن المدين المؤتمن على الدَّيْنِ، والدائن المؤتمن على الرهن، مدعوان معاً، كلٌّ فيما يخصه، إلى رد ما ائتمنه عليه الطرف الثاني.

الـوجه الثاني ـ أن يعتمد الطرفان في معاملتهما على مجرد صفة الأمانة دون وثيقة ولا رهن ولا شاهد، ففي هذه الحالة يبقى الأمر كله موقوفاً على التزام المدين المؤتمن بأداء ما اؤتمن عليه.

والتعقيب عليه بقوله تعالى: ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ منطبق على كلا الوجهين، ففي الوجه الأول يظهر تقوى الله بتسديد الدَّيْن كاملاً غير منقوص من طرف المدين، وبإعادة الشيء المرهون على وجهه دون تغيير ولا تبديل من طرف الدائن، وفي الوجه الثاني يظهر تقوى الله على أكمل وجوهه بأداء المدين لما عليه، رغماً عن عدم أي سند يلزمه بالأداء ما عـدا خوف الله وتقـواه. قال (ابن العربي) المعافري: «وجملة الأمر أن الإشهاد حزم، والائتمان ثقة بالله من المداين، ومروءة من المدين».

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَـٰدَةَ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ يقتضي نهي الشاهد عن كتمان شهادته، إذ في كتمانه لها إضرار بمن ينجر له الحق بواسطتها، لكن أداءها مقيَّد بقوله تعالى في الربع الماضي ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ كأن يطلب من الشاهد مؤونة مجيئه من بلد بعيد.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إذا كان على الحق شهود تعين عليهم أداء الشهادة على الكفاية، فإن أدَّاها اثنان واجتزأ بهما الحاكم سقط الفرض عن الباقين، وإن لم يجتزىء بهما تعين المشي إليه حتى يقع الإثبات، وهذا يعلم بدعاء صاحبها، فإذا قال للشاهد: «أحيِ حقي بأداء ما عندك لي من شهادة» تَعيَّن ذلك عليه» وما قاله ابن العربي ينسجم كل الانسجام مع قوله تعالى في الربع الماضي: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾.

وكما نهى الشارع عن كتمان الشهادة فقد نهى عن تبديلها وتحويلها نهياً باتاً، غير أن تبديلها وتحويلها إثم باللسان، أمّا كتمانها وإخفاؤها فهو إثم بالقلب، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ ثم عقب على نفس المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ تحذيراً من كتمان الشهادة وإخفاء الحق، حيث إنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، نظير ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ اللَّهِ، إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ الآثمين ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُم أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وهذه الآية من الآيات التي اشتد وقعها على الصحابة رضوان الله عليهم، ورجفت لها قلوبهم، وذلك لقوة إيمانهم وشدة خوفهم من الله، إذ إنها لا تتضمن فقط مجرد علم الله بما يخفيه عباده، واطلاعه على مكنونات صدورهم، مثل آيات أخرى جاءت بهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ فهذا أمر لا يجادل فيه مسلم، ما دام الحق سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وإنما تضمنت الآية التي نحن بصددها أمراً زائداً على العلم بالسر والنجوى، ألا وهو محاسبة الله لعباده حتى على ما يخفونه، وقد يكون ذلك من الهواجس والوساوس والخواطر التي تهجم على الإنسان ولا يملك لها تصريفاً، فقالوا: «يا رسول الله هلكنا إن كنا نواخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا». قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من قبل، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا»، فألقى الله الإيمان في قلوبهم، ثم أنزل ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَـٰفِرِينَ ﴾، وفي أثنائها لقن الله عباده المؤمنين هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ - ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾.

وفي هذا المعنى ورد قوله ﷺ فيما رواه الجماعة في الكتب الستة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلَّم أو تعمل».

ومن هنا ننتقل إلى خواتيم سورة البقرة التي وردت في فضلها أحاديث كثيرة، منها حديث البخاري عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» وجاء في الأثر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «ما أرى أحداً يعقل بلغه الإسلام ينام، حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش».

وسنرى أن خاتمة سورة البقرة منسجمة كل الانسجام ومتناسبة كل التناسب مع موضوعاتها على العموم، ومع فاتحتها بالخصوص، فكما ابتدأت سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ، فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ نجدها تختتم بقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُومِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾.

وبعدما تعرضت سورة البقرة للتكاليف الدينية والتشريعات الإسلامية في مختلف الشؤون الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية نجدها تختتم بقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ مؤكدة بذلك مدى التكليف في الشريعة الإسلامية، وأنه لا يتجاوز حدود الطاقة الإنسانية.

وبعدما قصّت سورة البقرة على المسلمين قصة بني إسرائيل وما عاقبهم الله به على عنادهم وجحودهم من التكاليف الصعبة

والكفارات الثقيلة تختتم بدعاء الخشوع والضراعة إلى الله، رجاء رفقه بعباده المؤمنين ﴿رَبَّنَاوَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَآ﴾.

وكما طالب الله المسلمين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحضهم على ذلك في عشرات الآيات من سورة البقرة، وبشتى وجوه الحضّ والإغراء، تختتم نفس السورة برجاء الحق سبحانه وتعالى أن يحقق للمسلمين وعده، وذلك قوله تعالى على لسانهم ﴿أَنتَ مَوْلَيٰنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ﴾.

والآن وقد ختمنا بفضل الله وكرمه سورة البقرة نشرع في سورة آل عمران، وبدايتها بعد بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمٓ، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَّلَ عَلَيكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنزَلَ التَّوْرَيٰةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدىً لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

وهذه السورة التي هي أطول سورة في القرآن بعد سورة البقرة يدور محور الحديث في آياتها حول ثلاثة مو ضوعات رئيسية:

١) الموضوع الأول ـ تحديد معنى الدين ومعنى الإسلام، كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَٰمُ﴾.

٢) الموضوع الثاني ـ وصف حال المسلمين مع ربهم وموقفهم من تعاليم الدين وتكاليفه، كقوله تعالى في هذه السورة أيضاً

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَتُومِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

٣) الموضوع الثالث ـ التحذير المستمر من الثقة بغير المسلمين، وتوضيح ما ينجر للمسلمين من الأخطار والمتاعب إذا والوهم ووثقوا بهم في شؤونهم، كقوله تعالى في نفس السورة ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَالُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنَ افْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُم أَكْبَرُ ﴾.

ومما يستلفت النظر في الثُّمُنِ الأول من هذه السورة قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الاَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالاَنْعَـٰمِ وَالْحَرْثِ، ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾. وسنعالج موضوع هذه الآيات الكريمة في أول مناسبة قادمة، عندما نواجه آيات أخرى تأتي تكميلاً لها، أو تكون من نوعها وفي نفس موضوعها بحول الله وقوته، وبالله التوفيق.

الربع الأول من الحزب السادس
في المصحف الكريم

قُلْ

أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ

وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ
إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ
إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ
مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ
اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟
مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ
وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى
يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

الربع الأول من الحزب السادس
فـي المصحف الـكـريـم

عبـاد الله

يتناول حديث اليوم الربع الأول من الحزب السادس في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى ﴿ قُلَ اَوْنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ، لِلذِينَ اَتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرُ بِالْعِبَادِ ﴾. ونهايته قوله تعالى ﴿ قُلَ اَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ ﴾.

مما يلاحظه القارىء المنتبه أن أول آية في هذا الربع وهي قوله تعالى ﴿ قُلَ اَوْنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ، لِلذِينَ اَتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَٰرُ) إلى آخر الآية، مرتبطة كل الارتباطِ ومتناسبة كل التناسب، مع آخر آية وردت في الربع الماضي الذي تناولناه بالأمس، وهي قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالاَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ، ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَـَٔابِ ﴾.

فهاهنا نجد القرآن الكريم يسجل حقيقة طبيعية فطر الله

عليها البشر، ألَا وهي حبهم للشهوات وميلهم إليها، فهذه غريزة غرزها الله في طبع الإنسان، إغراءً له،من جهة،على تحقيق المخطط الإلهي الحكيم، ودفعاً له، من جهة أخرى، إلى إبراز شخصيته المتميزة الخاصة على وجه سليم، وبذلك لا يتنكر الإسلام لشهوات الإنسان المجبول على حبها، ولا يزدريها فضلاً عن أن يطاردها، وإنما يتدخل الإسلام لإحاطتها بما يلزم لها من التهذيب، حتى لا تكون شهوات وحشية، وبما يلزم لها من الضبط، حتى لا تبقى شهوات فوضوية.

وهذه الشهوات القوية في نفس الإنسان العادي هي شهوة النساء اللاتي يوفرن لأزواجهن جواً من المودة والرحمة والاستقرار.

وشهوة البنين الذين هم زينة البيوت، وعصارة الأعصاب، ولباب الجهود، وثمرة الحياة بالنسبة للوالدين، والخلف الصالح والذكرى الطيِّبة التي تبقى من بعدهما شاهداً ناطقاً على مرورهما بموكب الأحياء.

وشهوة المال الذي هو أكبر وسيلة لقضاء الحاجات، وستر العَوْرَات، وتوفير أنواع الشهوات بما فيها شهوة البر وإسداء المعروف وعمل الخير، وها هنا وقع اختيار التعبير القرآني على كلمة (القناطير المقنطرة) إشارة إلى أن النهم إلى المال لا يقف في الإنسان العادي عند حد، ما دام هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى جميع الشهوات، وما دامت الشهوات كلها تتوقف عليه، ولا تتم إلَّا عن طريقه بدءاً وختاماً.

ثم شهوة الخيل الْمُسَوَّمَةِ التي تستهوي ما لا يُحصى من البشر

في مختلف العصور، والتي احتفظت بقوة اغرائها وجاذبيتها حتى بين أرقى الأمم وأكثرها حضارة وغنى، فضلاً عما دونها، فتقام لها الملاعب، وتنظم لها أسواق الرهان، ويبذل فيها من الأموال الطائلة ربحاً وخسارة ما تسير بذكره الركبان.

وشهوة الأنعام والحرث المتلازمين ملازمة الظل لصاحبه، فهذه الشهوة ترضي من حاجات الإنسان وغرائزه ما لا يتصور بدونه وجود ولا نماء، بل ان قوام حياته متوقف عليها كل التوقف ومرتبط بها كل الارتباط.

وقد عبّر كتاب الله عن هذه الشهوات جميعاً بأنها ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ وإذن فلا متاع في هذه الحياة دون الحصول على القدر الضروري والحد الأدنى منها، وإذن فلا حرج في حصول الإنسان على متاعه الضروري منها كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾.

وكل ما هنالك أن الله تعالى الذي خلق لعباده ما في الأرض جميعاً، ودعاهم إلى تناول الطيِّبات من الرزق يعرض على المؤمنين من عباده أنواعاً ألذَّ وأبقى، وأدْوَمَ وأخلد، من شهوات الدنيا جميعاً، ويعلمهم أن في استطاعتهم أن يستمتعوا بها أيضاً في الحياة الآخرة، إذا ما أعدّوا أنفسهم لها، ولم يقصروا اهتمامهم على شهوات الحياة الدنيا وحدها، فانهمكوا فيها وتهالكوا عليها دون حساب، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ. قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ أي هل أخبركم بما هو أفضل من شهوات الدنيا كلها ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الأنْـهَارُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضوَانٌ مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

والواقع الذي يؤكده الإيمان الصحيح أن حياة الإنسان تمر بمرحلتين اثنتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الحياة الدنيا، والله تعالى بسط مائدته فيها لعباده جميعاً يتناولون منها ما يحفظ وجودهم، ويضمن بقاءهم واستمرارهم إلى اليوم الموعود.

والمرحلة الثانية: مرحلة الحياة الآخرة، والله تعالى أعد فيها للمؤمنين من عباده نعماً أجلّ وأكمل، وادخر لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجعل نعمه عليهم فيها غير محدودة ولا منتهية.

وها هنا تولت الآيات الكريمة عرضاً لشهوات الدنيا، ثم أتبعته بوصف موجز لنعم الآخرة، والفرق بين الاثنين هو أن نساء الآخرة على خلاف نساء الدنيا (أزواج مطهرة) لا يصيبهن أي عارض يتنافى مع الطهر، ثم إن الآخرة لا تتوقف المتعة فيها على المال الذي هو الوسيلة الوحيدة في الدنيا للاقتناء والانتفاع، إذ إن أرزاقها وخيراتها ملك مشاع لجميع المتّقين، ولذلك لم يذكر بين نعيمها لا ذهباً ولا فضة ولا قناطير مقنطرة، وإذا كانت مزارع الدنيا وبساتينها تحتاج إلى الحرث والحيوانات المساعدة عليه، فإن الجنات التي أعدها الله لعباده في الآخرة لا تتوقف على الحرث ولا على الحيوان المساعد فيه، بل هي هبة من الله خالصة للمؤمنين دون كد ولا تعب، ولا توقيت بموسم خاص.

وفوق هذا كله ففي الآخرة نعمة هي أجلّ النعم وأكبرها جميعاً، لأنها تفوق جميع نعم الدنيا، وتفضل جميع نعم الآخرة الأخرى، ألَا وهي نعمة ﴿ رضوان الله ﴾ الذي يخلع حلّته على المقبولين المرضيين من عباده ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ وهذه النعمة تتضمن كامل الاحسان وعظيم الامتنان، على مَنْ أكرمه الله بها مِنْ بني الإنسان، وترشحه للنظر إلى الملك الديّان، بالإضافة إلى الخلود في نعيم الرحمـٰن ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

ومما ينبغي التنبيه إليه من آيات هذا الربع قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فهذه الآية لها مناسبة مع قوله تعالى في الربع الماضي ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ومع قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعاً ﴾ ومع قوله تعالى في سورة النساء ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَـٰفِقِينَ والْكَـٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ ومع قوله تعالى في سورة هود ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ، وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ ومع قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ومع قوله تعالى في سورة التغابن ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾. وعلى هذا الأساس وفي هذا الاطار ينبغي تفسير قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ أي جمعهم في يوم الجمع، فتفسير القرآن بالقرآن هو أفضل وجوه التفسير وأولاها بالصواب.

ومن مجموع هذه الآيات يتبين أن القرآن الكريم يعبر عن يوم الحشر بيوم الجمع، ويطلق كلمة الجمع على الحشر والحساب، وهذا الجمع يشمل بالضرورة جميع ذرّية آدم، الذي جعله الله خليفة في الأرض، فحملت ذريته أمانةَ التكليف ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ كما قال تعالى.

وتأتي في هذا الربع آية كريمة تؤكد معنىً سبق الإيماء إليه في قصة طالوت وجالوت من سورة البقرة عند قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَآءُ ﴾. وهذه الآية الثانية جاءت في صورة تلقين من الله لرسوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالك الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ، وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهي تتضمن إثبات التدخل المستمر من طرف الحكمة الإلَهية، والارادة الربانية في تعديل موازين القوة، وتغيير نِسَب السلطة في العالم، على وجه يتحقق به مراد الله في خلقه، ويتحقق به خير البشر على العموم، وتصديقاً لهذه الآية وتطبيقاً لمقتضاها مكّن الله المسلمين من مقاليد الأرض واستخلفهم، فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ومن آيات هذا الربع التي ينبغي الوقوف عندها وقفة خاصة قوله تعالى ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَيةً، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾. ففي هذه الآية نهي صريحٌ للمؤمنين عن مودة الكافرين والثقة بهم وموالاتهم القلبية، ولم يكتفِ الحق سبحانه وتعالى بإصدار النهي إلى المؤمنين عن موالاة

الكافرين، بل أنذرهم بالتبرؤ من كل من لا يمتثل هـذا النهي البات. وبراءة الله من عبده معناها أن يكله إلى نفسه، وأن يخذله خذلاناً مبيناً، وقوله تعالى ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَيـٰةً ﴾ استثناء من هذا الأصل يستند إليه الذين استضعفوا في الأرض، ممن وقع في قبضة الكافرين، وخاف على نفسه من شرّهم في بعض البلدان وبعض الأوقات، فالمستضعَف المغلوب على أمره أباح الشرع له أن يتّقي شرهم بظاهره، لا بباطنه ولا بعمله، قال ابن عباس: «ليس التقية بالعمل، إنما التقية باللسان».

ثم عقبت الآية على هذا النهي الصريح، والبراءة المترتبة على مخالفته، بقوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ وهذا أقوى أساليب التحذير، وأشد أنواع الإنذار، إذ ماذا يفعل الإنسان الضعيف أمام تحذير القاهر الجبار، وَهُـوَ في معنى قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾.

وقد ذكر القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه «أحكام القرآن» أن عمر بن الخطاب نهى أبا موسى الأشعري عن ذميّ كان استكتبه باليمن، وأمره بعزله، غير أن القاضي ابن العربي عاد فـذكـر أن الاستعانة بغير المسلم لا بأس بها إن كانت فيها فائدة محققة، وانفصل على ذلك، والله تعالى أعلم بالصواب.

الربع الثاني من الحزب السادس
في المصحف الكريم

إِنَّ

ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً

إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا
إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ
أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ
ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

الربع الثاني من الحزب السادس
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يستوعب الربع الثاني من الحزب السادس في المصحف الكريم، وأوله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدم ونوحاً وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وآخره قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

سبق لنا في بداية الحزب الخامس ضمن سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ، فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ، وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وفي هذا الربع الذي نحن بصدد تفسيره يتصدى القرآن الكريم بتفصيل أوفى لبيان قصة حَمْل مريم وقصة ميلاد ابنها عيسى، موضحاً لرسول الله (ص) وجه الحق في أمرهما، مبطلاً كل الأساطير والشبهات التي قامت من حولها.

وأول آية في هذا الربع هي بمنزلةالمدخل والتمهيد إلى هذه القصة المثيرة، الباعثة على مزيد التأمل والاعتبار، والآية التمهيدية هنا تشير على وجه العموم إلى الأسرة الفاضلة التي برزت بواسطتها

وعن طريقها إرادة الحق سبحانه وتعالى في مجال الخلق والإبداع، ومجال الأمر والاتباع ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

وهذه الأسرة الصالحة التي نفّذت إرادة الله، وبلّغت إلى الخلق أمره ونهيه، تعني أسرة الأنبياء والرسل، ممن أخذوا على عاتقهم هداية الخلق وتربيتهم، وتولوا نقل الأمانة التي اختار الله لحملها الإنسان، وعملوا على حفظها وصيانتها من كل ما قد يتسرب إليها، وقاموا بتجديد أمرها على مر الزمان.

وفي رأس القائمة لهذه الأسرة الروحية الكبرى التي تدين لها البشرية يرد اسم آدم، الأب الأول للبشر، واسم نوح، الرائد الأول للأنبياء والرسل، ثم يقع التنصيص بالخصوص على فرعين كريمين منها، تسلسلت فيهما وراثة النبوة، وتناقلت في عقبهما الدعوة إلى الله والتبشير بدينه الحق، وهما آل إبراهيم وآل عمران، فهؤلاء جميعاً انتدبهم الحق سبحانه وتعالى لتنفيذ إرادته وابلاغ شريعته، وجزاءً لهم على قيامهم بالواجب ـ طبقاً لمقتضى الأمر الإلهي ـ فضّلهم الله على العالمين، وخلّد ذكرهم في الصالحين، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى العالمين، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وها هنا يجب التنبيه إلى أن النظرة الإسلامية القرآنية في التفضيل والتفاوت بالنسبة لإنسان على آخر، وفريق على فريق، إنما تقوم في البداية، وتؤول في النهاية، إلى عوامل أخلاقية ونفسية بحتة، ترتبط بمجرد السلوك والعمل ،فالتفضيل الإسلامي تفضيل معنوي روحي أخلاقي لا علاقة له بالجنس ولا باللون ولا بالبيئة

الاجتماعية التي ينتمي إليها الشخص، على حد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

ومن طريف ما في هذه الآية الكريمة الاشارة الواضحة إلى الأثر العميق الذي تحدثه البيئة أياً كان مستواها على الأفراد المنتمين إليها، والمحتكّين بها، فالتعقيب على الاصطفاء والاختيار بقوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ تنبيه إلى أن بيئة الصلاح والتقوى والبر، وتقدير المسؤولية، التي يعيش فيها الابناء إلى جانب آبائهم، تؤثر في أبنائهم أبلغ وأعمق تأثير، وتطبعهم بطابع الاستقامة واليقظة، وتعدُّهم إعداداً خاصاً لعمل الخير والتمسك بالفضيلة، وعلى العكس من ذلك بيئة الفساد والفسق والشر، والانحلال والاهمال، التي يعيش فيها الأبناء إلى جانب آبائهم، تترك في أبنائهم أثراً سيئاً، لا يُمحى، وتجعلهم أسرع الناس إلى المغامرة في مجالات الشر والرذيلة، تقليداً لآبائهم، وسيراً في طريقهم؛ وهكذا يحسن الأب الفاضل والأم الفاضلة إلى نفسهما وإلى ذريتهما أكبر إحسان، ويسيء الأب والأم المتنكران للفضيلة إلى نفسهما وذريتهما في حياتهما ومن بعد موتهما، أكبر إساءة.

ثم تحكي الآية على لسان امرأة عمران أنها نذرت لله الجنين الذي كان في بطنها، وسألت منه سبحانه أن يتقبل منها نذرها، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ومعنى هذا أنها التزمت بأن تقدم جنينها ووليدها، الذي هو فلذة كبدها، إلى المعبد، هبةً لله، وقربة إليه إبتغاء مرضاته، وذلك لما هي عليه من

التقوى والنسك والتجـرّد لله، غير أن في تعبيـرها كلمـة جديـرة بالتعليق ولفت النظر، ألا وهي كلمة (مُحَرَّراً) بعد قولها ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ فهذه الكلمة تعني عزم امرأة عمران بِنِيَّةٍ صادقة على أن تجعل جنينها ووليدها (محرراً) من كـل التكاليف العادية، والالتزامات العائلية واليومية، حتى يكـرس حياتـه كلها لعبادة الله دون شاغل يشغله، لا من أمر نفسه ولا من أمر عائلته، كما تعني هذه الكلمة أن امرأة عمران تتمنى على الله أن يكون جنينها ووليدها عبداً خالصاً لله، محرراً من كل رق أو خضوع لسواه، بحيث لا يسلم وجهـه إلاَّ إليه، ولا يعتمـد إلاَّ عليـه، إذ إن التعبد لله على وجهه الصحيح هو التحرر الكامل، نفسياً وأخلاقياً.

وقوله تعالى على لسان امرأة عمران ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ لم يرد في سياق التنقيص من المرأة أو الحطّ منها، بل ان السياق العام الذي جاءت فيه نفس هذه الآية هو على العكس من ذلك سياق تكريم للمرأة وتمجيد لهافي شخص امرأة عمران أم مريم، وفي شخص مريم أم عيسى، فهذا الربع كله تقريباً يتحدث في شخصها عن الدرجة العليا عند الله والمكانة المرموقة عند الناس، اللتين تستطيع أن تصل إليهما المرأة، متى التزمت في سلوكها سيرة التقوى وطريق الصلاح.

وإذن فالمراد من آية ﴿ وَلَيْسَ اَلذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ إنما هو مجرد تقرير حقيقة فطرية وطبيعية، هي أن الله تعالى خلق الذكر لأمر، وخلق الأنثى لأمر آخر، وليس كل ما يمكن القيام به لأحدهما ممكناً للثـاني، فطبيعتهـا مختلفـة، ومهمتهـا متنـوعـة، وهـما عنصـران

متكاملان، بحيث لا يكمل الذكر إلا بالأنثى، ولا تكمل الأنثى إلا بالذكر.

وهذا التكامل الضروري بينهما، الذي يحتاج إليه كل منهما يشمل جميع الجوانب، ولا سيما الجانب النفسي، والجانب الخلقي، والجانب الاجتماعي والتربوي الذي يرتبط به مصير النوع الإنساني عموماً، ومصير الأسرة على الخصوص ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَـا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَـالاً كَثِيراً وَنِسَـآءً ﴾ ـ ﴿ وَمِنَ آياته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّن اَنفُسِكُمُ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ومن هنا نستطيع أن نستشف ونكتشف سر الحكمة الإلٓهية في تكوين الأنثى تكويناً عضوياً مخالفاً للتكوين العضوي الذي عليه الذكر، وذلك حتى يؤدي كل منهما في الحياة الوظيفة المعينة التي خصص لأدائها من عند الله.

ولو لم تكن في هذا التنويع حكمة مقصودة على الدوام والاستمرار، ولو كان الغرض انشاء نوع متساوٍ للقيام بوظائف عضوية واجتماعية واحدة لا تنويع فيها ولا اختلاف، لما عملت القدرة الإلٓهية على تصميم النوع الإنساني تصميماً مختلفاً، وعلى تكوين صنفين متغايرين من هذا النوع، هما نوع الذكر ونوع الأنثى، ولكان الإنسان كله اما ذكراً دون أنثى، أو أنثى دون ذكر، وهذا ما يخالف الفطرة ويناقض الحكمة تماماً.

وقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران بعدما وضعت ابنتها مريم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَـٰنِ الرَّجِيمِ ﴾ فيه إشارة

إلى ما ينبغي للأبوين من تحصين وليدهما بالدعاء الصالح والتوجيه الصالح، ابتداء من ساعة خروجه من بطن أمه، بحيث تكون تلك الفترة فترة ابتهاج وشكر لله، من جهة، وفترة ابتهال إلى الله ودعاء، من جهة أخرى.

وقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمَسُّه حين يولد، فيستَهِلّ صارخاً من مسّ الشيطان إياه» الحديث. ثم يقول أبـو هريـرة: «واقرأوا إن شئتم: وإني أعيـذها بـك وذريتها من الشيطان الرجيم».

وقوله تعالى حكاية عن زكرياء، كافل مريم في طفولتها، عندما دعا ربه بدوره ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ فيه توجيه لعباده المؤمنين حتى يملأوا قلوبهم بمثل هذا الأمل والرجاء، وهو في نفس الوقت تنويه (بالذرية الطيبة) التي هي من نعم الله الكبرى الجديرة بالابتهال والدعاء، ومَثَل الرجل الذي لا ذرية له مَثَل الشجرة التي لا ثمرةَ لها.

غير أن الذرية المرغوبة والمطلوبة هي الذرية (الطيبة) كما في دعاء زكرياء، لا الذرية الخبيثة، «وطيب الذرية» مرجعه في أغلب الأحوال إلى طيب منبتها، أي إلى طيب الأسرة وحسن تربيتها، وإلى قدرتها على تحمل مسؤوليتها، من الوجهتين الروحية والمادية، الدينية والدنيوية، وإلاّ كانت الذرية نقمة لا نعمة، نقمة على نفسها أولاً، ونقمة على أسرتها ثانياً، ونقمة على وطنها كله في نهاية

الأمر، وعلى مثل هذا النوع من الذرية التي لا ينبغي أن يترك لها الحبل على الغارب ينطبق قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ وذلك حتى لا يستشري فيها الفساد، ويضيع منها الرشاد، فينطبق عليها حينئذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنَ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾.

ولب اللباب الذي تدور حوله القصة المفصلة في هذا الربع أمران أساسيان:

الأمر الأول: الرد على اليهود وإبطال ما اتهموا به مريم العذراء بنت عمران وأم عيسى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فإثبات القرآن الكريم لطهارة مريم إبطال لتهمة اليهود المغرضة، التي حاولوا إلصاقها بأم المسيح، ونقض لتهجُّمهم على عرضها من الأساس.

الأمر الثاني: الرد على النصارى، وتأكيد أن عيسى المسيح إنما هو ابن مريم وولدها، وليس ابن الله ولا ولده، كما يدَّعي النصارى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإثبات أن ولادة مريم لعيسى،دون أن يمسها بشر، أمر اقتضته حكمة الخالق البالغة، ونفذته قدرته الباهرة، التي لا يحدُّها حد ولا يقيدها قيد، وذلك قوله تعالى على لسان مريم نفسها ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَٰلِكِ، ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، إِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾.

وسيأتي في الربع المقبل ما يوضح أن ولادة عيسى بهذه الطريقة ليس فيها ما يدعو إلى أي استغراب، فقد سبقتها سابقة أخرى أقدم وأروع وأعجب، وقد سلَّم بها الجميع، ولم يستغربها أحد من الناس، ألَا وهي خلق آدم أب البشر، الذي خلقه الله دون أم ولا أب، فميلاد عيسى بن مريم من أم دون أب يعتبر أقل غرابة، وأبعد عن اثارة الدهشة بالنسبة إلى خلق آدم، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾.

وهكذا يقف القرآن الكريم موقف الصدق والحق يرُدُّ لمريم العذراء اعتبارها، ويدفع عن عيسى بن مريم ما ألصقته به الخرافات والأساطير، فيغسل العار الذي ألحقه اليهود بمريم، ويرفع الوهم الذي ألحقه النصارى بعيسى ابن مريم، والظلم الذي ألحقوه بمقام العلي الأعلى، إذ جعلوا له الشريك والولد، وهو سبحانه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس
في المصحف الكريم

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ
نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ
وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ
لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا
مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ
لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ
لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ
عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

الربع الثالث من الحزب السادس
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب السادس في المصحف الكريم، وهذا الربع يبتدىء من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنَ اَنصَارِىَ إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ، ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ قُلِ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُوتِيهِ مَن يَّشَآءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

في هذا الربع من سورة آل عمران وصف لموقف بني إسرائيل من نبيهم الجديد عيسى بن مريم، وإشارة إلى موقفه منهم عند وداعه لهم الوداع الأخير ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذِينَ كَفَرُواْ ﴾.

وفيه أيضاً تنظير وتمثيل لعيسى بآدم عليهما السلام، وفيه إشارة إلى مباهلة الرسول ﷺ لنصارى نجران بعد مناظرته لهم في شأن عيسى المسيح وأمه مريم العذراء، وإقامته الحجة عليهم، وإظهار ما آلت إليه عقيدتهم من تحريف وفساد، ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ونِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَـٰذِبِينَ ﴾.

وفيه دعوة عامة إلى جميع أهل الكتاب على اختلاف كُتُبهم ومللهم للدخول في الإسلام، الذي هو الدين الوحيد العام، والتنازل عن جميع الفوارق والخرافات والأوهام.

وفيه علاوة على ذلك ـ عوداً على بدأ ـ حديث جديد عن إبراهيم الخليل، وبراءته من اليهودية والنصرانية، فضلاً عن الشرك والوثنية، واثبات سند الإسلام المتصل بإبراهيم ورسالته، وكون الإسلام مجرد تجديد وإحياء لملته ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً، وَما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيّءُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُومِنِينَ﴾.

والآن فلنوضح ما يسمح به الوقت من الآيات البيِّنات.

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنَ أَنصَارِيَ إِلَى اللَّهِ﴾ جاء عقب الاشارة إلى أن الله قد بعثه إلى بني إسرائيل رسولاً مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة، وليحل لهم، رحمة بهم، بعض الذي كان قد حُرِّم عليهم قبل بعثته، مما وقع تحريمه عليهم عقاباً لهم وتأديباً.

وقد أشارت الآيات السابقة في آخر الربع الماضي إلى المعجزات التي آيد الله بها عيسى، مما هو متناسب ومنسجم مع طبيعة المعجزة التي برزت في ميلاده من أمّ عذراء وبغير أب ﴿وَأُبْرِيءُ الاَكْمَهَ وَالاَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرِيَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

غير أن جميع هذه الدلائل التي جاء بها عيسى على قوّتها لم

تؤثر في عقول بني إسرائيل، ولم تزعزعهم عن موقف التعصب والعناد إزاء عيسى ورسالته ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ﴾ فلم يلبث عيسى عليه السلام أن أحس منهم الكفر، وأخذ يبحث عمن يناصره ويسانده، لا جبناً ولا خوفاً، ولكن ليجد عوناً على تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وذلك هو قوله تعالى على لسان عيسى وحكاية عنه: (قَالَ: مَنَ اَنصَارِيَ إِلَى اللَّهِ؟).

فما كان من العناية الإلّهية إلاّ أن وفقت فريقاً منهم للإيمان بعيسى، كما وفقت الأنصار من الأوس والخزرج إلى بيعة رسول الله ومناصرته في السراء والضراء، وطاعته في المنشط والمكره، وذلك قوله تعالى حكاية عن حواريي عيسى ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ، ءَامَنَّا بِاللَّهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّـٰهِدِينَ ﴾.

فها هنا نضع اليد مرة أخرى على الوحدة القائمة بين رسالات الرسل ومواقف أتباعهم الصادقين، ونجد هذه الوحدة بارزة حتى في الألقاب والأسماء والاصطلاحات، فأتباع عيسى عليه السلام يسميهم القرآن (أنصاراً) كما سمّى أتباع الرسول ﷺ الذين بايعوه على النصرة، من الأوس والخزرج، أنصاراً ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾.

وكما نسمي نحن أنفسنا (مسلمين) فقد سمى الحواريون أنفسهم بنفس الاسم، إبرازاً للصفة المهيمنة على حياة المؤمنين، والموجهة لهم في جميع أعمالهم وتصرفاتهم، ألا وهي صفة الطاعة المطلقة، والامتثال الكامل، والتسليم لتوجيهات الله وتعليماته في

تدبير شؤونهم الخاصة والعامة، دون مناقشة منهم ولا اعتراض ولا تمرد ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

وكما أن الإسلام لا يكتفي من معتنقيه بمجرد الإيمان القلبي والاعتقاد النظري الصرف، بل يطالبهم بإظهار شعائره، وتطبيق شرائعه، وإلاَّ كان لهم من الإسلام مجرد الاسم، فإن حواريي عيسى الذين عرفوا حقيقة رسالته، وأدركوا طبيعتها على وجهها، أكدوا هذا المعنى الحيوي الذي يستلزمه مقتضى الإسلام، وسجلوه كما حكى الله عنهم عندما قالوا لنبيهم: ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

ثم اتجهوا إلى الخالق سبحانه وتعالى مؤكدين نفس المعنى قائلين فيما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فاتِّباع المؤمنين لرسولهم، وتطبيقهم لشريعته على حياتهم اليومية الخاصة والعامة، هو وحده البرهان الناطق على قوة إيمانهم، وهو وحده المعيار الصحيح لصدق عقيدتهم، وهو وحده الأساس الذي تُبنى عليه الشهادة لهم بأنهم من المسلمين، والذي يُسجَّلون على أساسه في عِدَادِ (الشاهدين).

ولذلك كانت (الشهادة) مما بُنِيَ عليه الإسلام، بل هي أول ما بُنِيَ عليه كما قال ﷺ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إِلَه إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

ولذلك كانت الشهادة أيضاً عنصراً ضرورياً في الأذان إلى الصلاة وعند إقامتها، ولذلك أيضاً خصص من الصلاة جزء للتشهد فيها، فالتشهد تعبير دائم ونطق صريح شبيه بالأمر اليومي

الذي تصدره قيادة الجيش إلى القوات العاملة فيه، مضمونه أن المؤمن المتشهد مقتنع كل الاقتناع بدينه، ملتزم له فكراً وقولاً وعملاً، وأنه مرتبط بإلهه ونبيّه ارتباطاً مستمراً، وأنه معتزٌّ بهذا الارتباط، وأنه مفتخر بهذا الانتساب وهذا الالتزام، أمام العالم أجمع، بما فيه من مسلمين وغير مسلمين، وإذا كانت الشهادة بمعناها العادي تتضمن اقتناع الشاهد بمحتواها، وحرصه التام على إبرازها وعدم كتمانها، وامتناعه من إدخال أي تبديل أو تغيير عليها، فما بالك بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، التي هي أمّ الشهادات جميعاً؟

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ الْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ دعوة لأهل الكتاب على اختلاف كتبهم ومللهم أولاً، ولغيرهم ثانياً، إلى الاجتماع والاتحاد والدخول في حظيرة الإسلام، إذ أنه هو الدين الوحيد المتسلسل، عن طريق الوحي المنزل، إلى كافة الأنبياء والرسل، الذي يجب أن تجتمع عليه الكلمة، دون تفرقة في عقائده، ولا تفاوت بين أتباعه، بل على أساس الوحدة الروحية والإنسانية المجردة، والاجماع على الاعتراف بسلطة الله العليا وبتوجيهه الأسمى، ووضعها فوق كل سلطة وفوق كل توجيه، ثم تحرير عباد الله، من كل تبعية أو خضوع لسواه، وهذه الدعوة كانت ولا تزال موجهة إلى عموم البشر، فَمَنْ أجابها فاز بالحسنى، ومن أهملها سقطت حجته وكان مسؤولاً عن إهماله أمام الله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس
في المصحف الكريم

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا
الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا
مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾
قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

الربع الأخير من الحزب السادس
في المصحف الكريم

عبــاد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الأخير من الحزب السادس في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اَهْلِ الْكِتَـٰبِ مَنِ اِن تَامَنْهُ بِقِنطارٍ يُوَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُم مَّنِ اِن تَامَنْهُ بِدِينارٍ لَّا يُوَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي اِلْأُمِّيينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنَ اَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدىٰ بِهِ، أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ اَلِيمٌ، وَمَـا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

هذا الربع من سورة آل عمران يمسُّ عدة موضوعات حيوية، من العبادات والمعاملات، ففي آياته البيِّنات إشارة إلى موضـوع الأمانة بالنسبة لشؤون الدنيا، وإلى موضوع الأمانة بالنسبة لشؤون الدين، وفي آياته تحديد وتوكيد لما نادى به القرآن الكريم من إعفاء البشر من كل شيء زائد على العبودية لله، ومن تحريرهم من كل أنواع العبودية الأخرى التي تعارف عليها الناس لسواه ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُّوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَـٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُـوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِباداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾.

وفي آياته تعريف للمؤمنين بما أخذه الله على النبيين السابقين، من ميثاق الإيمان والنصرة لخاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴾.

وفي آياته توضيح جديد لمعنى الإسلام، وإثبات أنه الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَـٰمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾.

وفي آياته إشارة إلى ما قد يصيب بعض ضعفاء الإيمان من ردة بعد إيمانهم تتبعها التوبة قبل الموت، أو يعقبها الاصرار عليها إلى حين الموت ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾.

أما الأمانة المتعلقة بشؤون الدنيا فيشير إليها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وهذه الآية الكريمة تصف في الأصل حال الكتابيين الذين كانوا يعايشون المسلمين بالمدينة وما حولها، وتبين أنهم ليسوا أهلاً لثقة المسلمين، ولا أهلاً لائتمانهم، إذ إن أولئك الكتابيين في مجموعهم لا يلتزمون جميعاً الأمانة في معاملاتهم مع المسلمين، بل فيهم مَنْ يلتزمها حتى في المبلغ الكبير كالقنطار من الذهب والفضة، وفيهم مَنْ لا يلتزمها ولو في المبلغ الزهيد كالدينار الواحد وما ماثله.

وعدم التزام فريق منهم للأمانة يجعلهم جميعاً عرضة للشك والريب، حيث لا يدري الذي يتعامل معهم هل أنه يتعامل مع أمين أو مع خائن، إذن فالأولى والأفضل للمسلمين، وهم في بداية تنظيم المجتمع الإسلامي وإقامة دعائم الدولة الإسلامية، أن لاَ يُعرّضوا أموالهم للخطر، وأن يكتفوا بالتعامل فيما بينهم، وأن يتركوا التعامل مع الكتابيين بالمرة.

وتأكيداً لهذا التوجيه الإسلامي أشار كتاب الله إلى أن الكتابيين الذين لا يلتزمون الأمانة في معاملاتهم اختلقوا لذلك عذراً دينياً ومبرراً شرعياً يبررون به خيانتهم للمسلمين، ألاَ وهو أن الأمانة الواجبة في المعاملات إنما تجب على أهل الكتاب فيما بينهم بعضهم مع بعض، لا فيما بينهم وبين غيرهم من المسلمين، وجاءت تسمية المسلمين على لسان أولئك الكتابيين في هذه الآية باسم (الأميين) وهم يقصدون بذلك من لم ينزل عليهم كتاب من عند الله، مما يبين استمرار عنادهم وإصرارهم على إنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ، وإنكار الوحي المنزل عليه، وبذلك قرروا أن

أكلهم أموال المسلمين ليس بظلم، وإنما هو من الحلال الطيب ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ ﴾.

غير أن كتاب الله عاد على دعواهم بالنقض والإبطال، وبيَّن أن الأمانة في المعاملة واجب ديني عليهم بالنسبة لجميع الناس، لَا بالنسبة إليهم فيما بينهم وحدهم دون بقية الناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وغني عن البيان أن استنكار القرآن الكريم لعدم التزام الأمانة في المعاملات لا يقتصر على أهل الكتاب دون من سواهم، بل يشملهم ويشمل غيرهم، وهذا هو السر في التعقيب بعد ذلك بالمبدأ العام الذي قرره الدستور القرآني الخالد، إذ قال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾. وفي القرآن الكريم آيات متعددة تحض على الأمانة وتدعو إليها سيأتي التعليق عليها في مكانها إن شاء الله، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾. ومما يتصل بموضوع الأمانة وبضدها الذي هو الخيانة ما يستعمله التجار لترويج تجارتهم من الأيمان الكاذبة، وقد كان ذلك شائعاً بين تجار اليهود، واقتدى بهم غيرهم، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فهنا هنا يتصدى كتاب الله بالتوبيخ والانذار للتجار المستغلين من أجل تلاعبهم بمصالح المؤمنين، ويبيِّن لهم العقوبات الإلٰهية القاسية التي تنتظرهم في الدنيا والآخرة، جزاء تطاولهم على الله،

وتلاعبهم باسمه الأقدس، وحلفهم الأَيْمان الفاجرة، من أجل ربح يحاولون الحصول عليه، وهوفي الحقيقة منتهى الخسارة لهم، ومنتهى البوار لتجارتهم.

فقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ معناه أنهم لا نصيب لهم في الجنة، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ معناه أنهم سيكونون محل السخط والغضب والهوان، لدى الملك الديان، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ معناه أنه لا يرحم ضراعتهم، ولا يقبل إغاثتهم، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ معناه أنه يتركهم على ما حشروا عليه من أدناس ذنوبهم وأوساخها، وهل بعد هذا العقاب على خيانة الأمانة واستغلال اسم الله الأقدس في الأَيمان الفاجرة، من أجل تجارة خاسرة، عقاب أكبر وأخطر، ثم يأتي ختام هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب مؤلم وموجع، وذلك زيادة في تأكيد العقوبات التي فصَّلتها الآية وأوضحتها، حتى يتجنبها من يريد لنفسه النجاة والخلاص. روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يشنؤهم الله: التاجر الحلّاف، والفقير المحتال، والبخيل المنان».

وأما الأمانة المتعلقة بشؤون الدين فيشير إليها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وما هو من الكتاب، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. فهذه الآية تشير إلى استنكار الإسلام لما تواطأ عليه أحبار اليهود ورهبان النصارى

من الزور والبهتان، فكم من عقائد سليمة حرفوها عن أصلها، وكم من عقائد باطلة وشعائر فاسدة أدمجوها في صلب الدين وليست منه، وكم من شرائع غيَّروها وبدَّلوها ترضية للأهواء والشهوات، وكَشَـفَ كتابُ الله عن تضليلهم وتزويرهم النقاب، فَبَيَّنَ أن فريقاً منهم (يلوون ألسنتهم بالكتاب)، أي يتمتمون ببعض الفقرات والجمل أمام أتباعهم، إيهاماً لهم بأن ما يتمتمون به قول صحيح وارد في كتاب الله، لا مجرد قول من أقوالهم، وأنه من عنـــد الله لَا مِن عندياتهم.

ولا حاجة إلى التنبيه على أن ما استنكره القرآن الكريم من تحريف أحبار اليهود ورهبان النصـارى للدين، وتزييفهم للكتب المنزلة، وتقولهم على الله ما لم يقل، ومن استغلالهم للشعور الديني استغلالاً فاحشاً في سبيل أغراضهم وشهواتهم، وتضليل البسطاء من أتباعهم، كلها أمور لا يقبلها الله تعالى من أي أحد من علماء المسلمين، فالعالم المسلم يجب عليه أن يحتاط كل الاحتيـاط من الوقوع في المزالق، ويجب عليه أن يحرص كل الحرص على حفظ أمانة العلم الشريف، وأن يصونها ـ مهما كلفه الأمر ـ من التحريف والتزييف، وإلاَّ حقَّت عليه كلمة العذاب، واندرج في زمرة من (يقولون على الله الكذب) بنص الكتاب.

وفي ختام هذا الحديث ينبغي لفت النظر إلى ما ذكره (ابن العربي) المعافري أثناء تفسيره لهذه الآيات في كتابه (أحكام القرآن) إذ قال ما نصه: «فائدتها ـ أي فائدة هذه الآية ـ النهي عن ائتمانهم على «مال» ـ يقصد أهل الكتاب ـ ثم زاد ابن العربي قائلاً: وقال

شيخنا أبو عبد الله العربي: فائدتها ألا يؤتمنوا على «دين». يدل عليه ما بعده من قوله ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَـٰبِ لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ ﴾ فأراد أن لا يؤتمنوا على نقل شيء من التوراة والانجيل.

قال القاضي: «والصحيح عندي أنها في المال نص، وفي الدين سنّة، فأفادت المعنيين لهذين الوجهين» انتهى كلام القاضي أبي بكر (ابن العربي).

وإذا كان أهل الكتاب لا يؤتمنون على التوراة والانجيل، فيكون من باب أولى وأحرى أن لا يؤتمنوا على القرآن، كما هو الشأن في غلاة المستشرقين والرهبان، الذين تجب محاربة آرائهم الفاسدة، والوقوف في وجه انتشارها بين شبان المسلمين في مختلف البلدان.

الربع الأول من الحزب السابع
في المصحف الكريم

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ

شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم
بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾
وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟

ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ
ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ
يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

الربع الأول من الحزب السابع في القرآن الكريم

عبـــاد الله

حصتنا اليوم تستغرق الربع الأول من الحزب السابع في المصحف الكريم، وأول آية في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِئَايَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾.

في هذا الربع من سورة آل عمران تتناول الآيات الكريمة موضوع الانفاق والبر ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وموضوع الحلال والحرام من الأطعمة بالنسبة لبني إسرائيل. ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ ﴾ وموضوع ملة إبراهيم ومقام إبراهيم ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ - ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً ﴾ وموقف أهل الكتاب من الإسلام وأتباعه، رغماً عن كونه هو نفس الحنيفية السمحة التي جاء بها إبراهيم، ثم تتناول آيات هذا الربع وجوب الاعتصام بالإسلام ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ - ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. كما تتناول وصف

الأمة التي تدعو إلى الخير، والتي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. وتتناول أيضاً ذم التفرق والاختلاف ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ، وَاذْكُرُواْ نعمة اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ ـ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ ﴾ كما تنبه الآيات الكريمة إلى ما ينال المسلمين من أذى أهل الكتاب ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ وإلى ما يناله المسلمون من نصر عليهم وغلبة لهم في النهاية ﴿ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

ولنأخذ الآن في إلقاء نظرة فاحصة على جملة من الآيات البينات في هذا الربع:

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ـ امَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ، وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فهاهنا تنطق الآية الكريمة بما يضعه خصوم الإسلام في طريق انتشاره من العراقيل، وما يبثون ضده من الدعايات الباطلة، إذ يضربون من حوله سوراً حديدياً لا يستطيع أن يتخطاه المعجبون به والراغبون فيه، بل إن هذه الآية لتنطِقُ بما هو أنكى وأشد، ألا وهو محاولة خصوم الإسلام أن يصدوا عنه ويخرجوا من حظيرته نفس المؤمنين الذين سبق لهم الإيمان به، فهم لا يحولون بين الإسلام وبين من لم يسلم بالمرة، بل إنهم يطمعون في إخراج المسلمين أنفسهم من دائرة الإسلام، ويحاولون ذلك عملياً، لَا تمنياً، هذا وهم يعرفون أن الإسلام دين الحق والصدق، ولكنهم

قوم بُهت جُبلوا على التضليل والتزييف والتعصب، وهم لا يفترون عن محاولاتهم المسمومة في الأوساط الإسلامية منذ اليوم الأول، ولعل ذلك هو السر في التعقيب بقوله تعالى مخاطباً لخصوم الإسلام: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

على أن هذا التعقيب فيه إيماء وإشارة إلى ما يلزم المسلمين من اليقظة والحذر، وعدم الغفلة عن دسائس خصوم الإسلام ومؤامراتهم ومحاولاتهم المضللة، وأساليبهم الملتوية، التي يرمون من ورائها إلى قتل الروح الإسلامية في نفوس المسلمين، وإلى تجريد حياتهم من كل المعاني والقيم الإسلامية، وإلى جعل المسلمين أشباحاً بدون أرواح، وإلى إفراغ الإسلام من محتواه الاعتقادي، ومحتواه الشرعي، ومحتواه الأخلاقي، ومحتواه الاجتماعي، حتى يصبح دينُ الإسلام مجرد شبح من الأشباح ووهم من الأوهام.

ثم يقول الله تعالى مخاطباً ومحذراً للمؤمنين، حكاماً ومحكومين، رؤساء ومرؤوسين، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ فهذه الآية قول صدق وحق نطق به الحق سبحانه وتعالى، بحيث لا يحتمل معناها عند المؤمن بربه أدنى شك ولا ريب، وهي تعلن صراحة وبدون حجاب أن فريقاً من أهل الكتاب يحاولون أن يجروا المسلمين إلى ما هم عليه من الآراء والأوضاع، وانهم يستدرجون المسلمين إلى الثقة بهم، وإلى متابعتهم والسير في ركابهم، وإغرائهم بالدخول في طاعتهم، التي هي أكبر معصية يعصى بها الله، وليس

ضرورياً أن تكون الطاعة هُنَا طاعة المحكوم للحاكم والمغلوب للغالب، فهناك طاعة أخطر منها وأشد وقعاً، هي طاعة القلب المظلم، الذي يمتلىء بحب الكفر والإعجاب بأهله، وطاعة الضمير الميت، الذي يتنكر للإسلام، ولا يتحرك للغيرة عليه أو الدفاع عنه.

فهذه الطاعة المعنوية التي تستولي على المشاعر، وتسخر الفكر والإرادة والضمير تسخيراً أعمى لصالح الكفر وأهله، هي التي تجعل من المؤمن كافراً بعد إيمانه، وهي التي تنقله من بيئة الإسلام إلى بيئة الكفر نقلة نهائية لا رجعة بعدها، حيث لا يتنفس الصُّعَداء، ولا يحس بالانسجام والوئام إلا مع إخوانه الكافرين، وإن كان يحمل زوراً وبهتاناً «اسم محمد و أحمد» في مجتمع المسلمين.

وبعدما سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة الغريبة، وحذر المؤمنين من هذا الخطر البالغ فقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ عاد مرة أخرى إلى أولئك المرتدين عن الإيمان، أو الذين هم في طريق الارتداد، يوجه إليهم خطابه، ويحذرهم عذابه، في لهجة من الاستنكار والتعجب والاستغراب، يتأثر لها أولو الألباب، فقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ أي ما هو الشيء الذي يبرر كفركم وآيات الله تتلى عليكم شاهدة ناطقة، تفصل بين الحق والباطل، والخير و الشر، والهدى والضلال، وفيكم رسول الله يبيِّن لكم العقائد الصحيحة من

العقائد الباطلة، والشعائر السافلة من الشعائر الفاضلة، والشرائع العادلة من الشرائع الظالمة. على أنه إذا غاب عنا رسول الله ﷺ بشخصه، فإن كتاب الله الذي أنزل عليه حاضر أبداً لا يغيب، وناطق دائماً لا يصمت، وشاهد في كل وقت لا يكذب.

ثم عقبت الآية على ذلك كله بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي أن من التزم دين الله واهتدى بكتابه وتمسك بعهده كل التمسك، كان مضمون الهداية مضمون التوفيق، إذ إن نور الله يسعى بين يديه يسدده في خطواته، ويوجه حركاته وسكناته، وهذا المعنى يقتضي بحكم المفهوم أن من لم يعتصم بالله لا بد أن يفقد الهداية والنور، وأن تحيط به الظلمات من كل جانب، ظلمات بعضها فوق بعض، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وذلك هو ما أشار إليه الأثر الوارد في فضائل القرآن «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

ويقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ويقول سبحانه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

هذه الآيات من سورة آل عمران تعالج موضوعاً حيوياً وجوهرياً في الإسلام، قد عالجه القرآن الكريم وجدد القول في شأنه في عدة آيات وفي عدة سور، إذ به فضّل الله المسلمين على غيرهم من الأمم، ألَا وهو موضوع القيام بالدعوة الإسلامية والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قام الإسلام من أول نشأته على الدعوة إلى الله، والدعوة إلى الخير بكافة وجوهه وبجميع أصنافه، وهذه الدعوة مترتبة في ذِمم المسلمين وفي أعناقهم، عليهم واجب القيام بها في كل عصر نحو أنفسهم ونحو الناس أجمعين، ولا يعفيهم منها ولا يسمح لهم بالتقصير فيها أي شيء.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو واجب جماعي على كافة المسلمين، بحيث يقوم به كل من استطاع منهم في دائرة المحيط الداخل تحت إشرافه، والذي له عليه سلطة ونفوذ، فعلى الأب أن يأمر أبناءه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعلى الزوج أن يأمر أهله وخدم بيته بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعلى المعلم أن يأمر تلامذته، والأستاذ أن يأمر طلابه، والشيخ أن يأمر مريديه، والعالِم أن يأمر مستمعيه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعلى التاجر والصانع والعامل وصاحب المعمل أن يَامر كل منهم بالمعروف وينهى عن المنكر، وهكذا كل في دائرة اختصاصه ومنطقة نفوذه، من أبسط شخص في الأمة إلى أقوى واحد فيها.

غير أن من وضع الله في أيديهم مقاليد الحكم، ومكَّنهم من زمام السلطة التنفيذية الفعلية، وبسط سلطانهم على الرقاب والأموال والأملاك بالحق من أمراء المؤمنين وولاة المسلمين يقع عليهم أكبر عبء وأعظم مسؤولية في الزجر عن المناكر، إذ هم أقدر المسلمين جميعاً على إحياء المعروف وإماتة المنكر، وهم الذين قيل في مثلهم ما جاء في الاثر: «إن الله ليزَع بالسلطان ما لا يَزَع بالقرآن»، ومعنى هذا أن هناك أفراداً متمردين على الله لا تؤثر فيهم

الموعظة الحسنة بالقرآن، وإنما يؤثر فيهم العقاب الرادع على يد السلطان.

وسوط العقاب على المنكر والوقوف في وجهه إنما يضعه قانون الإسلام، بصفته منبعاً للاستقرار والنظام، في يد أمير المؤمنين وحده، ثم في أيدي أعوانه وخدّامه من الولاة المتّقين، لا سيما ولاة الحسبة المختصين، لكن بإذنه وأمره، ودون افتيات عليه، فهو وحده الذي يملك من بين المسلمين حق إيقاف المنكر بالقوة، ومتابعة أهله بالعقاب، حماية للملة، وصيانة للأمة.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) في تفسير هذه الآيات ما نصه: «ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وفي هذا الحديث من غريب الفقه أن النبي ﷺ بدأ في البيان بالأخير في الفعل، وهو تغيير المنكر باليد، وإنما يبدأ باللسان والبيان، فإن لم يكن فباليد، يعني أن يحول بين المنكر وبين متعاطيه، بنزعه عنه، ويجذبه منه، فإن لم يقدر إلاّ بمقاتلة وسلاح فليتركه، وذلك إنما هو إلى السلطان، لأن شهر السلاح بين الناس قد يكون مخرجاً إلى الفتنة، وآئلاً إلى فساد أكثر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعني بقوله «وذلك أضعف الإيمان» أنه ليس وراءه في التغيير درجة. انتهى المقصود منه والمراد، وعلى الله الاعتماد.

الربع الثاني من الحزب السابع
في المصحف الكريم

لَيْسُوا سَوَاءً

مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ
قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ
تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا
لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ
ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟
بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا
يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ
شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

الربع الثاني من الحزب السابع
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نستعرض آيات الذكر الحكيم الواردة في الربع الثاني من الحزب السابع في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً، مِّنَ اهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَـةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ، وَأَطِيعُواْ اللَّهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

يبتدىء هذا الربع من سورة آل عمران بوصف طائفة من أهل الكتاب لم تسلك مسلك العناد والجحود الذي سلكته بقية الطوائف، بل انفصلت عنها انفصالاً تاماً، وتنازلت عما كانت تعيش عليه من الأساطير والأوهام، وآمنت عن اقتناع واخلاص برسالة الإسلام، ولم تلبث هذه الطائفة أن وجدت في دين الإسلام الحق ما يستجيب لرغباتها، ويستثمر جميع طاقاتها فردياً واجتماعياً، فمن تلاوة لكتاب الله تلاوة تدبر واعتبار، ولا سيما في لحظات السكون والهدوء خلال فترات الليل، ومن عبادة الله ومناجاة لمقامه الأقدس، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، قياماً بنشر الدعوة الإسلامية، ومساهمة في إصلاح المجتمع، وتطبيقاً للمنهج الإسلامي

على الحياة اليومية التي يحياها الناس، ومن قيام بأعمال البرّ وتسابق إلى مساعي الخير على اختلاف وجوهها، وذلك قوله تعالى في وصف هذه الطائفة تنويهاً بها، وتقديراً لموقفها ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يومِنُونَ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَـٰرِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ، وَأُوْلَـٰئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾.

وقوله تعالى عنهم: ﴿ يُومِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ هو مفتاح الانقلاب الروحي والنفسي الذي تم في حياتهم، وأساس السلوك الفردي والاجتماعي الذي تحولوا إليه فأصبحوا في الطليعة، ولم يتخلفوا عن الصف الإسلامي الأول خطوة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَـٰئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ هو الوسام الإلٰهي الذي أكرمهم الله به، جزاء ما تجلى في أحوالهم من إيمان وإسلام وإحسان.

ومن هنا ندرك أن وصف (الصالح) ولقب (الصالحين) يمكن - بناء على هذه الآية الكريمة - أن يناله كل مسلم آمن بربه حق الإيمان، والتزم في حياته الفردية والاجتماعية القيام بفرائض الإسلام وقربات الإحسان، وكان نصيراً للمعروف وعدواً للمنكر في كل زمان ومكان، فهذا الوصف الجميل وصف (الصلاح) وهذا اللقب الجليل (لقب الصالح) هما في متناول كل مسلم، من أي عصر، ومن أي جيل.

ثم ينتقل الحديث إلى موضوع الانفاق وعمل الخير، ولا سيما بيان الفرق بين ما يقدمه المؤمن، وما يقدمه الكافر في هذا المجال،

فالكافرون الذين تمردوا على الله، ولم يسلموا وجوههم إليه ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ - ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ اصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهلكَتْهُ ﴾ أي أن نفقاتهم التي يرجون جزاءها يمحق الله ثوابها فيذهب هباء منثوراً، مثل الحرث الذي أوشك على الحصاد إذا نفخ فيه الريح البارد، فإنه يجف وييبس ويحترق، ولا يبقى فيه أدنى نفع، لا ثمر ولا زرع.

وعلى العكس من ذلك المؤمنون بالله، الذين يعيشون في اطار التوجيهات الإلٰهية، والتعليمات النبوية، وهم في سَلْم مع الله، وطاعة لأمره ونهيه، فإن ما ينفقونه في سبيل الله، بنية خالصة ابتغاء رضاه، لا يضيع أبداً، بل يدخره لهم الحق سبحانه وتعالى ليوم المعاد، ويكون بين أيديهم زاداً ونعم الزاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن تُكْفَرُوهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾.

ومن هنا يعود كتاب الله إلى تحذير المؤمنين مرة أخرى من دسائس خصوم الإسلام، فينهاهم نهياً باتاً عن اتخاذهم بطانة لهم من دون المؤمنين، ويمنع المسلمين من الافضاء إليهم بأسرارهم، وذلك حتى لا يستعين عليهم بها أعداؤهم.

ولا يقف كتاب الله عند هذا الحد، بل يكشف للمسلمين حقائق خصوم الإسلام الدفينة، ونواياهم الخفية، فهم بشهادة الله الذي يعلم السر والنجوى، حريصون كل الحرص على أن يبلبلوا أفكار المسلمين، ويجعلوها مضطربة متناقضة متشاكسة باستمرار،

ليظل المسلمون على الدوام في حيرة واضطراب وبلبلة، ولا يهتدوا سبيلاً.

وهم بشهادة كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحملون للمسلمين بغضاً دفيناً، وكرهاً عميقاً، وهذا البغض يتجلى في فلتات ألسنتهم، ويبرز على ملامحهم وفي انطباعاتهم، كلما جاءت مناسبة أو دعت ضرورة لبروزه.

ثم ينعى كتاب الله على السُّذَّج من المسلمين ما هم عليه من سذاجة يستغلها خصومهم إلى أقصى الحدود، حتى أنهم ليبادرون إلى محبة أولئك الخصوم الألداء، بينما خصومُهم ثابتون على حقدهم، ولا يتنازلون عن بغضهم للإسلام وأهله قيد شعرة، وهذه باختصار هي بعض المعاني التي اشتمل عليها قوله تعالى، مما يجب أن نتدبره بكامل الانتباه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَـآءُ مِنَ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ، هَآنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ،وَلَا يُحِبُّونَكُمْ،وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَـٰبِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا،وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضِرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي بطانة من غيركم من أهل الأديان الأخرى، وبطانة الرجل هم خاصة صحبه الذين يطلعون على داخل أمره.

وقوله تعالى: ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي أنهم لا يتمنون للمسلمين إلا ما فيه إضرار بهم، واعنات لهم، من أنواع الشقاء والضرر والفساد.

وقوله تعالى في التعقيب على هذه البيانات الإلٓهية والانذارات السماوية ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ معناه أنه قد بيَّن للمسلمين منابع الخطر وأسباب الضرر ليتجنبوها، ولا يقعوا في أشراكها، إن كان عندهم من العقل السليم، والرأي السديد ما يعالجون به شؤونهم، ويحفظون به كيانهم، وذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فإن وقعوا في مصايد الأعداء ومكايدهم بعد ذلك كانت المسؤولية عليهم وحدهم بدءاً وختاماً.

وقوله تعالى: ﴿ وَتُومِنُونَ بِالْكِتَـٰبِ كُلِّهِ ﴾ معناه أن المسلمين قوم متسامحون نزهاء لا يفرقون بين رسل الله، ولا بين كتبه المنزلة، فهم يؤمنون بجميع الرسل وبجميع رسالاتهم كما أوحى بها الله، بينما خصوم الإسلام على عنادهم ثابتون، وفي تعصبهم راسخون، وموقفهم من الإسلام ورسوله وكتابه موقف الكفر والتجاهل إن لم يكن موقف الازدراء والاحتقار، والكيد الظاهر والمكر الخفي، وهكذا يؤمن المسلمون بكل الكتب المنزلة على الشكل الأصلي الذي أنزلت عليه، بما فيها توراة موسى وانجيل عيسى، بينما خصوم الإسلام لا يؤمن كل فريق منهم إلا بكتابه وحده، رغماً عن تحريفه وتزييفه، دون بقية الكتب، وذلك لما هم عليه من تحيّز وتعصب وضيق أفق.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الاَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

فيه تصوير كاشف لحالة خصوم الإسلام الذين يتساهل المسلمون فيجعلونهم بطانة لهم، وهذا التصوير يثبت أن غيظهم على المسلمين قد جاوز كل الحدود، إذ إن الإنسان العادي لا يعض أصابعه من الغيظ إلا إذا بلغ به الغيظ نهايته، وفقد وعيه بالمرة.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ خطاب من الله لخصوم الإسلام المندسين بين المسلمين، وفيه إيماء إلى ما يجب على المسلمين من اتخاذ الحيطة والحذر إزاء هذا النوع من الخصوم الماكرين، ولا شك أن أحسن حيطة يتخذها المسلمون إزاءهم هي الابتعاد عنهم ما أمكن، ما دامت القلوب غير متصافية، والنفوس متجافية، كما بيَّن الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عليم بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تأكيد للمعاني السابقة وتثبيت لها في أذهان الغافلين من المؤمنين، وتذكير لهم بإحدى البديهيات العقلية والدينية، ألَا وهي أن الله جلّ جلاله هو العليم بذات الصدور، المطلع على دفائنها، وإذن فوصفه لخصوم الإسلام وأعدائه هو الوصف الوحيد المطابق للواقع، وهو الحقيقة الناطقة التي ليس لها من دافع، ولذلك يجب على المسلمين امتثال أوامر الله فيمن يصادقونه ومن يعادونه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَد ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾.

ثم تنتقل الآيات الكريمة في هذا الربع وما بعده إلى موضوع جديد هو الحديث عن يوم أُحُد، ومقارنته بغزوة بدر ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنَ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ - ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾.

وفي هذه الآيات وصف كاشف لحالة المسلمين عندما ذاقوا في أحد مرارة الهزيمة بعدما ذاقوا في بدر حلاوة النصر، وفيها كذلك تحليل عميق لأسباب الهزيمة والنصر في كلتا الحالتين.

والاشارة في هذا الربع بالخصوص إلى المدد الإلهي الذي أمد الله به المسلمين في بدر، إذ كانوا قلة في العَدد والعُدد، فتدخل جند الله من الملائكة المسومين، إلى جانب جند الله من الأنصار والمهاجرين، فحلّت البشرى، واطمأنت القلوب، ونزل النصر من عند الله، فسقط في المعركة فريق من كفار قريش، ورجع بالخيبة منهم فريق آخر، وتاب منهم فريق ثالث، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَاتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ - أي معلّمين بسيما القتال وعلامات المعركة - ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ، أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْاَمْرِ شَيْءٌ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْاَمْرِ شَيْءٌ ﴾ يقابله قوله تعالى في مكان آخر من هذه السورة، سورة آل عمران: ﴿ قُلِ اِنَّ الْاَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ ﴾ وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ بَل لِلَّهِ الْاَمْرُ جَمِيعاً ﴾ وهو جملة معترضة بين الجمل المعطوفة تؤكد أن الرسول عليه السلام إنما هو ممتثل لأمر الله، منفذ لحكمه في كل حال، وأن معركة الإسلام ليست معركة محمد بن عبد الله ولا معركة أصحابه، وإنما هي معركة الله الحاسمة، وفي سبيله، ومن أجله قائمة.

الربع الثالث من الحزب السابع
في المصحف الكريم

سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ اُ۬لَاعْلَوْنَ إِن
كُنتُم مُّومِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَّمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ اَ۬لْقَوْمَ قَرْحٌ
مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ اَ۬لَايَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ اَ۬لنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اَ۬للَّهُ اُ۬لَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ اُ۬لظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾
وَلِيُمَحِّصَ اَ۬للَّهُ اُ۬لَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ اَ۬لْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمُوٓ أَن
تَدْخُلُواْ اُ۬لْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اِ۬للَّهُ اُ۬لَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ
اَ۬لصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ اَ۬لْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ
فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ اِلَّا رَسُولٌ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ اِ۬لرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ اَ۪نقَلَبْتُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَنْ يَّنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَّضُرَّ اَ۬للَّهَ شَيْـًٔا
وَسَيَجْزِے اِ۬للَّهُ اُ۬لشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَن
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اِ۬للَّهِ كِتَٰبًا مُّوَجَّلًا وَمَنْ يُّرِدْ ثَوَابَ
اَ۬لدُّنْيَا نُوتِهِۦ مِنْهَا وَمَنْ يُّرِدْ ثَوَابَ اَ۬لَاخِرَةِ نُوتِهِۦ مِنْهَا
وَسَنَجْزِے اِ۬لشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِےٓءٍ قُتِلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِے سَبِيلِ اِ۬للَّهِ وَمَا
ضَعُفُواْ وَمَا اَ۪سْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ اُ۬لصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ

قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ
وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ
اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا
أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

الربع الثالث من الحزب السابع
في المصحف الكريم

عبــاد الله

حصة هذا اليوم تحتوي على الربع الثالث من الحزب السابع في المصحف الكريم، وأول آية في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَـرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

في مطلع هذا الربع تجدد الآيات الكريمة حديثها عن معاملة المؤمنين فيما بينهم، فتصفهم بأوصافهم الكاشفة، وسماتهم المميزة، حتى يتمكن من يريد اللحاق بركبهم والانتماء إليهم، من السلوك على نهجهم، والسير في طريقهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَـٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

فها هنا يحدد القرآن الكريم تعريف المؤمن الجامع المانع، بكونه هو (المتقي) الذي يحتاط من الوقوع فيما يسخط الله، والذي يحذر من السقوط في هاوية الأهواء الباطلة، ومن الوقوع في شرك الشهوات الفاسدة.

ثم هو (المحسن الكريم) الذي لا يشح ولا يبخل بما رزقه الله، بل يحرص على الانفاق مما آتاه الله في وجوه البر والخير، في حالتي الشدة والرخاء، والعسر واليسر.

ثم هو (الذي إذا نزل به ما يدفعه إلى الغيظ ويحدوه إلى الغضب) هدأ روعه، وألجم غضبه، ولم يجعل للغضب والغيظ سلطاناً على نفسه، وبذلك يتفادى كل مظاهر الغيظ وآثار الغضب المادية والروحية في علاقاته مع الناس.

ثم هو (الذي إذا أساء إليه المسيئون، وقصده بالاذاية المفسدون)، لم يقابل إساءتهم بمثلها، ولا إذايتهم بما هو من جنسها، بل قابل الإساءة بالغض والاحسان، والاذاية بالعفو والامتنان، فهذه هي خصال المؤمنين المتقين، وبها يدخلون في عداد المحسنين، ولذلك جاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم تواصل الآيات الكريمة وصف الحالة النفسية للمؤمنين عندما تزيغ قلوبهم عن الرشد، فيتورطون فجأة في إتيان فاحشة من الفواحش، وارتكاب ذنب من الذنوب. ذلك أن ضميرهم الحي لا يلبث أن يستيقظ في الحين، وبمجرد ما يستيقظ ضميرهم يذكرون الله قبل غيره، فيذكرون ما يجب عليهم من امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويسألون الله غفران ذنوبهم، تائبين منها، نادمين عليها، مؤكدين بلسان الحال والمَقال أن ما فعلوه إنما هو هفوة منهم في وقت الغفلة والذهول، وأنهم لم يتعمدوا فعله على نية الاصرار والتحدي، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَـٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴾.

ومن هنا ينتقل كتاب الله إلى الحديث بالخصوص عن يوم أحد، وما جلبت فيه بعض المواقف من متاعب للمسلمين، خصوصاً ما وقع فيه من أذى المشركين لرسول الله ﷺ، ويبيّن بالأخص أسباب الهزيمة في هذا اليوم، كما بيّن قبل ذلك أسباب النصر في غزوة بدر.

ويبتدىء الحديث في هذا الموضوع الخطير بتقرير مبدأ أساسي لا يتخلف، هو أن لله سنناً ثابتة في المجتمع تسير الحياة على مقتضاها مهما اختلفت القرون والأجيال.

وفي طليعة هذه السنن والقوانين الثابتة سنن النصر وسنن الهزيمة، أي مختلف العوامل والأسباب التي تؤدي إلى كل منهما، ثم تقرير مبدأ آخر هو أن النصر غير مضمون ولا محتوم في كل معركة، كما أن الهزيمة غير لازمة ولا منتظرة في كل مناسبة، بل إن معركة الحياة سلسلة من الانتصارات والهزائم، والعاقبة والغلبة في النهاية إنما هي لأهل الحق، وإلى هذا المعنى يومىء قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ، فَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

وفي أثناء هذا العرض الرائع تشير الآيات الكريمة إلى ما جرت به سنّة الله في خلقه من ابتلائهم وامتحانهم بالنكبات والهزات، حتى تتخلص مشاعرهم من كل دنس، وتتطهر نفوسهم من كل ضعف، وتبرز للعالم خصالهم الرفيعة التي انطووا عليها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَٰفِرِينَ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ، وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

وتثبيتاً لبعض المؤمنين الذين أصيبوا بصدمة في يوم أحد، بعد النصر الباهر الذي أحرزوا عليه في غزوة بدر يحكي لهم القرآن الكريم قصة الأنبياء السابقين، وأتباعهم من المؤمنين المجاهدين، وما لاقوا في سبيل الله من محن ومتاعب، وما بذلوه في نصرته من تضحيات جُلّى، وما كانوا عليه رغماً عن ذلك من ثبات في الموقف، وقوة في القلوب، واعتزاز أمام الأعداء، وما آتاهم الله بعد ذلك من نصر في الدنيا، وجزاء في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ، مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِين، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ، فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ثم يعد الحق سبحانه جنود الإسلام ـ ووعده حق وصدق ـ بأن

العاقبة ستكون لهم، وأنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم، ويغلبهم عليهم في المستقبل كما غلبهم عليهم في الماضي، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَيٰكُمْ، وَهُوَ خَيْرُ النَّـٰصِرِينَ، سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـٰناً وَمَأْوَيٰـهُمُ النَّارُ، وَبِيسَ مَثْوَى الظَّـٰلِمِينَ، وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾.

وينتهي هذا الربع بوضع اليد على سبب المتاعب التي لقيها المسلمون يوم أحد، وذلك بغية تنبيه الجيل الإسلامي الأول إلى تجنب عوامل الهزيمة وأسبابها، بالنسبة لما ينتظره من جهاد طويل في سبيل الله، ثم تنبيه كل الأجيال الإسلامية اللاحقة إلى نفس العوامل والأسباب، حتى تتجنبها، ولا تبتلى بها ولا بنتائجها الحتمية، وهذه الأسباب يلخصها كتاب الله في أربعة أشياء:

١ ـ الفشل الذي يصيب بعض ضعفاء النفوس، فيجرون الهزيمة على من معهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾.

٢ ـ التنازع بين المحاربين وعدم الاتفاق فيما بينهم ﴿ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾.

٣ ـ عصيان المحاربين لأوامر القيادة العليا وعدم تنفيذهم لتلك الأوامر تنفيذاً حرفياً ﴿ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَآ أَرَيٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾.

٤ ـ اختلاف الوجهة وعدم الاتحاد في الهدف ﴿ مِنكُم مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنكُم مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾.

فهذه الأسباب الأربعة التي حددها كتاب الله أوضح تحديد

هي الأسباب المباشرة في كل هزيمة لحقت المسلمين، في يوم أحد أولاً، وفي كل الغزوات والفتوحات التي أخلَّ فيها المسلمون بشروط النصر وأسبابه. واقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ، مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

وفي ختام هذا الربع جاء التعقيب بآية كريمة تشير صراحة إلى أن الحق سبحانه وتعالى سوف يتولاهم بفضله وكرمه، وسينقذهم من العثرات إذا ما رجعوا إلى الله، وتمسكوا بهديه، واعتصموا بحبله، وعملوا بمقتضى سننه الثابتة في الكون، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع
في المصحف الكريم

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ
عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾
ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِّ ظَنَّ الْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ
إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ
وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ
لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ
حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ
فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ
ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ
وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ

ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾
وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى
قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديثنا اليوم هو الربع الأخير من الحزب السابع، ويبتدىء من قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَـٰبَكُمْ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَٰتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ، عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَيٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل الحديث عن يوم أحد، وما برز فيه من مواقف مختلفة، بل متناقضة أحياناً، تنبىء عن دخائل القوم، وتكشف الستار عما هم عليه من إيمان أو نفاق، ومن إيمان ضعيف أو إيمان قوي.

فهذه فئة تفر من قلب المعركة، دون أن تهتم بمن وراءها، وتلجأ إلى الجبل متحصنة به فوق الصخرة، ولا تستجيب لقائدها الأعلى، إذ لا تلبي نداء الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، بل

تتركه معرَّضاً لأذى المشركين وعدوانهم، وبدلاً من أن تتخذه أسوة لها في الصبر والثبات، فتلتف حولـه، وتثبت معه إلى النهايـة، يدخلها الرعب، ويداخلها الشك في نفس الرسول، هل عصمه الله من المشركين ولا يزال على قيد الحياة، أم تمكن منه الأعداء، وذلك قوله تعالى تأنيباً لهذه الطائفة ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ فقد أخذ يدعوهم قائلاً: «إليَّ عباد الله. إليَّ عباد الله» لكنهم لم يسمعوا ولم يجيبوا.

ثم عقبت الآية على ذلك بقوله تعالى تأديباً لهذه الفئة ﴿ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ أي فكـان جزاء الله لكم أن ضـاعف غمومكم، فزادكم غماً على غم، والغم الأول غم الهزيمة التي أصابتهم، والغم الثاني غم معاودة المشركين الكرة، للهجوم عليهم في نفس الجبل، بعدما فروا إليه وتحصنوا به، والغم الثالث غم الدعاية الكاذبة التي روَّجها المشركون بين المسلمين، وفحواها أن الرسول قد قتل في المعركة، مما يدخل في حرب الاعصاب.

ثم نبهت الآية الكريمة إلى أن المؤمن الحق لا ينبغي له أن يحزن على ما فاته من نصر، ولا على ما أصابه من هزيمة، ولذلك كان الرسول ﷺ يدعوهم، تثبيتاً لأنفسهم، وتطييباً لقلوبهم ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ﴾.

وجاء بعد ذلك التعقيب بقوله تعالى مخاطباً لهم ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي أنه سبحانه مطلع على أعمالكم، عليم بنواياكم، لا يغيب عنه منها شيء.

وتناولت الآية بالوصف والتحليل حال طائفة من المؤمنين، وأخرى من المنافقين كانت قد اندست في المعركة يوم أحد بينهم وإلى جانبهم، فالطائفة الأولى من بعد انجلاء الغم الطارىء عليها عادت إليها الثقة والطمأنينة، حتى أصابها النعاس وهي مشتملة بسلاحها، مما يدل على مدى السكينة التي أنزلها الله في قلوبها، وذلك قوله تعالى في وصفها ممتناً عليها: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

والطائفة الثانية التي ملأ النفاق قلوبها واندست بين المومنين في هذه المعركة لم يراود أعينها النعاس بالمرة، وكيف يراودها النعاس وهي تعيش لحظات كلها قلق وجزع وخوف، وتهيمن عليها الخيالات والأوهام، وظن السوء بالله وبالاسلام، ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ فهي ترى رأي العين أن المشركين قد هزموا المسلمين فعلاً في هذه المعركة، وتستوحي نفاقها فلا يوحي إليها إلا أن الساعة الفاصلة والحاسمة بين الشرك والإسلام قد دقت ولات حين مفر، وبأن الإسلام وأهله قد باد وبادوا إلى الأبد، ولم يعد يهم أفراد هذه الطائفة شيء سوى أنفسهم، وذلك قوله تعالى في وصف نفاقها وجبنها وأنانيتها وسوء ظنها بالله وبرسوله ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدَ اَهَمَّتْهُمُ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، ظَنَّ الْجَـٰهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الاَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ فيرد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلِ اِنَّ الاَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ، يُخْفُونَ فِيَ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الاَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا، قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ

الذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾.

وفي هذا السياق يجَدد كتاب الله مرة أخرى بيان الحكمة الإلهية في مثل هذه الهزات، فيقول: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ويقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الذِينَ نَافَقُواْ ﴾ على غرار ما سبق في الربع الماضي في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى آخر الآية.

وتتحدث آيات هذا الربع عن سبب إضافي من أسباب الهزيمة التي جرت يوم أحد، ألَا وهو ما قد يكتسبه بعض المومنين من ذنوب قبل دخولهم في المعركة، فإن الذنب يظلم قلب المذنب، فلا يرى أي بصيص من النور، ويثقل كاهله حتى كأن على جسمه كابوساً يشل حركاته ويحول بينه وبين أي عمل مفيد، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدَ اَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿ بَل رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

ثم يأتي التعقيب على ذلك بما يحيي فيهم الأمل والرجاء، ويدفع عنهم معرة المخالفة فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

وتهتم الآيات الكريمة اهتماماً خاصاً بفريق من المنافقين أدخلوا الفشل على المؤمنين من أول لحظة في يوم أحد، وهذا

الفريق كان يتزعمه المنافق المدعوعبد الله بن أُبَيّ ابن سَلول، فقد فارق ركب رسول الله الذي كان يتألف من ألف رجل وهو لا يزال في أثناء الطريق بين المدينة وأحد، وتابعه ورجع معه ثلث الركب ممن ينطوون على النفاق، وكانوا حوالي ثلاثمائة نفر ونيف، فانفصلوا عن ركب رسول الله، وكان فريق من المؤمنين لا يزالون يظنون خيراً بزعيم المنافقين ومَنْ معه من المتخلفين، إذ لم يكن قد انكشف نفاقهم بعد، فتبعوهم من ورائهم يحرضونهم على العودة للقتال بجانبهم، أو على الأقل لمساعدتهم فيما قد يحتاجون إليه، ولتكثير سوادهم أمام العدو.

فما كان من المنافقين وزعيمهم إلاَّ أن تعللوا بأنهم لا يتوقعون من المشركين في هذا اليوم أي قتال، إذن فلا موجب لمواصلة السير في ركاب رسول الله.

وتحدث زعيم النفاق ابن أُبَيّ ابن سلول حديثاً كشف به عن ذات نفسه، وعن موقفه من رسول الله ﷺ إذ قال عنه معرِّضاً به: «أطاعهم فخرج وعصاني، ووالله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس».

وتحدث إليه عبد الله بن عمرو بن حرام، الذي تابعه لتحريضه ومن معه على العودة قائلاً: «يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم» فأجابه حفيد ابن سلول ومن معه قائلين: «لو نعلم أنكم تُقاتَلون ما أسلمناكم، ولكن نرى أنه لا يكون قتال». فلما استعصوا على عبد الله بن عمرو وأبوا إلاَّ الانصراف قال لهم: «أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله نبيه عنكم»

فهذا الموقف المفاجىء والمربك الذي وقفه المنافقون يوم أحد من أول لحظة، بعد ما بيَّتوه فيما بينهم لبث البلبلة في صفوف المسلمين، وإضعاف روحهم المعنوية أمام المشركين، هو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ، قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَـٰنِ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، ٱلَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ، قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

وفي هذا الجو المكهرب والمثقل بالغيوم يتوجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم ﷺ في صيغة ملؤها الرضى والتنويه: الرضى عن موقفه المدهش من المعركة العسكرية التي شنها المشركون «وهم العدو الخارجي» ومن المعركة النفسية التي شنها معهم المنافقون «وهم العدو الداخلي» والتنويه بما آتاه الله من لين العريكة وعفة اللسان، ومن رقة القلب مع ثبات الجنان، وتبيين ما لهذه الشمائل المحمدية التي أكرمه الله بها من تأثير عميق في تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم في السلم والحرب، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

ثم توجه الحق سبحانه وتعالى إلى نبيِّه يأمره بالعفو عمن أساء، وبالاستغفار لمن أذنب ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾.

وأخيراً أراد الله أن يسن للأمة الإسلامية من بعد رسولها سنَّة قائمة، هي مفتاح نجاحها، وعنوان فلاحها أمد الدهر، ألا وهي

شورى المسلمين في أمورهم، وجعل أمرهم شورى بينهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾. هذا ورسول الله معصوم عن الخطأ، معصوم من الناس، ولكن الله أمره بالشورى لتكون سنّة المسلمين من بعده، حتى يعالجوا شؤونهم في جو من الوفاق والوئام، لا اختلاف بعده ولا اصطدام، ولا فرقة من ورائه ولا انقسام.

ثم قال تعالى في ختام هذا الأمر الجليل: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾. روى ابن مردويه في هذا السياق عن علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله ﷺ عن (العزم). فقال عليه الصلاة والسلام: «العزم مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم».

ومعنى الآية أنه بعد تبادل الآراء في (الأمر) من الأمور مع أهل الاختصاص فيه، والخبرة به، والانتهاء فيه إلى رأي ناضج سليم لا يبقى إلّا الخروج من مرحلة الاستشارة إلى مرحلة التنفيذ.

وفي هذه المرحلة يتولى الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه من بعده تنفيذ الرأي المقبول، مع الاعتماد على الله في بلوغ النتائج المتوخاة حسب الزمان والمكان، حيث أن التحكم فيها والتوفيق إلى إبراز آثارها أمران خارجان عن إرادة الإنسان، وذلك معنى التوكل على الله في هذا المقام، فهو بالنسبة للاستشارة و الشروع في التنفيذ مسك الختام ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثامن في المصحف الكريم

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ
قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ
أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ
ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ
ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ
وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

الربع الأول من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نشرع في الحزب الثامن من المصحف الكريم، وبداية الربع الأول من هذا الحزب قوله تعالى: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

بعدما تولى كتاب الله في آخر آية من الربع الماضي الحديث عن شهداء المسلمين الذين قتلوا يوم أحد في سبيل الله، وأخبر بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، مبتهجون بمن سيلحق بركبهم، ويقتدي بهم في متابعة الجهاد والفوز بالشهادة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ، عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ، أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

مضى كتاب الله في نفس السياق، وتولى في أول آية من هذا الربع الحديث عن أولئك المؤمنين الذين ينتظرهم اخوانهم الشهداء، عسى أن يلحقوا بهم من خلفهم، ويشاركوهم فيما آتاهم الله من نعمة، ومنحهم من فضل، جزاء إيمانهم بالله ورسوله، وجهادهم في سبيله، وتأسيهم بهم في بذل المهج رخيصة من أجله، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثم تصدت الآيات الكريمة لوصف هذا الصنف الخاص من المؤمنين الذين استبشر بهم من سبقوهم من الشهداء، وذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾.

ولإدراك مغزى هذه الآيات وفهم معناها لا بد من إلقاء بعض الأضواء على الحادثة التي ارتبطت بها.

ذلك أن مشركي قريش بعدما أصابوا ما أصابوا من المسلمين يوم أحد، وكرّوا راجعين إلى ديارهم، تحركت في نفوسهم الأحقاد، واشتعلت في قلوبهم نيران الحسرة والندم، وطغت عليهم روح الغرور والحَمِيَّة، فأخذوا يرددون فيما بينهم مقالات خبيثة تكشف عن خطة جديدة ولئيمة، أخذت ترتسم في أذهانهم، بغية استئصال شأفة المسلمين، مثل قولهم: «لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بيئس ما صنعتم، ارجعوا». ومثل قولهم: «أصبنا محمداً وأصحابه ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ على بقيتهم

ثم لنفرغن منهم». فبلغ ذلك إلى علم رسول الله ﷺ فندب المسلمين إلى ملاحقة المشركين من ورائهم، غير أنه عليه الصلاة والسلام لم يأذن باللحاق به والسير في ركابه لهذا الغرض إلاَّ لمن حضر موقعة أحد وثبت معه فيها، وعندما أذَّن مؤذن رسول الله في الناس كان يقول: «لا يخرجن معنا أحد إلاَّ من حضر يومنا بالأمس».

ورغماً عن الحالة الأليمة التي كان عليها أولئك المسلمون، إذ هم مثخنون بالجراح، ولا يزال شريط يوم أحد بأهواله يمر أمام أعينهم، فإنهم استجابوا لنداء رسول الله، لم يتخلف منهم أحد، طاعة لله، وفداء لرسوله، وكان الرسول يرمي من وراء ذلك إلى إفساد خطة المشركين الجديدة التي تناقلتها الأخبار، وإلى إلقاء الرعب في قلوبهم، بإبراز ما عليه المسلمون من جَلَد وقوة إيمان، وإظهار أن ما أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، ولم يفت في عضدهم، وقد كان أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي والزبير في طليعة المسلمين الذين تعقبوا المشركين، فلما وصلوا إلى مكان يقال له «حمراء الأسد» على ثمانية أميال من المدينة رآهم المشركون فهالهم الأمر، وقذف الله الرعب في قلب زعيمهم وقائدهم أبي سفيان، فانقلب وانقلبوا معه إلى مكة قافلين، بينما رجع رسول الله ومن معه إلى المدينة سالمين.

وفي هذه المناسبة قال رسول الله ﷺ: «إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد قذف الله في قلبه الرعب ورجع».

والآن، وبعد الاتيان بهذا البيان الموجز نستطيع أن نتفهم الآيات

الكريمة التي سجلت هذا الحادث الخطير، ووصفته ووصفت أبطاله بأوجز وصف وأروعه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ، وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾.

وفي هذا السياق يجدد كتاب الله مرة أخرى بيان الحكمة الإلهية في ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم بالنكبات والتضحيات، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ إذ في مثل هذه الوقائع والمواقع ترفع الحجب وتهتك الأستار. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد، وقال قتادة: ميز بينهم بالهجرة والجهاد.

ومن الحديث عن المؤمنين الذين اتبعوا الشهداء باحسان اتجه الخطاب الإلهي مباشرة إلى نبيِّه الأعظم يواسيه ويترفق به، في صيغة تدعو إلى السلوى والعزاء وترك الحزن جانباً، ذلك أن رسول الله ـ شفقة منه على الناس، وحرصاً على خيرهم ونجاتهم ـ كان يحزن أشد الحزن لاستمرار المنحرفين في انحرافهم، وإصرار الكافرين على كفرهم ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾.

ومضى الخطاب الإلهي يهدّىء روع نبيه، ويجدد له الوعد بما ينتظره وأمته من الفتح المبين والنصر المكين.

فلنسمع إلى الحق سبحانه وتعالى كيف يخاطب رسوله في هذا المقام: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ومما يلاحظ هنا أن جملة (لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً) تكررت مرتين متتابعتين، في سياق هاتين الآيتين، إشارة إلى أن حزن رسول الله إنما كان من أجل الله لا من أجل نفسه، كما أنها تؤكد أن جميع المحاولات التي يحاولها الكافرون بالله وبدينه لن تقف عقبة كأداء في وجه انتشار الإسلام، ولن تحول دون انتصاره في مستقبل الأيام، فسينتشر دين الله في جميع أرجاء الأرض، وسيفرض وجوده على العالم، ولن تقف العقائد المضادة في وجه انتشاره زمناً طويلاً ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾.

وفي هذا الربع آية كريمة تنعى على البخلاء بخلهم مرة أخرى، وتدعو المسلمين إلى البذل والانفاق في سبيل الله، ترفيهاً عن أمتهم، وتدعيماً لدولتهم، وتعرفهم بأن ما يكسبونه من ثروة إنما هو وديعة من الله بين أيديهم استخلفهم فيها، فلا ينبغي لهم أن يبخلوا بالعطاء من مال الله في سبيل الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَيٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾ ليس

معناه كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن الإسلام يحض على إهمال المصالح المادية المشروعة، أو أنه يدعو إلى الزهد في معالجة الشؤون الدنيوية الضرورية لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية، بل إن كل ما يقوم به أَوَد الفرد والجماعة من الضروريات والحاجيات، بل حتى التحسينيّات والكماليات، يدعو الإسلام إلى اقتنائه، ويحض على تناوله، في عشرات الآيات ومختلف السور، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ الآية، وقوله تعالى في سورة الاعراف: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾.

وإنما المراد من قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ وما شابهه أن يحافظ المسلم في حياته على التوازن بين المادة والروح، وأن ينظر إلى الحياة الدنيا نظرة واقعية، فيقدرها بقدرها، ويتناول ما هو لازم منها، ولا ينسى متطلبات الرحلة المنتظرة بعدها، والمرحلة الطويلة التي تعقبها، بل يتأهب لها، ويستعد لمواجهتها بالزاد الكافي، عن وعي تام، وبغاية الاهتمام، فبعد مفارقة دار التكليف والعمل، يكون زاد التقوى وحده هو معقد الرجاء والأمل.

الربع الثاني من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ

فَقِنَا عَذَابَ اَ۬لنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ اِ۬لنَّارَ فَقَدَ اَخْزَيْتَهُۥ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنَ اَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِے
لِلِايمَٰنِ أَنَ ـَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ اَ۬لَابْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ اُ۬لْمِيعَادَ ۝١٩٤
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمُۥ أَنِّے لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ اَوُ اُنث۪يٰ
بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٖ فَالذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِے سَبِيلِے
وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِے
مِن تَحْتِهَا اَ۬لَانْهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنْ عِندِ اِ۬للَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ اُ۬لثَّوَابِ ۝١٩٥
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ اُ۬لذِينَ كَفَرُواْ فِے اِ۬لْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ
مَأْو۪يٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ اَ۬لْمِهَادُ ۝١٩٧ لَٰكِنِ اِ۬لذِينَ اَ۪تَّقَوْاْ رَبَّهُمْ
لَهُمْ جَنَّٰتٞ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا اَ۬لَانْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلٗا مِّنْ عِندِ اِ۬للَّهِ وَمَا عِندَ اَ۬للَّهِ خَيْرٞ لِّلَابْرَارِ ۝١٩٨
وَإِنَّ مِنَ اَهْلِ اِ۬لْكِتَٰبِ لَمَنْ يُّومِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ
اِ۬للَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا اُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُۥ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمُۥ

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

٤ سُورَةُ النِّسَاءِ مَدَنِيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ١٧٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ

أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٥

الربع الثاني من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثامن في المصحف الكـريم، وفيه نختتم سـورة آل عمران ونفتتـح سورة النساء، مستعينين بالله معتمدين على هدايته وتوفيقه، فأول آية منه تقع في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذىً كَثِيراً، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وآخر آية فيه تقع في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أمْوَالَكُمُ التِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَماً، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾.

يتناول القسم الأخير من سورة آل عمران في هذا الربـع وصف الامتحان الإلٰهي الذي يتعـرض له المؤمنـون الصادقـون. وعاقبة صبرهم عليه ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ الآية.

ويتناول وصف المدعين المتبجحين، وجزاء ادعاءاتهم الكاذبة ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ الآية.

ويتناول وصف الذين يـذكرون الله ويتفكـرون في خلقه،

ويسجل انطباعاتهم عن الكون والمكون، ويعرض نماذج من مناجاتهم فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين ربهم ﴿ الذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوٰتِ وَالاَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلاً سُبْحَٰنَكَ﴾ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ إلى آخر الآيات.

ويتناول وصف فريق من أهل الكتاب آمنوا بالله وبالرسول ﴿ خَٰشِعِينَ للَّهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثمناً قليلاً ﴾.

ويتناول حض المسلمين على الصبر والمصابرة والرباط والتقوى حتى يكونوا من المفلحين:

﴿ يَٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

أما القسم الأول من سورة النساء الذي يندرج في هذا الربع فيتناول وصفاً لوحدة النوع الإنساني ﴿ الذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وحديثاً عن الأرحام والأيتام، وآخر عن تكوين الأسرة الموحدة، وعن مبدأ تعدد الزوجات، ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾، ثم حديثاً عن موقف الإسلام من أموال السفهاء ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ امْوَالَكُمُ التِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَماً ﴾.

ونظراً لكثرة الموضوعات في هذه الحصة سنعالج منها ما يتسع له الوقت، مؤجلين بقيتها إلى أول مناسبة قادمة إن شاء الله.

وإذن فلننظر في أول آية من هذا الربع، وهي قوله تعالى

في خطاب المؤمنين ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيراً ﴾.

كلنا يعلم أن الفضل كل الفضل في انتشار الدعوة الإسلامية وانتصارها والاقبال على اعتناقها في أطراف العالم إنما يرجع إلى ما بذله سلفنا الصالح بكل سخاء وبدون حساب، من جهود عظيمة وتضحيات جسيمة، خالصة لوجه الله، بالأرواح والأموال، وكل من له مسكة من العقل والعلم والدين يدرك بالبداهة أن كل شبر من دار الإسلام- على سعتها وترامي أطرافها - إنما هو تراب زكي معطر بدماء المجاهدين في سبيل الله، الذين أخذوا على عاتقهم هداية البشرية إلى دين الله، ثم استودعوه بين أيدينا، وتركوا أمر المحافظة عليه أمانة في أعناقنا، وهكذا أثبت تاريخ الإسلام والتاريخ العام أن القرآن الكريم قد ربّى المسلمين أحسن تربية، وأعدّهم أكمل اعداد، لتحمل أعباء الدعوة الإسلامية، والتضحية في سبيلها بالنفس والنفيس، وأن الخطاب الإلهي المذكور الذي وجهه الحق سبحانه وتعالى إليهم قد استجابوا له وتقبلوه أحسن قبول، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾.

وكلنا يعلم ما تعرض له الإسلام منذ نشأته الأولى، وما يتعرض له إلى الآن وحتى الآن، من الأذى البالغ والمكر السيِّىء الذي يوجهه إليه في شتى الأشكال مخالفوه من أهل الكتاب أولاً، ومن غيرهم ثانياً، فمن تحريف لكتاب الله وتزييف لمعانيه، ومن تشويه لتاريخ الإسلام وعقائده، ومن تهجم على شعائره وشرائعه بالنقد السخيف والنقض الباطل، ومن محاولات متوالية لبلبلة أفكار

المسلمين، وبث الحيرة والشك في نفوسهم، ونشر الاباحية والفوضى في أوساطهم، فضلاً عما تعرض له الإسلام في بعض الأزمات والأوقات من إبادة للآثار الإسلامية، وقضاء على بدائع التراث الإسلامي، وضغط على العناصر الإسلامية لتندمج في غيرها مكرهة، أو تفنى وتبيد بالمرة.

وهكذا أثبت تاريخ الإسلام والتاريخ العام أن القرآن الكريم كان صادقاً كل الصدق عندما قرر للمسلمين من أول يوم أنهم سيكونون عرضة للأذى من طرف أهل الكتاب وغيرهم، وأن هذا الأذى لن يكون قليلاً وإنما سيكون أذى كثيراً، وذلك مصداق قوله تعالى وهو يخاطب المؤمنين خطاباً مؤكداً ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيراً ﴾.

وبعد هذا الخبر الغيبي الصادق، والخطاب الإلهي المؤكد، المتضمن لما سيتعرض له المسلمون من ابتلاء وإيذاء، جاء التعقيب عليه بآية أخرى تنبه المسلمين إلى أن عُدَّتهم الأولى للتغلب على ضعف أنفسهم وعلى أذى أعدائهم إنما هي الصبر والتقوى، وكلاهما من الأمور الشاقة التي لا يقوى عليها إلاَّ أهل العزائم من أولي العزم ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ولولا ما تحلَّى به سلفنا الصالح من صبر على القيام بالواجبات، وصبر على تحمل المكاره، وما التزموه من تقوى الله، التي جعلتهم يقظين حذرين من ذات أنفسهم، فضلاً عن الحذر من

أعدائهم، لما حققوا معجزة الفتح الروحي لعقيدة الإسلام، التي اكتسحت العقائد المخالفة في هذا العالم الإسلامي الفسيح، حيث يعيش المسلمون اليوم.

على أن كتاب الله طَمْأَن في نفس الوقت رسولَه والمؤمنين، على مصير الإسلام والمسلمين، ووعدهم بظهور دينه على الكافرين، فقال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾. فاتحة الآيات العشر، المعروفة في الإسلام بخواتيم سورة آل عمران، وهي الآيات التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها إذا قام من الليل للتهجد قبل صلاة الصبح، وفي شأنها جاء الأثر (ويل لمن قرأها ثم لم يتفكر فيها).

وهذه الآية الأولى من العشر الخواتيم دعوة صريحة موجهة من الحق سبحانه وتعالى إلى المسلمين، ليستعملوا ما وهبهم الله من العقول في النظر إلى ملك الله، والتفكر في ملكوته، بغية التعرف عليهما، واكتشاف سننهما، وعن طريقهما يتعرفون إلى عظيم قدرته، ويلمُّون بدقيق حكمته.

وفي ذلك إيماء إلى أن الله تعالى لم يخلق الألباب والعقول

لتبقى معطلة مشلولة دون أن تؤدي وظيفتها، وإنما خلقها وميَّز بها الإنسان عن غيره، ليصل بها إلى أعلى درجات العلم واليقين، في الحدود التي تسمح بها طبيعة التكوين البشري، مادياً وعقلياً.

وقد كانت هذه الآية وما ماثلها هي نقطة الانطلاق بالنسبة للفكر الإسلامي في جميع البيئات والعصور، فانطلقت العقول من عقالها، وعالجت بالبحث والاكتشاف أكثر جنبات الكون وزواياه، وكان من ذلك التراث الإسلامي الذي لم يسبق له نظير في تاريخ الفكر، لا من جهة التنوع، ولا من جهة التعمق، ولا من جهة الأصالة والابتكار.

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً سُبْحَـٰنَكَ ﴾، حكايةً عن الذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه، هو تصوير كاشف للنهاية المنطقية والحتمية التي يصل إليها المفكر المؤمن عن طريق تأمله في الملك والملكوت، إذ تلوح له حكمة بديع السماوات والأرض وقدرته وعلمه على وجهها الكامل، وذلك منسجم مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ وقوله تعالى في سورة الدخان ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ، مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وبعدما حكى كتاب الله هذا القول عن أولي الألباب الذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه، اعجاباً منهم بقدرته وحكمته، حكى قولهم أيضاً في مناجاته: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنَ أَنصَارٍ ﴾ اعراباً عن خوفهم من عقابه،

وتجنبهم لأسباب خزيه وعذابه، ثم حكى قولهم في مناجاته ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ شهادة على أنفسهم بالإيمان بالله ورسوله، وأملاً في الالتحاق بركب (الأبرار) الأبرار الذين ضربوا الرقم القياسي في «البر» حتى عرفوا بوصفه بين الناس، إذ بروا بملتهم وأمتهم وأسرتهم بروراً يشمل الآباء والأبناء والأرحام، وجميع أهل الإسلام.

وأخيراً حكى الحق سبحانه وتعالى قولهم في مناجاته: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ثقة منهم بوعد الله الذي جاء على ألسنة رسله، ذلك الوعد الذي ينتظره الأبرار الصالحون في موعده بكل ثقة واطمئنان.

وبعدما حكى كتاب الله نماذج من مناجاة المومنين الذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه، وكشف النقاب عن دخائل نفوسهم، ومكنونات ضمائرهم، ليُعرِّفهم على حقيقتهم إلى بقية الناس، عاد فأثبت أن الحق سبحانه وتعالى لم يخيِّب رجاءهم، بل حقق أملهم واستجاب دعاءهم، ووعد على لسان الحق سبحانه وتعالى أن لا يضيع عمل عامل منهم، ذكراً كان أو أنثى، مشيراً بذلك إلى أن باب الذكر والفكر مفتوح في وجه المؤمنين والمؤمنات على السواء، وانه لا فرق بينهم في مجال التقرب إلى الله، والتسابق للحصول على رضاه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾.

وقوله تعالى في وصف الذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه: ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَـٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ معناه بالأصالة أن هذا الصنف من المؤمنين قد بلغوا من الحساسية واليقظة والوعي ما جعلهم لا يغفلون أبداً، بل يستغرقون في الذكر والفكر في كل الأحوال، لا فرق عندهم بين قيام وقعود، ولا بين وقوف ومشي، ولا بين اضطجاع على الجنب واستلقاء على الظهر، إذ الفكر الذي يدفع إلى الذكر إنما هو جوهر روحاني، ومصباح نوراني، يستطيع أن يقوم بوظيفته في كل الأحوال، ولا يتعطل عنها بحال، كما يصدق بالتبع على ذكر الله في الصلاة، فقد قال ﷺ كما في الصحيحين «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» وهذا إنما هو من باب التيسير والتخفيف، بالنسبة لبعض الأعذار الطارئة على التكليف.

الربع الثالث من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً
فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا
ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾
وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ
فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ
مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ
لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً
أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا

ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

تتناول حصة التفسير اليوم الربع الثالث من الحزب الثامن في المصحف الكريم، وهذا الربع يبتدىء من قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَـمىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنَ ـ انَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَـادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمُ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً اَنْ يَّكْبَرُواْ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً اَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ اَوُ اخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ، فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ، غَيْرَ مُضَآرٍّ، وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

كل من درس طبيعة الإسلام وعرف مقاصده يتيقن أنه دين رحمة واحسان، وأنه يوجه أكبر عناية لرعاية حقوق الضعفاء والمستضعفين من بني الإنسان، وفي طليعة الضعفاء المعرضين للاهمال وأحياناً للعدوان، فئة اليتامى الذين فقدوا آباءهم، ففقدوا بفقدهم الحماية والنصرة والعطف والشفقة والحنان، فهذه الفئة يهتم بها كتاب الله في غير ما آية، وفي غير ما سورة، ومن ذلك آيات سبقت في سورة البقرة أوصى الله فيها بالاحسان إليهم والانفاق عليهم، فقال تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰناً وَذِي الْقُرْبىٰ

وَالْيَتَـٰمَىٰ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَـٰمَىٰ ﴾.

وسبقت في سورة البقرة آية أخرى في شأن اليتامى تبيّن إلى أي مدى اهتم المسلمون بأمرهم، حتى أخذوا يستفسرون الرسول عن حكم الله فيهم، وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْيَتَـٰمَىٰ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ، وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ، وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وبمقتضى هذه الآية رخص الإسلام للقائمين بحضانة اليتامى وكفالتهم في مخالطتهم في العيش، بدلاً من عزلهم واعتزالهم كما وقع من بعض الناس، حيث تحرجوا من مخالطتهم واعتزلوهم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾. إلاّ أن كتاب الله يأمر بأن يقتصر الغرض من مخالطة اليتامى على إصلاحهم وإصلاح أموالهم، وتحقيق ما فيه نفع لهم ورفق بهم، واعتبر ذلك عملاً من أعمال الخير إذ قال: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ ولا يرضى الإسلام بأن تكون مخالطتهم مجرد ذريعة إلى تحقيق منفعة المخالط ومصلحته الخاصة، على حساب اليتيم، فذلك أشبه بالافساد منه بالاصلاح ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ومما تجب ملاحظته في هذه الآية وصف الحق سبحانه وتعالى لليتامى بوصف (الاخوة) التي تقتضي مزيداً من العطف والتكافل بين الإخوة ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ وكلمة (الاصلاح) التي استعملها كتاب الله في شأنهم يمكن تعميمها على سائر وجوه الاصلاح بما يشمل الناحية التربوية والناحية المادية معاً.

وفي الربع الماضي من سورة النساء تولى كتاب الله الحديث عن اليتامى أيضاً فقال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ الْيَتَـٰمَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ بمعنى أن القائمين بحضانة اليتامى وكفالتهم يجب عليهم صيانة أموال اليتامى وحفظها لهم، إلى أن يأنسوا منهم الرشد، وإذ ذاك يجب عليهم بحكم هذه الآية أن يدفعوا إليهم أموالهم كاملة غير منقوصة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ بمعنى أن القائمين على اليتامى لا يسوغ لهم أن يحوزوا لأنفسهم من ممتلكات اليتامى وأمتعتهم ما هو جيد، ويبادلوهم بما هو رديء، فهذا العمل يعتبره الإسلام نوعاً من الخيانة، وضد الأمانة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَالِكُمْ ﴾ بمعنى أن القائمين على اليتامى لا يسوغ لهم أن يتحايلوا ويخلطوا أموال اليتامى بأموالهم، حتى لا يتميز رأس مال اليتيم ولا ملكه، من رأس مال القائم عليه وملكه الخاص، لأن هذا النوع من التصرفات والحيل مدعاة إلى الحيف على اليتيم، وذريعة لابتلاع ماله واختلاسه.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ بمعنى أن هذه التصرفات الملتوية التي تضيع معها معالم مال اليتيم، ويتعرض عن طريقها للضياع، تصرفات حرمها الإسلام، وإثمها عند الله إثم كبير، بحيث تلتحق عنده بكبائر الذنوب لا بصغائرها.

ثم لا يكتفي كتاب الله بهذه الآيات في الحديث عن اليتامى وحقوقهم، بل يخصص آية أخرى في هذا الربع لنفس الموضوع، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ

فإنَ ـ انَسْتُم مِّنْهُم رُشْداً فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأكُلُوهَآ إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ، وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾.

وهذه الآية تتضمن عدة أحكام إلّهية تجب طاعتها، ويلزم الوقوف عند حدودها:

ـ الحكم الأول ـ وجوب اختبار اليتيم من طرف القائم عليه قبل دفع أمواله إليه، وهذا الاختبار يتم في نظر علمائنا على مرحلتين:

المرحلة الأولى: أن يتأمل القائم على أمر اليتيم أخلاق يتيمه، ويستمع إلى حديثه، ويتعرف على اتجاهاته وأغراضه، ليعرف ما هو عليه من نجابة وضبط، أو غفلة وإهمال.

والمرحلة الثانية: أن يدفع إليه شيئاً يسيراً من ماله ويبيح له التصرف فيه إذا توسم فيه الخير، فإن نماه وأحسن النظر فيه فقد تم الاختبار، وليسلم إليه ماله جميعه، وإن أساء النظر في اليسير الذي دفعه إليه وجب عليه إمساك ماله عنه، وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ أي بلغوا أول مرحلة تؤهلهم للزواج ﴿ فإنَ ـ انَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ونقل ابن كثير عن سعيد بن جبير في معنى (آنستم منهم رشداً) أي صلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم. وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري وغير واحد من الأئمة، وهكذا قال الفقهاء: «إذا بلغ الغلام ،مُصْلِحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فسلم إليه ماله الذي تحت يد وليّه».

ـ الحكم الثاني ـ نهي القائم على أمر اليتيم عن الإسراف والتبذير في الصرف من مال اليتيم الذي هو إلى نظره، ولو كان الصرف على نفس اليتيم، ونهيه أيضاً عن استغلال صغر سنه، والمبادرة بتبديد ماله قبل بلوغه وكبره، حتى إذا ما كبر وجد ماله قد نفد أو بقي منه أقل القليل، وهذا ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا ﴾ أي أموال اليتامى ﴿ إِسْرَافاً وَبِدَاراً اَنْ يَّكْبَرُواْ ﴾.

ـ الحكم الثالث ـ أمر القائم على أمر اليتيم إذا كان غنياً بعدم أخذ أي أجر على ما يقوم به من نظر في مصالح اليتيم وتدبير لأمواله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ قال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم.

ـ الحكم الرابع ـ السماح للقائم على أمر اليتيم إذا كان فقيراً بتناول الأجر على ما يقوم به من نظر في مصالح اليتيم وتدبير لأمواله، بشرط أن يكون أجره على ذلك معقولاً لا تبذير فيه ولا استغلال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَاكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾. وذهب بعض الأيمة ومنهم عبيدة السلماني وأبو العالية، وهو أحد قولي ابن عباس، إلى أن ما أخذه الفقير القائم على أمر اليتيم أجراً على نظره يرده إليه إذا أيسر، لأن مال اليتيم على الحظر لا على الإباحة، وإنما أبيح للحاجة فيرد بدله، وروي عن عمر أنه قال: «إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت».

ـ الحكم الخامس ـ وجوب الإشهاد على اليتامىٰ بدفع أموالهم إليهم حين الدفع من طرف القائمين عليهم، حتى لا يبقى أيّ التباس ولا ادعاء، ولا يقع أي جحود أو إنكار، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾.

وبعد هذه الأحكام الإلٰهية والتوجيهات السماوية المحددة والصريحة والواضحة كل الوضوح جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ تنبيهاً للقائمين على أمر اليتامىٰ إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتكفل بحسابهم في يوم الحساب إذا قصروا أو زيفوا أو دلسوا أو خانوا في حساب اليتامى الذين كانوا إلى نظرهم، مما يدل على خطورةمسؤوليتهم أمام الله أكثر من غيرهم، إذ غيرهم من الناس يكل إليهم الله حساب أنفسهم بأنفسهم، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الاسراء: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰباً يَلْقَيٰهُ مَنشُوراً، اقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾.

على أن كتاب الله لا يكتفي بهذا الانذار الصريح، بل يزيد عليه انذاراً آخر يمس نفس الذرية التي تكون للقائمين على أمر اليتامى، عندما يموتون ويتركون ذريتهم في أيدٍ غير أمينة، معرضة للاستغلال والأذى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ، فَلْيَتَّقُواْ اللَّهَ ﴾.

ولعل أحد الدارسين يتساءل لماذا اعتنى كتاب الله بأمر اليتامى إلى هذا الحد، ولماذا جاءت أحكامه مفصلة في شأنهم كل هذا التفصيل؟

والجواب أن الله تعالى عليم بخلقه، مطلع على خفايـاهم ونواياهم، وكثير من الناس تطغى عليهم مصالحهم المادية، وتهيمن على تصرفاتهم روح الأثرة والأنانية، فينسون الله بالكلية، ويستغلون ضعف اليتامى وعجزهم عندما يسقطون فريسة بين أيديهم، بمجرد ما يفقـدون الأب الذي كـان يحنو عليهم، ويـرعى شؤونهم ويحوط مصالحهم، فاهتم كتاب الله بأمرهم، واعتنى بشأنهم، وتولى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن حقوقهم، بل تولى بنفسه محاسبة القائمين على أمرهم، حماية لهم من استغلال المستغلين، وخيانة الخائنين، وذلك قوله تعالى في نفس هذا الربع: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَـٰمىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ

بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ اُ۬للَّهُ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اَ۬للَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ اِ۬لتَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَ۬لسَّيِّـَٔاتِ حَتَّيٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ اُ۬لْمَوْتُ
قَالَ إِنِّيَ تُبْتُ اُ۬لَٰنَ وَلَا اَ۬لَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ
اُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا يَحِلُّ لَكُمُۥٓ أَن تَرِثُواْ اُ۬لنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَّاتِينَ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ ۝ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَيٰٓ
أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ اَ۬للَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾
وَإِنَ اَرَدتُّمُ اُ۪سْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمُۥٓ
إِحْدَيٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَاخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا اَتَاخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَاخُذُونَهُۥ وَقَدَ
اَفْضَيٰ بَعْضُكُمُۥٓ إِلَيٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
اَ۬لنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُۥٓ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم
بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ
ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن
في المصحف الكريم

عبــاد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الأخير من الحزب الثامن في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

من الجاري على الألسنة قولهم «لكل اسم من مسماه نصيب» ونحن الآن في (سورة النساء) فلا بد أن يكون الحديث عن النساء في هذه السورة أطول من الحديث عنهن في أية سورة أخرى، وقد نبَّهت الآيات الكريمة في هذه السورة إلى نشأة الأسـرة والحكمة المقصودة من وجودها ﴿ الذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾.

واهتمت آياتها بوجوب معـاملة النساء عـلى أساس العـدل التام، والابتعاد عن كل ما فيه مساس بحقوقهن الأخلاقية والمادية، سواء كان أساس الأسرة قائماً على الوحدة أو على التعدد ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَـٰمَىٰ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَآءِ ﴾ ﴿فَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾ ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾.

وأوجبت آياتها تقديم الصداق، عطاءً خالصاً للزوجة لَا يُشاركها فيه ولي ولا زوج إلَّا إذا طابت نفسها بشيء منه تعطيه للأول، أو تتنازل عنه للثاني ﴿ وَءَاتُواْ النِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً، فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ، هَنِيٓئاً مَّرِيٓئاً ﴾.

وحددت آياتها نظام الارث بين الأزواج وبين الأقارب، مما يحقق تكافل الأسرة، ويضمن استمرارها وانتفاعها بما يؤول إليها من أفرادها، فأقرت مبدأ الارث، وبيَّنت أنصبة الوارثين والوارثات ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ، نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴾ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ، فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ، وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ، فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ، مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً، وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ، فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ، فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ، وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً اَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ اَوُ اخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ، فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ مِن

بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْدَيْنٍ، غَيْرَ مُضَآرٍ، وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

وأتمت سورة النساء الحديث الذي خصصته لنظام الارث في الأسرة المسلمة وتحديد أنصبته في آخر آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَـٰلَةِ، إِنِ امْـرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ، فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَـٰنِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً، فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وهكذا نلمس إلى أي حد بلغت عناية الحق سبحانه وتعالى بالأسرة المسلمة، فهو يصدر أوامره ووصاياه من فوق سبع سماوات لتنظيم شؤونها في الحياة وبعد الممات، مما يعطي الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن هذا المجال الحيوي قد تفرد فيه الحق سبحانه وتعالى وحده بالاختصاص دون غيره، بحيث لا يمكن أن يتدخل فيه الغير، فضلاً عن أن يدخل عليه أي تبديل أو تغيير.

وهذا المعنى هو ما ترمي إليه الآيات الكريمة الواردة في هذا الربع ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَمَنْ يَّعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ نُدْخِلْهُ نَاراً خَـٰلِداً فِيهَا، وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

على أن هذه الآيات إنما هي تأكيد وتثبيت للمعاني المستوحاة

سابقاً من قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾. وقوله تعالى في آخر هذه السورة ـ سورة النساء ـ بعد اختتام الحديث في موضوع الارث ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. فالوصية في هذا الموضوع الخطير آتية من الله مباشرة، وهذه الوصية إنما هي بيان من الله حتى لا يضلّ المسلمون، والتعقيب بقوله تعالى في هذا السياق ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كأنما هو رد على أولئك المتحذلقين الذين يتحدثون فى هذا الموضوع حديثاً كله هراء وادعاء للعلم بما لم يعلمه الله، وتطاول على حكمته، ومحاولة لنقض حكمه، وذلك حتى لا يتعالموا على الله، ولا يستمروا في إدعائهم الكاذب وجهلهم الفاضح.

وقوله تعالى: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾ الوارد على وجه الاعتراض بين الآيات المحددة لأنصبة الوارثين والوارثات معناه كما نص عليه (ابن العربي) المعافري «أنه تفادياً لحيف أحدهم وظلمه، بتفضيله ابناً على بنت، أو أباً على أم، أو ولداً على والد، أو أحداً من هؤلاء أو غيرهم على أحد آخر، تولى الله سبحانه قَسْم التركة بعلمه، وأنفذ فيها حكمته بحكمه، وكشف لكل ذي حق حقه، وعبر لكم ربكم عن ولاية ما جهلتم، وتولى لكم بيان ما فيه نفعكم ومصلحتكم».

ومما يستلفت النظر في هذا الموضوع قوله تعالى خلال آيات الميراث: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ، وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ بمعنى «الارضاخ» للقرابة

الذين يحضرون القسمة ولا يرثون، وإعطائهم نصيباً من التركة، إذا كان مال التركة وافراً، والاعتذار إليهم إذا كان مال التركة قليلاً.

قال أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه «أحكام القرآن»: (والصحيح أنها ـ أي هذه الآية ـ مبينة استحباب المشاركة لمن لاَ نصيب لهم من الارث، بأن يُسهِم الورثةُ لهم من التركة، ويذكروا لهم من القول ما يؤنسهم، وتطيب به نفوسهم. وهذا محمول على الندب من وجهين:

أحدهما: أنه لو كان فرضاً لكان ذلك استحقاقاً في التركة، ومشاركة في الميراث، لأحد الجهتين معلوم، وللآخر مجهول، وذلك مناقض للحكمة، وإفساد لوجه التكليف.

الثاني: أن المقصود من ذلك هو الصلة، ولو كان فرضاً يستحقونه لتنازعوا منازعة القطيعة). انتهى كلام ابن العربي.

ومما تناولته آيات هذا الربع لزوم حسن المعاشرة وحسن العهد بين الزوج والزوجة، ووجوب ترفع الأزواج عن استغلال زوجاتهم أو الضغط عليهن بحبسهن إلى الموت، للتمتع بإرثهن، وعن الإضرار بهن، لاسترجاع ما قدموا إليهن من الصداق عند الزواج، وضرورة تحمل الزوج لبعض المتاعب من زوجته، حفظاً للأسرة من الانهيار، وتفادياً للفراق بينهما والطلاق، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا ببعض ما ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ، وَعَـاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْـراً كَثِيـراً، وَإِنَ اَرَدْتُمُ اسْتِبْـدَالَ زَوْجٍ مَّكَـانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ

إِحْدَيٰهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَناً وَإِثْماً مُّبِيناً، وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً ﴾ فها هنا سمى الله عقد الزواج (ميثاقاً غليظاً) ليبرز ما يجب أن يكون له من الحرمة الخاصة والتقدير البالغ.

وينهى الله الرجال عن أن يحبسوا نساءهم كرهاً إذا ساءت علاقتهم معهن، وانتهت عشرتهم الجميلة لهن، وأصبح بقاء النساء في عصمتهم إنما هو لغرض نفعي مادي هو الحصول على ارثهن بعد الموت ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهاً ﴾.

كما ينهى الله الرجال أيضاً عن أن يعضلوا نساءهم عن طريق الاضرار بهن في العشرة ومنعهن من الطلاق، حتى لا يستطعن الزواج من غيرهم، واستعمالهم معهن وسائل الضغط والاكراه، حتى يسترجعوا منهن المهر الذي أعطوه إليهن، ليتزوجوا به مرة أخرى من بعد الفراق ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَناً وَإِثْماً مُّبِيناً، وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً ﴾.

ثم يأمر الله الرجال أن يعاشروا نساءهم عشرة طيبة بالمعروف، فإن ذلك على حد قول (ابن العربي) «أهدأ للنفس، وأهنأ للعيش، وأقر للعين» ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ﴾ ﴿ ولهنَّ مثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروفِ ﴾.

ويوصي الحق سبحانه وتعالى الرجال في نفس هذا السياق، بالصبر والاحتمال وعدم المبادرة إلى الفراق، إذا وجدوا في زوجاتهم

كراهية، ومنهن نفرة، من غير فاحشة ولا نشوز، فربما آل ذلك إلى عشرة أفضل، ومحبة أدوم ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾. قال القاضي أبو بكر(ابن العربي): «قال علماؤنا في هذا دليل على كراهية الطلاق، ويناسب هذا المعنى ما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وقوله ﷺ «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب يريد أن يطلق زوجته بدعوى (أنه لَا يُحبها) فما كان من عمر إلاَّ أن قال له: «ويحك ألم تُبْنَ البيوت إلاَّ على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم». وثبت أن رسول الله ﷺ كان في حياته البيتية جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسع النفقة عليهم، وكان إذا صلى العشاء ودخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بحديثه وسمره عليه السلام.

الربع الأول من الحزب التاسع
في المصحف الكريم

وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا
بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم
بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ
بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ
فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ

مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ
مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾
وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن
يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ
أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا
وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ
وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

الربع الأول من الحزب التاسع في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تستغرق الربع الأول من الحزب التاسع في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ، كِتَـٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِنَ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنَ أَهْلِهَا إِنْ يُّرِيدَآ إِصْلَـٰحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾.

أول ما نلاحظه عند النظر في هذا الربع أن بدايته مرتبطة كل الارتباط بما قبلها بواسطة واو العطف، فهي تتمة لموضوع تناولته الآيات الأخيرة في الربع الماضي، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتاً، وَسَآءَ سَبِيلاً، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية.

والحديث هنا عما حرمه الله على الرجال، ومنع زواجهم به من النساء، وهذا التحريم إما بسبب النسب، وإما بسبب المصاهرة، وإما بسبب الرضاع الذي يترتب عليه ما يترتب على النسب.

وبناء على حكم الله في هذه المسألة يحرم على الرجل أن يتزوج بأمه، وبأم زوجته، وبزوجة أبيه، وببنته، وبربيبته، وبأخته، وبعمته، وبخالته، وببنت أخيه، وببنت أخته، وبزوجة ابنه.

وتحرم عليه المرأة المتزوجة بغيره، ويحرم عليه الجمع بين الاختين، ومثله الجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

كما يحرم عليه من الرضاع مثل ما حرم عليه من النسب، حيث إن المرضعة تنزل منزلة الأم، فتحرم على من أرضعته هي وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب، وإنما اكتفت الآية بالاشارة إلى صورتين من هذا الصنف، وهما الأم من الرضاعة، والأخت من الرضاعة، لأن ذكر الأم التي هي أصل، والأخت التي هي فرع تنبيه على الباقي، ويشمل ذلك البنت من الرضاع، والعمة من الرضاع، والخالة من الرضاع، وأم الزوجة من الرضاع، وبنت الزوجة من الرضاع، وزوجة الأب من الرضاع، وزوجة الابن من الرضاع، والجمع بين المرأة وأختها من الرضاع، أو عمتها وخالتها من الرضاع، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتاً، وَسَآءَ سَبِيلاً، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ، وَبَنَاتُكُمْ، وَأَخَوَٰتُكُمْ، وَعَمَّٰتُكُمْ، وَخَٰلَٰتُكُمْ، وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ، وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ، وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ، وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ، وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ، وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ، فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ

أَصْلَـٰبِكُمْ، وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً، وَالْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ النِّسَآءِ، الَّا مَا مَلَكَتَ أَيْمَـٰنُكُمْ، كِتَـٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾.

وقال ﷺ: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها» وكلاهما من أحاديث الصحاح. ولتوضيح ما يدور عليه الحكم في الرضاع قال القاضي أبو بكر(ابن العربي): «إن كل شخصين التقيا ثدياً واحداً في زمان واحد أو في زمانين فهما أخوان، والأصول منهما والفروع بمنزلة أصول الأنساب وفروعها في التحريم».

ولا شك أن لله حِكَماً كبرى في تحريم زواج الرجال من النساء اللاتي تتناولهن هذه الآيات الكريمة، من ذلك أن الزواج بين الأقارب يضعف ذريتهم كلما امتد الزمن، بينما تلقيح العائلة بدم جديد يجدد حيويتها، ويقوي استعداداتها، وهذا المعنى وارد في الحديث النبوي الشريف.

ومن ذلك أن الزواج بمن يجب توقيرهن واحترامهن كالأم والعمة والخالة، أو من تجب رعايتهن والعطف عليهن، كالبنت والأخت، وبنات الأخ والأخت، قد يؤدي إلى معاملتهن معاملة غير مُرْضية، عندما تطرأ بعض الهزات والخلافات على الحياة الزوجية، وينشأ عن ذلك شقاق في العائلة لا يمحى طول العمر. وقس على ذلك الشعور الغريب الذي يشعر به الأب إذا عرف أن ابنه قد يخلفه في زوجته، أو الابن إذا عرف أن أباه قد سبقه إليها.

ولنتصور كيف يكون شعور الأم إذا زاحمتها بنتها في زوجها، وشعور البنت إذا زاحمتها أمها، وشعور الأخت إذا زاحمتها أختها، فأية أمومة وأية أخوة تبقى وقتئذٍ بينهن وهن يتصارعن على امتلاك قلب واحد، ويتزاحمن على الاستقلال بفراش واحد.

يضاف إلى ذلك ما نبّه إليه شيخ الكتّاب المعاصرين الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) أثناء كلامه على الأسرة الإسلامية إذ قال: «والمقاصد من هذا التحريم منوعة لا نحصيها في هذا المقام، أجلها وأجداها توسعة الأسرة ووقايتها من شواجر الخصومة والبغضاء، وأن يتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب ما لم يتحقق بالقرابة». ثم نبّه إلى الأهمية الخاصة التي جعلها الله للنسب والمصاهرة، حيث اعتبرهما القرآن الكريم من آيات خلق الإنسان، كما جاء في سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الـذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَـراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْـراً، وَكَـانَ رَبُّـكَ قَدِيراً ﴾.

والآن نعود إلى بعض الفقرات في هذه الآيات الكريمة لمزيد البيان والتوضيح.

فقوله تعالى بعد تحريم التزوج بزوجات الآباء ﴿ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ هو خبر عن عفو الله سبحانه وتعالى، وعدم مؤاخذته بما مضى في الجاهلية من هذا العمل القبيح، إذ كان بعض الأعراب تغلب عليه الحَمِيّة لأبيه، فيكره أن يحل أجنبي محل والده، ويخلفه ولده في فراشه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ الربائب واحدتها ربيبة، وهي بنت امرأة الرجل من غيره، من قولك رَبَّهَا يَرُبُّهَا إذا تولى أمرها، وهي محرمة على الرجل سواء كانت في حجره كما تشير إليه الآية، أو كانت في حجر حاضنتها غير أمها، لأن كونها في حجر الرجل ليس شرطاً في الحكم بتحريمها، وإنما خرج هذا الخطاب مخرج الغالب فلا مفهوم له.

ونقل عن علي بن أبي طالب القول بإباحة تزوج الرجل بربيبته إذا لم تكن في حجره، اعتماداً على ظاهر الآية، وإليه ذهب داود الظاهري وابن حزم، وذكر الحافظ الذهبي انه عرض ما روي عن علي بن أبي طالب في هذا الموضوع على الشيخ تقي الدين ابن تيمية فاستشكله وتوقف في أمره، كما حكى ذلك ابن كثير في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ الحلائل واحدتها حليلة، بمعنى محللة، والأبناء ثلاثة أنواع: ابن النسب، وابن الرضاع، وابن التبني، فأما ابن النسب وابن الرضاع فحكمهما معلوم، وأما ابن التبني فكان أمره معروفاً في الجاهلية وصدر الإسلام، وكان ينسب إلى الرجل الذي تبناه، لا إلى أبيه الحقيقي، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ انتهى العمل بذلك، وتفادياً من دخول ابن التبني تحت كلمة (ابنائكم) في هذا المقام جاء بعد هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ وذلك ليسقط ولد التبني فلا تندرج زوجته تحت حكم التحريم في هذه الآية، ويكون الزواج بزوجته بعد فراقه لها

مباحاً، وهذا النوع الأخير من الأبناء عن طريق التبني هو الذي يطلق عليه لفظ (أدعياء) كما في قوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ﴾.

وقوله تعالى بعد تحريم الجمع بين الاختين ﴿ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ معناه أن الجمع بين الأختين الذي كان شرعاً لِمَنْ قبلنا لم يقره الإسلام بل أبطله وألغاه.

وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ معناه النساء إذا كنَّ في عصمة الأزواج، وقوله تعالى: ﴿ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبي في دار الحرب أثناء الجهاد فإنه يحل الزواج بهن بعد الاستبراء.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ معناه أن ما عدا الأصناف المحدودة التي نص كتاب الله على تحريمها في هذا السياق، أو في غيره كتحريم المرأة المشركة، يكون حلالاً للزواج، اللهم إلاَّ إذا اعترض عارض، أو حدث مانع استوجب الحرمة في نظر الشرع، مثل المرأة الخامسة الزائدة على أربع، ومثل المطلقة ثلاثاً، ومثل المرأة الحامل والمرأة المعتدة، قبل وضع الحمل وإتمام العدة، وكذلك اليتيمة الصغيرة في مذهب الإمام مالك والإمام الشافعي.

وقوله تعالى: ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه أن هذا التحريم القاطع في شأن الأصناف المحرمة من النساء التي نص عليها القرآن الكريم أمر صادر من الحق سبحانه وتعالى لا يسوغ تبديله ولا تغييره، بل يجب التزام العمل به دائماً، فما حرم الزواج به فهو

حرام، وما أحل الزواج به فهو حلال بين المسلمين إلى يوم الدين.

وفي هذا الربع آيات كريمة أخرى من المناسب أن نقف عندها وقفة خاصة، إذ لها علاقة وثيقة بما حدده الله من الحلال والحرام في موضوع الزواج الذي هو أساس تكوين الأسرة وكل ما يتفرع عنها، وهي تشير إلى أن الحق سبحانه وتعالى إنما تولى تحديد ما هو حلال وما هو حرام في هذا الموضوع الخطير، إرشاداً للمؤمنين من عباده وهداية لهم إلى أحسن الطرق وأفضل النظم، حتى يقفوا عند حدودها ولا يتجاوزوها.

كما أنه مهد طريق التوبة وفتح باب العفو في وجه أولئك الذين عرفوا انحراف الجاهلية وفوضاها الاجتماعية والخلقية، فلم يؤاخذهم على ما سلف قبل نزول القرآن الكريم.

وفيها علاوة على ذلك تنبيه إلى أن عبيد الشهوات وأسراء اللذات سوف لا يرتاحون لهذا النظام الإلهي الأخلاقي وأحكامه الطاهرة، لأنه يقف في وجوههم، ويسد أمامهم طريق الفوضى والتلاعب بالأعراض، بل إنهم سيحاولون إغواء بقية المسلمين وإغراءهم على تعدي الحدود التي رسمها الحق سبحانه وتعالى، وسيدعونهم إلى نبذ أحكامه وتعاليمه ظهرياً.

وأخيراً في هذه الآيات امتنان من الله على عباده بأنه يريد أن يخفف عنهم، ولذلك أحل لهم ما فيه الخير والنفع، مما يفتح في وجوههم أبواب الفضائل، وحرم عليهم ما فيه الشر والأذى، ليقفل من خلفهم أبواب الرذائل.

ثم سجل كتاب الله في نهاية هذ الموضوع حقيقة لا ينازع فيها إنسان، ألّا وهي أن الإنسان مخلوق ضعيف أمام نداء الشهوة وإغراء الشيطان.

وإذن فلا بدلتوجيهه وإنقاذه وحمايته من الأخذ بيده وحضّه على الإيمان بالله، وأمره بالتزام شريعته.

وهذه المعاني هي التي يشير إليها في إيجاز وإعجاز قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإِنسَـٰنُ ضَعِيفاً ﴾.

ومسك الختام في هذا الربع هو التنبيه بالأخص على قوله تعالى ضمن هذه الآيات ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فهذا الوصف ـ وصف العلم والحكمة ـ الذي جاء به التعقيب الإلٰهي هو مفتاح الفهم الصحيح، والإيمان الصادق، والطاعة الكاملة للتعاليم الإلٰهية في شأن الأسرة المسلمة، إذ لا علم أصح ولا أكمل من علم الله الشامل، ولا حكمة أوثق ولا أوفق من حكمته الكاملة، ولله الحجة البالغة.

الربع الثاني من الحزب التاسع
في المصحف الكريم

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا
عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ
وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ

حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا
جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾
يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ
ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا
إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ
أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ
فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ
ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ
وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا
وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن
لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا
مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهَآ
أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ
وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ
فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ
بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ
يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾
أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ
ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في هذه الحصة نتناول الربع الثاني من الحزب التاسـع في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَـا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾.

عندما نتدبر هذا الربع الثاني من الحزب التاسع نجده يهتم بموضوعات بلغت الغاية في التنوع والكثرة، فمن أمر بعبادة الله ونهي عن الشرك به، إلى أمر بالاحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، ومن إحسان للجار القريب ذي الرحم، إلى الاحسان للجار البعيد من غير الارحام، ومن احسان للرفيق، إلى الاحسان لعابر السبيل والرقيق، ثم يعلن الحق سبحانـه وتعالى غضبه على المختالين الفخورين، من أهل الكبر والزهو، وغضبه على البخلاء الذين لا يجودون ولا ينفقون، وعلى الدعاة إلى البخل الذين يضيفون إلى بخلهم تحريض غيرهم على البخل، ولا يظهرون أثر نعمة الله عليهم، وينذرهم بالعذاب والاهانة يوم القيامة.

ويستنكر كتاب الله ما يتظاهر به عشّاق السمعة وعبيد الرياء

من مظاهر الانفاق والاحسان، وهم في الحقيقة قرناء الشيطان ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَـٰنُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قَرِيناً ﴾.

وتنتقل الآيات إلى وصف العدل الإلهي الذي لا يضيع في وزنه مثقال ذرة فضلاً عما هو أكبر وأجل، ويسجل كتاب الله «وعد الصدق» بمضاعفة الحسنات للمحسنين وثوابهم عليها بما لا حدَّ له ولا حصر.

ومن هناك يتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم، ويصف له مشهداً من أعظم المشاهد المؤثرة في يوم القيامة، عندما يقف الرسول ﷺ شهيداً على أمته، لا فرق بين من شاهدوه في حياته، ومن لم يشاهدوه ولحقوا به خلال القرون والأجيال حتى يوم الدين، وبين كتاب الله ماذا يكون عليه في ذلك المشهد العظيم حال أولئك الذين عصوا الله ورسوله، حيث يودون لو أن الأرض ابتلعتهم فلم يبقَ منهم أثر ولا خبر، ولكن أين المفر؟ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيداً، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴾.

ثم تتناول الآيات الكريمة فريضة الصلاة التي هي عماد الدين، وما يجب للدخول فيها من استعداد فكري ونفسي وجسمي خاص، فلا صلاة مع ضياع العقل وخبال الفكر وشرود الذهن، ولا صلاة مع قيام ما يمنع المصلي من استيفاء جميع أركانها على الوجه المطلوب ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ثم لا صلاة مع الحدث الأصغر والحدث الأكبر، المنافيين لمناجاة الله والوقوف بين يديه.

ونظراً لحرص الإسلام على عدم تضييع المؤمن للصلاة التي هي أوثق صلة بينه وبين ربه، وضرورة قيامه بأدائها في الحضر والسفر والصحة والمرض، أباح التيمُّم بدلاً من الطهارة المائية للمريض والمسافر والمحدث والجنب، ولم يوجب التيمُّم بالنسبة لجميع الأعضاء والأطراف المطلوب تطهيرها بالماء، بل اكتفى في التيمُّم بالوجه واليدين دون ما عداهما زيادة في التخفيف، وأشار كتاب الله إلى أن هذا التخفيف منبثق من الرفق والعفو الذي هو من صفات الله، ومن مقتضيات حكمته ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾.

وانتقلت الآيات إلى الحديث من جديد عن أهل الكتاب الذين يقفون حجر عثرة في طريق الإسلام، فبيّنت سوء استغلالهم للقسم الضئيل الباقي عندهم من الكتاب في خدمة مصالحهم المادية، وترضية أهوائهم الشخصية، وأوضحت سعيهم إلى تضليل المسلمين، وما هم عليه من عداوة ثابتة للمؤمنين ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾.

وأشارت الآيات بالأخص إلى تحريف اليهود وتأويلهم لنصوص الوحي وأوامره عن مواضعها ومقاصدها، وحكت جملة من تعابيرهم المستنكرة التي اعتادوا أن يستعملوها في أحاديثهم عن رسول الله والمؤمنين، طعناً منهم في الدين، وعارضت تعابيرهم المستنكرة بتعابير أخرى لو اهتدوا إليها وعبروا بها لكان خيراً لهم وأقوم، لكن ﴿ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى توجيه الخطاب لأهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم، داعياً إياهم إلى الإيمان برسالة القرآن، محذراً لهم من عقاب الله لهم بطمس وجوههم وجعلها من قبل أقفيتهم، وردِّهم على أدبارهم، أو لعنتهم كما لعن الله أصحاب السبت من قبلهم ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾.

وقررت الآيات الكريمة إثر ذلك مبدأً إسلامياً جوهرياً لَا تسامح فيه ولا تنازل عنه، هو أن الشرك بالله ذنب عظيم لا يمكن أن يغفره لأحد من خلقه، وان غيره من بقية الذنوب يمكن أن يكون محلاً للمغفرة بإذنه ومشيئته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾.

واتجه الخطاب الإلهي مرة أخرى إلى الرسول الأعظم ﷺ، متحدثاً إليه عن أولئك المتبجِّحين المدَّاحين الذين يزكون أنفسهم بأنفسهم بمختلف وجوه التزكية، حيث يترفعون على غيرهم، ويعتبرون الغير أقل منهم درجة ومقاماً بالنسبة للحياة الدنيا وللحياة الآخرة أيضاً، ومنبهاً إلى أن التزكية الحقيقية بالأفضلية والأسبقية إنما تكون بأمر الله ومن عنده، وما عداها من التزكيات الشخصية والملفقة، إنما هو محض كذب على الله ومجرد افتراء على الناس ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾.

واستمر الخطاب الإلهي متجهاً إلى الرسول الأعظم ﷺ، لافتاً نظره إلى أمرٍ مستغرب جدًّا من الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب، إذ هو على خلاف ما كان ينتظر منهم طبقاً لادعاءاتهم، ذلك أنهم

يؤمنون بالشياطين والسحرة والكهّان والأصنام، ويؤيدون الباطل، ويفضلون المشركين على المسلمين بدعوى أنهم أحسن منهم حالاً وأفضل اعتقاداً ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلذِينَ كَفَرُواْ هَـٰؤُلَآءِ اهْدیٰ مِنَ الذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴾ ثم تكرُّ عليهم الآيات باللعن والطرد وتُنْذِرهم بالفشل: ﴿ اوْلَـٰئِكَ الذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ يَّلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾.

ويتساءل كتاب الله لو أن هذا الصنف من الناس كان لهم نصيب من الملك والسلطان، ماذا كانوا يفعلون بضعفاء بني الإنسان؟ ويأتي الجواب القاطع بأنهم لا يؤتون الناس حتى «النَّقِير»، أي حتى أتفه الأشياء وأقلها، وذلك لأنهم بلغوا من البخل والشح وقسوة القلب واحتقار الضعفاء ما يجعلهم أحرص الناس على احتكار جميع وسائل العيش وأسباب الثروة لأنفسهم دون الناس جميعاً ﴿ اَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ، فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾.

وفي مثل هذا الصنف جاء قوله تعالى أيضاً: ﴿ قُل لَّوَ اَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الِانفَاقِ ﴾.

وأخيراً يكشف كتاب الله الستار عن السبب الدفين في معارضة اليهود للمسلمين، ويبيِّن أنه هو مجرد حسد اليهود للمسلمين على ما آتاهم الله من فضله، فقد ظلت النبوة زمناً طويلاً في أنبياء بني إسرائيل، وجاء عيسى بن مريم فكان منهم، وإن رفضوا دعوته، وأنكروا رسالته، لكن هذا الرسول الذي جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين هو من بني إسماعيل لا من بني إسرائيل، فهم يحسدونه حسداً بالغاً، لأن النبوة ختمت به، فخرجت منهم، ولن تعود إليهم

أبداً ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَيٰـهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

غير أن الله تعالى يفضح ما هم عليه من تناقض وتضارب واضطراب، ويسجل عليهم مرة أخرى أنهم كفروا بنفس الرسل الذين أرسلوا إليهم من بني إسرائيل وذرية إبراهيم، وإذن فلا غرابة ولا عجب في كفرهم بالنبي الهاشمي المطلبي.

ثم ينتهي الربع بوصف ما أعده الله في النار من العذاب للكافرين ﴿ كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ وما أعده في الجنة من الثواب للمؤمنين ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾.

الربع الثالث من الحزب التاسع
في المصحف الكريم

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ
ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ يَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع في المصحف الكريم

عبــاد الله

في هذه الحصة نستوعب الربع الثالث من الحزب التاسع في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ الآية، وختامه قوله تعالى: ﴿ يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾.

يتناول هذا الربع عدة موضوعات رئيسية وجوهرية بالنسبة لتكوين الدولة الإسلامية، وبسط العدل وإقرار النظام فيها، وضمان التعايش وحفظ الوئام بين أبنائها.

ففيه آيات تلزم المؤمنين بطاعة الله من جهة، وبطاعة الرسول ومن يلي أمر المسلمين بعده من جهة أخرى.

وطاعة الله امتثال أوامره ونواهيه طبقاً لما أوحى به في كتابه.

وطاعة الرسول امتثال أمره ونهيه وهو بين ظهراني المسلمين، والتزام سنّته والسير على طريقته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وطاعة من يلون أمر المسلمين من بعده هي مبايعتهم على كتاب الله وسنّة رسوله، وعدم عصيانهم في المعروف، لا في المنشط

ولا في المكره، وعدم الافتيات عليهم أو خذلانهم.

ويدخل تحت (أولي الأمر) من الوجهة العملية والتنفيذية أمراء المسلمين، بما جعل الله في أعناقهم من مسؤولية السلطة والحكم، ويدخل تحت (أولي الأمر) من الوجهة العلمية والنظرية علماء المسلمين، بما تخصصوا فيه وائتمنهم الله عليهم من النظر في الكتاب والسنّة وكل ما يدور في فلكهما، مما لا غنى عنه بالنسبة لتسيير شؤون الدولة، في انسجام ووفاق مع أنظار الملة، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾. قال ابن كثير: «والظاهر أن (أولي الأمر) عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء، والله أعلم».

ويلاحظ في تعبير القرآن الكريم أنه استعمل الأمر بالطاعة قبل ورود كلمة (الله) (أطيعوا الله)، لأن الأمر بطاعة الله مستقل بنفسه كل الاستقلال، كما استعمل نفس الأمر بالطاعة قبل ورود كلمة (الرسول) (وأطيعوا الرسول) حيث إن الأمر بطاعة الرسول مستقل بنفسه أيضاً، وإن كانت طاعة الرسول هي في نهايةالأمر وحقيقته طاعة لمن أرسله وهو الله، وإن كان الرسول نفسه أول مطيع لله وملتزم لأمره بحكم رسالته وعصمته.

أما طاعة (أولي الأمر) فقد ربطها القرآن بطاعة الرسول نفسه ربطاً وثيقاً محكماً، وذلك بواسطة واو العطف، وجعلها بحكم هذا الربط مندرجة تحت طاعته، إذ إنها بمنزلة الفرع من الأصل، والطاعة الأصلية طاعة الله ورسوله، وفي اطارها، وفي دائرة حدودها تتم طاعة أولي الأمر، الذين هم خلفاء الرسول بالنسبة لأمته وملّته.

والعجيب أن هذه الآية الكريمة ما كادت تنتهي من الأمر بطاعة الله، وبطاعة الرسول وأولي الأمر، حتى وضعت المسلمين أمام مسؤولياتهم إذا طرأ على حياتهم ما يدعو إلى التنازع والاختلاف في شؤونهم العامة، وبادرت إلى قطع دابر النزاع، إذ نصت على الحل الملائم والمناسب لكل تنازع أو اختلاف قد يقع بينهم، وذلك حتى يحسم الخلاف بينهم من الأساس، ويعود المسلمون إلى الاتفاق والائتلاف.

والحل القرآني والعملي لكل تنازع يطرأ بين المسلمين كما نص عليه كتاب الله هو الرجوع إلى الله ورسوله، والنظر فيما أوجب التنازع بينهم، على ضوء ما في كتاب الله وسنّة رسوله، واستخراج الحل الإسلامي الملائم من تعاليمهما وتوجيهاتهما، ومن القياس على نصوص الدين، وسوابقه، في عهد الرسالة وعهد الخلافة الراشدة، وبذلك يهتدي المسلمون إلى حل واحد يرضاه الجميع، ويلتزم طاعته الجميع، وما دام المرجع فيه هو الله ورسوله فلا غالب ولا مغلوب، ولا منتصر ولا منهزم، وإنما تكون كلمة الله وحدها هي العليا ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

ثم جاء التعقيب على هذا الارشاد الإلٰهي بأنه هو خير وسيلة وأحسن طريقة لفض النزاع بين المسلمين إذا طرأ عليهم ما يدفع

إليه، وأنه أحسن عاقبة ومآلاً، وفي ذلك إيماء إلى أن أية وسيلة أخرى قد يقع عليها الاختيار خارج هذا الاطار، لا تكون ناجعة ولا نافعة ولا حاسمة للنزاع، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾.

ثم استنكر الحق سبحانه وتعالى موقف الذين يزعمون أنهم مؤمنون، ومع ذلك يرفضون التحاكم إلى الله ورسوله، مفضّلين التحاكم إلى غيرهما، وبذلك يخرجون من دائرة الحق والحكمة إلى دائرة الباطل والشهوة.

ونبّه كتاب الله إلى أن هؤلاء المؤمنين بزعمهم إذا ساروا في هذا الاتجاه فإنهم يصبحون بمنزلة الدُّمَى في يد الشيطان، إذ هو الذي يضِلُّهم عن الطريق السوي، ويذهب بهم إلى أبعد مذاهب الضلال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَّتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى الطَّـٰغُوتِ وَقَدْ اُمِرُوٓاْ أَنْ يَّكْفُرُواْ بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَـٰنُ أَنْ يُّضِلَّهُمْ ضَلَـٰلاۢ بَعِيداً ﴾.

على أن كتاب الله يتولى فضيحة هـذا الصنف من أدعياء الإيمان، فيصفهم علانية بالنفاق الصريح، ويسجل عليهم تهربهم من حكم الله ورسوله، وامتعاضهم منه، وإعراضهم عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ ﴿ اُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلاۢ بَلِيغاً ﴾.

ثم تعود الآيات الكريمة مرة أخرى لتثبيت المعاني الرئيسية السابقة في هذا الربع فتقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إذ الحكمة في إرسال الرسل هي تبليغ أوامر الله وتوجيهاته إلى عباده، ليسيروا في حياتهم الخاصة والعامة وفقاً لها، وطبقاً لمقتضاها، وما دام الرسول ثابت الصدق عن الله، ومضمون العصمة من الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ فلا بد لمن آمن به من أن يطيعه فيما أمر به ونهى عنه، دون أدنى تحفظ ولا أدنى اعتراض.

ويؤكد كتاب الله هذا المبدأ بكل قوة وبكل شدة، فيوجه خطابه إلى الرسول ﷺ مقسماً بالله العظيم على محتواه وفحواه ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾.

وبعدما أمر كتاب الله كافة المسلمين، حكاماً ومحكومين، رؤساء ومرءوسين، بطاعة الله ورسوله، وبرجوعهم إليهما، واحتكامهم عندهما، وتحكيمهم لهما، كلما وقع تنازع بين المسلمين أو اختلاف، وبعدما وصف كتاب الله بوصف النفاق وزعم الإيمان كل من يتهرب منهما، ويتحاكم إلى غيرهما، جاءت الآيات الكريمة تسجل فضل من أطاع الله ورسوله، وتبين أي ركب عظيم سيسير فيه، وأي الرفاق الأعلين سيكون برفقتهم في أعلى عليين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّـٰلِحِينَ، وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا، ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع
في المصحف الكريم

فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا

قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن

يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾
مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن
يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ
مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم سنلقي نظرة على الربع الأخير من الحزب التاسع في المصحف الكريم، وهو يبتدىء من قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلَ اَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نوتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾.

عندما نتأمل الآية الأولى في هذا الربع، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ ﴾ الآية، نجدها مرتبطة كل الارتباط بالآيتين الأخيرتين من الربع الماضي ومبنية عليهما.

ففي الآيتين الأخيرتين من الربع الماضي وصف كاشف لشعور المنافقين الدفين، وموقفهم الحقيقي من الجهاد والمجاهدين، إذ يبيِّن كتاب الله ما عليه المنافقون من التخلف والتباطؤ عن تلبية نداء الرسول الأعظم ﷺ، وما يقومون به علاوة على تخلفهم عن ركب المجاهدين، من تثبيط لعزائم المسلمين، حتى لا يجاهدوا المشركين.

ورغماً عن موقف التلكؤ والتخاذل والتثبيط الذي يقفونه كلما خرج المسلمون للجهاد في سبيل الله، فإنهم بحكم روح النفاق والطمع، والانتهازية التي هم عليها، يأسفون بالغ الأسف عندما ينتصر المسلمون، ويرجعون من جهادهم سالمين غانمين، ويتمنون لو أنهم حضروا معهم وكانوا من بين الفائزين، كما أنهم بحكم روح النفاق والجبن والأنانية التي هم عليها يفرحون كامل الفرح بتخلفهم وعدم حضورهم، عندما يرجع المجاهدون وقد خلفوا من ورائهم في ساحة الجهاد عدداً من الشهداء في سبيل الله.

ويشير كتاب الله في نفس هاتين الآيتين إلى أن نفس التعبير الغامض الذي يستعمله المنافقون في الحديث عن المؤمنين ينبىء عن دخيلتهم، إذ لا يذكرونهم بوصفهم المميز، وإنما يستعملون في الحديث عنهم «ضمير الغائب المبهم» مما يدل على أنهم لا يجمعهم بهم أدنى رابطة، وعلى أن كل ما يتظاهرون به من المودة لهم محض زور وبهتان، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى في ختام الربع الماضي ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ، فَإِنَ اَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدَ اَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمَ اَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً، وَلَئِنَ اَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾.

وعلى هذا المعنى الذي تتضمنه هاتان الآيتان وقع التعقيب بالآية الأولى في هذا الربع، وهي دعوة صادرة من الله تعالى إلى أولئك الذين استرخصوا أرواحهم في سبيله، لأن يقوموا بواجب الجهاد المقدس، غير ملتفتين إلى تخلف المنافقين وتثبيط المثبطين، كما

أنها وعد صادق من الحق سبحانه وتعالى لهم بالأجر العظيم والثواب الجسيم، سواء منهم من غلب وعاد، ومن وقع شهيداً في ساحة الجهاد. وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ، وَمَن يُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾.

وفي هذا الربع يتحدث كتاب الله عن طائفة أخرى لا تملك من الشجاعة والاستعداد للتضحية القدر الكافي لمواجهة أعباء الجهاد، ويتضمن الحديث عنها معنى الاستغراب والتعجب، حيث أن هذه الطائفة بالذات، في الوقت الذي كانت أوامر الله وتعليماته تصدر إلى المسلمين بالانتظار والصبر وتحمّل الأذى إلى حين، كانت تتحرّق شوقاً إلى الجهاد، وتطلب من الرسول الاذن لها بالقتال، فلما حلّ موعد الجهاد وكتب عليها القتال أخذت تتراجع إلى الوراء، وتتمنى لو أن هذه الفريضة لم تفرض، وأجّلت إلى موعد آخر، بل إنها أخذت تتساءل في دهشة واستغراب عن السر الذي من أجله فرض الله الجهاد على المسلمين، وذلك كله حرصاً منها على الحياة، وتشبثاً بمصالحها المادية الخاصة، وخوفاً على الأموال والنساء والأولاد من عواقب الجهاد.

وبعدما وصف كتاب الله هذا الصنف الرعديد من الناس، وما هو عليه من ضعف في النفس، وتمسك بالعيش الهنيء، جاء التعقيب على ذلك بمقارنة بين الدنيا ومتاعها والآخرة وثوابها، وأن الله يجازي من جاهد في سبيله بكامل العدل ومنتهى الكرم، كما يجازي القاعدين والمتخلفين بما هم أهله، وأن الموت الذي يخشونه

سيدركهم لا محالة حيثما كانوا قاعدين أو مجاهدين.

وإلى مجموع هذه المعاني يشير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوَ اَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ، قُلْ مَتَـٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَالَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً، اَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

وبعدما وصف كتاب الله ما عليه المذبذبون والمنافقون من غريب الأطوار والأحوال، وما يبيّتونه في نفوسهم ويجري على ألسنتهم من سخيف الأقوال، وما يغلب عليهم من ميل إلى التمرد والخلاف، بدلاً من التزام الطاعة والتمسك بالائتلاف، اتجه الخطاب الإلهي رأساً إلى الرسول الأعظم ﷺ، داعياً إياه في نفس السياق إلى القيام بواجب الجهاد الذي كلفه الله به، وألقاه على عاتقه قبل كل الناس، ليبادر إلى أدائه، دون أن ينظر إلى أي اعتبار آخر، وآمراً له في نفس الوقت بأن يحض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، بغض النظر عن تخاذل المتخاذلين، وتثبيط المثبطين، وتراجع ضعفاء النفوس العاجزين، مبيناً لرسوله والمؤمنين أن هدف الجهاد في سبيل الله إنما هو كف أذى الكافرين عن المؤمنين، وخَضْد شوكة المشركين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الذِينَ كَفَرُوا، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾.

ونظراً لأن الهدف الأساسي من القتال في سبيل الله هو تحرير

الفرد المسلم حتى لا يفتن في دينه، وتحرير الجماعة المسلمة حتى لَا تفتن في دينها اختار كتاب الله أن يبرز هذا الهدف بشكل قوي، حتى تلتفت إليه جميع الأنظار، فجعله في مطلع هذا الربع منذ البداية، لأنه هو المقصد والغاية، وما يتبعه ويليه، إنما هو وسيلة إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

فاستثار كتاب الله حمية المسلمين، لإنقاذ اخوانهم المستضعفين، الذين لم يستطيعوا الهجرة من مكة إلى المدينة بجانب بقية المهاجرين، ممن أصبحوا مغلوبين فيها على أمرهم، معرضين لسائر صنوف الأذى من طرف المشركين.

ووصف كتاب الله بمنتهى الدقة، وبصيغة بالغة التأثير تثير المشاعر، الحالة النفسية القلقة لأولئك المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، المعذبين من اجل عقيدة الإيمان، وما هم عليه من تبرم بنوع الحياة الجهنمية التي يتحملونها بمكة، وما يتوجهون به إلى الله صباح مساء من دعاء خاشع وابتهال صادق، ليعينهم على الخلاص من ربقة الشرك، والخروج من القرية الظالم أهلها إلى المدينة التي آمن أهلها، أملًا في اللحاق بالرسول وصحبه من المهاجرين والأنصار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وفي هذا السياق بيَّن كتاب الله الفارق الجوهري والأساسي بين جهاد المؤمنين وقتال الكافرين، فالجهاد الذي فرضه الإسلام

ليس من أجل السيطرة والاستغلال، ولا من أجل الاستعباد والاذلال، وإنما هو من أجل نصرة الحق، وبسط العدل، وبث الخير والمعروف بين الناس، وهو في النهاية لإقامة دين الله، وإعلاء كلمته في الأرض على من سواه.

وعلى العكس من ذلك القتال الذي يقوم به الكافرون، فهو من أجل تدعيم العدوان ، ومساندة الطغيان، واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وهو في النهاية للدفاع عن عبادة الأصنام والأوثان، وسدنتها من السحرة والكهان، وذلك ما تشير إليه في إيجاز واعجاز هذه الآية الكريمة: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّـٰغُوتِ ﴾.

ثم حرَّض كتاب الله المؤمنين على قتال الكافرين لوضع حد لعدوانهم، وفرض احترام الإسلام عليهم، وتمكين هيبته في نفوسهم، ونشر دعوته بكل حرية في أوساطهم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ونبَّه كتاب الله إلى الحلف الشيطاني المعقود بين الشيطان وأوليائه الكافرين، إذ إنهم عن إيحائه يصدرون، وبإغرائه يمكرون، مؤكداً أن كيد الشيطان مطبوع بطابع الضعف والهزال، محكوم عليه بالفشل والزوال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَـٰنِ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾.

الربع الأول من الحزب العاشر
في المصحف الكريم

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ
وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ
وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ
وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا
كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ
وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن
يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ
فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ
فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ

يُرِيدُونَ أَن يَّامَنُوكُمْ وَيَامَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوٓاْ إِلَى
اَ۬لْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۖ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ اُ۬لسَّلَمَ
وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۖ
وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰناً مُّبِيناًۖ ﴿٩١﴾
وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ اَن يَّقْتُلَ مُومِناً اِلَّا خَطَـٔاًۖ وَمَن
قَتَلَ مُومِناً خَطَـٔاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ وَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ اِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَّصَّدَّقُواْۖ فَإِن كَانَ مِن
قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُومِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍۖ
وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ
فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ اِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍۖ ○
فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اَ۬للَّهِۖ
وَكَانَ اَ۬للَّهُ عَلِيماً حَكِيماًۖ ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُومِناً
مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِداً فِيهَا وَغَضِبَ اَ۬للَّهُ
عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَاباً عَظِيماًۖ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اِ۬للَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ
لِمَنُ اَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ اُ۬لسَّلَٰمَ لَسْتَ مُومِناً تَبْتَغُونَ

عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾
لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ
ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ
تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا
يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ
أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

الربع الأول من الحزب العاشر في المصحف الكريم

عبـــاد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الأول من الحزب العاشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُـوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَّعْفُوَ عَنْهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾.

يتوالى الحديث في هذا الربع عن الجهاد في سبيل الله، وعن بيان الظروف التي يسوغ فيها أو لا يسوغ.

فمن ذلك أن طائفة كانت قد أظهرت الإسلام بمكة قبل الهجرة، فلما جاء وقت الهجرة وهاجر الرسول ومن معه بقيت هذه الطائفة مستقرة بمكة مع المشركين، دون أن تلحق بالنبي المهاجر، وذات يوم خرجت تطلب حاجة لها خارج مكة على أن تعود إليها ولا تهاجر، مطمئنة إلى أن أصحاب محمد إن لقوها فليس عليها منهم بأس، على حد تعبيرها الخاص، فبلغ خبـر خروجهـا إلى المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وانقسم الرأي العام بالمدينة في شأن هذه الطائفة، فمن قائل: يجب التعرض لهؤلاء الجبناء وقتلهم،

بحجة أنهم يظاهرون العدو، ومن قائل: أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به، وتستحلُّون دماءهم وأموالهم من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم؟ وافترق المسلمون في الرأي إلى فئتين، ورسول الله ﷺ لا ينهى أي فريق من الفريقين عن رأيه، حتى نزلت آيات كريمة لفضِّ هذا الخلاف في الرأي، وأكدت هذه الآيات رأي الفريق الذي نادى بقتالهم، إن لم يفارقوا مكة نهائياً، ويلحقوا برسول الله مهاجرين معه، وبيَّنت أن «الفرقان» بين نفاق هذه الطائفة وإيمانها هو الإقدام على الهجرة في سبيل الله دون تردد، والتضحية من أجلها بالنفس والنفيس، وإلاَّ حقَّت على هذه الطائفة كلمة العذاب، واعتبرها المسلمون ملحقة بالمشركين، يعمها ما يعمهم من الأسر والسبي والقتال، وذلك قوله تعالى في شأن هذه الطائفة، وموقف المؤمنين منها ووجه الحق في مصيرها مخاطباً للمؤمنين ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ، أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً، وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً، فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ، وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ أي ما لكم تفرقتم فرقتين في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً ولم تبتوا القول بكفرهم.

ومن ذلك أن طائفة أخرى بمكة كان لها نوع ارتباط وتحالف بمن لهم مع المسلمين حلف وميثاق، فهذه الطائفة ألزم كتاب الله بعدم المساس بها، رعاية واحتراماً للميثاق الذي بين المسلمين وبين الطرف المعاهد الذي لها به علاقة وارتباط، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أي فاجعلوا حكمهم كحكمهم.

ومن ذلك أن طائفة ثالثة التزمت الحياد بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للمشركين، فلا هي تقاتل المسلمين إلى جانب أهل الشرك، ولا هي تشارك المسلمين في قتالهم للمشركين، فهذه الطائفة إنْ حافظت على حيادها وبقيت ملتزمة للسلم تجاه المسلمين لم ينالوها بسوء، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أي لم تسمح له ضمائرهم ﴿ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ، وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ ﴾ أي لم يتعرضوا لكم ﴿ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾.

ومن ذلك أن طائفة رابعة تتظاهر بالحياد إزاء المؤمنين وإزاء الكافرين، لكن لا بوازع قلبي سليم وإنما بدافع مصلحتها الخاصة، حيث أنها ترى من فائدتها أن تلعب على حبلين، حتى تضمن مصالحها لدى كل من الطرفين، فهي في الباطن من الفتنة وإليها، وهي في جانب الشرك وأهله، وإنْ كانت في الظاهر تقف موقف الحياد، وتتظاهر بالإسلام أمام أهله، وهذه الطائفة أباح الله للمسلمين دماءها وأموالها إذا تعرضت للمسلمين ولم تعتزلهم وتسالمهم ظاهراً وباطناً، وجعل الله للمسلمين عليها حق القتال بكافة توابعه ونتائجه، وهذا معنى قوله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى الْفِتْنَةِ

أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ أي انهمكوا في تدبيرها ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بل تعرضوا لكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث تمكنتم منهم ﴿وَأُوْلَـٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰناً مُّبِيناً﴾.

ثم وجه كتاب الله خطابه إلى المؤمنين يدعوهم إلى مزيد التثبت ومنتهى التحري قبل الحكم على أي شخص أو أية طائفة بالكفر، وقبل معاملتهم لأي واحد منها على ذلك الأساس، ونبَّههم إلى أنهم إذا كانوا يجوبون الأرض في سبيل الله وعثروا على من يعلن أنه مسالم لا محارب، ويدَّعي أنه مؤمن، لا كافر ولا منافق، فإنهم لا يسوغ لهم أن يبادروا إلى قتله لمجرد سوء الظن به وعدم معرفته، بل يجب عليهم التثبت من أمره، والاطلاع على حقيقته، والحكم بعد ذلك له أو عليه، وأكد كتاب الله أكثر من مرة في نفس السياق ضرورة التحري من جانبهم في شأنه، حتى لاَ يُحمَل عملهم على مجرد الطمع في الاستيلاء على ماله بعد قتله.

وذكَّرت الآية الكريمة المؤمنين الذين هاجروا مع الرسول ﷺ أن منهم من كان مؤمناً وكان يخفي إيمانه، حتى منَّ الله عليهم وأذن لهم باعلان إيمانهم أمام الملأ، وأنه لا يبعد أن يكون هذا الذي سقط بين أيديهم الآن وأعلن إيمانه هو أيضاً في نفس الوضع الذي كانوا عليه من قبل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ، وَلَا تَقُولُواْ لِمَنَ اَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ،

كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَتَبَيَّنُوٓا۟، إِنَّ اللَّهَ كان بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾.

وأخيراً استعرض كتاب الله حال طائفة أخرى آثرت البقاء بمكة تحت سلطان الشرك والوثنية، لا لأن أفرادها من المستضعفين الذين أقعدهم العجز والضعف عن الهجرة إلى المدينة، ولكن لأن هواهم من هوى المشركين، ومصالحهم تقضي عليهم بمجاملة الشرك وأهله، والرضى بالبقاء تحت أمره ونهيه، والوقوف بجانبه عند الحاجة، ويعتبر كتاب الله أفراد هذه الطائفة (ظالمي أنفسهم) لا مظلومين ولا مستضعفين.

ويصف القرآن الكريم حواراً يدور بينهم بعد موتهم وبين الملائكة، يتبين من خلاله ما تعودوا عليه من كذب ونفاق وميل إلى التضليل، وينتهي هذا الحوار بكشف الستار عنهم، وبسقوط ادعائهم الباطل، ويعقابهم من الله عقاباً شديداً.

ثم يستثني كتاب الله من هذه الطائفة الظالمة المؤمنين المظلومين والمستضعفين حقاً، وهم أولئك الذين لم يجدوا حيلة للخروج من مكة، ولا قدرة على الهجرة إلى المدينة، من الرجال العاجزين، والنساء الضعيفات، والولدان الصغار، ويفتح كتاب الله في وجه هؤلاء المستضعفين باب الأمل والرجاء في عفوه ومغفرته، جزاء ثقتهم بالله، وتعلقهم به، وهجرتهم بقلوبهم إلى الله ورسوله. ونقل عن ابن عباس أنه قال: «كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل، من المستضعفين، من النساء والولدان».

وهذه المعاني هي التي يتضمنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ، قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا، فَأُوْلَـٰئِكَ مَأْوَيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُوْلَـٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾.

الربع الثاني من الحزب العاشر
في المصحف الكريم

وَمَن يُهَاجِرْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ
مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ
أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾
وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم
مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن
وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ
وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ
عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ

كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا
قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ
فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ
ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ
وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ
بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾
وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ
ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا
أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ
مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم
مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ

يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾
وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ
بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ
وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

الربع الثاني من الحزب العاشر
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب العاشر، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

يتوالى الحديث في بداية هذا الربع عن الهجرة في سبيل الله، وما أعدَّه الله للمهاجرين من خير عاجل وثواب آجل، وذلك ترغيباً لمن تخلفوا بمكة في الهجرة إلى المدينة، للالتحاق بجمهرة المسلمين، وتحريضاً لهم على مفارقة المشركين، ففي الهجرة في أرض الله الواسعة سعة للمسلم من الضيق، وفيها مَنْدُوحة له عن الأذى، وفيها فوق ذلك كله تمكين له من ممارسة دينه بكل حرية واطمئنان، والمسلم إذا فارق بيته بنية الهجرة وأدركه الموت في الطريق يكون له عند الله ثواب المهاجر الذي أتم هجرته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً، وَمَنْ يَخْرُجْ

مِن؟ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾. ويندرج تحت هذه الآية ما صح الحديث به عن رسول الله ﷺ كما في صحيحي البخاري ومسلم والموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وينتقل كتاب الله من الحث على الهجرة وتبيين فوائدها وفضائلها إلى تبيين الكيفية التي يؤدي بها المسلمون صلواتهم عندما يكونون مشتبكين في حالة حرب مع أعدائهم، حيث إن الإسلام لا يعفيهم من الصلاة ولو في هذه الحالة، نظراً إلى أن الصلاة عماد الدين وعموده الفقري، لا غنى عنها في حضر أو سفر، ولا في صحة أو مرض، ولا في حال أمن أو خوف، وأرشدهم الحق سبحانه وتعالى إلى نوع التخفيف الذي خففه عنهم بالنسبة للحالة التي يخشون فيها فتنة العدو وهم في مواجهته، وذلك بالاذن لهم في قصر الصلاة، والاقتصار فيها على ركعة واحدة أو ركعتين اثنتين، على أن يقسموا أنفسهم بالتناوب إلى طائفتين: طائفة تقوم بالصلاة، وأخرى تقوم بالحراسة، فتصطف الطائفة الأولى وراء الأمام وتصلي معه ركعة واحدة، ثم تتم ركعتها الثانية وحدها وتسلم، في الوقت الذي تكون فيه الطائفة الثانية قائمة بحراستها من مفاجآت العدو لها أثناء الصلاة.

وعند انتهاء الطائفة الأولى من صلاتها تبادر فتأخذ مراكز الطائفة الأخرى التي حرستها من قبل وتحل محلها في الحراسة، وتأتي الطائفة الثانية لتلتحق بدورها في الصلاة وراء الأمام، الذي يثبت قائماً في انتظارها بركعته الثانية، فتأتم به فيها، ثم تضيف إلى الركعة التي أدركتها معه ركعة أخرى وحدها تتم بها ركعتين وتسلم، وفي الحين تعود إلى مراكزها في صف القتال.

وهكذا يحافظ المؤمنون على صلواتهم التي هي صلتهم بالله في كل الظروف، يستمدون عن طريقها المدد الإلهي والعون الروحي لمواجهةمسؤولياتهم بقلب ثابت، وعزم صادق، ويقين في الله لا يداخله أدنى شك أو وهن، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَّفْتِنَكُمُ الذِينَ كَفَرُوٓاْ، إِنَّ الْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً، وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُم مَّعَكَ وَلْيَاخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ، فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِنْ وَّرَآئِكُمْ، وَلْتَاتِ طَآئِفَةٌ اخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَاخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد ما قرره الشارع في كيفية هذه الصلاة من الجمع بين مقتضيات العبادة ومقتضيات الدفاع على أكمل وجه من التوفيق والتنسيق، فأعطى لواجب العبادة حقه من جهة، وأعطى لضرورة الدفاع حقها من جهة أخرى، وهكذا لم يكتفِ الإسلام من جنوده بالعبادة وحدها مع التفريط في مقتضيات الدفاع والتعرض للخطر، كما لم يكتفِ منهم بالواجب العسكري وحده والتحرز من العدو، مع نسيان الله وإهمال الصلاة.

وتلك هي خطة الإسلام المرسومة دائماً في مختلف مجالات الحياة، بالنسبة للجوانب الروحية والجوانب المادية، لا يضحِّي بجانب منها في سبيل الجانب الآخر، وإنما يعمل على إعطاء كل جانب من الجانبين حظه من العناية والاهتمام، ويسعى للتوفيق بينهما حفظاً للتوازن وحرصاً على الانسجام.

وطبقاً لما هو متعارف في تشريع الكتاب و السنَّة من تنبيه الشارع إلى حكمة التشريع في عدة مناسبات جاء التعقيب على الكيفية التي شرعها الله لصلاة المسلمين وهم في مواجهة العدو، بما يبين السر فيها وفي تقسيمهم إلى طائفتين: طائفة تصلي وطائفة تحرس المصلين، ألا وهو اتخاذ الاحتياط والتزام الحذر، إزاء مباغتات العدو وهجومه المنتظر، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَدَّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنَ اَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾. ويؤكد هذا المعنى ما جاء في الأثر أن رسول الله ﷺ في إحدى المناسبات التي واجه فيها المشركين صلى بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم وسجودهم وقيامهم جميعاً، فهمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم، فشرع الله للمسلمين في هذه الآيات نوع الصلاة المناسبة لظروف القتال، وجعلها جامعة بين التحرز من العدو والتعبد لله في نفس الوقت.

ثم رخص الله سبحانه وتعالى لجنود الإسلام أن يضعوا أسلحتهم لعذر المرض والمطر، لكن مع ترك الاستسلام ووجوب الاحتياط وأخذ الحذر، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمُ إِن كَانَ بِكُمُ أَذًى مِّن مَطَرٍ اَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ، وَخُذُواْ

حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «قوله تعالى: (خذوا حذركم) أمر من الله سبحانه للمؤمنين أن لا يقتحموا على عدوهم على جهالة، حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت للنفوس، وهذا معلوم بالتجربة، فإن الجيش ما جاءه قط مصاب إلّا من تفريط في حذر».

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَـٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ خطاب للمجاهدين من المؤمنين الذين أقاموا الصلاة وهم في مواجهة العدو، على الكيفية المخففة التي شرعها الله لهم، أن يواصلوا بعد فراغهم من الصلوات ذكر الله أثناء الجهاد والقتال، سواء كانوا قائمين أو قاعدين أو مضطجعين، لا فرق بين مختلف الأحوال، وذلك لما يؤدي إليه الذكر من حضور القلب مع الله، وما يعين عليه من تلقي مدده ورضاه، على غرار قوله تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ ﴾ معناه أنه إذا ذهب عنكم الخوف من فتنة العدو وأصبحتم في حالة اطمئنان تام فعليكم أن تتركوا الكيفية المخففة للصلاة التي بيّنتها الآيات السالفة، وتعودوا إلى إقامة الصلاة على وجهها الكامل كيفاً وكماً، هيئة وعدداً.

وغني عن البيان أن الصلاة التي حددها كتاب الله لحالة القتال، والتي وصفتها آيات هذا الربع هي المعبر عنها في لسان

علماء الشريعة باسم (صلاة الخوف) وذلك أخذاً من الحالة التي تقع فيها هذه الصلاة، وهي حالة اشتباك المسلمين مع عدوهم، وخوفهم من أن يفتنهم في صلاتهم وهم في مواجهته.

وهنا قد يتساءل البعض عن قَصْر الصلاة الرباعية في السفر دون قتال ولا خوف، هل قصرها داخل في سياق هذه الآيات، أم أن له سنداً شرعياً آخر؟

والجواب عَنْ ذلك ما رواه ابن جرير الطبري في كتابه في التفسير ونقله عنه ابن كثير: أن أُمَيّة بن عبد الله قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر، فقال عبد الله: «إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً فعملنا به».

فقد سمى صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع، لا بنص القرآن.

ونقل (ابن العربي) المعافري سؤال أمية بن عبد الله لعبدالله بن عمر على الوجه الآتي: (إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر). (يعني نجد ذلك في هذه الآية) فقال: «إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ ونحن لا نعلم شيئاً، فإنا نفعل كما رأيناه يفعل». كما نقل (ابن العربي) أيضاً مقالة يعلى بن أمية لعمر بن الخطاب نفسه في نفس الموضوع، وذلك بالصيغة الآتية، وهي مروية في سنن ابن ماجه: «إن الله تعالى يقول: فليس عليكم

جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم، فها نحن قد أَمِنَّا». قال عمر: (عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقْبلوا صدقته).

هذا وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة» مما يدل على أن قصر الصلاة في السفر ثابت بالسنَّة الفعلية والسنَّة القولية، والسُّنَّة كما هو معلوم مصدر ثان للتشريع، بجانب الكتاب الذي هو المصدر الأول، غير أن هذه الرخصة لا يعقل الانتفاع بها في سفر المعصية، وإنما يعمل بها في سفر الطاعة وحده ان طرأ في السفر ما يدعو إليها.

وأخيراً أكد كتاب الله في ختام هذا الموضوع معنى أن الصلاة لازمة للمسلمين مفروضة عليهم في جميع أحوالهم لا يعفيهم منها شيء، وأن الشارع حرصاً منه على قيامهم بها رخص لهم بإقامتها على الوجه الذي يستطيعونه بحسب كل حال من الأحوال، حتى أنه اكتفى منهم في بعض حالات المرض بصلاة الإيماء، وهي صلاة رمزية، كما اكتفى منهم في بعض حالات الأعذار بطهارة التيمم التي هي أيضاً طهارة رمزية ، وذلك تنبيهاً على أن الصلاة لا تستباح إلَّا بطهارة، حتى تبقى النفس متشوقة إلى استعمالها، ولا تتعود على إهمالها.

الربع الثالث من الحزب العاشر
في المصحف الكريم

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوِيٰهُمُۥٓ إِلَّا مَنْ اَمَرَ بِصَدَقَةٍ اَوْ مَعْرُوفٍ
اَوِ اِصْلَٰحِۢ بَيْنَ اَ۬لنَّاسِۖ وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ اَ۪بْتِغَآءَ مَرْضَاتِ
اِ۬للَّهِ فَسَوْفَ نُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُّشَاقِقِ اِ۬لرَّسُولَ
مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ اُ۬لْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ اِ۬لْمُومِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ
اَ۬للَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ
لِمَنْ يَّشَآءُۖ وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾
إِنْ يَّدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِنْ يَّدْعُونَ إِلَّا
شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اُ۬للَّهُۖ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ
عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ اَ۬لْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ
وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ
أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ

الَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَٰمَىٰ
بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾
وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا أَن يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ
الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ
النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا
كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

الربع الثالث من الحزب العاشر
في المصحف الكريم

عبـاد الله

تستوعب حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب العاشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَيٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوِ اصْلَٰحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُوتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

يتناول هذا الربع موضوعات متنوعة، اعتقادية وأخلاقية، كما يتناول جوانب من العبادات، وأخرى من المعاملات.

وأول آية فيه تبين أن أكثر ما يتناوله الناس في أحاديثهم من القيل والقال لا خير فيه، ولا فائدة من ورائه، وأن أحسن الحديث الذي ينبغي أن يشغل المسلمون أنفسهم به هو حديث البر والمعروف واصلاح ذات البين، وذلك بقصد حضهم على الاتجاه وجهة الخير، وتنفيرهم من الاتجاه وجهة الشر، فيما يتبادلونه من آراء وأفكار، حيث أن الفكر عادة هو الذي يدفع إلى العمل، فإذا كانت أحاديث الناس ومحاوراتهم تنحو نحو الهدم اتجهت أعمالهم

للهدم لا محالة، وعلى العكس من ذلك إذا كانت مشاغلهم الفكرية تنحو نحو البناء اتجهت أعمالهم إلى البناء بدل الهدم، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوِيٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوِ اصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وفي معناه قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَـٰنَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾.

وثاني آية في هذا الربع تبيِّن حكم الله فيمن تعمد مخالفة الرسول والمؤمنين بعدما ظهر له وجه الحق المبين، فتحدى ملَّته وأمته، وذهب برأيه وهواه في وادٍ، وترك الملَّة والأمة في وادٍ، وأصبح معتزلاً وحده في شقٍّ، وهما بريئتان منه في الشق الآخر. ومن هنا جاء التعبير بكلمة (الشقاق) في هذا الصدد، وحكم الله فيه هو اعتباره خارجاً عن جماعة المسلمين، متمرداً على إجماع المؤمنين، له عذاب جهنم وبيس المصير، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَـٰاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَيَتَّبِـعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾.

وعلى هذه الآية نفسها اعتمد الإمام الشافعي رضي الله عنه في الحكم بِحُجِّيَّة الإجماع، وما يجب له من الاتباع، نظراً إلى أن الشريعة قد ضمنت العصمة من الخطأ لمجموع الأمـة «لا تجتمع أمتي على خطأ» فما ثبت في شأنه اتفاقها وتحقق إجماعها عليه، حق لا ريب فيه.

قال ابن كثير بعد ما ذكر احتجاج الشافعي بهذه الآية على

حجية الاجماع وأنه اهتدى إلى ذلك بعد التروي والفكر الطويل: «وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها».

وقوله تعالى: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ معناه نكله إلى نفسه في رأيه واختياره، ونستدرجه من حيث لا يعلم، على حد قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾.

وثالث آية في الربع تؤكد من جديد خطورة الشرك بالله، وتقرر مرة أخرى أن هذا الذنب الأكبر على نقيض بقية الذنوب لَا غفران له عند الله، بينما غيره يمكن أن يغفره الله لمن يريد، بشرط التوبة وعدم الاصرار.

والسر في ذلك أن الشرك بالله لا يمكن أن يختلط أمره على ذي عقل سليم، وهو ظلم لمقام الألوهية عظيم، إذ أقل نظرة يلقيها العاقل على نفسه وعلى ما حوله وَمَنْ حوله تؤكد له وحدانية بديع السماوات والأرض الحكيم العليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَد ضَّلَّ ضَلَـٰلاً بَعِيداً ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَـٰثًا، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰناً مَّرِيداً، لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ إشارة إلى ما تواطأ عليه المشركون من عبادة الشيطان واللات والعزى وما شابهها من الأوثان، وإلى الملائكة الذين وصفوهم بالأنوثة والبُنُوَّة لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وفي مثل هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَـٰتِ

سُبْحَـٰنَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰئِكَةَ الَّذِين هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله بعد ذلك إلى التحذير من متابعة الشيطان والسير في ركابه، وبينّ ما في اتباعه من الخسران المبين، وأشار إلى أن الشيطان لا يقدم لأوليائه الأقربين، ومتبعي وصاياه المطيعين، إلاَّ الوعود الخلابة والأماني الكاذبة، فهم كالدُّمَى بين أصابع الشيطان، يغرهم ويغرر بهم، وينزل بهم إلى دَرَك أسفل من دَرَك الحيوان، وذلك قوله تعالى حكاية عن ابليس ووصفاً لوساوسه ودسائسه: ﴿ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً، وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّخِذَ الشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُّبِيناً، يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَـٰنُ إِلاَّ غُرُوراً، اوْلَـٰئِكَ مَأْوِيهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً ﴾ ومصداق الغرور المشار إليه في هذه الآية قوله تعالى في آية ٖأخرى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْـرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَـا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾.

ثم وضح كتاب الله مبدءاً من المبادىء الأساسية في العقيدة الإسلامية، وهي أن الجزاء من جنس العمل، والجزاء الحسن مرتبط بالعمل الصالح، وأن مجرد الأماني دون سعي ولا عمل ولا اكتساب للخير لا ينفع المسلمين كما لا ينفع أهل الكتاب، سواء بسواء، ولذلك فإن مَنْ يعملْ سوءًا يُجْزَ به ومَنْ يعملْ صالحاً يُجْزَ بـه، في الدنيـا أولاً، وفي الآخرة أخيراً، سواء كان العامل ذكراً أو كان أنثى، وذلك قوله تعالى في خطابه للمؤمنين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ، مَنْ يَّعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِ، وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ

نَصِيراً ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: (والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وَقَر في القلوب وصدَّقته الأعمال. وليس كل من ادَّعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال: إنه هو على الحق سُمِع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام).

وروي أنه لما نزلت هذه الآية شق أمرها على كثير من الصحابة، وكان أبو بكر الصديق ممن استفسر رسول الله ﷺ عن قوله تعالى فيها ﴿من يعمل سوءًا يجز به﴾ فأجابه عليه السلام قائلاً: (غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللاواء (الشدة والمحنة) قال بلى، قال: (فهو مما تُجزَون به).

وروى علي بن أبي طالب عن ابن عباس تعقيباً على قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾: إلاَّ أن يتوب فيتوب الله عليه.

وقوله تعالى (نقيراً) المراد بالنقير النقرة التي في ظهر نواة التمرة، ومما يتصل به لفظ (القِطْمِير)، والمراد به اللفافة التي على نواة التمرة، ولفظ (الفَتِيل)، والمراد به الخيط الذي في شق النواة، وهذه الألفاظ الثلاثة كلها وردت في القرآن الكريم.

فكلمة «النقير» وردت في القرآن مرتين إحداهما في هذا الربع ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ والثانية في الربع الثاني من الحزب التاسع من هذه السورة ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ وكلمة «الفتيل» وردت في القرآن ثلاث مرات، مرتين في هذه السورة سورة النساء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ ومرة ثالثة في سورة الاسراء في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾.

وكلمة «القطمير» وردت في القرآن مرة واحدة في سورة فاطر ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾.

وأخيراً عادت الآيات الكريمة إلى موضوع معاملة النساء والولدان الصغار واليتامى، وهذا الموضوع أحد الموضوعات الرئيسية لسورة النساء ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ وفي سياق هذه الآيات وردت مادة (الصلح) و(الاصلاح) أربع مرات متتالية، مما يوضح بشكل قوي وصريح حرص الشارع الأكيد على سلامة الأسرة المسلمة، وحثه على ضمان استقرارها، ووجوب اتخاذ كل الوسائل، واستنفاد جميع المساعي للحيلولة دون الفراق بين الزوج والزوجة، ودون تعريض الأسرة بكافة أفرادها للتسكع والضياع والشتات، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

الربع الأخير من الحزب العاشر
في المصحف الكريم

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا

أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن
تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ
رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ
ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾
بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا
مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن
مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ

ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

الربع الأخير من الحزب العاشر في المصحف الكريم

عبـاد الله

حصة هذا اليوم تستوعب الربع الأخير من الحزب العاشر في المصحف الكريم، وأول آية من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُم، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾.

بعدما حضَّ كتاب الله في نهاية الربع الماضي أعضاء الأسرة المسلمة على ضرورة تفادي الفراق والطلاق بكل ما يمكن من الوسائل، وأورد مادة الصلح والتصالح والاصلاح أربع مرات متوالية في سياق واحد جاءت أول آية في هذا الربع لتتحدث عن الفراق، الذي يقع بعد استنفاد كافة وسائل الوفاق، وكأنَّ هذه الآية الكريمة تشير إلى الحالة التي لم يعد فيها أحد الزوجين يطيق الحياة مع الآخر، أو لم يعد فيها كل واحد منهما قادراً على العيش بجانب الآخر، وإذن تكون وضعية أحدهما أو وضعيتهما معاً وضعية الأسير الذي يتمنى الخلاص من رق الأسر، أو وضعية السجين الذي يبحث عن النور ليخرج من الظلام، ففي هذه الحالة وحدها يَعِد الله الزوج أو الزوجة أو يَعِدهما معاً بأنه سبحانه وتعالى

سيعوضهما عن بعضهما خير العوض، وسيفتح لهما أبواب الأمل والرجاء في زواج أسعد، وعيش أفضل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ وإنما جاءت الآية بهذه الصيغة التي فيها إيماء إلى الرضى والعطف والمصادقة على الفراق، لأن الفراق في هذه الحالة أصبح هو الحل الوحيد لمشكلة سبق لها أن تأزمت، واتُّخِذت لحلها جميع الوسائل دون جدوى، فكان الفراق هو المخرج الوحيد منها، بمنزلة العملية الجراحية التي يُلجأ إليها في نهاية مراحل العلاج، بعد استنفاد المراحل الأخرى كلها.

وقوله تعالى ﴿وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ في هذا السياق، مطابقان كل المطابقة للمشكل القائم الذي حله الإسلام عن طريق الطلاق، ففي سعة رحمة الله وعظيم فضله ملاذ لكل من الزوجين المتفارقين، وفي إذن الله بالفراق بعد استنفاد وسائل الوفاق، منتهى الحكمة في القضاء على أسباب الخلاف والشقاق.

ثم انتقل كتاب الله في نفس هذا المقام إلى التذكير بفريضة التقوى وعدم التعدي لحدود الله، مبيناً أن التقوى وصية عامة وصى الله بها أهل الكتاب كما وصى بها المسلمين على السواء، وشأن الوصية من الناس بعضهم لبعض أن توضع موضع الاحترام والتنفيذ، وأن لا يقع فيها تبديل ولا كتمان، فما بالك بوصية الله المنزلة في كتبه، المنقولة إلى الناس على لسان رسله؟ إنها أجدر الوصايا كلها وأحقها بالتنفيذ الدقيق والاحترام التام.

وكأنَّ في هذا التذكير إشارة إلى أن من اعتصم بتقوى الله

يتفادى الوقوع في كثير من المشاكل، ويعينه الحق سبحانه وتعالى على تخطي العقبات عندما تنزل بساحته النوازل ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾.

ومن هنا اتجه كتاب الله إلى مخاطبة خلقه أجمعين، ولا سيما الكافرين منهم وعصاة المؤمنين في سياق الوعيد والتهديد، لافتاً نظرهم جميعاً إلى حقيقة هي أكبر الحقائق وأصدقها جميعاً، ألَا وهي غنى الله المطلق عن خلقه، أساؤوا أم أحسنوا، أطاعوا أم عصوا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾، ثم قدرة الله القاهرة على إفناء الموجود، وإنشاء المعدوم، وقلب أوضاع العالم رأساً على عقب، تأديباً منه للمتمردين على طاعته، وعقاباً للعصاة من خلقه، وتعويضاً عنهم بمن هم أطوع لإرادة الله وأمره، وبمن هم أحرص على رضاه، وأشد تمسكاً بتقواه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً، إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمُ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَاتِ بِئَاخَرِينَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً﴾.

وكأنَّ في هذا الخطاب الإلَهي تحذيراً من الهزات والانقلابات والنكبات والكوارث الطبيعية، ودعوة موجهة للمؤمنين إلى أن يقوموا بواجبهم الكامل في تحقيق مراد الله وإعلاء كلمته في الأرض، وإعطاء الخلافة عن الله التي وكلها إليهم في أرضه حقها من الامتثال والفعالية، حتى تكون التوجيهات الإلَهية حاكمة عليها،

مسيرة لها، بارزة في جميع جنباتها، وإلاَّ نزع الله يده منهم، ووكلهم إلى أنفسهم، وسلط عليهم النقمة، بدلاً من النعمة، وفي هذا المعنى جاءت آيات كريمة أخرى تزيده وضوحاً وبياناً، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي وما ذلك عليه بممتنع، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُمْ ﴾.

وتعود الآيات الكريمة في هذا الربع إلى الحديث عن العدل المجرد من الهوى، والشهادة الخالصة من الزور، مبيِّنة ما يجب أن يكون عليه المؤمنون المحكومون والحاكمون، في شؤونهم الخاصة والعامة، من العدل في أحكامهم، والصدق في أقوالهم، والاخلاص في أعمالهم، داعية إياهم إلى نسيان القرابات الحاملة على التحيز للأقرباء، وإلى نسيان الخصومات الحاملة على التحيز ضد الخصوم.

وطالب كتاب الله كل مؤمن أن يأخذ الحق لغيره من نفسه، وأن يقول كلمة الحق ولو على نفسه، وألزم المؤمن بأن لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولو كان الأمر يتعلق بالوالدَيْن، إذ لا علاقة للبرور والعقوق، بما على الوالدَيْن لغيرهما من الحقوق.

ونبَّه كتاب الله إلى أن ميزان الحق والعدل يجب أن لا يؤثر في رجحان كفته أو انخفاضها ما يتأثر به ضعاف الناس من المؤثرات العاطفية، والاعتبارات الشخصية والاجتماعية، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِن يَكُنْ غَنِيّاً

أَوْفَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، فحق الله أولى بالرعاية والاشفاق، كما أنه لا يسوغ لك الميل بالهوى مع الفقير والتساهل معه لضعفه، والميل على الغني والتحامل عليه لغناه، فكن مع الحق أينما كان، واتبع الحق حيث كان ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ أي لا يحملكم الهوى على ترك العدل، بل الزموه في كل حال كما في الآية الأخرى ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُواْ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ﴿وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ أي إذا حرفتم أو ماطلتم، أوغلبتم الهوى وتجنبتم العدل فإن الله تعالى لا يغيب عن علمه ما عملتم من تحريف أو انحراف، بل يعلمه ويؤاخذكم عليه.

وقد سبق لنا في نفس هذه السورة ـ سورة النساء ـ قوله تعالى في موضوع العدل والأمانة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيراً ﴾.

وفي آيات هذا الربع عود على بدء، بالنسبة لاتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فها هنا يندد الحق سبحانه وتعالى مرة أخرى بموالاة الكافرين من دون المؤمنين ومصادقتهم والتودد إليهم، ويحذر من اتخاذهم بطانة قريبة تطلع على الأسرار والأخبار، وفي نفس الوقت ينعى كتاب الله على المنافقين كونهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويكشف الستار عن سرهم الدفين، مبيناً أن غرضهم الحقيقي من موالاتهم، وهدفهم الأول من الارتباط

الوثيق بهم، هو تعزيز جانبهم بتلك الموالاة وذلك الارتباط، على اعتبار أن الكافرين أعزاء أقوياء، يعطون لمن والاهم وارتبط بهم من عزتهم عزة، ومن قوتهم قوة، ثم عقب كتاب الله على هذا الوهم بالنقض والابطال، مذكراً بأن العزة كل العزة إنما هي لله وحده لا لسواه، فمن أراد العزة فما عليه إلاّ أن يعتز بالله، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، الذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً ﴾ ﴿يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم وجه كتاب الله إلى المؤمنين سؤالاً فيه استغراب واستنكار هل يريدون موالاة الكافرين، بالرغم مما تجلبه لهم من سخط الله وغضبه ـ ولله الحجة البالغة ـ فقال تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلهِ سُلْطَـٰناً مُّبِيناً﴾ أي حُجةً عليكم في عقوبته إيّاكم.

انتهى الجزء الأول



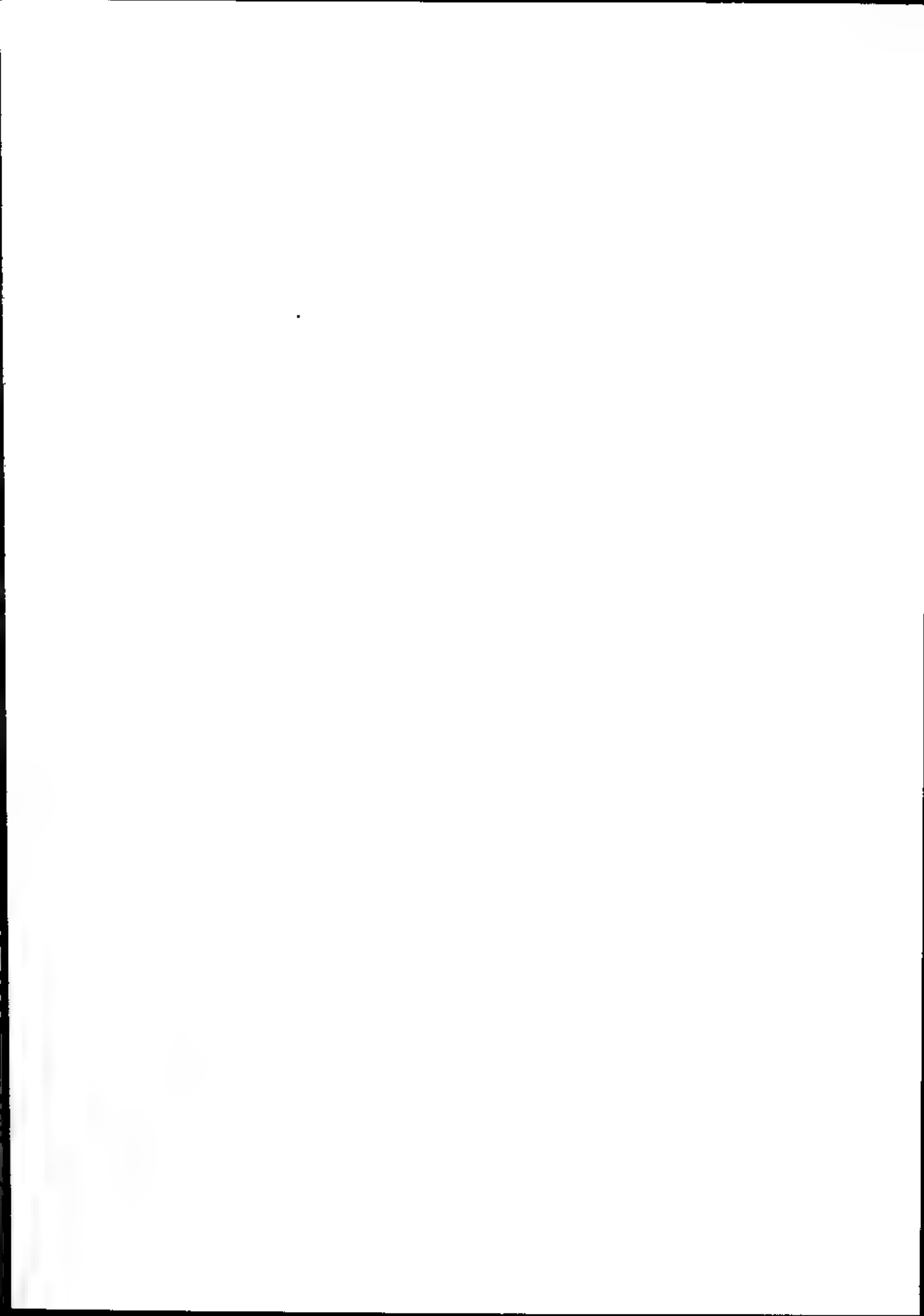
دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ــ ص.ب. 113-5787 بيروت ــ لبنان

رقم الإيداع القانوني
١٩٨٣ - ٤٢٧
الرباط

الرقــم 85/4/3000/49
التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني
الطباعة: مؤسسة جواد ــ بيروت



التيسير
في
أحاديث التفسير



التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الثاني




دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ

ثُمَّ اَتَّخَذُواْ اُ۬لْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ اُ۬لْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن
ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَيٰ سُلْطَٰناٗ مُّبِيناٗ ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
اُ۬لطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ اُدْخُلُواْ اُ۬لْبَابَ سُجَّداٗ وَقُلْنَا
لَهُمْ لَا تَعَدُّواْ فِے اِ۬لسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقاً غَلِيظاٗ ﴿١٥٤﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اِ۬للَّهِ وَقَتْلِهِمُ اُ۬لَانۢبِيَٰٓءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ اَ۬للَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُومِنُونَ إِلَّا قَلِيلاٗ ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَيٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰناً
عَظِيماٗ ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمُۥٓ إِنَّا قَتَلْنَا اَ۬لْمَسِيحَ عِيسَي اَ۪بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
اَ۬للَّهِ ۝ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ اَ۬لذِينَ
اَ۪خْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِے شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَ۪تِّبَاعَ اَ۬لظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناَۢ ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اُ۬للَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اَ۬للَّهُ عَزِيزاً
حَكِيماٗ ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ اَهْلِ اِ۬لْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُومِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ
اَ۬لْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداٗ ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ اَ۬لذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ اُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اِ۬للَّهِ كَثِيراٗ ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ اُ۬لرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمُۥٓ أَمْوَٰلَ اَ۬لنَّاسِ بِالْبَٰطِلِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً اَلِيماٗ ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ اِ۬لرَّٰسِخُونَ فِے اِ۬لْعِلْمِ

مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾
إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ
زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا
لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾
رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى
اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

الربع الأول من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نشرع في تفسير الحزب الحادي عشر من المصحف الكريم، ويبتدىء الربع الأول منه بقوله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ وينتهي نفس الربع بقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾.

يتناول كتاب الله في هذا الربع بادىء ذي بدء موضوعاً أخلاقياً واجتماعياً خطيراً، ألَا وهو الجهر بقالة السوء بين عامة الناس، ونشر المرذول من الأقاويل بينهم، وترويج البذيء من الاشاعات المغرضة في أوساطهم، فكما يبغض الإسلام أولئك الأبالسة المفسدين الذين يتاجرون بالأعراض والعقول، ويشيعون الفاحشة بين أفراد المجتمع، والذين يضربون بسلوكهم أسوأ الأمثال لمن عداهم، فيصبحون قدوة في الفساد، كذلك يبغض الإسلام من يتعمدون الجهر بالسوء، ويقومون بترويج الاشاعات الكاذبة والتلفيقات المضللة، ويتحدثون عن الناس بما يلوث أعراضهم، ويضيع الثقة منهم وفيهم، إذ بذلك ينتشر سوء الظن بين الناس

جميعاً، وتضعف ثقة بعضهم ببعض، أو تزول بالمرة، ويصبح المجتمع كله ـ بحكم العدوى والتقليد والبلبلة ـ مجتمع سوء لا خير فيه، ولا ثقة بين أفراده، بل ما منهم من أحد إلاّ وهو يتربص بأخيه الدوائر، لينقضّ عليه انقضاض الأسد على فريسته، دون شفقة ولا رحمة، ومن غير تقزز ولا مضض، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾.

غير أن الإسلام الذي يعطي للمظلوم الحق في دفع الظلم عنه، ويأذن له بالعمل على رفعه، لا يقف حجر عثرة في سبيل تشهير المظلوم بالظالم، لإقامة الحجة عليه، وتحذير الناس منه، حتى لا يكونوا من ضحاياه، وذلك ما ينبغي أن نفهم من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ أي أن المظلوم لا يحرمه الإسلام من التمتع بحق التنفيس عن كربه، وبالتحدث عن مظلمته، حديثاً قد يسيء إلى الظالم في سمعته ومكانته، ما دام ذلك في حدود الواقع، ودون مبالغة فيه ولا زيادة عليه.

وقوله تعالى في التعقيب على هذا السياق ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يخفى عليه من أقوال القائلين شيء، بل يسمع أقوالهم كيفما كانت، لا فرق بين من قال سُوءاً أو قال خيراً، كما أنه سبحانه مطلع على نياتهم ومقاصدهم، يعلم منهم المظلوم من الظالم، والصادق من الكاذب، والمفسد من المصلح.

ثم أخذ كتاب الله ينبّه المؤمنين إلى ما ينبغي أن يشغلوا به ألسنتهم من قول الخير، بدلاً من قول السوء، ويحضهم على إبراز

خصال الخير وإشهار فضائله، والتنويه بمظاهره، وعلى ضرب المثل للناس بالعفو عن السوء كلما بدرت بادرتـه من مسيء، ومضى كتاب الله في توكيد هذا المعنى وإغراء المؤمنين به، لافتاً نظرهم إلى أن من صفات الكمال التي اتصف بها الحق سبحانه وتعالى صفة «العفـو» مع كامل القدرة، وإذن فمن أدب المؤمن، بل من الواجب عليه أن يتحلى في هذا المجال بخلق ربه، فيعفو عمن أساء إليه، حتى ولو كان قادراً عليه، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾.

ومما تجب ملاحظته في هذه الآية انها ابتدأت في الذكر بابداء الخير وإبرازه، فقـالت ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْـراً ﴾ لأن في إبداء الخير وإظهاره وإشهاره بين الناس تشجيعاً عليه، ودفعاً إليه، وضـرباً للمثل الصالح والقدوة الحسنة.

ولا يخفى على بصير أن تقليد الناس ومحاكاة بعضهم لبعض، وتشبُّه فريق منهم بفـريق، ظاهـرة اجتماعيـة ونفسية لا تتخلف بالنسبة للخير والشر، وللصلاح والفساد، فإشاعة الفاحشة وقالة السوء تدفع بالمجتمع إلى أن يصير مجتمعاً فاحشاً ومجتمع سوء، وإشاعة الخير قولاً وفعلاً تدفع بالمجتمع إلى أن يصير مجتمعـاً خَيِّراً، ومن هنا نادى الإسلام في غير ما آية وغير ما حديث بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك حتى تضيق دائرة الشر، وتحاصر بؤرة الفساد، فلا يتسرب إلى البلاد والعباد.

وعلى ضوء هذا التفسير يتضح المقصود من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَـٰحِشَةُ فِي الذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾.

وفي هذا الربع يعود كتاب الله إلى الحديث بمنتهى القوة وبالحجج البالغة عن وحدانية الله، ووحدة الوحي الإلهي، ووحدة الرسالة السماوية، ووحدة الرسل والأنبياء جميعاً، وكما أن الكون بسائر أصنافه وأشكاله وألوانه، وعلى اختلاف أنواعه،تتجلى فيه وحدة المكون وحكمته، من خلال نواميسه القائمة وسننه الثابتة، فعالم الإنسان الذي هو جزء لا يتجزأ من الكون لا يتخلف عن هذه الحقيقة الكبرى، وما الوحي وما الرسالة وما الرسل إلاَّ فرع من شجرة الوحدة الكبرى، وحدة الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، الخلق لجميع العوالم، والأمر لعالم المكلفين من بني آدم وغيرهم من بقية العوالم ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾.

وقد حمل كتاب الله بمنتهى الشدة على من يدَّعون الإيمان ببعض الرسل وبعض الكتب، وهم يكفرون ببقية الرسل والكتب، واصفاً لهم بصفة الكفر المطلق، وبأنهم في الواقع يكفرون بجميع الرسالات والرسل ولا يؤمنون منها بشيء، إذ إن ظاهرة النبوة والرسالة، وظاهرة الوحي إلى الأنبياء والرسل، هي في الواقع ظاهرة واحدة متماثلة، ومتسلسلة في موكب الأنبياء والرسل، من فاتحهم إلى خاتمهم.

وقصر الإيمان على البعض منهم دون الآخر لا يقضي به منطق، ولا يبرره أي برهان، وإنما هو أثر من آثار التعصب البغيض، والتقليد الأعمى، والهوى المتبع، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ

الذين يكفرون باللّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُريدُونَ أَنْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُومِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا، اوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَـٰفِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً، وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰئِكَ سَوْفَ نُوتِيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالَاسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾.

والإسلام عندما يقرر وحدة الوحي، ووحدة الرسالة، ووحدة الرسل، إنما يؤكد بذلك وحدة الإنسان نفسه، ووحدة التوجيه الإلهي للناس جميعاً، لا فرق بين مختلف الأجناس والألوان والفئات، فالإنسانية في حقيقتها واحدة، ودين الله كما أوحاه إلى رسله وأنزله في كتبه واحد في مصدره، واحد في جوهره، واحد في أثره، والأثر الذي يهدف إليه هو هداية الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، وامداد الإنسان عن طريق التوجيه الإلهي، حتى لا يبقى للإنسان على الله حجة، إذ كما أنعم عليه بنعمة الخلق والإيجاد، أنعم عليه بنعمة التوجيه والامداد، وذلك قوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللّهُ عزِيزاً حَكِيماً﴾. وفي آية أخرى من كتاب الله بسورة طه ما يزيد هذا المعنى وضوحاً وبياناً، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ، أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، وَلَوَ انَّـآ

أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ
ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ، قُلْ كُلٌّ مُّتَـرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُـواْ،
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ
إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١
لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ
إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ
أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ
وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي
رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥
يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ
لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا
تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ

ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

٥ سُورَةُ ٱلْمَائِدَةِ مَدَنِيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ١٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ وهي تقع في الثُّمُن الأخير من سورة النساء.

وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ، وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وهي تقع في الثُّمُن الأول من سورة المائدة.

وبذلك نجمع في هذه الحصة المباركة بين اختتام سورة وافتتاح أخرى مستعينين بالله، معتمدين عليه.

يبتدىء هذا الربع بالحديث عن الوحي الإلهي الذي أكرم الله به خاتم النبيئين، وشهادة الله وملائكته بصدقه ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾.

ويتجه الحديث إثر ذلك إلى وصف الكافرين ووصف إعراضهم وظلمهم وضلالهم، وما ينتظرهم عند الله من الخلود في عذاب الجحيم ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾.

ثم يخاطب كتاب الله كافة الناس دون استثناء، فيدعوهم إلى الإيمان بالحق الذي جاءهم من ربهم، مبيناً لهم أن خيرهم فيه لا في غيره ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾.

ومن هنا تنتقل الآيات الكريمة إلى التنديد بغلو أهل الكتاب، وما أضافوه إلى دين الله من تلقاء أنفسهم من العقائد الباطلة، وما خلعوه على أنبيائهم من صفات الألوهية ودعاوى الربوبية، التي هم بريئون منها كل البراءة ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ - ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ، انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، سبحانه أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾.

ويعود كتاب الله إلى الحديث عن عذاب ﴿ الَّذِينَ اسْتَنْكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾، وعن ثواب ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾.

ثم يتجه الخطاب الإلهي إلى الناس كافة، يدعوهم جميعاً إلى

الربع الثاني من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

عبـاد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْـكَ، أَنزَلَـهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَـٰئِكَـةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَىٰ بِـاللَّهِ شَهِيداً ﴾ وهى تقع في الثُّمُن الأخير من سورة النساء.

وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوآ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ، وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وهي تقع في الثُّمُن الأول من سورة المائدة.

وبذلك نجمع في هذه الحصـة المباركـة بين اختتام سورة وافتتاح أخرى مستعينين بالله، معتمدين عليه.

يبتدىء هذا الربع بالحديث عن الوحي الإلٰهي الذي أكرم الله به خاتم النبيئين، وشهادة الله وملائكته بصدقه ﴿ وَكَفَىٰ بِـاللَّهِ شَهِيداً ﴾.

ويتجـه الحديث إثـر ذلـك إلى وصف الكـافـرين ووصف إعراضهم وظلمهم وضلالهم، وما ينتظرهم عند الله من الخلود في عذاب الجحيم ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾.

ثم يخاطب كتاب الله كافة الناس دون استثناء، فيدعوهم إلى الإيمان بالحق الذي جاءهم من ربهم، مبيناً لهم أن خيرهم فيه لا في غيره ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾.

ومن هنا تنتقل الآيات الكريمة إلى التنديد بغلو أهل الكتاب، وما أضافوه إلى دين الله من تلقاء أنفسهم من العقائد الباطلة، وما خلعوه على أنبيائهم من صفات الألوهية ودعاوى الربوبية، التي هم بريئون منها كل البراءة ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ ـ ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ، انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، سبحانه أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾.

ويعود كتاب الله إلى الحديث عن عذاب ﴿ الَّذِينَ اسْتَنْكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً،وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾، وعن ثواب ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾.

ثم يتجه الخطاب الإلهي إلى الناس كافة، يدعوهم جميعاً إلى

الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ وهي تقع في الثُّمُن الأخير من سورة النساء.

وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوٓاْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ، وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وهي تقع في الثُّمُن الأول من سورة المائدة.

وبذلك نجمع في هذه الحصة المباركة بين اختتام سورة وافتتاح أخرى مستعينين بالله، معتمدين عليه.

يبتدىء هذا الربع بالحديث عن الوحي الإلهي الذي أكرم الله به خاتم النبيئين، وشهادة الله وملائكته بصدقه ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾.

ويتجه الحديث إثر ذلك إلى وصف الكافرين ووصف إعراضهم وظلمهم وضلالهم، وما ينتظرهم عند الله من الخلود في عذاب الجحيم ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾.

ثم يخاطب كتاب الله كافة الناس دون استثناء، فيدعوهم إلى الإيمان بالحق الذي جاءهم من ربهم، مبيناً لهم أن خيرهم فيه لا في غيره ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾.

ومن هنا تنتقل الآيات الكريمة إلى التنديد بغلو أهل الكتاب، وما أضافوه إلى دين الله من تلقاء أنفسهم من العقائد الباطلة، وما خلعوه على أنبيائهم من صفات الألوهية ودعاوى الربوبية، التي هم بريئون منها كل البراءة ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ - ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ، انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، سبحانه أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾.

ويعود كتاب الله إلى الحديث عن عذاب ﴿ الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾، وعن ثواب ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾.

ثم يتجه الخطاب الإلهي إلى الناس كافة، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بكتاب الله، والاعتصام بحبله، والالتفاف من حوله، مبيناً لهم أن القرآن الكريم هو آخر برهان من ربهم أنزله إليهم، حتى لا يبقى بعده للناس، أقل عذر أو أدنى التباس ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾.

والآن ونحن على أبواب الانتهاء من سورة النساء نرى من المناسب أن نلفت النظر إلى ما نقله المفسرون عن عبد الله بن

مسعود وعن عبد الله بن عباس من تنويه خاص ببعض الآيات الواردة في هذه السورة، وهي آيات قال عنها الأول «ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها» وقال عنها الثاني: «هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت».

الآية الأولى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾.

الآية الثانية: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾.

الآية الثالثة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ ﴾.

الآية الرابعة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾.

الآية الخامسة: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوٓءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

الآية السادسة: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

الآية السابعة: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً ﴾.

الآية الثامنة: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ، وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾.

والآن ونحن نشرع في سورة المائدة نرى من الواجب أن نفتتح القول فيها بكلمة خاصة عن سبب تسميتها «بسورة المائدة»،

وبكلمة عامة عن موضوعات هذه السورة الكريمة.

أما تسميتها بسورة المائدة فلعلها والله أعلم مبنية على ما نزل في هذه السورة من الآيات الكريمة المتعلقة بقصة المائدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَآءِ، قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ. قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّـٰهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ، وَارْزُقْنَا، وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّآ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وأما موضوعاتها فهذه السورة تشتمل على موضوعات تشريعية وأخلاقية واعتقادية متنوعة، وفيها بالخصوص أحكام تمس العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، وأحكام تمس العلاقات الاجتماعية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض، مما هو قاصر على الأسرة أو ممتد إلى المجتمع، وقد نقل القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه (أحكام القرآن) عن أبي ميسرة أنه قال: «في المائدة ثمان عشرة فريضة» ثم عقب على كلامه قائلًا: «فأما قول أبي ميسرة إن فيها ثمان عشرة فريضة، فربما كان فيها ألف فريضة، وقد ذكرناها نحن في هذا المختصر للأحكام».

وأول آية افتتحت بها هذه السورة مَبْدُوءَة بنداء هو أحب نداء

يوجهه الحق سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قال عبد الله بن مسعود لرجل سأله أن يعهد إليه ويوصيه وصية خير: «إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه».

وبمجرد ما يصدر النداء الإلٓهي المحبب إلى المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ يصدر الأمر الإلٓهي إليهم بوجوب الوفاء بالعقود على اختلاف أنواعها، ما كان منها باسم الأفراد فيما بينهم، وما كان منها باسم الدولة الإسلامية التي تمثلهم، فيما بينها وبين الدول الأخرى من العقود والمواثيق، ويدخل في الوفاء بالعقد بطريق الأصالة الوفاء بالعقد الذي عقده الله بين المسلمين ورسولهم، على الاعتصام بكتابه الكريم، والتزام العمل بشريعته الفاضلة.

ومن الآيات التي يجب الوقوف عندها في هذا السياق قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾ يشير إلى ما قام به المشركون عدة مرات من الحيلولة بين المسلمين وبين الحج إلى بيت الله الحرام، أفراداً وجماعات، وخاصة ما قاموا به من التعرض لرسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى الحج، فكان من ذلك «صلح الحُدَيْبية» الشهير، فالله تعالى يأمر رسوله والمؤمنين ـ عندما فتح في وجوههم مكة وجزيرة العرب من أدناها إلى أقصاها فتحاً مبيناً، وغلَّبهم على الشرك والوثنية ـ بأن لا ينتقموا من قريش، ولا يقابلوا عدوانها بعدوان مثله، وأن يعفوا ويصفحوا عما سلف، فالإسلام دين العفو لا دين الانتقام.

ثم يأمر كتاب الله المسلمين السابقين من المهاجرين والأنصار،

والمسلمين اللاحقين بهم، الذين استسلموا لحكم الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجاً، أن ينسوا الماضي، ويتأهبوا للمستقبل، ويعبئوا طاقاتهم جميعاً لخدمة الإسلام، والعمل في سبيل الله، على أساس من التعاون الصادق، بتوجيه من الله ورسوله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ، وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾.

وهكذا تم الفتح الإسلامي لمكة وجزيرة العرب، طبقاً لتقاليد الشرف والشهامة والحكمة، وبرزت الدولة الإسلامية وشعارها البر دون الاثم، والتقوى دون العدوان، والتعاون دون التناكر، وذلك هو دستور الإسلام الذي تركه أمانة في أعناق أولي الأمر المسلمين، يلتزمونه ويهتدون بهديه، كلما تم لهم الغلب، أو آتاهم الله فتحاً من عنده، فيكون شعارهم العفو دون الانتقام، وتجنيد الجميع في خدمة الصالح العام، عملاً بدستور الفتح في الإسلام.

الربع الثالث من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ
مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ
لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ
تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا
اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ
لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ

حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ
جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ
مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ
مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي
وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ

قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

الربع الثالث من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ الآية.

وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

يستوعب هذا الربع من كتاب الله موضوع الحلال والحرام من المأكولات في الإسلام، كما يتحدث عن طعام أهل الكتاب بالنسبة للمسلمين، وطعام المسلمين بالنسبة لأهل الكتاب، ويشير إلى موضوع الزواج بالكتابيات، كما يشير إلى موضوع الطهارة المائية والطهارة الترابية عند القيام للصلاة، ويعين الأعضاء المطلوب غسلها أو مسحها، ويجدّد الحديث عن العدل بالنسبة للصديق والعدو، ويذكر امتنان الله على المسلمين بنعمه التي لا تحصى، وعلى رأسها نعمة تمكين الدين وإكماله، ورضى الله عن أهله.

ونظراً لضيق الوقت نعالج في هذا الحديث الموضوع الأول، تاركين بقية الموضوعات لمناسبة قادمة، ففي موضوع الحلال والحرام

من المأكولات حرم كتاب الله على المسلمين أكل الميتة، وهي ما مات من الحيوانات ميتة طبيعية، من غير ذكاة ولا اصطياد، وحرم الدم المسفوح الجاري، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون منها، وحرم أكل الخنزير، ما كان منه انسياً أو وحشياً، وتحريم لحم الخنزير يستلزم تحريم شحمه، إذ ما من لحم إلاّ وفيه شحم، ومن جملة حكم الله في تحريم هذه الأشياء حمايته للمسلمين مما فيها من الميكروبات والجراثيم والمواد الضارة، التي لم يهتدِ الأطباء لمعرفتها إلاّ في عهد متأخر جداً.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «اتفقت الأمة على أن لحم الخنزير حرام بجميع أجزائه، والفائدة في ذكر اللحم أن الخنزير حيوان يذبح للقصد إلى لحمه، وقد شغفت المبتدعة بأن تقول: فما بال شحمه، بأي شيء حرم؟ وهم أعاجم، لا يعلمون أن من قال لحماً فقد قال شحماً، ومن قال شحماً فلم يقل لحماً، إذ كل شحم لحم، وليس كل لحم شحماً من جهة اختصاص اللفظ، وهو لحم من جهة حقيقة اللحمية».

كما حرم الله على المسلمين أكل الذبائح التي ذبحت لغير الله، وذكر عليها عند الذبح اسم غيره من الأصنام والأوثان وما شابهها ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ والتحريم هنا لعلة اعتقادية، لها علاقة وثيقة بالشرك والوثنية.

ومن المحرمات من هذا النوع الذبائح التي كان المشركون يذبحونها وينضحون بدمائها الأحجار المنصوبة من حول الكعبة

﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. ومن بين المحرمات التي لها نفس حكم الميتة ما مات مخنوقاً بحبل أو غيره، إما عمداً وإما صدفة (الْمُنْخَنِقَةُ).

وما مات مضروباً بالحجر أو العصا أو الخشب أو غير ذلك، من كل شيء ثقيل غير محدد (الْمَوْقُوذَةُ).

وما مات ساقطاً من جبل أو سطح أو هوى في بئر، أو تردّى من مكان شاهق (الْمُتَرَدِّيَةُ)، ويلحق بها (المتندّية) وهي الدابة التي انْفَلتت من وثاقها وَشَرَدَتْ، فوقعت مطاردتها لإرجاعها، ورميت بسيف أو رمح فماتت.

وما مات منطوحاً بقرون بهيمة أخرى (النَّطِيحَةُ).

وما وقع فريسة للوحوش المفترسة ﴿ مَآ أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ وكان أهل الجاهلية إذا أكل السبع شاة أكلوا بقيتها.

فهذه كلها محرمات ملحقة بالميتة، اللهم إلاّ إذا وقع تداركها بالذبح وهي تحرك يداً أو رجلاً ولا تزال فيها الروح ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «اختلف قول مالك في هذه الأشياء، فروي عنه أنه لا يوكل إلا ما كان بذكاة صحيحة. والذي في «الموطأ» عنه أنه إن كان ذَبَحَها ونَفَسُها يجرِي وهي تَطْرِفُ فليأكلها. ثم عقب ابن العربي على ذلك قائلاً: «وهذا هو الصحيح من قوله الذي كتبه بيده، وقرأه على الناس من كل بلد، عُمُرَهُ، فهو أولى من الروايات الغابرة».

ومما ورد تحريمه في هذا السياق اللحوم التي يتم الوصول إليها وتقع قسمتها بين المقامرين عن طريق الاستقسام بالأزلام، وهي القِداح والقراطيس التي كان المشركون يستشيرونها بحضرة أصنامهم في الاقدام على الأمور أو الاحجام عنها، والتي كانوا يقامرون بها أحياناً أخرى في الميسر، فكل من خرج له قِدْح أو قرطاس نال من لحم الجزور بقدر ما خصص لذلك القدح أو القرطاس، فيمتثلون ما يخرج لهم، ويعتقدون أن ذلك هداية من الصنم لمطلبهم ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالْأَزْلَٰمِ ﴾.

وهذه المحرمات جميعاً هي التي استوعبها قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ، وَالدَّمُ، وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ، وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَٱلْمُنْخَنِقَةُ، وَٱلْمَوْقُوذَةُ، وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ، وَالنَّطِيحَةُ، وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ ـ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ـ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالْأَزْلَٰمِ ﴾. وسبقت في سورة البقرة آية أخرى لها علاقة بهذا الموضوع، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ، وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ، وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾.

غير أن الحق سبحانه وتعالى ـ تخفيفاً عن عباده، وحفظاً لهم من خطر الهلاك في حالة الاضطرار ـ أباح لهم عند عدم وجود الحلال من المأكولات أن يأكلوا ما يدفعون به ألم الجوع وينقذهم من الخطر، ولو كان محرماً، في انتظار وجود ما هو حلال، بشرط أن لا يتعمدوا أكل ذلك الحرام عن شهوة مقصودة، وإنما يتناولونه عن ضرورة ملحة لا خلاص لهم منها، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنُ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ على

غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾.

وفي نفس هذا المعنى سبقت آية أخرى في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ عند المحققين من المفسرين: غير طالب شراً ولا متجاوز حداً، فيدخل تحت لفظ «الباغي» كل خارج على الامام وقاطع للطريق ومن في معناهما، ويدخل تحت لفظ «العادي» كل من تجاوز حد الضرورة إلى حد الاختيار، ولأجل ذلك لا يستبيح العاصي بسفره رخص السفر، لأن الله تعالى إنما أباح ذلك عوناً، والعاصي لا تحل اعانته، فإن أراد الانتفاع بالرخصة فليتب أولاً، ثم ليترخص ثانياً.

ثم مضت الآيات الكريمة تشرح تساؤل المسلمين من جديد عن هذا الموضوع، وكأنهم أخذوا يتحرجون من أكل بعض الأشياء الأخرى التي اعتادوا أكلها قبل الإسلام، فهم يستفسرون الرسول الأعظم عنها لمعرفة حكم الله فيها، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

ومعنى هذا الجواب أن الله تعالى لم يحرم على المؤمنين شيئاً من «الطيبات»، وإنما حرم عليهم «الخبائث» وحدها: الخبائث بطبعها،

والخبائث بالقصد منها، وأضاف إلى ما هو حلال نوعاً آخر هو أكل ما وقع صيده بواسطة الكلاب المعلمة، «والكلب المعلَّم» هو الذي إذا أشلَيْتَه انشلَى، وإذا زجرته انزجر، وإذن فصيد الكلب المعلم هو الحلال، لا نفس الكلب المعلم، وإنما يكون صيداً حلالاً إذا أخذ الكلب الصيد وأمسكه حتى يجيء إليه صاحبه، وكان ا لصائد قد ذكر اسم الله عند إرساله للصيد، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ويلحق بالكلب المعلَّم الفهود وجوارح الطير، فقد روى أشهب وغيره عن الإمام مالك أن البـاز والصقر والعقاب وما أشبه ذلك من الطير إذا كان معلماً يفقه ما يفقه الكلب فإنه يجوز صيده، وبه قال عامة العلماء.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن طعام أهل الكتاب، مبيناً أن ذبائح الكتابيين من اليهود والنصارى وأطعمتهم حلال للمسلمين، بخلاف المجوس فلا تؤكل ذبائحهم ولا أطعمتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «فإن قيل: فما أكلوه على غير وجه الذكاة كالخنق وحطم الرأس. فالجواب: إن هذه ميتة، وهي حرام بالنص، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن، كالخنزير فإنه حلال لهم، ومن طعامهم، وهو حرام علينا، فهذه أمثلة، والله أعلم».

ثم عاد فقال: «ولقد سئلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها، هل يؤكل معه، أو تؤخذ طعاماً منه؟ فقلت: تؤكل

لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا، ولكن الله تعالى أباح طعامهم مطلقاً».

وذكر ابن كثير في تفسيره أن أصحاب مالك يحرمون على المسلمين أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، إذ ليس من طعامهم، فلا يندرج تحت قوله تعالى: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾.

وفصل ابن رشد في كتابه (بداية المجتهد) القول في هذا الموضوع فقال: «والحق أن ما حرم عليهم أو حرموه على أنفسهم ـ يقصد أهل الكتاب ـ هو في وقت شريعة الإسلام أمر باطل، إذ كانت ناسخة لجميع الشرائع، فيجب أن لا يراعى اعتقادهم في ذلك، ولا يشترط أيضاً أن يكون اعتقادهم في تحليل الذبائح اعتقاد المسلمين، ولا اعتقاد شريعتهم، لأنه لو اشترط ذلك لما جاز أكل ذبائحهم بوجه من الوجوه، لكون اعتقاد شريعتهم في ذلك منسوخاً، واعتقاد شريعتنا لا يصح منهم.

وإنما هذا حكم خصهم الله تعالى به، فذبائحهم ـ والله أعلم ـ جائزة لنا على الاطلاق، وإلا ارتفع حكم آية التحليل جملة، فتأمل هذا فإنه بين، والله أعلم».

أما قوله تعالى ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ فمعناه أن الله تعالى أباح للمسلمين أن يطعموا من ذبائحهم أهل الكتاب، أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. قال ابن كثير: «وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة. فأما الحديث الذي فيه

(لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي) فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم».

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ وارد على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فالواجب على المسلم تفادي ذلك بكل الوسائل، حتى لا يندرج في عِداد الفاسقين.

الربع الأخير من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ

فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ
ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ
يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ
ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا
مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ
قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥
يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ
وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ
وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ لَّقَدۡ
كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ
مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن
يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ
يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧
وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ
فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن

يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾

الربع الأخير من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نعالج في حصة هذا اليوم الربع الأخير من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾.

تَعرِض الآيات الكريمة في هذا الربع الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وما تجرأوا عليه من نقض لذلك الميثاق، وما نالهم من عقاب وعذاب، نتيجة نقضه وخيانته ﴿ وَلَقَدَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ - ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ﴾ كما تَعرض الآيات الكريمة الميثاق الذي أخذه الله على النصارى، ثم نقضهم لميثاقه بعد ذلك، وما نالهم من عقاب وعذاب، نتيجة نقضهم لميثاقه، وخيانتهم لعهده ﴿ وَمِنَ الذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ ﴾.

ويوجه كتاب الله خطابه إلى أهل الكتاب من النصارى واليهود، مبيناً لهم أن الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام جاء ليظهر الكثير مما كانوا يخفونه في كتبهم، وليبرز حقيقة الوحي الإلهي لهم خاصة وللناس عامة، وليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾.

ثم يواجه كتاب الله العقيدة الباطلة التي يعتقدها النصارى في المسيح ابن مريم، مؤكداً بطلانها وفسادها، مسجلاً براءة عيسى ابن مريم وأمه منها، ومذكراً بعبوديتهما لله، وخضوعهما لمشيئته، ونزولهما عند إراداته ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾.

ويتناول كتاب الله بالأخص ما يمني به اليهود والنصارى أنفسهم، وما يعتقدونه، لمن هو منهم وعلى شاكلتهم، من المنزلة الرفيعة عند الله، والمكانة الخاصة لديه دون بقية الناس، ثم يكرُّ الخطاب الإلهي على دعواهم بالنقض والإبطال، مبيناً لهم أنهم ﴿ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ لا أقل ولا أكثر، فهم لا يفضلون غيرهم بأي فضل ذاتي، مهما ادعوا لأنفسهم من الدعاوى، ومهما تمنوا على الله من الأماني ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُاْ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم، بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾

ويتجه الخطاب الإلهي مرة أخرى إلى أهل الكتاب مباشرة، لافتاً نظرهم إلى الرسول الأعظم الذي أرسله الله ليبين لهم الحق، على حين فترة من الرسل، وليقيم عليهم الحجة حتى لا يقولوا: «ما جاءنا من بشير ولا نذير» ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ثم يحكي كتاب الله للناس أجمعين قصة موسى مع قومه، وما وجهه إليهم من ذكرى وموعظة عسى أن يذكروا نعمة الله فيقابلوها بالشكر والطاعة، فقد جعل الله فيهم من الأنبياء والملوك ما لم يجعله في غيرهم من معاصريهم، وآتاهم من نعمه ما لم يؤتِ بقية الناس في عهدهم، لكنهم كفروا بنعمه، ولم يحفلوا بالميثاق الذي واثقهم عليه، ولم يجاهدوا في سبيله.

وذلك هو السر في جبنهم وتراجعهم أمام الأرض المقدسة وهم على أبوابها، وفزعهم من القوم الذين استولوا عليها فزعاً جعلهم يصرخون في وجه نبيهم موسى، ويعلنون براءتهم منه ومن ربه كما حكى الله عنهم في كتابه المبين: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً، وَءَاتَيـٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، يَـٰقَوْمِ ادْخُلُواْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰ أَدْبَـٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ، قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا، فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ ـ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلاَ

إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

وفي (كتاب التفسير) من صحيح البخاري عن طارق عن عبد الله قال: «قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا أنّا ها هنا قاعدون) ولكن امض ونحن معك. فكأنه سرى عن رسول الله ﷺ» مما يدل أقوى دلالة على الأثر الحميد والعميق الذي كانت تتركه في نفوس المسلمين قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذلك هو الغرض الأول من ذكرها في القرآن الكريم.

ومن الفوائد في هذا الربع الاشارة إلى «النقباء» الذين هم بمنزلة النواب والمندوبين عن غيرهم، يتحدثون باسمهم في مختلف المناسبات، وينوبون عنهم في النظر إلى مختلف المشاكل ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُم ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ فقد وجه موسى عليه السلام النقباء الاثني عشر إلى الأرض المقدسة، ليختبروا حال من بها، ويعلموه بما اطلعوا عليه فيها، حتى ينظروا معه في الغزو إليها.

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، وعددهم في تلك الليلة سبعون رجلاً، كان فيهم اثنا عشر نقيباً بعدد نقباء موسى، ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج، وهؤلاء هم الذين تولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة، وقد جعلهم النبي ﷺ نقباء على من كان معهم، وعلى من يأتي بعدهم.

قال (ابن العربي): «قال علماؤنا: التسعة من الخزرج هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمر، وعمرو بن الجموح (وذكر ابن كثير بدلاً من هذا الاسم اسم «رافع بن مالك بن العجلان») والثلاثة من الأوس هم: أسيد بن الحضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر. ومن الناس من يعد فيهم أبا الهيثم بن التيهان، وقد كان رسول الله بنفسه «نقيب الأنصار» بالنسبة لنقبائهم ولمن تحتهم جميعاً.

وكلمة «نقيب» تطلق في اللغة على الأمين والكفيل، وإنما قيل له «نقيب» لأنه يعرف دخيلة أمر القوم ومناقبهم، والمناقب تطلق على الخلقة الجميلة وعلى الأخلاق الحسنة.

وكما عرف الإسلام «النقباء» فقد عرف «العرفاء»، جمع عريف، وهو الذي يعرف ما عند الشخص الذي كلف به، ليعرِّف به من جعله عريفاً، فقد روي أن وفد هَوَازِن لما جاؤوا تائبين إلى النبي ﷺ كلَّم رسول الله الناس، وسألهم أن يتركوا لهم نصيبهم من السبي، فقال الناس: «قد طيبنا ذلك يا رسول الله - أي وافقنا عليه - لكن رسول الله ﷺ قال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم». فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا، وبنى قراره ﷺ على ما بلغه «العرفاء» إليه، نيابة عمن يمثلونهم من الناس.

وهذه السابقة التاريخية تصح أن تكون سنداً لكل نظام تمثيلي يراد إنشاؤه في العالم الإسلامي، تحقيقاً للشورى العامة التي أمر بها الإسلام، وطبقها الرسول عليه السلام.

الربع الأول من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴿٢٣﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ
أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَاسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾
وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ
أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠
بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ

فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي
سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ
لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ
مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾
يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ
عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا
جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾
فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

الربع الأول من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَـٰنِ مِنَ الذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾. وينتهي بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

في هذا الربع من كتاب الله تتحدث الآيات الكريمة بالأخص عن ثلاثة أمور أساسية لا يقوم مجتمع سليم آمن ومطمئن بدون حفظ لها، وذب عنها، وصيانتها من كل اعتداء، أَلَا وهي أمن الأرواح وأمن الأموال وأمن الطرق، كما تتحدث عن موقف بني إسرائيل من الأرض المقدسة وتحريمها عليهم، جزاء خذلانهم لنبيهم موسى عليه السلام، وعن نفيهم في التيه وابتلائهم فيه مدة أربعين سنة ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ، أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾.

وتتناول آيات هذا الربع بالذكر موضوع التقوى والوسيلة

والجهـاد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كما تتناول محاولة الكافرين اليائسة يوم القيامة، للافتداء من عذاب الله والخروج من النار دون جدوى ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

أما موضوع الأمن على الأرواح فقد تناوله القرآن الكريم عندما عرض على المؤمنين قصة ولدي آدم، وبيَّن أنهما ذات يوم قدَّما إلى الله قرباناً بقصد التقرب إليه، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وكانت الصدقة المقبولة هي صدقة ولد آدم التقي، دون أخيه غير المتقي، فثارت فورة الحسد والحقد في نفس الأخ الذي لم يقبل قربانه، وأحس أنه قد افتضح أمام الناس، إذ ظهر من أمره ما بطن، وألقى الشيطان في روعه أنه لا حياة له ما دام أخوه المتقي والمقبول القربان عند الله يمشي على الأرض، ففكر في قتل أخيه والتخلص منه لينفرد وحده بالعيش، وعندما هدد أخاه بالقتل أجابه أخوه بأن قبول القربان يتوقف على تقوى الله، فما عليه إذا أراد قبول قربانه إلا أن يتقي بدوره، لكن أخاه أصر على قتله مهما كلفه الأمر، فما كان من الأخ المتقي إلا أن ذكَّر أخاه الحسود الحقود بأنه يخاف الله، وأنه لن يقاتله ولن يقتله ولو دفاعاً عن نفسه، وأنه يفضل أن يقع اثم قتله على أخيه، بدلاً من أن يقع هو في الاثم مثله، وأخيراً تغلبت نزعة الشر في أخيه على نزعة الخير التي فيه، فقضى نحبه قتيلاً على يد أخيه، وتحمل أخوه وزر قتله ووزر كل قتل وقع بين الناس من بعده، كما قال ﷺ «لا تقتل نفس ظلماً

إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل» وتشير قصة ابني آدم في نفس السياق إلى أن الأخ الحسود القاتل قد ارتبك بعد قتله لأخيه، ولم يعرف ماذا يفعل به، إلى أن رأى غراباً يواري تحت التراب غراباً آخر قد مات، فأقبل على أخيه يواريه في التراب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنَ اَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَٰلَمِينَ، إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ اَصْحَٰبِ النارِ، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ الظَّٰلِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الاَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنَ اَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّٰدِمِينَ ﴾.

فهذه القصة التي حكاها القرآن الكريم تصف لنا نموذجين من البشر تمكنت من أحدهما روح الاعتداء، كما تمكنت روح الطيبوبة من الآخر، وهما وجهاً لوجه، دون رادع يردع الأول عن الثاني:

النموذج الأول: نموذج الإنسان النزاع إلى الشر، الميّال إلى العدوان، المصر على الأذى، المتعدي للحدود.

والنموذج الثاني: نموذج الإنسان النزّاع إلى الخير، الميّال إلى الإنصاف، الحريص على الإحسان، المتمسك بالتقوى.

وتبين لنا نفس القصة أنه عندما واجه كل واحد منهما الآخر

بمفردهما ولم يتدخل بينهما عنصر ثالث، ليردع الإنسان الشرير، ويحول بينه وبين الاعتداء على الإنسان الخيِّر، كان عنصر الخير هو الضحية والفريسة لعنصر الشر، ولم تنفع تقوى المتقي أمام عدوان المعتدي.

ومن هنا اقتضت حكمة الله تشريع الحدود الرادعة عن ارتكاب الجرائم، وإقامة السلطة التي تقوم بتنفيذها، وتتولى مطاردة المجرمين، وحماية الأرواح والأموال والطرق، من اعتداء المعتدين، حتى لا يعكروا صفو الحياة على بقية الناس الآمنين.

وهذا هو السر في قوله تعالى عقب الانتهاء من قصة ابني آدم مباشرة: ﴿ مِنَ اَجْلِ ذَٰلِكَ، كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَا بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِي الْاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنَ اَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾.

وذِكرُ بني إسرائيل في هذه الآية بالخصوص إنما هو لمناسبة السياق الذي وردت فيه، فقد كان الحديث قبل قصة ابني آدم يدور حول قصة موسى وقومه بخصوص الأرض المقدسة والتيه الطويل الذي عوقبوا به، وإلا فكما كتب الله القصاص على بني إسرائيل كتبه على من قبلهم وعلى من بعدهم، وإن كان بنو إسرائيل لم يتراجعوا بذلك كله عن سفك الدماء ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْاَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ إشارة إلى أن الحياة التي وهبها الله للإنسان إلى أجل مسمى في هذه الدنيا هي حق

مقدس منحه الله لعباده، فلا يسوغ لغيره الوقوف في وجه هذا الحق المطلق، وإذن فمن اعتدى على حياة فرد يعتبر معتدياً ـ من جهة المبدأ ـ على حياة كل الأفراد، والذي استباح لنفسه العدوان على حياة فرد بعينه أصبح في حل أمام نفسه من كل القيود التي تحول دون اعتدائه على الباقين، إذ لا فرق بين حياة عمرو وحياة زيد بالنسبة لطبيعة الحياة فيهما، ولا بالنسبة لواهب الحياة لهما.

ولهذه الاعتبارات يكون الذي حال دون الاعتداء على حياة فرد من الأفراد، أو اقتص من المعتدي عليها ـ ردعاً له وحماية للباقين ـ كأنما أحيا أولئك الأفراد جميعاً ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾.

وأما موضوع الأمن في الطرق الذي أشار إليه بالاجمال قوله تعالى: ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فقد تناولته بالتفصيل آيتان من هذا الربع، وهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوَاْ أَوْ يُصَلَّبُوَاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَواْ مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِلَّا الذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوَاْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وكما نلاحظ جميعاً فقد اعتبر الحق سبحانه وتعالى قُطَّاع الطرق المسلحين والعاملين على الاخلال بالأمن العام، والساعين في تعويق الناس عن التنقل بأنفسهم وبضائعهم آمنين مطمئنين بين مختلف المدن والقرى والبوادي والحواضر، «محاربين» لله ولرسوله، ومن ثم سميت جريمتهم بجريمة «الحِرَابة» إشعاراً لكل من يهمه الأمر، بأن

صيانة أمن الناس فريضة عامة من فرائض الدين، والاخلال بها عدوان على حق الله المبين، لا يسوغ القيام به لأي أحد من المسلمين، ولذلك وضع الله لهذه الجريمة عقوبات مغلظة، أنزلها وحددها في كتابه من فوق سبع سماوات، تتراوح بين القتل والصلب والنفي وقطع الأطراف من خلاف، وإنما حددها الله تعالى في كتابه الحكيم حتى لا يتهاون في شأنها المتهاونون، ولا يعترض على تنفيذها المتحذلقون، ووَكَل الحقُّ سبحانه وتعالى أمر اختيار العقوبة المناسبة، من بين تلك العقوبات، لظروف الجريمة وملابساتها، إلى اجتهاد امراء المؤمنين وولاة المسلمين.

وأما موضوع الأمن على الأموال فقد تناولته آيتان من هذا الربع أيضاً، وهما قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلاً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ ﴾ إشارة إلى أن السارق هنا ظالم للمجتمع وغير مظلوم منه، فقد اعتدى بالسرقة على مال غيره لمجرد الرغبة في الاجرام والقيام بظلم الغير، حيث لا ضرورة من فقر ولا من جوع تدفعه إلى ذلك، وإنما دفعه إلى السرقة استهانته بحرمة أموال الناس، وحرصه على الاستئثار بها لنفسه دونهم، رغبة في التكاثر والغنى من أيسر طريق، وفي الآية أيضاً إيماء إلى وجوب كفاية حاجة المحتاجين، وتمكينهم من ضروريات الحياة، حتى لا يقعوا في شرك الجريمة، فقد (كاد الفقر أن يكون كفراً) كما جاء في الأثر.

الربع الثاني من الحزب الثاني عشر
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ
فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن
قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ
سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ
وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ
فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ
فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ

فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَالرَّبَّـٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾
وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نتناول في حصة هذا اليوم الربع الثاني من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يُحْزِنكَ الذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

في هذا الربع يتحدث كتاب الله عن الوقع الأليم الذي يحدثه في نفس الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام رجوع فريق من الناس إلى الكفر بعد الإيمان ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يُحْزِنكَ الذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُومِن قُلُوبُهُمْ ﴾ ـ ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، اوْلَٰٓئِكَ الذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن أهل الكتاب وما هم عليه من تصديق للأكاذيب، وتواطؤ مع المتآمرين على الإسلام تحت جُنْح الظلام، وتحريف للكلم عن مواضعه، ومحاولة للدس والاستغلال،

وتهالك على أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الرشوة والربا ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ، وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ - ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

ويلفت كتاب الله نظر الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام إلى ما قد يحاوله اليهود من تحكيمه في بعض شؤونهم الملية، بالرغم عن وجود الأحكام الخاصة بتلك الشؤون منصوصاً عليها في التوراة التي يدّعون التزامهم لها، وإيمانهم بها، منبهاً إياه إلى أن غرضهم من مثل هذه المحاولات هو تفاديهم لأحكام التوراة، التي أخذوا يشعرون أنها - بالنسبة لأحكام الإسلام - أحكام قاسية تقضي بعقوبات مغلظة، تاركاً للنبي ﷺ الخيار حسب الظروف، فإن شاء الحكم بينهم طبقاً لطلبهم تدخل وحكم، وإن فضل الاعراض بالرغم من طلبهم لم يتدخل ولم يحكم، داعياً له إذا رجّح التدخل والحكم، طبقاً لطلبهم، إلى أن يحكم بينهم بالعدل المجرد، دون أي اعتبار للأغراض والأهداف التي قصدوها من وراء التحاكم إلى الرسول، بدلاً من التحاكم مباشرة إلى التوراة.

وبهذه المناسبة نوّه كتاب الله بالتوراة التي أوحى الله بها إلى موسى، ولم يكتم أن في التوراة بالصيغة التي أنزلت عليها هدى ونوراً، وإن كان القرآن الكريم مهيمناً على جميع الكتب المنزلة من قبله، وناسخاً لما انتهى وقت العمل به منها. وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن

يَضُرُّوكَ شَيْئاً، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَيٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، ، إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَيٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّـونَ الَّذِينَ أَسْلَمُـواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّـٰنِيُّونَ، وَالأَحْبَارُ، بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ، وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَـدَآءَ، فَلاَ تَخْشَـوُاْ النَّاسَ وَاخْشَـوْنِ، وَلاَ تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنـاً قَلِيلاً ﴾.

وكلمة (المقسطين) في هذه الآية هي نقيض كلمة (القاسطين) التي وردت في آيـة أخرى، فـالمقسط من عدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ والقاسط من ظلم ﴿ وَأَمَّـا الْقَـٰسِطُونَ فَكَـانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى أن حفظ التوراة كان أمره موكولاً إلى أحبار اليهود وعلمائهم أنفسهم، ولذلك وقع ما وقع فيها من التحريف والتبديـل عندمـا تهاونـوا بحفظها والمحافظة عليهـا، وأخذوا يشتـرون بآيـاتها ثمنـاً قليلاً، بخلاف القرآن العـظيم فقد تعهـد بحفظه رب العـالمين الحفيظ العليم، ولم يكل أمره إلى أحد من خلقه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ وذلك هو السر في بقائه محفوظاً مصوناً من كل تحريف أو تغيير إلى يوم الدين، وهو السر في خلود وصمود لسـان القرآن العـربي المبين، رغـماً عن الحرب الـدائرة، الخفيـة والظاهرة، التي تشهرها عليه القوات المعادية والمكابرة.

ثم فصل كتاب الله ما أجمله في الربـع الماضي من مبـدأ

القصاص الذي سجلته التوراة وأقره الإسلام، فقال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالأَنفَ بِالأَنفِ، وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وكما أمر الله تعالى بالقصاص، وجعله في هذا الباب هو الأساس، بالنسبة لأصحاب الحق فيه، الحريصين على استخلاصه بوجه شرعي، فقد فتح باب العفو وإسقاط القصاص في وجه أولئك الذين يفضلون العفو على المؤاخذة، ويسقطون حقهم في القصاص، إقفالاً لباب الفتنة، ونشراً لروح التسامح بين الناس، وابتغاء المزيد من الطمأنينة والعيش في سلام ووئام، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ واعتبر الإسلام هذا النوع من العفو كفارة لذنوب القتيل.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن عيسى بن مريم عليه السلام وما أمر به من تصديق التوراة، وما نزل عليه من الإنجيل، ولم يكتم كتاب الله أن في الإنجيل حسب الصيغة التي أوحى الله بها إلى عيسى هدى ونورا، وإن كان القرآن الكريم مهيمناً عليه، كما هيمن على التوراة المنزلة من قبله.

ورغماً عن أن الإسلام دعا اليهود والنصارى إلى الدخول فيه، والعمل بشريعته، فإن من اختار منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته، لم يجبره الإسلام على أن يتحاكم إلى الشريعة الإسلامية، بل أذن لليهود في تطبيق أحكام التوراة عليهم كما نزلت دون تحريف، وأذن للنصارى في تطبيق وصايا الإنجيل عليهم كما نزلت دون تحريف. وفتح الباب في وجه التدخل أو عدمه، في حالة ما إذا

توجه إليه اليهود أو النصارى أنفسهم بطلب التدخل.

وعلى ضوء هذا التفسير ينبغي أن نفهم قوله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمَ اَهْلُ الاِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ على غرار الآية السابقة ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرِيَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ أما التدخل في شؤونهم الملية أو عدمه فهو مرتبط بطلبهم الخاص ورغبتهم الخاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوَ اَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

ثم وجه كتاب الله خطابه إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، آمراً له بالحكم بين اليهود بعضهم مع بعض، وبين النصارى بعضهم مع بعض، إذا جاؤوا إليه طالبين تدخله وحكمه، على أن لا يتأثر حكمه عليهم بأي اعتبار خارج عن مقتضى العدل المجرد والحق الصراح ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾.

وعقبَ على ذلك بما معناه أنه بعد إقامة الحجة على صدق الدين الحق الذي هو دين الإسلام، ودعوة اليهود والنصارى إلى الدخول فيه، وامتناع من امتنع منهم، وإصراره على الاحتفاظ بيهوديته أو نصرانيته، لم يبقَ أمام الإسلام بالنسبة للمُصِرِّين على ما هم فيه إلا موقف واحد، هو موقف السماح لهم بالبقاء على دينهم والتحاكم إلى كتابهم، فلليهود توراتهم، وللنصارى انجيلهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً، وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتيكُمْ، فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

أما الذين أسلموا من المشركين والكتابيين وكافة الأمم والملل فكتابهم الوحيد هو مسك الختام للوحي الإلهي وخاتمة كتبه المنزلة، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو في آن واحد مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه، أي أنه مصدق لما في الكتب السابقة من حقائق إيمانية، وتشريعات سماوية، وتوجيهات إلهية، لكنه حاكم عليها كلها، بمعنى أن ما ينسب إليها إن أثبته وصدقه كان حقاً وصدقاً، وإن نفاه وكذبه كان زوراً وبهتاناً، وإن أقر منها تشريعاً كان تشريعاً للمسلمين كما هو تشريع لمن قبلهم، وإن نسخ منها تشريعاً وألغاه اعتبره المسلمون كأن لم يكن.

يضاف إلى ذلك أن كتاب الله يعتبر في الدولة الإسلامية هو الدستور الأساسي العام، الذي يعيش في ظله جميع المتساكنين في دار الإسلام، من كافة الملل والأقوام، و لك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْه ﴾.

وقوله تعالى في سياق هذه الآيات: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴾ تنبيه إلى أن خصوم الشريعة الإلهية في الأرض هم ثلاثة أصناف:

١ ـ كافرون: لا يومنون بـالله ولا برسله ولا بكتبـه، فهم يفضلون شريعة الغاب على شريعة الكتاب.

٢ ـ وظالمون: لا يجدون في شريعة العدل والحق ما يؤيد ظلمهم، ويدعم بغيهم.

٣ ـ وفاسقون: لا تقع أيديهم في شريعة الله على أيّ سند يبيح لهم الفجور والفسوق، والاستهتار والعقوق.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم خصوم شريعة الله، وعليهم ألقى كتاب الله أضواءه الكشافة حتى تسفل كلمتهم في الأرض، ولا تعلو فيها إلا كلمة الله.

الربع الثالث من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ

عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ
ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧
وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ
أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ
وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ
بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ
كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ
الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ
يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ
وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن
تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا
يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في هذه الحصة نتناول الربع الثالث من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَأَنُ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَّفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾، ونهايته قوله تعالى: ﴿ مِّنْهُمُ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾.

يبتدىء هذا الربع بخطاب موجه إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، آمراً له أن يحكم بما أنزل الله، وأن لا يتأثر بأهواء المحكومين والمخالفين، وأن يكون حذراً تِجَاه المحاولات التي يحاولونها لفتنته عن بعض ما أنزل الله إليه.

وإذا كان الخطاب الإلهي يتوجه إلى الرسول بمثل هذه الأوامر والنواهي، وهو المتميز عن غيره بالعصمة والرسالة ـ حرصاً على إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة العدل المطلق بين الناس ـ فمن باب أولى وأحرى أن يوجه هذا الخطاب الإلهي إلى غير المعصومين من ولاة المسلمين الحاكمين بين الناس من بعده، ومن باب أولى وأحرى أن تساق إليهم هذه الأوامر والنواهي، بل إنهم هم

المقصودون بالذات من هذا الخطاب الموجه في الظاهر إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، إذ هم وحدهم ـ دون الرسول ـ المعَرَّضون للتأثر بأهواء المحكومين والمخالفين، على حساب الحق، وهم وحدهم المعَرَّضون للفتنة عن العدل. والفتنة أنواع وأشكال، من بينها فتنة الرشوة، وفتنة البطانة والحاشية، وفتنة العداوة والصداقة، وفتنة الشفاعات والوساطات، وفتنة الانحراف والتحريف، وفتنة الآراء الفاسدة والنظريات الباطلة.

وذلك قوله تعالى في خطابه إلى رسوله وهو خطاب إلى المومنين عن طريقه ﴿ وَأَنُ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمُ أَنْ يَّفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾.

وتنتقل الآيات الكريمة إلى وصف أولئك الذين يولون الادبار ويتراجعون عن الحكم بما أنزل الله، مفضلين التقهقر إلى الوراء، وناظرين إلى شريعة الله، إما شزراً، وإما بالاستخفاف والاستهزاء.

وتبين نفس الآيات أن الوصول إلى هذا الحد الأقصى من الانحراف إنما هو نتيجة حتمية لانحرافات تدريجية سابقة، ونوع من أنواع العقاب الإلٓهي لأولئك المنحرفين الفاسقين، على ذنوبهم التي ارتكبوها وأصروا عليها إصراراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمَ اَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُّصِيبَهم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾.

ويرفع كتاب الله النقاب عن خصوم الشريعة وأعدائها، ويبيِّنُ السر الخفي والدافع الحقيقي لخصومتهم لها في السر والعلن، ذلك

أنهم يفضلون شريعة الغاب على شريعة الكتاب، لأنهم يجدون في كنف الأولى كل ما يحقق أغراضهم المنحرفة من الوسائل والأسباب، وحكم الغاب بالنسبة للإسلام هو حكم الجاهلية الأولى، وحكم الجاهلية هو حكم الهوى لا حكم الحق، وحكم العصبية لا حكم العدل، وحكم الطبقية لا حكم المساواة، وحكم الاستغلال لا حكم الانصاف، وحكم الإباحية لا حكم ضبط النفس، وحكم الفوضى لا حكم النظام، وحكم الفواحش والخبائث لا حكم المكارم والطيِّبات، وبالجملة فحكم الجاهلية هو الحكم الذي يوحي به الشيطان، والنقيض الطبيعي التام من كل الوجوه، ومن جميع زوايا النظر، لحكم الحكيم الرحمٰن.

ومن أراد أن يستحضر مثالاً حياً لثمرة حكم الجاهلية وثمرة حكم الإسلام، والوليد الشرعي لكل منهما، فليتذكر كيف كان المجتمع العربي في العهد الجاهلي، وكيف أصبح في العهد الإسلامي، وكيف كانت رقعة العالم، الذي أصبح فيما بعد عالماً إسلامياً، كيف كانت قبل الإسلام وكيف عادت بعده. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

وبطريق الإيماء تفيد هذه الآية الكريمة معنى دقيقاً وصريحاً لا مناص من لفت النظر إليه، ألَا وهو أن كل حكم لم يكن مطابقاً لما أنزل الله، ولا مستنداً إلى ما أنزله، ولا منسجماً مع روحه، ولا مستنبطاً منه أو راجعاً إليه، أو دائراً في فلكه، بوجه من وجوه الاستنباط، وطريقة من طرق الاجتهاد، فهو مندرج تحت حكم

الجاهلية، وداخل تحته دخولاً أولياً، مهما أُعطي له من الألقاب والأسماء، حيث إن كتاب الله اقتصر عند تعداد أنواع الحكم التي يحكم بها بين الناس على نوعين اثنين لا ثالث لهما: النوع الأول حكم الله، والنوع الثاني حكم الجاهلية، فمن ترك حكم الجاهلية انتقل عنه إلى حكم الله، ومن ترك حكم الله انتقل عنه إلى حكم الجاهلية، وهو في الحقيقة رمز لكل حكم يتنكر للتوجيهات الإلهية والمبادىء الأخلاقية، ويتجاهل وجودها، ويتعمد محاربتها، ويُسقِط من حسابه ومن تقديره كل علاقة تربطه بمن «له الخلق والأمر»، متجاهلاً قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَٰكِمِينَ ﴾.

وفي هذا السياق نفسه يوجه كتاب الله خطابه إلى المومنين، متحدثاً عما يمكن أن يقع لبعضهم من الردة عن دينه ـ وكأن في ذلك إشارة إلى من يعطل الحكم بما أنزل الله، ويستبدل به حكم الجاهلية، ويفضله على حكم الإسلام ـ ثم يعقب على ذلك بأن الله تعالى غني عن هذا النوع من الناس، وقادر على أن يستبدل بهم قوماً آخرين لا يبغضهم الله ولا يبغضونه، ولكن يحبهم الله كما يحبونه، ومن جملة خصالهم أنهم رحماء بالمومنين، يحققون بينهم مقتضيات شرعه الرحيم وعدله السليم، أشدَّاء على الكافرين، لا يقبلون منهم افتياتاً ولا تطاولاً، ولا يفتحون في وجوههم باباً للفتنة عما أنزل الله. ثم إنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فهم لا يتأثرون بأهواء المحكومين والمخالفين ولا بنزغات الجاهلية كيفما كانت، ولا يتنازلون عن شرع الله وعدله قُلامة ظُفر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ

عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَاتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُومِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُومِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴾ يشبه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ، وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ فلفظ (أذلة) هنا بمعنى رحماء هناك، ولفظ (أعزة) هنا بمعنى أشداء هناك، إذ القرآن يفسر بعضه بعضاً.

ثم يزيد كتاب الله هذا الموضوع توضيحاً وتبييناً، فيخاطب الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، لافتاً نظره إلى الدوافع والأسباب التي جعلت كفار أهل الكتاب ومن في حكمهم يتنكرون لحكم الله، ويصرُّون على الكفر بما أنزل الله، فهم يعيشون عيشة كلها فسوق وانحراف، وهم أسرع الناس إلى ارتكاب الفواحش والآثام، وأكثرهم تهالكاً على الظلم والطغيان، وأشدهم انهماكاً في أكل أموال الناس بالباطل.

ولو كان هذا الأمر مقتصراً على عامتهم، والخاصة منهم تنكره وتقاومه لهان الخطب، ولكن خاصتهم متواطئة عليه مع العامة بسكوتها وتهاونها، إذ لا تنكره ولا تقف في وجهه بحال.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ

الرَّبَّـٰنِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾.

وختمت آيات هذا الربع بدعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالله وتقواه، ودعوتهم إلى تنفيذ التوجيهات الإلٰهية التي تضمنها الوحي المنزل في التوراة والإنجيل والقرآن، كما تضمنت نفس الآيات الكريمة وعد الله لهم - إن دخلوا في حظيرة الإسلام وحكمه - بالمزيد من نعمه الظاهرة والباطنة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَواْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُـمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ ، وَلَوَ اَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرِيٰةَ وَالإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم، مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾. وهذا الوعد الإلٰهي وإن كان موجهاً لكفار أهل الكتاب، فهو موجه لعصاة المسلمين من باب أولى وأحرى، فما عليهم إلاَّ أن يعودوا إلى الله ويرضوا بحكمه، ويسيروا في حياتهم الخاصة والعامة على ضوء الهَدْى المحمدي، ليكونوا من المهتدين، ومع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

الربع الأخير من الحزب الثاني عشر
فــي المصحف الــكــريــم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ
تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ
وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ
إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ
وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ
كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ
وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا
يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا
رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ
صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ
نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾
قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ
غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟
مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ
مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ
لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى
ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَـتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيٓءِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ، وَلَـٰكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾.

يبتدىء الخطاب الإلهي في هذا الربع بحض الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام على القيام بواجب التبليغ الذي كلفه الله به دون توانٍ ولا تردد، وينبهه إلى أن أي تقصير في هذا الواجب يعتبر عملاً مضاداً للتبليغ، كما يؤكد للرسول عليه السلام أن الله الذي أرسله لتبليغ الرسالة قد تعهد بحفظه، وأنه مهما استعمل من الوسائل لتحقيق هذه الغاية وضاعف من الجهود في هذا السبيل، فلن ينال حياته أي مكروه، وأن أية محاولة يحاولها الكافرون ضده ستبوء بالفشل، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَـتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَـٰفِرِينَ ﴾. وينبغي أن يفهم هذا الأمر الإلهي للرسول بالتبليغ والحرص عليه، على أنه أمر موجه إلى ورثة الرسول من بعده، وهم علماء الشريعة وحملة الدين، الذين هم مطالبون بتبليغ الدعوة الإسلامية، وكشف النقاب عنها على وجهها الحق، في كل العصور والأجيال، مهما كلفهم ذلك من الجهود والتضحيات.

ثم يوجه كتاب الله خطابه إلى أهل الكتاب مرة أخرى، فيدينهم جميعاً بما هم عليه من مخالفة صريحة للتوراة والإنجيل، مبيِّناً أن ما يدَّعونه من التمسك بهما، وما ينسبونه إليهما مما ليس منهما، هو منتهى الزور والتضليل، وموضحاً أن «أهل الكتاب» بسبب ابتداعهم في دينهم، وتحريفهم لكتبهم، وابتعادهم عن روح الدين ومنبع الإيمان، أصبحوا وهم «ليسوا على شيء» لا من الدين، ولا من الإيمان، ولا من الكتاب، وأن الوسيلة الوحيدة لإنقاذهم مما هم فيه هي قبول رسالة الإسلام التي قامت على أساسها وهديها نفس التوراة ونفس الإنجيل، والتي جاء القرآن الكريم بتتميمها وختامها لخير الناس أجمعين، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ التَّوْرَيٰةَ والإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

وعقب كتاب الله على هذه الدعوة بما يفيد أن الكثرة من أهل الكتاب ستصر على ضلالها، وسوف لا تستجيب لدعوة الإخاء الديني والإنساني التي ينادي بها الإسلام، بل ما يؤكد أن هذه الدعوة ستزيدها طغياناً على طغيان، وكفراً على كفر، اعتزازاً منها

بالإثم والأنانية، وإمعاناً في العناد والاستكبار، وتمسكاً بحفظ مصالحها وامتيازاتها، وحرصاً على إبقاء الجماهير المضلَّلة في شبكتها، وتحت تأثيرها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰناً وَكُفْراً، فَلَا تَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَـٰفِرِينَ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التنديد بموقف بني إسرائيل من ميثاق الله الذي واثقهم به، والتنديد بموقفهم من رسل الله الذين تعاقبوا عليهم الواحد بعد الآخر، فلم يكن آخرهم أحسن حظاً من أوَّلهم، وأشارت نفس الآيات إلى ما تقلبت فيه كثرة بني إسرائيل من عصيان وتوبة، ثم عصيان مستمر جعلهم محل سخط الله وغضبه، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدَ اَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً، كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ، وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ، كَثِيرٌ مِّنْهُمْ، وَاللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

ومن الحديث عن بني إسرائيل وموقفهم من أنبيائهم انتقلت الآيات مرة أخرى إلى الحديث عن موقف المدَّعين لاتِّباع المسيح والإيمان به، مبيِّنة كفرهم الصريح بسبب تأليههم لعيسى بن مريم، على خلاف تعاليمه ووصاياه التي نادى بها من المهد إلى اللحد، فنفس المسيح عليه السلام منذ كان في المهد صبياً قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيـٰنِيَ الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ ولم يقل إني إلـٰه، ونفس المسيح ظل خلال قيامه برسالته يدعو أتباعه إلى عبادة الله الواحد الأحد،

وعرَّفهم بأن الإلّـه المعبود هو رب العالمين وحده لا شريك له، وبأن الشرك بالله ظلم عظيم لا جزاء له إلا النار، وليس لأهله شفعاء ولا أنصار، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ اَعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوِيهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنَ اَنصارٍ، لَّقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ، وَمَا مِنِ اِلَـٰهٍ اِلَّآ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ، اَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم يتولى كتاب الله وصف الحقيقة الصادقة عن المسيح وأمه مريم دون زيادة ولا نقص، ولا غلو ولا تحريف، ولا تأليه ولا تثليث، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ، كَانَا يَاكُلَـٰنِ الطَّعَامَ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْاَيَـٰتِ ثُمَّ انظُرَ اَنَّىٰ يُوفَكُونَ، قُلَ اَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ كَانَا يَاكُلَـٰنِ الطَّعَامَ ﴾ فيه توضيح لبشرية عيسى وأمه وتوابع هذه البشرية، بتعبير قرآني مهذب، فمن كان يتناول الطعام لدفع ألم الجوع، سوف يضطر بحكم تناوله للطعام إلى العمل على التخلص من فضلاته، وإذن فهو يحتاج إلى تناول الطعام أولاً والتخلص من فضلاته ثانياً، وَمَنْ كان حاله هو هذا

الحال، لا يمكن أن يكون إلـٰهاً ولو في الخيال.

وواصلت الآيات الكريمة حديثها عن كفار بني إسرائيل، مبيِّنة تواطؤهم على المناكر، وحرصهم على موالاة الكافرين، وما أدى إليه هذا السلوك المنحرف من عذاب في الدنيا والآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ، تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُون ﴾.

وإذا استنكر كتاب الله موقف التواطؤ على المنكر من بني إسرائيل، فإنه يستنكره من المسلمين من باب أولى وأحرى.

على أن كتاب الله في هذا الربع قد فتح في وجه المخالفين للإسلام أياً كان دينهم، وكيفما كان شعارهم ـ بالرغم عن مخالفاتهم وانحرافاتهم ـ باب التوبة والمغفرة والدخول في حظيرة الإسلام على أساس المساواة التامة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ووعدهم وعد الحق والصدق بالأمن في الدنيا والآخرة، رفقاً بهم، وحرصاً على هدايتهم، وإقامة للحجة عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّـٰبِئُونَ وَالنَّصَـٰرَىٰ، مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثالث عشر
في المصحف الكريم

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ
قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ
بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا
مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ

أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ
طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ
ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا
تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ
أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ
مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ
عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا
طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ

ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ
ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا
فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ
ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ
أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ
عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

الربع الأول من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عبـاد الله

نتناول في حصة هذا اليوم الربع الأول من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً، وَاتَّقُواْ اللَّهَ الذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع يتحدث كتاب الله، وهو يخاطب الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، عن مواقف أهل الكتاب من الإسلام، وما يبرز في صفوفهم من عداوة أو مودة له ولأهله، ولا يُغفِل كتابُ الله التنبيه إلى أن الهوة التي تفصل بين الإسلام والوثنية من جهة، وبينه وبين اليهودية من جهة أخرى، هوة سحيقة جداً، فطبيعة الوثنية في حد ذاتها ومن أصلها لا تنسجم مع الوحي الإلهي في شيء، ولا سيما الوحي الإلهي الوثيق الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، كوحي القرآن الكريم، وأنى للظلمة أن تنسجم مع النور، وللحق أن يعايش الباطل.

وعناد اليهودية وتجاهلها لبقية الأنبياء والرسل ولبقية الكتب

المنزلة، وتظاهرها بالاستعلاء والاستكبار على من لا يدين بدينها، كل ذلك جعلها سبّاقة إلى اشهار الحرب على الإنجيل ورسوله، كما جعلها سبّاقة إلى حرب القرآن ورسوله، وقد اختارت في كثير من الأوقات حرب الدسيسة، والتآمر، وبلبلة الأفكار، وإثارة المشاكل الجانبية، ثم محاولة التسرب إلى قلعة القرآن عن طريق التأويلات المبتذلة، والأساطير المنتحلة، فهي من الوجهة السياسية الحليفة الأولى للوثنية العربية طيلة عهد الرسالة المحمدية، وهي من الوجهة الاعتقادية والتشريعية تتزعم جميع الحركات والتيارات المناوئة للإسلام، والعاملة على تشويهه وتحريفه، وإبرازه كعنصر ثانوي لا أصالة فيه ولا ابتكار، ولا تفتر دوماً عن ملاحقة الإسلام ومطاردته في مختلف المجالات، ولا سيما مجال العقائد والآراء والأفكار، وإلى هذه المعاني يومىء قوله تعالى في إيجاز وإعجاز ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلذِينَ آمنوا الْيَهُودَ وَالذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾.

ويلاحظ في هذه الآية تقديم (اليهود) على (الذين أشركوا) والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن خطر هذا العنصر أقوى وأشد من خطر جميع العناصر الوثنية، لا فرق بين الوثنية العربية وغيرها، فالوثنية ليس لها أي أساس مقبول من الوحي والرسالة، ولا من المنطق والحكمة، وهي عاجزة عن أن تقف على قدمها أمام الإسلام الذي يقوم في صميمه على الكتاب والحكمة معاً، بينما اليهودية تعتبر نفسها عقيدة توحيد، وبيدها شريعة التوراة التي لا تقبل فيها نسخاً، وإن كانت من الوجهة العملية قد حرفتها بنفسها ومسختها مسخاً، وهكذا تجد المجال مفتوحاً عند غير المسلمين، لتضليلهم

عن حقيقة الإسلام المثلى وجوهره الرفيع.

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى وصف طائفة أخرى من أهل الكتاب، هي طائفة من القسيسين والرهبان كانت تدين بالنصرانية، لكنها على أثارة من العلم بقرب ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، طبقاً لبشارة المسيح عليه السلام الثابتة من قبل ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فما كاد يظهر الإسلام، ويشرع الرسول عليه الصلاة والسلام في تبليغ الرسالة التي تلقاها من عند الله، حتى آمنوا به وبرسالته، بل أعرضوا عن لغو اليهود من جهة، وتركوا نصرانيتهم من جهة أخرى، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وتلقوا ما أنزل إلى الرسول بتلهُّف وشوق وتأثر بالغ، ففاضت أعينهم بالدموع، وبرزت على جوارحهم آثار الخشوع، وأخذوا يسألون الحق سبحانه وتعالى أن يكتبهم في زمرة الأمة المحمدية الشاهدة على الناس، وأن يدخلهم الجنة في رفقة القوم الصالحين، ونظراً لصدق يقينهم، واخلاص إيمانهم، وحسن توفيقهم، استجاب الله دعاءهم، وأحسن جزاءهم، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّـٰهِدِينَ، وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّـٰلِحِينَ، فَأَثَـٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ

خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وفي هذه الطائفة أو في مثلها نـزل قولـه تعالى في سـورة القصص ﴿ الذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُومِنُونَ، وَإِذَا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قَالُـوٓاْ ءَامَنَّا بِـهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِنَـآ إِنَّا كُنَّـا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، أُوْلَـٰٓئِكَ يُوتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ، وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمُ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ ﴾.

وإذن فالأمر في قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً ﴾ الآية يتعلق بمن كانوا على النصرانية ثم تركوها نهائياً وانتقلوا إلى الإسلام، لا بمن أصرُّوا على نصرانيتهم واستمروا عليها ووقفوا في وجه الإسلام يحاربون دعوته، ويطاردون شريعته، ويستعبدون أمته، منذ نشأته الأولى إلى هذه الأيام، فهؤلاء هم الذين تـولى الحق سبحانه وتعالى ذكرهم وذكر عقابهم في قوله عز وجل: ﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِاَيَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ ﴾.

ومضى كتاب الله يدعو المومنين إلى تجنب مظاهر الرهبانية التي ابتدعها النصارى في دينهم، مطالبـاً للمومنـين بتناول جميـع الطيبات التي أحلها الله لهم، لكن في غير تجاوز للحدود، ودون إسراف بما يزيد عن الهدف المقصود ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوٓاْ ﴾.

ولفتت الآيات الكريمة أنظار المومنين إلى ما يجب أن يحيطوا به اسم «الله» من تقديس واحترام، وانهم لا ينبغي لهم أن يقسموا

باسمه العظيم إلا عند الضرورة القصوى ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ منبهة إلى أنه إذا كان الله تعالى لا يؤاخذهم باللغو في أيمانهم، لأنها صدرت منهم عن غير قصد ودون عمد، فإنه سبحانه سيحاسبهم على الأيمان التي قصدوها، وتعمدوا توكيد مقاصدهم بها، هل برُّوا بها أو لم يبرُّوا، وعليهم إذا لم يبرُّوا بأيمانهم أن يكفروا عن تقصيرهم في البرور بها. وحددت نفس الآية الوجوه التي يمكن أن تقع «كفارة اليمين» باختيار واحد منها، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ، وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ، فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ، ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وجدد كتاب الله الحديث عن تحريم الخمر والقمار، وتحريم الذبائح التي كان المشركون يذبحونها، ويرشون بدمائها أحجاراً وثنية مخصوصة يدعونها «الأنصاب» أو يقتسمونها بواسطة قِدَاح أو قراطيس خاصة يدعونها «الأزلام»، مبيناً الآثار السيئة التي تنشأ عن شرب الخمر وعن لعب القمار، ومعلناً تحريم الخمر والميسر تحريماً قاطعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَـٰنِ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ، فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

وهنا يجب التنبيه والتأكيد على أن من صيغ التحريم التي

يستعملها القرآن الكريم صيغة «اجتنبوا» كما ورد في هذه الآية وغيرها من الآيات، مثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَاجْتَنِبُواْ الطَّـٰغُوتَ ﴾، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَـٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾، وقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ﴾ الآية، فكل ما ورد في هذه الآيات بعد صيغة (اجتنبوا) يعتبر في الشريعة من المحرَّمات المقطوع بتحريمها.

ثم يعقب كتاب الله على ذلك كله بقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ ﴾، منبِّهاً إلى أن شارب الخمر ولاعب القمار هما عملياً في حرب مع الله ورسوله، مجاهران لله ورسوله بالعصيان، متمردان على طاعته، متهاونان بأحكام شريعته.

وإذا كان المتمرد على سلطة المخلوق مثلِه يتعرض لأشد أنواع العقاب، جزاءَ تمرده وعصيانه، فما بالك بالمخلوق المتمرد على سلطة الخالق القاهر فوق عباده، ماذا يكون مصيره بين يدي الله؟ يوم لا ينفعه إلا طاعة الله وتقواه وما قدمت يداه، وذلك هو معنى قوله تعالى: (واحذروا) بعد قوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ أي احذروا مَغَبَّة عصيانكم لله، فقد تكون العاقبة أوخم عاقبة، وقد تكون الخاتمة أسوأ خاتمة، فأطيعوا الله ليثبتكم في أحرج المواقف، ولا تلقوه وأنتم «سكارى» عند سكرات الموت، وكونوا من أهل الإيمان والإذعان، حتى ينعم الله عليكم في مواقف الحيرة والفزع بالثبات والاطمئنان، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث عشر
في المصحف الكريم

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ
وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ
أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ
وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ
ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى
ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا
عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم
مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ
ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ
إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ
يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ
لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ
أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ
أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨
يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ
لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ
ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ

تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يستوعب الربع الثاني من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَـٰماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَـٰئِدَ ﴾، وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

يبتدىء الحديث في هذا الربع بذكر فضائل الكعبة وخصائص البيت الحرام، وما اقتضته الحكمة الإلهية من جعل هذه المنطقة منطقة أمن عام، وطمأنينة شاملة، بالنسبة للإنسان وبالنسبة للحيوان، فالإنسان في دائرتها لا يتعرض لأي انتقام من أخيه أو عدوان، والحيوان في محيطها يتمتع بعهد الأمان وبالحصانة التامة من طرف الإنسان، بحيث لا يسفك بها دم، ولا يتوقع فيها ثأر، ولا يُروَّع فيها سِرْب، ولا يقتل فيها صيد، ولا يُعضَد فيها شجر، ويكون الحجاج إليها كلهم فارغي البال، اللهم إلا من عباداتهم التي يعكفون عليها، ومناسكهم التي يقومون بها وهم على أحسن حال، دون رفث ولا فسوق ولا جدال، وذلك قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ

اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَـٰماً لِّلنَّاسِ ﴾ أي أمناً لهم وصلاحاً. وسميت الكعبة «كعبة» لنتوئها وبروزها، إذ يقال لكل ناتىء بارز «كعب»، مستديراً كان أو غير مستدير، على ما صححه المحققون.

ويتجه خطاب الله إلى نبيه الأعظم عليه الصلاة والسلام، آمراً له أن ينبه الناس إلى أن الخبيث والطيب لا يستويان عند الله في شيء، وأن يلفت نظر الإنسان أياً كان وحيثما كان، إلى أن مجرد الاستلذاذ بالخبيث والاعجاب به لا يقف في وجه هـذه الحقيقة الناصعة، فقد يكون الخبيث جذاباً وبراقاً ومثيراً، ولكنه في جوهره خبيث، وفي أثره خبيث، وفي عاقبته خبيث، ولن يقف الخبيث مع الطيب على قدم المساواة بأي وجه من الوجوه، وإذا كان الخبيث «أوزن» في الدنيا فالطيب أثقل منه وزناً في الآخرة، وإذا كان مآل الطيب إلى الجنة، فإن مآل الخبيث إلى النار، وإذا كان منفق المال الخبيث يعتبر انفاقه هباءً منثوراً، فمنفق المال الطيب يظل انفاقه ثابتاً مذكوراً، هذا إلى ما يترتب على تناولِ كل من الطيب والخبيث، وعلى ممارسة كل من الطيبات والخبائث، من الآثار النفسية والأخلاقية، الفردية والاجتماعية، مما يجعل سلوك الطيبين رحمة لهم وللناس، وسلوك الخبيثين نقمة عليهم قبل أن يكون نقمة على بقية الناس، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ يَـٰأُوْلِي الأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ثم يتناول كتاب الله الحديث عن طائفة من الناس، مصابة بنوع غريب من حب الاستطلاع والهوس بلغ إلى حد الوسواس،

فهي تحاول أن تحيط علماً بكل شيء، وهي تحشر أنفها في جميع المقامات والمجامع، وهي مولعة بالبحث عن أسرار الناس الخاصة ودخائل أمورهم دون أي موجب شرعي ولا مبرر أخلاقي، وهي حريصة على إثارة الأسئلة الفارغة أو الملتوية، التي لا جدوى من ورائها ولا نفع في الجواب عنها، بغية إيقاع المجيب عنها في ورطة يصعب عليه الخلاص منها، وهكذا. فإلى هذه الطائفة ومثيلاتها يتجه الخطاب الإلهي قائلاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾.

ومما يندرج تحت هذه الآية ما جاء في الأثر: أن رجلاً من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة كان يُطعَن فيه، فقال يا رسول الله مَنْ أبي؟ فقال أبوك حذافة، فدعاه لأبيه. قال الزهري: فقالت أمّ عبدالله بن حذافة: «ما رأيت ولداً أعق منك قط، أكنت تامن أن تكون أمك قد قارَفَت ما قارَف أهل الجاهلية، فتفضحها على رؤوس الناس» فقال: «والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته».

وأشار كتاب الله في تعقيبه على هذا النوع من الناس الموسوسين وأسئلتهم الفجّة، إلى أن المؤمنين لا يمنعهم أي مانع من توجيه أسئلتهم إلى الرسول ﷺ، ما دام الغرض منها هو الاستفسار عن الدين والسؤال عن الشريعة، منبهاً إلى أن أحسن فرصة مناسبة لإلقاء هذا النوع المفيد من الأسئلة هي الوقت الذي ينزل فيه الوحي على رسول الله ﷺ. ففي تلك المناسبة يكون الرسول على أتم استعداد لإجابة المؤمنين وتفقيههم في الدين، بتوضيح ما فيه إشكال، وتفصيل ما فيه إجمال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ

عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ يمكن تفسيره بالجزء الأخير من الحديث الصحيح الذي ثبت فيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أمركم بأشياء فامتثلوها، ونهاكم عن أشياء فاجتنبوها، وسكت لكم عن أشياء رحمة منه فلا تسألوا عنها» فيكون معنى (عفا الله عنها) سكت عنها رحمة بالمؤمنين. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: (قوله تعالى ﴿عفا الله عنها﴾ أي أسقطها، والذي يسقط لعدم بيان الله فيه هو باب التكليف، فإنه بعد موت النبي ﷺ تختلف العلماء فيه... واختلاف العلماء رحمة للخلق، وفسحة في الحق، وطريق إلى الرفق).

ثم نادى كتاب الله بإبطال الشعائر الوثنية وإلغائها، وخاصة ما ابتدعه المشركون من اعتاق الإبل والغنم وتسييبها للأصنام والأوثان، فهذه ناقة تشق أذنها وتترك، وهي «البحيرة»، وتلك ناقة يخلى سبيلها مع أمها دون راعٍ ولا قيد، وهي «السائبة» بحيث لا يُركَب ظهرها، ولا يُجزُّ وبرها، ولا يشرب لبنها، وهناك شاة تلد ذكراً أو ذكراً وأنثى، وهي «الوصيلة» فتخلى للأوثان والأصنام، وهذا فحل من الإبل ينقضي ضرابه، فيجعل عليه من ريش الطواويس ويسيب، وهو «الحامي».

وهكذا ذم الله تعالى ما كان يفعله المشركون من هذه الشعائر الباطلة، وحذر المسلمين من الوقوع فيها وقعوا فيه، بعد أن عرَّفهم أن ذلك كله مجرد كذب على الله، ومحض افتراء عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ،

وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

وفي هذا الربع آية كريمة يجب الوقوف عندها وقفة خاصة، فقد فهمها بعض الناس على غير وجهها منذ عهد مبكر، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وأقل نظر إلى هـذه الآية بتعمق وإمعان يؤدي إلى فهم المقصود منها على أحسن وجه، إذ هي واردة في سياق الآية التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ فها هنا دعوة موجهة إلى المشركين من الرسول والمؤمنين، ليتركوا ما هم عليه من ضلال وخبال، لكنهم يصرون على تقليدهم الأعمى، ويأبون الاستجابة إلى الدعوة الإسلامية.

وما دام الأمر هكذا، وما دام الرسول والمؤمنون قد بذلوا كل ما في وسعهم للقيام بتوجيه الدعوة وتبليغ الرسالة، وحاولوا بكل الوسائل اقناع المشركين دون جدوى، فقد برئت ذمتهم ولم يبقَ أمامهم إلا العمل على نجاة أنفسهم وخلاصها، ولن يحاسبوا على ضلال من أصر على الضلال، بعد دعوتهم له باستمرار، ورفضه لدعوتهم بكامل الرفض ومزيد الانكار. وليس معنى هـذه الآية الاذن للمسلم بالتخلي عن واجباته نحو المجتمع الإسلامي والدولة

الإسلامية، ولا الترخيص له بالوقوف منها موقف المتفرج الذي لا يهمه من أمرهما شيء، فذلك فهم مقلوب للإسلام، وتأويل مضاد للمعنى المقصود من هذه الآية.

روى أصحاب السنن أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه».

ومما لا يسوغ للمسلم التخلي عنه ولا إهماله أبداً أمر أسرته وأولاده، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ

مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

٦ سُورَةُ الأَنْعَامِ مَكِّيَّة وَءَايَاتُهَا ١٦٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣
وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤ فَقَدۡ
كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٥
أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن
لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٦
وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨
وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا
يَلۡبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠ قُلۡ
سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا
رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ

الربع الثالث من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نعالج الربع الثالث من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي، قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

في هذا الربع من كتاب الله نجمع بين آخر ثُمُنٍ من سورة المائدة وأول ثُمُنٍ من سورة الأنعام، وبذلك نكون قد اختتمنا سورة وابتدأنا أخرى، مستعينين بالله ومعتمدين عليه.

والحديث في الثُّمْنِ الأخير من سورة المائدة يتعلق بعيسى بن مريم عليه السلام والحواريين الذين آمنوا به وصدقوه، وقصة المائدة التي طلبوها، والحوار الذي دار بينهم وبين عيسى في شأنها، كما يتناول وصف الكيفية التي يكون عليها سؤال الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة لعيسى عن موقف المسيحيين الذين غالوا في تعظيمه حتى رفعوه إلى درجة الألوهية، فأشركوا بالله الواحد الأحد، ثم وصف الجواب الذي يجيب به عيسى بن مريم ربه، متبرئاً من

المتسبين إليه زوراً وبهتاناً، والمغالين في حقه ظلماً وعدواناً.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ الذي نبتدىء به ربع هذا اليوم هو وارد في سياق آيات أخرى سبقت في نهاية الربع الماضي، وهو تابع لها ومرتبط بها في المعنى كل الارتباط، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ، وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾.

والمقام في هذه الآيات مقام استعراض عام أمام الله وبين يديه لجميع الرسل الذين أرسلهم الحق سبحانه وتعالى إلى خلقه، من أولهم إلى آخرهم، واستجوابهم أمام الجناب الإلهي الأقدس، ماذا كان موقف أممهم من الرسالات التي أرسلهم بها، وماذا كان جواب أممهم عنها؟

وفي وسط هذا الاستعراض الضخم لموكب الرسل الكرام جميعاً يقف كتاب الله وقفة خاصة عند سؤال عيسى بن مريم وجوابه، ويصف خطاب الحق سبحانه وتعالى له بشيء من التفصيل، وفي أسلوب من الحوار، فقد اختلط أمر عيسى بن مريم

على من يدَّعون اتباعه اختلاطاً كبيراً، وقد ارتبك في شأنه عدد غير قليل من البشر، وفي هذا السياق يذكِّر الله رسوله عيسى بن مريم بالمعجزات التي أيده بها ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ ويعدها عداً، مؤكداً أنها كلها إنما كانت معجزات من عند الله ومن صنعه وبإذنه، لا من وضع عيسى ولا بقوته وقدرته ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ - ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ - ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ - ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ - ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ - ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ ﴾ - ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ - وهكذا وردت هذه الآية الأخيرة في معرض تذكير الله لعيسى بن مريم بنعمه التي أنعم بها عليه، تمهيداً لاستجوابه واستفساره عن الغلو في تعظيمه، وتأليهه من طرف المنتسبين إليه، وموقفه من ذلك الغلو.

والنعمة التي يمتن الله بها على عيسى بن مريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ هي نعمة ما أكرمه الله به من الأصحاب والأنصار، إعانة له على تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقد ألهم الله الحواريين المعرفة بصدق رسالته، وألقى في قلوبهم بذور محبته، وهداهم إلى الإيمان بالله بواسطته، و«الوحي» إلى الحواريين في هذا المقام، لا يتجاوز أن يكون وحي (الإلهام)، على غرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ الآية. ثم بيَّن كتاب الله كيف استجاب الحواريون لدعوةِ عيسى بن مريم، وكيف آمنوا وشهدوا

على أنفسهم بعقيدة الإسلام، التي جاء بها كافة الرسل من عند الله.

وانتقل بعد ذلك إلى تفصيل قصة المائدة، التي طلب الحواريون من عيسى بن مريم أن يسألها لهم من الله، وبها سميت هذه السورة (سورة المائدة).

وبيَّنَ كتاب الله تحرج عيسى بن مريم من هذا الطلب، ثم إصرار الحواريين على رجائهم ﴿ قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴾.

وأمام إلحاح الحواريين لم يَسَعْ عيسى بن مريم إلا أن يسأل ربه إنزال المائدة ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ، وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاء رسوله عيسى بن مريم ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى حذَّر من الكفر بعد ذلك، وأنذر من كفر بعد نزول المائدة بعذاب لا مثيل له ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّآ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وبعد الانتهاء من تعداد النعم التي أنعم الله بها على عيسى ابن مريم ينتقل كتاب الله إلى محور الموضوع، وهو وصف الاستجواب الإلٰهي لعيسى بن مريم أمام مجمع الرسل يوم القيامة، ووصف جواب عيسى لربه عن نفس السؤال، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى

ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فأجاب عيسى ربه منزِّهاً مقام الربوبية، ومتبرئاً من أتباعه المحرفين المغالين ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾.

ثم يتفصى عيسى بن مريم أمام الحق سبحانه وتعالى من كل مسؤولية يمكن إلقاؤها عليه، من جراء ادعاءات المسيحيين الغلاة الذين ألّهوه من بعده، مؤكداً أنه لم يعلم من حال المسيحيين إلا ما شاهده عياناً وهو لا يزال بين أظهرهم. أما بعد أن توفاه الله ورفعه إليه فإنه لم يعد يعرف عنهم شيئاً. نعم بقيت رقابة الله عليهم مبسوطة، فهو الذي يعلم حقيقة أحوالهم، وهو سبحانه الشهيد على جميع عباده وعلى كل شيء من أعمالهم، ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

وأخيراً سجل كتاب الله إذعان عيسى بن مريم لمشيئة الله إذعاناً كلياً، ورضاه بحكمه الفاصل في شأن الأباطيل والضلالات التي روّجها المسيحيون واعتقدوها من بعده، ولم يتجرأ على الشفاعة الصريحة فيهم لعظم جرمهم، واقتصر على مخاطبة الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

ويعـدما تحـدث كتاب الله عن الاستعـراض الإلّهي لموكب

الرسل واستفسارهم عامة، واستفسار عيسى بن مريم خاصة، عقب على ذلك بما يعتبر خلاصة الموقف والحكم النهائي، قائلاً: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَـٰذَا يَوْمَ يَنفَعُ الصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَداً، رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، لِلهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومعنى ذلك أن يوم القيامة يوم مجموع له الناس، تجمع فيه كافة الخلائق، وتنكشف فيه كل الحقائق، فلا مكان فيه للتدجيل والتضليل، ولا مجال فيه للتزييف والتحريف، والفوز فيه إنما هو لمن صدق الله، والتزم طاعته ورضاه.

ومن هنا ننتقل إلى (سورة الأنعام) وهي في طليعة سور القرآن الكريم التي نزلت بمكة قبل الهجرة، بل إن ما نزل من القرآن بمكة متأخراً عنها يعتبر مبنياً عليها في نظر المحققين من علماء الشريعة، نظير (سورة البقرة) التي يعتبر ما نزل من القرآن الكريم بالمدينة بعدها مبنياً عليها أيضاً.

وكما أن «سورة البقرة» هي الركيزة الأولى للشريعة الإسلامية، فإن «سورة الأنعام» هي الركيزة الأولى للعقيدة الإسلامية، ومنها استخرج العلماء قواعد التوحيد وأصول الدين، على حد ما قاله الشاطبي في «الموافقات».

وقد أطلق عليها اسم سورة (الأنعام) والله أعلم، لما ورد فيها من الآيات الكريمة التي تحدد موقف الإسلام من الأنعام، وتندد بموقف الشرك والمشركين منها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَـٰمِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا

لِشُرَكَآئِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَت ظُهُورُهَا، وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشاً، كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَـٰنِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

وقد تناول كتاب الله في الثُّمُنِ الأول من سورة الأنعام - وهو الذي يدخل في حصة اليوم - توضيح العقيدة الإسلامية فيما يخص الكون والمكوّن، والخلق والخالق، ﴿ وَهُوَ اللَّهُ، فِي السَّمَـٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ كما تناول الحديث فيه موقف المشركين والكافرين من عقيدة التوحيد، وإصرارهم على الإعراض عنها والتكذيب بها ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾. ووصف كتاب الله في هذا السياق أنواع العناد وأساليب الجدل التي لجأ إليها خصوم العقيدة الإسلامية ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأخيراً أكد الحق سبحانه وتعالى ما ينتظرهم في النهاية من الوقوف بين يديه، وما ينالهم من خسران وبوار ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي

بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً
قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
ظُهُورِهِمُۥٓ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ
نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيُحْزِنُكَ ٱلَّذِے يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَٰكِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن
قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتِيٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا
مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن
تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْارْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم
بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدىٰ، فلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴾.

في أول آية من هذا الربع يثبت الله عبودية المخلوقات كلها للإلٓه الواحد الأحد، فله ما سكن وله ما تحرك في الليل والنهار، من كافة العوالم وجميع الأفلاك، ما علا منها وما سفل، وما نطق وما لم ينطق ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لدبيب أضعف الجراثيم والحشرات، والعليم بأخفى الخفَايَا من الهواجس والخطرات.

وفي ثاني آية منه يلقن كتاب الله للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ما يفحم به المشركين المعاندين، فيتساءل في لهجة الاستنكار والاستغراب كيف يتخذ الإنسان له ولياً غير الله، وكيف يستنصر بمن سواه، والله هو مبدع السماوات والأرض، الذي يرزق

الخلق ويطعمهم، وهو مع ذلك وفوق ذلك غني عنهم جميعاً، ثم يعلن إلى رسوله الأمين بشرى البشائر، بأنه المرشح الوحيد، لأن يكون المسلم الأول، وهو الرائد والقائد لقافلة المسلمين ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾.

وفي ثالث آية منه يضرب رسول الله المثل لغيره من المومنين، حيث يعبر عما يمتلىء به قلبه من الخوف الشديد من معصية الله، وما يرجوه بطاعته من رحمته ورضاه، وإذا كان الرسول ـ وهو من هو في القرب من ربه ـ متقلباً بين الخوف والرجاء، فما بالك بمن ينتسبون إلى الإسلام من العصاة الألداء، ﴿ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾.

وفي رابع آية منه يقرر كتاب الله مبدأ جوهرياً في الإسلام، ألا وهو أن العبد في قبضة الله وبين يديه، بحيث لا يملك غيره له نفعاً ولا ضراً، فلا يناله من الحظوظ ـ بعد اتخاذ الأسباب العادية ـ إلا ما سبق إليه قلم القدرة الإلهية، وقضت به الحكمة الربانية، ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾.

ثم ينتقل كتاب الله إلى مجادلة المشركين وتحدّيهم، حثاً لهم على الإيمان بالقرآن وبمنزّل القرآن، فيسألهم هل هناك شاهد يشهد

بالحق وينطق بالصدق، أكبر وأحق من الحق سبحانه وتعالى الذي هو خير الشاهدين؟

ولا شك أن مجرد الفكر السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها يدفعان بالإنسان، مهما بلغ من الجحود والعناد، إلى الاعتراف والاقتناع بأن شهادة الخالق هي فوق شهادة كل مخلوق كيفما كان ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ اللَّهُ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ ﴾ بعد قوله ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ ﴾ معناه أن القرآن الذي أوحى الله به إلى رسوله لم ينزل لإنذار المشركين وحدهم، ثم تنتهي مهمته ويصبح بعد ذلك مهجوراً، بل إنه نزل لإنذار مشركي العرب وكافة المشركين، ولإنذار الأولين والآخرين، السابقين واللاحقين، فهو نذير لكل من بلغه من الناس إلى يوم الدين. قال محمد بن كعب: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلّمه». وروى قتادة في قوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله».

وانتقل كتاب الله بعد ذلك إلى ما أعلنه أهل الكتاب من تجاهل للقرآن وتظاهر بإنكاره، بالرغم من أنهم يعرفون حقيقته معرفة اليقين دون الشك، فقد نقلت إليهم بشارات الأنبياء والرسل السابقين أخبار ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، وأخبار نزول خاتم الكتب المنزلة. وبذلك صح القول فيهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون

أبناءهم، وذلك مضرب المثل في المعرفة، فالآباء لا يجهلون صور أبنائهم الذين يعايشونهم، ولا يغيب عنهم شيء من ملامحهم وطباعهم، بل يعرفون أمرهم دون تردد ولا توقف، لكن ما استولى على «أهل الكتاب» من روح التعصب، وما سيطر عليهم من الأهواء والأغراض، وما أصابهم من الخيبة بانتقال الرسالة منهم إلى العرب من ذرية إسماعيل، أعمى أعينهم عن رؤية النور، فلم يهتدوا سبيلاً، ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ، الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً، وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

ثم يصف كتاب الله حال خصوم الإسلام، وما يضعونه في طريق انتشار دعوته من العراقيل والمعوقات، فهم لا ينتفعون بالدعوة الإسلامية في أنفسهم، وهم لا يتركون غيرهم يقبل عليها وينتفع بها، بل إنهم ليصدون الناس عنها صداً ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ الأمر الذي لا يتفق ولا ينسجم مع ادعائهم أن دعوة الإسلام مجرد أسطورة من الأساطير، فالأسطورة المختلقة والقصة المكذوبة خير للناس أن يسمعوها ويقفوا على ما فيها من اختلاق وكذب، ليُعرِضوا عنها إلى الأبد. أما أن يقول خصوم الإسلام: إن الإسلام أسطورة، ثم يتخذوا جميع الوسائل لضرب الحصار من حوله، ومنع الناس وإلهائهم عن سماع دعوته، فذلك دليل ضمني على أن دعوة الإسلام حق وصدق، وأنها تدخل الآذان من غير

استيذان، فتستولي على المشاعر والقلوب.

ويعقّب كتاب الله على ما يضعه خصوم الدعوة الإسلامية من معوقات في طريقها، مبيّناً أن الخسارة كل الخسارة والهلاك كل الهلاك إنما هو لمن وقف في وجه دعوة الإسلام، فلم ينتفع بهدايتها، ولم يستنر بنورها، وإلا فالإسلام غني عنه ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ - ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.

وما دام الحديث جارياً عن كفر الكافرين، وتكذيب المشركين، وتعويق المعوقين، وعناد المعاندين، فإن السياق مناسب كل المناسبة لتسلية الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولتثبيت فؤاده على الحق، ولمواساته على ما يصيبه من أذى بالغ في سبيل الله، وهكذا يتجه الخطاب الإلٰهي إلى الرسول مباشرة فيقول﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِئَايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ويقول ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَٰهِلِينَ ﴾.

وهكذا يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حقيقة كبرى، أَلَا وهي أن خصوم الرسالة المحمدية لا يعتقدون أن الرسول كاذب غير صادق، ولا يعتقدون أن الرسالة كذب لا حق، بل إنهم ليومنون بصدق الرسالة وصدق الرسول في قرارة نفوسهم، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبه وتكذيبها جحوداً وعناداً ﴿ حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾.

ويتحدث كتاب الله في سياق المواساة لرسوله عما لحق الرسل من قبله في سبيل الرسالات التي أرسلوا بها من العنت والأذى، وما انتهى إليه أمر الله معهم من نصر مؤزر وفتح مبين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَيٰهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع عشر
في المصحف الكريم

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ
إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾
فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً
أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ
بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

الربع الأول من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حصة هذا اليوم تستوعب الربع الأول من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، والآية الأولى منه هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ والآية الأخيرة من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّـٰلِمِينَ ﴾.

يبتدىء هذا الربع بتقرير حقيقة نفسية ثابتة، ألا وهي أنّ السبيل إلى تلقي الدعوة والاستجابة لها هو تفتح العقل لإدراك ما يُعرَض عليه واستيعابه، وتفتح الحواس للاحساس بما تتلقاه من المحسوسات والمشاهدات واستيعابها، فإذا تعطلت ملكة العقل في أي إنسان عن وظيفتها الأساسية، وإذا تعطلت الحواس الظاهرة والباطنة عن نشاطها العادي، لم يبقَ لدى الإنسان أية وسيلة أخرى للإدراك ولا للاحساس، وبالتالي يتعذر عليه أن يتلقى الدعوة ويتفهمها، فضلاً عن أن يستجيب لها ويتجاوب معها، فقد تعطل فكره وتعطلت حواسه، وهو بمنزلة من مات موتاً حقيقياً، وإنْ كان لا يزال معدوداً بين الأحياء حياة ظاهرة.

وإذن فأمام الدعوة الإسلامية صنفان من الناس: أحياء لا يزالون يتمتعون بملكاتهم وحواسهم، وعندهم استعداد للفهم والتفاهم، وهؤلاء معقد الأمل والرجاء في نصر الدعوة الإسلامية، ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ وهناك أموات أحاطت بهم الضلالات والأوهام من كل جانب، فدمرت فيهم جميع الملكات، وعطلت في أنفسهم جميع الطاقات، وضربت من حولهم حصاراً تاماً لا يبقى معه أي منفذ تصل إليهم عن طريقه هذه الدعوة، ولا أية نافذة يطلُّون منها على حقيقة الكون والمكون، وهؤلاء وإن كانوا لا يزالون في الدنيا فهم موتى موتاً معنوياً وروحياً، وسيظلون على موتهم المعنوي هذا إلى أن تتم موتتهم الجسمية الأولى، ولن يبعثوا من موتهم المعنوي ثم موتهم الجسمي إلاَّ يوم يحل موعد البعث والنشر والحشر يوم القيامة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي الذين لا تزال ملكاتهم غير معطلة ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي أن الذين تعطلت ملكاتهم لا يستجيبون للرسول، فهم موتى، والميت لا يجيب إلاَّ عندما يبعث ويحشر أمام الله ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

ويواصل كتاب الله في هذه السورة عرض شبهات المشركين في سياق الحكاية عنهم بلفظ (قالوا) أي قال المشركون لرسول الله.

ثم يعرض بعد ذلك حقائق الإيمان التي يتلقاها الرسول عن ربه، ليبطل شبهات المشركين، مسبوقة بكلمة (قل) أي قل لهم يا محمد.

وها هنا يحكي كتاب الله ما يطالب به المشركون رسول

الله ﷺ من تنزيل الآيات عليهم، وهم يقصدون بذلك أن يأتيهم الرسول بخوارق العادات والمعجزات المادية، بدلاً من آيات الوحي المبين، إذ أن كثيراً منهم بلغوا من التحجر والتبلد والانحطاط الفكري ما جعلهم لا يكتفون بآيات الوحي المبين، التي تقنع العقول وتثلج الصدور، فيجيبهم رسول الله ﷺ بأن الله قادر على أن يأتيهم بالخوارق والمعجزات المادية، كما أتى بها للأمم السالفة من قبل، إلاَّ أن المنهاج الجديد الذي جاءت به الدعوة الإسلامية ـ وهي خاتمة الرسالات إلى الناس كافة ـ هو عرض الحقائق الإيمانية على الإنسانية جمعاء، وحثّ الإنسان أينما كان على تفهم هذه الحقائق، ومعرفة صدقها وأحقيتها عن طريق التفكير فيها، والنظر في دلائلها، والمقارنة بينها وبين بقية العقائد، فقد مضى العهد الذي كان فيه البشر لا يزالون أطفالاً أو أشباه أطفال، لا تقنعهم إلاَّ المعجزات المادية وخوارق العادات التقليدية، وها قد أقبل مع ظهور الإسلام عهد جديد للبشرية، هو عهد إعدادها للنضج، وتهيئتها للرشد، والأخذ بيدها في سبيل هدايتها إلى الحق، عن طريق الانتفاع بنفس الطاقات الكامنة فيها، وتسخير العقل والقلب والضمير والحواس الظاهرة والباطنة لإدراك حقائق الإيمان، إدراكاً منبثقاً من أعماق الإنسان، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن المشركين ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقوله تعالى في رد الرسول على طلبهم ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾. ثم يأتي التعقيب بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ويأخذ كتاب الله في التنبيه على بعض الحقائق الكونية التي

تساعد الإنسان على الوصول بنفسه إلى إدراك عقيدة التوحيد الأساسية، متى أحسن التأمل فيها، واستخلص العبرة منها.

ـ **الحقيقة الأولى** ـ أنه ما من جنس جنس، ونوع نوع، وصنف صنف من أجناس الأحياء وأنواعها وأصنافها إلاَّ وله من الخصائص والصفات المشتركة، والنواميس الثابتة لسائر أطوار حياته ما يجعله «أمة واحدة» مشابهة لما في النوع الإنساني نفسه، من أمم مختلفة الألسنة ومختلفة الألوان. ولا تَقِلُّ حكمة الله في بقية خلقه، وعنايته بتدبير أمره، عن عنايته بالإنسان وتدبيره لأمره، وحكمته في خلقه.

ـ **الحقيقة الثانية** ـ أن كل ما خلق الله من عوالم الأحياء على تعدد أجناسها، وتنوّع أنواعها، واختلاف أصنافها، هو في نهاية الأمر كما في بدايته شيء واحد متماثل، ونظام واحد متكامل، لأنه انبثق عن خالق واحد نفخ فيه الروح، له الخلق والأمر، وهو الحي القيوم.

ـ **الحقيقة الثالثة** ـ أن الحق سبحانه وتعالى الذي انفرد بخلق كل شيء قد انفرد أيضاً بتدبير كل شيء، فما من شيء صغر أو كبر، جلّ أو حقُر، إلاَّ وهو محل العناية الإلَهية، بحيث لا يلحقه أدنى تفريط ولا إهمال ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾. وما من جزء من أجزاء الكون إلاَّ وهو يسير إلى مصيره المحتوم، وفق تدبير محكم ونظام مرسوم، لا يَتَخَلَّف عنه قلامة ظفر، فمشيئة الله هي القانون الحتمي الأول، وتدبير الله هو القانون الحتمي الأخير.

ويديهي أن إدراك هذه الحقائق الثلاث كافٍ لأن يجعل من له أدنى مسكة من العقل، وأقل حظ من التفكير، وأبسط نصيب من الملاحظة، مؤمناً بالله من أعماق قلبه حق الإيمان، بعيداً كل البعد عن الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان، ولا يصعب عليه أن يستخلص هذه الحقائق جميعاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَـٰئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم، مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يمكن أن يحمل على أنه وارد في سياق ما سبق من قولِه تعالى: ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾. وقولِه تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيكون مرده كسابقه إلى الأحياء بأجسامهم، الموتى بقلوبهم، وهم المشركون الذين لا يستيقظون من سباتهم العميق إلاّ على أهوال النشر والحشر.

ويمكن أن يعود الضمير فيه إلى أقرب مذكور، ويحمل على معنى أن الأحياء من غير الإنسان ستحشر أيضاً كما يحشر الإنسان، على حد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ وكلا المعنيين صحيح لغة وشرعاً.

الربع الثاني من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ
كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ
وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ
لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن
تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا
لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا
ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ

أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى اِيتِنَا قُلِ اِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ
ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنَ اَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِےٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِے خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِے
ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ـ الِهَةً
اِنِّيَ أَرَيٰكَ وَقَوْمَكَ فِے ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِےٓ
إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رِءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّے فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّے فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِے رَبِّے
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَٰذَا رَبِّے هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّے بَرِےٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّے وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِے فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَالَارْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع عشر
في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

في أول آية من هذا الربع يتحدث كتاب الله عن «مَفَاتِح الْغَيْبِ» التي انفرد بعلمها الحق سبحانه وتعالى دون خلقه ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ والحديث عنها وارد في سياق الآيات التي مرت في الربع الماضي تعلن براءة الرسول عليه الصلاة والسلام من ادعاء العلم بالغيب، وتعرِّف المشركين بأن النبوة والرسالة ليست نوعاً من أنواع الكهانة التي اعتادوها فيما بينهم، والتي قامت في أساسها على التضليل والتزييف وادعاء العلم بما كان وما سيكون ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ - ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ - ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أصل من أصول العقائد الإسلامية، وركن من أركان الدين، كما قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري.

و «الغيب» ما خفي أمره على العقول، ولم ينكشف كنهه للحواس، وحجبه الله عن البصائر والأبصار، وكما أن للبصر حداً لا يتجاوزه فكذلك للبصيرة حد لا تتعداه، و «مفتاح الغيب» ما يتوصل به إلى علم الغيب، وقد وقعت الإشارة إلى أمهات الغيب بكل وضوح في قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

وجاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم تلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ إلى آخر الآية.

و «أم الغيب» الكبرى، على حد تعبير ابن العربي المعافري هي الساعة وما تضمنت من النشر والحشر والموقف والحساب، وما يؤول إليه أمر الخلق من العقاب والثواب، فلا أمارة على الساعة ولا علامة عليها إلّا ما أخبر به الصادق المصدوق عن ربه من «أشراط الساعة وأماراتها» ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾.

و «أم الغيب الثانية» تنزيل الغيث، وما يترتب عليه من الأحياء والانبات، وما يسبقه من إنشاء الرياح وتسييرها، وتأليف

السحب وإلقاحها، وتوزيع قطراتها على بقاع الأرض ومن فيها. ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فهذه لا أمارة عليها ثابتة، ولا علامة قاطعة.

و«أم الغيب الثالثة» ما تنطوي عليه الأرحام، وما يجري تدبيره فيها بأمر الله من خلق النطفة وتدريجها في أطوار الخلقة طوراً بعد طور، حتى تستوي ذكراً أو أنثى، فرادى أو توائم، فهذه لاَ أمارة عليها، ولا علامة تهدي إليها مهما ادعى المدعون وتنبأ المتنبئون ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾.

و«أم الغيب الرابعة» ما أخفاه الله عن خلقه من كسب الغد المجهول بما فيه من عمل ورزق، و«الغد» هنا يصدق على الغد القريب والغد البعيد، فكم من غني ظن أنه تحصن بغناه من تقلبات الدهر، فافتقر إلى ما عند الناس، وكم من فقير ظن أنه لن يخرج من عالم البؤساء فأغناه الله وأعطاه، وكم من قوي معتز بقوته أصبح منهار الأعصاب مهدود القوى، وكم من ضعيف بات خائر العزيمة فاتر الهمة، فآتاه الله من حَوله حولاً ومن قوته قوة، وهذا الأمر مغيَّب عن الإنسان بالرغم من حرصه الشديد على معرفة كل شيء يتعلق بعَمَلِه وكسبه ووسائل عيشه، وما يرتبط بذلك من سرور أو غم، وهلاك أو نجاة، وربح أو خسارة، وتوفيق أو خذلان، فكائنات الغد كلها تحت حجاب الله، ولا يعلم حقيقة أمرها سواه ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾.

و«أم الغيب الخامسة» ما أخفاه الله عن خلقه من عاقبة كل إنسان، إذ رب العزة وحده، هو الذي انفرد بعلم هذه العاقبة،

كيف تكون، ومتى تكون، وأين تكون، فلا أَحَد من الناس يعرف، لا بالضبط ولا بالتقريب أين يقبض الله روحه، هل سيموت ويدفن في المشرق أم في المغرب، هل سيموت في البر أم في البحر، أم في الجو، ولا أحد من الناس يعرف، لا بالضبط ولا بالتقريب، متى يَحِلّ أجله، هل في هذا اليوم، أو في هذا الشهر، أو في هذا العام، أم في غيره من الأيام والشهور والأعوام. ولا أحد من الناس يعرف، لا بالضبط ولا بالتقريب، كيف يُختَم له عند الموت، هل يختم له بالخاتمة الحسنى أم بغيرها، وهل إذا كان مطيعاً سيختم عليه بنفس الطاعة والإيمان، أم أنه سيختم عليه ـ والعياذ بالله ـ بالكفر والعصيان، فلا أمارة ولا علامة في هذا الميدان، تهدىء روع الإنسان أياً كان ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

فهذه مقامات الغيب وأمهاته الخمس التي استأثر الله بعلمها، ولم يجعل في طاقة المخلوق سبيلاً محققاً وقاطعاً للوصول إليها، بل خبأها تحت أستار الأقدار، لحكمته الباهرة، وقدرته الظاهرة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَنْ يَشَآءُ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) في كتابه (أحكام القرآن): «عند الله تعالى علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، ولا يكون ذلك من افاضته إلا على رسله، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَنْ يَشَآءُ﴾ فكل من قال: إنه ينزل الغيث غداً ـ أي على جهة اليقين، لا مجرد

الاحتمال ـ فهو كافر. ومن قال: إنه يعلم ما في الأرحام وادعى ذلك واجباً في الخلقة فهو كافر. ومن ادعى علم ما يكسبه الإنسان في مستقبل العمر فهو كافر».

وهكذا كل ما فيه تظاهر بادعاء معرفة الغيب عن بيِّنة ويقين، وتطاول على هتك حجبه وأستاره دون كتاب مبين.

وتمضي الآيات الكريمة في هذا الربع تلفت نظر الإنسان إلى عجائب البر والبحر، وما احتوى عليه كُلٌّ منهما من العوالم والآفاق، ما ظهر منها وما بطن، ما عرف منها وما لم يعرف.

كما تلفت نظره إلى عَالَم النبات وما يتعاوره من موت وإحياء، ونماء وفناء، وإلى البذور التي تنمو تحت الأرض في الظلمات، كما تنمو الأجنة في بطون الأمهات، منبِّهة إلى أن ذلك كله ـ على سعته وتنوعه ـ من مشمولات علم الله الذي أحاط بكل شيء علماً، وسجله في كتاب تخطيطه الأزلي اسماً ومسمى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّيٰكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي يعلم ما اكتسبته جوارحكم ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي توفته الملائكة الموكلون بذلك ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أي ينزلون الأرواح في منازلها بأمر الله، فأرواح الأبرار في عليين، وأرواح الفجار في سجين ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَيٰهُمُ الْحَقِّ ﴾ أي ردوا إلى مولاهم الحقيقي الذي

يدينون له بنعمة الإيجاد ونعمة الامداد، إذ أنشأهم من عدم، ونفخ فيهم من روحه كيف شاء، ثم قبض روحهم إليه متى شاء ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ فلا تعويق أمام الله ولا مماطلة ولا ابطاء، في اجراء المحاسبة وإصدار الحكم وإعلان الجزاء.

ثم يحذر كتاب الله الغافلين المتجاهلين لحكمه وحكمته، المتمردين على دينه وشريعته، بأنه قادر على أن يؤدبهم بسوط عذابه فجأة، ومن حيث لا ينتظرون.

فهذا «العذاب التأديبي» من الله لن يأتيهم من اليمين أو الشمال، حتى يُعدّوا له عدته، ويأخذوا له أهبته، وإنما ينقضّ عليهم كالصاعقة من فوق رؤوسهم، بحيث لا يستطيعون له قمعاً، أو ينفجر كالبركان من تحت أرجلهم بحيث لا يستطيعون له دفعاً، وإذا لم يأتهم العذاب لا من فوقهم ولا من تحتهم، فإنه يأتيهم من بينهم، فيذوق بعضهم العذاب من نفس البعض الآخر وعلى أيديهم، وذلك هو عذاب الاختلاف والتفرقة إلى شيع متعادية متباغضة، وأحزاب متخالفة متعارضة، يحارب بعضها بعضاً، ويفتن بعضها بعضاً، ويأكل بعضها بعضاً، إلى أن يُفني بعضها بعضاً.

وهذا التحذير الإلٓهي الخطير هو الذي يتضمنه بإيجاز وإعجاز قوله تعالى في هذا الربع ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾.

ومما جاء في نفس المعنى قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ ءَامِنتُم

مَّن فِي السَّمَآءِ انْ يَّخْسِفَ بِكُمُ الاَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمَ اَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ انْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ ما يفيد أنه هو العذاب الذي يصيب صغار الناس على يد كبارهم، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ ما يفيد أنه هو العذاب الذي يصيب كبار الناس على يد صغارهم، ولم ينكر ابن جرير الطبري بعدما نقل هذا القول أن له وجهاً صحيحاً، إذ لا شك أن هذا نوع من العذاب الأليم الذي تبتلى به الأمم، كلما انحرفت عن سبيل الله، ولا يرفع عنها إلا بالعودة إلى حدود الله: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الاَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ

قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾

وَزَكَرِيَّآءَ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل
لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾
وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن
شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم
مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ
يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن
قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ
ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نتناول في حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَـٰجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدٰينِ، وَلآ أَخَافُ مَا تُشرِكُونَ بِهِ إلَّآ أَنْ يَّشَآءَ رَبِّي شَيْئاً، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰؤُاْ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

تناولت الآيات الكريمة الواردة في آخر الربع الماضي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وكيف هداه الله عن طريق الفطرة السليمة التي فطره عليها إلى الدلائل القاطعة على عقيدة الوحدانية، وبطلان الشرك والوثنية، وكيف أخذ يندد في قَرارة. نفسه بمعبودات قومه واحداً بعد الآخر، وكيف وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾.

وفي بداية هذا الربع تشير الآيات الكريمة إلى المرحلة التالية التي تبعت تلك المرحلة الأولى، فمن مرحلة التفكر والتأمل والنظر المجرد، التي تحدثت عنها الآيات السابقة، ينتقل إبراهيم الخليل إلى مرحلة المناظرة والمجادلة عن الحق، فيما بينه وبين قومه، وهذه المرحلة هي موضوع الآيات الأولى من ربعنا اليوم ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَـٰجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدٰينِ ﴾.

ونظراً لما أكرم الله به إبراهيم الخليل، إذ جعله ﴿ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ لا من الشاكين ولا من المترددين، فإن جوابه لقومه كان يحمل كل معاني الاستغراب من موقفهم، وكل علامات الرفض لدعاويهم، وهذا ما يفسر قوله الصادر عن إيمان كامل، واطمئنان تام ﴿ أَتُحَـٰجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدٰينِ ﴾ فهل من العقل السليم أن يهتدي الإنسان، ثم يترك الهدى لينغمس في الضلال؟

وتمضي الآيات الكريمة في نفس السياق، لتشير إلى أن قوم إبراهيم أخذوا يخوّفونه من غضب معبوداتهم ومن انتقامها، على غرار ما قالته عاد لنبيها هود ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَيٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ فما كان من إبراهيم الخليل إلا أن أعلن بلهجة المومن بربه، الواثق بحمايته من أذى الشيطان وحزبه، أنه لا يخاف معبوداتهم في قليل ولا كثير، لأن معبوداتهم لا تضر ولا تنفع، ولا تعي ولا تسمع، ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ على غرار ما قاله هود لقومه عاد ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾، وإنما يخاف إبراهيم ربه وحده دون سواه، فهو الذي لا يفلت من قبضته شيء، ولا

يغيب عن علمه شيء ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾.

ثم يوجه إبراهيم الخليل إلى قومه سؤالاً يفحمهم ولا يجدون عنه أي جواب مقنع ، إذ يتساءل أمامهم من هو الذي يجدر به الخوف والفزع؟ هل الذي يعبد هذه المعبودات السخيفة ويشركها بالله، وهي مثال العجز والضعف والجهل، أم الذي يعبد الله فاطر السماوات والأرض، القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، دون أن يشرك به شيئاً؟

من الذي يلزمه أن يخاف ويتردد؟ هل الذي لا يملك أدنى حجة يستند إليها في عبادة الأوثان والأصنام، أم الذي يملك كل الحجج على وحدانية الله الواحد الأحد، وألوهية الفرد الصمد؟

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ، ولا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰناً ﴾.

ويستخلص إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نتيجة حواره لقومه وإفحامه لهم متسائلاً: أي الفريقين أحق بالأمن وأيهما أحق بالخوف؟ هل الفريق الذي يستند إلى ركن الإيمان الركين، وحصن اليقين الحصين، أم الفريق الذي يستند إلى الفراغ، ويملأ قلبه وعقله بالفراغ؟ هل الفريق الذي يسير في وئام وانسجام مع تعاليم الله وأوامره المطابقة لنواميسه الثابتة في الكون، فلا يصطدم معها في شيء، أم الفريق الذي يتنكر لنواميس الكون وتعاليم المكوّن، فيصطدم في طريقه وسلوكه بكل شيء وفي كل لحظة، ويعيش في

حرب مستعرة تدور رحاها فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربه؟ فهو في صراع لا يفتر، واضطراب لا يقف، وحيرة لا تنتهي ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

ويأتي الجواب المنطقي الصريح والوحيد، مضمَّناً في قوله تعالى: ﴿ الذِينَ آمنوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ ايمانهم بِظُلْمٍ اوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فمن آمن بالله إيماناً كاملاً، وأسلم وجهه لله اسلاماً تاماً، ولم يشرك بالله غيره، لا في عبادته، ولا في محبته، ولا في رجائه وخوفه، واستند إلى ركن الإيمان بالله الركين، وحصن اليقين في الله الحصين، تعهد الله له بالأمن والهداية في الدنيا والآخرة، وجعله من الآمنين المهتدين، ﴿ هُوَ الذِيٓ أَنـزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُومِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰناً مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ ومن أشرك بالله غيره في عبادة، أو محبة، أو رجاء أو خوف، أو تعلق بأي وجه من الوجوه، كان قلق النفس، مضطرب البال، ولم يزل طيلة حياته متعثر الخطى، أسيراً للوساوس، غريقاً في الأوحال.

جاء في الحديث الصحيح عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ الذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا يستفسرونه قائلين: «وأينا لم يظلم نفسه؟» إذ فهموا من كلمة (ظلم) مجرد ظلم النفس ولو بارتكاب الصغائر، فنبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن معنى هذه الآية يوخذ من آية أخرى تفسرها أحسن تفسير، وهي قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿يَـٰبُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وبذلك يكون معنى

﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾: أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

وبعدما أفحم إبراهيم الخليل قومه وغلبهم في معرض الحجاج عن عقيدة التوحيد التي لا عقيدة تعدلها قوة وصحة، ووضوحاً وبساطة، عقب كتاب الله على ذلك بقوله ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ، نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ، انَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

ويتولى كتاب الله وصف الحالة الأليمة التي يكون عليها المشركون وهم في غمرات الموت وسكراتها، من الاضطراب والحيرة والخيبة والذعر والفزع، وما يسلطه عليهم الملائكة الموكلون بهم من ألوان التعذيب ساعة الاحتضار، وما يطالبونهم به من القيام بإخراج أرواحهم بأنفسهم، بعد أن تأبى أرواحهم مفارقة أجسادهم من تلقاء نفسها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾، نظير قوله تعالى في سورة محمد ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُۥ ﴾ الآية.

ثم ينطق كتاب الله بتقريع المشركين الظالمين، وتوبيخهم على ما ارتكبوه في حق الله بشركهم، من الظلم العظيم، مبيناً أن إهانة الله لهم هي خير جزاء يجازيهم به على تكبرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنَ ايَـٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

وأخيراً يتوجه الخطاب الإلهي إليهم، مسجلاً عليهم أنهم رغماً

عما كانوا يعتمدون عليه من الشفعاء والأنصار، فقد عادوا إلى الله كما خلقهم أول مرة، عزلاً وفرادى دون مال ولا متاع، ولا أهل ولا أولاد، ولا نفوذ ولا جاه، ولا رفقاء ولا شفعاء، فلا شفيع معهم من أولئك الشفعاء المرموقين الذين زعموا أن لهم فيهم حظاً مع الله، وإذن فهم في منتهى الفقر، وفي منتهى العزلة، وفي منتهى الخيبة، موكولون ألى أنفسهم، قد انقطع بينهم وبين الناس كل حبل، وانفصمت كل رابطة تربطهم بالآخرين، وليست أمامهم إلا حقيقة الحقائق، وهم وحدهم في مواجهة الحق الأكبر الذي لا حق دونه، ولا حق فوقه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع عشر
في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ
مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَٰعِلُ
اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا
نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ
يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ
مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ
وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا
وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾
وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا
بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ
فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾
وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يستوعب الربع الأخير من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ، أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

في هذا الربع تتناول مجموعة من الآيات الكريمة استعراض جملة من آيات القدرة الإلهية وآثار الحكمة الربانية في الخلق والإيجاد، والتدبير والإمداد، فمن فَلْق للحب والنوى، ومن إخراج للحي من الميت والميت من الحي، ومن إبراز آية النور ومحوها لآية الظلام، ومن تسيير للشمس والقمر بحسبان، ومن تزيين للسماء بالنجوم، ونصبها علامات لِلاِهتداء بها في ظلمات البر والبحر، ومن إنشاء للنفس البشرية ولكل ما تفرع عنها من مختلف الأجناس والأنواع، ومن إنزال للماء وما ينبت به من مختلف الألوان والأشكال والطعوم.

وتتناول مجموعة ثانية من آيات هذا الربع الحديث عن عقائد المشركين، وما نسبوه إلى الحق سبحانه وتعالى من بنين وبنات، وما

أشركوه به من الجن، وما أقسموا به من الأَيْمان الكاذبة، على أنهم مستعدون للإيمان بالله، إذا نزلت عليهم بالخصوص آية تكون من خوارق العادات، نظير ما سبق نزوله على الأمم السالفة في عهد الأنبياء السابقين، كما تتناول نفس الآيات ما ينبغي أن يكون عليه موقف المومنين والمشركين في المعاملة والمجادلة، وكيف ينبغي أن يكون موقف الرسول منهم بالأخص.

وتتناول مجموعة ثالثة من آيات هذا الربع عرض جزء مهم من صفات الله العليا وأسمائه الحسنى، تثبيتاً لحقيقة الألوهية في النفوس، وتركيزاً لها في القلوب.

فمن المجموعة الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى سر الحياة الذي يسري في البذرة والنواة، والذي لا يعلم مصدره إلا الله، ولا يدرك كنهه سواه، على غرار قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ الآية. ومنها قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ الَّيْلِ سَكَناً﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى توزيع الحياة اليومية بين الليل البهيم المناسب للسكون، والنهار المشرق الملائم للحركة ﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ كما يتضمن الإشارة إلى أسباب هذا التوزيع وحكمته، وإلى آثاره العميقة في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى ما تسير عليه الشمس ويسير عليه القمر في حركتهما وتنقلاتهما ودورانهما من نظام مرسوم، وحساب مقنن مقدر معلوم،

لَا يتغير ولا يضطرب ﴿هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ - ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اليْلُ سَابِقُ النَّهارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَـٰتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى مواقع النجوم في السماء، وكيف يهتدي الناس بواسطتها في غمرات البحر وسط الغيوم المتلبدة، والسحب الكثيفة، وفي متاهات البر داخل الصحارى وفي جوف الأدغال، وسط الزوابع والأعاصير.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى نشأة النفس البشرية عن أصل واحد، ثم تفرعها إلى ذكر وأنثى، ثم إلى أجناس وألوان ولغات، «فمستقر» في أرحام النساء و«مستودع» في أصلاب الرجال، وما تشتمل عليه هذه النشأة من عجائب وحكم، في بدايتها وفي تسلسلها وفي تنوعها ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى أن ماء المطر، رغماً عن كونه واحداً في طبيعته، متماثلاً في تركيبه وماهيته، ينشأ عنه، بإذن الله وتسخيره، ما لا يحصى عداً من أصناف النباتات التي يعيش عليها الإنسان والحيوان، مع اختلاف الأحجام والطعوم والألوان، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً، نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً، وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ، وَجَنَّـٰتٍ مِّنَ اَعْنَـٰبٍ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً

وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ، انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ، إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ - ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ وفي هذا المعنى ورد أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وأقل تفكير في هذه العطايا الإلٰهية، والهبات الربانية المتوالية، يبعث الإنسان على الإيمان بالله والاعتراف بربوبيته، ويدفعه إلى محبته وطاعته، فالإنسان في كل حركة من حركاته، أو سكنة من سكناته، إنما يتقلب في نعمة الله الوارفة، وفي رحمته الواسعة، ولو وُكِل إلى نفسه لحظة واحدة، بل لو حُرِم من إمداد الحق ثانية واحدة، لذهب في خبر كان، ولم يبقَ منه عين ولا أثر.

أما المجموعة الثانية في هذا الربع، وهي الآيات التي يدور الحديث فيها عن التنديد بالشرك والمشركين، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى ما كان شائعاً بين مشركي العرب من الاعتقاد في تأثير الجن، وفي أن لهم قدرة على الضر والنفع بواسطة الكهان والأصنام والأوثان، وهاهنا تستغرب الآية أن يكون الجن شركاء لله وأنداداً له، وهم لا يزيدون عن أن يكونوا من جملة عباده المخلوقين المقهورين، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى عقيدة وثنية أخرى اختلقها المشركون، وتابعهم

عليها بعض أهل الكتاب، ألَا وهي نسبة البنين والبنات إلى الحق سبحانه وتعالى الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد، كقول المشركين: «الملائكة بنات الله» وقول اليهود: «عزير ابن الله» وقول النصارى: «المسيح ابن الله» ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ، بَدِيعُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾. وهو يتضمن الإشارة إلى أدب الدعوة في الإسلام، وأن المشركين بالرغم من سفاهة عقولهم وفساد عقائدهم لا ينبغي للمسلمين أن يوجهوا السب واللعن إلى معبوداتهم الباطلة، إذ لها من الحرمة في نفوس المشركين والقداسة في معتقداتهم ما قد يحملهم على مقابلة السب بمثله، واللعنة بأختها، وبذلك يكون المسلمون قد تسببوا في تجرؤ المشركين على مقام الله الأقدس، وجنابه الأعلى.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «اتفق العلماء على أن معنى هذه الآية: لا تسبوا آلهة الكفار فيسبوا إلهكم، وكذلك هو. فإن السب في غير الحجة فعل الأدنياء، وقال النبي ﷺ: «لعن الله الرجل يسب أبويه. قيل يا رسول الله: وكيف يسب أبويه. قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». فمنع الله في كتابه أحداً أن يفعل فعلاً جائزاً يؤدي إلى محظور، ولأجل هذا تعلق علماؤنا بهذه الآية في «سد الذرائع»، وهو كل عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصل به إلى محظور.

وأما المجموعة الثالثة في هذا الربع، وهي الآيات التي تتناول صفات الله العليا وأسماءه الحسنى، فمنها قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ والأَرْضِ ﴾ أي مبدعها على غير مثال، لا سابق ولا لاحق، وقوله تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَٰرَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ أي أنه سبحانه وتعالى لا تحيط به أبصار الخلائق، وأن أكرم الصالحين من عباده بالنظر إليه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾. لكنهم بمقتضى طبيعتهم أعجز من أن يحيطوا بحقيقة الخالق وعظمته وجلاله، فكم من المرئيات من جنس المخلوقات يراها الإنسان بعيني رأسه، ولكنه بالرغم عن رؤيته لها يعجز عن إدراك حقيقتها وكنهها، ولا يحيط بها إحاطة تامة، فما بالك بالخالق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس عشر
في المصحف الكريم

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

وَإِن تُطِعَ اَكْثَرَ مَن فِي اِ۬لَارْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اِ۬للَّهِ
إِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلَّا اَ۬لظَّنَّ وَإِنْ هُمُۥٓ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ مَن يَّضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ
مِمَّا ذُكِرَ اَ۪سْمُ اُ۬للَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُومِنِينَ ﴿١١٨﴾
وَمَا لَكُمُۥٓ أَلَّا تَاكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اَ۪سْمُ اُ۬للَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم
مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمُۥٓ إِلَّا مَا اَ۟ضْطُرِرْتُمُۥٓ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيَضِلُّونَ
بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ اِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ
ظَٰهِرَ اَ۬لِاثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ اَ۬لذِينَ يَكْسِبُونَ اَ۬لِاثْمَ سَيُجْزَوْنَ
بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَاكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اِ۪سْمُ اُ۬للَّهِ عَلَيْهِ
وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ اَ۬لشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ
وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمُۥٓ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا
فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي اِ۬لنَّاسِ كَمَن
مَّثَلُهُۥ فِي اِ۬لظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ اَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمُۥٓ ءَايَةٌ

قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

الربع الأول من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

بعدما عرض كتاب الله في الربع الماضي على أنظار المشركين والكافرين آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق المحيطة بهم من حولهم، وما أنعم به على خلقه من النعم المتوالية والعطايا الدائمة، رحمة بهم وإحساناً إليهم. وبعدما تبين ما هم عليه من تحجر في الفكر، وقسوة في القلب، وإصرار على التمسك بالباطل، واستكبار عن قبول الحق، جاء كتاب الله في هذا الربع مبيناً أن من كان مثلهم تحجراً واستغلاقاً، وعناداً وإصراراً، لا تنفع فيه، لا آيات الوحي الناطقة، ولا آيات الكون الصامتة، بل إن إجراء خوارق العادات من أجل إقناعهم، وإقامة الحجة عليهم، لو وقع، تلبية لطلبهم، واستجابة لتحديهم، لما كان له إلَّا أثر سلبي في أنفسهم، فقد

عميت بصائرهم، وتحجرت عقولهم، إلى درجة أنه لم يبقَ أي منفذ ينفذ منه الحق أو الحقيقة إلى قلوبهم، وذلك ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ أي عياناً ومشاهدة، ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ، سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾. وفي مثل هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما تلاقيه دعوة الأنبياء والرسل من دعايات مضادة يقوم بها أعداء الرسالات الإلهية وخصومها المفسدون في الأرض، مبيِّنة أن هؤلاء الأعداء المتحالفين على محاربة الرسل ورسالاتهم هم أشرار الخلق من الأنس والجن، فهم حِلْف واحد متمرد على الله، متعاون على حرب رسله، وما من فريق منهم إلا وهو يستوحي من الفريق الآخر كل ما يساعده على التغرير بضعفاء النفوس، وتضليل بسطاء العقول، ونبَّهت نفس الآيات إلى أن الذين ينكرون الحياة الآخرة ولا يومنون بالبعث هم الضحايا الأولون، والزبناء المختارون لهذا الحِلْف الضال، من شياطين الإنس والجن، فهم الذين يتقبلون وحي هؤلاء الشياطين برضى واطمئنان، وهم الذين يقترفون ـ بإيحاء منهم ـ كل ما يأتونه

من المناكر والفواحش والضلالات، معرضين عن الله، متنكرين لجميع الرسالات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ، وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾.

واتجه خطاب الله إلى الحديث عن موقف الرسول ﷺ من ضلالات المشركين ودعاويهم الباطلة، والتأكيد على أنه غير مستعد للتحاكم إلى أهوائهم وأوهامهم، وأنه لا يرتضي حَكَماً في النزاع القائم بينه وبين المشركين حول عقيدة التوحيد إلاَّ الحق سبحانه وتعالى، فهو الحَكَم الوحيد الذي تُرضَى حكومته عند رسوله والمومنين، لا سيما وَقَد فصل في كتابه المبين الذي أنزله على رسوله الصادق الأمين بلسان عربي مبين، دلائل الحق الصراح الذي لا جدل فيه ولا مراء، والذي فيه غاية الهدى وكل الشفاء، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ - ﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

ثم نبّه كتاب الله مرة أخرى إلى أن هذا الكتاب المنزل على محمد ﷺ ليس بِدْعاً من الكتب، بل هو من جنس الكتب الإلٓهية التي أنزلها على رسله السابقين، فهو حلقة من سلسلة النور الممدودة من السماء إلى الأرض، وهو وإن كان خاتم الكتب الإلٓهية والمهيمن

عليها فليس هو بأولها، بل إن هناك طائفة من أهل الأرض تُعرَف «بأهل الكتاب» تَعرِف الوحي وتعرف الرسالة، وعندها من بشارات الرسل السابقين بذلك ما يشفي ويكفي، وهي تعرف أن هذا القرآن الذي ختم الله به الوحي من عنده، جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب والرسالات، وجاء بالحق من العقائد، والحق من الشعائر، والحق من الشرائع، والحق من أخبار الخليقة، والحق من قصص الأنبياء والرسل، فلا يصح أن يكون بعد ذلك كله موضع شك ولا تردد عند أحد من الناس. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وارد على غرار قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ، لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾. وتعليقاً على «حرف الشرط» ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ﴾ أجاب رسول الله ﷺ قائلًا: «لا أشك ولا أسأل».

ومضى كتاب الله يوضح من خصائص القرآن ومميزاته ما يثلج صدور المومنين ويزيدهم يقيناً بالحق، واطمئناناً إلى الحقيقة، فنبَّه إلى أن كلمات الله التي يتضمنها كتابه العزيز هي المثل الأعلى في الصدق، فلا يوجد ما هو أصدق منها، لا خبراً ولا توجيهاً، لا فرق في ذلك بين خبرها عن الغيب، ولا خبرها عن الماضي، ولا خبرها عن أطوار البشرية في حالتي شقائها وسعادتها، وحالتي ضلالها وهدايتها، ولا فرق في ذلك بين توجيهها للفرد المسلم،

وتوجيهها للجماعة المسلمة، وتوجيهها للدولة الإسلامية، وتوجيهها للإنسانية جمعاء، فتوجيهاتها كلها حق وصدق، كما نبَّه كتاب الله إلى أن كلمات الله التي يتضمنها كتابه العزيز هي المثل الأعلى في العدل، فلا يوجد في أحكامها، ولا في تكاليفها، ولا في أوامرها، ولا في نواهيها، ولا في مبادئها التشريعية والأخلاقية، ماينافض مبدأ العدل المطلق، الذي لا عدل فوقه ولا عدل سواه، إذ هو عدل الحَكَم العدل الذي هو أحكم الحاكمين ورب العالمين، فعدله ليس عدل طبقة ضد طبقة، ولا عدل جنس ضد جنس، ولا عدل لون ضد لون، ولا عدل ملَّة ضد ملَّة. وهو فوق الأهواء والشهوات، لأنه عدل «الكامل» الذي لا يلحقه أي نقص، و«الغني» الذي لا تضطره أي حاجة، و«العادل» الذي لا يتصور منه أي ظلم.

ونبَّه كتاب الله في نفس هذا السياق إلى أن ما تحتوي عليه كلمات الله في كتابه المبين من صدق وعدل لا يمكن أن يلحقه نقض ولا إبطال، ولا تغيير ولا تبديل، ولا تحريف ولا تزوير، لأنها أحكام صادرة عن علم الله، وحِكَم منطوية على سر الله، وكلمات محفوظة بحفظ الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ - ﴿ لَوَ اَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَـٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تقرير حقيقة اجتماعية وتاريخية كبرى، حتى لا يضل عنها المسلمون، ولا يختلط عليهم الحابل بالنابل، ألَا وهي أن «معيار الحق» و«معيار الحقيقة» ليس هو كثرة القائلين بالقول، ولا كثرة المقلدين للرأي، فكم من الأكثريات

والأغلبيات إنما تؤيد الباطل، دون الحق، وتسير وراء الأوهام، لا وراء الحقائق، وذلك في جميع عصور التاريخ، وبالنسبة لكافة الدعوات، بحيث كثيراً ما تكون القلة من الناس دون الكثرة هي المتمسكة بالحقيقة، والحريصة على الحق ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولم يكتفِ كتاب الله بتقرير هذه الحقيقة، مجردةً من الحجة الدالة على صدقها، بل عقب عليها بما يكشف السر فيها، فبيَّن أن أكثرية الناس إنما يكتفون في أحكامهم وتصرفاتهم بمجرد الظنون والأوهام، ولا يجدون لا من سعة من الوقت، ولا من سعة الفكر، ما يساعدهم على أن يتبينوا وجوه الضعف فيما يقال لهم وما يعرض عليهم من الآراء الملتوية، والأهواء المستعصية، فينقادون بسهولة لمن يوحون إليهم بتلك الآراء المدخولة، والأفكار المعلولة، من شياطين الإنس والجن، ويسايرون تيار الضلال والتزوير على غير علم، ودون أن يكونوا على بينة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس عشر
فـــي المصحف الكـــريـــم

لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم
بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ
ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ
رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ
قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا
كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ
رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ
يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠
ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن
يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ
كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ
مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا
فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا
كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا
كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ
مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ
لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾
وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن

نَشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٌ
لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم
بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن
يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ
إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩

الربع الثاني من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نستعرض الربع الثاني من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا، وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

في هذا الربع جملة من الآيات الكريمة، يشمل الحديث فيها نوعين من المخلوقات، نوع الإنس الظاهر المعروف، ونوع الجن المستتر المجهول، والحديث هنا مسوق على أساس أن أشرار هذين النوعين من المخلوقات متصلون فيما بينهم اتصالاً وثيقاً، ومتعاونون تعاوناً مستمراً، وعلى أساس أن كلا النوعين تتوجه إليهما الرسالة من عند الله، ويتوجه إليهما التكليف على قدم المساواة، وعلى أساس أن مصير الأشرار من كلا النوعين واحد، وهو العذاب الأليم والخلود في النار.

وواضح أن أمر هذا النوع المستتر المجهول من المخلوقات مما

يسمى باسم «الجن» يعتبر جزءاً من «عالم الغيب» الذي لا يعلمه على حقيقته إلاّ الله، طبقاً للعقيدة الإسلامية، إلى أن يكشف الله أمره للناس إذا شاء ذلك، وفي هذا النوع وما شابهه يجب أن يقف المسلمون عند حدود ما تشير إليه نصوص القرآن الكريم ونصوص السنّة الصحيحة، بدون زيادة ولا نقص، ولا توسع ولا تفصيل.

وغني عن البيان أن الإنسان رغماً عن تطاول العصور وتعاقب الأجيال لا يزال علمه بالحياة والأحياء في مجموع الكون واقفاً عند حد محدود، ولا يزال روّاد البحث يحاولون اكتشاف ما هو مجهول في طبقات كوكبنا الأرضي نفسه الذي هو كوكب الإنسان، منذ أقدم الأزمان، علاوة على محاولاتهم لاستكشاف ما هو مجهول من حياة الكواكب الأخرى، ولم تصل هذه الأبحاث إلى نتيجة حاسمة حتى الآن ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾.

والآيات التي تشير إلى هذا الموضوع في حصتنا اليوم هي قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ ﴾ أي استكثرتم من إغواء الناس وتضليلهم، فأضللتم منهم كثيراً ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ، وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا، قَالَ: النَّارُ مَثْوَيٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا، قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَـٰوةُ الدُّنْيا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمُ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾.

ومما يتصل بهذا المعنى وهذا الموضوع قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوِ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ، قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰباً انزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ، يَاقَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ، أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وهناك سورة خاصة يطلق عليها (سورة الجن)، وفيها جاء قوله تعالى: ﴿ قُلْ اوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً، يَهْدِيٓ إِلَى الرُّشْدِ، فَآمنا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحداً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾.

وفي هذا الربع جملة من الآيات الكريمة تعتبر تحذيراً صارخاً وإنذاراً بالغاً من الحق سبحانه وتعالى لمن يخالفون أمره في كل الأجيال وفي مختلف العصور ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فمنها آية تنذر الظالمين الذين يعتدون على العباد ويضيعون حقوقهم، بأن الله سيسلط عليهم ظَلَمة آخرين يضربون على أيديهم، وينتقمون منهم شر انتقام، وذلك قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّـٰلِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وكما يعم هذا الإنذار الأفراد والجماعات فإنه يعم الدول والحكومات سواء بسواء،

وهذا المعنى هو الذي اقتبسه أحد الشعراء فقال: «وما ظالم إلاَّ سَيُبْلى بظالم».

ومنها آية هي من قبيل «الإنذار قبل الإعذار» تشير إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهلك الأمم ولا يبيدها تعسفاً واعتباطاً دون سابق هداية وإنذار، بل إنه ينبِّهها من غفلاتها المرة تلوَ المرة، ويذكرها بما آل إليه أمر الأمم السالفة التي تمردت على الله من خراب وتدمير، حتى إذا أصرت على إهمال دعوة الرسل، وهجرتها بالمرة، ورمت بها عرض الحائط، ولم تتعظ بالانذارات المتوالية، جاءها الهلاك الماحق، والعذاب الساحق من عند الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْم وأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ وطبقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾.

ومنها آية تنذر المتمردين على الله والمتعدين لحدوده، بالقضاء عليهم وإبادتهم، واستخلاف غيرهم بدلاً منهم، متى فقدوا مؤهلات الخلافة عن الله في الأرض، وأخلُّوا بشروطها الجوهرية، وأول هذه الشروط الإصـــلاحُ دُونَ الإفساد، وثانيها التعمير دون التدمير، وثالثها حفظ التوازن التام، وضمان الانسجام الكامل، بين نواميس الطبيعة وقوانين الشريعة.

وما دامت قدرة الله هي التي يدين لها الإنسان بدءاً وختاماً بإيجاده وإمداده، فإن هذه القدرة لا يعجزها إبادة أمة أو أمم متعددة متى كانت فاسدة، وتعويضها بغيرها من الأمم الصالحة لعمارة

الأرض والاستخلاف فيها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ، إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ، وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾.

ومنها آية تتضمن تقرير سنّة من سنن الله في عباده، ألا وهي إمهاله للظالم دون إهماله، واستدراجه بتمكينه من وسائل التصرف، واستعماله لها أسوأ استعمال، حتى ينتهي إلى نهايته المحتومة، وهي أخذه أخذاً وبيلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأعـراف: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾.

وفي هذا الربع جملة ثالثة من الآيات الكريمة تمس موضوع الحلال والحرام من الحرث والأنعام، فهذا الموضوع كانت الجاهلية قد استحدثت فيه بوحي من أهوائها الفاسدة، وخيالاتها المريضة، عدداً لا يحصى من البدع الوثنية، والضلالات الاعتقادية، مما تولى الإسلام الرد عليه، وإقامة الحجة على فساده وإبطاله، منذ نشأة الإسلام الأولى.

وبمناسبة ذكر «الأنعام» والحديث عنها عدة مرات في هـذه الآيات أطلق على هذه السورة كلها ﴿ سورة الأنعام ﴾ كما أشرنا إلى ذلك في مفتتح هذه السورة الكريمة.

وهذه الآيات تشير في جملتها إلى أن المشركين لسخافة عقولهم كانوا قد خصصوا من الحرث نصيباً لله، كما خصصوا منه للأوثان نصيباً، بحيث إذا حرثوا حرثاً جعلوا منه لله جزءاً وللوثن جزءاً، غير أن نصيب الأوثان هو الذي كان يحظى عندهم بالأسبقية، بحيث إذا ضاع منه شيء عوَّضوه من النصيب الذي ينسبونه لله، وهكذا أساؤوا في مبدأ القسم أولاً، لأن الحق سبحانه وتعالى غني عن خلقه، فهو مالك الملك والملكوت، ثم جاروا في قسمتهم الفاسدة ثانياً، إذ غلَّبوا جانب الأوثان، على جانب ما ينسبونه للرحمٰن، كما أن المشركين حرَّموا على أنفسهم عدداً من الأنعام، ولا سيما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فجعلوها للأوثان، وزعموا أنهم بعملهم هذا إنما يتقربون إلى الله زلفى، افتراء عليه سبحانه في البداية والنهاية، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ومن سخافات المشركين وافتراءاتهم على الله تقسيمهم للأنعام التي بأيديهم إلى عدة أقسام، فمنها ما يباح أكله وما لا يباح، ومنها ما يباح أكله للذكور دون الإناث، حتى إذا كان مَيْتَة أكل منه الجميع، ومنها ما يباح الركوب عليه وما لا يباح، ومنها ما يجمع عند ذبحه بين ذكر الله وذكر الصنم، وما يقتصر فيه عند الذبح على ذِكْرِ الصنم وحده دون ذكر الله، وذلك ما حكاه عنهم كتاب الله، مستخفاً بعقولهم، مستنكراً لمزاعمهم، حيث قال: ﴿ وَقَالُواْ هَـٰذِهِ

أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَآءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ، وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا، وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس عشر
فـي المصحف الكـريـم

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ
سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى
ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ
يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾
ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ
أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً
أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا
أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ
ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ
إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ
عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا

قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ
ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا
تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عبـاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُم سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

في هذا الربع يعيد كتاب الله الكرة على عقائد المشركين وسخافاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، ليهدمها من أساسها، تمهيداً لمحوها وإبادة آثارها من المجتمع، وإحلال تقاليد الإسلام الخالدة محلها إلى الأبد، على هدى من وحي الله، وبيِّنة من دينه الحق، وشريعته الفاضلة، وقد بيَّن كتاب الله في هذا الربع حقيقة الأمر في الحرث والنبات، وحقيقة الأمر في الحلال والحرام من أمر الأنعام.

ففي الموضوع الأول وهو موضوع الحرث والنبات قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الذِيَ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً اكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾.

وهذه الآية تتضمن الإشارة إلى ما خلقه الله من أنواع النبات المختلفة، ما ينبت منها دون تدخل ولا عناية خاصة من جانب الإنسان، وما ينبت منها متوقفاً على تجربة الإنسان التي هداه الله إليها، وعلى عنايته الخاصة ﴿ مَعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾، كما تتضمن نفس الآية الإشارة إلى ما أنشأه الله في النبات من مختلف الأنواع والأشكال والألوان والطعوم ﴿ مُخْتَلِفاً اكْلُهُ ﴾ ﴿ مُتَشَٰبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ مما هو دليل القدرة الواسعة، والنعمة السابغة، ثم قال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حِصَادِهِ ﴾ فدعا خلقه أولاً إلى تناول ما أنعم به عليهم من النبات والثمرات لفائدتهم ولتغذيتهم، ولقضاء حاجاتهم المتنوعة، والمتفرعة على نجاح عملية الإنبات والإثمار، ودعا خلقه ثانياً إلى القيام بأداء حق الله في نفس تلك النباتات ونفس تلك الثمرات، و(حق الله) هو في الحقيقة حق الضعفاء من خلقه، من الفقراء والمساكين، وكافة المحتاجين، وإنما أطلق عليه (حق الله) ضماناً منه سبحانه وتعالى لحقوق الضعفاء والمحرومين، حتى يكون من ضيّع حقهم إنما ضيّع حق الله، ومن أهمل شأنهم إنما أهمل أمر الله، وهو سبحانه الذي يتولى حسابه العسير، على النقير والقطمير ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾.

ثم قال تعالى: في نفس السياق ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ تنبيهاً إلى أمرين اثنين:

الأمر الأول هو الإرشاد إلى عدم الإسراف في الأكل من

الثمرات والنباتات، وهذا يتضمن إرشاداً إلهياً صحياً متعلقاً بصحة المومن العامة، وسلامة جسمه، وثقوب ذهنه، فمن لم يسرف في الأكل وتوابعه، ولم يأخذ منه أكثر من حاجته تمتع بجسم سليم وعقل سليم، ومن أسرف في الأكل وتوابعه أسرع بخطاه إلى العطب والهلاك جسماً وعقلاً، ، وهذا المعنى يؤكده قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ، وَلَا تُسْرِفُوٓاْ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وقوله ﷺ في الحديث الصحيح «كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مَخِيلة».

والأمر الثاني هو الإرشاد إلى عدم الإسراف في الحقوق الاجتماعية التي جعلها الله للغير، وإلى عدم التوسع فيها أكثر من المطلوب، إذا كان ذلك على حساب الحقوق الأخرى التي جعلها الله للنفس والأهل والعيال، وهذا يتضمن إرشاداً إلهياً له مساس بحياة الفرد الاقتصادية. قال ابن جريج: «نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس جذ نخلا له. فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى، وليست له ثمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ رواه عنه ابن جرير الطبري، وقال اياس بن معاوية: «ما جاوزتَ به أمر الله فهو سَرَف» وروى ابن جريج نفسه أيضاً عن عطاء قوله: «نُهُوا عن السرف في كل شيء». واختار ابن جرير الطبري قول عطاء: انه نهي عن الإسراف في كل شيء. قال ابن كثير معقباً عليه: «ولا شك أنه صحيح» ويشهد لهذا المعنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح لسعد بن مالك الذي أراد أن يتصدق بثلثي ماله، فراجعه رسول الله ﷺ حتى اقتصر على الثلث، ثم قال

له: «والثلث كثير، إنك أن تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

وفي الموضوع الثاني وهو موضوع الحلال والحرام من الانعام جاء قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشاً، كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَـٰنِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقاً اهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وكما تناولت سورة الأنعام المكية هذا الموضوع في الآيات التي أشرنا إليها، فقد تناولته أيضاً سورة البقرة وسورة المائدة المدنيتان، ومن مجموع هذه الآيات كلها وما تم فيها من تفصيل وبيان سابق ولاحق، يتبين من جهة: ما جاء به الإسلام من سماحة ورفع للحرج، بالنسبة إلى ما كانت عليه الوثنية الجاهلية وما كانت عليه اليهودية ولا تزال، كما يتبين من جهة أخرى ما دفع إليه الإسلام أتباعه من الإقبال على استثمار الثروة الحيوانية والانتفاع بها إلى أقصى الحدود في المآكل والملابس والمراكب والرياش والأثاث والمتاع.

وهكذا بيَّن الله لعباده بصفته المنفرد وحده بالخلق، والمنفرد وحده بالأمر، أنه قد أنعم عليهم بما خلقه من بهيمة الأنعام بكافة أصنافها، لا فرق بين ذكرانها وإناثها، فلا بَحِيرة ولا سائبة ولا

وصيلة ولا حام في الإسلام، بل إن الانعام كلها يعمها حكم الإباحة وهي حلال طيب، اللهم إلاّ إذا أُهِلّ بها لغير الله، وذكر عليها اسم غير اسم الله، وكما أنعم الله بالأنعام على الإنسان ليتناول لحومها، فقد أنعم عليه بها ليركبها ويحمل أثقاله عليها، وليتخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها وجلودها ملابس يلبسها ومفارش يفرشها ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ وفي هذا السياق حصر كتاب الله أنواع المأكولات المحرمة عند الاختيار وعدم الاضطرار في أربعة أشياء:

ـ أولها: الميتة التي كان المشركون يأكلونها ويفضلونها على الذبيحة، وتلحق بها المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع مما سبق لنا تفسيره في سورة المائدة.

ـ وثانيها: الدم المسفوح المهراق الجاري، وبهذا يخرج اللحم الذي يخالطه الدم فهو حلال، ومثله الكبد والطحال فهما حلال، لأنهما دمان غير سائلين.

ـ وثالثها: لحم الخنزير، واللحم هنا يشمل بإطلاقه الشحم نفسه، فهو يدخل تحته دخولاً معنوياً وأولياً.

ـ ورابعها: ما ذبح شِرْكاً ووثنية وفسقاً، مما أهل به لغير الله، ويلحق به ما ذبح على النُّصُب، وما استُقسِم لحمه بالازلام.

فهذه هي خلاصة الأحكام الإلٓهية التي أوحى الله بها إلى رسوله في شأن بهيمة الأنعام من الحيوان، التي خلقها الله وسخرها لمصلحة الإنسان، وما عداها من الأضاليل والأغاليط والأوهام الوثنية في هذا المقام إنما هو مجرد زور ومحض بهتان.

وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ، وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الانعام لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الانعام بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وجميع هذه الآيات واردة في سورة النحل، وهي من سور القرآن المكية.

وبعدما أفحم كتاب الله المشركين بحججه البالغة، وسفَّه معتقداتهم الباطلة في مجال الحلال والحرام، من الحرث والانعام، واصل تقريعهم بآياته البيِّنات، وطالبهم بالحجة على ما يدَّعون ـ وهو يعلم أنهم لا يملكون حجة ولا علماً ـ وإنما يملكون جهلاً ووهماً ـ كما طالبهم بالشهود على ما يدعون من أن الله حرَّم ما يحرِّمون وأحلَّ ما يحلُّون ـ وهو يعلم أنهم لا يملكون شاهداً واحداً يثبت دعواهم، اللهم إلاَّ إذا كان من شهود الزور المبطلين ـ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وختم كتاب الله الجدل معهم في هذا الربع بختامه المنطقي الوحيد، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ، إن

تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ، قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيكُمْ أَجْمَعِينَ، قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا، فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَالذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس عشر
في المصحف الكريم

قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ
بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم
مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾
وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ
ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ
هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ
طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾
أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ
ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ
ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا
مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ
فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ
بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِيَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾



الربع الأخير من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰناً ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَيكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

بهذا الربع ختمت ﴿ سورة الأنعام ﴾ التي تعتبر بمنزلة الأم لكل ما نزل بعدها بمكة من القرآن الكريم، جولتها الحاسمة ضد معتقدات المشركين وبدعهم الضالة، بعدما أصلتها ناراً حامية من حجج الله البالغة، فتناثرت أشلاؤها، وتبخرت أهواؤها، وبرزت عقائد الشرك على حقيقتها سفهاً لا يلحقه سفه، وبلهاً لا يعـدله بله، على حد ما قاله ابن عباس رضي الله عنه، فجاء هذا الربع الأخير من سورة الأنعام بخلاصة الخلاصة ولب اللباب، وبما يشبه فذلكة الحساب، يوضح خصائص الملة الإسلامية، ويجمل مبادئها النظرية والعمليـة، ويحدد معالمها الاعتقادية والأخلاقية، وذلك في شكل وصايا إلٰهية لقَّنها الحق سبحانه وتعالى لرسوله الأعظم ﷺ،

وأمره بتلقينها لأمته من بعده وتبليغها للناس كافة، حتى يهتدوا بهديها، ويُعوِّضوا ما هو شر وأذى من عقائد الشرك وبدعه، بما هو خير وأبقى من عقائد الإسلام وبدائعه، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّيٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ - ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّيٰكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّيٰكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

ولهذا المعنى قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

ورعياً للتناسب مع السياق الذي كانت عليه الآيات الكريمة في الربعين الماضيين، وهو سياق ما حرمته الجاهلية على نفسها من الحرث والانعام، مما سفَّهه وأبطله الإسلام، ابتدأ هذا الربع بقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قل يا محمد للمشركين إذا أردتم أن تعرفوا ما هو حرام عليكم، عن علم وبيِّنة، وعلى هدى من الوحي الإلهي الصحيح، فتعالوا لتسمعوا كلام الله الجامع المانع، وتعرفوا ما هو أساس الحرام وأصله، وما هو الحرام الذي لا حرام يعدله ولا حرام يفوقه، ألَا وهو الشرك، وها هو الحق سبحانه وتعالى: يوصيكم قبل كل شيء ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ فالشرك هو أب الحرام، والشرك هو منبع الحرام، والشرك هو الكمامة التي يضعها الشيطان على عين الإنسان وعقله وقلبه، فيقتاده كالبهيمة العجماء، ويوسوس إليه بما يشاء، ويسخره لما يشاء، ولولا الشرك لما نشأ عند المشركين هذا النظام الفوضوي

الفاسد، ولا نشأت عندهم هذه التقاليد الاجتماعية السخيفة، ولا ثبتت في عقولهم هذه الأفكار الطفيلية الوضيعة، فالشرك هو علة العلل في الفساد الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي، ولا دواء له إلا عقيدة التوحيد الإسلامية، التي تحرر الفكر والعقل من سيطرة الخيالات والأحلام، وتحرر القلب والنفس من سيطرة الأهواء والأوهام، وتعرِّف الإنسان بوضعه الطبيعي الصحيح بين سلسلة المخلوقات، وبعلاقته الطبيعية مع الكون والمكون، والخلق والخالق، فينطلق لأداء رِسالته متحرراً من جميع العقد النفسية، واثقاً من نفسه وواثقاً بالعناية الإلٓهية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾.

وبعدما حدد كتاب الله المحرمات وقصرها في هذا السياق على الشرك وحده، باعتبار أن الشرك هو أب المحرمات ومنبعها الأساسي، كما أن الخمر هي «أم الخبائث» ابتدأ يعرض جملة من الوصايا الإلٓهية التي لا يقوم الإسلام بدونها.

فأشار إلى حقوق الوالدين وما يجب على الأولاد لهما من معاملة كريمة و﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ كما أشار إلى حقوق الأولاد وما يجب على آبائهم من تضحية في سبيلهم، وبيَّن كتاب الله أن نزول الفقر والإملاق بالوالدين لا ينبغي أن يكون مبرراً لقتل ما ولد لهم من الأولاد وسفك دمائهم، كما كان يفعل بعض المشركين بأولادهم عندما يصيبهم الفقر الإملاق ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فالله تعالى يتكفل برزق الوالدين الفقراء كما يتكفل برزق أولادهم، وهذه الوصية الإلٓهية

مرتبطة بصالح الأسرة كل الارتباط، وهي دعوة صريحة إلى وجوب التكافل فيما بينهَـا: تكافل الأولاد مع الوالدين، وتكافل الوالدين مع الأولاد، بحيث يكون كل من الطرفين في خدمة الآخر، مسرعاً في كل وقت إلى معونته، مستعداً للتضحية في سبيله ونجدته دائماً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰناً، وَلاَ تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنِ إِمْلَـٰقٍ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

ومن لطائف التفسير في هذا المقام ما لاحظه ابن كثير رحمه الله من الفرق بين هذه الآية ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ بتقديم رزق الآباء على الأولاد، والآية الأخرى الواردة في سورة الإسراء ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بتقديم رزق الأولاد على الآباء، وهو أن الآية الواردة في هذا الربع تتحدث عن الآباء الفقراء فعلاً، فجاء قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ بتقديم رزق الآباء على رزق الأولاد، لأنه هو الأهم ههنا في السياق، بخلاف الآية الأخرى الواردة في سورة الإسراء، فقد جاء فيها ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾، مما يدل على أن الآباء غير فقراء فعلاً، وإنما يخشون الفقر بسبب الأولاد، فأمِروا بأن لا يقتلوا أولادهم، خوفاً من الفقر الذي يمكن أن يحدث لهم في مستقبل الأيام، ثم جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي نحن نرزق أولئك الأولاد كما نرزقكم، وكان البدأ هنا برزق الأولاد للاهتمام بهم، حيث إن رزقهم هو محور الحديث، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فرزقهم على الله لا عليكم.

وانتقل كتاب الله من وصيته الخاصة بالأسـرة المسلمة إلى

وصايا أخرى تتعلق بالمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على العموم.

ففيما يخص المجتمع الإسلامي أوصى الله المسلمين بالابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها كالزنى وما بطن كالمخادنة، وذلك صيانة للأعراض، وبعداً عن الاختلاط المرذول، المؤدي إلى اختلاط الأنساب واختلاط الدماء، كما أوصى الله المسلمين بصيانة أموال يتاماهم الذين هم وديعة الله في أيديهم، وبِحُسن إدارة أموالهم وتنميتها، إعانة لهم، وسعياً إلى تكوين مواطنين صالحين منهم، قادرين على مواجهة مسؤوليات الحياة عندما يبلغون رشدهم وأشُدَّهم، وأوصاهم أيضاً بأن لا يختلس بعضهم مال بعض، ولا يضيع بعضهم حق بعض، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾.

وفيما يخص الدولة الإسلامية أوصَى الله المسلمين بالمحافظة على أرواحهم، وإقرار الأمن العام في حياتهم، وعدم التقاتل والتهارش فيما بينهم، وإقامة العدل على وجهه الكامل في أحكامهم وتصرفاتهم، والحرص على الوفاء بعهودهم فيما بينهم بعضهم مع بعض، وفيما بينهم وبين غيرهم من الأمم والملل الأخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ﴾.

وختم كتاب الله هذه الوصايا بوصية جامعة مانعة هي وجوب التزام المسلمين لدينهم، وضرورة تمسك المسلمين بوحدتهم، وذلك

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

ونوه كتاب الله مرة أخرى في ختام هذه السورة بملة الإسلام، وهداية رسوله والمومنين إليها ﴿قُلْ إِنَّنِي هَـدَانِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

وضرب كتاب الله المثل للمسلمين كيف يتوجهون إليه في صلاتهم، وكيف يعبدون الله خاشعين مطيعين، وكيف يُسخِّرون جميع طاقاتهم ومواهبهم في سبيله، وكيف يجب أن يحيوا ويموتوا من أجله وابتغاء مرضاته، فلقَّن الحق سبحانه وتعالى نبيه قائلاً ليكون ذلك قدوة لأمته: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيَ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) تعليقاً على هذه الآية: «فإن قيل: أوليس إبراهيم قبله؟ قلنا: عنه أجوبة، أظهرها الآن انه أول المسلمين من أهل ملته». وقال الزمخشري: «هو أول المسلمين، لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته». ونبه ابن العربي المعافري إلى أن من يستعمل هذا الابتهال عند افتتاح الصلاة ينبغي أن يقول في آخرها: «وأنا من المسلمين» ولا يقول «وأنا أول المسلمين»، إذ ليس أحد بأولهم إلاَّ محمداً ﷺ ».

وفي هذا الربع آية كريمة ينبغي الوقوف عندها وقفة خاصة، ألَا وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَيٰكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فقد حملها بعض المفسرين على استخلاف البشر عموماً، وحملها بعضهم على استخلاف المسلمين خصوصاً، وهي صالحة لكلا الوجهين عند التحقيق، إذ لا تعارض بينهما:

أما تفسيرها على الوجه الأول وهو أن الخطاب فيها موجه إلى عموم البشر، فمعناه أن الله تعالى قد اقتضت حكمته أن يتعاقب البشر على عمارة الأرض جيلاً بعد جيل، بحيث لا ينقرض منهم جيل حتى يكون جيل آخر قد خلفه في عمارتها، إلى أن يحين أجل الفناء، لكل من عليها من الأحياء، كما تنبه الآية في نفس الوقت إلى ما يوجد من تفاوت بين الناس في الدرجات والمقامات، تبعاً لتفاوتهم في الطباع والأخلاق، والطاقات والأرزاق، وتشير الآية بعد ذلك إلى ما يؤدي إليه هذا التفاوت من ابتلاء للبشر وامتحان، وسباق في الرهان، مما يتعرض معه الإنسان ـ إن أساء ـ للحساب والعقاب، وإن أحسن استحق المغفرة والرضوان، على غرار قوله تعالى في آية ثانية ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي الْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ـ [يونس ـ ١٤] وقوله تعالى في آية ثالثة ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ـ [هود ـ ٦١].

وأما تفسيرها على الوجه الثاني، وهو أن الخطاب فيها موجه إلى المسلمين قبل غيرهم، فمعناه أن الله تعالى محقق وعده للمسلمين بالنصر والتمكين، والاستخلاف في الأرض على عباده

المستضعفين، ان اهتدى المسلمون بهديه، ولم يخالفوا عن أمره ونهيه، ولم يتخلفوا عن الاستجابة لنداء الإيمان كلما دعاهم في السر والعلن، والإقامة والظعن، وإلاّ استحقوا العقاب بدل الثواب، والنقمة بدل الرحمة، وهذا التفسير ينظر إلى قوله تعالى: في سورة النور الآية ٥٣ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ، وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقوله تعالى في سورة الحج الآية ٣٩ ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ
بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا
تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ
إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥) فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا
كُنَّا غَآئِبِينَ (٧) وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟

أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ
لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾
قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن
نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾
قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ
ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ
وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ
شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا
مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا

هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ
ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾

الربع الأول من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

في حصة هذا اليوم نشرع في تفسير الحزب السادس عشر من المصحف الكريم، وأول ربع فيه يبتدىء بقوله تعالى في فاتحة سورة الأعراف: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓمٓصٓ، كِتَٰبٌ انزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ، وَلَا تُسْرِفُوٓاْ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

وأحسن ما ينبغي تقديمه في مطلع هذا الحديث هو التعريف بسورة الأعراف قبل الشروع في تفسير آياتها على وجه التفصيل.

لقد كانت (سورة الأعراف) هي أطول سورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمكة، وهي ثالث سورة مكية تقع في المصحف الكريم حسب ترتيبه المعهود، بالإضافة إلى سورة الفاتحة وسورة الأنعام المكيتين، وتعتبر أوفى سورة عالج فيها الوحي الإلهي بالشرح والتوضيح مجموع العقائد الأساسية للدعوة الإسلامية التي هي خاتمة الرسالات الإلهية. وهي في نفس الوقت أول سورة اعتنت عناية خاصة بعرض قصص الأنبياء السابقين مع أممهم على أنظار الأمة

الإسلامية، وجميع الأجناس البشرية، إعانة لها على التبصر والاعتبار، وتجنب الموبقات والأخطار، فتحدثت عن آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم الصلاة والسلام، وقد خصصت سورة الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها من بين هذه القصص قصة موسى وبني إسرائيل، بمزيد من الاستيعاب والتفصيل، مما يساعد على تفهم الأطوار الغريبة التي مر بها هذا العنصر المتمرد العليل، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِي الاَرْضِ أُمَماً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾.

والطابع الغالب على هذه السورة هو طابع الإنذار، والوعيد بالهلاك والدمار، لكل من يكذب بآيات الله، ولا يشكر نعمة الله، ويستكبر عن طاعة الله، ويتولى غير الله، كقوله تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتاً اَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ، أَوَامِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ، فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾.

وأطلق على هذه السورة اسم ﴿ سورة الأعراف ﴾ أخذاً من قوله تعالى فيها ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾، وقوله تعالى فيها أيضاً: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ، قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

وسورة الأعراف هي إحدى السور التسع والعشرين في كتاب الله التي بدئت ببعض حروف التهجي، وكما بدئت بها سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بدئت بها سورة الأعراف أيضاً ﴿ الٓمٓصٓ، كِتَابٌ انزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾ وكان في ذلك المطلع تنبيهاً إلى أن كتاب الله وإن كان مؤلفاً في ظاهره من جنس حروف التهجي التي هي في متناول كل من ينطق باللسان العربي من مختلف الأجناس، إلَّا أن البشر لا يستطيعون أن يؤلفوا من تلك الحروف إلَّا كلاماً عادياً وأوزاناً، بينما الحق سبحانه وتعالى ينزل بها على رسوله قرآناً معجزاً وفرقاناً، ويودع فيها من سر علمه وحكمته هدىً وتبياناً.

وكما تحدثت سورة الأعراف في بدايتها عن كتاب الله فكان براعة الاستهلال ﴿ كِتَابٌ انزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾ تحدثت في نهايتها عن كتاب الله أيضاً، فكان مسك الختام وفصل المقال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

والآن فلنتجول في هذا البستان الإلٰهي النضير، تجول المتبصر المستنير، ولنقف ولو وقفة قصيرة عند بعض زهراته، عسى أن نستمتع بعبير نفحاته.

يقول الله تعالى: في خطابه لنبيه خطاب القريب للقريب: ﴿ الٓمٓصٓ ،كِتَٰبٌ انزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾ فها هنا يمتن الحق سبحانه وتعالى على نبيه باختياره للنبوة من بين سائر العرب، واصطفائه للرسالة من بين كافة البشر، ومعنى ذلك أنه قد وقع الاختيار عليه بدلاً من غيره لحكمة إلٰهية، وأنه مكلف في هذه الأرض بأداء رسالة سماوية سامية ﴿ كِتَٰبٌ انزِل إِلَيْكَ ﴾ إليك يا محمد، لا إلى غيرك من العرب والعجم، فأنت خاتم الرسل إلى كافة الشعوب والأمم. والبشر بالنسبة إلى هذا الكتاب الإلٰهي الحكيم نوعان: (مومنون) يتوجه إليهم كتاب الله بالتذكير والوعد والبشارة، و(مكذبون) يتوجه إليهم بالتحذير والوعيد والنذارة ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾.

ونظراً لما يفرضه القيام بأداء هذه الرسالة الثقيلة الأعباء، من صبر وجلد وتضحية، وكفاح متواصل الحلقات، مع ما يستتبعه ذلك من مواجهة الصدمات والأزمات، وَجَّه الحق سبحانه وتعالى خطابه الرقيق الرفيق إلى خاتم رسله، قائلاً له تثبيتاً لفؤاده، وتشجيعاً له على بلوغ مراده، ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي فلا تتحرج في إبلاغه والإنذار به، لأن الله تعالى قد تعهد في الأزل بأن يشرح صدرك ويعصمك من الناس ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ـ ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وإذن فما عليك أيها الرسول إلاّ أن تقوم

بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة، ولا يضق صدرك بتكاليف الوحي المنزل، فإنك مؤيد معان، والله المستعان، على غرار قوله تعالى في آية أخرى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾.

وبهذا التفسير الواضح يصبح وضع الآية في معناها المراد على النحو الآتي: ﴿كتاب أنزل إليك، لتنذر به وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ والتقديم والتأخير أسلوب من أساليب البلاغة المعروفة عند العرب، فقد يقدمون اللفظ على موضعه الطبيعي من الجملة، تنبيهاً إلى أن معناه هو محور الحديث، وإلى أن السياق مرتبط به أكثر من غيره، حتى يلتفت إليه ذهن المخاطب التفاتاً خاصاً.

قال القاضي أبوبكر (ابن العربي): «إن كان «الحرج» هو الشك، فقد أنار الله فؤاده (أي النبي) باليقين، وإن كان هو التبرم، فقد حبَّب الله إليه الدين وخفَّف عليه ثقل العبادة، حتى جعلت قرة عينه في الصلاة، وإن كان هو الضيق، فقد وسع الله قلبه بالعلوم وشرح صدره بالمعارف، وذلك مما فتح الله عليه من علوم القرآن».

وإذا كان الخطاب الإلهي قد توجه إلى رسوله الأعظم مباشرة بوجوب أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، دون تهاون ولا تردد ولا اعتذار، فإن توجيه هذا الخطاب الإلهي عن طريقه إلى كافة ورثته من أمراء المومنين وعلماء المسلمين يكون من باب أولى وأحرى، إذ لا يبرر إهمال هذا الواجب أو التهاون فيه أيّ مبرر شرعي أو عقلي، قال القاضي عبد الجبار: «وإذا بعثه الله تعالى ـ أي بعث نبيه ـ على الأداء، وتوعده على تركه، فغيره بذلك أولى».

وبمجرد ما انتهى الخطاب الإلهي من التوجه إلى الرسول الأعظم ﷺ في شأن نزول القرآن عليه لنذارة المكذبين، وبشارة المومنين، انتقل الخطاب الإلهي مباشرة إلى المومنين بالله ورسوله، ليحدثهم في شأن نزول القرآن عليهم، إذ كما أنزل عليه لتبليغه والإنذار به أنزل عليهم لاتباعه وطاعته في السراء والضراء، والسير في حياتهم على محجته البيضاء، فقال تعالى: ﴿ اتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ تنبيهاً على أن كتاب الله نزل للعمل قبل التبرك، ونزل للأحياء قبل الأموات، وتقريراً لكونه الدستور المقدس والقانون الأعلى، الحاكم على غيره، والمهيمن على سواه في جميع المجالات.

وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إشارة إلى عناية الله بخلقه، ورعايته لهم، وإلى تمهيد جميع الوسائل لتربيتهم والأخذ بيدهم، وتقويم سلوكهم، حتى يسلكوا طريق السعادة، وينالوا الحسنى وزيادة.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا معنى هذه الآية - اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم - أحِلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، واستبيحوا مباحه، وَارْجوا وعده، وخافوا وعيده، واقتضوا حكمه، وانشروا علمه، وفضُّوا خاتمه، وألْحِقوا به ملائمه».

وبعدما تناولت الآيات الكريمة مصرع الظالمين، وأكدت أن المرسل إليهم سيسألون يوم القيامة بمحضر الأنبياء والمرسلين، ووصفت ما تكون عليه موازين المفلحين وموازين الخاسرين، وبيَّنت

ما خص الله به النوع الإنساني من تمكين وتكريم، وكيف خلقه في أحسن تقويم، وبعدما عرض كتاب الله قصة آدم وإبليس التي تناولناها من قبل، بمناسبة عرضها في سورة البقرة، وعند الإشارة إليها في سورة آل عمران، وبعدما لفت كتاب الله النظر إلى ما أثاره أمر الله للملائكه بالسجود لآدم، من حوار واستفسار، وجه الحق سبحانه وتعالى أربعة نداءات إلهية إلى الناس كافة، يصفهم فيها بوصفهم المشترك العام، وهو بنوتهم جميعاً لآدم عليه السلام، تذكيراً لهم بنعمة الوحدة، الوحدة الإنسانية المتمثلة في تناسلهم وتسلسلهم من أب واحد، واشتراكهم في رحم واحد، هو رحم الأدمية وَالإنسانية، ذلك الأمر الذي يجب أن يكون باعثاً لهم على التعاطف والتراحم، لا على التقاطع والتلاحم، وهذه النداءات الأربعة هي الوحيدة من نوعها الواردة في كتاب الله بهذا الوصف الجامع ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾، أحدها سيرد في الربع القادم، وهو قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

والثلاثة الباقية منها واردة في هذا الرُّبُع:

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ، ذَٰلِكَ مِنَ آيَـٰتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ ـ الآية ـ.

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ
يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا
وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ
ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٞ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟
ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾
قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى
ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا
قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا
ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ
لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾
وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا
حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ
بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا
حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ
أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾

الربع الثاني من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَـٰتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾.

وهذا الربع يتحدث أكبر عدد من آياته الكريمة، عن مشاهد يوم القيامة وأهوالها العظيمة، فيصف أحوال أصحاب الجنة وأصحاب النار، ويعرض ما يتبادله الفريقان من النداءات والأحاديث والحوار.

ولفهم الأيات الأولى في هذا الربع، وربطها بما سبقها، نرى من المناسب أن نعود إلى بعض آيات الربع الماضي، فقد رأينا فيه كيف امتن الحق سبحانه وتعالى على عباده بما مكَّنهم في الأرض من حياة واستقرار، إذ جعلها مسخَّرة لهم، ووضعها تحت تصرفهم، ولاءم بين طبيعتها وطبيعتهم، وآتاهم فيها من أسباب الكسب ووسائل العيش ما يطيب معه القرار، وإن كان شكرهم لله لا يتناسب مع واسع عطائه، وكثرة نعمه وآلائه ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ

فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾. كما رأينا فيه كيف امتن سبحانه وتعالى على عباده بما خصهم به دون غيرهم من بقية المخلوقات، من نعمة الستر، وما آتاهم من المواد الصالحة لاستعمال اللباس الذي يواري سوآتهم، ويستر عوراتهم، وما أكرمهم به من الرياش والمتاع والأثاث زيادة في التوسعة عليهم، حتى يستوفوا حظهم، في العيش الكريم، من الضروريات والحاجيات والكماليات، ثم ما أعدّه لهم من لباس التقوى الذي هو أبهى لباس وأشرف حلّة يتزين بها عباده المتقون ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدَ اَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ، ذَٰلِكَ مِنَ آيَـٰتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَـٰمِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعَنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنَ اَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثاً وَمَتَـٰعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾. ودعا الحق سبحانه وتعالى عباده إلى أن يُظهِروا نعمة الله عليهم فيتجمّلوا ويتزيّنوا، ولا سيما في مواطن الخير، كبيوت الله والمناسبات الدينية وما شابهها ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، كما دعاهم سبحانه إلى أن يقبلوا على مائدته الكريمة، ليتناولوا منها ما لذّ وطاب، لكن حذرهم في نفس الوقت من مَغَبّة الإسراف في الأكل والشراب، حفظاً لصحتهم الغالية، وإعانة لهم على القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية، ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ، وَلَا تُسْرِفُوٓاْ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾.

وبعدما لفت كتاب الله في الربع الماضي أنظار عباده إلى المنن التي امتن عليهم بها، ودعاهم إلى التنعم بها دون إسراف ولا إفراط، توجه الخطاب الإلهي في هذا الربع إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، داعياً إياه إلى التصدي بالرد على كل من يَدْعُون الناس إلى أن يعيشوا عيشاً غير كريم، والرد على كل من يَدْعونهم إلى أن يظهروا في المجتمع بمظهر دَميم، مبيناً لرسوله أن ذلك منهم مجرد تقوُّل على الله وادعاء، ومحض افتراء، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَـٰتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ أي أن الله تعالى أباحها، ودعا عباده إلى استعمالها، وما دام الحق سبحانه هو وحده المختص بالتحليل والتحريم وقد أحلَّها ولم يحرمها، فليست إذن بحرام.

ومما يستلفت النظر تعبير الآية الكريمة هنا بكلمة ﴿ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ على حد التعبير الوارد في آية أخرى بكلمة ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾. فـ ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ وهي الإسلام تنسجم مع ﴿ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ تمام الانسجام، والتزمُّت والرهبانية والحرمان إنما هي بِدَع ابتدعها المنحرفون عن الفطرة السليمة، من أتباع الملل والمذاهب السقيمة.

وقوله تعالى هنا: ﴿ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ تنبيه إلى أن الحكمة الإلهية فيما خلقه الله من زينة وطيبات إنما هي إكرام الإنسان بسد حاجاته الضرورية، والترفيه عليه بشتى المتع والهبات الكمالية، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ والطَّيِّبَـٰتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ يقتضي أن الخبائث من الرزق حرام وغير حلال، ومن أجل ذلك وصف الله رسوله في كتابه بقوله: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰئِثَ ﴾ ومن الرزق الخبيث ما كان حاصلاً عن سرقة أو اختلاس أو غصب أو كسب غير مشروع.

ثم عقَّب كتاب الله على هذه الحقيقة الدينية بالتلويح إلى حقيقة كونية قائمة، ألَا وهي أن زينة الله ورزقه يشترك في تناولهما والانتفاع بهما في هذه الحياة الدنيا المومن والكافر، والبَرُّ والفاجر، بمقتضى حكمته الإلٓهية، ورحمته الربانية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ ـ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾. لكن إذا كانت الشركة في زينة الله ورزقه قائمة في هذه الدنيا، فإن هذه الشركة ترتفع وتزول، ولا يبقى لها أي أثر في الدار الآخرة، إذ هناك ينفرد المؤمنون وحدهم دون الكافرين بزينة الله ورزقه الأعظم انفراداً تاماً، تمييزاً لهم وإكراماً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا مخاطباً لنبيه ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «يعني أن الكفار يشاركون المومنين في إستعمال الطيبات في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة خلصت للمومنين في النعيم، وكان للكفار العذاب الأليم».

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى تقعيد قاعدة أساسية تستحق أن نقف عندها وقفة خاصة، إذ تعتبر هي المعيار الوحيد الذي حدده الشرع لتمييز الحلال من الحرام، وذلك قوله تعالى مخاطباً لنبيه ومُلَقِّنًا

إياه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ، وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـناً، وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبموجب هذه الآية أعلن الحق سبحانه وتعالى أنه لم يحرم على خلقه شيئاً من الطيِّبات، فقد أحلَّها لهم جميعاً، وإنما حرَّم عليهم الخبائث، الخبائث بطبيعتها، والخبائث بآثارها، ومنها الفواحش، و«الفاحشة» هي ما يشتد قبحه من الذنوب كما عرَّفها الإمام الزجاج، سواء كان الذنب عبارة عن عقيدة فاسدة، أو عن قول فاسد، أو عن عمل فاسد، فالعقيدة الفاسدة كأن يشرك الإنسان بالله غيره ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـناً ﴾، والقول الفاسد كأن يتقوَّل على الله ما لم يقل، ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾، والعمل الفاسد كأن يصلي بالمسجد أو يطوف بالكعبة وهو عريان، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة من قبل في هذه السورة ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَاءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ ﴾ وكأن يرتكب الإنسان فاحشة الزنى، أو فاحشة اللواط، أو يتزوج بزوجة أبيه، وإلى المثال الأول أشار قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَـحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾، وإلى المثال الثاني أشار قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَـحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾، وإلى المثال الثالث أشار قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّهُ كَانَ فَـحِشَةً وَمَقْتاً، وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾.

ومن الثابت في الكتاب والسنَّة أن الطاعات التي يرضى عنها

الله ورسوله هي عبارة عن المعتقدات والأقوال والأعمال الصالحة، التي تتحقق عن طريقها سعادة الفرد، ورفاهية المجتمع، واستقرار الدولة، طبقاً للتخطيط الإلّهي الذي لا يختل، والتوجيه السماوي الذي لا يضل، ويعكس ذلك المعاصي والذنوب التي يحذّر منها الله ورسوله، فهي تلتقي كلها في نقطة واحدة: فساد الفرد، وفساد المجتمع، وفساد الدولة، وما من معتقد أو قول أو فعل حرّمه الله ورسوله إلاّ ويتبين عند تحليله وتعبيره أنه عامل من عوامل الشقاء والفناء، ولو لم يتبين أثره إلاّ بعد مرور الأيام، إلاّ أن المعاصي والذنوب ليست على درجة واحدة، فمنها ما ضرره أقل، ومنها ما ضرره أكثر، ومنها ما ضرره قاصر على مرتكبه وحده، ومنها ما ضرره يقع على مرتكبه ويتعداه إلى الغير، ومن أجل ذلك كان في الذنوب ما هو من قبيل «الصغائر» وما هو من قبيل «الكبائر»، وقد أوضح الإمام الغزالي أنه ما من ذنب إلاّ وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. ومن اختيارات الإمام الحليمي: أنه ما من ذنب إلاّ وفيه صغيرة وكبيرة، وقد تنقلب الصغيرة كبيرة بقرينة تُضَمُّ إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة بقرينة تضم إليها، إلاّ الكفر بالله، فإنه أفحش الكبائر، وليس من نوعه صغيرة، مثال ذلك: القُبْلة يفعلها الرجل مع غير أهله تعتبر من الصغائر، لكن إذا فعلها مع زوجة جاره أصبحت من الكبائر، لمضاعفة ذنب القُبلة بهتك حُرمة الجوار، ومثال آخر: إذا زنى الرجل بامرأة يكون قد ارتكب كبيرة، فإن زنى بزوجة جاره كان قد ارتكب فاحشة، وهي أعلى درجات الكبيرة، لمضاعفة ذنب الزنى بالاعتداء

على عِرْض الجار، ورد في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود أنه سأل رسول الله ﷺ أيّ الذنب أعظم، فقال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطعَم معك. قلت ثم أي؟ قال: أن تُزاني حَليلة جارك. وهكذا يكون ترتيب الذنوب والمعاصي حسب التدرج من الأدنى إلى الأعلى، صغائر، ثم كبائر، ثم فواحش.

ويشهدُ لِوجود هذه الأصناف الثلاثة من الذنوب عدة آيات وردت في كتاب الله، منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَيٰهَا، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ وقوله تعالى في سورة النجم في وصف المومنين ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى، الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ قال ابن كثير: وهذا استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

وقوله تعالى هنا: ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ بعد ذكر الفواحش وإعلان تحريمها بصفة عامة تنبيه إلى أن الإسلام لا يكتفي من معتنقيه بالشكليات والظواهر، ولا يرضى منهم بالنفاق، وإنما ينفذ إلى الأعماق والبواطن، فالنية الفاسدة والقصد السيِّىء والخلق المرذول الذي ينطوي عليه الشخص باطناً، والعمل القبيح الذي يتستر به عن الأعين، كل ذلك يعتبره الإسلام ذنباً ومعصية وفاحشة يؤاخذ بها المكلف، مثل ما يؤاخذ بالفواحش الظاهرة، والإسلام حريص على أن يكون الظاهر عنوان الباطن بالنسبة

للمسلم، لا أن يكون ظاهره مجرد واجهة براقة تخلب الأبصار، وتخدع الأغرار، وفي نفس هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ نبه القاضي أبو بكر (ابن العربي) إلى أن ذكرهما بالاسم الخاص بعد دخولهما في الاسم العام ـ الفواحش ـ إنما هو لتأكيد أمرهما قصد الزجر عنهما، نظير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فذكر النخل والرمان بعد دخولها في الاسم العام ـ الفاكهة ـ للتنويه بهما في نفس المقام، «والاثم» عبارة عن الذم الوارد في الفعل، أو عبارة عن نفس الوعيد الذي يتناول الفعل، «والبغي» تجاوز الحد والتعدي على الغير، فكل فعل ذمه الشرع واستقبحه، أو ورد في شأنه الوعيد بالعقاب على لسان الشارع يعتبر فعلاً محرماً، وفسر بعضهم «الاثم» بأنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، و «البغي» بأنه الخطايا المتعدية منه إلى بقية الناس، وقوله تعالى هنا: ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ تنبيه إلى أن معيار البغي والظلم الذي يميزه عن غيره هو أن يكون عملاً غير مستند إلى أيّ سند من الحق، لا أن البغي منه ما يكون بحق، ومنه ما يكون بغير حق، فذلك بعيد عن التصور. جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أغْيَرُ من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وروى الإمام أحمد بسنده إلى عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياكِ ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً» ورواه

النسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن مسلم. وروى الطبراني بسنده إلى سعد بن جنادة قال: «لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: اجمعوا، من وجد عوداً فليأتِ به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأتِ به. قال: فما كان إلاَّ ساعة حتى جعلناه ـ أي ذلك القفر من الأرض ـ ركاماً ـ أي متراكماً بعضه فوق بعض. فقال النبي ﷺ: «أترون هذا، فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتقِ الله رجل، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه».

الربع الثالث من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ

ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾

الربع الثالث من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حصة هذا اليوم هو الربع الثالث من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية الربع ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾.

في أول هذا الربع يتحدث كتاب الله عن أصحاب الجنة وأصحاب النار، وحديثه عن هذين الفريقين دون ثالث لهما هو المعهود المتعارف من بداية القرآن الكريم إلى نهايته، لكنه يضيف إليهما في هذه السورة بالخصوص «أصحاب الأعراف» الذين باسمهم سميت هذه السورة ﴿سورة الأعراف﴾ فمن هم أصحاب الأعراف هؤلاء؟ وما المراد بكلمة الأعراف؟.

عندما نستفسر معاجم اللغة العربية نجد أن كلمة «أعراف» هي جمع لكلمة «عُرْف» ومن معاني كلمة «عُرْف» المكان المرتفع، وظهر الجبل وأعلاه، ومن معانيه السُّور الذي يحيط بمدينة أو قصر.

وبقريب من هذا المعنى جاءت كلمة «عَرَفة» و «عَرفات»، الدّالة على الجبل المقدس الذي يقف فيه حجاج بيت الله الحرام قرب مكة المكرمة يوم تاسع ذي الحجة من كل عام. قال ابن جرير الطبري: «والأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً».

«فالأعراف» يمكن حملها على أنها مواقع عالية في الدار الآخرة تشرف على الجنة والنار، وهي بمنزلة خط المرور المحروس الذي يمر عليه القادمون من سفر، لرقابتهم والتحقق من هويتهم، وتوزيعهم تبعاً لما معهم من سمات وعلامات، ويظهر من سياق الآيات الواردة في هذا الربع أن مهمة أصحاب الأعراف هي القيام بفرز أهل الجنة من أهل النار عند وصولهم إلى الدار الآخرة، وتوجيه كل من الفريقين إلى مقره الأخير، جنة أو ناراً، بناء على معرفتهم الخاصة بكلا الفريقين، وتمييزهم لهما، بموجب السمات والعلامات التي يحملها كل فريق، بدليل قوله تعالى في نهاية الربع الماضي: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فهذا يدل على معرفتهم بأصحاب الجنة، وبدليل قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهذا يدل على معرفتهم بأصحاب النار. وقال السدي: «إنما سمي الأعراف أعرافاً، لأن أصحابه يعرفون الناس».

وأصحاب الأعراف هم من أصحاب الجنة، لمكانتهم الخاصة

عند الله، تلك المكانة التي أهّلتهم لرقابة الخلائق وفرزها وصرفها إلى مقرها الأخير، فهم يتقدمون إلى أصحاب الجنة بالتهنئة والتحية حيناً ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وهم يتقدمون إلى أصحاب النار بالتنكيت والتبكيت حيناً ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وهم عندما تقع أبصارهم على أصحاب النار يتبرءون منهم ويبتهلون إلى الله أن لا يجعلهم معهم ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ يعود الضمير فيه على أصحاب الأعراف، وهو إشارة إلى ما يكونون عليه أثناء قيامهم برقابة الخلائق وفرزها، إذ يتأخر دخولهم إلى الجنة حتى ينتهوا من العمل الموكول إليهم، فتلك الفترة بالنسبة إليهم تكون فترة انتظار، وهم في حال فرزهم للناس وتوزيعهم لا يعرفون الوقت المحدد الذي يصل فيه دورهم لدخول الجنة، والنزول في دار القرار، فعلى هذا المعنى ينبغي أن يحمل قوله تعالى في شأنهم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ كما حققه القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن). وعن الحسن أنه تلا هذه الآية ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ثم قال: «والله ما جَعَل ذلك الطمع في قلوبهم إلاّ لكرامة يريدها لهم» وقال ابن عباس: «هم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله». وجاء في الأثر أن رسول الله ﷺ سئل

عن «أصحاب الأعراف» فقال: «هم آخر من يُفصَل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عُتَقائي، فارعَوْا من الجنة حيث شئتم» قال ابن كثير في تفسيره: «وهذا مرسل حسن».

ومن الآيات الكريمة التي تستلفت النظر في هذا الربع ما جاء فيه على لسان أصحاب الجنة في معرض ردهم على أصحاب النار الذين طلبوا منهم أن يفيضوا عليهم من الماء ومما رزقهم الله ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَـٰفِرِينَ، الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيا ﴾ فهاهنا يحدد كتاب الله على لسان أصحاب الجنة تحديداً واضحاً الصفات الحقيقية والمميزة للكافرين، ومن سلك مسلكهم من العصاة الضالين، وهذه الصفات لا تعدو الاستغراق في اللعب واللهو، والمبالغة في الغرور والزهو، إلى أقصى الحدود، فعقائد الدين في نظرهم السخيف عبارة عن خرافات وأوهام، وشعائر الدين في سلوكهم المنحرف عبارة عن طقوس وشكليات، وشرائع الدين في شريعتهم الباطلة عبارة عن جمود وقيود، وحياتهم القصيرة على وجه الأرض هي بداية الحياة ونهايتها، فلا حياة قبلها ولا حياة بعدها. وأناس سخفاء كهؤلاء يحملون هذه الأفكار البليدة، منحرفين عن فطرة الله، متمردين على نواميسه الخلقية بدءاً ونهاية، لا جزاء لهم إلاَّ الحرمان في الآخرة بعد الخسران في الدنيا ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَـٰفِرِينَ ﴾.

بينما المومنون الصادقون الذين أسلموا وجوههم لله، فآمنوا

بدينه، وقاموا بممارسة شعائره، وتطبيق شرائعه، واستعدوا للآخرة بالعمل الصالح، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا جازاهم الحق سبحانه وتعالى خير الجزاء، وخصَّهم دون غيرهم في الآخرة بالسعادة والهناء، مصداقاً لما سبق في الربع الماضي ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ﴾، والمراد أن الطيبات من الرزق يتمتع بها المومنون في الحال والمآل، أما من نال شهوته عاجلاً، وعاقبة النار آجلاً، فما ظَنَّهُ «نعمة» ينقلب عليه «نقمة».

ثم عقَّب الحق سبحانه وتعالى على جواب أصحاب الجنة لأصحاب النار بما يؤيده ويؤكده، قائلاً في شأن أصحاب النار: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَيٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ومعنى هذه الآية الكريمة أن الكافرين جحدوا آيات الله من جميع الوجوه، وتجاهلوا لقاء يوم القيامة تجاهلاً تاماً، حتى كأنهم أصيبوا بالذهول والنسيان، فلم يستعدوا ليوم القيامة لا بإيمان ولا بإسلام ولا بإحسان، فعاملهم الله بالمثل، جزاء وفاقاً، إذ حرمهم من إحسانه وثوابه، وأعدَّ لهم شديد عقابه، وهذا هو المراد من لفظ النسيان، المسند مجازاً إلى الرحمن، في قوله تعالى هنا: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَيٰهُمْ كَمَا نَسُواْ ﴾ وفي قوله تعالى في آية ثانية ﴿ الْيَوْمَ نَنسَيٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ وفي قوله تعالى في آية ثالثة ﴿ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ فهو من باب المقابلة، وعلى طريق المشاكلة، وإلاَّ فالحق سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، بحيث لا يشذُّ عن علمه شيء، ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾. قال القاضي عبد الجبار: «ربما قيل في قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَيٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾ كيف

يصح؟ والنسيان على الله تعالى لا يصح. وجوابنا أن المراد: فاليوم لا نجازيهم بالحسنى كما لم يحسنوا بالطاعة، وأهل اللغة يستعملون النسيان بمعنى الترك، وحقيقته ما ذكرناه».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما يكون عليه حال الكافرين ومن لفَّ لفَّهم من المنحرفين الضالين، من استهتار بالتعاليم السماوية، رغماً عن شدة وضوحها، وخروج على التوجيهات الإلهية، رَغماً عن دقة تفصيلها ـ نظراً لما يداخلهم من تردد في صدق محتوياتها، ومن شك في فعالية توصياتها ـ حتى إذا ظهرت آثار انحرافهم عنها في الوجود، وأصبحت على مرأى منهم ومسمع، في حيز الواقع وعالم الشهود، فوجئوا مفاجأة كبرى بأن ما كان مجرد «غيب» موعود به في القرآن، قد أصبح حقيقة قائمة ماثلة للعيان، وعندما يأتي ذلك اليوم لا يسعهم إلَّا أن يعودوا على أنفسهم باللوم، وذلك قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، هُدىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ، هَـلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَاوِيلَهُ، يَوْمَ يَاتِي تَاوِيلُهُ ﴾ أي يوم يقع عياناً ومشاهدة ما أنذروا به من العقاب والعذاب ﴿ يَقُولُ الذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ثم يعلق كتاب الله على موقف أولئك المترددين الشاكين بالأمس، والمبهوتين المبلسين اليوم، قائلاً: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

وها هنا آيتان كريمتان لا بدَّ من لفت النظر إليهما لتعلقهما بأدب الدعاء والذكر، وهما قوله تعالى: ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً

وَخُفْيَةً، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ففي الآية الأولى يبيِّن كتاب الله للمومنين كيف ينبغي أن يدعوا ربهم ويذكروا اسمه، وفي الآية الثانية يبيِّن كتاب الله للمومنين كيف ينبغي أن يجمعوا في الدعاء بين الخوف والرجاء، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «الأصل في الأعمال الفرضية الجهر، والأصل في الأعمال النفلية السر، وذلك لما يتطرق إلى النفل من الرياء والتظاهر والتفاخر، وقد جعل الباري سبحانه في العبادات ذكراً جهراً، وذكراً سراً، لحكمة بالغة أنشأها بها، ورتبها عليها، وذلك لما عليه قلوب الخلق من الاختلاف بين الحالين». ثم زاد قائلاً «أما الذكر بالقراءة في الصلاة فانقسم حاله إلى سر وجهر، وأما الدعاء فلم يشرع منه شيء جهراً، لا في حالة القيام، ولا في حالة الركوع، ولا في حالة السجود، لكن اختلف العلماء في قول قارىء الفاتحة (آمين) هل يُسِرّ بها أم يَجهر». وقال ابن كثير في تفسيره: «قوله تعالى: (تَضَرُّعاً) معناه تذللاً واستكانة، وقوله (وَخُفْيَةً) كقوله: ﴿ وَاذْكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ الآية». وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم - أي ارفقوا بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذين تدعون سميع قريب» الحديث.

ثم نقل ابن كثير عن عبدالله بن المبارك عن مبارك بن فُضالة عن الحسن قال: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به

الناس، وإن كان الرجل لقد فقِه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر ـ أي الزوار ـ وما يشعرون به، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، وإن كان إلّا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ ».

وفي القسم الأخير من هذا الربع تناولت الآيات الكريمة قصة نوح عليه السلام وما وصفه به قومه من الضلالة، وقصة هود عليه السلام وما وصفه به قومه من السفاهة، وذكرت الرد المهذب الجميل الذي رد به كل منهما على ما وُجِّه إليه من قدح وتجريح، صيانة للدعوة الإلّهية أن تحمل على غير محملها الصحيح، إذ قال نوح لقومه ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَـٰلَةٌ ، وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. وقال هود لقومه: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ، وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾.

قال القاضي عبد الجبار: «وهذه الجملة يعرف بها رفق الأنبياء وحسن دعائهم إلى الدين، وفيها إذا تأملها المرء ما يعتبر به ويُعرِّف آداب الأنبياء صلى الله عليهم وسلم في الدعاء إلى الدين، وصبرهم على ما نالهم من الأمم، فيقتدي بهم».

الربع الأخير من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم

أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ

اَ۬للَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اُ۬للَّهِ لَكُمُۥٓ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِے
أَرْضِ اِ۬للَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِے اِ۬لَارْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ
اَ۬لْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اَ۬للَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِے
اِ۬لَارْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ اَ۬لْمَلَأُ اُ۬لذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ مِن
قَوْمِهِۦ لِلذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ لِمَنَ ـ امَنَ مِنْهُمُۥٓ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ
صَٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُومِنُونَ ﴿٧٥﴾
قَالَ اَ۬لذِينَ اَسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِالذِےٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾
فَعَقَرُواْ اُ۬لنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ
ايتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ اَ۬لْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
اُ۬لرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِے دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّيٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدَ اَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّے وَنَصَحْتُ
لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ اَ۬لنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطاً اِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَاتُونَ اَ۬لْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا

مِنَ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا

حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

الربع الأخير من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴾.

مما يستحق التنبيه في بداية هذا الربع أن الآيات الأولى منه استمرار في حكاية قصة هود مع قومه عاد، وتتمة لرده عليهم، وتذكيره إياهم. والذي يقرأ قصة نوح وقصة هود بتمعن وتأمل في نهاية الربع الماضي وبداية هذا الربع، ثم يقرأ ما سيرد في ثنايا هذه السورة الكريمة ﴿سورة الأعراف﴾ من قصص بَقِيَّة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يرى رأي العين أن كتاب الله أراد أن يكشف الستار عن جملة من الحقائق كلها تستحق النظر والاعتبار، فمن تصوير لوحدة العقيدة في الرسالات كلها أولاً، ومن تصوير لوحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعة الكفر ثانياً، ومن تصوير للغفلة عن النُّذُر وإهمال للشكر على نعمة الاستخلاف في الأرض ثالثاً، ومن تصوير لمصارع المكذبين وكونها تجري على سنَّة واحدة لا تتبدل ولا تتخلف رابعاً، وها هو كتاب الله يصف لنا دعوة نوح إلى قومه

فيقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، ثم يصف لنا دعوة هود إلى قومه بنفس المعنى والأسلوب فيقول ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾.

وهانحن نرى قوم هود يتعجبون ويستغربون من أن ينزل الوحي على رجل منهم لينذرهم، فيخاطبهم هود، كما في بداية هذا الربع قائلاً: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ على غرار ما قاله نوح مخاطباً لقومه ومستغرباً من استغرابهم كما في الربع الماضي ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ونفس الشيء نلاحظه في موقف كبراء القوم وسادتهم من هود كما حكاه عنهم كتاب الله ﴿ قَالَ ٱلْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرٰيكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾، وفي موقف كبراء القوم وسادتهم من نوح قبله، كما حكاه عنهم كتاب الله أيضاً ﴿ قَالَ ٱلْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرٰيكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فالموقفان متماثلان إن لم يكونا عبارة عن موقف واحد، ولفظ (الملأ) الوارد هنا وفي سورة سبأ ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ ﴾ يطلق في اللغة على القادة والسادة، لما لهم من مكانة وهيبة (تملأ) الأبصار، وتستلفت الأنظار.

ثم يأتي جواب كل من هود ونوح قبله لقومهما على ما رَمَوْا به الأول من سفاهة، وما رَمَوْا به الثاني من ضلالة، على نمط متشابه ومتقارب، إن لم يكن واحداً، فيرد نوح على قومه: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ

لَيْسَ بِي ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ ويرد هود على قومه: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَـاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُـولٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وكما تصف قصة نوح تكذيب قومه لـه، ومصرعهم بعـد الإصرار والاستكبار، ونجاته ومن معه من المومنـين، ﴿ فَكَذَّبُـوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَالذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَآ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ تصف قصة هود تكذيب قومه له، ومصرعهم بعد الإنذار الأعذار، ونجاته ومن معه من المومنين ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَالذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَقَطَعْنَادَابِرَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُومِنِينَ ﴾.

وعندما تنتهي قصة هود مع قومه عاد، وتبتدىء قصة صالح مع قومه ثمود نجد نفس المواقف ونفس الانطباعات، فالتشابه تام، والوحدة قائمة، فها هو صالح يدعو قومه بنفس الدعوة قـائلاً: ﴿ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وكما ذكّر هود قومـه بنعم الله عليهم، ولا سيما نعمـة الاستخلاف في الأرض، عسى أن يشكروا النعم قائلاً: ﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً، فَاذْكُرُوٓاْ ءَالآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ نجد صالحاً أيضاً يذكّر قومه بنعم الله عليهم، طبقاً لنفس الأسلوب إذ يقول: ﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَـادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الاَرْضِ تَتَّخِـذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً، فَاذْكُرُوٓاْ ءَالآءَ اللَّهِ، وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الاَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

ونفس الموقف الذي وقفه الملأ - وهم القادة والسادة - من نوح وهود، يقفه الملأ من صالح أيضاً، كما حكى كتاب الله ذلك عنهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنَ آمَنَ مِنْهُمُ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ، قَالُوٓاْ - أي المومنون المستضعفون - إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُومِنُونَ، قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ - وهم الملأ - إِنَّا بِالذِيٓ ءَامَنتُم بِهِ كَٰفِرُونَ ﴾.

وكما كان مصرع قوم نوح وقوم هود بعد الإنذار لهم والإنكار منهم جاء مصرع قوم صالح بنفس التدريج ونفس الترتيب ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدَ اَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ ﴾ - ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾. وترتيب هذه الآية كما في التلاوة جاء على أسلوب التقديم والتأخير، كما نبه على ذلك القاضي عبد الجبار، وهو مستعمل كثيراً في لسان العرب.

وتمضي الآيات الكريمة في هذا الربع وما بعده فتعرض علينا قصة لوط عليه السلام مع قومه، ولوط هو ابن أخ إبراهيم الخليل عليه السلام، كما تعرض علينا قصة شعيب مع قومه أيضاً، وفي كلتا القصتين نجد ملامح مشتركة مع ما في القصص السابقة لبقية الأنبياء، فعن موقف قوم لوط من نبيهم يقول كتاب الله: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمُ، إِنَّهُمُ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾، وعن موقف قوم شعيب من نبيهم يقول كتاب الله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ الذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾.

وعن مصرع قوم لوط ونجاته دونهم في نهاية الأمر، يقول كتاب الله: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

وعن مصرع قوم شعيب ونجاته دونهم بعد نفاد الصبر، يقول كتاب الله: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ ـ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دارِهِمْ جَـٰثِمِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَـٰسِرِينَ ﴾.

وتحدث كتاب الله في هذا الربع عن أكبر فاحشة ارتكبها قوم لوط وانفردوا بها، تنفيراً منها وتحذيراً، ألاَ وهي فاحشة الشذوذ الجنسي المعروف باللواط التي لم يسبقهم بها أحد من الناس، والتي طالما أنكرها لوط عليهم وهم متمادون عليها ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَاتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾، وبنفس هذا المعنى جاءت آية ثانية في سورة العنكبوت: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَاتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾. وجاءت آية ثالثة في سورة الشعراء في سياق قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ اَلاَ تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ :ـ أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَـٰلَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنَ اَزْوَاجِكُم، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾.

قال أبو بكر بن عياش عن أبي جعفر: «استغنت رجال قوم

لـوط بوطء رجـالهم، واستغنت نساؤهم بنسـائهم» ونقله الإمـام النووي في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات).

وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إن الله أخبر أن قوم لوط كانوا على معاص فأخذهم منها بهذه، وإنما أخذ الصغير والكبير، لسكوت الجملة عليه والجماهير، فكان منهم فاعـل، وكان منهم راض، فعوقب الجميع، وبقي الأمر في العقوبـة على الفـاعلين مستمراً، وإنما ذكر الله هذه المعصية باسم الفاحشة ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ ﴾ ليبينّ أنها زنى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً ﴾ ففاحشة اللواط مساوية للزنى في الاسم وهو «الفاحشة»، ومشاركة له في المعنى، لأنـه معنى محرم شرعاً، فجاز أن يتعلق به الحد، وذلك للزجر عن الموضع المشتهى، بل هذا أحرم وأفحش، فكان بالعقوبة أولى وأحرى» انتهى كلام ابن العربي.

وقد أحرق مرتكبي هذه المعصية خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق، وأحرقهم عبدالله بن الزبير في زمانه، ثم أحرقهم هشام بن عبـد الملك، ثم أحرقهم خالد القسري بالعراق.

ومذهـب مالك وجماعة منهم سعيد بن المسيب والنخعي أن مرتكبها يرجم، أحصَن أو لم يُحصِن، وقد سأل مالك ابن شهاب عن الذي يعمل عمل قوم لوط، فقال ابن شهاب: «عليه الرجم أحصن أو لم يحصن»، ومذهب الشافعي وجماعة أنه يحد حد الزاني، إن كان محصَناً فبجزائه وهو الرجم بالحجارة، وإن كان بكراً فبجزائه

وهو الجلد مائة. قال ابن العربي: «والذي صار إليه مالك أحق، وهو أصح سنداً، وأقوى معتمداً».

أما أخف الأقوال في مرتكب هذه المعصية فهو أن «يعزَّر» بدلاً من أن يحد، كما ذهب إليه أبو حنيفة، باعتبار أن هذه المعصية لم يرد فيها حد مخصوص، ولا كفارة معيَّنة، و«التعزير» عقوبة تأديبية، بدنية أو مالية، موكولة لاجتهاد الحاكم. لكن هذا القول الخفيف، خفيف الوزن أمام ما ورد في الحديث الشريف، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

والسر في محاربة الدين والأخلاق لهذه الفاحشة النكراء، أنها تحدث انحرافاً في الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتشويهاً لها بإخراجها عن طريقها، وتؤدي في النهاية إلى تهديد النوع الإنساني بالانقراض تدريجياً، وتعطيل النسل من أصله، حيث أن هذه الفاحشة تعطل طاقة الاخصاب عند صاحبها عن نشاطها الأصلي، وتضيع طاقته في غير جدوى ودون ثمرة، لا للفرد ولا للمجتمع، وذلك مؤدٍ بطبيعته إلى القضاء على أصل من الأصول الأساسية للملّة، وهو حفظ النسل الذي يصونه الشرع بكل الوسائل.

قال حجة الإسلام الغزالي في كتابه الأحياء: «لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات لا نقطع النسل، ورفع الوجود قريب من قطع الوجود» وبيَّن الغزالي في نفس السياق «أن فاحشة اللواط أخطر من فاحشة الزنى بهذا الاعتبار، لأن الزنى

لا يفوّت أصل الوجود كما يفوته اللواط، وإن كانت الشهوة داعية إلى الزنى من الجانبين الذكر والأنثى، وإن كان الزنى يشوش الأنساب ويخلطها، ويفوت على الناس تمييزها».

وهكذا منذ ظهر الدين وعرفت الأخلاق، ظلت الدعوة قائمة مستمرة لحماية المومنين من مظاهر الخزي والعار، وتطهير المجتمع من مثل هذه الأوساخ والأقذار، حتى يكون مجتمعاً فاضلاً، متمسكاً بالفطرة، نقياً من الموبقات والأوزار.

الربع الأول من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا
ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ

عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ
أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا
ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾
أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾
أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾
أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ
أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم
مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ

بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ
بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾
يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟
إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ
أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ
ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

الربع الأول من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حصة هذا اليوم هو الربع الأول من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِنْ قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَواْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ، وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

في بداية هذا الربع تشير الآية الكريمة إلى الملأ من قوم شعيب وهم كبار قومه وسادتهم، وتلفت النظر إلى أن العامل الأساسي في إصرارهم على الباطل كغيرهم من المبطلين، وفي مقاومة ما جاء به نبيهم شعيب عليه السلام هو ما كانوا عليه من الأنفة والكبر والصلف، وما يتوقعونه من أن يصبحوا مجرد تابعين للنبي شعيب بعدما كانوا سادة متبوعين. والشأن في المتكبرين وذوي الرياسات الزائفة دائماً أن يركبوا رؤوسهم، وأن لا يفتحوا آذانهم لسماع كلمة الحق، ولا قلوبهم لتقبلها والرضى بها، ولو كانت لصالحهم ونفعهم عاجلاً وآجلاً ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ ﴾ ونلاحظ في نفس الآية نوع التهديد

الذي هددوا به شعيباً وصحبه، فهو التهديد بالنفي والابعاد عن الوطن، كما هدد قوم لوط لوطاً وأهله من قبل، ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ فهاهم قوم شعيب يقلدونهم ويهددونه بنفس الأمر ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ مما يدل على أن البشر قد عرفوا هذا النوع من العقوبات منذ عهد قديم، وذلك حرصاً منهم على أن تبقى دار لقمان على حالها، فتستمر رياستهم الزائفة قائمة، ويبقى استغلالهم الفاحش مستمراً، إِذْ مِنْ أهم مَا آخَذَهُم به نبيهم شعيب عليه السلام تطفيفهم في الكيل والميزان، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وإفسادهم في الأرض بعد إصلاحها، ألم يقل لهم، كما سبق في الربع الماضي منذراً ومحذراً ﴿ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ، وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾.

وكتاب الله عندما عرض هذه القصة كشأنه في غيرها من القصص، إنما عرضها للاعتبار وضرب المثل بالنسبة لكافة المومنين، فليس الأمر بتوفية الكيل والميزان، وليس النهي عن بخس الناس أشياءهم واستغلالهم استغلالاً فاحشاً، وليس التحذير من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، مجرد تعليمات سماوية، وتوجيهات إلهية، قاصرة على قوم شعيب دون مَن دونهم، بحيث يعتبر غيرهم في حِلٍّ منها، بل هي تعليمات عامة وتوجيهات أبدية إلى كافة المومنين في جميع العصور والأجيال. ووصف «الإيمان» المشترك بين كافة المومنين يقتضيها ويتضمنها، ولا يسمح بما يضادها أو يناقضها،

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾. والعقاب الذي عاقب الله به قوم شعيب على هذه المخالفات قائم إلى يوم الدين بالنسبة لغيرهم كما كان بالنسبة إليهم، وإنه لواقع، ما له من دافع، وإن كان نوع العقاب الإلهي لمن سلك مسلكهم في هذا الجيل من نوع آخر، فأنواع العقاب الإلهي لا تحصى عداً. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إنما أذن الله سبحانه في الأموال بالأكل بالحق، والتعامل بالصدق، وطلب التجارة بذلك، فمتى خرج عن يد أحد شيء من ماله بعلمه لأخيه فقد أكل كل واحد منهما ما يرضي الله ويرتضيه» والعكس بالعكس.

وبعدما هدد كبارُ قوم شعيب نبيَّهم وصحبه بعقوبة النفي والابعاد من الوطن التي تمس أدق الأحاسيس في قلب المواطن، وتحرمه من أول أرض تَنَفَّسَ فيها ومسَّ جلده ترابها، عادوا إليه وإلى المومنين من صحبه، ليساوموهم على التنازل عن عقيدتهم، ويدعوهم إلى مهادنتهم ومداهنتهم في عقائدهم الباطلة، وإلى غض الطرف عن تصرفاتهم الطائشة، وذلك ما يشير إليه قولهم فيما حكاه كتاب الله عنهم ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ وهذا الخطاب منهم موجه بالأصالة إلى أصحاب شعيب الذين كانوا فارقوا دين قومهم، وخرجوا عن ملَّتهم، وآمنوا بشعيب، أما شعيب عليه السلام نفسه فلم يكن على ملَّتهم حتى يعود إليها، إذ عصمه الله منها، وغاية ما يطلبون منه أن يكف عن دعوة الناس إلى الرسالة الجديدة التي جاء بها من عند الله، غير أن شعيباً رد عليهم بأن رجوع الذين آمنوا عن عقيدتهم الصحيحة إلى المِلَّة الضالة التي فارقوها أمر متعذر،

مقرراً لهم حقيقة ذلك المبدأ الاعتقادي الأصيل الذي أنزله الله من فوق سبع سماوات، ألا وهو مبدأ (لا إكراه في الدين) المعبر عنه في لسان هذا العصر بحرية الاعتقاد، وهكذا أجابهم شعيب قائلاً: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ أي أتعيدون المومنين برسالتي إلى ملّتكم الباطلة بعدما كرهوها ومقتوها وآمنوا بالله، إنه لا حق لأحد في أن يفرض معتقده على الغير بالقهر والإكراه، أتساومونني على أن أدع رسالة ربي لأقر ملّتكم الباطلة، إنه لا سبيل إلى ذلك، ولا سلطة تستطيع أن تفرض علينا التصديق بما هو كذب وافتراء، واتباع ما هو ضلال وباطل، ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾، وأخيراً قطع شعيب لكبراء قومه الضالين كل أمل في المساومات والتهديدات قائلاً: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾.

وقوله هنا ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ ليس المراد به تجويز عودة أصحاب شعيب إلى الملّة الضالة التي فارقوها، ولا احتمال تنازل شعيب عن الرسالة المامور بتبليغها عن الله، وإنما المراد أحد أمرين، إما استبعاد ذلك بالمرة عن طريق تعليقه بالمشيئة الإلٰهية، وشعيب يعلم علم يقين أن الله لا يرضى لعباده الكفر، وأنه يعصم رسله من الناس، وذلك على غرار قوله تعالى فيما سبق: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ إذ ليس معنى هذه الآية أن الجمل سيدخل في عين الإبرة وهي سم الخياط، وأن الذين كذبوا واستكبروا سيدخلون فعلاً الجنة عندما يدخل الجمل عين الإبرة، وإنما معناه قطع كل أمل لهم في دخول الجنة، بذلك الأسلوب

المدهش، الذي يفتح باب الطمع أولاً، ليقفله في وجوه الطامعين أخيراً، فتكون حسرتهم أعظم، وخشيتهم أشد.

وإما انه من باب الأدب مع الله تعالى في تعليق كل شيء بمشيئة الله، على غرار قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ جرياً مع العقيدة الإيمانية العامة والأصيلة في دين الله: (ما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن).

ومضى شعيب والمومنون معه في طريقهم السويّ معتمدين على الله، دون أن يعبأوا بما تعرضوا له من المساومة والتهديد والإكراه، متحمّلين في سبيل نشر الهداية، كل أذى من أهل الغواية، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ومما يلاحظ في هذا السياق أمران اثنان: أولهما ما قدح به كبار قوم شعيب في الذين آمنوا به من قومه، إذ واجهوهم، مؤكدين لهم بجميع وجوه التأكيد أنهم بسبب اتّباع شعيب خاسرون ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾. وثانيهما ما رد به الحق سبحانه وتعالى عليهم رد صدق وحق، مثبتاً لهم ولمن بعدهم أن صفة «الخسران» التي وصفوا بها شعيباً وصحبه إنما كانت في الواقع من نصيب الملأ الكافرين لا من نصيب المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ كرر كتاب الله نفس الوصف فأطلقه عليهم وألصقه بهم، وفي مثل هذا المقام يصدق المثل العربي الذائع: «وافَق شَنٌّ طَبَقَة»؛ فما أوفق الكُفران بالخُسران.

ولا بد أن نلفت النظر هنا إلى نقطة جوهرية وردت فيما حكاه كتاب الله عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ فها هنا يتحدث شعيب عن النصيحة الخالصة التي لم يزل يسديها إلى قومه، فلم يُعِرْ لها الملأ منهم التفاتاً ولا اعتباراً، ونفس الشيء تحدث عنه نوح وهود وصالح من قبل شعيب، كما حكى الله ذلك عنهم جميعاً، فعلى لسان نوح جاء قوله: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعلى لسان هود جاء قوله: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وعلى لسان صالح جاء قوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَـٰكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّـٰصِحِينَ ﴾.

وهكذا نجد أن اسداء النصح إلى الخلق كان شعار الأنبياء والمرسلين واحداً بعد الآخر، وأنهم بذلوا كل المستطاع، بل ما فوق المستطاع، في سبيل هداية الخلق إلى الله وإلى صراطه المستقيم، ولم تزل النصيحة ديناً متبعاً وسنّة متوارثة، إلى أن أنزل الله الوحي على رسوله الكريم، فجدد الأمر بها، وأكدها الذكر الحكيم، وفرض الإسلام بمقتضى نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية تبادل النصح والإرشاد في شؤون الدين والدنيا على الراعي والرعية. لكن النصيحة لا تعتبر نصيحة في الإسلام إلاّ إذا كانت خالية من كل غش أو تدليس أو خيانة، وخالصة من جميع الأغراض الشخصية.

ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله. قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم». وفي الحديث الشريف أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلبُ مسلم، اخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم - رواه أصحاب السنن. وفي الحديث الشريف أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يَحُطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة - رواه البخاري في صحيحه في (باب من استُرعِي رعية فلم ينصح) قال الحافظ ابن حجر: «لم يَحُطها أي لم يصنها، والاسم الحياطة» ثم زاد قائلاً: «ويحصل ذلك - أي عَدَمُ حياطتهم - بظلمه لهم بأخذ أموالهم، أو سفك دمائهم، أو انتهاك أعراضهم، أو حبس حقوقهم، وبترك تعريفهم ما يجب عليهم في أمر دينهم ودنياهم، وبإهمال إقامة الحدود فيهم، وإهمال ردع المفسدين منهم، وترك حمايتهم، ونحو ذلك».

وقال حجة الإسلام الغزالي مبيناً أدب النصيحة: «ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة». ثم نقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه» وختم كلامه قائلاً: «فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان».

وقول شعيب هنا كما حكى عنه كتاب الله ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يتفق معناه تمام الاتفاق مع قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ

إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ بمعنى أن المومنين إذا استقاموا على الطريقة المثلى كما أمروا، وأدّوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وفي طليعتها حق إسداء النصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ثم أصرَّ العصاة على الاسترسال في المعاصي والفواحش دون أن يستجيبوا لنصيحة ولا لإرشاد، فإن أولئك الناصحين لهم بعد أن أدّوا ما عليهم، واستنفدوا وسائل الدعوة والإصلاح التي يملكونها تصبح ذممهم خالية من المسؤولية، ويصدق عليهم وقتئذ قوله تعالى: ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، وقوله تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ فَذَكِّرِ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾.

وبعدما تحدثت الآيات الكريمة عن جملة من قصص الأنبياء وأممهم امتن الحق سبحانه وتعالى على خاتم رسله بما قصّه عليه وعلى أمته من أنباء الأمم السالفة ومواقفها من أنبيائها السابقين، إذ أن الحكمة في ذلك هي تمكين رسوله وأمته من وسائل التدبر والاعتبار، حتى يكون الرسول وأمته على بصيرة من سنن الله الثابتة في خلقه، التي مهما اختلفت الأعصار والأمصار، فهي تنتج نفس النتائج وتحدث نفس الآثار، ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآئِهَا ﴾ - ﴿ وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ﴾.

ثم أجمل كتاب الله معركة الحق مع الباطل، وصراع الخير مع الشر، خلال العصور الغابرة، فقال تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ، وَإِنْ وَّجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ وواضح أن هذه الآية

تنطبق على كثير من الأمم والشعوب في هذا العصر.

وبيّن كتاب الله في ثنايا هذا العرض ما أدّت إليه خيانة الخائنين وفسق الفاسقين من قضاء عليهم، وإبادة لأممهم، فقال تعالى ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

وَأَوْحَيْنَآ

إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟
بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ
أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ
لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ
وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ
عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ

ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

الربع الثاني من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنَ اَلْقِ عَصَاكَ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَافِكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَ اَنجَيْنَٰكُم مِّنَ ـ الِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ اَلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

هذا الربع كله متعلق بقصة موسى وبني إسرائيل من جهة، وفرعون وقومه من جهة أخرى، وهو استمرار لقصة موسى التي ابتدأت في الربع الماضي من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُواْ بِهَا، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُلْمُفْسِدِينَ ﴾.

وقد استغرقت قصة موسى أكثر من ثلاثة أرباع هذا الحزب السابع عشر، مما يؤكد ما نبهنا إليه في مطلع سورة الأعراف، من أن قصة موسى وفرعون هي أطول قصة وردت في هذه السورة من بين قصص الأنبياء السابقين، ولعل الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ

أن للأمة الإسلامية، وغيرها من الأمم حساباً طويلاً وعسيراً مع بني إسرائيل - علاوة على حساب نبيهم موسى نفسه معهم - بدأ منذ ظهور الرسالة المحمدية، ولم ينتهِ ذلك الحساب حتى الآن، فالله تعالى يريد أن يكون المسلمون أولاً، وغيرهم بالتبع، على بيِّنة من أمر بني إسرائيل والأطوار التي تقلبوا فيها جملة وتفصيلاً، حتى يُعِدوا العدة لمواجهة دسائسهم، والوقوف في وجه مطامعهم جيلاً فجيلاً، وبديهي أن كتاب الله لا يورد القصص على أنها نوادر وأسمار، وإنما يوردها تنويراً للبصائر والأبصار.

وفي بداية هذا الربع يشير كتاب الله إلى باطل فرعون وسحرته، وما جاؤوا به من سحر عظيم، طمعاً في مال فرعون وزلفى إليه، وإلى أن باطلهم قد زهق أمام الحق الذي أبرزه الله على يد موسى وعصاه ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ، قَالُوٓاْ ءَامَنَّـا بِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ويحكي كتاب الله هول المفاجأة الكبرى التي فوجىء بها فرعون وملأوه عندما سجد السحرة لله، أمام معجزة موسى، وآمنوا برسالته، فاستنكر عليهم فرعون أن يؤمنوا بموسى دون إذن منه، كأن الإيمان عملية مادية يستطيع الضمير لها دفعاً، وكأن مفاتيح القلوب في أيدي الطغاة والجبابرة يفتحونها متى شاؤوا ويقفلونها متى شاؤوا ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ لَكُمْ ﴾.

واتهم فرعون سحرته بعد إيمانهم بأنهم دبَّروا مع موسى مؤامرة لقلب نظام الدولة، وإخراج السلطة من يده ويد أعوانه، كما

حكى عنه كتاب الله قائلاً: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾.

ثم هددهم بعقاب صارم هو عقاب الصَّلب بعد قطع الأيدي والأرجل، فقال مخاطباً لهم ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذا يدل على أن الصلب وقطع اليد والرجل من خلاف عقوبة متأصلة عند الخلق، تلقفوها من شرع متقدم، فحرفوها، حتى أوضحها الله في ملّة الإسلام، وجعلها أعظم العقوبات لأعظم الأجرام، يعني جريمة «الحِرابة»، وهي جريمة العبث بالأمن العام، والمساس بأمن الدولة الداخلي، التي عالجها كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيا، وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

غير أن سحرة فرعون الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم وأدركوا البون الشاسع بين ما كانوا عليه من معتقدات الشرك والوثنية، وعقيدة الإيمان والتوحيد التي تلقوها عن موسى غضة طرية، لم يفتّ في عضدهم تهديد ولا وعيد، ولا صلب ولا تشريد، فأعلنوها صيحة مُدَوِّيَة، أمام فرعون الطاغية ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ـ امَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ كأنهم يلوّحون بذلك إلى بطلان التهمة المزورة التي اتهمهم بها زوراً وبهتاناً، لمجرد القضاء عليهم، والتخلص منهم، باسم حماية الدولة من المتآمرين عليها والكائدين لها.

ثم اتجهوا إلى الحق سبحانه وتعالى الذي أشرق نور الإيمان به في قلوبهم ضارعين خاشعين ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ أي صبراً عظيماً نتحمل به عدوان فرعون وملائـه، وما يهددنا به من قطع وصلب. ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ وكأنهم في هذا المقام لم يعد يهمهم من الحياة إلاَّ أمر واحد، هو أن يختم الله لهم بالخاتمة الحسنى، وهي الوفاة على ملَّة الإسلام، التي هي ملَّة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهكذا بعدما كانوا في أول النهار سحرة كَفَرة، أصبحوا في آخره شهداء بَرَرة، كما صرح بذلك جماعة من مفسري السلف.

وقـول كتاب الله هنـا على لسـان مـوسى عليـه السـلام: ﴿ اسْتَعِينُواْ بِاللَّهِ وَاصْبِرُوٓاْ، إِنَّ الاَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ الآية، يمثل حقيقة دينية، وحقيقة كونية، وسنَّـة إلٰهية، فالتضحية والصبر، كانا دائماً ولا يـزالان مفتاح الغلبـة والنصر، والاستعانة بالله والاعتماد عليه بعد اتخاذ الأسباب، هما الوسيلة الفعالة للنجاح والتغلب على الصعاب، والأرض ملك لله إنما يعيرها لخلقه للارتفاق والانتفاع، وإنما يستخلف فيها - أعزاء كرماء - أولئك الذين يتقون ولا يفسقون، فإن فسقوا وظلموا وأفسدوا استبدل بهم قوماً آخرين ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ثم يعـرض علينا كتـاب الله صورة من صـور التـذبـذب والتململ والتردد والقلق، التي عرف بها بنو إسرائيل عبر القرون والأجيال، فرغماً عن أن موسى عليه السلام نصره الله نصراً مؤزراً على فرعون وسحرته، ورغماً عن أنه طالب فرعون بأن يرسل معه

بني إسرائيل كما حكى الله عنه، إذ خاطب فرعون قائلاً: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴾ نجد بني إسرائيل يستثقلون ظل موسى ويتضايقون منه، ولا يخجلون أن يخاطبوه دون أدب ولا لياقة، كما حكى كتاب الله عنهم قائلين: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾، لكن موسى يكظم غيظه ويرد عليهم رداً هادئاً، منبهاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يمتحنهم ويختبرهم، ويظهرهم للناس على حقيقتهم، وذلك بمقتضى سننه الثابتة في هذا الكون، فإن أصلحوا كانوا أهلاً للاستخلاف بين الناس، وإن أفسدوا أصدر الحق سبحانه وتعالى في شأنهم حكمه العادل بالحجر والإفلاس ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

ويصف لنا كتاب الله نماذج مثيرة من عذابه الأليم الذي ينزله بالأمم، متى أصرت على الضلال والعدوان هي وقادتها في مختلف العصور، من أية سلالة كانت، وإلى أية ملّة انتسبت، فيحدثنا عما أنزله الله بفرعون وقومه من أنواع المصائب والمتاعب، التي توالت عليهم دون انقطاع، بحيث لا يكادون يفرغون من واحدة منها حتى يستقبلوا أخرى تكون أدهى وأمرّ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ - ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ، فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾وتعني كلمة «السنين» في هذه الآية سني الجدب والقحط والجوع، وهذا أمر يستغربه كل من يعرف «نيل مصر» حتى قيل فيها إنها «هبة النيل»، وإنها ليست بلد الماء المحدود والزرع القليل.

ومعنى كلمة «الطوفان» في هذه الآية فيضان النيل وكثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، و«الجراد» معروف بأضراره الفادحة وأخطاره البالغة على الزرع والضرع، ومن اللطائف أن شريحاً القاضي الشهير سئل عن الجراد فقال: «قبح الله الجرادة، فيها خلقة سبعة جبابرة، رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب». وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء».

وتعني كلمة «القُمَّل» الواردة في الآية السوس الذي يخرج من الحنطة وينخرها، وفي عدة تفاسير أنه بسبب ذلك السوس كانت عشرة أجربة لا يبقى منها بعد طحنها إلَّا ثلاثة أقفزة، إذ لا يبقى فيها من الحنطة إلَّا أقل القليل، و«الضفادع» معروفة ومشهورة بقفزها ووثبها. وورد في عدة تفاسير أن تلك الضفادع كانت قد ملأت البيوت والأواني والأطعمة. وتعني كلمة «الدم» الدم الرعاف كما قال زيد بن أسلم، ورواه ابن أبي حاتم.

فهذه جملة المصائب التي نزلت بفرعون وقومه على التتابع والتوالي دون أن يتوبوا من شركهم وكفرهم، ولا أن يتراجعوا عن عتوهم وكبرهم، ثم جاءت القاصمة ـ قاصمة ظهر فرعون وقومه ـ فأغرق الله فرعون وجنده، ونصر عبده، وهذه المصائب لا تزال

تنزل بمختلف الأمم حتى الآن، ولا يحمي منها إلاَّ التقوى والاستقامة والإيمان.

لكن بني إسرائيل ما كادوا يفلتون من قبضة فرعون، ببركة موسى الذي جدد عقيدة التوحيد على ملّة إبراهيم الخليل عليهما السلام، حتى نفخ فيهم الشيطان من روحه، وأخذوا يلحُّون على موسى أن يعوضهم عن دين التوحيد الذي دعاهم إليه وأنقذهم باسمه، بدين وثني خاص من نوع الأديان القائمة إذ ذاك في عموم المنطقة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ، قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ فما كان من موسى إلاَّ أن رد عليهم مستنكراً ومحذراً، قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وكلمة «تجهلون» في هذا السياق إما من الجهل ضد العلم، وإما من الجهالة بمعنى السفه، على حد قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾. ثم أخذ يؤكد لهم ما ينتظر المشركين من هلاك وما هم عليه من باطل قائلاً: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ، وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

وأخيراً ذكَّرهم موسى بالرسالة التي حملها إليهم إذ جاءهم برسالة التوحيد، وذكّرهم بتفضيلهم إن عملوا بها على فرعون وآله، لما كان عليه هو وقومه من الشرك والوثنية، وعدم الاتعاظ بنُذُر الله المتوالية، وذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام بقوله إذ خاطبهم من جديد: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَإِذَ اَنجَيْنَـٰكُم مِّنَ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾

الآية. لكن مواعظ موسى عليه السلام لم تترك في نفوس بني إسرائيل أثرها المرغوب، لا في حياته ولا بعد مماته، ولم يلبثوا إلّا قليلاً حتى فقدوا الرشد والصواب، وتوعدهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ
ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا

لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا
وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ
عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ
رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ
مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ
أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

الربع الثالث من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم ابتـداءً من قولـه تعالى : ﴿ وَوَاعَـدْنَا مُوسىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَـٰفِرِينَ ﴾.

تتحدث الآيات الكريمة في بـداية هـذا الربـع عن الأجل المحدود واليوم الموعود الذي ضربه الله لحضور موسى إلى جبل الطور، وهذا الأجل الذي يمتد أربعين ليلة سيتلقى موسى بعده عن الله كلامه ورسالته، ليصبح بعده «كليم الله».

ولعل السر في ضرب هذا الأجل، واستغراقه لهذه المدة التي ليست بقصيرة، هو تمكين موسى من التفرغ عن جميع الشواغل، التي تستغرق نشاطه ليل نهار، ولا سيما الشواغل الجديـدة التي طرأت عليه منذ جواز بني إسرائيل معه، وإفلاتهم من قبضة فرعون وملائه، وذلك على عهد الأسرة التاسعة عشرة، التي هي آخر أسرة مصرية صميمة كانت على عرش مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وَالتي منها انتقل الحكم إلى دول أجنبية صرفة تعاقبت على

الحكم فيها، الواحدة بعد الأخرى، إلى أن قامت دولة الإسلام الكبرى. فهذا الأجل ضربه الله لموسى، حتى إذا حلَّ «ميقات ربه» كان موسى مقبلاً على الله بكليته، منقطعاً إليه وإلى عبادته، واقفاً على عتبة بابه، منتظراً لاستمطار سحابه.

وسحاب الخير لها مطر فإذا جاء الابان تجي

وفي طليعة ما جرى في فترة انتظار موسى لميقات ربه ما قام به من تنظيم مؤقت لشؤون بني إسرائيل، واستخلاف أخيه هارون عليهم، لتسيير شؤونهم مدة غيبته عنهم، كما حكاه عنه كتاب الله قائلاً: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ومن لطائف التفسير المتعلقة بهذا السياق ما علق به القاضي أبو بكر (ابن العربي) على هذه الآية إذ قال: «ضَرْبُ الأجل للمواعيد سنة ماضية، ومعنى قديم أسسه الله في القضايا، وحكم به للأمم، وعرَّفهم به مقادير التأني في الأعمال، وان أول أجل ضربه الله الأيام الستة التي مدها لجميع الخليقة فيها، وقد كان قادراً على أن يجعل ذلك لهم في لحظة واحدة، لأن قوله لشيء إذا أراده ان يقول له: كن فيكون، بَيْدَ أنه أراد تعليم الخلق التأني وتقسيم الأوقات، ليكون لكل عمل وقت».

ونضيف إلى ما قاله التنبيه إلى سنة الاستخلاف الواردة في نفس السياق، فقد سنَّها موسى عندما استخلف أخاه هارون عنه أثناء غيبته، فبقيت سنة متبعة من بعده، وبرزت أثناء عهد الرسالة المحمدية، في عدة مناسبات، منها مناسبة غزوة تبوك، حيث فارق

رسول الله ﷺ المدينة على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مسلم معهم عشرة آلاف من الخيل، وترك على المدينة خليفة من قبله محمد بن مسلمة الأنصاري، كما حققه الامام ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد).

ولما جاء موسى لميقات ربه، وتلقى كلامه ورسالته، استشرفت نفسه، بدافع الشوق وحافز الرجاء، وفي غمرة الذهول والدهشة، إلى تجلي الذات الإلهية، فما كان من الحق سبحانه وتعالى إلا أن ألقى إليه جواباً يستطيع أن يتأكد من خلاله أن الكيان البشري الضعيف لا يقوى على استقبال النور الإلهي وجهاً لوجه ولا سيما في هذه الدنيا، وإذا كان تجلي الذات الإلهية لجبل الطور يجعل الجبل على شموخه وصلابته خاشعاً متصدعاً، ويدكه دكاً في طرفة عين حتى يسيخ في أعماق الأرض، من جلال الله وهيبته، فما بالك بوقع ذلك التجلي على الإنسان الضعيف البنية، والقوي الخشية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾.
وما كاد موسى يرى ما أصاب الجبل الشامخ من تصدع وانهيار حتى أغمي عليه في الحين، من شدة فزع المنظر وهول الموقف، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّآ أَفَاقَ - أي من الاغماء الذي أصابه - قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

غير أن هذه الحادثة الكبرى لم يمر عليها وقت طويل حتى أصبحت لها ذيول في حياة بني إسرائيل، ذلك أن بني اسرائيل لم

يزل الشك يراودهم فيما تلقاه موسى من كلام الله ورسالته، فأخذوا يلحون عليه أن يسأل لهم من الله ميقاتاً خاصاً يحضرونه بأنفسهم، ويشاهدونه إلى جانبه عياناً، فاضطر موسى إلى النزول على رغبتهم، وطلب من الله توقيت ميقات لهم، واختار من بينهم، بوحي من الله، وفداً مؤلفاً من سبعين عضواً يعتبرون من خيار خيارهم، لكن لما حلَّ الميقات المعين الذي كانوا ينتظرون فيه بكل إلحاح وعناد أن يروا الله جهرة ـ حسب تعبيرهم الخاص ـ أخذهم الحق سبحانه وتعالى أخذاً وبيلا، فأخذتهم الرجفة وصُعِقوا في الحين، وكان ذلك عبرة للناس أجمعين، ولم ينجُ إلاَّ موسى وحده، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا، فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ الآية. وفي نفس هذا المعنى ورد في سورة البقرة المدنية: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

وها هنا فائدة لا بد من التنبيه إليها. وهي أن التعبير هنا في كتاب الله بهذا النوع من العدد (ثلاثين ليلة) و(أربعين ليلة) في سياق قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ موافق لطريقة التاريخ المتعارف عند العرب قبل الإسلام وبعده. قال القاضي أبو بكر(ابن العربي): «التاريخ إنما يكون بالليالي دون الأيام، لأن الليالي أوائل الشهور، وبها كانت الصحابة تخبر عن الأيام، حتى روي عنها أنها كانت تقول: (صمنا خمساً مع رسول الله ﷺ)، والعجم تخالفنا في ذلك،

فتحسب بالأيام، لأن معولها على الشمس، وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك».

ووصف كتاب الله ما ألقاه الحق سبحانه وتعالى على رسوله موسى، وأشار إلى ما أنزله الله عليه، وما أوصاه به هو وقومه، وما حذّرهم منه من العذاب والهلاك إن خالفوا أمره: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَـٰمِي، فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّـٰكِرِينَ، وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا، سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَـٰسِقِينَ، سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا، وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى الألواح التشريعية الموسوية، وجرياً على هذه السابقة يبدو أن الرومان بعد مرور أكثر من تسعة قرون على ألواح موسى قد بلغهم صداها، فاستعملوا نفس الاصطلاح، وأخذوا اسم «الألواح» وأطلقوه على أول محاولة حاولوها لوضع قانونهم الوضعي في بداية نشأته سنة ٤٥١ قبل الميلاد، وهو القانون المعروف عندهم باسم «قانون الألواح الاثني عشر».

وقوله تعالى هنا آمراً لنبيه موسى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ هو من نوع الأوامر الإلهية العامة، الموجهة لجميع المؤمنين، إلى يوم الدين، و«الأخذ بالقوة» معناه امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه بعزم

وحزم، وحماس وحمية، أي بدون تردد ولا تهاون، وبكل اندفاع واعتزاز، شأن أهل الإيمان الصحيح، والعقيدة الصادقة.

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ وارد مورد الأمر الأول، لموسى ومن معه، ولكل من جاء بعده، وكلمة الأحسن في قوله ﴿ بأحسنها﴾ يحملها البعض على كل ما كان أرفق وأيسر، بناء على أن كل ما كان أرفق في الدين فهو أحسن، ويحملها البعض على كل ما كان أحوط وأحذر، بناء على أن كل ما كان أحوط للعبادة فهو أحسن، و «لكل وجهة هو موليها» و «لكل مقام مقال».

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَـٰسِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ يَرَواْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ تهديد ووعيد لكل من تحدى أوامر الله من العباد، أو وقف في وجهها وتصدى لها بالمعارضة والعناد.

ومما يتضمنه هذا التهديد الإلهي الخطير خذلان الله للمتكبرين الفاسقين، وحرمانهم من التوفيق والهداية إلى الحق المبين، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وإِنْ يَرَواْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَواْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بآياتنا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾.

ومن المفارقات العجيبة في شأن بني إسرائيل ما حكاه كتاب الله عنهم من أنهم بمجرد ما فارقهم موسى واستخلف عليهم أخاه هارون، وذهب ليخلو بنفسه، ويتمكن من حضور ميقات ربه في الوقت الموعود، عاد إليهم الشيطان بهمزاته ووساوسه، فأعادوا

الكرة للعمل من جديد، في غيبة موسى، على إقامة صنم يعبدونه كما يعبد غيرهم من المشركين مختلف الأصنام والأوثان.

ونظراً لما تعودوا عليه في مصر الفرعونية التي كانوا فارقوها منذ عهد قريب من مشاهدة وعبادة المعبودات الوثنية، وفي طليعتها «العجل أبيس» الذي كان عند قدماء المصريين أهم معبوداتهم الحيوانية، باعتباره ممثلاً لإلههم «فِتاح» على سطح الأرض، فقد فكر بنو إسرائيل في تقليدهم، واتخذوا لهم صنماً من الذهب على صورة العجل الذي طالما رأوه يُعْبد من دون الله. وليعطوه مظهر العجل الحقيقي حتى يتم التشابه بين عجلهم وعجل قدماء المصريين، صنعوه على هيئة خاصة تجعل له خُواراً كخوار العجول الطبيعية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية.

وتذكر كتب التاريخ القديم أن قدماء المصريين كانوا يختارون لعبادتهم عجلاً أسود الجلد، بشرط أن تكون على جبهته غُرَّة مثلثة الشكل، وأن اليوم الذي كانوا يجدون فيه عجلاً بهذه الأوصاف

يعتبر يوم عيد عام، كما أن يوم موته يكون يوم حداد عام، ثم يستمر حدادهم إلى أن يجدوا عجلاً آخر على هيئته، وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالاً عظيماً، ولهذه العجول مقبرة ضخمة بسقارة تعرف باسم السَّرابْيُوم.

وكم كان غضب موسى عليه السلام بالغاً، وأسفه شديداً، بعد عودته من طور سيناء، إذ وجد بني إسرائيل قد تنكروا لكل ما نالهم من عفو وإحسان، وانزلقوا إلى عبادة الأوثان: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَـٰنَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ لكن أخاه هارون لم يسعه إلاّ أن يهدىء روعه، مسترحماً ومستعطفاً، إذ خاطبه كما حكى عنه كتاب الله قائلاً: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ أي يا ابن أمي، والغرض من هذا التعبير إثارة عطف أخيه موسى عليه وتسكين غضبه، وليس المراد أنه أخوه من أمه لا غير، فموسى وهارون أخوان شقيقان: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ﴾.

وفي هذا الخطاب المؤثر وَصَفَ هارون بني إسرائيل بوصفين اثنين كل واحد منهما أخطر من الآخر، وصف «الاعداء» ووصف «الظالمين» ومن كان عدواً لله ظالماً لربه، إذ أشرك به ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وعدواً لرسوله ظالماً له، إذ خان رسوله وحاول قتل خليفته عند تغيبه، ماذا يرجى منه من استقامة وصلاح، وماذا يرجى له من فوز وفلاح. على أن موسى نفسه وصفهم أيضاً بوصف «السفهاء» إذ خاطب ربه قائلاً في معرض توبيخهم،

والتبروء من مخالفاتهم: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ ومن كان ذا سفاهة بشهادة نبيه على سفهه كيف يتأتى منه الرشد، ويزول عنه الطيش، ويتصرف تصرف العقلاء؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْـلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيـا، وكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ اِ۬لدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي اِ۬لْاخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيَ أُصِيبُ بِهِۦ مَنَ اَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلذِينَ يَتَّقُونَ وَيُوتُونَ اَ۬لزَّكَوٰةَ وَالذِينَ
هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُومِنُونَ ﴿١٥٦﴾ اَ۬لذِينَ يَتَّبِعُونَ اَ۬لرَّسُولَ اَ۬لنَّبِيٓءَ
اَ۬لُامِّيَّ اَ۬لذِے يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي اِ۬لتَّوْرَيٰةِ
وَالِانجِيلِ يَامُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَيٰهُمْ عَنِ اِ۬لْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ اُ۬لطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ اُ۬لْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمُۥٓ إِصْرَهُمْ وَالَاغْلَٰلَ اَ۬لتِے كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ
اُ۬لنُّورَ اَ۬لذِےٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اُ۬للَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ
ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾
وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ

حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ
حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ
لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ
مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ
يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ
ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن
يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾
فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ
هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ
مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ

لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَـٰبِ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ جزء من دعاء موسى عليه السلام، وهو تتمة لدعائه الوارد في نهاية الربع الماضي: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَـٰفِرِينَ﴾ وهذا الدعاء من حق كل مومن يومن بالله ورسله وكتبه أن يدعو به لنفسه ولكافة المومنين.

وبعد الانتهاء من هذا الدعاء الشامل لخير الدنيا وخير الآخرة، يبدأ خطاب إلهي عام في موضوع العذاب والثواب، والنعمة والنقمة، ومضمون هذا الخطاب أن رحمة الله العامة تسع كل شيء مما يشاء، وأن عذابه يصيب به من يشاء، وإذا كانت الرحمة شاملة للنبات والحيوان والإنسان وكافة المخلوقات، فإن العذاب إنما يكون بالمرصاد لأعداء الله المتمردين على أوامره، من

خصوم النبوات والرسالات، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيَ أُصِيبُ بِهِ مَنَ اَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولا يفهمنَّ أحد من هذه الآية أن الله يعذب من يشاء من عباده دون مبرر للعذاب، فإرادة الله المطلقة إرادة حكيمة، ومشيئته الحرة من كل قيد مشيئة عادلة، بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾، وقوله في آية أخرى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ وأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله عز وجل مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخَّرَ تسعة وتسعين إلى يوم القيامة».

ثم نبَّه كتاب الله إلى أن هناك رحمة خاصة زائدة على الرحمة العامة التي تشمل البر والفاجر، والمومن والكافر، والنبات والحيوان، وجميع المخلوقات المنتشرة في الأكوان، وهذه الرحمة الخاصة اقتضت حكمته واستوجب عدله أن تكون قاصرة على خير أمة أخرجت للناس، متى حافظت على «خيريتها» ولم تتنازل عن هويتها، وذلك ما وعدها به الحق سبحانه وتعالى وعد حق وصدق إذ قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي الرحمة الخاصة، وتندرج تحتها عدة نعم جليلة ودقيقة، في الدنيا والآخرة: ﴿لِلذِينَ يَتَّقُونَ وَيُوتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالذِينَ هُم بِئَايَـٰتِنَا يُومِنُونَ، الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيٓءَ الأُمِّيَّ الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرِيٰةِ وَالإِنجِيلِ، يَامُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَيٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلَـٰلَ التِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وهذه الآيات الكريمة تتناول صفات الرسول التي يشترك فيها مع غيره من الأنبياء والرسل السابقين: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كما تبرز أهم الصفات، التي ميزته أولا ﴿ النَّبِيءَ الْأُمِّيَّ﴾ والتي ميزت رسالته عن بقية الرسالات ثانياً: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يضع عنهم التكاليف الثقيلة التي كانت شائعة قبل الإسلام، بمعنى أنه جاء بدين طبعه الله بطابع السماحة واليسر، كما قال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقال ﷺ: «ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل».

وتتناول نفس الآيات صفات أتباع الرسول عليه السلام من صالحي المومنين، فهم أهل إيمان وإحسان، وتقوى واتّباع، وهم أهل وفاء وثبات على العهد الذي عاهدوا الله عليه، من نصرة رسوله، وبذل الأرواح في سبيله في كافة الظروف وجميع البقاع: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُوتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُومِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ - ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومما تنبغي ملاحظته هنا ما كررته الآية الكريمة هنا من صفة (الاتّباع) التي هي شارة التكريم والتشريف، وموضع الأفضلية والخيرية للأتباع، فقد كررتها الآية مرتين، بصيغة المضارع الدالة على تجدد العمل حيناً بعد حين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الْأُمِّيَّ﴾ وبصيغة الماضي الدالة على وقوع الاتباع فعلاً، لا قولاً،

وعملاً ، لا ادعاءً ﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وكان مسك الختام في هذا المقام، تلك الاشارة الكريمة ذات المغزى البعيد، والطالع السعيد، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون لا غيرهم، وغيرهم خاسرون حتماً، دنيا وأخرى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ نقطة مهمة يجب الوقوف عندها، ذلك أن سورة الاعراف سورة «مكية» و«الزكاة» بالمعنى الذي تعرف به بين المسلمين الآن فريضة «مدنية»، فما معنى «الزكاة» إذن في سورة الأعراف وما ماثلها من السور المكية، مثل سورة فصلت التي ورد فيها في سياق ذم المشركين قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؟.

والجواب الذي أجاب به المحققون عن مثل هذا السؤال هو أن اسم «الزكاة» أطلق أولاً بصفة اجمالية لم يكن فيها تقرير لمقادير خاصة، ولا تعيين لأنصبة معينة، ولما كثر عدد المسلمين بمكة نوعاً ما فرض الله على أهل الأموال أن يعطوا للمحتاجين صدقة من زرعهم ونخلهم وثمارهم، بقوله تعالى في سورة الانعام المكية، وهي من آخر ما نزل بمكة: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾. وعندما تألفت جماعة المسلمين بالمدينة من المهاجرين والانصار قام الانصار بمواساة المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وكانوا يعتبرون تلك العطايا واجبة عليهم، لأن القرآن كرر الأمر بها، وسماها «زكاة»، وقرنها بالصلاة، وهكذا كانت الزكاة في أول الإسلام مفروضة على المسلمين بوجه إجمالي غير

مفصل، وكانت مقاديرها ومواقيتها موكولة إلى أريحية المومنين أنفسهم وتقديرهم للظروف دون أي تحديد، اعتماداً على الوازع الديني المجرد، الذي يحث على التقرب إلى الله بكل ما فيه رضاه. وإنما فرضت الزكاة المعينة المحددة الأنواع والأنصبة والمواقيت في سنة اثنتين أو ثلاث بعد الهجرة إلى المدينة، فكان منها زكاة الانعام، وزكاة الثمار، وزكاة النقديْنِ، وقد بيَّنَ رسول الله ﷺ وجوبها والحكمة في فرضها في غير ما حديث، ومن ذلك قوله لمعاذ وهو يودعه حين بعثه إلى اليمن: «فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم». وهكذا مرَّت الزكاة بعدة مراحل، مِمَّنْ فصل القول فيها الشيخ محمد الطاهر (ابْن عاشور) في كتابه (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام)، وهو في ذلك متفق معنى وروحاً مع ما قرره الامام أبو اسحاق الشاطبي في كتابه (الموافقات) حول التشريع المكي والتشريع المدني وما بينهما من علاقة وتدرج.

ثم خاطب الحق سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه ورسله مكلفاً إياه أن يبلغ الرسالة التي تلقاها من عند الله إلى جميع الناس، فهو رسول الله إلى كافة السلالات والأجناس، وهو رسول الله إلى من عاصره وإلى كل من يأتي بعده إلى يوم الدين: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾. كما كلفه بأن يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله ورسوله، وأن يأمرهم باتباعه إن أرادوا الهدى والبعد عن الضلال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُومِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فالسر كله في الاتباع «اتباع الهُدْى المحمدي» والشر كله في الابتداع «ابتداع الضلالات والبدع».

ومن هنا انتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحديث عن بني إسرائيل، وكان ذلك عوداً على بدأ، فأشارت الآيات الكريمة إلى معجزة جديدة أبرزها الله على يد موسى وعصاه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَيٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وفي نفس الموضوع ورد قوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ الآية، ثم عقب كتاب الله على ذلك قائلاً: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وجاء دور بني إسرائيل في الانحراف من جديد، ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ،فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ و«الرجز» إما العذاب أو الغضب أو الطاعون، وورد في سورة البقرة المدنية قوله تعالى في نفس الموضوع: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

وجاء دور بني إسرائيل في التحايل على التخلص من أوامر الله والتحلل من نواهيه، وبذلك وضعوا سابقة (الحِيَل) في الشريعة والدين: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ أي ظاهرة على الماء من كل مكان: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

وأعلن كتاب الله نوع العقاب الصارم الذي عاقبهم به جزاء تحايلهم على أوامره، وتحللهم من نواهيه، إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ، وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي قوة هذه الصيغة ما يفيد معنى القسم، و«تأذن» بمعنى أمر أو أعلم، وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ على غرار ما سبق في سورة البقرة المدنية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ، فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وأخيراً كشف كتاب الله النقاب عن الحكمة الإلهية فيما تقلب فيه بنو اسرائيل -ولا يزالون يتقلبون- من أطوار، بين الشدة والرخاء، والسراء والضراء، والنعمة والنقمة، فقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. لكنهم استمروا على خيانة العهد كلما عاهدوا، وعلى نقض الميثاق كلما واثقوا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلا أنهم ما لبثوا أن جعلوا كتابهم بضاعة للبيع والشراء، حسب مقتضيات الأغراض والأهواء: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ، وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾؟.

وختم هذا الربع مؤكداً أن الدار الآخرة هي أحق من الدنيا بالعمل من أجلها والرجاء فيها، وهي خير للمتقين من كل الوجوه: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ومنوهاً بالأجر العظيم الذي

ادخره الله للصالحين المصلحين من عباده، الذين يصلحون في الارض ولا يفسدون، وللمتمسكين بكتابه، الذين لا يكتمون ما أنزل الله ولا يشترون به ثمناً قليلاً: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَـٰبِ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

الربع الأول من الحزب الثامن عشر
فــي المصحف الكــريــم

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا
مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ
أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث

ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ
ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ
ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾
وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا
وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ
كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ
يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟
مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟
فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾
مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾
يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ

رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ
لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧

الربع الأول من الحزب الثامن عشر
فــي المصحف الكــريــم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلِ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أول آية في هذا الربع هي آخر آية من قصة بني إسرائيل وردت في سورة الأعراف، وسبق في نهاية الربع الماضي الحديث عن ﴿مِّيثَٰقُ الْكِتَٰبِ﴾ الذي أخذه الله عليهم كما أخذه من بعد على غيرهم: ﴿أَلَمْ يُؤخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ الْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

وفي بداية هذا الربع أشار كتاب الله على سبيل التذكير إلى الظرف الذي أَخَذَ عليهم فيه ذلك الميثاق، وهو ظرف لا يُنسَى، إذ تمت فيه إحدى معجزات موسى عليه السلام، ذلك أن الله أوحى إلى الجبل، فانقلع وارتفع في السماء، حتى كأنه مظلة تظللهم من فوق رؤوسهم، فلما رأوا الجبل على تلك الحالة قال لهم موسى عليه

السلام ألَا ترون ما يقول ربي عز وجل: «لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل»، وذلك ليقروا بميثاق الكتاب، ويحسبوا له كل حساب، فلم يسعهم حينئذ إلاَّ القبول بعد التردد، والاقرار بعد التقاعس، نزولاً على حكم هذه المعجزة الخارقة للعادة، وإلى المعنى الرئيسي الذي هو محور هذه القصة تشير الآية الكريمة بإيجاز: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي رفعناه فوق رؤوسهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ من الظل، وجمعها ظُلَل ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ساقط عليهم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ الآية، أمر إلهي موجه رأساً لبني إسرائيل، على غرار الأمر الإلهي الموجه إلى موسى نفسه، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَامُرْ قَوْمَكَ يَاخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾، وقد سبق في الربع الثالث من الحزب الماضي، والمراد به أن يأخذوا ميثاق الكتاب بجد وحزم وعزم وامتثال كامل، وقد تناول كتاب الله نفس القصة أيضاً في سورة البقرة المدنية، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الآية. كما تناولها في سورة النساء المدنية أيضاً، حيث قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾. ولفظ «الطور» الوارد في سورة البقرة والنساء المدنيتين المراد به «الجبل»، كما ورد هنا في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ إذ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد نص على هذا التفسير ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم من مفسري السلف كما نقله ابن كثير.

ثم انتقلت الآيات الكريمة في هذا الربع إلى الحديث عن أقدم وأول ميثاق أخذه الله على كافة العباد، وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم سراً مكنوناً في عالم الغيب، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو يتضمن في جوهره الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان، على أساس من التوحيد والإيمان. فما من إنسان إنسان وُكِل إلى فطرته الأولى، ولم تتعرض فطرته لعوامل التشويه والإفساد، إلاّ وهو مقر بألوهية الله وربوبيته للعباد، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق، وملتزم بجميع نتائجه وآثاره على الاطلاق، دون معارضة ولا جحود، وبدون أي قيد من القيود، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، حتى إذا ما وقع الإنسان بين أيد غير أمينة، فعملت على تشويه فطرته وإفسادها، انحرف عن الفطرة السليمة، واختلطت عليه العقيدة الصحيحة بالمعتقدات السقيمة، ونسي الميثاق الأزلي المعقود بين فطرته وبين ربه، ووقع في شَرَك الشيطان وحزبه.

وقد أشار كتاب الله في هذا السّياق، إلى أن الحكمة الإلٰهية في المبادرة بأخذ هذا الميثاق هي قطع كل عذر لمن نكث بعد ذلك بالعهد، وإسقاط كل حجة لمن لم يبرّ بالوعد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيَ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ، شَهِدْنَا﴾ وكشف كتاب الله عما قد يتتحلونه من الأعذار

لشركهم وكفرهم: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ، أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ثم عقب كتاب الله على ذلك كله، مبيِّناً انه إنما يفصل الآيات تفصيلاً، لتتضح حقيقة الايمان الكبرى، وليعود السفهاء الضالون إلى طريق الرشد والهدى، والمبطلون المنحرفون إلى جادة الحق والصواب: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَـٰتِ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم ـ أي صرفتهم عنه ـ وحرمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث.

وانتقلت الآيات الكريمة لوصف صورة من صور الانحراف، الذي طالما تعرضت له فطرة الإنسان في مختلف العصور، فضربت المثل بحالة المكذبين بآيات الله بعد معرفتها، أولئك الذين ينزلون بانحرافهم من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات. وتشمل هذه الصورة بالخصوص من يكرمه الله بمعرفة آياته ليؤدي حقها في نفسه، وليبلغ رسالتها إلى الناس، ثم يستحوذ عليه الشيطان، فلا يلبث أن ينقلب به الحال، ويصيبه الخبال، ويستبدل بالعطاء سلباً، وبالهدى ضلالاً، فيعرض عن النظر في آيات الله، ويعلن الحرب على الله، وينسلخ من دينه وعهده، كما ينسلخ الحيوان الذبيح من

جلده، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ﴾ أي استحوذ عليه وجعله تابعاً ومطيعاً له طاعة عمياء ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي من الحائرين الهالكين: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي أنه بدلاً من أن يرتفع إلى أعلى الدرجات، بما أكرمه الله به من الآيات، تنكب طريق الرفعة، واختار لنفسه السقوط إلى الحضيض، والنزول إلى أسفل الدركات، وقوله تعالى هنا: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَيٰهُ﴾ على غرار قوله تعالى في آية اخرى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَيٰهُ﴾ فهواه عنده هو الدين المتبع: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ وما أهون على الله وعلى الناس من يصفه كتاب الله بهذا الوصف المَشين: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي أنه إذا زجر لم ينزجر، وإذا أهمل لم يعتبر، وهذا المعنى قريب من قوله تعالى في آية أخرى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم عقب كتاب الله على ما وصف به المذبذبين الذين تعرضوا للسلب بعد العطاء من وصف مثير، فقال تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وبيّن كتاب الله ان هذا النوع من الخلق هم أقبح مثل بين الناس، لأن الأفكار الخبيثة التي ينشرونها، والطرائق الفاسدة التي يسلكونها، تفعل بأتباعهم المخدوعين، ما لا تفعله الأوبئة والطواعين: ﴿سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى، وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ معناه أن من رضي لنفسه أن يهتدي بهدى

الله، واستعمل ما وهبه الله من ملكات ومواهب استعمالاً رشيداً، واتجه بها كلِّها اتجاه خير وتقوى وصلاح كان مهتدياً وفائزاً حقاً وصدقاً، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ومن أعرض عن ذكر ربه واستعمل ما وهبه الله من ملكات ومواهب استعمالاً سفيهاً، واتجه بها كلِّها اتجاه شر وفسق وفساد كان ضالاً وخاسراً، أولاً وآخراً، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وعلى مثل هذا الصنف يصدق قوله تعالى في أواخر هذا الربع: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

ونبه كتاب الله في سياق حديثه عن كثرة أهل النار من أين تتكون، إلى أن الحكمة الإلهية فيما آتاه الله للإنسان من حواس لطيفة متنوعة، وأجهزة دقيقة مختلفة، هي أن تكون نَوَافِذ له يطل منها على الحقائق التي تحيط به من حوله، فإن لم يستعملها للملاحظة والتجربة، وإن لم ينتفع بها في التدبر والاعتبار، واستقصاء حقائق الأشياء القريبة والبعيدة، الحاضرة والغائبة، لم يختلف عن الحيوانات العجماء في شيء، بل انه ليكون أقل منها درجة وأضلّ سبيلاً، إذ أن الحيوانات العجماء ـ بحكم ما غرز الله فيها من غرائز بسيطة ـ تؤدي جميع المهام الموكولة إليها في حدود إحساسها الغريزي على أحسن وجه، وهي لا تعرف أي انحراف عنها أو انصراف، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ، أُوْلَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ﴾.

ونوه كتاب الله بالهادين المهتدين من أهل الحق والعدل، كما أنذر الضالين المضلِّين من أهل الباطل والظلم، وأعلن عن استدراجه إياهم، وإمهاله لهم، في انتظار أخذهم على بغتة أخذاً وبيلاً: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآياتنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ومن هدده بالكيد له رب العالمين، كان من غير شك أخسر الخاسرين، في الدنيا والدين.

الربع الثاني من الحزب الثامن عشر
فـــي المصحف الكــريــم

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن
نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ
ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ
عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١
وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن
تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ
أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا
أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾
إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا
وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا
هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا
قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا
لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي

نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ اَ۬لْجَهْرِ مِنَ اَ۬لْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْاَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ اَ۬لْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ اَ۬لذِينَ عِندَ
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۝٢٠٦ ۩

٨ سُورَةُ الْاَنفَالِ مَدَنِيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ٧٥

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

يَسَّلُونَكَ عَنِ اِ۬لَانفَالِ قُلِ اِ۬لَانفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اُ۬للَّهَ وَأَصْلِحُواْ
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اُ۬للَّهَ وَرَسُولَهُۥ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ۝١ إِنَّمَا
اَ۬لْمُومِنُونَ اَ۬لذِينَ إِذَا ذُكِرَ اَ۬للَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمُۥ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمُۥ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ اَ۬لذِينَ
يُقِيمُونَ اَ۬لصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْمُومِنُونَ
حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤

الربع الثاني من الحزب الثامن عشر
فــي المصحف الكــريــم

عبــاد الله

حديث هذا اليوم نتناول فيه الربع الثاني من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأعراف المكية: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُومِنُونَ حَقّاً، لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع يتلقى خاتم الأنبياء والمرسلين من رب العالمين، أمراً إلهياً بقصد التعليم والتلقين لجميع المومنين، وهذا الأمر يرمي إلى إزالة كل شك أو ريب، في أن الله وحده هو النافع الضار، والمنفرد بالتصرف المطلق في خلقه دون غيره، ولو كان هذا الغير نبياً أو رسولاً، ولو كان هذا الغير خاتم الأنبياء والمرسلين، ويتضمن هذا الأمر تعريف الناس أجمعين بأن الرسول لا يملك حتى لنفسه نفعاً ولا ضراً، رغماً عن كونه يحمل شارة الرسالة، المؤذنة باصطفائه واختياره على جميع الخلق، ورغماً عن كونه في أعلى درجات القرب من الله والحصول على رضاه، وإذا كان الرسول الكريم في منطق القرآن السليم، يعلن عن نفسه، بأمر من ربه،

أنه لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضراً، فمن باب أولى وأحرى أن يكون إعلانه عن هذه الحقيقة شاملاً لغيره من بقية الناس. وهذه تربية من الله لعباده، وإرشاد لهم بهذا الأسلوب المباشر، حتى لا تختلط في أذهانهم ولا في عقائدهم خصائص الألوهية بخصائص النبوّة.

وتأكيداً لنفس المعنى مضى الخطاب الإلهي يلقن الرسول الأعظم ﷺ ماذا ينبغي أن يعلّم لأمته حتى لا تضل سواء السبيل، فأثبت بأسلوبه الخاص أن علم الغيب بالأصالة إنما هو من اختصاص علاّم الغيوب وحده: ﴿عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ﴾ لكن يحدث أحياناً أن يتكرم الحق سبحانه وتعالى، ويُظهِر على شيء من غيبه بعضاً من خواص خلقه، وذلك لحكمة إلٰهية، وهذا لا يعدو أن يكون «منحة ربانية» لهم في بعض الظروف، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الجن المكية: ﴿عَـٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وأوضح كتاب الله هنا فيما لقّنه لرسوله الأعظم أن الرسول لو كان يعلم الغيب فعلاً لانتفع بعلم الغيب فيما يتناوله من شؤون، ولتفادى بفضله كثيراً من الأحداث والمفاجآت، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى على لسان رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.

ومن التفاسير التي أوردها ابن جرير الطبري لهذه الآية: «لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من السنة المخصبة،

ولوقت الغلاء من وقت الرُّخْص، ولاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون». وقال القاضي عبد الجبار: «المراد لو كنت أعلم الغيب وقت خروجي من الدنيا لاستكثرت من الخير والطاعة، فقد كان ﷺ لا يعرف قدر أجله، ولو عرفه لزاد في الطاعات أضعافاً، وليس المراد لاستكثرت من الخير فيما يتصل بلذات الدنيا، وقد يحتمل: لاستكثرت من الخير في دفع المضار عن نفسي والمومنين».

ثم أكد كتاب الله على لسان رسوله الأعظم أن اختصاص الرسالة على وجه الأصالة لا يتجاوز البشارة والنذارة، فهو «بشير ونذير» للناس أجمعين، ولا سيما للمومنين الذين هم ثلّة من الاولين وقليل من الآخرين، وذلك قوله تعالى بصيغة الحصر: ﴿ إِنَ اَنَا۬ إِلَّا نَذِيرٌ، وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة يختلط فيها الإيمان بالشرك عند كثير من الناس، ذلك أن الله تعالى طبع الانسان، ذكراً وأنثى، على حب الذرية والرغبة في إنجاب الأولاد، ومن أجل تحقيق هذه الرغبة يستعمل بعض الناس لجهلهم كل الوسائل الممكنة، حتى الوسائل غير المشروعة، لا سيما إذا طال على بعضهم الانتظار وامتد به الأمد، وهكذا يصبح الزوج والزوجة في قلق واضطراب، تارة يستجيبان لفطرة الله فيتوجهان بدعائهما ورجائهما في إنجاب الولد إلى الله، وتارة ينحرفان عن الفطرة فيعقدان الأمل والرجاء على غير الله، ويظهر أثر ذلك فيما يقدمه الأب أو الأم من نَذْر إلى غير الله، ومن اعتقاد بأن ذلك الغير كان له تأثير مباشر في تحقيق مناه، أياً كان ذلك الغير، صنماً أو إنساناً، حياً أو ميتاً.

وإلى وصف هذه الحالة وما ماثلها يشير قوله تعالى هنا: ﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا تَغَشّيٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾. والتغشي هنا كناية عن المباشرة، وهو تعبير منسجم مع قوله تعالى في آية أخرى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي الزوج والزوجة ﴿لَئِنَ ـاتَيْتَنَا صَـٰلِحاً﴾ أي لئن أعطيتنا بشراً سوياً ووليداً غير مشوه ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّـٰكِرِينَ، فَلَمَّآ ءَاتيٰهُمَا صَـٰلِحاً﴾ أي أعطاهما الله مولوداً سليماً كما طلبا ﴿جَعَلَا لَهُ شِرْكاً فِيمَآ ءَاتيٰهُمَا﴾ أي نسيا الله تعالى، ونسبا نجاح الحمل ونجاح الولادة إلى غير الله من الأصنام والأوثان، أو إلى غير الله من أهل الصلاح المشهورين بين أهل الملل والأديان: ﴿فَتَعَـٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ويتصل بهذا الموضوع قوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذِينَ مِن دُونِهِ، بَلِ الظَّـٰلِمُونَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وبعدما لقن كتاب الله خاتم أنبيائه ورسله حججه البالغة ليقارع بها الشرك وأهله، ويبطل بها أباطيلهم وأضاليلهم من أساسها، عاد إلى رسوله بالمواساة والتوجيه، ليثبّت فؤاده على الحق، وليسلك به مسالك الأناة والصبر، وليمده بمدد روحي جديد يستعين به على تحمل الأذى، ومواجهة الجفاء، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ، وَامُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَـٰهِلِينَ، وَإِمَّا

يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال قتادة: «هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها». وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم يبقَ فيها حسنة إلاّ أوضحتها، ولا فضيلة إلاّ شرحتها، ولا أكرومة إلاّ افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة. فقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تولى بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف، وقوله تعالى: ﴿وَأمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ تناول جانب المأمورات والمنهيات؛ وأنهما ما عُرِف حكمُه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَـٰهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر، الذي به يتأتى للعبد كل مراد في نفسه وغيره. ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً».

وعلى عكس ما فهم بعض المتأخرين من كلمة «العرف» الواردة هنا، فحملها على الأعراف والعادات، نبَّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) وغيره من المفسرين والفقهاء إلى أن المراد بالعرف في هذا السياق هو «المعروف من الدين، المعلوم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، المتفق عليه في كل شريعة». وقد امتثل رسول الله ﷺ أوامر ربه حق الامتثال، وطبقها في حياته وسلوكه على التمام والكمال، ثم بسط القاضي أبو بكر (ابن العربي) القول في تفسير هذه الآية وتحليلها فقال: «أما العفو فانه عام في متناولاته، ويصح أن يراد به: خذ ما خف وسهل مما تُعْطَى، فقد كان رسول الله ﷺ يقبل من الصدقة التمرة والقبضة والحبة والدرهم والسَّمَل

(الثوب البالي) ولا يلمز شيئاً من ذلك ولا يعيبه، ولقد كان يُسْقِط من الحقوق ما يقبل الإسقاط، حتى قالت عائشة في الحديث الصحيح: «ما انتقم رسول الله لنفسه قط».

«وأما الاحتمال، فلقد كان (ص) يصبر على الأذى ويحتمل الجفاء، حتى قال ﷺ: «يرحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

«وأما مخالقة الناس وملاطفتهم فقد كان أقدر الخلق عليها وأولاهم بها: فإنه كان ﷺ يلقى كل أحد بما يليق به، من شيخ وعجوز، وصغير وكبير، وبدوي وحضري، وعالم وجاهل، ولقد كانت المرأة توقفه في السكة من سكك المدينة فيقف لها، ولقد كان يقول لأخ صغير لأنس: يا أبا عُمَيْر ما فَعَل النُّغَيْر، متلطفاً ومؤنساً (والنُّغَيْر تصغير النُّغَر) وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار. ولقد كان يكلم الناس بلغاتهم (أي بلهجاتهم) تأنيساً لهم وتطييباً لخواطرهم» انتهى كلام ابن العربي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ورد معناه في كتاب الله في آيتين أخريين، إحداهما في سورة «قد أفلح المومنون» وهي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَـٰطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ وثانيتهما في سورة «حم السجدة» وهي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنـزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال ابن كثير: «ولا رابع لهن في كتاب الله».

وأصل «النزغ» الفساد، اما بالغضب أو غيره، و «العياذ بالله»

هو الاستجارة به من الشر، والالتجاء والاستناد إلى حمايته سبحانه، قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ﴾ أي واما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل، أو يحملك على مجازاته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي فاستجر بالله من نزغه: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي «سميع» لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه، وسميع لغير ذلك من كلام خلقه، إذ لا يخفى عليه شيء، و«عليم» بما يُذهِب عنك نزغ الشيطان، وعليم بغير ذلك من أمور خلقه.

وقال القاضي عبد الجبار: «معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ﴾ التحرز من وسوسة الشيطان، لأن الشيطان لا يتمكن من الرسول ﷺ، وربما كان الخطاب هنا بذكر الرسول ﷺ، والمراد غيره»، أي أن يكون الخطاب الموجه ظاهراً في هذه الآية إلى الرسول، موجهاً في الحقيقة عن طريقه إلى أمته، فهي المقصودة به بالذات، حتى تتغلب على ما للشيطان من وساوس وهمزات.

وختمت سورة الأعراف بالتنويه بكتاب الله وهديه، ودعوة كل مومن إلى سماع القرآن والإنصات إليه من كل قلبه، وبتعريف المومنين أجمعين بما يلزمهم من أدب الدعاء وحسن العبادة، حتى يحظوا بالقبول عند الله ويندرجوا في سلك أهل السعادة، وذلك قوله تعالى في ختام سورة الاعراف: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، وَلاَتَكُن مِّنَ الْغَـٰفِلِينَ، إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

كَمَآ

أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ

عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ
بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ
فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ
وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ
يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ
بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾
إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا
وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

عباد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُومِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

في حديثنا الماضي ختمنا بعون الله وتوفيقه سورة الأعراف المكية، وكانت ثالث سورة مكية في ترتيب المصحف الكريم، علاوة على سورة الفاتحة وسورة الانعام المكيتين أيضاً، وانتقلنا من سورة الأعراف إلى سورة الأنفال المدنية التي نحن بصدد تفسيرها الآن، وهي خامس سورة مدنية في ترتيب المصحف الكريم، بالإضافة إلى سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، التي هي سور مدنية أيضاً.

وسورة الأنفال نزلت بمناسبة غزوة بدر الكبرى، وكانت كما قال الإمام مالك «في سبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان» وذلك في السنة الثانية للهجرة، وغزوة بدر في الإسلام تمثل الجولة الأولى

من جولات الكفاح الإسلامي المظفَّر، لصد العدوان ورد الطغيان، وإنقاذ المستضعفين الذين كانوا يضطهدون بمكة من الرجال والنساء والولدان.

ومن أجل ذلك أطلق بعض الصحابة على سورة الأنفال اسم (سورة بدر). قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إن السورة هي سورة بدر كلها، وكلها مدنية إلاَّ سبع آيات، فإنها نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ﴾ إلى آخر الآيات السبع».

وقد تضمنت سورة الأنفال أهم المبادىء الأساسية التي جاء بها الإسلام لتنظيم شؤون السلم والحرب، وتحديد عوامل النصر وأسباب الهزيمة، وتعيين واجبات المجاهدين في سبيل الله من جهة الإعداد والاستعداد، وتوضيح حقوقهم على الدولة الإسلامية التي يدافعون عن كيانها، وتبيين الطريقة التي يعامل بها أسرى الحرب، والطريقة التي تتبع في الغنائم. وبالإجمال فإن هذه السورة الكريمة وضعت الحجر الأساسي للسياسة الحربية العامة التي يجب أن يطبقها الإسلام كلما اضطر المسلمون إلى خوض غمار الحرب للدفاع عن أنفسهم، ولم يجدوا من خصومهم عدلاً ولا استعداداً للسلام.

وسميت هذه السورة (سورة الأنفال) أخذاً من مطلعها الخاص، حيث ابتدأت بقوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْاَنفَالِ، قُلِ الْاَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ ﴾.

وكلمة (الانفال) هنا تعني بالخصوص الغنائم التي غنمها المجاهدون في غزوة بدر، فقد كانت أول شيء من نوعه بالنسبة لكثير منهم، فبادر الوحي الإلهي إلى التصريح بما يرفع في شأنها كل غموض، ويرفع في أمرها كل نزاع، وأعلن كتاب الله أن الحكم الخاص بها موكول إلى الله ورسوله رأساً، لأنّ حُكْمَهُمَا لا يلحقه ميل ولا حيف ولا جور، ولم يكن الحكم فيها موكولاً إلى اجتهاد المجاهدين أنفسهم، حذراً من أن يكون في حكمهم دخل لاعتبارات لا علاقة لها بالجهاد، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاَنفَالِ، قُلِ الاَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ﴾ ثم جاء الحكم في شأنها مفصلاً كما سيأتي في قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتَـٰمىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية.

ونبهت الآيات الكريمة إلى أن الحكمة الإلهية في جعل الحكم في الغنائم موكولاً إلى الله ورسوله هو تنقية الجو من كل ما يؤدي إلى فساد ذات البَيْن بين الإخوة المجاهدين، وحمايتهم من عوامل الشقاق والنزاع، إذ متى كان الحكم في أمر من الأمور صادراً عن الله ورسوله، فلن يسع المومنين أجمعين إلاّ طاعة حكمهما، والائتمار بأمرهما، ومن شأن المومن إذا ذكر الله أمامه أن يخشع ويلين، ويخضع لحكمه ويستكين، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى بعد مطلع سورة الأنفال ـ آخر الربع الماضي ـ: ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إن كُنتُم مُّومِنِينَ، إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ ـ

أي زادتهم تصديقاً ـ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ وردت في أوله كاف التشبيه: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾ وقد اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف من ناحية الإعراب.

ومن أحسن ما ورد في ذلك ما قاله القاضي عبد الجبار: «هذا الجنس من الحذف ربما يعد في كمال الفصاحة، فبشّر الله نبيه بالنصرة التامة وجميل العاقبة يوم بدر، كما سهّل له الخروج من بيته» إلى آخر كلامه، وذلك رغماً عن تثاقل بعض المومنين وترددهم في الخروج، طبقاً لقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُومِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ وإنما ثقل الخروج عليهم لقتال المشركين، لما فيه من المشقة الزائدة، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وليس المراد أنهم كرهوا الخروج مع رسول الله ﷺ، فذلك لا يتصور في شأن المومنين، خصوصاً السابقين الأولين.

وقد نقلت دواوين السيرة وكتب الحديث أن النبي ﷺ عندما بلغه خروج قريش لقتال المسلمين أخبر الناس واستشارهم، فكان مما قاله المقداد بن عمرو من المهاجرين ـ وهو الذي اشتهر بالمقداد بن الأسود ـ: «يا رسول الله امضِ لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا وإنَّا معكما مقاتلون».

ولم يزل رسول الله ﷺ يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وكان يريد أن يعرف رأي الأنصار بعدما عرف رأي المهاجرين، ويتخوف أن يكون رأيهم هو التعهد بنصرته ممن دهمه بالمدينة، لا بنصرته ممن هاجمه خارجها، فقال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. فقال سعد باسم الأنصار: «فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، انا لصُبُر عند الحرب، (جمع صبور) صُدُق عند اللقاء (جمع صدوق) فَسِرْ على بركة الله». فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد وقال للمسلمين: «سيروا على بركة الله وأبشروا. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ المراد بغير ذات الشوكة «طائفة العِير» التي انتظر البعض أن تقع في أيديهم دون قتال، و«ذات الشوكة» هي طائفة النَّفِير من مشركي قريش، التي استنفرها أبو سفيان فجاءت لقتال المسلمين، وكان عددها يتجاوز ألف مقاتل، بينما كان عدد المجاهدين «البدريين» ثلاثة عشر مقاتلاً وثلاثمائة مقاتل لا غير، كما حققه القاضي أبو بكر (ابن العربي)، وبسبب ذلك تخوف بعض المسلمين أن ترجح عليهم كفة المشركين.

ثم بيَّن كتاب الله أن الحكمة من وراء غزوة بدر ليست هي القيام بمناوشة عادية، أو تحقيق مكسب رخيص، وإنما هي مقدمة كبرى لأمر كبير، وشأن خطير، هو انتصار الإسلام على الشرك داخل جزيرة العرب، وظهوره على الملل الباطلة والأديان المنحرفة في

جميع أطراف العالم: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَـٰفِرِينَ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية، إشارة إلى ما قام به النبي ﷺ يوم بدر عندما نظر إلى أصحابه في المعركة وهم قلّة قليلة، ونظر إلى المشركين الذين جاؤوا بعصبة كبيرة، فاستقبل ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم أخذ يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابةُ من أهل الإسلام فلا تُعبَدُ في الأرض أبداً». فما زال ﷺ يستغيث ربه ويدعوه دعاء المضطر حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر وناوله رداءه فارتداه، ثم التزمه أبو بكر من ورائه وقال: «يا نبي الله: كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك وعدك». فلم يلبث ﷺ إلاّ قليلاً حتى أمد الله المسلمين بمدد من عنده، ونزلت السكينة في قلوب المومنين، وحلّت البشرى وجاء النصر السريع من عند الله؛ وبذلك تحققت الاستجابة، بعد الإنابة.

وهذا تنبيه من كتاب الله إلى أن الرجوع إلى الله واستمداد عونه ونصره في مثل هذه المواقف ـ مواقف الدفاع عن الإسلام والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس ـ أمر لا غنى عنه في كسب المعارك لمن يريد النصر ويسعى إليه. ومن أجل ذلك سنَّ لنا رسول الله ﷺ هذه السنّة: سنّة الاستغاثة بالله والاستنصار بقوته، رجاء إمداده وإعانته، إذ لا غنى عنها في سلم أو حرب، لقوي أو ضعيف.

وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي

مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُـرْدِفِينَ﴾ ـ أي متتابعين ـ : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ، إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾. وقولـه تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ، وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُومِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَناً﴾ أي ليُعرِّف المومنين نعمته عليهم بإظهارهم على عدوهم، رغماً عن كثرته وقلتهم: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوَهِّنُ كَيْدَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن سر النجاح في مثل هذه المواقف، أو مفتاح النصر فيها ليس في كثرة العَدد والعُدد بقدر ما هو كامن في الإيمان الصادق، والتضحية المثالية، وروح الفداء الخالصة لوجه الله التي يتشبع بها المسلمون، فالعبـرة في نظر الإسلام بالكَيْف قبل الكَمّ، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

وقوله تعالى عقب ذلك: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ ٱلْمُومِنِينَ﴾ تعهد من الله تعالى بإعانة أهل الإيمان الحق، وبنصرتهم على غيرهم ولو كانوا ثلَّة قليلة، ما تمسكوا بإيمانهم وثبتوا على دينهم، وكانت صلتهم بالله موصولة غير مقطوعة.

واهتمت الآيات الكريمة اهتماماً خاصـاً بجريمـة الفرار من الصف، مما يمكن أن يحدث في مثل هذه الظروف، وهي الجريمة

التي يطلق عليها في الشريعة اسم «الفرار من الزحف» فمن ارتكبها وقع في الحرام، واستحق العقوبة المغلظة عليها من «الإمام»، اللهم إلاَّ إذا كان مقصوده من هذا العمل مكيدة العدو، فيَظُن أن الذي تظاهر بالفرار قد خاف منه ويتبعه، وإذا به ينقضُّ عليه ويقتله، أو كان مقصوده الانتقال إلى صف آخر من صفوف المجاهدين في المعركة، بغية إعانتهم على العدو الغادر، وذلك ما يفصله قوله تعالى في أثناء هذا الربع: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الَادْبَـٰرَ وَمَنْ يُّوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ «يومئذ» أي يوم الزحف أياً كان ذلك اليوم، بما يشمل يوم بدر أو غيره من أيام الإسلام، على مدى العصور ومرور الأيام، ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ﴾ والتحرف للقتال هو أن يُظهِر الفرار وهو يريد الرجوع، مكيدة للعدو، حتى يقع العدو في الفخ بسهولة، ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزاً اِلَىٰ فِئَةٍ﴾ والتحيز إلى فئة هو أن ينتقل من مكانه الأول إلى موقع جديد في المعركة، وهو يريد إعانة الفئة المشتبكة فيه مع العدو. أما من ولَّى دبره وفر من الزحف وهو لا ينوي إلا مجرد الإدبار والفرار، دون أن يهتم بما يقع للمسلمين وراءه من هزيمة وانكسار: ﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوِيٰهُ جَهَنَّمُ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل يا رسول الله وما هُنَّ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المومنات».

الربع الأخير من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ
اُ۬للَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو اُ۬لْفَضْلِ اِ۬لْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اُ۬للَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ اُ۬لْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُۥٓ
ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ اُ۬لَاوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ اُ۬للَّهُمَّ إِن كَانَ
هَٰذَا هُوَ اَ۬لْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ اَ۬لسَّمَآءِ
أَوِ اِيتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اَ۬للَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اَ۬للَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمُۥٓ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اُ۬للَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اِ۬لْمَسْجِدِ اِ۬لْحَرَامِ
وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنَ اَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا اَ۬لْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ اَ۬لْبَيْتِ إِلَّا
مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ اُ۬لْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ

لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ
جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ
وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا
فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ
وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ
حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ
فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ
فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن عشر
فـــي المصحف الكـــريـــم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَواْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَإِن تَوَلَّواْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَيٰكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَىٰ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أول ما ينبغي التنبيه إليه في بداية هذه الحصة هو أن أول آية من هذا الربع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآيات السابقة عليها في أواخر الربع الماضي، فقد سبق قبلها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلاَ تَكُونُواْ كَالذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾. ومعنى هذه الأيات السابقة أن طاعة الله ورسوله واجبة على المومنين، وان مخالفة أمر الرسول بعد العلم بأمره محرمة عليهم وهم منهيون عنها نهياً باتاً، ثم طالبهم الحق سبحانه وتعالى بأن لا يسلكوا مسلك المشركين والمنافقين، إذ المشركون مجاهرون بالمخالفة، مصرُّون على العناد، والمنافقون - وإن أظهروا الطاعة - فهم ينطوون على النفاق والإلحاد، ومن هذا

السياق انتقل كتاب الله مباشرة إلى وصف دقيق فيه تبكيت وتنكيت ينطبق على المشركين والمنافقين الذين نهى الله المومنين عن اتباعهم وسلوك مسلكهم، وفي ذلك تحذير من نفس السلوك، فقال تعالى في شأنهم، تقريعاً وتوبيخاً، في بداية هذا الربع: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الصم عن سماع الحق، لأنهم لا يستجيبون له، وإن قالوا سمعنا فهم لا يسمعون، والبكم عن الاعتراف بالحق - رغماً عن تلقيه - لأنهم يمتنعون من ذكره وترديده.

وتعبير كتاب الله عن هذا الصنف من الخلق بكلمة «شر الدواب» مناسب لما هم عليه كل المناسبة، فهم يشبهون الحيوانات العجماء في كونها لا تدرك عن طريق الاستماع بآذانها إلى كلام الناس إلاَّ أصواتاً غامضة تعجز كل العجز عن فهمها والإلمام بمعانيها، وهم يشبهون الحيوانات العجماء في كونها - وإن كان لها لسان - إلاَّ أنها لا يصل منها إلى الغير إلاَّ نبرات صوتية، لا قيمة لها ولا أهمية، وما دامت آذان هذا الصنف من الناس حين تسمع لا تنقل ما تسمعه إلى قلوبهم، وما دامت ألسنتهم حين تنطق إنما تهرف بما لا تعرف دون وعي ولا شعور، فآذانهم وألسنتهم أشبه ما تكون بآذان الدواب العجماء وألسنتها، وهم بسبب ذلك أدخل في عالم البهائم وأعرق، وأبعد من عالم الإنسان كل البعد. وسبق قوله تعالى في مثل هذا المقام: ﴿أُوْلَـٰئِكَ كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْغَـٰفِلُونَ﴾.

قال القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: «ذمهم على ترك القبول، ثم شبههم بالصم والبكم على طريقة اللغة، في مبالغة ذم من لا يقبل الحق، فربما قيل فيه إنه ميت، كما قال الله تعالى عن مثلهم لرسوله ﷺ: «انك لا تُسمع الموتى» ولذلك قال هنا بعده: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَوَ اَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فذمهم نهاية الذم» إذ لا خير فيهم ولا أمل في هدايتهم (ولو اسمعهم) أي أفهمهم (لتولوا) أي لارتدوا بعد فهمه على أدبارهم (وهم معرضون) أي صادُّون عنه منصرفون، ولن ينفع العقل وحده صاحبه إذا كان قلبه ميتاً، وإحساسه متبلداً.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة المومنين بأشرف صفاتهم وهي صفة «الإيمان» داعياً إياهم إلى الاستجابة لله والرسول، منبهاً لهم إلى أن تطبيق المنهج الإسلامي في الحياة هو الطريق الوحيد إلى الحياة الطيبة والعيش الكريم، فقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال الامام البخاري (استجيبوا) أي أجيبوا (لما يحييكم) أي لما يصلحكم. وقال عروة بن الزبير: (لما يحييكم) أي للحرب التي أعزَّكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوَّاكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر. وقال القاضي عبد الجبار: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو بعث من الله تعالى على الجهاد، فكما ذم من قعد عنه ولم يطع الرسول فيه كذلك مدح من قام بحقه. وأراد بقوله (اذا دعاكم لما يحييكم) أن الجهاد

يؤدي إلى حياتهم، من حيث لولاه لقتلهم الكفار، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، ويحتمل: إذا دعاكم للأمر الذي يؤدي إلى حياة الأبد وهو الثواب. وقال أبو بكر (ابن العربي): «قوله تعالى (لما يحييكم) ليس يريد حياة المشاهدة والأجسام، وإنما يريد به حياة المعاني والقلوب، بدعائه إياهم إلى الإسلام، والقرآن، والحق، والجهاد، والطاعة، والألفة».

وليعطي كتاب الله شاهداً حياً على صدق محتوى هذه الآية الكريمة، وعلى كون الدعوة الإسلامية كانت فعلاً نقطة الانطلاق لإقامة حياة عزيزة الجانب موفورة البركات، جاء قوله تعالى في هذا السياق بعد بضع آيات: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فمن القلّة إلى الكثرة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الحجر إلى الرشد، ومن الضيق والخَصاصة إلى السعة والغنى عن الناس، ومن الانكسار إلى الانتصار.

والتعبير هنا بقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ تعبير حقيقي ينطبق على الواقع، فقد كان عدد المسلمين في بداية أمرهم بمكة أقل من القليل، وهم لا يتجاوزون بضع عشرات، وكانوا كالنقطة البيضاء في جلد الثور الأسود، إذ ليس في العالَم باستثنائهم إذ ذاك إلاَّ مشرك أو مجوسي أو يهودي أو نصراني، والكل يحوك لهم الدسائس، ويتربص بهم الدوائر، وينتظر لهم أسوأ مصير، فلم تمضِ إلاَّ سنوات معدودة حتى نصر الله عبده، وهزم

الأحزاب وحده، وفك عن الإسلام الحصار المضروب من حوله، وانطلق كالموج الزاخر يزحف في مدِّه الطالع من مكان إلى آخر، وكالشمس المضيئة تسطع على بقاع العالم بقعة بعد أخرى.

ويقابل معنى الحياة والاحياء المستفاد من قوله تعالى هنا في هذا الربع: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معنى الهلاك والفناء المضاد له، المستفاد من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. روى الترمذي وصححه، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وقال الحاكم إنه على شرط الشيخين، وابن جرير في تفسيره، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب عن «أسلم» مولى عمران التجيبي قال: «حمل رجل من المسلمين على صف الروم في غزوة كانوا يغزونها حتى دخل فيهم، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا معشر الأنصار، صحِبْنا رسول الله ﷺ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تخفياً، فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ، ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحربُ أوزارَها، فلنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنُقِيمُ فيهما، فأنزل الله تعالى على نبيه يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في

الإقامة في الأهل والمال وفي ترك الجهاد. قال «أسلم» راوي هذا الحديث: فما زال أبو أيوب الأنصاري شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم».

وقد نبَّه مصلحو الإسلام في القرن الأخير، وفي طليعتهم حكيم المشرق جمال الدين الأفغاني الحسيني ومؤرخ المغرب أحمد بن خالد الناصري الجعفري إلى أن أهم سبب كان ولا يزال لطمع الأجانب في العالم الاسلامي هو إهمال المسلمين، لما أمرهم الله به وحضَّهم عليه، من العناية التامة بالقوة العسكرية، والفنون الحربية، ومِن تركِهم الاستعداد للجهاد، واعتمادهم في العُدة والعَتاد على نفس الأجانب، الطامعين في السيطرة على العباد والبلاد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الأمانة الملقاة على عاتق المسلمين وما يجب عليهم إزاء تلك الأمانة، من أداء وصيانة، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

و «الأمانة» شجرة وارفة الظلال ذات فروع وأغصان، ويندرج تحتها جميع الأعمال التي ائتمن الله عليها الانسان، فتبدأ بالخلافة عن الله في الارض، والقيام بتطبيق بنود الدستور الإلٰهي بين جنباتها: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ وتتسع الأمانة شيئاً فشيئاً حتى تشمل واجب المسلم في جميع مجالات الحياة: واجبه نحو ملَّته، ونحو أمته، ونحو دولته، ونحو مجتمعه، ونحو أسرته وأولاده، ونحو

عماله وطلابه، ونحو نفسه التي بين جنبيه، فَفِي جميع هذه المجالات، وفيما هو أعلى منها أو دونها، توجد أمانة مقدسة، وتوجد مسؤولية كبرى عن تلك الأمانة، حتى لا يضيعها المؤتمنون عليها فيُحسَبوا في عداد الخائنين. ومن خان أيّ نوع من أنواع الأمانة الملقاة على عاتقه في أي مجال من مجالاتها يعد خائناً لله ورسوله في نظر الإسلام، لأنه يعتبر العدو «رقم واحد» للصالح العام.

قال ابن كثير: «والصحيح أن هذه الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، و «الخيانة» تعم الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية».

وأخيراً نبّه كتاب الله إلى حقيقة من كبريات الحقائق تبشر المومنين وتلقي الطمأنينة في قلوبهم، لا سيما في أوقات الأزمات، والخطوب المدلهمات، وهذه الحقيقة هي أنه كما أنفق مشركو قريش كثيراً من الأموال، واستنفروا العدد العديد من الرجال، لقتال المسلمين وإبادتهم، ورغماً عن ذلك باد الشرك وانهزم المشركون، وبقي الإسلام وانتصر المسلمون، فكذلك سينفق خصوم الإسلام بغية القضاء عليه أموالهم، وسيؤلِّبون عليه - لكَسْر شوكته - جميع قواهم، لكنّ عناية الله ستضع حداً لمكرهم، وترد كيدهم في نحرهم، فلا يجنون من نفقاتهم العريضة إلّا حسرة وخسراناً، ولا من مؤامراتهم الطويلة إلّا هواناً وخذلاناً، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى في هذا الربع مبشراً للمومنين بكتابه، والمتعلقين بأهدابه:
﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ،

فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ، أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع عشر
فـــي المصحف الكـــريـــم

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن
كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ
يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم
بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ
مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن
لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ
عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ
وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ

إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ
أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾
وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ
ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ
نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا
لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾
إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ
دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟
مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُومِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ
مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ
بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحْسِبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ
لَا يُعْجِزُونَ

الربع الأول من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

يتناول حديث اليوم الربع الأول من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

بعدما سجلت سورة الأنفال المدنية في مطلعها السابق أن «الأنفال» - وهي هنا المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة بدر - موكول أمرها إلى الله ورسوله، لا إلى تقدير المجاهدين أنفسهم ورأيهم الخاص، وأنها ليست ملكاً مباشراً لهم بمجرد الغزو والجهاد: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ، قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ جاءت الآيات الكريمة في بداية هذا الربع تعلن حكم الله ورسوله في شأن تلك الأنفال خاصة، وفي شأن غيرها من الغنائم التي يغنمها المسلمون في حروبهم عامة، وهذا الحكم يتلخص في قسم الغنائم على يد الإمام أو من يخلفه في قيادة الجيش، إلى خمسة أخماس، تكون أربعة أخماس منها لمجموع المجاهدين الذين قاتلوا في سبيل

الله، ويخصص الخمس الباقي لمصالح المسلمين العامة، ولا سيما لذوي الحاجات منهم، الذين يحمل بيت مال المسلمين عادة عبء الصرف على حاجاتهم الضرورية.

وهذا الخمس العام المردود على ذوي الحاجات من المسلمين هو الذي يُطلِق عليه كتاب الله هنا «خمس الله والرسول»، كما يُطلَق في عرف الشرع على أيّ نوع من أنواع الحقوق العامة اسم «حق الله»، وإن كان مآل ذلك الحق إلى عموم الناس. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وفيه تعيين لمصارف الخُمُس العام.

قال عمر بن عبد العزيز: «قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني في سبيل الله» وقال عطاء بن أبي رباح: «خمس الله والرسول واحد». وقال أبو بكر (ابن العربي): «إنما ذكر الله نفسه في هذا المقام، تشريفاً لهذا الكسب الذي جعله الله من أفضل وجوه الكسب».

وكلمة (الغنيمة) يراد بها ما أخذ من أموال الكفار بقتال، بينما كلمة (الفيء) - وستأتي في آيات أخرى من كتاب الله - يراد بها ما أخذ منهم بغير قتال، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، وكالخراج والجزية، وهذا النوع لا يخمّس مثل الغنيمة، وإنما يتصرف فيه الإمام بما فيه مصلحة المسلمين، ويطلق عليه لفظ (الفيء) لأن الله أفاءه ورده على رسوله والمومنين، ووضعه بين أيديهم لينتفعوا به في مصالحهم العامة، وهم أهل لكل خير،

وأحق بكل نفع. قال ابن كثير: «هذه الآية: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ هي توكيد لتخميس كل قليل وكثير، حتى الخيط والمخيط، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية.

روى الإمام أحمد من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ان هذه من غنائمكم، وانه ليس لي فيها إلَّا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمَخِيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغُلُّوا، فان الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة» و «الغلول» بمعنى السرقة والاختلاس من الغنيمة.

وروى أبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لي من غنائمكم ـ مثل هذه ـ إلَّا الخمس، والخمس مردود عليكم».

وروى البيهقي بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ سئل عن الغنيمة فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش». ثم سئل فما أحد أولى به من أحد؟ فقال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جيبك، ليس أنت أحقَّ به من أخيك المسلم».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلَّا الخمس، والخمس مردود عليكم فيكم».

وفي الصحيح: «إنما أنا قاسم بعثت أن أُقسم بينكم، والله المعطي، فالله حاكم، والنبي قاسم، والحق للخلق».

والخطاب بالأمر في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن

شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ موجه إلى الذكور من المسلمين القادرين على القتال، فهم الذين منحهم الله بفضله أربعة أخماس الغنيمة، وإذا تطوعت المرأة بالقتال ـ رغماً عن كونه لم يفرض عليها ـ كان لها نصيب من نفس الغنيمة، لكن بصفة عطية وهدية مجردة، لا بصفة سهم مفروض، كما ثبت في الصحيح: «أن النساء كن يُحْذَيْن من الغنيمة ولا يُسهَم لهن» ومعنى يُحذَيْن ـ أي يعطين ـ من «الحُذْوة»، وهي العطية والهدية، واستحسن ابن حبيب من أئمة المالكية أن يكون لها سهم في الغنيمة أيضاً.

والعبرة بالنسبة إلى التعبئة وحمل السلاح في الإسلام إنما هي بإطاقة القتال والقدرة عليه، بحيث يُقبَل فيه حتى المراهقون متى كانوا أقوياء على القتال، فقد عرض ابن عمر على رسول الله ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ﷺ، ثم جاء يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، وعرض على رسول الله ﷺ فأجازه، وأذن له بالمشاركة في المعركة مع كبار المجاهدين.

وإنما يثبت السهم في الغنيمة لمن حضر القتال دون من غاب، ولو كانت غيبته لعذر، اللهم إلاَّ إذا كان الغائب قد تغيَّب في مصلحة الجيش، فإنه يشارك من حضر بسهمه، كما ذهب إليه محمد بن المواز من المالكية، ومن حضر مريضاً كمن لم يحضر، اللهم إلاَّ إذا كان له رأي يساهم به في تدبير الحرب، وذهب أشهب من المالكية إلى أن المجاهد الأسير يسهم له وإن كان مقيَّداً بالحديد.

وأما من يصحب الجيش للمعاش كالأُجراء والصناع والتجار ممن لم يقصدوا القتال ولا خرجوا للجهاد، فلا حق لهم في الغنيمة،

مصداقاً لقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ، وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ، وَءَاخَرُونَ يُقَتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقد ميَّز الله في هذه الآية المقاتلين عن أهل المعاش من المسلمين. وبيَّن حال كل فريق وحكمه، نعم، إذا اشترك الأجراء والصناع والتجار في نفس القتال إلى جانب بقية المجاهدين ـ علاوة على ما يقومون به من كسب معاشهم ـ كان لهم حقهم في الغنيمة، لأن سبب الاستحقاق قد وجد منهم كما نص عليه المحققون.

وإذا كان كتاب الله لم ينص على أي تفصيل أو تفضيل في شأن الأربعة الأخماس التي منحها للمجاهدين الغانمين، فقد جاءت السنَّة النبوية الكريمة ببعض التفصيل والتفضيل، ذلك أن النبي ﷺ فاضل بين الفارس والراجل من المجاهدين، فأعطى للراجل سهماً واحداً، وأعطى للفارس سهمين اثنين.

قال أبو بكر (ابن العربي): «وذلك لكثرة العناء وعظم المنفعة» ـ أي بالنسبة للفارس ـ «فجعل الله التقدير في الغنيمة بقدر العناء في أخذها، حكمة منه سبحانه فيها، ووقف بعض العلماء عند الحد الذي فاضل به رسول الله ﷺ بين الفارس والراجل، واستحسن البعض الآخر إعطاء الفارس بدلاً من سهمين ثلاثة أسهم، له واحد ولفرسه اثنان، ومن له عدة أفراس أسهم لواحد منها، إذ لم يرد عن النبي ﷺ أنه أسهم لأكثر من فرس واحد».

وهكذا أحكم الله أمر الغنيمة بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ

وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. وبهذا الحكم الإلهي الحكيم في الغنائم، أسقط الله حكم الجاهلية الظالم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد به نفس المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وعن عمر بن عبد العزيز أن القرابة لا يعطون من الخمس إلاّ بالفقر، قال مالك: وبه أقول. واحتج مالك بأن ذلك جُعِل لهم عوضاً عن الصدقة، لأنها لا تحل لآل البيت.

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَـٰمَىٰ﴾ المراد به أيتام المسلمين الفقراء، واليتيم من فيه ثلاثة أوصاف: موت أبيه قبل بلوغه، ووجود الإسلام فيه أصلاً أو تبعاً لأبويه، وحاجته إلى الرِّفد والمساعدة. وتوسع بعض العلماء فأدرج في اليتامى المستحقين حتى اليتامى الأغنياء، بوصف يتمهم، لا بوصف غناهم.

وقوله تعالى: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المراد به المسافر الذي يَجْتَازُ الطريق محتاجاً، وإن كان غنياً في بلده، ومثله من عزم على السفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، دون أن يكون عنده ما ينفقه في ذلك السفر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ إشارة إلى يوم بدر الذي فرّق الله فيه بين الحق والباطل، وأعلى كلمة الإيمان على كلمة الشرك، والمراد: ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ عدوة الوادي القريبة

إلى المدينة، وبها نزل المسلمون، والمراد: ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ العدوة البعيدة عن المدينة والقريبة إلى ناحية مكة، وبها نزل المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ إشارة إلى العِير التي كانت تحمل تجارة قريش من الشام في طريقها إلى مكة، محاذية لساحل البحر.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي ليقضي ما أراده من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، بقدرته ولطفه.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتضمن تلقين المومنين آداب المعركة وصدق اللقاء، وأمرهم بالثبات والتجلد عند مواجهة الأعداء. جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فإذا لقيتموهم ـ أي الأعداء ـ فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». وجاء في حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فان صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت». وقال قتادة في تفسير هذه الآية: «افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون، عند الضرب بالسيوف». قال أبو بكر (ابن العربي): «قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ فيه ثلاثة احتمالات:

١) اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يُثَبِّت.

٢) اذكروا الله بالقلب واللسان حتى يَثْبُتَ القلبُ على اليقين

ويسكن، ويثبت اللسان على الذكر ولا يضطرب.

٣) اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم، بابتياعه أنفسكم منكم، ومثامنته لكم.

ثم عقّب على هذه الاحتمالات قائلًا: «وكلها مراد، وأقواها أوسطها، فإن ذلك إنما يكون عن قوة المعرفة، ونفاذ القريحة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس».

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ﴾ يتضمن أفضل وصية من الله لعباده المومنين، وهي الوصية التي تمسك بها السابقون الأولون، وشدُّوا عليها يد الضنين، ومهما عاد المسلمون إلى التمسك بها أعاد الله إليهم ما عوَّدهم من النصر والفتح المبين. ومن أصدق ما قيل في تحليل هذه الوصية الإلٰهية وتعليلها ما ذكره القاضي أبو بكر (ابن العربي) حيث قال: «هذه الوصية هي العمدة التي يكون معها النصر، ويظهر بها الحق، ويسلم معها القلب، وتستمر معها على الاستقامة الجوارح، فإنما يقاتِل المسلمون بأعمالهم لا بأعدادهم، وباعتقادهم لا بأمدادهم»، ثم علق على ما نهى الله عنه من التنازع، وما ينشأ عن التنازع من فشل فقال: «وهذا أصل عظيم في المعقول والمشروع... فإذا ائتلفت القلوب على الأمر استتب وجوده، واستمر مَرِيرُه، (يقال استمر مَرِيرُه إذا استحكم عزمُه) وإذا تخلخل القلب قصر عن النظر، وضعفت الحواس عن القبول. والائتلاف طمأنينة للنفس، وقوة للقلب، والاختلاف إضعاف له، فتضعف الحواس، فتقعد عن المطلوب، فيفوت

الغـرض، وذلك قـولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُـواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَـذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. وكنى (بالريح) عن اطراد الأمر ومضائه، بحكم استمرار القوة فيه، والعزيمة عليه، وأتبع ذلك بالأمر بالصبر، الذي يبلغ العبد به إلى كل أمر متعذر، وذلك بوعده الصادق في أنه مـع الصابرين: ﴿وَاصْبِرُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ﴾.

وأخيراً أخبر الله عباده المومنين أنه منزّه عن أن يظلم أحداً من الخلق، وأنه لا يغير نعمة أنعمها عليهم إلاّ إذا كفروا بأنعمه وتواطأوا على نصرة الباطل وإبطال الحق، وذلك قوله تعالى في أواخر هذا الربع: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى في ختامه: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع عشر
في المصحف الكريم

﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ
ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ
فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ
بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ
وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟

مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ

حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٧٥

٩ سُورَةُ التَّوْبَةِ مَدَنِيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمْ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى في سورة التوبة المدنية أيضاً: ﴿إِلاَّ الذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

بعدما نبَّه كتاب الله في نهاية الربع الماضي إلى ما قد يتعرض له المومنون من دسائس ومؤامرات، يبيِّتها لهم أعداء الإسلام، وخاصة ما يقوم به أولئك الأعداء من خيانة متوالية للعهود، ونقض مستمر للمواثيق، إذ لا عهد لهم ولا ميثاق، فقال تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُومِنُونَ، الذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾.

وبعدما دعا كتاب الله إلى وجوب التنكيل بأعداء الاسلام

الخائنين للعهود، والضرب على أيديهم عند لقائهم دون هوادة، حتى يعتبر بهم غيرهم من بقية الأعداء، وحتى لا يحدّثوا أنفسهم بالعدوان من جديد على المسلمين، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وبعدما أمر الله رسوله والمومنين بالاحتياط التام، من تحركات أعداء الإسلام، وبالمبادرة إلى نقض عهدهم عند توقع خيانتهم، بمجرد ظهور بوادر الخيانة وبروز آثارها، وإن لم يكونوا قد أعلنوا خيانتهم رسمياً، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ جاءت الآيات الكريمة في أول هذا الربع بقاعدة قرآنية عامة، وخطاب إلهي موجه إلى كافة المومنين، بصفة مؤبدة ومستمرة إلى يوم الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. ففي هذا الخطاب الإلهي الحكيم يأمر الله عباده المومنين أمراً قاطعاً بإعداد كل ما في إمكانهم واستطاعتهم من وسائل القوة، الكافية لمجابهة أعداء الإسلام، وعدم الغفلة عن هذاالاستعداد، على مدى السنين والأعوام.

وكتاب الله في هذه الآية لا يحدد نوعاً خاصاً من أنواع (القوة)، وإنما يأمر بإعداد القوة بكل ما في الوسع والطاقة، وعلى الاطلاق والشمول، دون تعيين لنوعها، ولا تحديد لشكلها، لأن أنواع القوة وأدواتها تختلف من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، فلكل عصر نوع من القوة يقهر الأعداء، ونوع من السلاح يفيد في مقاومتهم ويردهم على أعقابهم. والله تعالى بمقتضى هذه الآية يلزم المسلمين بأن يكونوا أقوياء غير ضعفاء، وبأن يكونوا في

مستوى كافٍ من القوة يجعلهم في مأمن من طمع الطامعين، وعدوان المعتدين، إذ هو سبحانه وتعالى أعلم بما سيواجهه الإسلام منذ ظهوره في العالم من أحلاف عدائية، ودسائس سياسية وعسكرية، ومؤامرات صليبية وصهيونية وإلحادية، دون انقطاع، إلى أن يرث الله الأرض وَمَنْ عليها. ولذلك نزلت هذه الآية المحكمة واضحة كل الوضوح، صريحة كل الصراحة، تحذيراً للمسلمين من الغفلة عما يقويهم، وتذكيراً لهم بما يحيط بهم باستمرار من دسائس أعدائهم ومؤامراتهم، مما يلزم الاستعداد لرده والوقوف في وجهه في كل جيل، دون تهاون ولا إهمال ولا تردد. قال القاضي أبوبكر(ابن العربي): «أمر الله سبحانه وتعالى بإعداد القوة للأعداء، بعد أن أكد في تقدمة التقوى، وان الله تعالى لو شاء لهزمهم - أي الأعداء - بالكلام والتَّفْل في الوجوه»، إلى أن قال: «ولكنه أراد أن يبلو بعض الناس ببعض، بعلمه السابق، وقضائه النافذ، فأمر بإعداد القُوَى والآلة من فنون الحرب، التي تكون لنا عُدَّة، وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى بإمداد الملائكة العليا».

وكتاب الله عندما يتحدث عن (القوة) ويدعو المسلمين إلى إعدادها بكل الوسائل لا يقصد بلفظ القوة معناها المادي المجرد وحده، المتمثل في الآلات والأدوات الحربية، وإنما يقصد منها معناها المادي ومعناها الروحي في آن واحد، بل ان القوة الروحية عنده بالنسبة إلى القوة المادية تعتبر كالجوهر بالنسبة للعَرَض، والروح بالنسبة للجسد، فالقوة الروحية في نظر الدين والأخلاق، والروح المعنوية العالية، في نظر المختصين من رجال الدراسات

النفسية والأبحاث العسكرية، هي منبع كل قوة، وأساس كل نصر، وبدونها تضطرب القلوب وتنهار الأعصاب، وتصبح الهزيمة من كل جيش قاب قوسين وعلى الأبواب، لكن إذا كانت قوة الإيمان بالله وتقوى الله تقود جنود الإسلام، في خطواتهم إلى الأمام، فبشِّرهم من عند الله بالفتح المبين، والنصر والتمكين، ووقتئذ يتم وعد الله بالغلبة على الكافرين، ويصدق قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي أنهم لا يعجزون الله، فهم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته.

وبعدما أمر الله المسلمين بإعداد القوة لكبح جماح أعداء الإسلام، بشكل عام، خصَّ كتاب الله بالذكر من بين أنواع القوة نوع الخيل، فقال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وقد كانت الخيل في الحروب الماضية تحتل مكاناً بالغ الأهمية، ولا تزال الخيل إلى اليوم تقوم بدور مهم في العمليات الحربية، ولا سيما عندما تتعذر الحركة على الأدوات الآلية. ولعل ذكر «الخيل» هنا إنما ورد على وجه التنبيه، نظراً لأن الخيل كانت في العهد الإسلامي الأول أهم شيء في الحرب، وذلك حتى يقيس المسلمون عليها غيرها، ويهتموا في مستقبل الأيام بكل ما يحدث ويتجدد من أدوات القوة ووسائلها الفعالة، فالعبرة أولاً وأخيراً إنما هي بإعداد القوة التي لا تضام، والاستعداد التام للعدو الظاهر والخفي على الدوام.

ومن اللطائف في هذا الباب ما قام به علماء الشريعة من مناقشات، وما شغلوا به أنفسهم من مقارنات بين أدوات الحرب

أيها أفضل، اهتماماً بهذا الموضوع: هل أن ركوب الخيل أفضل من الرمي، أم أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، فذهب الإمام مالك إلى الرأي الأول، استناداً فيما يظهر إلى قوله تعالى هنا: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وإلى قوله ﷺ : «الخيل معقود في نواصيها الخير، إلى يوم القيامة. الأجر والمغنم» وهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن أبي الجعد.

وذهب غيره إلى الرأي الثاني، استناداً إلى أحاديث نبوية أخرى، فقد روى الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألاَ إن القوة الرمي. ألاَ إن القوة الرمي. ألاَ إن القوة الرمي. ثلاثاً». وهذا الحديث مروي عن رسول الله في صحيح مسلم أيضاً. وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن من حديث صالح بن كيسان أن رسول الله ﷺ قال: «ارموا واركبوا، وأن تَرْمُوا خير من أن تركبوا».

وبعدما أمر كتاب الله المومنين من عباده بإعداد القوة لمواجهة خصوم الإسلام، حتى يصونوا البيْضة ويحموا الذِّمار، أخذ يكشف الستار عن الحكمة الإلّهية من وراء هذا الأمر القاطع، في إيجاز وإعجاز، فقال تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ومعنى هذه الآية الكريمة أن الحكمة من وراء أمر المسلمين ببذل كل ما في المستطاع، للحصول على القوة المادية إلى جانب القوة المعنوية، هي تخويف أعدائهم من مواجهتهم، وقطع كل أمل في الطمع فيهم، وتحذيرهم من نتائج

أي عدوان يغامرون به ضد المسلمين، إذ إن ضعف الضعفاء يُغري بهم ويُطمِع فيهم جميع الأقوياء، فالقوة مهما وجدت وتيقن العدو من وجودها وحسن استعمالها، فكَّر العدو في الأمر وقدَّر ولم يغامر في أغلب الظروف، بحيث متى راوده الطمع في المسلمين يوماً من الأيام وجدهم على أهبة الاستعداد، ووقفوا له صفاً واحداً بالمرصاد.

وكتاب الله ينبه المسلمين إلى أن عدو الله هو عدو لهم في نفس الوقت كما قال تعالى هنا: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ والمراد بعدو الله عدو دينه، وعدو رسوله، وعدو كتابه، وعدو الأمة المومنة. ومن خَلل العقل وبلادة الذهن اعتقاد بعض البسطاء أن عدو الله يمكن أن يكون عدواً لدوداً للإسلام، لكن يكون في نفس الوقت صديقاً حميماً للمسلمين. فهذه فكرة سخيفة لا تنسجم مع عقل ولا مع شرع.

وها هي الأحداث الأخيرة قد كشفت النقاب بما لا يدع الشك لمسلم، عن أمرين خطيرين:

الأمر الأول: ما لا يزال يحمله أعداء الإسلام للمسلمين من حقد وضغينة وشماتة، ونوايا سيئة ضدهم جميعاً، وذلك بمناسبة نكبة فلسطين الكبرى، التي وجدتهم مضعضعي القوى مادياً وروحياً.

والأمر الثاني: صدق كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ووجوب تنفيذ أمره، بإعداد القوة والاستعداد للعدو، وبذل النفس والنفيس في هذا السبيل، وإلَّا حقَّت على

المسلمين كلمة العذاب، وطرقت ساحتهم المصائب والنوائب من كل باب.

وقوله تعالى في هذا السياق: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ إشارة إلى أن للإسلام والمسلمين أعداء ألدَّاء غير ظاهرين، وإلى أنه كما يجب على المسلمين أن يستعدوا لأعدائهم التقليديين المعروفين، فعليهم أن يدخلوا في حسابهم دائماً أولئك الأعداء المتسترين الذين يعملون ضدهم في السر والخفاء، بينما يواجهونهم بالكلام المعسول وباللين لا بالجفاء: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾. وعداوة هؤلاء الأعداء المتسترين أدهى وأمر، وأنكى وأشد من الأعداء المكشوفين، لأنهم هم الذين يوجهون الآخرين عن طريق جمعياتهم السرية، ويرسمون للباقين خطط تخريب العالم الإسلامي وتدمير مقدساته، ويعرِّفونهم بالوسائل الفعالة لعرقلة نموه وتطوره: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوٓاْ أَنْ يَّخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾. ومن هنا كان عبء المسلمين ثقيلاً ولا سيما في هذا العصر، وكانت اليقظة الدائمة والاستعداد المستمر أوجب الواجبات، على خاصة المسلمين وعامتهم في جميع الأوقات.

ثم نبَّه كتاب الله إلى التضامن التام القائم بين أعداء الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. ومقابل هذا التضامن القائم بين ملَّة الكفر، والموجه إلى أذى المسلمين، حضَّ كتاب الله على توثيق أواصر الألفة بين المومنين، منوهاً بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، حتى يسلك طريقهم مَن جاء بعدهم من الأوفياء الأبرار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ

الذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، إذ لا يُقاوَم تضامن أهل الباطل وتكتلهم، ولا يُقضَى على آثاره السيئة، إلاَّ بتضامن أهل الحق وتكتلهم صفاً واحداً، ولا يفل الحديد إلاَّ الحديد: ﴿هُوَ الذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُومِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوَ انفَقْتَ مَا فِي الاَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأخيراً حذَّر كتاب الله من مخالفة هذه الأوامر الإلهية الصارمة، التي بامتثالها ينهض المسلمون وينصرون، وبمخالفتها تدول دولتهم ويقبرون، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الاَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. ففي هذه الآية الكريمة آخر إنذار وجهه كتاب الله مباشرة إلى كافة المومنين، ومضمون هذا الإنذار الإلهي الخطير: انكم أيها المسلمون إن ضيعتم الألفة التي عقدتها بينكم، وانقسمتم على أنفسكم، وواليتم أعداء الإسلام بدلاً من موالاة بعضكم، وإن أهملتم إعداد القوة اللازمة لحفظ كيانكم، والعمل المتواصل لتدعيم سلطانكم، وإن تخاذلتم عن إعزاز ملَّتكم وحماية دولتكم، وإن تهاونتم في السعي إلى فرض هيبتكم وإعلاء كلمتكم ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ أي أن لا تفعلوا كل هذا: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الاَرْضِ﴾ أي تقم فتنة في أطراف العالم، وفي الطليعة العالم الإسلامي، وذلك لتسلط قوات الشر والعدوان في كل مكان، ولفقدان التوازن بين القوات المتطاحنة في الميدان، وهكذا يسود البغي والفساد، في جميع أطراف البلاد: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الاَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا التفسير الذي فسرنا به

قوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يزداد جلاءً ووضوحاً كلما تدبرنا بإمعان وروية قوله تعالى في سورة البقرة تعقيباً على صراع طالوت وجالوت: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

الربع الثالث من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي

ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ
أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾
أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ
ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ
فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ
وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ
أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي
ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ
وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ اللَّهِ مَنْ ـ امَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

في الربع الماضي أنهينا تفسير سورة الأنفال المدنية، وانتقلنا منها إلى سورة التوبة المدنية أيضاً، وأول ما يستلفت النظر في سورة التوبة ان «البسملة» غير مكتوبة في أولها كبقية سور القرآن، وإنما لم يُبدأ فيها بكتابة البسملة، جرياً على ما اختاره أمير المومنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابة المصحف «الإمام»، حيث أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يتلقى عنه كتّاب الوحي ما يعرّفهم هل «سورة التوبة» جزء من «سورة الأنفال» فلا يفصل بينهما بالبسملة، أم هي مستقلة عنها، فتفصل عنها بالبسملة. ونظراً لهذا

الاعتبار قورن بينهما عند كتابة المصحف من جهة، ولم تكتب بينهما البسملة التي تفرِّق بين سورة وأخرى فرقاً تاماً، من جهة أخرى.

وإنما سميت «سورة التوبة» بهذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى في شأن الثلاثة الذين خُلِّفوا ثم تابوا في غزوة تبوك: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ، حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ، وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه سورة التوبة هو بيان ما يجب أن تكون عليه علاقات المسلمين بغيرهم من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وإبراز ما كانت تنطوي عليه نفوس المثبطين والمتخلفين والمتثاقلين، حين استنفر رسول الله إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، بُغيةَ فك الحصار الذي كان يضربه الروم إذ ذاك على الدعوة الإسلامية ناحية الشام، وتمهيداً لخروج هذه الدعوة السماوية من جزيرة العرب، وانتشارها في بقية أرجاء العالم.

قال ابن كثير: «وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهَمَّ بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم ذاك إلى موسم الحج على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عُراة، فكره ﷺ مخاطبتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويُعلِم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب ومعه «براءة من الله ورسوله» ليؤذِّن بها ويبلِّغها إلى الناس.

ونقل القاضي أبو بكر (ابن العربي) عن أبي المظفر طاهر بن محمد أنه قال: «إنما أرسل النبي ﷺ علياً «ببراءة» مع أبي بكر، لأن «براءة» تضمنت نقض العهد الذي كان عقده النبي ﷺ، وكانت سيرة العرب أنه لا يحُل العقد وينقُضه إلاَّ الذي عقده أو رجل من بيته، فأراد النبي ﷺ أن يقطع ألسنة العرب بالحجة، وأن يرسل ابن عمه الهاشمي من بيته بنقض العهد، حتى لا يبقى لهم متكلِّم». قال القاضي أبو بكر تعقيباً عليه: «وهذا بديع في فنه».

وهكذا طاف أبو بكر وعليّ بالناس في ذي المجاز، وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها، وبالمواسم كلها، وخطب أبو بكر الناس يوم عرفة، ولما أتم خطبته التفت إلى عليّ وقال له: «قم يا عليّ، فأد رسالة رسول الله» فقام عليّ وقرأ عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم عِلم عليٌّ بعد ذلك أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فلم يزل يتتبع الفساطيط بمنى فسطاطاً فسطاطاً ويقرؤها عليهم، حتى بلغت «براءة الله ورسوله» إلى الجميع، وأدرك المشركون من العرب حينئذ أن الساعة قد دقت، وانه لم يبقَ أمامهم أي احتمال، ما عدا الإسلام أو القتال، وكان المؤذّنون يؤذنون يوم النحر: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وبهذا التدبير الحاسم الذي اتخذه الرسول بوحي من ربه وضع حداً نهائياً لجميع مظاهر الشرك وشعائره في عبادة الحج، وانتظر رسول الله حلول العام القابل ليدشن بنفسه موسم الحج الإسلامي بشعائره الإسلامية الكاملة، فجاء الرسول عليه الصلاة والسلام على رأس الآلاف المؤلفة من المسلمين ليحج «حجة الوداع»

في السنة التالية، وهي السنة العاشرة للهجرة، دون أن يشارك في تلك الحَجة أحد من المشركين.

والآن فلنلقِ نظرة سريعة على الآيات السابقة من سورة براءة الواردة في نهاية الربع الماضي، لننتقل منها إلى الآيات الواردة منها في بداية هذا الربع، إذ إنها يرتبط بعضها ببعض معنى وسياقاً، وفهم الآيات اللاحقة متوقف على فهم الآيات السابقة.

فقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه الآيات براءة من الله ورسوله، والبراءة بمعنى التبروء، تقول برئت من الشيء إذا أزلته عن نفسك، وقطعت ما بينك وبينه من علاقات.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يستفاد منه مبدأ تشريعي مهم، ذلك أن النبي ﷺ وحده هو الذي عاهد المشركين عندما اقتضت مصلحة المسلمين ذلك، بصفته «إماماً» حاكماً وآمراً، لكن هذه الآية نسبت العهد الذي أعطاه رسول الله وحده إلى جميع المومنين، إذ قالت: ﴿الَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ ولم تقل الآية: (الذين عاهدْتَهم) نظراً إلى أن كل ما حكم به الرسول ﷺ أو أمر به فهو لازم لأمته، منسوب إليها، ومحسوب عليها، إذ هو رئيسها الأعلى. ومن هنا جاءت القاعدة الشرعية: «أن الإمام إذا عقد أمراً بِمَا يَرَى فِيه المصلحة للأمة لزم حكمُه جميع رعاياه، فإذا رَضُوا به كان أثبت لنسبته إليهم». كما نُسِب عهد رسول الله ﷺ الذي كان قد عاهد به المشركين، إلى جميع المسلمين، لكونهم به راضين، وهذا فن بديع من تحقيقات القاضي أبي بكر (ابن العربي) وتدقيقاته.

وقوله تعالى هنا: ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقتضي أن أولئك المعاهدين لم يكونوا من أهل الكتاب، فقد كان العهد المشار إليه هنا خاصاً بالوثنيين من العرب.

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ من السياحة أي السير، ومعنى الآية: ان الحد الذي حده الله للذين عاهدوا رسوله من مشركي العرب لا يتجاوز بعد «إعلان البراءة» أربعة أشهر، لهم أن يسيروا خلالها ويذهبوا حيث شاؤوا، ناجين بأنفسهم آمنين، ليدبروا أعمالهم، ويتدبروا مآلهم، فإن دخلوا أثناءها في الإسلام كان لهم ما للمسلمين من العصمة والأمان والاحترام، وإن أصرُّوا على الشرك كان لهم عند تمام آخر ليلة من آخر شهر، إما القتل وإما الأسْر، وقد استغرق هذا الأجل المحدود بأربعة أشهر: عِشرين يوما من ذي الحجة، وكانت نهايته: اليوم العاشر من ربيع الثاني كما نص عليه ابن كثير، وهذا الأجل الذي ضربه الله للمعاهدين من المشركين ـ أجل أربعة أشهر ـ إنما هو بالنسبة لمن كان لهم عهد مطلق، غير موقت ولا محدود المدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ الآية. المراد «بالأذان» في لسان العرب مطلق الاعلام، أي هذا إعلام مقدم، وإنذار سابق من الله ورسوله إلى الناس، جرياً على المنهج الإسلامي المعروف في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

و «يوم الحج الأكبر» إما أنه يوم عرفة كما رواه ابن جرير وابن

أبي حاتم عن ابن عمر، وروي مثله عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف، اعتماداً على قوله ﷺ: «الحج عرفة»، وإما أنه يوم النحر كما روي عن الإمام مالك، نظراً لأنه اليوم الذي ترمى فيه الجمرة، وينحر فيه الهدي، وينقضي فيه الحج، ورجح القاضي أبو بكر (ابن العربي) أن المراد «بيوم الحج الأكبر» الوارد في هذه الآية بالخصوص هو يوم النحر، لثبوت الحديث الصحيح بذلك، إذ قال ﷺ يوم النحر: «أيّ يوم هذا؟ أليس يوم الحج الأكبر؟».

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يتضمن الإشارة إلى مبدأ أساسي في الإسلام، هو أن الإسلام يجبُّ ما قبله، وذلك لما انبنى عليه من سماحة ورحمة وعفو، فمهما اقتحم المشركون والكفار من المعاصي والجرائم، وارتكبوا من الموبقات والمآثم، ثم أسلموا وجوههم لله، إلاّ ونالتهم المغفرة، وقبلت منهم التوبة، ولم يؤاخذوا بما سلف: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ والحكمة في ذلك تاليفهم على الملة، وتسهيل دخولهم في الدين، حتى ينيبوا إلى الله، ويسلموا وجوههم إليـــه.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ فهو استثناء من ضرب الأجل المحدود بأربعة أشهر، ومعناه أنّ من كان لهم من المشركين عهد موقت بمدة معينة، فالأجل بالنسبة إليهم هو انتهاء المدة المعينة التي عوهدوا عليها، وفي مثل هؤلاء ورد في الحديث: «إنّ من كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته» لكن بشرط أن لا ينقُض المعاهَد منهم عهدَه، وأن

لا يمالىء على المسلمين غيرهم، فهذا هو الذي يُوفَّى له بذمته، ويمتد أجل عهده إلى نهاية مدته. وحضاً للمومنين على الوفاء بالعهد لهذا الصنف من المعاهدين، قال تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.والشأن في المتقي أن يكون وفياً بالعهد، منجزاً للوعد.

ويوخذ من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ أن المعاهدين من المشركين كانوا قسمين: قسم منهم ثبت على العهد دون خيانة ولا ممالأة ضد المسلمين، وهذا القسم هو الذي استثناه كتاب الله من أجَل أربعة أشهر، وجعل أجله انتهاء المدة المتعاهد عليها، وقسم منهم خاس بعهده ونقضه، وهذا القسم هو الذي تولى بيانَ حكم الله فيه قولُه تعالى في هذا الربع: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾.

وزاد هذا الحكمَ بياناً وتوضيحاً قولُه تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ،لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ، أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية. قال القاضي أبو بكر(ابن العربي): «إنما العهد حكم اقتضاه النظر، والتزمه المسلمون، فإذا نقضه(المعاهَد) انتقض كسائر العقود، فإنها تعقد فتُرتَّب عليها الأحكام، فإذا نُقِضت ونُسِخت ذهبت تلك الأحكام».

وتأكيداً لنفس الحكم المتعلق بالقسْم الأول، وهو الوفاء بالعهد لمن بقي على عهده إلى مدته، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾، ثم أعطى لهذا الحكم قوة جديدة، فقال في نفس السياق وللمرة الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وأوضح كتاب الله كيف يكون العمل مع مشركي العرب المعاهدين الذين ضرب لهم أجل أربعة أشهر، إذا انتهى الأجل المضروب لهم دون أن يهتدوا للإسلام، وأصروا على الشرك والمقاومة دون استسلام، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾. والمراد بها هنا بالخصوص «أشهر الأمان الأربعة»، التي أباح لهم أن يسيروا أثناءها حيث شاؤوا آمنين على أنفسهم، فمعناها هنا غير معناها في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

ثم مضى كتاب الله يقول: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وذلك لأن جزيرة العرب قضى الله أن تكون خالصة لدين الحق، وأن لا يجتمع فيها إسلام وشرك، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي خذوهم أسرى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي اقصدوهم بالحصار في معاقلهم، وبالرَّصْد في طرقهم ومسالكهم، فإما أن يهتدوا ويسلموا، وإما أن يقاتَلوا إلى أن يستسلموا.

ثم بيَّن كتاب الله كيف يكون العمل معهم إذا اختاروا الإسلام ديناً، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي تابوا من معصية الشرك والوثنية ومعتقدات الجاهلية، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قد تولت السنَّة النبوية بيان معناه على أكمل وجه، فقال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس

حتى يقولوا لا إلَه إلاَّ الله، ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله» فانتظم القرآن والسنَّة واطردا كما قال القاضي أبو بكر (ابن العربي).

ومما يفيد التنبيه إليه في هذا المقام أن هذه الآية دليل قوي للموقف الصارم الذي اتخذه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة، فهذه الآية لم تسمح بتخلية سبيل المشركين المعاهدين وعصمة دمائهم إلاَّ بشرط التوبة من الشرك والدخول في الإسلام، والقيام بواجباته الأساسية، وعلى رأسها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما قال قولته المشهورة: «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الله قد جمعهما ولم يفرق بينهما». وأعاد كتاب الله نفس المعنى مرة أخرى في هذا الربع، لتقويته في النفوس وتركيزه في الأذهان، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَنُفَصِّلُ الأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذه الآية معنى جديد، وهو معنى «الاخوة» بدلاً من معنى «العصبية» ووصف جديد هو وصف «الأخوة في الدين» بدلاً من «حَمِيَّة الجاهلية»،والأخوة في الدين رابطة تقوم على أساس التماثل في الاعتقاد والتفكير والعمل والسلوك، تشبيهاً لها بتماثل الأخوين ولا سيما إذا كانا شقيقين في كثير من الخصال والخلال، وقد بيَّنت السنَّة النبوية ما تقتضيه الأخوة في الدين من التزامات أدبية وأخلاقية وعملية، فقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحَسْب امرىء من الشر أن يحقِر أخاه المسلم».

وانتقل كتاب الله إلى توضيح الحكمة في إنذار الله ورسوله للمشركين، ومنعهم من حج بيت الله الحرام بعد هذا العام، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ اللَّهِ﴾ - وعلى رأسها المسجد الحرام - ﴿شَـٰهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ - أي بحالهم ومقالهم، بينما بيوت الله، وأشرفها البيت الحرام، إنما أقيمت للتوحيد لا للشرك، وللإيمان لا للكفر، فعمارة المشركين لها قلب للأوضاع: ﴿أُوْلَـٰئِكَ حَبِطَتَ اَعْمَـٰلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ اللَّهِ مَنَ - امَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾، وبعمارة المومنين لها يعود الحق إلى نصابه، فمن أراد المساهمة في عمارة بيوت الله، عليه قبل كل شيء أن يخلَع الشرك ويومن بالله، ومن أراد الوقوف فيها بين يدي الله، فلا يأتِ إليها عُرياناً على عادة الجاهلية، وليتزين بزينة الله: ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَٰلٌ اِقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ أَللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ
فِے سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِے اِلْقَوْمَ أَلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اُللَّهُ فِے
مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ اِذَ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ
فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ اُلْأَرْضُ بِمَا
رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ أللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى أَلْمُومِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ أَلذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ أَلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦
ثُمَّ يَتُوبُ اُللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَّشَآءُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٧ يَٰٓأَيُّهَا أَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا أَلْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ اُلْمَسْجِدَ أَلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ أللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ
إِن شَآءَ إِنَّ أَللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨ قَٰتِلُواْ
اُلذِينَ لَا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ اِلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ أَللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ أَلْحَقِّ

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب التاسع عشر، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

في بداية هذا الربع استنكر كتاب الله ما كانت تفتخر به قريش على غيرها من الناس، ولا سيما على المسلمين، من قيام بسقاية الحجاج، وعمارة للمسجد الحرام، وسكنى بمكة على العموم، وأبطل ما كانت تعتقده في ذلك من الفضل على غيرها، وبيَّن كتاب الله أنه لا محل للمقارنة بين من أصر على الشرك، وإن قام بهذه الأعمال، ومن آمن بالله وهاجر مع رسوله، وجاهد في سبيله بالمال والنفس، وأن مجرد القيام بسقاية الحجاج وعمارة الكعبة لا يجعل القائمين بها - وهم مشركون - في درجة المومنين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، فضلاً عن أن يكونوا عند الله

أفضل من هؤلاء. بل ان المومنين أعظم درجة عند الله وأعلى منهم مقاماً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ـ امَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَـٰهَدَ فِي سَبِيلِ الله، لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ﴾ وهل هناك ظلم يرتكبه الخلق أكبر من ظلمهم للخالق عندما يشركون به غيره وهو الواحد الأحد؟ «إن الشرك لظلم عظيم» ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً، إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وبعد أن رد الله على مشركي قريش ادعاءهم، وأبطل فخرهم وكبرياءهم، انتقل إلى مخاطبة المومنين، وتعريفهم بأن وَلايتهم لله ورسوله، وجهادهم في سبيله، هما في نظر الإسلام معيار الإيمان الوحيد، وأن علاقاتهم مع ذوي قرباهم يجب أن تنظم حسب هذا المعيار الجديد، فمن اختار الإيمان على الكفر، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما والاه المومنون، وكانوا له إخواناً وأعواناً، ومن اختار غير ذلك نبذه المومنون ظِهْرياً، واعتبروه نسياً منسياً، وذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ ـ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَـٰنِ ـ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ، قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي تخافون نقصان قيمتها ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي في سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي انتظروا ماذا ينزل بكم من شديد عقابه، وأليم عذابه ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي حتى يغزوكم العدو في عقر داركم، ويسلبكم أعز شيء لديكم: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. روى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدَّث أصحابه بحديث شريف مما جاء فيه: «إذا تركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

ثم تناولت الآيات الكريمة في هذا الربع موضوعاً مثيراً كل الإثارة، ألا وهو «يوم حُنَيْن» وماذا جرى في بدايته على المسلمين من امتحان عسير، كان لهم بعد فتح مكة هو أخطر نذير:

ذلك أنه بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة، وأسلم عامة أهلها، وتمهدت أمورها، بلغه أن هوازن وحلفاءها جمعوا لقتاله جموعهم بقيادة أميرهم مالك بن عوف النضري، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاؤوا بقضِّهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه لفتح مكة، وكان عدده عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح وهم «الطلقاء» في ألفين من الناس، غير أن هوازن بمن معهم ارتكبوا خدعة حربية كبرى، فكمنوا في وادي حُنَيْن، وهو وادٍ بين مكة والطائف، ولم يشعر المسلمون بهم إلّا وقد بادروهم بغتة بالقتال في أول النهار وفي عَماية الصبح، وثارت في وجوه المسلمين خيل هوازن، فرشقتهم بالسهام والنبال، وحملت عليهم حملة رجل واحد قبل أن يأخذوا أهبتهم

ويستعدوا للنزال، لكن رسول الله ﷺ ثبت أمام العدو، رغماً عن أنه كان لا يركب يومئذٍ إلَّا بغلته الشهباء، وانكشف عنه جيشه، ولم يزل يسوق بغلته إلى نحر العدو ويركضها إلى وجهه، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، واستمر النبي ﷺ يُعرِّف بنفسه من لم يعرفه، أياً كان عدواً أو نصيراً، داعياً المسلمين إلى الرجوع والثبات في وجه العدو، قائلاً: «إليَّ عباد الله، إليَّ أنا رسول الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

وأخذ عمُّه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ ينادي من جهته بأعلى صوته قائلاً حيناً: «يا أصحاب سورة البقرة» وقائلاً حيناً آخر: «يا أصحاب الشجرة» يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايع رسولَ الله تحتها المهاجرون والأنصار، فجعلوا يرجعون ويقولون: «لبيك لبيك» وانعطف الناس إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يصدُقُوا الحملة، وأخذ قبضة من تراب فرمى بها العدو بعدما دعا ربه واستنصره وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» فما بقي من العدو أحد إلا أصابه من تلك القبضة من التراب في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ونظر رسول الله إلى مُجتَلَد القوم فقال: «الآن حَمِي الوطيس» ولم يلبث العدو أن انهزم انهزاماً شنيعاً، وأخذ يتساقط قتلاه وأسراه أمام رسول الله ﷺ فكان النصر الأخير لرسول الله وللمومنين، والهزيمة الأخيرة لهوازن ومن معها من المشركين، ولم تمضِ عشرون يوماً بعد هزيمة هوازن وحلفائها حتى قدمت البقية الباقية منهم على رسول الله ﷺ مسلمين، فعند ذلك قبل إسلامهم وخيَّرهم بين سبيهم وأموالهم، فاختاروا سبيهم وكان يبلغ ستة آلاف

نسمة، فرده عليهم، وقسم أموالهم المأخوذة في الغنيمة بين الغانمين، واستعمل رسول الله نفس مالك بن عوف النضري، الذي كان أمير هوازن يقودها يوم حنين، على قومه كما كان عليهم من قبل، تأليفاً لقلوبهم على الإسلام، وانتفاعاً بخدماتهم للدين فيما يستقبل من الأيام.

وهذا الموضوع المثير هو الذي تولت شرحه الآيات الكريمة التالية في أسلوب موجز ومعجز. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْكَـٰفِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن هنا عاد كتاب الله إلى الحديث عن المسجد الحرام، ومنع المشركين من قربه ودخوله بعد ذلك العام، معللاً هذا المنع بأن الشرك والمشركين عبارة عن «نَجَس»، فلا يناسب أن يقربوا المقامات الطاهرة، وهم يملأون عقولهم وقلوبهم بأوسخ المعتقدات، ولا يعرفون من وجوه العبادة إلاَّ أرذل وأسخف الطقوس والعبادات، لا سيما وهو قوم لا يتطهرون، وفي الخُبُث والخبائث من قِمة الرأس إلى أخمص القدم غارقون، فقال تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ دليل على أنهم لا يقربون أي مسجد

سواه، لأن العلة ـ وهي النجاسة ـ موجودة فيهم، والحرمة موجودة في المسجد، وقد أكّد الحالَ ببيان العلة وكشفها فقال: «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام» يريد ولابُدَّ لنجاستهم، فتعدت العلة إلى كل موضع يحترم بصفة المسجدية».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ، انَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يمكن تفسيره بمعنى: ان خفتم الفقر، بانقطاع مادة المشركين عنكم، وتوقف الحركة التجارية التي كانوا يقومون بها، فان الله سيعوضكم عنها، وسيغنيكم عن تجارة المشركين بتجارتكم أنتم استغناءً تاماً، وكذلك كان الأمر.

وبعدما بيَّن كتاب الله حكمه في شأن مصير المشركين بجزيرة العرب، وكونهم لا يُقبَل منهم إلاّ الإسلام، حرصاً على أن يظل مهد الإسلام خالصاً له وحده لا تشاركه فيه أية ملَّة كيفما كانت، انتقلت الآيات الكريمة إلى بيان حكم الله في أهل الملل الأخرى، ولا سيما «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى، وهذا الحكم الإلٰهي يقتضي أولاً وجوب قتال المسلمين لأهل الكتاب، وإذا كان الإسلام قد أمر بقتال المشركين من عبدة الأوثان، مع العلم بأنهم لم تكن عندهم أدنى سابقة من التوحيد والنبوة والشريعة إلى أن أظلَّهم الإسلام، فإن أمر الإسلام بقتال أهل الكتاب يكون من باب أولى وأحرى، إذ أن الحجة قائمة عليهم منذ قرون، وذلـك بالكتب الإلٰهية التي يقرُّون أنها نزلت على أنبيائهم، فهم على شيء من العلم بالتوحيد والنبوة والشريعة، وفيما تناقلوه بينهم ذِكْرٌ صريح لرسول الله، وإشارة واضحة إلى ملَّته وأمته، ورغماً عن ذلك كله

كفروا بالله وباليوم الآخر، ولم يحرِّموا ما حرَّم الله ورسوله، ولم يدينوا بدين الحق الذي هو دين الإسلام، وهذا هو السر فيما يطلقه عليهم كتاب الله غالباً من لفظ (أهل الكتاب) تأكيداً لإقامة الحجة عليهم، إذ هذا اللفظ يعني في جملة ما يعنيه أهل الكتاب الجاحدين لكتابهم، المحرفين لكلمه عن مواضعه، الذين يشترون به ثمناً قليلاً.

ويقتضي حكم الله في شأنهم ثانياً قبول الجزية منهم ان استسلموا لسلطان الإسلام، ورضوا بالدخول تحت ذمته، والعيش تحت طاعة دولته، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿قَـٰتِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ و«الجزية» التي يدفعها «أهل الذمة» للدولة الإسلامية التي يوجدون تحت حكمها تقابل «الزكاة» التي يدفعها المسلمون لدولتهم وبيت مالهم، وبذلك يساهم المسلمون والذمِّيون معاً في تكاليف الدولة الإسلامية والتزاماتها. غير أن يد المسلم المعطي في الزكاة يد عليا، لأن المسلم جزء لا يتجزأ من الدولة الإسلامية، فهو منها وإليها، ويد الذمي المعطي في الجزية يد سفلى، لأن وجوده بين أظهر المسلمين إنما هو مدين به لتسامح الدولة الإسلامية وكرمها، يضاف إلى ذلك ما في دفع الذمي للجزية من إشعار بطاعته لسلطان الإسلام، والتزام بعدم التمرد عليه، واعتراف بسماحة الإسلام وتسامحه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾.

وختم هذا الربع ببشارة كبرى بشَّر الله بها رسوله والمومنين،

وهي أن يُظهِر الإسلام وينصره على بقية الأديان، عن طريق الحجة والبرهان، وعن طريق النفوذ والسلطان. وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الذِيَ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. وقد حقق الله هذه البشرى أولاً في جزيرة العرب، إذ محا منها إلى الأبد كافة الملل والنحل التي كانت منتشرة فيها قبل عهد الرسالة، ثم حقق الله هذه البشرى خارج الجزيرة العربية، فطهَّر بلداناً عديدة وأقطاراً شاسعة في جميع أطراف العالم من أوساخ المعتقدات الباطلة، ومن مظالم السلطات الزائفة، وأشع عليها نور الإسلام، بعدما كانت غارقة في الظلام.

وما هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف الذي يقع في صُرَّة العالم اليوم وعند ملتقى القارات والمحيطات، والذي هو مركز الثقل في العالم كله إلى الآن وحتى الآن، والذي يُعَدّ أبناؤه بمئات ومئات الملايين، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، إلاَّ جزء من هذه البشرى، وستتلوه بحول الله وقوته بشائر أخرى.

جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض - أي جمع لي وقبض - مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها».

وروى الإمام أحمد من حديث المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر إلاَّ دخلته كلمة الإسلام، يُعِز عزيزاً ويُذِل ذليلاً، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ

فِي سَبِيلِ اِ۬للَّهِۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمُۥٓ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَۖ ﴿٤١﴾
لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ
بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ اُ۬لشُّقَّةُۖ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اِ۪سْتَطَعْنَا
لَخَرَجْنَا مَعَكُمْۖ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَۖ ﴿٤٢﴾ عَفَا اَ۬للَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ
لَكَ اَ۬لذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ اَ۬لْكَٰذِبِينَۖ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَٰذِنُكَ
اُ۬لذِينَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِ۬لَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَۖ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَٰذِنُكَ
اُ۬لذِينَ لَا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِ۬لَاخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَۖ ﴿٤٥﴾

الربع الأول من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ. وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـٰذِنُكَ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يتحدث كتاب الله من جديد عن الأحبار والرهبان، فيكشف النقاب عن استغلالهم للناس وتضليلهم إياهم، وقد سبق في الربع الماضي استنكار قوي واستهجان بالغ للاعتقاد الفاسد الذي يعتقده فيهم أتباعهم المغرورون، وذلك في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهاً وَاحِداً﴾ ففي هذه الآية الكريمة نعى الله على اليهود ما ينسبونه إلى أحبارهم، وعلى النصارى ما ينسبونه إلى رهبانهم من نفع وضر، وما يعلقونه عليهم من رجاء باطل في الشفاعة والمغفرة وحسن الثواب، وما يطيعونهم فيه من

أحكام، تتصل بجوهر الحلال والحرام، مع أن أحكامهم تلك لا سند لها من الدين، وإنما هي من بنات أفكارهم ومحدثات أهوائهم، فهذا معنى اتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم «أرباباً من دون الله».

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير والطبري من عدة طرق عن عَدِيّ بن حاتم الطائي الذي كان أبوه مشهوراً بالكرم بين العرب، حتى أصبح (الكرم الحاتمي) بينهم مضرب المثل، أنه دخل على رسول الله ﷺ قبل أن يسلم وفي عنقه صليب من فضة، إذ كان على النصرانية قبل دخوله في الإسلام، فوجد رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقال عَدِيّ مدافعاً عن النصارى: «أنهم لم يعبدوهم» فقال رسول الله ﷺ: «بلى: إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». ثم أقبل عليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وكان من جملة ما قال له: «يا عِدِيّ ما تقول؟ أيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك؟ أيضرك أن يقال لا إله إلاَّ الله؟ فهل تعلم إلَهاً غيره؟» ولم يلبث عدي بعد سماعه رسول الله (ﷺ) ومجالسته إياه أن أسلم وشهد شهادة الحق. ثم قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

وأما عقيدة التثليث التي يعتقدها النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام فالشرك فيها بالله واضح كل الوضوح، متجاوز كل الحدود، وسبق في شأنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَـٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية، وكذلك ما نسبه اليهود قبلهم

من بنوة عزير لله الذي لم يلد ولم يولد: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

وتولى كتاب الله في هذا الربع وصف الأحبار والرهبان، بما ليس فوق بيانه بيان، فقال تعالى معرِّفاً للمومنين بحقيقتهم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالأحبار والرهبان أغلبهم عبارة عن مستغلِّين للشعوب يستنزفون أموال الناس بشتى الوسائل، وقد كان لأحبار اليهود على عهد الجاهلية شفوف واعتبار ومكانة خاصة بين المشركين العرب، وكان لهم عندهم هدايا وضرائب تجبى إليهم، فلما بعث الله رسوله استمروا على ضلالهم واستغلالهم، وبذلوا كل ما في وسعهم من الدسائس والمؤامرات للقضاء على الإسلام في مهده، ولاغتيال رسوله قبل حلول أجله، طمعاً في أن تبقى لهم مراكزهم العالية، ورياساتهم الزائفة، التي تمتعوا بها زمنا طويلا، لكن الله سلبهم كل ذلك، وعوَّضهم عنه مزيداً من الغضب والتشريد، وأما رهبان النصارى فرغماً عن أن الإسلام كشف عنهم النقاب، وألقى عليهم الأضواء، لم يزالوا يستغلون ضعفاء العقول من أتباعهم إلى الآن وحتى الآن، في مختلف البلدان، ولا سيما في فترة «الاعتراف بالذنوب» أمامهم، عندما يخيِّلون للمذنبين وأتباعهم أنهم سيمنحونهم «صك التوبة والغفران»، ويتقاضون منهم مقابل ذلك أغلى الأثمان. وما الثروة الهائلة المكدسة التي كانت تملكها الكنيسة في العصور الغابرة، والتي لا تزال تملكها حتى اليوم، ممثلة في العقارات والمنقولات والمعادن

النفيسة والأحجار الكريمة إلَّا شاهد ناطق بصدق هذه الآية منطوقاً ومفهوماً.

وإلى جانب ما عرف به أغلب الأحبار والرهبان من استغلال بالغ للضعف البشري، واستثمار فاحش للأزمات الروحية والعُقَد النفسية عند الناس أخذوا على عاتقهم منذ ظهور الإسلام القيام بصد الناس عن سبيل الله، واستعمال جميع الوسائل، للحيلولة بينهم وبين اتّباع الحق، وذلك عن طريق إثارة الشبهات الباطلة، وإثارة الغرائز السافلة، وتشويه الحقائق الواضحة، واختلاق الأكاذيب الفاضحة.

وعلى سبيل المثال نذكر ما تطاول عليه الرهبان بإعانة اليهود من ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ترجمة مختزلة محرّفة مشوهة، مذيلة في نفس الوقت بالرد على عقائده بعدما حرَّفوها، وبالطعن في شرائعه بعدما شوَّهوها، إذ عرضوا ذلك كله في ترجمتهم وتعاليقهم عرضاً ممسوخاً فاسداً، وهذه الترجمة اللاتينية التي أشرنا إليها هي أول ترجمة مشوَّهة للقرآن وضعت بين أيدي قراء اللاتينية من الأوربيين، وذلك على أيدي تراجمة طليطلة من الرهبان واليهود، وكان المشرف على هذه الترجمة المزورة هو الراهب الشهير بطرس المبجل Pierre le vénérable من رهبان القرن الثاني عشر الميلادي، وقد صرح هذا الراهب نفسه بأن الغرض الأساسي من تلك الترجمة المشوهة هو الدعاية ضد الإسلام، وأهدى هذه الترجمة إلى سان بيرنار Saint Bernard، وبعدها بأربع سنوات فقط أعلنت أوربا المسيحية الحرب الصليبية الثانية ضد المسلمين. ويقرر المستشرق

Régis Blachère في كتابه باللغة الفرنسية (مدخل إلى القرآن) «أن العارف باللغتين العربية واللاتينية عندما يقارن بين النص العربي للقرآن وهذه الترجمة اللاتينية لا يملك نفسه من الدهشة، إذ يجدها قليلة التشابه مع النص الأصلي، ولا يتردد عن القول بأنها ليست بترجمة مطلقاً» ثم يعترف هذا المستشرق بعد ذلك صراحة «بأن العالَم المسيحي قد استمر ضحية هذه الترجمة المشوهة الوحيدة خلال خمسة قرون كاملة، وان العالَم المسيحي ظل يعتمد عليها ويستعملها مباشرة أو بواسطة طوال هذه القرون الخمسة، في حملاته العنيفة والسخيفة ضد الإسلام»، وذلك على حد تعبير المستشرق المذكور، وقد استمر طبع هذه الترجمة اللاتينية المشوهة ونشرها حتى فيما يسمى بعهد «النهضة والاحياء» مما يدل على أن أقطاب النهضة الأوربية كانوا أيضاً مرتاحين ومطمئنين إلى هذه الترجمة اللاتينية المشوهة للقرآن الكريم، وهذه الترجمة بالذات هي التي قام بطبعها في سويسرا سنة ١٥٤٣ أستاذ علم اللاهوت بوشمان Buchman وعن هذه الترجمة اللاتينية أخذت الترجمة الايطالية التي نشرت سنة ١٥٤٧، وعن الترجمة الإيطالية المأخوذة عن اللاتينية أخذت الترجمة الألمانية التي نشرت سنة ١٦١٦، وعن الترجمة الألمانية أخذت الترجمة الهولاندية التي صدرت سنة ١٦٤١، وهكذا استمرت عملية التشويه والتزوير للقرآن الكريم التي دشنها الرهبان المسيحيون بإعانة إخوانهم التراجمة اليهود قروناً طوالاً تعمل عملها وتوتي أكلها في نفوس المسيحيين في العالم أجمع، فهذا مثال واحد مما قام به الرهبان وأعوانهم من صد الناس عن سبيل الله، والحيلولة بينهم وبين معرفة

جوهر الإسلام الصافي وحقيقته الساطعة، وهكذا أثبتت الأيام والوقائع باستمرار تحالف اليهودية والنصرانية ضد الإسلام قديماً وحديثاً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. كما أثبتت نفس الوقائع والأحداث صدق كتاب الله في كل ما وصف به طائفة الأحبار والرهبان إذ قال: ﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «ومعنى صدهم عن سبيل الله صدهم لأهل دينهم عن الدخول في الإسلام، بتبديلهم وتغييرهم، وإغوائهم وتضليلهم».

وكلمة «أحبار» جمع حبر، ويقال بكسر الحاء وفتحها، ومعناه في الأصل الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه، ومنه ثوب مُحبَّر أي جامع للزينة، وغلط بعضهم عندما قال إن الحبر سمي حبراً من حمل الحِبر والكتابة به، والحِبر هو المداد. و«الأحبار» من اليهود. وكلمة «رهبان» جمع راهب، أُخِذ من الرهبة، وأطلق في الأصل على من حمله خوف الله على أن يجعل عمله معه، وأنسه به. و«الرهبان» من النصارى. قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا كان فيه شَبَه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا كان فيه شبه من النصارى».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن المتمولين الأشحاء الذين لا يؤدون حقوق الله ولا حقوق الخلق فيما رزقهم من الأموال، فقال

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾. روى البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنه أن أعرابياً قال له: «أخبرني عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فأجابه ابن عمر: «من كنزها، فلم يؤدِ زكاتها فويل له». إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهْرة للأموال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. وروى الإمام مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أيضاً هذا القول نفسه. ومجمل ما حرره القاضي أبو بكر (ابن العربي) في تفسير هذه الآية: «أن الكنز هو مال مجموع، وأنه لا حق في المال سوى الزكاة، فإخراج الزكاة من المال يخرج المال عن وصف (الكنزية)، وكل ذهب أو فضة أديت زكاتها، أو اتُّخِذا حلياً، فليسا بكنز، وعندما تؤدّى الزكاة عن المال يصبح مطهّراً. نعم هناك حقوق عارضة تتعلق بالمال، كفك الأسير وحق الجائع وغيرهما من مصالح المسلمين وحاجاتهم، مما لا تكفي فيه الزكاة أو تقصر دونه، فهذه الحقوق العارضة تعتبر مثل الحقوق الأصلية في المال، وكنز المال دون الوفاء بها يعد ذنباً كبيراً في الإسلام». روي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلّا ليُطيّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» فلما سمع ذلك عمر كبر، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمر ألَا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، التي إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها

أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»، رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه، وقال الحاكم إنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ومما ينبغي التنبيه إليه هنا من الناحية اللفظية في قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ أن الضمير الوارد في هذه الآية يعود على الفضة دون الذهب رغماً عن ذكرهما معاً، ولو عاد الضمير على الذهب والفضة لقيل (ولا ينفقونهما) لكن اكتفت الآية بإعادة الضمير على أحدهما دون الآخر، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فها هنا شيئان: «اللهو والتجارة» لكن أعيد الضمير على التجارة وحدها، اكتفاءً بذكر ضميرها عن الآخر. وهذا أسلوب متعارف في لسان العرب.

ثم تولى كتاب الله الحديث عن تقسيم الزمان إلى شهور وأعوام، علاوة على تقسيمه إلى ساعات وأيام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَـٰبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وتحقيق القول في هذا المقام أن الله تعالى جعل السنة اثني عشر شهراً، كما جعل البروج في السماء اثني عشر برجاً، ورتب فيها سير الشمس والقمر. وعدد أيام السنة القمرية ربع يوم وأربعة وخمسون يوماً وثلاثمائة يوم، وعدد أيام السنة الشمسية ربع يوم وخمسة وستون يوماً وثلاثمائة يوم، وقوله تعالى هنا: ﴿فِي كِتَـٰبِ اللَّهِ﴾ أي معدودة في كتاب الله المحفوظ في الأزل، وقوله تعالى هنا: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ المراد به رجب الفرد،

وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب». وفي رواية: «ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» وإنما أطلق عليه في هذه الرواية «رجب مضر» لأن مضر هي التي اقتصرت في الجاهلية على تحريمه دون غيرها. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وهذا كله إنما هو بيان لتحقيق الحال، وتنبيه على رفع ما كان وقع في الشهور من الاختلال».

ومن هذا الموضوع انتقلت الآيات الكريمة الى الحديث عن غزوة تبوك وما أحاط بها من ظروف وملابسات، وما لقيه رسول الله ﷺ من عراقيل وعقبات، أثناء استعداده لها وعند خروجه لملاقاة الروم أعداء الإسلام، الذين كانوا يتربصون به الدوائر في الشام، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ - ﴿انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ - ﴿إِنَّمَا يَسْتَـٔذِنُكَ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

وَلَوَ اَرَادُواْ اُ۬لْخُرُوجَ
لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ اَللَّهُ اُ۪نۢبِعَاثَهُمْ
فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اَ۪قْعُدُواْ مَعَ اَلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ
فِيكُم مَّا زَادُوكُمُۥٓ إِلَّا خَبَالاٗ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
اُ۬لْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِالظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدِ اِ۪بْتَغَوُاْ اُ۬لْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ اَلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ اَلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اُللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَقُولُ اُ۪يذَن لِّيَ وَلَا تَفْتِنِّيَ أَلَا فِي اِ۬لْفِتْنَةِ سَقَطُواْ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ
تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدَ اَخَذْنَآ
أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُّصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اَللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى

ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ
إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن
يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟
إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ
كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ
كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾
فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ
فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ

إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ
وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ
مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾

الربع الثاني من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب العشرين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً، وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَـٰعِدِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَـٰكِينِ وَالْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع أخبر الحق سبحانه وتعالى نبيه بحقيقة ما انطوى عليه المنافقون الذين كانوا منبثين بين المسلمين يقومون بدور «الطابور الخامس» المتعارف عليه في هذا العصر، فبيَّن أنهم لو كانوا راغبين في الخروج مع رسول الله للقاء الروم في الشام لتأهبوا لذلك من أول وهلة، ولما تخاذلوا وترددوا، ثم كشف الحق سبحانه وتعالى عن اللطف الخفي، الذي حصل بعدم خروجهم، ذلك أنهم لو شاركوا المسلمين في الخروج إلى غزوة تبوك لكان وجودهم بين ظهرانيهم مثاراً للبلبلة والاضطراب والخبال، ووقوداً لإشعال نار الفتنة، وإفساد ذات البين، مما يعكر الجو ويشغل البال، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اَرَادُواْ الْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً، وَلَـٰكِن كَرِهَ

اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي أبغض خروجهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أخّرهم عن الخروج: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَـٰعِدِينَ، لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا، وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي لمشوا بينكم بالنميمة، وحركوا بينكم عوامل البغضاء المؤدية إلى الفتنة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم من يستحسن حديثهم الخداع، إذ إنكم لستم جميعاً على بيِّنة من أمرهم، فهم منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وبذلك يقع السامع لهم في الشِّرْك، ويَحدُث بين المومنين - بسبب دسيستهم وسعايتهم - فساد كبير، وإلى هذا التفسير ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

ويحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أنه يوجد منبثاً من بينكم عيون لهم، منهم وإليهم، يتتبعون أخباركم وينقلونها إليهم أولاً بأول، لإفساد خطة الرسول وتعطيل سير المومنين، وإلى هذا التفسير الثاني ذهب مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير الطبري. قال ابن كثير: «والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق».

ثم أخبر الحق سبحانه وتعالى عن تمام علمه وإحاطته بما ظهر وما بطن من نوايا المنافقين ودسائسهم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ﴾ فهو مطلع على سرائرهم، عليم ببواطنهم كعلمه بظواهرهم: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي لقد فكروا وقدروا، ودبروا من أسباب الفتنة والاضطراب ما دبروا، وتعاونوا مع جميع القوات المعادية للإسلام بغية القضاء عليه، حتى لا يترعرع ولا يستد ساعده، ومنذ هجرة الرسول إلى المدينة رمته قريش وحلفاؤها

عن قوس واحدة، وحاربه اليهود والمنافقون حرباً لا هوادة فيها، ولعبت حرب الأعصاب والاشاعات والدسائس ضد رسول الله في هذه المعركة دوراً كبيراً، فلما نصره الله «يوم بدر» قال زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ كلمته المشهورة: «هذا أمر قد تَوَجَّه» ويئسوا وقتئذ من التغلب على رسول الله والمومنين، فلم يسعهم إلاَّ أن يظهروا الإسلام ويندسوا بين المسلمين، لمتابعة دسائسهم، لكن دون جدوى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾.

وعرَض كتاب الله نموذجاً من نماذج الأعذار التي كان يعتذر بها المنافقون عن الخروج مع رسول الله إلى غزوة تبوك، فمن تلك الأعذار التي بلغت الغاية في المجون والاستهتار، ما قاله الجدُّ بن قيس جواباً لرسول الله ﷺ عندما دعاه إلى الخروج مع المسلمين وقال له: «هل لك يا جَدُّ في جِلاد بني الأصفر هذا العام» ـ يريد الروم البيزنطيين ـ فكان جواب الجد بن قيس: «يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال له: «قد أذنت لك». وإلى هذه القصة يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ايذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ثم عقب عليها كتاب الله بما يبين بطلان هذا العذر من أصله، وسوء نية صاحبه فقال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ وكان هذا الجزاء من جنس العمل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ﴾.

ويمضي كتاب الله في كشف النقاب عن نفسية المنافقين ووصف انطباعاتهم عن الأحداث الكبرى التي يواجهها الرسول والمومنون، فقال تعالى: ﴿إن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولواْ قَدَ اَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ، وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

ثم لقَّن كتاب الله نبيه والمومنين ما يواجهون به جميع الأحداث والنوازل كيفما كانت، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، من الثبات واليقين والإيمان الراسخ، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلِينَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

وتعرَّض كتاب الله بعد ذلك لموقف الرسول والمومنين من دسائس المنافقين ونواياهم السيئة نحو المسلمين، وبيَّن ان الله تعالى لا يقبل من تصرفاتهم الباطلة صرفاً ولا عدلاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إلَّآ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي ماذا تنتظرون بنا غير الموت في سبيل الله أو النصر عليكم، وكل واحدة منهما في حد ذاتها «حُسْنَى» عندنا وعند الله، لا «سُوأى» كما تتمنون: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمُ أَنْ يُّصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوآْ، إنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ، قُلَ اَنفِقُواْ طَوْعاً اَوْ كَرْهاً لَّنْ يُّتَقَبَّلَ مِنكُمْ، إنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَٰسِقِينَ﴾.

وبيَّن كتاب الله السر في إحباط نفقات المنافقين وعدم قبولها عند الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمُ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمُ إلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَاتُونَ الصَّلَوٰةَ إلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾. وواضح أن من سلك مثل مسلك المنافقين من

أي جيل أو قبيل، يدخل معهم تحت هذا الحكم القاطع، ويعاقب بنفس هذا العقاب الرادع.

ويفضح كتاب الله خصلة من خصال المنافقين الملازمة لهم في القديم والحديث، ألَا وهي خصلة الإكثار من الحلف باسم الله، ومن استعمال الأيمان المغلظة، بمناسبة وبغير مناسبة، شعوراً منهم بفقدان الثقة فيهم، وعدم الاطمئنان إليهم، فيحاولون انتزاع الثقة من المخاطبين، باستعمال الحلف وتوكيد اليمين، وذلك ما ينص عليه قوله تعالى هنا: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ثم يرد عليهم كتاب الله مكذِّباً حلفهم ويمينهم الغَمُوس، فيقول: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، وسترد آية أخرى في الربع القادم بنفس هذا المعنى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُّرْضُوهُ إن كَانُواْ مُومنينَ﴾.

ويمضي كتاب الله في فضيحة المنافقين وهتك أستارهم من أيّ جيل أو قبيل، فيؤكد ما انطووا عليه في ذات أنفسهم من الخوف والجزع، والرعب والفزع، على العكس من المومنين الذين هم أشداء على الأعداء، يوم اللقاء، وأقوياء دائماً على التضحية والفداء، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي قوم جبناء يصيبهم الفَرَق وهو الخوف: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً﴾ أي حصناً يتحصنون به ﴿أَوْ مَغَـٰرَاتٍ﴾ أي كهوفاً في قمم الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ أي نفقاً تحت الأرض: ﴿لَّوَلَّوِاْ الَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي لفروا إليه وهم يسرعون.

ويذكر كتاب الله إحدى خصائص المنافقين البارزة التي تميزهم

عن غيرهم ولا ينفكون عنها بحال، ألَا وهي خصيصة الطمع والاستغلال، والروح الانتفاعية المهيمنة عليهم في جميع الظروف والأحوال، فهم راضون مستبشرون، يعلنون رضاهم كلما استغلوا وانتفعوا وكانت مصلحتهم الخاصة مضمونة ومصونة، وهم ساخطون متبرِّمون، يعلنون سخطهم كلما توقفت عجلة الاستغلال والانتفاع، وتعطلت أبسط مصلحة من مصالحهم الخاصة، وذلك قوله تعالى في شأن المنافقين، الأولين منهم والآخرين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَـٰتِ﴾ أي من يطعن عليك ويعيبك في قَسْمها ويتهمك في توزيعها، و«اللمز» في الأصل يقصد به عيب الشخص لغيره في غيبته لا بمحضره، والمراد «بالصدقات» هنا الأموال العامة التي يقوم بجبايتها بيت مال المسلمين برسم الزكاة المفروضة: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

وبعدما فضح كتاب الله طبيعة المنافقين وما هم عليه من التقلب في المواقف بين السخط والرضى، وسقوط الهمة، والطمع البالغ، والاستغلال الفاحش، بيَّن كتاب الله الموقف السليم الذي يقفه ـ عادة ـ المومنون الصادقون، والذي أخطأ طريقه وضلَّ عنه المنافقون، وهذا الموقف هو موقف الرضى بحكم الله، والثقة بوعده، والرجاء فيه، وإخلاص العمل لوجهه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَيٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُوتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فقد تضمنت هذه الآية الكريمة «أدباً كريماً، وسراً عظيماً» كما أشار إليه ابن كثير.

وأخيراً تناول كتاب الله موضوع الزكاة بالتأصيل والتفصيل،

وهي الصدقة التي فرضها الله على أغنياء المسلمين في أموالهم لترد على فقرائهم، حماية للمجتمع الإسلامي من عوامل الفرقة والانقسام، وتوجيهاً له نحو العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي هي جزء لا يتجزأ من أصل «العدالة العامة» في الإسلام، فبيّن كتاب الله وجوب دفعها، وحدد وجوه صرفها، ولفت كتاب الله بذلك أنظار الجميع، إلى أن أمر الصدقات موكول إلى الله لا إلى غيره، فهو الذي أعلن حكمها، وهو الذي تولى قسمها، ولذلك فلا محل لأي لمز أو تقريع، فيما حدده لها من القسم والتوزيع، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَـٰكِينِ وَالْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: «هذه الآية من أمهات الآيات فقد خصَّ الله بعض الناس بالأموال دون البعض، نعمة منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سَهْم من مالهم، يردُّونه إلى من لا مال له، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بفضله للمحتاجين من رزق في قوله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، وقدَّر الصدقات على حسب أجناس الأموال، فجعل في النقدين ربع العشر، وجعل في النبات العشر، ومع تكاثر المئونة نصف العشر، و«الصدقة» متى أطلقت في القرآن فهي صدقة الفرض، ولفظ الصدقة مأخوذ من «الصدق»، بمعنى مساواة الفعل للقول والاعتقاد، وبناء (ص د ق) يرجع إلى تحقيق شيء بشيء وعَضْدِه به، ومنه «صداق المرأة» أي تحقيق الحل وتصديقه بإيجاب المال والنكاح، على

وجه مشروع، ومشابهة الصدق ها هنا للصدقة أن من أيقن من دينه أن البعث حق، وان الدار الآخرة هي المصير، ـ وأن هذه الدار الدانية قنطرة إلى الأخرى، وباب إلى السُّوأى أو الحُسْنَى ـ (مؤنث الأسوأ والأحسن) عمل لها، وقدم ما يجده فيها، فإن شك فيها أو تكاسل عنها وآثر عليها بخل بماله، وغفل عن مآله».

والآن فلنتحدث عن الألفاظ الواردة في هذا السياق لفظاً لفظاً حتى يتضح المعنى المراد، إذ كل لفظ منها يعبر عن صنف من أصناف المستحقين للزكاة:

فلفظ (الفقراء) جمع فقير، وهو المحتاج المتعفف.

ولفظ (المساكين) جمع مسكين، وهو المحتاج السائل، وهذا التفسير للاثنين منقول عن الإمام مالك في كتاب ابن سحنون. وجاء في حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن المسكين ما هو فقال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

ولفظ (العاملين عليها) يراد به الجباة والسعاة الذين يذهبون لتحصيل الزكاة ويُوكَّلون على جمعها.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وهذا يدل على مسألة بديعة، وهي أن ما كان من فروض الكفايات فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه، ومن ذلك الإمامة، فإن الصلاة وإن كانت متوجهة على جميع الخلق، إلا أن تقدم بعضهم بهم من فروض الكفاية، فلا جرم يجوز أخذ الأجرة عليها».

ولفظ ﴿ٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يشمل المسلم الذي يعطى ليحسن إسلامه ويزداد يقينه، والكافر الذي له ميل إلى الإسلام، فيعطى لتقوية ذلك الميل فيه حتى يسلم، تأثراً بعطاء المسلمين وإحسانهم، وفي حكمهما من يُعطَى لما يُرجَى من إسلام نظرائه، ومن يُعطى ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. وروي عن مالك أنه قال: «ان النبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم فحسن إسلامهم».

ولفظ (الرِّقَابِ) المراد به شراء الرقاب وعتقها من الرق، وذلك هو ظاهر القرآن الكريم، فان الله حيثُما ذكر الرقبة في كتابه إنما أراد منها العتق. روى الإمام أحمد وأهل السنن إلَّا أبا داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حقٌّ على الله عونُهم: الغَازِي في سبيل الله، والمكاتَب (أي الرقيق) الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف».

ولفظ (الْغَـٰرِمِينَ) المراد به من رَكِبهُم الدَّين ولا قدرة لهم على الوفاء به، اللهم إلَّا من تداين في سفاهة، فانه لا يعطى من الزكاة ولا من غيرها، إلَّا أن يتوب، فإن مات من ركبه الدين في غير سفاهة قُضِي دَينُه من الزكاة، لأنه من الغارمين.

ولفظ (في سبيل الله) قال الإمام مالك: «سبل الله كثيرة، ولكني لا أعلم خلافاً في أن المراد بسبيل الله ها هنا الغزو«الجهاد»، وقال محمد بن عبد الحكم: «يعطى من الصدقة ـ أي الزكاة ـ في الكُرَاع والسلاح، وما يُحتاج إليه من آلات الحرب وكفّ العدو عن الحَوْزة، لأنه كله من سبيل الغزو ومنفعته».

ولفظ (ابْنِ السَّبِيلِ) المراد به من غاب عن بلده ومستقر ماله، وانقطعت به الأسباب فلم يجد ما ينفقه في سفره، ولو كان غنياً في بلده. قال مالك في كتاب ابن سحنون: «وليس يلزمه أن يدخل تحت منة أحد، وقد وجد منة الله ونعمته» قال ابن كثير: «وهذا الحكم يماثله حكم من أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه» إن لم يكن سفر معصية.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بظواهر الناس وبواطنهم، حكيم فيما يَحكُم به عليهم، حكيم فيما يَشرَعُه لهم: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

الربع الثالث من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ

كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمُۥٓ إِن يُّعْفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ تُعَذَّبْ
طَآئِفَةٌۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ اَ۬لْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ
بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَامُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
اِ۬لْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اُ۬للَّهَ فَنَسِيَهُمُۥٓ
إِنَّ اَ۬لْمُنَٰفِقِينَ هُمُ اُ۬لْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اَ۬للَّهُ اُ۬لْمُنَٰفِقِينَ
وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا
هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اُ۬للَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
كَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا
وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ
كَمَا اَسْتَمْتَعَ اَ۬لذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَالذِے خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتَ اَعْمَٰلُهُمْ فِے اِ۬لدُّنْي۪ا
وَالَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَاتِهِمْ
نَبَأُ اُ۬لذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُوتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ اَ۬للَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَٰتُ بَعْضُهُمُۥٓ أَوْلِيَآءُ

بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ
وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ
وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ
وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن
يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ
وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾

الربع الثالث من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الذِينَ يُوذُونَ النَّبِيٓءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ، قُلُ اذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُومِنُ بِـاللَّهِ وَيُومِنُ لِلْمُومِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَّتُوبُواْ يَـكُ خَيْراً لَّهُمْ، وَإِنْ يَّتَـوَلَّوْاْ يُعَـذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الـدُّنْيَا وَالَاخِرَةِ، وَمَا لَهُمْ فِي الَارْضِ مِنْ وَّلِيٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

لا يزال كتاب الله يكشف الستار عن فضائح المنافقين فضيحة بعـد أخرى، حتى سميت هـذه السورة، من كثـرة ما فضحت المنافقين، وأظهرت من سوآتهم ومساويهم، سورة (الفاضحة)، وظن الصحابة أنها لا تبقي أحداً.

وفي بداية هذا الربع أشارت الآيـات الكريـمـة إلى تضايق المنافقين كـل التضايق، من إطـلاع رسول الله صـلى الله وسلم عليهم، ومن معرفته الواسعة بمساعيهم الخفية التي يقومون بها من وراء الستار، ومن علمه التام بما يتناجون به من الإثم والعدوان في خلواتهم الخاصة.

ومما يدل على تضايقهم البالغ ما أخذوا يتحدثون به فيما بينهم، من أن الرسول عليه الصلاة والسلام يصغي إلى الأخبار التي تنقل له عنهم، ومن أنه يتأثر بتلك الأخبار وينفعل لها، بينما هي في زعمهم لا أساس لها من الصحة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الذِينَ يُوذُونَ النَّبِيٓءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذْنٌ﴾ - أي أن من قال له شيئاً عنهم صدَّقه - ﴿قُلْ اذْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ - أي أنه عليه الصلاة والسلام يميز الخير من الشر، والصواب من الخطأ، والصدق من الكذب، ولا يلتبس عليه من أمرهما شيء، خلافاً لما يزعمه المنافقون - ﴿يُومِنُ بِاللَّهِ وَيُومِنُ لِلْمُومِنِينَ﴾ - أي يصدق المومنين ويزكي أخبارهم - ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ، وَالذِينَ يُوذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

ثم نبَّه كتاب الله إلى المخاوف التي أخذت تساور المنافقين من جراء إلقاء الأضواء الكاشفة عليهم يوماً بعد يوم، وأنهم يتهيَّبون أن تنزل على الرسول في شأنهم سورة خاصة بهم، وإذ ذاك يُرفَع عن وجوههم آخر بُرْقُع من البراقع الشفافة، ويتعرضون لنقمة المومنين وغضبهم قبل حلول يوم الحساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وأنذرهم كتاب الله عقب ذلك بما يؤكد مخاوفهم قائلاً: ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

ووصف كتاب الله أنواع الاعتذار التي يعتذر بها المنافقون متى عجزوا عن إنكار أقوالهم أمام الرسول، حيث يقعون في منتهى الحيرة والارتباك. فقال تعالى مخاطباً لنبيه في شأنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ

لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ومن ذلك ما قاله فوج من المنافقين بمناسبة خروج رسول الله إلى غزوة تبوك: «يَظُنّ هذا انه يفتح قصور الشام وحصونها»؟ وما قاله فوج آخر منهم بنفس المناسبة تحذيراً لجمهرة المومنين: «أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لَكأنَّا بكم غداً مُقرَّنين في الحبال»؟ أي مشدودين بها، وقد أثبتت الأيام التالية بعد ذلك أن قصور الشام وحصونها سقطت كلها في قبضة الدولة الإسلامية الفتية، وان «بني الأصفر» هم الذين سقطوا أسرى وقتلى في أيدي المسلمين، وبذلك كانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ثم واجههم الحق سبحانه وتعالى بخطابه في صيغة إنذار نهائي، فقال تعالى لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ، قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ فلا معنى إذن للاعتذار ولا فائدة منه.

وإذا كان المنافقون على درجات متفاوتة في النفاق، فيهم المتبوع والتابع، والرئيس والمرؤوس، وجرائمهم ليست في مستوى واحد، ولا مدفوعة بدافع واحد، فقد ينال عفوُ الله أقلَّهم أذى إذا تاب وأناب، ولكن البعض الآخر لا بد له من شديد العقاب وعسير الحساب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

واهتمت الآيات الكريمة في هذا السياق بعقد مقارنة دقيقة وفاصلة بين المنافقين والمومنين، وذلك حتى لا يبقى أيّ لبس في شأن معرفتهم، وحتى يسهل تمييز بعضهم عن بعض بالنسبة لجميع الناس، وبالنسبة لجميع العصور:

فأما المنافقون فهذه أوصافهم الخاصة، ومميزاتهم التي يمتازون بها يعرضها علينا كتاب الله إذ يقول: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ ـ أي أنهم متشابهون متداخلون متشابكون فيما بينهم، لا يحسون بالانسجام والطمأنينة وهدوء البال إلاَّ إذا كانوا يتنفسون في جو النفاق الخاص بهم ـ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ فهم أعوان على الهدم لا على البناء، وهم روّاد الفساد وطلائعه في البلاد، وهم جند الانحراف المجند الذي يُشيع الفاحشة بين العباد.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي من علامات المنافقين أنهم كلما دُعُوا إلى البذل في سبيل الله والانفاق في وجوه الخير شحُّوا وبخلوا، وكلما دعوا إلى مد يد المساعدة لمشروع من مشاريع النفع العام كان موقفهم منه سلبياً، ولم يمدُّوا أيديهم إليه ـ إن مدوها ـ إلاَّ بعد اللتي واللُّتيا.

وعقب كتاب الله على أوصاف المنافقين البارزة فقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ومن حَكَم عليه الحق سبحانه وتعالى بالخزي ووضعه موضع الإهمال، لم يبقَ مفتوحاً في وجهه أيّ باب للأمل ولا مجال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي فيها كفايتهم: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وأما المومنون فهذه أوصافهم الخاصة ومميزاتهم التي يمتازون بها يعرضها علينا كتاب الله إذ يقول: ﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ، يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُوتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَعَدَ اللَّهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فمن وجد نفسه متصفاً بهذه الأوصاف فليحمد الله، ولينتظر رضوان الله، ومن وجد نفسه على غير ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه، وليحاسبْها اليوم قبل أن يحاسب غداً، وإلَّا فلينتظر غضب الله!

فالمومنون والمومنات يجب أن يكونوا أخوة في الله، متحالفين على الخير، متعاونين على البر، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، إذا اجتمعوا تواصوا بالحق والصبر، وإذا افترقوا قام كل واحد منهم بشَدِّ الأزْر وجَبْر الكَسر، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

والمومنون والمومنات يجب ـ إذا أُمِرُوا ـ أن يأمروا بالمعروف، وتندرج تحت كلمة (المعروف) كل الطيبات والصالحات وجميع أنواع الخير والبر، ويجب ـ إذا نُهُوا ـ أن ينهوا عن المنكر، وتندرج تحت كلمة (المنكر) كل الخبائث والسيئات، وجميع أنواع الشر والظلم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

والمومنون والمومنات لا يصح إيمانهم أولاً، ولا ينمو ويرسخ ثانياً، إلَّا إذا مارسوا عقيدة الإيمان في صميم حياتهم اليومية، فأدَّوا ما عليهم من حقوق الله، بشكره وعبادته، وربط الصلة به على الدوام، عن طريق الصلاة المفروضة، وإلَّا إذا أدَّوا ما عليهم من

حقوق إخوانهم وهم «عِيال الله»، بتمكينهم من وسائل العيش الضروري، وأسباب الكسب الشريف، عن طريق الزكاة المفروضة، و«أحب الْخَلْقِ إلى الله أنفعهم لعياله» كما قال عليه الصلاة والسلام، ففي الصلاة يتجلّى إيمان المومن تِجَاه خالقه، وفي الزكاة يتجلّى إيمان المومن تِجَاه أخيه، كما يتجلّى فيها شكره لرازقه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُوتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾.

والمومنون والمومنات لا يكونون من أهل الإيمان الصادق إلاّ إذا أسلموا وجوههم لله، وطبقوا في حياتهم اليومية المنهج السماوي الذي رسمه لهم الله، فالله تعالى أعلم منهم بما يصلحهم، والله تعالى أعلم منهم بما يلائمهم، والله تعالى أحكم منهم بما اختاره لهم عن علم شامل ومحيط، من نهج للعمل والسلوك، وطريق للنجاح المحقّق في الحياة، دنيا وأخرى، وهذا هو المعنى المقصود من (طاعة الله ورسوله)، لأنها طاعة أحكم الحاكمين، ورب العالمين، كما قال تعالى هنا في وصف المومنين والمومنات: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. وواضح أن من التزم طاعة الله ورسوله تحرر من طاعة كل من خالفهما، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ومن كان متحلياً بهذه الصفات المميزة للمومنين والمومنات، كان حقاً على الله أن يشمله برحمته، وأن يرعاه بعين رعايته، فقد تعهد لهم سبحانه بذلك تفضلاً منه وكرماً، عندما قال مشيراً ومبشراً للمومنين والمومنات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (عزيز) يعز المومنين ويذل المنافقين ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ، وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، (حكيم) يختار للمومنين

بواسع علمه، وبالغ حكمته، أهدى طريق، ويمدّهم عند سلوكه بمدد الهداية والتوفيق.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ معناه أن رضا الله عن المومنين والمومنات يوم لقائه وتلقي ندائه، أكبر وأجل وأعظم وأفضل، من كل نعيم أنعم به عليهم دونه. روى الإمام مالك من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول الحق سبحانه وتعالى: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، فقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك. فيقول الحق تعالى: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أُسخَط عليكم بعده أبداً» ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الربع الأخير من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ
لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ
يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ
فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ
مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ
أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ
رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا
نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ
وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ

ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

الربع الأخير من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ، فَلَمَّآ ءَاتَيٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَلاَ عَلَى الذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً اَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

في بداية هذا الربع واصل كتاب الله حديثه عن المنافقين وأصنافهم وأوصافهم، فوصفهم بخيانة العهود وإخلاف الوعود، لا مع مطلق النـاس، ولكن حتى مع الله تعـالى، ومن أمثلة ذلك تعهدهم أمام الله بأنه إن أغناهم تصدَّقوا وأحسنوا وسلكوا مسلك الصالحين من أهل الإيمان، في عمل البر والإحسان، لكنهم بمجرد مـا أدركوا المنى، ونـالوا الغنى، طغـوا واستكبروا، وكفـروا وما شكروا، مصداقاً لقوله تعالى في الربع الماضي: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلاَّ أَنَ اَغْنَيٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ واستولى عليهم الشح والبخل كل

الاستيلاء، كأنما لم يسبق منهم أي عهد أو التزام أمام الله بالإحسان والعطاء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ، فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهذه الآية الكريمة تشبه في مغزاها آية أخرى سبقت في سورة الأعراف المكية، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت - أي حملت حملاً ثقيلاً - دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ، فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحاً جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية.

ولتمام الفائدة في هذا الصدد ينبغي التنبيه إلى أن (البخل) يستعمل في الكتاب والسنّة للدّلالة على التقصير في أداء ما هو واجب، بينما (الشح) يستعمل فيهما للدلالة على الإخلال بأداء ما هو مستحب، كما حرره ابن العربي المعافري.

وبيّن كتاب الله ما تعرض له المنافقون من سوء العاقبة بمثل هذا التصرف اللعين، فقد زاد نفاقهم بسببه حدّة وشدّة، إذ السيئة تشجع على أختها، والمعصية الصغيرة تدفع إلى ما هو أكبر منها، «فالمعاصي بريد الكفر» كما ورد في الأثر. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي فأعقبهم بخلهم نفاقاً راسخاً في قلوبهم، لازماً لهم إلى يوم الدين، يوم يلقون جزاء نفاقهم، حيث يُعرضون على الله للحساب والعقاب، ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي أن ذلك بسبب إخلافهم للوعد، وخيانتهم للعهد ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي وبسبب كذبهم فيما تحدثوا به والتزموه، إذ كانوا منطوين على سوء النية من أول وهلة،

فالمنافق في الوقت الذي يتحدث فيه إلى غيره يكون واثقاً بأنه كاذب فيما يقول، وفي الوقت الذي يَعِدُ فيه غيره يكون مصمماً على أن لا يفي بالوعد ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وإنما آتاهم الله من فضله ووسع عليهم الرزق ـ وهو يعلم السر والنجوى ـ ليبلوهم وينظر كيف يعملون أولاً، وليظهر حقيقة حالهم للناس ثانياً، حتى يكونوا على بيِّنة من نفاقهم الراسخ، ومعرفة بمرض قلبهم المزمن، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام أن ما استنكرته هذه الآية الكريمة ووصفت به المنافقين من إخلاف الوعد: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ ومن الكذب في الحديث: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ هو نفس ما أكده الحديث النبوي الشريف المروي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق، حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر».

ومن الأمثلة التي تندرج تحت هذه الآية قصة ثَعْلَبة بن حاطب، وينسبها بعضهم إلى غيره، فقد جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ يسأله الدعاء له بالمال قائلاً: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «وَيْحَك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» فقال له ثعلبة: «والذي بعثك

بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه» فلم يَسَعْ رسول الله بعد اليمين التي حلفها ثعلبة، والتزامه بأداء الحقوق اللازمة عليه في المال، إلَّا أن دعا له وقال: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» ولم يلبث ثعلبة أن اتخذ غنماً، فنمت كما يَنمِي الدود، وضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما، ثم نمت غنمه وكثرت، فتنحَّى حتى ترك الصلوات إلَّا الجمعة، وهي تنمى كما ينمِى الدود حتى ترك الجمعة، فطَفِق يتلقى الركبان يوم الجمعة، ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا فعل ثعلبة»: فقالوا يا رسول الله: «اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة» فأخبروه بأمره، فقال رسول الله: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. وكما يقال: «نما ينمو» يقال «نمى ينمِي» كما جاء في هذه الرواية، فهو من صِيَغ الأفعال التي جاءت «واوية» و «يائية».

ولما نزلت فرائض الصدقة ـ وهي الزكاة ـ بعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، رجلًا من جهينة، ورجلًا من بني سليم، وكتب لهما كتاباً في حدود الصدقة وما يأخذان من المسلمين، وقال لهما: «مُرًّا بثعلبة وبفلان ـ رجل من بني سليم ـ فخذا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله، فقال: «ما هذه إلَّا جِزْية، ما هذه إلَّا أخت الجزية، ما أدري ما هذا؟ انطلِقا حتى تفرغا ثم عُودا إليَّ». فانطلقا، وسمع بهما زميله السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: «ما يجب عليك هذا، وما نريد أن

نأخذ هذا منك» فقال: «بلى فخذوها، فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي له» فأخذاها منه، ومرًّا على الناس فأخذوا منهم الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: «أَرُوني كتابكما» فأعطياه الكتاب فقرأه، فقال مرة ثانية: «ما هذه إلاَّ جزية، ما هذه إلاَّ أخت الجزية، فانطلِقا عني حتى أرى رأيي» فانطلَقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال لهما قبل أن يكلماه: «يا ويح ثعلبة» فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فدعا للسلمي بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الآية، وكان عند رسول الله رجل من أقارب ثعلبة، فخرج حتى أتاه وأخبره الخبر، ولما بلغ ثعلبة ما نزل من القرآن في شأنه وشأن أمثاله أتى النبي ﷺ يسأله أن يقبل صدقته، فقال له رسول الله: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فقام ثعلبة وأخذ يحثو التراب على رأسه، ولما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع ثعلبة إلى منزله حزيناً كئيباً، ثم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو مقاطع لصدقته دون أن يقبل منها شيئاً.

ولما استُخْلِف أبو بكر أتى إليه ثعلبة، وسأله أن يقبل صدقته، فقال له أبو بكر: «لم يقبلها منك رسول الله فكيف أقبلها؟» وأبى أن يقبلها منه، إلى أن توفي أبو بكر، وهو مقاطع لصدقة ثعلبة، اقتداءً برسول الله ﷺ.

ولما استُخْلِف عمر جاءه ثعلبة يقول: «يا أمير المومنين، اقبل صدقتي» فقال له عمر: «لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك؟» وتوفي عمر وهو مقاطع لصدقته أيضاً دون أن يقبل

منها شيئاً، اقتداءً برسول الله وبخليفته الأول أبي بكر الصديق.

ولما استُخْلِف عثمان جاءه يقول: «اقبل صدقتي» فقال له عثمان: «لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟» فلم يقبلها منه وقاطعها أيضاً، اقتداءً برسول الله وخليفتيه أبي بكر وعمر، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان وهو محروم كل الحرمان من قبول صدقته، دون بقية الناس، وكان ذلك الموقف الصارم من طرف رسول الله وخلفائه من بعده تعزيراً وتأديباً لثعلبة وأمثاله في جميع العصور، وسنَّة حسنة يَعمل بها من يريد الاقتداء برسول الله وخلفائه، في مقاطعة أولئك الذين يعاهدون ثم لا يوفون بالعهود، ونبذ أولئك الذين يَعِدون ثم يخلفون الوعود.

وقد نبَّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير هذه الآية: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ «إلى أنه لما حيل بينهم وبين التوبة، ووقع التصريح بنفاقهم وكفرهم لم تقبل صدقاتهم»، لأن صحة الإيمان شرط لقبول الصدقة والصلاة وسائر الأعمال، ولذلك لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، اقتداءً برسول الله ﷺ، لعلمه عليه الصلاة والسلام بسريرة ثعلبة، واطلاعه على بُنَيَّات صدره» ـ يقال «بُنَيَّات الطريق» للطرق الصغيرة المتشعبة من الجادة ـ.

وإذا كان المنافقون يتجرأون على لمز أشرف الخلق، والطعن في تصرفات خاتم النبيئين والمرسلين كما سبقت الإشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن

لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فإنهم سيكونون أشد جرأة وأكثر لمزاً لمن دونه من المومنين، وفعلاً فقد كان المنافقون ينتهزون كل فرصة لِلَمز المومنين والطعن فيهم، فإذا جاء المومنون إلى رسول الله بعطاء جزيل لمزوهم وقالوا: «إنه عطاء مقصود به الرياء والسمعة»، وإذا جاء المومنون بعطاء يسير استهزءوا بذلك العطاء وقالوا: «إن الله لغنيّ عن صدقة هؤلاء» بحيث لا يَسلَم من لمزهم وطعنهم واستهزائهم أحد، من أكبر كبير إلى أصغر صغير، وهذا هو شأن المنافقين في كل جيل. وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى هنا: ﴿الذِينَ يَلْمِزُونَ اَلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي يعيبون المتصدقين تطوعاً وتبرعاً من المومنين، ﴿وَالذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ أي كما يلمزون الذين يتصدقون بالكثير يلمزون الذين يتصدقون باليسير على قدر طاقتهم: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزئون بهم. ثم عقب كتاب الله على ذلك ذاكراً نوع العقاب الذي عاقب الله به المنافقين على استهزائهم بالمومنين، فقال تعالى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾، وهذه الآية واردة على طريق المقابلة، أي كما أنهم سخروا من المومنين عاقبهم الله فسخر منهم، إذ «الجزاء من جنس العمل».

وحرصاً على إزالة كل لبس، وعلى تمييز المنافقين من المومنين تمييزاً تاماً، نهى الله رسوله والمومنين عن الصلاة عليهم بعد وفاتهم، ونهاه عن القيام على قبورهم للدعاء لهم، وبذلك بقيت هذه الميزة خاصة بأموات المومنين وحدهم، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

وقد تلقى حُذَيْفة بن اليَمَان عن رسول الله ﷺ أسماء المنافقين وعرف أشخاصهم، فكان بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى هو الذي يلفت نظر المسلمين إليهم كلما مات واحد منهم، حتى لا يصلُّوا عليه ولا يقفوا على قبره، امتثالاً لهذه الآية الكريمة، ومن أجل ذلك أُطلق على حذيفة بن اليمان لقب «صاحب السر»، والسر إنما هو في هذا المقام بالخصوص. وهكذا أصبحت صلاة الجنازة قاصرة على المومنين يستغفر بها أحياؤهم لأمواتهم، ومما جاء في فضلها قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تُدفَن فله قيراطان. قيل وما القيراطان؟ قال: أصغرهما مثل أُحُد» يشير إلى جبل أحد. وكان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل» أخرجه أبو داود في سننه، وانفرد به.

وبعدما فضح كتاب الله في هذه السورة الكريمة الأعذار المنتحلة التي كان يعتذر بها المنافقون عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ ائذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾، وكقوله تعالى حكاية عنهم أيضاً: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ جاءت الآيات الكريمة بالقول الفصل في بيان العذر الصحيح والعذر الباطل.

ومضمون هذه الآيات أن الأعذار التي تقبل ويرفع الحرج بسببها عمن قعد عن الجهاد، إما أن تكون أعذاراً لازمة للشخص،

كالعيوب القائمة بذاته التي لا ينفك عنها ولا تنفك عنه، وذلك مثل العَمَى والعَرَج ونحوهما، وإما أن تكون أعذاراً عارضة للشخص، وهذا النوع الثاني من الأعذار يندرج تحته المرض الذي لا يتمكن معه صاحبه من الجهاد، والفقر الذي لا يتمكن معه صاحبه من إعداد الزاد والعتاد، وذلك ما ينص عليه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إذا لم يقوموا في حال تخلفهم عن الجهاد بتثبيط ولا إرجاف، وكانوا عوناً للمجاهدين من ورائهم، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لا سبيل إلى عقوبة هؤلاء المعتذرين، بعدما تيقن الرسول ﷺ من صدق عذرهم، وعرف حقيقة أمرهم، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذا عموم ممهد في الشريعة، وهو أصل في رفع العقاب والعتاب عن كل محسن».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً اَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي لا حرج على الفقراء الذين عرضوا أنفسهم على رسول الله للجهاد، ثم رجعوا وهم يبكون حزناً وأسفاً، لعجزهم عن تجهيز أنفسهم أولاً، ولضيق وسائل التجهيز عند رسول الله ثانياً، ولِمَا فاتهم من الالتحاق بصفوف المجاهدين ونَيْل شرف الجهاد في سبيل الله وحسن ثوابه ثالثاً.

وفي مثل هؤلاء الذين منعتهم أعذار حقيقية لا منتحلة عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ورد حديث أنس في

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال وهو في غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتم سيراً، إلّا وهم معكم» قالوا: «وهم بالمدينة؟» قال: «نعم، حَبَسهم العُذر»، ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.



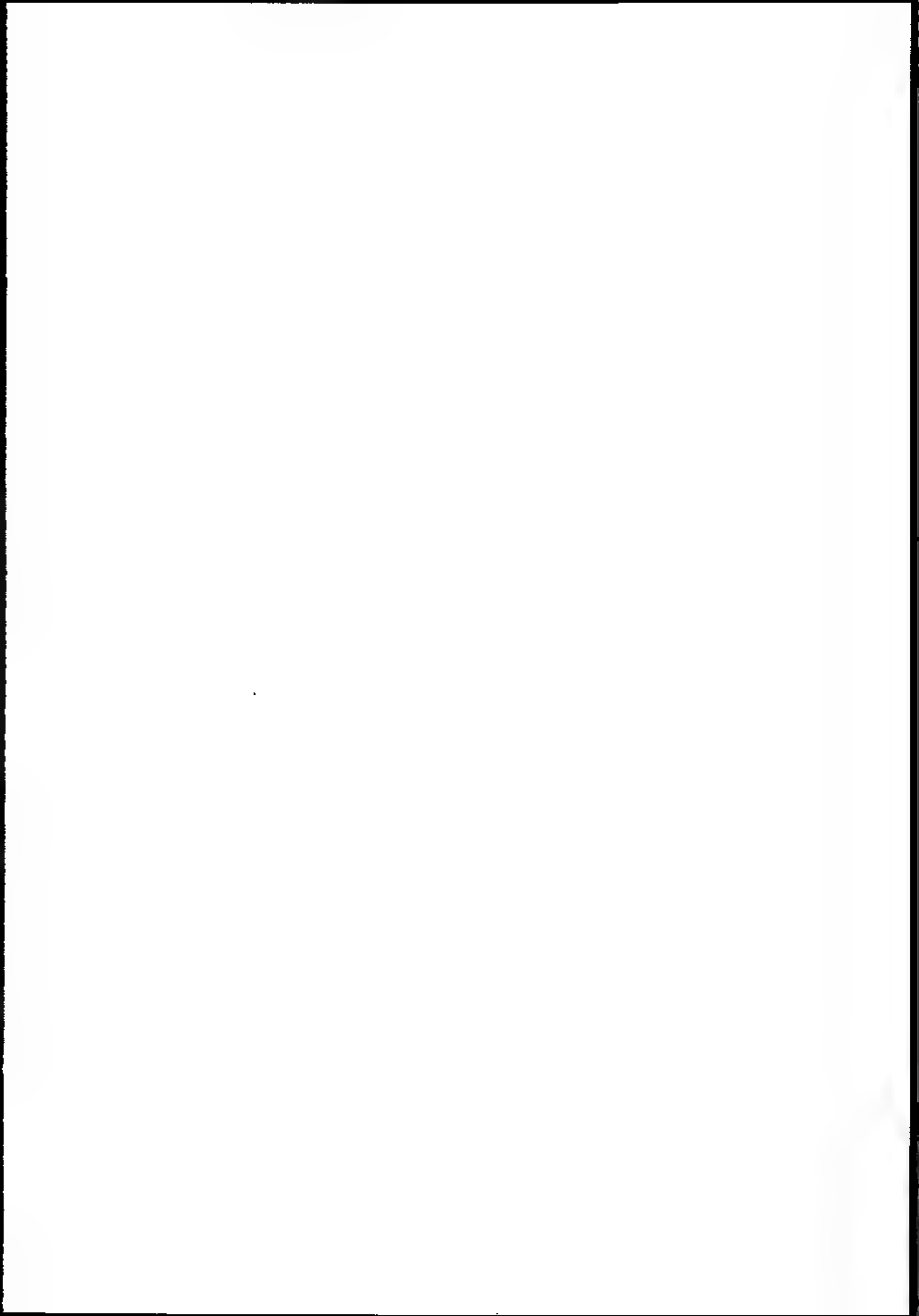
دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ـــ الحمراء ـــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـــ ص.ب. 113-5787 بيروت ـــ لبنان

رقم الإيداع القانوني
١٩٨٣ - ٤٢٧
الرباط

الرقــم 85/4/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ـــ بيروت





التيسير
في
أحاديث التفسير



التَّيْسِيرُ فِي أَحَادِيثِ التَّفْسِيرِ

مِن إملاء
سماحة الشيخ محمّد المكّي النّاصري

الجزء الثالث



الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن
يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ
فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟
عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ
أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ

مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُۥ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
اِ۬للَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾
اَلذِينَ اَتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ اَلْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ
إِنَ اَرَدْنَا إِلَّا اَلْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ۚ لَّمَسْجِدٌ اُسِّسَ عَلَى اَلتَّقْوَىٰ مِنَ اَوَّلِ يَوْمٍ
اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَاللَّهُ
يُحِبُّ اُ۬لْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنُ اُسِّسَ بُنْيَٰنُهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ
اَللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ اَم مَّنُ اُسِّسَ بُنْيَٰنُهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ
هَارٍ فَانْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِے اِ۬لْقَوْمَ
اَلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ اُ۬لذِے بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمُۥٓ
إِلَّآ أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الواحـد والعشرين في المصحف الكـريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَسْتَـئْذِنُونَكَ وَهُمُ أَغْنِيَآءُ، رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ الذِي بَنَواْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمُ إِلَّا أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

في نهاية الربع الماضي تحدث كتاب الله عن الأعذار التي يسمح الإسلام من أجلها بالتخلُّف عن الجهاد، لأنه ينظر إليها بعين الاعتبار، وفي بداية هذا الربع الذي هو حصة اليوم تسلِّط الآيات الكريمة أضواءها على المعتذرين بأعذار واهية، حرصاً على السلامة والعافية، ومن بينهم طـائفة من أغنيـاء المنافقين فضّلت القعود والركـود على الجهاد والجـلاد، تأميناً لمتعتها، وضماناً لراحتها، وبخلاً بالتنازل ولو موقـتاً عن مألوفاتها.

ولتعتمد هذه الطائفة المنحلّة على مبـرر لعملها حتى لا يستنكره الناس، حاولت أن تحصل من رسول الله في شأن قعودها

المريب على إذن خاص، ورضيت في سبيل إرضاء شهواتها بالتنازل عن خصال الرجال الأقوياء، وبالبقاء قعيدة البيت بجانب العجزة من الأطفال والعواجز من النساء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ أي إنما الحرج والإثم على الذين لم يبادروا للخروج معك إلى غزوة تبوك لغزو الروم، كما بادر إلى ذلك المخلصون، أغنياء وغير أغنياء، بل توقفوا وتثاقلوا وجعلوا يطلبون منك الإذن لهم في التخلف، بالرغم من أن عندهم جميع الوسائل التي تمكّنهم من المساهمة في الجهاد مساهمة فعّالة، لكنهم لم يجاهدوا بأنفسهم، ولم يساعدوا غيرهم من الفقراء على تكاليف الجهاد بأموالهم: ﴿ رَضُواْ بِأَنْ يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع العواجز، بعيدين عن جبهة القتال ومتاعبه، آمنين على أنفسهم من مفاجآت الجهاد. ولا ينبغي أن يفهم من هذا السياق أن النساء المسلمات جميعاً كنّ محرومات من شرف الجهاد والوقوف بجانب المجاهدين، بل إنهن على العكس من ذلك، فقد كان القادرات منهن على التطوع يتطوعن بالجهاد، وإن لم يُفرض عليهن، ويشاركن فيه مشاركة فعالة إلى جانب الرجال، وكان نصيبهن من الغنائم يقدَّم لهن في صورة هدايا وعطايا تعطى لهن تشجيعاً على التطوع للجهاد، وتقديراً لتضحياتهن في سبيل إعلاء كلمة الله.

ثم بيَّن كتاب الله السر في موقف هذا النوع من الأغنياء: الأغنياء مادة، والفقراء روحاً، فقال تعالى: ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. ففي هذه الآية تنبيه إلى أن قلوبهم قد

ماتت، ولم تعد تنبض بأي احساس كريم أو شعور نبيل، فكيف يهبُّون لنصرة المثل الأعلى الذي يمثله الإسلام، وقد (طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ).

وفي نفس الآية تنبيه إلى أن عقولهم قد أناخ عليها كابوس الجهل، وعشَّش فيها بوم الوهم، فكيف يقدِّرون الرسالة السامية التي جاء بها الإسلام، وكيف يقدمون أنفسهم وأموالهم قرباناً لها وفداءً في سبيلها (وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

وقبل أن يعود كتاب الله إلى الحديث عما ينتظر أن يفعله أولئك الأغنياء المتخلفون، عندما يعود رسول الله سالماً من غزوة تبوك، ويعود معه المومنون أخبر الله رسوله بذلك، فقال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾. فقد كانوا يظنون بالله ورسوله الظنون، وكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن غزوة تبوك مغامرة كبرى مآلها المحقق في نظرهم القاصر أن ينتصر الروم وينهزم المسلمون، وإذ ذاك يستريحون منهم، ويستأنفون حياة الشرك والنفاق، لكن الله سلم، وألقى الرعب في صفوف العدو، فانسحب إلى حصونه الخلفية، وتفادى كل اشتباك مع القوات الإسلامية، رغماً عن مرابطتها في «تبوك» على أهبة الاستعداد حوالي شهر كامل، وبذلك انقلب الوضع رأساً على عقب، وأصبح المتخلفون عن الجهاد الظانون بالله الظنون في مركز حرج، وتيقَّن الجميع أن رسول الله ﷺ عائد على رأس جيش الإسلام المظفر إلى قاعدته الرئيسية بالمدينة المنورة، وإلى أنه سيحاسب المقصِّرين على تقصيرهم.

ومن هنا أخذوا يعدُّون العدة لانتحال الأعذار، ولتقديم الإعتذار عن تخلفهم وقعودهم، فقد رد الله كيدهم في نحرهم، وعاملهم بنقيض قصدهم: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ لكن الحق سبحانه وتعالى لقَّن رسوله والمومنين أحسن جواب يردون به على هذا الصنف من المتخاذلين المخذولين، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّومِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدق اعتذاركم، فلم يبقَ مجال للاعتذار، بعد هتك الأستار.

ثم عقَّب كتاب الله على هذا الجواب المفحم والرد القاطع، فمضى يهدد المنافقين بمزيد الكشف عن نفاقهم، وتوجيه الأنظار إلى فضائحهم، قائلاً: ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنَ اَخْبارِكُمْ ﴾ فعن طريق الوحي اطلعنا على سرائركم وأسراركم، ومَنْ كشَف الله له السر بنور وحيه كيف يستره عنه الناس، بل كيف يقع ضحية التدليس والالتباس.

وخاطب الله المنافقين خطاب ترهيب فقال: ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ فمهما كتمتم وسترتم، ومهما تآمرتم وأخفيتم، ومهما تقلبتم في البلاد، فإن الله ورسوله لكم بالمرصاد. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فيطَّلع على نواياكم وطواياكم بواسطة مشعل الوحي الذي ينير له الطريق، ويعرِّفه بعناصر التخذيل والتعويق، وبذلك يرى عملكم ويعرف مرماه ومغزاه. وأما الحق سبحانه وتعالى فلا يغيب عن علمه من أمركم شيء، كبيراً كان ذلك الأمر أو صغيراً، جليلاً أو حقيراً، بل هو يراكم على حقيقتكم، منافقين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، لا عقيدة

عندكم صحيحة، ولا نيَّة لكم صالحة.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. هذا وعيد جديد من الله تعالى للمنافقين بأنهم مهما كادوا ومكروا، ودبَّروا من السوء ما دبروا، فإن مصيرهم في النهاية إلى الله الذي يعلم سرَّهم ونجواهم، وإذ ذاك سيتولى حسابهم على النقير والقطمير، وجزاءهم على الصغير والكبير، وينظر إلى معنى هذه الآية الكريمة قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ، فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

وقوله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ توكيد وتجديد لما سبق أن وصف به كتاب الله من قبل طائفة المنافقين، فهم يكثرون من الحَلِفِ باستمرار، ويلجأون إليه دون انقطاع، لتوكيد ادعاءاتهم، وإعطائها صبغة الصدق والحق، كلما أعوزهم الدليل والبرهان، وخانهم المنطق والبيان. ومن الآيات التي سبق فيها وصف المنافقين بالإكثار من الحلف الكاذب أو اليمين الغموس قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰناً وَتَوْفِيقاً ﴾، وقوله تعالى سابقاً في هذه السورة ـ سورة التوبة ـ ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾، ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾، ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾، ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ، وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾، وقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿ مَّا هُم

مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بهذا الوصف، الملازم للمنافقين، الأولين منهم والآخرين.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ معناه أن أغنياء المنافقين إنما يرمون من وراء حَلِفهم هذه المرة إلى التخلص من تأنيب المومنين ولومهم، فهم يخافون المَعَرَّة والتجريح لا غير، وهم يحاولون أن يخلعوا على عذرهم الباطل صبغة العذر الصحيح.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله والمومنين: ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ، جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ والأمر بالإعراض عن المنافقين هنا يقتضي مقاطعتهم واحتقارهم واعتبارهم منبوذين خارج الجماعة الإسلامية. ولخبث طويتهم، وفساد عقيدتهم، وصفهم كتاب الله بأنهم «رجس» أي قذَر وخبَث، كما وصف المشركين من قبل في هذه السورة نفسها بأنهم نَجَس: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى تحليل دافع آخر من الدوافع التي حملتهم على استعمال سلاح الحلِف الباطل، فبيَّن أنهم يحاولون بذلك كسب رضا المومنين والحصول على ثقتهم من جديد، إلاّ أن الحق سبحانه وتعالى حذّر المومنين من أن يقعوا في هذا الفخ، وذكّرهم بأن الله لا يرضى عن المنافقين أبداً،

وإذن فلا يسوغ للمومنين أن يرضَوْا عنهم بحال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَواْ عَنْهُمْ، فَإِن تَرْضَواْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَسِقِينَ ﴾. والفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، من «الفسق» وهو لغة الخروج، ومنه سُمِّيت الفأرة «فُوَيْسِقة» لأنها تخرج من جحرها للإفساد، ويقال: فَسَقت الرُّطَبَة إذا خرجت من أكمامها.

وتولى كتاب الله الحديث عما كان عليه الأعراب في فجر الإسلام قبل أن يستفحل أمره وتعم دعوته؛ والمراد «بالأعراب» سكان البادية الملازمون لسكناها، فلمَّح كتاب الله إلى أن هذا الصنف من الناس بحكم اشتغالهم بمعايشهم، وانهماكهم في تربية إبلهم ومواشيهم، وتغيّب كثير منهم عن كثير من المناسبات السعيدة التي كان يشهدها غيرهم من المسلمين المخالطين للرسول، والملازمين لمجلسه، والمترددين عليه لتلقّي الوحي وتعلُّم الدين، ظلوا بعيدين عن التأثير اليومي المباشر للوحي والرسالة، ولم يتيحوا لأنفسهم الفرص الكافية لتتبع الدعوة الإسلامية في مختلف مراحلها، والتشبع بتعاليمها ومبادئها، وبقي من أجل ذلك قسم كبير منهم عرضة لدعاية المشركين، ووساوس المنافقين، وذلك هو المعنى المراد بقوله تعالى في بداية هذا الموضوع: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ أي لأنهم لم يكونوا يخالطونه ويلازمونه كغيرهم من المومنين ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. قال ابن قتيبة: «الأعرابيّ لَزِيم البادية، والعربيُّ منسوب إلى العرب».

وقال القاضي عبد الجبار: «يحتمل أن يراد (بالأعراب) من امتنع عن المهاجرة، فقد كان يقال: مهاجر وأعرابي».

ثم شرع كتاب الله يفصّل أحوال أولئك الأعراب من سكان البادية والملازمين لها غالباً، فصنّفهم صنفين: الصنف الأول منهم من خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فكانوا داخلين في عداد المومنين، عقيدة ونيّة، قولاً وعملاً، وفي هذا الصنف المومن الواعي ورد قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي يبتغون من نفقاتهم التقرب إلى الله تعالى والحصول على رضا رسوله ودعائه الصالح، وعقّب كتاب الله على وصفهم ووصف عملهم، مبشراً إياهم بحسن العاقبة وجزيل الثواب، فقال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

والصنف الثاني من الأعراب من كان داخلاً إذ ذاك في عداد المنافقين محسوباً منهم، يُقوّي سواد المنافقين المندسين بين المسلمين في نفس مدينة الرسول، ويتعاون معهم ضد الدعوة الإسلامية. وفي هذا الصنف المنافق الجاهل ورد قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ، وَمِنَ اَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أي منهم من صار لهم النفاق طبعاً وعادة حتى جاوزوا الحدود ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ، سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾. كما ورد في وصفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾ أي يعتبر ما

ينفقه في سبيل الله غرامة وخسارة، لا قربة إلى الله وزلفى ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ ﴾ أي ينتظر حلول الآفات بساحتكم ونزول المصائب عليكم ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ﴾ هذا دعاء عليهم بالسوء والشر، جزاء وفاقاً ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «ذم الله تعالى المنافقين والمقصرين في(هذه السورة) في آيات جملة، ثم طبقهم طبقات عموماً وخصوصاً، فقال: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ﴾ [الآية: ٩٧]. وقال: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾ [الآية: ٩٨]. وقال: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَتٍ ﴾ [الآية: ٩٩]، وهذا مدح يتميز به الفاضل من الناقص، والمحق من المبطل».

وأخيراً عاد كتاب الله إلى الحديث عن المتخلفين الذين تخلَّفوا عن الجهاد والخروج مع رسول الله إلى غزوة تبوك، فبيَّن أن من بين المتخلفين صنفاً لم يتخلف عن نفاق، وإنما تخلَّف عن ميل إلى الكسل، وإيثار للراحة، وحرص على الظلال والثمار، إذ كانت غزوة تبوك في فصل حر وموسم غلَّة.

وهذا الصنف ينقسم بدوره إلى قسمين: قسم اعترف بذنبه، وقسم لم يعترف بذنبه. فالقسم الأول من هذا الصنف تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَلِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. والقسم الثاني من هذا الصنف تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي مؤخرون ليوم الحساب،

متروكون لحكم الله فيهم ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

ورغماً عن كون هاتين الآيتين وردتا في الأصل على هذا السبب الخاص وفي أناس معينين، فإن معناهما يعم كافة المذنبين من غير المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ ﴾ يتوجه الخطاب فيه إلى هذا الصنف الخاص من المتخلفين غير المنافقين، الذين تخلفوا كسلًا لا نفاقاً، وهذا أمر يقتضي ترغيبهم في استيناف العمل الصالح والمواظبة عليه، وفيه تذكير لهم بأن الله من ورائهم محيط، وبأن رسوله سيراقب سلوكهم باستمرار، وبأن فراسة المومنين ستلاحقهم في كل مكان، فما أطلعهم الله عليه من خير أحبوه، أو شر أبغضوه، إذ الأعمال نفسها ليست إلا علامات تكشف عن حقيقة النيَّات، وأمارات تدل على صميم المعتقدات «ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر» كما جاء في الأثر.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمَّاء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله إلى الناس كائناً ما كان». وروى ابن القاسم عن الإمام مالك أنه كان يقال: «ابن آدم اعمل، وأغلق عليك سبعين باباً يخرج الله عملك إلى الناس»، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

إِنَّ

ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ
لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤ وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم
مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١٥ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١١٦ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ
عَلَى النَّبِيٓءِ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالَانصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمُۥٓ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧
وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
الَارْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُۥٓ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ
أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١١٨ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ
اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّٰدِقِينَ ۝١١٩ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ
وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الَاعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللَّهِ
وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ

ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

بعدما وجّه كتاب الله في هذه السورة ـ سورة التوبة ـ الخطاب تلو الخطاب إلى المومنين الصادقين يستنفرهم خفافاً وثقالاً للقيام بواجب الجهاد في سبيل الله، إعلاءً لكلمة الله، ونشراً لدينه بين الناس، حتى يدخلوا في دين الله أفواجاً، حَمَلت أولُ آية في هذا الربع أعظم بشرى إلى المومنين، بشرى إلى من جاهد في سبيل الله، ثم قضى نحبه فداءً للإسلام، وبشرى إلى من جاهد في سبيل الله ولا يزال ينتظر لقاء الله في مستقبل الأيام، وهذه بشرى تقتضي أن الله تعالى ـ تفضلاً منه وكرماً ـ قد عامل المومنين معاملة خاصة لا تخطر على قلب بشر، فيها غُنْم كبير، وربح عظيم، لا يعدلهما غنم ولا ربح.

وتتلخص هذه المعاملة الرابحة في بيع المومن نفسه وماله لربه، مقابل عوض يتناسب مع كرم الله وسعة غناه، عوض لا يقدَّر بثمن، ولا يُحَدُّ بزمن، يناله المومن من ربه، ألا وهو دخول الجنة والخلود في دار النعيم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرِيٰةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ، وَمَنَ اَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾. فهذه الآية الكريمة تتحدث عن اشتراء الله من عباده المومنين أنفسهم وأموالهم، وكأنهم مالكون حقيقيون لتلك الأنفس وتلك الأموال، وكأن أنفسهم وأموالهم ملك خالص لهم، وكأنه لا دخل لله لا في خلقهم ولا في رزقهم، بينما الحقيقة والواقع أن أنفُس المومنين وأموالهم كغيرها من الأنفس والأموال إنما هي مجرد عطاء من الله، ومحض هبة منه لعباده، إذ لو شاء الله لأبقاهم في حيِّز العدم ولم يخرجهم إلى حيِّز الوجود، ولو شاء الله لأوجدهم ثم حرمهم من الرزق، وجعلهم عالة يتكففون الناس، فهو سبحانه المنعم عليهم بنعمة الإيجاد أولاً، وبنعمة الإمداد ثانياً، ومع ذلك ها هو الحق سبحانه وتعالى يتكرم عليهم كرماً لا كرم فوقه، فيعاملهم أكرم معاملة، ويعاوضهم على ما أنعم به عليهم في الدنيا بنعمة أجلّ وأعظم، وأخلد وأبقى في الدار الآخرة، وذلك هو منتهى الكرم وغاية الاحسان، الذي يعجز عن تصوره الإنسان.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما قرأ هذه الآية قال

معجباً بكرم الله : «ثَامَنَهُم ـ واللَّهِ ـ وأغلى الثَمَن» يريد أن الله تعالى أعطاهم أكثر مما يستحقون، وأن الربح لم يأتِ على مقدار الشراء، بل زاد عليه وأربى.

ومثل هذا القول يُروى عن قتادة والحسن البصري، وقال شِمْر بن عَطِية : «ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وَفَّى بها أو مات عليها» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ معناه أن الله تعالى تعهد لهم بالجنة، سواء قَتَلُوا وعادوا بالأجر والغنيمة، أو قُتِلُوا وفازوا بالأجر والشهادة، أو اجتمع لهم هذا وهذا فنالوا الحسنيين ما دام ذلك كله في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله.

وفيه أيضاً إشارة إلى أن المومن الذي يُقدِّم نفسه وماله للجهاد في سبيل الله يكون معنوياً ومادياً على كامل الاستعداد للتضحية والفداء، بحيث يجود بنفسه دون أدنى تحفظ ولا حساب، كيفما كانت النتيجة المرتقبة، وهذه الروح الفدائية العليا هي التي نوَّه بها كتاب الله ومدحها هنا إذ قال: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾.

ومن أجل هذا المعنى وُصِف المومنُ المقتول في الجهاد في سبيل الله بأنه (شهيد)،لأن إقدامه على الجود بنفسه في سبيل الله هو أقوى دليل يدل على قوة إيمانه، وصدق يقينه، وأكبر شهادة تشهد له على اعتزازه بدينه، وحماسه لملَّته، ووفائه لربه

بالبيعة التي في عنقه. أضف إلى ذلك أن الله وملائكته والمومنين يشهدون له بالجنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرِيٰةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ ﴾ تأكيد لهذا الوعد الإلٓهي الناجز، وإشارة إلى أنه وعد قديم كتبه الحق سبحانه وتعالى على نفسه تفضلاً وكرماً، وكلَّف النبيئين والمرسلين بتبليغ بشراه إلى كافة المومنين. والتنصيص على التوراة والانجيل والقرآن في هذا السياق إنما هو تخصيص بالذكر لأشهر الكتب المنزلة التي تضمنت هذا الوعد الإلٓهي الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ خطاب من الله تعالى لمن بذلوا النفس والنفيس في سبيله، واعتبروا إعلاء كلمته في الأرض هو أعلى مَثَل يكرسون له جهودهم، ويصرفون فيه حياتهم، وفحوى هذا الخطاب تبشيرهم من جانب الحق سبحانه وتعالى بتصديقه التام على معاملتهم معه، ورضاه عنها وعنهم كامل الرضا، وتهنئتهم بما نالوه من الكسب الذي لا كسب فوقه، والربح الذي لا ربح بعده ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ومن هذا السياق انتقل كتاب الله إلى وصف المومنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، والذين أعدَّتهم الأقدار ليكونوا جند الله وحزبه في كل جيل، فقال تعالى في وصفهم تمييزاً لهم عن غيرهم: ﴿ التَّٰئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰئِحُونَ الرَّٰكِعُونَ

السَّٰجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾.

فوصف (التائبين) يقتضي أنهم متمسكون بطاعة الله لا يقربون معصيته، وأنهم إذا فَرَط منهم ذنب عن غفلة وجهالة ذَكَروا الله في الحين فاستغفروا لذنوبهم.

ووصف (العابدين) يقتضي أنهم قائمون بعبادة الله محافظون عليها قولاً وفعلاً، وأنهم لا يقصدون من ورائها إلا وجه الله وابتغاء مرضاته.

ووصف (الحامدين) يقتضي أنهم يَصرِفون نعمة الله التي ينعم بها عليهم في طاعته، وأنهم لا يسخَطون أبداً ولا يتبرّمون بقضائه كيفما كان.

ووصف (السائحين) يقتضي أنهم محافظون على فريضة الصيام، لا يهملون القيام بها، وإن تغيرت الفصول والأعوام. رُوي عن ابن عباس أنه قال: «كلما ذكر الله السياحة في القرآن فالمراد بها الصوم والصائمون». وقالت عائشة: «سياحة هذه الأمة الصيام». وقال الحسن البصري: «السائحون هم الصائمون شهر رمضان». وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿ سَٰئِحَٰتٍ ﴾ أي صائمات في قوله تعالى في سورة التحريم المدنية أيضاً: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰئِحَٰتٍ ﴾ [الآية: ٥].

قال الحافظ ابن كثير: «وليس المراد من السياحة ما قد

يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرُّدِ في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا العمل ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خيرَ مال الرجل غنمٌ يتبع بها شَعَف الجبال ـ أي أعاليها وقممها ـ ومواقع القَطر، يفِرُّ بدينه من الفتن».

وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «والسائحون هم الصائمون في هذه الملَّة، حتى فسد الزمان، فصارت السياحة هي الخروج من الأرض عن الخلق، لعموم الفساد، وغلبة الحرام، وظهور المنكر، ولو وسعتني الأرض لخرجت فيها، لكن الفساد قد غلب عليها، ففي كل وادٍ بنو نحس» هكذا يقول ابن العربي بالحرف الواحد.

ووصف (الراكعين الساجدين) يقتضي أنهم يقيمون الصلاة ويحافظون عليها دون أي كسل أو تهاون أو إهمال.

ووصف (الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر) يقتضي أنهم هداة مرشدون، يجهرون بالحق ولا يخافون لومة لائم، ويقفون في وجه العصاة والفاسقين، حماية للأُمَّة والملَّة من انتشار المعاصي والفواحش، وحذراً مما يتبعها من غضب الله على العباد والبلاد.

ووصف (الحافظين لحدود الله) يقتضي أنهم كما قاموا بعبادة الحق، ولم يهملوا نصيحة الخلق، امتثلوا الأوامر واجتنبوا

النواهي، ولم يتعدوا حدود الله، فأدّوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق الإنسان، ولم يخلُّوا بشيء منها، وهذا الوصف العام الجامع المانع هو وسام الشرف وخاتمة البيان.

وبعد ما عدد كتاب الله الأوصاف الرئيسية والمميزة للمومنين في أجمل صورهم، وأكمل أحوالهم، عقب على ذلك بتجديد البشرى لهم مرة أخرى، هبة من الله وإكراماً، فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ ﴾ ويا سعْدَ من حلّت بساحته البشرى من الله، وأحلَّ عليه رضوان الله. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وقوله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ ﴾ أي بشِّرهم بثوابي إذا كانوا على هذه الصفة... فأما نفسٌ لا تكون هكذا ولا تتحَلَّى بهذه الحُلَى، فلا يُبذَل فيها فَلْس، فكيف الجنة؟».

وفي هذا الربع نفسه تولى كتاب الله الحديث عن قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، وعن توبتهم التي سارت بذكرها الركبان، وسجَّلها الوحي بأحرف من نور في سور القرآن، حتى سميت بها هذه السورة الكريمة (سورة التوبة).

وإلى هذه القصة يشير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَـٰثَةِ الذِينَ خُلِّفُواْ، حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

وخلاصة هذه القصة أن رسول الله ﷺ ذهب إلى غزوة تبوك حين طابت الثمار، وَبَردت الظلال، وخرج في حر شديد، وهي

«العُسْرَة» التي افتضح فيها الناس، وكان ممن تخلف عنه ثلاثة: كعب بن مالك، ومُرارة بن الرَّبيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فلما قفل رسول الله من غزوة تبوك دخل إلى المسجد، فجاء من تخلف عنه يعتذرون إليه وهم ثمانون رجلاً، فقبل النبي ظاهر حالهم ووكل سرائرهم إلى الله، إلا هؤلاء الثلاثة فإنهم لم يعتذروا، وصدقوا رسول الله ﷺ حقيقة أمرهم، وكان مما قاله له أحدهم، وهو كعب بن مالك: «يا رسول الله لو جلست عند غيرك لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عني ليُوشكَنَّ اللّهُ أن يُسخِطك عليَّ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عُقْبَى ذلك من الله عز وجل، والله يا رسول الله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك». فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». قال كعب بن مالك وهو يروي تمام القصة كما وردت في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنَّة: «فنهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشدَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أشهدُ الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلِّمُني منهم أحد، وآتي رسولَ الله وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأسلِّم عليه وأقول في نفسي: أَحَرَّكَ رسول الله شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارِقُه النظر، فإذا أقبلت

على صلاتي (وهو جالس) نظر إليَّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ هَجرُ المسلمين.. ومضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسولِ رسولِ الله يأتيني يقول: «يأمرك رسول الله أن تعتزل امرأتك» فقلت له: «أُطلِّقُها أم ماذا أفعل؟» فقال: «بل اعتزلها ولا تقربها». وأرسل رسول الله إلى صاحبيَّ بمثل ذلك... فلبثنا على هذا الحال عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نَهَى عن كلامنا، ثم صلَّيت صلاة الصبح صباح الخمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى (في هذه الآية) قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: «أبشرْ يا كعب بن مالك، أبشر» فخررت ساجداً لله، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأعلن رسول الله ﷺ توبة الله علينا، وأعلم بها المسلمين حين صلَّى الفجر، فأقبل الناس يبشروننا، ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبَيَّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤمُّ رسول الله -أي أقصده- وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤنني بتوبة الله، يقولون: ليَهْنكِ توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس في المسجد والناس حوله، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، واللَّهِ ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره -وكان كعب لا ينساها لطلحة- فلما سلَّمت على رسول الله قال وهو يبرُق وجهُه من السرور: «أبشر يَا كَعب بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتْك أمُّك». فقلت: أمِن عندك

يَا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قِطعة قَمَر، حتى يُعرَف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: «إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله». فقال عليه السلام: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». فقلت يا رسول الله: «إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت، والله ما تعمدت كَذبة منذ قلت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي».

فهذه هي قصة «الثلاثة الذين خُلِّفوا» كما حكاها كعب بن مالك أحد الثلاثة، ورواها البخاري ومسلم في الصحيحين وغيرهما من أئمة الحديث، وهي أحسن تفسير لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ أي خلفوا عن بقية المعتذرين الذين حلفوا واعتذروا، لأن هؤلاء الثلاثة فضلوا الصدق على الحلف، فلم يحلفوا ولم يعتذروا وصدّقوا الله ورسوله، وقضوا خمسين ليلة مهجورين من الرسول والمومنين وهم صابرون ينتظرون فرج الله، وعفوه عنهم، وقبول توبتهم، إلى أن نزل بقبول توبتهم الوحيُ من عند الله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي مع سعتها ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾. قال القاضي أبوبكر (ابن العربي): «وفيه دليل على أنَّ للإمام أن يعاقب

المذنب بتحريم كلامه على الناس أدباً له».

وتنويهاً بصدق الثلاثة الذين خلفوا، والتزامهم للصدق دون انحراف ولا تراجع ختم كتاب الله الحديث عن قصتهم بقوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا

خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا
غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم
بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾
دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ
وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة التوبة المدنية: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة يونس المكية: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ، تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ فِي جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ، دَعْوَيٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ، وَءَاخِرُ دَعْوَيٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

في هذا الربع تنتهي سورة التوبة المدنية، وتبتدىء سورة يونس المكية، والجزء الأخير من سورة التوبة يخص بالذكر موضوع الجهاد في سبيل الله مرة أخرى، ويتعرض بالتدقيق والتفصيل لوصف الحالة التي يكون عليها المنافقون من الانفعال والقلق والاضطراب، كلما نزلت أمامهم سورة من سور القرآن، ويلقي بالخصوص الأضواء على (الخُلُق العظيم) الذي كان عليه الرسول الكريم، مما أعطاه مكانة خاصة بين الأنبياء والرسل

ـ فضلاً عمن دونهم ـ وجعله أهلاً لكل إجلال وتكريم.

أما الجزء الأول من سورة يونس فهو يتضمن تنويهاً بآيات الذكر الحكيم، وتنبيهاً إلى أن إرسال الرسل إلى الناس من نفس البشر، لا من بين الملائكة، أمر لا غرابة فيه، بل هو الأمر المعقول والمنتظر، كما يتضمن تبشيراً للمومنين بمكانتهم الخاصة عند الله، وتفصيلاً لنشأة الكون الواسع، وما يتعاقب عليه من مظاهر وأطوار، وتوجيهاً إلى التدبر في آيات الله، ومن بينها تعاقب الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار، ووصفاً لما ينتهي إليه من يرجو لقاء الله من حسن المآب، وما ينتهي إليه من لا يرجو ذلك اللقاء ولا يحسب له أي حساب.

ولنقف الآن وقفة قصيرة عند بعض الآيات الواردة في هذا الربع بقدر ما يسمح به الوقت المخصص لهذه الحصة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً، وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذه الآية سبقتها آية أخرى في نفس الموضوع، وفي نفس هذه السورة سورة التوبة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾.

غير أنه يوجد بين هاتين الآيتين فرق فهم، ذلك أن الآية السابقة أمرت بجهاد الكفار عموماً القريب منهم والبعيد، بينما الآية الواردة في هذا الربع ترشد المومنين إلى نوع خاص من الكفار الذين يجب البدء بقتالهم بالخصوص، وهؤلاء الكفار الذين

تتوجه إليهم الأنظار هم الذين توجد مراكز نفوذهم السياسي وقواعدهم العسكرية قريبة كل القرب من عاصمة الإسلام وقاعدته الأولى (المدينة المنورة)، ممن يتربصون بالإسلام الدوائر، إذ في وجودهم بالقرب من عاصمة الإسلام خطر مباشر لا يمكن تجاهله بحال، وفيه نوع من الحصار المضروب على الإسلام، حتى لا يتسرب إلى خارج الجزيرة العربية، وينتشر فيما وراءها. وبما أن رسالة الإسلام رسالة عامة إلى كافة البشر، كان من أوجب الواجبات عليه أن يهدم السدود، ويخترق الحدود، ليشق طريقه إلى الشعوب والأمم، آمناً من الفتنة والاضطهاد، داعياً إلى إقامة دعائم الصلاح والرشاد، عاملاً على دكّ حصون الظلم والفساد، وذلك ما دشّنه رسول الله ﷺ بنفسه في غزوة تبوك آخر حياته قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة ما خلاصته بإيجاز: «أمر الله المومنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب، إلى حوزة الإسلام. ولهذا بدأ رسول الله بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام، لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك ثم رجع سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق... فوطّد

القواعد، وثبَّت الدعائم، وردَّ شارد الدين وهو راغم... ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد... وكان تمام الأمر على يديْ وصيه من بعده وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب... أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكَفَرة الملحدين، وقَمَع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً.. ثم لما مات شهيداً، وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المومنين عثمان بن عفان... شهيد الدار، فكسى الإسلام حلَّة سابغة، وأمدَّ في سائر الأقاليم حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها... وبلغت الملَّة الحنيفية مَن أعداء الله غاية مآربها، وكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى مَن بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجّار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾».

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أمر للمومنين الذين يشتبكون مع أعدائهم بأن يواجهوا المعركة بما يلزم لها من قوة القلب، وضبط النفس، وتقدير المصلحة العليا، وأن يقوموا بواجب الجهاد كاملاً غير منقوص، حتى يُمكِّنوا بجهادهم للإسلام، ويفرضوا هيبته على الأنام، ويرفعوا عنه الحصار المضروب من حوله، ويشقُّوا له طريق العيش في سلام. وبنفس المعنى سبق قوله تعالى في هذه السورة وكما سيأتي في سورة التحريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّـارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ

عَلَيْهِمْ ﴾[التوبة: ٧٣ ـ التحريم: ٩].

وكلمة (الغلظة) إذن لا تعني القسوة، ومجاوزة الحدود، بقدر ما تعني الشجاعة في القتال، وضبط الأعصاب عند مواجهة العدو، فالجهاد الإسلامي كان ولا يزال هو المثل الأعلى للحرب الإنسانية في أهدافها، والأخلاقية في تصرفاتها، فلا تمثيل بالقتلى، ولا قتل للجرحى، ولا تعذيب للأسرى، ولا تحريق للزرع، ولا تضييع للضَّرْع، ولا اعتداء على الأطفال والنساء والعَجَزة، ولا إهانة للرهبان في دياراتهم وصوامعهم، ولا حرب مع البعيد عن ميدان المعركة من المدنيين، وإنما الحرب منحصرة كلها في جبهة القتال، ومع حاملي السلاح المقاتلين، وأعوانهم المساعدين، فهذا هو الجهاد الإسلامي الصحيح.

وقوله تعالى في نفس هذا السياق ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى أن جهاد المسلمين لا يؤتي ثمرته المرجوة إلا إذا كان القائمون به من الجند، والمشرفون عليه من القادة، معتصمين بتقوى الله قولاً وعملاً، سراً وجهراً. أما العصاة المذنبون فإنهم يفقدون أهم سلاح في المعركة، وهو سلاح التقوى المنبثقة من الإيمان، وما تستتبعه من رضا الله ومدده القوي ولطفه الخفي. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الأية: «فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسب ذلك، وبقدر ما فيه من وَلَاية لله».

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ انفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ امتنان من الله تعالى على عباده المومنين، وتذكير لهم بخصائص الدعوة الإسلامية التي أوحى الله بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وما جاءت به هذه الدعوة السماوية من يسر وسماحة وبُعد عن الحَرَج والعَنَت، وحرص شديد على هداية الخَلْق، والأخذ بيدهم إلى طريق الفوز والسعادة دنيا وأخرى، ونوَّه كتاب الله بما امتلأ به قلب الرسول الأعظم من العطف على أمته والاهتمام بمصيرها، وبما تحمَّلَه من المتاعب في سبيل تبليغ الرسالة إليها وخفض جناحه لها.

ثم عقَّب على ذلك بما يفيد أنه إذا ضلَّ المسلمون طريقهم، وهجروا كتابهم، وأهملوا شريعتهم، وعادوا إلى الجاهلية الأولى، مُولِّين الأدبار، فإن رسول الله ﷺ يتبرأ من أعمالهم، ويكِلُهم إلى أنفسهم، ولا يغني عنهم من الله شيئاً، وذلك قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ - أي أدبروا ورجعوا عن التمسك بالإسلام وشريعته - ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ، فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧].

وخُتمت سورة التوبة بتمجيد الله والثناء عليه والالتجاء إليه، تلقيناً لرسول الله والمومنين: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

وهنا نقف أمام سورة يونس المكيـة، وأُطلق عليها هـذا الاسم، بمناسبة ورود آية فيها عن قوم يونس إذ قـال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الـدُّنْيـا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

وسبق ذكر يونس عليه السلام في سورة النساء ﴿ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ﴾.

وفي سورة الانعام ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ومن المناسبات الطريفة الموجودة بين نهاية سورة التوبـة وبداية سورة يونس أنهما يشتركان معاً في الحـديث عن خاتم الأنبياء والمرسلين، وتوجيه الأنظار إلى الرسالة التي فضّله الله بها على العالمين.

فمن قوله تعالى في خاتمة سورة التوبة: ﴿ لَقَـدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ اَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الآية: ١٢٨]، ننتقل إلى قوله تعالى في فاتحة سورة يونس: ﴿ الر، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْحَكِيمِ ، أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً اَنَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَ اَنذِرِ النَّاسَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ

الذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾. ومضى الحديث في بقية هذا الربع يقارن بين الكافرين والمومنين، وما يكونون عليه من أحوال في الدنيا، وما ينتهون إليه من مآل في الآخرة، إلى أن جاء الوحي بتفصيل هذه البشرى التي ابتدأت بها السورة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ، تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ، دَعْوَيٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ، وَءَاخِرُ دَعْوَيٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

وَلَوْ

يُعَجِّلُ اُ۬للَّهُ لِلنَّاسِ اِ۬لشَّرَّ اَ۪سْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمُۥٓ
أَجَلُهُمْۖ فَنَذَرُ اُ۬لذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِے طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَۖ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ اَ۬لِانسَٰنَ اَ۬لضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِداً
أَوْ قَآئِماًۖ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَيٰ ضُرٍّ
مَّسَّهُۥۖ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَۖ ﴿١٢﴾ وَلَقَدَ
اَهْلَكْنَا اَ۬لْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَٰتِۖ وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْۖ كَذَٰلِكَ نَجْزِے اِ۬لْقَوْمَ اَ۬لْمُجْرِمِينَۖ ﴿١٣﴾
ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِے اِ۬لَارْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَۖ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَيٰ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ اَ۬لذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا اَ۪يتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۖ قُلْ مَا
يَكُونُ لِيَ أَنُ اُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِے نَفْسِيَۖ إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَيٰٓ

إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ
ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ
أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ
دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دارِ السَّلَـٰمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ الَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

من شأن الإنسان العادي وغير المهذب، إذا أصابه الضجر وأثاره الغضب، أن يدعو على نفسه وأهله وولده وماله بدعاء الشر، ومن شأنه أيضاً إذا هدأت أعصابه واطمأن قلبه أن يدعو لنفسه وأهله وولده بدعاء الخير، غير أن الله تعالى الذي هو مجيب الدعاء، والذي يرتبط بإرادته المطلقة مصير دعاء الداعين، إن شاء أجابه، وإن شاء لم يجبه، تكرم على خلقه، رحمة بهم، وإحساناً إليهم، في فترات ضعفهم، وهيجان غضبهم، بأن لا يجيب دعاءهم إذا كان ذلك الدعاء يتضمن شراً، وصادراً عن مجرد الغضب والضجر، لأن في إجابَـةِ هذا النوع من الدعاء هلاكاً لهم محققاً.

وهذه المنّة الربانية التي مَنَّ الله بها على عباده، بعدم إجابته دعاء الشر، هي التي تتضمنها أول آية في هذا الربع، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أي لو أن الله استجاب للناس كلما دعوا دعاء الشر لأهلكهم. قال مجاهد في تفسير هذه الآية: «دعاء الشر هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه» فلو يعجل الله لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم. قال ﷺ: «لا يدعُوَنَّ أحدُكم على نفسه، فربما صادف ساعة لا يَسأل اللَّهَ فيها أحدٌ إلا أعطاه إياها». وروى البزار في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدْعُوا على أنفسكم. لا تدْعُوا على أولادكم. لا تدْعُوا على أموالكم. لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَـٰنُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الإِنْسَـٰنُ عَجُولاً ﴾. [الاسراء: ١١].

أما دعوة المظلوم على ظالمه ولو كانت دعوة شر على الظالم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، كما جاء في الحديث الشريف.

وانتقل كتاب الله إلى وصف الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان عندما يصاب بمرض أو نكبة أو كربة، وما يبدو عليه من القلق والاضطراب، والضعف والاستكانة، والالتجاء إلى الله التجاء العاجز المضطر، حتى إذا ما استرجع صحته، وزالت عنه آثار النكبة، وانكشفت عن ساحته الكربة، نسيَ ربه نسياناً تاماً،

وعاد إلى طغيانه وإسرافه على أقوى وأشد ما يكون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَٰنَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِۦ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ أي أنه يُلحُّ في الدعاء ويكثر منه في جميع الأحوال وجميع الأوضاع التي يكون عليها جسمه، ليلاً ونهاراً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١] أي دعاء كثير لا ينتهي. ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ أي أعرض عن الله وانصرف عن بابه، وقطع التعلق بجميع أسبابه. ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

والمراد بالإسراف هنا الإسراف في ارتكاب الذنوب، والإقبالُ على المعاصي بنَهَم وشهية وضَرَاوة، حتى يصبح المذنب متبلد الاحساس، فاقداً للشعور، مطبوعاً على قلبه، مغضوباً عليه من ربه.

وفي نفس هذا الربع وصَفَ كتابُ الله صورة ثانية من صور الضعف البشري والروح الانتهازية الهزيلة عند توقع النكبة أو عند حلولها، ثم ما يتلوها بعد النجاة منها من بغي وعدوان، وإعراض وطغيان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ هُوَ الذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنَ اَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ، فَلَمَّآ أَنجَيٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾. ومثل هذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّيٰكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنسَـٰنُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهذه الصور التي وصفها كتاب الله تنطبق كل الانطباق على كثير من الناس في القديم والحديث، ولا سيما أولئك المذبذبين الذين لا إيمان لهم، ولا صبر عندهم، من ضعفاء النفوس الغافلين، والحيارى التائهين.

أما الذين رزقهم الله الإيمان والصبر فَصِلَتُهم بالله قائمة على الدوام، لا فرق عندهم بين السرّاء والضرّاء، والشدة والرخاء، وقد عبّر عن حالتهم أصدق تعبير نصُّ الحديث النبوي الشريف المَرويّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَجَباً للمومن، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرّاء فصبر، كان خيراً له، وإن أصابته سرّاء فشكر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمومن».

ومن أهم ما تناوله هذا الربع موضوع القرآن الكريم، وما أثاره المشركون حوله من شبهات باطلة، وقاموا به من تحديات شاملة، مما تصدى له كتاب الله بالرد والإبطال، ولم يبقَ بعده لقائل أيّ مقال، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنُ ابَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيَ، إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرِيكُم بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ، أَفَلَا

تَعْقِلُونَ، فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً اَوْ كَذَّبَ بِـٔايَـٰتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وهكـذا بينت الآيات الكـريمة أن الـذكرالحكيم والقـرآن الكريم إنما هو كتابُ الله المطابق لما في اللوح المحفوظ، منه بدأ وإليه يعود، وليس كتابَ رسوله حتى يكون للرسول فيه دخل من قريب أو بعيد، كما بينت الآيات الكريمة أن الرسول إنما يتلقى الوحي عن الله في الوقت الذي يريد الله أن يوحِيَ إليه، وأن الوحي الذي يتلقاه من عند الله لا يملك له الرسول تبديلاً ولا تغييراً، وأن دَوْر الرسول الوحيد هو أن يبلِّغه إلى الناس كما أُنزل، وأن تلاوة الرسول للقرآن على الناس إنما هي بأمر الله وتيسيره، ولـولا اصطفـاؤه للرسالـة وتيسيره لهـا لما استـطاع أن يتخطى المستوى الذي كان عليه قبلها، فقد قضى الرسول بين ظهراني قومه أربعين سنة، دون أن يَبِس من هذا النوع المعجز ببنت شفة، حتى جاءه الله بالرسـالة، وأكـرمه بـالوحي، وأنـزل عليه القرآن، وكلَّفه بالتبليغ والبيان، فكان ما كان، مما تناقلته الركبان، واستدار له الزمان، ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ، الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الانسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١، ٢، ٣، ٤، ٥]، ﴿ وَرَتِّـلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤].

وتحدث كتاب الله في هذا الربع عن استخلافه لخلقه في هذه الأرض، ابتلاءً لهم واختباراً، حتى يتجلَّى في تصرفاتهم ما

هم عليه من رُشْد أو سَفَه، وحتى يبرز في أعمالهم ما هم عليه من شكر لله على نعمة الاستخلاف، أو كفر بها وتجرّؤٍ عليها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ، وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي الَارْضِ مِن؞ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

وبيَّن كتاب الله عاقبة الانحراف والخيانة إذا لم يحسن الإنسان التصرف فيما استُخلِف فيه وخان الأمانة، وذلك في عدة آيات من هذا الربع، منبهاً إلى أن سنّة الله في المستخلَفين الظالمين جرت على أن يستدرجهم ويمهلهم، ويفتح أبواب نعمه على مصاريعها في وجوههم، حتى إذا ما ظنوا أن قوتهم لَا تعادلها قوة، وأن قدرتهم لا تعجزها قدرة، وأنهم ليسوا بمؤاخذين ولا معذَّبين، فوجئوا بعذاب الله فأُخذوا على غِرَّة، في الوقت الذي لم يكونوا ينتظرون العذاب بالمَرة، وهكذا يأخذهم الله بعدله أخذاً وبيلاً، ولا يظلمون فتيلاً، فقال تعالى: ﴿ فَنَذَرُ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن؞ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمُ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً ﴾ أي أنه سبحانه يقابل مكرهم بما يبطل مفعوله، ويمحو أثره ﴿ اِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذَتِ الَارْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتِيٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً اَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالَامْسِ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وختم هذا الربع بالدعوة إلى دار السلام، التي لا باب لها ولا مفتاح إلا التمسك بمبادىء الإسلام، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دارِ السَّلَـٰمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ الَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ

أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً
مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا
كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الـربع الأول من الحـزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي وجه كتاب الله دعوة عامة إلى كافة الأنام، لاستقبالهم في دار السلام، وهي جنة النعيم، التي لا لغو فيها ولا تأثيم، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دارِ السَّلَـٰمِ ﴾. والمغزى الذي يرمي إليه كتاب الله من وراء هذه الدعوة العامة الكريمة أن يكفي الناسُ أنفسَهم مؤونةَ التكلف في البحث عن منهج نافع وصالح للحياة دون جَدْوى، وأن يتقبلوا بكلتا اليدين، منهج ربهم الذي وضعه لحياتهم، ورسمه لسعادتهم، عن علم تام بمصالحهم وحاجياتهم، وفي انسجام تام مع طاقاتهم وملَكاتهم، وبذلك يختصرون الطريق إلى الحياة السعيدة في الدنيا، والحياة السعيدة في الآخرة.

وبعدما وجه كتاب الله هذه الدعوة العامة التي لم يميز فيها طائفة عن أخرى، ولا جيلاً عن جيل، ولا سلالة عن سلالة، بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلبُّونها ويستجيبون لها، ويلتزمون السير بمقتضى صراط الله، ومنهجه في الحياة، هم الذين يهتدون ولا يضلُّون، ويسيرون سَيْراً حثيثاً إلى دار السلام، ثم يصلون إليها في أمن وسلام، فقال تعالى ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ اِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وفي بداية هذا الربع مضى كتاب الله في نفس السياق يتمم الحديث عن الذين لبوا دعوة الله، واستجابوا لما يحييهم حياة باقية، فقال تعالى: ﴿ لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، اوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. والذين أحسنوا هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، نية واعتقاداً، قولاً وعملاً، فكانت نياتهم حسنة، ومعتقداتهم حسنة، وأعمالهم حسنة، وأقوالهم حسنة، وهم قدوة حسنة في الهداية والاهتداء، وعنصر خير وصلاح في الظاهر والباطن. (والحُسْنَى) التي بشَّرهم الله بها هي أحسن الجزاء وأعلاه درجة عند الله. (والزيادة) هي مضاعفة ثواب الحسنة من عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ورضوانُ الله الأكبر. (والقَتَر) هو ما يعلو وجوه الفَجَرة والكَفَرة من اكفهرار الوجه وكدَرَ اللون في عرصات المحشر، من شدة هول الموقف، وما فيه من كرب وحزن وضيق. (والذلة) هي ما يلحق الفجار والكفار من هوان وصَغار في تلك الدار، جزاء ما كانوا عليه من الطغيان والاستكبار في هذه الدار. وكما تعهَّد

كتابُ الله للذين أحسنوا بأن لا يَرهقَ وجوهَهم قترٌ ولا ذلة، تعهد لهم في آيات أخرى بنضارة الوجوه وفرح القلوب، فقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان: ١١].

وأشار كتاب الله إلى ما سيكون يوم القيامة من مناقشة وحوار بين المشركين وشركائهم يوم القيامة، حيث يتبرأ أولئك الشركاء من الذين أشركوهم بالله فعبدوهم، وينفُضون أيديهم منهم، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ تنبيه لجميع عباده إلى أنهم مهما فرّوا وهربوا، وتحايلوا وتلاعبوا، فلا ملجأ لهم في نهاية المطاف إلا إليه سبحانه، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يحاسب ويعاقب، والخلق كلهم حيثما كانوا في قبضته، ورَهْن مشيئته وقدرته، ولذلك يجب عليهم أن يعبدوه ويطيعوه، وأن يحسُبوا لسخطه ورضاه كل حساب ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ إشارة إلى ما عليه أكثر الخلق من الكسل والتهاون في البحث عن الحق، إذ تمر بهم مَرَّ السحاب الأعوامُ والسنون، وهم غارقون في أوحال الأوهام والظنون، دون أن

يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة: الحقيقة الدينية، والحقيقة الكونية، والحقيقة النفسية، وكل هذه الحقائق مفصلة مبينة في آيات الذكرالحكيم، بأسلوب واضح ميسر للفهم والإدراك لكل ذي عقل سليم.

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى الحديث مرة أخرى عن القرآن الكريم وما احتوى عليه من حِكَم وأسرار، وتحدّى بلغاء العرب من المشركين للمرةالثالثة والأخيرة أن يأتوا ولو بسورة مثله، بعدما تحدّاهم قبل ذلك للمرة الثانية أن يأتوا بعشر سور مثله ﴿ قُلْ فَاتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣] وبعد ما تحدّاهم في المرة الأولى أن يأتوا بمثله كاملاً ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَّاتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الاسراء: ٨٨] فعجزوا أمام جميع هذه التحديات، لا في المقام الأول، ولا في المقام الثاني، ولا في المقام الأخير، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُّفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ، وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي تصديق ما سبقه من الكتب المنزلة في أصل عقيدة التوحيد والدعوة إلى الخير والبر. ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي تفصيل الحلال والحرام، وتبيين وسائل الخير ومناهج البر، بما يناسب سن الرُّشْد الذي بلغت إليه البشرية، وبما يتفق مع ما أصبحت عليه من نضج واستعداد لتلقّي آخر رسالة إلَهية أرسلها الله إلى الناس. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيٰهُ، قُلْ فَاتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ، وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن

دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ، بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾، إذ جاءهم كتاب الله بما لم يعتادوه من الحقائق والمعاني والأساليب، وبما لم يسمعوا به من العقائد والشعائر والشرائع، فتنكروا له في بداية الأمر، جهلاً منهم، ونفوراً عن غير المألوف ﴿ وَلَمَّا يَاتِهِمْ تَـاوِيلُهُ ﴾ أي أن كثيراً من الحقـائق والبشائر والانذارات التـي تضمنها كتاب الله كانت وقتئذ لم تبرز بعد إلى حيـز الوجـود، فاستعجلوا ظهورها، وطال عليهم أمد انتظارها، وداخلهم الشك في صحتها، فظنوا بالله الظنون ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

وها نحن في هذا القرن الرابع عشر الهجري قد رأينا من تأويل آياته البينات الشيء الكثير، وستحمل القرون القادمة في طياتها من تأويل آياته وتفسير معجزاته ما هو أكثر وأكبر وأبهر، ﴿ كَـذَٰلِكَ كَـذَّبَ الـذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَـانـظُرْ كَيْفَ كَـانَ عَـٰقِبَـةُ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وختم هذا الربع بتذكيرٍ ما بعده تذكير، وتحذيرٍ ما فوقه تحذير، فَحْوَاه أن كل أمة ستُعرض أمام الله بمحضر رسـولها، ليكون شاهداً لها بما بلَّغ إليها من رسالة، وشاهداً عليها فيما قامت به حِيال تلك الرسالة، من طاعة أو عصيان، وتطبيق أو نسيان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين
في المصحف الكريم

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ
مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ
كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ
وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ
أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ

يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم
مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ
لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ
هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن
رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ
عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن
قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ
تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾
أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ
إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ
وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ اَجَلٌ، إِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ، مَتَـٰعٌ فِي الدُّنْيا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَـا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

في نهاية الربع الماضي وصفت الآيات الكـريمة مشهـد الخليقة بكافة أممها وشعوبها، وهي تُعرَض أمام الله، الواحدة تلو الأخرى، كل أمة بمحضر رسولها، شاهداً لها أو عليها، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّـةٍ رَّسُولٌ، فَـإِذَا جَـآءَ رَسُـولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِـالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وفي بداية هذا الربع تذكير من الله لرسـوله، وتلقين لـه وللمومنين، أن الرسول على جلالة قدره عند الله، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن يملك لغيره من أفراد أمته نفعاً أو

ضراً، وأن الرسول على شدة قربه من الله خاضع كل الخضوع لمشيئة الله المطلقة، لا يفلت منها في شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾. ومغزى هذه الآية الكريمة تذكير المومنين بأنه لا ينبغي لهم أن يتركوا «الوسيلة» الشرعية إلى رضا الله والقرب منه، وهي اتّباع الأوامر واجتناب النواهي، والتزام التقوى، والتمسك بالاستقامة سراً وعلناً، وأنه لا ينبغي لهم أن يتكاسلوا عن الأعمال الصالحة، ويتكلوا كل الاتكال على مجرد رحمة الله وعفوه، وما يتفرع عنهما من شفاعة في العصاة والمذنبين بعد التعذيب والتأديب، وإنه لأكرمُ للمومن، وأوفقُ بإيمانه ومحبته لله والرسول ـ إن كان صادق المحبة لهما ـ أن يكون من أهل الحُسْنى وزيادة، لا من أهل السُّوأى، أو من أهل السُّوأى وزيادة، فشعار هذا الدين: «اعملوا ولا تتكلوا».

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة دينية وكونية طالما قررها وكررها، ألا وهي أن الأمم نفسها لها أعمار وآجال كالأفراد، وأن كل أمة لها أجلها الذي تستوفيه إذا لم تبقَ صالحة للحياة، وأنه إذا حلَّ هذا الأجل لم تبقَ أمامها أية فرصة للنجاة والخلاص، فما على كل أمة تريد البقاء إلا أن تحسن التصرف فيما آتاها الله، وأن تبتعد كل البعد عن موجبات سخط الله، وفقاً للرسالة الإلٓهية التي تلقتها من رسول الله، أما إذا خانت العهد، وأخلفت الوعد، وتصرفت تصرف السفهاء الخائنين، فإنها لا بد أن تقضي نَحْبَها، وتدخل في عداد الغابرين.

ودخولُها في عداد الغابرين إما أن يكون باستئصالها وإبادتها بالمرة من خريطة العالم كعاد وثمود، وغيرهما من شعوب العالم القديم، وإما أن يكون بالادالة منها وإنزالها إلى درجة العبودية لغيرها، والتبعية الدائمة لسواها، فتصبح ذَنَباً من الأذناب، ولا يُحسَب لها بين الأمم أيّ حساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. أخرج أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «توشك الأممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأكَلَة إلى قَصْعتها، فقال قائل: مِن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: لا بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعَن اللّهُ من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذِفَنّ في قلوبكم الوَهْن. قيل وما الوَهْن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

ومضى كتاب الله يذكّر الغافلين بمصير الأمم التي تمردت قبلهم على حكم الله، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَيٰكُمْ عَذَابُهُ بَيَٰتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ، أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ، ءَآلْـَٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ، ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

ونبّه كتاب الله إلى ما يُداخِل الشاكين من شك وريب في صدق الدعوة وصدق الداعي، ولا سيما في يوم القيامة بما يستلزمه من بعث ومعاد، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟﴾ أي يستخبرونك هل يوم القيامة حق، وهل الدِّين الذي جئت به هو دين الحق؟ ثم لقن الحق

سبحانه وتعالى لرسوله ما يقول: ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّيَ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾. قال ابن كثير: «وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، وهما قوله تعالى في سورة سبإ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [الآية: ٣]، وقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [الآية: ٧]. وقوله تعالى هنا: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ مثل قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]، وتأكيداً لنفس المعنى قال تعالى في نفس السياق: ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾.

ثم عادَ كتاب الله إلى وصف خصائص القرآن العظيم، وما جاء به من هدىً للضالين والغافلين، ورحمة للمحرومين والمظلومين، وشفاء للمرضى والمكلومين، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً من جميع السلالات والألوان، فكان نعمة الله الكبرى على بني الإنسان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ، قُلْ: بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ، هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. وفي نفس هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ ﴾ [الاسراء: ٨٢]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولا شك أن كتاب الله شفاء لما في النفوس والأرواح من الأمراض الباطنة، وشفاء لما في العقول والأفكار من الشكوك

الكامنة، فهو التّرياق المجرب في الخلَوات والجلَوات، وهو الاكسير الذي لا يماثله إكسير لعلاج جميع الأزمات.

ومن جملة آيات هذا الربع آيات بيِّنات تولى فيها كتاب الله التنويه «بأوليائه» والتعريف بهم وبصفاتهم، حتى يكونوا قدوة صالحة لبقية الناس، فيسلك من يأتي بعدهم نفس الطريق الذي سلكوه، ويبتغي إلى الله نفس الوسيلة التي اختارها الله لهم فاختاروها لأنفسهم، وهي شريعته المنزلة، وحكمته المفصلة، مع التزامهما كل الالتزام واتّباعهما كامل الاتباع، وتفادي كل زيادة عليهما أو ابتداع، منبهاً إلى أن باب الولاية مفتوح في وجه جميع المومنين، وأن مفتاحه الوحيد قريب غير بعيد، ألا وهو الإيمان والتقوى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وكأن سائلاً بادر بالسؤال عن أولياء الله مَن هم؟ فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

ثم بيَّن كتاب الله ما ينتظِر كلَّ مومن اتقى الله وتولاه، وأصبح من أولياء الله، من البُشْرَيات والهبات، فقال تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾. أما البشرى في الحياة الدنيا فهي أن يحييهم الله حياة طيبة، وأن يجعل لهم وداً ومحبة في قلوب خلقه، وأن يعيشوا في كَنَف رعايته وفي حمى لطفه الخفي. وأما البشرى في الآخرة فهي النعيم المقيم، ورضوان الله الذي لا سخط بعده ولا تأثيم. روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر أنه قال: «يا رسول الله، الرجلُ يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويُثنون عليه به. فقال رسول الله ﷺ: «تلك

عاجلُ بشرى المومن».

وأخيراً طبعَ كتابُ الله بخاتم القدرة الأزلية على وعد الله لأوليائه، بأنه وعد نافذ لا يلحقه إخلاف ولا تغيير، فقال تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ ﴾ أي أن هذا الوعد مُقَـرَّرٌ وثابت وكائن لا محالة، بفضل الله وكرمه.

ووعدٌ له هذه القوة وهذا التأكيد من الله تعالى هو أحق الوعود بأن يقال فيه بدءًا وختاماً ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

فَلَمَّا جَآءَهُمُ اُلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمُۥٓ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
اُلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا اَلْكِبْرِيَآءُ فِي اِلَارْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ ﴿٧٨﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ايتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ
اَلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ
أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ اِلسِّحْرُ إِنَّ اَللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ
اَللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ اَلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اُللَّهُ اُلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ
كَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمُۥٓ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي اِلَارْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ اَلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمُۥٓ
ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ
عَلَى اَللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ اِلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ اَلْقَوْمِ اِلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُواْ اُلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ اِلْمُومِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ

إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ
قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَـذْكِيـرِي بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَـوَكَّلْتُ، فَـأَجْمِعُـوٓاْ أَمْـرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنَ اَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ءَآلَـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنَ ـ ايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾.

فـي هذا الربع تناول كتـاب الله من بين قصص الأنبياء السابقين قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام، تذكيراً لمشركي قريش ومن في معناهم من الغافلين الضالين، بما آل إليه أمر قوم نوح، وأمر فرعون وملائه، من جـرّاء إصرارهم على البـاطل، ورفضهم لقبول الرسالة الإلّهية رفضاً باتاً، وتحذيراً لهم من أن ينالهم من العذاب ما نال الأمم الغابرة، إذا أصرّوا على رفض الدعوة الإلّهية ولم يستجيبوا لله وللرسول.

فعن قصة نوح عليه السلام نبه كتاب الله إلى أن نوحاً بعدما طالت إقامته بين قومه، وطال تذكيره لهم دون جدوى دعاهم إلى اتخاذ موقف صريح وحاسم تجاه الدعوة التي جاءهم بها، وأشعرهم بأنه لا ينبغي لهم الاستمرار على التردد والغموض، فإما أن يعلنوا قبول دعوته نهائياً، على أساس أن دعوته حق وصدق، وإما أن يعلنوا رفضها بالمرة، ويتحملوا جميع النتائج الناشئة عن وقوفهم في وجهها، وأخبرهم نوح عليه السلام أنه لا يتهيَّب أي موقف يتخذونه ضده، فهو متوكل على الله، معتصم بحبله، ممتثل لأمره، وأكد لهم أنه لا يرمي من وراء دعوتهم إلى الله إلى أي مَغنَم مادي أو فائدة شخصية، بل إن كل همه منحصر في هدايتهم إلى الله تعالى، وكلُّ أمله معلق على ثواب الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ﴾ أي إقامتي بين أظهركم ﴿ وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنَ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي لا تتركوا أمركم في التباس وغموض، بل افصلوا حالكم معي ﴿ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي رفضتم دعوة الله ولم تقبلوا طاعته ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنَ أَجْرٍ ﴾ أي انني لم أطلب منكم مقابل نصحي أيّ عوض من أيّ نوع كان، بل هو نصح خالص لله ولكم ﴿ إِنَ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾.

وقوله تعالى هنا على لسان نوح ﴿ وَأُمِرْتُ أَنَ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يؤكد الحقيقة الدينية والتاريخية الثابتة، وهي أن جميع الأنبياء والرسل قد بعثهم الله إلى عباده بنفس الدعوة،

وبنفس العقيدة، والمراد «بالدعوة» الدعوة إلى الخير، و«بالعقيدة» عقيدة التوحيد، وهذه الدعوة وهذه العقيدة تتضمنهما معاً كلمة «الإسلام» التي هي شعار دين الحق الوحيد المنزل من عند الله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَـٰمُ ﴾ [ءال عمران: ١٩]. ومصداقاً لهذه الحقيقة ها هو كتاب الله يحكي لنا على لسان نوح: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

ويحكي لنا على لسان إبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، وَأَوْصَىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢].

ويحكي لنا على لسان يوسف: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

ويحكي لنا على لسان موسى: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٨٤].

ويحكي لنا عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيئُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ويحكي لنا على لسان حواريي عيسى: ﴿ وَإِذَ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنَ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي، قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[المائدة: ١١١].

ويحكي لنا على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين المسلم الأول في هذه الأمة: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الانعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولعل من البديهي أن تكون عقيدة الإسلام واحدة ودعوته واحدة، رغماً عن تباعد الأيام وتطاول القرون، وتعدد الأنبياء وكثرة الرسل، ما دام منبع الإسلام الأول والأخير منبعاً وحيداً وواحداً، لا يتعدد ولا يتبدل، ألا وهو الوحي الإلٰهي الصادر عن الله تعالى الواحد الأحد، خالق الكون ومدبّر الأمر، الذي لا تبديل لكلماته، وكلماته كلها صدق وعدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾[الانعام: ١١٥].

وبيّن كتاب الله للتذكير والتحذير مصير المصِرّين على الباطل من قوم نوح، حيث أغرقهم وأبادهم بالمرة، ومصير الذين استجابوا لله ولرسوله، حيث نجّاهم مع نبيهم نوح من الغرق، فكانت نجاتهم مزدوجة: نجّاهم من الغرق في بحر الضلال في البداية، ونجّاهم من الغرق في بحر الوبال في النهاية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي نجّينا نوحاً ونجّينا من آمن به وأصبح على دينه «والمرء في ميزانه أتباعه»، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ أي جعلنا الذين آمنوا بنوح مستخلفين في الأرض، بدلاً ممن كذبوه فلم يعودوا أهلاً للاستخلاف ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن الحكمة في ذكر قصة نوح وما ماثلها

إنما هي استخلاص العبرة، وضرب المثل بالواقع المحسوس، فقال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾. والخطاب هنا وإن كان مُـوَجَّهاً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليطمئن إلى وعد الله، وإلى أن الله سينجّي المومنين، وسيهلك المكذبين، هو مُـوَجَّه أيضاً إلى مشركي قريش، وإلى كل من يسلك مسلكهم في التكذيب والعناد، والغفلة عن سلوك طريق الرشاد، ليوقنوا بأن مصيرهم ـ إذا أصرّوا على ما هم عليه ـ هو الهلاك المحقق والعذاب الأليم، إذ (ما جرى على المِثْل يجري على المُماثِل).

وتحدث كتاب الله عن أفواج الرسل التي جاءت بعد نوح عليه السلام، وما جاء به أولئك الرسل إلى أقوامهم من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، إلا أن أقوامهم بادروا إلى تكذيبهم، وأصرّوا على موقفهم، ورغماً عن مرور الأيام واستمرار الدعوة دون انقطاع، فإنهم لم يتراجعوا عن موقفهم قُلامَـة ظُفْر، عنـاداً وإصراراً، وتعصباً واستكباراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِـنۢ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نوح ﴿ رُسُلًا اِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ، فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي رفضوا أن يومنوا أخيراً بما كذبوا به أولاً، فأهلكهم الله، عقاباً لهم، وتحذيراً لمن بعدهم، ﴿ وَكَمَ اَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ [الاسراء: ١٧]. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي وهكذا يقع للمكذبين الذين يأتون من بعـدهم، إذ يسلكون نفس السبيـل الذي سلكـه أسـلافهم من المكذِّبين الأولين، فهم في الحقيقة حزب واحد، ويجمعهم رأي واحد، هو الاِعتقاد الفاسد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة موسى مع فرعون، وهذه القصة تأتي بصفة خاصة في عدة سور من القرآن الكريم، لِحِكَمٍ إلَٰهية في ذلك، ولعل من جملة هذه الْحِكَمِ تذكيرَ المسلمين باستمرار، بما مر به بنو إسرائيل من التقلبات والأطوار، وما أوقعوا فيه العالم من فساد وإباحية واستهتار، وتوجيهَ أنظار المسلمين وغيرهم، إلى وجوب الحَذَر من هذا العنصر الناقم على غيره، لما فيه من الأضرار والأخطار.

والمهم من قصة موسى مع فرعون في هذا السياق هو تعريف المسلمين بأن السر في هلاك فرعون وقومه هو ما كان عليه فرعون من كِبْرٍ واستعلاء، وما كان عليه هو وقومه من ظلم وإجرام، وما حاولوه من إخفاء الحق عن طريق السحر والشعوذة، مما جعلهم في عداد الهالكين الخاسرين، وأبقى قصتهم عبرة للأولين والآخرين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِـَٔايَـٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ، فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ، قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا ﴾؟. كما يشير إلى نفس المعنى قوله تعالى في نفس هذا الربع: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

وبيَّن كتاب الله ما أدلى به فرعون وقومه من الأعذار المنتحلة، والمبررات المفتعلة، لرفض الدعو الإلَٰهية، وهذه الأعذار والمبررات تتلخص في أن الدعوة التي جاء بها موسى من عند الله إنما ترمي إلى قلب نظام الدولة، والاستيلاء على مقاليد

الحكم في مصر الفرعونية، وإذن فهي دعوة تدمير وتخريب، لا تستحق سوى الرفض والمقاومة، ولا يستحق أصحابها سوى الاضطهاد والتعذيب، وهذا الموقف الفرعوني هو نفس الموقف الذي يقفه الطغاة المتفرعنون، تجاه جميع الدعوات الصالحة في كل جيل. وكم رأينا لهذا الموقف في العصر الذي نعيش فيه من مثيل، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن فرعون وملائه: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي لتصرفنا عن معتقداتنا ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لتكون لكما الرياسة والسلطان في هذا البلد ـ والخطاب هنا لموسى وهارون ـ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ ﴾ أي لن نصدق دعوتكما أبداً.

ولا بد من التنبيه في هذا السياق إلى معنى من أهم المعاني الواردة في هذا الربع، وهذا المعنى هو أن الساحرين لا يفلحون، وأن المفسدين لا يُصلِحون، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّـٰحِرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾، فالساحر المأجور الذي يباشر عملية السحر، والساحر الذي يستأجره على ذلك للاستعانة بسحره على بلوغ غرض من أغراضه السافلة كلاهما محكوم عليه مُسْبَقاً من الله تعالى بالخيبة والخسران، ديناً ودنياً، عاجلاً أو آجلاً: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩]. والمفسد الذي يتظاهر بالإصلاح، أو يدَّعي أن الفساد هو عين الصلاح، لا يستقيم له من الأمر شيء، بل لا بد أن ينقلب به

الحال من سيء إلى أسوأ، اللّهمّ إلا إذا عاد إلى طريق الصلاح الحقيقي، فيصلح الله عمله، ويحقق أمله ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وخُتم هذا الربع بوصف الحالة التي آل إليها فرعون عند الغرق حتى تظل ماثلة في الأذهان، وعبرة لبني الإنسان، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓاْ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي لا تذهب بعد غرقك مع التيار وتأكلك الحيتان، وإنما تبقى جثتك حجة ناطقة عليك لمن يأتي بعدك في مستقبل الزمان.

والراجح أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة، الذي لا تزال جثته محفوظة حتى الآن، وهي معروضة في متحف الآثار بالقاهرة يشاهدها الزائرون ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ
حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَٰتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾
فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ

كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مومنين ﴿٩٩﴾
وما كان لنفس ان تومن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على
الذين لا يعقلون ﴿١٠٠﴾ قل انظروا ماذا في السماوات والارض
وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يومنون ﴿١٠١﴾ فهل
ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل
فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿١٠٢﴾ ثم ننجي رسلنا
والذين ءامنوا كذلك حقا علينا ننج المومنين ﴿١٠٣﴾ قل يا أيها
الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون
من دون الله ولكن اعبد الله الذي يتوفيكم وأمرت أن
اكون من المومنين ﴿١٠٤﴾ وأن اقم وجهك للدين حنيفا
ولا تكونن من المشركين ﴿١٠٥﴾ ولا تدع من دون الله ما
لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ﴿١٠٦﴾
وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا
راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴿١٠٧﴾
قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي
لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴿١٠٨﴾ واتبع

مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩

١١ سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ١٢٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١
أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ
رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ
كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ
يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ
إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ
يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥

الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة يونس المكية: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ، فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة هود المكية أيضاً ﴿ أَلَآ إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

عند تحليل أغلب الأيات الكريمة الواردة في هذا الربع ضِمْن القسم الأخير من سورة يونس المكية نجدها دائرة حول موضوع واحد هو موضوع الإيمان، وما يعترض طريقه من شك وتردد، وتعصب وجهل، وغفلة واستهتار، ونجد كتاب الله يوجه الخطاب إلى كل إنسان يشك في صدق الرسالة الإلّهية، الموكول تبليغُها إلى خاتم النبيئين والمرسلين، يدعوه إلى استفسار أهل العلم المطّلعين على تاريخ الرسالات السابقة، فإنه إذا اطّلع على تاريخها ومضمونها لم يجد أدنى صعوبة في تصديق «الرسالة

الخاتمة» التي ختم الله بها جميع الرسالات، بل إنه ليقتنع بأنها لب اللباب من الرسالات كلها، وبأنها آخر مرحلة وأعلى قِمة انتهى إليها الوحي الإلَهي، لهداية البشرية في سيرها الحاضر والمستقبل، نحو الرقي الحقيقي، والتطور الشامل، والسعادة الكاملة.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي إن كنت أيها الإنسان لا تزال في شك مما أنزلنا من القرآن لهدايتك وإرشادك ﴿ فَسْـَٔلِ الذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ، لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي الشاكين، من «الامتراء» وهو الشك ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾.

فالخطاب في هذه الآية ليس موجهاً إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولو على وجه الفرض والتقدير، إذْ لا يُتصور في حق الرسول أي شك أو امتراء أو تكذيب، ولذلك لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لا أشُكُّ ولا أسأل» كما روى ذلك قتادة بن دعامة، أي أنه عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت هذا الخطاب مطلقاً، وإنما الخطاب موجَّه إلى من يُتصوَّر فيه الشك والامتراء والتكذيب، من المشركين والمنافقين وضعفاء الإيمان، وموجَّه كذلك إلى عامة اليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين يجد أحبارهم ورهبانهم وصف الرسالة والرسول مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل.

وهؤلاء إمَّا أن يكون شكُّهم تلقائياً صادراً عن مجرد الجهل،

فهم مدعوُّون بهذا الخطاب إلى سؤال أهل العلم واستفسارهم، حتى يزول شكهم، على حد قوله تعالى في آية أخرى ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] وبذلك يرتفع شكهم، ويتأكد إيمانهم.

وإمَّا أن يكون شكهم صادراً عن تعمد الإنكار والإصرار، فيكون الخطاب موجهاً إليهم على وجه الزجر والتقريع، لأنهم يجادلون في أمر ثابت لا محل فيه للجدل والمراوغة ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[الاحقاف: ٩].

وقوله تعالى في هذا السياق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ليس المراد منه أن الله سبحانه وتعالى يحول بين فريق من الناس وبين الإيمان، فالله تعالى قد هدى الإنسان النجدَيْن، وعرَّفه طريق الخير من طريق الشر، ومكَّنه من جميع الوسائل لتمييز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وأعطاه من القدرة والإرادة ما يستطيع بواسطتهما أن يُرجِّح كفة على أخرى، وأن يختار الطريق الذي يريد سلوكه، وأن يفضِّل من الأعمال والتصرفات ما يرغب في تفضيله، وذلك هو محور التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

وإنما المراد بهذه الآية وما ماثلها أن هناك طائفة من الناس قد رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم ينفع فيهم ترغيب ولا ترهيب، واختاروا عن عمد وإصرار طريق الهلاك والبوار، فلم يبقَ

في قلوبهم ـ بعدما خيَّم عليها الظلام ـ أيّ منفذ للنـور، وأصبحت الموعظة بالنسبة إليهم كالضرب في حديد بارد لا أثر لها ولا نفع، فهؤلاء ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ لأنهم يكذّبون بالآيات جميعها، ويسْخَرون منها كلها، وإنما يومنون في حالة واحدة وعن اضطرار، لا عن اقتناع، وذلـك عندمـا يرون عـذاب الله نازلاً بساحتهم، وهو منهم قابَ قوسين أو أدنى، فهم لا يومنون ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾. غير أن هذا النوع من الإيمان الاضطراري في آخر لحظة لا ينفع أصحابـه، ومثلُه التوبـة عند الاحتضـار وغرغرة الموت لا تنفع صاحبها، كما لم ينفع فرعونَ إيمانُه عندما أدركه الغرق: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

ومضى كتاب الله في نفس السياق يتحدث عن الأمم الغابرة التي كذَّبت بآيات الله، فأخذها الله أخذاً وبيلاً، ولم ينفعها إيمانها الاضطراري في آخر لحظة، عند نزّول العقاب، وحلول العذاب، اللّهم إلا قوم يونس، فـإنهم ـ بمجرد مـا فقدوا نبيهم ـ إذ ذهب مغاضباً لهم ـ أحسُّوا بأن عذاب الله قد أخذ يقترب من ساحتهم، فبادروا بالتوبة إلى الله توبة نصوحاً، بصدق وندم، قبل أن يدركهم العذاب، والتجأوا إلى الله أربعين ليلة يرتجون عفوه، ويسألون لطفه، خاشعين مُهطِعين، فلم يصبهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم يونس من قبل، لأنهم تداركوا أمره بالتوبة دون تأخير، وما كاد يونس يعود إليهم حتى وجدهم قد تابوا وآمنوا ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٨] وذلك قوله تعالى في هذا الربع ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ـ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾ أي

لما آمنوا في الوقت المناسب قبل تزول العذاب ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾ أي حلنا بينهم وبين العذاب، بسبب إيمانهم وتوبتهم قبل حلول العذاب، وذلك على خلاف ما فعله غيرهم، حيث لم يومنوا إلا عند حلول العذاب لا قبله، فلم ينفعهم إيمانهم في اللحظة الأخيرة، لأنه إيمان مطعون فيه صادر عن اضطرار وإجبار، لا عن اقتناع واختيار ﴿ وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي متّعنا قوم يونس إلى حين انتهاء آجالهم.

وبهذا التفسير يتضح أن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ هو من باب الاستثناء المنقطع بمعنى: (ولكن قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم العذاب).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ معناه أن الله تعالى لو أراد لحمل الناس على الإيمان واضطرهم إليه غاية الاضطرار، ولم يترك لهم في شأنه أي اختيار، ولجعل الإنسان كباقي الحيوانات العجماء مسوقاً من ورائه بسوط القهر والإجبار، وحينئذ يصبح الإنسان مجبراً على الطاعة، مكرهاً على الإيمان، فاقداً لأخص خصائص الإنسان، لكن الله تعالى أراد أن يخلق الإنسان على خلاف غيره من الحيوانات، فخلقه حراً مختاراً، وأعطاه من الأجهزة والملكات الخاصة به ما يمكّنه من النظر والاختيار، ولا ينزل به إلى مستوى القهر والاضطرار، حتى يكون له في نظره الخاص ميزة، وفي اختياره الخاص فضل، وحتى يكون للتكليف والمسؤولية أساس مفهوم، ومبرر معقول، ومن أجل هذه الملَكة الإنسانية ـ ملكة التقدير

الشخصي والاختيار الحر، التي ميَّز الله بها الإنسان عن باقي الحيوان ـ اختار بعض الناس الإيمان دون الكفر، واختار بعضهم العكس، ومن أجل ذلك كان جزاء حسن الاختيار الثواب العظيم، وجزاء سوء الاختيار العذاب الأليم.

وبهذا التفسير يتضح أيضاً معنى قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨] وذلك لاختلاف أفكارهم، وحسن أو سوء اختيارهم.

وقولُه تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ خطاب من الله إلى رسوله، القصدُ منه تهدئة رُوعِه وطُمَأْنِينةُ نفسه، فقد كان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، إلى حَدٍّ أنه كان يحزَن أشد الحزن إذا لم تنفع في بعضهم الموعظة الحسنة، ولم تؤثر فيهم الحجة البالغة ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].

وليس المراد أن رسول الله ﷺ كان يحاول فعلاً إكراه غير المومنين على الإيمان، فهو أعلم الناس عن ربه بأنه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

نعم في هذه الآية تلقين من الله لعباده المومنين أن يبيِّنوا للناس ما نزِّل إليهم، ويمكِّنوهم من وسائل الإيمان حتى تقوم الحجة عليهم، ثم يتركوا لهم بعد ذلك الخيار، فإن أرادوا الإيمان أقبلوا عليه عن طواعية واختيار.

وتأكيداً لهذا المعنى وتركيزاً له في الأذهان قال تعالى مخاطباً لرسوله الأعظم ﷺ ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فهو من جهة أولى يمتنع من أن يعبد آلهة لا يومن بوجودها، فضلاً عن أن يومن بأحقيتها للعبادة، وهو من جهة ثانية لا يترك دينه الذي وثق به كل الثقة واطمأن إليه كل الاطمئنان، من أجل أن الآخرين لا يزالون يشكُّون في صحته، فشكُّ الشاك لا يبطل إيمان المومن ولا يؤثر عليه، لكنه من جهة ثالثة لم يَفرِض على الشاكين أن يومنوا بدينه قهراً وجبراً، وإنما لفت أنظارهم إلى أن الله الذي يعبده هو وحده الذي بيده أرواحهم، وهو الذي يتوفاهم متى شاء ﴿ وَلَكِنَ اَعْبُدُ اللَّهَ الذِي يَتَوَفَّـكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾.

وزيادة في تأكيد مبدأ حرية الإعتقاد، وضمان هذه الحرية، بعد القيام بواجب الدعوة، وعِلاوة على مضمون الآيات السابقة، وجَّه الحق سبحانه وتعالى في ختام هذه السورة ـ سورة يونس المكية ـ خطابه إلى نبيه ملقِّناً ومعلماً له ولأمته ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ، فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾.

ويتفق مع هذا المعنى قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ فَذَكِّرِ اِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴾ وعد سابق من الله لرسوله وهو لا يزال بمكة يكافح الشرك والمشركين، بما سيناله دينه من الظهور على بقية الأديان، وبما سيناله أتباعه من نصر مؤزر وفتح قريب في مختلف الأقطار والبلدان. وقد حقق الله وعده، وهزم الأحزاب وحده، ومكّن من مقاليد العالم جنده ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

غير أن هذا الوعد الإلٓهي في أصله مشروط بثلاثة شروط:

الشرط الأول: اتباع الوحي الإلٓهي، وعدم التنكب عن طريقه أو الخروج عن هدايته ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾.

والشرط الثاني: الصبر على تحمل متاعب الأمانة الإلٓهية والقيام بتكاليفها وأعبائها الثقيلة، عن وعي ويقظة، ودون هوادة ولا تهاون ﴿ وَاصْبِرْ ﴾.

والشرط الثالث: التأهب لاغتنام الفرصة المواتية ،وعدم تضييعها متى حان أوان انتهازها ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴾.

فلكل غلّة موسمُها، ولكل معركة موعدُها، وإذا عاد المسلمون إلى الله بعدما فرّوا منه في هذا العصر، والتزموا بتنفيذ شروطه التي اشترطها عليهم دون أي إهمال أو إخلال، بدّلهم الله حالاً أحسن من هذا الحال، وعاد إليهم بالنصر والتأييد، والتوفيق والتسديد، وما ذلك على قدرته ببعيد.

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين
في المصحف الكريم

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ
مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
اَمْ يَقُولُونَ اَفْتَرَيٰهُ قُلْ فَاتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ
وَادْعُواْ مَنِ اِسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اِ۬للَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اِ۬للَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَهَلَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ اُ۬لْحَيَوٰةَ اَ۬لدُّنْيا وَزِينَتَهَا
نُوَفِّ إِلَيْهِمُۥٓ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
اَ۬لذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي اِ۬لَاخِرَةِ إِلَّا اَ۬لنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ
فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً اوْلَٰٓئِكَ يُومِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ
اَ۬لَاحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ
اُ۬لْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَ۬لنَّاسِ لَا يُومِنُونَ ﴿١٧﴾
وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرَىٰ عَلَى اَ۬للَّهِ كَذِبًا اوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ

عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الثالث العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بعون الله وتوفيقه سورة يونس المكية، التي تليها في ترتيب المصحف الكريم سورة هود المكية أيضاً. و«سورة هود» أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من الآيات الكريمة التي وردت أثناءها في الحديث عن هود عليه السلام وقومه عاد، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً، قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الآية: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ﴾ [الآية: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [الآية: ٦٠].

وفي هذه السورة الكريمة قال رسول الله ﷺ: «شيَّبتني هود وأخواتها» جواباً لأبي بكر الصديق عندما قال له: «يا رسول الله قد شبت» كما روى ذلك الترمذي في سننه، وأخواتها هي: سورة الواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت، كما ورد في رواية أخرى عند الترمذي.

وسورة هود لها شبه كبير بسورة يونس قبلها، وتستغرق أخبارُ الأنبياء السابقين وقصصهم مع أقوامهم أكبرَ قسم من هذه السورة، فبالإضافة إلى قصة هود مع قومه تتناول سورةُ هود جوانب جديدة من قصص نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى.

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام أن كتاب الله لا يتناول الموضوع الواحد، ولا سيما قِصص الأنبياء، عدة مرات لمجرد التكرار، بل إن عودته ما بين الحين والحين إلى تناول تلك القصص تتضمن عرض جانب جديد من جوانبها لم يسبق عرضه من قبل، مما يتناسب مع السياق والموضوع الجديد الذي وردت فيه القصة.

قال أبو القاسم ابن جزى صاحب «القوانين الفقهية» في كتابه (التسهيل لعلوم التنزيل): «فإن قيل ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن، فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذَكَرَ في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يَذْكُره

في سورة أخرى، ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى.

الثاني: أنه ذُكِرَتْ أخبارُ الأنبياء في مواضع على طريقة الأطناب، وفي مواضع على طريقة الايجاز، لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قُصِد بذكرها مقاصد، فتعددَ ذكرُها بتعدد تلك المقاصد، فلما كانت أخبار الأنبياء تفيد فوائد كثيرة ذكرت في مواضع كثيرة، ولكل مقام مقال» انتهى.

وفي مطلع سورة هود يبتدىء الحديث بالتنويه بكتاب الله، وما تتضمنه آياته من حِكْمة وإحكام، ﴿ ألر، كِتَٰبٌ احْكِمَتْ ءايَٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾، كما اختتم الحديث في سورة يونس قبلها بوجوب اتّباع كتاب الله، والثبات على تبليغه، والصبر على تحمُّل تَبِعاته ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴾.

وبيَّن كتاب الله الاختصاص الأساسي والجوهري لمنصب الرسالة، وأنه ينحصر في النِّذارة والبِشارة ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ودعا المومنين إذا أرادوا أن يمتِّعهم الله متاعاً حسناً بالنعم والأرزاق والخيرات، وأن يُحييهم حياة طيبة، إلى استغفار ربهم، والتوبة إلى الله من ذنوبهم، بالندم عليها ندماً صادقاً، والإقلاع عنها إقلاعاً تاماً، حتى يفتح الله في وجوههم طريق العمل الصالح، ويعينهم على سلوكه بنجاح في جميع مجالات الحياة، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعاً حَسَناً إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أنَّ من زاد في الإحسان زيد له في الثواب بقدر ما زاد من الحسنات والأعمال الصالحة، فقال تعالى: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ وكما يصدق هذا على الثواب في الآخرة يصدق على الجزاء في الدنيا.

وأنذر كتاب الله على لسان رسوله كافة المخالفين، والعصاة المتعنتين، فالتفت إلى خطابهم قائلاً: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وأكد كتاب الله أن كل محاولة يحاولها الإنسان للاستخفاء والتستر عن الله، بالنسبة إلى أيّ عمل من الأعمال، ولا سيما عمل السيئات والفواحش، إنما هي محاولة فاشلة، لأن عِلْمَ الله يستوعب السر والعلن، وعينَ الله تراقب ما ظهر وما بطن، فلا ثَنْيُ الصدور، ولا سِتار الأغطية، ولا أيُّ وضع من الأوضاع التي يختفي بها الناس عن الناس لها أدنى فائدة بالنسبة لعالِم الغيب والشهادة، اللطيف الخبير ﴿ أَلَآ إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي يجعلونها أغشية وأغطية ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وتعهد كتاب الله بأنه ما من كائن حيّ يتوالد في الأرض، صغر شأنه أو كبر، إلا وقد تكفَّل الله برزقه، فهيَّأ له إما في البر

وإما في البحر ما يقتات به من المنتوجات والثمرات على اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف، مما هو صالح ومناسب لحياة كل نوع من أنواع الأحياء، حشرةً كان أو حيواناً أو إنساناً، وما على المسترزق إلا أن يبحث عن رزقه، ويسلك الطريق المؤدي إلى العثور عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْاَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾. قال أبو القاسم ابن جزى: «فإن قيل كيف قال ـ على الله ـ بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل، لأن الله لا يجب عليه شيء؟ فالجواب: أنه ذكره كذلك تأكيداً في الضمان، لأنه لما وعد به صار واقعاً لا محالة، إذ أنه لا يُخلف الميعاد». ولا يقولنَّ أحد: إن الله قد تكفل برزقي فلأترك تناول الأسباب، ولأنتظر من يَطرق الباب، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال عمر بن الخطاب.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه يعلم على العموم والخصوص، وعلى الجملة والتفصيل، في أي أرض تعيش الأحياء وفي أي أرض تموت، زرافاتٍ ووِحدانا، وبأوسع من هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَّرَقَةٍ اِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ الْاَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ اِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الانعام: ٥٩].

والمراد «بالكتاب المبين» في هاتين الآيتين هو نفس المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْاَرْضِ وَلَا طَـٰئِرٍ يَطِيرُ

بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم، مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الانعام: ٣٨] أي كتابٌ خاصّ محفوظ عند الله، فيه بيان مفصل عن شؤون الخليقة من بدايتها إلى نهايتها.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ المتعلّق من جهة الإعراب بفعل ـ خَلَق ـ الواردِ في قوله تعالى قبله ﴿ وَهُوَ الـذِي خَلَقَ السَّمَـٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ﴾ تنبيهٌ من الله لعباده إلى أن الحكمة في التفضل بخلقهم والتكفل برزقهم إنما هي اختبار أحوالهم، وإبراز آثارهم، والكشف عن اختياراتهم، لتقوم الحجة عليهم، فالدنيا إنما خلقها الله لتكون حَلْبة سباق وتنافس بين الناس في العمل الصالح، الذي ينشأ عنه صلاح البشرية وسعادتها، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الملك: ٢].

و (العمل الأحسن) المعبَّر به في هاتين الآيتين هو نفس المعنى المراد من «العبادة» التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالِانسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذّاريات: ٥٦]. فكل عمل صالح هو عبادة لله وامتثال لأمره، من جهة، وكل عبادة هي في حد ذاتها عمل صالح، من جهة أخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى في هذا الربع ﴿ وَلَئِنَ اَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾. المراد بالأمة هنا الأمد والأجل، أي إن أخَّرنا عنهم العذاب إلى وقت محدود تساءلوا ما الذي يحبِس ذلك العذاب، وبنفس هذا المعنى استُعمِل لفظ «أمة» في

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] أي استذكر بعد مدة.

ولإتمام الفائدة في هذا المقام ينبغي التنبيه إلى أن لفظ (أمة) في كتاب الله يستعمل أيضاً بمعنى «الإمام المقتدى به» كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، وبمعنى «الفرقة والطائفة» كما في قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] وبمعنى «الجماعة» كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣]، وبمعنى «الملة» كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وبمعنى «أمة الإجابة المصدقة للرسالة» كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وبمعنى «أمة الدعوة» الشاملة لكل من بُعِث إليه الرسول ممن آمنوا أو بقوا على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧].

وتناول كتاب الله بالوصف والتحليل نفسية الأشخاص القلقين، من ضعفاء الإيمان وضعفاء النفس، في حالتي الشدة والرخاء، مبيِّناً أن هذا الرهط من الناس إذا أصابته شدة بعد الرخاء لا يلبث أن تنهار أعصابه، ويبلغ به اليأس والقنوط من رحمة الله إلى أقصى حد، حتى كأنه لم ينل في سابق حياته من ربه أيَّ عطاء أو احسان، فهو عاجز كل العجز عن تحمل

الصدمات، ضعيف كل الضعف عن مواجهة الأزمات، وكلما طال به أمد الشدة تضاءل أمام نفسه وأمام الناس، فيصبح قَزَماً بعدما كان عِملاقاً، ويعود حَماماً وديعاً بعدما كان سبُعاً ضارياً، كما أنه إذا أصابه رخاء بعد الشدة عاجله البَطَر بالنعمة، وأصابه نوع من الإغماء والذهول من شدة الفرح الزائد عن الحد المعتاد، فلم يعد يضبط نفسه ولا عواطفه، واعتقد أن الرخاء الذي نزل بساحته سوف لا يفارقه إلى الأبد، فأمن مكر الله، ونسي نعمة الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّيَ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي شديد الفرح والغرور بنفسه، كثير الفخر والتطاول على غيره.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِلَّا الذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ المراد به استثناء الصنف المومن بالله المتمسك بالإيمان والصبر، من هذا الحكم العام، وهو استثناء متصل، من جنس الإنسان، ذلك أن إيمان المومن بقضاء الله، وصبرَه على ضيق الشدة، وعلى سعة الرخاء ـ وكلاهما يحتاج إلى صبر ـ كلها أدوية فعالة تجعل المومن الصابر في حَصانة ومَناعة، من أن يصبح في وقت الشدة يؤوساً كفوراً، وفي وقت الرخاء فرِحاً فخوراً. وبذلك استحق هذا الصنف المومن رضا الله وثوابه الجزيل، فقال تعالى في شأنه ﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

ونبّه الحق سبحانه وتعالى إلى أنه إذا اختار فريق من الناس

ـ عن عمد واصرار ـ مجرد العمل لدنياهم وحدها، وأعـدُّوا العدة المناسبة لاجتياز مرحلة حياتهم المادية الصرفة، دون أن يهتموا بالعمل لآخرتهم كما يعملون لدنياهم، فإن الله تعالى يستدرجهم ويمهلهم في الدنيا، لكنه يُلغي كل ما عملوه في الدنيا عند حسابهم في الآخرة، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَـوٰةَ الدُّنْيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ، أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾، والضمير هنا يعود على الآخرة، ﴿ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي في الدنيا.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذه الآية عامة في كل من ينوي غير الله بعمله، كان معه أصل الإيمان أو لم يكن. وفي الحديث القدسي: «إني لا أقبل عملاً أُشْرَكُ فيه مَعَ غيري، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك».

وبنفس المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيٰهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الاسراء: ١٨].

ولا يستغربن المومن ما قد يرى عليه بعض الدول والأفراد، رغماً عن ماديتهم وكفرهم، من القوة المادية والرفاهية الظاهرة في

العيش، بعدما كشف الله في كتابه عن هذه الحقيقة الحجاب، ورفع عنها النقاب، فذلك كله مندرج تحت هذا الباب: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّـٰلِمِينَ، الذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ، أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ - ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لا بد ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾.

وعلى العكس من ذلك المومنون الذين عملوا لدنياهم كما عملوا لآخرتهم، فأعطوا للمادة حظها، وللروح حقها، ونفخوا في أعمالهم روح النية الصالحة فكانت أعمالهم لوجه الله ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي وهم خاشعون ﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.



الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين
في المصحف الكريم

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا
نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا
نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ
تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ
أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ
إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟
مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ
وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِيَـانِ مَثَلاً، أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ـ امَنَ، وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

في بداية هذا الربع ضرب كتاب الله المثل لفريق الذين كفروا وعملوا السيئات، ولفريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فأما الفريق الأول فهو كالأعمى بالنسبة للبصير، وكالأصم بالنسبة للسميع، وذلك لأنه لا ينتفع ببصره وسمعه الانتفاع المطلوب، فكأنه فاقد لهما بالمرة، إذ يسمع كلام الله ولا يتأثر به، ويرى صنع الله ولا يتأمل فيه.

وأما الفريق الثاني فهو سميع بصير، لأنه ينتفع بحاستي السمع والبصر انتفاعاً تاماً، ويستعملهما استعمالاً لائقاً، السمع: في سماع الدعوة إلى الحق، والبصر: في مشاهدة بدائع الخلق،

وذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالاَعْمىٰ وَالاَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِيَنِ مَثَلاً، اَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ ﴾.

ويحكي كتاب الله قصة نوح عليه السلام مع قومه، وأنه لم يتهاون في إنذارهم، وبيان الحق والحقيقة لهم، فدعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته دون غيره، وإلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، اَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اللَّهَ، إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ اَلِيمٍ ﴾.

وسجَّل كتاب الله أجوبة كبار قوم نوح المتعنتين المتكبرين، وهذه الأجوبة تتلخص في أنه لا شيء يبرِّر في نظرهم أن يكون نوح بالخصوص رسولاً إليهم من عند الله، فهو في نظرهم بَشَر مثلهم، لا يمتاز عنهم بأي شيء، وإلاَّ فيجب أن يكونوا جميعاً رسلاً مثله بحكم «قياس الشَّبَه»، أو يجب أن يكون الرسول من غيرهم جميعاً بما فيهم نوح عليه السلام، كأن يكون الرسول ملَكاً لا بشراً. ثم إن الذين اتَّبعوه في نظرهم لا قيمة لهم في المجتمع، فهم ليسوا من طبقة الملأ وكبار القوم، بل هم من ضعفاء الناس.

يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الضعفاء الذين اتَّبعوه لم تكن عندهم ـ فيما زعم كبار قوم نوح ـ قدرةٌ على التروِّي والبحث في الدعوة التي دعاهم نوح إليها، بل أقبلوا عليها دون بحث ولا تحقيق، واتَّبعوها بمجرد سماعها دون تأمل ولا تمحيص، وإذن فهم مخدوعون مغرورون. وهذه المعاني التي تضمنتها أجوبة كبار

قوم نوح هي التي يشير إليها قوله تعالى هنا: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ، مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا، بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ أي واتبعوك دون بحث ولا نظر، بل لأول وهلة ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي لا ميزة تميِّزكم علينا بسبب الدين الذي اعتنقتموه، فأنتم لا زلتم كما كنتم لا تَفضُلوننا بشيء ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ أي نعتقدكم كاذبين، والظن هنا بمعنى اليقين.

وحكى كتاب الله ما ردَّ به نوح على قومه، وأنه إذا عَمِيت عليهم حجة الله التي آتاه الله إياها، ولم يقْدُروا رحمة الله التي أرسله بها، فإنه لا يستطيع إكراههم عليها وإلزامهم باتِّباعها، إذ المبدأ العام الذي ألزم الله باتباعه جميع الأنبياء والمرسلين، هو أنه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وذلك ما يصرح به قوله تعالى هنا حكاية عن نوح مجيباً لقومه: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾؟.

وواصل كتاب الله حكاية قصة نوح، فذكر ما رد به على استهْزَاء كبار قومه، الذين استهزأوا بأتباعه، وعيَّروهم بضعف الحال وقلة ذات اليد. وما دام الأمر في شأن الدعوة ليس أمر قوي وضعيف، وغني وفقير، وشريف ومشروف، وإنما هو أمر عقيدة واقتناع وإيمان، فإن من عرف الحق وتجلَّى له واضحاً أقبل عليه واعتنقه، ومن عميَ عنه أو تعامى استمر على الباطل والضلال ـ وهذا هو عين ما وقع لضعفاء قوم نوح، حيث رأوا

دعوته جلية واضحة كفَلَق الصبح، فأسرعوا إلى الإيمان به وأصبحوا من جلسائه وصحبه ـ فلن يحتقرهم نوح كما يريد كبار قومه أن يكون، إذ هم أهل للتوقير لا للتحقير، ولن يطردهم نوح من مجلسه كما لوَّح إلى ذلك كبار قومه المتكبرون، إذ هم أهل للتقريب لا للإبعاد، بعدما آمنوا برب العباد، وعقَّب نوح على ادعاءات كبار قومه السخيفة بما يَدمَغهم «بالجهل» المنافي للعلم والمعرفة، و«بالجهالة» المنافية للمروءة وحسن الأدب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ، إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ، وَلَـٰكِنِّيَ أَرِيـٰكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ، وَيَـٰقَوْمِ مَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ، أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ ﴾ ـ ﴿ وَلآ أَقُولُ لِلذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُّوتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ، إِنِّيَ إِذاً ﴾ أي لو طردتهم واحتقرتهم ﴿ لَّمِنَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وفي هذا السياق نبه كتاب الله إلى أن نوحاً حاول بكل الوسائل أن يزيل من أذهان كبار قومه ما تخيلوه، من أن غرضه من الدعوة التي يقوم بها غرض مادي صرف، وذلك ما حكاه عنه كتاب الله إذ قال لقومه: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً، اِنَ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾.

والملاحَظ أن مثل هذه القولة تتكرر في قصة كل نبي أو رسول، إما لأن أعداء الرسل يظنون أن في إمكانهم شراء كل الضمائر بثمن بَخْس، حتى يتنازل الرسل عن دعواتهم، وينصرفوا لحال سبيلهم، وإما لأن أعداء الرسل ينظرون إلى ما يكون عليه

الرسل غالباً من الفقر والخصاصة والزهد، فيظنون بهم الظنون، ويخيِّل إليهم أنهم طلاب مال وغنى، وعشاق رفاهية ونفوذ، ولذلك يضطر الأنبياء والرسل إلى الرد على المترفين من قومهم بمثل هذا الرد القاطع الصريح، حفظاً للدعوة من تسرب الأعداء إليها، وقطعاً لكل أمل في قطع الطريق عليها.

ومما رد به نوح على كبار قومه حيث اعتبروه غير أهل للرسالة، لكونه بشراً مثلهم، أنه برغم بشريته مرسل إليهم من عند الله، فهو (بشر رسول)، لأن الرسالة لا تتنافى مع البشرية مطلقاً، بل هي تشريف لها، وتكريم للمنتمين إليها، وهي أعلى درجة يمنحها الله للبشر. ونفَى لهم نفياً قاطعاً أن يكون ملَكاً، أو أن يشارك الله في علم الغيب، فعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، كما نفى نفياً باتاً أن يتصرف في مُلْك الله وخزائنه الواسعة تصرفاً خاصاً، لا من قريب ولا من بعيد، لأن المتصرف في خزائن الكون هو الله وحده لا شريك له، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾. وبهذه الردود الصريحة الواضحة اتضحت طبيعة الرسالة على حقيقتها منذ أقدم العهود، واتضحت خصائصها دون مبالغة ولا غلو ولا إغراق في الخيال، وإذا كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يتبرأون من علم الغيب، ومن التصرف في الكون، ويفردون الله بهما دون سواه، فأولى بغيرهم من بقية الناس أن لا يَدَّعوا ذلك لأنفسهم، وأن لا يُدَّعَى لهم.

ولما ضاق كبار قوم نوح ذَرْعاً بدعوة نوح، ورده المفحِم، وجداله القوي، أخذوا يتحدَّونه ويطالبونه بتعجيل ما أنذرهم به من عذاب الله، كدليل محسوس على صدقه في دعوته إن كان صادقاً، فأجابهم بأن أمر ذلك موكول إلى الله يأتي بهِ إن شاء ومتى شاء، مبيِّناً لهم في نفس الوقت أنهم ما داموا قد أقفلوا جميع منافذ النور الإلّهي إلى قلوبهم لم تبقَ فائدة في نصحهم، ولا أمل في إيمانهم، وذلك قوله تعالى حكاية عن كبار قوم نوح: ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِـدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا يَاتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ، وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنَ اَرَدتُّ أَنَ اَنصَحَ لَكُمُ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُّغْوِيَكُمْ ﴾ أي إن لم تنتفعوا بما وهبكم الله من وسائل الفهم وطرق الهداية: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وتحدث كتاب الله عن المرحلة الأخيرة من حياة نوح مع قومه، وأن الله أوحَى إليه أنه لن يومن من قومه إلا من قد آمن. فلا أمل في إيمان الباقين، وأنه سيعذب كفار قومه بالغرق، ويسلط عليهم الطوفان، وأن عليه أن يصنع سفينةً ينجو فيها بنفسه وأهله، وبمن آمن معه، وكان عددهم قليلاً. وأمر الله نوحاً أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى، وتقول الأخبار: أنه حمل في سفينته نماذج من الحيوانات والحشرات والنباتات، وظن نوح أن ابنه داخل في عداد أهله، فنزل عليه الوحي باستثنائه منهم لكفره، إذ بقي مصرّاً على دين قومه، مثل أمه، فلم ينفع امرأةَ نوح كونُ الرسول زوجاً لها، ولم ينفع ابنَ نوح كونُه

ابناً للرسول، إذ ﴿ كُلُّ امْرِىءٍم بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ـ امَنَ، فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي بمرأى منا وبإرشادنا ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ - ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ امْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ أي فُتِحت أبوابُ السماء بالأمطار الطوفانية، وفُجِّرت طبقات الأرض بالعيون الجارية، كما فسر ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الاَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١، ١٢] والاستثناء هنا لابنه وامرأته اللذين عاقبهما الله بالغرق، جزاء إصرارهما على الكفر ﴿ وَمَنَ ـ امَنَ ﴾ أي احمل معك من آمن من قومك، ثم عقب كتاب الله على ذلك فقال: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى عن أصحاب الميمنة ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الاَخِرِينَ ﴾[الواقعة: ١٣، ١٤].

الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا
بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي
وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا
تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ
مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا
قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ
عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ
مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ
ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن

دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾
فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا
غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا
جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ
عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ
وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ
هُودٖ ﴿٦٠﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ
فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيـٰهَا وَمُرْسِيـٰهَآ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هُـوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَـا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن المرحلة الأخيرة من قصة نوح عليه السلام. ويحكي لنا أن نوحاً عندما أراد أن يركب السفينة التي صنعها بوحي من ربه لم ينسَ ما عليه من واجب الشكر لله، والتوكل على الله، فأمر المتأهبين للركوب معه عند ركوبهم «سفينة النجاة» أن يذكروا عند ركوبهم اسم الله عليها، وأن يحصِّنوها باسمه الأقدس من كل سوء ينزل بها، حتى يتم جَرْيُ سفينة نوح ورَسْوها في أحسن الأحوال، ولا ينالها أي أذى من الأمواج المتلاطمة والشامخة كالجبال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيـٰهَا وَمُرْسِيـٰهَآ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾.

ثم وصف كتاب الله نداء نوح لابنه الذي أصرَّ على الكفر، وما دار بينهما من حوار مؤثر في تلك الفترة العصيبة. ومنه يبدو الصراع الداخلي الذي كان قائماً بين عاطفة نوح بصفته مجرد (أب عادي)، وواجبه بصفته (رسولاً عن الله). فقد ظن نوح عليه السلام أن الاستثناء الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ إنما هو منصّب على ما أُمِر بحمله معه من أصناف الأحياء المختلفة، بمعنى أن منها ما أذِن اللّهُ بحمله معه في السفينة ليستمر بقاؤه في العالم، ومنها ما سبق عليه القضاء بالغرق والانقراض نهائياً، ولم يعتقد نوح عليه السلام أن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منصبٌّ حتى على أهله أنفسهم، فمنهم من أذِن له بأخذه في السفينة، كأبنائه الثلاثة: (سام وحام ويافث)، ومنهم من لاحظَّ له فيها كامرأة نوح وابنه الرابع (يام).

وبمقتضى هذ التأويل أخذ نوح ينادي ابنه ليفارق الكافرين من قومه، ويلتحق به في «سفينة النجاة»، فما كان من ابنه المصرّ على الكفر إلا أن فضّل البقاء حيث هو، ظانّاً أن في إمكانه النجاة من الطوفان إذا اعتصم بالجبل.

ولم يسَعْ نوحاً ـ وهو الناصح الأمين الذي طالما أسدى النصح للبعيد والقريب ـ إلا أن يجدد النصح لابنه، ويؤكد له أنه لا عاصم يعصمه من عذاب الله، وأن الطوفان سيدرك الجميع لاّ محالة، ولا تنجو منه إلاّ سفينة النجاة التي صنعها نوح بوحي من

ربه، وركبها ومن معه، متحصنين باسمه الأقدس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ، قَالَ سَـَٔاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَٰكِمِينَ، قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ، فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَٰسِرِينَ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا: إنما سأل نوح ربه، لأجل قول الله: احمل فيها من كل زوجين - إلى - وأهلَك. وترك نوح قوله - إلا من سبق عليه القول - لأنه رآه استثناءً عائداً إلى قوله: «من كل زوجين اثنين»، وحمله الرجاء على ذلك، فأعلمه الله أن الاستثناء عائد إلى الكل، وأنه قد سَبَق القول على بعض أهله، كما سبق على بعض من الزوجين (أي من كل زوجين اثنين) وأن الذي سبق عليه القول من أهله (أي علاوة على امرأته) هو ابنه، تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كان آباؤهم صالحين».

وقال ابن العربي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ نصٌّ في ذكر الله في كل حال وعلى كل أمر، وقد روى الدارقطني وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمر ذي بال لم يُبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر». وقال ابن كثير: «ولهذا

تستحب التسمية في ابتداء الأمور، وجاءت السنَّة بالحثّ على ذلك والندب إليه».

أما الدعاء الذي دعا به نوح عليه السلام، عندما استوى على السفينة، بتلقين من ربه، فقد نص عليه كتاب الله في آية أخرى إذ يقول مخاطباً لنبيه نوح: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي نَجَّيٰنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ، وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَٰرَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[المومنون: ٢٨، ٢٩].

ووصف كتاب الله كيف أن القدرة الإلٓهية بمجرد ما أغرقت الظالمين المفسدين في الأرض، الذين جعلوها حَلْبة للفساد لا للإصلاح، وللظلم لا للعدل، وللكفر لا للإيمان، وأبادتهم عن آخرهم في لحظات معدودة، وجّهت في الحين نداءها المسموع المطاع للأرض ببَلْع مياهها، وللسماء بقَطْع أمطارها، ولسفينة النجاة بوقوفها وإرسائها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز والإعجاز: ﴿ وَقِيلَ يَٰأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ اقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَآءُ ﴾ أي ابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴾ أي هلاكاً لهم وخساراً، وبعداً من رحمة الله وطرداً، فقد هلك الظالمون على عهد نوح عن آخرهم بالطوفان، كما سيهلِك خَلَفُهم بوسائل أخرى يختارها القاهر فوق عباده في مستقبل الزمان.

وقد نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال: «قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجوديّ من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى

رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت وصارت رماداً».

ثم تحدث كتاب الله عما أوحى الله به إلى نوح عليه السلام عندما أرست سفينته على الجوديّ، وما صدر إليه من الإذن بالنزول من السفينة إلى الأرض، مصحوباً فيها بسلام الله، مع البشارة بحلول بركات الله عليه وعلى أمم المومنين من ذريته، والإنذار لأمم أخرى متكفر بالله، فتنال حظها من المتاع في الدنيا ثم يلحقها العذاب الأليم في الآخرة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾. قال محمد بن كعب: «دخل في هذا السلام كل مومن ومومنة إلى يوم القيامة، وكذلك دخل في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة».

وعقّب كتاب الله على تفاصيل هذه القصة المثيرة، مبيِّناً أنها قد ظلت مطوية تحت أستار الغيب قروناً وقروناً، حتى كشف الوحي الإلٓهي عنها النقاب، ونزلت في شأنها آيات الكتاب، منبِّهاً خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العبرة المقصودة، من عرض قصة نوح، بالنسبة للمشركين والمومنين، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا، فَاصْبِرِ، إِنَّ الْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وفي هذه القصة نقطة لا بد من الوقوف عندها وقفة خاصة،

فقد رأينا كيف مَنَّ الله على نوح بنجاة أهله، وأمرَه بحمل أهله معه في «سفينة النجاة». قائلاً: ﴿ احمِلْ فيها مِن كلٍّ زوجيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، وقد رأينا كيف دعا نوح ابنه الذي لم يومن بالله إلى مفارقة كفار قومه، واللحاق به في السفينة، باعتباره داخلاً في (أهله)، وقد رأينا كيف نادى نوح ربه قائلاً ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنَ أَهْلِي ﴾، إلا أن الحق سبحانه وتعالى رد على نبيه نوح عليه السلام رداً قاطعاً وصارماً، ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ أَهْلِكَ ﴾. ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك الحكم الإلّهي الذي لا معقِّب له، وأوضح الحكمة المتوخاة منه، حتى لا يبقى حكماً غامضاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ مما ألقى الأضواء على نوع العلاقة التي لها اعتبار في نظر الشارع، والعلاقة التي لا اعتبار لها، أو لها اعتبار ثانوي جداً.

فهذه الآية تنص صراحة على أن قرابة العقيدة والإيمان هي القرابة الحقيقية والوحيدة، التي لها الاعتبار الأول بين الأقرباء في تكافلهم وتعاونهم، وتحديدِ مصيرهم المشترك، فإذا انتفت هذه القرابة الروحية والدينية بينهم كانت قرابةُ الدم المادية في الدرجة الأخيرة من الاعتبار، أو لا اعتبار لها بالمرة، لأن طابعَ البنـوة الصحيح هو أن يكون الابن وارثاً سرَّ أبيه، يرث منه خير خصاله، وأفضل خلاله، والروحية منها قبل الماديـة، فتتصل بـه سلسلة الصلاح ولا تنقطع، وتنتقل الأمانة عن طريقه من جيل إلى جيل. وهكذا يصبح ابنك الروحي في العقيدة أو أخوك الـروحي في الإيمان هو ابنك الحقيقي وأخوك الحق الذي تعتمد عليه بعد الله

تعالى كل الاعتماد، في إدراك المنى وبلوغ المراد.

ولهذا طالب كتاب الله المسلمين بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما، وحذر من موالاة العشيرة ومن التودد إلى الأقرباء متى كانوا غير اخوان في العقيدة والدين، فقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوَ اَبْنَآءَهُمْ أَوِ إِخْوَنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢] فالبغض في الله والحب في الله من الإيمان كما جاء في الأثر.

ومن قصة نوح عادت الآيات الكريمة للحديث عن قصة هود مع قومه عاد، فقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُوداً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، إِنَ انتُمُ إِلَّا مُفْتَرُونَ، يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الذِي فَطَرَنِيَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وأشارت نفس الآيات إلى جواب عاد لهود ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ، إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَيٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾.

وبيّن كتاب الله مصير عاد بعد إصرارهم على الكفر بالله، والتكذيب برسالة هود، وما أكرم الله به هوداً والذين آمنوا معه من النجاة والرحمات، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَواْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ،

وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، أَلآ إِنَّ عَـاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ، أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

وهكذا رأينا مرة أخرى أن الدعوة التي يدعو إليها الأنبياء والرسل دعوة واحدة، يجددها الواحد بعد الآخر، وأن مـوقف خصوم الأنبياء والـرسل مـوقف واحد يقلِّد فيـه بعضُهم بعضاً، ويتوارثونه خلَفاً عن سلَف، كما رأينا أن مصير أهل الفسق والكفر مصير واحد هو الخسران المبين والعذاب الأليم، ومصير أهـل التقوى والإيمان مصير واحد هو الرضوان الأكبر والفوز العظيم.

الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ

إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودٖ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ
جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ
سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ
لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ
لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ
فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبُ ﴿٧١﴾
قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ
عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ
ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ
جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ
هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن
قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ

رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَٰذَآ، أَتَنْهَيٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

بعدما تناولت عدة آيات كريمة في الربع الماضي قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وبيَّنت ما بذله من جهد بالغ ونصح مستمر، في سبيل هدايتهم إلى الإيمان بالله، وحضِّهم على التوبة إلى الله، وتعريفِهم بما يستتبعه الإيمان والتقوى من الحياة الطيبة والمَنَعة والقوة: ﴿ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوآ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً اِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ وتعريفِهم بما يؤدي إليه الإصرار على الكفر والضلال، من تعذيب وإبادة واستئصال، واستخلاف للغير واستبدال ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدَ اَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّونَهُ

شَيْئاً ﴾، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة صالح مع قومه ثمود، ونظراً لأن بداية هذه القصة صادفت نهاية الربع الماضي أجَّلنا الشروع فيها إلى هذا الربع، حتى نقدِّم تفسيرها في صعيد واحد.

وأول ما يواجهنا من قصة صالح أن الدعوة التي وجهها إلى قومه ثمود هي صورة طبق الأصل من دعوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين، وخلاصتها الأمر بعبادة الله دون سواه، والتعريف بأنه لا إلَه في الحقيقة إلا الله، فهذا هو مفتاح الدعوة ومدخلها الوحيد إلى تحرير الإنسان من كل عبودية لأخيه الإنسان، سواء كانت تلك العبودية عبودية جسمية للطغاة المتجبِّرين، أو عبودية وهمية للدجاجلة المشعوذين ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

ثم بيَّن صالح لقومه ثمود أن الله تعالى هو وحده الذي يستحق أن يُرجَى ويُخاف، وأن يُطاع أمره، ويُتجنب نهيه، فهو الذي بيده الإعطاء والمنع، وعلى يده الضر والنفع، وهو مصدر كل النعم التي يتمتع بها الإنسان بدءًا واستمراراً، وما دام الإنسان مديناً بوجوده أولاً، وبرزقه ثانياً للحق سبحانه وتعالى، فالمنطق السليم يقضي على الإنسان بأن يتوجه إليه، ويعتمد عليه، وما دامت أقرب وسيلة للتحلِّي بالفضائل هي التخلي عن الرذائل، فما على الإنسان إلا أن يستغفر الله ويُقبل عليه، فيجده أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي خلقكم لعمارتها وجعل لكم فيها معايش ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ

إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾. وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، اجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فما كان من قوم صالح إلا أن أجابوا نبيهم بنفس الجواب التقليدي الذي اعتاد خصوم الرسالات أن يجيبوا بمثله كافة الأنبياء والرسل، وهذا الجواب يكون عادة عبارة عن مزيج من التكذيب والتجريح والاستهزاء، ومهما اختلفت ألفاظه فإن المعنى الذي يعبر عنه واحد في نهاية الأمر.

ويتضمن جوابُ ثمود لنبيهم صالح خيبةَ أملهم فيه، وسوءَ ظنهم بسلامة عقله، وشكَّهم البالغ في كل ما دعاهم إليه، واستنكارَهم التام لتهجمه على معبوداتهم ومقدساتهم المتوارثة: ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـٰذَآ، أَتَنْهَـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

ويقبل، على الإيمان بصالح، المستضعفون من قومه، بينما المترفون وكبار القوم يواصلون حياتهم على ما ألفوه من الشرك والوثنية.

ولَمَّا تخوَّفوا من استفحال دعوته وغلبتها، أخذوا يتحدُّونه ويطالبونه مرة بعد أخرى، بآية محسوسة تراها العين، تكون دالَّة على صدق رسالته، فكانت تلك الآية التي طلبوها، هي ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٣]، وإنما أضيفت إلى اسم الله لكونها

جاءت على خلاف ما هو معتاد في جنسها، لا شكلاً، ولا حجماً، ولا غذاءً، فأمرهم صالح بتركها تأكل في أرض الله، وبأن يكون لها وحدها شِرْبُ يوم معلوم، كما يكون لمواشيهم شِرْبُ اليوم الذي يليه، بحيث تقاسمُ (ناقة الله) مواشيَهم مياهَ الشرب مناصفة، يوم لها ويوم لهم.

غير أن كبار القوم وأصحاب المصالح، لم يصبروا طويلاً على امتثال أمر صالح، ولعلهم وجدوا في هذا الأمر حداً لاحتكارهم، وقيداً لاستغلالهم واستثمارهم، ولعل ألبان (ناقة صالح) أصبحت عوناً لصالح على الدعوة إلى الله، وغذاءً للفقراء المستضعفين الذين آمنوا بالله، فلم يَسَعْ كبارَ قوم صالح وكفارَهم إلا أن يحرضوا على قتل (ناقة الله)، تحدياً صارخاً لصالح الذي انتشرت دعوته إلى الله ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ائتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٧٧]. وحدد صالح لمصرعهم بعد عَقْرهم للناقة ثلاثة أيام، كل يوم منها يرون فيه لوناً من ألوان العذاب، قبل أن يَهلِكوا ويبيدوا بالمرة، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى هنا بإيجاز وإعجاز ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ، ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحاً وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ، أَلَآ إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾.

وانتقل كتاب الله من الحديث عن قصة صالح وما انتهت به من عذاب لكفار ثمود إلى قصة لوط مع قومه.

ولهذه القصة علاقة بإبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بينه وبين لوط قرابة روح وقرابة نَسَب، فقد أرسل الله ملائكته إلى لوط عليه السلام ليخبروه بأن موعد هلاك المفسدين الضالين من قومه قد أصبح على الأبواب. وفي طريقهم إلى لوط عرّجوا على إبراهيم الخليل واستضافوه، فأحسن ضيافتهم ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾. والحنيذ هو المشوي على الحجارة المحمّاة، وبشّروا امرأته بولادة اسحاق ويعقوب رغماً عن فواتها سن الحمل، وبالرغم من شيخوخة زوجها إبراهيم ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ، وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً، إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ ﴾. ودار الحديث بينهم حول قوم لوط وما ينتظرهم من عذاب الله ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

ولما وصل أولئك الملائكة إلى مقر لوط ونزلوا عنده أقبل عليه الفَسَقة المفسدون من قومه يريدون اغتصاب ضيوفه من الملائكة، فجدد عليهم لوط أمر الله إليهم بالتوبة من جريمة الشذوذ الجنسي، ودعاهم إلى الاكتفاء بما أحلّ الله من العلاقات الزوجية المشروعة ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ أي بنات قومي ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيَ، أَلَيْسَ مِنكُمْ

رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾. لكنهم أصروا على انحرافهم كل الإصرار ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً، جزاء قلبهم للأوضاع، وما ارتكبوه بفاحشتهم من سوء الابتداع.

وتلقى لوط من الملائكة الرسالة التي جاؤوه بها من عند الله ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ، فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْـلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾، لكنهم استثنوا من أهله امرأة لوط كما استثنى الله من أهل نوح ابنه وامرأته معاً، فكانا من المُغرقين، وهذا الاستثناء هو قولهم فيما حكاه عنهم كتاب الله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ، إِنَّـهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَـوْعِدَهُمُ الصُّبْـحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾.

وبعدما أُسدِل الستار، على قوم لوط بما فعلوه من الفواحش والأوزار، عقَّب كتاب الله على ذلك بما يفيد أن كل من عمل عملهم، وسلك مسلكهم، من الفَسَقة الظالمين، سيكون مهدداً بعذاب الله، وسيف العقاب مُصْلَت على رأسه دائماً، إن لم يكن على الصورة التي عوقب بها قوم لوط، فعلى صورة أخرى لا يعلمها إلا الله، فللعذاب ألوان شتى، كما أن للزهر ألواناً شتى، فقال تعالى ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي نقمة الله ﴿ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ
يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ
وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ
نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ
فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾
قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟
فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ

فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾
يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ
ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ
ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ
مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ
فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن
شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ
لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا
لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الـربع الأول من الحـزب الرابـع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيـزَانَ، إِنِّيَ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ، وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ، وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾.

تتناول الآيات الكريمة في أكبر قسم من هذا الربع قصة شعيب عليه السلام مع قومه مدين، وفي هذه القصة نواجه نوعاً جديداً من المخالفات ارتكبه قوم شعيب وأسرفوا فيه إسرافاً بالغاً.

فبالإضافة إلى شركهم بالله، وما يترتب على الشرك وحده، وما ينبثق عنه من آفات وعاهات وتقاليد فاسدة، نجد أهل مدين قد بالغوا في استغلال الخلق وأكل أموال الناس بالباطل، فهم يطففون الكيل، ويطففون الوزن، ويبخسون الناس أشياءهم، وهم مثل فاضح للاستغلال المادي الفاحش الذي لا يـرحم ولا يخجل،

ولا يتعفف ولا ينصف أحداً، الأمر الذي جعل شعيباً عليه السلام يرفع عقيرته ضد قومه، عملاً بأمر الله الذي لا يرضى عن الاستغلال والمستغلين، من أي جنس أو دين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّيَ أَرِيـٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم، وأخشى عليكم زوال هذا الخير ﴿ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ، وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيـزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُـواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَـواْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾ أي ما يَفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أكل أموال الناس بالباطل ﴿ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

غير أن المستغِلين الشَّرِهين من قوم شعيب لم يتمالكوا أنفسهم من الغضب والاستعلاء، وأخذوا يتبجحون بأن المال الذي يكتسبونه من تجارتهم هو مالهم الخاص، ولذلك فهم فيه أحرار يفعلون به ما يشاؤون، ويتصرفون فيه كيف يريدون، ورفضوا تقييد حريتهم بأي قيد في معاملاتهم التجارية التي اعتادوها، فهم حريصون على اكتساب أكبر ربح ممكن، بأقل عوض ممكن، وهم يعتبرون هذا الأسلوب في التجارة هو أسلوب التجار العقلاء الراشدين في معاملاتهم، وما دونه سَفَه وبَلَه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَامُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ، أَوَ اَن نَّفْعَلَ فِيَ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰؤُاْ ﴾، ثم يختمون ردَّهم عليه بقولٍ ظاهرُه المَدح وباطنه القَدح، فيقولون: ﴿ إِنَّـكَ

لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، ومرادهم منه أن من يدعو إلى العدل والانصاف في البيع والشراء مثل دعوته يعدُّ في نظرهم جاهلاً وسفيهاً، لا حليماً ورشيداً، فالرشد في نظر المستغِلين، تجاراً أو غير تجار، هو ابتزاز أموال الناس بأدنى مقابل، أو بدون مقابل بتاتاً، وهذه سنَّتهم المتوارثة في كل عصر وجيل.

وقول أهل مدين لنبيهم شعيب ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [الآية: ٨٧] تتضمن نوعاً من الاستهزاء والتعيير، إذ كانوا متضايقين مما رأوه عليه من المواظبة على عبادة الله، والتضرع بين يديه، شأنهم في ذلك شأن خصوم الرسالات الإلَهية في جميع العصور، الذين يتطيرون بأهل الصلاح والتقوى، ويتضايقون من استقامتهم وثباتهم على الحق.

لكن شعيباً لا يسلك في الرد على قومه مسلكهم في المِراء والاستهزاء، بل يرد عليهم الرد اللائق بمقام الأنبياء والمصلحين، مؤكداً لهم أن التعليمات التي بلَّغها إليهم عن ربهم ليست موجهة إليهم دونه، بل هو أول من ينفذها، وأنه ليس ممن يأمر بالبِرِّ غيره، ثم ينسى نفسه ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾.

ثم عقَّب شعيب على ما دار بينه وبين كفار قومه بما يوضِّح الهدف الأساسي من كل رسالة إلَهية بعث الله بها إلى الناس، وهذه الرسالة تتلخص أولاً وأخيراً في إصلاح أحوال الناس إصلاحاً شاملاً، تصَلُح معه عقيدتهم، وتَصلُح معه شريعتهم، ويَصلُح معه سلوكهم، ويَصلُح معه مجتمعهم، وتَصلُح معه

معايشهم، وتَصلُح معه علاقاتهم. وهكذا يتسرب الإصلاح إلى كل زاوية من زوايا حياتهم الظاهرة والباطنة، فيصبحون أمة فاضلة وصالحة، ويصبح مجتمعهم مجتمعاً فاضلاً وصالحاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا على لسان شعيب عليه السلام ﴿ إِنْ ارِيدُ إِلاَّ الإِصْلَـحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاَّ بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾.

وها هنا كلمتان في غاية الأهمية لا بد من الوقوف عندهما ولو قليلاً، ألا وهما كلمة (الاصلاح) وكلمة (التوفيق). فكلمة الاصلاح تعني على العموم الإتيان بما هو صالح ونافع ومناسب، من الصلاح، ضد الفساد، وأصل معنى «الفساد» في لغة العرب زوال منفعة الشيء وتعذر المقصود منه، وأطلق الفساد في لسان الشرع على الشرك بالله الذي هو منبع جميع الضلالات والبدع، وعلى إذاية الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] سواء كانت تلك الإذاية عامة لمجموعهم، أو خاصة ببعضهم، فيكون الصلاح الذي هو ضد الفساد عبارة عن سلوك طريق الهدى والاستقامة، والعمل على نفع الخلق نفعاً عاماً أو خاصاً، ويكون (الصالح) هو الذي قام بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد.

والمراد بكلمة (التوفيق) هنا ضد الخذلان، من «الوَفْق بين الشيئين»، بمعنى التحامهما، ولم تَرِد كلمة التوفيق بمعنى عدم الخذلان في آية أخرى من كتاب الله. ونعمة التوفيق بهذا المعنى من أجلّ النعم التي أنعم الله بها على الخواص من عباده، فَمَن

رُزق نعمة التوفيق فقد رُزق خيراً كثيراً. قال حجة الإسلام الغزالي: «وإنما الاعتبار بقلب العالِم الموفَّق، المراقِب لدقائق الأحوال، وهو المِحَكّ الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعز هذا القلب في القلوب».

وبيَّن كتاب الله أن شعيباً عليه السلام لم يتقهقر عن دعوته إلى الله، بل استمر ثابتاً عليها، داعياً إليها دون انقطاع، وقد حاول أن يستخلص العبرة لقومه مما أصاب الأقوام السابقة قبلهم، فهم يعرفون مصارعهم حق المعرفة، وعندهم من خبرها الشيء الكثير ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ أي لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الإصرار والعناد، وكأنه يريد أن يقول لهم إني أخاف عليكم ﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ، وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

إلا أنه بالرغم من جميع الجهود التي بذلها في سبيل هدايتهم واقناعهم بالحق أصروا على ما هم فيه، ولم يكتفوا بإصرارهم على الباطل، بل أطلقوا لألسنتهم العِنان في الطعن على شعيب والطعن في دعوته، والتهديد له بالرجم إلى أن يموت، وذلك ما تشير إليه الآيات التالية: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أي أن دعوتك لا يستسيغها عقل ولا يقبلها منطق ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ أي لا عصبة لك من كبار القوم ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ﴾ أي لولا أن لعشيرتك معزة عندنا، ومكانةً خاصةً بيننا، لقمنا برجمك، و«الرجم» أشق العقوبات

وأكثرها تعذيباً ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾.

وما كان من شعيب عليه السلام إلا أن رد عليهم في حدود الأدب المعهود من الأنبياء، وفي نطاق الدعوة المأمور بتبليغها عن الله ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أي رفضتم دعوته وعصيتم أمره ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

ولما انقطع كل أمل في قبولهم للإصلاح الذي جاءهم به شعيب عن الله تبرأ منهم ومن أعمالهم، ووكلهم إلى عذاب الله المرتقب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن شعيب يحذرهم وينذرهم: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ ﴾ أي اِعمَلوا على طريقتكم فأنا عامل على طريقتي، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] وقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ثم مضى ينذرهم قائلاً: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ﴾ أي ستعلمون من الكاذب فينا ومن المعذَّب؟ هل أنا أم أنتم، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبإ: ٢٤]، ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

ثم انتهت قصة شعيب مع كفار أهل مدين بعذابهم وعقابهم، واستئصالهم وإبادتهم، ونجاة شعيب والذين آمنوا معه، كما ينتهي كل صراع بين الخير والشر، والحق والباطل، باندحار الشر والباطل، وانتصار الخير والحق، وذلك ما يشير إليه قوله

تعالى هنا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أي كأن لم يعيشوا فيها من قبل ﴿ أَلَا بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى قصة موسى مع فرعون، فأوجز الإشارة إليها في هذا المقام دون تفصيل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾.

وعقّب كتاب الله على هذه القصص كلها بما يبرز العبرة من وقوعها أولاً، والتذكيرَ بها ثانياً، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي منها ما لا تزال أطلاله قائمة تشير إلى نقمة الله وعذابه، ومنها ما حلّ به الخراب والدمار فلم يبقَ منه عين ولا أثر ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَـٰلِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

يَوْمَ يَاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ
شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا اَلذِينَ شَقُواْ فَفِے اِلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا
زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ اِلسَّمَٰوَٰتُ
وَالَارْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا
اَلذِينَ سَعِدُواْ فَفِے اِلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ اِلسَّمَٰوَٰتُ
وَالَارْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِے مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم
مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدَ اتَيْنَا
مُوسَى اَلْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِے شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِن كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ
رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمُۥٓ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ
إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾
وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ
مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ
بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾
قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كَانَ فِى
يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ
أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾
ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟
مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة هود المكيـة: ﴿ يَوْمَ يَـاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِـهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ونهايته قولـه تعالى في سـورة يوسف المكيـة أيضاً: ﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِ قَوْماً صَـٰلِحِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحـديث عن يوم القيامة، وقد بدأ الحديث عن هذا اليوم الموعود في نهاية الربع الماضي بقوله تعالى: ﴿ اِنَّ فِي ذَٰلِـكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَـافَ عَذَابَ الَاخِرَةِ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ، وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُـودٌ، وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾. ثم تلا ذلك قوله تعالى هنا: ﴿ يَوْمَ يَاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[الآية: ١٠٥]. وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة مرتبطاً بعضهابعض، لأنها في موضوع واحد.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ يماثله في

المعنى قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩]. وهذا المعنى الذي تتضمنه كلتا الآيتين تؤكده عدة آيات أخرى في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ [التغابن: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [ءال عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعاً ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [ءال عمران: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ يظهر أن فيه وصفاً لكيفية تنفس الأشقياء في جهنم، وأنه على خلاف ما هو معتاد في تنفس الكائنات الحية، كأن تنفس الأشقياء في جهنم يسبق فيه «الزفير» الذي هو دفع النَّفَس إلى الخارج، على «الشهيق» الذي هو أخذ النفَس إلى الداخل، بينما التنفس العادي للكائنات الحية يسبق فيه «الشهيق» الذي يأخذ به الكائن الحيّ حظه من الهواء المنعش إلى داخل الجسم، على «الزفير» الذي يدفعه الكائن الحيّ من الداخل إلى الخارج بعد أخذ حاجته منه. وفي هذا الوصف لتنفس الأشقياء في جهنم

إشارة إلى ما يعانونه من ضيق واختناق، حتى كأن صدورهم تغلي غليان المِرْجَل، وعلى العكس من ذلك يكون حال السعداء في الجنة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دون أن يتعرضوا لأي شيء من هذه الأعراض الغريبة.

وقوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ ﴾ الوارد في سياق كل من السعداء والأشقياء، في تفسيره تأويلان مختلفان:

التأويل الأول: أن المراد (خالدين في الجنة أو في النار ما دامت سماوات الآخرة وأرضها) لأن الآخرة هي دار الخلود. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وإلى هذا التأويل ذهب ابن عباس حيث قال: «لكل جنة سماء وأرض»، والحسن البصري حيث قال: «سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، والخلود في الجنة أو في النار ما دامت تلك السماء وتلك الأرض». وإلى هذا التأويل مال ابن كثير في تفسيره حيث قال: «قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ ﴾» [إبراهيم: ٤٨] وبه أخذ القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) إذ قال: «وجوابنا أن للنار سماء وأرضاً، وكذلك الجنة، ولا يفنيان، فهذا هو المراد».

التأويل الثاني: أن المراد هو مجرد التأبيد والدوام، على حد قول العرب: «هذا دائم دوام السماوات والأرض أو باقٍ ما

لاح كوكب، وما ناح الحَمام». وإلى هذاالتأويل ذهب ابن جرير وابن جُزَيّ في تفسيريهما.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في سياق الكلام على الذين شَقُوا وارد مورد الاستثناء من قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾[الأنعام: ١٢٨] ويشبهه قولُه تعالى في آية ثالثة: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وقولُه تعالى في آية رابعة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال ابن كثير ما خلاصته: «اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (زاد المسير)، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه. واختار ابن جرير ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة، وابن سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً أن الاستثناء (يَعْنِي «إلّا ما شاء رَبُّكَ»، الوارد في سياق الحديث عن الأشقياء) عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيئين والمومنين، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها». قال ابن كثير: «وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة».

ويمكن حمل الاستثناء الوارد في هذا السياق على طريق التأدب مع الله، كقولك «إن شاء الله» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً، إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الآية: ١٨٨]، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الآية: ٤٩]، وقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ، إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الآيتان: ٦، ٧].

وقولُه تعالى تعقيباً على حكمه في شأن الأشقياء: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ إشارةٌ إلى أن الإرادة الإلّهية نافذة لا يلحقها أيّ خلل أو أيّ تعطيل، فقد بعث الله إلى الناس الرسل، وأقام عليهم الحجج، وأنذرهم سوء العاقبة، وها هو يثبت لهم أن الأمر جد لا هزل، وأن قوله قول فصل، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] وبذلك يكون عذابهم مطابقاً لمقتضى العدل، ومنسجماً مع روح الحكمة.

وقولُه تعالى تعقيباً على وصفه لحال السعداء: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي عطاء غير مقطوع، فيه طُمَأْنِينَةٌ لقلوبهم، وتطييب لخواطرهم، ورفع لأثر التَّوهُّم الذي يُشعِر به الاستثناء الوارد أيضاً في سياق الحديث عنهم ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ إذ أن ظاهره يوهم احتمال انقطاع العطاء الإلّهي عنهم، حيث أن ذلك العطاء ليس أمراً واجباً على الله، وإنما هو موكول إلى مجرد مشيئته، ومحض منّته، ولا يبعد أن تكون الحكمة في هذا الاستثناء بالنسبة للسعداء،

هي أن تبقى قلوبهم معلقة بين جناحي الخوف والرجاء.

وذهب الضحاك والحسن البصري إلى أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ الوارد في سياق السعداء هو منصبٌّ على عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها بعد العذاب، إذ أن هؤلاء لا يصدق عليهم ما يصدق على السعداء الأصليين الذين لم يروا العذاب أصلاً، من أنهم في الجنة خالدون، لأن عصاة الموحدين يمرون بالعذاب الأليم أولاً، ولا ينالهم عفو الله إلا أخيراً.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ تعريف من الله تعالى لرسوله بأنه سيوفيهم جزاءهم، طبقاً لما يقع عليه اختيارهم، وتكسبه أيديهم من الهدى أو الضلال.

و «المِرْية» هي الشك، والنهي عن الشك الوارد هنا في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ وإن كان في ظاهره موجهاً للرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه موجه في الحقيقة إلى غيره من أفراد المدعوين والمكلفين، الذين يُتصَّور في حقهم وجود الشك، والمطلوبُ منهم الوصول إلى اليقين، لتمييز الحق من الباطل، نظير قوله تعالى في آية سابقة وجِّه فيها الخطاب إلى الرسول، والخطاب في الحقيقة موجَّه إلى بقية الناس ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[يونس:٩٤] والنبي لم يشك ولم يسأل.

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ أمر من الله لرسوله والمومنين بالثبات على الصراط المستقيم، ونهي من الله للمومنين عن البغي والطغيان، والظلم والعدوان، ولو كان من يقع عليه البغي والظلم مشركاً. وللتحذير من الإقدام على الظلم والتورط في نتائجه قال تعالى عقب النهي عنه: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ بمعنى أنه يراقبكم ويراقب أعمالكم.

ثم وجَّه الحق سبحانه وتعالى خطابه لرسوله والمومنين من جديد، يأمرهم بالابتعاد عن موالاة الظَّلَمَة، وبالحذر من إعانتهم على الظلم بأي وجه من الوجوه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ ولا يدخل في (الركون) مجرد المخالطة والمعاشرة دون عون ولا تأييد، كما نص عليه القاضي عبد الجبار.

وبيَّن كتاب الله أن الله وحده هو الذي يجب أن يكون وليّ الذين آمنوا، يوالونه وينصرونه، ويقفون بجانب أوامره دائماً، لأن غير الله وإن تولّوه فلن يكون لهم وليّاً، إذ ليس بيده ضر ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، وإذا اعتمدوا على غير الله وَكَلهم الله إلى أنفسهم، وخذلهم خذلاناً مبيناً ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ، ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَيْلِ ﴾ ذكر ابن كثير أن هذه الآية يحتمل أن تكون نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، حيث لم يكن يجب من الصلوات

إلا صلاتان في النهار وقيام الليل.. وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «لا خلاف أن هذه الآية تضمنت الصلوات الخمس، والذي نختاره أنه ليس في النهار من الصلوات إلا الظهر والعصر، وباقيها في الليل، فزُلَف الليل ثلاثة: في ابتدائه، وهي المغرب، وفي اعتدال فَحْمته، وهي العشاء، وعند انتهائه، وهي الصبح».

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ﴾ عقب الأمر بالصلاة مباشرة، شبيه بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالصلاة إذا أقيمت على الوجه الأكمل هي أحسن الحسنات، وهي أكبر مطهر ومكفر للسيئات، بما تعين عليه من محاسبة النفس على الأوزار، وما تدفع إليه باستمرار من التوبة والاستغفار. جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقِي من دَرَنه شيئاً؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا» رواه مالك في الموطأ، والبخاري في الصحيح، والترمذي في السنن، وأحمد في المسند. وروى الإمام أحمد من حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقِ الله حيثما كنت، وأَتبِع السيئة الحسنة تَمحُها، وخالق الناس بخلق حسن». والمراد «بالنهر الغَمْر» في حديث أبي هريرة: كثير الماء.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى قادر على أن يضطر الناس جميعاً إلى

الإيمان بعقيدة واحدة، والسير في طريق واحد، لو كان يريد أن يخلق الناس على نمط الطبيعة الآلية المجردة، ولو كان يريد أن يَحرمهم من أخص خصائص الإنسان، التي هي خَصِيصَةُ التمتع بالإرادة والحرية، وبملكة التفكير والتقدير والاختيار، لكنه سبحانه خلقهم أناسيَّ مجهَّزين بعقل وتفكير، وإرادة واختيار. والنتيجة الطبيعية لخلقهم على هذه الصورة هي اختلاف منازعهم، واختلاف مشاربهم، واختلاف اختياراتهم، وتبعاً لذلك اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، وتعدد مللهم وأديانهم، وبهذا التفسير يتضح معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أي خلقهم على صورة خاصة ميَّزهم بها عن بقية الحيوانات، وهذه الصورة تقتضي بطبيعتها أن تختلف آراؤهم، فالخلاف مآلها، لأنه أثر من آثارها، ومن هنالك كان في الناس شقي وسعيد، ومومن وكافر ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء متصل، أي إلا من رحم ربك فإنه لا يختلف، والمراد به من التزم دعوة الأنبياء والرسل، وآمن بها دون أن يَشُوبها بأية بدعة أو ضلالة، ولا أن يُدخِل عليها أي تغيير أو تبديل. وبعبارة أدق: من اختار لنفسه سيرة الرسول وأصحابه، فتمسك بها دون أن يحيد عنها وكان من حزب الله، الموعود بالفلاح والفوز والنجاة.

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ خطاب من الله لرسوله يتضمن بيان حكمته فيما يقصه

عليه من أخبار الأنبياء والرسل السابقين، فهو يضرب له المثل بهم، ويحضُّه على التأسي والاقتداء بسلوكهم، ويعرِّفه بحسن عاقبتهم، ومصير المكذبين لهم من قومهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾ إشارة إلى هذه السورة الكريمة ـ سورة هود ـ التي قال عنها الرسول الأعظم ﷺ: «شيَّبتني هود وأخواتها».

وختمت سورة هود بخطاب من الله لرسوله يأمره فيه بمواصلة عبادته لله في جميع الحالات، وبالاِعتماد عليه في جميع الخطوات، ويتعهد له مرة أخرى برعايته وعنايته في المَنشَط والمَكرَه والسرَّاء والضرَّاء، فقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وبختام سورة هود ننهي حصة اليوم لطولها، مؤجلين القول في الآيات الأولى من سورة يوسف ـ وإن كانت مندرجة في هذا الربع ـ إلى الحصة المقبلة إن شاء الله، وكل آتٍ قريب.

الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ

وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٖ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَۖ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ
قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۖ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُۥٓ أَنفُسُكُمُۥٓ أَمْراٗۖ
فَصَبْرٞ جَمِيلٞۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَۖ ۝١٨ وَجَآءَتْ
سَيَّارَةٞ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا
غُلَٰمٞۖ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۖ وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَۖ ۝١٩ وَشَرَوْهُ
بِثَمَنِۢ بَخْسٖ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَۖ ۝٢٠
وَقَالَ الذِے اِشْتَرَيٰهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِے مَثْوَيٰهُ
عَسَيٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَداٗۖ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِے الْاَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَاوِيلِ الْاَحَادِيثِۖ وَاللَّهُ غَالِبٌ
عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦۖ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَۖ ۝٢١ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماٗ وَعِلْماٗۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِے الْمُحْسِنِينَۖ ۝٢٢
وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِے هُوَ فِے بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ الْاَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هِيتَ لَكَۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَۖ ۝٢٣ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن
رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۖ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَۖ
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَۖ ۝٢٤ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ

مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ
بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ
رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾
وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ
هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾
وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن
نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا
وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا
رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا
إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ
رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ
وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونـاً مِّنَ الصَّٰغِرِينَ ﴾.

لأجل أن نفهم الآيات الكريمة الواردة في هذا الربع لا بد لنا من الرجوع إلى ما سبقها من الآيات التي أجّلنا القول فيها إلى هذه الحصة، ابتداءً من مطلع سورة يوسف المكيـة، وأول ما نلفت إليه النظر سبب تسميتها «بسورة يوسف»، فقد تناولت قصة يـوسف مع اخـوته بـالتفصيل، وتـردد فيها اسم يـوسف خمساً وعشرين مرة، وفي قصة يوسف قال رسول الله ﷺ كما رواه أحمد وانفرد بإخراجه البخاري: «الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم».

ومن المناسبات الطريفة بين بداية سورة يوسف ونهاية سورة

هود، وما يوجد بينهما من علاقة وارتباط، أن كلاً منهما تناول بالذكر والتنويه موضوع القِصص التي يقصُّها كتاب الله، وما فيها من عبر وحكم، فقال تعالى في بداية سورة يوسف: ﴿ الٓر، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ، إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَـٰفِلِينَ ﴾ أي من الغافلين عن هذه القصة وما شاكلها، كما قال تعالى في نهاية سورة هود التي سبقتها: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنۢبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَآءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾. والقَصص (بفتح القاف) لفظ مفرد يكون مصدراً ويكون اسم مفعول بمعنى المقصوص، والقِصص (بكسر القاف) جمع قصة ومثلها أقاصيص.

وقد خصَّ القاضي عبد الجبار من بين سور القرآن جميعاً سورة يوسف بمقدمة نفيسة تولى فيها تحليل هذه السورة، ولفَت الأنظار إلى ما فيها من مواطن العبرة والتدبر، فقال رحمه الله: «أول ما نذكر في هذه السورة أنها مشتملة من آداب الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن آداب الأخلاق، والتمسك بالصبر والحلم، وتوقع الفرج بعد حين، والتشدد في الصبر على المعاصي واحتمال المكاره، على ما لو تأمله القارىء، وتمسك بكلّه أو بعضه، لعظم موقع ذلك في دينه ودنياه».

«فليتأمل القارىء أولاً رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر، وأن أباه، صلى الله عليهما، كيف تقدم بكتمان ذلك عن إخوته، والصبرُ في كتمان ذلك صعب، فاحتمله تحرزاً من

حسدهم» ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ، قَـالَ يَـٰبُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُءْياكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً، إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لِلإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

«وليتأمل ثانياً كيف جاد به على إخوته، لئلا يستوحشوا، وظَنَّ السلامةَ، مع خوفه منهم عليه، حتى أقدموا على ما أقدموا» ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِ قَوْماً صَـٰلِحِينَ ﴾.

«وليتأمل ثالثاً أنه بعد ظهور ذلك منهم كيف احتملهم، ولم يجازِهم على ما فعلوه، بقطعهم وإخراجهم عن محبته، وعن النظر لهم» ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

«وليتأمل رابعاً صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز، كيف تشدَّد في الاحتراز عنها، واحتمل لذلك الحَبْس الطويل، حتى كانت عاقبةُ صبره ما حصل من اعتراف الكل بصيانته ووصوله إلى الملك والبغية» ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴾ - ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ، قُلْنَ حَـٰشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْـهِ مِن سُوٓءٍ، قَـالَتِ امْرَأَتُ الْعَـزِيزِ الْـٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَـا۠ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِـهِ وَإِنَّـهُ لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾ - ﴿ كَـذَٰلِـكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوٓءَ وَالْفَحْشَـآءَ، انَّـهُ مِنْ عِبَـادِنَـا الْمُخْلَصِينَ ﴾ - ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ايتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ امِينٌ ﴾ - ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾.

«وليتأمل خامساً ما دُفِع إليه إخوتُه في تلك السنين الصعبة، من التردد إلى يوسف، يطلبون من جهته القوت، واحتمالِهم لما عاملهم به ﴿ وَجَآءَ اخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْـهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَـهُ مُنكِرُونَ، وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ايتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنَ ابِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ، فَإِن لَّمْ تَاتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ - ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

«وليتـأمل سـادساً كيف صبـر عليهم، وكيف احتمـل في تخليص أخيه إلى حضرته، واحتباسه عنده على مَهَل، وقد كان يمكنه التعجل» (واسم أخيه هذا بنيامين، وكان أصغر من يوسف) - ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّيَ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

«وليتأمل سابعاً كيف حسُنت معاملتُه مع إخوته حين ظفر بهم، وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به، ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم

مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ، قَالُوٓاْ أَ.ءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ، قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ، الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴾.

«وليتأمل ثامناً كيف توصل إلى إزالة الغُمَّة عن قلب أبيه، وصبَر إلى أن ظفِر بالوقت الذي أمكنه فيه إحضاره عنده على أحسن الوجوه» ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً، وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾.

«وليتأمل تاسعاً كيف كان صبر يعقوب ﷺ في بابه، وفي باب غيبة أخيه، وهو كالراجي لعودهما إليـه واجتماعـه معهما» ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ - ﴿ يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

«وليتأمل عاشراً كيف قبِل يوسف عُذْر إخوته، وقد اعتذروا إليه، مع تلك الجنايات العظام» ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ ﴾ فكان جوابه ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ، الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴾.

«وليتأمل حادي عشر كيف قِبل يعقوبُ أيضاً عذرهم» ﴿ قَالُواْ يَـٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ ﴾ وزاد بأن قال ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، «إلى وجوه أخر تركنا ذكرها».

«ثم إنه تعالى قال في آخر السورة لرسوله ﷺ ولجماعة المكلفين: ﴿ ذَٰلِكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمُ إِذَ اَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ فنبه بذلك على وجوب التمسك بهذه الأخلاق والآداب. وكذلك قال تعالى في أول السورة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ لأن النفع يعظم بذلك لمن تأمله».

«وهذا معنى قوله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] لأن من تدبرَّ القرآن، وتمسك بأحكامه وآدابه وأخلاقه، انفتح قلبه للخيرات ديناً ودنيا، فإذا قرأه من غير تدبر يصير قلبه كأنَّ عليه قُفلاً لا يتغير عما هو عليه، فهذه المقدمة التي قدمناها في هذه السورة تنفع فيها وفي القرآن». انتهى نص المقدمة النفيسة التي قدم بها القاضي عبد الجبار سورة يوسف، وقد وضعنا بجانب كل نقطة منها ما يناسبها من الآيات.

والآن فلنقف وقفة مناسبة عند جملة من الآيات الكريمة في هذه السورة بقدر ما يتسع له الوقت.

فقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴾ معناه اذكر يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه (الآية).

وقال ابن عباس: «رؤيا الأنبياء وحي». وقد تكلم المفسرون على تعبير هذه الرؤيا فقالوا إن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوة يوسف، وكانوا أحد عشر أخاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، ووقع تفسير هذه الرؤيا بعد أربعين سنة، وذلك حين رفع يوسف أبويه على العرش ـ وهو سريره الذي كان يجلس عليه لمباشرة شؤون الدولة ـ وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً، وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَاوِيـلُ رُءْيـَيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾.

وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيـاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً﴾ دليل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا، وأنها ترمز إلى ظهور يوسف على إخوته وتقدمه عليهم، ولذلك نَهَى ابنَه يوسف عن ذكرها لإخوته، وأمره بكتمانها عنهم، خوفاً من أن يحتالوا للقضاء عليه والتخلص منه.

وخوفُ يعقوب من كيدهم إما أن يكون مبنياً على حكم العادة الشائعة بين بعض الإخوة وبعض الأقرباء إذا كانوا غير أشقاء، وإما أن يكون مبنياً على شعوره بغيرة إخوته منه وكرههم له، نظراً لشغَف أبيه به دونهم. أما يعقوب نفسه فلم يبالِ بما ترمز إليه الرؤيا من علوّ مقام ابنه يوسف، لأن الأب يود عادة أن يكون ابنه خيراً منه، ولا يضيق بذلك صدراً. قال ابن كثير: «ومن هنا ـ أي من قوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيـاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ ـ يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث (استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَاوِيلِ

الاحَادِيثِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [الآية: ٦] حكاية لما قاله يعقوب لابنه يوسف، متنبئاً بما سيؤول إليه أمره في مستقبل الأيام.

وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف في شأن أبيهم يعقوب: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، إشارةٌ إلى أنه كان لا يُنزِلهم من نفسه منزلة أخيهم يوسف، بينما محل الولد من أبيه هو أن ينزله منزلة سائر أولاده دون تفضيل، فالمراد هنا «بضلاله» افراطه في حب يوسف وأخيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ [الآية: ١٦] قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «فيه دليل على أن بكاء المرء لا يدل دائماً على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً، ومن الناس من يقدر من التطبع على ما يشبه الطبع».

وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا ﴾ [الآية: ١٧] تضمَّن إشارة إلى السباق، والأصل فيه الجري على الأقدام لمعرفة السابق من اللاحق، والسباق مندوب إليه شرعاً، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيله، فرُوي أنه سابق عائشة فسبقها، وأنه سابقها فسبقته، فقال لها هذه بتلك، ورُوي أنه سابق بين الخيل التي أُضمِرت، من الحَفْياء إلى ثَنِيّة الوَداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَر، من الثنية إلى مسجد بني زُرَيْق، وفي ذلك من الفوائد رياضة النفس والدواب، وتدريب

الأعضاء على التصرف، ولا مسابقة إلا بين الخيل والإبل خاصة».

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [الآية : ١٨] إشارة إلى الدم الذي أراد إخوة يوسف أن يجعلوه علامة على صدقهم، لكن القميص كان سالماً من التمزيق. قال ابن عباس: لو أكله السبُع لخَرَق القميص، والعلامات إذا تعارضت تعين الترجيح، فيقضي بجانب الرجحان، ولا خلاف في الحكم بالتهمة إذا ظهرت، كما أشار إلى ذلك يعقوب عليه السلام فيما حكته عنه الآية: ﴿قال بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ إذ أن إخوة يوسف لم يكن من فعلهم ما يناسب الشفقة عليه، فيشهدَ بصدقها، بل كان الذي سبق منهم هو تبرُّمهم به، كما نبه إليه القاضي أبوبكر (ابن العربي).

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ السَّيارة هنا مؤنث سَيار، والمراد بها القافلة من المسافرين، و (الوارد) هنا هو الذي يستقي الماء للجماعة.

وقوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ ـ أي باعوه ـ ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ عبارة عن قلتها، وهو يفيد أن الأثمان عندهم كانت تجري عدداً لا وزناً، ولا شك أن في العدد تخفيفاً عن الخلق، لكثرة المعاملة ومشقة الوزن.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ المراد بالأرض هنا أرض مصر، والمراد

«بتأويل الأحاديث» البراعة والاصابة في تعبير الرؤيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءا بُرْهَـٰنَ رَبِّـهِ ﴾ إشارة إلى عزم امرأة العزيز على الإيقاع بيوسف في شركها، لكن يوسف لم يقع في ذلك الشرك بإعانة الله له، فتغلب على حديث النفس الذي لم يبلغ إلى درجة العزم، وحصّنه الله من الوسواس الخناس، وصرفه عن السوء والفحشاء. والتعبير بلفظ «همّت به» و«هَمَّ بها» بالنسبة لكل من الاثنين إنما هو من باب (المشاكلة) اللفظية لا غير، لاختلاف الموقفين واختلاف المعنيين. قال ابن جُزَيّ في تفسيره: «أكثـرَ الناسُ الكلام في هذه الآية حتى ألّفوا فيها التآليف، فمنهم مفـرط ومفرّط، والصواب إن شاء الله أنها همت به من حيث مرادها، وهمّ بها كذلك لكنه لم يعزم، بل كان همه خَطْرة خطَرت على قلبه لم يُطعها ولم يتابعها، ولكنه بادر بالتوبة عن تلك الخَطْرة حتى محاها من قلبه، لمّا رأى برهان ربه، ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ، انَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ
لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ
فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ

لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ
ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ
مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ
لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ
عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ

فَأَرۡسِلُونِ ٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ
سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ
لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ
دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧
ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ
ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ
ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ
أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ
رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ
مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي
لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢

الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴾ إلى قـوله تعـالى: ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ، ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ ﴾.

ترتبط الآية الأولى من هذا الربـع ارتباطـاً وثيقاً بـالآيات السابقة قبلها في نهاية الربع الماضي، ذلك أن امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه فصرف الله عنه السوء والفحشاء، ابتدأت تَرُوجُ الإشاعاتُ عن مراودتها له بين نسوة كبار القوم، مع توجيه اللوم لها والتشنيع عليها سراً.

وسعياً منها في إيقاف تلك الإشاعات عند حدها، والقضاء عليها في مهدها دعتهن إلى مأدبة في قصرها، وكان من جملة ما قـدمت إليهن في تلك المأدبـة فواكـه وسكاكين صغيـرة معـدَّة

لتقشيرها وقطعها، وعندما كانت بأيديهن الفواكه والسكاكين الخاصة بها، أمرت فتاها يوسف ـ وكان إذ ذاك لا يزال مملوكاً لزوجها ـ بالخروج فجأة على النسوة الحاضرات والمرور أمامهن، فما كاد يُباغتهن يوسف مقبِلاً ومدبِراً، حتى بُهِتَ ضيوف امرأة العزيز من مرآه، وجَرَحْنَ بالسكاكين أيديهن، بدلاً من تقشير الفواكه، دون شعور منهن، وعند ذلك اتجهت إليهن امرأة العزيز، مبررةً أمامَهن ما وقع لها قبلهن من الشغف به، ثم أخبرت ضيوفها بأنها قد راودته فعلاً، لكنه امتنع امتناعاً باتاً، ومضت في حديثها أمامهن تهدده بالسجن والإهانة إن لم يفعل ما تأمره به، ولم يلبث ضيوفها من النساء أن عذَرْنَها ووقفن إلى جانبها ينصُرْنَها، ويطالبن يوسف معها بإلحاح أن يستجيب لامرأة العزيز، وأن يحقق رغبتها، وذلك بعدما كنَّ يلُمْنَها قبل رؤية يوسف، لكنَّ يوسف لم يتراجع عن موقفه أمام تهديد امرأة العزيز، ولا أمام إغراء ضيوفها، وأصرَّ على الاعتصام بحبل التقوى والعفاف، وأخذ يتضرع إلى الله أن يصرِف عنه كيد امرأة العزيز وصاحباتها حتى لا يقع في الشَّرَك.

وإلى هذا الجزء من قصة يوسف تشير الآيات الكريمة التالية: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَيٰهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ والمراد «بالفتى» هنا الخادم المملوك ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً، إِنَّا لَنَرِيٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتِ اِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ أي أعدت لهن مجلساً مفروشاً ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمن شأنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي حززن أيديهن بالسكاكين،

من فرط الدهشة وشدة الإعجاب ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً لله وتعجباً من قدرته على خَلْق مثل يوسف ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي طلب العصمة وامتنع مما أردتُه منه ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّـٰغِرِينَ ﴾ أي يعامل بالصَّغار، والإهانة والاحتقار ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴾. يقال صَبَا يصبو إذا مال إلى الشيء ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وقولُ يوسف هنا فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ السِّجْنُ ـ أَحَبُّ ـ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ لا يقصد من قوله (أحب) المعنى الحقيقي للتفضيل، وإنما هو وارد هنا على غرار قول القائل: «الجنة أحب إليَّ من النار، والعافية أحب إليَّ من البلاء».

إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد أخذ خبر امرأة العزيز يزداد انتشاراً، ورأى العزيز وصحْبه أنه لا بد من اتخاذ تدبير زَجْريّ ضد يوسف، ولو كان هذا التدبير تدبيراً ظالماً، وذلك دفاعاً عن شرف امرأة العزيز، وصرفاً للأنظار عنها إلى تثبيت التهمة في يوسف، رغم براءته عندهم وعند الله، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الْآيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

ومن حِكَم الأقدار أن يوسف دخل السجن معه فتَيان آخران، وكلاهما من فِتيان قصر الملك، وكانا يصحبانه ويرافقانه في

السجن ، وأدركا أن ليوسف مواهب خاصة ، وأن له قدرة على تعبير الرؤيا ، فقصًا عليه ذات يومٍ رؤياهما، وكانت رؤيا الأول أنه رأى نفسه يعصر خمراً، فعبَّر له رؤياه بأنه سيفارق السجن بعد قليل، وسيسقِي بعد إطلاق سراحه سيدَه خمراً ويكون ساقيَه الخاص، وطلب إليه إذا عاد إلى القصر أن يذكر لملكه أمر يوسف ويحدثه عنه، عسى أن ينصفه من امرأة العزيز ويطلق سراحه.

وانتهز يوسف فرصة اهتمام صاحبيه في السجن بتعبير رؤياهما وإصغائهما إليه، ليحدثهما بشيء من عقيدته ودينه، وهما أهمّ شيء لديه، عسى أن يهتديا على يديه إلى عقيدة التوحيد، وينصرفا عن عبادة الأصنام والأوثان. غير أن الفتى الذي فارق السجن ما كاد يعود إلى قصر سيده حتى نسي وصية يوسف الذي عبَّر له رؤياه، فلم يذكر لملكه أمر يوسف، ومضت سنوات أخرى على يوسف وهو في السجن دون أن يتذكره أحد، إلى أن رأى ملكُ مصر نفسه رؤيا أقضَّت مَضجَعه، وأثارت وساوسه، فأخذ يبحث عمن يعبِّرها له التعبير اللائق. وعندئذ تذكَّر ساقيه الخاص ـ وهو الفَتَى الذي كان في السجن مع يوسف، والذي عبر له يوسف رؤياه تعبيراً صادقاً ـ أن يوسف لا يزال في السجن، وأنه أحسن من يُعبِّر لملك مصر رؤياه، فاستأذن سيده، وذهب إلى السجن يسأل عن يوسف ويعرض عليه رؤيا الملك، فما كان من يوسف إلا أن عبر له الرؤيا أحسن تعبير، وما كان من ملك مصر إلا أن دعاه إلى مجلسه، لكنَّ يوسف أصرَّ على عدم مغادرة السجن إلا بعد نظر الملك نفسه في قضيته، وإعلان براءته، واعتراف الجميع

بعفته وعصمته، وذلك ما تشير إليه الآيات الكريمة: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَىٰنِي أَعْصِرُ خَمْراً، وَقَالَ الآخَرُ إِنِّيَ أَرَىٰنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ، يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ، أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ إِيَّاهُ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ، يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ، قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ، وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي عند سيدك، لكن ذلك الفتى نسي أمر يوسف بمجرد ما فارق السجن ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أي قضى يوسف في السجن سنوات أخرى من جراء نسيان صاحبه له وإهمال أمره ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي تذكر بعد مدة ﴿ أَنَآ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى آخر الآيات.

أما رؤيا الملك فخلاصتها أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبعُ بقراتٍ مهازيل، ضعاف في غاية الهزال، كما رأى

سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات، وهذه الرؤيا هي التي جاء يعرضها على يوسف رفيقُه في السجن من قبل، ذلك الرفيق الذي أصبح ساقياً للملك عقب إطلاق سراحه، فقال له فيما حكته الآيات الكريمة ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ، لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فما كان من يوسف عليه السلام إلا أن أفتاه في أمر هذه الرؤيا وعبرها له أصدق تعبير، مبيّناً للملك وملائه أنهم سيستقبلون سبع سنوات كلها رَخاء وخِصْب، تزدهر فيها الحقول، وتزكو الغلات، ويصفو العيش وتطيب الحياة، ثم يستقبلون في أعقابها سبع سنوات من الجَدْب والقَحْط، لا يفي فيها (النِّيل) بوعده، ولا يُمدهم برِفده، ولا يجدون قائماً يُحصَد، ولا حصيداً يُخزَن، ثم بعد سنوات الجدب السبع يُظلّهم عام خصيب يغاثون فيه، فتجود عليهم الأرض بما يأكلون، ويجدون ما يأتدِمُون به ويَعصِرون، ومنبِّهاً لهم في نفس الوقت إلى أنه من الخير لهم أن لا يأكلوا كل ما يأتيهم من محاصيل سنوات الرخاء، وأن يدَّخروا أكبر قسم منها في أهرائهم ودُورهم دون أن يُخرجوه من سنابله، حتى يبقى مصوناً فيها من فعل الحشرات وفعل الرطوبة، وذلك احتياطاً لسنوات الجدب التي تليها.

وهذه المعاني هي التي تشير إليها بقية الآيات الكريمة: ﴿ قَالَ ﴾ أي يوسف ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ أي على الدوام وبغير انقطاع، من (دأب) على العمل إذا داوم عليه ﴿ فَمَا

حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي اتركوه بعد الحصاد في سنبله غير مدروس، ولا تدرُسوا منه إلا ما تحتاجون لأكله، علماً منه بأن الحبَّة إذا بقيت في غشائها انحفظت، وهذا المعنى يتفق معه ما وصل إليه العلم الحديث، من أن ترك الحَبِّ في سنابله عند تخزينه فيه وقاية له من التلف، الذي يحدث عادة بسبب العوامل الجوية وغيرها من الآفات. ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي ثم تأتي بعد ذلك سبع سنين ذات شدة وجوع، تستهلكون فيها ما ادَّخرتموه في سنابله من سنوات الرخاء السبع، إذ تجدونه صالحاً للأكل والاقتيات ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي لا يَفضُل لكم مما كنتم خزنتموه وادخرتموه إلا القليل ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الغَيْث بمعنى المطر، أو من الغَوْث بمعنى الفرج ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ إشارة إلى ما سيكون فيه من غلَّات صالحة للعصر في المعاصر كالزيتون والعنب والسِّمْسِم.

فلما بلَّغ ساقي الملك الخاص إلى سيده تعبير يوسف لرؤياه، وفَطَن لما في تعبير يوسف من نصح بالغ وحسن تدبير، أدرك أن وراء الأَكَمة ما وراءها، وأن يوسف ليس شخصاً عادياً، فبالإضافة إلى عفته التي يعلم عنها الحقيقة ها هو يخترق حُجُب الغيب بما علَّمه الله من تأويل الأحاديث، وها هو يرى البعيد قريباً، ولا يكون في النهاية إلا مصيباً ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي سيدك ﴿ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾، فلم يَسَع

الملك إلا أن يدعو امرأة العزيز وصاحباتها، ويحقق معهن بنفسه من جديد ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾، فكان جوابهن تأكيداً لعفته، وإعلاناً لبراءته ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ تبرئة ليوسف ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي تبيّن وظهر ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ أي من الصادقين في كونه بريئاً من مراودتي، أو محاولة الاعتداء على كرامتي.

ومضت توضح السر في اعترافها بمحاولتها مع يوسف دون أدنى نتيجة، معلنةً براءة يوسف براءة مطلقة، مؤكدة أنها لا تريد أن تصر عل اتهامه كذباً وزوراً بعدما تجلّى الحق وظهر ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ

وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾
فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ
فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ
وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتِ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ
بِضَٰعَتُنَا رُدَّتِ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ
كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنُ ارْسِلَهُۥ مَعَكُمْ
حَتَّىٰ تُوتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ ٱللَّهِ لَتَاتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ
بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنَ ابْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَےْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُۥٓ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَےْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا

وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيَ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَاخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَّشَآءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

في بداية هذا الربع أورد كتاب الله ضِمْن ما حكاه من كلام امرأة العزيز اعتذارها الصريح عما أصابها من نزغات الشيطان، إذ قالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيَ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهذا الاعتذار على لسانها، بعد اعترافها ببراءة يوسف مندرج في كلامها، فحكاه كتاب الله في جملة ما حكى من أقوالها. قال ابن كثير: «وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبوالعباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حِدَة».

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ إشارةٌ إلى قرار ملك مصر، الصادر بجعل يوسف من حاشيته وخاصته، وأهل مشورته ووزارته، تقديراً لمواهبه، وانتفاعاً بملَكاته.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ إشارةٌ إلى ما قاله الملك ليوسف عند تنصيبه له، وتعريفه إياه بأنه قد أصبح يتمتع لدى مَلِكِه بسلطة ونفوذ، فهو (مكين) أي متمكن وذو سلطان، وهو في نفس الوقت (أمين) أي مؤتمن على شؤون الدولة، التي أصبح من كبار رجالها، وصفة (الأمانة) صفة أساسية في كل من يراد الانتفاع بمشورتهم ونصيحتهم، إذ «المستشار مؤتمن».

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ هذا ليس طلباً من يوسف للولاية من أصلها، فقد ولاَّه الملك بمجرد ما دعاه إليه وقال: ﴿ ائتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾، وإنما هو تنبيه من يوسف للملك إلى نوع العمل الخاص الذي يرى نفسه أهلاً للقيام به، بعد تكليفه من طَرَف الملك تكليفاً عاماً، فقد كان يوسف يعلم أنّ مصر مقبلة على أيام شدة وأيام رخاء، كما فهمه من رؤيا الملك التي عبّرها له أحسن تعبير، وكان يُحسُّ من أعماق نفسه أنه إذا وُضِعَت خزائنُ مصر تحت إشرافه المباشر تصرَّف في غلاّتها التصرف الأحوط والأرشد والأصلح لعموم الناس، واستعدَّ الاستعداد اللازم للطوارىء المنتظرة في السنوات المقبلة.

فلفت نظر الملك إلى نوع المسؤولية التي يستطيع تحملها على بيِّنة وعن جدارة، حتى لا يكلفه الملك بمسؤولية أخرى يكون حظ نجاحه فيها أقل.

وقولُه في هذا السياق ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ تبرير منه لهذا الإختيار، فهو يعرف من نفسه أنه موصوف بالحفظ والصيانة، اللازمين لكل خزانة، وهو على خبرة بالعلم المناسب لهذا النوع من العمل، ولكل عمَل علمُه الخاص به. وقد اعتمد يوسف في مجال المسؤولية والخدمة العامة على ما أكرمه الله به من حفظ وعلم، وهما من الخصال المعنوية البحتة، ولم يعرج مطلقاً على ما آتاه الله من حسن وحسب ونسب، إذ لا دخل لها في الموضوع.

وهذا المعنى الذي فسَّرنا به الآية لا يتعارض في شيء مع قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرة فيما رواه مسلم: «لا تسأل الامارة، فإنك إن أُعطِيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها»، ولا مع قوله ﷺ في حديث آخر رواه مسلم أيضاً «إنَّا لا نستعمل على عملنا من أراده». إذ موضوع الحديثين هو التهالك على الولاية العامة وطلبها من أصلها، لاَ مجرد اختيار نوع العمل، بعد الاستدعاء لها والتكليف بها.

وتساءل البعض كيف استجاز يوسف عليه السلام لنفسه أن يَقبَل الولايةَ من كافر، وأجيب عنه بأنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، إذا علم أنه يُصلِح بعضَ الأحوال (نص على ذلك أبو القاسم ابن جُزَّى في تفسيره). كما أجيب عنه بأن

معاملة الأنبياء لغيرهم لم تكن على وتيرة واحدة، بل كانت أحياناً بالسلطة والاستعلاء، وأحياناً بالسياسة والابتلاء، وهذا منها، كما نص عليه أبو بكر (ابن العربي) في أحكام القرآن.

وقولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ إشارةً إلى ما أكرم الله به يوسف من الحرية والسعة والنفوذ والتصرف في أرض مصر، بعدما ابتلاه فيها بالرق والضيق والسجن الطويل. ثم عقب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، إشارةً إلى الفرج والنصر، اللذين يأتيان في أعقاب الثبات والصبر.

وقولُه تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ إشارةً إلى قدوم اخوة يوسف إلى مصر بقصد الحصول على القوت اللازم لهم، إذ كانت بلاد كنعان حيث يستقر يعقوب عليه السلام قد أصابها القحط والجدب، وكانت أخبار عزيز مصر وإحسانه إلى الناس قد بلغت أصداؤها إليهم، وبهذه المناسبة دخلوا على يوسف وهو في أبهة الرياسة وهيبة السلطة فعرفهم يوسف، دون أن يتعرفوا عليه، على خلاف العادة في الجماعة.

والسر في ذلك أنهم فقدوا يوسف وهو في سن الصبا، فتغيرت ملامح وجهه عما كانت عليه، ومنذ اشتراه العزيز لامرأته واتخذاه فتى لهما كان كالمكتوم عن الناس، ثم أقام محبوساً ما شاء الله أن يقيم، وبطول المدة عَمِيَ أمره، وخفِيَ خبره على أبيه

واخوته. يضاف إلى ذلك أن أحداً منهم لم يكن يتخيل أن يصل الأمر بمثله إلى ما وصل إليه من الجاه والنفوذ ومظاهر السلطان، ثم إن المركز الذي أصبح يحتله في الدولة يدعوهم إلى أن يتهيَّبوه عند المخاطبة لشدة حاجتهم إليه، وكلُّ هذه أسباب تجعل تعرُّفهم عليه، فضلاً عن إطالة النظر إليه، أمراً عسيراً، بينما يوسف في هذه الحال متمكن من الأمر، متفرغ الذهن، لا يصعب عليه تأمل ملامحهم وملاحظة أحوالهم ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى حكايةً عن اخوة يوسف لأبيهم ﴿ يَـٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما طالبهم به يوسف من احضار أخ لهم من أبيهم، ومراده بذلك أخوه الشقيق (بنيامين) كشرط للسماح لهم بالحصول في المستقبل على التموين الضروري لأسرتهم، وكان هذا الإجراء من يوسف تلطفاً في احضار أخيه ثم لقاء أبيه بالوجوه التي أباحها الله.

ومما تنبغي ملاحظته في هذا السياق استعمالُ اخوة يوسف ـ بغية اطمئنان أبيهم يعقوب على أخيهم بنيامين ـ نفسَ العبارة التي استعملوها ليطمئن على أخيهم يوسف من قبل، فكما قالوا لأبيهم أولاً بخصوص يوسف ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ قالوا لأبيهم أخيراً بخصوص بنيامين شقيق يوسف ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾. وهذا هو السر فيما رد عليهم به أبوهم يعقوب، إذ قال لهم فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ قَالَ هَلْ ـ امَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾. ثم عقَّب على تعهدهم القديم بحفظ يُوسُفُ، وتعهدهم الجديد بحفظ أخيه

بنيامين، مؤكداً لهم أن الحافظ من كل سوء على وجه التحقيق هو الله تعالى وحده دون سواه ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظاً، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾. ثم صارحهم بعد ذلك بأنه لن يغامر بإرسال ابنه بنيامين معهم هذه المرة، إلا إذا أعطوه المواثيق والعهود، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقون الإتيان به ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ: اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

وقولُه تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام مخاطباً لأولاده ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ تنبيه من يعقوب لأبنائه إلى عدم الدخول إلى مصر من باب واحد، حتى لا يستلفتوا الأنظار، وحتى لا تصيبهم الأعين الشريرة بشَرَرها.

قال ابن قَيِّم الجوزية: «فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود. فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبهُ الأشياء بهذا: الأفعى، فإن السّم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت نفسُها بكيفية خبيثة مؤذية». وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: «لاَ خلاف بين الموحدين أن العين حق، ومِن أبدع ما خلق الله النفس، ركّبها في الجسم، وجعلها معلومة للعبد ضرورة، لكنها مجهولة الكيفية، إن جاء ينكرُها لم يقدِر، لِمَا يظهرُ من تأثيرها على البدن وجوداً وعدماً، وإن أراد المعرفة لها لم يستطع، لأنه لا يعلم لأي شيء ينسبها، ولا على أي معنى يقيسها... ولها آثار

يخلقها الباري في الشيء عند تعلقها به، منها العين، وهو معنى يحدث بقدرة الله على جَرْي العادة في المَعِين إذا أعجب منظرُه العائن فيلفظ به. ولهذا المعنى نُهي العائن عن التلفظ بالإعجاب، لأنه إن لم يتكلم لم يضرَّ اعتقادهُ عادة. وكذلك سبق من حكمة الله أن العائن إذا بَرَّك ـ أي قال تبارك الله ـ أسقط قولُه بالبركة قولَه بالإعجاب، وامتنع ضرره، وإن اغتسل العائن شُفِي مَعِينه، وهذه خواص شرعية، بحِكَم إلَهية، يشهد لصدقها وجودها كما وصفت» انتهى كلام ابن العربي. وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المَعِين».

وقولُه تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام في نفس السياق ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الآية: ٦٧] إشارةٌ إلى أن هذا التدبير الذي نصحهم به أبوهم إنما هو تدبير احتياطي مظنون النفع، وإلا فإن الأمر في الحقيقة بيد الله «ولا ينفع حذر من قَدَر»، ولذلك وقع التعقيب بعده بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيٰهَا ﴾. والمعنى أن ذلك الاجراء الذي نصحهم به يعقوب لا يدفع قضاء الله، وإنما هو قضاء لحاجة في نفس يعقوب، وهذه الحاجة التي كانت في نفسه هي شفقته عليهم من أن يصيبهم في هذه المرة ما أصابهم في المرة الأولى،

فيرجعوا إليه وقد فقدوا أخاهم بنيامين، كما رجعوا إليه من قبل وقد فقدوا أخاهم يوسف.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّيَ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما قابل به يوسف إخوته جميعاً من كرم الضيافة وحسن الصلة، وإلى ما قابل به أخاه الشقيق بنيامين بالخصوص من عطف خاص، عندما اختلى به وعرّفه بأنه هو أخوه يوسف، وطَمْأنه على مصيره، رغماً عن الاجراءات الظاهرة التي سيتخذها للاحتفاظ به عنده، كرهينة خاصة في مقابل (صاع الملك) الذي سيوجد في رَحْله، والذي سيكون وَضعُه فيه بمعرفة يوسف ومساعديه الأقربين، ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ وذلك في انتظار أول فرصة يستقبل فيها أباه وإخوته جميعاً، حيث يرتفع الستار عن آخر مشهد لهذه القصة الخالدة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ، مَا كَانَ لِيَاخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَّشَآءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ
مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ
وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ
ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ يَّسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ، قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ، اِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

في بداية هذا الربع تشير الآية الكريمة إلى قول إخوة يوسف بعد أن وُجِد (صاع الملك) في رَحْل بنيامين شقيق يوسف، وكان وضعُه في رَحْله بمعرفة يوسف نفسه، كمبرر للاحتفاظ بأخيه عنده، في انتظار الفرصة المواتية لدعوة أبيه وجمع الشمل مع أعضاء عائلته كلهم في المستقبل القريب ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ يَّسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ وغرضهم من هذا القول فيما يظهر هو أن يبرِّئوا ساحتهم، ويلقوا المسؤولية على أخيهم بنيامين شقيق يوسف، مع ادعاء أن أخاه من قبل ـ ويعنون به يوسف ـ كان قد سبق منه نفس العمل، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن هناك استعداداً نفسياً أو وراثياً خاصاً في كل من هذين الأخوين لمثل

هذا التصرف، مَرَدُّه إلى أنهما تناسلا من أم أخرى غير الأم التي تناسلوا هم منها، ولذلك كانوا برءاء، وكان يوسف وشقيقه متهمَيْن ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ عندما قالوا ذلك وهم ماثلون أمامه بصفته عزيز مصر، وكانوا لم يعرفوا بعد أنه هو يوسف نفسه، لكنه فيما بينه وبين نفسه ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تعليقاً على زعمهم في تبرئتهم لأنفسهم.

ثم أخذ إخوة يوسف يستعطفون عزيز مصر ـ وهو نفس يوسف في هذا العهد ـ محاولين استرجاع أخيهم للأب، ولو بتعويضه بآخر منهم ﴿ قَالُواْ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، لكن خطة يوسف الحكيمة كانت تقتضي الاحتفاظ بشقيقه بنيامين بالخصوص إلى نهاية المطاف ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَّجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذاً لَّظَـٰلِمُونَ ﴾. وها هنا أكد يوسف عليه السلام مبدأ المسؤولية الفردية، والتَّبِعَة الشخصية، وهو أنه «لا تزر وازرة وِزْرَ أخرى» ولا يؤاخذ أحد بما فعل غيره، انسجاماً مع ظاهر الحال في هذه الواقعة.

ولما أدركَ إخوةَ يوسف اليأسُ من نجاح محاولتهم في استرداد بنيامين، أو تعويضِه بآخر منهم، اجتمعوا وتناجوا فيما بينهم ماذا يكون موقفهم تِجاه أبيهم يعقوب، وماذا يبرّرون به حجز أخيهم بنيامين، وبقاءه في مصر دونهم، وكان من شدة وقع هذه الحادثة في أنفسهم أن انفصل عنهم أخ ثالث هو أكبرهم

جميعاً، إذ أحس بثقل المسؤولية، وتذكَّر المَوْثق الذي واثقوا عليه أباهم يعقوب، ولم يعد يستطيع أن يواجه أباه، خجلاً منه، وخوفاً من مؤاخذته، فقرر البقاء في مصر، إلى أن يسمح له أبوه ويأذن له بالعودة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ أي انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمُ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدَ اَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ، وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُّمْ فِي يُوسُفَ، فَلَنَ اَبْرَحَ الاَرْضَ ﴾ يريد الموضع الذي وقعت فيه الحادثة ﴿ حَتَّىٰ يَاذَنَ لِيَ أَبِيَ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴾. ثم قال لباقي اخوته ﴿ ارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰأَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي بما علمنا من ظاهر الحال ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ إشارةً إلى أنهمَ حين أعطوا الميثاق لأبيهم في شأن المحافظة على أخيهم لم يكونوا يعرفون أنه سيسرق، أو إشارةً إلى أنهم لا يعرفون حقيقة الأمر الواقع في شأن السرقة المتهم بها أخوهم بنيامين ﴿ وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ أي اسأل أهل القرية ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِيَ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي اسأل أصحاب العير الذين رافقناهم في السفر، ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾.

وعاد إخوة يوسف من رحلتهم المثيرة، وقد تركوا وراءهم بنيامين في قبضة عزيز مصر ظاهراً، وفي ضيافة شقيقه يوسف باطناً، وانفصل عنهم كبيرهم، فبقي في عين المكان الذي وقعت فيه الحادثة، فراراً من مواجهة أبيه يعقوب، وبذلك أصبح أبوهم فاقداً لثلاثة من أبنائه بدلاً من واحد، ولم يسعه إلا أن يتهمهم بأن

في الأمر مكيدة جديدة، كما اتهمهم من قبل بالمكيدة بالأولى.

وكما قال لهم في شأن الواقعة الأولى بخصوص يوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ قال لهم في شأن الواقعة الثانية بخصوص بنيامين ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾. و«الصبر الجميل» يطلق على الصبر الذي لا يصحبه جزَع ولا شكوى. لكن أباهم يعقوب لم يفقد رجاءه في الله، ولا في حسن العاقبة له ولأبنائه الثلاثة، فقال ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وثارت في نفس يعقوب بهذه المناسبة ذكريات ابنه يوسف الذي لم يعد يعرف عنه شيئاً منذ فَقَده في طفولته، وكاد يفقِد بصره من شدة الحزن عليه وكثرة البكاء، وهذا الحزن البالغ من طرف يعقوب على ابنه يوسف لا يستغرب منه، إذا تذكرنا أمرين في هذا المقام:

أولهما ما كان عليه ابنه يوسف من الصفات والخصال النادرة التي امتاز بها عن بقية اخوته، حتى قالَتْ في شأنه صاحبات امرأة العزيز ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ مما يحمل أيّ والد كان على الاهتبال بولد ممتاز من هذا النوع، ويدفعه إلى الشغف به والحزن على فقده إلى أقصى حد.

وثانيهما ما ظنه يعقوب نفسه من أنه ارتكب في حق يوسف نوعاً من التقصير والإهمال، عندما تركه أول مرة يرافق إخْوته في سفرهم، ويوسف لا يزال في سن مبكرة، وهو يعرف أن اخوته يغارون منه أشد الغيرة، وكل واحد من هذين الأمرين كافٍ لأن

يضاعف الكمد ويزيد في الحزن ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عن أبنائه بعدما سمع كلامهم واعتذارهم دون أن يُصدِّقهم فيما قالوا ﴿ وَقَالَ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَـٰهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي من البكاء الناشىء عن الحزن العميق، حيث يزداد الضغط على العينين وتبدو العين بيضاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي كظَم غيظَه، وأقبل على الله يشكو إليه دون سواه، لكن أبناءه قاطعوه في غمرة الحزن، خوفاً من أن تزداد حالته سوءاً بذكر يوسف والأسف عليه، ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً ﴾ أي ضعيف القوة مشرفاً على الهلاك ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَـٰلِكِينَ ﴾. فما وسع يعقوب إلا أن رد عليهم في الحين قائلاً: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى اللَّهِ ﴾ و «البَثُّ» هنا بمعنى الهم.

وقولهُ في نفس السياق ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تلويح إلى أنه لن يسيء ظنه بالله، وإشارةٌ إلى شعوره الخاص بأنّ يوسف لا بد أن يكون على قيد الحياة، ولا بد أن تتحقق رؤياه في يوم من الأيام، مهما كانت الظواهر لا تدل على شيء، ولذلك دعا أبناءه إلى المزيد من البحث عن يوسف وأخيه بنيامين، ونهاهم عن اليأس من رحمة الله، اعتماداً على المعهود من لطفه الخفي بعباده المخلصين ﴿ يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ و«التحسُّس» التعرف إلى الشيء عن طريق الحواس، والمراد هنا تتبع أخبار يوسف وأخيه ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ أي من رحمته ﴿ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وامتثالاً لأمر أبيهم يعقوب أعاد فريق من أبنائه الكرَّة، تاركين الفريق الآخر مع أبيهم، فرحلوا إلى مصر من جديد، واتخذوا جميع الوسائل للمثول مرة أخرى بين يدي عزيز مصر ـ وهو في الحقيقة أخوهم يوسف ـ طالبين منه إسعافهم بالتموين اللازم لهم، مقابل أخذه منهم بضاعة قليلة جاؤوا بها، ولم يكتموا عنه طمعهم في أن يُوفِيَ لهم الكيل، ورجاءهم في أن يتصدق عليهم بما تجود به نفسه الكريمة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ والضر يشمل المجاعة التي أصابت بلادهم، والهم الذي نزل بعائلتهم ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَيٰةٍ ﴾ أي بضاعة قليلة ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾.

وفي هذه المناسبة انتهز يوسف الفرصة، فكشف عن وجهه النقاب، وعرَّفهم بأن «عزيز مصر» الذي يتحدثون إليه الآن هو أخوهم يوسف بالذات، وأن أخاهم الذي حجزه عنده في المرة الماضية هو أخوه بنيامين، وإذن فهم الآن بين أفراد أسرتهم، وأمام واحد منهم، وذكَّرهم بما فعلوه به وبأخيه، ناسباً ذلك الفعل إلى ما كانوا عليه في حال الفُتُوة من جهل بحقائق الأمور، وغفلة عن خفايا الأقدار، واستعرض أمامهم نعمة الله عليه وعلى أخيه، وأن مصير كل من اتقى وصبر، هو الفوز والظفر ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ، قَالُواْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وعندما عرفوا حقيقة الأمر اعترفوا بفضل الله على أخيهم يوسف، وبإيثار ربه له عليهم، لحكمة يعلمها ـ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام: ١٢٤] واعترفوا في نفس الوقت بالخطيئة التي ارتكبوها في حقه، لكنه أجابهم بجواب كله حلم وصفح، وعفو ورحمة ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ من «الخطيئة» بمعنى المعصية، لا من «الخطأ» ضد الصواب، فمن الخطأ يقال «مخطىء» لا «خاطىء». ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ أي لا ملامة عليكم، ولا تعنيف لكم ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

ثم أعطى يوسفُ لإخوته بعد اعترافهم واعتذارهم قيمصَه الخاص ليحملوه إلى أبيه يعقوب، شاهداً بحياته، مع دعوة رسمية منه إليه وإلى كافة أفراد عائلته بالقدوم عليه إلى مصر ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وما كادت العِير التي يرافقها أبناؤه تفارق أرض مصر وهم في طريقهم إليه يحملون معهم قميص يوسف، حتى أخذ يعقوب يحدث بقية أبنائه الذين بقوا ملازمين له بأنه يجد رائحة قميص يوسف من بعيد، وخشي من استبعادهم لهذا الإحساس الخاص، ومن تفنيدهم له، لأنهم لا يدركون سرَّه ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي فارقت مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي لمن بقي معه ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

وما كاد مَن معه من أبنائه يسمعون مقالة أبيهم يعقوب، حتى

استغربوها، وتذكروا قولة اخوتهم في شأنه من قبل ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ استغراباً منهم لإفراطه في محبة يوسف والشغف به، فرددوا مثلهم نفس الفكرة والعبارة، ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ الْقَدِيمِ ﴾. قال قتادة: أي من حُب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه. «يقال سلى يسلَى وسلا يسلو». ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَيٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ أي ما كاد البشير يُلقِي أمامه «قميص الفَرحة» حتى شفاه الله من كل أثر «لقميص القَرْحة». وهكذا اختار يوسف أن تكون بشرى أبيه في النهاية بقميص، كما كانت فاجعته في البداية بقميص ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

ولم يلبث يعقوب عليه السلام أن ذكَّر أبناءه جميعاً بقوله من قبل ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ والتفت إليهم قائلًا: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. فما كان منهم إلا أن أقبلوا عليه يسألونه العفو عنهم، وطلب المغفرة لهم، معترفين بخطيئتهم ﴿ قَالُواْ يَـٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

ولبَّى أب يوسف وأمه وإخوته جميعاً دعوته، فاستقبلهم رُسُل يوسف أحسن استقبال، وبمجرد ما مَثُلوا بين يديه رغَّبهم في الإقامة معه بمصر آمنين مطمئنين، أعزاء محترمين ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾ أي انحنوا أمام يوسف بصفته «عزيز مصر»، انحناءة الإجلال والتوقير، طبقاً «للتشريفات» المعتادة في ذلك العصر، وليس المراد أنهم سجدوا له السجود

المعهود في عبادة الله ﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَاوِيلُ رُءْيَـيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ يشير إلى رؤياه «إني رأيت أحد عشر كوكباً» وهم إخوته «والشمس والقمر» وهما أبوه وأمه «رأيتهم لي ساجدين». ثم حكى كتاب الله ما نطق به يوسف، من شكر لله على فضله ولطفه إذ قال: ﴿ وَقَدَ اَحْسَنَ بِيَ إِذَ اَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ، مِن؟ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيَ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ، انَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.



الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ

وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
يُوحَىٰٓ إِلَيْهِم مِّنَ اَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ
ٱلْاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ اَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ
ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِى
مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ
كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴿١١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُومِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْامْرَ يُفَصِّلُ ٱلْايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في سورة يوسف المكية ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ﴾ ونهايته قوله تعالى في سورة الرعد المكية أيضاً ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أول آية في هذا الربع هي آخر آية وردت في موضوع قصة يوسف بالذات، وهي تشير إلى الأثر العميق الذي تركه في نفس يوسف جمعُ شمله مع أبويه وإخوته، وتوذن ببالغ شكره لله على سابغ نعمته، واعتماده المطلق على رعايته وولايته:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ في هذا إشارة إلى ولايته

لمنصب العزيز لدى ملك مصر، وما أدركه من السلطة والنفوذ فيها بحكم ذلك المنصب.

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ في هذا إشارة إلى ما أكرمه الله به من نفاذ البصيرة، وصدق الفراسة، مما ظهر أثره في تعبيره رؤيا ملك مصر، وتعبير رؤيا صاحبيْه في السجن، وتأويل رؤياه نفسه التي جاءت مثل فلق الصبح.

﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ هذه مناجاة من يوسف لربه، وتضرع بين يديه، وتوكل عليه.

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴾ هذا دعاء من يوسف إلى الله بحسن الخاتمة والموت على الإسلام، واللّحاق بالصالحين في دار السلام، حتى يُتم الله عليه نعمته في الآخرة كما أتمّها عليه في الدنيا.

وكلمة (الصالحين) متى وردت في الذكر الحكيم فالمراد بها كل مومن أدّى ما عليه من حقوق الله وحقوق العباد، من أي جيل كان، قديماً أو حديثاً، ولو كان مجهولَ القُبَّة مجهول التاريخ، لاَ قُبة عليه ولا ضريح، فالعِبرة في هذا اللقب لقب «الصلاح» و (الصالحين) إنما هي بمجرد العمل الصالح المقبول عند الله، لاَ بما سواه.

وقوله تعالى هنا حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ لا يلزم أن يكون سؤالاً ناجزاً للموت وتمنياً لها في الحين، كما فهمه بعض المفسرين، وإنما هو من باب الدعاء

المعتاد كقول الداعي: (اللهم أَحْيِنا مسلمين، وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين). وقد نهى رسول الله ﷺ عن سؤال الموت وتمنِّيها. رُوي في الصحيحين وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنيَنَّ أحدُكم الموتَ لضر نزل به، إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعْتِب - أي يسترضِي ربه ويتوب - ولكن ليقل: اللهم أحيِني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وقولُه تعالى عند انتهاء قصة يوسف ﴿ ذَٰلِكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمُ إِذَ اَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ تعليق على هذه القصة وما شابهها من قصص الأنبياء، بأن العلم بها والاطلاع على دقائقها، دليل جديد يضاف إلى دلائل النبوة، فهي من قبيل العلم بالمجهول، الذي كان مغيباً عن الرسول، إذ الرسول عليه السلام لم يعاصر يوسف ولا إخْوَته، ولم يشاهد الظروف التي لابست قصته، ومع ذلك فإن الوحي يأتيه بلبِّها، ويكشف له عن سرِّها، لما فيها من حِكَم وعِبَر، يتَّعظ بها من تقدم ومن تأخر.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك كله بأنه مهما كان حرص الرسول عظيماً على إيمان الناس وهدايتهم بجميع الوسائل، فإنه لا سبيل إلى إلجائهم للإيمان وإكراههم عليه ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُومِنِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إشارةٌ إلى أنّ نُصح الرسول للناس، وقيامَه بدعوتهم

إلى الحق إنما هو تطوُّع منه في سبيل الله، امتثالاً لأمره، وقياماً بحقه، فلا مطمع له من ورائه في مال أو جاه، وإنما هدفه الوحيد منه ربط صلتهم بالله، وكلما كانت دعوة الداعي لغيره خالية من الطمع فيه، كانت أقرب إلى التأثير عليه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنَ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما عليه عُمْي البصائر والأبصار من الغفلة عن ملكوت الله، والذهول عن آياته الباهرة، رغماً عن كونها معروضة على أقوى وجه وأحسنه في كتاب الكون الفسيح، وهي بمرأى ومسمع من جميع الناس، في جميع الأزمان، وفي كل مكان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يندرج تحته مشركو العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام ويقولون إنها تقرِّبهم إلى الله زلفى، ويندرج تحته اليهود الذين يقولون: عُزَيرُ ابن الله، والنصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، كما يندرج تحته كلُّ من نسب الضر والنفع والعطاء والمنع إلى غير الله، وكلُّ من علَّق أمله ورجاءه على المخلوق، لا على الخالق، وكلُّ من حلف بغير الله، بدلاً من أن يحلف باسم الله، وكلُّ من عمل عملاً ليُراءِي به الناس، دون أن يقصد به وجه الله، فهؤلاء جميعاً يندرجون بوجه أو آخر تحت قوله تعالى هنا ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾. روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف بغير الله فقد أشرك». وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُّقَى والتَّمائم

والتِّوَلَة ـ أي السحر وما أشبهه ـ شِرْك». وروى أحمد والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «من تعلق شيئاً وُكِلَ إليه». وروى أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّق تميمة فقد أشرك». وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه». وروى أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله. قال: الرياء». وخطب أبو موسى الأشعري فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دَبِيب النمل».

ومن هنا رفع عدد من علماء الإسلام عقيرتهم ضد بعض المظاهر المبتدعة التي يرتكبها العوام عند زيارة مدافن أهل الفضل وأضرحتهم، وإنما رفع أولئك العلماء عقيرتهم ضدها، نصحاً منهم لعوام المسلمين، حتى لا يقعوا بسببها تحت طائلة الشِّرْك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي طليعة العلماء الذين جاهروا بالنصح في هذا السبيل حجة الإسلام الغزالي نفسه، وهو من كبار العارفين، في كتابه الشهير (الاحياء)، فقد قال رحمه الله في أواخر كتابه (الاحياء) عند كلامه على زيارة القبور ما نصه: «زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، والمستحب في زيارة القبور أن يقف ـ أي الزائر ـ مستدبر القبلة، مستقبلاً بوجهه الميِّت، وأن يُسلِّم، ولا يمسح القبر، ولا يمسّه، ولا يقبِّله، فإن ذلك من عادة

النصارى» وكفى «بحجة الإسلام» حجةً في هذا المقام.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما يترتب على الغفلة عن الله، والإعراض عن تدبر آياته، وعدم الاعتبار بسُننه التي جرى عليها في خلقه، من مداهمة العذاب، والمفاجأة بالعقاب، بينما العقل السليم يقضي بوجوب الاستعداد لكل الطوارىء، والتسلح لمواجهتها بالإيمان الخالص، والعمل الصالح، والتزود بزاد التقوى، لكن الغفلة التي استولت على الغافلين، جعلتهم آمنين مكر الله، أو شبه آمنين، ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الاعراف: ٩٩].

ثم اتجه الخطاب الإلّهي إلى الرسول الأعظم قائلاً: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ، وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وفي هذا الخطاب يأمر الله رسوله بأن يبلّغ الناس أجمعين أن ملة الإسلام هي السبيل الوحيد إلى الله ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِيٓ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَـٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾ [ءال عمران: ٨٥] كما يأمره بأن يبلّغ الناس أجمعين أن الدعوة التي جاء بها هي دعوة إلى الله، مجردة من كل غرض، إلا ابتغاء مرضاة الله ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ ﴾ وأن دعوته منبثقة عن إيمان صحيح، ويقين تام، وحجة قائمة، فهو منها على بيّنة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾، وأن هذه الدعوة دعوة خالدة مستمرة، يقوم بها ويبلغها إلى الناس ما دام على قيد الحياة، ويقوم بها من بعده ورثته وأتباعه

إلى يوم الدين ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي أدعو إلى الله أنا ومن اتبعني.

وقوله تعالى على لسان رسوله ﴿ وَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ، وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ضرب للمثل، حتى يقوم كل داعٍ إلى الله بتنزيهه عما لا يليق به، وحتى يتبرأ من الشرك وأهله براءة تامة.

ثم تحدث كتاب الله عن الرسل السابقين، وعن عاقبة الكافرين بهم والمكذبين، داعياً الذين خَلَفوهم من بعدهم، وساروا عل نهجهم، أن يعتبروا بهم، ويتراجعوا عن غيّهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحَىٰ إِلَيْهِم مِّنَ اَهْلِ الْقُرَىٰ، أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وقولهُ تعالى في بيان عاقبة المتقين ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلذِينَ اتَّقَوْاْ، اَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أضيفت فيه «الدار» إلى «الآخرة» على غرار قولهم: مسجد الجامع ويوم الخميس كما نص عليه ابن كثير.

ثم بيَّن كتاب الله أن الله تعالى لا يخذل رسله أبداً، وأن نصره ينزل عليهم في أحرج الأوقات وأشد الأزمات، وذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْـَٔسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ومعنى الآية: حتى إذا استيأس الرسل من كفار قومهم، واستأخر العذاب عن أولئك الكافرين، وظن الكافرون أن الرسل كاذبون في إنذارهم، جاء النصر من عند الله، فنجَّى الله القوم المومنين، وعذَّب القوم المجرمين ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِي مَن نَّشَآءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

وكما بُدئت سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ ﴾ خُتمت أيضاً بتأكيد ما في عَرض قِصص الرسل وأممهم من عِبر وحِكم، وما يستفاد منها من هدى وبيان، مما يوجب تلاوة كتاب الله بمزيد التدبر والإمعان، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ ـ أي في حكاية أخبارهم ـ ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَـٰبِ ﴾ ـ أي العقول ـ ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ، وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا
تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ
ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ
ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن
يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم
بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا
دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ
خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ
ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا

فَاحْتَمَلَ اَ۬لسَّيْلُ زَبَداٗ رَّابِياٗۖ وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِے اِ۬لنّ۪ارِ اِ۪بْتِغَآءَ حِلْيَةٍ
أَوْ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثْلُهُۥۖ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اُ۬للَّهُ اُ۬لْحَقَّ وَالْبَٰطِلَۖ فَأَمَّا اَ۬لزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ اُ۬لنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِے اِ۬لْأَرْضِۖ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ اُ۬للَّهُ اُ۬لْأَمْثَالَۖ ﴿١٧﴾ لِلذِينَ اَ۪سْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ اُ۬لْحُسْنَيٰۖ وَالذِينَ
لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِے اِ۬لْأَرْضِ جَمِيعاٗ وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَافْتَدَوْاْ
بِهِۦٓۖ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ اُ۬لْحِسَابِۖ وَمَأْو۪يٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِيسَ اَ۬لْمِهَادُ ﴿١٨﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، وَأُوْلَٰٓئِكَ الْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ، وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

في الحصة الماضية فرغنا من تفسير سورة يوسف المكية، ولم يتسع الوقت للشروع مباشرة في تفسير سورة الرعد المكية أيضاً، واليوم نشرع في تفسيرها مستعينين بالله، إنه وليُّ التوفيق.

وأول ما نَلِفت إليه النظر تسمية هذه السورة الكريمة باسم «سورة الرعد» أخذاً من قوله تعالى في هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾.

وثاني شيء نلفت إليه النظر، بمناسبة ابتداء هذه السورة بحروف الهجاء المقطعة «أ. ل. م. ر» أنه ما من سورة بُدئت

بهذه الحروف إلا وجاء في أعقابها الانتصار للقرآن، وتبيين أنه نزل من عند الله، وأنه حق لا شك فيه ولا ريب، كما نص على ذلك كثير من المفسرين، ولا سيما ابن كثير، بناءً على استقرائه في التفسير.

وثالث شيء نلفت إليه النظر التناسب الواقع بين نهاية سورة يوسف، وبداية سورة الرعد المكّيّين، فقد خُتِمت سورة يوسف بالحديث عن القرآن ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ، وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾ كما افتُتِحت سورة الرعد بالحديث عن القرآن ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ، وَالذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾.

وتحدث كتاب الله عما أبدعه بديع السماوات والأرض من مختلف الأكوان في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، داعياً كل الناس، عل اختلاف الألوان والأجناس، إلى تأمل آياته الكونية، تمهيداً للإيمان بآياته الدينية، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الـذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، يُدَبِّرُ الاَمْرَ، يُفَصِّلُ الاَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ، وَهُوَ الذِي مَدَّ الاَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَـٰراً، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي الَيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ، وَفِي الاَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنَ اَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ تُسْقىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكْلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة عرض سريع وخاطف لمظاهر متنوعة من صنع الله العجيب، وظواهرَ دقيقة من تدبيره المحكم، مما يبعث على التفكُّر والتدبر كل من عنده عقل أو فكر.

والوحي الإلٰهي الذي امتاز به الإسلام لا يتهيَّب أن يحتكم دائماً إلى العقل الناضج والفكر السليم، وأن يعتمد عليهما، بل هو واثق بانتصاره أمام فحصهما، مطمئن إلى إقناعه لهما، لأنه منبثق من صميم الفطرة الأصيلة التي فطر الله الناس عليها، ولا يوجد أي تعارض أو تناقض بينه وبينها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ - ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا ﴿ اللَّهُ الذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا ﴾ [الآية: ١٠]، وقد فهم بعض المفسرين أن الضمير في كلمة «ترونها» يعود على السماوات، تأكيداً لنفي العَمَد عنها، أي أن السماوات مرفوعة بغير عمد، كما ترونها، فهي لا ترتكز على أي شيء، ما عدا قدرة الله التي تمسكها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر: ٤١] ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥].

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الضمير في (ترونها) عائد على العَمَد لا على السماوات، فيكون معنى (بغير عمد ترونها) أن السماوات ليس لها عَمَد مرئية، ومفهوم ذلك أن للسماوات عَمَداً، لكن عَمَدها لا تُرى، وإلى هذا التأويل ذهب

ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم إذ قالوا: «لها عَمَد، ولكن لا تُرَى».

وهذاالتأويل الثاني هو الذي يتمشى معه ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير هذه الآية، من أن كُتَل الأجرام السابحة في الفضاء الفسيح، الهائلة ثِقَلاً وكثافة وحيِّزاً، وإن كان يظهر لنا أنها لا ترتكز على شيء يَدْعَمها ويرفع ثقلها الهائل، فإن هناك شيئاً محققاً يمسكها ويتحكم فيها قبضاً وبسطاً، بإرادة الله وحسن تدبيره، وهذا الشيء الخفي هو (قانون الجاذبية)، الذي اهتدى إلى ادراكه علماء الطبيعة بعد جهد جهيد، فالعَمَد التي لا تُرَى هي «الجاذبية» التي تجذب الثقيل إلى الأثقل، والكبير إلى الأكبر، وصدق الله العظيم.

وقوله تعالى هنا ﴿ وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾ لا يناقض مبدأ أن الأرض مكوَّرة، فالمَدُّ واقع من جهة أن كل قطعة من الأرض على حدتها ممدودة، والتكوير واقع من جهة أن جملة الأرض لها شكل كروي، ولا تعارض بين الأمرين.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ معناه الظاهر، والمحسوس، أنه سبحانه خلق من الثمرات أنواعاً متعددة، وخلق من نوع الثمرة الواحدة عدة أصناف، مختلفة الأشكال والألوان والروائح والطعوم والأحجام والمنافع، مما يدل على عظيم قدرته، وجليل حكمته، فهناك مثلاً عنب أسود وأبيض، وتفاح حلو وحامض، وهناك تمر تُجاوز أصنافُه العشرات

حتى تصل إلى المآت، إلى غير ذلك من مختلف الثمرات، وأعمُّ من هذه الآية قوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [الآية: ٥٣].

ويمكن أن تفسر هذه الآية بالمعنى العلمي الدقيق الذي كشف عنه النقاب «علم الحياة النباتي الجديد»، ألا وهو أن الله أودع في الثمرات عناصر ذُكورة وعناصر أُنوثة، وجعل بينها تزاوجاً وتلاقحاً مستمراً ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] وسيأتي في سورة يس وسورة الذاريات ما يفيد تعميم هذا المعنى بالنسبة للثمرات وغيرها، وذلك قوله تعالى في الأولى: ﴿ سُبْحَـٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٣٦] وقوله تعالى في الثانية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٤٩].

وقولُه تعالى ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ المرادُ بالصنوان الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، والمراد بغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار.

وقولُه تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، وَأُوْلَـٰٓئِكَ الْأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ ﴾ من الممكن أن تُحمَل الأغلال هنا على معناها المجازي، إشارةً إلى ما هم مقيَّدون به من سلاسل التقليد الأعمى، التي تشدهم إلى الأوهام الباطلة، والمعتقدات الضالة، مما يحول بينهم وبين تفتح الأذهان، وإدراك حقيقة الإيمان، وهذا المجاز يجري مجرى «الطبع» و«الختم على القلوب»، الواردين في

مثل هذا السياق في عدة آيات كريمة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾ أي يستعجلون النقمة بدلاً من النعمة، والغاشية بدلاً من العافية، وذلك على سبيل التحدي للرسول والاستخفاف بعذاب الله. و «المثُلات» جمع مَثُلة بفتح الميم وضم الثاء، وهي العقوبة العظيمة من الله، التي تُماثل الذنب وتجعل من نَزَلت به مضربَ الأمثال بين الناس.

وقولُه تعالى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ عقب قوله ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ يشبهه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم»، فالمعنى إذن إنما عليك الإنذار، والله هو الهادي لمن يشاء إذا شاء. قال أبو القاسم ابن جُزَيّ في تفسيره: «وقد يكون المعنى: إنما أنت نبي منذر، ولكل قوم هادٍ من الأنبياء ينذرهم، فليس أمرُك ببدع ولا مستنكر». وهذا المعنى يشبهه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عما انفرد به الحق سبحانه وتعالى من علم الغيب والاطلاع على «سر السر»، بحيث لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك خفايا الأرحام وما تنطوي عليه عند الإنسان وغيره من الحيوان، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ فالله

تعالى هو المنفرد بعلم ما في الأرحام على وجه التحقيق، أذَكَر أم أنثى، أوَحِيد أمْ توأم ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثىٰ ﴾، وهو المنفرد وحده بعلم ما يقع في الأرحام من زيادة أو نقص، وسلامة أو آفة، وتعجيل أو تأجيل ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾، وهو المنفرد وحده بعلم ما تضعه كل ذات حَمل في العالم كل طرفة عين من ملايين النسمات ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدارٍ، عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأنفُسِهِمْ ﴾ إشارة إلى عدل الله المطلق وحكمته البالغة، وأنه لا يسلب النعم، ويبتلي بالنقم، إلا من غيَّر طريقته في الشكر والطاعة، فأعرض عن الله، ونأى عنه بجانبه، فإذا انتقل من المعصية إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الشكر، ومن الإنحراف إلى الإستقامة، أكرمه الله بعفوه ورضاه، وسلك به مسالك النجاة، فرداً كان أو أمة.

وقولُه تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ يُشبه قولَه تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالأرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَـٰلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾. والمراد التنبيه إلى أصوات الرعد الهائلة المماثلة للإنفجار، وإلى ما يرافقها أحياناً من صواعق تحرق الأخضر واليابس، الأمر الذي يدل على قدرة الله، ويثير في النفوس الخوف من عذاب الله، مما يهز كيان الإنسان، ولو كان ضعيف الإيمان، ويضطره إلى تسبيح الله وتنزيهه ولو لم يكن ذلك باللسان.

وسجودُ من في السماوات والأرض معناه الانقياد المطلق لقضاء الله وقدَره، أحب من أحب وكره من كره، فالعارف بالله يخضع له طوعاً، وغيره يخضع له كرهاً. أما سجود «الظِّلال» غدوة وعشية ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ فمعناه انقيادها في القبض والبسط لمشيئة الله، طبقاً لما في كلتا الحالتين من مصلحة «لخلق الله»، بما في ذلك الإنسان والحيوان والنبات.

وقولُه تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: هي التوحيد، أي أن إفراد الله بالعبادة والدعاء دون سواه هو الحق الذي لا حق دونه، أما التوجه إلى غيره سبحانه بهما أو بأحدهما فهو أبطل الباطل ﴿ وَالذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا دُعَآءُ الْكَـٰفِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَـٰلٍ ﴾ إشارةٌ إلى ضياع عبادتهم في الدنيا، لأنهم يقومون بها لمعبودات باطلة، وإلى إحباط أعمالهم في الآخرة، لأنهم يبنون أعمالهم على أساس فاسد ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتَ اَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً، وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ اَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَـٰطِلَ ﴾. قال أبو إسحاق ابن جُزَيّ في تفسيره: «هذا مَثَل ضربه الله للحق وأهله، والباطل وحزبه، فمَثَل الحقّ وأهلَه بالماء الذي ينزل من السماء،

فتسيل به الأودية وينتفع به أهل الأرض، وبالذهب والفضة والحديد والصُّفْر ـ أي النحاس الأصفر ـ وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس، وشبَّه الباطلَ، في سرعة اضمحلاله وزواله، بالزَّبَد الذي يَرمِي به السيل، وبزَبَد تلك المعادنِ، الذي يطفو فوقها إذا أُذيبت، وليس في الزَّبَد منفعة، وليس له دوام».

وقولُه تعالى: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي أخذ كلُّ وادٍ من الماء بحسبه، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها من جهة استعدادها سعة وضيقاً، وقولُه ﴿ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ مثل معدن الذهب والفضة، وقولُه ﴿ أَوْ مَتَـٰعٍ ﴾ مثل معدن الحديد والنحاس، وقولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَـٰطِلَ ﴾ أي إذا اجتمع الحق والباطل فإن الباطل لا يثبت أمام الحق ولا يدوم، كما أن الزَّبَد لا يثبت مع الماء ولا مع ما يُسبَك في النار من مختلف المعادن، بل يذهب ويضمحل.

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن مَثَل ما بعثني الله به من الهُدَى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفةٌ قبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أَجَادِبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَل من فقِه في دين الله، ونفعه الله بما بعثني، ونفع به، فعلم وعلَّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرسِلت به» ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ،

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ، لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا

بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾
كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا
عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل
لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا
قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ
هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ
سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ

مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الربع الأول من الحزب السادس والعشرين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَـٰبِ﴾، ونهايته قوله تعالى: ﴿ بَـلْ زُيِّنَ لِلذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصَدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ، لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَـوٰةِ الدُّنْيا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ ﴾.

في الآية الأخيرة من الربع الماضي تحدث كتاب الله عن فريقين لا ثالث لهما ينقسم إليهما الناس بالنسبة لموقفهم من الدعوة والرسالة، الفريق الأول فريق الذين استجابوا لله، والفريق الثاني فريق الذين لم يستجيبوا له، وبيّن كتاب الله عاقبة الفريق الأول وهي حُسْن الجزاء، وعاقبة الفريق الثاني وهي سوء الحساب، فقال تعالى: ﴿ لِلذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنىٰ، وَالذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَواْ بِهِ، أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوٰيـهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِيسَ الْمِهَادُ ﴾.

وفي الآية الأولى من حصة اليوم بَيَّنَ كتاب الله أن الفريق الذي استجاب لربه، والفريق الذي لم يستجب إليه، لا يستويان في شيء، بل هما على طرفي نقيض، فالذي آمن بأن ما أُنزل إلى الرسول حق وصدق سليمُ البصر والبصيرة، ولذلك عرف الحقَّ وصدقه واهتدى به، والذي كذَّب بما أُنزل إلى الرسول أعمى البصر والبصيرة، لأنه قد عطَّل جميع ملكاته عن النظر والبحث والمقارنة، وهل يستوي الأعمى والبصير ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾.

ثم تولى كتاب الله وصف النوع المتبصر الذي يوجد عنده استعداد خاص للتأمل والتدبر في آيات الله الكونية والدينية، وحلَّل الصفات التي تميَّز بها هذا النوع من الناس، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَٰبِ، الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ، وَالذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ، وَالذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَٰوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرّاً وَعَلَٰنِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾.

وأول صفة وصَف الله بها هذا النوع المتبصر المفضل من الناس ـ وهم ﴿ أُوْلُواْ الأَلْبَٰبِ ﴾ في لغة القرآن ـ هي صفة الوفاء بالعهد، التي تعتبر بالنسبة إلى غيرها بمنزلة الأصل من الفرع، إذ الوفاء بالعهد يستلزم القيام بجميع الفروض والواجبات، والوفاء بكل العقود والالتزامات، والأداء لكافة الحقوق والأمانات، وفي طليعتها العهد الأول الذي أخذه الله على الإنسان، وهو لا يزال في صُلب أبيه آدم بالتزام الإيمان، ثم العهد الذي يترتب على

الإقرار بالشهادتين، الذي هو شرط أساسي للدخول في الدين (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) فإن الإقرار بهما يُلزِم عهوداً، ويربط عقوداً، وينشىء تكليفاً بعدة أنواع من الالتزامات الشرعية، الأدبية والمادية، ومنها كما قال أبو بكر (ابن العربي): «الوفاء بالعرفان، والإنكفاف عن العصيان، والقيام بحق الاحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وإلى صفة الوفاء هذه يشير قوله تعالى هنا: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾.

وثاني صفة وصف الله بها من أراد أن يكون من أولي الألباب صفة الحنان والمروءة ورقة الشعور، التي تتجلى في سلوكهم العام، ولا سيما في صلة الأرحام، وبذل المعروف للفقراء والمحتاجين والعطف عليهم، مما يعين على إقامة مجتمع متحاب فاضل ومتكافل، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾.

وثالث صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يكون لهم وجدان حي، قوي الحساسية، عميق الشعور، بحيث يراقبون الله في أعمالهم كل المراقبة، ويحرصون على الاستقامة في أحوالهم كل الحرص، سواء ما كان منها خُصوصياً أو عمومياً، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾.

ورابع صفة وصف الله بها أولي الألباب أن تكون لهم قدرة على ضبط النفس والصبر الجميل، فهم بالمرصاد دائماً لأنفسهم

وشهواتهم، لا يطلقون لها العِنان، ويلتزمون إزاءها حدود الإعتدال والمشروعية دون كبت ولا طغيان، وهم في حالة الرخاء صابرون، بحيث لا يطغون ولا يتعدون الحدود، وفي حالة الشدة صابرون، بحيث لا يسخطون على الموجود طمعاً في المفقود. وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فهم صابرون عن رضا لا عن سخط، وعن اختيار لا عن مجرد اضطرار، وهم قاصدون بصبرهم وجه الله ورضاه، أولاً وأخيراً.

وخامس صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يقيموا الصلاة، أي يقوموا بها على وجهها الكامل، بحيث لا يتركونها ولا يهملونها، ولا يقومون إليها كسالى، فهم على صلة بالله دون انقطاع، يناجونه ويشكرونه، ويؤدُّون حقه، ويطلبون عونه على الدوام والاستمرار، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾.

وسادس صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يحسنوا التصرف فيما آتاهم الله من رزق، وائتمنهم عليه من مال، بحيث يكونون أسخياء النفوس، ذوي فُتُوة وشهامة وكرم، يعتبرون المال وسيلة لا غاية، وغايته نفعهم ونفع الناس أجمعين، ولذلك فهم لا يبخلون بإنفاقه في وجوه الخير، وسبل النفع، وهم ينفقونه سراً كما ينفقونه علانية، حسب الظروف الطارئة والحاجات الملحَّة، والوضع الذي يكون فيه المنفِق والمنفَق عليه، لا يتقيدون بوجه دون وجه، ولا باب دون باب، فلأزواجهم وأولادهم وأقربائهم من أموالهم حظ معلوم، كما أن فيها حقاً ثابتاً للسائل والمحروم،

وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً ﴾.

وسابع صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يكونوا على درجة كافية من الإنتباه الشديد، والمحافظة على رصيدهم الخاص من الحسنات، حتى يظل رصيداً لا عجز فيه ولا تطغى عليه السيئات، بحيث يكونون ذوي وعي عميق وانتباه تام، وولوع بمحاسبة أنفسهم ونقدها الذاتي على الدوام، وهكذا كلما عملوا سوءاً بجهالة أو تحت تأثير نزوة من النزوات، اهتموا بأن يعملوا في أعقابه مباشرة ما يمحو أثره، ويزيل مفعوله، من صالح الحسنات. وإذا أساء إليهم مسيء لم يقابلوا إساءته بالمثل، بل قابلوا إساءته بالإحسان، مساهمةً منهم في وضع حد لروح الشر والعدوان، وإشاعةً لروح التسامح والغفران، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة، مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية ﴿ إِنَّ الْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰماً ﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهذه هي الصفات الرئيسية التي يعتبر من اتصف بها في نظر الإسلام ـ طبقاً لمعيار الذكر الحكيم ـ من «أولي الألباب» أي من أصحاب العقول الناضجة والأفكار السليمة، وبقدر ما ينقص منها عند الشخص يكون ناقص العقل، فاقد اللب، غير معدود

في عداد العقلاء الراشدين، فمن أراد أن يعرف نفسه أهو في عداد العقلاء الراشدين، أم في عداد السفهاء والحمقى والمجانين، فليعيِّرها بمعيار القرآن، فإنه خير معيار يعيَّر به النقصان والرجحان في ميزان الإيمان. قال القاضي عبد الجبار: «حكى بعض الأئمة أنه سئل عن وصف (المومن) فتلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ إلى آخرها.

وبعدما حلَّل كتاب الله الصفات المعتبرة في أولي الألباب من المومنين الصادقين عرَّج على وصف ما ينتظرهم وينتظر الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرِّياتهم من النعيم المقيم في دار السلام، فقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنَ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ، وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

وقولُه تعالى في هذا السياق: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنَ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه إشارة واضحة إلى أن البيئة التي تشيع فيها مثل هذه الخصال ينتشر فيها الخير والبر، حتى يشمل جميع أعضائها وأفرادها، لأنهم يتنفسون في جو مفعَم بالطهر والصلاح والقدوة الحسنة، فيرثون الصلاح خلفاً عن سلف، وأباً عن جد.

وكما تحدث كتاب الله عن أولي الألباب وصفاتهم المثلى وما ادَّخر الله لهم من حسن العاقبة تعرض لمن هم على عكسهم عقيدة وعملاً وسلوكاً، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

الاَرْضِ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾.

وتناول كتاب الله الرد على المصرِّين المعاندين من مشركي العرب الذين قالوا للرسول: «لو سيَّرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطَّعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح»، ومرادهم تسخير الريح لهم، «أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه». فقال تعالى: ﴿ وَلَوَ اَنَّ قُرْءَاناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الاَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ أي لما آمنوا به، ما دام تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى بالنسبة لهؤلاء المعاندين المصرين إنما هو مجرد تحدٍ وإصرار، وعتو واستكبار، وليس الأمر أمر استجلاء للحقائق أو تطلع إلى استكناه الأسرار، فالمعنى المراد إذن أنهم «لا يومنون ولو جاءتهم كل آية».

وقولُه تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ اَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دارِهِمْ حَتَّىٰ يَاتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ مواساةٌ من الله لرسوله والمومنين، وتعريف لهم بأن الحرب التي تدور رحاها بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، مستمرة إلى يوم الدين، وأن أعداء الله وخصوم دينه لا بد أن يلاقوا جزاءهم، بشكل أو آخر على مر الأيام، فكلما انجلت عنهم قارعة وأمنوا مكر الله حلَّت بساحتهم قارعة أخرى أدهى وأمر، وهم بين القارعتين الماضية والآتية في خوف وهلع، واضطراب وجزع، كما جرى في حروبهم المتتالية، ولا سيما في الحربين العالميتين الأولى

والثانية، وإن لم تَحُلّ القارعة بدارهم وتقضِ عليها، حلَّت بأقرب مكان إليها، وهكذا يمهلهم الله ولا يهملهم، وهو القاهر فوق عباده ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين
في المصحف الكريم

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا
دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ
الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ
وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم

بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ
لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ
إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ
أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي
شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩

الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الرعد المكية: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ، وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة إبراهيم المكية أيضاً: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

والآية الأولى في هذا الربع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآية الأخيرة في الربع الماضي، فقد كان الحديث يدور حول الكافرين الماكرين الذين يصدُّون عن سبيل الله وحول ما ينتظرهم من عذاب في الدنيا، وعذاب أشق منه في الآخرة: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴾. ثم واصل كتاب الله الحديث عن المومنين المتقين، وما ينتظرهم من نعيم دائم في جنات النعيم، وذلك قوله تعالى في أول هذا الربع: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَـا دَآئِمٌ وَظِلُّهَـا، تِلْكَ عُقْبَى الَّـذِينَ اتَّقَـواْ، وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ ليس المراد به ضـرب المثل لها فحسب، بل المراد به وصفُها بالذات وما تكون الجنة عليه فعلاً، وكلمة (مثل) في الآية مبتدأ خبره محذوف مقدم، تقديره «فيما يتلى عليكم صفة الجنة» كما أعربه الإمام سيبويه رحمه الله. وذهب الفراء إلى أن كلمة (مثل) مبتدأ وقوله تعالى في نفس الآية: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ ﴾ جملة خبرية هي خبر عن (مَثَل)، وكما جاءت كلمة (مثل) بهذا المعنى في الآية التي فسَّرناها وردت أيضاً بنفس المعنى في «سورة محمد»، فقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْـرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [الآية: ١٥] إلى آخر الآية، فالمراد فيها أيضاً بمَثَل الجنة صفةُ الجنة.

وقولُه تعالى في وصف الجنة ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ تنبيه إلى أن ما فيها من الخيرات والنعم لا انقطاع له ولا فناء، والأكل بضم الهمزة معناه المأكول، ويشبه هذه الآيةَ في المعنى قولُه تعالى في آية ثـانيـة: ﴿ وَفَـٰكِهَـةٍ كَثِيـرَةٍ، لَّا مَقْـطُوعَــةٍ وَلَا مَمْنُـوعَــةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقولُه تعالى في آية ثالثة: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هـود: ١٠٨].

وقولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ، وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ ﴾ جارٍ على طريقة القرآن الكريم في الجمع غالباً بين صفة

الجنة وصفة النار، ترغيباً فيما يوصل إلى الأولى، وترهيباً مما يورط في الثانية.

ثم تحدث كتاب الله عن موقف المومنين وموقف المنافقين من القرآن الكريم، وكيف يستقبلُ نزولَه كلٌّ من الفريقين، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُّنكِرُ بَعْضَهُ ﴾. والمراد أن المومنين الصادقين يستقبلون الوحي المنزل من عند الله بفرح وابتهاج، وثقة وتصديق، وأنهم لا يزيدون به إلا إيماناً، ولا يزدادون به إلا تمسكاً، ولا يبدون عليه أي اعتراض أو امتعاض، إذ لا يأتيهم إلا بما فيه الصلاح والفلاح دنيا وأخرى، بينما المنافقون يستقبلونه بالإقرار والرضا حيناً، وبالإنكار والسخط أحياناً، إذ يعيِّرون الوحي بمعيار أهوائهم وشهواتهم ودسائسهم، فمتى نزل القرآن بما يقف حجر عثرة في طريق تلك الأهواء والشهوات تمارضوا واعترضوا، ومتى كشف القرآن النقاب عن دسائسهم لَوَّوْا رؤوسهم وأعرضوا، ولا يزال موقف الفريقين من كتاب الله على هذا الحال إلى الآن وحتى الآن، فالمومنون به يرون في مبادئه ومناهجه وشعائره وشرائعه المثل الأعلى، والنظام الأصلح والأفضل، الذي يجب أن يسود العالم، والمنافقون يسلِّمون بعضه، وينكرون بعضه أو ينكرونه بالمرة، لأنهم يريدون قرآناً يطاوع أغراضهم ويساير أهواءهم ﴿ وَمَا أُوْلَـٰٓئِكَ بِالْمُومِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ قُلِ اِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُواْ، وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ يشبه قوله تعالى فيما سبق: ﴿ قُلْ

هَٰذِهِ سَبِيلِيَ أَدْعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فهو تأكيد لأن دعوة الرسول دعوة خالصة إلى الله، مجردة من كل غرض ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ، وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾. وكلمة (مآب) من الأوْب وهو الرجوع، أي إليه مرجعي ومصيري على غرار قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾ معناه كما أنزلنا كتباً أخرى على رسل سابقين أنزلنا عليك القرآن محكماً معرّباً، بلسان عربي مبين، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ اِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وواضح أن كتاب الله وذكره الحكيم مهيمن على كل ما سبقه من الكتب والرسالات، ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه ناسخ لكثير من التشريعات والأعراف السالفة، فله الكلمة العليا عليها جميعاً، وهو الحَكَم الأخير الذي لا معقب له، بالنسبة لأحكامها جمعاء.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَٰجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ تأكيد للصفة البشرية التي اختار الله أن يكون عليها رسله إلى الناس، فهم من ناحية التكوين الخَلْقي بشر عاديون لا ملائكة، ولا أنصاف ملائكة، ولا صنف آخر من أصناف المخلوقات، ﴿ قُلِ اِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] - ﴿ قُلْ سُبْحَـٰنَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الاسراء: ٩٣]، وهم من ناحية الانتخاب الخُلُقي والاصطفاء الإلٓهي للرسالة بشر لا كالبشر ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

رِسَالَتِهِ ﴾ [الانعام: ١٢٤].

وتفيد الآية الكريمة في نفس الوقت أن الرسالة لا تستلزم رهبانية ولا انصرافاً عن الحياة الإنسانية العادية، حياة الزوجية وإنجاب الذرية، خلافاً لما ابتدعه المبتدعة في مختلف الأديان والملل، وادَّعوا أنه يقرِّبهم إلى الله دون حياء ولا خجل.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ردٌّ على المشركين والمنافقين الذين خُيِّل إليهم أن الرسالة عمل ذاتي يمكن للرسول أن يتصرف فيه كما يريد، بحيث كلما طُلب إليه شيء من المعجزات وخوارق العادات، جاء به من عند نفسه، ترضية للطلبات وتحقيقاً للرغبات، بينما الرسول في الحقيقة إنما هو مبلِّغ عن الله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] وإنما ينطق بالوحي عن إذن ربه، متى تلقى الوحي، وصدر إليه الإذن بالتبليغ.

والمراد (بالآية) في هذه الآية ما يشمل آيات الذكر الحكيم، وهي آيات معنوية، ويشمل آيات العذاب الأليم، وهي آيات مادية، فطالما استعجل المشركون نزول عذاب الله الذي أنذرهم به، وطالبوا الرسول بإنزاله أو استنزاله، لكن الأمر في الحقيقة أمر الإرادة الإلٓهية العليا، فهي التي تحدد لكل شيء أجله، وتأتي به في أجله المحتوم ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾، وقال أبو حيان: «قوله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لفظ عام في الأشياء التي لها آجال، لأنه ليس منها شيء إلا وله أجل في بدئه وفي ختامه،

وذلك الأجل مكتوب محصور، وثم أشياء كتبها الله تعالى أزلية كالجنة ونعيم أهلها لا أجل لها».

وقولُه تعالى: ﴿ يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال أبو القاسم (ابن جُزَيّ): «القاعدة المقررة أن القضاء لا يبدَّل، وأن علم الله لا يتغير، والمحو والإثبات يندرج تحته المحو والإثبات بالنسبة للأحكام الشرعية، فالإثبات هو بقاؤها ودوامها، والمحو هو النسخ، ويندرج تحته ما يعمله الإنسان من طاعة الله، ثم ينزلق إلى المعصية ويموت عليها، فتمحو معصيتهُ طاعتَه، وما يعمله من معصية الله، ثم يقبل على الطاعة ويموت عليها، فتمحو طاعتُه معصيتَه، مصداقاً للحديث الشريف: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخلها».

ومن لطائف التفسير في قوله تعالى هنا ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾: ما نقل عن الضحاك والفراء، من أن المراد به (لكل كتاب أجل)، بمعنى أن لكل كتاب أنزله الله من السماء أجلاً معلوماً ومدة معينة عند الله، وهكذا توالت كتبه المنزلة الواحد تلو الآخر، إلى أن نزل الذكر الحكيم، فكان خاتمة الكتب الإلَهية يَمحو منها ما يشاء ويثبّت منها ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَـٰبِ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ يشبه قوله تعالى في سورة ءال

عمران ﴿ هُوَ الذِيّ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ مِنْهُ، ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب ﴾ [الآية: ٧]. فأم الكتاب هو القسم المحكَم من آيات الوحي الإلٓهي الذي لم يصبه أي محو ولم يلحقه أي نسخ، من العقيدة الأساسية، والشريعة الأصلية، الصالحتين للاستمرار والبقاء، والمتفق عليهما في الكتب الإلٓهية جمعاء، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. وإطلاق كلمة (أُمّ) على ما يجري مجرى الأصل للشيء معروف في اللغة، كقولهم (أم الرأس) للدماغ.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ إشارةٌ إلى أن خالق الكون متكفل بتسيير كونه طبقاً لمشيئته العليا، وأن الأمر لا يتوقف على أحد من خلقه، وسواء شاهد الرسولُ عليه الصلاة والسلام بعيني رأسه ما بشَّر الله به ـ على لسانه ـ المؤمنين، وأنذر به الكافرين، أو توفاه الله إليه، وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يشاهد ذلك، فالمهم بالنسبة إليه ـ بوصفه رسولاً ـ هو أن يقوم بواجب التبليغ عن ربه خير قيام، وحساب الخلق في النهاية موكول إلى الله.

وقولُه تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ كناية عما يصيب البلاد العامرة من خراب، وما يصيب الأراضي الخصبة من قحط وجدب، عقاباً من الله لأهلها على

الظلم والفساد، السائدين في البلاد، على غرار قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الآية: ٤٤]. وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٧].

وقولُه تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامة حيث ينفرد الحق سبحانه وتعالى بالملك الحقيقي والحكم النهائي: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] فلا أحد بعد انتهاء الحساب، يستطيع أن يتعقب حكم الله بالعقاب أو الثواب. و (المعقِّب) هو الذي يكُرُّ على الشيء فيبطله إذا كان فيه خطأ.

والآن لم يبقَ لنا إلا أن ننتقل إلى سورة إبراهيم المكية، وسنلاحظ أنها مبدوءة بحروف الهجاء المقطعة كسورة الرعد التي سبقتها (أ. ل. ر.) وسنجد أن أول ما يذكر فيها بعد هذه الحروف كتاب الله والتنويه به، كما هو المعتاد في السور المبدوءة بمثل هذه الحروف ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾.

وأطلق على هذه السورة اسم (سورة إبراهيم)، لما جاء فيها من الآيات المتعلقة بابراهيم الخليل عليه السلام، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السياق حكاية لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِـدَيَّ وَلِلْمُومِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي
اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ
كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ
وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ

إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ
أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ
بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢
وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ
فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ
طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤
تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦
يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ٢٧

الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّٰلِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

بعدما تناولت الآيات الكريمة السابقة بالذكر قصة موسى مع قومه باختصار، وبيَّنت ما أمر اللَّهُ به موسى من تذكير قومه بأيام الله، بما فيها من نعم ونقم، وبعد أن حذر الله مشركي العرب وَمَنْ والاهم من أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح وعاد وثمود، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن الرسل وأقوامهم عامة، مَن عُرفت أسماؤهم وقِصصهم عن طريق الوحي، ومن استأثر الله بعلمهم دون خلقه، فلم يرد عن أحوالهم أي بيان أو تفصيل ﴿ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الآية: ٩] - ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ

أَجَلٍ مُّسَمًّى، قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

فها هنا يشير كتاب الله إلى الدعوة العامة والوحيدة التي جاء بها كافة الرسل عن الله في جميع العصور والأجيال، كما يشير إلى الرد القبيح المتشابه، الذي توارثه خصوم الرسالات الإلّهية من أولياء الشياطين، المتعصبين المتحذلقين ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ اِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ذهب سيبويه إلى أن (مِن) في هذه الآية للتبعيض، وعليه يكون المعنى أن الكافر إذا أسلم غُفر له ما تقدم من ذنبه، أما ما يذنبه بعد دخوله في الإسلام فهو في المشيئة، وهكذا تقع المغفرة في الذنب السالف على الإسلام، ويبقى الأمر معلقاً بمشيئة الله فيما وراء ذلك، ويشبه هذه الآيةَ قولُه تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ [الآية: ٣١]، وقولُه تعالى في سورة نوح: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، اَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرْكُمُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الآيات: ٢، ٣، ٤] فكلها تقتضي غفران بعض الذنوب للكفار إذا آمنوا، وهذا البعض يشمل جُملة ذنوبهم قبل الإيمان، مصداقاً لقوله تعالى في آية

أخرى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الانفال: ٣٨].

وكلمة (سلطان) في قوله تعالى: ﴿ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ترد في القرآن بمعنيين: المعنى الأول: الحجة والبرهان، ويشمل نفس المعجزات، كما ورد في هذه الآيات، والمعنى الثاني: القوة والقهر، كما في قوله تعالى متحدياً معشر الجن والانس: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي لا تخترقون أقطار السماوات والأرض وتجاوزونها إلى ما وراءها إلا بقوة وقهر، وأنّى لكم ذلك؟.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إشارةٌ إلى ما يحاوله الكفار من الضغط على الرسل بغية التسليم لهم بملّتهم، وما يهددونهم به من النفي والإبعاد عن أرضهم إن لم يذعنوا لضغطهم، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الاسراء خطاباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً، سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الآيتان: ٧٦، ٧٧]، وإلى قوله تعالى في سورة الانفال خطاباً لرسوله أيضاً ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ ﴾ [الآية: ٣٠]، وإلى قول ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «يا ليتني فيها جذَعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قال: أوَ مُخرِجِيَّ هم؟ قال: نعم. لم يأتِ أحد بمثل ما

جئت به إلا عُوديَ وأُخرج، وإن يدركني يومُك أنصـرْك نصراً مؤزراً». قال أبو القاسم ابن جُزَيّ: «والعود هنا ـ أي في قوله ـ ﴿ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بمعنى الصيرورة ـ أي تصيرون على ملتنا ـ وهو كثير في كلام العرب، ولا يقتضي أن الرسل كانوا في ملّة الكفار قبل ذلك، (فحاشاهم من ذلك).

وقولُه تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُواْ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إشارةٌ إلى ما قام به الرسل عليهم السلام من الاستنجاد بالله وطلب نصره لهم على الكفار من قومهم، وإلى أن الله لم يُخلف وعدَه رسلَه، بل نصرهم على خصومهم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمُ، أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَـٰحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَـٰلُ الْبَعِيدُ ﴾ إشارةٌ إلى الصفة التي يكون عليها الكفار يوم القيامة، فلفظ (مَثَل) هنا بمعنى الصفة نفسها، وليس المراد به مجرد ضرب المثل، ومذهب سيبويه والفراء في هذه الآية: ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمُ ﴾ هو نفس مذهبهما في قوله تعالى في بداية الربع الماضي ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد: ٣٥]. فعلى مذهب سيبويه يكون الخبر محذوفاً تقديره ـ فيما يتلى عليكم ـ ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمُ ﴾ وعلى مذهب الفراء يكون الخبر هو الجملة التي بعدها ﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَـٰحُ ﴾ [الآية: ١٨]. وشُبّهت أعمال الكفار التي يظنونها أعمالاً صالحة بالرماد، لذهابها وتلاشيها وعدم اعتبارها، إذ هي فاقدة للإيمان والإخلاص الذي

هو شرط أساسي لقبول الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى لا يمتنع على قدرته أن يبيد المخالفين ويمحق الكافرين، ثم يستبدل بهم من يطيع أمره ولا يعصيه، ومن يومن به ولا يشك فيه، على غرار قوله تعالى ضمن آية ثانية بنفس اللفظ والمعنى في سورة فاطر: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [الآيات: ١٥، ١٦، ١٧] ونظير قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ، إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إشارةٌ إلى الخطبة التي سيلقيها ابليس على أتباعه من الضالين والمنحرفين، والمنافقين والكافرين، عندما يُرفَع النقاب، ويُهتَك الحجاب، ويُفصَل في أمر الثواب والعقاب، فيعترف ابليس اللعين، لأتباعه المخدوعين، بأن الله وحده هو الذي وعد عباده وعد الحق، وأن ابليس لم يعدهم إلا وعد الباطل، ثم يتبرأ منهم، ويلقي المسؤولية كلها

عليهم، ويدعوهم ـ بدلاً من أن يلوموه ـ إلى لوم أنفسهم. قال ابن كثير: «الظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من ابليس بعد دخولهم النار».

والمراد بقوله هنا: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ ما أنا بمغيثكم، وما أنتم بمغيثين لي، فليس في استطاعة أي واحد إنقاذ الآخر مما هو فيه من العذاب، بل كل منهما عاجز عن إنقاذ نفسه فضلاً عن إنقاذ الآخر.

ثم أشار كتاب الله إلى عاقبة المومنين المتقين، وما يلقَوْنه عند ربهم من حسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾.

وأخيراً ضرب الله المثل للعمل الصالح الذي يعمله المومن كلما هَمَّ بعمل، وللقول الطيب الذي يفُوه به كلما فاه بخطاب، ولا سيما كلمة الإيمان، فقال تعالى: ﴿ اَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ، تُوتِيٓ أُكْلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الاَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾. كما ضرب كتاب الله المثل للعمل الفاسد والقول الخبيث، اللذيْن يقوم بهما الضالُّون والمنحرفون، والمنافقون والكافرون، ولا سيما كلمة الكفر والإلحاد، فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الاَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرارٍ ﴾ والمراد بقوله (اجتثت) أي استؤصلت، والمراد

بقوله (ما لها من قرار) أي لا أصل لها ولا ثبات.

وقولُه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ المراد بالقول الثابت الشهادتان اللتان يقرُّ بهما المومن من أعماق قلبه، ويُشهِد عليهما كل جوارحه ومشاعره، وهكذا إذا فُتِن الذين آمنوا في الدنيا ثبَّتهم الله بالقول الثابت، فلم يُسلَبوا بعد العطاء ولم يزِلوا، وإذا فُتنوا في الآخرة ثبَّتهم الله بالقول الثابت فلم ينسَوْا ولم يضلُّوا، وكما بشَّر الحق سبحانه وتعالى المومنين فقال في شأنهم ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢] أنذر الكافرين ومن سلك مسلكهم من الضالين، فقال تعالى هنا: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بما يؤكد قدرة الله المطلقة، وتصرفه الشامل في خلقه، فقال تعالى: ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾ [يسٓ: ٨٢] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالاَمْرُ، تَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٤].

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ
دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن
قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا
بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ
ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ
وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ
وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا، وَبِيسَ الْقَرَارُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَـٰبِ ﴾.

في بداية هذا الربع يَلْفِت كتاب الله نظر كل من له عقل وبصيرة إلى سوء تصرف الأشقياء من العباد، حيث يحيلون نعمة الله نقمة وخيره شراً، وحيث لا يكتفون بالإساءة إلى أنفسهم بسوء تصرفهم، بل تكون إساءتهم سبباً في إذاية الآخرين وجرِّهم معهم إلى الهلاك المحقق، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَـوارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا، وَبِيسَ الْقَرَارُ ﴾ أي المَقر.

والمراد من هذه الآية إثارة التعجب من حال جميع الذين لا يقدُرون نعم الله حق قدرها، ويعدلون عن شكرها، وإن كانت هذه الآية في رأي بعض المفسرين تشير أولاً وبالذات إلى أئمة

الشرك، وما جرى لهم ولقريش على يدهم من هزائم وخسارات في الأنفس والأموال، وقحط وجدب طيلة سبع سنين، أثناء تصديهم للإسلام، الذي هو أكبر نعمة عليهم وعلى الناس، بالمهاجمة والمقاومة والتنكيل. قال ابن كثير: «إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبل نعمته وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار».

وقوله تعالى هنا: ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً ﴾ أي بدلوا شكر نعمته كفراً، فهو على حذف مضاف، نظير قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلون شكر رزقكم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ ﴾، أي كانوا سبباً في سوء العاقبة لمن اتبعهم وأطاعهم، وحلولهم بدار الهلاك وهي جهنم، ويفهم من هذه الآية أنه إذا كان مآل الأَتْباع حلول دار البوار، فإن القادة المتبوعين يكونون بحلولها أحق وأولى.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً ﴾ إشارةٌ إلى ما يجب على المومنين من حقوق لله وحقوق للعباد، فحق الله يتجلى في حقه الأول وهو إقامة الصلاة، وحق العباد يتجلى في حقهم الأول وهو الإنفاق على المحتاجين منهم، فرضاً ونفلاً، سراً وعلناً، بالإضافة إلى ما يلزم للأهل والأقرباء، وذوي الأرحام الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَنْ يَـأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْـعٌ فِيهِ وَلَا

خِلَـٰلٌ ﴾ إشارةً إلى وجوب مبادرة المومنين بأداء ما عليهم من الحقوق لله ولعباده، دون تأخير ولا إمهال ولا إهمال، حذراً من أن يفاجئهم الموت قبل أن يقوموا بها، فلا يمكنهم أن يتداركوها يوم القيامة، إذ إن يوم القيامة يوم لا تنفع فيه فدية بمال ولو كانت ملء الأرض ذهباً ﴿ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾، ولا تنفع فيه محبة الأحباب وخُلَّة الأصحاب، ﴿ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴾.

ثم استعرض كتاب الله جملة من بدائع الصنع الإلّهي في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، مذكراً بما انطوت عليه من نعم كبرى سخَّرها للإنسان، داعياً إياه إلى التأمل في عجائبها وتدبر آياتها، إذ كلها دلائلُ ناطقة بوجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، ومظاهرُ بارزة لإحسانه ورحمته، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقاً لَّكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَـٰرَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ والمراد بقوله تعالى هنا ﴿ دَآئِبَيْنِ ﴾ أن الشمس والقمر يتعاقبان باستمرار، فلا يفتران في سيرهما، ولا يتوقفان عن حركتهما، وذلك مما يتفق كل الاِتفاق وينسجم كل الاِنسجام مع ما تتوقف عليه حياة الإنسان والحيوان والنبات، ومصالح الأحياء جميعاً فوق سطح الأرض.

وامتن سبحانه وتعالى على الإنسان امتناناً خاصاً بما أكرمه به من جميع النعم، التي يتوقف عليها في تصرفاته، الضرورية والحاجية والكمالية، سواء في ذلك ما سأله منها بلسان المقال،

وما سأله منها بلسان الحال، مبيِّناً أن نعم الله لكثرتها وتنوعها لَا يستطيع أن يعدَّها عاد، بل هنالك نعم إلٰهية خفية ودقيقة تخفى حتى عن أدق الأفكار، لأنها من باب اللطف الخفي، فلا يهتدي إليها علم الإنسان المحدود، ولا سبيل لإدراكها فضلاً عن إدراجها تحت العد والمعدود، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.

ثم عقّب كتاب الله على ذلك كله بما يكون عليه حال الإنسان، الفاقد للإيمان، من ظلم في حق الله، بالشرك به، وظلم في حق نفسه، بالكفر بالله، وظلم للخلق، بتعدي حدود الله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وعلاقته بالبلد الحرام والبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الاَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾. وبذلك بيَّن كتاب الله أن ما عليه مشركو العرب من عبادة الأوثان والأصنام لا يمُتُّ بصلة إلى ملَّة إبراهيم، وأن عبادة الأصنام إنما هي ضلال في ضلال، وأن ما يتمتعون به من أمن في البلد الحرام إنما هم مدينون به قبل كل شيء لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، لا إلى ما اخترعوه لعبادتهم من الأوثان والأصنام. وبذلك أقام الحجة عليهم، ولم يُبقِ لهم عذراً، ثم قال تعالى حكاية لتتمة دعاء إبراهيم ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، إشارةً إلى أن من اتبع إبراهيم على ملة التوحيد كان منه وإليه،

وإلى أن من عصاه فارتكس في عبادة الأصنام ليس منه، ولو انتسب إليه، بل أمره موكول إلى مشيئة الله، إن اهتدى بعد كفره إلى الإيمان تاب الله عليه وغفر له، وإلاَّ عاقبه ولو أمهله.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ قال أبو القاسم ابن جُزَيّ: «اجنبني: أي امنعني، وبنيَّ: يعني من صُلْبِه، وفيهم أجيبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام».

وأشار كتاب الله إلى ذرية إبراهيم التي أسكنها بالبلد الحرام، وما أراد أن تكون عليه هذه الذرية، وما دعا لها به من الدعوات الصالحة ديناً ودنيا.

والأمر يتعلق في بدايته باسماعيل بن ابراهيم عندما حمله أبوه رضيعاً مع أمه هاجر من الشام إلى مكة، وتركهما إبراهيم وديعة في يد الله، بأمر من الله، في نفس البقعة التي سيقام فيها البيت الحرام في البلد الحرام، وذلك قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ أي عند المكان الذي سيبنى فيه بيتك المحرم ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ، فَاجْعَلَ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

والمراد ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ مكة، والوادي في لسان العرب ما بين جبلين، وإن لم يكن فيه ماء، وحيث أن مكة لم يكن فيها زرع دعا إبراهيم ربه أن يرزقها من ثمرات البلاد الأخرى، إعانة للعاكفين بها والوافدين إليها على عبادة الله وطاعته

وشكره، وقد استجاب الله دعاء إبراهيم الخليل، واستمر البلد الحرام رافلاً في حلل النعيم جيلاً بعد جيل، وامتناناً من الله تعالى على أهله والوافدين عليه، قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً تُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾.

وفي تفسير هذه الآية قال جار الله الزمخشري وهو شاهد عيان لما كان عليه البلد الحرام في القرن الخامس الهجري وأوائل القرن الذي يليه: «لا جَرَم أن الله عز وجل أجاب دعوة إبراهيم، فجعله حرماً آمنا تُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضّله، في وجود أصناف الثمار فيه، على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يُريكَها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان، من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متّعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه».

وقولُه تعالى هنا حكاية عن إبراهيم ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ ﴾، إشارةٌ إلى ما حببه الله إلى المومنين من حج بيت الله الحرام، وقدومهم عليه من جميع أطراف العالم كل عام.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسيره هذه الآية ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾: «لا يجوز لأحد أن يتعلق به في طرح عياله وولده بأرض مَضْيَعة (أي مفازة منقطعة) اتكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم، فإن

إبراهيم فعل ذلك بأمر الله، لقولها (أي هاجر) له في هذا الحديث: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم. ولمّا كان بأمر منه أراد تأسيس الحال وتمهيد المقام، وخطَّ الموضع للبيت الحرام والبلدة الحرام».

وقولُه: ﴿ لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ ﴾ خصها من جملة الدين، لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد، قال النبي ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على عباده في اليوم والليلة، فمن جاء بهن لم يضيِّع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يُدخِله الجنة، ومن لم يأتِ بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة». رواه مسلم في صحيحه.

ثم حكى كتاب الله جزءاً آخر من قصة إبراهيم في مرحلة لاحقة، وفي هذا الجزء ورد ذكرُ ولديه اسماعيل وإسحاق، والإشارةُ إلى فرحه بهما، وشكره لله عليهما، وقد كان إسماعيل أكبر سناً من أخيه، ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴾.

وسجَّل كتاب الله الدعاء الإبراهيمي الذي يعتبر نموذجاً للدعاء الصالح بالنسبة لكل مومن، فقال تعالى حكاية لدعاء إبراهيم ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُومِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾. وها هنا نجد إبراهيم عليه السلام يحصر دعاءه للمرة الثانية في إقامة الصلاة التي هي عماد الدين، كما حصره فيها في المرة الأولى إذ قال: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ ﴾، ونجده يدعو لذريته ووالديه

والمومنين، وهكذا ينبغي لكل داعٍ أن لا يخص نفسه بالدعاء، بل أن يدعو لنفسه ووالديه وذريته وكل من له حق عليه، وأن يدعو لكافة المومنين.

وقد نبه علماء التفسير في هذا المقام إلى أن دعاء إبراهيم لوالديه معاً حسبما ورد في هذه الآية كان سابقاً على معرفته بما سيستقر عليه أمر والده، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [الآية: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَٰفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّٰلِمُونَ ﴾ إلى آخر الآية، تنبيه عام من الله تعالى موجَّه لكل ذي عقل وبصيرة من عموم الناس، إلى أن الله تعالى إذا أمهل الظالمين فإنه لا يهملهم، إذ إليه يرجعون، وسيعاقبهم على ما يعملون.

وجدَّد كتاب الله الخطاب لرسوله، يأمره بتبليغ الرسالة وإنذار الخلق، حتى تقوم عليهم الحجة، ولا يبقى لهم أي عذر في التخلف عن إجابة الدعوة، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَاتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ خطاب عام من الله تعالى موجه إلى كل ذي عقل وبصيرة من عموم الناس، بأن لا يشك أدنى شك في إنجاز أيِّ وَعْدٍ وَعَدَ الله به، أياً كان الشخص الموعود به، ولا سيما الوعد الذي وعد الله به رسله أنفسهم. قال أبو القاسم ابن جُزَيّ:

«قدم (الوعد) في قوله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ وهو المفعول الثاني على قوله (رسله) وهو المفعول الأول، ليُعلَم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: (رسله) ليُعلَم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه، فقدم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل بقصد التخصيص».

وإذا كان توجيه الخطاب إلى عموم الناس في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ أمراً مفهوماً ومعقولاً، فإن من غير المفهوم وغير المعقول أن يعتبر الخطاب فيهما موجهاً إلى الرسول نفسه عليه السلام، لأنه لا يتصور في حق الرسول أن يسيء الظن بالله أو يشك في إنجاز وعده الحق، قال أبو حيان في تفسيره: «الخطاب بقوله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا ﴾ للسامع الذي يمكن منه حِسْبان مثل هذا، لجهله بصفات الله، لا للرسول ﷺ فإنه مستحيل ذلك في حقه، والنهي عن الحِسْبان في قوله ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ كهو في قوله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا ﴾».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ إشارة إلى ما يعتور الكون من تغيير وانقلاب لا يبقى معهما على صورته المألوفة، وذلك عند قيام الساعة. يقال: تبدَّل فلان إذا تغيَّرت أخلاقه، ويقال: بدلت الدراهم دنانير، وبدلت الحلقة خاتماً. وهكذا يطلق (التبديل) ويراد به إما تغيير شيء بآخر بدلاً

منه، وهو التبديل في الذوات، وإما تغيير الشيء الواحد من حالة إلى أخرى ومن شكل إلى آخر، وهو التبديل في الصفات.

أما مظاهر التبديل والتغيير الذي يلحق الكون فقد خصص لها كتاب الله عدة آيات في عدة سور، منها: سور الدخان والطور والقمر والواقعة والحاقة والقيامة والمرسلات والنبأ والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة والقارعة، وفيها القول الفصل فيما سيؤول إليه أمر العالم في اليوم الموعود، طبقاً لمشيئة الله القاهر فوق عباده، كقوله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ [الطور: ٩، ١٠] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ٧، ٨، ٩، ١٠]. وقد اضطر العلم الحديث إلى الاعتراف بأمر هذا الإنقلاب الكوني المنتظر، فصدَّق الخُبْر الخبر.

وكما بُدئت سورة إبراهيم المكية بالحديث عن كتاب الله والتنويه بمزاياه ﴿ أَلَر، كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ خُتمت السورة بنفس الحديث عن كتاب الله، وما يتضمنه من دعوة الناس إلى توحيد الله، وتذكيرهم بالله، فقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَٰبِ ﴾.

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَاكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ
مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنُ امَّةٍ اجَلَهَا وَمَا يَسْتَاخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا
يَٰٓأَيُّهَا الَّذِے نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَاتِينَا
بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا
لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدَ ارْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِے شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾
وَمَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ
نَسْلُكُهُۥ فِے قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُومِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ

ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤
لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥
وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦
وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ
فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ
فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ
فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ
بِخَٰزِنِينَ ٢٢ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ
عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا
مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ

أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ
مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا
بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة الحِجْر المكية: ﴿ أَلَر، تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ، رُّبَمَا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ، ذَرْهُمْ يَاكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الاَمَلُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ، اِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِلِينَ، لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بفضل الله «سورة إبراهيم المكية»، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير «سورة الحِجْر المكية» أيضاً، وسميت هذه السورة سورة الحِجْر، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَءَاتَيْنَهُمْ ءَايَتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ـ امِنِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ، فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

وسورة الحِجْر مبدوءة بحروف الهجاء المقطعة (أ. ل. ر.)

نظير كل من: سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة الرعد، وسورة إبراهيم الواردة قبلها على التوالي دون فاصل بينها، والمفتتحة كلها بنفس النوع من الحروف الهجائية المنفصلة، على نفس النهج الذي بُدئت به كل من سورة البقرة وسورة ءال عمران وسورة الأعراف، وقد تكرر في هذه المجموعة من السور التسع حرف الألف وحرف اللام، وتكرر حرف الراء في ست منها، وتكرر حرف الميم في أربع منها، وورد حرف الصاد في واحدة منها.

وهناك مجموعة أخرى من السور على هذا النمط يبلغ عددها العشرين، وهي حسب ترتيب كتابتها في المصحف الكريم: سورة مريم، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص، وسورة العنكبوت، وسورة الروم، وسورة لقمان، وسورة السجدة، وسورة يس، وسورة ص، وسورة غافر، وسورة فصلت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف، وسورة (ق) وسورة (ن). وقد تكرر حرف الميم في ثلاث عشرة منها، وتكرر حرف الحاء في سبع منها، وورد حرف الطاء وحرف السين فيها أربع مرات، وورد فيها كل من حرف الصاد وحرف الياء وحرف الهاء مرتين، وورد فيها كل من حرف الكاف وحرف القاف وحرف النون مرة واحدة.

وكل هذه السور المفتتحة بالحروف المقطعة يأتي في مطلعها الحديث عن معجزة القرآن، والتنويه بها تنويهاً خاصاً، ومن بين من نبَّه على ذلك ابن كثير، ودلَّ عليه الاستقراء في علم

التفسير، كقوله تعالى هنا في سورة الحِجْر التي نحن بصدد تفسيرها ﴿ أَلَر، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

وكأن إيراد الحروف الهجائية المقطعة في مطلع هذه السور إشارةٌ إلى أن حكمة الله البالغة اقتضت أن تُحوِّل الحروف العادية الجارية على ألسنة الناس، والتي لا يصوغون منها أيّ كلام معجز للبشر، إلى مادة إعجاز إلّهي يقف الجنس البشري كله أمامها مبهوتاً ومبهوراً، سواء من آمن منه أو من كفر، كما هو الأمر بالنسبة إلى مواد أخرى هي في متناول البشر جميعاً، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا منها أيّ شيء خارق للعادة، بينما القدرة الإلّهية تصنع منها أعجب الأعاجيب، وفي طليعتها الإنسان المخلوق من طين، والطين في متناول كل الناس، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا منه بأيديهم حتى أخس الحشرات، وأضعف الجراثيم، فضلاً عما هو أعلى وأدق، ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ أخبارٌ عن الكافرين بأنهم سيندَمون على ما هم فيه، وسيتمنون عندما يعرفون حقيقة الإسلام أن لو كانوا مسلمين، ولا سيما عندما يكون أحدهم في حالة الاحتضار وتتجلى أمامه الحقائق الرهيبة، وهذا أمر واقع ما له من دافع، فكم من الكفار يقارنون معتقداتهم الباطلة بعقيدة التوحيد الحق، ويقارنون تشريعاتهم الإباحية بشريعة الإسلام الأخلاقية، ويتمنون لو أنهم كانوا على عقيدة الإسلام الصحيحة، وشريعته الفاضلة، ونفس

الموقف سيقفه الكفار عندما يُواجِهون عذاب الله في الدار الآخرة، كما قال تعالى في آية ثانية في سورة الانعام: ﴿ وَلَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ، وَلَا نُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُـومِنِينَ ﴾ [الآية: ٢٧]. ولفظ (رُبَّ) يـأتي غالبـاً للتقليل، وأحياناً للتكثير، و(رُبَمَا) الواردة هنا من هذا القبيل.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ اِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ إشارةٌ إلى سنَّة الله التي خلت من قبل في الأمم والشعوب عندما ترتكس في أوحال الضلال، وتصر على السير في طريق الخبال، فإن الله يسلط عليها أسباب الإبادة والهلاك، وعلى مدنها وقراها عوامل الخراب والاضمحلال. وبيَّن كتاب الله أن هناك قانوناً ثابتاً لا يتخلف لارتقاء الأمم وسقوطهـا، وسعادتهـا وشقائهـا، وعزِّهـا وذلِّها، فقال تعالى: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنُ امَّةٍ اَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـٰخِرُونَ ﴾ ومعنى ذلك أن الله جعل لكل أمة عمراً كأعمار الأفراد، وأجلاً لحياتها كأجل العباد.

ثـم عَـرَض كتـاب الله بعض الادعاءات والاتهامات التي اعتاد توجيهها إلى الرسل والأنبياء خصومُ النبوات والـرسالات، فقال تعالى حكاية عن مشركي قريش ـ وهم يخـاطبون الـرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ وَقَالُواْ يَـٰأَيُّهَا الذِي نُـزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ على غرار ما قالته الأقوام السابقة لمن جاء قبله بالرسالة، إذ وصفوهم بالغَباوة والسَّفاهة والضَّلالة.

وقولُ المشركين لرسول الله ﷺ: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ لم يصدر منهم على أنه اعتراف حقيقي بأنه رسول يوحى

إليه من عند الله، وإلا لأصبحوا مومنين، وإنما صدر منهم في صورة استخفاف بدعواه، كأنهم يقولون له: يا أيها الذي يزعم أنه نزل عليه الذكر، وما هم له بمومنين.

ورداً على استخفافهم، وإبطالاً لادعائهم، عقَّب كتاب الله على قولهم في نفس السياق فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾. وهكذا ركَّز كتاب الله جوابه حول المعنى الذي دار عليه كلامهم وهو: ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ فجاء بما يثبت ذلك المعنى ويؤكده تأكيداً قاطعاً، وأخبر بأن الله تعالى هو الذي نزَّل الذكر على رسوله حقيقة لا خيالاً، وصدقاً لا ادعاءً، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾.

ثم أضاف إلى ذلك ما هو أجلّ وأخطر، وهو أنه سبحانه قد تعهد، لا بتنزيل القرآن من عنده فحسب، بل تعهد بصيانة القرآن وحفظه من كل خلل على مر الأعصار، ورغم أنف جميع الخصوم والأعداء، فهو محفوظ بحفظ الله في الصدور والسطور من كل تبديل أو تغيير، وهو محفوظ بحفظ الله، من جميع العوارض التي تعرض للبشر عادة فيما يتناقلونه ويتحملونه على عُهْدتهم، ويتولّون حفظه بأنفسهم، وإذا كان غيرُ القرآن من الكتب المنزلة قد لحِقَه تغيير وتبديل، وتحريف وسوء تأويل، فإن ذلك آتٍ من أن الله تعالى قد ابتلَى أهلها عندما وكَل حفظها إليهم، فضيَّعوها ولم يحافظوا عليها، كما قال تعالى في شأنهم في سورة المائدة: ﴿ وَالرَّبَّـٰنِيُّـونَ وَالَاحْبَـارُ بِمَا اسْتُحْفِـظُواْ مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ وَكَانُـواْ عَلَيْهِ شُهَـدَآءَ ﴾ [الآية: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتَ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ يصف فيه كتاب الله جميع الكفار والمنافقين المعاندين الذين أصمُّوا آذانهم عن سماع دعوة الدين، وتلقي الحق المبين، والمراد هنا أن هذا الصنف من الخلق لو رأوا بأعينهم أعظم خارق للعادة، وعُرِج بهم إلى السماء، والتحقوا بالملأ الأعلى، لأنكروا أمره، وادَّعوا أنه مجرد سحر أو تخييل، على غرار ما قاله فرعون وملأوه لموسى الكليم.

وقولُه ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي يصعدون، وقوله حكاية عنهم: ﴿سُكِّرَتَ أَبْصَـٰرُنَا﴾ إما من السُّكْر ضد الصحو، فيكون معنى: ﴿سُكِّرَتَ أَبْصَـٰرُنَا﴾: كنا في غيبوبة، ورأينا الأمر على غير حقيقته، أو من السَّكْر بمعنى السد، فيكون معنى: ﴿سُكِّرَتَ أَبْصَـٰرُنَا﴾. حُبِست أبصارنا ومنعت من النظر، وهذا تصوير لادعائهم الكاذب، ولتهربهم بجميع الوسائل من الاعتراف بالحق.

وانتقل كتاب الله إلى التذكير بآيات الله في السماوات والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، عسى أن يتدبروها، ويدركوا ما فيها من حِكَم عامة لجميع المخلوقات، ومصالح خاصة للإنسان وغيره من الحيوان، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ، وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ، وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَٰزِقِينَ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا

خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَـٰحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَـٰزِنِينَ ﴾. والمراد بالبروج ما يشمل منازل الشمس والقمر، والكواكب والشهب، والمذنَّبات والمجَرات، وكل ما هو سابح في الفضاء من عوالم السماء.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ إشارةٌ إلى حكمة الله الدقيقة في أنواع النبات والثمرات، مما يتجدد خلقه دون انقطاع، حسب نواميس ثابتة لا تتخلف، وموازين دقيقة لا تختل ولا تضطرب.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فيه إشارة إلى خزائن الله الواسعة التي بثَّها ووزعها في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، والتي خَزَن فيها كل ما يتوقف عليه الإنسان، في مختلف العصور والأزمان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذه الخزائن لا يُطلِع اللَّهُ عليها الإنسانَ جملة واحدة، ولا يضعها تحت تصرفه دفعة واحدة، وإنما يتم ذلك «بقدَر معلوم»، أي بمقدار محدود، طبقاً لحكمة الله العليا، المسيِّرة لهذا الكون، والسارية في جميع أجزائه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ إشارة إلى المياه التي يكرم الله بها عباده للشرب والسقي والنبات، وأنه سبحانه قادر على أن يُذهبها ويُغوِّرها فلا يبقى منها عين ولا أثر، لكنه رحمة بعباده، يدَّخر منها لصالحهم في جوف الأرض، ما يرتفقون به من

العيون والآبار، ويدَّخر منها على سطح الأرض ما تجري به الوِدْيان والأنهار، وهكذا يتولى الله خَزْنها رحمة منه بالإنسان، إذ قيام الإنسان بخزنها كلها والمحافظة عليها ليس في الإمكان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَـٔخِرِينَ ﴾ إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء، أزلاً وأبداً، من الأوائل والأواخر، ثم أكد كتاب الله أنه سيجمعهم وسيحشرهم جميعاً في اليوم الموعود ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، والتعبير بقوله ﴿ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ للتنبيه على أن جمعهم جميعاً وحشرهم في صعيد واحد، ـ رغماً عن كثرتهم وتفرقهم وتطاول أعصارهم ـ هو وحده القادر عليه، وليس على الله بعزيز.

وانتقل كتاب الله من الحديث عن خلق السماوات والأرض إلى الحديث عن قصة خلق الإنسان، وما جاهر به ابليسُ آدم وبنيه من العداوة والبغضاء والحسد، مبيِّناً أن مشيئة الله اقتضت أن يخلق الإنسان ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾، وأن حكمته اقتضت أن يأمر ملائكته بالسجود لآدم بعد أن يسويه وينفخ فيه روح الحياة، تكريماً لما خصه به سبحانه من الخصائص والمزايا التي لم يمنحها لسواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَـٰجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ السَّـٰجِدِينَ ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ من الوجهة اللغوية: «من طين يابس غير مطبوخ»، ومعنى قوله:

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ : أنعمت عليه بنعمتي الايجاد والامداد، وليس هناك نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل وتصوير لما أمر به الحق سبحانه وتعالى من تجهيز الإنسان وتزويده بالأجهزة الضرورية لحياته فوق سطح الأرض ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وقولُه تعالى في نهاية هذه القصة، خطاباً لإبليس اللعين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ اِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ هو الذي سيضطر إلى الاعتراف به إبليس اللعين، عندما يفتضح أمره يوم الدين، قائلاً لأتباعه الغاوين، فيما حكاه كتاب الله في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ اِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [الآية: ٢٢]، فما نفاه الحق سبحانه عن ابليس في البداية ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ هو الذي أقر به ابليس في النهاية ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ ﴾ [الانعام: ١١٥].

وخُتِم هذا الربع بالحديث عما ينتظر المومنين المتقين في جنات النعيم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ـ امِنِينَ ﴾ أي يقال لهم: سلام عليكم ادخلوها سالمين ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ، اِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي اخواناً في الآخرة كما كانوا اخوة في الدنيا ـ إنما المومنون إخوة ـ ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾

وَأَتَيْنَٰكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ
اَ۬ليْلِ وَاتَّبِعَ اَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمُۥٓ أَحَدٞ وَامْضُواْ حَيْثُ
تُومَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ اَ۬لَامْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ
مَقْطُوعٞ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ اَهْلُ اُ۬لْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾
قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِے فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُواْ اُ۬للَّهَ
وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ اِ۬لْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيَ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِے سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ اُ۬لصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّلْمُومِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ اُ۬لَايْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا
مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ اُ۬لْحِجْرِ
اِ۬لْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمُۥٓ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾
وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ اَ۬لْجِبَالِ بُيُوتًا ـ امِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ اُ۬لصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ اَ۬لسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ

فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.

في بداية هذا الربع قرر كتاب الله مبدأً أساسياً في العقيدة الإسلامية، عليه يقوم الثواب والعقاب، وبه يرتبط الخوف والرجاء، فقال تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ فمن أراد رحمة الله سعى لها سعيها، ومن أراد غير ذلك نال الجزاء الذي يستحقه، ولا يظلمون فتيلاً.

وتناول كتاب الله بالذكر في هذا الربع قصة لوط وقومه، التي مر ذكرها في سورة هود، فقد كان العمل الذي ابتدعه قوم لوط في حد ذاته من أنكر المنكرات وأفحش الفواحش، مما أثار غضب الله عليهم، وأوجب ضرب المثل بخطيئتهم وبعقوبتهم،

واحتقار الناس لهم ولمن سلك مسلكهم عبر الأجيال والقرون.

وبمناسبة ذكر قصة لوط وقومه أشار كتاب الله إلى جنوده من الملائكة الذين أرسلهم إلى قوم لوط وعرَّجوا في طريقهم على إبراهيم الخليل، واستضافوه فأكرم ضيافتهم، وبشَّروه بغلام عليم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰماً، قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي قال إبراهيم إنا منكم خائفون ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ إي لا تخف: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسحاق الذي ولد لإبراهيم بعد أخيه إسماعيل ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ﴾ أي ابشرتموني بالولد، مع أنني قد كبُر سني ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي باليقين الثابت ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَـٰنِطِينَ، قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ ﴾، وهذا دليل على تحريم القنوط من رحمة الله ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي ما شأنكم وبأي شيء جئتم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ والمراد هنا قوم لوط، وُصِفوا بالإجرام، لإقبالهم على الشذوذ الجنسي الذي هو من أكبر الآثام: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي فإنهم مستثنَوْن من القوم المجرمين، وقد استثنى الله من ءال لوط أنفسِهم امرأته التي بقيت على ملَّة قومها ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾ أي أن الله تعهد بنجاة ءال لوط، ما عدا امرأته، فإنها من الهالكين ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي قال لهم لوط إنني أجهلكم ولا أعرفكم ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ

يَمْتَرُونَ ﴾ أي جئنا لإخبارك بعذاب قومك، ذلك العذاب الذي أنذرتهم به وكانوا يشكُّون في وقوعه، ويستهزئون بك من أجله ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ، فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ ﴾ أي اخرجْ يا لوط من هذه الأرض الظالم أهلها برفقة أهلك، بعد مُضيِّ جزء من الليل ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي اجعل أهلك أمامك وسر خلفهم من ورائهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعتم وقع الصيحة بالقوم المجرمين فلا تلتفتوا إليهم، واتركوهم فيما حلَّ بهم من العذاب ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ أي واصلوا السير إلى المكان الذي أمركم الله أن تسيروا إليه، ويفهم من هذه الآية أنه كان معهم من يدلُّهم على مقرهم الجديد ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي أن الله قضى أن يقطع دابر قوم لوط عند الصباح ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ [هود: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي جاء قوم لوط المتساكنون بمدينتهم، مظهِرين الفرح بضيوف لوط ناوين بهم سوءاً، دون أن يعرفوا أن هؤلاء الضيوف إنما هم في الحقيقة جنود الله وملائكته الموكلون بعذابهم على فاحشتهم الكبرى، لكن الله أراد أن يقيم الحجة عليهم وهم شِبْهُ متلبسين بالجريمة، لأنهم عزموا عليها، فبادرهم نبيهم لوط: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ، قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴾ أي أما نهيناك أن تُضَيِّف أحداً عندك، وذلك حتى يتمكنوا من ضيوفهم ويعتدوا على كرامتهم ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن

كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ المراد إرشادهم إلى وجوب الاقتصار على الزواج بالإناث من قومه، وتذكيرهم بأن الله تعالى إنما خلق الذكر والانثى ليزاوج بينهما من أجل عمران العالم واستمرار النوع البشري عن طريق التناسل جيلاً بعد جيل، في حدود الشريعة والفضيلة، وأنه لا يرضى عن الشذوذ الجنسي الذي هو أكبر رذيلة (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ أي عند شروق الشمس، والمراد «بالصيحة» العذاب الذي رافقة صوت مزعج كصوت الرعد القاصف ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي قلبنا مدينتهم رأساً على عقب قلباً مادياً ومعنوياً، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

ثم عقب كتاب الله على قصتهم بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي أن في عذاب قوم لوط وانتقام الله منهم آيات قاطعة، وبراهين ساطعة، يعتبرُ بها كلُّ من عنده فراسة وبصيرة من المومنين، حتى لا يقع فيما وقعوا فيه ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي أن مدينة قوم لوط التي قلبها الله عليهم انتقاماً منهم واقعة على طريق مطروق يمر به الناس حتى اليوم، ليعتبروا ويتذكروا ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِالَّيْلِ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وتأكيداً لنفس العبرة المقصودة من قصتهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُومِنِينَ ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن آمن بالله وقدرته، حتى لا يعمل عمل قوم لوط المستهجن، ولا يسلك مسلكهم المرذول، وحتى لا يتعرض في ذاته لنوع من المسخ والقلب، إن لم يكن مسخاً وقلباً مادياً كان على الأقل قلباً ومسخاً معنوياً.

وقولُه تعالى ضمن قصة لوط: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الظاهر أنه خطاب للوط عليه السلام، وتنديد بقومه الذين أصروا على الغواية والضلال. وذهب بعض المفسرين إلى أنه جملة معترضة، وُجِّه الخطاب فيها إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير: «أقسَم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض». وعن ابن عباس أنه قال: «ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره». قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، وقال ابن جُزَيّ: «(لعمرك) قَسَم. والعمر الحياة، ففي ذلك كرامة للنبي ﷺ، لأن الله أقسم بحياته».

ثم أشار كتاب الله هنا بغاية الإيجاز إلى قصة شعيب وقومه، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ الأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، وأصحاب الأَيْكة هم قوم شعيب، والمراد «بالايكة» الغيضة من الشجر المُلْتَف، وقد أضرمها الله عليهم ناراً لما ظلموا وتمرَّدوا، قال ابن كثير: «وقد كانوا قريباً من قوم لوط في الزمان، ومسامتين لهم في المكان»، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي أن مقر قوم لوط، ومقر قوم شعيب واقعان على طريق واضح يراه الناس ويمرون عليه باستمرار، للذكرى والاعتبار.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة أصحاب الحِجْر، وبها سمِّيت هذه السورة «سورة الحِجر»، والمراد بهم ثمود، وهم

قوم صالح عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ـ ءامِنِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ، فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾. والحِجْر هنا اسم للمكان الذي كان قوم صالح نازلين به مستقرين فيه، وهو واقع بين المدينة والشام، وكانت بيوت ثمود ومنازلهم منقورة بالمعاول في الجبال، وقد بلغ تحديهم لنبيهم صالح منتهاه عندما عَقَروا ناقة الله، التي طالما أمرهم صالح بعدم المساس بها، والتي طالما دعاهم إلى تركها تأكل من أرض الله وتشرب من مائه، فعاقبهم الله على جرائمهم كلها عند عَقْرهم لها، وكان عقابهم بالصيحة صباحاً، فهلكوا وبادوا.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى لم يخلق خلقه عبثاً، وإنما خلقهم لحِكَم دقيقة، بعضها معلوم، وبعضها استأثر الله بعلمه، ويشبهه قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثاً ﴾ [المومنون: ١١٥]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلاً، ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [صۤ: ٢٧].

وقولُه تعالى: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ تنبيهٌ من الله لرسوله إلى وجوب الصبر على معاملة المشركين وتحمُّل أذاهم، في سبيل الدعوة إلى الله. و «الصفح الجميل» هو الذي ليس معه أدنى مؤاخذة ولا عتاب.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ فيه إشارة إلى أم القرآن الكريم، وهي فاتحة الكتاب. و «المثاني» جمع مَثْنَى، مشتق من التثنية وهي الإعادة والتكرير، لأن الفاتحة تتكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، وعطف القرآن على السبع المثاني من عطف العام على الخاص. وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»، قال ابن كثير: «فهذا نص في أن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن ذلك لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً». قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰباً مُّتَشَٰبِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [الزُّمر: ٢٣]، فهو «مثاني» من وجه، و «متشابه» أي متماثل، من وجه آخر، وهو القرآن العظيم.

والمراد «بالسبع الطوال» عند من فسَّر بها «السبع المثاني» في هذه الآية: سور البقرة، وءال عمران، والنساء، والمائدة، والانعام، والاعراف، ويونس. وقد ذهب إلى هذا التفسير ابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك. وسميت السبع الطوال «مثاني» لأن الحدود والفرائض والأمثال ثنيت فيها حسبما رُوي عن ابن عباس.

وقولُه تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد امتنان الله على رسوله بالسبع المثاني والقرآن العظيم مباشرة، هذا تنبيه من الله لرسوله إلى أن ما أنعم به عليه من نعمة الوحي والإيمان، ومعجزة القرآن، يفوق كل نعمة أخرى أنعم بها على بني الإنسان، فكل النعم سواها

تتضاءل دونها، ولا تبلغ درجتها، وما عند أصناف الكفار من متاع الدنيا على اختلاف أنواعه لا قيمة له بالنسبة لنعمة الوحي والرسالة.

قال أبو حيان: «هذا النهي وإن كان خطاباً للرسول ﷺ فالمعنى نهي أمته عن ذلك، لأن من أوتي القرآن شَغَله النظر فيه، وامتثال تكاليفه، وفهم معانيه عن الاشتغال بزَهْرة الدنيا، و«مد العين» للشيء إنما هو لاستحسانه وإيثاره».

وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ ﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية». وهذه الآية تشبه قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ١٣١]. والمراد «بالأزواج» في كلتا الآيتين أصناف الكفار وطبقات المترفين، المتعددة الأنواع والأشكال.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤمِنِينَ ﴾ تنبيه من الله لرسوله على مواصلة الإحسان في معاملة المومنين، تأليفاً لقلوبهم، وتركيزاً للإيمان في نفوسهم. و«خفضُ الجناح» استعارة للين الجانب والتواضع. على أن الأمر بخفض الجناح للمومنين ورد مقيَّداً في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ ﴾ [الآية: ٢١٥].

وقولُه تعالى: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ تنديد بالذين

يومنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض من السابقين واللاحقين، وهم أولئك الذين يقولون في الوحي المنزل من عند الله أقوالاً متناقضة، ويقفون من أحكامه وتعاليمه مواقف متعارضة، فيُحقُّون ما وافقته آراؤهم، ويُبطلون ما خالفته أهواؤهم، ومن ذوي السوابق في هذا الباب، «أهل الكتاب» الذين حرَّفوا الكتب المنزلة عليهم وجزَّأوها أجزاءً، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وكلمة «عِضِين» جمع عِضَة بمعنى القطعة. يقال عَضَا الشاةَ «يعضُوها إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساماً، وكلمة «المقتسمين» جمع «مقتسم» وهذا اللفظ له وجهان من الاشتقاق كلاهما وارد وصحيح:

ـ الوجه الأول اعتبار لفظ «المقتسم» مأخوذاً من القَسَم وهو الحَلِف واليمين، ويصدُق بهذا المعنى علٰى أولئك الذين تحالفوا وتعاهدوا فيما بينهم على الطعن في كتاب الله، وصدِّ الناس عن سبيل الله، فعبأوا جميع طاقاتهم لإعلان الحرب عليه وجهاً لوجه دون هوادة ولا تختل. ويندرج في هذا الصنف كل الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم في القديم والحديث. ومن السلف الطالح في هذا الباب الرهط الذين تقاسموا على اغتيال صالح وأهله ليلاً، وإنكارِ العلم باغتياله نهاراً، وإليهم يشير قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الآيتان: ٤٨، ٤٩].

ـ والوجه الثاني اعتبار لفظ «المقتسِم» مأخوذاً من القِسْمة والتجزئة، ويصدق بهذا المعنى على أولئك الذين اختاروا للطعن في كتاب الله، وصد الناس عن سبيل الله، طرقاً ملتوية، مطبوعة بطابع الدس والمخاتلة والخداع، فوزعوا فيما بينهم أدوار الهدم والتخريب، وتصدّى كل فريق منهم لجانب من الجوانب التي يُحسِن فيها التمويه والتضليل والتدجيل، وذلك في نفس الوقت الذي يتظاهرون فيه بالِاهتمام بالإسلام، ويعربون عن اعجابهم ببعض جوانبه، وهكذا نجد البعض منهم يخصص وقته للطعن في عقيدة الإسلام، والبعضَ الآخر يكرِّس جهوده لإبطال شريعة الإسلام، ونجد أحدهم يأخذ على عاتقه تشويه تاريخ الإسلام، والآخر ينكر وجود أية حضارة للإسلام، ومن هؤلاء فريق غير قليل من المستشرقين، وكثير من المستغرِبين. ومن السلف الطالح في هذا الباب ما سجله التاريخ عن بضعة عشر نفراً من مشركي قريش اجتمعوا تحت رياسة كبيرهم الوليد بن المغيرة قبل حلول موسم الحج، وقرروا أن يقتسموا مداخل مكة عندما يحضر الموسم، فقعدوا عند حلول موسم الحج في كل مدخل، متفرِّقين في طرقها وجبالها وفجاجها، لِيُنفِّروا الوافدين عليها من الِاتصال برسول الله ﷺ ومن الإيمان به. يقول أحدهم: لا تغترّوا به فإنه ساحر، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه كذاب، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه شاعر، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه كاهن، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه من الغاوين، وليُجمِعوا أمرَهم نصَّبوا الوليد بن المغيرة حَكَماً عند باب البيت الحرام، ليزكيهم ويُصدِّق مقالاتهم كلما سأله أحد الوافدين على البيت عن صدق

ما قالوه، إلى آخر السلسلة الطويلة من البهتان وقول الزور، الذي حمل كلٌّ واحد منهم وزره، فلم يلبثوا أن أخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقولُه تعالى ﴿ وَقُلِ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ عقب قوله تعالى هنا: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمومِنِينَ ﴾ تنبيه إلى أن أمر الله لرسوله بخفض جناحه للمومنين لا يعني إخراجهم من عهدة النِّذارة الملازمة لهم إلى يوم الدين، فهو نذير لهم وللناس أجمعين.

وقولُه تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ عقب قوله: ﴿ وَقُلِ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ نظيرُ قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] وهو إشارة إلى أن القول في النِّذارة للمومنين كالقول فيها لغيرهم من «المقتسمين»، فنِذارة الرسول عليه السلام شاملة وعامة للجميع على السواء، دون تمييز ولا استثناء.

وقولُه تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قَسَم من الله بذاته وربوبيته، مضاف إلى رسوله على جهة التشريف والتكريم، والضمير في «لنسألنَّهم» يعود على الجميع من كافر ومومن، فالسؤال عن العمل عامّ للخلق دون فرق، يُسألون لماذا عملتم كذا ولم تعملوا كذا؟ على وجه الحساب، للثواب والعقاب، ولا يُسألون هل عملتم كذا وكذا؟ لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك. وهذا السؤال على وجه الاستفهام المحض هو المنفى في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الآية: ٣٩].

وقولُه تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُومَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أمرٌ من الله لرسوله بإعلان الدعوة إلى الله، والجهر بالحق، رغماً عن معارضة المشركين القوية، وأذاهم البالغ. قال عبد الله بن مسعود: «ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُومَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه».

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّـٰجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ مواساةٌ من الله لرسوله، وحضٌّ له على مواجهة أذى المشركين بسعة الصدر، والتجمل بالصبر، كما أن فيه حضّاً له على التسلح بسلاح العبادة والذِّكْر، ولذلك كان ﷺ يصلي كلما حَزَبه أمر، واستمر على ذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في أعلى عليين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاتَّقُونِ ② خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ وَالْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ

ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ
غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم
مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم
مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ
كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ
مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ
وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ
أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة النحل المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بفضل الله سورة الحِجْر المكية، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير سورة النَّحل المكية أيضاً، وقد سميت هذه السورة «سورة النحل» أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى في بداية هذه السورة: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ إخبارٌ عن قُرب قيام الساعة رغماً عما يظهر من بُعدها، فكل آتٍ قريب، على غرار قوله تعالى في آية ثانية:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، ووُضع الفعل الماضي في الآية موضعَ المستقبل، لتحقق وقوع «أمر الله» وهو يوم القيامة، إذ هو أمر واقع، ما له من دافع.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يُشبِه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِهَا، وَالذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ، أَلاَ إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

وقولُه تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَـٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنَ اَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنَ اَنذِرُوٓاْ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ المراد «بالرُّوح» هنا النبوة والوحي، ويشبهه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنَ اَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَـٰقِ ﴾ [غافر: ١٥]، ويصدُق هذا على «الذكر الحكيم» فهو بمنزلة الروح التي يحيا بها المومن، إذ يكيِّف حياته في الدنيا فيجعلها حياة طيبة، ويُعِدُّه للحياة الدائمة في الدار الآخرة، فيفوز بالخلود في جنات النعيم.

وبخصوص التعبير «بالروح» عن القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـٰبُ وَلاَ الاِيمَـٰنُ، وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالقرآن روح حقيقية ومعنوية، أحيا الله بها الإنسانية ديناً ودنيا، وقد كان نزوله نقطة تحوُّل في تاريخ النوع

البشري، ومرحلة حاسمة في تطور العقائد والشعائر والشرائع، ونقطة انطلاق في حياة الأمم والشعوب والسلالات، مما أدى إلى تغيير خريطة العالم في أكثر البلدان والأقاليم والقارات، فعالَم ما بعد القرآن غير عالم ما قبل القرآن، بشهادة الأصدقاء والأعداء.

وقولُه تعالى: ﴿ خَلَقَ الإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُـوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ إشـارةٌ إلى بدايـة الإنسـان المتـواضعـة، وإلى نهـايتـه المستكبِرة، التي يَبْرُز فيها الكِبْر والعناد، والتمرد على أوامر الله وتوجيهاته للعباد.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى تعداد النعم التي أنعم الله بها على الإنسان متاعاً وانتفاعاً، رحمة منه وإحساناً، وبيَّنت جملة من أنواع الدواب التي سخَّرها لخدمته ومنفعته، مما يرتفق به في مرافقه الضرورية، أو يتغذى منه بأطيب الأغذية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَالأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَـا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. وأشارت الآيات الكريمة إلى المنـظر الجميل الذي تكون عليه الأنعام عند عرضها حين سَرْحها وذهابها إلى المراعي، وحين رجوعها ورواحها منها: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِيـنَ تَسْرَحُونَ ﴾. قال أبو القاسم ابن جُزَيّ: «وإنما قدَّم (تريحون) على (تسرحون) لأن جَمال الانعام بالعشِيّ أكثر، حيث إنها ترجع من المراعي وبطونُها ملأى، وضُروعها حافلة».

وقولُه تعالى في نهاية هذه الآية: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إشارةً إلى ما تُبرزه القدرة الإلٓهية جيلاً بعد جيل، من وسائلَ جديدة للنقل أو المواصلات، وأصناف جديدة من الأغذية والمأكولات، وما وراء ذلك مما لا يحيط بعلمِه إلا بديع الأرض والسماوات.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ ﴾: «في هذا دليل على لباس الصوف، فهو أول ذلك وأولاه، فإنه شعار المتّقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهّاد والعارفين، وهو يُلبَس ليِّناً وخشِناً، وجيداً ومقارِباً ورديئاً، وإليه نُسب جماعةٌ من الناس (الصوفية)، لأنه لباسُهم في الغالب، فالياء للنِّسب والهاء للتأنيث».

وقال (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾: «والجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلْقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

«فأما جمال الخِلْقة فهو أمر يدركه البصر، فيلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس، من غير معرفة بوجه ذلك ولا بسببه لأحد من البشر.

«وأما جمال الأخلاق فبكونها على الصفات المحمودة، من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل واحد.

«وأما جمال الأفعال فهو وجودُها ملائمةً لصالح الخلق، وقاضيةً بجلب المنافع إليهم، وصرف الشر عنهم.

«وجمال الانعام والدواب من جمال الخِلْقة محسوب، وهو مرئي بالأبصار، موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتُها»، إلى أن قال رحمه الله: «وليس في الحمير زينة، ولكن المنفعة بها مضمونة.

«وهذا الجمال والتزيُّن وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله فيه لعباده، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: الإبل عزٌّ لأهلها، والغَنَم بركة، والخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

« وإنما جمع الله العز في الابل، لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو، وإن نقصها الكَرّ والفَرّ، وجعل البركة في الغنم، لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الولادة، فإنها تَلِدُ في العام ثلاث مرات، إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمِلُ عليه صاحبها من خَفْض الجناح ولين الجانب... وقرن ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر، لما فيها من الغنيمة، المستفادة للكسب والمعاش، وما تُوصِّل إليه من قهر الأعداء، وغَلَبة الكفار، وإعلاء كلمة الله».

ونبَّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ على ما أمر به رسول الله ﷺ من الرِّفق بالدواب، وإراحتها، ومراعاة التفقد لعَلَفها وسقيها. وفي الموطأ قال مالك عن أبي عبيد عن خالد بن معدان: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويَرضَى به،

ويعين عليه ما لا يعين على العُنْف، فإذا ركبتم هذه الدواب العُجْمَ فأنزلوها منازلها» إلى آخر الحديث.

وقولُه تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ يُشبِه قولَه تعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الانعام: ١٥٣]. والمراد بقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ كما قال مجاهد: «طريقُ الحق المؤدية إلى الله»، قال ابن كثير بعد ذكره أقوالاً أخرى في تفسير هذه الآية: «وقول مجاهد أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طُرُقاً تُسلَك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرَعها ورضيها، وما عداها من الطرق مسدودة، والأعمال فيها مردودة». وقال ابن جُزَيّ: «معنى القصد في قوله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾: القاصد المُوصِّل، وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف، فكأنه قال: وعلى الله بيانُ السبيل القاصد الموصل إليه».

وقولُه تعالى: ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ الضمير يعود على «السبيل» المراد به هنا الجنس، ومعنى «الجائر» الحائد والمائل عن الحق، والخارج عن الصواب.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَيٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨] لكنه خلق الإنسان حراً مختاراً، فلم

يُكرهْه على الإيمان، ولم يُلجِئه إلى الإذعان، فكان منه مومن وكافر، وشقي وسعيد.

ثم انتقل كتاب الله إلى عرض جملة من النعم الأخرى في معرض امتنانه على الإنسان، وتذكيره بالحقوق التي عليه لربه، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذِيٓ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ، أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وفي هذا السياق بيَّن كتاب الله العبرة المقصودة من عَرْض النعم التي أنعم بها على الإنسان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فمن له عقل وفكر استيقظ وتذكر، ونظر واعتبر، وفكر وقدر، وشكر وما كفر.

ثم تصدى كتاب الله للرد على عَبَدة الأصنام والأوثان، وسجَّل عليهم جملة من الادعاءات الباطلة القائمة على مجرد الزور والبهتان، وجدد دعوته لهم إلى الإيمان والإذعان، ببالغ الحجة وساطع البرهان، وذكَّرهم بسوء المنقلَب الذي آل إليه أمر الكافرين والماكرين قبلهم منذ قديم الزمان، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، إِلَٰهُكُمُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ،

فَالذِينَ لَآ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ، لَا جَرَمَ ﴾ أي لا بد ولا شك ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ الْاَوَّلِينَ، لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ، وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ، اَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ، قَدْ مَكَرَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ، وَأَتَيٰهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ، قَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوٓءَ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ اللام فيه للأمر، وبمعنى هذه الآية ورد الحديث النبوي الشريف (من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)، وقوله عليه السلام: «من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» أو كما قال عليه السلام.

وقوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إخبارٌ من الله تعالى عن حال المشركين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر، ولم يَقْدُروا الله حق

قَدْره، فكان شركُهم بالله ظلماً عظيماً، ووصفٌ لهم كيف يكونون عند الاحتضار ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة، حيث يُظهِرون، وقتئذ السمع والطاعة، ويتبرَّأون مما عملوا من السيئات، فيُكذِّب الملائكة دعواهم، بشهادة الله التي لا مردَّ لها، ويخبرونهم عن مصيرهم المفجع، قائلين: ﴿ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِيـنَ فِيهَا، فَلَبِيسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

وَقِيلَ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ
تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ
نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ
حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ
كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ
ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ
أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ
فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ
ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ
مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩

الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَواْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الاَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَـٰٓئِكَـةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾.

بعدما بيَّن كتاب الله في الربع الماضي كيف يستقبل خصومُ النبوات والرسالات الوحيَ الإلَهي فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنـزَلَ رَبُّكُمْ قَالُـوٓاْ أَسَـٰطِيرُ الاَوَّلِينَ ﴾ بيَّن كتاب الله في بداية هذا الربع كيف يستقبل الوحيَ أنصارُ الرسل وأتباعُهم الذين اتقوا وآمنوا، فقال تعالى في وصفهم: ﴿ وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَواْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ، قَالُواْ خَيْراً ﴾ وذلك اعتراف منهم بما يحتوي عليه الوحي الإلَهي من خير عظيم لهم ولأُسَرهم ولأممهم وللإنسانية جمعاء، خير يشمل الدين والدنيا والآخرة، خير يعم الفرد والمجتمع والدولة في آن واحد، فهو رحمة للعالمين وهدى للضالين.

ثم انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة واقعية بالنسبة للمومنين الصادقين، ألا وهي أن الله تعالى يكرمهم بحياة طيبة في الدنيا وحياة أطيب منها في الآخرة، فالإيمان الصادق والعمل الصالح يسري مفعولهما، ويظهر أثرهما في الحياة اليومية الأولى، قبل أن يسري مفعولهما ويظهر أثرهما في الحياة الأخرى، وليس الأمر كما يظن الشاكون والمترددون أن ثمرة الإيمان لا يُقطَف جَناها في الدنيا، ويُخشى أن لا يُقطَف جَناها في الآخرة، وإلى هذه الحقيقة الإيمانية الواقعية يشير قوله تعالى هنا: ﴿ لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وكما وصف كتاب الله في الربع الماضي حال المشركين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم، وكيف يكونون عند الاحتضار، وكيف ينتزع الملائكة أرواحهم الخبيثة، وكيف يستقبلهم خَزَنة جهنم، فقال تعالى: ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ، بَلَىٰ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا، فَلَبِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، تناول كتاب الله بالوصف والبيان في هذا الربع حال المومنين الصادقين، وبيَّن أيضاً كيف تتوفاهم الملائكة عند لقاء الله، وكيف تستقبلهم في دار الخلد، فقال تعالى: ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ حكايةٌ لمزاعم المشركين ومن لَفَّ لَفَّهم، ووصفٌ لاعتقادهم الفاسد: أن القضاء والقدر هما المانعان اللذان يحولان بينهم وبين الطاعة والإيمان، بينما الواقع يبطل ادعاءهم، ويهدم اعتقادهم، فقد مكَّن الله الإنسان من جميع الأجهزة والملَكات التي يميِّز بها الخير من الشر، والحق من الباطل، ولم يقتصر على ما منحه من الأجهزة والملَكات الصالحة والكافية للتمييز، بل أكرمه عِلاوة على ذلك ببعث الأنبياء وإرسال الرسل جيلاً بعد جيل، مبشِّرين ومنذرين، ومبيِّنين طريق الحق والهدى للناس أجمعين، وأَتبعَ ذلك كله بدرس عملي، يبين الأثر الطيب لعقيدة التوحيد، ودرس عملي آخر، يبين الأثر السيء للإصرار على الشرك والضلال. وبذلك سقطت حجة كل من ادعى الجهل أو الغفلة، أو اتَّهم بكفره وضلاله القضاءَ والقدر، ولم يبقَ عذر لمن اختار طريق الضلال على طريق الهدى، وأصبح كلُّ إنسان مسؤولاً عن نفسه، محاسَباً على اختياره، مجازى عليه بالخير إن كان اختياره خيراً، وبالشر إن كان اختياره شراً، وبيَّن كتاب الله أن موقف المشركين من رسالة الإسلام وخاتم الرسل ليس أمراً مفاجئاً ولا جديداً، بل هو أمر متعارف عن المشركين منذ عهد قديم، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ

إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ، وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّـٰغُوتَ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾، أي باتّباع الرسل ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَـٰلَةُ ﴾، أي بمخالفتهم والخروج عليهم، ﴿ فَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

ثم وَجَّه كتاب الله الخطاب إلى الرسول الأعظم مواسياً إياه، فقد كان ﷺ شديد الإهتمام بهداية الناس إلى الحق، قويّ الحرص على نجاتهم، عميق الحزن كثير الأسى على انحرافهم، وإلى هذا المعنى يُلمِّح قولُه تعالى هنا: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدٰيهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدَىٰ مَنْ يُّضِلُّ، وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَمَنْ يُّرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدَىٰ مَنْ يُّضِلُّ ﴾ بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول، طبقاً لقراءة ورش عن نافع: «لا يهدِي غيرُ الله مَن يُضله الله» والضمير في قوله: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ يعود على الضالين، فقد حكم الله عليهم بالخذلان دنيا وأخرى، جزاءً وفاقاً.

ثم حكى كتابُ الله قول منكري البعث، وزيَّفَ قولهم، وأكد أن البعث وعد حق وصدق من الله عز وجل، ولن يخلف الله

وعده، فقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أي أقسموا بأغلظ الأيمان ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ كأن الله الذي أنشأ النشأة الأولى لا يقدر أن ينشىء النشأة الثانية، وهذا الفهم العاطل والوهم الباطل مناقض للمنطق السليم، مخالف للقياس الصحيح، فمن أنشأ النشأة الأولى يكون في منطق العقل البشري قادراً على النشأة الثانية من باب أولى وأحرى، ولذلك ردَّ كتاب الله على منكري البعث قائلاً: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي بل سيكون البعث لا محالة ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴾ إشارة إلى إحدى الحِكم الإلٰهية التي تتحقق عن طريق البعث والنشور، ألا وهي تحقيقُ العدل الكامل بين الناس في دار الجزاء، والفصلُ بين المختلفين في حقوق الدنيا وحقائق الدين، وتمييزُ المحقّين من المبطلين، والناجين من الهالكين، وتعريفُ المكذبين بكذبهم والضالين بضلالهم، وتبعاً لذلك يُجازَى كل فريق على عمله بمقتضى العدل المطلق، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم عقَّب كتاب الله على شك منكري البعث في البعث، مذكِّراً عباده بأن قدرة الله مطلقة حرة لا يحُدّها أيّ قيد من القيود، ولا يعجزها أيّ شيء كبر شأنه أو صغر في الوجود، وأن مشيئة الله متى تعلقت بأمر من الأمور، برز ذلك الأمر في الحين إلى عالم الظهور، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا

بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن المهاجرين في سبيل الله، الذين آثروا سلامة عقيدتهم على كل شيء، وضحُّوا من أجلها بجميع المصالح والأغراض، ففارقوا الأهل والعشيرة والمتاع، وتعرضوا لضيق العيش وغربة الدار، وبيَّن كتاب الله مكانة المهاجرين عند الله في الدنيا والآخرة، منوِّهاً بخصالهم ومزاياهم، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِمَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الْاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾. رُوي أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطَى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: «خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعَدك الله في الدنيا، وما ادَّخر لك في الآخرة أفضل» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الْاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وتناول كتابُ الله الرد على المشركين الذين كانوا لجهلهم بسُنَن الله في خلقه، وجهلهم بتاريخ النبوات والرسالات السابقة، يستبعدون أن يُرسِل الله إليهم من أنفسهم رسولاً، وخاطبهم داعياً إياهم إلى سؤال أهل الذكر من أهل الكتب المنزلة الماضية ـ إن لم يكتموا ويُحرِّفوا ـ هل كان رُسُلهم بشراً أم غير بشر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحىٰ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحىٰ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ بِالْبَيِّنَـٰتِ وَالزُّبُرِ ﴾ متعلق بقوله قبل ذلك: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً يوحى إليهم، على قاعدة التقديم والتأخير في الكلام، المتعارفة في لسان العرب، والمراد «بالبينات» هنا الحجج والبراهين، والمراد «بالزُّبُر» الكتب، جمع زَبُور أي كتاب.

وقولُه تعالى خطاباً لرسوله الأعظم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى الذكر الحكيم والقرآن العظيم بالخصوص، وإنما أُطلق على القرآن اسم «الذكر» لما فيه من تذكير الناسي وتنبيه الغافل، وهذه الآية تتضمن بيان اختصاص الرسول، وتكليفَه بتبليغ الوحي المنزل عليه من عند الله، وبتبيين حِكَمه ومقاصده وأهدافه للناس أجمعين، كما تتضمن بيان الحكمة في تنزيل القرآن الكريم، وأن الحكمة منه هدايةُ الناس إلى صلاحهم، وإثارةُ الخير في نفوسهم، فلخيرهم نزّل على الرسول القرآن، ولهدايتهم وجب على الرسول البيان: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي لهدايتهم وإرشادهم ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ثم أنذر كتابُ الله المشركين والكافرين بعقابه الصارم، وحذّرهم من أن يصيبهم ما أصاب الأقوام التي هلكت من قبلهم، فقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي ارتكبوا المعاصي بمكر وخبث، ﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي في أسفارهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي يأخذهم

بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى يَهلِكوا على فترات.

وأخيراً لفَتَ كتاب الله أنظار الشاكين والمترددين من الخلق إلى جلال الله وعظمته، وذكَّرهم بأنه القاهر فوق عباده، والمهيمن على خلقه، فالكل لسلطانه خاضع، والكل أمام جلاله خاشع: السماء والأرض، والبشر والملائكة، والإنسان والحيوان، وجميع العوالم والأكوان، لا يفلت من قبضته مخلوق، ولا ملجأ منه إلا إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ، سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي صاغرون ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَـٰئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ
إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ
فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا
كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ
لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ
تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

بِالْاخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْاعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمُۥٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ لَا يَسْتَاخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ
أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ
النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدَ ارْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ
فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
الَّذِے إِخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾
وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْانْعَٰمِ لَعِبْرَةً نَّسْقِيكُم مِّمَّا
فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْاعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ إِتَّخِذِے مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
كُلِے مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِے سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا

شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتاب الله الحقيقة الدينية الأولى، التي نادت بها جميع الكتب المنزلة، كتاباً بعد كتاب، والتي بشّر بها كافة الأنبياء والرسل، نبياً بعد نبي ورسولاً اثر رسول، ألا وهي انفراد الحق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية عن كل ما سواه، وضرورة التوجه إليه وحده بالخوف والرجاء دون ما عداه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، فَإِيَّـٰيَ فَارْهَبُونِ ﴾. وكيف لا يُفرد الخلقُ خالقَهم بالعبادة والطاعة والتوجه إليه في السراء والضراء، وهو سبحانه وتعالى بديع السماوات والأرض، وهو الذي شرع لهم الدين الحق وهداهم إليه منذ البداية، ومنه وحده ينتظرون الجزاء في النهاية:

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾. وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ يماثل في معناه قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الآية: ٣]، وينظر إليه قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ فَادْعُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الآية: ١٤].

ثم يتجه كتاب الله بخطابه إلى الناس كافة، مذكراً إياهم بأن كل ما يتقلبون فيه من النعم على اختلافها إنما هو هبة إلٰهية وهبها لهم بمحض إرادته، وأنَّ من تفضَّل بالعطاء يمكن أن يعاقب بالسَّلب ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾.

ووصف كتاب الله في هذا السياق حالة من الحالات اليومية التي تَعرِض لكثير من الناس عندما يمسهم الضُّر، وينزل بساحتهم الأذى، فتنكشف عن أعينهم جميع الغشاوات والحجب، وتبدو لهم أنفسهم عارية على حقيقتها من الضعف والعجز والاحتياج، ولا يستطيعون لدفع الضر عن ساحتهم حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فلا يجدون مفتوحاً أمامهم إلا باباً وحيداً هو باب الرحمٰن الرحيم، يلجأون إليه مضطرين صاغرين، ويطرُقون بابه بالشكوى صارخين مبتهلين، فيجيب بفضله دعاءهم، ويكشف برحمته ضرّهم، الأمر الذي كان كافياً ليوقظ في نفوسهم على الدوام حاسة الإيمان، ويحملهم باستمرار على الشكر والطاعة والإذعان، لكنهم على العكس من ذلك بمجرد ما يَكشِف الحق سبحانه عنهم الضر، ويدفع عنهم الأذى، ينسَوْن فضل الله، ويتنكرون لنعم الله، وينتكسون مرة أخرى فيعودون إلى ما كانوا عليه من

المعتقدات الباطلة والتصرفات الفاسدة، وهكذا تتحرك فيهم فِطرةُ الخير موقتاً تحت ضغط الضعف والمرض والأذى، لكن بمجرد ما يستعيدون القوة والصحة والسلامة تطغَى عليهم من جديد نزغات الشر والعصيان، ويتصدَّوْن لنعم الله وحقوقه بالجحود والكفران، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾.

ويعقّب كتاب الله على اتجاه هذا الفريق المنحرف من الناس المنكر للجميل، الذي لم يستخلص العبرة من لطف الله به ورعايته إياه، فيخاطب أفراده مهدِّداً ومتوعِّداً قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُواْ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وإذن فهم يُعتبرون في حالة إمهال، لا إهمال، ومآلُ تمتعهم مهما طال فهو إلى زوال.

واستعرض كتاب الله صوراً من معتقدات المشركين وآرائهم السخيفة في معرض النقض والإبطال، وفي طليعة هذه المعتقدات الباطلة ما كان المشركون يخصصونه للأصنام والأوثان من أنعام لا يركبونها ولا يذوقون لحومها، ومن عطايا ونذور لا يقتطعون منها شيئاً، وما كانوا ينسبونه لمقام الألوهية من اختيار البنات، وهي الملائكة في نظرهم.

واستنكر كتاب الله سخافة عقولهم، وسماجة عوائدهم، التي كانت تقضي باحتقار الانثى والتشاؤم بها، مستغرباً كيف أنهم تجرَّأوا على أن يختاروا لله في زعمهم ما يكرهونه لأنفسهم، وذلك

ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي للأصنام والأوثان التي لا سند لها من العلم والدين، وإنما جرَّهم إلى عبادتها الجهل والوهم والتقليد ﴿ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ، تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ، وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُ، وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ظل وجهه كئيباً من الهمّ وهو ساكت من شدة الحزن، يكظِم غيظه وهمَّه ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي يختفي حتى لا يراه الناس، وذلك: ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾، وهذه إشارة إلى ما كان يُقدِم عليه بعض المشركين من وَأْد البنات وهن أحياء، وما كان يقوم به البعض الآخر من إبقائهن أحياء، لكن في حالة من الضَّعَة والهوان، وفي هذا الموضوع نفسه ورد في مكان آخر من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾، وقولُه تعالى تنزيهاً للحق سبحانه عن كل ذلك: ﴿ وَلِلهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله منددًاً بهذه النظرة الجاهلية السخيفة، هادماً لها من الأساس، مُعيداً بذلك للأنثى كرامتها الأصيلة، معترفاً لها بحقها الثابت في الحياة العزيزة الكريمة مثل شقيقها الذكر، فقال تعالى ناقضاً لحكم الجاهلية في شأن الأنثى، ومندداً بموقف المشركين منها ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أن (الإيمان بالآخرة) المنبثق عن

الإيمان بالله، والذي هو له كالنتيجة بالنسبة للمقدمة، هو مصدر جميع أنواع الكمال عند المومن، لأن الإيمان بالآخرة وتوابعها يستلزم مراقبة الله في جميع الأحوال، وَمَن راقب الله قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، كان أقرب إلى الكمال وأبعد عنْ النقص، بخلاف من لم يومن بالآخرة وأصرّ على إنكارها فإنه يظل غريقاً في أوحال المساوىء والنقائص، بحيث لا يُتصوَّر في حقه أي كمال، ولا غرابة في ذلك، فهو سيء العقيدة في الله وفي الناس، وهو سيء السلوك نحو الله ونحو الناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لِلذِينَ لَايُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي النقص قائم بهم، ومنسوب إليهم ﴿ وَلِلهِ اَلْمَثَلُ الَاعْلَىٰ ﴾ أي له الكمال المطلق من كل وجه.

ونبَّه كتاب الله إلى ما تواطأ عليه البشر في مختلف العصور من تظالم فيما بينهم بالبغي والعدوان، رغماً عما أمرهم الله به من التزام العدل، وما تواطأوا عليه من ظلم يرتكبونه في حق خالقهم ورازقهم بالشرك وعبادة الأوثان، رغماً عما هداهم إليه من عقيدة التوحيد، وبيَّن أن رحمة الله وحكمته اقتضتا أن تستمر عمارة الأرض إلى اليوم الموعود، فأخَّر لذلك مؤاخذتهم على ظلمهم، وتركَهم يتقلبون في نعمه إلى حلول أجلهم، حتى إذا ما حلَّ الأجل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي لأباد من الأرض الحياة والاحياء ﴿ وَلَـٰكِنْ يُوَخِّرُهُمُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، فَإِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

وواضح أن «المؤاخذة» التي يؤخرها الله عن الظالمين هي المؤاخذة الكلية التي لا تُبقي ولا تذر، أما مؤاخذتهم الجزئية بالخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وتسليط الكوارث والأزمات، وقيام الفتن والحروب، فهي ملازمة لهم، مستمرة معهم إلى يوم الدين، على حد قوله تعالى: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ثم عقَّب كتاب الله على ظاهرة الجحود والعناد، والتواطؤ على الضلال والفساد، التي لازمت البشر قروناً طوالاً، فلم يستفيدوا من رسالات الرسل الفائدة المرجوة، ملوِّحاً إلى أن عناد مشركي العرب للرسالة المحمدية إنما هو عَوْد على بدء، وليس هو الأول والآخر، فقال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وتناول كتاب الله تحديد جملة من الأهداف التي توخَّتها الحكمة الإلٓهية، من الرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات، وهذه الأهداف المشار إليها هنا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وضع حد للخلاف والنزاع القائم بين أتباع الأديان السالفة، وإلقاءُ الأضواء على ما دخل تلك الأديان من تزييف وتحريف وسوء تأويل، وتعريفُ الناس كافة بالحقيقة الدينية

الأصيلة على وجهها الكامل الصحيح، خالصةً من الشوائب، صافيةً من الأكدار.

الأمر الثاني: هداية الإنسانية إلى الصراط المستقيم الذي ينظِّم سلوكها، ويقود خطواتها، وينقذها من مهاوي الضلال والفساد، ويَعرُج بها إلى معارج الصلاح والرشاد.

الأمر الثالث: إشاعة الرحمة والإحسان في مجتمعات بني الإنسان، على اختلاف الأجناس والألوان.

وإلى هذه الأهداف الثلاثة يشير قوله تعالى هنا في إعجاز وإيجاز: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾، ويؤكد هذه المعاني قوله تعالى في الربع القادم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تعداد جملة من النعم الإلّهية الكبرى امتن بها على عباده حتى يطيب لهم العيش، ويستمتعوا بالحياة، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾، و«الوحي» في هذا المقام بمعنى الإلهام ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾.

وواضح من سياق هذه الآيات أنها واردة في معرض امتنان الله على عباده، والامتنان لا يقع إلاَّ بمحلّل لا بمحرّم، فالماء واللبن والعسل كلها حلال، و«السَّكَر» الوارد معها في نفس السياق لا يصح أن يفهم منه معنى المسكر الحرام، وإنما معناه ما يُستخرج من الثمرات والفواكه الناضجة ذات المواد السكّرية بشكل عادي، كعصير الرُّطَب والعنب، وبذلك يظل سياق الآيات كلُّه منسجماً ومتلائماً في الامتنان بما هو حلال.

ويؤكد هذا الفهم قول أبي عبيد: «السَّكَر نقيع التمر الذي لم تمسّه النار» نقله عنه ابن منظور في (لسان العرب)، ويزيد هذا الفهم تأكيداً ورود قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عقب قوله ﴿ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ مباشرة ودون فاصل، فالعقل الذي يتمكن من التدبر العميق والتفكير السليم في آيات الله ونعمه هو العقل الذي لم تفسده المسكرات والمخدّرات، بل بقي مصوناً من كل ما يفسده، سليماً من كل ما يلوّثه.

ولا شك أن النفع العميم الذي يناله الخلق بواسطة هذه النعم الإلّهية يتطلب منهم مقابلتها والاستزادة منها بالحمد والشكر، كما أن الحكمة الربانية البارزة في إيجادها من العدم، وإمداد الخلق بها دون انقطاع، تتطلب منهم الإيمان بمبدعها، والتوجه بالطاعة إلى ممدِّهم بها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين
في المصحف الكريم

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا
بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ
أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ
الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ
الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن
يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ
أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾
أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ
إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن
جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ
وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ
حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ

ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ
لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ
قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ
فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى
ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع يقرر كتاب الله حقيقة واقعية بالمشاهدة والعيان، لا سبيل إلى إنكارها من أي إنسان، ألا وهي ظاهرة تفاوت الأرزاق فيما بين الناس، فهناك الموسِر والمعسِر، وهناك الغني والمتوسط والفقير، وهذا التفاوت الحاصل في الأرزاق، لا يخص الأرزاق المادية وحدها، بل يشملها ويشمل الأرزاق المعنوية نفسها، فالمواهب العقلية، والاستعدادات الفكرية، هي أيضاً تتفاوت من شخص إلى آخر، وتتفاوت حتى فيما بين أعضاء الأسرة الواحدة، بين الوالد والولد، وبين الإخوة الأشقاء.

وإذا كنا لا ندرك السر في تفضيل بعض الناس على البعض الآخر، لحكمة إلَهية خفيت عنا في ذلك، فإننا نستطيع أن نتبين

أسباب هذا التفاضل ونعلِّله، بالنسبة لكثير من الحالات الأخرى، التي يكون اختلاف المواهب والاستعدادات فيها من أهم العوامل الظاهرة، المؤدية إلى التفاضل في الأرزاق، ولا سيما الأرزاق المادية.

و«المساواة» التي يهدف إليها الإسلام هي عبارة عن المساواة بين الناس في سَدِّ حاجياتهم الحيوية، حتى لا يسقط أحد منهم ضحية العَوَز والحاجة، أما المساواة في الرزق الذي يكتسبه كل إنسان، بمعنى أن يكسِب جميع الناس كسباً واحداً وبمقدار متماثل لا يزيد ولا ينقص بالنسبة لأي فرد، بالرغم من اختلاف مواهبهم، واختلاف كفاءاتهم، واختلاف مهامهّم، فهي مجرد حُلْم من الأحلام، لا تقره طبيعة الأشياء ولا يقره الإسلام، وعلى فرض أننا ساوينا في العطاء والكسب بين شخصين أو أكثر، فإن أحدهما لا يلبث أن يتصرف بمحض إرادته في رزقه تصرفاً سليماً، فيستثمر ويوفِّر ويدَّخر، بينما الآخر يتصرف بمحض إرادته في رزقه تصرفاً سقيماً، فيُسرف ويبذِّر، وبذلك تعود كفة أحدهما إلى الرجحان على كفة الآخر، ويعود التفاوت بينهما ثانياً إلى ما كان عليه أولاً، وإلى وصف هذه الحقيقة الواقعية يشير قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾. غير أن التفاوت في الرزق وعدم المساواة فيه وإن كان أمراً مسلَّماً لا يعني احتكاره والانفراد به، وإهمال الآخرين، بل إن سد حاجات المحتاجين من ملبس ومطعم ومسكن حق ثابت لهم، وهم فيه مع غيرهم سواء، وبتمكينهم من نصيبهم في الرزق يتمُّ شكر نعمة الله. وهذا

المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

على أن التفاوت بين الناس ليس منحصراً في الأرزاق وحدها، بل هو موجود حتى في أعمارهم وآجالهم، وما يصاحب ذلك من أعراض الشيخوخة والهرم، ففي نهاية الربع الماضي، وقبل الحديث عن التفاوت في الأرزاق في بداية هذا الربع، سبق قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ، وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. فهذه الآية تشير إلى واقع محسوس: أفراد يطول عمرهم حتى يدركهم الهرم، وآخرون يموتون في شَرْخ الشباب، وأفراد ـ رغماً عن طول عمرهم وَهَرمهم ـ يتمتعون بملكاتهم الذهنية إلى آخر رمَق، وآخرون يُرَدُّون إلى «أرذل العمر» فيفقدون جميع ملكاتهم أو أكثرها قبل حلول الأجل بزمن طويل، وكما أنه لا سبيل إلى المساواة بين الناس في أعمارهم وآجالهم فإنه لا سبيل إلى المساواة بينهم في أرزاقهم ومواهبهم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾.

وفي هذا السياق ندد كتاب الله بسخافة المشركين وعُبَّاد الأصنام والأوثان، فإنهم بدلاً من أن يعبدوا خالقهم ورازقهم ويفردوه بالعبادة والطاعة دون سواه يتوجهون إلى من لا يملك لهم رزقاً، ولا يستطيع لهم ضراً ولا نفعاً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ

وَالاَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾.

والمراد «بالعبد» هنا الصنم والوثن الذي يعبده المشرك، وقد أطلق كتاب الله على الأصنام كلمة (عباد) في آية أخرى إذ قال: ﴿ إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ اَمْثَالُكُمْ ﴾ [الاعراف: ١٩٤]، قال مجاهد: «هذا المثل «أي ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء إلى آخر الآية» مضروب للوثن وللحق سبحانه وتعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟». وقال ابن كثير: «لما كان الفرق بينهما ظاهراً بيِّناً لا يجهله إلا غبي جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ، بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلهِ الاَمْثَالَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ، وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ نَهْيٌ لعباده أن يتقوَّلوا عليه، ويَضرِبوا له الأمثال من عند أنفسهم ووحي خيالهم، إذ ليس لله في الحقيقة مثال، كَيْفَما كان تصور الخيال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُؤاً اَحَدٌ ﴾. نعم إذا وجدنا في كتاب الله مثلاً مضروباً من الذات العليَّة وقفنا عند حده، ولم نتجاوزه إلى غيره، كما لا نصفه سبحانه وتعالى ولا نسميه إلا بالصفات والأسماء الواردة في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً

وَجَهْراً ﴾ تنبيه إلى أن «الرزق الحسن» عند الله هو الذي يؤدي العبد حقه دون منٍّ ولا أذى، فينفق منه في سبل الخير ووجوه البِرِّ، الظاهر منها والخفي، معتمداً على وعد الله تعالى في قوله الحق: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبإ: ٣٩]، وما عدا ذلك فهو رزق، لكنه «رزق سيء»، إذ لا نفع من ورائه للغير، ولا أثر له في إشاعة البر والخير.

ونظراً لكون الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي والمساهمة الفعلية في إصلاح المجتمع، فإن كتاب الله يستنكر موقف الشخص الكسول العاجز، المتكل على غيره، الذي لا ينفع نفسه ولا غيره، وينوِّه بموقف الشخص الشجاع الصريح، الذي ينهى عن الظلم ويأمر بالعدل، والذي يعطي المثل من نفسه لبقية الناس في الهداية وحسن السلوك، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ وهذه كناية عن عجزه وسلبيته ﴿ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَيٰهُ ﴾ أي عبء ثقيل على غيره ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَيَاتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وعرض كتاب الله نماذج متنوعة توقظ الانسان الغافل، وتلفت نظره إلى علم الله المحيط بكل شيء، وقدرته الواسعة، وحكمته الباهرة، وإبداعه الفريد في الأنفس والآفاق، مما لا مثيل له ولا نظير، فقال تعالى: ﴿ وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ

لَكُمُ السَّمْعَ وَالاَبْصَـٰرَ وَالاَفْـِٕدَةَ لَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ، أَلَمْ يَرَواْ اِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلَّا اللَّهُ، إنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾.

وخصَّ كتاب الله بالذكر والامتنان نعمة «الأسرة» التي يطمح إليها كل إنسان عاقل، حتى إنه ليكافح في سبيل الاستمتاع بها والحصول عليها بجميع الوسائل، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُ أَزْوَٰجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اَزْوَٰجِكُـم بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ ﴾ فامتن على الرجال بأن جعل زوجاتهم بشراً من جنسهم، إذ خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة، إن اختلفـا في وظائفهما العملية والاجتماعية، فإنهما لا يختلفان في خصائصهما النوعية والإنسانية. والحكمة الإلٰهية في ذلك أن يعاشر الرجل امرأة من جنسه، وأن تعاشر المرأة رجلاً من جنسها تتجاوب معه، فتحس نفس الإحسـاس، وتشعر بنفس الشعـور، وتتكلم نفس اللغة، ثم امتن سبحانه على الآباء والأمهات بما يرزقهم من البنين والحَفَدة، إذ الذرية الصالحة هي أطيب الثمرات لشجرة الزواج المباركة، وهي إحدى حَسَنات الإنسان التي لا تنقطع بعد الموت.

ونبَّـه كتاب الله إلى أن الوظيفة الأساسية التي يرمي إليها الإسلام من تأسيس البيوت لإقامة الأسر والعائلات هي الحصول على نوع خاص من الحياة يتميَّز عن كل ما عداه بالسكينة والهدوء والطمأنينة وراحة البال، ولن يؤدي البيت هذه الوظيفة الحيوية إلا إذا كان مستوفياً لشرائط الراحة والانسجام، مادياً وروحياً، وإلا إذا كان أعضاؤه المتساكنون فيه على غاية الوِفـاق وَالوئـام، وفـي

مأمن من عوامل الشقاق والخصام، وإلى هذا المعنى الدقيق الرقيق يشير قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾، ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتحليلاً قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمِنَ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٢١].

وفي سياق امتنان الله على عباده بما آتاهم من أسر وبيوت، وبنين وحَفَدة، عرض كتاب الله جملة من النعم التي هي شرط أساسي لحياة الأسرة وسعادة البيت، مما يتوقف عليه كل إنسان في الحَرّ والقَرّ، في الظَّعَن والإقامة، في السلم والحرب، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَـٰمِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنَ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثاً وَمَتَـٰعاً إِلَىٰ حِينٍ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلاً ﴾ أي ظلالاً تقيكم حر الشمس ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَـٰناً ﴾ أي حصوناً تأوون إليها وتعتصمون بها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ أي كساكم من عُرْى بملابس وأغطية تدفع عنكم الحر والقر ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي دروع الحرب والجهاد، التي يُحتاج إليها في ساحات المعارك وما ناسبها من عُدَّة وعَتاد، ثم عقب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ بمعنى أن من فكَّر في مجموع هذه النعم الإلّهية، وقدَرها حق قدْرها، وتأمل في كرم المنعم بها وفضله، واستحضر في ذهنه ما ينشأ عن فقدها واختلالها أو الحرمان منها، من اختلال في حياة الإنسان،

ونـزول إلى الدَّرك الأسفـل من دركات الحيـوان، لا يسعه إلا الإعتـراف بجميل مـولاه والإذعان والإيمـان، لكن المعـانـدين والجاحدين مصرُّون على عنادهم وجحـودهم رغماً عن تمتعهم بنعم الله ﴿ يَعْـرِفُـونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُـمَّ يُنكِـرُونَهَـا، وَأَكْـثَـرُهُمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وتناول القسم الأخير من هذا الربع بالوصف والتحليل حالة المشركين والكافرين عندما يضع الله الموازين القِسطَ ليوم القيامة، وما يكونون عليه من وُجوم ودهشة وارتباك وتردد لهول المفاجأة، وما يُرَدِّدُونـه من اعتراف وإقرار، وما يحاولونه من تراجع واعتذار، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا الذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ، وَإِذَا رَءَا الذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا الذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ، فَأَلْقَوِاْ اِلَيْهِمُ الْقَـوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أي فكذبهم شركاؤهم ﴿ وَأَلْقَوِاْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ أي واستسلم الذين أشركوا يومئذ لله مذعنين خاشعين، لكن بعد فوات الوقت ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ، الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنَ اَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ ﴾ يشبهُ قولَه تعالى فيما سبق من سورة النساء: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَـىٰ هَؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾ [الآية: ٤١]. وقد كان عبد الله بن مسعود يقرأ، ورسول الله يسمع، فلما وصل إلى هذه الآية قـال رسـول الله ﷺ: «حسبـك»، فـالتفت عبـد الله بن مسعـود إلى

رسول الله، فإذا عيناه تَذْرِفان، أي وجد عينيه الكريمتين تَدمَعان، تأثراً من استحضار هذا المشهد الرهيب من مشاهد يوم القيامة، نسأل الله أن يستر هذه الأمة بستره الجميل.

الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ
وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾
وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَٰنَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ
هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ
اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا

وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ
يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ
سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾
إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ
مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ

مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾
مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ
مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ
وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ، ثُمَّ جَـٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

اعتنى كتاب الله في القسم الأول من هذا الربع ببيان الدعائم الأساسية التي يقوم عليها السلوك الإسلامي، فردياً كان أو جماعياً، وهذه الدعائم لا تقوم للمسلمين قائمة بدون مراعاتها والتزامها، فدعا إلى التزام العدل وممارسة الإحسان، وتجنُّب الظلم وتفادي الطغيان، ودعا إلى الوفاء بالعهد واحترام الأَيْمَان، ونهى عن إشاعة الفواحش وإقرار المنكرات، كما نهى عن رواج سوق المكايد والمساومات بين الأفراد والجماعات.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾. و«العدل» هو الإنصاف قولاً وفعلاً، والتسوية بين

أصحاب الحقوق بإعطاء كل ذي حق حقه دون تحيُّز ولا هوى.
ومن مشمولات العدل: العدل بين الإنسان وربه، بإيثار حق الله على حظ نفسه، والعدل بين الإنسان ونفسه، بمنعها عن كل ما فيه ضررها وهلاكها، ويمنحها كلَّ ما فيه نفعها وصلاحها، والعدل بين الإنسان وأخيه من بقية الناس، بإنصافهم من نفسه، وعدم الإساءة إليهم بقول أو فعل، لا في السر ولا في العلن.

و «الاحسان» في هذا المقام، هو التفضل والانعام، وحسن المعاملة بين الأنام، ومن مشمولاته: صلة الرحم، المعبَّر عنها هنا (بإيتاء ذي القربى)، قال أبو بكر (ابن العربي): «وإنما خَصَّ ذوي القربى، لأن حقوقهم أوكد، وصلَتهم أوجب، لتأكيد حق الرِّحم، التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته».

ثم قال تعالى: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾.
و «الفحشاء» كل قبيح من قول أو فعل أو خُلُق أو اعتقاد، ومن ذلك أن العرب تسمي البخيل «فاحشاً». و «المنكر» ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وما تستنكره فطرة الإنسان وتأباه، من تصرفات ومعتقدات، و «البغي» هو تجاوز الحد، والتطاول على الغير بالظلم والتعدّي.

وقولُه تعالى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تنبيهٌ إلى أن الحكمة المتوخاة من أوامر الله ونواهيه هي إرشادنا إلى وجوه الخير حتى نمارسها، لصالح أنفسنا وصالح الناس، وتحذيرُنا من ضروب الشر حتى نتجنبها، وقايةً لأنفسنا وللناس. قال عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه: «هذه أجمعُ آية في القرآن لخير يُمتثل، وشر يُجتنب».

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّـمْ، وَلَا تَنقُضُواْ الْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾. و«العهد» يطلق في كتاب الله إطلاقات متنوعة، والمراد بعهد الله هنا ما يعطيه المومنون من العهود والمواثيق لبعضهم أو لغيرهم، وما يصحب عهودهم من الأَيْمان المؤكِّدة لها، الضامنة لالتزامها ونفاذها، و«توكيد» الأَيمان هو حلِف الإنسان في الشيء الواحد يميناً بعد يمين.

ونَهى كتاب الله أن يسلك المومنون في عهودهم المؤكَّدة بالأَيْمان مسلك الخداع والتغرير، ضارباً لهم المثل بالمَرأة التي تعبت وقضت وقتاً طويلاً وهي منهمكة في الغَزْل، ثم نقضت غزلها بعد أن أبرمته وفتلته فتلاً شديداً، فضاع مجهودها سُدى، محذراً إياهم من اتخاذ هذا المَثَل اسوة لهم فيما يعقدونه من المواثيق، إذا نقضوها بعدما أبرموها، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَنكَـٰثاً، تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ معناه: لا تكونوا ناكثين للعهود ناقضين لها، متخذين من عهودكم المؤكَّدة بالأَيْمان مجردَ ستار للخداع والغدر، بحيث تعقدونها وأنتم مبيِّتون النية مصممون على نقضها وفسخها، لأول ما يرجَح ميزان القوة عندكم على غيركم، وهذا معنى قوله تعالى في نهاية هذه الآية: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾.

وأكد كتاب الله هذا المبدأ الإسلامي الأصيل، مبدأ الوفاء بالعهد ما دام العهد قائماً، مبيِّناً هذه المرة العواقب الوخيمة التي تنشأ عن خيانة العهود ونقض المواثيق، فقال تعالى في نفس هذا الربع: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ أي لا تتخذوها خديعة ومكراً ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، إذ إن الغدر والخديعة يؤديان إلى فقد الثقة وإثارة الفتنة فيما بين الأفراد والأمم، ويؤديان إلى أن يتربص المخدوعون بمن خدعوهم الدوائر، فينصرم حبل التعاون فيما بين الطرفين «ولا يُلدَغ المومن من جُحْر مرّتين».

وزاد كتاب الله نفس المبدأ توكيداً وتشديداً، منبهاً إلى أن المنافع الزائلة والمصالح العابرة، لا ينبغي أن تُغرِي المومنين بنقض عهودهم ومواثيقهم، لأن منافع الوفاء المتبادل، والثقة المتبادلة، أدوم وأبقى، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً، إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ، وَلَيَجْزِيَنَّ الذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

ثم حض كتاب الله على ممارسة الخير والعمل الصالح، و«العمل الصالح» هو العمل المشروع الملائم للتوجيهات الإلٓهية، والمحقق لمقاصد الشريعة وأهدافها، مبشراً كل من سلك في حياته هذا المسلك من ذكر وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾، وهذه

الصيغة تتضمن وعداً قاطعاً من الله تعالى، وتفيد أنه وعد «نافذ» في نفس هذه الحياة لا مَرَدَّ له، مما يدل أقوى دلالة على أن آثار الأعمال الصالحة تظهر على أصحابها في دنياهم قبل آخرتهم. وفيما يخص الشق الثاني قال تعالى في نفس السياق وبنفس التأكيد: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

و «الحياة الطيبة» التي وعد الله بها من التزم العمل الصالح تشمل جميع وجوه الطمأنينة التي يطمح إليها الإنسان في حياته، وجمعها ابن عباس في كلمة واحدة فقال: «الحياة الطيبة هي السعادة».

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ مُومِنٌ ﴾ الذي توسَّط هذه الآية بين العمل الصالح والجزاء عليه، إشارةٌ إلى أن «الإيمان» أمر أساسي بالنسبة للجزاء الكامل على العمل الصالح، لأنه هو الذي يعطي للعمل الصالح طابَعَه الخاص، وهو الذي يحمل عامله على أن يجعل هدفه الوحيد من عمله ابتغاء مرضاة الله دون سواه، وبدون الإيمان بالله لا يتمحض هذا الغرض، ولا يكون العمل الصالح مظهراً من مظاهر الطاعة والعبادة. وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لاَ يَظلِمُ المومن حسنةً، يُعطَى بها في الدنيا، ويُثابُ عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يُعطَى بها خيراً». والقسم الأخير من هذا الحديث الشريف ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وتناولت الآيات الكريمة بعد ذلك الحديث عن القرآن العظيم: عن تنزيله، وعن لسانه، وعن رسالته، وعن آداب تلاوته.

فعن حكمة تنزيله قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [الآية: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾. وعن لسان وحيه قال تعالى: ﴿ لِّسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾. وعن مضمون رسالته قال تعالى: ﴿ لِيُثَبِّتَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾. وعن آداب تلاوته قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ الرَّجِيمِ ﴾، قال أبو بكر الجصاص: «معناه إذا أردت القراءة فاستعذ، إذ ثبت عن النبي ﷺ وعن السلف الاستعاذة قبل القراءة، والاستعاذة ليست بفرض». وبنفس هذا الإستعمال ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ ﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيـٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَـٰوٰةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦]، أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وقال ابن كثير: «هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب لاَ وجوب»، حكى الاجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة».

والحكمة في تقديم الاستعاذة قبل قراءة القرآن هي التحصن بالله من وساوس الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَـٰنٌ عَلَى

الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وذلك حتى لا يُفسِد الشيطانُ على القارىء قراءته، وحتى يستجمع القارىء لبَّه وقلبه على التأمل والتدبر، وهما غاية الغايات من تلاوة كتاب الله.

وتعرَّض كتاب الله لحالة استثنائية طالما عرضت للمستضعفين في بداية عهد الإسلام، ممن لم تكن لهم عشيرة تحميهم، ولا عصبية تدافع عنهم، حيث كان المشركون يعذبونهم ويُكرِهونهم على العودة إلى الشرك، ونبَّه كتاب الله إلى صورتين اثنتين في هذا المقام:

ـ الصورة الأولى: صورة من ضعُف عن احتمال التعذيب، فكفَر بالله من بعد إيمانه وعاد إلى الكفر، وهذا له عذاب عظيم، وعليه غضب من الله شديد، وفي شأنه وشأن أمثاله قال تعالى هنا: ﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، وفي أمثاله ورد حديث البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه».

ـ والصورة الثانية: صورة من أُكره على الكفر بعد إيمانه، واستمرّ قلبُه مطمئناً بالإيمان، فهذا لا يؤاخذه الله بما نطق به اللسان، مخالفاً لما في الضمير والجَنان، من التعريض الذي هو في حكم الهَذَيان، بل هو معذور في الدنيا، مغفور له في الأخرى، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِلَّا مَنُ اكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَـٰنِ ﴾، وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَـٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟

عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾
ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ
فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ
ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ

وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَوا وَّالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

أول آية في هذا الربع تؤكد عدل الله تعالى المطلق، بالنسبة لجزاء الأبرار والفجار، والأخيار والأشرار، وتُنَبّه إلى أن كل نفس ستكون مسؤولة أمام الله عن عملها، مطالَبة بالدفاع عن موقفها، إذ لا تُقبل نيابة أحد عن أحد في عَرَصات يوم القيامة: ﴿ كُلُّ امْرِيءِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطُّور: ٢١]، حتى إذا انتهى كل واحد من الدفاع عن نفسه نال جزاءه العادل، لا يُنقَص شيء من ثوابه إن كان خيراً، ولا يُزاد شيء في عقابه إن كان شراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي توفَّى جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وتحدث كتاب الله عما يصيب البشر من ابتلاء وعقاب في

الحياة الدنيا قبل الآخرة، جزاءً كفرهم بنعمه الوافرة، فكم من مدن وقرى أنعم الله على أهلها بالأمن والطمأنينة ورغد العيش، وسهولة الحصول على الضروريات والحاجيات من كل مكان، فلم يقدِّروا نعمه حق التقدير، ولم يُصدِّقوا بِشارة أي بشير، ولا بِنذارة أي نذير، فمِثْلُ هؤلاء القوم يعاقبهم الله بالسلب بعد العطاء، ويسلِّط عليهم الخوف والجوع وما يرافقهما من أنواع البلاء، جزاء كفرهم، وعدم شكرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتَ ـ امِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ، وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾.

والقرية المشار إليها في هذه الآية على سبيل المثال يظهر أن المراد بها مكة في عهد سيطرة الشرك والمشركين عليها، فقد أصرّ مشركو قريش في بداية عهد الإسلام على مقاومة الرسالة المحمدية، وبالغوا في إذاية الرسول عليه السلام وإذاية المومنين، إلى أن اضطر للدعاء عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سَنة واحدة أذهبت لهم كل شيء، وكانت كافية في ردعهم عن طغيانهم نوعاً ما، ولم يسَعْهم بعدما رأوا العذاب، ولمسوا أثر استجابة الله دعاء رسوله، إلاّ أن يلتجئوا إليه قاصدين بابه، سائلين منه الدعاء لهم باللطف والرفق، فما كان منه عليه السلام إلا أن رقَّ لحالهم، ودعا الله فاستجاب الله دعاءه، وكان ذلك الموقف النبوي الكريم من أهم العوامل التي زعزعت ثقتهم بالشرك

والوثنية، وشرحت صدر كثير منهم للإيمان بالرسالة الإلّهية.

ثم وجه كتاب الله دعوة كريمة إلى الناس كافة ـ ولا سيما المومنين ـ فقد دعاهم جميعاً إلى الإقبال على مائدة الله التي أنزلها لهم للتمتع بها، والتناول منها، كما دعاهم إلى الاستزادة من خيراتها بالشكر عليها، وذلك رحمة بهم، لإقامة أوَدهم، واستمرار النوع الإنساني المستخلَف في الأرض، وحفظه من الهلاك والبوار، وهذه المائدة الإلّهية التي دعاهم إليها كتاب الله تنحصر أنواعها في (الحلال الطيب)، ففي أنواع الحلال ما يكفيهم عن كل حرام، وفي أنواع الطيبات ما يغنيهم عن كل خبيث، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَـٰلاً طَيِّباً، وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

وبمناسبة هذه الدعوة الكريمة نبَّه كتاب الله إلى جملة من المحرَّمات والخبائث التي لا يسوغ للإنسان تناولها، لما فيها من ضرر محقق، وأذى بالغ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. وقد سبق نفس هذا الموضوع مفسراً في مثل هذه الآية من سورة البقرة.

وما دام الحديث جارياً عن الحلال والحرام، والطيِّب والخبيث، فقد بيِّن كتاب الله أن السلطة الإلّهية العليا هي وحدها التي لها صلاحية الحكم بتحليل ما هو حلال وتحريم ما هو حرام، وأن القول الأول والأخير في هذا الشأن، مرجعه إلى الله

لاَ إلى هوى الإنسان ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الاعراف: ٥٤] فليس للناس أن يُحِلُّوا ما حرَّم الله، ولا أن يُحرِّموا ما أحلَّ الله، تبعاً لمجرد أهوائهم وشهواتهم.

وحذَّر كتابُ الله من الحكم على الأشياء بالتحليل والتحريم دون سَنَد شرعي، واعتبر المغامرين بذلك من عند أنفسهم متطاولين على الشرع ومفترين على الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

ونظراً إلى أن الشهوة الغالبة، والمُتْعَة الزائفة، هما أهم سبب فيما يُقدم عليه بعض الناس من تحليل الحرام جاء التعقيب على ذلك بما يُنفِّر من تلك الشهوة وتلك المتعة، فقال تعالى: ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وما دام الحق سبحانه وتعالى يعلم ضعف الإنسان، وما توحي إليه به نفسه الأمَّارة بالسوء، وأنه عرضة للتورط في المعصية والاثم، فقد فتح الله سبحانه لعباده باب التوبة على مصراعيه، حتى يمكنهم أن يستأنفوا الطاعة بعد المعصية، والاستقامة بعد الانحراف، وحتى يمارسوا من جديد عمل الحسنات، تكفيراً عما ارتكبوه من السيئات، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ يتضمن

إشارة لطيفة إلى أن مرتكب المعصية عندما يهجُم على ارتكابها يكون في حالة شبيهة بحالة الإغماء والجنون، بحيث يفقِد ـ تحت ضغط الشهوة ـ وَعْيَه الديني تقريباً، فينسى حكم الدين، وينسى يوم الدين، حتى إذا ما استرجع وعيه ندِم على ما فرّط منه، وأخذ يتلمس الأسباب، ويطرق الأبواب، ليريح ضميره من العذاب، فيفتح الحق سبحانه وتعالى في وجهه باب التوبة، وما أوسعه من باب، وبذلك يعود المومن العاصي إلى أحضان الرشد والصواب، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ونظراً إلى المقام الكريم الذي يحتله في تاريخ الخليقة خليل الرحمٰن ونبيه إبراهيم، وادعاءِ الكثير من أتباع المِلَل والنِّحَل أنهم معتمدون عليه، وأن مللهم ونحلهم منه وإليه ـ ومن بين المدعين لهذه الدعوى مشركو العرب وبنو إسرائيل ـ فقد تصدى كتاب الله لإبطال دعواهم، مبيِّناً هنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين، بل كان قانتاً لله حنيفاً، كما بيَّن كتاب الله في موضع آخر أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وبهذه المناسبة أثنى كتاب الله على خليله إبراهيم، ونوَّه بفضائله ومزاياه في الدنيا والآخرة، ودعا خاتم الأنبياء والمرسلين إلى رفع رايته، واتِّباع ملَّته، وإلى هذه المعاني المتعددة يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبِيٰهُ وَهَدِيٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَءَاتَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ، ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وبمقتضى هذا الأمر الإلٓهي المطاع أخذ رسول الله ﷺ يتعبد بكل ما أوحي إليه من ملّة إبراهيم، وورد قولُه تعالى في سورة الانعام: ﴿ قُلِ اِنَّنِي هَدينِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، دِيناً قَيِّماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الآية: ١٦١].

وقولُه تعالى في وصف إبراهيم: ﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ ﴾ قال ابن مسعود: «الأمة هو الذي يعلِّم الناس الخير، والقانت هو المطيع». ويطلق لفظ الأمة أيضاً ويراد به الإمام الذي يُقتدى به، وقد كان إبراهيم عليه السلام في آن واحد: مطيعاً لربه، ومعلِّماً للخير، وإماماً لأتباع ملّة التوحيد على العموم، و(الحنيف) في هذه الآية وما ماثلها معناه المُخلِص، والمنحرِف عن الشرك قصداً إلى التوحيد. قال أبو بكر (ابن العربي): «فعلى كل عبد أن يطيع الله ويُعلِّم الأمة، فيكون في دين إبراهيم على الملّة».

وبعدما أمر الحقُّ سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين باتِّباع ملّة إبراهيم خاطبه موجِّهاً ومرشداً، مبيناً له نوع الدعوة الموكولة إليه، وأحسن الطرق التي يلزمه سلوكها لتبليغ تلك الدعوة، فقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾، والدعوة إلى سبيل الله هي جوهر الدعوة وصميمها، ثم قال تعالى: ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُم بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. وهذه هي الشروط الأساسية لكل دعوة يكتب لها الِانتشار والِانتصار، إذ متى كانت الدعوة ـ من أي نوع ـ يقود خطواتها داعية غيرُ حكيم ولا متبصر، أو داعية غيرُ مهذب القول ولا مهذب الطبع، أو داعية

حريص على الجدل مولَع بالشَّغَب، إلا وباءت دعوته بالتقهقر السريع، والفشل الذريع.

وواضح أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وإن كان موجهاً في البداية إلى الرسول ﷺ، فهو موجَّه في النهاية إلى جميع أفراد أمته، ومن بينهم العلماء والحكام، والمعلمون والمعلمات، والآباء والأمهات، فكلهم مطالَب بالدعوة إلى ما دعا إليه الرسول بنفس الروح التي دعا بها، وحضَّ كتاب الله عليها، وقد تجدد هذا المعنى في كتاب الله عدة مرات، ومن ذلك قوله تعالى يأمر موسى وهارون عندما بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ هذه معيَّة خاصة، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الانفال: ١٢]، وكقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] إشارةً إلى حديث النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق وهما في الغار.

وأما المعيَّة العامة بمعنى علم الله المطلق الشامل لما ظهر وما بطن، في السر والعلن، فكقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، قال ابن كثير:

«ومعنى ﴿ الذِينَ اتَّقَواْ وَالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي تركوا المحرَّمات وفعلوا الطاعات، فهؤلاء يكون الله معهم بتأييده ونصره، ومعونته وهديه»، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَواْ وَالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوٓءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ
وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا
آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ
أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾
مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ
عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ

مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾
مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ
ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ
أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ
كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ
عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ
فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ
تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا
مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، سُبْحَٰنَ الذِيَ أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الاَقْصَا الذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ ـ ايَٰتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ لاَّ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً ـ اخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾.

هذه السورة الكريمة التي نفتتح بها حديث اليوم سورة مكية، وهي من سور القرآن «العِتَاق الأُول» كما وصفها عبد الله بن مسعود أحد كبار كتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ حسبما روى ذلك البخاري في الصحيح، وسميت «سورة الاسراء» أخذاً من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ الذِيَ أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الآية: ١]، وأول جزء منها يتحدث بإيجاز عن انتقال الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بواسطة البُرَاق، وهو ما عبَّر عنه كتاب الله «بالاسراء»، ثم عن الانتقال من المسجد الأقصى في بيت المقدس إلى السماوات العلى حتى سِدْرة المنتهى، وهو «العروج» الذي تم بواسطة «المعراج».

قال القاضي عبد الجبار في كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن»: (ربما قيل كيف يصح قطع هذه المسافة في هذه الأوقات القصيرة؟ وجوابنا أن ذلك من معجزاته ﷺ، كما جعل الله تعالى معجزة سليمان «الريح» بقوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبإ: ١٢]. وقد وردت في شأن الاسراء والمعراج عدة أحاديث تشتمل على تفاصيل دقيقة لم يتعرض لها كتاب الله، ومن أحسن من جمعها بطرقها المتعددة على اختلاف درجاتها الحافظ ابن كثير، وبعدما أورد نصوصها في عشرين صفحة من تفسيره الشهير أتى بخلاصة وافية نقتطف منها العناصر الأساسية في الموضوع، وفيما يلي خلاصة الخلاصة لما قاله ابن كثير، قال رحمه الله: «وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث - صحيحها وحسنها وضعيفها - يحصل مضمون ما اتفقت عليه، من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه وقع مرة واحدة، والحق أنه عليه السلام أُسرِى به يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البُرَاق، وهو دابة بيضاء برّاقة لها لمعان. فلما انتهى إلى المسجد الأقصى دخله، فصلّى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أُتِي بالمِعراج، وهو كالسلّم، ذو دَرَج يُرقَى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقرّبوها، وسلّم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى انتهى إلى مستوى يَسمعُ فيه صَرِيف الأقلام - أي أقلام القَدَر - بما هو كائن، ورأى سِدْرة المنتهى، ورأى البيت المعمور والجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى

خمس، رحمةً منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لَمَّا حانت الصلاة، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البُرَاق وعاد إلى مكة بغَلَس، وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة». ثم قال ابن كثير: «والأكثــرون من العلماء على أنه أُسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى الاسراء قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح». انتهى ما اقتطفناه من كلام ابن كثير، وعلى القول بأن النبي ﷺ رأى الاسراء رؤيا منام، ثم رآه رؤية يقظة يكون الأمر فيه مشابهاً لبدأ نزول الوحي من قبل، فقد كان المَلَك جاءه في المنام أولاً، ثم جاءه بعد ذلك في اليقظة، وشرَح القاضي أبوبكر (ابن العربي) الحكمة في هذا التدرُّج فقال: «وكانت الحكمة في ذلك أن أراه الله في المنام ما أراه، توطيداً وتثبيتاً لنفسه، حتى لا يأتيه الحال فَجأة، فتقاسي نفسُه الكريمة من ذلك شدة، لعجز القُوَى الآدمية عن مباشرة الهيئة المَلَكية».

واقتصر كتاب الله من قصة الاسراء على بيان وقته، وبيان المكان الذي أسرى منه، والمكان الذي أسرى إليه، وبيان الحكمة المقصودة من الاسراء فقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ الذِيٓ أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الاَقْصَا الذِي بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ ـ ايَـٰتِنَآ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ﴾ عَلَم للتسبيح، ومعناه براءة الله

من السُّوء، وتنزيه مقامه عنه. قال ابن كثير: «والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان الاسراء مناماً ـ لا يقظة ـ لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظَماً»، إذ «لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم»، كما قال النَّسَفي، ولَمّا بادر كفارُ قريش إلى تكذيبه، ولَمّا ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، مما يشير إليه قوله تعالى في مكان آخر من هذه السورة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ ﴾ أي رؤيا عين كما قال ابن عباس ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الآية: ٦٠].

ومما يستلفت النظر أن هذا التسبيح الوارد في مطلع السورة يتكرر أثناءها عدة مرات، فمرة يأتي تعقيباً على ما قال به المشركون في حق الله جلّ وعلا، وذلك قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً، يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ، وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، ومرة أخرى يأتي التسبيح تعقيباً على التحدِّيات التي وجَّهها المشركون إلى رسول الله ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَٰنَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾، ومرة ثالثة يأتي التسبيح في سياق الحديث عن الذين آمنوا بالله ورسوله ودخلوا في الإسلام من أهل الكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾.

ومن لطائف التفسير التي يحسن نقلها في هذا المقام ما ذكره جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

عند تحليله لقوله تعالى: ﴿ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ إذ قال: «لمَّا رفعه إلى حضرته السَّنِية، وأرقاه فوق الكواكب العُلْوية، ألزمه اسم العبُودية تواضعاً للألوهية»، وذلك حتى لا يلتبس أحد المقامين بالآخر، كما التبسا في المعتقدات المسيحية.

وقولُه تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ بيان لحكمة الله في اسرائه بخاتم أنبيائه ورسله، وقد أعاد كتاب الله الحديث عن هذه الحكمة في سورة النجم فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [الآية: ١٨] وكم في السماوات وحدها من عجائب وآيات. قال زميلنا المرحوم المفسر الشهيد: «والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى، من لدُنْ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيئين ﷺ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلانُ وراثة الرسول الأخير، لمقدَّسات الرسل قبله، والإشارةُ إلى اشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباطِ رسالته بها جميعاً، فهي ترمز إلى أبعدَ من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تنكشف عنها للنظرة الأولى».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن موسى وعن بني إسرائيل. والحديث عن رسالة موسى عليه السلام، وعما تقلَّب فيه بنو إسرائيل من النِّعَم والنِّقَم ـ بعد ذكر المسجد الأقصى ـ مناسب لهذا المقام كل المناسبة، فقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي هادياً ومبيناً ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي الْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي وعد المرة الآخرة ﴿ لِيَسُـٔوُاْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية على وجوهكم ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً ﴾ أي لِيُبيدوا ـ مدة علوهم واستيلائهم ـ كلَّ ما استولوا عليه، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيراً ﴾ أي سجناً يحاصرون فيه. وهكذا أشار كتاب الله في إيجاز وإعجاز إلى جوهر الرسالة الموسوية التي جاء بها موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، فحرَّفوها وتنكروا لها، وكان من آثار تمردهم عليها ما توالى عليهم من التشتيت والتفتيت، وأنواع البلاء والجلاء في أطراف الأرض شرقاً وغرباً.

ثم نبَّه كتاب الله إلى أن بني إسرائيل كلما عادوا إلى الفساد في الأرض والاستعلاء على الخَلْق عادت إليهم النِّقَم تَتْرَى، وأوسعهم الله هزيمة وقهراً، وآتى أعداءهم غلبة ونصراً.

وواضح أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ موجَّه إلى بني إسرائيل، إنذاراً لهم بسوء العاقبة وقبح المصير، كما وجِّه إليهم الخطاب من قبل في قوله تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي

الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر الآية. فهذا هو ما يقتضيه سياق الآيات المتلاحقة، ويقضي به نظامُها العام، وارتباطها التام، قال ابن كثير: «وفيما قصَّ الله علينا في كتابه غنية عما في سواه من بقية الكتب قبله، وقد أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم كلما طغوا وبغوا سلَّط الله عليهم عدوَّهم فاستباح بَيْضتهم، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلَّام للعبيد».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الميزة الخاصة التي امتاز بها القرآن الكريم، وأنه اشتمل على لب الدين الصحيح وجوهره الكامل، وعلى شريعة الله الفاضلة في أسمى أطوارها، وأنه بعد نزوله لم تبقَ هناك طريقة أقوم من طريقته، ولا شريعة أفضل من شريعته، فهو الحَرِيُّ والأحق بالاتِّباع، من جميع الشيع والأتباع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي يهدي للعقيدة التي هي أقوم، والشريعة التي هي أقوم، والحياة التي هي أقوم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ معناه ألزمنا كل إنسان جزاء عمله، وما يستحقه، بحيث يصبح عملُ الأخيار لازماً لهم لزوم القِلادة للعُنق، وعمل الأشرار لازماً لهم لزوم الغُلِّ للعنق، وواضح أن العنق عضو لا نظير له في جسد الإنسان، فمن أُلزم فيه بشيء لم يُفَكَّ عنه بحال.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً، وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً ﴾ إشارةٌ إلى سنَّة الله التي لا تتخلف، من إرسال الرسل مبشِّرين ومنذرين، وقيامهم بتبليغ أوامر الله ونواهيه إلى كافة الخلق، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فإذا امتثلوا أوامر الله كيفما كان موضوع تلك الأوامر ـ وفي طليعتها أمره بالعدل والاحسان وأداء الأمانات إلى أهلها ـ أفاض الله عليهم وعلى بلدانهم أصناف النعم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَـٰمُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ [الجن: ١٦]، وإذا «فسقوا» وعصوا أوامر الله ولم يجتنبوا نواهيَه، وانحرفوا عن الجادة، سلَّط عليهم وعلى بلدانهم ضروب النِّقَم، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً ﴾، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾. [هود: ١٠٢].

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا
تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾
وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ
قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا
كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ

لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا
تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ
قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ
وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن
قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ
إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ
حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾
وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ
خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ
وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ
طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾
ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا
فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ

ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ يُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ
فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَسْتَمِعُونَ بِهِۦ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ
أَ۬ذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ، وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰناً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾.

في الربع الماضي تولى الحق سبحانه وتعالى التنويه بكتابه الحكيم، وأنه الكتاب الوحيد الذي يهدي إلى أقوم العقائد والملل، وأقوم الشرائع والشعائر، والذي يفصِّل للإنسان كل شيء، فيعرِّفه طريق الخير ليسلكها، وطريق الشر ليتجنبها، وذلك قوله تعالى فيما سبق: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾.

وكنموذج لِمَا يهدي إليه الذكر الحكيم من الطرق القويمة، والتوجيهات السليمة، ولِمَا يفصِّله بين جَنَباته لفلاح الإنسان ونجاته، تولى الحق سبحانه وتعالى في هذا الربع بيان عدد مهم من الأوامر والنواهي، مما تتوقف عليه سعادة الفرد المسلم وسعادة

المجتمع الإسلامي، فوجَّه خطابه إلى المكلفين، واحداً واحداً، بالنسبة لما يتعلق بِذِمَمهم كأفراد، من الأوامر والنواهي، ووجَّه خطابه إلى المكلفين، جماعة جماعة، بالنسبة لما يتعلق بهم كجماعات، من الأوامر والنواهي، إذ أن الشريعة تحتوي على تكاليف فردية وتكاليف جماعية، كلٌّ منها يكمل الآخر، ويساند الآخر: مثال النوع الأول قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً ﴾ - ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾. ومثال النوع الثاني قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ - ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾.

وأول ما يستلفت النظر في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الذي أتبعه في الحين ودون أي فاصل بقوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَٰناً ﴾ [الآية: ٢٣]، الأمر الذي يوضح أهمية البرور بالوالدين عند الحق سبحانه وتعالى، حتى وصَّى به وجعله مقارناً لتوحيده وعبادته، والاعتراف بربوبيته، بحيث إذا كان الإيمان بالله يعتبر في الدرجة الأولى، فإن الإحسان إلى الوالدين يعتبر في الدرجة التي تليه مباشرة، على غرار قوله تعالى في آية أخرى تؤكد نفس المعنى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤] حيث ربَط شكر الإنسان لوالديه بشكره لربه. وهكذا يوجه الإسلام معتنقيه إلى

وجوب الارتباط الدائم بالله أولاً، ثم الارتباط الوثيق بالأسرة ثانياً، إذ الأسرة هي الخَلِيَّة الأولى للمجتمع، والأمة الإسلامية يجب أن تتألف من مجموعة أُسَر تتبادل العون والعطف، وتتعاون على البِر والتقوى.

ثم تكفل كتاب الله بالإرشاد إلى وجوه الإحسان والبرور التي يجب على الأولاد أن يقدموها إلى الوالدَيْن في جميع الظروف، ولا سيما عند كبرهما، وضعفهما، فنهَى عن التضجر منهما والتبرم بهما، ودعا إلى حسن الأدب معهما والتواضع لهما، ورعايتهما حق الرعاية بقيةَ حياتهما، كما دعا إلى الترحم عليهما والوفاء لذكراهما بعد انتقالهما إلى رحمة الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ تصويرٌ للحالة الاستثنائية التي يحتاج فيها الوالدان أكثر فأكثر، إلى برور الأولاد، وهي حالة الكِبَر والهرم، التي يرافقها الضعف والعجز، ففي هذا الطور من العمر الذي يصل إليه الأب، أو تصل إليه الأم، أو يصلان إليه معاً، يحتاج الوالدان حاجة ملحة إلى برور أولادهم، ويتطلعان بلهفة وشوق إلى مزيد رعايتهم، إذ تكون الأم ويكون الأب قد استنفد كل منهما طاقات شبابه، وأفنى كل منهما زهرة حياته في تنشئة الأولاد وتربيتهم، وبذل كل منهما النفس والنفيس في سبيل اسعادهم، دون أدنى

تحفظ ولا أدنى حساب، وبذلك يَرُدُّ الأولاد لوالديهم وهم كبار، بعض ما أسداه إليهم والدوهم وهم صغار.

هذا وينبغي لكل ولد ولد أن لا يَغفُل عن الخطاب الإلهي الموجَّه إليه من الحق سبحانه وتعالى هنا بشكل مباشر إذ يقول: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ فكلمة (عندك) هنا إنما جاءت لتشير إلى أن الوالدَيْن في حالة شيخوختهما يصبحان غالباً في كَنَف أولادهما، ويقضيان أيامهما الأخيرة في رعايتهم وعلى مسؤوليتهم، فعلى الأولاد أن يقوموا بحقـوق الأبوة على الوجه الأكمل، كما قام الآباء بحقوق البنوة على الوجه الأفضل. وتذكيراً بتضحيات الوالدَيْن في سبيل أولادهما عندما كانوا أفقر خلق الله إليهما، طالب الحق سبحانه وتعالى الأولاد بسؤال الرحمة لهما جزاءً وفاقاً، فقال تعالى مرشداً ومعلماً صيغة الدعاء المناسب لهذا المقام: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾.

ولم يهمل كتابُ الله الإشارة إلى ما قد يلحق بعض الأولاد من ضَجَر أو مَلَل أو فتور في القيام بحقوق الوالدين، مما قد تثيره بعض تصرفاتهما في حالة الهرم والكبَر، فنبه الحق سبحانه وتعالى إلى أنه مطَّلع على سرائر النفوس لا يخفى عليه منها شيء، وأنه إذا فَرَط من الأولاد شيء من التقصير في حق الوالدين، في حالة غضب أو ضِيق صدر، وكانت نيتهم نحو الوالدَين لا تزال نية صالحة بريئة من السعي في الأذى والميل إلى العقوق، فإن الله يغفر للأولاد ما فَرَط منهم إذا ما بادروا للتوبة من تقصيرهم، وتداركوا القيام بحقوق الوالدين، وأنه يعفو عما سلف منهم ولا

يؤاخذهم عليه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا مخاطباً الأبناء التائبين من تقصيرهم في حق الآباء: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ، إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّٰبِينَ غَفُوراً ﴾.

وبعدما استوفى كتاب الله الحديث عن حقوق الوالدين في البر والاحسان دعا كل فرد من المسلمين إلى أن يعُمَّ بِرّه وإحسانه بعد والدَيْه عشيرتَه الأقربين، ثم كلَّ محتاج ومسكين، فحق الأخوة العامة في الله بين المسلم وأخيه المسلم لا يقل عن حق القرابة في الدم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّـهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾.

ونظراً لأن الرزق لا يستمر على وتيرة واحدة، بل يتسع أحياناً فيبسُط صاحُبه يدَه للبذل والسخاء، ويضيق أحياناً فيقبضُ صاحبهُ يدَه عن العطاء، نبَّه الحق سبحانه وتعالى عباده إلى الأدب الواجب عليهم في مثل هذا الظرف الدقيق، وأنه ينبغي لهم أن يتجنبوا كل ما يُلحِق الأذى بشعور إخوانهم، أو يحُطُّ من كرامتهم، وبدلاً من أن يُعرِضوا عنهم متسترين ينبغي لهم أن يَعِدوهم وعداً جميلاً بالعون إذا ما أيسروا، ويقولوا لهم قولاً معروفاً إذا أقبلوا أو أدبروا، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى مخاطباً كل فرد من أفراد المسلمين: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾.

وإزالةً لكل التباس يمكن أن يقع فيه الناس اهتم كتاب الله بتوضيح أن الأمر بالبر والإحسان لا يقتضي حتماً انفاق كل ما يملكونه في هذا السبيل، فضلاً عن غيره من السبُل، تاركين

أنفسَهم وأهليهم عالة يتكففون الناس، فالإسلام ملَّة وسط، وأمته أمة وسط، وتكليفه تكليف وسط، وهو يَكرَه الإفراط والتفريط في جميع المجالات، ولذلك ندد بالتبذير، كما ندد بالتقتير، ودعا إلى التزام التوسط بين بسط اليد وقبضها، لأن بسط اليد بالمرة يُعرِّض الإنسان للوم الغير، ممن لهم عليه حقوق أصبحت ضائعة كالأهل والأولاد، ويعرِّضه للحسرة والندامة والهمِّ المقيم، فيما بينه وبين نفسه، والإسلام كما يريد أن يُقوِّي حاسة البر، ويُشيع عاطفة الإحسان في المجتمع العام، لا يرضَى بإشاعة البؤس والشقاء في المجتمع الخاص، وإنما يحرص كل الحرص على إقامة مجتمع سعيد متكافل ومتوازن من جميع جوانبه، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً، اِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَانَ الشَّيَـٰطِينِ ﴾ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً اِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾.

ونبَّه كتاب الله في سياق أوامره ونواهيه الموجهة إلى كل فرد من أفراد المسلمين، إلى أن لا يدَّعي أحد منهم علم ما لم يعلم، كأن يقول: رأيتُ، وما رأى، وسمعتُ، ولم يسمع، وكأن يشهد شهادة الزور، ويحكم بغير دليل ولا مستند في بعض الأمور، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، اِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾.

ونهى كتاب الله كل مسلم عن التكبر والتجبر والتبَخْتُر، ودعاه إلى أن يُخفِّف وطأه في المشي على الأرض، إذ مهما تمايل الإنسان وتطاول لن يغيِّر من طبيعته وقدرته شيئاً كبيراً،

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾.

وكما اتجه كتاب الله بجملة من الأوامر والنواهي إلى مختلف الأفراد فخاطبهم بها فرداً فرداً، اتجه أيضاً بجملة من الأوامر والنواهي ذات الصبغة الجماعية إلى الأمة الإسلامية في مجموعها، وهذه الأوامر والنواهي تتعلق «بالكليات الضرورية» التي تتوقف حياة المجتمع الإسلامي عليها كل التوقف، وبدونها يتعذر العمران، ويفشو الانحلال، ويضيع الأمن ويفسد النظام، فقال تعالى داعياً إلى «حفظ النسل» والإبقاء عليه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً ﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ العرض» وصيانة النسب: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ النفس» وصيانة الأرواح: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَـٰناً فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ المال» وتنميته، والابتعاد في كسبه عن كل غش أو تدليس: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ الدين» والتزام ميثاق التوحيد الذي واثق الله به عباده وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ـ ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ـ اخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾.

وبعدما عَـرَضَ كتـابُ الله جملةً من النواهي التي يؤدي ارتكابها إلى الشقاء العاجل في الدنيـا قبل الشقـاء الآجل في الآخرة، عقَّب عليها تنفيراً منها وتذكيراً بعواقبها، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾، بينما عقَّب كتاب الله على الأوامر الإلٰهية والوصايا الربَّانية التي فيهـا صلاح البشـرية أفراداً وجماعات، بما يتضمن التنويه بقدرها، والإعلاء من شأنها، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِـكَ مِمَّآ أَوْحَىٰ إِلَيْـكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَـةِ ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَكَ مَـا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ، وَكَـانَ فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ عَظِيماً ﴾ [الآية: ١١٣].

الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ
فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾
يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾
وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ
بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ
زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ
فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا
نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾
أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ
فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً اَوْ حَدِيداً، اَوْخَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُّعِيدُنَا، قُلِ الذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ اَمَ اَمِنتُمُ أَنْ يُّعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً اخْرىٰ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾.

في نهاية الربع الماضي حكى كتاب الله عن منكري البعث ما يخامرهم من شك وريب في النشأة الآخرة، وكيف يستغربون عودة الحياة إليهم بعد البِلَى والفناء، وفي بداية هذا الربع رد الله على منكري البعث رداً مفحماً قاطعاً، مؤكداً إمكان البعث ووقوعَه بأمر الله الذي فطر السماوات والأرض، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم فيما سبق: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾، وقولُه تعالى هنا رداً عليهم: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً اَوْ حَدِيداً، اَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُّعِيدُنَا، قُلِ الذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، والآية الكريمة تشير إلى أنه حتى على

فرض أن الإنسان مكوَّن تكوين الجمادات كالحديد والحجارة، لا تكوين الأحياء الذين تبقى منهم بعد الموت بقايا العظام والرفات، فإن قدرة الله لا تَعجِز عن نفخ الحياة فيه بعد الموت، كما نَفَخت فيه الحياة وأوجدته من العدم عند نشأته الأولى، فالقدرة الإلٓهية متى اتجهت إلى تكوين أي شيء كان حتماً ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن، فَيَكُونُ ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أن الإنسان مهما تلكأ وتشكك وطال به الأمد فإنه سيُبعث من مَرْقَده لا محالة، وأنه لا مناص له من تلبية النداء الإلٓهي والاستجابة إليه يوم البعث والجمع للحساب، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. وقولُه تعالى (بحمده) بعد قوله (فتستجيبون) إشارةٌ إلى أن أشد الناس إنكاراً للبعث وإلحاداً فيه لا يسعهم إلا أن يستجيبوا لدعوة الله عندما تدُقُّ الساعة، راضين غير ساخطين، مطيعين غير متمرِّدين، على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من شك في البعث، وإنكار للحساب.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن وصية إلٓهية أخرى تندرج في جملة ما أوحاه الله إلى نبيه من «الحكمة»، فقال تعالى مخاطباً رسوله ليبلِّغ خطابه إلى المومنين: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، وهذا نداء موجه من الحق سبحانه وتعالى إلى كل من يعتز بالعبودية لله ويتمسك بطاعته، (وقل لعبادي) أن يختاروا الكلمة التي هي أحسن على الكلمة التي هي دونها حسناً، في جميع مخاطباتهم وعلاقاتهم مع الناس، ولو كان المخاطَبون

مشركين أو كتابيين، فما بالك بإخوانهم المومنين. وَعَرَض كتاب الله في هذا السياق مثالاً من أمثلة الكلمة التي هي أحسن، لتكون نموذجاً للاسوة والاقتداء، وهذا المثال هو قوله تعالى على لسان عباده المومنين لمخالفيهم في العقيدة والدين: ﴿ رَّبُّكُمُ أَعْلَمُ بِكُمُ، إِنْ يَّشَأْ يَرْحَمْكُمُ أَوِ اِنْ يَّشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّآ أَوِ اِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى اَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبإ: ٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمُ ﴾ آية معترضة بين قوله «التي هي أحسن» وقوله «ربُّكم أعلمُ بكم» جيء بها مبالغةً في تحذير المومنين من فلَتات اللسان، التي تُعَدُّ من أخطر مصايد الشيطان ،لأنها تُوغِر صدر الإنسان على أخيه الإنسان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلِانسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِيناً ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ يُشبِهُ قولَه تعالى في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ، فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الآية: ٢٥٣]، والمفاضلة بين الأنبياء والرسل لا تمسّ جوهرَ النبوة في حقيقتها، ولا طبيعةَ الرسالة في حد ذاتها، وإنما تتعلق بجوانب زائدة على ذلك، كالأزمنة التي يَظهرون فيها، والأمكنة التي يُبعثون بها، والأقوام الذين يُبعثون إليهم، ونوعِ الدعوة المطالَب كلٌّ منهم بتبليغها، وأسلوبِ الدعوة المستعمل فيها، ومبلغِ النجاح الذي يصادف تلك الدعوة، وعددِ الأتباع الذين يومنون بها ويكيِّفون حياتهم بموجبها. وذكرُ الزبور في قوله تعالى هنا: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ تلميح إلى ما تضمنه

«الزبور» من التبشير بخاتم الأنبياء والمرسلين، والتبشير بأمته التي هي في عِداد الصالحين، مما أشار إليه كتاب الله في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾ [الانبياء: ١٠٥].

وانتقل كتاب الله إلى تسفيه رأي كل من يلجأ إلى غير الله، أو يتعلق بغيره في جلب نفع أو دفع ضر، ناسياً أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ولا يُخَيِّب من اعتمد عليه، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ قُلُ ادْعُواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾.

ثم مضى كتاب الله يبيِّن أن أهل المقامات العِليَّة الذين تُعقد عليهم الآمال، وتناط بهم الآمال، عند عامة الناس، هم أنفسُهم واقفون بباب الله، يتسابقون فيما بينهم إلى طاعة الله، ويلاحقُ كل منهم الآخرَ في ابتغاء رضاه، ليكون أقرب إلى مولاه، وقلوبُهم جميعاً معلقة بين جَناحي الخوف والرجاء، في حالتي السراء والضراء، وذلك معنى قوله تعالى هنا في هذا السياق: ﴿ اوْلَـٰئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي أولئك الذين يَتوجهُ إليهم الناس بالدعاء هم أنفسهم ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ ﴾، و«الوسيلة» هُنَا هي «القُربة» كما قال قتادة واختاره ابن جرير الطبري ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾. وإذا كان هذا حالَ المقرَّبين إلى الله فالأولى والأضمنُ لغيرهم من بقية الناس أن يتجهوا رأساً إلى الله تعالى لكشف غُمتهم، وقضاء حاجتهم، إذ لا حجاب بين الله وبين خلقه ﴿ ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ

لَكُمُ ﴾ [غافر: ٦٠] - ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الاسراء: ٢٠].

ووصَفَ كتابُ الله في هذا الربع صورة من صُوَر الخلق عندما يركبون البحر ابتغاء التجارة والربح، عن طريق نقل بضائعهم ومحاصيلهم على ظهر الفُلْك، وما يلحقهم من الجزع ويصيبهم من الفزع عند تغير أحواله، ومفاجأة أهواله، فلا يجدون ملجئاً إلا الله، وينسون كل ما سواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ الذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي يُسيِّرها ويُجريها ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّيٰكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الِانسَٰنُ كَفُوراً ﴾ أي بدلاً من أن يشكر الإنسان نعمة الله عليه، إذ استجاب دعاءه، ولبّى نداءه، يكفُر حيناً بنعمة الله الذي نجّاه، وينسَى العون الذي قدمه له مولاه، وكان الأولى به والأوفق له أن يقف ببابه، ملازماً لأعتابه، في البر والبحر، في الشدة والرخاء، إذ لا مانع يمنع القدرة الإلٓهية من تسليط العذاب عليه مرة أخرى، براً أو بحراً، ما دام الإنسان قد أمعن في ضلاله وازداد جهلاً وكفراً ﴿ اَفَأَمِنتُمُ أَنْ يُّخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ أي ريحاً ترميكم بالحَصْباء من فوق رؤوسكم ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا، اَمَ اَمِنتُمُ أَنْ يُّعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً اخْرىٰ ﴾ أي أن ترجعوا وتركبوا البحر الذي نجّاكم منه أولاً ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ أي لا تجدوا علينا أدنى حجة ولا متابعة، فمن كان مصراً على

الكفر بالنعمة أصبح أهلاً لكل نقمة.

وأعاد كتاب الله في هذا الربع الحديث عن قصة آدم وإبليس، ووصَفَ أنواع المغريات التي يُغري بها إبليس أتباعه من الناس، تحذيراً للمومنين من إبليس، ومغرياته، وتعريفاً لهم بعداوته ومؤامراته، حتى لا يقعوا في شِباك إبليس، ولا يستسلموا إلى ما يصطنعه من وسائل التزييف والتدليس، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَآسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً، قَالَ ﴾ أي إبليس مخاطباً الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَرَآيْتَكَ هَـٰذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنَ اَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أي لأستولين عليهم ولأغوينهم، إلا قليلاً منهم.

وقولُه هنا: ﴿ هَـٰذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ يؤكد معرفة إبليس بتفضيل الله لآدم وذريته، ويوضّح السر في حقده عليه وعداوته، لكنه بالرغم من ذلك سيحاول إيقاع الإنسان في شَبَكته، وسيحاول الإستيلاء عليه عن طريق شهوته، ولذلك أعلن كتاب الله حكمه القاطع الرادع لمن رضيَ لنفسه أن يكون من أتباع إبليس ﴿ قَالَ ﴾ أي الحق سبحانه وتعالى ﴿ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً ﴾.

وكشف كتاب الله الستار عن بعض الوسائل التي يتوسل بها إبليس إلى إغواء الخلق، فقال تعالى في صيغة الزَّجْر والتهديد: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾، ويصدق هذا على

الأغاني المثيرة والمزامير المهيّجة، التي تَضِجُّ بها أندية الليل وأوكار الفساد، كما يصدق على الخطب والتصريحات، التي تثير الفتن بين الأفراد والجماعات، ثم قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾، ويصدق هذا على الحروب العدوانية، والفتن الداخلية، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، قال الزجاج: «كل معصية في مال وولد فإبليس شريكُهم فيها». ويصدق هذا على الأموال والمكاسب المحرمة، والمعاملات الفاسدة، والأموال التي تُنفَق في اللهو والمجون، والفسوق والفجور، كما يصدُق في «الأولاد» على الأولاد الذين يقع إنجابهم بالسبب الحرام، أو يطلبُ آباؤهم الحصولَ عليهم عن طريق النذْر الحرام، أو يقع استعمالهم في العمل الحرام، ويندرج تحت هذه الآية «أولاد الغير» الذين يقع تبنّيهم وإدماجهم في سِجِلّ «الحالة المدنية»، فتختلط بسبب تَبنّيهم الباطل الأنساب والأرحام. وهذه إنما هي أمثلة لبعض ما تَصدق عليه الآية الكريمة من فنون الاغواء والإغراء التي يتعرض لها أتباع إبليس، من عشاق الشهوات، وأُسَراء اللذات.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَعِدْهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ يفسره ويؤكده قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]. نعم إن لله عباداً «مُخلَصين» تعهد الحق سبحانه وتعالى بحمايتهم من أغواء إبليس، وبحفظهم من إغرائه، وواضح أنهم لم يستحقوا أن

يضافوا إلى اسمه الأعلى وجنابه الأقدس، إلا بعد أن جاوزوا القنطرة، وفارقوا منطقة الخطر، فقال تعالى في شأنهم وهو أصدق القائلين: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ، وَكَفَىٰ بِرَبِّـكَ وَكِيلاً ﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ
ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي اِ۬لْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ اَ۬لطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَيٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ
أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنُ اُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦ أَعْمَيٰ
فَهُوَ فِي اِ۬لْءَاخِرَةِ أَعْمَيٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ اِ۬لذِےٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ
وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ
كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
اَ۬لْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ اَ۬لْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٧٥﴾
وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ اَ۬لْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدَ اَرْسَلْنَا

قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ
أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ
لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ
لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ
إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ
جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾
قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا
عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾
وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ
مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾، ونهايته قوله تعالى في شأن منكري البعث والحساب: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾.

في الربع الماضي أشار كتاب الله إلى ما لإبليس من حقد دفين على الإنسان، وعُقْدة نفسية تجاه ما أكرمه الله به من المزايا والخصائص، وحكى عن ابليس قوله مخاطباً الذات العلية، وهو يتحرّق غيظاً وكمداً من أجل تكريم الله للإنسان: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الآية: ٦٢]. وفي بداية هذا الربع تولى كتاب الله الإعلان عن حقيقة «تكريم الإنسان» بأصرح وأفصح وأقوى بيان، فكان هذا الإعلان الإلٓهي تحدياً صارخاً لإبليس وحزبه من طغاة بني الإنسان، الذين استبدوا به واستعبدوه قروناً طوالاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾.

وتكريم الله للإنسان يتجلّى في الهيئة الحسنة التي خلقه عليها، وفي الاستعدادات والملَكات التي جهّزه بها، وفي النواميس الطبيعية والقُوَى الكونية التي مكّنه من استخدامها، وفي المشتهَيات واللذائذ التي وضعها على مائدته ليتناول منها، كما يتجلّى تكريمُ الله للإنسان في امداده بالرسالات الإلٰهية المتوالية، للاهتداء بها إلى سعادته الدنيوية والأخروية، إذ أن تكريم الله للإنسان يضاعف مسؤوليته أمام الله، ويفرض عليه الاستجابة لدعوة الله، وإسلامَ وجهه إلى الله، وابتغاءَه في حركاته وسكناته مرضاةَ الله، وبذلك يقيم الإنسان الدليل على أنه أهل للتكريم، وجدير بما ادَّخره له الحق سبحانه وتعالى من النعيم المقيم، أما إذا لم يستعمل الإنسان ما أكرمه الله به من الملكات والاستعدادات الاستعمالَ اللائق، فلم يميِّز الخير من الشر، ولا الهدى من الضلال، ولا الحق من الباطل، فإنه لا يستحق تكريماً ولا تفضيلاً، وبعد أن كان في أحسن تقويم يُصبح أسفل سافلين مهاناً ذليلاً، وهذا هو السر في التعقيب على آية التكريم للإنسان بما يفيد اطلاقها، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ، فَمَنْ اوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.
قال القاضي عبد الجبار في كتابه ـ تنزيه القرآن عن المطاعن ـ «ومن ذَهَل عن تمييز الخير والشر في الدنيا فهو بأن يَذهَل عن

ذلك في الآخرة أُولى، وليس المراد اثبات «العَمَى» في الحقيقة، بل هو ترغيب في التمسك بالطاعة».

والمراد «بالإمام» هنا في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ إما كتابُ أعمالهم، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يسٓ : ١٢] وبه قال ابن عباس ورجحه ابن كثير، وإما كتابُهم الذي أنزل على نبيهم، وبه قال ابن زيد واختاره ابن جرير، ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠]. والمراد (بالفَتِيل) هنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ الخيط المستطيل في شَقّ النَّواة من التَّمْر، مبالغةً في معاملتهم بالعدل إلى أقصى الحدود، بحيث لا يُنقَص من ثوابهم ولو أقلُّ القليل.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن عصمة الله لرسوله، والألطاف التي حفَّه بها رغماً عن مساومات المشركين، وتثبيته له على الوقوف في وجه كل المحاولات التي حاولوها لتثبيطه عن النهوض بالدعوة وتبليغ الرسالة، وفي هذا السياق نفسه أشار كتاب الله إلى العقاب الإلّهي الصارم الذي يُعاقِب به كل من تخلى عن الله، وركَن إلى أعداء الله، تحذيراً للدعاة إلى الله في هذه الأمة المحمدية من التنازل عن دعوتهم والتفريط فيها، عملاً بآراء فائلة، أو مقابل مصالح زائلة، فقال تعالى مخاطباً لنبيه، وعن طريقه خاطب كل وارث من وَرَثته من بعده: ﴿ وَإِن كَادُواْ

لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً، وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾، والمراد «بِضْعف الحياة» العذابُ المعجل في الدنيا، و «بِضْعْف الممات» العذابُ المؤخر إلى الآخرة، أي لأذقناك عذاباً ضِعفاً في الحياة، وعذاباً ضِعفاً في الممات، و «الضِّعف» بمعنى المُضاعَف، ومنه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ [الاعراف: ٣٨].

ثم أشار كتاب الله إلى تبرُّم المشركين في مكة بِمُقام رسول الله بين أظهرهم، ولا سيما بعد أن أُسقِط في أيديهم وفشلوا فشلاً ذريعاً في استدراجه إلى مهادنتهم، الأمر الذي جعلهم يفكرون جدِّياً في اتخاذ قرار بنفيه من مسقط رأسه، لكن الله تعالى عصم رسوله منهم فأوحى إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة، وحالت الهجرة دون أن يخرج مشروعُهم من حيِّز التفكير إلى حيِّز التنفيذ، والحكمة في ذلك والله أعلم أن الله تعالى كان قد قدَّر في سابق علمه وأزله أنهم مهما طال عليهم الأمد فهم لَا بُدَّ من الشِّرْك خارجون، وفي دين الله داخلون فصرَفهم الحق سبحانه وتعالى عن إخراج الرسول من أرضه، حفاظاً عليهم إلى اليوم الموعود، يوم فتح مكة المشهود، إذ لو أخرجوه فعلاً لعاقبهم الله على جريمتهم الشنعاء، بالإبادة والفناء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً، سُنَّةَ مَن

قَدَ اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾.

وفي هذا الخِضَمِّ من الصراع بين الحق والباطل وجَّه الحق سبحانه وتعالى إلى نبيه عدة وصايا وتوجيهات، حتى يمضي في طريقه قُدُماً إلى الأمام، دون أدنى تردد ولا إحجام، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ اَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً، وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً، وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰناً نَّصِيراً، وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ، إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾. وفي هذا الخطاب دعوة من الله لنبيه أن يستعين بإقامة الصلاة على تبليغ الرسالة، وأن يستعين بالدعاء الصالح على أداء الأمانة، ملتزماً الصدق في الدعوة إلى الله حيثما حل وارتحل، سائلاً من الله النصرة والتأييد، لدينه الحق الذي هو دين التوحيد. قال قتادة في تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰناً نَّصِيراً ﴾: «إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمةٌ من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضُهم على بعض، فأكل قويُّهم ضعيفهم». وجاء في الأثر ـ أن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لَا يَزَعُ بالقرآن ـ أي يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع عنه كثيرٌ من الناس، بمجرد موعظة القرآن.

وذهب الإمام مالك إلى أن هذه الآية الكريمة: ﴿ اَقِمِ

الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ تتضمن الإشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس زيادة على ما ثبت في شأنها من السنَّة النبوية المتواترة، الفعلية والقولية، وبناء على هذا التفسير يكون قوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ متناولاً لصلاتي الظهر والعصر، بناء على أن «دلوك الشمس» هو ميلها، وله أول وهو الزوال، وآخِر وهو الغروب، ويكون قوله تعالى: ﴿غَسَقِ الَّيْلِ﴾ متناولاً لصلاتي المغرب والعشاء، بناء على أن «غَسَق الليل» هو ظلمته (ولها ابتداء وانتهاء)، فابتداؤها عند دخول الليل، وانتهاؤها عند غيبوبة الشفق، ويكون قوله تعالى: ﴿قُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ متناولاً لصلاة الصبح. و(الفَجْر) يعني سَيلان الضوء وجَريان النور في الأفق، من فَجَر الماء وفَجَّره إذا أنْبطَه وفتح له طريقاً للسَيلان والجَرَيان. واكتفى بعض المفسرين في تحديد مواقيت الصلاة بما تواتر في شأنها من السنَّة، من فعل النبي ﷺ وقوله، وقصَر هذه الآية من أولها إلى آخرها على موضوع واحد هو «قيام الليل» الذي فرضه الله على رسوله دون أمته، فكان ﷺ يقوم الليل حتى تَرِمَ قدَماه، وكان ذلك من جملة خصائصه، وفسّر «دلوك الشمس» بغروبها فقط، تبعاً لعبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وعلي بن أبي طالب، وطبقاً لهذاالتفسير تكون الآية متعلقة بالتهجُّد النبوي لا غير. ومعنى «التهجد» ترك الهُجُود وهو النوم، للقيام بمناجاة الله والخَلْوة بذكره في هدوء الليل ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي بالقرآن الكريم ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي زيادة لك خاصة بك دون بقية الناس ﴿عَسَىٰ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ أي افعل ما أمرك به ربك ليقيمك يوم القيامة مقاماً

محموداً تحمدك فيه الخلائق، «فعسى» في هذا السياق تستوجب وقوع ما بعدها، ولا تحتمل الشك مطلقاً.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الذكر الحكيم، فبيَّن أنه هو مِحْوَر الرسالة وعليه المَدار، وتحدَّى بمعجزته الخالدة جميع المتشككين من ملاحدة ومشركين وكفار:

ووضح أولاً أن القرآن الكريم «شفاء» لمن استشفى به من الشاكين، والقَلِقين المحتارين، و«رحمة» لمن احتمى بحماه من المظلومين، والبؤساء المحرومين، وأنه يَحُدُّ من طغيان الظالمين، ويُعرّضهم في الدنيا قبل الآخرة للخسران المبين، إذ قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾.

وأكد ثانياً أن الإنسان إذا لم تخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان، ولم يشفِ نفسه دواءُ القرآن، فإن مقاييسه تكون معتلة، وموازينه مختلة، بحيث إذا مسَّه الخير أصابه الكِبْر والطغيان، وإذا مسَّه الشر أصابه اليأس والهوان، إذ قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ﴾. ثم عقب على الحالتين الناشئتين عن سلوك هاتين الطريقتين المختلفتين، فقال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ أي كل واحد يعمل حسب الطريقة التي تُشاكِل عقيدته، وتلائم نفسيته، ﴿ فَرَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً ﴾.

وكَشَفَ كتابُ الله الستار ـ ثالثاً ـ عن طبيعة القرآن، المميِّزة له عن كل كلام سواه، وأنه رُوحٌ من أمر الله، أوحاه إلى رسوله

ليحييَ الناس ويزكيَهم، وليعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنَ اَمْرِ رَبِّي ﴾ أي أن القرآن من وحي الله وكلامه، لاَ مِن كلام البشر ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿ إِلَّا قَلِيلاً، وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً، اِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾.

وتفسير «الرُّوح» في هذه الآية بالقرآن كما أوردناه وارد عن الحسن البصري رضي الله عنه، ويشهد له قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلاَ الاِيمَٰنُ، وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. على أن التفسير الشائع عند الجمهور أن المراد بالروح هنا الروح السارية في الأحياء، وأنها مما استأثر الله بعلمه، قال أبو بكر (ابن العربي): «الرُّوح خَلْقٌ من خلق الله تعالى إذا أراد العبد إنكارها لم يَقدِر، لظهور آثارها، وإذا أراد معرفتها وهي بين جنبيه لم يستطع، لأنه قَصَر عنها، وقُصِر به دونها»، وقال النَّسَفي: «والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاوِر له، ليدُل على أنه عن إدراك خالقه أعْجز».

وتحدَّى كتاب الله ـ رابعاً ـ جميع المتشككين في معجزة القرآن، على تعاقب الأزمان، إذ قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الاِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَّاتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ـ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾.

الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)﴾

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلَ-امِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُومِنُوٓاْ إِنَّ ٱلذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلَاذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلَاذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ۩ قُلُ ادْعُواْ ٱللَّهَ أَوُ ادْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ
ٱلَاسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلذِے لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٌ فِے ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلذِے أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُومِنِينَ ٱلذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمُۥٓ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ ٱلذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِأٓبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنَ اَفْوَٰهِهِمُۥٓ إِن يَقُولُونَ
إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمُۥٓ إِن لَّمْ يُومِنُواْ
بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلَارْضِ زِينَةً لَّهَا

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا
مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا
آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا
عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ
أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ
بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾

الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الاسراء المكية: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمُ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الكهف المكية أيضاً: ﴿ وَإِذِ اعْتَـزَلْتُمُوهُمْ وَمَـا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّءْ لَكُم مِّنَ اَمْرِكُم مِّرْفِقاً ﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الكرَّة على منكري البعث، ليقيم عليهم حجة أخرى لا تَدَع لعنادهم سبيلاً، فقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ إذ ما هي نسبة الإنسان إلى بقية الأكوان؟

وبديهي أنّ من قدر على خلق «ما هو أكبر» لا يعجز عن خلق «ما هو أصغر»، ومن أنشأ «النشأة الأولى» لا يعجز عن أن ينشىء «النشأة الثانية»، على غرار قوله تعالى في آية أخـرى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله

تعالى في آية ثانية: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ أَوَ لَيْسَ الذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يسٓ: ٨١].

وانتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة كونية، والكشف عن حكمة إلّهية، في شأن ما احتفظ به من خزائن الأرزاق، وما وضعه بين أيدي الناس من وسائل الإنفاق، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّوَ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ، خَشْيَةَ الإِنفَاقِ ﴾. ثم تحدث كتاب الله عن ميل الإنسان إلى التقتير على أخيه الإنسان، فقال: ﴿ وَكَانَ الإِنسَٰنُ قَتُوراً ﴾، ومثل هذا المعنى وارد في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَّا يُؤتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ [النساء: ٥٣] وحتى لا يستبد إنسان بإنسان، فيصبح ضحية البؤس والحرمان، أبقى الحقُّ سبحانه وتعالى خزائن رحمته بيده، ولم يَبخل منها على أي إنسان بمدده ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ، هَٰؤُلَآءِ وَهَٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾.

وبيّن كتاب الله في ثنايا هذه الآية نفسها أن ما طُبِع عليه الإنسانُ من الهَلَع والجَزَع، والخوف من سوء العاقبة وهول المصير، هو الذي يدفعه إلى الإمساك وعدم الإنفاق والشح والتقتير، وأحسنُ ما يفسر قوله تعالى هنا في وصف الإنسان بوجه عام: ﴿ وَكَانَ الإِنسَٰنُ قَتُوراً ﴾ قولُه تعالى في آيات أخرى: ﴿ إِنَّ

الإنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْـرُ مَنُـوعـاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الَّـذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَـلَاتِهِمْ دَآئِمُـونَ ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣] فهؤلاء بفضل التربية الدينية التي هـذَّبت نفوسهم، ووصَلت بـالله أرواحَهم، يجودون بالنفس والمال، ولا يتأخرون عن وجوه البِر بأي حال.

وتحـدث كتاب الله مـرة أخرى في سـورة الاسراء هـذه ـ والاسراء كما هو معلوم كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ـ عن قصة موسى وفرعون، وعلاقة بني إسرائيل بتلك القصة، وأشار إلى «الآيات التسع» وهي المعجزات والنُّذُر التي شاهدها فرعون وقومه، فضاقوا بها ذرعاً، دون أن يُذعِنوا لها فيعترفوا بنبوة موسى ويستجيبوا لدعوته، وإلى ذلـك يشير قـوله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ ﴾، وهـذه الآيات التسع الواردة هنا جاءت الإشارة إليها مرة ثانية في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ، فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ ﴾ [الآية: ١٢]، وفصَّلها كتاب الله في سورة الأعراف، فذكر الأولى والثانية منها في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُـعْبَـانٌ مُّـبِيـنٌ، وَنَـزَعَ يَـدَهُ فَـإِذَا هِيَ بَـيْضَـآءُ لِـلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [الآيتان: ١٠٧، ١٠٨]، وذكر الثالثة والـرابعة منهـا في قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الآية: ١٣٠]، وذكر الخمس البـاقية لتمـام الآيات التسع في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ [الآية: ١٣٣].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي قلنا لموسى: اطلُبْ من فرعون أن يُرسِل معك بني إسرائيل ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ أي قلنا له ذلك حين جاءهم ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴾ ـ ﴿ قَالَ ﴾ أي قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يشير إلى الآيات التسع ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ أي أنزلها حججاً دالة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ أي هالكاً، وكأنَّ موسى أراد أن يقول لفرعون: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مثبوراً ﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي فرعون ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ﴾ [الآية: ١٠٣].

وقولُه تعالى هنا في هذا السياق خطاباً لبني إسرائيل: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ يظهر أن له ارتباطاً وثيقاً وشبهاً كبيراً بما سبق في أول هذه السورة نفسها، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي الْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾، ثم فسر كتابُ الله في نفس السياق المرة الأولى بقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا ﴾ [الآية: ٥]، وفسر المرة الثانية بعدها في نفس السياق بقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [الآية: ٧]. وهكذا يكون لفظ (الآخرة) في الموضعين معاً هنا وهناك بمعنى المرة الثانية، ويكون معنى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي المرة

الثانية، لا بمعنى القيامة والدار الآخرة كما فسرها البعض هنا بالخصوص. وكلمة (لفيفاً) الواردة في قوله تعالى هنا: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ يراد بها في اللغة الجماعات المنتمية إلى أصول مختلفة، والأخلاط من الناس، وهذا المعنى أصبح لاصقاً باليهود منذ حَلَّ بهم عهد الجلاء، وتفرقوا في البلاد للابتلاء.

وانتقلت الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن معجزة القرآن، فتحدثت أولاً عن طابَع القرآن وفحواه، ثم بيَّنت الحكمة في نزوله منجَّماً على دفعات، لا دفعة واحدة، وأخيراً وصفت وقعَه في نفوس المومنين، الذين اطلعوا على البشارة به في كتبهم قبل نزوله، فلما أدركوا نزوله تحققوا بوعد الله، وآمنوا به إيماناً لاَ يَرقَى إليه أدنى شك:

فإلى المعنى الأول يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ أي أنزلناه متضمناً لِلْحق، إنشاءً وأخباراً، أمراً ونهياً، بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل، ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ فهو خالص من الشوائب، معصوم من التبديل والتغيير، والزيادة والنقص، ويؤكد هذا المعنى قولُه تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ، لَّا يَاتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [الآيتان: ٤١، ٤٢].

وإلى المعنى الثاني يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴾، ولفظ (فرقناه) قرىء بتخفيف الراء، فيكون معناه: فَرَقنا فيه الحق من الباطل، وميَّزنا أحدهما عن الآخر، حتى لا يختلط على أحد الهُدى

بالضلال، وقرىء بتشديد الراء، فيكون معناه: أنزلناه متفرقاً آية آية، ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي على تُؤَدة ومَهْل، وقد استمر نزوله مدة ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لطريقة التدرج، بالنسبة لعملية التحول والتطور التي يتوخاها الإسلام، حتى يتمكن الرسول والمومنون شيئاً فشيئاً من حفظ مبانيه، واستيعاب معانيه، وحتى يكيِّفوا حياتهم الخاصة والعامة مرحلة فمرحلة، بمقتضى أوامره ونواهيه، وبمرور الأيام يتعمقون في فهم جزئياته وكلياته، ويلمُّون بأسباب نزوله وملابَساته، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الآية: ٣٢].

وإلى المعنى الثالث يشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَـآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً، وَيَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾، وهـذه الآية تصف فئة صالحة من أتباع المسيحية واليهودية عاشت إلى أن أدركت الإسلام، فسارعت إلى الدخول في دين الله، اعتماداً على ما تناقلته من البشارة برسول الله، وحَسُن إسلامُها، فكانت تَخِرُّ على وجهها خاشعة باكية كلما تُلِيَ عليها القرآن، وتسبِّح لله الذي صدقَها وعدَه، وأنعم عليها بنعمة الإيمان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ خطابٌ من الله تعالى للرسول والمومنين يتضمن وصف الكيفية المستحسنة للقراءة أثناء الصلاة، عندما يكون المصلي في حالة جهر. جاء عن محمد بن سيرين أنه قال: «نُبِّئْتُ

أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ يَخفِض صوته، وأن عمر كان إذا صلى فقرأ يرفَع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أناجي ربي عز وجل، وقد علم حاجتي، وأنا أُسمِع من أناجي. وقيل لعمر: لِمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أطردُ الشيطان، وأوقظ الوَسْنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقيل لعمر: اخفض قليلاً». وعلى هذا التفسير يكون لفظ (الصلاة) هُنَا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ مقصوداً به القراءة فيها، كما أُطلق لفظ (القرآن) وقُصِد به نفسُ الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ﴾ أي صلاة الفجر، ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾.

وكما ازدانت فاتحة سورة الاسراء بتسبيح الله وتمجيده، تُوِّجت خاتمتُها بحمد الله وتوحيده، فقال تعالى في ختامها خطاباً لنبيه وتلقيناً للمومنين: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾، قال النَّسَفي في تفسيره: «كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلامُ من بني عبد المطلب علَّمه هذه الآية، وكان يسميها (آية العِزّ)».

والآن فلننتقل بعون الله إلى سورة الكهف المكية أيضاً، وإنما عرفت هذه السورة باسم «سورة الكهف» أخذاً من كلمة (الكهف) الواردة في الآيات التالية: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ - ﴿ إِذَ اَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ - ﴿ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ - ﴿تَّزَّاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ - ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ﴾

[الآيات: ٩، ١٠، ١٦، ١٧، ٢٥].

وأصحاب الكهف الذين وردت قصتهم في مطلع هذه السورة هم مجموعة من الشباب الصالح اعتنقوا الإيمان بالله ديناً، والاستقامة سلوكاً، والثبات طريقاً، وفارقوا الأهل والعشيرة في سبيل الحفاظ على عقيدتهم التي كانت عندهم أعزَّ من كل عزيز، وأحسنُ وصف ورد في شأنهم هو قول الله تعالى في هذه السورة عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً ﴾ [الآيتان: ١٣، ١٤].

وفي بداية هذه السورة امتنان من الله على عباده المومنين، بنزول الكتاب المبين، وتلقين لهم كيف يُثنون عليه ويحمدونه، شكراً له على نعمة إنزال القرآن، الذي هو دستور الإسلام وميثاق الإيمان، فقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً، قَيِّماً ﴾. وقوله ﴿ قَيِّماً ﴾ أي مستقيماً، راجع إلى الكتاب، فهو في المعنى مقدَّم، وإن كان في اللفظ مؤخراً، والمعنى المقصود من الآية: ـ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ قَيِّماً، وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً ـ وتأخير المقدَّم وتقديم المؤخَّر في الذكر أحياناً أمر متعارف في اللسان العربي، والمراد «بنفي العوج» عن القرآن في هذه الآية نفي الاختلاف والتناقض والتعارض عن مبانيه ومعانيه، وإثبات الاستقامة والحكمة والصواب لجميع أحكامه ومراميه.

ويجوز أن يكون قوله تعالى هنا: ﴿ قَيِّماً ﴾ بمعنى أنه

مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة، ومهيمن عليها، على حد قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [الآية: ٤٨]، وطبقاً لهذا التفسير يكون لفظ (قَيِّماً) مشتقاً من (قام) للأمر إذا تولاه، أو (قام) على أهله إذا تولى أمرهم، ومنه (القيِّم) على المحجور، أي الذي يتولى أمره، و(قيِّم القوم) أي الذي يقوم بشأنهم ويسُوسُ أمرهم، ولا شك أن كتاب الله قيِّم على غيره من الكتب السابقة واللاحقة.

وتحدث كتاب الله عن رسالة القرآن، وأنها بِشارة ونِذارة لعموم الإنسان، كما تحدث عن «زينة الأرض» التي هي اختبار لميوله وامتحان، فقال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [الآية: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، فمَن أحسن العملَ كانت له الحُسْنى وزيادة، ومن أساء الاستعمال كان من أهل الشقاوة لا من أهل السعادة.

الربع الثاني من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ

وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟
عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً
ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا
رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟
تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ
وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن

كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ
فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ
وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

الربع الثاني من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَّوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ، ذَٰلِكَ مِنَ ـ ايَٰتِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَاراً اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِيسَ الشَّرَابُ، وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾.

في هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن «الفِتْيَة» الذين اهتدوا وآمنوا واعتزلوا قومهم وما يعبدونه من دون الله، فآووا إلى أحد الكهوف الخالية، فارّين بدينهم من الفتنة والأذى، وبعد أن وصف كتاب الله في الربع الماضي ما كانوا عليه من إيمان راسخ بالله، واستنكار بالغ لمعتقدات الشرك والوثنية التي كان عليها قومهم ﴿ هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَاتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ، فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ جاءت آيات هذا الربع توضح عناصر جديدة، من هذه القصة الفريدة:

ـ العنصر الأول يتعلق بنومهم في الكهف على صورة جعلتهم عبرة للمعتبرين عَبْر القرون والأجيال، فقد شاءت حكمة الله أن تبقى أعينهم مُفتّحة لا تنطبق أجفانها طيلة نومهم الطويل، وأن تتقلب جنوبهم كما يتقلب الأحياء، حتى لا تبقى جنوبهم على وضع واحد فيصيب أجسامهم البِلَى والتلف، ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾. وشاءت حكمة الله أن يستقر كَلْبُهم على مدخل الكهف، باسطاً ذراعيه، على هيئة أيّ كلب حيّ يقوم بالحراسة العادية أمام منزل صاحبه ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي بالفِناء أو بالعَتبة، وشاءت حكمة الله أن تمر الشمس بكهفهم مر الكرام، فلا تسلط أشعتها القوية على جثثهم الهامدة، لا عند الشروق ولا عند الغروب، وذلك حتى لا يلحقها أي تغيير ولا تلَف ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي تتنحى عنه وتميل ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي تمر بشمال الكهف، مائلة عنهم، وشاءت حكمة الله أن يكون نومهم في مكان متسع من الكهف، حتى تبقى جثثهم معرضة للهواء الطلق ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ، ذَٰلِكَ مِنَ ـ ءَايَٰتِ اللَّهِ ﴾.

ـ العنصر الثاني يتعلق ببعثهم من مرقدهم بعد مرور عدة قرون على اعتزالهم في الكهف ونومهم الطويل فيه، فقد شاءت حكمة الله أن يوقظهم ويبعثهم ليروا بأنفسهم غلبة الحق على الباطل، وهزيمة الشرك أمام التوحيد، ولتقوم لهم الحجة على أن الحق الذي آمنوا به هو الذي ظهر وانتصر في مدينتهم وبين

قومهم، وأن العاقبة للمتقين مهما طال الأمر، وبمجرد ما بعثهم الله أخذوا يتساءلون فيما بينهم عن المدة التي قضوها في الكهف، وانقسموا في تقديرها إلى فريقين، وعندما لم يهتدوا إلى جواب حاسم في الموضوع وَكَلوا أمر ذلك إلى علم الله، ونظراً لإحساسهم بالجوع المفرط فقد فكروا في أن يبعثوا أحدهم بما كان قد بقي معهم من النقود إلى المدينة التي اعتزلوها من قبل، ليشتري لهم منها طعاماً طيباً يسدُّون به الرمق، لكنهم أشاروا على مبعوثهم في نفس الوقت أن يَحْذَر ما أمكن من سكان المدينة حتى لا يشعر به أحد، ظناً منهم أن مدينتهم التي اعتزلوها من أجْل الشرك لا تزال على ما فارقوها عليه، وأن أهلها لا يزالون متمسكين بعبادة الأصنام، وخوفاً من أن أهلها إذا عرفوهم قتلوهم رجماً بالحجارة، أو أكرهوهم على العودة إلى معتقداتهم الباطلة بدلاً من عقيدة التوحيد، وفي ذلك الخسران المبين، وإلى هذا العنصر الثاني يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي وكما أنمناهم تلك النومة الطويلة أيقظناهم، فأخذ بعضهم يسأل بعضاً عما صنع الله بهم: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ، وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً، إِنَّهُمْ إِنْ يَّظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذاً أَبَداً ﴾. وسبق في الربع الماضي قوله تعالى مشيراً إلى هذا العنصر، وهو بعثهم من مرقدهم، إذ قال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ﴾ أي ضربنا على آذانهم حجاباً من النوم

العميق لا يسمعون معه أيَّ صوت ولا صدى لأقل حركة ﴿ سِنِينَ عَدَداً، ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ ﴾ أي أيقظناهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَداً ﴾ أي ليتبين أيُّ الفريقين أعرفُ بالمدة التي قضوها في الكهف وهم نائمون، و«التلطف» حسن التخلق، وجميل الترفق.

ـ العنصر الثالث يتعلق بعثور الأجيال التالية على أجسادهم محفوظةً من كل تغيير، وذلك بعد مرور مدة طويلة على بعثهم من مَرْقَدهم، فقد شاءت حكمة الله أن يُمكِّن الأجيال التالية من العثور على أجسادهم، ليتأكد الذين عثروا عليهم من أن البعث الذي وعدهم الله به حق وصدق، نظراً لأن حال أهل الكهف في نومهم الطويل، ثم انتباههم منه بعد عدة قرون، شبيه كل الشَّبَه بحال من يموت ثم يبعث. وبمناسبة العثور عليهم افترق الناس في أمرهم، واقترح فريق أن يُبنَى على باب كهفهم مبنى أثري تذكاري، بينما اقترح فريق آخر أن يُبنَى على مدخل كهفهم مسجد خاص لعبادة الله، وهذا الإقتراح الثاني هو الذي رجحت كفته، وإلى هذا العنصر الثالث يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أطلعنا عليهم مَن بعدهم من الناس ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ ﴾ أي ليعلم الذين عثروا عليهم ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ، إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰناً، رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾.

ـ العنصر الرابع يتعلق بعدد أصحاب الكهف، ودون

الإستناد إلى سَنَد صحيح وُجِد من قال: إنهم ثلاثـة، وكلبهم الحارس لهم هو الرابع، ووُجِد من قال: إنهم خمسة، وكلبهم هو السادس، ووُجِد من قال: إنهم سبعة، وكلبهم هو الثامن، وكتاب الله يَكِل علم عددهم الحقيقي في النهاية إلى علاّم الغيوب، وإن كان لا يَنفِي أن يُعرِّف بعضَ الأصفياء من خلقه بعددهم على وجه التحقيق، وبهذه المناسبة يحضُّ كتاب الله نبيه الأمين، وعن طريقه كافة المومنين، على الاكتفاء بما ورد عنهم في كتاب الله، وعدم المماراة في شأنهم، وينهاه عن استفتاء أهل الكتاب في أمرهم، وإلى هذا العنصر الرابع يشير قوله تعالى هنا: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم، مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِراً، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾.

ـ العنصر الخامس يتعلق بعدد السنين التي مرَّت على أصحاب الكهف وهم رُقود قبل أن يبعثهم الله من مرقدهم، ويتعرَّفوا على ما آل إليه أمر مدينتهم من الصلاح بعد الفساد، والإيمان بعد الشرك، وفي هذا الصدد نجد كتاب الله في الربع الماضي لا يحدد أيّ عدد مخصوص، بل يقول: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾، ونجد كتاب الله في هذا الربع يصف حيرة أصحاب الكهف أنفسِهم بعد أن بعثهم الله من مرقدهم، وعدمَ اتفاقهم على مدة محدودة لبقائهم داخل الكهف، ويتحدثُ عن تسليمهم الأمرَ في تحديدها إلى علم الله فيقول:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾. ثم نجد كتاب الله في هذا الربع أيضاً يشير إلى مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولعل هذا التحديد مما كانت تتداوله بعض الألسنة، ولا سيما بين أهل الكتاب، لكنّ كتاب الله يعقّب على هذا العدد نفسه، بعد ذكره مباشرة، بما يفيد أن الله وحده هو الذي يعلم مدة مكثهم بالكهف على وجه التحديد، وأنه سبحانه هو المنفرد بعلم الغيب دون سواه، وفي هذا التعقيب إشارة واضحة إلى أن العدد الوارد من قبل ليس هو العدد الحقيقي الذي يتفق مع الواقع، وإنما أتى به كتابُ الله على سبيل الحكاية المجردة، لا على سبيل التأكيد والتصديق والإثبات القاطع، وكما رَدَّ كتاب الله العلم بعدة أصحاب الكهف أنفسهم إلى الله وحده رَدَّ العلم بعدة السنين التي قضوها في الكهف إلى الله وحده دون سواه، وإلى العدد المذكور يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعاً ﴾، ثم يستدرك عليه قائلاً: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ، لَهُ غَيْبُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ، مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ، وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾. ويؤيد هذا التفسير الذي اخترناه ما ذهب إليه قتادة ومطرف بن عبد الله من أن العدد المشار إليه هنا هو قول أهل الكتاب، وأن الله تعالى رد قولهم بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ [الآية: ٢٦].

ـ العنصر السادس يتعلق بما ألقى اللَّهُ على أجسادهم من المهابة والجلال، حتى يَحُولَ بينهم وبين كل متطفل يحاول أن

يمُدَّ اليد إليهم، بما لا يتفق مع حكمة الله ومراده، وحتى يبقَوْا بمَنْجَاة من عبث العابثين، إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وتتحقق العبرة من قصة نومهم ويقظتهم، التي لها شبَه قوي بموت الموتى وبعثهم، وإلى هذا العنصر السادس يشير قوله تعالى، مخاطباً لكل من يتخيل نفسه واقفاً أمامهم في كهفهم، فيحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾.

وتخللت قصةَ أهل الكهف التي هي مِحْوَر التدبر والاعتبار في هذا الربع جملةٌ من الآيات الكريمة، تؤكد عدداً من مبادىء الإسلام القويمة، وتوجيهاته السليمة.

ـ منها أن من انتفع بالهُدَى الإلٓهي كالهُدَى الذي تضمنه كتاب الله دخل في زمرة المهتدين، ومن أعرض عنه ولم ينتفع به بقي في عداد الضالين، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾، ويندرج تحت هذه الآية أصحاب الكهف أنفسهم ،الذين سبق أن وصفهم كتاب الله قائلاً: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ـ امَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾.

ـ ومنها أنّ مَن عزم على فعل أمر من الأمور لا بد أن يربط قوله ويعلق فعله على مشيئة الله، لأنه لا يستغني في أية لحظة من اللحظات عن استمداد العون والتوفيق من الله، وهذا الموقف يجعله في أمن مِن أن يكون كاذباً، لأن تعليق كلامه بالمشيئة يخرجه عن أن يكون خبراً قاطعاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ اِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً، اِلَّا أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ ﴾.

- ومنها أن من تعرض للخطأ والنسيان فأخطأه التوفيق والتسديد، عليه أن يتدارك ما فاته بالتماس الهداية من ربه من جديد، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً ﴾، أي عسى أن يهديني لشيء آخر أنفع وأقوم من الأول.

- ومنها أن من تحمَّل مسؤولية الدعوة إلى الله يجب عليه أن لا يتخلى عنها، وأن يواصلها دون انقطاع، وأن يُؤثِر بها من عندهم حرصٌ كبير على تلقيها، واستعدادٌ خاص لقبولها، وأن يُسقِط من حسابه في هذا المجال الاعتبارات الجانبية والمظاهر المادية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ، وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجأ آخر تلجأ إليه ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾.

وخُتِمت آيات هذا الربع بالدعوة إلى وجوب الثبات على الحق والتمسك به دون هَوادة ولا لين، في وجه الغافلين والمتنطعين، واتّباع الأهواء الظالمين، فقال تعالى خطاباً لنبيه، وعن طريقه لجميع وَرَثته وحَمَلة الدعوة الإسلامية من بعده: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ أي مجاوزاً للحق ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ، وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا
خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ
جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ

خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ

رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ
لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ
رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾.

في الربع الماضي أوصى كتاب الله رسولَه وورثتَه من حَمَلة الدعوة الإسلامية بأن يُؤثِروا بعنايتهم مَن عندهم حرص على تلقي الدعوة، واستعداد لقبولها، وأن لا يُعِيروا أي اهتمام للاعتبارات الجانبية والمظاهر المادية، إذ قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾، وانسياقاً مع نفس المبدأ، وسيراً في نفس الاتجاه جاء في حصة هذا اليوم قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ [الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾ [الآية: ٤٥].

ـ أما المَثَل الأول الذي جاء في هذا الربع فقد تضمنت

آيـاته االبيِّنـات محاورة بين رجلين، أحدهما مومن بالله وباليوم الآخر، شاكرٌ لأنعمه، قانع بمـا أعطاه مـولاه، وثانيهمـا متمرد على الله، كافرٌ بأنعمه وباليوم الآخر، لا حد لمطامعه وما يتمناه، وكل منهما ينطق لسانه في هذه المحاورة بما يُوضِّح اتجـاهه ومنحاه.

والظاهر من سياق هذه الآيات وما بين السطور أن الرجلين كان يملك كل منهما مزرعـة منسقة من المـزارع الفيحاء، ذات الحدائق الغنَّاء، التي يُضرَب بها المثـل، في المياه الجـارية، والأشجار الباسقة، والثمار الشهية، ثم اضطر أحدهما للتخلي عن مزرعته، فباعها للآخر، بُغْية الوفاء بالتزامات كـانت في ذمته، وهكذا آلت إحدى المزرعتين إلى الثاني، فأصبحت المزرعتان معاً «جنة واحدة» في مِلكـه، بينما الآخـر أصبـح لا يملك شيئـاً ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَـا جَنَّتَيْنِ مِنَ اَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتُ اكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً، وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهراً، وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ ﴾، غير أن الثاني الذي اتسعت دائرة ملكه زاده ذلك طغياناً وعدوانـاً، فأخذ يتبجح على رفيقه بسعة المال وكثرة الولد، واطمأن إلى أن مزرعته الكبرى أصبحت في مأمن من جميع الجوائـح، وأعلن شكَّه في قيام الساعة نفسها، ثم عقَّب على شكه بأنه حتى على فرض قيام الساعة سيكون محظوظاً في الآخرة كما هو محظوظ في الدنيا، كأنه مفروض على الله أن يُملِي له باستمرار، ناسياً قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾، وإلى هذا الموقف يشير

قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهُمَا مُنقَلَباً ﴾، وحيث إن هذا الشخص وأمثاله من الكافرين بنعمة الله، والمكذبين بلقائه، لا يُنتظرُ أن يكون له نصيب في «جنة الخلد» قال كتاب الله في شأنه «ودخل جنته»، أي دخل جنته التي في دنياه، إشارةً إلى أن المزرعة الكبرى التي يتبجح بها ويتكبر هي جنته الأولى والأخيرة ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

لكنَّ صاحبه لم يلبث أن رد عليه قوله، مستنكراً ما فاه به من عبارات كلُّها كفر بالله، وتطاوُل على الله، واعتماد كليّ على المال والولد، مذكّراً إياه بقدرة الله التي يسَّرت له أسباب الرخاء والازدهار، وبقوة الله التي بيدها تصريف مَجاري الأقدار، بحيث لا يصعب عليها تحويل الموقع الخصب إلى موقع جدب، ولا تحويل مجرى الماء عن المكان الذي فيه الزرع، إلى مكـان سحيق لا زرع فيه ولا نبات، فتنقلب المزرعة الفيحاء إلى أرض بَلْقَع هي عبارة عن خلاء وعَراء، وإلى هذا الجواب الذي يعتبر في مثل هذا الباب، هو فصل الخطاب، يشير قوله تعالى هنا: ﴿ قَالَ لَهُ صَـٰحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيٰكَ رَجُلاً، لَّـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف بأنه هو الله ربي ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَداً، وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، إِن

تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً، فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ أي صاعقة أو عذاباً من السماء ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ أي أرضاً ملساء لا ينبت فيها نبات، ولا يثبُت عليها قدم ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً ﴾ أي غائراً وغائباً في أعماق الأرض ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أي لن تستطيع الحصول عليه ولا على غيره بدلاً منه، لأن الماء «الغائر» يَطلُب أسفلَ الأرض، على عكس الماء «المَعين» الذي يطلبُ وجهَ الأرض.

وقوله تعالى هنا ﴿ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ قال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف، فالتقت نونان، فجاء التشديد لذلك، وفي قراءة أُبيّ ﴿ لَّٰكِن أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾.

ومضت الآيات الكريمة في استعراض ما آل إليه أمر المزرعتين، مبيِّنةً أن ما توقعه الرجل المومن لهما، وما تنبأ به لصاحبهما عن مصيرهما ـ نظراً لكفره وعدم شكره، وغروره وكِبْره ـ لم يلبث أن أصبح هو الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، إذ المومن ينظر بنور الله، وحينئذٍ نَدِم صاحبُهما على كفره دون أن ينفعه الندم، وذاق من مرارة الخيبة والإفلاس أشد الألم، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ ﴾ أي هلَك كل ما كان في مزرعته من الثمار، يقال: أحاط به العدو إذا أهلكه ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي يضرب إحداهما على الأخرى ندَماً وتحسُّراً ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ أي من مال وجُهد ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي

أَحداً، وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لم يجد من يدفع عنه عذاب الله، ولم ينفعه ما كان يفتخر به على صاحبه من المال والولد ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴾.

وفي أعقاب هذه المحاورة وما تضمنته من مواقف تدعو إلى التأمل والاعتبار أكد كتاب الله أن الملجأ الوحيد الذي ينبغي الإلتجاء إليه، والركن الركين الذي ينبغي الإعتماد عليه، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والدنيا والآخرة، هو الحق سبحانه وتعالى، فهو ولي من والاه، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فقال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَـٰيَةُ لِلهِ الْحَقِّ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقُباً ﴾ فعاقبة من آمن به وتوكل عليه عاقبة خير ونصر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ الْكَـٰفِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]. و «الولاية» بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر الحكم والملك، وقال أبو عبيد: «الولاية بفتح الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق» وكلمة (الحق) هنا بخفض القاف نعت لله عز وجل، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الانعام: ٦٢].

ـ وأما المَثَل الثاني الذي ورد في هذا الربع فهو يتضمن تشبيه حال الدنيا في نضارتها وبهجتها وما يعتورها من هلاك وفناء ـ بالنسبة لحياة كل فرد في حد ذاته، وبالنسبة لحياة النوع البشري على العموم ـ بحال النبات الذي يستمد غذاءه من الماء، فينمو ويترعرع، ويصبح أخضر يانعاً تعلوه الأزهار، وتزيِّنه الثمار، ثم يميل نجمُه إلى الأفول، ويَحُلُّ به اليبس والذبول، وهذا

المعنى هو الذي يتضمنه قوله تعالى هنا: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا كَمَآءٍ اَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً ﴾ أي يابساً ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ﴾ أي تنسِفه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ أي مقتدراً على الخلق والإنشاء، كما هو مقتدر على الإبادة والإفناء، والقصدُ من ضرب هذا المثل هو الحض على العمل الصالح الذي ينفع في الدارين معاً.

وإزالةً لكل لبس فيما يخص موقف الإسلام من الإستمتاع بالطيِّبات، وتناول ما هو مشروع من الملذَّات، عقَّب كتاب الله على هذا المثل مباشرة، فقال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ اَمَلًا ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة ءال عمران: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالاَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ، ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَـَٔابِ ﴾ [الآية: ١٤]. وبذلك أكد الإسلام قيمة المال والولد بالنسبة لحياة الأفراد، وما ينال حياتهم من كمال بوجودهما، ومن نقص بفقدهما، منبِّهاً في نفس الوقت إلى أن اهتمام الأفراد يجب أن يتجه إلى الجانب الأنفع والأدْوَم والأبقى من الإثنين، كإيقاف الصدقة الجارية التي لا ينقطع نفعها بعد الموت، وكتربية الولد الصالح الذي يواصل سيرة والده الصالحة، فيجلب له الدعاء والثناء، بحيث لا يقتصر من آتاه الله المال والولد على الانتفاع بهما انتفاعاً أنانياً وشخصياً

محدوداً، خالياً من نفع الغير، ناسياً حقوق الله وحقوق الخلق، وقد قال عليه السلام: «نِعْم المال الصالح للرجل الصالح». فالمذموم إذن ليس هو كسب المال ولا إنجاب الولد، وإنما هو تسخيرهما لما ليس فيه رضا الله، ولما لا منفعة فيه لعيال الله، قال القرطبي في تفسيره: «وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا».

أما ﴿الْبَـٰقِيَـٰتُ الصَّـٰلِحَـٰتُ﴾ فمن جملة ما روى في تفسيرها قول ابن عباس رضي الله عنه: «أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة»، وإلى مثل هذا القول ذهب عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إذ قال: «هي الأعمال الصالحة كلها»، واختاره ابن جرير الطبري، وقال القرطبي: «إنه هو الصحيح إن شاء الله، لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا». وهكذا تندرج في «الباقيات الصالحات» وتُكوِّن جزءاً منها نفس الصلوات الخمس، والأذكار المأثور فضلها، وهي «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» مما خرجه مالك في الموطأ والنسائي والترمذي وابن ماجة في السنن. ويشهد لتفسير (الباقيات الصالحات) بالمعنى العام الذي أوردناه قوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية»، فهذه الأمور الثلاثة كلها بمقتضى الحديث الشريف «صالحات باقيات»، لأنها أعمال خير تبقى ثمرتها

للإنسان، ولا تنقطع بالموت، ويصدق عليها أنها (خير ثواباً وخير أملاً ﴾، وقد أعاد كتاب الله الحديث عن الباقيات الصالحات في سورة مريم، فقال تعالى: ﴿ وَالْبَـٰقِيَـٰتُ الصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [الآية: ٧٦].

وكما أنهى كتاب الله الربع الماضي بوصف الجزاء الذي يلقاه الكافرون في جهنم إذ قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَاراً اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ وختمه بقوله: ﴿ بِيسَ الشَّرَابُ، وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ خصص بداية هذا الربع لوصف الجزاء الذي يلقاه المومنون في الجنة، فقال: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ اَحْسَنَ عَمَلاً ﴾، وختم وصف جزائهم بقوله: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾.

وفي نهاية هذا الربع ركّز كتاب الله الحديث حول قيام الساعة وما يرافقها من أهوال وأحوال، بما فيها النشر والحشر والعرض والحساب، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْاَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي قاعاً صفصفاً وسطحاً مستوياً، فلا بنيان ولا شجر، ولا جبل ولا وادي، وإنما هو الانقلاب الشامل، ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ ﴾ أي قبل تسيير الجبال، ليشاهدوا تلك الأهوال ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمُ أَحَداً، وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً ﴾ أي يعرضون صفاً وراء صف، دون اختلاط ولا اختلال، أمة تتلوها أمة، وزمرة تتلوها زمرة، كما فسر ذلك مقاتل، فمن أُعلِن أنه من أهل الخير كان سروره بمعرفة الناس بحاله أعظم، لوقوف الخلائق على حقيقة أمره، ومن أعلن أنه من أهل الشر كان غمُّه بمعرفة الناس

بحاله أعظم، لوقوف الخلائق على جَليّة سره، ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ أي قلنا لهم ذلك ﴿ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي فرادى عُراة حُفاة لا مال معكم ولا ولد، على غرار قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الآية: ٩٤]، وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَيـٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَرْداً ﴾ [الآية: ٩٥]. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قال: «يُحشَر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا» أي غير مختونين.

وقولُه تعالى: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث من المشركين والملحدين ومن على شاكلتهم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَـٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ المراد «بالكتاب» كتاب الأعمال وسجِلّ الحساب الخاص بها، والمراد «بالإشفاق» الفزَع والجزَع الذي يصيب المجرمين من جرَّاء الجرائم المسجلة عليهم ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَا لِ هَـٰذَا الْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي من المعاصي ﴿ إِلَّآ أَحْصَيـٰهَا ﴾، وهذه الآية دليل على أن المرء يؤاخذ بالصغائر والكبائر، الصغائر إذا أصر عليها، والكبائر إذا لم يتب منها.

وقولُه تعالى: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ أي وجدوا احصاء ما عملوا وجزاءه حاضراً، على غرار قوله تعالى في سورة

ءال عمران: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً، وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ أي لا يعذب أحداً بغير جُرم، ولا يؤاخذ أحداً بجُرم آخر، كما أنه سبحانه لا ينقُص طائعاً من ثوابه، ولا يزيد عاصياً في عقابه، وبمثل هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فُصِّلت: ٤٦].

الربع الأخير من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ

سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟
هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ
لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ
لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟
وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ
حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا
نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى
ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

الربع الأخير من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةَۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكُراً ﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الحديث عن تتويج آدم وبنيه بتاج الخلافة عن الله في الأرض، للقيام بعمارتها، وتنظيم شؤونها، طبقاً للتوجيهات الإلٓهية، والنواميس الأخلاقية، وأشار إلى تكبر إبليس وعناده، وتمرده على أمر الله وانتقاده، فقال تعالى: ﴿ وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾، وبذلك كشف كتاب الله النقاب عن طبيعة إبليس، وأنه على خلاف ما يتوهمه المتوهمون لا يدخل في عداد الملائكة المقربين، الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وإنما هو من فصيلة «الجن» التي يوجد فيها المومن والكافر، والبَرُّ والفاجر، وكون إبليس من الجن لا من الملائكة هو الذي يوضح مغزى

المفاضلة، التي عقدها إبليس نفسُه بين شخصه وبين آدم أبي البشر، إذ قال فيما حكى عنه كتاب الله في سورة الأعراف وسورة صٓ: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [١٢، ٧٦].

والمعروف أن الملائكة خلقوا من نور، بينما الجن خلقوا من نار، والإنس خلقوا من طين، وبهذا البيان يتضح لجميع الأذهان أن الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر (إبليس) مستثنى من (الملائكة) إنما ورد ذكره فيها على معنى «الاستثناء المنقطع» الذي يعتبر فيه «ما بعد إلا» خارجاً عما ورد قبلها لا داخلاً فيه، وأنه لا سبيل إلى حمله على «الاستثناء المتصل» لتخالف الأصلين، وتباين الطبيعتين، قال تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الآية: ٢٧]، وقال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الآية: ١٥].

ثم لفت كتاب الله أنظار بني آدم إلى العداوة المتأصلة بينهم وبين إبليس وذريته، وأن هذه العداوة الراسخة والدائمة التي يُكِنُّها إبليس لآدم وذريته كافية لأن تجعلهم على حذَر من موالاته ومتابعته، فكيف يعادون ربهم، ويوالون عدوهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ، بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾. وقد حذر كتاب الله في غير ما سورة وغير ما آية بني الإنسان، من مطاوعة الشيطان، ومواجهة خالقهم ورازقهم بالتمرد والعصيان، لِمَا في ذلك من سوء العاقبة ومنتهى الخسران،

فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوّاً ﴾ [الآية: ٦]، وقال تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الآية: ١٤٢].

وأشار كتاب الله إلى عناصر السوء التي أضلَّت الناس عَبْر القرون والأجيال، وفي طليعتها إبليس وجنوده من شياطين الإنس والجن، وطواغيت الشرك والكفر، بما فيهم سَدَنة الأصنام، وعَبَدة الأوثان، وأدعياء العلم والقوة، المتطاولون على الله في مختلف العصور والأزمان، مؤكداً أن هذه العناصر كلها لا تتوفر على علم صحيح تَكْتَنِه به حقائق الأشياء، حتى ينخدع بها الأغرار، ولا على قوة ذاتية تتصرف بها في الكون، حتى ينخدع بها الأغمار، فالله تعالى قد تفرَّد بخلق المخلوقات وتكوين الأكوان بفضل حكمته، وبمحض مشيئته، دون أن يُشرِك معه أحداً في تصميمها وخلقها، ولا أن يستعين بأحد في تدبير أمورها وتسييرها، وبذلك انفرد سبحانه بإيجادها وإمدادها، كما انفرد سبحانه بعلم حقيقتها والإحاطة بكنهها، فهو وحده الذي بيده مقاليدُ التصرف في الكون، وهو وحده مصدر العلم الحق، ومنبع الحقيقة المطلقة، عن الكون والمكوّن، وعن الخلق والخالق: ﴿ وَلَا يُحِيطُـونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَـا شَآءَ، وَسِـعَ كُـرْسِيُّـهُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَـظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهذه المعاني المفصَّلة هي التي تضمنها بصفة مجملة قوله تعالى هنا: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُـداً ﴾. ووصفُ «المضلين» الوارد في هذه الآية، والمعبَّر به عن العناصر التي

تقوم بتضليل الخلق والتغرير بهم يناسبه ما حكاه كتاب الله على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

ثم وصف كتاب الله موقف المشركين الحرج يوم القيامة، ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، عندما يأمر الله أتباع أولئك الشركاء أن ينادوهم ليشفعوا فيهم، ثم يدعونهم فعلاً فلا يستجيبون لهم، بل يتجاهلونهم بالمرة، كأنهم لا يعرفونهم، أو كأن بينهم عداوة متأصلة من قديم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾، قال الحسن البصري: «موبقاً أي عداوة» وقال ابن الأعرابي: «كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق».

ومضى كتاب الله يصف الخيبة التي يُمنَى بها الأتباع الضالون عندما تنتهي أحلامهم، ويتبرأ منهم سادتهم الذين أضلُّوهم، وكما وصفهم كتاب الله في الربع الماضي بوصف «المجرمين» إذ قال في حقهم: ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ وصفهم في هذا الربع أيضاً بوصف «المجرمين» بعد أن وصفهم في الآية السابقة بوصف «المضلِّين»، فقال تعالى: ﴿ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي أنهم بعدما رأوا النار التي كانوا في شك من وجودها أصبحوا يتوقعون دخولها، فانتقلوا من درجة الشك إلى درجة الظن، غير أن الظن، أمام الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، لم يلبث أن انقلب إلى يقين، إذ

لا سبيل لنجاتهم من النار، بعدما سبق أن وجهه إليهم الحقُّ سبحانه وتعالى من انذار واعذار: ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾.
وبما يقرب من المعنى الوارد في هذا السياق جاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَٰبُ ﴾ [الآية: ١٦٦]، وقولُه تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَمَا نَرىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰؤُاْ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الآية: ٩٤].

وانتقل كتاب الله إلى بيان أن الحق سبحانه وتعالى لم يترك وسيلة من وسائل إقناع الإنسان وهدايته إلى الحق والخير، ومساعدته على الاختيار المحمود، إلا وضمَّنها آيات الذكر الحكيم، وبالرغم من كل ذلك لا يزال يوجد من بين الناس من يُصرّ على إنكار الحق والتمسك بالباطل، إما عناداً وجحوداً، وإما تقليداً وجموداً، منبِّهاً في نفس الوقت إلى جهل هذا الفريق من الناس بحكمة الله، وعدم شكرهم لرحمة الله، إذ لا يَعجِز الحقُّ سبحانه وتعالى أن يسلط عليهم عذاباً يستأصلهم من الوجود، أو يعاقبَهم بعذاب عاجل سريع، بدلاً من أن يؤجل عقابهم إلى اليوم الموعود، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، وَكَانَ الاِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُومِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمُ إِلآَّ أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ الاَوَّلِينَ أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً ﴾ أي أنهم علَّقوا تصديقهم بالرسالة على برهان مادي محسوس يؤكد عقاب من لم يومن بها في الحين،

كأن يحُل بساحتهم ما حل بمن قبلهم من الأقوام البائدة، مثل عاد وثمود، من إبادة واستئصال، أو يحُل بساحتهم عذاب سريع على وجه الاستعجال، لكن الله تعالى رد عليهم تحديهم المحموم فقال: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي أن رسالة الرسل لا تتجاوز البشارة للمصدقين المومنين، والنذارة للمكذبين الكافرين، وليس من اختصاص الرسل أن يقرروا بمحض إرادتهم عذاباً معيّناً، أو يستعجلوا العذاب قبل وقته، لمن لم يومن بالله، فأمر العقاب والثواب موكول تقريره وتحديد نوعه إلى الله، دون سواه.

وتوضيحاً لحكمة الله ورحمته في الانفراد بهذا التدبير، وما يؤول إليه المصير، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، لَوْ يُوَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّنْ يَّجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أي لا مَحِيصَ عنه ولا مفر.

ثم عقّب كتاب الله على ذلك بما يفيد أن أظلم الظالمين لأنفسهم وللحقيقة، هم أولئك المتعنتون الذين أتيحت لهم فرص الاهتداء إلى الحق، لكنهم فضَّلوا الإعراض عنها، وبدلاً من أن يعيدوا النظر في أحوالهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم على ضوء الهَدْى الإلهي أصروا على ضلالهم، ولم يغيِّروا من حالهم، فأقفلوا على أنفسهم جميع الأبواب، ولم يبقَ أيّ أمل ولا رجاء في هدايتهم بآيات ربهم المنزلة في الكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ أَكِنَّةً اَنْ يَّفْقَهُوهُ وَفِيَ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً، وَإِن تَدْعُهُمُ

إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوٓاْ إِذاً أَبَداً ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن رحلة موسى من مقر إقامته إلى مَجْمَع البحرين، وبرفقته فتاه، للقاء عبد من عباد الله آتاه الله من لَدُنْه علماً لم يُؤته موسى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَيٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ ـ ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾.

واستغرق وصف هذه القصة القسم الثاني من هذا الربع، والقسم الأول من الربع الآتي، وهذه القصة توحي بعدة أمور:

ـ الأمر الأول ـ أن الله رفع العلماء بعضهم فوق بعض درجات ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا ينبغي لأيّ عالم أن يعتقد أن عنده منتهى العلم، أو جميع أنواع العلم، وكما أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، فإنه يفيض من علمه على شخص ما لا يفيضه على آخر، ولا ينبغي لأي عالم أن يَقْنع بما عنده من العلم دون أن يطلب المزيد دائماً: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾، بل عليه أن ينتهز جميع الفرص والمناسبات، لتلقي أطيب النفحات ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾.

ـ الأمر الثاني ـ أن العالِم بالرغم من كونه عالماً لا بد له من أن يلتزم منتهى الأدب مع من هو أعلم منه، وأن لا يعترض على الطريقة التي يختارها معلمه لتعليمه: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً، وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْراً، قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي

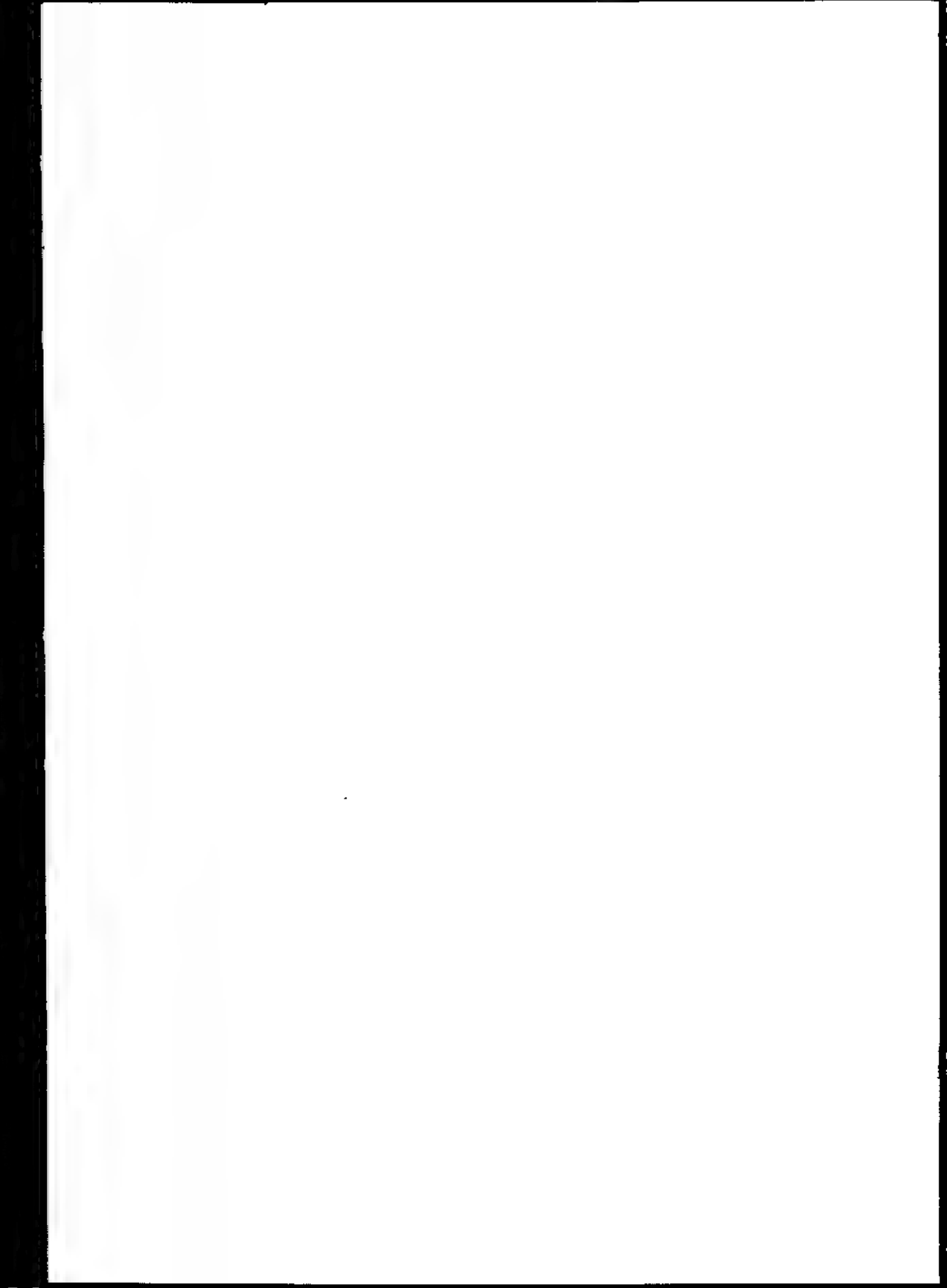
عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾.

ـ الأمر الثالث ـ أن العالم ينبغي له أن يتخطَّى بنظره حدود المظاهر والظواهر، ويتطلع قبل كل شيء إلى حِكَم الأشياء وأسرارها، ويتعرف على مقاصدها وأهدافها، ويُلِمّ بظروف النوازل وملاَبساتها، وبذلك يتحاشى إصدار الأحكام، التي لا تناسب المقام، وإلا أدّى به الحال إلى الوقوع في الغلط، وارتكاب الشطط ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنَ أَمْرِي عُسْراً ﴾.

ـ الأمر الرابع ـ أن المستزيد من العلم ينبغي له أن يتأنَّى ولا يستعجل من هو أعلم منه، فلا يلحّ عليه بكثرة السؤال، لأن ذلك يؤدي به إلى المضايقة والإملال، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ ـ ﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾. روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله موسى لَوَدِدنا أنه صبر، حتى يقُصّ الله علينا من خبرهما». وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذَمامة، ولو صبَر لرأى العجب». و«الذَّمَامة» بفتح الذال هي الحياء والإشفاق من الذم واللوم، وبهذه التوجيهات والإشارات يربينا الذكر الحكيم على السلوك القويم.



التيسير
في
أحاديث التفسير



التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الرابع





الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ

لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي
ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ
عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ
وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ
مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سُدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ٱئْتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ
قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكًّا وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ الذِينَ كَانَتَ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾.

في بداية هذا الربع يلقي كتاب الله الأضواء على معلم حكيم كان معاصراً لموسى عليه السلام، فعقد الرحلة إليه موسى ليتلقى عنه ما آتاه الله من العلم. ويكشف كتاب الله النقاب عن «تأويل» تصرفاته التي أثارت دهشة موسى حيناً، واستنكاره حيناً آخر.

ففيما يخص السفينة التي خرقها وقلع لوحاً من ألواحها في غفلة عن أنظار ركّابها أثناء ركوب موسى معه على ظهرها يقول: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَاخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾.

وفيما يخص الغلام الذي ضرب رأسه بحجر حتى دمغه فقتله وموسى بجانبه، دون أن يشعر بذلك أحد من المارة، يقول:

﴿ وَأَمَّا الْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰناً وَكُفْراً، فَأَرَدْنَآ أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾.

وفيما يخص الجدار المائل الذي كان على وشك الانقضاض فسوّاه فاستقام، دون أن يتقاضى عليه أجراً، رغماً عن إلحاح موسى، يقول: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحاً، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

ثم يعقّب على ذلك كله بما يدفع كل اعتراض على أعماله، أو انتقاد لتصرفاته فيقول: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنَ اَمْرِي ﴾،وهذا التعقيب يؤكد ما وصفه به كتاب الله في مطلع هذه القصة إذ قال تعالى في شأنه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾. إذن، فكل ما فعله إنما فعله بوحيٍ من الله وعن أمره، ويحضر للذهن هنا قول إسماعيل الذبيح لأبيه إبراهيم الخليل فيما حكاه الله في قصته ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُومَرُ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ومن لطائف التفسير المتناقل في هذه الآيات،ما نقله القرطبي من أنها كانت حجة على موسى لا له. ذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودِيَ: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟ إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِذَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحىٰ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾، [طه: ٣٨ - ٣٩] وقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ [القصص: ٧].

ولما أنكر القضاء على الغلام نودِيَ: يا موسى أين إنكارك هذا من وكزك المصري وقضائك عليه؟ إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغَٰثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥].

ولما أنكر إقامة ميل الجدار دون اقتضاء أجر نودِيَ: يا موسى أين هذا من رفعك حجر البئر لما وردت ماء مدين وسقيك للبنتين دون أجر؟ إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ، قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥].

ومن المفيد في هذا المقام القضاء على بعض الشبه والأوهام، ذلك أن الاعتراضات التي اعترض بها موسى على تصرفات صاحبه إنما لم يكن لها قبول، لأن تصرفات صاحبه صدرت على مقتضى ما أُوحِيَ إليه من عند الله، ولم تصدر منه عن رأيه الخاص ومحض هواه، ولذلك لم يُعَدَّ عملُه خروجاً على شريعة موسى عليه السلام، وأقرَّه موسى في النهاية على تأويله وفارقه بسلام، اقتناعاً منه بقوله دفاعاً عن نفسه: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ

أَمْرِي، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾.

لكن في حالة ما إذا أكمل الله دينه، وانقطع الوحي الإلٰهي بالمرة، وختمت الرسالة إلى الأبد، كما هو الحال بالنسبة للرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات، إذ لا نبي بعد نبيِّنا ولا رسول، فإنه لا يقبل من أحد من المسلمين مهما كانت درجته في العلم والصلاح والولاية أيُّ قول أو فعل مخالف لنصوص الوحي الثابتة في كتاب الله وسنَّة رسوله، فنصوص الشريعة حاكمة على ما سواها، ومهيمنة على ما عداها، وكل ما يصدر عن الناس من الأقوال والأفعال لا بد أن يوزن بميزانها، فما وافقها كان مقبولاً، وما خالفها كان مرفوضاً، ومن هنا كان كل ما يَخْرِم قاعدة شرعية أو حكماً شرعياً ليس بحق في نفسه، بل هو إما خيال أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان، حسبما نص عليه الشاطبي في (الموافقات)، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة أخرى سأل أهلُ الكتاب عنها رسول الله ﷺ، هي قصة شخص يُطلق عليه لقب «ذي القرنين»، كما سألوه من قبل عن قصة أهل الكهف التي ورد ذكرها سابقاً في هذه السورة نفسها، وكما سألوه أيضاً عن ماهية الروح حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومقصودهم من هذه الأسئلة وما ماثلها هو تعجيز النبي ﷺ وتحديه، لأنهم يعرفون أنه «النبي الأمّي» الذي

خاطبه ربه قائلاً: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الإِيمَٰنُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] وهم ينتظرون بفارغ الصبر أن يعجز عن الجواب، أو يجيب عن سؤالهم جواباً غير مطابق للصواب، ليتخذوا من ذلك ذريعة للطعن في رسالته، وإبطال نبوّته، لكن الله تعالى يأخذ بيده، ويمدّه بمدده، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ، قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾.

غير أن لقب «ذي القرنين» الذي يظهر أنه لقب مشترك بين عدة أشخاص لم يطلقه كتاب الله على الاسكندر المقدوني، اليوناني الأصل، والوثني العقيدة، الذي هو أحد من اشتهروا بهذا اللقب، بل هو شخص آخر تحدث كتاب الله عما آتاه من نصر وتمكين، حتى امتد نفوذه من المغرب إلى المشرق، ونصّت الآيات الكريمة على إيمانه بالله واليوم الآخر، وعلى قيامه بواجبات الخلافة عن الله في الأرض أحسن قيام، بدليل ما ورد في سياق قصته حكاية عنه ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾، وبدليل امتنان الله عليه وتنويهه بشأنه، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾، والتمكين والتوفيق، إنما ينالهما عباده الصالحون، وبدليل تفويض الله إليه أن يختار من أساليب الحكم ما يراه مناسباً لمصلحة المحكومين واستعدادهم، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾، وهذه الصفات في مجموعها لا تنطبق على الاسكندر المقدوني بحال، ولا

يدعيها له أحد من مؤرخي الدول الذين تعاقبوا عبر الأجيال.

والآن فلننظر إلى ما يتخلل هذه القصة من مغزى عميق، أو معنى دقيق، فقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ بعد قوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى أن التمكين في الأرض، أيّ أرض كانت، واستقرار السلطان فيها، إنما يتم عند توافر الأسباب والعوامل الضرورية له، ويُفهم من هذا أنه متى اختل سبب من تلك الأسباب، أو عامل من تلك العوامل، وقع من الخلل بحسبه، وعلى قدر أهميته، وعلى رأس تلك الأسباب والعوامل: الإيمان بالله، وإقامة العدل بين الناس، ومقاومة الفساد وردع المفسدين، وهذه الأسباب والعوامل كلها توفَّرَتْ في ذي القرنين، طبقاً لما حكاه كتاب الله في قصته.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى ما تراءى لذي القرنين عند غروب الشمس كأنها تغرب في عين، وهذه العين (حَمِئة) داكنة اللون، لما تجمَّع حولها وأحاط بها من الطين والأعشاب، على غرار ما يتراءى لراكب السفينة في البحر، أو الواقف على شاطئه، من أن الشمس تغرب في الماء وراء الأفق، بينما هي في الحقيقة إنما تغيب عن مكان لتشرق على مكان آخر، وهي لا تفارق فَلَكها الخاص.

وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً، وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَىٰ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنَ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ إشارة

إلى السياسة العادلة التي سار عليها ذو القرنين في حكمه، مما مكَّن له في الأرض، وجعله موضع الرضا عند الله، والثناء في كتاب الله. وهذه السياسة كما رسمتها الآية الكريمة تقوم على تشجيع العمل الصالح، ومعاملة أهله بمزيد من الرعاية والعناية، وعلى مكافحة العمل الفاسد، ومواجهة المفسدين بالعقاب الرادع في الدنيا، مع الوعيد بالعذاب الأليم في الآخرة ﴿ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي عذاباً غير معروف ولا يخطر على قلب بشر.

وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ يحتمل احتمالين: إما أنه عندما توغّل في أقصى الشرق اكتشف قوماً «بدائيين» لا يزالون عراة الأجسام، بحيث لا يسترهم من الشمس أي شيء، وإما أنه اكتشف قوماً منبوذين بالعراء، يعيشون فوق أراضي جرداء، لا ديار لهم ولا أشجار، ولا كهوف عندهم ولا أغوار، وبذلك لم يكن بينهم وبين قيظ الشمس وحرِّها أي ستار، مثل الصحارى الشاسعة، والسهوب الواسعة.

وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الآية :٩٢، ٩٣] إشارة إلى الحالة التي وجد عليها ذو القرنين شعباً متخلِّفاً معرَّضاً لعدوان شعب أقوى منه بجواره، يدعى «ياجوج وماجوج»، فلما اطمأن الشعب المتخلِّف الضعيف إلى عدل ذي القرنين، وشاهد حرصه على الصلاح ومقاومته للفساد، التمس منه أن يقيم بينه وبين جيرانه المعتدين، سداً يحميه من

غاراتهم المتكررة ما بين الحين والحين ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سُدًّا ﴾.

ولم يسع ذا القرنين إلا أن يبادر إلى نصرة الشعب الضعيف وينزل على رغبته، فقال لرجاله: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أي قِطَع الحديد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ، حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ ءَاتُونِيَ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي نحاساً، وهذا الوصف الذي حكاه كتاب الله يفيد أن ذا القرنين أعانهم على ردم الممر الذي كان يُغير منه «ياجوج وماجوج»، فكوَّم فيه قطع الحديد، ثم أمرهم بالنفخ على النار لتسخين الحديد وإذابته، ثم أفرغ على الحديد المذاب نحاساً مذاباً ليختلط به فيزداد صلابة وقوة، وهذه الطريقة التي لجأ إليها ذو القرنين ووصفها كتاب الله أقرَّت بفائدتها الصناعة الحديثة، إذ أخذت تضيف نسبة معيَّنة من النحاس إلى الحديد، حتى تُضاعف مقاومته وصلابته، ولهذا المعنى جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْطَـٰعُوٓاْ أَنْ يَّظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَـٰعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ أي فلم يستطع أبناء «ياجوج وماجوج» بعد ذلك أن يتسوروا السد المحكم الذي أقامه ذو القرنين، نظراً لملاسته، ولم يستطيعوا نقبه للإغارة منه على الشعب المجاور، نظراً لصلابته، وهكذا تحوَّل الشعب المهدد بالغارات إلى شعب يعيش في بحبوحة الأمن والاطمئنان، وأكبرَ أبناؤه ما أسداه إليهم ذو القرنين من عظيم الإحسان، لكن لما أعربوا عن شكرهم وامتنانهم بادر ذو القرنين إلى التبرّي من حوله

وقوته، ونبّههم بدلاً من ذلك إلى شكر الله على فضله ورحمته، ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾.

ثم عقّب ذو القرنين على إقامة السد بما يفيد أنه لا بد أن يأتي وقت يُدك فيه السد دكاً، إشارة منه إلى قيام الساعة، عندما تُخرِج الأرض أثقالها وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات فقال فيما حكى عنه كتاب الله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين
في المصحف الكريم

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ
إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ
أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى
لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟
لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ

وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ونهايته قوله تعالى في سورة مريم المكية أيضاً ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً ﴾.

تواجهنا في القسم الأول من هذا الربع خاتمة سورة الكهف، وفي هذه الخاتمة يستنكر كتاب الله من جديد موقف المشركين الذي يتخذون من عباده أولياء، يوالونهم ويعبدونهم من دون الله، فيجعلونهم محلَ الخوف والرجاء، ويعتقدون أن بيدهم المنع والعطاء، ناسين أن العابد والمعبود في هذه الحالة سِيّان، إذ في العجز والضعف، والافتقار إلى الله خالق الخلق ورازقهم، لا يفترق إنسان عن إنسان، وإقبال العاجز الفقير على عبادة عاجز فقير مثله نوع من خَوَر الرأي، وضرب من العبودية والهوان ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾؟.

وتحدث كتاب الله عن العاملين الذين يتقبَّل الله أعمالهم،

والعاملين الذين يُحبِط أعمالهم فلا يقيم لها أي وزن، منبِّهاً إلى أن نعمة القبول إنما يحظى بها الذين «آمنوا وعملوا الصالحات». فلا بد من أن يكون الإيمان بالله واليوم الآخر هو الحافز إلى العمل والدافع إليه، ولا بد من أن يكون العمل صالحاً في نفسه، بحيث تتحقق به مصلحة، ويؤدي إلى صلاح، أما الأعمال التي لا تنبثق عن الإيمان بالله، أو تؤدي إلى الفساد في الأرض، دون أن يتحقق بها أي خير أو صلاح فلا عبرة بها، ولا قيمة لها يوم الحساب، ولا يشفع في عمل الكافر أن يكون ظاهره خيراً ومصلحة، لأنه فاقد لروح العمل، التي هي الإيمان بالله وبلقائه، ونيةُ التقرب إليه بالعمل، والثقةُ بحسن جزائه.

وإلى الأخسرين أعمالاً يشير قوله تعالى هنا: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴾، ثم فسّر معنى الأخسرين أعمالاً فقال: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ أي عملوا أعمالاً على غير هدى، ظانِّين أنهم على شيء، وأن أعمالهم منظور إليها بعين الرضا والقبول ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَزْناً ﴾ أي فلا وزن لهم عندنا يومئذ ولا اعتبار ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِي وَرُسُلِي هُزُؤاً ﴾، قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، وهو يحسب أنه مصيب فيها، ويظن أن عمله مقبول وهو مردود».

وكما نص كتاب الله في هذه الآية على إحباط أعمال

الكافرين، لأنها مجرد أشباح، فاقدة لروح الإيمان بالله، وخالية من نيَّة التقرُّب إليه، فقد نص على نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

أما الفائزون الذين لم يضل سعيهم في الحياة الدنيا، وتقبَّل الله أعمالهم في الآخرة، فجازاهم عنها الجزاء الأوفى، فيشير إليهم قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي مقيمين فيها باستمرار لا يتحوَّلون عنها، ولا يبغون بها بديلاً، لأنها غاية الغايات في السعادة والنعيم ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ﴾.

وكما استعمل كتاب الله في الحديث عن مصير السعداء المقبول عملُهم كلمة (نُزُلًا) فقال: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ استعمل نفس اللفظ في الحديث عن مصير الأشقياء المرفوض عملهم فقال: ﴿ اِنَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أي أعددنا ﴿ جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلاً ﴾، إلا أن نزلاء الفردوس لا يبغون عن نزلهم حِوَلاً ولا بدلاً، بينما نزلاء جهنم لو وجدوا السبيل لمفارقتها لما استقروا بها لحظة واحدة، فضلاً عن أن يتخذوها نزلاً ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قدرة الله وتصريفه لمجاري الأقدار الصادرة عن مشيئته، بمقتضى علمه وحكمته،

إيجاداً وإمداداً، منبِّهاً إلى أنه لو أصبح ماء البحر مداداً تُكتب به كلمات الله، الناطقة بأمره وخلقه، والمتعلقة بما كان وما سيكون، وما لو كان كيف يكون، لجفَّ ماء البحر قبل انتهائها، ولعجز عن الوفاء بتسجيلها، إذ البحر ما هو إلا جزء بسيط من أجزاء الكون، والكون على سعته وترامي أطرافه لا يخرج عن أنه عالَم محدود، بينما مجاري الأقدار الإلَهية، والتصرفات الربَّانية، التي ترمز إليها كلمات الله، ويتعلق بها علم الله، لا تقبل الحصر والعد ولا تحدُّها أية حدود، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَـدَداً ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَوَ اَنَّمَا فِي الاَرْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقْلَـٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

وفي هذا السياق الذي أبرز فيه كتاب الله أخص خصائص الألوهية خاطب الحق سبحانه وتعالى رسوله بما يؤكد صفته البشرية وعلمه المحدود، بالرغم من كونه نبيّاً رسولاً، منبِّهاً إلى أنه لا سبيل لرسوله إلى كشف الغيب، إلا بواسطة الوحي الإلَهي الذي يتلقاه عن الله، فمن الوحي يتلقى الأجوبة المفحِمة للمشركين وأهل الكتاب، كلما تحدُّوه بأسئلتهم المحرِجة، كسؤالهم عن أهل الكهف، وسؤالهم عن ذي القرنين، وسؤالهم عن الروح ﴿ قُلِ اِنَّمَآ أَنَآ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ ﴾، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [الآية: ١٠٢]، ثم أجمل مضمون الرسالة

المحمدية في شعارها الجامع المانع شعار التوحيد ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

وكما نوَّهت سورة الكهف في مطلعها بالمومنين الذين يعملون الصالحات وزفَّت إليهم البشرى فقال تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُومِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [الآية: ٢]، أكدت في ختامها بصورة قاطعة أهمية الإيمان بالله والعمل الصالح، مبيِّنة أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة إلى الله، لمن ابتغى قبوله ورضاه ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾.

والآن وقد ختمنا بفضل الله ومعونته سورة الكهف المكية، ننتقل إلى سورة مريم المكية أيضاً، وقد جاءت هذه السورة مفتتحة بالحروف الهجائية المتقطعة على غرار مجموعة السور المفتتحة بمثل هذا النوع من الحروف، وقد بيَّنا عند تفسيرها ما في ذلك من حكمة وإعجاز، وإنما عرفت هذه السورة باسم سورة مريم، لما ورد فيها من قصة مريم بنت عمران وميلاد ابنها عيسى عليهما السلام ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ - ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ ﴾ - ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾. وهذه القصة لا تستغرق سورة مريم بأكملها، كقصة يوسف التي استغرقت سورة يوسف بتمامها، بل إن سورة مريم - علاوة على ما تضمنته من الحديث عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام - تعرَّضت لذكر عدد من الأنبياء والمرسلين، فوصفت أحوالهم، والإرهاصات التي جرت لهم في بداية أمرهم، وذكرت شيئاً من

سيرتهم وأخلاقهم وأقوالهم، وخصَّت بالـذِّكْـر آدم، وإدريس، ونوحاً، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب (ويعرف أيضاً باسم إسرائيل) وموسى، وهارون، وزكرياء، ويحيى، عليهم السلام، وسيأتي في الربع القادم قوله تعالى مُجمِلاً الحديث عن الأنبياء، ومنوِّهاً بشأنهم عموماً، بمناسبة ذكر طائفة منهم في هذه السورة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾.

ويتجلى من سياق هذه السورة على العموم التركيز على وحدة الرسالة الإلٓهية، وإن تعدد حَمَلتُها الذين تلاحقوا عليها جيلاً بعد جيل، والتركيز على مضمون تلك الرسالة، وكونها رسالة تثبت الوحدانية لله، وتنفي عنه الشريك والولد نفياً باتاً، كما تثبت البعث بعد الموت، وتقرر الجزاء الأخروي في الدار الآخرة.

أما بداية «سورة مريم» فقد عُنِيت بالحديث عن زكرياء عليه السلام، الذي أحس عند كبره بحاجته إلى إنجاب ولد صالح يكون خير خلف لخير سلف، فالتجأ إلى الله بالتوسل والدعاء ليَهَب له غلاماً يرث عنه العلم والدين، رغماً عن كون امرأته عاقراً لا ينتظر منها عادة أن تلد، وذلك قوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ، ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآءَ، اِذْ نَادىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِياً، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمَ اَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَّرَآءِي ﴾ أي خاف شرار بني إسرائيل أن يغيّروا من الدين، وأن لا يحسنوا الخلافة بعده

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنَ ءالِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، واستجاب الله دعاء عبده زكرياء فنودي من السماء ﴿ يَٰزَكَرِيَّآءُ انَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي موافقاً له في اسمه، فلم يسبق أن حمل هذا الاسم أحد قبله.

وبعد ميلاد يحيى ناداه ربه ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾، ونوَّه كتاب الله بخصال يحيى وبروره بوالديه، ومقامه الكريم عند ربه، رغماً عن كونه لا يزال صبياً دون البلوغ، فقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي الحكمة والفقه في الدين ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ﴾ أي طهارة وصلاحاً ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا، وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

وعندما أنهى كتاب الله الحديث عن إكرام زكرياء بولده يحيى عليهما السلام، رغماً عن كون امرأته عاقراً، وكونه قد بلغ من الكبر عتيًّا، انتقل فوراً إلى قصة مريم، وتبشير الله لها بميلاد عيسى عليه السلام، وكما جمع كتاب الله هنا في سياق واحد بين هاتين القصتين، لما بينهما من مناسبة ومشابهة، سلك نفس المسلك في سورة آل عمران وسورة الأنبياء، إذ جمع بينهما أيضاً في نفس السياق. على أن قصة مريم أغرب من قصة زكرياء وأعجب، إذ ها هنا يتم الإخصاب والإنجاب في رَحِم امرأة عذراء لم يمسسها بشر، وتحدث كتاب الله عن هذه القصة حديثاً ينفي عن مريم العذراء مزاعم اليهود الخبيثة، التي بلغت الغاية في

اللؤم والتحقير، والقذف والتشهير، كما ينفي عن ابنها عيسى المسيح مزاعم النصارى الطائشة، التي بلغت الغاية في الغلوّ والإطراء، والتطوح مع الشهوات والأهواء، وإلى قصة مريم يشير قوله تعالى هنا خطاباً لخاتم النبيئين: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنَ اَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً، فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا، قَالَتِ اِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰماً زَكِيًّا، قَالَتَ اَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمَ اَكُ بَغِيًّا ﴾، وكما قال الملك لزكرياء عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ قال الملك لمريم عليها السلام نفس الشيء: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا ﴾.

وإلى براءة عيسى من إفك اليهود وافترائهم، وبراءته من غلوّ النصارى وإطرائهم، إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، جاء في كتاب الله بعد الانتهاء من عرض قصته مع أمه قوله تعالى في الربع المقبل: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلُ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين
في المصحف الكريم

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ
لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ

ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ
وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ
بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾
وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾
وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ
مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ
كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ۩

الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين
في المصحف الكريم

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة مريم المكية: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴾.

في القسم الأول من هذا الربع واصل كتاب الله الحديث عن قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، فوصف حالها أثناء الحمل وعند المخاض، وما أصابها من قلق بالغ وحزن عميق، لخروج أمرها عن العادة ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا ﴾ أي بعيداً من أهلها ﴿ فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نِسْياً مَّنسِيًّا ﴾، غير أن الله تعالى هدأ رَوْعها ﴿ فَنَادَيـٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾. المراد بالسري عيسى عليه السلام، وبه قال جماعة من مفسّري السلف، والمنادِي هنا إما المَلَك، وإما ابنها عيسى، واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره، وفي هذا الظرف الدقيق تلقَّت مريم نداءً من السماء بهذا الخطاب الرقيق ﴿ وَهُزِّيَ إِلَيْكِ

بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَّـٰقَطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾.

ثم أشار كتاب الله إلى ما واجهها به الشاكون والمفترون من بني إسرائيل عندما جاءتهم وهي تحمل ولدها عيسى ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا، يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾. غير أن الله تعالى أسعفها بكلام ابنها عيسى، وإن كان لا يزال في المهد، تأكيداً لبراءة أمه وإثباتاً لطهارة عِرْقه، وتعريفاً للشاكين والمفترين بمعجزة الله التي وقعت في ولادته وخلقه ﴿ فَأَشَارَتِ إِلَيْهِ، قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيٰنِيَ الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾، وهذا إخبار عما سيؤول إليه أمره عندما يصبح نبياً ورسولاً، «وإن كان من (الجائز) أن يرسل الله الصغير إلى الخلق كامل العقل والعلم، مؤيداً بالمعجزة، لكن لم يرد بذلك خبر، ولا كان فيمن تقدم» حسبما حققه القاضي أبو بكر (ابن العربي). ثم قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَـٰرَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَـوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾.

وكما نوّه كتاب الله بيحيى إذ قال في حقه من قبل: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ حكى على لسان عيسى عليه السلام أيضاً قوله وهو يتحدث بنعمة الله عليه ﴿ وَالسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

ثم عقّب كتاب الله على ما حكاه في قصة مريم وابنها

عيسى عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ إشارة إلى أن ما يدَّعيه اليهود على مريم العذراء إنما هو زور وبهتان، وإلى أن ما يعتقده النصارى من أن المسيح ابن الله إنما هو مجرد غلو فاحش، وادِّعاء باطل كل البطلان، وإذا كان المسيح يجعل فاتحة كلامه عندما نطق وهو لا يزال في المهد الاعتراف بعبوديته لله، فيقول بصيغة التأكيد ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ فكيف يزعم النصارى أنه إلّه أو ابن إلّه ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ، سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزَّه عن أن يكون له ولد، وإذا كان عيسى ابن مريم قد ولدته أمه دون والد، فتلك معجزة من بين المعجزات المثيرة التي خرق الله بها العوائد ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾، لكن وقوع معجزة كهذه المعجزة لا يقلب الحقائق، ولا يرفع إلى درجة الألوهية أي واحد من الخلائق، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ إشارة إلى ما وقع من اللغط والشطط في شأن عيسى ابن مريم عليهما السلام، منذ ولادته إلى الآن وحتى الآن، بين الفِرَق المتعددة داخل الملَّة المسيحية نفسها من جهة، وبين اليهود والنصارى من جهة أخرى، فلا يزال أمره عند الكثير منهم لغزاً من الألغاز، بينما أمره في الإسلام أوضح من فَلَق الصبح، و«الأحزاب» جمع حزب، وهو عبارة عن الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها، وقد جاء كتاب الله في شأن عيسى وأمه مريم بالقول الفصل، لكن المفترين عليهما، والمسرفين في حقهما، أصروا على عنادهم، واستمروا

في ضلالهم، ومهما طال بهم الأمد فمردهم جميعاً إلى الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ - ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله من قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام إلى قصة إبراهيم عليه السلام وأبيه، واقتصر في هذا السياق على ما دار بين الأب وابنه من محاورة فريدة من نوعها حول عقيدة التوحيد الثابتة، ومعتقد الشرك الباطل، وما تبع ذلك من تهديد أبيه له بالقطيعة والقتل رجماً بالحجارة، وما أنعم الله به عليه من نعمة الذرية الصالحة التي اصطفاها لنبوّته وحمل رسالته من بعده، فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً، يَـٰأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا، يَـٰأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَـٰنَ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴾ أي عاصياً ﴿ يَـٰأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾، ويتجلى في هذا الخطاب الذي خاطب به إبراهيم أباه ما تقوم عليه الدعوة إلى الله من الاستناد إلى العلم، والتزام الحكمة والموعظة الحسنة، والإقناع بالحجة البالغة، والجدال بالتي هي أحسن، وما تختاره لنشرها من أساليب التلطف والتعطف التي يكون لها وقع طيب في القلوب، فها هو إبراهيم يكرر قوله: ﴿ يَـٰأَبَتِ ﴾ أربع مرات في حديثه إلى أبيه، تأليفاً لقلبه، وتطييباً لخاطره، وأخذاً بيده إلى صراط الله السويّ، دون أن يجرح عاطفته، ولا أن يهين كرامته، ثم يحكي كتاب الله

جواب أبيه الذي انطبع بطابع الوثنية والجاهلية، فيبدو جوابه جافياً نابياً، مليئاً بالتهديد والوعيد، خالياً من كل حجة أو دليل، اللهم إلا مجرد التقليد الأعمى والرأي السقيم العليل ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي زمناً طويلاً.

وعندما يسمع إبراهيم رد والده المطبوع بطابع التعسف والعنف، يجيبه بجواب كله أدب ولطف ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي عوّدني اللطف بي وإجابة دعائي.

وبعد أن بلّغ إبراهيم رسالته إلى أبيه وقومه، ووجّه إلى معبوداتهم سهامه النافذة، وزلزل قواعدها من الأساس، فلم تبقَ لها حرمة في النفوس، فارقهم جميعاً، واعتزلهم متبرئاً منهم ومن آلهتهم، فكان أسوة لأصحاب الكهف من بعده الذين اعتزلوا مشركي قومهم وما يعبدونه من دون الله، وإلى هذا الموقف الحاسم يشير قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

وأشار كتاب الله إلى أن هذه الفترة التي اعتزل فيها إبراهيم أباه وقومه، لإصرارهم على الشرك، كانت فترة خير وبركة على إبراهيم وعلى ذريته، فقد وهب الله له أثناءها ولده إسحاق، ثم وهب لابنه إسحاق وهو على قيد الحياة حفيده يعقوب، ثم ضاعف الله إكرامه لخليله إبراهيم فأنعم على ذريته بالنبوة والذكر

الحسن الباقي بين الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ويعقوب هو ولد إسحاق الذي عاش إلى جانب جده إبراهيم ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾، وبذلك تعزَّزت عقيدة التوحيد، وتركَّزت دعوتها الخالدة جيلاً بعد جيل.

ولعل الحكمة في الحديث عن إبراهيم الخليل في كتاب الله عموماً، وفي أمر الرسول بأن يتلو على مشركي قريش ما أنزله الله في كتابه عن إبراهيم ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ هي تذكيرهم بأن إبراهيم الذي ينتسبون إليه، ويقرُّون بأنهم من سلالته وولده لم يكن مشركاً ولا يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، يكره الأوثان والأصنام، ويوجِّه إلى عُبَّادها المغفَّلين أنفذ السهام، ولذلك اعتزل قومه وأباه، وهاجر إلى مكة وبنى فيها البيت الحرام مع ابنه إسماعيل لتوحيد الله، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. ولا يعتنق الشرك إلا من فقد عقله وحسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وأشار كتاب الله إلى اصطفاء موسى للرسالة والجمع له بينها وبين النبوّة، وشدِّ أزره بمعونة أخيه هارون، فقال تعالى منوِّهاً بقدره: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً، وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ أي يناجي ربه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيّاً ﴾. وكانت نبوة هارون إكراماً من الله لموسى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَدْ اوتِيتَ

سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طـه: ٣٦] وهذه الآية نفسها إشارة إلى قول موسى فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنَ أَهْلِي، هَـٰرُون أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي ﴾ [طـه: ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢]، وقوله أيضاً: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُون هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِداً يُصَدِّقُنِيَ ﴾ [القصص: ٣٤] - ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥].

ثم عاد كتاب الله إلى الحديث عن ذرية إبراهيم، فأشار إلى ولده إسماعيل، والد العرب العدنانية، الذي كان له الفضل في إقامة قواعد البيت الحرام مع أبيه، بانفراد وتخصيص، فقال تعالى مثنياً عليه أجلَّ الثناء: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيـٓـاً، وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ، وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾.

وقوله تعالى في حق إسماعيل: ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّئاً ﴾ دليل على مزية إسماعيل وفضله على أخيه إسحاق، فقد جمع الله لإسماعيل بين النبوة والرسالة بمقتضى هذه الآية، بينما كان حظ أخيه إسحاق منحصراً في النبوة لا غير، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق: ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّئاً ﴾ وثبت في صحيح مسلم قوله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» الحديث.

وأخيراً تحدث كتاب الله عن إدريس الذي يقال أنه أول مرسل بعد آدم عليه السلام، فأثنى عليه ونوَّه بقدره إذ قال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّئاً، وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَاناً

عَلِيًّا ﴾. وفي حديث الإسراء الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بإدريس وهو في السماء الرابعة فحيَّاه إدريس بقوله: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح» وقد حمل بعض مفسري السلف قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ على أن المراد به أن إدريس رُفع إلى السماء ولم يمت، على غرار تفسيرهم لقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، وحَمَله آخرون على شرف النبوة والزلفى عند الله.

وبعدما استعرض كتاب الله هذه المجموعة المختارة من الأنبياء والرسل من زكرياء إلى إدريس كنموذج صالح للاقتداء والاتِّباع، منوِّهاً بنصر الله لهم ولدعوتهم، معرِّفاً بقدرهم عنده ومكانتهم، أجمل كتاب الله القول مرة ثانية عن عموم الأنبياء، وأثنى على سلسلتهم الذهبية أعطر ثناء، فقال تعالى مشيراً إلى جنسهم على العموم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ [الآية: ٥٨]، وكأنه يقول لخاتم الأنبياء والمرسلين نفس ما قاله له في آية أخرى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ثم مضى كتاب الله يقول في حقهم جميعاً: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أي أنهم إذا سمعوا كلام الله في كتبه المنزلة، وتدبروا حججه البالغة، خشعت قلوبهم، واهْتَزَّتْ جوارحهم، فخرُّوا على أذقانهم ساجدين لعظمة الله، باكين من خوف الله، قال ابن كثير: «فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هنا، اقتداءً بهم، واتِّباعاً لهم».

ومن خلال ما ذكره كتاب الله في وصف أنبيائه ورسله الذين أنعم الله عليهم يتبين للمومن ما يرضى عنه ربه من الخصال الحميدة، وفي طليعتها إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، ﴿ وَأَوْصَـٰنِي بِالصَّلَـوٰةِ وَالزَّكَـوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ على لسان عيسى عليه السلام، ﴿ وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَـوٰةِ وَالزَّكَـوٰةِ ﴾ في الحديث عن إسماعيل عليه السلام، والبرورُ بالوالدين: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِـدَيْهِ ﴾ في وصف يحيى عليه السلام، ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ على لسان عيسى عليه السلام، والحنانُ والتواضعُ: ﴿ وَحَنَـاناً مِّن لَّـدُنَّا ﴾ - ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾ في وصف يحيى عليه السلام، ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾ على لسان عيسى عليه السلام، والصدقُ والإخلاصُ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيئاً ﴾ في وصف إبراهيم عليه السلام، ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ في وصف إسماعيل عليه السلام، ﴿ إِنَّهُ كَـانَ مُخْلِصاً ﴾ في وصف موسى عليه السلام.

فهذه بعض خصال الذين أنعم الله عليهم، ممن نسأل الله تعالى في «فاتحة الكتاب» عند كل صلاة أن يهدينا إلى سلوك طريقهم فنقول: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين
في المصحف الكريم

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ
وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ
فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن
كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا
وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ
حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ

شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ
أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ
بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا
أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ
فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾
أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ
ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ
مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا
فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ
أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ
نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ
شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ
الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ
عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا
يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا۟ الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾.

سبق في الربع الماضي في معرض الحديث عن سيرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ ﴾، كما سبق في نفس الربع، حكايةً على لسان عيسى ابن مريم عليهما السلام قوله تعالى: ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾، وفي آية أخرى سابقة من كتاب الله يقول الله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وسبق في سورة البقرة، خطاباً لبني إسرائيل، قولهُ تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ الزَّكَوٰةَ، وَارْكَعُوا۟ مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴾

[الآية: ٤٣]، وقولُه تعالى فيها خطاباً لهم أيضاً: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴾ [الآية: ٤٥] وسبق في سورة آل عمران قوله تعالى في شأن زكرياء عليه السلام: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ [الآية: ٣٩].

وبهذه الآيات وما شابهها يتبين أن (الصلاة والزكاة) شعيرتان قديمتان من شعائر الدين، التي أوحى الله بها إلى عدد من الأنبياء والرسل السابقين، نظير (الحج) الذي دعا إليه إبراهيم الخليل، امتثالاً لأمر الله تعالى الوارد في كتابه العزيز، إذ قال مخاطِباً له: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]. ونظير (الصيام) الذي ورد في شأنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّاماً مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

وبناءً على ذلك تكون شعائر الإسلام وأركانه الأربعة المتفرعة عن (الإيمان) الذي هو القاسم المشترك بين كافة الأنبياء والرسل كلها ذات أصل واحد، ولها جذور عريقة في القِدَم، على حد قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، والإسلام إنما أحياها وجدَّد معالمها، وأصلح منها ما أفسدته الأهواء والشهوات، ونفى عنها ما

دخل عليها من الجهالات والضلالات، وقد أدرك الإسلامُ عربَ الجاهلية وهم يمارسون الحج والصيام والصلاة بالمفهوم الجاهلي الذي آل إليه أمر هذه العبادات عندهم، ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] وكانت بدايةُ إصلاح ما فسد منها، وتنقيتها من الشوائب، في التشريع المكي على وجه الإجمال، ثم بلغ أمر تنقيتها وتهذيبها وتجديد نظمها في التشريع المدني حد الكمال، مصداقاً لقوله تعالى في آخر عهد الرسالة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَـٰمَ دِيناً ﴾ [المائدة: ٣].

وعلى ضوء هذا التحليل ننتقل إلى أول آية في هذا الربع وهي قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُواْ الصَّلَـوٰةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَـوَٰتِ ﴾، فقد كان الحديث في الآية قبلها عن «الذين أنعم الله عليهم من النبيئين «السابقين» من ذرية آدم وذرية إبراهيم وإسرائيل، ومن ذرية الذين حملهم نوح معه في السفينة، وبذلك يكون الضمير في قوله تعالى هنا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ عائداً على أولئك النبيئين السابقين الذين كانوا يصلُّون ويأمرون الناس بالصلاة، حتى إذا جاءت الأجيال اللاحقة من بعدهم لم تهتدِ بهديهم في طاعة الله وتقواه، بل أقبلت على الشهوات وقطعت صلتها مع الله، ومن أجل ذلك أطلقت عليهم الآية هنا لفظ (خَلْف) بمعنى أولاد السوء.

ويشهد للتفسير الذي ذهبنا إليه، المبنيّ على ربط هذه الآية بما قبلها، قوله تعالى في سورة البقرة أثناء الحديث عن بني

إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ، وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الآية: ٨٣] مع التعقيب عليه بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

و (الشهوات) عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه، ويلائمه ولا يتَّقيه، والمراد بها هنا اللذات والمعاصي، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات». وقولُه تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ أي سيلقون ضلالاً وخيبة وخسراناً وهلاكاً في جهنم. ولا مانع من إدخال تاركي الصلاة الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولها مضيعون، ممن ينتسبون للإسلام، تحت الوعيد الوارد في هذه الآية، إذ ما جرى على المِثْل يجري على المماثل، والجُرْم الذي يرتكب في حق الله تعالى يعاقب عليه صاحبه كيفما كانت الملَّة التي ينتسب إليها. جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»، وفي موطأ الإمام مالك عن نافع مولى عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع».

وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ استثناءٌ من الوعيد الشديد الموجَّه إلى تاركي الصلاة، ومقتضاه أن من تاب إلى الله ورجع عن

ترك الصلاة فأقبل على إقامتها وحافظ علي أدائها، وتراجع عن الاستغراق في الشهوات فلم يبقَ أسيراً من أسرائها، وانصرف إلى الأعمال الصالحة بمختلف أصنافها، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويمنُّ عليه بأعظم مِنَّة، فيجعله من ورثة الجنة، وفي الحديث الشريف «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ يقتضي أنهم لا يحاسبون على ما عملوه قبل التوبة، لأن التوبة إذا استوفت شروطها تجُبُّ ما قبلها.

وبمناسبة ذكر (الجنة) في هذا السياق تولى كتاب الله وصف الجنة التي وعد بها عباده المتقين، ترغيباً في الإقبال على العمل الصالح والتمسك بالتقوى، فقال تعالى: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ التِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا، لَّا يَسْمَعُـونَ فِيهَا لَغْواً، إِلَّا سَلَـٰماً، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا، تِلْكَ الْجَنَّةُ التِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾.

وقولُه تعالى في هذه الآية ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ يُفْهَمُ منه أن رزقهم في الجنة دائم غير منقطع، على غرار قوله تعـالى: ﴿ وَفَـٰكِهَـةٍ كَثِيـرَةٍ، لَّا مَقْـطُوعَـةٍ وَلَا مَمْنُـوعَـةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، ومعنى كلمة (عَدْن) الواردة في نص الآية الإقامة والاستقرار، والجنة دار إقامة جعلها الله إرثاً للمتقين.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ يحتمل تفسيرين اثنين:

التفسير الأول: أن تكون هذه الآية مرتبطة بما قبلها، وحيث أن الحديث فيما قبلها مباشرة كان عن الجنة التي يورثها الله عباده المتقين، تكون هذه الآية حكاية لقولهم عند دخول الجنة، إخباراً منهم عن حالهم فيها، ويكون معناها: وما نتنزل هذه الجِنان إلا بأمر ربك، لا يخفى عليه أيّ شيء من أعمالنا وأحوالنا، ولا يغادر كبيرة ولا صغيرة من شؤوننا، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طَه: ٥٢].

التفسير الثاني: أن تكون غير مرتبطة بما قبلها، بل بداية موضوع جديد، وعلى هذا الفهم يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ موجهاً إلى خاتم النبيئين والمرسلين، تأكيداً لكون الرسالة عن الله لا تتجاوز حدود التبليغ عنه، وتنبيهاً إلى ضرورة انتظار ما يرد من أوامره العليا عن طريق الوحي، ويكون ضمير المتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ عائداً على مَلَك الوحي جبريل عليه السلام، إخباراً منه بأنه لا يستطيع أن ينزل على الرسول إلا إذا أمره الله بالنزول، وبأنه لا يتأخر عن تنزيل الوحي متى صدرت به أوامر الله إلى الرسول ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾، ويكون قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ وارداً على لسان ملك الوحي، تأكيداً لكونه في قبضة الله، ومسيَّراً في أفعاله بأمر الله على الدوام والاستمرار، وأنه مهما علا قدره فما هو إلا واحد من ملائكة الرحمٰن الذين ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ يحتمل وجهين اثنين:

الوجه الأول ـ أن يكون المراد إدخال الطمأنينة على قلب رسول الله ﷺ وتهدئة رُوعِه عندما يتأخر عنه الوحي، وذلك حتى لا يستولي عليه القلق، ولا يظن به أعداء الله الظنون، والمعنى حينئذ أنه بالرغم من تأخر الوحي عنك فإن الله لا ينساك، وأنه في كل وقت يرعاك، على غرار قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣].

الوجه الثاني ـ أن يكون المراد تنبيه الرسول عليه السلام ـ وعن طريقه تنبيه كافة المومنين ـ إلى أن الوحي إذا لم ينزل في بعض الشؤون فإنه لا يتصور في حق الله أن يكون ذلك عن نسيان، وإنما المقصود به الرفق والتيسير والتوسعة على بني الإنسان. روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية ـ أي معفو عنه ـ فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم ينسَ شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أي هل تعلم لِلَّه نظيراً وشبيهاً، ولفظ (سَمِيّ) في هذا المقام مأخوذ من (المساماة) لا من الاسم، يقال «ساماه» إذا عالاه وباراه، وتسامى القوم إذا تباروا وتفاخروا، والمراد أنه لا مثل له ولا شبيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى

الرَّحْمَـٰنِ عُتِيًّا ﴾ معناه أن الله تعالى يسلِّط عذابه يوم القيامة على رؤساء الضلال قبل أتباعهم، ويبدأ بأكابر المجرمين قبل أصاغرهم، لعظم مسؤوليتهم في إشاعة الفاحشة ونشر الإجرام، وصد الخلق عن طريق الحق، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ اخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ اضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ إما أن يكون الخطاب فيه موجهاً إلى أصناف الكافرين، والعصاة المتمردين، وعلى هذا المعنى يكون «الورود» على النار قاصراً عليهم دون غيرهم، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وتكون هذه الآية مرتبطة بما قبلها تمام الارتباط، وإن كان الضمير فيما سبقها ضمير غيبة، والضمير الوارد فيها ضمير خطاب، قال ابن الأنباري: «جائز في اللغة أن يُرجَع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب» واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً، إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢].

وإما أن يكون الخطاب فيه موجهاً إلى الناس أجمعين،

ويكون الورود على النار لازماً للجميع، يَرد عليها المتَّقون عابري سبيل، فتكون عليهم برداً وسلاماً، ثم يصدُرون عنها، ناجين من عذابها، مصداقاً لقوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ ويكون ما وعدهم الله به من الإبعاد عنها عبارة عن كونهم ـ وإن دخلوها ـ لا يحسُّون منها وجعاً ولا ألماً.

ويَرِد عليها الكافرون والعصاة المتمردون فيُخلَّد فيها الكفار، ويَصْلَى بنارها الفجار، مصداقاً لقوله تعالى هنا: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾، رُوِيَ عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود الدخول، لا يبقى بَرّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المومنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، ونذر الظالمين فيها جثياً» أسنده أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد».

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ هذا غاية الوعيد والتهديد لمن أصر على الضلال، واغتر بإمهال الله له، ظناً منه أن ذلك نوع من الإهمال، نظير قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ الشفاعة في العصاة بعد تعذيبهم لا تكون إلا بإذن الله، وهذا الإذن لا يُمنح إلا لمن اتخذ عند الله عهداً، و(العهد) هنا لفظ جامع للإيمان والعمل الصالح ﴿مَن ذَا الذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدّاً ﴾ وعد صادق من الله تعالى لكل من آمن وعمل صالحاً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بأنه سيغرس محبته في القلوب، وسيخلع عليه رداء القبول، حتى يصبح في أعين الناس المَثَل الأعلى للمومن المقبول المحبوب، عِلاوة على ما يحظى به من تيسير الله له كل عسير، وما يناله من لطفه الخفي في كل أمر خطير، مصداقاً لقوله تعالى في سورة النحل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوْ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـوٰةً طَيِّبَةً ﴾[الآية: ٩٧]، وفي آيـة ثانيـة: ﴿ وَمَنْ يَّتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّـهُ مِنَ اَمْـرِهِ يُسْـراً ﴾ [الطلاق: ٤]. روى الترمذي من حديث سعد وأبي هريـرة أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأَحِبَّه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قـوله تعـالى سيجعل لهم الـرحمـٰن وُدّاً، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني أبغضت فـلاناً، فينـادي في السماء، ثم تنزل له البغضاء في الأرض» وخرجه البخاري ومسلم بمعناه، ومالك في الموطأ وأحمد في المسند.

وبختام هذا الربع ختمت سورة مريم المكية، وكان مسك الختام التنويه بالدعوة الإسلامية وما جاءت به من البشائر للمتقين آياتُ الذكر الحكيم، وما ينتظر أعداءها الألداء من هلاك مقيم في عذاب الجحيم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً، وَكَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنَ اَحَدٍ اَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةً
لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤
ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ
فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ
ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ
لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ
أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ
أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢
وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا
مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ
غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا
الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ
لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾
يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾
اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ
سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ
فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ

عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا
فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا
لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ
عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾
فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ
ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة طه المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ. طَه، مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرَءَانَ لِتَشْقَىٰٓ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُـمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾.

لقد جاء مطلع هذه السورة مبدوءاً بحرفين اثنين هما: الطاء والهاء، فهي من جملة السور التي اختار الله لها أن تكون مبدوءة ببعض الحروف الهجائية المقطعة، إشارة إلى أن الحروف الهجائية التي يُتلى بها كتاب الله هي في متناول الناس جميعاً، ولكنهم جميعاً عاجزون عن أن يؤلفوا منها كتاباً إلٰهياً معجزاً ﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وبمجرد افتتاح هذه السورة تناول كتاب الله ـ وهو يخاطب نبيّه ـ توضيح معالم الرسالة المحمدية، فقال تعالى: ﴿ طَـه، مَآ

أنزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ، إلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴾، كما تناول في ختام هذه السورة نفسها تحديد أعباء الرسالة المحمدية ومسؤولياتها، فقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ - ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ - ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ يفيد معنى أساسياً هو إثبات أن الله تعالى عندما بعث إلى الإنسانية خاتم رسله، إنما أراد إسعاد البشر بالحنيفية السمحة. فقد بعث إليهم رسولاً ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَـٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهذا المعنى يؤكده قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ هُوَ اجْتَبَـٰكُمْ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] · فلا إرهاق في أي أمر من أوامر الله، ولا تكليف بما فوق الطاقة في أي نهي من نواهيه، بل إن شعائر الإسلام وشرائعه تدخل كلها في نطاق المقدور الميسر لجميع المكلفين نساءً ورجالاً، ومعنى (الشقاء) في اللغة العناء والتعب.

ويتصل بهذا المعنى بوجه من وجوه المناسبة أن كتاب الله رغماً عما يتضمنه من حقائق ودقائق ورقائق تحاول البشرية أن تكشف عن مدلولاتها جيلاً بعد جيل، ورغماً عما اتسم به كتاب الله من إعجاز في اللفظ والمعنى والأسلوب، فقد يسّره الله للذكر والفهم والاعتبار، وجعله قريباً من فطرة الناس التي فطرهم

عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ فلا ألغاز ولا معميات، في آيات الله البيِّنات.

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ يفيد أن الله تعالى أنزل القرآن إيقاظاً للغافل وتذكيراً للناسي، فقد عاهد البشرُ ربهم وواثقوه بميثاق الإيمان والطاعة والعبادة، وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم نَسُوا ما عاهدوا الله عليه، فكان لا بد من تذكيرهم، وفاءً من الله بالوعد، وذلك قبل إقامة الحجة عليهم ومؤاخذتهم على خيانة العهد.

وقولُه تعالى: ﴿ لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ إشارةٌ إلى أن أقرب الناس إلى التدبر والاعتبار، والاتعاظ والانزجار، هم أولئك الذين يراقبون الله، فيخافون سخطه ويرجون رضاه.

وقولُه تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَـٰوَٰتِ الْعُلَى ﴾ يؤكد لمن لا يزال عنده شك أن هذا القرآن إنما هو تنزيل من «خالق الكون» الحكيم العليم، وما دام تنزيلاً من خالق السماوات والأرض وما بينهما، فلا بِدْع أن يتجلى في آياته البيِّنات علم الله المحيط، وحكمته البالغة، وقدرته الباهرة. ولا غرابة في أن يكون أصدق وأجمع دستور لهداية الإنسان وسعادته، وبذلك كان أسمى كتاب عرفه الوجود، لا فرق بين الكتب الإلٓهية السابقة، والكتب الإنسانية السابقة واللاحقة، فالكتب الإلٓهية السابقة على القرآن قد أصابها التحريف والتزييف، فاختلط فيها الحابل بالنابل، والكتب الإنسانية قديمها وحديثها مليئة بالأغلاط والأخطاء، وتناقض الآراء. أما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد

الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، وآياته البيِّنات هي سجل الوحي الفريد، الذي تعهد الله بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] إشعاراً بما له من منزلة سامية لا يتطاول إليها أي كتاب، وعظمة خارقة للعادة لا يفي بوصفها أي إنسان، مهما بالغ في التحليل والإطناب.

والاستواء على العرش في قوله تعالى هنا: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ كناية عن انفراده سبحانه وتعالى بالملك والسلطان، وهيمنته المطلقة على جميع الأكوان، فلا عرش في الحقيقة إلا عرشه، ولا ملك إلا ملكه ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [المائدة: ١٢٠]. و«العرش» في كلام العرب مرتبط بمعنى الملك، يقولون: ثُلَّ عرشُ فلان إذا ذهب ملكه، وتفادياً من أن يفهم معنى الاستواء على وجه فيه تجسيم وتكييف أجاب الإمام مالك بن أنس من سأله عن الاستواء في هذه الآية فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب».

ومما يستلفت النظر في هذا السياق أن كتاب الله اختار فيه من بين أسماء الله الحسنى اسم (الرحمَـٰن) بالخصوص، فقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ ولم يقل القهَّار أو الجبَّار مثلاً، إشعاراً للعباد بأن رحمة الله تسع كل شيء، حتى في هذا المقام، مقام العظمة والجلال، مما يجعله جلالاً مقروناً بالجمال، ويفتح في وجوه المذنبين والمنحرفين باب الأمل في

فضل الكبير المتعال، ونفس الاختيار لاسم (الرحمَـٰن) في مثل هذا المقام نجده في قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْداً ﴾ [مريم: ٩٣].

وقولُه تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرىٰ ﴾ تذكير للإنسان بأن قدرة الله الباهرة، وسطوته القاهرة، لا يفلت من قبضتها شيء، فما على الإنسان العاقل إلا أن يُسْلِم وجهه لله، ويوفِّق بين إرادته وإرادة الله، بصفته جزءاً لا يتجزأ من هذا الكون الفسيح، الذي يسير في حركاته وسكناته وفقاً لمشيئة الله، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣].

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور لا يخفى عليه منها شيء، لا فرق بين ما يعرفه الإنسان من نفسه ويكتمه عن الغير، وما لا يعرفه الإنسان من نفسه بالمرة، لأنه مغيَّب عنه في أعماق وجدانه وهو لا يعيه، أو مغيَّب عنه وراء حُجُب المستقبل وهو لا يدريه، والإتيان بهذه الحقيقة في هذا السياق فيه حضّ للإنسان على أن يتقبل هدية الله وهدايته التي جاء بها القرآن الكريم ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ فالله تعالى أعلم بمصلحة الإنسان من الإنسان نفسه، وأرحم به من نفسه التي بين جنبيه، وخالق الإنسان، أولى من غيره بهداية الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الِانسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [قٓ: ١٦] - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وقولُه تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ إعلان لوحدانية الله المطلقة، ومن لا شريك لـه في خلقه، لا شريك له في ملكه، والمراد (بالأسماء الحسنى) الأسماء التي تطلق على الحق سبحانه وتعالى، إشارةً إلى ذاته العليَّة، أو صفاته الأزلية، أو أفعاله القدسية، والتسمية بها أمر توقيفي لا دليل عليه إلا الشرع، من كتاب أو سنة أو إجماع. قال أبو منصور التميمي البغدادي في كتابه (أصول الدين): «ومن سماه بالقياس صار من القياس في اياس»، وذكرُ أسماء الله الحسنى في هذا السياق فيه تنبيه لعباده على أن يتوسلوا إليه بهذه الأسماء، حين الابتهال والدعاء، ولا سيما في حالة الاضطرار والالتجاء، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلُ ادْعُواْ اللَّهَ أَوُ ادْعُواْ الرَّحْمَـٰنَ، أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]. ويقول الرسول عليه السلام فيما رواه أبو هريرة مرفوعاً: «إن لله عز وجل تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة». والغرض من هذا الحديث فيما يراه المحققون مجرد الإشارة إلى أن معاني أسماء الله الحسنى بأجمعها مجموعة في هذه الأسماء التسعة والتسعين، لا حصر الأسماء الحسنى كلها في هذا العدد، لورود الشرع بغيرها من الأسماء.

وبعد أن أوجز كتاب الله في صدر هذه السورة الحديث عن الرسالة الإلٰهية التي تضمنها القرآن الكريم، وبيَّن وجوه عظمة

الذكر الحكيم، شرع يقص على رسوله والمومنين قصة موسى مع فرعونَ وقومه، التي هي أكثر قِصَص الأنبياء والمرسلين وروداً في القرآن، وذلك ابتداءً من قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَهَلَ اَتيٰكَ حَدِيثُ مُوسىٰ، إِذْ رءا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓاْ ﴾ إلى قوله تعالى في الربع الثالث من هذا الحزب: ﴿ اِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾. وهكذا استغرقت قصة موسى في «سورة طه» التي نحن بصدد تفسيرها حوالى ثلاثة أرباع الحزب، حيث عُرِضت عرضاً واسعاً مفصلاً، عِلاوة على ما سبق من حلقات هذه القصة المثيرة في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وبالإضافة إلى ما سيأتي من الإشارات إليها في السور القادمة، وعند الانتهاء من عرض هذه القصة عقَّب كتاب الله عليها في الربع الثالث من هذا الحزب، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدَ ـ اتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّـا ذِكْراً ﴾، إشارةً إلى أن الحكمة المتوخاة من إيراد قصة موسى وغيرها من قصص الأنبياء والمرسلين هي النظر فيها للتدبر والاعتبار، وتنوير البصائر والأبصار. وسيراً في هذا الاتجاه سنقف وقفة خاصة عند كل موطن من مواطن العبرة في هذه القصة:

فقولُه تعالى: ﴿ يَـٰمُوسىٰ، إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىٰ ﴾ إشارةً إلى أن خلع النعلين تصرف مناسب للخشوع والتواضع عند مناجاة الحق سبحانه وتعالى من جهة، ومظهر من مظاهر احترام الأماكن المقدسة وتعظيمها من جهة

أخرى، وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت فدخلوا الحرم حفاة دون نعال. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إنْ قلنا إن خلع النعلين كان لينال بركة التقديس فما أجدره بالصحة، فقد استحق التنزيه عن النعل، واستحق الواطىء التبرك بالمباشرة، كما لا تُدخَل الكعبةُ بنعلين، وكما كان مالك لا يركب دابة في المدينة ـ برّاً بتربتها المحتوية على الجثة الكريمة». والمراد (بالمقدس) المطهَّر، من القُدس بمعنى الطهر.

وقولُه تعالى: ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ إشارةٌ إلى أن حسن الاستماع لكلام الله ووحيه أمر مرغوب فيه، قال وهب بن مُنبِّه: «من أدَبِ الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى». ويوجد تناسب تام بين أمر الله تعالى لموسى بالاستماع هنا وخطابه لجمهرة المومنين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤ ،وقد مدح الله ﴿ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ ووصفهم بقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ هَدَيٰـهُمُ اللَّهُ ﴾.

وقولُه تعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ ﴾ يعم كافة المكلفين، ويصدق عليهم أجمعين، وهذه الآية تحتمل جملة من المعاني، باعتبار أن لفظ «الذكر» الوارد فيها إما أن يكون مصدراً مضافاً إلى الضمير، أو مضافاً إلى الفاعل، أو مضافاً إلى ضمير المفعول، كما نبَّه على ذلك القاضي أبو بكر (ابن العربي)، فيكون معنى الآية أقم الصلاة لتذكرني فيها

عند المناجاة، وهذا هو السر في تسمية الصلاة ذِكْراً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّه وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، أو أقم الصلاة لأذكرك في ملأ خير من الملأ الذي ذكرتني فيه، أو أقم الصلاة إذا ذكرتَها أو ذكَّرتُك بها، ويرتبط بهذا المعنى الأخير قوله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها». أما قوله ﷺ: «رُفِع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ» الحديث، فالمراد به رفع الإثم لا رفع الفرض عنه، إذ لا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، ونقل القاضي أبو بكر (ابن العربي) معنى آخر لهذه الآية، إذ قال ما خلاصته: «قالت المتزهدة: معنى ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ﴾ أقمها لمجرد ذكري، ولا تذكر فيها غيري». ثم عقَّب (ابن العربي) على ذلك قائلاً: «وهذا لمن قدر عليه هو الأَوْلى، فمن لم يفعل كتب له منها بمقدار ذلك فيها».

وقولُه تعالى حكايةً لدعاء موسى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ تنبيه لكل حامل رسالة، أو قائم بدعوة، أن يلجأ إلى الله بادىء ذي بدء، ويلتمس منه العون، حتى يشرح الله صدره، فلا يتبرم بأعباء الرسالة، ولا يتضايق من متاعب الدعوة، وحتى ييسر الله أمره، فلا تقف دونه العراقيل والمعوقات، وحتى يَفتَح له قلوب الخلق، فيقبلون عليه وينتفعون به.

وقولُه تعالى حكايةً لتتمة الدعاء الذي دعا به موسى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنَ اَهْلِي، هَـٰرُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ تنبيه على

أن الدعوة إلى الله ـ ومثلها جميع المهام، التي تهدف إلى خدمة الصالح العام ـ لا تنجح ولا تنتشر على أوسع نطاق إلا إذا وجد القائمون بها أعواناً على الخير يؤازرونهم في العمل، ويشاركونهم في المسؤولية، وبذلك تتضاعف النتائج وتزكو الثمرات.

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ بشارةٌ من الله لكل من التجأ إلى بابه الكريم، مادّاً إليه أكف الضراعة بصدق ويقين وإخلاص، أن يحقق له الأمل، ويعطيه ما سأل ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢].

وقولُه تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ يستفاد منه أمران:

ـ **الأمر الأول** أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون مصحوبة بالتفاؤل والرجاء، لا بالتشاؤم واليأس، بحيث يكون الداعي قويّ الثقة بالله، قويّ الثقة بفعالية الدعوة وتأثيرها في النفوس، والوصول بها إلى النتيجة المرجوة.

ـ **الأمر الثاني** أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون لغتها لغة مهذبة، وأن يكون أسلوبها أسلوباً ليِّناً، فلا فحش ولا غلظة ولا جفوة، ونفس التوجيه الذي تلقاه موسى وهارون عليهما السلام تلقاه خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه، إذ خاطبه ربه قائلاً: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال القرطبي: «القول الليِّن هو القول الذي لا خشونة فيه، وإذا كان موسى أُمر

بأن يقول لفرعون «قولاً ليِّناً» فمَن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ يتضمن وعداً من الله لكل من جنَّد نفسه لهداية الخلق، والأخذ بيدهم إلى طريق الحق، أن يُمِدَّه بمدده، ويجعل السكينة مهيمنة على روحه وجسده، فيواجه الناس دون خوف ولا وجل، ويمضي قُدُماً إلى إنجاز ما يسر له من العمل.

وقولُه تعالى ضِمْن ما لقنه موسى كي يخاطب به فرعون: ﴿ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ، وَالسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ، إِنَّا قَدْ اوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ يحتوي علي خير مثال يُحتذَى في مخاطبة الطغاة الظالمين، والعصاة الضالِّين. فاختيار كلمة (الرب) وكلمة (السلام) لهما أكثر من مغزى في هذا المقام، ولذلك استعمل خاتم النبيئين والمرسلين صيغة (السلام على من اتَّبع الهدى) في رسائله التي دعا بها أقطاب العالم في عصره إلى الإسلام، والتصريح في نفس الآية (بأن العذاب على من كذَّب وتولّى) يتضمن تحذيراً غير مباشر، وهو في نفس الوقت لا يدمغ المخاطَب بكونه ممن كذب وتولى فيثور ويغضب، بل على العكس من ذلك يدفعه إلى أن يستوعب الخطاب الموجَّه إليه بقابلية وتفتُّح، قال ابن عباس: «هذه الآية ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هي أرجَى آية للموحدين، لأنهم لم يكذِّبوا ولم يتولّوا».

هذا مجمل ما ورد في الربع الأول لسورة طه، من مواطن العبرة البارزة في قصة موسى عليه السلام ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي لـذوي العقول السليمـة المستقيمة، الـذين يُعتمد عليهم، ويُنتهى إلى رأيهم.

الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَلْقِيٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلَ اَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمُۥٓ أَنَّهَا
تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفِ اِنَّكَ
أَنتَ اَلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ
سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ اُلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ اَلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَآمَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنَ اٰذَنَ لَكُمُۥٓ
إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ اُلذِے عَلَّمَكُمُ اُلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ اِلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّوثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ اَلْبَيِّنَٰتِ وَالذِے فَطَرَنَا
فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ اِنَّمَا تَقْضِے هَٰذِهِ اِلْحَيَوٰةَ اَلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا
بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ اَلسِّحْرِ وَاللَّهُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَنْ يَّاتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَّاتِهِۦ مُومِنًا قَدْ عَمِلَ اَلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ اُلدَّرَجَٰتُ اُلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِے مِن
تَحْتِهَا اَلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
وَلَقَدَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اِسْرِ بِعِبَادِے فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي

أَلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ أَلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ أَلطُّورِ أَلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ أَلْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ
عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا ثُمَّ أَهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً اخْرىٰ ﴾ إلى قـوله تعـالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّـارٌ لِّمَن تَـابَ وَءَامَنَ وَعَمِـلَ صَـٰلِحـاً ثُمَّ اهْتَدىٰ ﴾.

يواصل كتاب الله في هذا الربع حديثه عن قصة موسى مع فرعون وقومه، ويستعرض في آياته البيِّنات ما دار بين الطرفين من محادثات ومحاورات، توضح موقف كل منهما بما يشفي ويكفي.

فمن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان فرعون ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنَ اَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسىٰ ﴾، وفـرعون بهـذه المقالة يتهم موسى بأن له هدفاً سياسياً من وراء الدعوة التي جاء بها من عند الله، وأنه إنما يريد من ورائها أن يستولي مع قومه على مقاليد الحكم، وأن يطيح بنظام فرعون وملائه ليُقيم على أنقاضه نظاماً آخر، وقد حكى كتاب الله عن فرعون مقالة أخرى عرَّض فيها بموسى واتهمه بتهمة أخطر وأكبر، إذ قال في شأنه:

﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] وسيراً في نفس الطريق، وبمثل هذا النوع من التهم الباطلة، نطق السَّحَرة الذين جنَّدهم فرعون لمباراة موسى، فقد حكى كتاب الله عنهم أنهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ إشارة إلى موسى وأخيه هارون ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنَ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾. والمراد «بالطريقة المثلى» الهَدْي المستقيم الذي لا يوجد ما هو أمثل منه وأفضل، والإتيان بجملة (هذان لساحران) بعد «إنَّ» جارٍ في اللسان العربي على قراءة أهل المدينة والكوفة، طبقاً للاستعمال الخاص المعروف في لغة بني الحارث بن كعب وغيرهم، حيث يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه بالألف، وهناك قراءة ثانية بتخفيف «إنْ» بدلاً من تشديدها، بمعنى (ما هذان إلاّ ساحران). وهناك قراءة ثالثة مطابقة للاستعمال الشائع المتعارف، وهي مروية عن أبي عمرو (إنَّ هاذين لساحران). وقال الزجاج: «لا أُجيز قراءة أبي عمرو، لأنها خلاف المصحف».

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان موسى ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾، وموسى بهذه المقالة كان واثقاً من نصر ربه، وكان ساعياً في إبراز المعجزة التي جاء بها على مرأى ومسمع أكبر عدد ممكن من الناس، ولذلك تواعد مع فرعون وسَحَرته على يوم عيد، حتى تهرع إليه الجماهير من كل صوْب وحدَب، وهو «يوم الزينة» الذي يتفرغ فيه الناس من أعمالهم، ولنفس الغاية اقترح موسى أن يكون اجتماع الناس ذلك اليوم في وقت الضحى، الذي هو أوضح فترة من

فترات النهار بعد شروقِ الشمس، إذ لو تواعد معهم عند طلوع الفجر أو عند الظهيرة لما حضر إلا القليل، ولو تواعد معهم عند المساء لما ظهرت المعجزة على الوجه الأكمل، لغلبة الظلام واختلاط الرؤية، قال ابن كثير تعقيباً على هذه الآية: «وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بيِّن واضح، ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً، ولكن نهاراً ضحى»، وقال القرطبي تعليقاً على نفس الآية: «وإنما واعدهم ذلك اليوم، ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وزهوق الباطل، على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الغاص (بالناس)، لتقوى رغبة من رغب في الحق، ويكِلَّ حدُّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر التحدث بذلك الأمر العَلَم في كل بدو وحضر، ويشيع في جَمْع أهل الوبر والمدر».

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله عن سَحَرة فرعون كيف خاطبوا موسى وكيف أجابهم عند بدء المباراة أو المصارعة بين الحق والباطل ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّـآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ أَلْقَىٰ، قَالَ بَلَ اَلْقُواْ ﴾ فقد فضَّل موسى أن يكون سحرة فرعون هم السابقين، ثقةً منه بأن العاقبة للمتَّقين، ورغبةً في أن تكون كلمة الحق هي الكلمة الأخيرة، إذ هي فصل الخطاب الذي لا معقب له، وقد ثبَّته الحق سبحانه وتعالى في هذا الموقف الحرج بقوله: ﴿ لَا تَخَفِ اِنَّكَ أَنتَ الاَعْلَىٰ ﴾ فلم يخشَ مظاهر التدجيل والتهويل، ولم يرهب مناظر السحر المبني من أساسه على التخييل والتضليل، وهكذا ينبغي لكل داعٍ من دعاة الحق أن يستوعب قبل كل شيء شُبَه الخصوم، ثم ينقضَّ عليها واحدة بعد

الأخرى بالإبطال، ولا يترك لرواجها أي مجال.

ومن ذلك ما خاطب به الحق سبحانه وتعالى رسوله موسى إذ قال له: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فقد أصدر أحكمُ الحاكمين بهذا الخطاب الجامع المانع ـ وذلك قبل أن تنتهي المباراة أو المصارعة ـ حكمه الذي لا يُرد، بفشل فرعون وسحرته فيما بيّتوه من كيد، وبخيبتهم فيما نظَّموه من تحدٍّ ومواجهة للحق الصراح ﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَـٰطِلُ، إِنَّ الْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء: ٨١].

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان فرعون بعد ما نفض السحرة أيديهم من فرعون وملائه، وآمنوا برب موسى وهارون ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ لَكُمُ إِنَّهُ لَكَبِيـرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فكان قول فرعون هذا دليلاً على ما أصاب عقله من خَلْط وخَبْط، لهول المفاجأة التي فوجىء بها هو وقومه، حتى اتهم فرعونُ نفس السحرة الذين كانوا قبل لحظات محل ثقته وطوع يديه، بأنهم أصبحوا تلامذة لموسى، بمجرد ما أعلنوا إيمانهم بالله، وبراءتهم من فرعون ودينه، وأصرَّ فرعون في تعبيره على أن يتهم موسى بأنه هو الذي علَّمهم السحر الجديد. يضاف إلى ذلك ما يتضمنه خطاب فرعون لسحرته السابقين من جهل فاضح بخلَجات النفوس وتقلبات القلوب، فالإيمان متى خالطت بشاشته قلب الإنسان تحوّل في الحال من حال إلى حال، ومفاتح القلوب هي قبل كل شيء بيدالله، لا بيد الطغاة المتمردين على الله، والشأن في كلمة الحق أن تغزو الآذان، دون استئذان.

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان السحرة، الذين تحوَّلوا بفضل معجزة موسى إلى مومنين بَرَرة، وهم يردون على فرعون ﴿ قَالُواْ لَن نُّوثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـٰتِ وَالذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ الْحَيَـوٰةَ الدُّنْيَآ ﴾ فكان ردهم على فرعون رداً مُفحِماً، لأنهم آمنوا بربهم عن برهان وبيِّنة، وفارقوا دين فرعون وقومه عن اقتناع، فلا شيء يستطيع أن يردَّهم عن سلوك المحجة البيضاء، ولا شيء يقنعهم بالاستمرار في عبادة طاغية متكبر، لمجرد أن يقول (أنا ربكم الأعلى)، فقد اهتدوا إلى معرفة الإلّه الحق الذي ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ ﴾، وبعدما رفعت عنهم غِشاوة الجهل والنسيان، ها هم يقبلون بشوق وحماس على عبادة الرحمَـٰن، بكل طاعة وإذعان، متحمِّلين جميع التضحيات والآلام التي يفرضها عليهم حكم الظلم والطغيان، إذ لا سلطة لهذا الحكم الغاشم إلا في الدار الفانية، وهم مطمئنون إلى حكم الله العادل الذي سيلقونه في الدار الباقية ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ ﴾.

ومن ذلك ما أوحاه الله إلى نبيِّه موسى بعد انتصاره في الجولة الأولى ﴿ أَنِ اسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَـٰفُ دَرَكاً وَلَا تَخْشىٰ ﴾ جرياً على سنَّة الله التي لا تتخلف، في نصرة كل مظلوم التجأ إلى الله، واعتصم بحبل الله، وأسلم وجهه إلى الله، كان فرداً أو جماعة، فمن تمسَّك بالعروة الوثقى وجعل كلمة الله هي العليا في جميع التصرفات، شاهد من خوارق

العادات، ما لا يعجز عنه رب الأرض والسماوات، وتخلَّص من جميع الأزمات، وأفلت من قبضة عدوه دون أن يُلحِق به العدو أية آفة من الآفات.

ومن ذلك قوله تعالى تعقيباً على الموقف البليد الذي اتخذه فرعون ضد الرسالة الإلٓهية التي حملها موسى إليه وإلى قومه: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدىٰ ﴾، وهذا التعقيب القرآني البديع يعتبر رداً على مزاعم فرعون التي كان يرددها أمام الملأ من قومه، تضليلاً لهم وتمويهاً عليهم، فقد كان يقول كما حكى عنه كتاب الله في آية أخرى: ﴿ مَآ أُرِيكُمُ إِلاَّ مَآ أَرىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمُ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]،فأكد كتاب الله في هذا المقام أن فرعون إنما أضلَّ قومه ولم يهدهم، وجرَّ الهلاك على نفسه وعليهم، وهذا دليل على المسؤولية الثقيلة التي يتحملها الرؤساء والكبراء عن أنفسهم وعن قومهم، مما يجب أن يحسُبوا له الحساب، ويُقدِّروا عواقبه التقدير الصحيح حتى يفلتوا من العقاب والعذاب، فكم من رئيس أو كبير بُعِثت على يده أمة، وكم من رئيس أو كبير هَلَكت على يده أمة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى على لسان الأقوام المخدوعين المضلَّلين، وقد أصبحوا من سادتهم متبرِّئين وعلى كبرائهم ثائرين: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] - ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَابُ، وَقَالَ الذِينَ اتَّبَعُواْ لَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ

مِنَّا، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

ومن ذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ ممتناً عليهم بنصر موسى والإفلات من قبضة فرعون، ومن مطاردة جنوده لهم ليردّوهم على أعقابهم خاسرين. وامتنانُ الله بالنجاة قائم على الدوام، بالنسبة لكل من استغاث به من الظلم والطغيان، واستعان على مكافحة الطغاة بالصبر والإيمان، لكن بني إسرائيل كغيرهم كلما طغوا وأصبحوا ظالمين، وتعدّوا حدود الله واعتدوا على الحق المبين، لا بد أن يسقطوا من جديد، في قبضة جبار عنيد، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى خطاباً لهم ولكل من جاء بعدهم: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي لا تكفروا النعمة، ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم، فقد حذر كتاب الله هنا من التجاوز والطغيان مَنْ كانوا إلى عهد قريب يئنُّون من الطغيان، لأن عاقبة الطغيان بالنسبة لأي إنسان كيفما كان هي الإبادة والهلاك، والتعرض لغضب الله الذي لا يرضى لحُرُماته بالإهانة والانتهاك، وهذا المعنى هو الذي زادته الآية التالية توضيحاً وإشراقاً في صيغة العموم والشمول، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ كأنما سقط إلى الهاوية من جبل شاهق، و «غضب الله» كناية عن استحقاق عقابه وعذابه، ومقته وخذلانه لمن أعرض عن كتابه.

وخُتِم هذا الربع بآية من أرجَى آيات الذكر الحكيم، لأنها

تفتح باب المغفرة على مصراعيه في وجه كل من أسرف على نفسه ففرَّط في جنب الله، ولم يؤدِ حقوق الله، وداخله اليأس والقنوط من رحمة الله، وجيء فيها باسم الله (الغفار) في صيغة بلغت الغاية في التأكيد، إيذاناً بعفوه وستره للأوزار، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾. و«ثم» الواردة في هذا السياق إنما تعني هنا مجرد ترتيب الخبر على الخبر، ومقتضى هذه الآية أن من حلَّ عليه ـ لسبب من الأسباب ـ غضبُ الله، في إمكانه أن يغيِّر الوجهة، ويسلك السبيل المؤدي إلى رضا الله، والسبيلُ القاصد إلى عفو الله وغفرانه، ونيل رضوانه، حسبما حددته هذه الآية الكريمة، هو الإقبال على التوبة أولاً، وتجديد الإيمان ثانياً، وممارسة العمل الصالح ثالثاً، والثبات على الهَدْى القويم إلى لقاء الله رابعاً، فهذه شروط أربعة مَنْ استوفاها أوشك أن لا يبقى في قلبه مرض، وأوفى على الغرض.

الربع الثالث من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم

بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن
نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ
مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾
قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾
قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ
بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا
وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ
لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا
لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ
عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن
لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾
خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ
فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ

إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ
يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ
فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ
لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾
يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾.

لا يزال كتاب الله مسترسلاً في الحديث عن قصة موسى عليه السلام، وفي هذا الربع الثالث من سورة طه ينتهي القسم الأخير من القصة، ويعقِّب عليها كتاب الله تعالى بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾.

غير أن الحديث في هذا الربع يأخذ مجرى جديداً، فقصة موسى التي يتناولها في هذا الربع قصته مع قومه من بني إسرائيل، بينما الربع الأول والربع الثاني من هذا الحزب تناول فيهما كتاب الله قصة موسى مع فرعون وقومه:

ذلك أنه بمجرد ما حرَّر موسى عليه السلام بني إسرائيل من قبضة فرعون وملائه، وأطلق سراحهم، وافتك أرواحهم، انقلبوا حرباً على الله ورسوله، وأقبلوا على عبادة عجل من ذهب،

مشاركين في ذلك عَبَدة الأوثان، مشركين بالرحمَان، وأصبحوا الشغل الشاغل لموسى وأخيه هارون، ومصدر المتاعب والمتناقضات في كل ما يأتون وما يذَرون، وإلى هذا الوضع الغريب الذي آل إليه أمر بني إسرائيل بمجرد تحريرهم، وبعدما غاب عنهم موسى غيبة قصيرة ولم يبقَ بين أظهرهم، يشير قوله تعالى: ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ، فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ، فَنَسِيَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي، قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْـهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾.

وكان موسى عليه السلام قد فارق قومه على عَجَل، قاصداً «جانب الطُّور الأيمن»، مستخلِفاً عليهم أثناء غيبته أخاه هارون، إذ بعد ما حقق الله على يده لقومه نعمة النجاة والتحرير، رأى من واجبه أن يبادر لتلبية النداء الإلٓهي حتى يتلقى من ربه التعاليم التي تضمن لقومه حسن التدبير والتسيير، وها هو الحق سبحانه وتعالى يسأل وموسى يجيب ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ أي ماذا حملك على العجلة والقدوم وحدك دون قومك، فقد كان الموعد الذي ضربه الحق سبحانه وتعالى ليكلِّم فيه موسى ويلقِّنه الهدى والنور لم يَحِن بعد ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي ظننت أن التعجيل بذلك، أقرب إلى رضاك. قال جار الله الزمخشري: «وزال عنه أنه عز وجل ما وقَّت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة، وعلماً بالمصالح

المتعلقة بكل وقت». لكن الحق يفاجىء عبده الكليم بما أحدثه بنو إسرائيل من بعده ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾. وكم كان هول هذه الصدمة شديد الوقع على موسى، فقد أحس بأن قومه أصابتهم مدةَ غيبته القصيرة نكسةٌ كبرى وهم لا يزالون في بداية الطريق ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَـٰنَ أَسِفاً، قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾، وفي هذا الاستفهام استغراب واستنكار، إذ لم يغب عنهم موسى زمناً طويلاً حتى يقع ما وقع، ولم تزد مدة غيبته على أربعين يوماً ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَنْ يَّحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾. وها هو موسى عليه السلام يواجه قومه بالوعد الممزوج بالوعيد، وها هو يبدو عليه من الغضب والحزن ما ليس عليه من مزيد، وها هو يوجِّه إلى بني إسرائيل إنذاراً بحلول غضب الله عليهم، ملوِّحاً بذلك إلى الإنذار الوارد في الخطاب الإلٰهي السابق في الربع الماضي، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَّحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾.

وحاول بنو إسرائيل جاهدين أن يبرِّروا موقفهم ويفسِّروا انحرافهم، زاعمين أن الوعد الذي قطعوه لموسى عليه السلام بالثبات على طاعة الله وعبادته إلى أن يرجع من «الطُّور» لم يخلفوه اختياراً، وإنما أخلفوه اضطراراً، بدعوى أن الإنسان إذا وقع في الفتنة لم يعُد يملك نفسه، ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾، متعلِّلين بأنهم عندما فارقوا وطن فرعون حملوا معهم من حليِّ قومه وزينتهم الذهبية كميات كثيرة كانت موضوعة تحت

أيديهم، ولعل وضعها كان برسم الإعارة أو برسم الرهن، فلما استقر بهم المطاف أوقدوا ناراً وقذفوا فيها ما جمعوه من تلك الحلي، وصنع (السَّامريُّ) لهم منها «عجلاً جسداً لـه خُوار»، فعبدوه معتقدين أنه هو إلٓههم وإلٓه موسى، واتهموا موسى بأنه نسي هذا الإلٓه، فـذهب يبحث عن إلٓـه آخر، وهـذا التأويـل الغريب الذي أوَّلوا به مسلكهم هو الذي عبَّر عنه كتاب الله هنا على لسانهم قائلاً: ﴿ وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً ﴾ أي أثقالاً ﴿ مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾.

غير أن هذا التأويل المصطنع الذي حاولوا أن يؤوِّلوا به مسلكهم لم يكن مطابقاً للحقيقة، فقد عبَّروا عن رغبتهم في تقليد عبدة الأوثان عندما مرُّوا بهم منذ اللحظة الأولى، وقالوا لموسى كما حكى الله على لسانهم في سورة الأعراف: ﴿ يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الآية: ١٣٨]، فردَّ عليهم موسى في الحين بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

ومن المفارقات في هذا المقام أن يُقبِل بنو إسرائيل على عبادة عجل من ذهب، مُخلفين بذلك وعدهم لموسى، ومتمردين على خليفته هارون، في نفس الوقت الذي كان فيه موسى يتلقى كلمات ربه وهو يخاطبه قائلاً: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ولكن الله العليم الخبير أضاف إلى ذلك إنذاراً سابقاً لبني إسرائيل المنحرفين، فقال تعالى منذراً لهم ولمن سلك مسلكهم: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَـٰسِقِينَ ﴾.

ويتجه موسى وهو في ثورة الغضب والأسى من هول ما رآه

إلى أخيه هارون باللوم والعتاب، كأنه قصَّر في القيام بـواجب الخلافة عنه وأهمل وصاياه، فيقول له كما حكى عنه كتاب الله: ﴿ قَالَ يا هارون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ، أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾، فما كان من أخيه هارون إلا أن رد عليه بمنتهى الهدوء وحسن الأدب، محاولاً أن يهدىء روع موسى، ويحرِّك في قلبه نحوه شعور الأُخُوّة والعطف، معلِّلاً بقاءه بين ظهراني بني إسرائيل ـ في انتظار عودة موسى من الطور ليرى فيهم رأيه ـ بخوفه على وحدتهم من الفرقة والشتات، وكأنه كان يتنبأ بمـا سينالهم من شتات في أطراف الأرض، وذلك ما حكاه عنه كتاب الله قائلاً لأخيه وهو يتوسل إليه بصلة الرحم: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَاخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيَ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾.

لكن كتاب الله أعفى هارون من كـل مسؤولية في هـذا الانحراف الخطير الذي انزلق إليه بنو إسرائيل، وذلك قوله تعالى حكاية عنه فيما سبق: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾. وبهذا الخطاب الذي وجَّهه إليهم هارون أراد أن يُعرِّفهم بأن ما وقعوا فيه ليس إلا فتنة من جملة الفتن، التي لا ينبغي أن تصرف الناس عن عبادة الواحد الأحد إلى عبادة الأوثان، وبأن الرب الحقيقي الذي يستحق أن يُعبد دون سواه هو (الرحمَـٰن) الرحيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وطالبهم باتِّباع دينه الذي هو دين موسى دون خروج

عليه، كما طالبهم بطاعته فيما أمرهم به من ترك عبادة العجل، لكنهم أصرُّوا على الضلال، لما أصابهم من الاختلال والخبال، قال علاء الدين المعروف (بالخازن): «اعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم أولاً عن الباطل بقوله: ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾، ثم دعا إلى معرفة الله تعالى بقوله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ ﴾، ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾، فهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لا بد من إماطة الأذى عن الطريق، وهي إزالة الشبهات، ثم معرفة الله فإنها هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة».

وبعدما تأكد موسى عليه السلام من سلامة الموقف الذي اتخذه أخوه هارون، واقتنع بما قام به من محاولات لرد بني إسرائيل إلى جادة الصواب دون جدوى، التفت إلى (السَّامري) الذي أضلَّهم وأغراهم بعبادة العجل في غيبته، مستفسراً إياه في البداية، ومعاقباً له في النهاية، وذلك ما حكاه كتاب الله على لسان موسى إذ قال: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنَ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا، وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾.

و (السامري) الذي كان يتزعم هذه الفتنة هو من عظماء بني إسرائيل، وإليه تنتسب طائفة (السامرة) وهي طائفة يهودية تتفق مع جمهرة اليهود في كثير من المعتقدات وتخالفهم في الباقي، ولا تزال بقايا هذه الطائفة قائمة بالمشرق إلى اليوم، وواضح من

جواب السامري لموسى أنه يعترف بمسؤوليته عن هذه الفتنة الكبرى، وأنه يقر بذنبه الذي ارتكبه من تلقاء نفسه دون إغراء من الغير، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن أصدر في حقه عقوبة العزل التام عن المجتمع مدى الحياة، بحيث لايمس أحداً ولا يمسه أحد، ولم يبقَ أمامه إلا أن يهيم في البراري والقفار مع الوحوش والسباع، وعن هذا العقاب الصارم في الحياة الدنيا مع ما يتبعه من عقاب في الآخرة عبّر كتاب الله حكايةً عن موسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَـوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾. ويقال أن بقايا (السامرة) لا يزالون إلى اليوم محافظين على نفس الكلمة التي نطق بها موسى عليه السلام في حق كبيرهم السامري، ثم جرت من بعده مثلاً: (لا مِسَاس).

أما موقف موسى عليه السلام من العِجْل الذهبي الذي صنعه السامري، ثم عبده وعبده بنو إسرائيل معه في غيبة موسى، فقد كان موقفاً حازماً وصارماً إلى أقصى الحدود، ويتلخص هذا الموقف في تقريره إحراقَ ذلك العجل ونَسْف رماده في البحر إلى غير رجعة، حتى لا يُعبد من دون الله، وذلك ما حكاه كتاب الله على لسان موسى عليه السلام إذ قال مخاطباً للسامري الذي عكف على عبادة العجل، ساخراً منه ومن عجله الذهبي: ﴿ وَانظُرِ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾.

وختم كتابُ الله قصة موسى في هذا الربع الثالث من

(سورة طه) بكلمة الحق الوحيدة والباقية على الدوام، كما أعلنها إلى بني إسرائيل موسى عليه السلام، وشهد بها كافة الأنبياء والرسل الكرام ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، وأكد كتاب الله نفس المعنى في نهاية هذا الربع فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾.

على أن عبادة «العجل الذهبي» لم تزل منها إلى الآن بقية باقية عند أتباع الملَّة اليهودية، فلم يخلُ عصر من العصور، ولا زمن من الأزمان، من ظهور سامريّ جديد يعيد سيرة السامري القديم، وينشر عبادة عجله الذهبي في كل مكان وبكل ما في الإمكان، والله من ورائهم محيط، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾
وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا
فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ
أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ
عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾
فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ
وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ
لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ
مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن
قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ
مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثي في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ إلى قوله تعالى في ختام هذه السورة ـ سورة طه ـ: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنَ اَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾.

كلنا نذكر ما جاء في فاتحة سورة (طه) المكية التي خصصنا لتفسيرها الأحاديث الثلاثة الماضية، والتي يتم تفسيرها في هذا الحديث بإذن الله ومعونته، فقد قال تعالى في مطلعها: ﴿ طَه، مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لِتَشْقىٰ، إلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشىٰ، تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الاَرْضَ وَالسَّمَـٰوَٰتِ الْعُلَى ﴾،وكان مطلعها هذا مناسباً تمام المناسبة لخاتمة سورة (مريم) التي سبقتها مباشرة، تلك الخاتمة التي تضمنت التنويه بكتاب الله، إذ جاء فيها قوله تعالى بالخصوص: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدًّا ﴾ فكانت بداية سورة طه تأكيداً جديداً لنهاية سورة مريم، إذ (التذكرة) التي استعملها كتاب الله هنا هي نفس (البشارة والنذارة) التي استعملها هناك.

وقد لاحظنا في الربع الماضي أنه بمجرد ما انتهى كتاب الله من (حديث موسى) عاد إلى نقطة الانطلاق التي مهّدت لذلك الحديث، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدَ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً، مَّنَ اَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وِزْراً خَـٰلِدِينَ فِيهِ، وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ حِمْلاً﴾. وهكذا عاد كتاب الله إلى التنويه بالذكر الحكيم، وجدّد الدعوة إلى الإقبال عليه واتّباع هديه القويم، وبيّن ما يؤدي إليه ترك العمل به من الأوزار والآثام، وما يتعرض له المعرضون عنه من العقوبات الجسام. وزاد كتاب الله هذا المعنى توكيداً وتوضيحاً، فقال تعالى في هذا الربع: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً، فَتَعَـٰلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾. وواضح ما لهذه الآية الكريمة من ارتباط وثيق بقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشَىٰ﴾ فهي كما يقال «عود على بدء». ومعنى لفظ «التذكرة» الوارد هناك هو نفس معنى (الذكر) الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ في هذا الربع، فكلاهما يؤدي في هذا السياق معنى العظة والتدبر والاعتبار.

وبمناسبة الحديث عن رسالة القرآن وأثرها العظيم في الحياة، لفت كتاب الله نظر رسوله إلى ما ينبغي أن يكون عليه من التأنّي والتثبت عند تلقّي القرآن واستذكار مبانيه، وما ينبغي أن يتطلع إليه من مزيد العلم والفهم لاستيعاب معانيه، فقال تعالى خطاباً لرسوله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُّقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

وكنموذج من «التذكرة والذكر» اللذين يتضمنهما الذكر الحكيم، عرض كتاب الله وصفاً مؤثراً ومثيراً لما خص الله به يوم القيامة من مشاهد العظمة والجلال، وما يتقلب فيه الخلق يومئذ على اختلاف معتقداتهم ومقاماتهم من الخوف والرجاء، وهم بين يدي الكبير المتعال، وقد جاءت بداية هذا الوصف في عدة آيات من الربع الماضي، واسترسل نفس الوصف في آيات أخرى من هذا الربع.

ويستفاد من هذا الوصف أن الله تعالى سيجمع عباده ويحشرهم جميعاً يوم القيامة، وأنهم سيستجيبون في ذلك اليوم لدعوة الداعي مسرعين مهطعين، دون تردد ولا تخلف، على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من تجاهل الدعاة إلى الله، والإعراض عنهم، والسخرية منهم ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ - ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما يقتنع به الخلق يومئذ، خصوصاً عُبّاد الشهوات الذين أسرفوا على أنفسهم، من تفاهة متاع الحياة الدنيا، وقلة أهميتها، وقِصَر مدتها، بالنسبة للحياة الآخرة ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧].

وأمام هذا الشعور الطارىء يتسارُّون فيما بينهم، ويتساءلون من شدة الذهول: كم قضوا في حياتهم الأولى من مدة؟ فيقول قائلهم: قضينا عشر ليالٍ، ويقول أمثلهم: قضينا يوماً واحداً ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً، نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، إِذْ

يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾، وبنفس هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَسْئَلِ الْعَآدِّينَ ﴾ [المومنون: ١١٢، ١١٣]. ويوجد من بينهم من يشعر بأن مدة حياته كلها كانت أقصر من ذلك، وأنها لم تزد عن ساعة واحدة، وتعبيراً عن شعور هذا الصنف من الخلق جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُوفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥].

والغريب في الأمر أنه بمجرد ما يسيطر عليهم هذا الشعور يخيَّل إليهم أنهم قد وجدوا عذراً يعتذرون به أمام الله عن تقصيرهم واستهتارهم، ويخامرهم الأمل في التخلص من قبضة الله، والإفلات من الحساب والعقاب، بدعوى أن مدة حياتهم التي قضوها في الدار الفانية كانت مدة قصيرة لا تكفي للتذكر والاعتبار، ولا تساعد على الاستعداد للدار الباقية، ثم يَصرَخون في جهنم قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فيرد عليهم الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ، فَذُوقُواْ، فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما يتعرض له العالم عند قيام الساعة من ظواهر كونية تقلب الأرض عاليها سافلها، ومن تلك الظواهر نسف الجبال ودكها دكاً، حتى لا يبقى منها عين ولا أثر ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً، فَيَذَرُهَا قَاعاً

صَفْصَفاً، لَّا تَرىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً ﴾، ويشير لهذا المعنى نفسه قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَـدُونَ لَوَٰقِـعٌ، فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ اجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَآ أَدْرىٰكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ [الآيات: ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤]. وقد اهتدى العلم الحديث بطرائقه الخاصة إلى نفس النتيجة الحتمية التي أعلنها كتاب الله منذ أربعة عشر قرناً، ألا وهي أن الكون سيتعرض لانقلاب شامل تتغير به معالمه، وتختل معه نواميسه ودعائمه.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما يكون عليه الخلق يومئذ من الرهبة والجزع، وما يعلو وجوههم من الوجوم والفزع، حتى إذا ما تحادثوا فيما بينهم تحادثوا همساً دون جَلَبة ولا ضوضاء، بحيث لا يُسمع لهم نطق ولا كلام، من هول ذلك المقام ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ ـ ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما أعده الله يوم الفصل من خيبة وخسران، للظالمين الذين لم يؤدوا حقوق الله، فكفروا به وأشركوا، ولم يَقْدُرُوا الله حق قدره، أو لم يؤدوا حقوق العباد فعرضوهم للضياع والهلاك، وما أعدّه من شقاء في الدنيا وعماء في الآخرة للمعرضين عن كتابه، المتجاهلين لخطابه، الذين عَميت منهم البصائر والأبصار، فلم ينفع فيهم تبشير ولا إنذار، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ ـ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنَ اَسْرَفَ وَلَمْ يُومِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقىٰ ﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً أن الوَسَاطات والشفاعات التي اعتادها الناس في حياتهم بالنسبة للعصاة والمذنبين، جرياً مع أهوائهم ومصالحهم، لا تأثير لها في الآخرة، لكن هناك شفاعة خالية من الأغراض والأهواء، يأذن بها الحق سبحانه وتعالى لمن يشاء، من المشفوع فيهم والشفعاء ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾.

وإلى جانب هذا كله تعهد الحق سبحانه وتعالى في هذا الوصف، للمومنين الصالحين من عباده، بالنصرة والتأييد، والهداية والتسديد، والسعادة الحقيقية التي لا يشوبها شقاء، في الدنيا والآخرة على السواء، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقىٰ ﴾.

وكما قص كتاب الله في هذه السورة (سورة طه) قصة موسى مع فرعون، ردد فيها أيضاً صدى قصة آدم مع إبليس، التي سبق ذكرها في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة الحِجْر، وسورة الكهف، والحكمة في ذلك حسبما يظهر من السياق هي تنبيه بني آدم إلى وجوب التحفظ من وسوسة الشيطان، والحذر التام من التعرض لغوائله، حتى يسعدوا بنعيم الجنة ولا يشقَوْا بعذاب النار

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ - ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

وجواباً عن سؤال: «كيف أسكن الله تعالى آدم وحواء الجنة، وكيف أزَلَّهُما الشيطان عنها»، أجاب القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) قائلاً ما خلاصته: «إن آدم وحواء اعتقدا أن الله تعالى إنما نهى عن شجرة بعينها، لا أنه نهى عن جنس الشجر كله، ولما ذهلا عن هذا التأويل وقع ما وقع، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ ثم من بعد ذلك تاب الله عليهما، فزال تأثير تلك المعصية، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾.

ومن لطائف التفسير التي عرفتها هذه القصة ما أبدع به القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تحليله لها إذ قال: «حاش لله أن يقع الأنبياء في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنبيئين، ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها (متعمداً ناسياً)، فقيل في تعمده (عصى آدم ربه)، وقيل في بيان عذره (ولقد عَهِدْنَا إلى آدم من قبل فنسي). ونظيره من التمثيلات أن يحلف الرجل: لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً، ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد ناسٍ، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان».

ويرى الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره «أن الخطيئة يومئذ لم يكن مرتباً عليها جزاءُ عقاب أخروي ولا نقصٌ

في الدين، وإنما أوجبت تأديباً عاجلاً، لأن الإنسان يومئذ كان في طور كطور الصبا، فلذلك لم يكن ارتكابها بقادح في نبوءة آدم، ﴿ ثُمَّ اجْتَبَـٰهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾. يضاف إلى ذلك أن العالَم الذي عاش فيه آدم في مستهل حياته لم يكن (عـالم تكليف) بالمعنى المتعارف عند أهل الشرائع، بل عالم تربية فقط، فإطلاق «المعصية» و«التوبة» و«ظلم النفس» مما ورد في قصة آدم هو بغير المعنى الشرعي المعروف، وتوبة الله عليه بمعنى الرضا، لا بمعنى غفران الذنوب. وظلم النفس بمعنى التسبب في حرمانها من لذات كثيرة بسبب لذة قليلة، وقولُه تعالى في سورة البقرة في نهاية قصة آدم: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً، فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالذِينَ كَفَرُواْ وَكَـذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَـآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّـارِ هُمْ فِيهَـا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الآيتان: ٣٨، ٣٩] هو الذي بيَّن لهم به الحق سبحانه وتعالى أن المعصية إن وقعت بعد ذلك اليوم يكون جزاؤها جهنم».

وبنفس المعنى جاء قول الله تعالى في هذا الربع في ختام نفس القصة: ﴿ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ، وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمىٰ ﴾ كأنَّ التكليف لم يكن مفعوله من قبل سارياً ولا حكمه سائداً، وإنما ابتدأ من الآن فصاعداً.

ووجَّهَ كتابُ الله في نهاية هذه السورة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، مستخلصاً العبرة من قصة آدم وقصة موسى، منبِّهـاً إياه إلى الائتسـاء بهما والاقتـداء، في مكافحـة العوائق

ومواجهة الأعداء، داعياً رسوله الأعظم إلى الاستعانة على تبليغ الرسالة وأداء الأمانة بالصبر على المكاره والأغيار، والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار، والتمسك بالقناعة والتوكل على الله في قضاء الأوطار، والتربص بأعداء الله والانتظار ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقاً، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ - ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم
مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً
قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ

ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى
ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ

مِن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ
مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾
يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ
إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴾.

هذه السورة مكية باتفاق، وهي من سِوَرِ القرآن الأُول العتاق، روى البخاري من حديث عبد الرحمن بن زيد عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «الكهف، ومريم، وطه، والأنبياء من العتاق الأُول، وهن من تِلادي». يعني أنها من قديم ما كسب وحفظ من القرآن الكريم، كالمال التلاد.

ومن دقّق النظر في خاتمة سورة (طه) التي فرغنا من تفسيرها، وفاتحة هذه السورة ـ سورة الأنبياء التي نحن بصدد تفسيرها الآن ـ يجد بين هذه الفاتحة وتلك الخاتمة تناسباً تاماً، حتى إن قارئهما لا يشعر بأنه فارق الجو الذي كان فيه بالمرة،

فقوله تعالى هناك: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ يتضمن إنذار المشركين والكافرين وتهديدهم بما ينتظرهم في دار الجزاء من عذاب وشقاء، وقوله تعالى هنا: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ استمرار في نفس التهديد والإنذار، الموجَّهين من قبل إلى المشركين والكفار.

وبما أن «سورة الأنبياء» سورة مكية، والشأن في السور المكية على العموم ـ حسبما دلَّ عليه الاستقراء ـ أن تُعنَى قبل كل شيء بالدعامة الأولى للدين، وهي (العقيدة) بكل ما تتضمنه من توحيد ونبوة وساعة وبعث، فقد تركَّز الحديث في هذه السورة حول نفس الموضوع، وتخلل هذا الحديثَ وصفُ السنن الإلٓهية، والنواميس الكونية، التي يسير الكون بمقتضاها سيراً محكماً منظماً، مما هو برهان ناطق على وحدانية الله، وعنوان صادق على قدرته وحكمته.

وقبل أن نواصل تفسير الآيات البيِّنات الواردة في هذه السورة، نرى من المفيد أن نعطي فكرة ولو مختصرة عن «الطريقة القرآنية» في معرفة وجود الخالق، التي نبَّه كتاب الله عليها، ودعا كل من أراد معرفة وجوده إليها، وذلك طبقاً لما حققه فقيه المغرب والأندلس وحكيم الإسلام أبو الوليد الحفيد ابن رشد في كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)، فقد اهتدى رحمه الله عن طريق استقراء الكتاب العزيز، إلى أن «الطريقة القرآنية» في هذا المجال تنحصر في نوعين اثنين:

ـ **النـوع الأول** ـ أن جميع المـوجودات مـوافقة لـوجـود الإنسان، ملائمة لحياته، وهذه الموافقة والملاءمة لا يمكن أن تكون بنت الصدفة ومجرد اتفاق محض، وإنما هي بـالضرورة صادرة من قِبَل فاعل قاصد لذلك مريد له، وهو الله تعالى، ولْنُسَمِّ هذا النوع «دليل العناية». فواجب على من أراد أن يعرف الله حق معرفته ويقدُرَه حق قدره أن يفحص عن منافع الموجودات، ويتتبع الحكمة في كل موجود، ليعرف السبب الذي خُلق من أجله، والغاية المقصودة به، وبذلك يكون وقوفه على دليل العناية أتم وأكمل. ومن أمثلة هذا النوع: موافقة المكان الـذي يوجـد فيه الإنسان وهو الأرض، وموافقة الليـل والنهار والشمس والقمـر، ومـوافقة الفصـول الأربعة، ومـوافقة كثيـر من الحيوان والنبـات والجماد، لقضاء ضرورياته والحصول على حاجياته، وما يستفيده الإنسان وينتفع به من الأمطار والأنهار والبحار، إلى غير ذلك من الأشياء، من كل ما هو موافق لحياته، ملائم لوجوده.

ـ **النوع الثانـي** ـ أن جميع الموجـودات وجواهـر الأشياء مختَرَعة مخلوقة، بما فيها النبات والحيـوان والإنسان والجمـاد والأجرام والأفلاك، وغيرهـا مما لا يعلمه إلا الله، وبديهي أن كل مختَرَع مخلوق إنما هو صادر من قِبَل فاعل مختَرِع خالق وهو الله تعالى، ولْنُسَمِّ هذا النوع «دليل الاختراع». فواجب على من أراد أن يعرف الله حق معرفته، ويقدُرَه حق قـدره، أن يتعرف على جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الإلٓهي والحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة

الاختراع، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ومن أمثلة هذا النوع: الجمادات التي تحدث فيها الحياة بعد أن لم تكن، فهي شهادة على أن هناك مُوجِداً للحياة ومنعماً بها، وهو الله تبارك وتعالى، والأفلاك التي لا تفتر لها حركة ولا يختل لها نظام، فهي ناطقة بأن هناك مسخِّراً يسخِّرها وهو الله تبارك وتعالى.

ومستند أبي الوليد ابن رشد فيما اهتدى إليه من «دليل العناية» و«دليل الاختراع» هو كتاب الله قبل كل شيء، ذلك أن آيات الذكر الحكيم الواردة في هذا المعنى إما آيات تتضمن التنبيه على «دلالة العناية»، وإما آيات تتضمن التنبيه على «دلالة الاختراع»، وإما آيات تجمع الأمرين معاً، وهذا النوع هو الأكثر وروداً في القرآن:

ـ مثال الآيات التي تتضمن «دلالة العناية» وحدها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً، وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجاً، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً، وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاساً، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً، وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً، لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً، وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافاً ﴾ [النَّبأ: ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦]. ومثلُهُ قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان: ٦١]، ومثلُهُما قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤]، ومثل هذا كثير في القرآن.

- ومثال الآيات التي تتضمن «دلالة الاختراع» وحدها قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥، ٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ﴾ [الحج: ٧٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧] ،إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

- ومثال الآيات التي تجمع الدلالتين معاً قوله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَٰشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقاً لَّكُمْ، فَلَا تَجْعَلُواْ لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، فإن قوله: ﴿ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ تنبيه على «دلالة الاختراع»، وقوله: ﴿ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَٰشاً ﴾ إلى تمام الآية تنبيه على «دلالة العناية» قال ابن رشد: «فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبَّههم على ذلك بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى».

ومجمل القول أن آيات التوحيد في كتاب الله تتجه إلى إبراز العناية والرعاية التي خصَّ الله بها الإنسان، وإلى إبراز الإبداع والاختراع الذي أنشأ الله به الأكوان، ولا برهان على وجوده أوضح وأقرب إلى الأذهان، من مثل هذا البرهان.

والآن فلنمضِ على بركة الله في تفسير سورة الأنبياء.

يقول الله تعالى رداً على منكري البعث: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، والمراد باقتراب الحساب اقتراب وقته، ومن أجل هذا الاقتراب ينبغي لعقلاء الناس أن يُعدُّوا العدة ويتأهبوا ليوم الحساب، حتى لا يرجعوا من الغنيمة بالإياب، وبنفس المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، والقرب والبعد أمران نسبيان، فقد يكون قرب يوم الحساب، بالنسبة إلى علم الله وتقديره، على حد قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد يكون قرب يوم الحساب، بالنسبة لبقاء العالم، على اعتبار أن ما بقي من مدته أقصر مما مضى، على حد قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعةُ كهاتين». ومهما يكن من أمر فإن كل ما هو آتٍ قريب، وإن طال انتظاره قروناً وأجيالاً.

يقول الله تعالى نعياً على الغافلين اللاهين: ﴿ مَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ اِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لَـٰهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾، والمراد بالذكر هنا كتاب الله، ووصفه (بالمحدَث) يصدق بمعنيين اثنين: المعنى الأول أن القرآن إنما أنزل منجَّماً سورة بعد سورة، وآية بعد آية، فكان نزوله يتجدد من وقت لآخر، ولم ينزل دفعة واحدة كما هو معلوم، على حد قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسـراء: ١٠٦]. والمعنى الثاني أن القرآن هو أحدث الكتب الإلٓهية نزولاً وخاتمتها بالمرة، على حد قول ابن عباس فيما رواه عنه البخاري: «وكتابكم أحدث الكتب بالله، تقرأونه محضاً لم يُشَبْ».

يقول الله تعالى كَشْفاً عما أصاب المشركين من حيرة وتناقض: ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الذِينَ ظَلَمُواْ، هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أَفَتَاتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ - ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ، بَلِ افْتَرِيٰهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ، فَلْيَاتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾ فها هم حيارى مرتبكون، لا يدرون أيّ وصف يصفون به القرآن العظيم، شأن المبطلين الضالين الذين لا يثبتون على رأي، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه فِرية من مفتريات الكلام، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ، فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٨] قال جار الله الزمخشري: «ويجوز أن يكون ذلك تنزيلاً من الله لأقوالهم في دَرَج الفساد، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، والرابع أفسد من الثالث». وهذه الحيرة والتناقض هما شعار أعداء القرآن في كل مكان، إلى الآن وحتى الآن. وقوله تعالى في أول هذه الآية حكايةً عنهم: ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى ﴾ معناه بالغوا في إخفاء النجوى، إذ «النجوى» من التناجي وهو لا يكون إلا خفية، وإنما بالغوا في الإخفاء، مبالغة في كتمان سرِّهم عن جمهرة المسلمين، فكشف كتاب الله سرهم، وفضح أمرهم.

يقول الله تعالى زجراً للمشركين والكافرين، وإنذاراً لهم بسوء العاقبة، إن أصرُّوا على الشرك والكفر: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَت ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً ـ اخَرِينَ، فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ، لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ، قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ، فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰـهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيداً خَـٰمِدِينَ ﴾، وبهذه الآيات استحضر كتاب الله أمام الأنظار مشهد الظالمين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ولم يؤدوا حقوق الله ولا حقوق العباد، مؤكداً أنه إذا حان مصرع الظالمين لم يفلتوا مهما حاولوا أن يفِرُّوا من العذاب، ولم ينفعهم الندم ولا العتاب، فما أكثر عدد الظالمين الذين هلكوا وبادوا، فألقى عليهم رداءُ النسيان، وباستئصالهم التام، وحصدهم كما يُحصَد الزرع، دخلوا في خبر كان.

يقول الله تعالى تنويهاً بعدله وحكمته، وتنبيهاً إلى أنه لم يخلق الإنسان ولا الأكوان عبثاً: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ [الآية: ٣٨]، ثم قال تعالى موضحاً هذا المعنى أكمل توضيح: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ، إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ، وَلَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾.

وواضح من السياق الذي وردت فيه هذه الآيات أنها ترمي إلى إثبات حقيقة واقعية لا جدال فيها، ألا وهي أن الله الذي طبع الطبيعة هو الذي شرَع الشريعة، وكما أن نواميس الطبيعة التي أبدعها تضبط سير الأكوان، فإن قوانين الشريعة التي أنزلها تضبط

سلوك الإنسان، فما على الإنسان إلا أن يتحمل مسؤوليته كاملة ويطبّق على سلوكه قوانين الشريعة، كما تطبّق كافة الأكوان على سيرها نواميس الطبيعة، ولْيَنظر الإنسان إلى حكمة الله السارية في الوجود، وإلى عنايته البارزة في كل موجود، فلا لَعِب ولا عبث في أفعال الحكيم العليم، ولا لهو ولا لغو في تصرفات الله العلي العظيم، وتعالى الله الملك الحق، الذي يبطل الباطل ويحق الحق. أما قوله تعالى في خلال هذه الآيات: ﴿ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ فقد قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن: «إن معناه (ما كنا فاعلين) فـ (إنْ) هنا نافية لا شرطية».

يقول الله تعالى إشارةً لوحدة العقيدة التي جاء بها كافة الأنبياء والرسل: ﴿ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ ويقول ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾، فما تضمنه كتاب الله من الدعوة إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته، والاعتراف بقدرته وحكمته، والدعوة إلى عبادته وطاعته، تضمنته جميع الكتب الإلّهية، ما تقدم منها وما تأخر، وجاء به جميع الأنبياء والمرسلين، الأولين منهم والآخرين: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، ولولا أن المشركين والكافرين أعرضوا عن الحق، ولم يلتفتوا إليه، لعرفوه من تلقاء أنفسهم ووقفوا عليه، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، وهذا دليل على أنهم لو أعطوه ما يستحق من العناية والاهتمام، لوجدوه منهم

على طرف الثُّمَام، وما داموا لم يبذلوا في التماس الحق أيّ مجهود، فلينتظروا اليوم الموعود ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيَ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّـٰلِمِينَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ

هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن
قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾
قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ

ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالَارْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ، اَفَلَا يُومِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَـٰرَكٌ اَنزَلْنَـٰهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

من المشاهدات والبديهيات أن قَوام الإنسان على خلاف قَوام الحيوان، فقَوام الحيوان (أُفقُي) تضطر عينه إلى أن تتجه دائماً إلى أسفل، وقوام الإنسان (رَأسي) يسمح له بأن تتجه عينه إلى أعلى وأن يحني رأسه إلى أسفل، كما قال الدكتور أحمد زكي في كتابه (مع الله في السماء): «فالذي صمم جسم الحيوان وركَّب هيكله كأنه لم يرد من هذا التصميم أن يتمكن الحيوان من النظر إلى السماء، لأن الحيوان لا يستفيد من هذا النظر شيئاً، وعلى غير هذا الطراز صمم المصمم جسم الإنسان وركَّب هيكله، فالإنسان له عقل واعٍ، كثير الوعي، وهو قادر، كثير القدرة، فهو يستفيد من النظر إلى السماء أكبر استفادة، لا سيما والأرض بالنسبة للسماء، كقطرة في محيط ماء، وساكن المحيط

لا يكاد يتعرف على قطرات مائه، أو هي كحصاة في رمال صحراء، وساكن الصحراء لا يكاد يتعرف على حصوات رماله، وهذا الكون بسمائه وأرضه، على اختلاف أشيائه وتباعد أشيائه شيء واحد، أبدعه مبدع واحد، وأجراه مجرٍ واحد، ونسّق بين سننه منسق واحد، وهندسه مهندس واحد».

وعليه فالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، مُطالَب من ربه بالنظر في عالم الملك والملكوت، مسؤول عن تقصيره في هذا النظر، لأنه بتقصيره فيه يكون عاصياً لله، جاهلاً أو متجاهلاً لحكمة الله، إذ لا عذر له يعتذر به في هذا الصدد، بعدما أمدَّه الله بكل ما يلزمه للنظر، من أدوات ومَدَد، وحول هذا المعنى يدور قول الله تعالى في هذا الربع: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أَفَلَا يُومِنُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً، وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

ويُفهم من «الرَّتق والفَتق» الواردين في الآية الأولى أن الجميع كان في بدء الخلق متصلاً بعضُه ببعض، متراكماً بعضُه فوق بعض، ثم وقع الفتق والفرق، وفصلت السماوات عن الأرض بأمر الملك الحق. قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة: «يعني أنهما كانا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما بالهواء» وروى ابن أبي حاتم في كتابه عن ابن عباس أنه قال: «كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما

خلق الله للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات» على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]. ونبه ابن عطية إلى المناسبة الموجودة بين قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ وقوله تعالى قبله: ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ وهي أن الماء الذي هو أصل كل الأحياء، نتيجة من نتائج فتق السماء، ويتصل بمعنى هذه الآية قوله تعالى في سورة النور: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [الآية: ٤٥].

ويرى المومنون بكتاب الله من الباحثين المعاصرين في العلم الحديث، أن هذه الآية الكريمة هي إحدى الآيات البيِّنات التي تثبت لكل منكر أن القرآن العظيم كتاب منزل من عند الله، وأنه لا مجال للشك في وجود الله، فقد سبقت هذه الآية بعدة قرون ما اهتدى إليه العلم الحديث، من أن الأرض والشمس ومختلف الكواكب والأجرام إنما كانت سديماً في الفضاء، وأن الأرض انفصلت عن هذا السديم عندما انقسم إلى عدة أجزاء، بدليل ما يوجد في باطن الأرض من حرارة شديدة، وما يَقذِف به جوف الأرض من براكين عديدة، وما يجري من المياه الساخنة في عدة عيون، مما لا يَرْقَى إليه الشك ولا تختلط به الظنون، يضاف إلى ذلك أن تحليل طَيْف الشمس أدى إلى التأكد من أن العناصر التي تتكون منها الشمس نفسها هي نفس العناصر التي تتكون منها الأرض، وهذه النظرية تعتبر عند القائلين بها رأياً مسلَّماً لا يقبل الرفض، وهي على كل حال، وعلى وجه الإجمال، لا تعارض

الآية الكريمة التي سبقتها بأجيال. ووصفُ السماء بكونها سقفاً محفوظاً في قوله تعالى هنا: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ يفسِّره قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ اللَّهُ الذِي رَفَعَ السَّمَـوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا ﴾ [الآية: ٢] إذ إن السماء في تصور سكان الأرض هي بمنزلة سقف الأرض، لكنه سقف محفوظ من كل تصدُّع وخلل، إلى أن يحُلّ الأجل.

وإمعاناً في إقامة الحجة على الكافرين والمشركين، والمنكرين والشاكين، عرض كتاب الله جملة من مظاهر عنايته بالإنسان، ورعايته له في كل آن، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الاَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ مشيراً بذلك إلى أنه قد سخّر للإنسان كلاً من المكان والزمان، فجعل طبيعتهما ملائمة لطبيعته، وجعل أحوالهما موافقة لمصلحته، فما بال الناس لا يزالون يشركون بالله ويكفرون، ويشكُّون في وجوده وينكرون؟ ﴿ قُلْ مَنْ يَّكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَـنِ، بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

ويُذكِّر كتاب الله الناسين والغافلين بأن الدنيا ليست دار إقامة وقرار، وإنما هي دار سباق بين الرفاق، وقنطرة عبور يمر بها الأبرار والفجّار ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فالعاقل كل العاقل من اغتنم شبابه قبل هرمه، وصحته قبل سَقَمه، وفراغه قبل شَغْله، وحياته قبل موته،

كما جاء في الحديث الشريف، وبذلك يحق له أن يقول مع القائلين من المومنين الصادقين: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ويكشف كتاب الله النقاب عما يندفع إليه الإنسان من العجلة وعدم التأني في كثير من المواقف والتصرفات، بدلاً من الأناة والتثبت في تحديد الوسائل والغايات، حتى إذا ما أُنذر بعقاب إلّهي آجل، تحدَّى القدرة الإلّهية في أن تنزل به ذلك العقاب حالاً وفي العاجل، كأنَّ قدرة الله ينبغي أن تكون طوع يديه، وينسى أنها لو واجهت تحدِّيَه بتحدٍ مثله لأبادته وقضت عليه، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ خُلِقَ الإنسَـٰنُ مِنْ عَجَـلٍ، سَأُوْرِيكُمُ ءَايَـٰتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ، وَيَقُولُونَ مَتىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾. ونفس المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الإنسَـٰنَ عَجُـولاً ﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١].

ويصوِّر كتاب الله للكافرين والشاكين بكل دقة ووضوح ما ينتظرهم يوم القيامة من الأهوال والمفاجآت، مما ستذهب نفوسهم عليه حسرات، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُّجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ، بَلْ تَاتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

ويصف كتاب الله ما يكون عليه الطغاة الظالمون، الغافلون

عن مجرى سنن الله في الأرض، وأنه قد يمهل الظالمين، حتى إذا ما حان مصرعهم لم يفلتهم، وأخَذَهم أخذ عزيز مقتدر، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ، أَفَهُمُ الْغَـٰلِبُونَ ﴾. والنقص من أطرافها يصدق بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات، كما يصدق بالاستئصال والإبادة، والاستعباد وفقدان الحريات، وهكذا يصبح الطاغية مستضعفاً، وينقلب الغالب مغلوباً. ومن ذلك أيضاً تقلُّص اليابسة والخُضْرة أمام زحف البحار والصَّحارى.

ويجدِّد كتاب الله الدعوة إلى الخلق أجمعين، مبيِّناً لهم ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين، من هدايتهم إلى الله، وإنذارهم سوء العاقبة حتى لا يحل عليهم غضبَ الله، داعياً إياهم إلى أن يسمعوا ويعوا، حتى يهتدوا وينتفعوا، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾، فالله تعالى هو الذي ينذرهم، والرسول إنما يبلِّغهم ﴿ مَا ضَلَّ صَـٰحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٢، ٣، ٤].

ويذكر كتاب الله ما يصيب الظالمين الذين كانوا يستعجلون العذاب، من هَلَع وجَزَع، بمجرد ما يتعرضون لأقل امتحان، إذ ينزل بهم من الحسرة والندم والانهيار ما لم يكن في الحِسبان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾، و(النفحة) في قوله تعالى «نفحة من عذاب» هي الدفعة اليسيرة منه، قال أبو حيان في تفسيره:

«وفي قوله ـ ولئن مسَّتهم نَفْحَة ـ ثلاث مبالغات، لفظ المس، وما في مدلول النفح من القلة، وبناء المَرَّة منه، فالمعنى أنه بأدنى إصابة من أقل العذاب أذعنوا وخضعوا، وأقرُّوا بأن سبب ذلك ظلمهم السابق».

ويسجل كتاب الله في هذا المقام ما يقوم عليه حساب الخلق وجزاؤهم عند الله، من مبالغة في العدل التام، دون أيّ اعتبار خارج عن حدود الطاعة والعصيان، مما يؤثر غالباً في عدالة الإنسان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وَإِن كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ اَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالتنويه برسالة موسى وهارون، ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين، وبهذه المناسبة حدد كتاب الله الصفات الجوهرية التي خص الله بها وحيه الإلٓهي المنزل على أنبيائه ورسله، وهذه الصفات تتلخص في أن الوحي الإلٓهي (فرقان) يفرِّق به الناس بين الحق والباطل، و (ضياء) يضيء عقولهم وقلوبهم فيخرجهم من الظلمات إلى النور، و (ذكر) تخشع له الجوارح وتطمئن به القلوب، و (بركة) تنمو بها الإنسانية وتزدهر ديناً ودنيا، روحاً ومادة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسىٰ وَهَـٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَـآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ، الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ، وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَـٰرَكٌ انزَلْنَـٰهُ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ

هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ إلى قولـه تعـالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ، إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي نوَّه كتاب الله بموسى وهارون عليهما السلام، وفي هذا الربع وما بعده قصَّ كتاب الله على خاتم أنبيائه ورسله جملة من قِصص بقية الأنبياء والرسل الكرام، فتحدث خلالها عن إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكرياء، ويحيى، بأسمائهم وصفاتهم، وأشار إلى عيسى ابن مريم وأمه العذراء بتلويح أغنى عن التصريح، إذ قال عنه وعنها: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾. وبهذا العرض الجامع طابق اسمُ هذه السورة (سورة الأنبياء) مسمَّاه، واتضح المراد من معناه، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ

الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ، وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾.

وما دام محور الحديث الرئيسي في هذه السورة هو موضوع «العقيدة» التي هي أصل الدين وأساسه، فإن قصة إبراهيم مع قومه يجب أن تحتل الصدارة في هذا الميدان، وذلك هو ما تصدَّى له كتاب الله هنا بالشرح والبيان، إذ أن اسم (إبراهيم) أصبح منذ قرون طويلة، وفي جميع الأديان الكتابية، رمزاً إلى مكافحة الوثنية، ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس، حتى إنه ليعتبر بحق (إمام الموحِّدين)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾.

وقبل أن يتولى كتاب الله في هذا الربع وصف ما دار بين إبراهيم وأبيه وقومه من حوار وصراع حول عقيدة التوحيد التي اهتدى إليها، ومعتقدات الشرك التي تلقَّوها أباً عن جد، أوجز القول في وصف مزايا إبراهيم، وما آتاه الله من رشد بلغ الغاية القصوى، عندما اختاره رسولاً خليلاً قبل موسى وهارون، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ ولولا ما ألهمه الله من رشد وثبات، وآتاه من حكمة وحجة بالغة، لما استطاع أن يواجه بمفرده مشركي قومه، على كثرة عددهم وقوتهم، وأن يفوز عليهم في الرِّهان، ويغلبهم بالحجة والبرهان.

ثم شرع كتاب الله يفصِّل المحاورة التي دارت بين إبراهيم وأبيه وقومه على الوجه الآتي: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾.

ومن هذه المقالة يتجلّى أولاً حرص إبراهيم الخليل بشكل خاص، على انتشال أبيه قبل غيره من حضيض الشرك، لما بين الأب والابن من علاقة خاصة لا تقوى قوتَها بقيةُ العلاقات، وفي نفس الوقت اهتم إبراهيم بانتشال بقية قومه من نفس الهُوّة التي تردّوا فيها جميعاً، وهذا الاتجاه الرامي إلى إنقاذ العشيرة الأقربين من الضلال قبل غيرهم أكده كتاب الله في خطابه لخاتم الرسل، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ومن هذه المقالة يتجلّى ثانياً رشد إبراهيم عليه السلام، وحذره من إلقاء الكلام على عواهنه، ولذلك لم يُطلِق على الأصنام التي كان يعبدها أبوه وقومه اسم (الآلهة) كما كانوا يعبّرون عنها، وإنما أطلق عليها مجرد لفظ (التماثيل)، والتِّمثال اسم موضوع للشيء المصنوع باليد، الممثَّل بغيره، أي المشبَّه به، تقول مثّلت الشيء بالشيء، إذا شبّهته به، قال أبو حيان: «وفي قوله (ما هذه التماثيل) تحقير لها، وتصغير لشأنها، مع علمه بتعظيمهم لها. وفي خطابه لهم بقوله (أنتم) استهانة بهم، وتوقيف على سوء صنيعهم». وهكذا استنكر إبراهيم عكوفهم على عبادة الأصنام، وملازمتَهم لتعظيمها دون نفع ولا جدوى.

ويحكي كتاب الله جواب قومه إذ يقول: ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾، وليس في هذا الجواب أدنى حجة أو إقناع، وإنما مردُّه إلى التقليد الأعمى ومجرد الإتباع، فيرد عليهم إبراهيم قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وبهذا الرد يطعن في حجتهم، ويَصِم بالضلال قومه عن بَكْرة

أبيهم، وهنا تتجلى معالم «الفتوّة» التي امتاز بها إبراهيم عليه السلام، من جرأته في نصرة الحق، ومهاجمته للباطل، وتحدِّيه للتقاليد البالية، مهما كلّفه ذلك من التضحيات الغالية، ولا يلبث قومه أن يسألوه مستفسرين وهم مترددون: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّـٰعِبِينَ ﴾ يريدون أن يعرفوا هل هو جادّ فيما يقول، أم أن كلامه مجرد لعب وهزل، لكن إبراهيم ينفي هذا الاحتمال، ويرفع في الحين كل إشكال، ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ، وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴾، وبهذا أفهم قومه أن الإلّه الوحيد الذي يجب أن يعبدوه هو رب السماوات والأرض الذي خلقهن، فهو ربهم الحق وحده لا شريك له، وزكّى هذه الدعوى بشهادته عليها، إذ هو رسول الله وخليل الرحمَـٰن، وكفى بشهادته حجة وبرهاناً، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسْطِ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الآية: ١٨]، فلفظ ﴿ الشَّـٰهِدِينَ ﴾ في هذه الآية مأخوذ من (الشهادة) بمعناها المعروف، لا من (المشاهدة) بمعنى مجرد الرؤية والحضور.

ويفكر إبراهيم في وسيلة فعّالة توقظ قومه، وتثير انتباههم، وتقنعهم بأن عبادة الأصنام لا جدوى لها ولا فائدة منها، لأن الأصنام لا تملك لنفسها ضَراً ولا نفعاً، بل هي أضعف من الضعف، وأعجز من العجز، فيعقد العزم على إهانتها، مُقسِماً على ذلك بالله العظيم، ويحدِّث نفسه قائلاً: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾، ثم لا يلبث أن ينتهز فرصة

ذهابهم وغيابهم، ليحمل مِعْولَهُ فيحطم به الأصنام المقدسة عندهم صنماً بعد صنم، حتى تتطاير شظاياها ولا يبقى منها إلا الفتات، ويهدِيه الرشدُ الذي أكرمه الله به إلى أن يستبقي بالخصوص كبير تلك الأصنام، الذي هو أضخمها حَجْماً، وأكبرها منزلة، ويقال إنه كان مصوغاً من ذهب، وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذاً اِلَّآ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾.

وإنما استبقى إبراهيم صنمهم الأكبر حسبما يوضحه السياق، لإقامة الحجة عليهم عندما يفاجَأون بانتهاك حرمة أصنامهم وتحطيمها، فلا يجدون ملجئاً إلا ذلك الصنم الكبير، يسألونه ويستفسرونه عن هذه الكارثة، فيبدو إذ ذاك عجز الأصنام التام كبيرها وصغيرها، إذ لا تَرُدُّ على سؤالهم بأدنى جواب، ولا تُنزل بمن فعل هذه الفعلة الكبرى أيّ عقاب، وتُصِرّ على صمتها المطبق دون أن تقدّم أي جواب، وبذلك تسقط حرمة الأصنام وهيبتها من القلوب، ويصل إبراهيم إلى الغرض المطلوب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: ﴿ قَالُوٓاْ ءَآنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰإِبْرَٰهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمُ إن كَانُواْ يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمُ أَنتُمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾.

وها هنا يبدو نوع من التحوُّل والتطوُّر في الموقف، فقد حكى كتاب الله عن قوم إبراهيم من قبل أنهم استنكروا ما حدث بأصنامهم من التحطيم والتهشيم، ووصفوا فاعل ذلك من قبل أن

يعرفوه بأنه من الظالمين ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ وها هم بعد أن تبيَّن لهم صمت الأصنام المطبق، وعجزها التام عن أي دفاع أو انتقام، يعودون على أنفسهم باللائمة، ويدركون لأول مرة أنهم في الحقيقة هم الظالمون، ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴾. لكن هذه الوَمْضة من النور لم تلبث أن انطفأت وأعقبها ظلام دامس، وإذا بفكرهم الذي بدأ يتفتح يتنكس من جديد، ويعود أدراجه إلى ما كان عليه من متابعة وتقليد ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ ويدركون أن إبراهيم عندما اقترح عليهم أن يسألوا الأصنام مَن فعل بها ما فعل؟ إنما كان يقصد تبكيتهم وتوبيخهم، فيقولون له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فما كان من إبراهيم إلا أن انتهز الفرصة وأعلنها صيحة مدوّية، معرباً عن تضجره منهم ومن معبوداتهم، داعياً إياهم إلى تحرير عقولهم، للوصول إلى معرفة الله ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وهنا ثارت ثائرتهم، وقرروا التخلص من إبراهيم، ومعاقبته بأشنع العقوبات وأقساها ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

غير أن الحق سبحانه وتعالى الذي طبع النار على الحرارة والإحراق نزع عنها ذلك الطبع وأبقاها على الإضاءة والإشراق: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَٰماً عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فلما قال ﴿ بَرْداً ﴾ لم يحرقه لهيبُها، ولما قال (سَلَٰماً ﴾ لم يهلكه زَمْهَريرها، إذ

معنى (السلام) هنا السلامة، وبذلك أفسد الله رأيهم، وخيَّب سعيهم، مصداقاً لقوله تعالى هنا: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَـٰهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ قال أبو العالية: «لو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً إلى الأبد»، وإنما كانت النار على إبراهيم دون غيره برداً وسلاماً، لأنه عند الله أعظم منزلة وأعلى مقاماً، ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾. وقد تحدث كتاب الله مرة أخرى عن عقوبة الإحراق بالنار في سورة البروج، إذ قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمُ إِلاَّ أَنْ يُومِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الآيات: ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩]، وفي هذه الواقعة آتت النار أُكْلَها، وفعلت فعلها.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام اختيار كلمة (فتى) في وصف إبراهيم ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾، واستعمال كلمة (فِتْيَة) -جمع فتى- في أصحاب الكهف ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنَ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ [الآية: ١٠] - ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ - امَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً ﴾ [الآيتان: ١٣، ١٤] ففي كلا المقامين يتعلق الأمر بمومنين صادقين آمنوا بوجود الله ووحدانيته، وقدرته وحكمته، وتبرَّأوا من الشرك

والمشركين، واعتزلوا قومهم بعدما تحدَّوْهم بالحق المبين، مما أعطوا به الدليل على منتهى الثبات وقوة الشخصية، ونهاية الإخلاص والصبر والتضحية، فضربوا بذلك المثل الأعلى للفتوة، واستحقوا الذكر العاطر في آيات الله المتلوة. روى ابن أبي حاتم في كتابه عن ابن عباس قال: «ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب» وتلا هذه الآية ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَٰهِيمُ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى رابطة الدم والعقيدة التي كانت تجمع بين إبراهيم ولوط، فقد كان الأول عمّاً للثاني، وإلى ما مَنَّ الله به على إبراهيم إذ خرج سالماً من نار قومه واعتزلهم فلم يبقَ بين أظهرهم، كما أشار إلى نجاة لوط مما أصاب قومه من العذاب الأليم، وتحدث عن هجرتهما إلى الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، إذ جعلها مهد كثير من الأنبياء ومثواهم الأخير، فقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلُوطاً ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَٰئِثَ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ، وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ، إِنَّهُ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ، وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ يفسّره قوله تعالى في سورة هود: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ، وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبُ ﴾ [الآية: ٧١]، فيعقوب على هذا ولد إسحاق، و«النافلة» ولد الولد كما قال ابن عباس وغيره.

وذكر كتاب الله هنا بمنتهى الإيجاز قصة نوح عليه السلام

فقال: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ إلى آخر القصة. كما أشار إلى ما مَنَّ الله به على داود وسليمان من الحكمة والعلم، والسلطان النافذ والحكم، فقال: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَـٰنِ فِي الْحَرْثِ ﴾ - ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في شأنهما.

ووصف كتاب الله ما كان عليه أيوب عليه السلام من الرضا بالقضاء والقدر، وما أنعم الله به عليه من الشفاء وقضاء الوطر، فقال: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ إلى آخر الآية.

وكان مسك الختام في هذا الربع هو الحديث عن إسماعيل ابن إبراهيم الخليل وإدريس وذي الكفل، فقال تعالى منوهاً بهم وبخصالهم، ومثنياً على جليل أعمالهم: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّـٰبِرِينَ، وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ، إِنَّهُم مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

وَهُوَ مُومِنٞ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ
عَلَىٰ قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ
يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ
اَلْوَعْدُ اُلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ اَبْصَٰرُ اُلذِينَ كَفَرُواْ
يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِے غَفْلَةٖ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ
أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا
وَرَدُوهَا وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٞ
وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ اَلذِينَ سَبَقَتْ لَهُم
مِّنَّا اَلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ
حَسِيسَهَا وَهُمْ فِے مَا اَشْتَهَتَ اَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يُحْزِنُهُمُ اُلْفَزَعُ اُلَاكْبَرُ وَتَتَلَقّٰيهُمُ اُلْمَلَٰٓئِكَةُ
هَٰذَا يَوْمُكُمُ اُلذِے كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾
يَوْمَ نَطْوِے اِلسَّمَآءَ كَطَيِّ اِلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ
أَوَّلَ خَلْقٖ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِے اِلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ اِلذِّكْرِ أَنَّ اَلَارْضَ

يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ
عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ
أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَّبِّ ٱحْكُم
بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادىٰ فِي الظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى في ختام سورة الأنبياء: ﴿قُل رَّبِّ احْكُم بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

في بداية الحديث الماضي بيَّنا وجه المطابقة بين الاسم والمسمى في (سورة الأنبياء) التي تضمنت ذكر سبعة عشر نبياً ورسولاً، بالإضافة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبديهي أن حكمة الله في ذكرهم وذكر أحوالهم هي ضرب المثل بهم لرسوله والمومنين، ففي حياتهم وجهادهم عبرة لمن اعتبر، وفي سيرتهم وسلوكهم نموذج مثالي لأفضل السِّيَر. وها هو كتاب الله يواصل الحديث في هذا الربع عن تلك السلسلة الذهبية، التي هي خير البرية:

يقول الله تعالى عن نبيِّه يونس بن مَتَّى الذي ضاق ذرعاً

بأعباء النبوة بعد أن لم تفلح دعوته في قومه، ففارقهم مغاضباً لهم من أجل ربه، ثم ندم على مفارقتهم ورجع إليهم امتثالاً لأمر الله، بعد ما تابوا إلى الله ورفع عنهم العذاب ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ الْغَمِّ﴾.

ومجمل قصته التي ستأتي بتفصيل في سورة الصافات، وبإيجاز في سورة القلم: أن يونس فارق قومه ساخطاً عليهم، وكان فراقه لهم عن اجتهاد من عنده، لا بإذن من ربه، ظناً منه أنه يستطيع أن يؤدي واجبه حيثما حل وارتحل، وأن دعوته التي لم ينتفع بها قومه يمكن أن تجد آذاناً صاغية عند قوم آخرين، لكنه بمجرد ما فارق قومه وأظلّهم العذاب تضرّعوا إلى الله وتابوا إليه، وسرعان ما عادوا إلى الصواب، فرفع عنهم العذاب، غير أن يونس عليه السلام لم يعلم بتوبتهم في هذه الأثناء، وكان قد انتهى به المطاف إلى شاطىء البحر فركب سفينة مع ركّاب آخرين، وما لبثت السفينة أن أشرفت على الغرق، فاضطر ربّانها إلى أن يُقرِع بين ركابها، ليلقي أحدهم في البحر تخفيفاً عنها، وإنقاذاً لها ولبقية الركاب، فكانت نتيجة القرعة إلقاء يونس في البحر دون غيره، فالتقمه الحوت، ومن هنا أطلق عليه كتاب الله هذا اللقب (ذا النون).

وهنا بدأ تمحيص الله لنبيِّه يونس على ما أقدم عليه من فراق قومه دون إذن من ربه، زجراً له عن المعاودة

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، لكن الله كان رحيماً كريماً عندما حفظه في بطن الحوت، فلم يمسسه سوء، وكما التقمه الحوت بأمر الله عند إلقائه في البحر فحفظه من الغرق امتثل الحوتُ أمر ربه فأخرجه من بطنه دون أن يُلحِق به أيّ أذى، وأعاده إلى نفس الشاطىء الذي أقلع منه، عندما استجاب الله دعاء يونس، ونجّاه من الغم الذي كان فيه، طيلة الفترة التي التقمه فيها الحوت وبقيَ في بطنه، وهكذا أعاده الله إلى قومه سالماً، ليرى أن شجرة الحق التي غرسها قد أينعت وآتت أكلها بإذن ربها، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ إشارة إلى أن يونس عليه السلام كان قد غلب على ظنه أنه إذا فارق قومه سيخرج من الضيق الذي هو فيه إلى سعة من أمره، وأنه سيستبدل بعسرهم يسراً، لكن الأمر جرى على خلاف ذلك، لحكمة يعلمها الله، فمعنى (لن نقدر عليه) في هذا السياق لن نُضيِّق عليه، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيقه عليه.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَـٰتِ ﴾ بالجمع، إشارة إلى ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، حسبما رُوِيَ عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة، وغيرهم، أو إلى ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدة، وظلمة الوحدة، حسبما يراه الماوردي، أو مجرد

إشارة إلى شدة تكاثف الظلمات، فكأنها ظلمة فوق ظلمة، حسبما يراه أبو حيان.

وقولُ النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن مَتَّى» معناه أنه عليه السلام عندما وصل إلى سِدْرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج لم يكن بأقرب إلى الله تعالى من يونس، عندما كان في قعر البحر وهو في بطن الحوت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، اجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ ﴾ تعهُّد من الله تعالى ـ على وجه التفضل والإحسان ـ لكل مومن صادق التجأ إلى الله وأناب إليه، متبرّئاً من حوله وقوته، لحول الله وقوته، بأن ينجِّيه من الشدائد ويفتح في وجهه باب الفرج، ولا سيما إذا اقتدى بيونس عليه السلام، في التوجه إلى الله بنفس الدعاء، عند الامتحان والابتلاء. روى أبو داود في سننه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «دعاء ذي النون في بطن الحوت ـ لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ـ لم يدعُ به رجل مسلم في شيء قطُّ إلا استجيب له» ورواه أحمد في مسنده، والترمذي والنسائي في (اليوم والليلة)، وواضح أن إجابة الدعاء، والنجاة من الابتلاء، إنما ينالهما من كان من المومنين الصادقين، بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ ﴾.

والحكمة فيما تحدث به كتاب الله عن يونس عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل هي ـ والله أعلم ـ تحذيره من أن يسلك

مسلكه، وحضّه على أن يعتصم بالصبر في دعوته، ولا يضيق ذرعاً بجحود قومه ومعاناة أمته، ولذلك خاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله في سورة القلم: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ، لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [الآيتان: ٤٨، ٤٩].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن زكرياء حين سأل الله أن يَهَبه ولداً يكون نبياً من بعده، فقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي لا تذرني منفرداً وحيداً، وارزقني وارثاً يرثني، ويبقى القيام بأمر الدين على يده في عقبي، ثم ردّ أمره إلى الله، سواء رزقه من يرثه أو لم يرزقه، إذ أنه سبحانه هو خير من يرث الأرض ومن عليها، وهو لدينه خير الحافظين، فحقق الله أمنيته، ولبّى رغبته ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾،وإصلاحها أن الله جعلها ولوداً بعد أن كانت لا تلد، وكما سبقت قصة زكرياء وزوجه وابنه يحيى في سورة آل عمران وفي أول سورة مريم، قبل الشروع في الحديث عن عيسى ابن مريم وأمه العذراء يتكرر نفس الموقف في هذه السورة أيضاً، فيأتي الحديث عنه وعنها بعد الحديث عن زكرياء، للقرابة التي كانت بينهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [الآية: ١٢]. والمراد «بالإحصان»

هنا العفاف والصون والزهد في كل «مباشرة» كيفما كانت حتى ولو كانت حلالاً، على غرار ما حكاه كتاب الله في آية أخرى على لسان مريم عليها السلام إذ قال: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠]،وإضافة «الروح» إليه تعالى في قوله: ﴿ مِن رُوحِنَا ﴾ إنما هي على جهة التشريف، وقد أوضح كتاب الله المراد بذلك في آية أخرى، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ جاء بالإفراد لا بالجمع، وإن كان في مريم آيات، وفي عيسى آيات، لأن أمر الولادة من غير ذَكَر، الذي هو محور هذه القصة، هو في الواقع آية واحدة حسبما نبَّه على ذلك أبو حيان، والمراد «بالعالَمين» من اعتبر بهذه القصة من عالَم زمانها ثم عالَم بقية الأزمان، دلالة على أن الله قادر على كل شيء، وما يشاء الله كان.

وكما أثنى الله في الربع الماضي من سورة الأنبياء على أنبيائه ورسله فقال: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ، وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾ أثنى عليهم سبحانه وتعالى في هذا الربع من نفس السورة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ، وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهباً، وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ رَغَباً وَرَهباً ﴾ أي يدعونه وقت الرغبة ووقت الرهبة، في حال الشدة وحال الرخاء، ويمكن أن يكون المراد به أنهم في حالة دعائهم يجمعون بين الرغبة والرهبة وبين

الخوف والرجاء، إذ لا مانع يمنع من ذلك، عند العارفين والسالكين لهذه المسالك، وإذا كان كتاب الله يثني على الأنبياء والرسل السابقين، ويصف أحوالهم وأخلاقهم للمومنين اللاحقين، فإنما يضرب المثل بهم، ويَلفِت النظر إليهم، ليتأكد من جاء بعدهم من الخلف، أن أحسن قدوة يقتدون بها هي سيرة السلف ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقْتَـدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وهكذا يكون ثناء الله على أنبيائه ورسله في هذه السورة دعوة ملحة إلى ممارسة ما كانوا عليه من فعل الخيرات، والمسارعة إلى المبرّات، ومن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتزام العبادة والخشوع، بشكل متواصل غير مقطوع.

وكما قال تعالى في الربع الأول من سورة الأنبياء: ﴿ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ [الآية: ٢٤]،﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ اِلَّا يُوحىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الآية: ٢٥]، أكد كتاب الله نفس المعنى وزاده بياناً وتوضيحاً في هذا الربع، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾، منبهاً بذلك إلى أَنْ جميع أنبياء الله ورسله مجمعون على التوحيد مجتمعون عليه، لا يعرفون لهم ديناً سواه، منذ بدأت النبوات والرسالات إلى أن خُتِمت، وكذلك الأمر بالنسبة لكافة المومنين الموحدين من أَتباع الأنبياء والرسل جميعاً، في أيّ عصر كانوا، وفي أيّ مكان وجدوا، فإنهم يُكوِّنون أمة واحدة على اختلاف أزمانهم وبقاعهم، وسلسلة واحدة على تعدد طبقاتهم وحلقاتهم، فأمة التوحيد هي بحق الأمة الوحيدة التي لا تعدد فيها

ولا افتراق، لأنها اتَّحدت بأجمعها في عبادة الله الواحد الأحد، والتقت على الإيمان به خير تلاق. وعلى العكس من ذلك مَن أشركوا بالله أو شوَّهوا عقيدة التوحيد، فانحرفوا عن الصراط السّويّ والقول السديد ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى استخلاص العبرة من كل ما قصَّه عن الأنبياء والمرسلين، لافتاً نظر المشركين والكافرين، والشاكين والمنكرين، إلى مصرع الظالمين الذين لا يُودّعهم الهلاك في الدنيا حتى يستقبلهم العذاب في الآخرة ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾، كما لفت نظرهم إلى أن قيام الساعة ـ وهو الوعد الحق ـ قريب غير بعيد، واستعرض أمامهم للعبرة والتدبر، صوراً ومشاهد من أشراط الساعة وأهوالها، مع ما يرافقها من مفارقات ومفاجآت ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ، فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ الذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ، إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ، لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ـ ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَٰبِ، كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنَآ، إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

ويحمل كتاب الله البشرى والطمأنينة إلى قلوب المومنين الصادقين إذ يقول: ﴿ فَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَا

كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُ كَـٰتِبُونَ ﴾، ويقول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَـٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتَ انفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ، لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّيهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى، حكاية عن أهل الجنة: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

ويعيد كتاب الله الكَرّة، وكأنه يقول لمشركي قريش: من أنذر فقد أعذر ﴿ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغاً لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴾، ويدعوهم إلى التماس رحمة الله وهدايته على يد خاتم رسله الذي هو أولى بالمومنين من أنفسهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ، قُلِ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ، فَهَلَ انتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. ويؤكد لهم كتاب الله على لسان رسوله أنه قد بلَّغهم عن الله كل شيء ولم يكتمهم شيئاً،ولذلك سُقِط في أيديهم، ولا يمكنهم أن يؤاخذوه، إذا ضاعت عليهم هذه الفرصة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلَ ءاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ، وَإِنَ اَدْرِيَ أَقَرِيبٌ اَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ، وَإِنَ اَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالالتجاء إلى الله والاحتكام إليه، حتى ينصر عبده، ويهزم الأحزاب وحده، ويُظهَر دينه ولو كره المشركون ﴿قُل رَّبِّ احْكُم بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والثلاثين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّهُۥ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦
وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ
مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُۥ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ
عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ
حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ
انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا
لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥ أَقْرَبُ

مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن
يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ
لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ◆

الربع الأول من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة الحج: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

هذه السورة وصفها القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) بأنها من أعاجيب السُّور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مكياً ومدنياً، ومن بين آياتها المكية ما ورد مبدوءاً بـ ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ ﴾، ومن بين آياتها المدنية ما ورد مبدوءاً بـ ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ويغلب على هذه السورة في أكثر آياتها طابع السُّور المكية، وموضوعاتها الرئيسية. وسميت (سورة الحج) أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الآيتان: ٢٧، ٢٨].

ومناسَبةُ بداية سورة الحج لنهاية سورة الأنبياء أن كتاب الله ذكر في نهاية سورة الأنبياء حال الأشقياء والسعداء، وما يكون عليه الفريقان يوم الفزع الأكبر، وأعذر لمشركي قريش بعد أن أنذرهم وتوعدهم، واحتكم إلى الله في شأنهم، ثم جاءت بداية سورة الحج تجدد تحذير الشاكين، وتخويف المشركين، فأشارت إلى زلزلة الساعة وشدة هولها، وذكرت ما أعدّ الله لمنكريها، ونبّهتهم على أحقية البعث ووقوعه بتطويرهم في خلقهم أطواراً، وبهمود الأرض ثم اهتزازها بالنبات أزهاراً وثماراً.

يقول الله تعالى داعياً كافة عباده إلى عبادته وتقواه، تجنُّباً لسخطه، وابتغاء رضاه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ، إِنَّ زَلْـزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَـعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْـلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّـاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

فقوله تعالى هنا: ﴿ اتَّقُـواْ رَبَّكُمْ ﴾ أي اتقـوا عـذابـه، واحترسوا بطاعته عن عقوبته، و«الاتقـاء» الاحتراس من الأمـر المكروه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْـزَلَةَ السَّـاعَةِ شَيْءٌ عَـظِيمٌ ﴾: «الزلزلة» في الأصل شدة الحركة، ولفظها مأخـوذ من زَلَّ عن الموضع إذا زال عنه وتحرك.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ الظاهر أن الضمير في «ترونها» يعود على الزلزلة التي تسبق قيام الساعة، لا على الساعة نفسها، إذ الرضاع والحمل إنما يكونان في الدنيا، وليس بعد البعث حمل

ولا إرضاع، والآية توضح إلى أيّ حد يبلغ الهول والفزع، حتى بمن بلغ عادةً غايةَ الغاية في الرعاية والإشفاق، وهي المرضعة عندما تهمل رضيعها، والحامل عندما تنسى حملها.

يقول الله تعالى مستنكراً جدل المجادلين في الحق والدين، ومحذِّراً لهم من تقليد الشياطين، ومتابعتهم على الضلال المبين: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾، فمن «لا علم عنده» لا حق له في أن يجادل ويناظر، والآية عامة في كل من تعاطى المناظرة والجدال دون حجة ولا برهان، واستوحى زخرف القول من وحي الشيطان، و«الشيطان المَرِيد» بمعنى المتمرد المصِرّ على الشر، المتمسك بالباطل.

وليقطعَ كتابُ الله ألسنة المجادلين المبطلين، ويخنق أنفاسهم، ويبطل شبههم، انتزع من حياة الإنسان، التي يتنقل بين أطوارها كل لحظة، ومن حياة النبات، التي يشاهد تحوُّلها كل موسم، دليلين اثنين على قدرته المطلقة، الصالحة في كل آن لكل إنشاء واختراع، والمتمكنة دائماً من خرق العوائد وقلب الأوضاع، والتي يُعَدُّ بعث الإنسان بعد موته، وإنشاؤه نشأة ثانية، أهون الأشياء عليها وأيسرها جميعاً، فقال تعالى تعبيراً عن الدليل الأول المنتزع من حياة الإنسان، رفعاً لشك الشاكين واحتجاجاً عليهم: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ

نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ، وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ فمن تفكَّر في حياته وتدبَّر، أدرك بفطرته السليمة أنَّ بعث الإنسان ونشأته الثانية أسهل وأيسر، وإن كان الكل في قدرة الله على السواء، إذ لا فرق بين إبداع وإبداع، وإنشاء وإنشاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُولَ لَهُۥ كُن، فَيَكُونُ ﴾ [يٓس: ٨٢]. وهذا أول دليل يسقط به جدل المجادلين، الذين يجادلون في قدرة الله على بعث الخليقة وحشرها يوم الدين.

و «النطفة» هي ماء الإخصاب الدافق، فإذا كبر حجم النطفة وتعلقت في جدار الرحم سُمِّيت «علقة» أخذاً من علوق الشيء بغيره إذا تعلَّق به، و «المضغة» هي قدر ما يمضغ من اللحم، و «المخلَّقة» تامة الخَلْق، و «غير المخلَّقة» غير الكاملة والسِّقْط، وإلى هذه الأطوار نفسها يشير قول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الِانسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّـن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰماً، فَكَسَوْنَا الْعِظَـٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ـ اخَرَ، فَتَبَـٰرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المومنون: ١٢، ١٣، ١٤].وقد وقف علم التشريح والأجنة في هذا العصر مبهوراً أمام ما حدده كتاب الله في شأن ترتيب خَلْق الجنين، ولم يستطع أن يزيد ولا أن ينقص مما ورد في الذكر الحكيم، من المسمَّيات والمفاهيم ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ كأنه يقول ـ فيما يراه

الزمخشري ـ :«إنما نقلناكم من حال إلى حال، ومن خلقة إلى خِلْقة لنبيِّن لكم بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً ـ ولا تناسب بين الماء والتراب ـ وقدر على أن يجعل النطفة علقة ـ وبينهما تباين ظاهر ـ ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما أبدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ معنى «الأشد» كمال القوة والعقل والتمييز وعنفوان الشباب، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد، و﴿ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أخسُّه وأدْوَنه، وهو الهرم والخَرَف الذي يصير الإنسان معه ضعيف البِنْيَـة سخيف العقل، قال أبو حيان: «ولا زمان لذلك محدود، بل ذلك بحسب ما يقع في الناس، وقد نرى مَن علت سنّه وقارب المائة أو بلغها في غاية جَوْدة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط، ونرى مَن هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بِنْيته».

وإذا كان كتاب الله في الدليل الأول على البعث لم يُحل على الرؤية في جميع الأطوار التي يتقلب فيهـا الإنسان، لأن بعضها لا يقع تحت المشاهدة المباشرة، واكتفى بأن قال: ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ [الآية: ٥] فإنه قد أحال على الرؤية في الدليل الثاني إحالة واضحة، فقال تعالى تعبيراً عن الدليل الثاني المنتزع من حياة النبات: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾،لأن هذا الدليل الثاني مشاهدَ للأبصار، ولا يتأتى فيه للعين أيّ جحود أو

إنكار، وهذا الدليل قد ورد ذكره في القرآن عدة مرات، لكونه من أوضح الدلائل والآيات، ومعنى «هامدة» يابسة لا نبات فيها، ومعنى «اهتزت» تخلخلت الأرض وتحركت، لأجل خروج النبات، ومعنى «رَبَتْ» زادت وارتفعت بنفس النبات، والمراد بـ«كل زوج بهيج» كل لون يبهج من رآه، من البهجة وهي الحُسْن.

وعقَّب كتاب الله على الدليل الأول المستمَد من حياة الإنسان، والدليل الثاني المستمَد من حياة النبات، بالنتيجة الحتمية والمعقولة، التي يجب أن ينتهي إليها كل من أنصف وترك الجدال، وترفَّع عن الثرثرة وكثرة القيل والقال، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾.

ولا بد هنا من وقفة خاصة عند قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾، وسيعيد كتاب الله نفس المعنى مع تتمته الضرورية شرعاً وطبعاً، إذ يقول في الربع الأخير من هذه السورة نفسها: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الآية: ٦٢]، فها هنا ينبِّه كتاب الله على أن كل ما سوى الله، وإن كان موجوداً فعلاً، فإنه لا وجود له من نفسه، لأن وجوده مرتبط بغيره، إذ هو تحت تصرف الله ومشيئته، يُصرِّف أمره كيف يشاء، و«الحق الحقيقي» هو الموجود المطلق، الغني المطلق، الذي يصدُر كل وجود عن

وجوده، إذ هو مُبدِع الكون ومُمده بمَدَده وجوده، وليس ذلك إلا الله تعالى الملك الحق، الموجود الثابت، الذي لا يتغير ولا يزول.

ووصَفَ كتابُ الله صنفاً ثانياً من المجادلين المتحذلقين، المعرضين عن الحق لمجرد الكِبْر والعناد، الذين يدعون إلى الضلال والفساد، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، وقولُه تعالى هنا: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ أي معرضاً عن الحق في جداله وكلامه، و«العِطف» ما انثنى من العنق، تقول: ثَنَى فلان عنّي عِطفه إذا أعرض عنك، على غرار قوله تعالى: ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون: ٥].

والمراد «بالعلم» هنا العلم الضروري، و «بالهُدَى» الاستدلال والنظر، لأنه يهدي إلى المعرفة، و«بالكتاب المنير» الوحي الإلهي. فهذا الصنف من المجادلين يجادل في الحق دون مستند ولا دليل، وغايته الوحيدة هي التدجيل والتضليل، ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾.

ووصَفَ كتابُ الله نوعاً ثالثاً من المذبذبين والانتهازيين والمنافقين الذين تتقلب بهم الأحوال، ولا يثبتون على حال، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ،

ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ، يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾. وقوله تعالى هنا: ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ يشبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]، إشارةً إلى أن هذا النوع من الناس يكون على وَشْك السقوط لأول دفعة، إذ حرف كل شيء طرفُه وحَدُّه، و«حرف الجبل» أعلاه المحدَّد، والمراد «بالفتنة» الابتلاء والامتحان، والمراد «بالمَوْلَى» هنا الناصر والمعين، والمراد «بالعشير» الصاحب المخالط.

وبعدما ووصَفَ كتابُ الله أصناف المجادلين والمذبذبين، واستنكر مواقفهم، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم جزاءً وفاقاً، عقَّب على ذلك بذكر أهل الإيمان والعمل الصالح، ووصْفِ ما أعدَّه لهم من نعيم مقيم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

ثم أعاد كتاب الله الكرَّة مرة أخرى، ليوبِّخ أعداء الحق وخصوم الحقيقة من أهل الجدال والنفاق، وليتحدَّى كيدهم وعنادهم، فقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ فلا ملجأ من الله إلا إليه، ولا اعتماد إلا عليه، والمراد «بالسَّبَب» هنا الحبل، والسبب ما يتوصل به إلى الأشياء.

وذكَّر كتاب الله بالطابع المميز للذكر الحكيم، وأنه عبارة

عن آيات بيِّنات تقنع كل ذي عقل سليم، وتتجاوب مع كل فطرة سليمة، فمَن جادل فيها فإنما يجادل عن جهل أو عناد أو نفاق، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى أن أمَّة التوحيد والإيمان التي تمسَّكت بعبادة الرحمَـٰن سيفصل الله بينها وبين من تقطَّعوا أمرَهم بينهم، ففارقوا حظيرة التوحيد، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّـٰبِئِينَ وَالنَّصَـٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ونبَّه كتاب الله كافة الطوائف والأقوام إلى أن عالَم الملك والملكوت بجميع ما فيه خاضع لله تعالى، مطيع لذي الجلال والإكرام، لا يستكبر عن عبادته وطاعته، ما عدا طائفة ضالَّة تمرَّدت على الله وتنكَّرت لهدايته، لا يُحسَب لها حساب، وحقَّت عليها كلمة العذاب، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالإشارة إلى أن من خلقه الله في أحسن تقويم، وأكرمه بالعقل والإيمان، ثم هانت نفسه عليه فرضيَ لها بالعكوف على عبادة الأصنام والأوثان، ولم يَنجَع في هدايته إلى الحق لا دليل ولا برهان، لا سبيل إلى إنقاذه من الهوان والخسران، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين
في المصحف الكريم

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ
بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ
لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ
وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ
وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن
تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا

لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَـٰنِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰيكُمْ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

أعظمُ ميزة يمتاز بها الوحي الإلٰهي ـ ومسك ختامه القرآن ـ هو أنه (فرقان)، فرقان يستعين به المومن على التفرقة والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والهُدَى والضلال، والسعادة والشقاء، إذ كثيراً ما تختل مقاييس العقل، وتنحرف اتجاهات الفطرة، ولا عاصم لهما من الاختلال والخبال إلا الوحي الإلٰهي الذي يحميها من الهوى والضلال. فهو المعيار الصادق، لإثبات الحقائق، والطريق المضمون لهداية الخلائق، وها هو كتاب الله يشير في بداية هذا الربع إلى ما يجري عادةً في كل جيل من الخصومة والنزاع، والمواجهة والصراع، بين أنصار الحق وأتباع الباطل، إذ من المتعذر أن يقع بين هـذين الفريقين ائتلاف والتقاء، ما دام الأوَّلون يعملون جادِّين لنيل الفوز والسعادة، والآخرون يشقُّون طريقهم مسرعين نحو الخيبة والشقاء ﴿ هَـٰذَانِ

خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾، لا سيما والخصومة بينهم خصومة في الله، لا تنتهي بالصلح والتراضي إلا إذا تحقق رضا الله، وفي التفسير المأثور أن هذه الآية نزلت في المتبارزين يوم بَدْر، وهم من أصحاب رسول الله ﷺ: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، ومن المشركين: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، ووقع في صحيح البخاري أن هذه الآية نزلت فيهم، وختم مسلم كتابه الصحيح بقصتهم، والقاعدة المتبعة عند العلماء في مثل هذه الآية: «أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، وبذلك تصدق الآية على سبب نزولها، كما تصدق على من يندرج تحت مدلولها، فيكون المراد بالفريقين المتخاصمين من جهة أولى: فريق المومنين، ومن جهة أخرى: فريق الكافرين من كل ملَّة أو دين. وبعموم الآية قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن وغيرهم، ويؤكد معنى العموم ما أشار إليه كتاب الله في أواخر الربع الماضي من أن الله تعالى سيفصل يوم القيامة بين أهل الملل المختلفة، وواضح أنه لا يكون الفصل بينهم إلا في الخصومة القائمة بينهم، وذلك قوله تعالى فيما سبق: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّٰبِئِينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

وبعدما وضع كتاب الله أمام الأنظار قصة الفريقين المتخاصمين على وجه الإجمال أوضح المصير الذي يؤول إليه كل فريق بعد الفصل بينهما في الدار الآخرة، فقال تعالى في

شأن الكافرين الأشقياء: ﴿ فالذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اعِيدُواْ فِيهَا، وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾، وقال تعالى في شأن المومنين السعداء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

والتعبير في الآية الأولى «بالثياب من النار» إما أن يُحمَل على حقيقته، وإما أن يكون استعارة عن إحاطة النار بهم، كما يحيط الثوب بلابسه، ويقابله في الآية الثانية: و«لباسهم فيها حرير». و(الحميم) الماء الحار المُغَلَّي بنار جهنم، وعن ابن عباس: «لو سقطت من الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها». ومعنى «يصهر به ما في بطونهم» أي يذاب به، من «الصَّهْر» وهو الإذابة، ويوضحه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥]، وكما تذاب الأحشاء تذاب الجلود، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]. والمراد (بالمقامع) المطارق أو السِّياط وما يشبههما. وقولُه تعالى: ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي ويقال لهم ذوقوا، وعُبِّر «بالذوق» الذي هو في الأصل الإحساس بالطَّعْم عن الإحساس بألم الحريق، إمعاناً في تبكيتهم على ما أصرُّوا عليه في الدنيا من استهتار واستهزاء، وعناد وعداء.

ثم عقَّب كتاب الله الحديث عما آل إليه أمر الفريقين، بما هدى الله إليه وميَّز به فريق المومنين، من القول الطيب بدلاً من القول الخبيث، ومن العمل الصالح بدلاً من العمل الفاسد، فقال تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ، وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾:

ـ وهداية الله لهم إلى الطيب من القول في الدنيا، تصدق بالشهادتين، والتوسل إلى الله بجميع الأذكار المشروعة والأقوال الطيِّبة، المتعلقة بالبر والخير والإصلاح بين الناس، وخصوصاً الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ وهداية الله لهم إلى الطيِّب من القول في الآخرة، تصدق بمثل قولهم فيها: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلَارْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر: ٧٤] ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤] ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]. و«صراط الحميد» الذي هداهم الله إليه هو دين الإسلام الحق، الذي لا يقبل الله ديناً سواه، ومحجته البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

ـ يضاف إلى «الطيب من القول» ما تتلقاهم به في الدار الآخرة ملائكة الرحمَٰن، من البرور والرعاية ومزيد الإحسان ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ـ ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰماً ﴾ [الفرقان: ٧٥] ـ ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا

صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] - ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَاثِيماً، إِلاَّ قِيلاً سَلَماً سَلَماً﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن صورة مثيرة من صور الصراع القائم بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، فقد كان الشرك بمكة في فترة من الدهر عاتياً طاغياً، فاستولى على مهد التوحيد وقاعدته الأولى في الحرم الشريف، واستبدَّ بهما، حتى حرَم من الكعبة ومقام إبراهيم وارثَ إبراهيم خاتم الأنبياء والمرسلين، وصَدَّهُ ومن معه من المومنين، عن الوصول إلى بيت الله الحرام وأداء مناسكهم فيه، وكان ذلك عام الحُدَيْبية، وزعم مشركو قريش أنهم أولياء البيت وأصحابه ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُ، إِنَ اَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فتصدَّى كتاب الله لإبطال مزاعمهم، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الذِي جَعَلْنَهُ لِلنَّاسِ سَوَآءٌ الْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَنْ يُّرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾، وبذلك أكد كتاب الله أن بيت الله الحرام ليس مِلكاً لفريق دون آخر، وأن المقيمين بمكة، وهم «العاكفون» والوافدون عليها، وهم «البادون» سواسية فيما لهم في بيت الله من حقوق، بصفته مَنْسَكاً وقبلةً ومتعَبداً. وأعلن كتاب الله أن صَدَّ الناس عن المسجد الحرام بأية وسيلة من الوسائل، وبأيِّ عذر ينتحل من الأعذار، يعتبر إلحاداً وظلماً، إذ هو تحويل لصبغة المسجد الحرام، وخروج به عن أصله بالمرة، وتوعَّد كتاب الله

كل من صد عن سبيله بالعذاب الأليم.

وحمل بعض المفسرين لفظ (الإلحاد) في قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على معناه العام، فأدرج فيه كل ما يُعدّ مَيْلاً وانحرافاً عن الإسلام، اعتقاداً كان أو عملاً، من الصغائر أو من الكبائر، كما حمل بعض المفسرين جملة « وَمَن يُرِد» على معنى العمل والنية معاً، حتى أن من نوى سيئة من السيئات بمكة حوسب عليها ولو لم يعملها، لعظم حرمة المكان، أما إذا عملها فإنه يرتكب معصيتين: إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بانتهاك حُرمة البلد الحرام، وقد رُوِيَ هذا التفسير عن ابن مسعود وابن عمر، وذهب إليه الضحاك وابن زيد.

وبعد أن استنكر كتاب الله ما قام به مشركو قريش من صد الرسول والمومنين عن بيت الله الحرام عام الحديبية، وبعدما توعّد الله كل من أراد في بيته بإلحاد، انتقل مجرى الحديث إلى التذكير ببناء البيت الذي رفع قواعدَه إبراهيمُ وابنهُ إسماعيل، والتذكير بالرسالة السامية التي أعدَّ الله لها هذا البيت عَبْر القرون والأجيال، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ [الآيتان: ٢٤، ٢٥].

وهذه الآية تتضمن بطريق التعريض توبيخ مشركي قريش على ما هم فيه من المفارقات والتناقضات، فبينما هم يَدَّعون البنوة لإبراهيم، إذا بهم يصرُّون على الشرك الذي كان إبراهيم

أعدى عدوٍّ له حتى تبرَّأ من أبيه وقومه من أجله، وبينما إبراهيم كان يحرص على تطهير البيت من كل رِجْس وَخَبَث، ـ بما في ذلك رجس الأوثان والأصنام، وخبث الأوساخ والأقذار ـ إذا بمشركي قريش ينتهكون حرمة البيت الحرام، ويملأونه بالأوثان والأصنام، وبينما إبراهيم كان يُعدُّ العدة ليكون البيت مكاناً مقدساً يحج إليه عباد الرحمَٰن، الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان، من جميع الأقاليم والأوطان، إذا بمشركي قريش ينزلون به إلى الدرك الأسفل ، ويحوِّلونه إلى معبد سخيف تسود فيه عبادة الأوثان.

والخطاب في قوله تعالى هنا: ﴿ لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ ـ ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ ـ ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ موجَّه لإبراهيم الخليل عليه السلام، وكأن كتاب الله يعيد على مسامع رسوله والمومنين نفس الخطاب الإلَٰهي الذي تلقَّاه إبراهيم الخليل، يوم وكَل اللَّهُ إليه وإلى ابنه إسماعيل إقامة البيت الحرام، وإذا كان هذا الخطاب موجهاً بالأصالة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه موجَّه بالتبع إلى خاتم الأنبياء والرسل، مجدِّد ملَّة إبراهيم، الذي أمره الله بإعادة الحق إلى نصابه، عند تيسر أسبابه، وكأنما كان التذكير ببناء البيت الحرام، وبالحكمة التي من أجلها وُضِع للناس، تمهيداً لما ورد بعد ذلك في هذا الربع، من توجيه الخطاب إلى مشركي قريش ومَنْ سلك مسلكهم، بقوله تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الاَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَآءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾. ومعنى ﴿ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ جعلناه يبوء إليه ويقيم فيه، كقوله تعالى في آية أخرى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

والجمع بين عبادة الأوثان وقول الزور هنا في قِرَان واحد، والأمر باجتنابهما معاً في آن واحد، مبني على ما يوجد بينهما من ارتباط وثيق، فالشرك في الحقيقة هو رأس الزُّور، لأن المشرك بالله يزعم زوراً وبهتاناً أن الوثن يستحق العبادة، ويشهد له بالقدرة على الضرِّ والنفع وغيره من صفات الكمال، التي هي من صفات الله وحده دون سواه، وكل قول من أقوال الزور يلتقي مع الشرك في أنه كذب وباطل، وغير مطابق للحقيقة.

وقولُه تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ فيه وعد من الله لإبراهيم بتلبية الناس لندائه إلى حج البيت، وأنهم ستَهوِي أفئدتهم إليه، ويقبلون عليه، مشاة وركباناً، بمختلف الوسائل التي يملكونها في كل عصر، وجاء التعبير بـ «ياتوك» بدلاً من «ياتوا البيت» مثلاً، كأن من أتى الكعبة حاجّاً أتى إبراهيم، لأن النداء إلى الحج إنما وصل إلى الناس بواسطته، وفي ذلك من التشريف لإبراهيم الخليل ما هو أهل له. ولفظ «رجال» هنا جمع راجل، ولفظ «الضامر» إشارة إلى الإبل التي يمتطيها الحجاج من مسافات بعيدة، فيُتعِبها السفر حتى يصيبها الهزال ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ والإشارة هنا إلى الإبل بالخصوص إنما جرت مجرى التمثيل، فقد كانت هي المركوب الشائع بين العرب، و «الفج» الطريق الواسع، و «العميق» هنا معناه البعيد.

وقولُه تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ وردت فيه كلمة ﴿ مَنَٰفِعَ ﴾ نكرةً بدون تعريف، إشارةً إلى مختلِف المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة، مما لا يوجد نظيره في بقية العبادات.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ ورد فيه وصف الأيام «بالمعلومات»،كما ورد في آية أخرى وصف الأيام «بالمعدودات»، تنبيهاً على أن أيام النحر وأيام التشريق أيام فاضلة تستحق مزيد الاعتناء، وعلى أنها أيام مخصوصة ليست كغيرها من أيام العمر، فينبغي اغتنام فضلها، لما لها من خصوصية وامتياز.

والمراد (بذكر اسم الله) هنا نفس النَّحر والذبح، مما يقوم به حجّاج بيت الله الحرام، وإنما كنى كتاب الله عنهما (باسم الله) نظراً لأن المسلم لا ينفك عن ذكر اسم الله كلما نحر أو ذبح، ولأن الغاية الأولى والأخيرة مما يتقرب به المومن إلى الله هو ذكر اسم الله ونيل تقواه ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ - ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ، كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ

كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ
وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا
تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا
فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ
فِي أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ
اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ
فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ
وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا

ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

في الربع الماضي تحدث كتاب الله عما قام به مشركو قريش من صد رسول الله والمومنين عن البيت الحرام عام الحديبية، إلحاداً وظلماً، وفي هذا الربع يتصدى كتاب الله لتقرير حق الدفاع عن النفس والدين، لأول مرة، دفعاً للظلم، ومقاومةً للإلحاد، حتى يتحرر البيت الحرام من رجس الأوثان، ولا يبقى تحت رِبْقة الوثنيين، وحتى يتحرر المستضعَفون بمكة من عَنَت المشركين. وقبل أن يأذن الله للمومنين بقتال من ظلمهم، وتثبيتاً لهم على الحق، أوحى إلى رسوله أنه سبحانه سيتولى الدفاع عنهم، وأنهم سيكونون في حمايته ورعايته، عندما يُعِدُّون العدة لمكافحة الباطل وتقليم أظفاره، ويهبُّون لنصرة الحق وتحرير أنصاره، فمن كان الله له عوناً، لم يخف هضماً ولا غبناً، وإلى

هذا المعنى يشير قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وكما ألقى بهذا الوعد الحق السكينةَ في قلوب المومنين، أعلن غضبه على الكفر والكافرين، وسخطه على الخيانة والخائنين، ومَن غضِب اللّهُ عليه وَكَله إلى نفسه أحوج ما يكون إليه، وخذله حتى أقرب الناس إليه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾. وهكذا تضمنت هذه الآية وعداً من الله بنصر المومنين، ووعيداً بخذلان الكافرين والخائنين، والخيانة هنا تصدق بالأصالة على «الخيانة الكبرى» وهي خيانة الأمانة الإلٓهية التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، مما يجب على الإنسان الوفاء به من حقوق الله وحقوق العباد في كل آن، وتصدُق بالتَّبع على بقية صنوف الخيانات، مما يتفرع عنها ويظهر أثره في مختلف التصرفات.

وبعدما نَهى كتاب الله عن قتال المشركين في نَيِّف وسبعين آية، لعدم توافر الظروف الملائمة، وضعف الاستعدادات اللازمة، نزلت أول آية في الإذن بالقتال، بعدما استنفد الرسول والمومنون جميع الوسائل السلمِيّة، ولم يبقَ للصبر والاحتمال أي مجال، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾، والمأذون فيه محذوف، أي أُذِن لهم في القتال، بدليل قوله: ﴿ يُقَٰتَلُونَ ﴾، وكأنه لما قال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ قال: (فليقاتِل المومنون)، وعلَّل كتاب الله هذا الإذن ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾، فقتال المسلمين إنما هو لرفع الظلم، وإزهاق الباطل، وإحقاق الحق.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ تعهُّد من الله ـ على وجه التفضُّل والإحسان ـ بنصر المومنين نصراً مؤزراً، متى خاضوا المعركة، لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، وقد جاء هذا التعهد في صيغة تحفِز على الاستماتة في سبيل الله، كلها توكيد وتأييد. ومَن كانت قدرة الله توجِّهه وترافق خطواته، لم يستطع أيّ عائق كيفما كان أن يقف في طريقه أو يعطِّل حركاته.

ثم كشف كتاب الله النقاب عن أشنع وجوه الظلم التي نزلت بالمسلمين على أيدي المشركين، مما يبرِّر انتفاضتهم ضد الظلم والطغيان، ومكافحتهم للمشركين، المعتصمين بتقاليد الجاهلية وعبادة الأوثان، فقال تعالى في وصف المومنين (الذين ظلموا): ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾، مبيِّناً أن حرية الاستقرار والإقامة بالأوطان، وحرية الضمير والوجدان، حقان أساسيان لا بد من ضمانهما لكل إنسان، ولا سيما إذا كان الأمر يتعلق بعقيدة التوحيد والإيمان.

ووضع كتاب الله أمام أنظار المومنين حقيقة واقعية وتاريخية لا جدال فيها ولا نزاع، ألا وهي أن الحق مهما كان نوعه لا بد له من نصرة ودفاع، فكثيراً ما يطغى الباطل ويحاول أن يسيطر سيطرة نهائية، لولا ما يقف في وجهه من حركات الدفاع المضاد، التي تدفع بالطغاة الظالمين إلى الهاوية. وهذه الحقيقة هي التي عبَّر عنها كتاب الله بمنتهى الدقة والوضوح في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دِفَـٰعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] وإليها يشير قوله تعالى هنا مع ذكر المثال:

﴿ وَلَوْلَا دِفَـٰعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾، مما يدل على أن العقائد والأديان، إنما هي مدينة بوجودها وبقائها لمن دافعوا عنها بحماس وإيمان، ولولا ذلك لدخلت كلها في خبر كان.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذاالمقام ما في هـذه الآية الكريمة من ذكر لجملة من معابـد الملل الأخرى إلى جـانب «المساجد» التـي هي بيوت الله، والإتيان بها جميعاً في صعيد واحد، ففي ذلك تلميح لطيف إلى مبدأ الإسلام الأساسي القائل: «لا إكراه في الدين»، وإشارة واضحة، إلى أن الإسلام يضمن لمخالفيه حرية الاعتقاد، وأنه كما لا يسمح بالاعتداء على معابده ومقدساته لا يسمح بالاعتداء على معابدهم ومقدساتهم أيضاً. قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: «هذه الآية تضمنت المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم»، وقال القرطبي: «إنمـا لم يُنقَض ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عوهدوا على صيانتها».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ ﴾ بعد ذكر الصوامع والبِيَع والصلوات والمساجد يعود الضمير فيها على المساجد دون إشكال، ويمكن أن يعود حتى على الصوامع والبِيَع والصلوات، باعتبار ما كان عليه الأمر فيها قبل أن ينحرف أهلها عن دين الحق ويُدخلوا فيه البدع والمحدثات.

وبعدما أذن الله لعباده المومنين بالقتال، دفاعاً عن عقيدتهم وحريتهم وكيانهم الخاص، ومقاومةً للظلم والإلحاد، وبعدما حدد

كتاب الله مبادىء الدفاع المشروع، وفائدة هذا الدفاع، وضرورة الالتجاء إليه في معترك الحياة، لحفظ التوازن والحد من الطغيان، حوَّل مجرى الحديث إلى الكلام عن الغاية الأولى والأخيرة التي يجب أن يتوخاها المومنون من جهادهم ودفاعهم، بمجرد تمكُّنهم في الأرض وانتصارهم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ مبيِّناً بذلك المبادىء الأساسية التي يجب أن ترعاها الدولة الإسلامية، ومبرزاً الطابع الخاص الذي يجب أن يتميز به المجتمع الإسلامي، وأول هذه المبادىء: إقامة الصلاة وربط الصلة بالله، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في انسجام تام مع التوجيه الإلٓهي العام، فلا تمرُّد على الله ولا عصيان، ولا غفلة ولا طغيان، ولكن طاعة وإذعان، ويقظة وإيمان، والصلاة هي عماد الدين، والحق الأول من حقوق الله على المومنين.

وثاني هذه المبادىء: إيتاء الزكاة، وتوثيق رباط المحبة والتكافل بين عباد الله، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على درجة كبيرة من الإنسانية والتعاطف والتراحم والتواصل، بدلاً من الأنانية والتقاطع والتهارش والتقاتل، شعارهما «نفسي وأخي، بل أخي قبل نفسي، لا نفسي نفسي»، والزكاة هي دعامة الإخاء والوئام بين الإخوة المومنين، والحق الأول من حقوق المعسرين على الموسرين.

وثالث هذه المبادىء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على تمام

الوَعْي بخطورة المسؤولية الملقاة على عاتقهما في صيانة الإسلام من كل ما هو دخيل، والحفاظ عليه شكلًا وموضوعاً، مَظهَراً ومَخبَراً، عرَضاً وجوهراً، حمايةً للكيان الإسلامي من الفناء، ووقوفاً في وجه الدسائس والمؤامرات التي تحاك ضده في الخفاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ـ بمعنى نصرة الصلاح والقيام بالإصلاح، ومحاربة الفساد والحيلولة دون الإفساد ـ هو الواجب الأول من واجبات الدولة الإسلامية، وهو معيار فسادها أو صلاحها، وفشلها أو نجاحها، وهو الضامن الأكبر لسلامة الدين، وسلامة المجتمع، وسلامة الدولة.

وواضح من هذه الآية الكريمة أن «تمكين» المسلمين في الأرض مشروط بهذه الشروط كلها وبما تفرع منها، فمتى توافرت كان لهم النصر والتمكين، ومتى أُهمِلت أو أهمل بعضها حلَّ بساحتهم الخذلان والتفكك إلى حين، ﴿ وللهِ عَـٰقِبَةُ الأُمورِ ﴾.

واتجه الخطاب بعد ذلك إلى الرسول والمومنين، باستخلاص العبرة مما جرى للأنبياء والرسل السابقين، والتحذير مما أصاب أقوامهم من الهلاك والعذاب بين الحين والحين، تثبيتاً لرسوله على الحق، وإنذاراً للمصرّين على الباطل من الخلق، فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ، وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسىٰ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي، فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَبِـيرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ، أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ، وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.

وَرَدّاً على المشركين الذين كانوا يتحدَّوْن الرسول ويستعجلونه بالعذاب الذي حذَّرهم منه كتاب الله، جاء قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ليس لي تعجيل عذابكم، ولا تأخيره عنكم، وإنما أنا منذركم به، ثم عرَّف كتاب الله كل فريق من المومنين والكافرين بمصيره عند الله، حتى يكون على بيِّنة من أمره، فقال تعالى في شأن المومنين: ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، وقال تعالى في شأن الكافرين المعاندين: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ ﴾.

وتأكيداً لما وعد الله به رسوله من أن يعصمه من الناس، وكشفاً عن حقيقة المحاولات التي يحاولها أعداء الرسالات الظالمون المضلِّلون، من بثِّ البلبلة في الصفوف، ونشر الشُّبَه المضلِّلة بين ضعفاء النفوس، ثبَّت الله نبيه على الحق، وأطلعه على ما تعرَّض له الرسل والأنبياء السابقون من ابتلاء في هذا السبيل، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَـٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَـٰتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَـٰنُ

فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ إشارةً إلى أن جميع الرسل والأنبياء السابقين كانوا حريصين على هداية قومهم، متمنين لذلك مثابرين عليه، وأنه ما منهم من أحد إلا وكان الشيطان لدعوته بالمرصاد، واقفاً في وجه نبوته ورسالته، يقاومه ويراغمه، بتزيين الكفر لقومه، وإلقاء الشُّبَه في نفوسهم، لكن الله تعالى لا يلبث أن يمحو تلك الشبه من قلوبهم شيئاً فشيئاً حتى يومنوا، ثم يظهر الله آياته محكمة لا لبس فيها ولا خفاء، ولا يبقى لتلك الشبه وزخارف القول أيّ أثر، اللّهمّ إلا فيمن كان قلبه مريضاً وقاسياً ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾.

وإنما نُسب إلى «الشيطان» في هذه الآية ما يقوم به خصوم النبوات والرسالات من تحدي الأنبياء والرسل، وبثّهم البلبلة وإلقائهم الشبه، لأن الشيطان هو المُغوِي، والمحرك شياطين الإنس للإغواء، مصداقاً لما حكى عنه كتاب الله ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، وقد كان رسول الله ﷺ على غرار إخوانه الأنبياء والرسل السابقين، من أحرص الناس على هداية قومه، بشهادة الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، إذ قال في وصفه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال أيضاً: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُومِنِينَ مِنَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] وكان في قومه شياطين، كالنضر بن الحارث، يلقون لقومه

وللوافدين عليه من الشبهات ما يثبطونهم به عن الإسلام، ورغماً عن ذلك فقد أظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُومِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾. أما قصة (الغرانيق) «السفلى» التي هوَّل بها البعض في هذا المقام، فهي كما قال الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية، من وضع الزنادقة، وليس لها أصل في الإسلام، واستدل علاء الدين المعروف (بالخازن) في تفسيره على ضعفها باضطراب رواتها، واختلاف ألفاظها، وانقطاع سندها.

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في هذا السياق فسَّره جار الله الزمخشري بأنه «تعهد من الحق سبحانه وتعالى بتوفيق المومنين من أهل العلم، إلى تأويل ما تشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، وحمل ما أشكل منه على ما تقتضيه الأصول المحكَمة ، والقوانين الممهَّدة ، حتى لا تلحقَ المومنين حيرة، ولا تعتريَهم شبهة، ولا تزِلّ لهم قدم».

وخُتم هذا الربع بتأكيد وعد الله للسعداء، ووعيده للأشقياء، فقال تعالى في شأن الكافرين والمكذِّبين: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، وقال تعالى في شأن المومنين الصالحين: ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فِي جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ ﴾، وخص كتاب الله المهاجرين منهم بالذكر والثناء، جزاء ما بذلوا في سبيل الله وإعلاء كلمته من التضحية

والفداء، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ، لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا
عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً
إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ

إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى
ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن
جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ
يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟
لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ

ضَعُفَ اَ۬لطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ اُ۬للَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِۦٓ إِنَّ اَ۬للَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤ اِ۬للَّهُ يَصْطَفِے مِنَ
اَ۬لْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلاٗ وَمِنَ اَ۬لنَّاسِ إِنَّ اَ۬للَّهَ سَمِيعُۢ
بَصِيرٞ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى
اَ۬للَّهِ تُرْجَعُ اُ۬لْأُمُورُ ۝٧٦ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لَّذِينَ ءَامَنُواْ اُ۪رْكَعُواْ
وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ اُ۬لْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِے اِ۬للَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ
اَ۪جْتَبَيٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِے اِ۬لدِّينِ مِنْ حَرَجٖ
مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّيٰكُمُ اُ۬لْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ
وَفِے هَٰذَا لِيَكُونَ اَ۬لرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى اَ۬لنَّاسِ فَأَقِيمُواْ اُ۬لصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ اُ۬لزَّكَوٰةَ
وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَيٰكُمْ فَنِعْمَ اَ۬لْمَوْلَيٰ وَنِعْمَ اَ۬لنَّصِيرُ ۝٧٨

الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَيكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾.

في بداية الربع الماضي قرر كتاب الله حق المومنين في الدفاع عن دينهم وكيانهم ضد كل اعتداء، كما تعهّد الحق سبحانه وتعالى بنصرتهم على الأعداء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ - ﴿ اذِنَ لِلذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وفي نهايته نوّه بموقف المهاجرين في سبيل الله، الذين قتلوا أو ماتوا،وأعلن عن ثوابهم في دار النعيم، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ [الآية: ٥٨]. وكان مسك الختام في الربع الماضي قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ إشارةً إلى أنه لولا حلم الله على البشر، لأخذهم بظلمهم أخذاً وبيلاً، على حد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ

مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي نفس هذا الجو، جو الدفاع المشروع، المأذون فيه من قِبَل الشارع، والمؤيَّد بنصر الله في الدنيا، وثوابه في الآخرة، تجيء بداية هذا الربع عَوْداً على بَدْء، فتؤكد من جديد ما يُطالَب به كل مسلم، من رد عدوان المعتدين، والوقوف في وجه الطغاة الظالمين، وأن المسلم إذا قام برد العدوان، ثم وقع عليه عدوان آخر، لا ينبغي أن ييأس من روح الله، فلْيُعِدْ الكرَّة، وليجاهد لإعلاء كلمة الله المرة تلو المرة، ولا بد أن يصل إلى الغاية، وينصره الله في النهاية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ، وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ثم قال تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشارةً إلى الحالات التي يمكن أن يُحْدِث فيها «العفو» أثره المطلوب، ويحقق المرغوب.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَمَن عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ورد فيه «العقاب» مورد «الجزاء»، فأطلق على جزاء العقوبة عقوبة، لاستواء الفعلين في ظاهرهما، ولملابسة أحدهما للآخر، ومما يشبه هذا الطراز قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الآية: ٤٠]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ يقتضي أن يقف دفاع المسلمين عند حدود رد العدوان، بحيث لا يطلقون لشهواتهم ونزواتهم العنان، وَلا يجاوزون في دفاعهم مقتضيات العدل والإحسان.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ إشارةٌ إلى ما تتعاقب عليه أحوال الدنيا من ضياء وظلمة وليل ونهار، وكذلك الأيام يداولها الله بين الناس، فمن نصر إلى هزيمة، ومن هزيمة إلى نصر، ومهما طال ليل الظلم والطغيان، فإن فجر العدل والحق لا بد أن يمحو ظلمة ذلك الليل الطويل متى حان الأوان ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى عرض آيات الله البارزة في الأنفس والآفاق، الدَّالة على وجود الله ووحدانيته، وعظيم قدرته وبالغ حكمته، عسى أن يقلع المشركون عن شركهم وكفرهم، ويتراجعوا عن عدوانهم وظلمهم، ويتوبوا إلى بارئهم توبة نصوحاً، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ، لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾. على أن الخطاب في هذه الآية موجَّه إلى كل إنسان، في أيّ زمان كان وفي أيّ مكان، ليتدبر آيات الله في الأنفس والآفاق ويَدخُل في حظيرة الإيمان.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ عقب قوله:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً ﴾ تصوير لما يعقب إنزال المطر من اخضرار الأرض ولو بعد حين، وإذا كانت الفاء هنا للتعقيب، فإن تعقيب كل شيء بحسبه كما قال ابن كثير، على غرار قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوْنَا الْعِظَٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ ﴾ [المومنون: ١٤]، فقد جاءت «فاء التعقيب» في الانتقال من طور إلى طور آخر، مع أن بين كل طورين من تلك الأطوار مدة أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين. ومن اللطائف في هذا الباب ما ذكره ابن عطية في تفسيره من أنه «شاهد بنفسه في السوس الأقصى أن المطر نزل ليلاً بعد قحط، على أرض رملة، نسفتها الرياح، فأصبحت مخضرّة ثاني يوم بنبات رقيق».

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ عَقِبَ قوله: ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ معناه فيما قالَهُ ابن عباس: «خبير» بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر، «لطيف» بأرزاق عباده.

وقوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ بعد ذكر آيات الله في الأنفس والآفاق، إشارةً إلى ما عليه الشاكون والمنكرون من جحود لوجود الله، وما عليه الكافرون والمشركون من جحود لوحدانيته، وما عليه الغافلون والضالون من جحود لنعمته، بالرغم من قيام الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على قدرته وحكمته ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبإ: ١٣].

وانتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة واقعية وتاريخية هي أن

نزول الشرائع وتواليها واختلاف بعضها عن بعض في التفاصيل والجزئيات ظاهرة عرفتها الإنسانية خلال أجيال وقرون، فليس ظهور الشريعة التي هي خاتمة الشرائع على الشكل الذي تميزت به عن غيرها أمراً غريباً ولا عجيباً ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأوصى الحق سبحانه وتعالى رسوله هنا كما أوصاه هناك بأن لا يقبل من خصوم الإسلام أيّ نزاع أو جدال فيما جاء به عن الله من الحق، وبأن يواصل دعوته عن بيِّنة واقتناع، تاركاً الفصل النهائي بينه وبين المعاندين والمنكرين إلى يوم الفصل والجزاء،وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي لا ينازعك أحد منهم فيما يشرَع لأمتك من أمر الدين ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ، وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾، وبمثل هذا المعنى جاء قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

ووصَفَ كتابُ الله ما يكون عليه حال المشركين والمنافقين عندما تتلى عليهم آيات الذكر الحكيم، التي تكشف عن سرائرهم الستار، وتزعزع بحججها البالغة كل ما كان راسخاً عندهم من باطل المعتقدات وسخيف الآراء والأفكار، حتى أنهم لتعلو وجوهَهم علاماتُ الاستنكار ومظاهر التجهُّم، ولتكاد أيديهم تمتد

إلى المومنين بالبطش والسطو والتهجم، لِهَوْل ما يقرع أسماعهم من إنذار ووعيد، وما ينتظرهم وأمثالهم من العذاب الشديد، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذِينَ كَفَرُواْ الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا، قُلَ اَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ، النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الذِينَ كَفَرُواْ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

وزاد كتاب الله إمعاناً في توهين الشرك والمشركين، فضرب المثل بالذُّباب الذي هو أصغر وأضعف الأحياء، لكنه مع ذلك يحمل سر الحياة، ويحمل في كثير من الأحيان أخطر الأمراض وأعدى الجراثيم، وبيَّن كتاب الله أن الأصنام والأوثان التي يَخِرُّ لها المشركون سُجَّداً لا تستطيع أن تدفع عنها حتى أذى الذباب، وهي أعجز ما تكون عن أن تنزع من الذباب ما سطا عليه وأخذه منها، فكيف تُعْبَدُ من دون الله، وهي على ما هي عليه من الضعف والعجز أمام الذباب الصغير الضعيف، ونفس الأمر يَرِد بالنسبة للأصنام البشرية من الدعاة المضلِّلين، الذين يحملون الناس على معصية الله، والطغاة الظالمين، الذين يسيطرون على عباد الله، فهؤلاء كلهم لو اجتمعوا منذ بدء الخليقة إلى الآن في صعيد واحد ليخلقوا ذباباً لما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لأن «سر الحياة» من غيب الله، والله وحده هو الذي يخلق الموت والحياة، ولو سلبهم الذبابُ شيئاً لما استطاعوا له رداً مهما كان تافهاً، وإذا نقل الذباب إلى أحد من أتباعهم مثلاً جرثومة السل أو جرثومةُ الرمد، سقط فريسة المرض والكمد، وإلى هذه

المعاني يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ، إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ، إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، قال القرطبي: «وخُصَّ الذباب هنا لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته، فإذا كان هـذا الذي هـو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذِيَّته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان»، وقال القاضي عبد الجبار: «حُكِيَ عن أبي الهذيل أنه سئل: ما الفائدة في خلق الذباب، فـأجاب قـائلاً: الفـائدة في خلق الـذباب هي إذلال الجبابرة».

وعاد كتاب الله إلى مجابهة المشركين الذين طالما استغربوا أن يكون الرسول الذي أرسل إليهم «بشراً رسولاً» في آن واحد، إذ هم لم يكونوا يتصورون الرسول إلا مَلَكاً نازلاً من السماء من بين الملائكة، فبيَّن كتاب الله أن الله يختار من بين الملائكة رسلاً ـ وهؤلاء يرسلهم إلى أنبيائه ورسله ـ ويختار من بين البشر رسلاً، وهؤلاء يرسلهم إلى أمثالهم من الناس، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾. على حد قوله تعالى في سورة الأنبياء، ومثله في سورة يوسف وسورة النحل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ

فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

ووجَّه كتاب الله الخطاب إلى رسوله والمومنين يحدد لهم معالم الرسالة الإسلامية، ويضع أيديهم على دعائمها الأساسية، التي بدونها لا ينتظم للمسلمين وجود ولا بقاء، فقال: تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجَـٰهِدُواْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾. وهذه الأوامر الإلٰهية تتضمن ثلاثة أمور جوهرية: الأمر الأول: أن تكون طاعة الله والصلة به قائمة في كل وقت ﴿ ارْكَعُواْ واسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾. الأمر الثاني: أن يكون فعل الخير بجميع أصنافه باسطاً رواقه في كل مكان ﴿ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. الأمر الثالث: أن يكون المسلمون على أهبَة الاستعداد للدفاع عن كيانهم بكل ما يلزم للجهاد، من عُدَّة وعتاد ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ هُوَ اجْتَبَـٰكُمْ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، إشارةً إلى أن المسلمين إذا أقاموا دولتهم على هذه الدعائم، وحافظوا على ما لدينهم من شعائر ومعالم، فإنهم سيكونون الصفوة المختارة من بين البشر، التي تُحيِي من ملَّة إبراهيم ما ضاع واندثر، والتي لا تعرف إفراطاً ولا تفريطاً في وِرْد ولا صَدَر. ووصفُ إبراهيم بكونه (أباً) للمسلمين: من جهة أنه إمام الموحدين، ومقيم قواعد البيت الحرام الذي جعله الله مثابة وأمناً للناس أجمعين.

وخُتِم هذا الربع بالإشارة إلى ما ميَّز الله به أمة التوحيد من اسم «الإسلام والمسلمين»، ووصفها واشتهارها بهذا الاسم الشريف على مر الأعوام والسنين، والإشارة إلى ما ادَّخر الله لها من «الشهادة» على العالَمين، والتركيز على ما يضمن لها البقاء والنصر في كل حين، فقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّيٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ، فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ، وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ، هُوَ مَوْلَيٰكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والثلاثين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم

بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ

ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ
أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ
ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ
إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

ابتداءً من هذه الحصة نشرع بعون الله وتوفيقه في تفسير السورة الكريمة التي ذكر فيها (المومنون) بالصفات التي تلازمهم، والسمات التي تميِّزهم، حتى سُمِّيت باسمهم، ونُسبت إليهم، وهذه السورة تستغرق ثلاثة أرباع الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، وحصة اليوم تقتصر على الربع الأول من هذا الحزب، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ ﴾.

هذه السورة مكية بلا خلاف، ومحور الحديث فيها من أوَّلها إلى آخرها يدور على الإيمان والمومنين، فقد تناول فيها كتاب الله بالعرض والتحليل حقيقة الإيمان في الربع الأول والربع الثالث، وتناول بالذكر والثناء الجميل صفات المومنين في الربع الأول والربع الثاني، وتناول بالشرح والتمثيل دلائل الإيمان القاطعة وحججه الساطعة في الربع الأول والربع الثالث، وتناول بالإبطال والتزييف شبهات المكذِّبين، وما يتعرضون له من الخزي والتعنيف يوم الدين في الربع الأول والربع الثاني والربع الثالث، وتخلل ذلك كلَّه وصفُ الدعوة الإيمانية التي حملها الرسل الكرام إلى

البشر جيلاً بعد جيل، وما بذلوه من تضحيات في هذا السبيل، وما واجههم به أعداء الرسالات الإلّهية من تكذيب وتضليل.

ومما يستلفت النظر ما يوجد من تناسب عجيب بين خاتمة سورة الحج السابقة وفاتحة سورة المومنين اللاحقة، فقد تحدث كتاب الله في الآيات الأخيرة من سورة الحج عن عباده المومنين، مشيراً إلى ما ينبغي أن تتعلق به قلوبهم، وتنطوي عليه جوانحهم، من رجاء عظيم في الله، ورغبة صادقة في الفلاح والفوز برضاه، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ٧٧]. ولما نزلت سورة المومنين جاءت في صيغة الخبر المفيد للوقوع، الملائم لما سبقه من توقع، إشارةً إلى أن الله تعالى تكفَّل بتحقيق رجائهم، واستجاب لدعائهم، فقال تعالى في طليعة هذه السورة: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾.

وكما لفت كتاب الله النظر هنا في البداية إلى ما خصَّ به المومنين من الفوز والفلاح فقال: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾،لفت النظر في النهاية إلى المصير السيء الذي ينتظر الكافرين من الخسران المبين، فقال تعالى في الآية قبل الأخيرة من هذه السورة: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وأبرز كتاب الله في الآيات العشر الأوائل من هذه السورة ما يثمره الإيمان بالله واليوم الآخر في نفوس المومنين من جميل الخصال وكريم الصفات، وما يتحلَّوْن به في سلوكهم الخاص وسلوكهم العام من المزايا والمميِّزات:

ـ فعبَّر عن العلامة الأولى التي تميِّز المـومنين المفلحين بقوله: ﴿الذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾، إشارةً إلى أنهم لا يكتفون في صلاتهم باستيفاء شروطها الظاهرة، بل يدركون تمام الإدراك أن المصلّي الذي يناجي ربه لا يمكن أن يدرك لـذَّة المناجاة وسرَّها وهو مشغول الفكر بنفسه، غـافل عن ربـه في الوقت الذي يناجيه. فلا بد له من أن يُقْبِل على الصلاة وهو متفرغ لها من جميع الشواغل، وبذلك يتمكن من خشوع قلبه وحضوره مع الله، واستحضار جلاله وعظمته عند عبادته، ومراعاة منتهى الأدب اللازم للوقوف في حضرته، ومتى خشع قلبه خشعت جوارحه، ودخلت صلاته في عِداد الأعمال الصـالحة المقبـولة عند الله، وإلا كانت صلاته شَبَحاً بدون روح، وحركة مجردة بدون هدف، مع أن المصلِّي ليس له من صلاته إلا ما عقل ووعى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ اِلاَّ عَلَى الْخَـٰشِعِينَ، الذِينَ يَظُنُّـونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمُ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] ـ ﴿ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ـ ووصفَ كتابُ الله العلامـة الثانيـة التي تميِّز المـومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ إشارةً إلى أنهم لا يشغلون أنفسهم بالسفاسف، فليس عندهم من الوقت ما يضيعونه في اللغو والهزل والعبث، بما في ذلك الأقوال الفارغة، والآراء العقيمة،والأعمال الطائشة التي لا جدوى من ورائها ولا نفع، وإنما يكرِّسون جهودهم وطاقاتهم لتحقيق الأهداف السامية التي أنـاطها بهم دينهم الحنيف، حتى يُكْتَبَ لملَّتهم الـظهـور

والانتشار، ولأمتهم الفوز والانتصار، وللإنسانية جمعاء التقدم والازدهار، ففي تلك الأهداف الكبرى ما يستنفد منهم الطاقات، ويملأ معظم الأوقات، ويجعلهم أهلاً لتحقيق المعجزات. وبديهيّ أن إعراضهم عن اللغو يستلزم تركه أولاً، وعدم الرضا به ثانياً، وتفاديَ مخالطة أهله أو مشاركتهم فيه ثالثاً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ [الآية: ٧٢]، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الآية: ٥٥]. قال الإمام القشيري في كتابه (لطائف الإشارات): «ما ليس لله فهو حشو، وما يشغل عن الله فهو سهو، وما ليس بمسموع من الله، أو بمعقول مع الله، فهو لغو».

- ووصف كتاب الله العلامة الثالثة التي تميِّز المومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾، إشارةً إلى أنهم لا يعرفون الشح والبخل، ولا يتأخرون عن إسعاف المحتاجين من إخوتهم في الدين أو إخوانهم في الإنسانية، بل يجودون بالموجود على كل محتاج في هذا الوجود، إيماناً منهم بأن المال مال الله، وأن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، وهذا المعنى يؤكده قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَـأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. وكلمة «الزكاة» هنا واردة بمعناها الشرعي المفهوم في الإسلام، وهو الحق الواجب في المال بمختلف أنواعه، فقد كانت من الفرائض الأولى التي شرع أصلها

بمكة ونزل بها الوحي في السُّوَرِ المكية، كما في هذه السورة وسورة الأنعام المكية أيضاً، إذ قال تعالى في شأن الزكاة: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حِصَادِهِ﴾ [الآية: ١٤١]. لكن إخراجها في العهد المكي كان موكولاً إلى إيمان المومن وضميره الحي كيف شاء وبأيِّ قدر شاء، فلما نزلت الآيات المدنية، وقامت الدولة الإسلامية، وقع تحديد مقاديرها وأنصبتها وشروطها والجهات التي تصرف إليها في السنة الثانية من الهجرة، وأصبحت مورداً من الموارد العامة لبيت مال المسلمين، وحقاً ثابتاً للمعسرين في ذمة الموسرين.

ـ ووصَفَ كتابُ الله العلامة الرابعة التي تميِّز المومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾، إشارةً إلى تمسُّكهم بالعفة التامة في المخالطة الجنسية، وإمساكهم عن كل ما لم يأذن به الله من إباحية وانحراف وشذوذ، واقتصارهم على التمتع الحلال بالحياة الزوجية المشروعة، ابتغاءَ نسل صالح يقوم في الأرض بالخلافة عن الله، ويحقق حكمة الله، وعطفَ كتابُ الله على لفظ (الأزواج) المتضمن للحياة الزوجية، التي هي الأصل الأصيل لبناء الأسرة في الإسلام، كلمة (مِلْك اليمين)، إشارة إلى الظروف الطارئة التي يشتبك فيها المسلمون في حرب مع أعدائهم، ويعامِل أولئك الأعداءُ أسارى المسلمين الذين يقعون في أيديهم معاملة الأرقَّاء، فيمتلكونهم ولا يطلقون سراحهم، ولا يقبلون فداءهم، فيضطر المسلمون إلى معاملتهم بالمِثْل عندما يقع في أيديهم أسارى

وسبايا من أولئك الأعداء غير المسلمين، ويحتفظون بهم باسم (ملك اليمين) مقابل ما يحتفظ به أعداؤهم من أسارى المسلمين، وهكذا إذا وقعت امرأة «حَرْبية» في سهم أحد غزاة المسلمين أثناء الحرب وفي مثل هذه الظروف، فإن مخالطتها الجنسية تصبح حلالاً له بعد استبرائها والتأكد من أنها غير حامل، ولا يكون عليه ولا عليها حرج ولا إثم من العلاقة التي تقوم بينهما، باعتبارها رخصة مسموحاً بها عند قيام أسبابها ومبرراتها الشرعية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. أمّا إذا قبل أعداء المسلمين الذين يحاربونهم إطلاق سراح أساراهم أو فداءهم بالمثل أو بالمال فلا تبقى ضرورة لملك اليمين، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

ونظراً إلى ما عُرف به الإسلام من العمل على تحرير الرقاب من الرِّق كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، واعتبارِ تحريرها من أعظم القربات والكفارات التي يغفر الله بها ذنوب عباده، وما دعا إليه من معاملة الأرقّاء بمنتهى الرفق والإحسان في انتظار تحريرهم، فقد اختار للدلالة على الحالة التي وصفناها لفظ (مِلْك اليمين)، أي ملك اليد اليمنى، إشارةً إلى ما يلزم عند مواجهة هذه الحالة الاستثنائية من المروءة والنبل والكرم، لأن اليد اليمنى مخصوصة بكثير من المحاسن، فبها تقع البيعة عند مبايعة الخلفاء، وبها يُعْقَدُ العهد عند معاهدة الأصدقاء، وبها يتلقى الأبطال رايات المجد في ساحات الشرف، وبها ينفق الكرماء دون خوف من الإقلال والتلف، كما قال عليه السلام: «حتى لا تعلم

شِمالُه ما تنفق يمينه»، ولشرف اليمين أطلق على القَسَم بالله اسم (اليمين)، فهذا هو السر في تخصيص هذا النوع من الملك باسم (ملك اليمين). وتحذيراً للمومنين من التهالك على الشهوات دون حساب، وتعريفاً لهم بأن من جاوز الاستمتاع بالحلال إلى غيره فقد بالغ في العدوان وتعدَّى حدود الله، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾.

ـ ووصَفَ كتابُ الله العلامة الخامسة التي تميِّز المومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾، إشارةً إلى أخص خصائصهم وألزم التزاماتهم وأبرز صفاتهم، ألا وهي حفظ الأمانة والوفاء بالعهد، ويندرج في الأمانة والعهد كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، اعتقاداً وقولاً وفعلاً، كيفما كانت درجته وأهميته، وتتناول الأمانة كل ما يكون تركه والتفريط فيه داخلاً في نطاق الخيانة، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، مثال ذلك عقيدة التوحيد والعبادات، فالتوحيد أمانة عند الشخص، وأمره خفيٌّ في القلب لا يعلمه إلا الله، والعبادات أمانة عند الشخص، لأن منها ما يخفى أمره على الناس بالمرة، هل وقع أم لم يقع، كالوضوء والغسل والصوم، ومنها ما تخفى كيفية الإتيان به هل وقع على الوجه المطلوب أم لا (أعظمُ الناس خيانةً من لم يِتم صلاته). ومثال ذلك الودائع التي تودع عند الغير دون أن يطّلع عليها أحد سواه، والأقوال التي ينطق بها الرجل في غيبة أهله فتؤدي إلى

تحريم أهله عليه، فلا يجوز إنكار الأولى ولا كتمان الثانية.

أما العهد الصادر من الله إلى خلقه فهو إعلامهم بما ألزمهم به، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ [طه: ١١٥]. وأما العهد الصادر من الإنسان فهو ما ربطه المرء على نفسه نحو ربه، بمقتضى إقراره بالشهادتين أولاً، ثم بمقتضى ما يلتزمه من القُرُبات غير المفروضة بين الحين والحين ابتغاء مرضاة الله، ومن هذا النوع الأَيْمَان والنذور، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ الْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان: ٧]. ويدخل في العهد ما التزم به الإنسان نحو غيره من الناس مثل الأوفاق والعقود، يقال «تعاهد القوم» أي أعلن بعضهم لبعض ما التزمه وارتبط به معه، ويصدق عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «المومنون عند شروطهم»، بمعنى أن حقيقة إيمانهم تظهر عند الوفاء بشروطهم، فالعهد يعتبر أمانة أيضاً فيما وقع فيه، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤]. وهذا المعنى هو الذي تضمنه قوله هنا: ﴿رَاعُونَ﴾ من «الرعاية» بمعنى تَولِّي الشيء وحفظه من الخَلَل ، وصيانته من الضياع، ومنه الراعي بالنسبة للرعية، والمراد «أن كل ما كان مخفياً لا يطَّلع عليه الناس، فأخفاه أحقُّه بالحفظ، وأخفاه ألزمه بالرعاية وأولاه»، كما نص على ذلك القاضي أبو بكر (ابن العربي).

- ووصَف كتابُ الله العلامة السادسة التي تميِّز المومنين

المفلحين فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ إشارةً إلى أنهم يعتبرون الصلاة عماد الدين، والصلة الوحيدة التي لا ينبغي أن تنقطع بينهم وبين الله أبداً، فهم لا يقيمون الصلاة حيناً ويهملونها أحياناً، وهم لا تصادفهم أوقات الصلاة في غفلة وعلى غير استعداد، بل لا يتصورون ثبوت حقيقة التديُّن والإيمان إلا بملازمة الصلوات الخمس في أوقاتها، والتزام القيام بها عن شوق وطواعية ورضا، كيفما كانت الظروف والأحوال، وإن كانت كيفية أدائها تختلف في حالة المرض عن حالة الصحة، وفي حالة السفر عن حالة الإقامة، تخفيفاً من الله ورحمة، وإن كان تأخيرها عن وقتها لعذر شرعي طارىء، أمراً لا مؤاخذة فيه ولا لوم. ولأمر ما أبرز كتابُ الله في هذا السياق أثر الصلاة في حياة المومنين المفلحين مرتين، فجعل الخشوع فيها صفتَهم الأولى في البداية، وجعل المحافظة عليها دون انقطاع، صفتَهم الأخيرة في النهاية، مما يدل على أن بقية الصفات الأخرى لا توتي أكلها ولا تتحقق على الوجه الأكمل إلا إذا كانت الصلاة لها بدءاً وختاماً، قال عليه الصلاة والسلام: «استقيموا ولن تُحصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة» الحديث.

وبعد ما وصف كتاب الله معالم الإيمان البارزة، وما يتحلَّى به المومنون المفلحون من الخصائص والعلامات، نقل إليهم أفضل بشرى، لتكون لهم نعم الحافز ونعم الذكرى، فقال مشيراً إلى الجامعين لهذه الأوصاف منوِّهاً بمقامهم، ومبشِّراً بالحصول على مرامهم، تأكيداً لفوزهم وفلاحهم ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ،

الذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣]، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس» رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وتثبيتاً لهذه المعاني والصفات في نفوس المومنين تـولّى كتاب الله ذكرها مع ما يوضحها ويفسرها في سورة المعارج المكية أيضاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَـلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ، وَالـذِينَ فِيٓ أَمْـوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَالذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ، وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتَ أَيْمَـٰنُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ، وَالذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ، وَالذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [من الآية ١٩ إلى الآية ٣٥]. وقد سلك كتاب الله في آيات المعارج هـذه نفس المسلك الذي سلكـه في العشـر الأُول من سـورة المومنين، فكان ذكر الصلاة فيها هو البداية، وكان ذكر الصلاة فيها هو النهاية.

وتناول كتاب الله في بقية الآيات جزءاً من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قـولـه تعـالى: ﴿ وَعَلَيْهَـا وَعَلَى الْفُلْكِ

تُحْمَلُونَ ﴾، ثم عقَّب على ذلك بقصة نوح مع قومه، وما واجهوا به دعوته من الشبهات والأباطيل، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بالطوفان، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ، وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾.

وخَتَم كتابُ الله هذا الربع بالحديث عن رسول آخر أرسله الله بعد نوح إلى قوم آخرين، وتذْكُر أكثر التفاسير أن المراد به هود وقومه عاد، فوصف دعوته لهم، وحكى ما قابلوا به دعوته إلى الإيمان بالله واليوم الآخر من التكذيب والتشهير والشك، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْناً ـ اخَرِينَ ﴾ إلى قولهم فيما حكاه كتاب الله عنهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ ﴾ مما يدل على أن شبهات أعداء الإيمان وخصوم الرسالة الإلٓهية متشابهة في كل الأجيال، ما دام أساسها الوحيد هو صنع الخيال ووحي الخبال ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَـٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

الربع الثاني من الحزب الخامس والثلاثين
في المصحف الكريم

قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ
لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ

وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ
بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ
رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾
وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ
دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ
إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ
كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ
مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ

مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ
لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾.

بعد أن حَدّد كتاب الله في الربع الماضي معالم الإيمان البارزة، وصفات المومنين التي تؤهلهم للفلاح والفوز الأكبر، وعرض جملة من الدلائل على وجود الله ووحدانيته وربوبيته مما تنطق به الأنفس والآفاق (ففي كل شيء له آية ـ تدل على أنه الواحد) شرع يقص على خاتم أنبيائه ورسله، وعلى أمة الدعوة التي أُرسل إليها من كافة البشر قصة الرسالات الإلٓهية المتوالية، فبيَّن أن القاسم المشترك بين جميع الرسل كان دائماً هو الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿ اعْبُدُواْ الله مَا لَكُم مِّنِ إلَٓهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وأن القاسم المشترك بين أعداء الرسل كان دائماً هو الطعن في رسالتهم، بكونهم بشراً وليسوا بملائكة، وبكون الدعوة التي جاؤوهم بها غريبة عنهم، ولم يسمعوا بها من آبائهم الأولين، وأن الرسل ليسوا في زعمهم إلا عبارة عن مجانين

ومفترين، وأن النشأة الآخرة والبعث الذي تثبته الرسالات الإلهية مجرد تخويف وتهويل، ومن قبيل المستحيل، ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرا، كُلَّ مَا جَآءَ أمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ - ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَاتِ ءَابَآءَهُمُ الأَوَّلِينَ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾.

وكما قال الملأ الذين كفروا عن نوح: ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَّتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ، إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾، قال الملأ الذين كفروا عن هود أيضاً: ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَاكُلُ مِمَّا تَاكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَئِنَ اَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمُ إِنَّكُمُ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ، أَيَعِدُكُمُ أَنَّكُمُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ، إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ ﴾. وكذلك كان موقف فرعون وملائه من موسى وأخيه هارون ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ، فَقَالُوٓاْ أَنُومِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ، فَكَذَّبُوهُمَا ﴾.

وبعد أن ذكَّر كتاب الله بقصة نوح وهود من أوائل الرسل، في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الآية: ٢٣] وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً-اخَرِينَ، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [الآيتـان: ٣١، ٣٢]، وأتبعهما بقصة موسى وعيسى من أواخرهم، قبل إرسال خاتم النبيئين والمرسلين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ -اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً ﴾

أكد كتاب الله بشكل قاطع وصريح وحدة الرسالة الإلٓهية، ووحدة الرسل الذين جاؤوا بها، تبعاً لوحدة مصدرها وهو الله الواحد الأحد، الذي أوحى بها إليهم جميعاً، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُم أمةً واحدة، وأنَا ربكم فاتقونِ ﴾.

ونبَّه كتاب الله في نفس الوقت، للقضاء على كل التباس في هذا الصدد، إلى أن الخلافات الدينية التي برزت في صفوف المنتسبين إلى الدين، وجعلتهم منقسمين على أنفسهم طوائف وشِيَعاً بعد فترة من الرسل ـ فاتخذوا من دين الحق الواحد أدياناً مختلفة ـ لا علاقة لها بالرسالة الإلٓهية الأصلية، والعقيدة الإيمانية الأساسية، التي هي واحدة ووحيدة، وإنما هي من صنع أيدي أولئك الأتباع الذين حرَّفوها عن مواضعها، وأوّلوها على غير وجهها.

وبيَّن كتاب الله أن العناية الإلٓهية كانت تقف دائماً إلى جانب الأنبياء والرسل، فتنصرهم على أعدائهم في النهاية، وإن كانوا يتحملون منهم أكبر الأذى في البداية، فهذا نوح يلجأ إلى الله بعد نفاد صبره داعياً ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فينصره الله قائلاً: ﴿ وَلَا تُخَـٰطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾، وهذا هود يلجأ إلى الله بدوره قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فلا يلبث أن يأتيه الجواب من عند الله: ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً، فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾. وفي موقف فرعون وملائه من موسى وهارون قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾. وهكذا الأمر

بالنسبة لجميع من كذَّبوا الرسل في مختلف العصور والأجيال، ممن رفضوا الهداية الإلٓهية وأصرُّوا على الضلال ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ، فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُومِنُونَ ﴾. وقد عبَّر كتاب الله في آية أخرى عن هذه العناية الإلٓهية التي يرعى بها رسله على الدوام، إذ قال بإيجاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ الذِينَ يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ فِي الاَذَلِّينَ، كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وكشف كتاب الله الستار عن السر في عناد أعداء الله الذين لا يومنون بالله ورسله، مشيراً إلى أن الفئة التي تتزعم الكفر والضلال، ضد الإيمان والهدى، في كل جيل، هي من ذلك النوع المُترَف المتكبر المغرور، الذي نال من الثروة وسعة الرزق، ومن النفوذ والسلطان، ما يجعله يتكبر ويتطاول على الخلق، ولا يجيب داعي الحق، يدل على ذلك قوله تعالى في الربع الماضي في وصف «الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الآخرة»: ﴿ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾، وقوله تعالى في هذا الربع: ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ ﴾، وقوله تعالى في آية أخرىٰ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴾ [سبإ: ٣٤]. وفضح كتاب الله ما تقوم به هذه الفئة الضالة، من سخرية واستهزاء بآيات الله البيِّنات، وما تتندَّر به في مجالس سَمَرها عن الرسول والرسالات، فقال تعالى في هذا الربع مخاطباً لها وموبخاً: ﴿ قَدْ كَانَتَ-ايَتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنْكِصُونَ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ، سَـٰمِراً تُهْجِرُونَ ﴾، وقد سجل كتاب الله

في آية أخرى مسؤولية هذا الصنف من أعداء الحق في تضليل الخلق، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، ويلحق «بالترف المادي» وما يلازمه من كِبْر وغرور ما يمكن أن يسمى «بالترف الفكري» عند أولئك السوفسطائيين الحائرين المتشككين، الذين يتهرّبون من معرفة الحق والتزامه، ويتصدون لمحاربته والنَّيْل من مقامه، ويُلقُون بكثير من ضحاياهم في المتاهات والمهامه.

وبعد أن تحدث كتاب الله عما يقوم به المترفون المتكبرون من عرقلة الدعوة إلى الله، والوقوف في وجهها بشتى وسائل التضليل والتدجيل، عقّب على ذلك بما يثبت سوء تقديرهم، والخطأ البالغ في حسابهم، مبيِّناً أن إمهالهم لا يعني إهمالهم، لكنّ أحكم الحاكمين لا يصدر آخر قرار، إلا بعد الإعذار والإنذار، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ، أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَٰتِ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأعراف [الآية: ١٨٣] وسورة القلم [الآية: ٤٥]: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾، وقوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٣]. وصرح كتاب الله بما ينتظرهم من عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ، لَا تَجْـَٔرُواْ الْيَوْمَ، إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾. ويؤكد هذا

المعنى في صيغة كلها إنذار وتهديد قولُه تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً ﴾ [الآية: ١٦] أي أمرناهم بالتقوى والصلاح، فضلُّوا وأضلُّوا، وكانوا سبباً لا في هلاك أنفسهم خاصة، بل في هلاكهم وهلاك قومهم عامة.

ثم أنحى كتاب الله باللائمة على أعداء الرسل وخصوم الرسالات الإلّهية، مشيراً إلى أن دين الحق الذي دعا إليه كافة الرسل يلتقي مع الفطرة السليمة في كل شيء، وأنه لا كلفة في فهمه واستيعابه والاقتناع به، بل هو في غاية السهولة واليسر نظرياً وعملياً، وأن كتاب الله الذي هو أساس هذا الدين لا ينطق إلا بالحق والصدق ﴿ وَمَنَ اَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢]. ولن يكون الجزاء الذي يترتب على الإيمان به أو الكفر إلا جزاءً عادلاً، ولو تدبَّروا كتاب الله وتأمَّلوا معانيه حق التأمل لتنازلوا عن الكفر والكِبْر والعناد، ولسخَّروا طاقاتهم للصلاح بدلاً من الفساد، وإلى هذا المعنى يشير قول الله تعالى هنا: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً اِلَّا وُسْعَهَا، وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، ثم قولُه تعالى في نفس السياق ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَاتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾، وقولُه تعالى أيضاً: ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ، وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالْاَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، بَلَ اَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ، فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

وكما كشف الله الستار عن الصفات المستهجنة، التي تميِّز

أعداء الرسالة الإلٓهية، من الكافرين والمشركين، ومن حذا حذوهم في جميع العصور، ووصف مواقفهم، وفضح أسرارهم في هذا الربع، عاد مرة أخرى إلى الحديث عن الصفات المستحسنة، التي تميِّز المومنين المفلحين عن غيرهم من الناس، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ، وَالذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُومِنُونَ، وَالذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، وَالذِينَ يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ، أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ، وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾.

واهتم كتاب الله في نفس الموضوع بإبطال حجة واهية طالما تذرَّع بها أعداء الرسالة الإلٓهية، وهي طعنهم ـ كلما جاءهم رسول من عند الله ـ بأنه من جنس البشر، وليس من جنس الملائكة، ناسين أو متناسين أن الإنسان هو وحده الذي تحمل الأمانة عندما عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يحملنها من بين كافة المخلوقات، وأن الرسالة الإلٓهية التي هي أجلّ الأمانات لا يمكن أن يبلِّغها إلى الناس إلا واحد منهم، وأن الله تعالى عندما يبعث إلى الناس بشراً رسولاً إنما يُسدي إليهم أكبر النعم، ويمنُّ عليهم بأعظم المنن، حيث يرسل إليهم من أنفسهم من يكلّمهم بلسانهم، ويتعرّف على أحوالهم، ويصف العلاج الناجع لأدوائهم، ويمارس معهم شعائر الدين الذي جاء به من عند الله كواحد منهم وإمام لهم، ولو كان سكان الأرض من الملائكة لبعث الله إليهم رسولاً منهم ليسهل الوفاق والوئام، ويتحقق التجانس التام، على حد قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَـٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الآية: ٩٥]، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلاً ﴾ [الآية: ٩]. فكون الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر يجمعون بين البشرية والرسالة معجزة من أعظم معجزاتهم، ودليل من أكبر الدلائل على صدقهم، ولذلك وجَّه إليهم الحق سبحانه وتعالى أمره بممارسة حياتهم البشرية العادية، إلى جانب قيامهم بتبليغ الرسالة الإلٰهية، إذ لا تعارض بينهما ولا تناقض، فقال تعالى في هذا الربع إشارة إلى الشق الأول والشق الثاني: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَاعْمَلُواْ صَـٰلِحاً، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾.

وغيرةً من الله على حرمة رسله، وحفاظاً على كرامتهم حتى لا يوصموا بالطمع والاستغلال، وحتى لا يحصل لأقوامهم أي شيء من المَلل والاستثقال، تكفَّل الحق سبحانه وحده برزقهم، ولم يترك للغير سبيلاً عليهم، وما من أحد منهم إلا وكان يعلن إلى الناس جميعاً ﴿ إِنَ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجاً، فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾.

وتضمن كتاب الله في هذا الربع حقيقتين من الحقائق الجوهرية والأساسية في سير الحضارة والعمران، وفي انتظام العوالم والأكوان:

ـ الحقيقة الأولى ـ أن الجماعات الإنسانية لها آجال وأعمار، وبداية ونهاية، بالنسبة لبقائها وفنائها، ورقيِّها وانحطاطها، تبعاً

لتمسُّكها بالنواميس الخلقية والعمرانية التي جاءت بها الهداية الإلّهية، أو تمردها عليها وخروجها عن جادتها المثلى. وأقرب مثال لهذه الحقيقة ورد في نفس السياق إبادة قوم نوح بالطوفان، وهلاك قوم هود بالصيحة، وهلاك فرعون وملائه بالغرق، جزاء شركهم بالله وكفرهم برسله، وإلى هذه الحقيقة الأولى يشير قوله تعالى هنا: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـٔخِرُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَـٔخِرُونَ سَاعَةً، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الآية: ٣٤].

ـ والحقيقة الثانية ـ أن الحق في جميع الأشياء واحد لا يتعدد، وأن الحق في جميع الظروف ثابت لا يتغير، وعلى هذا الأساس قامت النواميس الطبيعية التي تنظم الأكوان، والنواميس الخلقية والعمرانية التي تنظم حياة الإنسان ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣]، فبالحق المنبثق عن إرادة الله قامت السماوات والأرض، لا بالهوى الذي تمليه الشهوات والأغراض ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ [يونس: ٣٢]. ولو كانت نفس النواميس الطبيعية والنواميس الخلُقية والعمرانية تابعة لأهواء الأفراد والجماعات لما عرف الكون سيره المطَّرد، ولما أمكن فيه أيّ استقرار أو ثبات، ولما انتظمت حياة الإنسان على سطح الأرض لحظة واحدة، إذ لا سبيل حينئذ إلى تمييز الخبيث من الطيِّب، والمستقيم من المعوج، والحق من الباطل، ولسادت الفوضى والعماء. علاوة على أنه لا سبيل إلى ترضية الأهواء المتعارضة، والشهوات المتناقضة، وأقرب مثال

يؤكد هذه الحقيقة ورد في نفس السياق ما وقع عند الخروج عليها وعدم التزامها من انقسام البشرية على نفسها، وتمزيقها لوحدة دين الحق الوحيد، إذ جعلت منه أدياناً متعادية، ومللاً متطاحنة، وأحدثت فيه بدعاً لا تحصى، تبعاً لأهوائها المفرقة، على حد قوله تعالى هنا: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً، كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾، ولولا كتاب الله الذي جاء بدين الحق على وجهه الصحيح لاختلط الحابل بالنابل، ولما عُرف الحق من الباطل. وإلى هذه الحقيقة الثانية يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَٰتُ والاَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بما يزيد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ثباتاً على الحق، ومضياً في الدعوة إليه، بالرغم من شبهات المشركين والكافرين، ومن سلك مسلكهم من السابقين واللاحقين، وما يزيد المومنين إيماناً بأن أعداء الرسالة الإلهية التي بعث الله رسوله لتبليغها وتجديدها هم الضالون المبطلون، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَإِنَّ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ عَنِ الصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ
وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾
بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا
يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ
أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن
وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ

مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾
قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ
فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ
رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم
مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ
سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾
قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَـالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيـلاً لَّـوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

في هذا الربع تصدى كتاب الله لوصف حالة المكـذِّبين الذين لا يومنون بالله واليوم الآخر وهم لا يزالون في الدنيا، ولوصفهم عند الاحتضـار وحلول الموت، ولـوصفهم وقد حلُّوا بالدار الآخرة، ولم يغفل كتاب الله الإشارة إلى ما يتشدقون به من مزاعم وأباطيل ضد الرسالة الإلَهية، ولا سيما ما يطعنون به في البعث بعد الموت، ثم عقَّب على تلك المزاعم بما يبطلها من الأساس، كما تحدث كتاب الله عن جملة من دلائـل الإيمان القاطعة، التي بثَّها في النفـوس والآفاق، وخصص للحوار مع أعداء الإيمان، لإقامة الحجة عليهم، عدة آيات بيِّنات، تضمنت ما سيوجَّه إليهم من خطاب، وما ينتظر أن يقولوه في الجواب،

طمعاً في أن يفلتوا من العتاب والعذاب. ونظراً لما اشتمل عليه هذا الربع من مقارعة وصراع مع أعداء الله ورسله لا يقدر عليهما إلا من رُزق مدداً إلهياً دائماً، وجَّه كتاب الله إلى خاتم النبيئين والمرسلين الخطاب، بما يناسب المقام من التوجيهات، ولقَّنه جملة من الدعوات والابتهالات، يستمد بها من الله العون والمدد، وتكون له في القيام بأعباء الرسالة خير سند.

فبعد أن قال تعالى في نهاية الربع الماضي: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ إشارة إلى كونهم زاغوا عن المحجة المثلى في دنياهم وعقباهم، استرسل كتاب الله في وصف المكذِّبين الذين لا يومنون، وهم لا يزالون في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ، حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ إشارةً إلى أن الشأن في المكذِّبين الضالِّين، الفارغة قلوبهم من الإيمان واليقين، أن يكونوا مصرِّين على الطغيان والضلال، غارقين في أوحال أودية العناد والخبال، فلا نعمة الله عليهم ورحمته بهم، إن كشف عنهم الضر، تردُّهم إلى الصواب، ولا مقدمات المِحَن والبلايا إن ابتلاهم بها تسوقهم إلى خشيته والضراعة إليه، لينقذهم من العذاب، وفي مثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾ [الآيتان: ٤٢، ٤٣]، حتى إذا فوجئوا من العذاب الشديد بما لم يكونوا يحتسبونه، وأدركوا أنهم لا يتحملونه، أُقفلت في وجوههم أبواب الرجاء، وأحاطت بهم الحيرة واليأس والقنوط من جميع الأرجاء ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الروم: ١٢]. ﴿ وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وفي وصف المكذِّبين الذين لا يومنون بالله ورسله وما يحسُّون به عند حلول الموت والاحتضار من حسرة وندامة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ احَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَـٰلِحاً فِيمَا تَرَكْتُ، كَلاَّ، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ إشارةً إلى أن كل واحد من هذا الصنف غير المومن لا يعترف بوجود الله إلا عند احتضاره ودنوِّ أجله، فيتوجه إلى ربه مستغيثاً به، ملتمساً منه أن يأذن لملائكته الأبرار الذين يتوفَّون الأحياء بإطلاق سراحه حياً، عسى أن يتدارك في حياته المستأنفة، ما فاته في حياته الضائعة، من الأعمال النافعة، لكنَّ كتاب الله يجيب برفض هذا الالتماس رفضاً باتاً (كلا) بناءً على أن هذا الصنف من غير المومنين، الذين ظلُّوا متمردين على الله، متمادين على الضلال والعناد، طيلة حياتهم، من البداية إلى النهاية، لا يُرجى لهم علاج، ولو مُدَّ في آجالهم، وزيد في أعمارهم، إذ يموت المرء على ما عاش عليه، وهذا المعنى يزيده بياناً وإيضاحاً قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِيَ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ،

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ اجَلُهَا ﴾، [المنافقون: ١٠، ١١] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُـونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] فـلا منـاص من قبض أرواحهم، والحيلولة بينهم وبين الرجعة، إلى أن يحين يوم البعث فتكون رجعتهم إلى الآخـرة ﴿ وَمِنْ وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَـوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المومنون: ١٠٠].

وفي وصف المكذبين الذين لا يومنون بالله واليوم الأخر عند قيام الساعة وحشرهم إلى الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ إشارةً إلى أن رابطة الأرحام والأنساب، التي من شأنها أن تجمع بين الأقارب والأحباب، ينعدم أثرها بين المكذبين الذين لا يومنون، في هذا الموقف الرهيب، الذي يستوي فيه البعيد والقريب، فلا تراحم بينهم ولا تعاطف، ولا تقارب بينهم ولا تآلف، وما من أحد منهم إلا وهو في شغل شاغل بنفسه، يعضُّ بنان الندم على ما فاته في أمسه، على غرار قوله تعالى في آية أخرىٰ ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ اَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَـٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧]، ثم قال تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ إشارةً إلى بوادر التعذيب التي يتعرضون لهـا، وتسلط على وجوههم بالخصوص، لما كان يبدو على أسارير وجوههم من أنفة وكبر عن الاعتراف بالحق، وما كان ينبعث منها من تأثيـر سحري على ضعاف الخلق، فتبدو وجـوههم بفعل النـار في غايـة التشويـه

والبشاعة، ولا سيما شفاههم التي كانوا يسخِّرونها للنيل من رسل الله وأنبيائه، ووصفهم بكل شناعة، قال الرازي: «الكُلُوح هو أن تتقلص الشفتان، وتتباعدا عن الأسنان، كما تُرَى الرؤوس المشوية». وقد وردت عدة آيات تؤكد معنى هذه الآية، منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الآية: ٢٩]. وفي سياق الحديث عن مشهد المكذبين والجاحدين ـ وهم ينالون جزاءهم من الله يوم القيامة ـ وازن كتاب الله بين حالهم وحال المومنين المفلحين، ليبرز الفرق بين الفئتين، وينجلي الصبح لذي عينين، فقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾.

وتصدى كتاب الله مرة أخرى لحكاية مزاعم المكذبين الذين لا يومنون بالرسالة الإلٰهية ولا يصدقون بالبعث والنشور، فقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ، قَالُوٓاْ أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَٰماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ، إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾، إشارةً إلى ما هم عليه من ضيق النظر وسوء التقدير، وظنِّهم أن عمر العالم الطويل على قدر عمرهم القصير، فما داموا لم يشاهدوا البعث، لا هم ولا آباؤهم، فالبعث في رأيهم مستحيل، والعالم في ظنِّهم سيظل على ما هو عليه دون تغيير ولا تبديل، بينما العالم الذي نعيش فيه مهما طالت به السنون فمصيره إلى انقلاب وفناء، والبعث الذي هو عبارة عن نشأة ثانية ليس إلا إعادة للنشأة الأولى، وهي لا تتطلب من خالق

الخلق ومدبِّر الكون أيّ تعب أو عناء، قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى رداً على من يَنسُب الشرك والولد إلى الواحد الأحد: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فوجود الولد بجانب الوالد ـ وَلِلَّهِ المثلُ الأعلى ـ يحد كثيراً من حريته، ويقف حجر عثرة غير ما مرة دون تنفيذ إرادته، والمبادرةِ إلى تحقيق رغبته، مما يؤدي إلى أن يحدث بينهما نزاع، يؤول في نهاية الأمر إلى صراع، ووجودُ شركاء متعددين، متساوين في الصلاحيات والقُدَر، يؤدي بطبيعته إلى استئثار كل واحد منهم بما خلق وقَدّر، ومحاولتِه الغلبةَ على الآخر، والانفرادَ دونه بما اخترع وابتكر، فتتعارض إراداتهم، وتتناقض قراراتهم، ويسود العالَمَ طابعُ الفوضى بدلاً من النظام، وتظهر فيه آثار التضارب والاضطراب بدلاً من التناسق والانسجام ﴿ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، لكن الوجود بكافة عناصره وأجزائه متناسق منسجم، متكامل منتظم، تسوده وحدة التدبير والتسيير والارتباطُ التام، باطناً وظاهراً، وتحكمه سنن ثابتة مستمرة على الدوام، ماضياً وحاضراً، مما يدل على أن مخترعه وخالقه ومدبِّره الذي أنعم عليه بنعمة الإيجاد، ويُنعِم عليه إلى حين بنعمة الإمداد، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد ﴿ عَٰلِمُ الْغَيْبِ

وَالشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وعرض كتاب الله في هذا الربع جملة من دلائل الإيمان والتوحيد التي بثّها في الأنفس والآفاق، في العالم العلوي والعالم السفلي على السواء، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ، وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلَـٰفُ الَّيْلِ وَالنَّهارِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلهِ، قُلَ اَفَلَا تَذَّكَّرُونَ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلهِ، قُلَ اَفَلَا تَتَّقُونَ، قُلْ مَنۢ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلهِ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ، بَلَ اَتَيْنَـٰهُم بِالْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾.

وفي غمرة المعركة القائمة بين الحق والباطل، وتثبيتاً لخاتم الأنبياء والمرسلين في هذا المعترك الفاصل، وجّه كتاب الله الخطاب إلى رسوله فقال: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ، رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ، وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾، وبذلك لقّن رسوله الأعظم أن يستعيذ بالله تعالى من كل عذاب ينزله بالمكذبين، من الكفار والمشركين الذين يستعجلون العذاب في الدنيا قبل الآخرة، فلا يجعله ـ إذا صادف عذابهم ـ قريناً لهم، ولا يعذبه بعذابهم.

ثم قال مخاطباً لنبيّه الأمين: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ يوجّه رسوله الوجهة المثلى في الدعوة إلى الله، ولو كان

المدعوون المتمردون عليه أحياناً مضرب المثل في السماجة والبذاءة وسوء اللهجة، فيدعوه إلى الصفح عنهم والإحسان إليهم، ودفع مقالاتهم وخصالهم السيئة بأحسن الحسنات وأفضلها، تبعاً للمقامات والظروف، إذ الحسنات نفسها تتفاضل فيما بينها، فقد تُدفَع السيئةُ بمجرد الصفح والإغضاء ويُقنَع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح حسنة الإكرام، وقد يضاعف الإكرام بالمبالغة فيه درجة فوق درجة، فهذه الأنواع من الدفع كلُّها دفع بالتي هي أحسن، وقد ورد الأمر بنفس هذا المعنى في آية أخرى إذ قال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّيٰهَآ ﴾ أي ما يُلهم هذه الخصلة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ، وَمَا يُلَقَّيٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ٣٤، ٣٥]. ويستثني من الأمر بالمحاسنة المداراةُ غير المشروعة، قال الزمخشري في تفسيره الكشاف: «المداراة محثوث عليها ـ أي مرغب فيها ـ ما لم تؤدِ إلى ثلم دين أو إزراء بمروءة». وقوله تعالى هنا: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي نحن مطّلعون على ما يصفونك به، ولكننا عالمون بما أنت عليه من الخلق العظيم.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله المعصوم في نفس السياق: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ الشَّيَٰطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ يُلقّن رسوله الاستعاذة منها بجميع أشكالها، وذلك لتقتدي به أمته في الابتهال إلى الله أن يحفظها منها، ويعصمها من حضور الشياطين معها في أي أمر من الأمور، وفي أي حال من الأحوال، إذ لا يحث على المعاصي ويغري الناس بارتكابها

إلا شياطين الإنس والجن، وورد الأمر بنفس هذا المعنى في آية أخرى، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وختم هذا الربع بمحاسبة الحق سبحانه وتعالى في الدار الآخرة للمكذبين الذين لا يومنون بالله واليوم الآخر، وقد عرض كتاب الله كيفية مناقشتهم الحساب المنتظر، في شكل حوار واقع يخبر عنه بصيغة الماضي، لأن الشيء المتوقع الذي يخبر الله عنه في كتابه أمر واقع، ليس له من دافع، فقال تعالى موجهاً الخطاب إليهم، ومسجلاً جوابهم حجة عليهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنَ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ، قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ، رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ، قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ، إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيّاً حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ، قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَسْئَلِ الْعَآدِّينَ، قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

٢٤ سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ

عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ اَ۬لْمُومِنِينَ ﴿٢﴾ اَ۬لزَّانِے لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً اَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ اَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى اَ۬لْمُومِنِينَ ﴿٣﴾
وَالذِينَ يَرْمُونَ اَ۬لْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَاتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ
ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً اَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُ۬لْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾
إِلَّا اَ۬لذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اَ۬للَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَالذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ
فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمُۥٓ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتِۢ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ اَ۬لصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَٰمِسَةُ أَن لَّعْنَتُ اُ۬للَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ اَ۬لْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ
عَنْهَا اَ۬لْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتِۢ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ اَ۬لْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾
وَالْخَٰمِسَةُ أَنْ غَضِبَ اَ۬للَّهُ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ اَ۬لصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اُ۬للَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ اِنَّ اَ۬لذِينَ جَآءُو
بِالِافْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
اِمْرِےٍٕ مِّنْهُم مَّا اَكْتَسَبَ مِنَ اَ۬لِاثْمِ وَالذِے تَوَلَّيٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ اَ۬لْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ اَ۬للَّهِ هُمُ اُ۬لْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم
مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا
بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، وهـو يتألف من خـواتم سورة الإيمان المكية التي ذكر فيها (المومنون) المفلحون بأوصافهم البارزة، المميِّزة لهم عن بقية الأصناف، ومن الآيات التسع عشرة الأوائل في سورة النور المدنية، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

في ختام سورة الإيمان التي ذكر فيها (المومنون) المفلحون خصص كتاب الله الآيات الختامية الأربع لما ينبغي أن يستخلصه كل إنسان من هذه السورة الكريمة، فبعد ما عرض كتاب الله في الربع الأول والربع الثاني والربع الثالث مزايا المومنين الصادقين ومميِّزاتهم، وما يكون عليه مصيرهم من الفوز المبين، مقارناً كل ذلك بمساوىء المكذِّبين الذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وبما يؤول إليه أمرهم من الخسران المبين، أعاد الكرَّة مرة أخرى

ليذكِّر الجميع بحقيقة ثابتة لا مناص من الاعتراف بها والالتزام بنتائجها، ألا وهي: أن الله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، وإنما خلقه لإبراز حكمة إلٓهية من وراء إيجاده وإمداده، وإنجاز مهمة سامية في مستوى إدراكه واستعداده، ألا وهي جعله خليفة في الأرض يقوم بعمارتها واستثمار خيراتها، طبقاً لمنهج إلٓهي حكيم، يكون مسؤولاً عن تطبيقه كاملاً، كي لا يقع في خلافته خلل ولا اضطراب، ويؤدِّي عنه لربه أدق الحساب، لينال ما هو أهل له من الثواب أو العقاب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا موجهاً الخطاب إلى كافة البشر، مَن حضر منهم ومن غبر: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَيَحْسِبُ الإِنسَـٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [الآية: ٣٦] أي غير مسؤول عن عمله كالحيوانات العجماء، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ، مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآيتان: ٣٨، ٣٩]، وقولـه تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الآية: ١٧]. فلا عبث ولا لعب ولا لهو ولا إعفاء من المسؤولية، لا في العالم العلوي ولا في العالم السفلي، وإبطالاً لما يمكن توهُّمه عند سخفاء العقول، من أن خلق الإنسان داخل في نطاق العبث، ولا حكمة فيه، ولا مسؤولية من ورائه، عقَّب كتاب الله بما يؤكد تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخلق شيئاً عبثاً، مهما يكن ذلك الشيء ضئيلاً، فضلاً عن الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وكرَّمه أجلَّ تكريم، فقال تعالى:

﴿ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عن كل نظر سخيف لا يدرك دقيق حكمته، البارزة في صنع إرادته وقدرته، فهو ملك حق، لا يسوس ملكه وملكوته إلا بالحق، وكما أنه لا يأمر بأي شيء عبثاً، فإنه لا يخلق أي شيء عبثاً، وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الآية: ٨٥]. وتأكيداً لتنزيهه سبحانه عن الأولاد والأنداد، طبقاً لقوله تعالى في الربع الماضي: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ قال تعالى هنا: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾.

ومن لطائف هذه السورة ذكر العرش فيها مرتين، موصوفاً في إحداهما بوصف العظمة، كما سبق في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾، وبوصف الكرم، كما في قوله تعالى هنا: ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾، لِنسبته إلى أكرم الأكرمين، بينما وقع ذكر العرش عند وروده في بقية السُّور مجرداً من الوصف، أو موصوفاً بالعظمة دون غيرها، إلا في سورة البروج، حيث انفرد ذكر العرش فيها موصوفاً بصفة المجد ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥].

وإمعاناً في إقامة الحجة على من يشرك بالله غيره، وإرخاءً للعِنان في مجادلتهم والحوار معهم تحدث كتاب الله عن هذا الصنف الضال من الناس، بما يشعر أنه على كامل الاستعداد للتحاكم معهم إلى العقل والمنطق، ولقبول زعمهم الباطل إذا استطاعوا أن يقيموا عليه الحجة والبرهان، أما أن يصرُّوا على

الشرك ورفض التوحيد دون استناد إلى حجة قاطعة، فإنهم يكونون محجوجين مغلوبين، ولا يحق لهم الاعتراض على ما يَلقَوْنه من العذاب الأليم يوم الدين، لا سيما والعثور على حجة تؤيد الشرك ضد التوحيد أمر مستحيل طبعاً وشرعاً، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى بإيجاز وإعجاز: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾. ويقرب من هذا النوع في التنازل أمام الخصم، لإعادة الكرَّة عليه، قولُه تعالى في سورة سبإ: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الآية: ٢٤]. وإنما جُعِل حساب المشرك «عند ربه» لا عند الناس، إشارةً إلى أن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر على حسابه بما يستحق، إلا الله تعالى، لفظاعة جرمه في حق الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

وليوضِّح كتاب الله خطورة هذا العقاب الذي ينزل بالمكذِّبين والمشركين أصدر حكمه الفاصل في ختام هذه السورة فقال: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾، في مقابلة الفاتحة التي جاءت في مطلعها تحمل البشرى للمومنين الموحِّدين بالفوز الأكبر، حيث قال تعالى: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾، وشتان ما بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة.

وخُتِمت سورة الإيمان بخطاب الله لرسوله، وتلقينه دعاءً قرآنياً كريماً، يكون فيه لأمته إسوة حسنة، فقال تعالى: ﴿ وَقُل

رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴾. ويمكن فهم هذا الخطاب على أنه إذن من الله لرسوله بالاستغفار لأمته، فما منهم من أحد ـ كان مطيعاً أو عاصياً ـ إلا وتَقَرُّ عينه، وينشرح صدره، بدعاء خاتم النبيئين والمرسلين، على غرار قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ خُذْ مِنَ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمُ، إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [الآية: ١٠٣] أي ادع لهم دعاءً صالحاً، ولا خاتمة أكمل وأفضل من مثل هذه الخاتمة، التي تؤذن بالانقطاع إلى الله تعالى، والالتجاء إلى عفوه وغفرانه، والأمل في رحمته وإحسانه.

والآن فلننتقل بعون الله وتوفيقه من تفسير سورة الإيمان المكية، إلى تفسير سورة النور المدنية، فنقول:

هذه السورة مدنية باتفاق، وسُمِّيت «سورة النور» لكثرة ذكر النور فيها، فقد جاء ضمن آياتها قوله تعالى: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ ﴾، [٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [٤٠].

ومن دقَّق النظر في موقع سورة النور بعد سورة الإيمان لا يصعب عليه أن يكتشف المناسبة الموجودة بين السورتين، فقد سبق في سورة المومنين المفلحين وصفهم بأنهم ﴿ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمُ أَوْ مَا مَلَكَتَ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [الآيات:

٥، ٦، ٧] كما سبق فيها ما يشير إلى وصف أعداء الإيمان وخصوم الرسالة الإلٓهية، في الجاهلية وما قبلها، بممارسة عدة أعمال فاحشة لا يرضى عنها الطبع السليم، ولا الشرع القويم، حيث قال تعالى في شأنهم ووصف أعمالهم على وجه الإجمال: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا، وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ، هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ [الآية: ٦٤]، وفي طليعة تلك الأعمال المنكرة ممارسة الزنى والتبرُّج، اللذين لا يتصور معهما إحصان ولا عفاف، فجاءت سورة النور تضع النقط على الحروف، وتبيِّن «آياتها البيِّنات» أسس التربية الخُلُقية والاجتماعية النظيفة، التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة، بصفتها الخلية الأولى وحجر الزاوية في بناء ذلك المجتمع، حتى يُقضَى على الخصال الجاهلية، والمفاهيم الوثنية غير الأخلاقية، قضاءً مبرماً.

وهكذا أشهرت «سورة النور» الحرب على الزنى وما ألحق به، سواء كان عن طواعية أو إكراه، وحَدَّدت طريقة الزواج المشروع وما يلزم اتباعه في شأنه بالنسبة للفقراء وَالْأَيَامَى، وملك اليمين، وأحاطت عِرْض الأزواج بأكبر الضمانات، حتى لا يلغ أحد في عرض أحد، وبيَّنت الإجراءات الاستثنائية التي يلزم اتخاذها عند صدور القذف من نفس الزوج في عِرْض زوجته، وبهذه المناسبة تعرضت في عدة آيات لقصة الإفك التي اختلقها المنافقون، وروَّجوها للقذف في عائشة أم المومنين، ثم ما أنزل الله في براءتها ولعن المنافقين، ووصفهم المشين، كما قررت

سورة النور حرمة المساكن والبيوت، ومنع دخولها وانتهاك حرمتها للاطلاع على دخائلها، ونصَّت على طريقة الاستيذان للدخول في البيت، وأوجبت الاستيذان في فترات الخلوة اليومية على أعضاء العائلة أنفسهم ولو كانوا صغاراً، ووصفت جملة من الآداب في الزينة واللباس تحافظ عليها المرأة عند الاتصال بمحارمها فضلاً عن غيرهم، ولم تهمل آداب الضيافة عند اجتماع ذوي القربى وأصدقائهم حول مائدة واحدة، ولعل هذه المعاني، مجتمعة، هي التي أوحت إلى القرطبي أن يقول: «مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر». وإلى جانب ما فصَّلته في هذا المجال من واجبات، وما حضَّت على اجتنابه من محرَّمات، وما أذنت به من مباحات، نصَّت على الحرمة الخاصة والقداسة البالغة التي تتمتع بها بيوت الله لشرف نسبتها إليه، وأعطت للمومنين درساً عملياً في آداب مجالسة رسول الله والحديث معه والنداء عليه، وآداب الانصراف من مجلسه الشريف، بعد الاجتماع به والجلوس بين يديه، صلوات الله وسلامه عليه، وتخللت سورةَ النور آياتٌ كريمة تُبرِز عجائب صنع الله، مما يذكِّر بجلاله وعظمته، وقدرته وحكمته، وخُتمت بتقرير عقيدة ثابتة لا سبيل إلى تجاهلها أو إنكارها، ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الآية: ٦٤].

ونظراً لما للموضوعات الرئيسية التي عالجتها هذه السورة بتفصيل، من أهمية بالغة في تنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامي، وما يعلِّق عليها الإسلام من نتائج حاسمة بالنسبة

لاستمرار وجوده، والحفاظ على كيانه، افتتح كتاب الله هذه السورة بقوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ مما جعل عمر بن الخطاب وعائشة رضي الله عنهما يأمران بتلقين هذه السورة للنساء، حتى تتشبع نفوسهن بما فيها من توجيهات أخلاقية واجتماعية.

ثم شرع كتاب الله فوراً في بيان الحكم الصارم الذي شرعه لمقاومة الزنى والقضاء عليه، فقال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾، و «الجَلْد» معناه إصابة الجِلْد بالضرب، ولم تتعرض الآية لهيئة الجالد ولا لهيئة المجلود، ولا لمحل الجلد، ولا لصفة الآلة المجلود بها، وتركت ذلك للسنّة والاجتهاد، واتفق العلماء على أن الجَلد يكون بالسوط، بشرط أن لا يكون السوط شديداً ولا ليِّناً، وإنما بَيْنَ بَيْنَ، اعتماداً على حديث رواه مالك في الموطأ مرسلاً عن زيد ابن أسلم، ويطبق حكم الجلد على الزاني إذا كان بكراً لم يتزوج بعد، أما المحصن وهو الحر البالغ العاقل الذي قدوطىء في نكاح صحيح فقد اتفق فقهاء الأمصار على أنه يُرجَم بدلاً من أن يُجلد، اعتماداً على آية الرجم التي نُسِخت تلاوتُها وبقي حكمها. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ ﴾، إشارةً إلى وجوب تنفيذ هذه العقوبة كاملة، متى كانت شروطها متوافرة، وحضّاً على عدم النقص من قدرها فضلاً عن تعطيلها بالمرة، لأن الإخلال بها إخلال بدين الله وشرعه النافذ، والمطالَب بتنفيذ

عقوبة الجلد هو إمام المسلمين ومن ينوب عنه، لا عامة الناس، وسعياً في التأثير على غير الزاني والزانية، حتى لا يقع فيما وقعا فيه، وتشهيراً بهذه الجريمة النكراء، وتنفيراً منها، قال تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُومِنِينَ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى أن المومن الصالح لا يرتضي لنطفته وذريته إلا الصوالح من النساء، كما أن المومنة الصالحة لا ترتضي لعشرتها الزوجية إلا الصالحين من الرجال، بحيث لا يتصور إقبال المومنين والمومنات على التزوج بالزناة والزانيات، لما في ذلك من مفاسد وأخطار، وآثام وأوزار، وإنما يتصور وقوع هذا النوع من الزواج والرضا به من طرف الفجار والمشركين وحدهم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً اَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ اَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُومِنِينَ ﴾.

وحرصاً على حفظ عرض المومنات المحصنات، حتى لا يلطخ بسوء، هدد كتاب الله من يتجرأ على قذفهن بالزنى ولم يشهد معه أربعة شهود، بعقوبة الجلد ثمانين جلدة، وبرفض شهادته باستمرار، وباعتباره من الفسّاق غير العدول، تغليظاً لشأن القذف، وردعاً عنه بكل حزم وشدة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَاتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً، وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً اَبَداً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ، إِلَّا الذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ولا خلاف في أن التوبة تسقط الفسق، قال الإمام القشيري: «العقوبة

على الزنى شديدة أكيدة، ولكن الله جعل إثبات أمره، وتقرير حكمه، والقطع بكونه ـ على أكثر الناس ـ خصلة عسيرة بعيدة، إذ لا تقبل الشهادة عليه حتى يقول: رأيت ذلك منه في ذلك منها. وذلك أمر ليس بالهيِّن، فسبحان من أعظم العقوبة على تلك الفعلة الفحشاء، ثم جعل الأمر في إثباتها بغاية الكد والعناء». وقال أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «كثَّر الله عدد الشهود في الزنى، على سائر الحقوق، رغبة في الستر على الخلق».

وعندما يشتد الأمر، ويكون قذف الزوجة بالزنى صادراً عن زوجها نفسه لا عن غيره، دون أن يشهد معه شهود، يُنظَر في هذه التهمة الخطيرة، على أساس أن يشهد الزوج بالله أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنى، وفي الخامسة يشهد أنه يستحق لعنة الله إن كان كاذباً، وبذلك يبرأ من حد القذف، ولا ينسب إليه الولد، ثم تشهد الزوجة بالله أربع مرات على كذبه فيما رماها به، وفي الخامسة تشهد أنها تستحق غضب الله إن كان زوجها صادقاً، وبذلك تبرأ من حد الزنى، ويفرق بينهما فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان، وجرت السنّة على أن ابنها في هذه الحالة يدعى إلى أمه ويرثها، كما أنها ترثه، وهذا الحكم المعروف «باللعان» هو الذي شرعه الله في قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ، وَالْخَـٰمِسَةُ أَن لَّعْنَتُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ، وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ وهو حد الزنا ﴿أَن

تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَـٰذِبِينَ، وَالْخَـٰمِسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾. ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ قال الإمام القشيري: «أي لولا فضل الله عليكم ورحمته لبقيتم في هذه الواقعة المعضلة، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشكلة، إذ مَنِ الذي يهتدي لمثل هذا الحكم، لولا تعريف سماوي، وأمر نبوي، من الوحي متلقاه، ومن الله مبتداه وإليه منتهاه؟».

وانتقل كتاب الله من الحديث عن القذف الصادر من الأباعد ومن الأقارب، وبيان الحكم الشرعي المطلوب تطبيقه على صوره المختلفة، إلى الحديث عن أكبر وأخطر قذف قام به المنافقون في تاريخ الإسلام، وذلك في حق أم المومنين عائشة رضي الله عنها عند منصرفها من إحدى الغزوات مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووصولها متأخرة عن موكبه، بسبب اضطرارها إلى الوقوف عن السير، لقضاء حاجتها والبحث عن عقد نفيس ضاع لها، وقصة هذا القذف هي المعروفة «بقصة الإفك»، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والبهتان الذي لا تشعر به حتى يفاجئك، والذي تولى كِبْرَه هو زعيم المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول، وقد برَّأها الله مما قذفها به المنافقون، كما برَّأ مريم العذراء مما قذفها به اليهود المغرضون، وأقيم حد القذف الشرعي على من روَّج هذا البهتان العظيم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِكُلِّ

امْرِيءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ، وَالذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ووجَّه كتاب الله الخطاب إلى فريق من ضعفاء المومنين الذين أثَّرت في نفوسهم بعض التأثير إشاعة عصبة الإفك والنفاق، يعاتبهم ويبيِّن لهم الموقف السليم الذي يجب أن يقفوه من مثل هذه الإشاعات الملفَّقة، التي يتحتم البحث عن مصدرها، والغرض المقصود منها، والتحري عنها من جميع الوجوه. ونفس هذا الخطاب موجه إلى جميع المومنين، بالنسبة لقصة الإفك ولجميع قصص الإفك الأخرى، التي يمكن أن تصدر عن أعداء الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ، لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ، فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَـٰذِبُونَ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّومِنِينَ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَـٰتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وندد كتاب الله في ختام هذا الربع بالذين يجدون لذَّة في ترويج أقوال السوء، ونشر الإشاعات الباطلة عن صالحي المومنين، لبلبلة الأفكار ونهش الأعراض، وهددهم بالعذاب الأليم

في الدنيا، وهو العقوبة المترتبة على القذف بسائر أنواعه، وبالعذاب في الآخرة وهو عذاب النار، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَـٰحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي هو وحده الذي يعلم مقدار عظم هذا الذنب وانعكاساته على الأفراد والجماعات، وإلى أيّ حد من الأذى يمكن أن يصل، فردوا الأمور إليه تهتدوا.

وأخيراً جدد الحق سبحانه وتعالى منّته على من وقعوا في المحظور، حيث فتح في وجوههم من الرأفة والتوبة أوسع باب، حتى لا يعاجلهم بالعقاب، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا
أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا
وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ
الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ
لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ

مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟
وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل
لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ
أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ
إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ
أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى
ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾
وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ
إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ
فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النور المدنية: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَلَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

بعد أن عالج كتاب الله في الربع الماضي قصة الإفك والبهتان العظيم التي لفَّقها المنافقون، وألقى عليها وعلى بواعثها وانعكاساتها ونتائجها الأضواء الكاشفة، وحذَّر عامة المومنين من الوقوع في شَرَك الإشاعات الباطلة كيفما كان مصدرها، ورسم لهم طريق مواجهتها ومقاومتها للقضاء عليها في المهد، وجَّه إليهم الخطاب مرة أخرى في بداية هذا الربع، محذراً إيَّاهم، في هذا الموقف وجميع المواقف، من الانقياد للشيطان والسير في ركابه واتباع خطواته، مبيِّناً من جديد أن الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس، لا يقود من وثق به، ولا يجر من اتَّبعه إلا إلى التلبُّس بالفواحش

وممارسة المناكر، فهو دليل شر لا قائد خير، وهو قرين سوء وفساد، لا رفيق هدى ورشاد، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ﴾.

وبيَّن كتاب الله أن صلاح الصالحين وتقوى المتَّقين من عباده المومنين، لا يتم لأحد منهم على الوجه الأكمل، إلا بتوفيق الله ومعونته، وفضله ورحمته، فقد خُلِق الإنسان ضعيفاً ميَّالاً للشهوات، معرَّضاً لتأثير كثير من النزغات والنزوات ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَداً، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وحضَّ كتاب الله من كان في سعة من الرزق، واستوفى حاجته وحاجة عياله، على أن يبادر إلى إسعاف المحتاجين، بما فَضَل عن التزاماته العائلية وتكاليفه الشخصية، وفي الطليعة أولو القربى من ذوي الأرحام والمساكين، وهؤلاء يوجدون في كل عصر، والمهاجرون في سبيل الله الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة، فراراً من الشرك، قبل أن تقوم دولة الإسلام الأولى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَاتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُّوتُوٓاْ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَـٰكِينَ وَالْمُهَـٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى ما ينبغي أن يكون عليه الموسرون المحسنون من حسن المعاملة للمحتاجين المعسرين، وغضّ الطرف عن فلتات ألسنتهم، وعدم مؤاخذتهم بما قد يصدر عنهم من أغلاط في تصرفاتهم، ورغَّبهم في الصفح عنهم ومعاملتهم

بمثل ما يرجون أن يعاملهم به ربهم، ما داموا يرغبون هم أيضاً في عفو الله وغفرانه، ونيل رضوانه، فقال تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَّغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وإذا كان كتاب الله في الربع الماضي قد شدَّد النكير على المفترين الذين يرمون المحصنات المومنات، وبيَّن حد القذف الذي يطبق عليهم إذا لم يشهد معهم أربعة شهداء، وهو أن يُجلدوا ثمانين جلدة، فإنه قد عاد في هذا الربع يشدد النكير عليهم أضعافاً مضاعفة، «حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ستشهد عليهم بما أفِكوا وبَهَتوا، وأنه سيوفيهم جزاءهم الحق الواجب، الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أنه الحق المبين» وقد أحسن الزمخشري صنعاً عندما فسَّر بهذه العبارات الناصعة قوله تعالى في هذا الصدد: ﴿ إِنَّ الذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُومِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي الدُّنْيا وَالَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾. ووصف كتاب الله المحصنات المومنات هنا بوصف (الغافلات)، تنبيهاً إلى أن الشأن في المحصنات المومنات أن يكنَّ سليمات الصدور، نقيَّات القلوب، لَيْس فيهنَّ مكر ولا دهاء، ولا يخطر ببالهنَّ تفكير فيما هو من قبيل المنكر والفحشاء، فهن في غفلة عما يُنسبْن إليه وينسب إليهنَّ، ولذلك كان وصفهن بهذه الغفلة مدحاً لهن، وثناءً عليهن.

وإذا كان الوعيد الذي تتضمنه هذه الآيات عامًّا ونافذاً في حق كل من قذف المحصنات المومنات على العموم، فإنه يكون نافذاً من باب أولى وأحرى في حق من تجرّأ على مقام أمهات المومنين بالخصوص ولا سيما عائشة بنت الصديق، ؛ التي كانت قصة الإفك في حقها سبب النزول بالأخص، وإلى نفس هذا المعنى يشير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ الذِينَ يُوذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ [الآية: ٥٧].

وكما نبَّه كتاب الله في الربع الماضي إلى ما للمشاركة والمجانسة من أثر في الحياة الزوجية إذ قال: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ [النور: ٣]، زاد هذا المعنى إيضاحاً وتوكيداً في هذا الربع، فقال تعالى: ﴿ الْخَبِيثَتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَتِ، وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ ﴾ قال ابن كثير: «وما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾، والإشارة هنا إلى الطيِّبين والطيِّبات ـ أي هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾. وقال جار الله الزمخشري: لقد برأ الله أربعة بأربعة: برَّأ يوسف بلسان الشاهد ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنَ اَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى من قول اليهود فيه بالحَجَر الذي ذهب بثوبه ﴿ كَالذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ

اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وبرَّأ مريم بإنطاق ولدها حتى نادى من حِجرها ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيٰنِيَ الْكِتَـٰبَ ﴾ [مريم: ٣٠]، وبرَّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة، بهذه المبالغات، فانظركم بينها وبين تبرئه أولئك، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنَافَة محل سيد ولد آدم وخيرة الأوَّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين».

وتصدى كتاب الله لتحديد النظام الذي يجب أن يُتَّبع عند تزاور المسلمين في بيوتهم، وغشيان بعضهم منازل بعض، وما يلزم لذلك من سبق الاستئذان، حتى لا يقتحم أحد منهم منزل الآخر دون رضاه، فيتصرف في ملك الغير بغير إذنه تصرف الغاصب المتغلب، على خلاف الشرع والطبع، لا سيما وأن من أوجب واجبات المسلم أن لا يطَّلع على عورة أخيه، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل نظره إليه، خصوصاً الشؤون الداخلية التي جرت العادة بالتستر عليها، وعدم السماح بالكشف عنها، وحول هذه المعاني يدور قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَهْلِهَا، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أن الاستيذان ثم التسليم خير للمستأذن وخير لأهل البيت، فلا المستأذن يفاجَأ من طرف أهل البيت بما يكره، ولا أهل البيت يفاجأون من طرف المستأذن بما يكرهون. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُوذَنَ لَكُمْ ﴾ أي حتى تجدوا من يأذن لكم، فالبيت محجوب، لما فيه،

ويما فيه، سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً، لأن الشرع قد أغلقه بتحريم الدخول إليه، حتى يفتحه إذن صاحبه، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ ﴾ قال سعيد بن جبير: «أي لا تقفوا على الأبواب»، وحيث نهى الله عن ذلك لأنه يجلب الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها كقرع الباب بعنف مثلاً، ثم قال تعالى تزكية وتوكيداً للانصراف عند عدم الإذن بالدخول، وصدور الأمر بالرجوع: ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وفي هذا المعنى يقول عليه السلام: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف».

أما البيوت غير المسكونة، مما جرى العرف بدخول الناس إليه لمنفعتهم دون إذن، كالمآوي التي يقصدها الطلبة للنزول، ومحطات الأسفار التي يقصدها المسافرون للاستراحة، وقيساريات التجار التي يقصدها الزبناء للبيع والشراء، والخِرَب العاطلة، التي يهرع إليها الحاقنون لقضاء الحاجة عند عدم وجود أماكن مخصصة لذلك، فلا يحتاج دخولها إلى الاستئذان، وكذلك البيوت المعدة للضيافة إذا أذن للضيف فيها أول مرة كفى، هذه بعض الأمثلة التي فسّر بها المفسّرون معنى قول الله تعالى هنا: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ وبذلك أصبحت مستثناة من المساكن الخاصة، التي لا بد للراغب في دخولها من الاستئذان، ولو كان أهلها غائبين عن المكان.

والمراد «بالمتاع» الوارد في هذه الآية ﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ عموم الانتفاع. وتحذيراً من استعمال هذه الرخصة في غير

محلها، والتذرع بها إلى ما لم يأذن به الله قال تعالى معقباً عليها: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

وقبل أن يحدد كتاب الله ما ينبغي أن يكون عليه حال المومنات من السّتْر والعفاف بالنسبة للمحارم وغير المحارم، وجّه الخطاب أولاً إلى الرجال والنساء بوجوب غض البصر وصرفه عن النظر، وذلك حتى لا ينظر الرجال بشهوة إلى غير أزواجهم، ولا ينظر النساء بشهوة إلى غير أزواجهن، فالنظر سهم مسموم من سهام إبليس، والواجب صرفه سريعاً عما يُشتهَى، ما دام ليس في الإمكان الاحتراس منه. وقد سأل جريرُ بن عبدالله البجلي رسول الله ﷺ عن «نظرة الفَجْأة»، فأمره رسول الله أن يصرف بصره، كما ورد في صحيح مسلم، و«صرف البصر» قد يكون إلى الأرض وقد يكون إلى جهة أخرى. وقال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تُتبِع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة» رواه أبو داود والترمذي. وإلى جانب الأمر بغض البصر ألحّ كتاب الله من جديد على التزام العفة وحفظ الفرج من طرف الرجال والنساء، وبديهي أن هذا الحفظ لا يتحقق إلا بتفادي كل متعة خبيثة خارج الحياة الزوجية الطاهرة، كيفما كان نوعها وشكلها، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ قُل لِّلْمُومِنِينَ يَغُضُّواْ مِنَ اَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُومِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنَ اَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.

وبعد هذا التمهيد تناول كتاب الله بالتفصيل ما يجب على

المومنات ستره من أطرافهن وما يسمح لهن بإظهاره من زينتهن، وبيَّن مَنْ هم الذين لا جناح عليهم إذا شاهدوا تلك الزينة بالخصوص، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إشارةً إلى أنه لا يسوغ للمومنات أن يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب عنهن، ما عدا الشيء الذي يتعذر إخفاؤه من الزينة الظاهرة، مثل الكحل والخاتم وظاهر الثياب، والمراد «بالأجانب» هنا كل الأشخاص الذين لا يعتبرهم الشرع من المحارم، ثم قال تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ إشارةً إلى وجوب ستر النحر والصدر حتى لا يُرى منه شيء، على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، قال مقاتل: «على جيوبهن» أي على صدورهن، يعني مواضع جيوبهن، فقد كانت الجيوب عند العرب تُجعل في الثوب عند الصدر، أما الوجه والكفّان فلا مانع من كشفهما وعدم سترهما، لأن كشفهما مقبول في العبادة، فما بالك بما هو من قبيل العادة. و«الخُمُر» جمع خمار، وهو في الأصل ما يُغطى به الرأس.

ثم قال تعالى مبيِّناً محارم المرأة ومن ألحق بهم، ممن يجوز لها أن تظهر بزينتها الخفية أمامهم، لكن من غير تبرُّج: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجهن ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ ومعنى «الإربة» الحاجة، والمراد «بالتابعين» هنا الأتباع من الأجراء والخَدَم الذين لا شهوة

لهم في النساء مطلقاً، لمانع طبيعي أو طارىء، أو لا طمع لهم في مخدوماتهم لأنهم غير أكفاء لهن ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ ﴾ أي الأطفال الصغار الذين لا عهد لهم ولا معرفة بشؤون النساء، والذين لم يصلوا إلى طور البلوغ. وإنما رُخِّص للمحارم بالنظر إلى ما ليس بظاهر من زينة النساء المومنات، للضرورة التي تدعوهن إلى مداخلتهم ومخالطتهم أغلب الوقت، ولقلة توقع الفتنة والنظر إليهن بالشهوة من جهتهم، بسبب المَحْرَمية والقرابة القريبة.

ثم نبّه كتاب الله مرة أخرى إلى أنه لا ينبغي للنساء المومنات إذا كان شيء من زينتهن مستوراً أن يلفتن إليه أنظار الرجال، بوسيلة أو بأخرى عند خروجهن، صيانةً لأعراضهن وحفاظاً على كرامتهن، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ و«الضرب بالرِّجْل» في هذه الآية يشير إلى ما كانت عليه المرأة في الجاهلية عندما كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت، إذ تضرب الأرض برجلها، ليسمع الرجال طنينه، فنهى الله المومنات عن ذلك، وينصب هذا النهي على من فعل ما يشبه ذلك بنعله أو حذائه من الرجال. وليضع كتاب الله حداً فاصلاً لما كان متعارفاً ومتَّبعاً في الجاهلية من طرف الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. ومن لطائف التفسير في هذه الآية ربط الزمخشري لها بالأحكام السابقة ربطاً وثيقاً، حيث قال في تحليلها: «إن أوامر الله ونواهيه في كل

باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإنْ ضَبَط نفسَه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصّى المومنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن حالة من لم يتزوج، أو تزوج، وفقد الزوج، من الرجال والنساء ـ وعليهم يطلق لفظ «الأيامى» ـ فدعاهم إلى الإقبال على الزواج، كما نبَّه إلى تمكين من لا يزالون في ملك اليمين ينتظرون فرصة التحرير، من حق الزواج، ما داموا على حالة ظاهرة من الصلاح، مشيراً بذلك، من طرف خفي، إلى أن صلاحهم لا بد أن يجلب لهم العطف والمودة والإحسان من الغير، ولا سيما من مواليهم الذين ينزلونهم منزلة أولادهم، فيعوِّض الله لهم ما كان ناقصاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ الأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ، إِنْ يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. أما الذين تعذَّر عليهم الزواج، ممن لم يجد وسيلة للحصول على المهر والنفقة بالمرة، أو وجد اليسير من الصداق والنفقة، لكن لم يجد الزوجة التي تقبل ذلك، أو عاقه عن الزواج عذر آخر من الأعذار القاهرة، فقد دعاهم كتاب الله إلى ملازمة العفة والصبر عَنِ الشهوة، في انتظار توافر الشروط وزوال الموانع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾. قال جار الله الزمخشري مبيِّناً بلاغة القرآن في هذا السياق: «وما أحسن ما رتب هذه الأوامر، حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويُبعِد عن

مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يُحصِّنُ به الدين، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمّارة بالسوء وعزفها (أي صرفها) عن الطموح إلى الشهوة، عند العجز عن النكاح، إلى أن يُرزَق القدرة عليه».

وعاد كتاب الله إلى الاهتمام بمشاكل «ملك اليمين»، فحضّ على إحدى الوسائل العملية لتحرير الرقاب، ألا وهي الاتفاق مع المملوك ملك يمين على قدر مقسَّط من المال يؤديه لمولاه، تعويضاً عن الحق الذي له عليه، وهذا الاتفاق هو الذي يطلق عليه اسم «المكاتبة» في هذا الموضوع. ودعا كتاب الله الموسرين من المسلمين، من الموالي وغيرهم، إلى مساعدة المكاتَبين على تحرير أنفسهم ببذل العون لهم على التحرر، من مال الله الذي آتاهم، علاوة على ما هو مخصص في بيت المال لتحرير الرقاب من موارد الزكاة في الإسلام، وبذلك يتمكن المكاتب من أن يشتغل ويكتسب ويتحرر ويتزوج إذا شاء، فيكون ذلك أعفَّ له وأكرم، وهذا المعنى هو الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ أي أمانة وصلاحاً ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ثم تصدى كتاب الله للقضاء على ما كان معروفاً في بعض أوساط الجاهلية من تسخير الإماء لممارسة البغاء، من أجل ما يدرُّه على مالكي رقابهن، فحرَّم كتاب الله ذلك تحريماً باتاً، لأن البغاء حرام في الإسلام في جميع الأحوال، وإلى ذلك يشير قوله

تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، فالمراد «بالفتيات» هنا الإماء، على حد قوله عليه السلام: «ليقل أحدكم فتاي وفتاتي، ولا يقل عبدي وأمتي» وإنما قيل «إن أردن تحصُّناً» تصويراً لحالة الإكراه، حيث إن إكراههنَّ على البغاء لا يتصور إلا عند إرادتهنَّ للتحصن، وليس معنى ذلك إباحة البغاء عند الرغبة فيه وعدم الإكراه عليه، وقوله تعالى: ﴿ لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ إشارة إلى الدافع الخسيس الذي كان يدفع بعض مالكي الإماء في الجاهلية إلى استغلالهنَّ في ممارسة البغاء، وقد كان رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول على رأس الذين يتاجرون في عرض إمائه، فوقف الإسلام له ولأمثاله بالمرصاد، وقضى على ما كان سائداً في عهد الجاهلية من الانحراف والفساد. ثم قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي غفور لهنَّ ما أُكرهن عليه، وإثمهن على من أكرههن، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

وخُتِم هذا الربع بتبيين الحكمة فيما تضمنته هذه السورة المدنية من تشريعات كلها تأسيس وتأصيل، مصحوبة بكثير من البيان والتفصيل، سعياً في هداية الخلق، وتمييزاً للطيِّب من الخبيث والباطل من الحق، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ، وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يشير إلى قصة عائشة، المماثلة لقصة مريم وقصة يوسف عليهما السلام ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين
في المصحف الكريم

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ
كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ
وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ
نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ

يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ
عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي
بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ
بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ
لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ
بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم
مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ
يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ
مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد اللـه

في حصة هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النور المدنية: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴾.

بعد أن عرض كتاب الله في الآيات السابقة من هذه السورة ما يجب أن يكون عليه نظام الأسرة المسلمة، التي هي الخليَّة الأولى للمجتمع الإسلامي، وحجر الزاوية في بناء الدولة الإسلامية، وبعد أن رفع الستار عن الحكمة الربَّانية التي تكمن وراء تلك التشريعات والتوجيهات، إذ قال تعالى في ختام الربع الماضي: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لفت كتاب الله أنظار البشرية جمعاء، إلى أن الإنسان بالرغم مما رزقه الله من عقل لا يمكن له أن يستغني عن الاستنارة بنور الله في تدبير شؤونه الخاصة والعامة، وكما أن «الطبيعة» إنما تسير بانتظام وفقاً للنواميس والسنن التي وضعها الله

فيها وأودعها إياها، فلا بد للإنسان ـ وهو كائن مخير ـ إذا أراد أن يسير في حياته سيراً متئداً موفقاً سعيداً، من التزام الشرائع الإلٓهية، التي هي بالنسبة إليه مثل النواميس الكونية بالنسبة للطبيعة المسخرة، وقد وصف كتاب الله الهداية الإلٓهية بكونها نوراً يخرج الناس من الظلمات في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الحديد: ٩]، وقولُه تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقولُه تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ اَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ابراهيم: ١]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلاَ الإِيمَٰنُ، وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقولُه تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]. وعلى ضوء هذا المعنى يكون قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ ﴾ تعقيباً مناسباً على جميع آيات الأحكام التي سبق تفسيرها من سورة النور المدنية في الربعين الماضيين، ويكون مرتبطاً بها كلها في سياق واحد، ومن نسق واحد، وأضيف لفظ (النور) في هذه الآية إلى السماوات والأرض للدلالة على سعة إشراقه وإنارته، وقوة انتشاره واضاءته، إذ يستضيء به أهل السماوات والأرض جميعاً، فنور الله لازم لتدبير شؤون الإنسان كيفما كان، كما هو لازم لتسخير بقية الأكوان، والعالم كله علويه وسفليه مشحون بالأنوار، ما بين أنوار

روحية وعقلية، وأنوار مادية وحسية. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾: «الله هادي السماوات والارض، فهم بنوره يهتدون، وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون».

وكما مَنَّ الله على المومنين من عباده بنور من عنده يكون لهم في حياتهم قريناً وخفيراً، إذ قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الآية: ٢٢] ضرب كتاب الله هنا أروع الأمثال لذلك النور الإلٓهي الذي يهتدي به المومن في كل حين، فشبه حاله وهو يقتبس من نور الله بالمشكاة، وهي - الكُوَّة غير النافذة - التي يتوسطها مصباح قوي الضوء، شديد الإنارة، وهذا المصباح من زجاج شفاف في غاية اللمعان، والزيت الذي يوقد منه هذا المصباح أشد الزيوت صفاءً وإشراقاً، وجلاءً وبريقاً، حتى أنه ليكاد ينير ما حوله ببريقه وحده دون أن يوقده أحد، لأن الشجرة التي يستخلص منها ذلك الزيت شجرة مباركة، تتلقى من الهواء الذي تنمو فيه ما يساعدها على النصج التام، حتى يكون حملها أجود حمل، ودهنها أصفى دهن. قال ابن عطية: «إنها في وسط الشجر، لا تصيبها الشمس طالعة ولا غاربة، بل تصيبها بالغداة والعشي». وهكذا تعاونت المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، مِمَّا ضرب الله بِهِ المثل، على تقوية هذا النور أضعافاً مضاعفة، وواضح أن المصباح إذا كان في مكان ضيق كالمشكاة الممثل بها هنا كان أضوأ له وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر، فيضعف أثره ويتضاءل، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله

تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، قال أُبيّ بن كعب في تفسير هذه الآيات مع الاقتصار على أهم الفقرات: «هذا مثل المومن، فالمشكاة نفسه، والزجاجة قلبه، والمصباح ما جعله الله فيه من الايمان والقرآن، ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ هي شجرة الإخلاص لله وحده ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ هي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك المومن يحترس من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد يُبتلَى بها فيثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال: «إن أُعطِي شكر، وإن ابتُلِي صبر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل» ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أي يكاد قلب المومن يعرف الحق قبل أن يتبيَّن له، لموافقته إياه، وإلى هذا المعنى ينظر قوله ﷺ: «اتَّقوا فراسة المومن فإنه ينظر بنور الله» ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة أنوار: قوله نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره يوم القيامة إلى النور، أي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم، بُشْرَيٰكُمُ الْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الحديد: ١٢]، انتهى ما رواه المفسرون عن أبي بن كعب في تفسير هذه الآيات. والمراد بمدخل المومن ومخرجه هنا سرّه وعلانيته. ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ﴾ أي يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده، إما اعتماداً على الذكر الحكيم، أو استناداً إلى العقل السليم، أو استئناساً بالفطرة التي

فطر الله الناس عليها، فنزلوا عند حكمها مضطرين كلما تحاكموا إليها. ونبَّه كتاب الله في نهاية هذا السياق إلى أن الغاية من ضرب المثل الذي تضمنته الآيات السابقة هي تصوير الأثر البالغ، الذي يحدثه النور الإلّهي، عندما تتخلل أضواؤه زوايا قلب المومن، فتنيره من كل جانب، فالأمر يتعلق بتقريب الانفعالات الروحية، والظواهر النفسية، إلى الأفهام العادية، تيسيراً على عامة الناس، وتسهيلاً لإدراك الحقائق حتى يزول عنها وعنهم كل التباس، أما الحق سبحانه وتعالى فهو غني عن ضرب المثل، لأنه يعلم ما ظهر وما بطن منذ الأزل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وكما فصَّل كتاب الله في الربع الماضي ما يلزم تطبيقه من الأحكام على بيوت الناس المسكونة وغير المسكونة، مما هو داخل في ملكهم الخاص، تناول في هذا الربع بيوت الله في الارض، التي هي قطعة من الملأ الأعلى في الملأ الأدنى، وهي بيوت عامة مفتوحة الأبواب في وجوه كافة المومنين والمومنات، وتصدُق على جميع المساجد حيثما كانت وأينما كانت، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ اذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ والمراد «بالإذن» هنا الأمر، أي أمر الله أن ترفع.

- ورفع بيوت الله يدل على معنيين جليلين:

- المعنى الأول - الأمر بتشييدها وبنائها لتؤدي الرسالة المنوطة بها في الدين على أحسن وجه، فكلمة (رَفَع) تستعمل بمعنى بنى، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَآنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً امِ السَّمَآءُ،

بَنَيهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّيهَا ﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] وهذا هو الرفع الحسي.

ـ المعنى الثاني ـ الأمر بتعظيمها وتطهيرها من الأنجاس والأقذار، على غرار ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] وهذا هو الرفع المعنوي.

ويندرج تحت المعنى الأول ـ وهو الأمر بتشييدها وبنائها ـ اتخاذ المطاهر حولها، وإجراء المياه بها، حتى يتمكن الوافدون عليها من الطهارة والصلاة، وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله آبار يستقون منها، فيشربون ويتطهَّرون ويتوضأون.

ويندرج تحت المعنى الثاني ـ وهو الأمر بتعظيمها وتطهيرها من الأنجاس ـ تنظيفها وتطييبها وتبخيرها أيام الجمع، كما كان يفعل عمر بن الخطاب كل جمعة في مسجد رسول الله ﷺ، وتنزيهُها عن كل ما فيه رائحة مستكرهة، كالإتيان إليها عقب أكل البصل والثوم، وتفادي كل ما يمكن أن يجلب لها القذارة والنجاسة، فلا يسمح بالبصاق ولا بالتَّنخم ولا بالتمخط فوق أرضها ولا فوق فرشها، ولا يسمح بدخول المجانين وصغار الأطفال إليها خوفاً من تدنيسها ، ولا بمرور الحائض أو حامل اللحم النيء بها، خوفاً من تلويثها بدم الحيض أو الدم المتقاطر من اللحم، ولا يقام فيها حد ولا قصاص، خوفاً مما يمكن أن يَرشَح من المجلود أو المقطوع، ولا يدخلها أحد وقد أشهر

سلاحه، تفادياً لما يمكن أن يصيب المصلِّين من سلاحه إذا غفل عنه، وينبغي البدء بالرِّجل اليمنى عند دخول أبوابها، والمبادرة بالسلام على روَّادها، والقيام بصلاة ركعتين تحية للمسجد فور دخولها، كما ينبغي تجنب كل ما فيه أذى لبقية المصلِّين، فلا يتخطى الداخل اليها رقاب الناس، ولا يُضيِّق على أحد منهم في الصف، ولا يمر بين يدي أحد وهو يصلِّي، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشيء من جسده، قال القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن): «إن كل من تأذّى به جيرانه في المسجد، بأن يكون ذَرِب اللسان سفيهاً عليهم، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه (أي لا تفارقه) لسوء صناعته، أو ذا عاهة مؤذية كالجذام وشبهه، وكل ما يتأذّى به الناس، كان لهم اخراجه، ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول». وبهذا البيان الشافي لرفع بيوت الله حسياً ومعنوياً يتضح للجميع معنى قوله تعالى هنا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فهو تحديد دقيق لرسالة بيوت الله التي أنيطت بها، وأقيمت من أجلها، بحيث لا يسوغ التخلي عنها بحال، وكل ما لا يتصل بها يجب استبعاده في جميع الأحوال، ولذلك نُهِي عن التحدث فيها باللغو والرفث والخَنَى، ونُهى عن انشاد الشعر في جنباتها إذا كان لا يتضمن ثناءً على الله ورسوله، ولا يؤدي غرضاً شرعياً مُلاَئِماً لأغراضها، ونهى عن البيع والشراء داخلها، ونُهِي عن مباشرة الخصومات والمحاكمات والمشاجرات ورفع الأصوات بين جدرانها، ونُهِي عن

المبيت والنوم بها إلا عند الضرورة القصوى لغريب أو عابر سبيل، وقد كان عمر رضي الله عنه يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً، كل ذلك حرصاً على أن تظل بيوت الله مقصورة على ما أنشئت من أجله، ألا وهو ذكر الله وتمجيده وتنزيهه، والتعريف بمظاهر قدرته وحكمته، وتبليغ الرسالة الإلّهية المتضمنة لهدايته، والدعوة إلى عبادته وطاعته، وتمكين النوع الإنساني من بلوغ سعادته. وواضح أن الأمور التي نهى عنها الشرع في هذا المقام كلها منافية لذكر الله، لأنها تشوِّش على الذاكرين والذاكرات ذكرهم، فلا يطمئن لهم بال، وتصرف فكرهم عن الاستغراق والتأمل فيما لله من نعوت الجلال والجمال.

وبعد أن وصف كتاب الله في الآيات السابقة نوره الذي أشرقت به السماوات والأرض، وضرب المثل لنوره عندما يغشى قلب المومن فيخرجه من الظلمات إلى النور، وبيَّن أنه سبحانه يهدي لنوره من يشاء، تناول بالذكر فريقين اثنين لا ثالث لهما: الفريق الأول هم المهتدون الذين ملأ النور الإلّهي قلوبهم فقبلوا الهداية الإلّهية، والفريق الثاني هم الذين لم يَلِجْ ذلك النور قلوبهم فرفضوا هدايته رفضاً باتاً، فعن فريق المهتدين الذين تعد عمارة بيوت الله من أبرز صفاتهم، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، ولا أن تلهيهم دنياهم عن الدين، قال تعالى منوِّها بهم مبشِّراً اياهم بالفوز في الدنيا والآخرة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ، يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَـٰرُ،

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وإطلاق (الرجال) عليهم في هذه الآية لا يعني استثناء النساء المومنات من هذا الفضل العظيم، فالنساء شقائق الرجال في كل خير وفضل ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وإنما أثنى عليهم كتاب الله ووصفهم بكونهم «رجالاً»، إشعاراً بما لهم من عزائم ماضية، وهمم عالية، واستعمل لفظ «الرجال» في هـذا المقام كما استعمله في مقامات أخرى مماثلة، عندما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وعندما قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَّتَطَهَّرُواْ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وعن فريق الضالين الذين حبطت أعمالهم فأصبحت هباءً منثوراً، وخسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى منددّاً بهم، وضارباً المثل لخسرانهم المبين وخيبتهم المرة: ﴿وَالذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْئَانُ مَآءً حَتَّىٰ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّيٰهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَيٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرِيٰهَا﴾ و«القاع» ما انبسط من الارض واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب، وجمعه «قِيعة» كما في قوله تعالى هنا: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ ثم عقب كتاب الله على وصفه للفريقين فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

وفتح كتاب الله في وجوه الجاحدين والمكذّبين مرة أخرى باب الموعظة الحسنة، عسى أن ينظروا ويعتبروا ويرجعوا عن ضلالهم القديم، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰفَّٰتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ، فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ، يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَٰرِ، وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. ثم قال تعالى مقيماً الحجة عليهم بعد هذا البيان القاطع: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تحديد معيار دقيق لا يتخلف يميِّز المومنين من المنافقين، والمهتدين من الضالين، ألا وهو النظر إلى موقف كلا الفريقين من التحاكم إلى الله ورسوله، فمن تقبَّل حكم الله ورسوله، بالطاعة والإذعان، سواء كان له أو عليه، إيماناً منه بأن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، ولا يظلم ربك أحداً، كان مومناً حقاً وصدقاً، ومن رفض حكم الله ورسوله متى كان ذلك الحكم عليه لا له، وإذا كان له لا عليه أظهر الطاعة والإذعان،

كان منافقاً خارجاً عن حظيرة الإيمان. وللكشف عن كلتا الحالتين والموقفين يقول الله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ، وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين
في المصحف الكريم

وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ
قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا
حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ
الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ
وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ
مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ
وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ
صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ
بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا
عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨
وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا
ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ
ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ
لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا
عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ
أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ
أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ
أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ

أَوْ بُيُوتِ خَلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين
في المصحف الكريم

عبـــاد اللــه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النور المدنية: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَإِذَا اسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سبق لنا في الآيات الأخيرة من الربع الماضي أن كتاب الله حدد معياراً دقيقاً للتمييز بين المومنين الصادقين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاستجابوا لله ورسوله، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، ممن درجوا على المراوغة والكذب والتكذيب، وذلك المعيار هو ما يظهر على هذا الفريق أو ذاك من الرضا أو السخط، ومن الثقة أو الشك، ومن الإقبال أو الإعراض، عندما يُدعَى للتحاكم إلى الله ورسوله، فلا يكون من الفريق الأول إلا القبول والسمع والطاعة، ولا يكون من الفريق الثاني إلا التحفظ والتردد والتمرد ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ امِ ارْتَابُواْ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ

يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾.

ومضياً في نفس السياق، واستمراراً في نفس الموضوع، أخبرنا كتاب الله في بداية هذا الربع بالأثر البالغ الذي أحدثته الآيات السابقة في نفوس المنافقين حيث كشفت عنهم الستار، وفضحت ما ينطوون عليه من الجحود والإنكار، فلم يسعهم إلا أن يلجأوا إلى الأَيْمان المغلظة يقسمون بها، ويكثرون منها، ليؤكدوا إيمانهم وطاعتهم، وليخادعوا الله ورسوله والمومنين إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكان من بين ما أقسموا عليه، للدلالة على إخلاصهم وصدق ايمانهم، أنهم على كامل الاستعداد، لمفارقة المال والأهل والأولاد، والخروج مع رسول الله ﷺ من أجل الجهاد، لكن الوحي الإلٰهي سجّل عليهم مرة أخرى نفاقهم فيما يُدْلُون به من أيمان كاذبة، وعرّف رسولَه بأن الطاعة التي يعلنونها لا فائدة من ورائها، لأنها مشكوك في أمرها، ومدخولة من أصلها، وأنهم مهما حاولوا إخفاء حقيقتهم، فإن الله تعالى مطّلع على سرائرهم، لأنه يعلم السر وأخفى، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أي طاقة ما قدروا أن يحلفوا ﴿ لَئِنَ اَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ، قُل لَّا تُقْسِمُواْ، طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم أعاد كتاب الله الكرّة داعياً الناس جميعاً إلى طاعة الله وطاعة رسوله، مبيّناً أن الإعراض عن الدعوة الإلٰهية، والهداية الربّانية، لا يعفي أحداً من مسؤولياته، وكما أن الرسول عليه السلام قد حمّله الله رسالة لن يستطيع التخلي عنها، ولا بد له من

تبليغها ـ أحب من أحب وكره من كره ـ فإن كل فرد من أفراد البشر قد حمَّله الله أمانة الدين الحق، وهي أمانة لا يسوغ له التفريط فيها، ولا يسمح له بخيانتها وتجاهل أمرها، بل هو مسؤول عن صيانتها والحفاظ عليها وممارسة مقتضياتها قولاً وعملاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي على الرسول ﴿ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ، وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ ﴾.

وليعرف المومنون المستقبلَ المشرق الذي ينتظرهم، ويتصوروا دنيا الإسلام الواسعة التي ستحتضن دينهم وحضارتهم، وما ستكون عليه دار الإسلام ـ رغم سعتها وامتدادها عبر القارات ـ من أمن واستقرار، ورفاهية وازدهار، أكد كتاب الله لهم بأقوى صيغ التأكيد أن ذلك أمر واقع، ليس له من دافع، كأنهم يرونه رأي العين، فقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾. لكن هذا الوعد الإلّهي الذي هو حق وصدق وعد مقيَّد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الاول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، وهي تتضمن وحدة الكون عموماً، ووحدة النوع الإنساني خصوصاً، ووحدة الرسالة الإلّهية بالأخص، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله وحكمته، والإيمان

برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان ببعث الانسان بعد موته ومحاسبته. والعمل الصالح يقتضي ممارسة كل ما فيه خير وَبِر وصلاح، للفرد والجماعة، ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعاً.

وقد نصر الله عبده، وأنجز لرسوله وللمومنين الصالحين وعده، فقامت لدين الحق دولة كبرى لا تغيب عنها الشمس، وهذا الدين قادر - بما فيه من طاقات كامنة - على أن يقيم اليوم دولة أخرى كما أقامها بالأمس، فالوعد الإلَهي مستمر وقائم على الدوام، لكل من آمن بالله ثم استقام، وبقدر ما يتحقق من هذين الشرطين أو من أجزائهما يكون من حق المومنين انتظار وعد الله كلياً أو جزئياً، لكن بقدر ما يطرأ من اهمالهما يتخلف عنهم وعد الله، فتنحطّ منزلتهم، بعدما رفعهم الله مكاناً علياً.

ولتوضيح جملة من مقتضيات الإيمان والعمل الصالح تولى كتاب الله الحديث عنها في نفس السياق فقال: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ، وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، ونبَّه كتاب الله خلال هذه الآية نفسها إلى أن المومنين الذين أنعم الله عليهم، مطالبون بشكر نعمه، وإلى أنهم لا يستحقون وصف الإيمان الكامل إلا إذا استعملوا نعمه فيما منحت لأجله، فلم يكفروا بها ولم يتنكروا لها، ولم يستعملوها في غير وجهها، وإلا انقلب وصفهم بالإيمان والمومنين، إلى وصفهم بالفسق والفاسقين، والفاسق مَنْ إذا استغنى تجبر وطغى، وإذا تولى سعى

في الارض ليفسد فيها ويبغى، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴾. ويلتقي مع هذه الآيات حول نفس المعنى قول الله تعالى في سورة الحج: ﴿ الذِينَ إن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي الْاَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَواْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَلِلهِ عَـٰقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الآية: ٤١] فهذه هي الضمانات الكبرى والدائمة، لتمكين المومنين في الارض، طولها والعرض. ثم قال تعالى توكيداً لوعده الذي لا يتخلف ولو بعد حين، وتهويناً لشأن الكفر والكافرين والشرك والمشركين، مما قد يعتبره ضعفاء الإيمان عائقاً في طريق المومنين، وسدّاً في وجه ما ينتظرونه من الفتح المبين: ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الْاَرْضِ، وَمَأْوِيٰهُمُ النَّارُ، وَلَبِيسَ الْمَصِيرُ ﴾.

وتتميماً لما شرعه كتاب الله في شأن بيوت السكنى الخاصة، والظروف التي يجب فيها الاستئذان لدخولها، أو الانصراف عنها، لما لها من حرمة لا يسوغ التطاول عليها بحال، مما تضمنته الآيات السابقة في الربع الأول من هذا الحزب، أضاف كتاب الله في هذا الربع الثالث أحكاماً أخرى تخص من يعيشون داخل العائلة من الأطفال والخدم، وهذه الأحكام تقتضي إلزام من هم في مِلْك اليمين من الفتيات والفتيان، وإلزام من هم دون البلوغ من أطفال العائلة بالاستئذان، في ثلاث فترات خلال اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر، وعند الظهيرة، وبعد صلاة العشاء. أما قبل صلاة الفجر فلأن الوقت في العادة وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة، وأما عند الظهيرة فلأنها وقت

وضع الثياب للقيلولة، وأما بعد صلاة العشاء قبل النوم فلأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. وقد سمَّى كتاب الله كل فترة من هذه الفترات «عورة» لأن الشأن في الناس أن يقل تستُّرهم وتحفُّظهم فيها، مما قد يؤدي إلى كشف العورة، فلا بد للطوافين بالبيت من الخدم والأطفال، أن يستأذنوا في هذه الأحوال. أما بعد هذه الفترات الثلاث التي هي وقت التكشف غالباً فيسمح لهم بالدخول من غير استئذان، لضرورة العيش المشترك، والمخالطة والمداخلة في عين المكان، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ، ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ، طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم، بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي أن المنزل الواحد مشترك يطوف فيه البعض على البعض، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

لكن إذا خرج الأطفال من مرحلة الطفولة ودخلوا مرحلة البلوغ أصبح الاستئذان واجباً عليهم في كل وقت، لا في تلك الفترات الثلاث وحدها، وطُبِّق عليهم ما يطبق على الكبار من بقية الأولاد والأقارب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. ويشير قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى الحكم الذي تضمنه

قوله تعالى في الربع الأول من هذا الحزب: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَانِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [الآية: ٢٧] قال عطاء: «واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحراراً كانوا أو عبيداً».

وبمناسبة ما أمر به كتاب الله هنا من التحفظ في الأوقات التي هي مَظِنَّة كشف العورة، وهو أمر شامل للرجال والنساء، وبعد أن بيَّن الحكم الأصلي في زينة النساء، بما فيها الزينة الظاهرة والزينة الخفية، وحدد الموقف الذي يجب عليهن اتخاذه بالنسبة للمحارم والأجانب في الربع الاول من هذا الحزب، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ عاد كتاب الله في هذا الربع إلى نفس الموضوع، ليبيِّن الحكم الخاص «بالقواعد» من النساء، وهن اللواتي لم يبقَ لهن تشوّف إلى الزواج لكبر سنهن، وعدم الافتتان بهن، وانصراف الأعين عنهن، لا سيما إذا انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، فأباح لهن ما لم يبحه لغيرهن، وأزال عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن، وبيَّن أنهن ليس عليهن من الحجر في التستر ما يجب على غيرهن من النساء، وذلك بالنسبة لثيابهن الظاهرة كالجلباب والرداء، لكن بالرغم من هذه الرخصة التي منحها كتاب الله للقواعد من النساء، عندما يحتجن إلى التخفف من ظاهر الثياب، نبَّههن إلى أن الأولى والأفضل هو ملازمة التستر الكامل كغيرهن من المومنات. كما نبَّههن إلى تفادي كل ما يُقصَد به التبرج أو يُحمَل عليه،

والمراد «بالتبرج» تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من الزينة، بقصد إثارة شهوة الرجال، إذ كم من سيدة بلغت من الكِبَر عتيّاً تكون حريصة على التبرج والظهور بمظهر الفتنة والجمال. وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى موضوع له علاقة وثيقة بالحياة الإجتماعية عموماً والحياة العائلية خصوصاً، ألا وهو موضوع آداب المائدة وحسن الضيافة بالنسبة للأقارب والأصدقاء، ومهّد له بالحديث عن ذوي العاهات والأعذار، الذين لا ينبغي أن يكونوا في المجتمع الإسلامي أقل من غيرهم في التقدير والاعتبار، إذ لا يصح عزلهم عن الحياة الاجتماعية بالمرة، لما يجلبه لهم ذلك من الشعور بالغضاضة والمرارة والحسرة، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾، ثم بيّن البيوت التي تطيب أنفس أهلها بأكل من يدخل عليهم، لزيارتهم، وصلة الرحم معهم، والسؤال عن أحوالهم، لما بينهم من عطف متبادل ودم مشترك، وهي بيوت الأولاد، وبيوت الآباء، وبيوت الأمهات، وبيوت الإخوان، وبيوت الأخوات، وبيوت الأعمام، وبيوت العمّات، وبيوت الأخوال، وبيوت الخالات، وإلى هذه البيوت أشار قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ ﴾، ويضاف إلى الأقرباء الذين تطيب نفوس أقربائهم بضيافتهم والأكل من طعامهم مَن لهم مع الشخص رابطة عمل وخدمة، أو علاقة نيابة وتكليف، فهؤلاء يجوز لهم أن يأكلوا مما تحت أيديهم، مما هو في ملك مخدوميهم، إذا لم يُرتِّبوا لهم أجرة على عملهم، وخَتَمَ كتابُ الله هذه السلسلة بالأصدقاء الصادقين الذين تعتبر بيوتهم بمنزلة بيوت الأقرباء، فقال تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَـاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾. وإذا كانت بيوت الأولاد لم تذكر صراحة في هذه الآية فإن قوله تعالى في بدايتها:﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ يتضمنها من باب أولى وأحرى، لأن سبب الرخصة الذي هو القرابة، يتحقق في الولد أكثر من بقية القرابات الأخرى.

ونبَّه كتاب الله إلى أنه لا حرج على العيال والأقرباء، والضيوف والأصدقاء في أن يأكلوا مجتمعين أو متفرقين حسب الظروف، وإن كان الاجتماع على مائدة واحدة أبرك وآنس، وأجلب للألفة، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَاكُلُواْ جَمِيعاً اَوَ اَشْتَاتاً ﴾، وحضَّ الزائرين على البدء بتحية أهل البيت الذين جاؤوا لزيارتهم والسلام عليهم، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني إخوانكم الذين هم بمنزلة أنفسكم ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾، قال جار الله الزمخشري: «ووصفها بالبركة والطِّيب، لأنها دعوة مومن لمومن،

يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق».

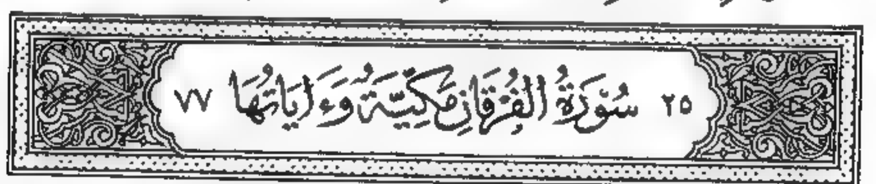
وفي نهاية هذا الربع شرع الله للمومنين أصلاً أساسياً وحيوياً لتنظيم حياتهم العامة، ففرض عليهم إذا دعاهم رسول الله لجمع خطير ـ بقصد النظر والتشاور في أمر جليل يعم نفعه أو ضرره، سلماً أو حرباً ـ أن لا ينصرف أحد منهم عن الجمع قبل أن ينفضَّ، إلا بعد استئذانه لرسول الله ﷺ وصدور الإذن له منه بالفعل، على أن يكون ذلك من أجل عذر طارىء مقبول، وإلا لم يفارق الجمع بالمرة، إذ ما دام الغرض من الجمع لم يتم فليس للتفرق معنى، ووكَل كتابُ الله إلى رسوله تقدير ظروف الراغب في الانصراف بعد الاستئذان، فإن رأى ما يبرر رغبته أذن له، وإلا فلا، وقد كشف كتاب الله الستار عن سلوك المنافقين في هذا المجال، حيث كانوا ينصرفون من الجمع متسللين، فقال تعالى في شأنهم ـ وسيأتي ذلك ـ في بداية الربع القادم ـ ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ [النور: ٦٣] وأمر الله جميعهم بأن لا يخرج أحد منهم حتى ينفض الجمع الذي دعا إليه رسول الله، عند استنفاد الغرض منه، وبذلك يتبيَّن إيمان المومن ونفاق المنافق، وواضح أن هذا الأصل الأصيل الذي شرعه الله لرسوله وطبقه في حياته يسري من بعده على خلفائه الراشدين وامراء المومنين وأئمة المسلمين، وما داموا جميعاً مأمورين بممارسة الشورى بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الاَمْرِ ﴾ [ءال عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] فالمشاوَرُون بدورهم مأمورون بالمشاركة في

الجمع الذي يُدعَوْن إليه من البداية إلى النهاية، لتقديم ما عندهم من رأي وتجربة، والمساهمة في تقليب كافة وجوه النظر، إلى أن ينجلي للجميع الرأي المعتبر.

وإلى هذا النظام الاساسي الذي وضعه كتاب الله لحياة المسلمين العامة يشير قوله تعالى في الآيات الأخيرة من هذا الربع فيقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَئْذِنُوهُ، إِنَّ الذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ الذِينَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَئْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَاذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ إِفْتَرِيٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ـ اخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو
ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلَاوَّلِينَ إِكْتَتَبَهَا فَهِيَ
تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلَ انزَلَهُ ٱلَّذِے يَعْلَمُ
ٱلسِّرَّ فِے ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلَارْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦
وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَاكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِے فِے
ٱلَاسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧
اَوْ يُلْقِيٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ اَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَاكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ اُنظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُواْ لَكَ ٱلَامْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩
تَبَٰرَكَ ٱلَّذِےٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِے
مِن تَحْتِهَا ٱلَانْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُواْ
بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ

أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟
ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ
خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ
جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ
أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾
فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في ختام سورة النور المدنية: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَـآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ إلى قولـه تعالى في سـورة الفرقـان المكية: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً، أَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾.

في نهاية الربع الماضي حثَّ كتاب الله السابقين الأوَّلين، الذين نالوا من العناية الإلَـهية أوفر نصيب، بصحبة خاتم الأنبياء والمرسلين، وكذلك من يأتي بعدهم من كافة المومنين، على عدم الانصراف من أيِّ جمع اسلامي عام تعالج فيه الشؤون العامة للمسلمين، إلى أن ينتهي الجمـع إلى النتيجة التي التـأم من أجلها، وأمرهم بأن لا يفارق أيِّ واحد منهم مقر الجمع، إلا بإذن صريح من رسول الله الذي هو رئيس الجماعة الإسلامية الأول والأصيل، وواضح أن هذا التوجيه الإلَـهي ينسحب بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى على خلفائه من بعده، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـٔذِنُوهُ ﴾.

وفي بداية هذا الربع كشف كتاب الله النقاب عن حقيقة فريق من الناس ضعاف الإيمان لا تهمهم شؤون المسلمين العامة، ولا يحملون لرؤسائهم المسلمين في قلوبهم وقاراً، لكن تضطرهم الظروف إلى حضور مثل هذه الجموع كي لا يوصموا بالعار، حتى إذا ما حضروها أحسوا في أنفسهم بالضيق والملل، وحاولوا التسلل منها في خفية عن الأنظار، وإلى هذه الطائفة التي في قلبها مرض، وجَّه كتاب الله تحذيره الصريح، إذ قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾، إشارةً إلى أنه إذا غفلت عين الرئيس المسلم الذي يرأس الجمع، أو غفلت أعين المسلمين المجتمعين فيه، عن تسلل أولئك المذبذبين، وخروجهم من الجمع مختفين مستترين، دون اعتذار ولا استئذان، حذراً من الفضيحة والهوان، فإن الله تعالى الذي يعلم السر والنجوى لا يخفى عليه من أمرهم شيء، وسيحاسبهم، بمقتضى علمه، على ما في ضمائرهم حساباً عسيراً. وكلمة (لِواذاً) في هذه الآية من المُلاوذة،، وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك، وقد كان المنافقون أول من دشَّن على عهد الرسالة هذا النوع من الإلتواء والمخاتلة، فتركوه سنَّة سيئة لمن بعدهم.

وفي سياق الحديث عن «الأمر الجامع» الذي يدعو الرسول إلى حضوره وتدور حوله المناقشة والحوار نبَّه كتاب الله إلى أن مخاطبة رسوله الأعظم يجب أن تكون مصحوبة بالأدب اللائق بمقامه الكريم، ويشمل ذلك اللقب الذي يدعى به، واللهجة التي يخاطب بها، فلا يدعى إلا بوصفه «رسول الله» ولا يدعى إلا برفق

ولين، دون تهجم أو رفع للصوت، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الحُجُرات: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيٓءِ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [الآية: ٢]، وقد استحسن العلماء ملاحظة هذا المعنى في مخاطبة ذوي الخطط والولايات المختلفة، حيث يُفضَّل أن يدعى كل واحد منهم بلقب خُطَّتِهِ تكريماً له، ومن ذلك الخليفة والأمير والوزير، وهكذا، كما نبَّه على ذلك القاضي أبو بكر (ابن العربي).

ويمكن أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ هو أن الجمع الذي يوجه الرسول الدعوة لحضوره يجب أن ينال من الاهتمام والاعتبار ما لا تحظى به دعوات غيره من الناس، ولذلك لا يسوغ التخلف عن حضوره إلا لعذر مشروع، ولا تجوز مفارقته إلا بإذن صريح، ويقاس عليه ما يدعو إليه من الاجتماعات المتعلقة بالمصالح العامة أمراء المومنين، ورؤساء المسلمين، ولا مانع من أن تُحمَل هذه الآية على كلا المعنيين، إذ لا تعارض بينهما ولا تناقض، ويكون ذلك من باب الإيجاز والإعجاز.

وبعد أن استوفى كتاب الله في الستين آية التي مضت من سورة النور المدنية جملة الضوابط التي تضبط الحياة الخاصة والحياة العامة للأسرة المسلمة، الصغرى والكبرى، وما يلزم أن تطبقه من التعليمات الدقيقة في علاقاتها الاجتماعية والسياسية،

سواء فيما بين أفرادها بعضهم مع بعض، أو فيما بين الراعي منهم والرعية، حذَّر كتاب الله من التمرد على تلك الضوابط والمخالفة لتلك التعليمات، مبيِّناً ما يؤدي إليه عدم اتّباعها والخروجُ عليها والإعراضُ عنها من أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ اَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾ لأن اعتقاد ما هو مخالف لقول الله كفر، وفعل ما هو مخالف لأمره معصية. وتصدق هذه الآية الكريمة أيضاً على الاجتماعات التي تعقد للنظر في (أمر جامع) تتوقف عليه مصلحة المسلمين العامة، طبقاً لأصول الإسلام الثابتة، فلا يسوغ الخروج على مقرراتها، ولا مخالفة توجيهاتها، إذ الغرض الأساسي منها متى دعا إليها الرسول وصالحو المومنين هو الحصول على الإجماع والاتفاق، وتفادي الخلاف والشقاق، ومتى وقع الخروج عليها مُنيت الأمة بالانحلال والفشل، وأصيبت الدولة بمختلِف الأدواء والعلل. ومن قوله تعالى هنا: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ ﴾ [الآية:٦٣]، استنبط المحققون من علماء الأصول أن «الأمر» صريح في الاقتضاء والطلب، وأن كونه للوجوب إنما يؤخذ من توجه اللوم والذم، وترتيب العقاب على مخالفته.

ثم ذكَّر كتابُ الله كل من في قلوبهم مرض، ممن يُخيَّل إليهم أنهم بمنجاة من رقابته وسطوته، أنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، وإن بالغوا في التستر بها، والتظاهر بغيرها، وأنه سينبِّئهم بما عملوا ويؤاخذهم عليه، فقال تعالى: ﴿ اَلَآ إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ، قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ

فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، إذ كيف يخفى عليه أمرهم وجميع ما في السماوات والأرض في قبضته، خلقاً ومِلْكاً وعلماً، وواضح أن لفظ (قد) في قوله تعالى هنا: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ لا يعني في هذا السياق إلا توكيد علمه سبحانه بما هم عليه من المخالفة والنفاق، وكما أفاد لفظ (قد) في قوله تعالى من قبل: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ تحقيق علمه سبحانه بهم وتوكيده، أفاد لفظ (قد) هنا نفس المعنى، والمغزى المراد من توكيد العلم في كلتا الآيتين هو توكيد الوعيد الذي تتضمنه الواحدة تلو الأخرى، حسبما نبَّه على ذلك جار الله الزمخشري.

والآن وقد أشرفنا على نهاية «سورة النور» المدنية ننتقل إلى «سورة الفرقان» المكية، ملتمسين من الله التوفيق والسداد، ومن لطائف التفسير ما يُلاحَظ من أن فاتحة سورة الفرقان التي نحن بصدد تفسيرها الآن جاءت في غاية المناسبة لسورة النور في فاتحتها وخاتمتها معاً، فكما قال تعالى في فاتحة سورة النور السابقة: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وفي خاتمتها: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الآية: ٦٤]. قال سبحانه في بداية سورة الفرقان: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، تَبَـٰرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيراً، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الآية: ١] وإنما سمَّى الله القرآن (فرقاناً) لأنه يفرِّق بين الحلال والحرام، والحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي،

أضف إلى ذلك أن نزول القرآن وضع حداً فاصلاً للجاهلية الأولى التي كانت عليها البشرية، وفتح عهداً جديداً من الحضارة والمدنية، فهو فرقان بين عهدين لا يشبه أحدهما الآخر، وهذا هو المعنى المقصود من نِذارة رسوله ونِذارة كتابه للعالمين.

وعندما نستنطق الآيات الكريمة التي تتضمنها سورة الفرقان نجدها تدور حول محاور أربعة:

ـ المحور الأول: (القرآن) وما أودع الله فيه من كنوز الحكمة الإلٰهية.

ـ المحور الثاني: (الرسالة) والعبء الثقيل الذي ألقته على عاتق الرسول العناية الربّانية.

ـ المحور الثالث: (التوحيد) وتزييف معتقدات الشرك والوثنية.

ـ المحور الرابع: (المعاد) وما يؤول إليه مصير الكون ومصير الإنسانية.

ويتخلل هذه الموضوعات وصف جملة وافرة من مظاهر الكون وآيات الله في الأنفس والآفاق، ذكرى للمومنين، وحجةً على الكافرين، وعبرةً للمعتبرين، كما يتخللها ذكر عدد من الأنبياء والرسل السابقين، وما تعرَّض له أقوامهم من العقاب والعذاب، جزاء تحديهم الصارخ وعنادهم البالغ، ووصفُ المواقف التي تقفها مختلف فئات البشر من حقائق الوحي والرسالة والتوحيد والمعاد، ما بين مومن بها ومصدِّق لها كل

التصديق، وكافر بها مكذِّب لها بلغ الغاية في الكفر والعناد، وتُوِّجت هذه السورة الكريمة بخاتمة عظيمة تتضمن وصفاً كاشفاً «لعباد الرحمَـٰن» الذين أكرمهم الله بالإيمان والأمان، فأضافهم إلى نفسه إضافة تفضُّل وإحسان، وقد جاءت فاتحة سورة الفرقان، لتكون لموضوعاتها الرئيسية أفضل تمهيد وخير عنوان، فقولُه تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ الذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيراً ﴾ يتضمن إثبات الوحي وإثبات الرسالة وتوكيد صدق الرسول، وقولُه تعالى على التوالي: ﴿ الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ صريح في إثبات التوحيد، بما يتضمنه من ألوهية وربوبية، ومنافاة تامة للشرك والوثنية، وبديهي أن الإيمان بالوحي يستلزم الإيمان بجميع محتوياته، وفي طليعتها الإيمان بالمعاد، كما أن الاعتراف بقدرة الله البالغة، وبانفراده بالخلق والابداع في النشأة الاولى، يستلزم الإيمان بقدرته على النشأة الثانية، إذ ليست أشق ولا أصعب من النشأة الأولى ﴿ وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

وكلمة ﴿ تَبَـٰرَكَ ﴾ في بداية الآية الأولى من هذه السورة مأخوذة من «البركة» التي هي الكثرة والزيادة من كل خير، فهي تعبير عما لله من عظمة وجلال، وعطاء متواصل، وإنعام دائم على ممر العصور والأجيال، وقد تكرر ذكرها في هذه السورة وحدها ثلاث مرات، كما وردت فيما سبق عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْاَمْرُ، تَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾

[الآية: ٥٤]، وقوله تعالى في سورة المومنون: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَـهُ خَلْقاً ءَاخَرَ، فَتَبَـرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَـلِقِينَ ﴾ [الآية: ١٤]، وسيأتي ذكرها مرات أخرى في سورة غافر [الآية: ٦٤]، وسورة الزخرف [الآية: ٨٥]، وسورة الرحمَـن [الآية: ٧٨]، وسورة الملك [الآية: ١]، ولا شك أن تنزيل القرآن، من أعظم البركات والخيرات التي أنعم الله بها على الإنسان.

ولنستعرض الآن ما ورد في هذا الربع من الآيات المتعلقة بالموضوعات الاربعة التي تناولتها سورة الفرقان:

ـ ففي موضوع إنزال القرآن وإبطال الشبهات الموجهة ضد الوحي، جاء في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرِيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ، فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً، وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْـهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلَ اَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

ـ وفي موضوع إرسال الرسول وتزييف الشبهات الموجهة ضد الرسالة، جاء في هذا الربع قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً، اَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ اَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَاكُلُ مِنْهَا، وَقَالَ الظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً، تَبَـٰرَكَ الَّذِيَ إِن شَـآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

إلاَّ إنَّهُمْ لَيَأكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾.

- وفي موضوع التوحيد وتزييف الشرك والوثنية، جاء في هذا الربع قولُه تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَوٰةً وَلاَ نُشُوراً ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَآءِ أمْ هُمْ ضَلُّواْ السَّبِيلَ، قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنَ أَوْلِيَآءَ، وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمَا بُوراً، فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ، فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً، وَمَن يَّظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾.

- وفي موضوع إثبات المعاد وقيام الساعة وما يكون عليه حال المصدقين والمكذبين، المومنين والكافرين، جاء في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِـالسَّاعَـةِ، وَأَعْتَدْنَـا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً، إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً، وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَواْ هُنَالِكَ ثُبُوراً، لَّا تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوْا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾، وكما أن راحة الجنة مقرونة بسَعَتها، فإن وحشة النار مقرونة بضِيقها، و«الثبور» هو الويل والحسرة والخيبة ﴿ قُلَ اَذَٰلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً، لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ إشارةً إلى

أنه ما من شيء خلقه الله في هذا الكون، كبر شأنه أو صغر، طال حجمه أو قصر، إلا وقد حددت الحكمة الإلّهية شكله وحجمه، وطبيعته ووظيفته، والفائدة المترتبة على وجوده، والعلاقة التي تربطه بغيره من الكائنات، كل ذلك في نظام متناسق ثابت لا خلل فيه ولا اضطراب. وقال جار الله الزمخشري: «المعنى أنه أحدث كل شيء احداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدَّره وهيَّأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدَّر المسوّى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجِبِلّة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدَّره لأمر ما، ومصلحة ما، مطابقاً لما قدر له، غير متجافٍ عنه».

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ رد على الشاكين في الوحي الذين بهرتهم آياته البيِّنات، بما تحتوي عليه من حقائق كونيه، ومبادىء أخلاقية، وتشريعات مثالية، فلم تستطع عقولهم القاصرة لهذه الظاهرة القرآنية الفريدة من نوعها تحليلاً ولا تفسيراً، وأوسعوها بجهلهم وعنادهم طعناً ونكيراً، ولو آمنوا بالله لأدركوا أنه لا أحد يستطيع أن يعرف سر الكون، بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وأرض وسماء، أكثر من خالقه ومولاه، ولا أحد يستطيع ان يصف سر الكون بأصدق وأبلغ مما يصفه به كتاب الله ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢] ـ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣]،.وهذا هو السر في كون كثير من الكشوف العلمية

الحديثة التي ثبتت صحتها بعد مرور عدة قرون على إنزال الذكر الحكيم جاءت مطابقة لما في القرآن، غير مناقضة لما فيه من إشارة وبيان.

وقولُه تعالى حكايةً على لسان المشركين يوم القيامة: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُوراً ﴾ يتضمن الاعتراف بأن ما أنعم الله به عليهم وعلى آبائهم من النعم المتواصلة، لم يثمر فيهم ثمرة الشكر والإيمان، وإنما ساعدهم على الغرور والغفلة والنسيان، وأغراهم بالكفر والعصيان، ولمَّا استمروا لذكر الله ناسين وعنه غافلين، أبادهم وكانوا من الهالكين.

وقولُه تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ تقرير لحقيقة طبيعية وبشرية اقتضتها حكمة الله في الكون، ألا وهي أن الناس بحكم ما رزقهم الله من حرية الاختيار، إذ جعلهم مخيَّرين غير مسيَّرين، لا بد أن تتباعد اتجاهاتهم، وتتضارب اختياراتهم، فيوجد فيهم الضال والمهتدي، والمومن والكافر، والشقي والسعيد، الأمر الذي ينشأ عنه ابتلاء بعضهم ببعض، واختلاف بعضهم مع بعض، ويتبع ذلك ابتلاءُ المرسلين بمن أُرسلوا إليهم، وابتلاء الدعاة إلى الحق بالدعاة إلى الباطل في كل عصر وجيل، لكن الله تعالى حضَّ حملة رسالاته الإلٓهية، وورثتهم من بعدهم في الأجيال الآتية، على التزام الصبر والمثابرة في مغالبة المبطلين، ومكافحة المضلين، فالنصر معقود بنواصيهم إلى يوم الدين، لأنهم موضع رعاية الله وعنايته في كل حين،

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ وهذا الاستفهام في معنى الأمر، أي اصبروا وصابروا ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذىً كَثِيراً، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [ءال عمران: ١٨٦]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيَ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ

إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ
ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا

عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين
في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الفرقان المكيّة: ﴿وَقَالَ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنَا، لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْاْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

منذ نبتت نابتة السوء من أولياء الشيطان، وأعلنوا حرب التزييف والتشويه والطعن على أولياء الرحمان، وهم يدورون في حلقة مفرغة، يرددون طبقة بعد طبقة، نفس القول المتهافت المبتذل، من كل هراء، وسلاحهم الوحيد هو سلاح العناد والجدال والمراء، ولذلك نجد كتاب الله يلاحقهم بقوارعه في كل جيل، ويسلط الأضواء الكاشفة على ما هم متّصفون به من سفه وتدجيل. وقد تصدّى كتاب الله في هذا الربع للكشف عن ترهاتهم وإبطال شبهاتهم، وحكاية مزاعمهم التي لا تستند إلى أساس، وتحدياتهم التي بلغت الغاية في الإسفاف والإفلاس.

ومن هذه المزاعم والتحديات ما حكاه عنهم كتاب الله تعبيراً عن كفرهم بلقاء الله وشكّهم في البعث والنشور، إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ ثم أتبع كتابُ الله تحدّيَهم ببيان الحافز عليه، والمصير المفجع الذي يؤدي إليه، فقال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا، يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ، وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، وقال تعالى في نفس السياق: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وعقَّب كتاب الله على ذلك بآية كلها، إنذار ووعيد، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾.

ومن مزاعمهم وتحدياتهم ما سجله كتاب الله عليهم تعبيراً عما هم عليه من تطاول وغرور، وَمَيْلٍ إلى التحكم في الأقدار، إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ثم عقَّب كتاب الله على هذا التحدي قائلاً: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

ومن مزاعمهم وتحدياتهم ما وصفه كتاب الله من استهزائهم بالرسالة والرسول، تعبيراً عن رأيهم الفاسد ومنطقهم الأعوج، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا، أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا، إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، ثم عقَّب كتاب الله على موقفهم السخيف قائلاً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن اَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

ووصَف كتابُ الله ما سيؤول إليه يوم القيامة مصير هؤلاء المجرمين الظالمين من خصوم الرسالات الإلٓهية، مقارناً مصيرهم بمصير المتّقين المومنين من أتباع الرسل الصادقين، فقال تعالى في شأن المجرمين الأشقياء: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ الذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾، وقال تعالى في شأن المومنين الأتقياء: ﴿ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾.

وبيَّن كتاب الله أن الشأن في خصوم الرسالات والرسل أن لا يستيقظوا من غفلتهم، ولا يقوموا من عثرتهم، إلا بعد فوات الوقت وضياع الفرصة، فيندَمون ولاَتَ حين مندم، معترفين في نفس الوقت بأنهم وقعوا في شَرَك الضلال على أيدي الضالين المضلِّين، من أخلاّئهم وأصدقائهم في الدنيا، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمَ اتَّخِذْ فُلَـٰناً خَلِيلاً، لَقَدَ اَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي، وَكَانَ الشَّيْطَـٰنُ لِلاِنسَـٰنِ خَذُولاً ﴾.

وحَذَّر كتابُ الله أمة الإجابة ـ أمة سيدنا محمد ﷺ ـ من إهمال كتاب الله، وتجاهل ما تضمنه من عقائد وشرائع وتعاليم أخلاقية، وتوجيهات كونية، مؤكداً أن خاتم الأنبياء والمرسلين سيشكو أمته إلى ربه، شكوى لوم ومؤاخذة وتقريع، على هجرها

للقرآن، وتمسُّكها بعقائد غير مطابقة لعقائده، وحكمها بشرائع مناقضة لشرائعه، وأخذها في حياتها بسلوك منحرف دخيل لا يتفق مع مبادئه. وبديهي أن الله تعالى الذي اصطفى لرسالته محمداً من بين خلقه لا يهمل شكوى خاتم أنبيائه ورسله، وسيؤاخذ الذين هجروا الذكر الحكيم في الدنيا والآخرة، وهذه الشكوى الصارخة هي التي تضمنها قوله تعالى هنا: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾. و «قومه» ﷺ يشمل أمته كلها من البداية إلى النهاية، سواء مَن عاصَر الرسالة ومن جاء بعدها إلى يوم الدين.

أما عقاب من عامل كتاب الله بالهجران والنسيان، فقد جاء صريحاً واضحاً في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤمِنْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

ومواساةً من الله لرسوله حتى لا يلحقه فتور أو كسل، أو قنوط أو ملل، نبَّه كتاب الله إلى حقيقة تاريخية وإنسانية واجهها كافة الأنبياء والرسل، أثناء قيامهم بهداية الخلق، وحرصهم على تبليغ ما تلقوه عن الله من دين الحق، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ويلحق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في معاناة إصلاح الخلق وهدايتهم، ورثتُهم من بعدهم، الذين درجوا على سيرتهم. وواضح أن ما جرى على

المثل يجري على المماثل، فخاتمُ الأنبياء والمرسلين، بالرغم مما يتمتع به من المقام المحمود عند ربه، لم يُستثنَ من هذه القاعدة، التي هي على عَزيمة «أولي العزم» من الرسل وصدقهم شاهدة.

وكمثال لما تعرَّض له الأنبياء والرسل من أقوامهم، ومثال لما أصاب أولئك الأقوام من العذاب جزاء إصرارهم على تكذيب رسلهم، والتنقيص من مقامهم، جدد كتاب الله في هذا الربع الحديث عن قصة فرعون وقومه مع موسى، وقصة قوم نوح مع نوح، وقصة عاد مع هود، وقصة صالح مع ثمود، وقصة أصحاب الرس مع نبيهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيراً، فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا، فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيراً، وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً، وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَـٰبَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً، وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَـٰلَ، وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾.

واستغرب كتاب الله موقف مشركي قريش الذين كانوا يسمعون عن مصارع بعض هؤلاء الأقوام، ولا سيما قوم لوط، حيث كان أولئك المشركون يمرُّون على مساكنهم الخالية في طريقهم إلى الشام، ثم لا يعتبرون بما أصابهم من الهلاك والتدمير، ولا يُعِيرون أي التفات لعاقبة الانحراف وسوء التدبير، فقال تعالى محذراً لهم ومذكِّراً: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِيَ أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ، أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا، بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ

نُشُوراً ﴾. والإشارة هنا بمطر السَّوء، إلى ما أصاب قوم لوط، عندما رجموا بالحجارة من فوق رؤوسهم، فكان ذلك كالمطر النازل من السماء، لكنه مطر سوء ونقمة، لا مطر خير ونعمة، لما رافقه من العذاب الأليم، والسخط العميم، وقولُه تعالى: ﴿ لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ أي لا يومنون بالبعث، ولا يتوقعون حشراً ولا نشراً. ﴿ وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ ﴾ ورد ذكرهم للمرة الأولى هنا في هذه السورة، وذُكروا للمرة الثانية والأخيرة في سورة (ق) عند قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ [الآية: ١٢]، يقال رسَّ البئر يرسُّها إذا حفرها، ورسَّ الميت إذا دفنه وغيَّبه في الحفرة، و «الرس» هو كل حفر احتفر كالقبر والبئر والمعدن، وقد اختلفت الروايات في المراد «بأصحاب الرس» مَن هم، ومَن هو نبيهم، وفي أي بلد كانوا؟. ورجح ابن جرير الطبري أنهم هم «أصحاب الأخدود» الذين ورد ذكرهم في سورة البروج في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [٤ - ٧]. ولعله استند في ترجيحه إلى ما بين كلمة «الرس» وكلمة «الأخدود» من تناسب في المعنى، إذ «الأخدود» هو الحفرة المستطيلة، ويذكر ياقوت الحموي في معجمه أن «الرس» كانت آباراً لبني أسد، وأنها تقع في أعالي القصيم، وأكدت بعض الأبحاث الحديثة أن القصيم توجد فيه عدة مدن، من بينها «مدينة الرس» التي فيها معالم تاريخية مشهورة قائمة حتى الآن، على رأسها «وادي عاقل» الذي كانت تقطن فيه قبيلة بني أسد، وترعى في رياضه أغنامها وإبلها، وتوجد بجوار «مدينة

الرس» عدة قصور ومزارع، وبذلك يصبح المكان الذي ينسب إليه «أصحاب الرس» معروفاً من الناحية الجغرافية، وأنه واقع في الجزيرة العربية المترامية الأطراف. ولفظ «التتبير» الوارد في الآية ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ يَعْنِي التفتيتَ والتكسير، تصويراً لهول ما نالهم من الإبادة والتدمير، والشر المستطير.

وبعد أن ألقينا نظرة عامة على ما في هذا الربع من المعاني والموضوعات، لا بد لنا من أن نقف وقفة خاصة عند بعض ما جاء فيه من الآيات، تنويراً للأذهان، وزيادة في البيان.

فقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَـٰئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ، وَيَقُولُونَ حِجْراً، مَّحْجُوراً ﴾ هو رد على تحدي الكافرين الذين لا يومنون بيوم الدين، وجواب على قولهم، مقترحين رؤية الملائكة ورؤية ربهم: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَـٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فبيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الذي سألوه من رؤية الملائكة سيحقَّق في الوقت المقدَّر له، وذلك يوم الممات ويوم المعاد، لكنهم سيلقون منهم ما يكرهون، وسيفاجأون بما لم يكونوا يتوقعون، وسيندمون بالغ الندم على رغبتهم في رؤيا الملائكة، إذ لا يخبرونهم عند رؤيتهم إلا بالخيبة والخسران، لا بالبشرى والرضوان، وسيعلنون إليهم أنهم «عن ربهم محجوبون» لأنهم أجرموا في حق الله، وأعلنوا الحرب على الله، حتى أصبح الإجرام صفة لاصقة بهم، وعنواناً دالاً عليهم.

ومما يطابق معنى هذه الآية ويزيدها وضوحاً قولُه تعالى فيما سبق من سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ

الْمَوْتِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الآية: ٩٣]. وعلى العكس من هذا الموقف موقف الملائكة من المومنين المتّقين، فقد قال تعالى في شأنهم مبشّراً لهم بالنعيم والرضوان في سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [٣٠ - ٣٢].

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ إشارةً إلى أن روح الأعمال كلها هو الإيمان بالله، والسعي في مرضاة الله، فمتى كان الإنسان فاقداً لهذين الشرطين كانت أعماله كالجسم بدون روح، لا عبرة بها، ولا قيمة لها، ولا ثواب عليها، وإن كانت في الظاهر من محاسن الأعمال، ومكارم الخلال، اللّهم، إلا إذا انتقل صاحبها من الكفر إلى الإيمان، ومن النفاق إلى الإخلاص، فإن الله يثيبه على ما عمل من أعمال سالفة تدخل في عداد الحسنات، ويتوب عليه فيما عمل من أعمال سابقة تندرج في عداد السيئات. و «الهباء المنثور» ما يتراءى للعين كالغبار الخارج من النافذة مع ضوء الشمس، متى حرّكته الريح تناثر وذهب كل مذهب، بحيث لا يمكن القبض عليه. ونظيره في تصوير خيبة الكفار فيما عملوه وأملوه، قولُه تعالى في آية ثانية: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]، وقولُه

تعالى في آية ثالثة: ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقولُه تعالى في آية رابعة: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥]، وفي نفس الموضوع سبق قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [١٠٣ - ١٠٤].

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ يتضمن شِقُّهُ الأول الإشارة إلى إحدى الشبهات السخيفة التي يوجِّهها الكافرون والمكذِّبون، للطعن في القرآن والتشكيك في كونه من عند الله، وهذه الشبهة هي: لماذا نزل القرآن مفرَّقاً، ولم ينزل دفعة واحدة؟ كما يتضمن شِقُّه الثاني إبطال تلك الشبهة وتزييفها، وذلك بإبراز الحِكَم الإلٰهية في نزول القرآن منجماً مفرقاً على فترات متلاحقة:

ـ والحكمة في نزوله مفرقاً على تلك الصفة حسبما نصت عليه هذه الآية تتعلق بالرسول مباشرة، وهي تثبيت محتوى آيات القرآن لفظاً ومعنى في قلب الرسول، ومساعدته على تلقيه وقراءته بترسُّل وتمهل وتؤدة، تيسيراً لحفظه أولاً، وتمهيداً لتلقينه لأمته ثانياً حسبما أُنزل عليه، آية بعد آية، ووقفة بعد وقفة، ويزيد هذا المعنى توضيحاً قولُه تعالى في سورة القيامة: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، [١٦ ـ ١٩]، وقولُه تعالى في سورة طه: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾

[الآية: ١١٤]، وهذا المنهج الإلّهي الحكيم في التلقي والتلقين هو المنهج الوحيد الذي يتفق مع ما جاء في خطاب الله لنبيه، واصفاً حالته التي كان عليها عند تلقي الرسالة، إذ قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الإِيمَـٰنُ ﴾ [الآية: ٥٢]. قال القاضي عبد الجبار: «فلو أُنزل عليه جملة واحدة لكان مخالفاً للحكمة».

ـ وهناك حكمة أخرى من وراء نزول القرآن منجماً مفرقاً على فترات متلاحقة، ألا وهي تثبيت الرسول حيناً بعد حين، وبشكل متلاحق دون انقطاع، على تبليغ دين الحق، والمجاهدة بقول الحق في مواجهة خصوم الرسالة الماكرين، الذين طالما حاولوا فتنة الرسول، واستعملوا كل الوسائل المادية والأدبية للضغط عليه وصرفه عن رسالته، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [الآية ٤٩]، وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الآية: ٧٤]، لكن الله عصمه من كيدهم ومكرهم، إذ كلما تجدد اتصال الرسول بالوحي في المواقف الحرجة ازداد قلبه قوة، وتضاعفت ثقته بعناية الله ورعايته، وأحس بمدد إلّهي جديد يعينه على المزيد من الصبر والثبات، وتخطي العقبات.

وقد تحدث كتاب الله في آية أخرى عن حكمة دقيقة من حكم تنجيم القرآن ونزوله مفرقاً، وذلك بالنسبة للمرسَل إليهم، وهذه الحكمة سبقت الإشارة إليها عند قوله تعالى في سورة

الإسراء: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴾ [الآية: ١٠٦]، ذلك أن الإنسانية الضالة التي أراد الله أن يخرجها من الظلمات إلى النور لا يمكن أن تقفز من حضيض الجهالة الجهلاء، إلى أعلى درجة في السمو والارتقاء، بين عشية وضحاها، إذ لا بد لتحوُّلها عما كانت عليه، وتطورها إلى ما يجب أن تؤول إليه، من وقت كافٍ تستوعب فيه يوماً بعد يوم، ما جاء به القرآن الكريم من عقيدة وشريعة وأخلاق، فقوله تعالى في خطابه لنبيه في سورة الإسراء: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ يفيد أن حكمة الله اقتضت أن يكون تبليغ القرآن إلى الناس على مهل، تدريجياً ودون عَجَلة، حتى يحفظوه ويعوه، ويرتاضوا به ويتّبعوه، ويسايروه في حياتهم خطوة خطوة.

وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ يشير إلى أن حكمة الله اقتضت أن يكون تنزيل القرآن على فترات، ليواجه ما يتجدد في حياة الناس من حوادث ومسائل وشبهات، إذ لا يخفَى على أحد ما تزخر به الحياة اليومية في مثل هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة، من إلقاء أسئلة محرجة تحتاج إلى الأجوبة الشافية، ومن وقوع حوادث معقَّدة تتوقف على الحلول الكافية، فتتنزل آيات القرآن مفرقة تبعاً لذلك في الوقت المناسب بما هو مناسب، تثبيتاً لفؤاد الرسول والمرسَل إليهم، وتأنيساً له ولهم في آن واحد، الأمر الذي يكون أوقع في النفوس، لما فيه من تجاوب ملموس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في هذا الربع ﴿ وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾.

ومجمل القول أن نزول القرآن منجَّماً ومفرَّقاً كان هو الطريق المضمون لتلقي الرسول رسالة ربه على أكمل وجه، ولتلقينه المرسَل إليهم آيات الذكر الحكيم، وتكاليف دينهم القويم، وبذلك امتزجت روح الإسلام بنفوس الأفراد والجمعات، وقام على أنقاض المجتمع الجاهلي مجتمع إسلامي الطابع، يعتبر هو المثل الأعلى والقدوة الصالحة، لما ينشأ على غراره من المجتمعات.

وفي ختام هذا الربع نطق كتاب الله بما يهدّىء روع الرسول، ويحدد مسؤوليته تجاه المرسل إليهم، مبيِّناً أن هذه المسؤولية تقف عند حدود التبليغ والبيان، ولا تتجاوزهما إلى انتزاع الإذعان والإيمان، ومنبِّهاً إلى أن السر في إصرار الضالين على ضلالهم وعدم إيمانهم بآيات الله البيِّنات، هو اتِّباعهم الأعمى لأهوائهم، وكونهم لم يحسنوا الانتفاع بما رزقهم الله من حواسّ وملكات، فقال تعالى مخاطباً لرسوله الأمين: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوِيٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ - أي لست حافظاً تحفظه من اتِّباع هواه - ﴿ أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم (القسم الأول من هذا الربع)

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

(القسم الأول من هذا الربع)

عبـــاد الله

في حصة هذا اليـوم نشرع في تفسيـر الربـع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الفرقان المكيّة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾. ونظراً للحاجة الملحة إلى شيء من التوسع في تفسير آياته، والإلمام ما أمكن بكافة موضوعاته، سنقتصر في حديث اليوم على تقديم القسم الأول من تفسير هذا الربع، وهو خاص بتفسير سِتّ آيات منه لا غير، تاركين تفسير بقية الآيات الواردة فيه إلى القسم الثاني الذي نقدمه في حصة الغد بحول الله وقوته.

في بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى كل إنسان عنده نصيب من الوعي وحظ من التأمل، لينظر إلى ما حوله من ظواهر طبيعية، ونواميس كَوْنِيّة، يزخر بها الكـون، نظرة تـدبّر واعتبار، إذ بالتعرف عليها، والتأمل فيها، والتعمق في بحثها، يهتدي إلى ما تحتوي عليه من المنافع والحِكَم والأسرار، فينتفع بها في حياته اليومية خير انتفـاع، وتكون لـه خير حـافز على

الاختراع والإبداع، ويصل في نهاية المطاف عن طريقها العقلي المضمون، إلى معرفة خالق الكون الذي طبع الطبيعة، وشرع الشريعة، فيقدُر الله حق قَدْره، ويهتدي بهديه ويأتمر بأمره، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً، ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً، وَهُوَالذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاساً، وَالنَّوْمَ سُبَاتاً، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً، وَهُوَ الذِيَ أَرْسَلَ الرِّيَحَ نُشُراًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً، لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَـذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ اجَاجٌ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً، وَهُوَ الذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً، وَهُوَ الذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّـمَنَ اَرَادَ أَنْ يَّذَّكَّرَ اَوَ اَرَادَ شُكُوراً ﴾.

ففي هذه الآيات لفت كتاب الله أنظار الناس أجمعين إلى عدَّة ظواهر طبيعية، مرتبطة في نشأتها وسيرها بالسُّنن الإلٰهية، كل واحدة منها برهان ساطع على وجود الله وقدرته، ودليل قاطع على حكمته ورحمته، وهذه الظواهر هي ظاهـرة تعاقب الـظل والضوء، وتعاقب الصحو والمطر، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشمس والقمر، وازدواج الماء بين عذب ومالح، وازدواج الإنسان بين ذكر وأنثى، فمتى فتح الإنسان بصره وبصيرته لدراسة هذه الظواهر واستيعابها أدرك بالبداهة أن تصنيفها وتصريفها فوق قدرة

البشـر، وأنها من صنـع الله الذي أتقن كـل شيء، ومتى ربط الإنسان بين هذه الظواهر وبين حياته الخاصة فوق سطح الأرض، وعرف أن حياة النوع البشري كله رهينة بوجودها واستمرارها، إذ أنـه لولا مـا بين هذه الـظواهر الـطبيعية وبين تكـوين الإنسان الخاص، وحاجياته الملحّة، من توافق وتلاؤم وانسجام، لما أمكن له العيش بدونها لحظة واحدة، أدرك لا محالة أن تكوينها على ما هي عليه، وتكوينه هو على ما هو عليه، إنّما هما صادران عن قوة مدبرة حكيمة هي قوة الخالق الحكيم الذي يدبر كل شيء بأمره ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـوَٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

فقولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يتضمن دعوة كل إنسان إلى ملاحظة ظاهرة طبيعية تبرز عند كل مـطلع شمس، لتستفيد من وجـودها جميـع الكائنـات الحيّـة، الموجودة على سطح الأرض، وفي طليعتها الإنسان نفسه الذي لا يستطيع الحياة في راحة وهناء إذا فقدها بالمرة، ألا وهي ظاهرة «الـظل» الذي يـلاحق ضوء الشمس، «والـذي ترخيـه الأشيـاء بجوارها وعلى جوانبها ممتداً أو منقبضاً، يتحرك إذا تحركت، ويسكن إذا سكنت، ولكن لا يسمع الناس له همساً، ولا يلقون إليه بالاً» فبالرغم من أن طاقة الشمس لا يصل منها إلى الأرض إلّا ما يقارب جزءين اثنين من بليون جزء من طاقتها الكليّة، نجد الإنسان ـ فضلاً عن النبات وبقية الأحيـاء ـ لا يتحمل تعـريض جسمه طيلة النهار لهذا القدر الضئيل من طاقتها باستمرار، وكما

أن الإنسان يكره بطبعه الظلمة الخالصة وينفُر منها، فإنّه لا يحب الضوء الخالص الذي يسطع بقوة فيبهر البصر، والذي يرهق الجسم فيضعفه ويؤذيه بحرارته الزائدة، بل يفضل الظل عليهما معاً، لأنه بالنسبة لطبيعته وتكوينه أطيب الأحوال، ولذلك جعله الحق سبحانه وتعالى معدوداً في جملة النعم التي سيكرم بها أصحاب اليمين في دار النعيم، إذ قال: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠] وقال: ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء: ٥٧]، وحرم المكذبين بيوم الدين من هذه النعمة الكبرى، فقال تعالى في شأنهم: ﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ، انْطَلِقُوٓاْ الَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَـٰثِ شُعَبٍ، لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: ٢٩، ٣٠، ٣١]، ومعنى قوله: ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ أي لا يفيد فائدة الظل في كونه واقياً من الحر، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَـٰتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ [فاطر: ١٩، ٢١]. وعلى غرار الإنسان الذي يميل إلى الطقس المعتدل، ويفضل الظل الذي يلطف الحرارة نجد النباتات والحيوانات، بل حتى الحشرات، تبحث بدورها عن الظل، وتفضل الحياة في كَنَفه، وذلك لتنعم بحرارة مقبولة يمكنها أن تتحملها وتساعدها على البقاء. ونظراً لكون الظل من أهم العوامل الملطفة للجو، استعمله العرب في لغتهم كناية عن معنى «الراحة» فقالوا «السلطان ظل الله في الأرض»، قاصدين بذلك أن الشأن في السلطان أن يدفع الأذى عن الناس ويرعى مصالحهم، كما

يدفع الظل عنهم أذى حر الشمس ويلائم مصالحهم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ توكيد لامتنان الله على خلقه بنعمة الظل، فوجود الظل من أصله إلى جانب الشمس نعمة كبرى، وحركة الظل التي ترافق الشعاع الفائض من الشمس نعمة أخرى، ولولا رعاية الخالق الحكيم لمصالح عباده ورحمتُه بهم لما أوجد الظل أصلاً، فبرزت الكائنات الحية لأشعة الشمس وجهاً لوجه وهلكت، أو لجعل الظل بعد وجوده دائماً لا يتحول، وساكناً لا يتحرك، ففقدت الكائنات الحية ـ ولا سيما النبات الذي هو قوام حياة الإنسان والحيوان ـ منافع الطاقة الشمسية التي تغذيها بالقوة والنماء، إذ بواسطة إشعاع الشمس وانبساط الظل تتمكن من مواصلة حياتها الطبيعية دون تعب ولا عناء.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ إشارةٌ إلى حقيقة طبيعية أخرى هي أن الظل يلاحق أشعة الشمس، وأشعة الشمس تلاحق الظل، فهما متلازمان ومتعاقبان، بحيث كلما ازداد أحدهما نقص الآخر، وإن كانا متعاكسين، كل منهما يسير في اتجاه مغاير للثاني، حتى إذا ما غرَّبت الشمس شرَّق الظل، وإذا شرَّقت غرَّب، فلولا الشمس لما عُرِف الظل، كما أنه لولا الظلمة لما عرف النور، وبهذا كانت الشمس دليلاً على الظل بالتضاد لا بالاتفاق. ونظراً لما بين الظل وشعاع الشمس من رابطة قوية لا تنفصم، فقد انتفع الإنسان بهذه الظاهرة الطبيعية التي تتكرر بانتظام في تنظيم حياته اليومية، فقاس الزمن، وعيَّن ساعات النهار، تبعاً للظل الممدود الذي تحدثه أشعة الشمس على

الأرض، وعن هذا الطريق اهتدى المسلمون إلى ابتكـار (علم التوقيت)، للتعرف على مواقيت الصلاة، وتعيين الوقت الشرعي لأدائها، بواسطة المَزَاول الشمسية، التي برعوا في صنعها كل البراعة.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ إشارةٌ إلى أن الظل لا يظل على حالة واحدة من الانبساط والامتداد، بل يعتريه التقلص والانقباض، إذ كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل بحسبه والعكس بالعكس. قال جار الله الزمخشري: «وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء، من المنافع ما لا يعد ولا يحصى، ولو قُبِض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً». فما أدق حكمـة الله في خلقه، ومـا أوسع رحمته بعباده، وصدق الله العظيم، إذ قال ممتناً على الناس بهذه النعمـة: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّـا خَلَقَ ظِلَـٰلاً وَجَعَـلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَـٰناً ﴾ [النحل: ٨١]، وقال أيضاً: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

وبعدما وصف كتاب الله ظاهرة الظل وارتباطها بـالشمس بغاية الإيجاز ومنتهى الإعجاز، كشف النقاب عن ظاهرة أخرى هي ظاهرة تعاقب الليل والنهار، اللذين يقتسمان المعمـور في وقت واحد قسمة عادلة، فيكـون نصف الكرة الأرضيـة نهاراً، ونصفها الآخر ليلاً، ولو كانت الأرض منبسطة لا كروية لعمَّها ضوء الشمس عند الشروق دفعة واحدة، فكان النهار فيها جميعاً،

ثم لعمَّها الظلام عند الغروب دفعة واحدة، فكان الليل فيها جميعاً، لكن حكمة الله اقتضت أن لا تتعطل الحياة في مجموع الأرض دفعة واحدة، واقتضت أن تظل الحياة نابضة فيها على الدوام، وذلك على سبيل التناوب بين نصفها الذي يكون نهاراً ونصفها الذي يكون ليلاً. وتعريفاً من الله لعباده، بما في تعاقب الليل والنهار من منافع لهم، وامتناناً عليهم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾، فشبَّه كتاب الله الليل باللباس، لكونه يستر الأشياء والأحياء كما يستر اللباس البدن، إذ في الليل تهدأ الحركة العامة، ويتوقف النشاط اليومي، ويغشى الناسُ مساكنَهم ليسكنوا إلى أهليهم وذويهم، ويقضوا جزءاً من الليل في ممارسة حياتهم الخاصة بين الأقرباء، وذلك في ستر تام من فضول الرقباء، وأنسب شيء بالذكر في هذا المقام، هو نوم الليل الذي يعتبر أحسن غذاء للجسم بالراحة والاستجمام، وإنما وصف كتاب الله النوم بكونه ﴿ سُبَاتاً ﴾، لما يلازمه في العادة من التمدد والاسترخاء وتوقف الحركات، التي تشترك في القيام بها أثناء النهار مختلف الأعضاء والجوارح والملكات، ووصَفَ كتابُ الله النهار، بكونه ﴿ نُشُوراً ﴾، تشبيهاً لقيام الناس فيه من النوم، وانتشارهم في الأرض لمكاسبهم ومعايشهم، بقيامهم من الموت، وهو البعث الذي يطلق عليه اسم (النشور) حقيقة لا مجازاً، وسبق ذكر «النشور» بمعناه الحقيقي في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [الآية: ٤٠].

ثم نبَّه كتاب الله كافة الأنظار إلى ظاهرة أخرى جديرة بالتدبر والاعتبار، والكشف عما في تكوينها وتصريفها من حكم وأسرار، وهذه الظاهرة هي ظاهرة تصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لإنزال الأمطار، وما يتبع ذلك من نتائج وآثار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَرْسَلَ الرِّيَـٰحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً، لِّنُحْـيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾، مشيراً إلى أن دور الرياح، أو الهواء الصاعد إلى أعلى، في إثارة السُّحُب على اختلاف أنواعها، وتلقيحها ببخار الماء لكي تجود بالمطر، هو الدور الرئيسي الذي بدونه لا يمكن أن تنزل من السماء، قطرة واحدة من الماء، ومؤكداً لمن لا يزال عنده شك، أن تصريف الرياح وإرسالها أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده، الذي له الخلق والأمر، لأنه يتوقف على طاقة عظمى، ويحتاج إلى تدبير كبير فوق طاقة الإنسان المحدودة وتدبيره القاصر ﴿ وَهُـوَ الَّذِيَ أَرْسَلَ الرِّيَـٰحَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالنَّـٰشِرَٰتِ نَشْراً ﴾ [المرسلات: ٣]، من «النشور» الذي هو الحياة بعد الموت، إشارةً إلى أن الرياح تسبق السحب، مؤذنة بإحياء الله للبلاد، ورحمته للعباد ﴿ لِّنُحْـيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴾ إشارةٌ إلى أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهِّر لغيره، وهو

أفضل المياه، ويعتبر طاهراً شرعاً وطبعاً ما لم يتغير أحد أوصافه، وكما أنزل الله من السماء الذكر الحكيم ليطهِّر به العقول والأفكار، أنزل منها الماء ليطهر به الأبدان من الأوساخ والأوضار.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ بتقديم الأنعام على الأناسي إشارةٌ إلى أن قِوام حياة الناس بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فعامة معايشهم متعلقة بحياة الحيوان والنبات، إذ عليهما المعول في التغذية والاقتيات، والإنعام من الله بسقي أرضهم وأنعامهم هو في الحقيقة إنعام عليهم، لا يقل أهمية عن الإنعام بسقيهم أنفسهم. ووصْفُ «الأناسيّ» بالكثرة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ إشارةٌ إلى أن النوع الإنساني سيتضاعف عدده على سطح الأرض مع مرور الزمن ويقول هل من مزيد، لكن لا ينقذه من عَوَزه وضيق عيشه إلا مدد إلٓهي جديد.

وعالج كتابُ الله في هذا الربع ظاهرة أخرى تثير منتهى العَجَب والإعجاب عند كافة أولي الألباب، ألا وهي ظاهرة انقسام الماء إلى عَذب فُرات ومِلح أجاج، رغماً عن كون الماء واحداً في تركيبه الخاص، ثم منع الاختلاط بينهما والامتزاج، رغماً عن التقاء الماء العذب مع الماء الأجاج، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ اجَاجٌ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ فالماء العذب ما تجود به الأمطار فتحمله الأنهار، وتخزُنه العيون والآبار، ولو جُمِع هذا الماء في صعيد واحد لكان بحراً من أكبر البحار، لكن الله تعالى وزّعه بين

خلقه في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم، فهو بحر سارح في الأرض بين الناس، إلى جانب البحار المعروفة في العالم، التي خصَّها الله بالماء الملح الأجاج. على أن الأنهار الكبرى ذات الماء العذب التي تصُبُّ في البحار يصح أن يطلق عليها اسم «البحر» بطريق المجاز، لشبهها به في كثرة الماء واتساع الرقعة، فيقال للنهر العذب الكبير الواسع «بحر» كما يقال للبحر الأجاج «بحر». وإذا ما التقى الماء العذب الذي تجري به الأنهار مع الماء الملح الذي تجري به البحار، فإن كلاًّ من الماءين يتفادى الامتزاج مع الآخر، رغماً عما يوجد بينهما من تماسّ والتصاق، وذلك حتى لا تبطل حكمة الله من وجودهما معاً، إذ أن كل ما على اليابسة من الأحياء، لا تنتظم حياته إلا بالعذب من الماء، وعلى العكس من ذلك البحار لو خلت مياهها من الملح لفسدت وفسد ما فيها من الأحياء، ولأبتنت وتلوّث الهواء. وقد جعل الله جاذبية الأرض عوناً للأنهار، حتى يمكنها أن تصب في البحر، كما جعل الجاذبية لجاماً للبحر حتى لا يصب في النهر ولا يطغى عليه ـ رغماً عن صغر النهر بالنسبة إلى البحر ـ وكذلك الأمر عندما يلتقي بحر ببحر، أو بحر بأرض يابسة، فالبحر مُلجَم من خالقه الحكيم العليم بلجام الجاذبية، لا يفارق مستقرّه بحال، وهذه المعاني هي بعض ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ أي جعل بينهما حاجزاً تلقائياً، ومانعاً طبيعياً، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَـٰنِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَـٰنِ ﴾ [الرحمـٰن: ١٩، ٢٠]، أي لا يبغي أحدهما على الآخر، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَجَعَلَ

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً، أَ.لَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٦١].

ثم مضى كتاب الله يقيم الحجة تلو الحجة على وحدانية الله وقدرته، وبالغ علمه وحكمته، فلفت نظر الإنسان، في أي مستوى كان، إلى ظاهرة بارزة لا تغيب عن العين، ولا تقبل أي شك أو مَيْن، ألا وهي ظاهرة خَلْق النوع الإنساني، الذي هو أرقى أنواع الحيوان، وأحسنها تقويماً، وأكثرها تعقيداً، وأقدرها على حمل الأمانة والقيام بالخلافة عن الله في عمران الأرض، من نفس العنصر الذي خلق منه أبسط الحيوانات، وأضعف الحشرات، ألا وهو عنصر الماء الذي هو القاسم المشترك بين كافة الأحياء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ثم ظاهرة النطفة الواحدة ـ وهي أيضاً ماء ـ التي يخلق الله منها في آن واحد، وحَمْل واحد، توأمين ذكراً وأنثى، فضلاً عما يخلقه منها على انفراد من الذكور والاناث، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٩]، وإلى هاتين الظاهرتين الأصلية والفرعية يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ وذوو «النسب» هم الذكور، إذ إليهم يقع انتساب الذرية خلفاً عن سلف، وذوات «الصهر» هنَّ الإناث، إذ بواسطتهن تتم المصاهرة ويوجد الأصهار، وعن طريق هذين العنصرين تنشأ الأسر وتتسع، حتى تصبح عشائر، وتتسع العشائر، حتى تصبح قبائل، وتتعدد

القبائل حتى تصبح شعوباً ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾.

وأضاف كتاب الله إلى ما عرضه من آياته الكونية في هذا الربع ظاهرة أخرى لها وثيق الصلة باستمرار الحياة على وجه الأرض، وسيرها سيراً مطَّرداً منتظماً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ألا وهي ظاهرة تعاقب الشمس والقمر، المختلفين بطبيعتهما، والمتكاملين بمنفعتهما، فقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾، وأطلقَ كتاب الله على الشمس (اسم السِرَاج) لكونها مصدراً قائماً بذاته للحرارة والنور، بينما اقتصر في وصف القمر على كونه ﴿ مُّنِيراً ﴾ إشارةً إلى أن إنارته للأرض إذا سطع نوره عليها ليست أصلية، ولكنها مستمدة من ضوء الشمس، إذ القمر في أصله جِرْم مظلم، ويزيد هذه الآية تفسيراً وتوضيحاً قولُه تعالى في سورة نوح: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾.[الآية:١٦].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحِجْر: ١٦] إشارةٌ إلى الكواكب السيارة السابحة في الفضاء، ومداراتها الفلكية في أعالي الأجواء، ومن بينها منازل الشمس والقمر التي لها أهمية خاصة في حياة الإنسان، إذ أن لها علاقة مباشرة بكل ما عرفه من تدرج الأزمنة، وتنقُّل الفصول، وتحديد الأيام والشهور والأعوام. وواضح أن تعاقب الليل والنهار مرتبط كل الِارتباط بحركة الشمس اليومية،

التي هي بالنسبة لنا حركة ظاهرية، مَرَدُّها إلى دوران الأرض حول نفسها، ولذلك يكون نصفها المقابل لضوء الشمس نهاراً، ونصفها الآخر الذي لا يقابل ضوءها ليلاً.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَهُوَ الذِي جَعَلَ الَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ إشارةٌ إلى ما في تعاقب الليل والنهار، وكون كل منهما يَخْلُف الآخر، من حكمة ربانية، وعناية إلٓهية، مردهما إلى إعانة الإنسان على ممارسة الحياة ممارسة معتدلة منتظمة لا شطط فيها ولا إرهاق، فللكد والسعي، والعلاقات المتداخلة بين الناس، وقتُها وهو النهار، وللراحة والاستجمام، والعلاقات الخاصة التي لا تداخل فيها مع الآخرين، وقتُها وهو الليل، ولا شك أن هذا التوزيع الإلٓهي لحياة الإنسان بين الليل والنهار، مع ما يتميز به كل منهما من خصائص وأسرار، نعمة كبرى تستحق الشكر والتدبر والاعتبار، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ لِّمَنَ اَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوَ اَرَادَ شُكُوراً ﴾ وقولُه تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُم الَيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣].

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

(القسم الثاني من هذا الربع)

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا
دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم (القسم الثاني من هذا الربع)

عبـاد الله

لا نزال نواصل تفسير الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين من المصحف الكريم، وفي هذا الحديث نقدم القسم الثاني من تفسير هذا الربع، وهو يَشْمَلُ بقية الآيات الواردة فيه، وعلى رأسها قوله تعالى في سورة الفرقان المكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً﴾ إلى قوله تعالى في ختام السورة وختام الربع: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾.

في بداية هذا القسم وجه كتاب الله الخطاب إلى نبيّه، معرِّفاً إيَّاه بأن مسؤولية الرسالة الإسلامية التي هي خاتمة الرسالات قد أصبحت تقع على عاتقه وحده، إذ هو خاتم النبيئين والمرسلين، فما عليه إلاّ أن يضطلع بها، ويقاوم أعداءها، ويجاهد في سبيل تبليغها للبشرية جمعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً، فَلاَ تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ، وَجَـٰهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾.

وحدَّد كتاب الله لرسوله مرَّة أخرى واجبات الرِّسالة الملقاة على عاتقه، حتى لا يكلف نفسه ما فوق طاقته، وحتى لا يتهم

من أعداء الرِّسالة بما لا يتفق مع قداسة دعوته، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً، قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِلاَّ مَن شَآءَ انْ يَّتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

وحضَّ كتاب الله رسول الهُدى ودينِ الحق على ملازمة الثقة بالله، والالتجاء الدائم إليه، والتوكّل التام عليه، إذ من توكّل على الحي الذي لا يموت، لا ينقطع عنه مدد الله ولا يفوت، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الذِي لاَ يَمُوتُ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ، وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾.

واستغرب كتاب الله موقف الكافرين الذين يتحدَّون ربهم، إذ ضلّوا وفقدوا لبّهم، رغماً عن آيات الله الباهرة، وحججه القاهرة، فقال تعالى في وصفهم متعجباً من عنادهم وكبريائهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ - ﴿ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ، الرَّحْمَـٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَـٰنُ، أَنَسْجُدُ لِمَا تَامُرُنَا، وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾.

ونبّه كتاب الله إلى أن الذكر الحكيم لم يترك برهاناً ساطعاً ولا دليلاً قاطعاً على وجود الله ووحدانيته، وقدرته وحكمته، إلاّ فصَّله تفصيلاً، وفسَّره دليلاً دليلاً، ومَن رفضَ بعد ذلك أن يسلك المَحجَّة، فقد قامت عليه الحجة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾.

وحرصاً من كتاب الله على هداية الخلق وإن ضلّوا، وتمكينهم بكل الوسائل من معرفة الحق وإن زلّوا، تصدّى كتاب الله في ختام هذا الربع للكشف عن صفات المومنين الذين استجابوا لله والرّسول فلم يكفروا بالرحمان، بل آمنوا به وأقبلوا على طاعته وعبادته عن اقتناع وإذعان، وتشرّفوا بالانتساب إليه حتى وصفهم القرآن بأنّهم ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ ﴾ وذلك ليقتدي بهم من لا يزال سابحاً في بحر التردّد والعناد، من بقية العباد، فقال تعالى واصفاً لهم ومعرِّفاً بهم: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾ وهذا الوصف الأول يتضمن أمرين، الأمر الأول أنهم لا يعتزلون الناس، بل يعاشرونهم ويخالطونهم، إذ ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ للقيام بواجباتهم وتحمل مسوولياتهم، والتعاون مع غيرهم على البِرّ والتّقوى، والأمر الثاني أنهم إذا مشوا مشوا برفق وتثبت، دون عجلة بالغة، ولم يظهر عليهم أثر التبختر والاستكبار، بل عَلَتْهم السكينة والوقار، ولم تبدُر منهم بادرة ازدراء للغير أو احتقار، وذلك هو معنى المشي ﴿ هَوْناً ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، [لقمان: ١٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وليس المراد بالمشي هوناً، التثاقل والتماوت تصنّعاً ورياءً، فقد كان ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب، وكأنما الأرض تُطوى له، ومناط المدح في الوصف بـ (المشي هوناً) ليس المشي في حد ذاته، وإنما مناط المدح ما يدل عليه (المشي

هوناً) من أخلاق الماشي وسلوكه الحميد، إذ يكون مشيه هوناً دليلاً على أنه هيِّن ليِّن. روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «حرَّم الله على النار كل هيِّن ليِّن سهل قريب من الناس».

والوصف الثاني من أوصاف «عباد الرحمٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰماً﴾، بمعنى أنه إذا تجرأ عليهم السُّفهاء بالقول السيِّء أغضَوْا عنهم، وكظموا غيظهم، وردّوا عليهم رداً هادئاً يوقف أذاهم عند حده، دون أن يقابلوهم بالمثل، أو يشتبكوا معهم في خصام، تجنباً لتوسيع دائرة الشقاق، وحرصاً على السداد والمسالمة والسلام، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ، سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وهذا الوصف لا ينافي ما شرعه الله من الجهاد، دفاعاً عن الإسلام، عند توفّر الأسباب، كما لا ينافي الدفاع عن عرض المسلم، متى تعرض لقذف الأوباش والأوشاب.

والوصف الثالث من أوصاف «عباد الرحمٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰماً﴾ بمعنى أنهم إذا خَلَوا بأنفسهم في الليل لم ينسوا خالقهم ورازقهم، بل انتهزوا فرصة هدوء الليل وسكونه، وخصَّصوا حصة منه لمناجاة الحق سبحانه وتعالى، والتنفل بعدد محدود من الركعات، وقد كان تهجده ﷺ باللّيل لا ينقص عن سبع ركعات في الحد الأدنى، ولا يزيد على ثلاث عشرة ركعة في الحد الأعلى، حسبما ورد في

صحيح البخاري وصحيح مسلم وموطأ الإمام مالك، وفي رسول الله للصالحين من أمته إسوة حسنة، وقال ابن عباس: «من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً».

والوصف الرابع من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾، بمعنى أنهم بالرغم مما هم عليه من طاعة وعبادة وحسن خُلُق لا يسيطر عليهم العُجْب والغرور بما قدموه من أعمال، بل يدعون الله، وهم بين يديه ساجدون، وفي تهجدهم مستغرقون، أن يقيهم عذاب النار ويجنبهم ما في القيامة من أهوال، وهكذا يتقلب قلب المومن الحق دائماً بين الخوف والرجاء، وإن بلغ ما بلغ في درجات القرب والاصطفاء، ومعنى لفظ «الغرام» في قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ الهلاك الملازم، والخسران الدائم.

والوصف الخامس من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتِرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴾، بمعنى أنهم عند قيامهم بالإنفاق في الطاعات لا يُفرِطون في الإنفاق، إلى حد أن لا يجدوا ما ينفقون على عيالهم، ومَن هم مطالَبون بالإنفاق عليهم، كما أنهم لا يقبضون أيديهم عن الإنفاق شحاً وبخلاً، إلى حدّ أن يهملوا ما عليهم من الحقوق والواجبات، ولا يتطوعوا بأي شيء من الصدقات، بل يلتزمون الحد الوسط في نفقاتهم المطلوبة شرعاً، وهذا معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴾ قال ابن عطية: «والحَسَن في

ذلك هو القَوام أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره، وصبره وجلده على الكسب، أو ضدّ هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها»، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾، [الإسراء: ٢٩]، وقوله ﷺ فيما رواه أحمد عن أبي الدرداء: «مِن فِقْهِ الرجل قصدُه في معيشته» وقوله ﷺ فيما رواه أحمد أيضاً عن عبدالله بن مسعود «ما عال من اقتصد». أما الإنفاق في المعاصي، فهو أمر محظور حظَرت الشريعة قليله وكثيره، وعباد الرحمَـٰن الذين أثنى عليهم القرآن منزّهون عن هذا النوع من الإنفاق، لأنه من مظاهر الانحراف وآيات النفاق.

والوصف السادس من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ ﴾، بمعنى أنهم أسلموا وجوههم لله بالمرة، وتبرأوا كل البراءة من اتّباع الهوى والتمسك بالأَثَرة والأنانية، فلم يتّخذوا إلٰهم هواهم، فضلاً عما هو فوق ذلك من الشرك والوثنية.

والوصف السابع من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، بمعنى أنهم لا يتسببون في قتل النفوس التي أمر الله بحفظها، بل يحافظون بكل الوسائل على حياة أصحابها، إلى أن يأذن الله بموتها، إيماناً منهم بأنه هو وحده الذي يحيي ويميت. وواضح أن الأمر باحترام نفوس الغير يقتضي من باب أولى وأحرى الأمر

باحترام الإنسان لنفسه بنفسه، فلا يسوغ له الانتحار، بدعوى الفشل أو غسل العار، إذ لا عقاب لقاتل نفسه عند ربه إلّا النار، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إشارةٌ إلى القتل المشروع في حدود الله، رعايةً من الحق، لمصالح الخلق، كالقتل المترتب على الكفر بعد الإيمان، والزّنى بعد الإحصان، فعباد الرحمَٰن لا يقفون في وجه إقامة الحدود، حتى لا يُحاسَبوا على إهمالها في اليوم الموعود. وإذا كان قتل الإنسان لنفسه ونفوس الناس ـ بمعنى القتل المادي ـ أمراً محرماً في الشرع والطبع، فإن قتله لنفسه أو نفوس الناس بالمعنى الروحي لا يقل خطورة عن الأول، بل ربما كان عملاً أخطر، وجُرماً أكبر، و «القتل المعنوي للنفوس» هو تركها ترتع في الشهوات والمخالفات دون حساب يسير ولا عسير، وتركها تتخبط في الشبهات والضلالات دون هُدىً ولا كتاب منير.

والوصف الثامن من أوصاف «عباد الرحمَٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾، بمعنى أنهم لا يتناولون الخبائث ولا يقربون الفواحش، لا ما ظهر منها ولا ما بطن، فهم حريصون على أن تكون حياتهم الاجتماعية والعائلية كلها نظافة وطُهراً، وترفعاً عن انتهاك الأعراض التي حرمها الله سراً وجهراً، فأعراض المحصنات المومنات معهم في أمان، في كل الأزمان.

والوصف التاسع من أوصاف «عباد الرحمَٰن» يشير إليه قوله

تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾، وهـذا الوصف يصـدق بمعنيين اثنين:

ـ المعنى الأول أنهم لا يشهدون مجالس الخَنَـى والسوء التي يغشاها البطالون المنحـرفون ولا يـزكّونهـا بحضورهم، والمعنى الثاني أنهم لا يشهدون شهادة الزور، فيحقوا الباطل ويبطلوا الحق بشهادتهم. والمراد «بالزور» كل كذب وباطل زُوِّق وزخرف. وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أُنبئكم بأكبَر الكبائر ـ ثلاثاً ـ قلنا بلىٰ يا رسول الله، قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس ـ فقال: ألا وقول الزور. ألا وشهادة الزور. فما زال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت ـ أي شفقة عليه» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويُسخِّم وجهه، أي يسوّده، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق.

والوصف العاشر من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَـرُّوا كِرَامـاً ﴾ بمعنى أنهم يربـأون بأنفسهم عن أن يشغلوها بالسفاسف، مما ليس فيه صلاح دين ولا صلاح دنيا، لا من الأفعال ولا من الأقوال، وهذا معنى مرورهم به مر الكرام، إذ يتكرمون عنه، ويترفعون عن تضييع الوقت فيه، لتفاهته وعـدم فائـدته. واستعمـال «المرور مـر الكرام» بقصـد الاختصار في القول المفيد، والإيجاز في ذكر الشيء المحتاج إلى التفصيل من مسائل العلم، استعمال في غيـر محله، واقتباس مقلوب.

والوصف الحادي عشر من أوصاف «عباد الرحمـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِئَايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ بمعنى أن لهم آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، متى ذُكِّروا بآيات الله تذكروا، واتعظوا وازدجروا، وأكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على من يذكرهم بها، فلا إعراض منهم ولا إهمال، في أي حال من الأحوال، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ قال ابن عطية: «كأن المستمع للذكر قائمِ القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خروراً، والخُرور هو السقوط على غير نظام وترتيب». وفي شأن من أعرض ونأى بجانبه جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

والوصف الثاني عشر من أوصاف «عباد الرحمـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بمعنى أنهم يأخذون حظَّهم المشروع من زينة الدنيا ومتاعها الطيِّب، ولا يَحرِمون أنفسهم من الحياة الزوجية، والسعي لإنجاب الذِّريَّة، ملتمسين من الله أن يَهَب لهم من الأزواج والأبناء ما تَقرّ به العين وتُسرّ به النفس، وتحصل به الكفاية، فيكون مجلبة للهناء والسعادة، ونيل الحسنى وزيادة.

والوصف الثالث عشر من أوصاف «عباد الرحمـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾، بمعنى أنهم لا يكتفون بأن يكونوا صالحين في أنفسهم بممارسة هذه الصفات وحدهم، بل يطمحون إلى أن يكونوا مصلحين لغيرهم، وقدوة حسنة لمن

يأتي من بعدهم، حتى تتضاعف بهم قافلة النور عدداً ومدداً، وتستمر رسالتها أبداً وسرمداً.

ونظراً لضعف الإنسان وتعرّضه لإغواء الشيطان، وما يمكن أن يصدر عنه من مخالفة وعصيان، نبّه كتاب الله إلى عقاب من فرّط في جنب الله، وانتهك حرمات الله، إذا لم يبادر إلى التوبة والعمل الصالح، كما بشّر المذنبين التائبين إذا تابوا توبة نصوحاً بقبول توبتهم، وإسدال الستر الجميل على سيئاتهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَـٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً، الَّا مَن تَابَ وآمن وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحاً فَـأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾. وتبديل السيئات بالحسنات يصدق في الدنيا بالتوفيق إلى الطاعة بعد العصيان، وفي الآخرة بالعفو والغفران.

وإعلاناً لما أكرم الله به «عباد الرحمَـٰن» وخصهم به من الرحمة والإحسان في كل زمان، بشّرهم بخير بشرى، في الدنيا قبل الأخرى، فقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰماً، خَـٰلِدِينَ فِيهَا، حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾.

وفي ختام هذا الربع الذي هو مسك الختام لسورة الفرقان المكّية وجّه الحق سبحانه وتعالى خطابه إلى كافة عباده، من آمن منهم ومن كفر، واضعاً لهم جميعاً أمام مسؤولياتهم، مذكراً إيّاهم أنه لولا رحمته بهم، وإحسانه إليهم، لتركهم كريشة في مَهَبِّ

الريح ضحية التضليل والتدجيل، ولَمّا كانوا محل العناية الإلّهية ودعوة رسله جيلاً بعد جيل، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ
لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا
عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ
الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي
فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا
مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا
وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ
إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾

يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ
هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا
إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ
وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ
أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة الشعراء المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، طَسٓمٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ، لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾، إلى قوله تعالى حكايةً عن فرعون موسى: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

هذه السورة تستغرق أربعة أرباع تقريباً، أي حوالي حزب كامل، وأُطلق عليها اسم سورة (الشعراء)، أخذاً من قوله تعالى في الآيات الأخيرة منها: ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾. ومحور الحديث في بداية هذه السورة وفي نهايتها إبطال الشبهات التي يردّدها أعداء القرآن، والردّ عليهم بأقوى حجة وأسطع برهان، ولا سيما ما يموِّهون به من وصف الرسول بكونه شاعراً من الشعراء، وما يلوِّحون به من كون القرآن الذي أنزل عليه إنَّما هو نوع من

الشعر الذي هو منه بَرَاء، وقد حكى كتاب الله مقالتهم من قبل في سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ، بَلِ افْتَرَيٰهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الآيــة: ٥]، وسيحكيها مرَّة ثانية في سورة الصافات: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٦]، ومرة ثالثة في سورة الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور ٣٠]. وأبطل كتاب الله زعمهم، وسفَّه رأيهم، فقال في سورة يس: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الآية: ٦٩]، وقال في سورة الحاقة: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلاً مَّا تُومِنُونَ ﴾ [الآيـة: ٤١]، غير أنَّ «سورة الشعراء» التي نحن بصدد تفسيرها الآن هي التي فصَّلت القول في إبطال هذه الشبهة تفصيلاً، وعرضت الأدلَّة التي تبطلها دليلاً فدليلاً.

وَبَيْنَ بداية هذه السورة ونهايتها المتعلقتين بمعجزة القرآن تخلَّلت آياتِها البيّنات قصةُ موسى مع فرعون وقومه، ابتداءً من الآية التاسعة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ايتِ الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ، أَلَا يَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ إبراهيم مع قومه، ابتداءً من الآية التاسعة والستين، وهي قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْرَٰهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾، ثم قصةُ نوح مع قومه، ابتداءً من الآية الخامسة بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ اَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ هود مع عاد، ابتداءً من الآية الثالثة والعشرين بعد المائـة، وهي قولـه

تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ اَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ صالح مع ثمود، ابتداءً من الآية الواحدة والأربعين بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ اَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ لوط مع قومه، ابتداءً من الآية الستين بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ اَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ شعيب مع أصحاب الايكة، ابتداءً من الآية السادسة والسبعين بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ،إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ اَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

ويلاحَظ في ترتيب قِصص الأنبياء المذكورة في هذه السورة أنَّ الأسبق منها في الذكر كان هو الأقرب إلى عهد الرّسالة المحمدية، ثم يليه ما فوقه، فقد وقع البدء بقصة موسى قبل قصة إبراهيم، ثم تلتها قصة إبراهيم قبل قصة نوح وهكذا، لأن الأمر يتعلق بتثبيت الرسول في دعوته، وضرب المَثَل له بما أصاب الرسل السابقين من أجل قيامهم بمِثْل رسالته، حتى يصمد ويثابر، ويصبر ويصابر، بينما ذُكرت هذه القِصص كلها أو بعضها في سور أخرى حسب وقوعها أولاً بأول، وذلك في سياق الحديث عن بدء الخليقة وبدء الحياة البشرية، وما رافقها وتعاقب عليها في تسلسلها التّاريخي من الرسالات الإلّهية، من عهد آدم أب البشر أجمعين، إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين. على أن إيراد قصص الأنبياء في عدة سور لا يعد من قبيل التكرار، إذ لا تعاد القصة في أية سورة بنفس ألفاظها وبكامل عناصرها وجميع حلقاتها،

وإنما يُؤتى منها في كل مقام بالعنصر المناسب للسياق، وبالحلقة التي لها بالموضوع ارتباط وثيق والتصاق، فيزيدُ ذلك أسلوبَ القرآن تألقاً وجمالاً، ويضيف إلى إعجازه تفوقاً وكمالاً.

وقد اختار كتاب الله أن يختم كل قصة من القصص الواردة في هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فأعيدت هذه الآية سبع مرات بعدد القِصص السبع، عِلاوة على ورودها قبل ذلك في صدر السورة، تعقيباً على ما في خَلْق النبات وتنوع أصنافه، من حكمة إلٰهية، ومصلحة إنسانية، إذ قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوِاْ إِلَى الْأَرْضِ كَمَ اَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾. وإنما أُعِيدَ ذكر هذه الآية عقب كل قصة من قصص الأنبياء السابقين، إشارةً إلى أن كل واحدة منها كافية لاستخلاص العِبَر واستذكار المَثُلات، بالنسبة لما مضى وما هو آت، فالرسول عليه الصلاة والسلام يأخذ منها العبرة التي تناسب منصب الرسالة، بما له من مسؤوليات وتَبِعات، وما يتطلب القيامُ به على الوجه الأكمل من المتاعب والتضحيات، كما يستخلص العبرة منها مَن آمن من قومه ومَن كفر، إذ فيما أصاب أقوام الرسل السابقين، من النجاة والخلاص، أو الهلاك والخسران، اللذين تَتَضَمنهما كل قصة، عبرة لمن اعتبر، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَآيَةً ﴾، وهي تتضمن فوق ذلك تقرير حقيقة تاريخية ثابتة، ألا وهي أن انتصار الرسل وانتشار الرسالات لا يعني القضاء التام على أولياء الشيطان، الذين تعهد بإغوائهم

والإيحاء إليهم في كل زمان، فالدنيا دار ازدواج وامتزاج يعيش فوق سطحها البَر والفاجر، ويصطدم في ساحتها المومن بالكافر ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ ﴾، وتنتهي الآية المشار إليها بخطاب كريم، من ربّ رحيم، يوجهه الحق سبحانه وتعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله، مذكراً إيَّاه أن الله لأعدائه بالمرصاد، ولأوليائه بالرّحمة والامداد ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ بالنسبة لأعدائه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بالنسبة لأوليائه.

والآن وقد قدمنا فكرة عامة عمَّا تضمنته سورة الشعراء من موضوعات نركز القول على مجموعة مختارة من آياتها البيِّنات.

ـ فقولُه تعالى في فاتحة السورة: ﴿ طَسٓمٓ ﴾ يقال فيه ما قيل في مغزى بقية الحروف الهجائية المقطعة، التي يأتي بعدها مباشرةً ذكرُ «كتاب الله» تصريحاً أو تلويحاً، وكأن لسان حالها يقول: هذه الحروف التي تجري على ألسنتكم بكلام عاديّ باهت هي التي نفخ الله فيها من روحه، فتحولت إلى كلام إلّهي معجز لا قِبَل لكم بمثله، فكيف لا تدركون الفرق بين كلامكم وكلام الله ﴿ طَسٓمٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴾.

ـ وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُومِنِينَ ﴾ إشفاق من الله على رسوله، وإشارةٌ إلى ما كان يعتري الرسول عليه الصلاة والسلام من همّ وغمّ، وحزن وكمد، عندما يدعو قومه فلا يستجيب لدعوته إلاَّ فريق قليل منهم، ويظل الفريق الآخر على كفره وعناده، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام مثابر على دعوتهم وإرشادهم، حريص على هدايتهم وإسعادهم، وهذا

الخطاب الذي خاطبه به ربُّه هنا يماثله في معناه قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُومِنُواْ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف: ٦]، ويوضح مغزاه قولُه تعالى في سورة فاطر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [الآية: ٨]، وقولُه تعالى في سورة لقمان: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَـلَا يُحْزِنـكَ كُفْرُهُ، إِلَيْنَـا مَـرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ ﴾ [الآيـة: ٢٣].

ـ وقولُه تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ تذكيرٌ من الله لرسوله بأنه لو شاء إلْجاء الكافرين إلى الإيمان، لما وُجد كافر على وجه الأرض منذ قديم الزمان، فضـلاً عن بقائه إلى الآن وحتى الآن، لكن الحكمة الإلٓهية اقتضت أن يكون البشر أحراراً في اختياراتهم، مسؤولـين وحـدهم عن كفرهم وإيمـانهم، فلا مجـال لإخضاعهم بـالقهر والاضطرار، وإنما هي الدعوة والإقناع ثم الاقْتِنَاعُ عن طـواعية واختيار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقولِه تعالى في آية ثانية: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ءَلَامَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

ـ وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ اِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُواْ، فَسَيَاتِيهِمُ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، إشارةً إلى أن خصوم الرّسالات الإلٓهية يتـوارثون الكفر بالله وكتبه جيلاً بعد جيل، ولا ينفكّون عمّا طبعوا عليه من الجحود والعناد والتضليل، وكلّما منَّ الله على خلقه بإنزال كتاب

إلٰهي جديد، لهدايتهم إلى دين الحق والتوحيد، أعرضوا عن هدايته، وتصدَّوا لمحاربته، وإن كان تنزيل آياته يتجدّد على فترات، وتعلُّمه والعمل به في متناول جميع الفئات، فهم على باطلهم مصرّون في كل حين، إلى يوم الدين.

ـ وقولُه تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾، إشارةٌ إلى ظاهرة كونيّة يواجهها كل إنسان، وبدونها لا يستطيع العيش لا هو ولا غيره من الحيوان، وهذه الظاهرة هي ظاهرة النبات، الذي هو بالنسبة للإنسان والحيوان أساس الغذاء والأقتيات، فكم لله من حكمة باهرة فيما مهَّد به للنبات، من أرض صالحة ومطر يحيي الموات، ثم كم لله من حكمة باهرة فيما تنبته الأرض من حبوب وثمار وأزهار وأشجار، متنوعة الأوراق والأغصان، وفواكه وخُضَر مختلفة الطعوم والأحجام والأشكال والألوان. ومما يزيد معنى هذه الآية توضيحاً وتفسيراً قولُه تعالى في سورة الرعد: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.[الآية: ٤]، وقولُه تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [الآية: ٢٧].

ـ وقولُه تعالى في هذا الربع: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ يمكن حمله على أمر ظاهر للناس جميعاً، وهو أن النوع الواحد

من أنواع النبات توجد منه أصناف متعددة، لكل صنف مزيته الخاصة، مثل أصناف العنب وأصناف التّمْر وأصناف البرتقال، وغيرها ممَّا لا يحصى عداً، ووصف النبات «بالكَرَم» في هذه الآية جار على ما هو متعارف في لسان العرب، يقال نخلة «كريمة» أي كثيرة التمر. ويمكن أن يكون قوله تعالى هنا: ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ شاهداً من الذِّكر الحكيم على معنى جديد لم يهتدِ إليه العلم الحديث إلاَّ أخيراً، وهذا المعنى هو مبدأ ثنائية الكائنات وازدواجها على اختلاف أنواعها، وهو المبدأ الذي ينص على أن كل شيء من الكائنات، من أوائل أو مركبات، ثنائيّ مزدوج، يجتمع فيه السالب والموجب، وهذا المبدأ العلمي العام يشهد له قوله تعالى على وجه العموم: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقولُه تعالى في آية ثانية: ﴿ سُبْحَـٰنَ الذِي خَلَقَ الاَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الاَرْضُ وَمِنَ اَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

وانطلق كتاب الله يقص في هذا الربع قصة موسى مع فرعون وقومه، فنبَّه إلى ما كان عليه فرعون وقومه من الظلم والطغيان ﴿ وَإِذْ نَادىٰ رَبُّكَ مُوسىٰ أَنِ ايتِ الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾، ووصَفَ بعض المواقف التي تبرز ظلمه وطغيانه عندما أعلن إليه موسى أنه «رسول رب العالمين» فخاطبه فرعون قائلاً: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتَّ إِلَـٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّـكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾، وخاطب السَّحَرة الذين آمنوا بموسى قائلاً: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَن ـاذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ،

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وقطعُ الأيدي والأرجل من خِلاف تهديدٌ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى. وخاطب الملأ حوله منِدِّداً بموسى، ومستهزئاً برسالته، ومحرّضاً على مقاومته، ومتهماً له بأشنع التهم، قائلاً: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ - ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ - ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾. وحكى كتاب الله القَسَم الذي كان قوم فرعون يُقسِمون به في المواقف الحاسمة، واستعمله السحرة عند مواجهتهم لموسى: ﴿ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ جَرْياً عَلَى أن فرعون هو ربّهم الأعلى، وهذا النوع من الكِبْر والاستعلاء والتشويه والتسفيه الذي واجه به فرعون وملاؤه دعوة موسى عليه السلام لا يختلف عنه موقف قادة الشرك من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين، فقد تعرّضت دعوته ﷺ لنفس التشنيع والتهديد، وتعرض كثير من أصحابه الأولين لنفس الوعيد والعذاب الشديد.

وتضمنت قصة موسى إشارة إلى القاسم المشترك الذي تلتقي فيه جميع الرسالات الإلّهية، وأنها رسالة تحرير للإنسان أيّاً كان من الرّق والاستبداد، وإنقاذٍ له من معتقدات الشرك والوثنية التي هي الحليف الطبيعي للتخلف والاستعباد، فمن المعنى الأول: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ - ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ومن المعنى الثاني: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ، قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ - ﴿ قَالَ رَبُّ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

كما تضمنت إشارةً إلى أن الحكمة الإلٓهية اقتضت أن تسلِّح كل رسول بالمعجزة التي تثبت صدقه وصدق رسالته، حتى يستطيع أن يتحدّى المعاندين الجاحدين بمعجزته، ويقنع الشاكين الباحثين عن الحق والحقيقة بدعوته: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ، قَالَ فَاتِ بِهِ إن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ، فَأَلْقَىٰ مُوسىٰ عَصَاهُ فَإذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإذَا هِيَ بَيْضَـآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ - ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسىٰ عَصَاهُ فَإذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَافِكُونَ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وبذلك كانت قصة موسى التي قصَّها كتاب الله على خاتم أنبيائه ورسله عبارة عن شريط يرى فيه نموذجاً مما يتعرض له الرسل وتتعرض له الرسالات، من مختلِف الإذايات، كما يرى فيه ما يكرم الله به رسله من حسن العاقبة وخفيِّ الألطاف، في نهاية المطاف ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين
في المصحف الكريم

قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا
آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي
وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي
ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾
وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الشعراء المكية: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

وَاصَلَ كتابُ الله في القسم الأول من هذا الربع ذكر حلقات أخرى من قصة موسى مع فرعون وقومه، وتناول في القسم الذي يليه قصة إبراهيم، وجزءاً من قصة نوح عليهما السلام. ويواجهنا في بدايته جواب السَّحَرة الذين بهرتهم معجزة موسى فسجدوا لله وآمنوا برب العالمين، دون أن يحسبوا حساباً لفرعون وملائه، والجمع الحاشد الذي كان من حوله، معلنين في جوابهم أنهم لا يهابون الموت والاستشهاد في سبيل الله، بل يتحملون أذى فرعون وعذابه الموقوت، طمعاً في رضوان الحي الذي لا يموت، إذ لا ينقطع رضوانه ولا يفوت ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَّغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُومِنِينَ ﴾. وهكذا

انتقل السحرة من حال إلى حال، وكان لهول المفاجأة في نفس فرعون وملائه وقع الصاعقة أو الزلزال، فبعد أن كانوا «سَحَرة كَفَرة» يقسمون «بعزة فرعون»، انقلبوا إلى «مومنين بَرَرة» يرجون من الله العفو والعون، فسبقوا إلى الإيمان، من حضر موقف التحدي والرهان، وإذا كان جوابهم قد جاء في هذه السورة موجزاً مجملاً، فقد سبق في سورة طه مطولاً ومفصلاً، ﴿ قَالُواْ لَن نُّوثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ، اِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ، إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[الآيتان: ٧٢، ٧٣].

ثم بيَّن كتاب الله موقف فرعون وملائه من رسالة موسى وما اتخذه من الوسائل الزجرية، و التعبئة النفسية والعسكرية، لمقاومتها والحيلولة دون تحقيق أهدافها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ، إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ كما بيَّن كتاب الله بنفس الإيجاز والإعجاز ما قام به موسى عليه السلام، من التدابير الجريئة والخطط المحكمة، التي بلغت الغاية في التنظيم والإحكام، لكونها مسددة الخطى، مؤيدة من الله بالوحي والإلهام، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اسْرِ بِعِبَادِيَ، إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ - ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ وسجل كتاب الله مشاهد المعركة الدائرة بين الحق والباطل بقيادة موسى عليه السلام من جهة، وقيادة فرعون من جهة أخرى، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا الْجَمْعَٰنِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّآ، إِنَّ مَعِي

رَبِّي سَيَهْدِينِ، فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْـرَ، فَانفَلَقَ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾، وأنهى كتاب الله قصة موسى في هذا الربع، ببيان العاقبة التي آل إليها أمر فرعون ومن معه، وموسى ومن معه، فقال تعالى مشهِّراً بعاقبة الفريق الأول، ومنذراً بنفس العاقبة لكـل من سار على نهجه: ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وقال تعالى منوّهاً بعاقبة الفريق الثاني، ومبشِّراً كل من اهتدى بهديه: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾.

ولا شك أن ما تضمنته قصة موسى، من المواقف والمشاهد والمَثُلات،والعِبَر، كان يشابه أو يقارب إلى حد كبير ما يواجهه خاتم الأنبياء والمرسلين في الحال، وما سيواجهه في المستقبل المنتظر، فقد عبأ مشركو قريش جميع قواهم المـادّية والأدبيّـة للطعن في رسالته، وحاولوا بكل الوسائل محاصرة دعوته، وكما فارق موسى وقومه معه مصر، لينجوا من طغيان فرعون وقومه، هاجر خاتم الأنبياء والمرسلين مع أصحابه من مكة، لينجُوا من طغيان الشرك وأهله، وكما كان النصر على فرعون حليف موسى في عاقبة أمره، سيكون النصر حليف الرسول وصحبه في نهاية عمره ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

ومن التذكير بقصة موسى انتقل كتاب الله إلى التذكير بقصة إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْرَٰهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ،

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾. وهذا الحوار الصريح الذي دار بين إبراهيم وأبيه وقومه أبرز ما كان سائداً بينهم من السذاجة والجهل والتقليد الأعمى، الأمر الذي جعل إبراهيم عليه السلام يعلن براءته من الأصنام التي يعبدونها، وعداوته لها، دون تحفظ ولا تردّد ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُم تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ ﴾.

وكان هذا الردّ المفحم من إبراهيم الخليل على قومه الضالين، صدمة بالغة لهم، ومحاولة جادة لنقلهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا يستحق العبادة سواه، فهو الذي يعبده إبراهيم ويطيعه ويتولاه، ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَـٰلَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾. وبهذه الأوصاف التي وصف بها إبراهيم ربّه عرّفهم بخصائص الألوهية ومظاهر الربوبيّة، كما عرّفهم ببداية الحياة ونشأة الأحياء، وما يؤول إليه مصير الإنسان في دار البقاء. ومن لطائف التفسير ما يلاحظ في قوله تعالى هنا حكاية عن إبراهيم الخليل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ فقد أسند في هذه الجملة المرض إلى نفسه، وإن كان عن قضاء الله وقدره، أدباً مع الله، وتربية للعارفين بالله. أضف إلى ذلك أن كثيراً من أسباب المرض تحدث بتفريط من نفس الإنسان، لكن لا يتم شفاؤها إلاّ بإذن الرحيم الرحمـٰن.

وإذا كان الحوار الإبراهيمي مفيداً ومنتجاً بالنسبة للماضي في مهاجمة الشرك والوثنية، والتعريف بخصائص الألوهية ومظاهر الربوبيّة، فإن التذكير به في كتاب الله على عهد الرسالة المحمدية، أعظم فائدة، وأعمّ عائدة، لا سيما ومشركو قريش يعتبرون أنفسهم «عرباً إسماعيلية» فهم بالنسبة لإبراهيم الخليل أقرب الأقرباء، ودعوةُ إبراهيم للتوحيد ضد الشرك الذي هم عليه سَنَد قوي يؤكد دعوة خاتم الأنبياء، ولذلك جاء التعقيب عليها بما ينتظر مشركي قريش وغيرهم من المشركين، من عذاب يوم الدين، فقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ، فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ، قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ، تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، وَمَآ أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ، فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾، ثم ختمت قصة إبراهيم بما يشير إلى الحكمة من إيرادها، والفائدة من تذكير الرسول وقومه بها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

أما قصة نوح عليه السلام التي استغرقت من هذا الربع في نهايته ست آيات لا غير، فلنؤجل تفسير ما ورد منها في هذه السورة إلى الربع المقبل بحول الله، حتى نلقي عليها نظرة شاملة.

ولنلتفت الآن إلى شرح بعض المفردات الواردة في هذا

الربع، فقوله تعالى في قصة موسى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ من الشروق، والمراد به شروق الشمس وطلوعها، وهو بيان لوقت وصول فرعون وجنوده والتقائهم بموسى ومن معه. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ معناه أن «أصحاب موسى» كانوا يتوقعون أن يدركهم فرعون بجنوده. وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، المراد بالفِرْق في الأصل هو الفجّ الواقع بين جبلين، والطود هو الجبل الكبير، وقوله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ أي قرَّبنا الآخرين من البحر، والمراد «بالآخرين» فرعون وجنوده. وقولُه تعالى في قصة إبراهيم حكايةً عن قومه: ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أي نظل مقيمين على عبادة الأصنام ودعائها. وقولُه تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي قُرِّبت الجنة وأدنيت من أهلها. وقولُه تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي كُشِف عنها وعن أهوالها للغاوين المسوقين إليها. وقولُه تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾ أي كبّوا فيها وألقي بعضهم على بعض. وقولُه تعالى حكايةً عن نفس الغاوين الضالين: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناه أنهم يتمنون العودة إلى الدنيا، زاعمين أنهم إذا عادوا إليها أطاعوا وأصلحوا، بدلاً مما كانوا عليه من المعصية والفساد، لكن المتوقع خلاف ما زعموا ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام ما حكاه كتاب الله على لسان إبراهيم الخليل، من أدعية صالحة كلها ابتهال إلى الله وتعظيم وتبجيل:

الدعاء الأول: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾.

والدعاء الثاني: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾.

والدعاء الثالث: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾.

والدعاء الرابع: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِيَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾.

والدعاء الخامس: ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنَ اَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

فالدعاء الأول يتضمن التماس المزيد من الرّشد والحكمة والالتحاق بزمرة الصالحين المصلحين.

والدعاء الثاني يتضمن التماس الذكر الجميل المستمر على وجه الدهر في كل جيل، والمراد «بلسان الصدق» الثناء الحسن الذي لا تَزيُّد فيه ولا مبالغة.

والدعاء الثالث يتضمن التماس الفوز في الجنة بالنعيم المقيم، حيث لا لغو ولا تأثيم.

والدعاء الرابع يتضمن التماس الغفران لأبيه، إن تاب إلى الله وأناب إليه.

والدعاء الخامس يتضمن التماس العز والكرامة، وعدم التعرض للهوان والذل يوم القيامة، فهذه الأدعية الصالحة التي دعا بها إبراهيم أب الأنبياء، هي خير ما يتوجه به إلى الله الصالحون الأتقياء، وهي أقوى دليل على مزيد تعلقه بالله، ومبلغ خشيته من الله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد استجاب الله لإبراهيم أدعيته، وحقق بمنه وكرمه أمنيته، وليؤكد فضله عليه لدى السابقين واللاحقين، قال تعالى في كتابه المبين: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

أما دعاؤه الخاص لأبيه، فقد بيّن كتاب الله القرار الأخير فيه، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَما كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [الآية: ١١٤].

الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين
في المصحف الكريم

قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى
وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ

رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ
مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ

لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد اللــه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الشعراء المكية: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ، إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

في الآيات الست الأخيرة من الربع الماضي قصَّ كتاب الله على خاتم أنبيائه ورسله قصة نوح مع قومه بغاية الإيجاز، فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ، إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ، إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ويلاحظ في هذه القصة وبقية القصص التي تلتها في نفس السورة أن كتاب الله اختار أن يفتتحها كلها بصيغة واحدة لا يتبدل فيها إلاَّ اسم الرسول وحده أو اسم قومه، فقال تعالى في بداية

قصة نوح مع قومه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة هود مع عاد: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة صالح مع ثمود:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة لوط مع قومه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة شعيب مع أصحاب الأيكة: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، ولم يقل كتاب الله: كذبت قوم نوح نوحاً، أو كذبت عاد هوداً، أو كذبت ثمود صالحاً، أو كذبت قوم لوط لوطاً، أو كذب أصحاب الأيكة شعيباً، إشعاراً بأنّ مَن قابل بالتكذيب رسولاً واحداً فقد كذب ضمنياً وبصورة غير مباشرة كافة الرسل، وذلك لأن الرسالات الإلٰهية ـ وإن تعددت بتعدد الأنبياء والمرسلين ـ هي في طبيعتها وجوهرها رسالة واحدة، صادرة من منبع واحد، هو منبع الوحي الإلٰهي الواحد والوحيد.

ثم إن خصائص الرسل، والأمارات المميزة لهم، التي اقتضت حكمة الله أن تكون متوافرة فيهم ليكونوا رُسلاً من عند الله لا تختلف في أصلها من رسول إلى آخر، بل هي متشابهة ومتماثلة، وطريقة معرفة الرسل واحدة، إذ ما منهم من أحد إلاّ وقد أيّده الله بمعجزة يتحدّى بها الكافرين، وحجة يقنع بها المنكرين، وعلى هذا الأساس ألزم الإسلام معتنقيه ـ بعد الإيمان بالله ـ أن يومنوا بكتبه ورسله دون استثناء، وكان شعار المسلمين (لا نفرق بين أحد من رسله). يضاف إلى ما سبق أن الله تعالى أمر كل رسول من رسله بأن يبلِّغ قومه خبر الرّسل الذين يرسلهم

الله من بعده، تعريفاً لهم بأن سلسلة الرسالات الإلّهية حلقات متوالية، إلى أن يحين ختمها بخاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك حتى يكونوا على قدم الاستعداد لتصديق الرسول المنتظر، فيُصَدِّق الخُبْر الخَبَر، وبهذا الاعتبار يكون من كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه، مُكذِّباً لجميع الرسل منذ اللحظة الأولى، ويصدق عليه أنه قد كذَّب المرسلين أجمعين، ولم يكذب رسوله وحده، وهذا المعنى هو الذي أكده كتاب الله في فاتحة القِصص الخمس، الواردة في هذه السورة (سورة الشعراء)، بعد قصة موسى وقصة إبراهيم.

ومما يستلفت النظر، ويدل على وحدة الرسالات الإلّهية، ووحدة الرسل الذين جاؤوا بها أن كتاب الله استعمل أسلوباً واحداً في حكاية ما خاطب به أولئك الرسل أقوامهم، على اختلاف أزمانهم وتعدُّد مواطنهم، إذ نجده يحكي عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في هذه السورة أنهم جميعاً عبّروا عن نفس المعاني والمقاصد، واستعملوا نفس الطريقة في مخاطبة أقوامهم ودعوتهم إلى الإيمان بالرسالة التي جاؤوا بها من عند الله، إذ قال كل منهم مخاطباً لقومه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا الخطاب يوضح أن هدف الرسالات الإلّهية الأساسي هو وضع حد لما يقع فيه الناس من الانحراف والاستهتار، وإيقاظ ضمائرهم للخروج من تيه الغفلة واللامبالاة وقفص الجحود والإنكار، حتى يقبلوا على إصلاح ما فسد،

ويهتموا بترميم ما تداعى للسقوط، ويحيَوْا حياة إنسانية نظيفة، منسجمة مع إرادة الله، لا تجلب سخطه وإنما تجلب رضاه، وتتحقق بها في الأرض الخلافة عن الله، وهذا هو معنى «التقوى»، الذي يدعو إليه كافة الأنبياء والرسل ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، إذ التقوى في معناه العام هو جعل النفس في «وقاية» مما يُخاف منه ويؤذي، لتفادي جميع الأدواء والأسقام، والعيش في هناء وسعادة وسلام، لكن وسائل الوقاية الناجعة لا يستطيع الإنسان الإلمام بها على الوجه الأكمل، إلا إذا تلقاها عن ربّه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، فهو سبحانه وحده الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو وحده الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦]، ولا طريق لذلك إلا تلقي الرّسالات الإلٰهية عن رسل الله، الذين اختصهم برعايته، وائتمنهم على رسالته، وجعل طاعتهم سبيلاً إلى طاعته، فقال كل منهم لقومه عن أمر الله وكلمته: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. وحتى لا يُوصَم رسل الله من أقوامهم بالطمع والاستغلال، تكفل الحق سبحانه وتعالى لرسله بأرزاقهم، فكانوا في حياتهم الخاصة يتمتعون بالاكتفاء الذاتي والاستقلال، ولذلك كانوا يواجهون أقوامهم بما يدفع الشبهة في هذا الباب، حتى لا يجدوا لرفض دعوتهم أيّ سبب من الأسباب، وهذا هو مغزى قوله تعالى حكاية عن كل واحد منهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم إن كتاب الله عندما أراد أن يحكي مقالة الرسل إلى أقوامهم أتى بلفظ معبر له مغزى خاص في هذا المقام بالذات، فوصف الرسول بأنه «أخو قومه» كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾. ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت بادىء ذي بدء أن يكون الرسل إلى عامة البشر بشراً مثلهم، يشاركونهم في المشاعر والأحاسيس، ويعايشونهم أفراداً وجماعات، ويلازمونهم ملازمة الظل للشاخص، وبذلك يحصل التفاهم والتجاوب بينهم وبين الناس، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الآية: ٩]. وللمزيد من الألفة بين الرسل ومن أرسل إليهم اقتضت الحكمة الإلهية أن يتكلم بلسانهم، وأن يكون بالنسبة إلى قومه أخاً من إخوانهم، إما أخاً لهم عن طريق القرابة والنسب، وإما أخاً لهم من باب المجانسة والأدب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ اِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

ولا شك أن تقديم كتاب الله لقصص الأنبياء السابقين، وتلاوةَ رسوله للآيات التي نزلت في شأنها على المومنين، وسماعَ أخبارها في فجر الإسلام من طرف المكذبين والكافرين مما يزيد

المومنين إيماناً على إيمانهم، عندما يعرفون نجاة إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان في سالف الأزمان، ومما يزعزع ثقة المكذبين والكافرين بمعتقداتهم الباطلة، عندما يعرفون المصير المفجع الذي آل إليه أمر المكذبين بالرّسالات الإلّهية، في القرون الماضية، عسى أن يذّكّروا ويعتبروا، ويتراجعوا عن باطلهم ويزدجروا. وإلى هذا المغزى يشير قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام فيما سبق من سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ، أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [الآية: ٨٩]، وقوله تعالى فيما سبق من سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ٧٠].

والآن فلننظر ماذا استنكر كل رسول من قومه، وماذا واجهوه به من قول السوء:

ـ أما نوح عليه السلام فقد قضى عهداً طويلاً في نصح قومه وتذكيرهم بآيات الله، ودعوتهم إلى دين الحق، لكنهم أصرّوا على ضلالهم، فلم يومن برسالته إلاّ قليل منهم، وقد حكى كتاب الله في سورة يونس، قول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُم﴾ [الآية: ٧١]، وحكى كتاب الله في سورة هود قولهم لنوح: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَآ إن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الآية: ٣٢]، كما حكى في نفس السورة، استهزاءهم به إلى أقصى الحدود، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ، قَالَ إن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [الآية: ٣٨]. وها هو كتاب الله يحكي في هذا الربع مأخذاً جديداً يؤاخذ به قومُ نوح نبيَّهم، ألا وهو اهتمامه بضعفاء قومه، وقبولُ دخولهم في دين التوحيد، واعتبارُهم أهلاً لصحبته ومرافقته، وتلقي ما جاء من عند الله، وها هم يلحون عليه في طردهم وإبعادهم من ساحته ﴿ قَالُوٓاْ أَنُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الاَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، إنْ حِسَابُهُمُ إلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ الْمُومِنِينَ، إنَ اَنَا۠ إلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، وعندما يرفض ادعاءهم ويستنكر استعلاءهم، ويصر على أن دين الله للجميع، وأن الناس سواسية فيه لا فرق بين فريق وفريق، يهدِّدونه بالقتل رجماً بالحجارة ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ فلم يسعه إلاَّ أن يلتجىء إلى الله، ويشكو إليه بلواه، ويسأله أن يحكم بينه وبين قومه، إذ هو خير الحاكمين ﴿ قَالَ رَبِّ إنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ أي فاحكم بيني وبينهم ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾، وأوجز كتاب الله هنا في ذكر عاقبته وعاقبتهم، فقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ، إنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما هود عليه السلام فقد استنكر من قومه عاد ما وجدهم

عليه من العبث والاستهتار والإسراف في التشييد والبنيان، والتوسع في العمران، مع ممارسة البطش والتجبر والطغيان، والكفر بما أنعم الله به عليهم من النعم المتعددة الأصناف والألوان، وها هو كتاب الله يحكي ما وعظ به هود قومه إذ قال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ والريع المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُواْ الَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينٍ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، فما كان منهم إلّا أن أجابوه جواب المصرين على إهمال دعوته، والإعراض عن رسالته ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَٰعِظِينَ، إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، وأوجز كتاب الله هنا في ذكر عاقبتهم، فقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما صالح عليه السلام فقد استنكر من قومه ثمود ما هم عليه من الإسراف في الفساد، والتعنت والعناد، والتفنن في النحت والبناء، والإغراق في سعة العيش والنعيم والرخاء، مع «الفقر الروحي» البارز في سلوك الآباء والأبناء، فهم لا يفكرون في أي عمل صالح، يقيهم النكبات والجوائح، وهم لا يقدُرون الله حق قدره، ولا يأتمرون بأمره، وها هو كتاب الله يحكي الخطاب الذي وجهه صالح إلى قومه إذ قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ، فِي جَنَّٰتٍ، وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ، وَنَخْلٍ طَلْعُهَا

هَضِيمٌ ﴾ أي يانع نضيج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَرِهِينَ ﴾ أي فرحين آمنين مكر الله ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْاَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، فما كان منهم إلّا أن أجابوه مكذبين متهمين، وطالبوه بتقديم دليل يدل على أنه من الصادقين: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، فَاتِ بِئَايَةٍ اِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾، فأجابهم قائلاً: ﴿ قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي لها حظ في الماء ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وأوجز كتاب الله هنا في ذكر عاقبتهم، فقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً، وَمَاكَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما لوط عليه السلام فقد استنكر من قومه ما ابتدعوه دون بقية الناس من الانحراف والشذوذ، والخروج على كل ما هو متعارف بين البشر ومعهود، فقد خلق الله الذكر والأنثى ليكمّل بعضهما بعضاً، لا ليستغني أحدهما عن الآخر فيُبطل حكمة الله ويرفض حكمه رفضاً، إذ في ذلك ما فيه من ضياع النسل وانقطاع الذرية، وتعطيل الحكمة الإلٰهية، وكفى بهما بلية وأي بلية، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً، اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم :٢١]. وهاهو كتاب الله يحكي الخطاب الذي خاطب به لوط قومه منددا بدعتهم، ومنذراً بسوء عاقبتهم: ﴿ أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَـٰلَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم مِّنَ اَزْوَٰجِكُم، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ

عَادُونَ ﴾، فما كان منهم إلَّا أن هدَّدوه بالنفي والإبعاد، عقاباً له على مقاومته لمظاهر الانحراف والفساد ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ فرد عليهم قائلًا: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أي المبغضين ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم أوجز كتاب الله في ذكر عاقبته وعاقبتهم فقال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَـٰبِرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَـرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً، فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما قصة شعيب مع أصحاب الأيكة التي استغرقت خمس آيات في نهاية هذا الربع فستتناولهـا في بداية الربع القادم إن شاء الله، لنأتي بها كاملة في سياق واحد، مع بيان ما فيها من العبر والفوائد، والله المستعان، وعليه التكلان.

ومن خلال الحوار الذي دار في هذه القصص بين الرسل وأقوامهم يتضح لكل ذي عينين أن الرسالات الإلّهية منذ فجرها الأول لم تكن توجِّه الناس نحو السماء إلَّا لتلهمهم طريق الصلاح في الأرض، وأن هدفها الأول والمباشر كـان هو العمـل على إصلاح المجتمع البشري أدبياً ومادياً، والسعي لتطهيره من كل الشوائب، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعـايب، وبذلـك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب، ويصبح مجتمعاً مثاليـاً، جديراً بأن يوصف بكونه إنسانياً، لأنه ينهج نهجاً أخلاقياً ربَّانياً، ﴿ وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين
في المصحف الكريم

أَوْفُواْ اُ۬لْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُواْ مِنَ اَ۬لْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِالْقُسْطَاسِ اِ۬لْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُواْ اُ۬لنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي اِ۬لَارْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَاتَّقُواْ اُ۬لذِے خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ اَ۬لَاوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ اَ۬لْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
اَ۬لْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ اَ۬لسَّمَآءِ اِن كُنتَ مِنَ
اَ۬لصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ
عَذَابُ يَوْمِ اِ۬لظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
اَ۬لْعَزِيزُ اُ۬لرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ اِ۬لْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ
بِهِ اِ۬لرُّوحُ اُ۬لَامِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَيٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ اَ۬لْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ اِ۬لَاوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن

لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ
بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾
كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ
يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا
تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ
فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ

وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ
وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا
ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْءَاخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد اللـه

في هصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الشعراء المكية: ﴿ أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُواْ بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الـذِينَ لَهُمْ سُـوٓءُ الْعَـذَابِ، وَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾.

في الآيات الخمس الأخيرة من الربع الماضي تحدث كتاب الله إلى خاتم أنبيائه ورسله عن قصة شعيب مع أصحاب الأيكة، وواصل الحديث عنها في الإحدى عشرة آية الأولى من هـذا الربع. وعلى غرار ما سبقها من قِصص نوح وهود وصالح ولوط افتتحها كتاب الله بنفس الأسلوب قائلاً: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ اَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾، واختتمها بنفس الطريقة قائلاً: ﴿ اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وقد نبّه جار الله الزمخشري إلى «أن السرّ في كون كل قصة من هذه القِصص جاء أولها وآخرها على نمط واحد هو تقرير معانيها في الأنفس، وتثبيتها في الصدور، قائلًا: ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفُّظ العلوم ـ أي استظهارها شيئاً فشيئاً ـ إلّا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما ازداد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد عن النسيان، لا سيما وأن هذه القِصص طُرِقت بها آذان وُقْر عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير، لعل ذلك يفتح أذناً، أو يُفتّق ذهناً، أو يصقُل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ».

وكما استنكر الرسل السابقون من أقوامهم ما وجدوه مناقضاً للتعاليم السماوية، مضاداً للتوجيهات الإلّهية، وأمروهم بما فيه الخير والصلاح، والسداد والفلاح، ها هو شعيب عليه السلام يخاطب «أصحاب الأيكة»، معرِّضاً بما درجوا عليه من استغلال للخلق، وتضييع للحق، داعياً إيّاهم إلى العدل والإنصاف، في معاملة الناس لا فرق بين الأقوياء والضعاف، فقال لهم كما حكى عنه كتاب الله: ﴿ أَوْفُواْ الْكَيْلَ، وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُواْ بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ، وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الاَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فركّز دعوته على وجوب تطهير التجارة والاقتصاد، من الغش والاستغلال المنافيين لمصلحة العباد، وأمَرَهم في حالة البيع بإيفاء الكيل والوزن وعدم التطفيف في أيّ واحد منهما، طبقاً لمقتضى العدل والإنصاف، كما أمرهم في

حالة الشراء بإعطاء كل ذي حق حقّه دون غَبْن ولا إجحاف، ونهاهم عن الفساد في الأرض نهياً عاماً كيفما كان نوع الفساد، بما في ذلك الإخلال بالأمن العام وهناء البلاد، إذ لفظ (الفساد) في لغة القرآن يشمل معناه الإخلال بالأمن العام، مثل قطع الطرق والاعتداء على الممتلكات والأرواح، التي تتمتع بالقداسة والاحترام. فقوله تعالى هنا حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يلتقي معناه مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الآية: ٣٣].

ثم ذكّر شعيب عليه السلام «أصحاب الأيكة» بأن كل ما يتمتعون به ويتقلبون فيه من الرخاء والنعيم إنّما هو من فضل الله، فهو الذي أنعم عليهم وعلى أسلافهم خاصة، والنوع الإنساني عامة، بنعمة الإيجاد، ثم بنعمة الإمداد، مما لو تدبّروه وقدّروه، لعبدوا الله وشكروه وما كفروه، وذلك قول شعيب مخاطباً لهم: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ و«الجبلة» قال مجاهد هي الخليقة، ويشبه قولَ شعيب هنا ما قاله موسى لفرعون وملائه فيما سبق: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

ويلاحظ في خطاب شعيب «لأصحاب الأيكة» أنه لم يأمرهم إلّا بإيفاء الكيل، فأمرَهم بما هو واجب، ولم ينههم إلّا عن التطفيف، فنهاهم عما هو محرّم ، وذلك هو مقتضى العدل، أما

الزيادة في الكيل فهي من باب الإحسان، ولذلك لم يأمرهم بها، ولم ينههم عنها، فإن زادوا أحسنوا ونالوا حظاً من الثواب، وإن لم يزيدوا لم يتعرضوا لأي إثم أو عقاب، وما جرى على الكيل يجري على الوزن أمراً ونهياً، ثواباً وعقاباً، إذ ما جرى على المثل يجري على المماثل. لكنَّ «أصحاب الأيكة» كانوا مصرّين على ما هم فيه من الضلال لا يهمهم إلا جمع المال، ولو بطريق الغش والاحتيال، وهم فوق ذلك لا يقرون لله بوجود ولا بنعمة، ولا يومنون بما له من قدرة وحكمة، ولذلك ردّوا على شعيب أقبح رد قائلين: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَـٰذِبِينَ ﴾ ثم أرادوا أن يتحدّوه بطلب ما لا طوق له به، حتى إذا ما عجز عن تلبية طلبهم سجلوا عليه تهمة الكذب والادّعاء، واعتبروا رسالته عبارة عن هَذيان وهُراء، ولذلك تحدّوا شعيباً قائلين: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ، ان كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي أسقط علينا جانباً من السماء، على اعتبار أن السماء بمنزلة السقف للأرض. وبديهي أن أمراً كهذا لا يمكن أن يتمّ على يد أي واحد من البشر ولو علت منزلته، وثبتت نبوته، فما كان من شعيب إلّا أن فوَّض أمره إلى الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وبعد أن أقام عليهم الحق سبحانه وتعالى الحجة، وأصرّوا على تنكب المحجة، فاجأهم بنوع غريب من العقاب ظاهره نعمة، وباطنه نقمة: ذلك أن الله سلّط عليهم موجة عالية من الحَرّ الشديد عمّت ما فوق الأرض من المساكن والعمائر، وما تحت الأرض من الكهوف والمغاور، ولمّا اختنقت أنفاسهم في مساكنهم

ولم ينفعهم ظل ولا ماء، خرجوا إلى البَرِّية في الصحراء، يبحثون عن النَّسيم وبرد الهواء، وإذا بسحابة كثيفة أقبلت عليهم من السماء، فهرعوا إليها مسرعين عسى أن تكون لهم ظلاً ظليلاً، ويستنشقوا نسيماً عليلاً، لكنها أخذتهم أخذاً وبيلاً، فقد سيقت إليهم للإحراق والاحتراق، بعدما أصابهم من ضيق التنفس والاختناق، وإذا كانوا قد تحدّوا نبيّهم شعيباً من قبل وقالوا له: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ ها هي السماء ترد على تحدّيهم بتحدٍ أخطر وأكبر، هو تحدي الهلاك والفناء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ والظُّلة هنا هي السحابة التي اجتمعوا تحتها ولجأوا إلى ظلّها، فأصلتهم ناراً، ولم تَذَرْ منهم على الأرض ديّاراً ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ ءَلآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

و (الأيكة) واحدة (الأيك) وهو الشجر الملتف الكثير، ونصَّ ابن كثير على أن أصحاب الأيكة إنَّما أطلق عليهم هذا اللقب، نسبة إلى شجرة مخصوصة كانوا يعبدونها، وورد لفظ «الأيكة» في هذه السورة وسورة (ص) بصيغة (لَيْكة) على وزن ليلة، حيث خفِّفت همزة الأيكة وألقيت حركتها على اللاَّم فسقطت الهمزة بالمرة، ولم تبقَ حاجة إلى ألف الوصل، وكتبت بالحذف تبعاً للنطق المخفَّف بدلاً من الأصل، وبذلك جاء قوله تعالى هنا: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نظير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو

الأَوْتَادِ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ، أُوْلَـٰئِكَ الأَحْـزَابُ ﴾ [الآيتان:١٢ ـ ١٣]، بينما كُتبت في سورة الحِجْر [الآية ٧٨] وسورة ق [الآية ١٤] طبقاً لأصلها الأول، وحسب نطقها العادي.

ولما انهى كتاب الله قِصص الرسل السابقين مع أقوامهم، وبيَّن أن الرسالات التي جاؤوا بها ودعوهم إليها إنَّما كانت لإنقاذهم وإصلاحهم، ـ كشأن الرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات ـ تصدَّى كتاب الله مرة أخرى للحديث عن الذكر الحكيم، الذي هو عماد هذه الرسالة ودعامتها الأولى، وكما قال تعالى في الآيات الأولى من هذه السورة (سورة الشعراء): ﴿ طَسٓمٓ، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ اِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ قال تعالى في الآيات الأخيرة من هذه السورة عوداً على بدء: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ، وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الاَوَّلِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ الاَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُومِنِينَ، كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُومِنُونَ بِهِ، حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ، فَيَاتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَـٰطِينُ، وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ، وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾.

ومن دقائق التفسير ورقائقه ما علَّق به جار الله الزمخشري على قوله تعالى هنا: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ فقال: «إن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على

قلبك، لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات، فإذا كُلِّم بلغته التي لَقِنها أولاً ونشأ عليها وتطبَّع بها ذهب قاصداً إلى معاني الكلام، يتلقاها بقلبه، ولا يكاد يفطِن للألفاظ كيف جرت، وإن كُلِّم بغير تلك اللغة ـ وإن كان ماهراً بمعرفتها ـ كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه (نَزَل على قلبه)، لنزوله بلسان عربي مبين».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يحتمل معنيين كلاهما صحيح: المعنى الأول ـ أن الكتب السماوية السابقة تنبَّأت بظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، ونوّهت بنزول الكتاب المبين، والمعنى الثاني ـ أن القرآن الكريم جاء ما فيه مصدّقاً لما بين يديه، ومهيمناً عليه. ويرتبط بهذين المعنيين أوثق ارتباط قولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ والمراد «بعلماء بني إسرائيل» المنوَّه بهم هنا علماؤهم الذين لم يكتموا ما عندهم من العلم، فبادروا إلى الاعتراف بنبوّة نبيّنا عليه السلام، وآمنوا برسالته وبالكتاب الذي أنزل عليه، وكانوا من السابقين إلى الدخول في دينه، تصديقاً لما عرفوه وتناقلوه من وصفه عليه الصلاة والسلام ووصف رسالته. وقد كان عيسى عليه السلام آخر نبي بشّر باسم نبينا وبرسالته فيما حكى عنه كتاب الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم، مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ، وَمُبَشِّرًۢا

بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِيَ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]، وهذه الفئة من أهل الكتاب التي آمنت مرتين هي التي وصفها كتاب الله في آية أخرى إذ قال: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٣].

وتعبيراً عن تمكن الكفر من قلوب المشركين ومن حذا حذوهم في كل عصر، من أعداء الإسلام وخصوم القرآن، وتفسيراً لإصرار هؤلاء المجرمين على الجحود والعناد، وتضليل العباد، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾، أي يتمنون لو أنهم أعطوا مهلة أخرى لإعادة النظر، عسى أن يقتنعوا بصدق الخبر، لكن الله تعالى الذي يعلم سرَّهم ونجواهم لا يحقق لهم هذه الأمنية، لأنه يعلم أنهم غير صادقي النّية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ، أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

وليؤكِّدَ كتاب الله لجميع الفئات والأجيال، أنه لا يظلم أحداً من خلقه بأي حال، قال تعالى هنا: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ، ذِكْرَىٰ، وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾ [الآية: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَـٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ تنزيه لكتاب الله تعالى عن أن تقرَب الشياطينُ ساحته، أو تنتهك حُرمته وحصانته.

وتوكيداً لنفس المعنى، وتعريفاً بطبيعة الشياطين وما يوحون به إلى أوليائهم، من الكَهَنة والمتنبئين، والمشركين والكافرين، خاطب كتاب الله عقلاء البشر المنصفين، الذين ليسوا كغيرهم من السخفاء والمجانين، فقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَـٰطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ، وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾.

وكما بيَّن كتاب الله استحالة وجود أي علاقة بينه وبين الكَهانة والكهّان، بيَّن أنه لا نسبة بين شعر الشعراء ووحي القرآن، فكتاب الله يعرض على الناس عقيدة صدق ثابتةً لا تتبدل، وشريعة حق خالدةً لا تتحول، وهو يعبر عن حقائق كلية إلٰهية وكونية لا سبيل إلى إبطالها أو نقضها، ولا مناص من قبولها وعدم رفضها، أما الشعر فالشأن فيه أن يتقلب بتقلب الظروف والأوقات، وأن يخضع قبل كل شيء لتأثير العواطف والانفعالات، وأن يتحول من مدح إلى قدح، ومن قدح إلى مدح حسب الأهواء والشهوات، وكثيراً ما يكون منبثقاً من الأساطير والأوهام والخيالات، فلا يلبث أثره أن ينقطع وبناؤه أن ينهار، لأنه قام على شفا جُرُف هار، وإذَنْ فلا شَبَه بينه وبين كتاب الله لا شكلاً ولا موضوعاً، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وإذا كان كتاب الله يبطل كل شَبَه أو

مقارنة بينه وبين الشعر لنزوله عن مرتبته، ومغايرة طبيعته لطبيعته، حتى لا يختلطا في الأذهان، عند ضعفاء الإيمان، فإنه مع ذلك لا يَحكم على الشعر بالإعدام، بل يضفي عليه حلة من الاحترام، إذا التزم الشاعر بخدمة الإسلام، وبقدر ما يقترب الشعر من مقاصد القرآن ويضع الشاعر نفسه في خدمته، ويمجّد المكوِّن وهو يصف جمال كونه وعظيم قدرته، يعيد للشعر كامل كرامته وحرمته، ويُعَدُّ في عداد المومنين الصالحين من أمته، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ، وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً، وانتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾.

وقبل أن يختم كتاب الله هذه السورة (سورة الشعراء) وجَّه الخطاب إلى الرسول الأمين، يذكِّره بعشيرته الأقربين ومن اتبعه من المومنين، ويدعوه إلى المزيد من التوكل على الله، ويبشره سبحانه بالنصر على الأعداء، بعدما أعلن أنه منهم بَرَاء، لأنهم أصرّوا على الظلم والعصيان، ولم يستجيبوا لله ورسوله فيهتدوا بهدى القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلِ اِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين
في المصحف الكريم

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

ٱلذِے فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُومِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ
دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ
شَےْءٍ اِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ
مِنَ ٱلْجِنِّ وَالِانسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ
وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلتِے أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضَيٰهُ وَأَدْخِلْنِے بِرَحْمَتِكَ فِے
عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ
أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَاباً شَدِيداً اَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَاتِيَنِّے بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٖ فَقَالَ
أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۢ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّے وَجَدتُّ اُمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَےْءٖ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلذِے يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِے ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾»

الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، مع خمس آيات سابقة عليه، واقعة في نهاية الربع الماضي اقتضى النظر تأجيلها إلى هذه الحصة، حتى نأتي بتفسيرها في سياق واحد، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة النمل المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، طَسٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

بعدما انتهينا من تفسير «سورة الشعراء» المكية نشرع اليوم بعون الله وتوفيقه في تفسير «سورة النمل» المكيّة أيضاً، وقد أطلق على هذه السورة «سورة النمل» أخذاً من قوله تعالى في الآية الثامنة عشرة منها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾، والملاحَظ أن فاتحة سورة النمل هذه مشابهة كل الشبه لفاتحة سورة الشعراء السابقة، إذ كل من السورتين مفتتح بحروف مقطعة من حروف

الهجاء، ففي سورة الشعراء (طسم) وفي سورة النمل (طس) وأول آية في سورة الشعراء: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ ﴾ وأول آية في سورة النمل : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾، وكما تصدى كتاب الله في سورة الشعراء لإبطال شبهات أعداء القرآن تصدى هنا لنفس الشيء، زيادة في الإقناع والبيان، وكما تضمنت سورة الشعراء جملة من قِصص الأنبياء والمرسلين أوردت سورة النمل حلقات أخرى من بعض تلك القصص، كقصة موسى وقصة صالح وقصة لوط، وأضافت قصصاً أخرى فيها عبرة للمعتبرين، وحجة قائمة على الجاحدين والمنكرين، كقصة سليمان التي تخللتها قصة النمل وقصة الهُدْهُد وقصة مِلكة سبأ.

وبعد التذكير بما في هذه القصص من مواعظ وعبر أخذ كتاب الله يوجه الخطاب تلو الخطاب إلى كافة البشر، مَنْ تقدم منهم في عهد الرسالة ومن تأخر، داعياً إيَّاهم إلى التأمل في آيات الله السارية في الكون، بما فيه من أرض وسماء، وبَرّ وبحر، ورياح وأمطار، وجبال وأنهار، وليل ونهار، ومن هذا المنطلق انتقل كتاب الله إلى الحديث عن البعث والحشر وبعض أشراط الساعة، وناقش الشاكين في البعث والمكذبين بالحياة الآخرة مناقشة تبطل شبهاتهم، وتقضي على تحدياتهم، وتخللت ذلك كله آياتٌ بيّنات، تؤكد لخاتم الأنبياء والرسل رعاية الله له من فوق سبع سماوات، وهو يخوض أقسى معركة خاضها رسولٌ ضد الشبهات والشهوات.

فقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ هُدًى

وَبُشْرىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾، ينص على أن كتاب الله يتضمن أمرين:

ـ الأمر الأول هداية الخلق، إلى كل ما هو حق، حتى يتفادوا كل ما هو باطل، قولاً وفعلاً واعتقاداً.

ـ الأمر الثاني تعريف المهتدين الذين اهتدوا به، بما يَلْقَونه من البشائر في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فلا يعتري حياتهم خلل ولا اضطراب، ويكونون بمنجاة من أليم العذاب.

وقولُه تعالى: ﴿ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ويَـوتُونَ الزَّكَـوٰةَ ﴾ وصف للمومنين، بأن لإيمانهم تأثيراً بارزاً في سلوكهم، فهم حريصون كل الحرص على إقامة الصلاة، التي هي أول حق من حقوق الله، وإيتاء الزكاة، التي هي أول حق من حقوق العباد، ومَن أخذ على عاتقه القيام بهما كان على قدم الاستعداد للقيام بما دونهما.

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُمْ بِالآخِـرَةِ هُمْ يُوقِنُـونَ ﴾ وصف ثانٍ للمومنين المهتدين بهَدْى القرآن، إذ لا يكون مهتدياً به، إلاَّ من كان على يقين تام بالنشر والحشر والنشأة الثانية، عِلاوة على ما يقوم به من حقوق الله وحقوق العباد، أما من كان يقوم بذلك على وجه الاحتياط لا غير، دون جزم بالحياة الأخرة، فلا يعدُّ في الحقيقة مهتدياً بهدى القرآن، لأنه لا يزال في شك من أمره غير كامل الإيمان.

وقولُه تعالى: ﴿ إنَّ الذِينَ لا يُـومِنُـون بِـالآخِرَةِ زَيَّنَّـا لَهُمْ

أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يشير إلى حقيقة نفسية واجتماعية دل عليها الاستقراء في القديم والحديث، ألا وهي أن كل شخص ليس عنده إيمان بالآخرة، ويعتقد أن حياتـه تنتهي عند حلول الموت، تزداد أنانيته حِدّة، ويزداد شَرَهه شدة، إذ يخيل إليه أن ذاته هي البداية والنهاية، وأن حياته في الدنيا ليست وسيلة وإنما هي في نفسها غاية، فلا يترفّع عن طَرْق أي باب من الأبواب، ولا يتورع عن اتخاذ أحط الوسائل وأشنع الأسباب، لاختلاس أكبر قدر ممكن من المنافع والشهوات، وانتزاعها إن لم يكن بالحيلة فعن طريق العنف والجرائم والموبقات، لأن المجتمع في تصوره القاتم عبارة عن غابة موحشة وأدغال، وكل شيء في نظره القاصر مباح وحلال، ما دامت نهاية حياته القصيرة ـ حسبما يخيِّل لـه خياله المريض ـ هي التفسخ والفناء والانحلال. ووصَف كتابُ الله عاقبة هذا النوع التائه المنحرف فقال: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ، وَهُمْ فِي الْاَخِرَةِ هُمُ الْاَخْسَرُونَ ﴾.

وليلفت كتاب الله نظر الشاكين والمكذبين إلى ما يتضمنه القرآن من الحق المبين، حتى يكونوا مما فيه على بيِّنة ويقين، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ و«الحكيم» لا يوحي إلاَّ بالحكمة، و«العليم» لا ينطق إلاَّ بالعلم، ومن لم ينتفع بما في القرآن من علم وحكمة بقي معدوداً في عداد الجهلة والسفهاء، غريقاً في أوحال المغالطات والجدل والمراء.

وقص كتاب الله على رسوله والمومنين حلقات أخرى من

قصة موسى الكليم عليه السلام تتضمن تكليمه وإرساله من عند الله، وتمرينه على استعمال المعجزات التي يتحدّى بها أعداء الله، مع ما يتصل بذلك من ظروف وملابسات، كلها مفاجآت، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسىٰ لِأَهْلِهِ، إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرتها من بعيد ﴿ سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ، اَوَ اتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي آتيكم بشعلة نار تستدفئون بها ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة، فأنت نزيل البقعة المباركة، ﴿ وَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، يَـٰمُوسىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَأَلْقِ عَصَاكَ، فَلَمَّا رءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي ولّى خائفاً ولم يرجع، لكن ناداه ربه ليهدىء روعه ﴿ يَـٰمُوسىٰ لَا تَخَفِ، إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ، فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ﴾ إخبار لموسى عليه السلام بأن الآيات المادية التي سيؤيده الله بها أمام فرعون وقومه يبلغ عددها تسعاً، وأن إلقاءه لعصاه، وإخراجه ليده من جيبه بيضاء يندرجان في تلك الآيات التسع، وسبق في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من سورة الأعراف الإشارة إلى بعضها، كما سبق في الآية الثامنة والثمانين من سورة يونس الإشارة إلى بعضها الآخر، وأكبر الآيات التسع التي أيّد الله بها موسى هي التي وردت في

الآية الثالثة والستين من سورة الشعراء الماضية، حيث قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾.

أما مواقف فرعون وملائه من موسى عليه السلام، وما انتهت إليه عاقبتهم في النهاية فقد أوجزها كتاب الله في هذه السورة حيث قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي واضحة بيِّنة ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، وكما قال تعالى في آية أخرى عن فرعون وقومه: ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ ﴾ [المومنون: ٤٦]، قال عنهم هنا: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا، وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ، ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾، أي إنما جحدوها ظلماً وعلواً ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾، وقد وصف كتاب الله فرعون وقومه في هذه الآيات بالفسق والفساد والظلم والاستكبار والاستعلاء، وكل واحدة من هذه الصفات توجب سخط الله وغضبه، وتعرِّض أهلها للدمار والهلاك، فما بالك إذا اجتمعت كلُّها في صعيد واحد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة سليمان وما صاحب مُلكَه من الوقائع التي برزت في زمانه وبهرت الإنسان، مبيِّناً كيف سخَّر الله تعالى لسليمان، من الوسائل المعتادة، وغيرها من الوسائل الخارقة للعادة، ما لم يسخره لأحد من قبله، عسى أن يومن بنو إسرائيل ـ على ما هم عليه من شك وعناد ـ برسالته، ويجمَعوا كلمتهم ـ بعد الفرقة والشتات ـ على طاعته، وكيف آتاه الله ملكاً فريداً من نوعه لم يُوتِ مثله لأحد من بعده، عسى أن يعترف بنو إسرائيل بنعمة الله عليهم، ولا ينقضوا الميثاق الذي واثقهم عليه

منذ أرسل موسى الكليم إليهم، لكنهم بالرغم من ذلك فضلوا الفرقة على الوحدة، والانحراف على الاستقامة، ولم يمضِ زمن قصير بعد موت سليمان حتى أخذوا يعَضُّون بنان الندامة، فتفرق جمعهم، وتشَتت شملهم، وانهار ملكهم، وأصبح ملك سليمان العتيد وهيكله الجديد في خبر كان، وأصبح بنو إسرائيل أوزاعاً وأشتاتاً في كل مكان، وكانت جَلْوتهم الكبرى بعد جلوتهم الصغرى، مصداقاً لقوله تعالى في سورة إبراهيم وهو يخاطب بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾. [الآية: ٧].

وليعتبرَ المومنون والكافرون بما تعرَّض له بنو إسرائيل بعد انهيار ملك سليمان من النكبات والنقم، عرض كتاب الله في الآيات التالية ما أنعم به عليهم في عهد مُلْكه القصير من جليل النعم، حتى يقارن الجميعُ بين حالتي السخط والرضا، ويستخرجوا العبرة مما مضى «فبضدِّها تتميز الأشياء»:

ـ قال تعالى تمهيداً لقصة سليمان منوّهاً بأبيه داود، وبما آل إليه بعد موت أبيه من النبوة والملك دون بقية إخوته ﴿وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً، وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُومِنِينَ، وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُودَ﴾ وهذه الآية تتضمن تنويه الحق سبحانه وتعالى بنعمة «العلم»، واعتبارَها من أجلِّ النعم وأجزل القِسَم، وأنّ من فضله الله بالعلم على غيره من الناس يجب أن يقابِل نعمة الله عليه في كل آن، بالشكر والامتنان. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ

ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وكما استعمل كتاب الله (الإرث) بمعناه المجازي في قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ﴾ استُعمِل بنفس المعنى في قوله ﷺ: «العلماء وَرَثة الأنبياء»، تعبيراً عن كونهم حَمَلة لعلمهم، أمناء على رسالتهم، حرّاساً للدين بين قومهم.

وقولُه تعالى حكايةً عن سليمان: ﴿وَقَالَ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، إشارةٌ إلى أنه كان يتحدث إلى قومه بنعمة الله ليبرز فضل الله عليه، إذ الكل منه وإليه، والمراد بمنطق الطير الذي علَّمه الله إياه - ليُصدِّقه بنو إسرائيل في كونه رسولاً من عند الله - هو فهم المشاعر التي تجول في نفوسها عن طريق الأصوات التي تنطق بها، فتتفاهم فيما بينها، والمراد «بكل شيء» في قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كل شيء يحتاج ملكه إليه، ويتوقف عليه، على غرار ما وُصِفت به ملكةُ سبأ في آية لاحقة ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى جمع جنوده واستعراضهم أمامه على نظام وترتيب لا يتقدم فيه أحد عن منزلته، ولا يتأخر أحد عن مرتبته، وكل صنف منهم يجري عَرضُه وفق طبيعته، قال قتادة: «كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم». ويطلق «الوازع» على الموكَّل بتنظيم الصفوف في العَرض، ليكفَّ من تقدم إذا كان حقه التأخير، ويقدم من تأخر إذا كان حقه التقديم: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ إشارةٌ إلى أن سليمان عليه السلام، كما علمه الله منطق الطير علمه منطق النمل، ولذلك فهم مقالة النملة التي تقود قافلتهم، وتبسَّم ضاحكاً من قولها المهذب، وإنما تبسَّم من قولها لأنها برأت ساحته وساحة جنوده من الإتهام بالقصد إلى التحطيم والعدوان، وحملتهم منذ البداية محمل العدل والحنان والإحسان، عندما قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وبدلاً من أن يتكبر سليمان ويتجبر كما يفعل المغرورون المعجَبون بأنفسهم، والناسون نعمة الله عليهم، توجَّه سليمان في الحال إلى الحق سبحانه وتعالى بالتضرع والسؤال: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ، وَأَنَ اَعْمَلَ صَـٰلِحاً تَرْضَيٰهُ ﴾، ممّا يدلّ على أن نظر سليمان لجنوده وهو يستعرضهم كان نظر تدبر واعتبار، لا نظر زَهْو وافتخار. ثم مضى في دعائه يقول: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ على غرار ما دعا به يوسف إذ قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وما دعا به إبراهيم إذ قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]. ولا غرابة في أن يطلب الأنبياء إلحاقهم «بالصالحين»، وإن كان هذا اللقب يطلق أيضاً على من دونهم من الأولياء، لأن «الصالح» بمعناه العام هو الإنسان الكامل الذي لا يعصي الله تعالى ولا يهُمّ بمعصية، والذي يُختَم له بالخاتمة الحسنى والسعادة الأبدية، قال الإمام القشيري تعليقاً

على قوله تعالى هنا: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ ﴾: «فيه دليل على وجوب سياسة الكبار لمن هو في رعيتهم، وعلى حسن الاحتراز مما يخشى وقوعه، وأن ذلك مما تقتضيه عادة النفس».

ثم حكى كتاب الله ما قام به سليمان من البحث عن الطائر المسمّى بالهدهد، حيث أنه لم تقع عينه عليه، فلم يدرِ هل هو حاضر أم غائب ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ﴾ ثم تَساءل سليمان ـ فيما إذا كان الهدهد غائباً ـ هل تغيَّب من تلقاء نفسه في مهمة ولعذر مقبول، أم إنما ذلك منه مجرد غفلة وإهمال، حتى إذا لم يكن لغيبته مبرر عاقبه العقاب اللائق، وذلك قول سليمان فيما حكاه عنه كتاب الله: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً، أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ، أَوْلَيَاتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وقد سأل ابنُ عباس عبدَ الله ابن سلام: «لِمَ تفقَّد سليمان الهدهد دون سائر الطير. فقال له: احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه، وكان الهدهد يعرف ذلك دون غيره من الطير فتفقده». لكن سليمان لم يلبث إلَّا قليلاً حتى أقبل عليه الهدهد رافع الرأس، مفتخراً بأن عنده من العلم ما ليس عند سليمان، وأنه حَمَل إليه خبراً يعدّ في بابه اكتشافاً مهماً جديراً بالنَّظر والإمعان ﴿ فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَقَالَ أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ قال جار الله الزمخشري: «ألهم الله الهدهد فكافح سليمان ـ أي واجهه ـ بهذا الكلام، على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة، والعلوم الجمة، ابتلاءً له في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خَلْقه وأضعفه مَن

أحاط علماً بما لم يحط به، لِتَتَحَاقَر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكونَ لطفاً له في ترك الإعجاب، الذي هو فتنة العلماء، وأعظِمْ بها فتنة».

ومضى الهدهد يعرض على سليمان الخبر المثير الذي يصف فيه دولة سبإ، مشيراً إلى نظام الحكم القائم في هذه الدولة، وإلى ما هي عليه من ازدهار وتقدم ورخاء، ومصرحاً بأن امرأة هي التي تجلس على عرشها العتيد، ومبيِّناً نوع الدين الذي تدين به هي وقومها، وأنه من قبيل الديانة المجوسية، فقال وهو يخاطب سليمان: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾.

ثم عقّب على ذلك مستنكراً ما وجد عليه أهل سبإ من عبادة الشمس والسجود لها، بدلاً من عبادة الله والسجود له، معترفاً بأن الله الذي ألهمه معرفة الماء المغيَّب تحت الأرض هو الذي يكشف لخلقه عن كل ما هو سر مغيب عنهم، سواء كان في السماء وطِبَاقها، أو في الأرض وأطباقها، وللتعبير عن هذه المعاني حكى عنه كتاب الله قوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، فَهُم لَا يَهْتَدُونَ، أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلهِ، الذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، وختم الهدهد خطابه لسليمان، مذكّراً له بأن الملك الحق والدائم هو ملك الله ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وأن العرش الذي لا تدانيه العروش، والعظيم

بسائر وجـوه العظمة، هو عرش الله القاهر فوق عباده ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾
إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى
فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ
أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى
مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَا

ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ
مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ
أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ
رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

عباد الله

نحن الآن بصدد تفسير الربع الأخير من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، ونظراً لما يتضمنه هذا الربع من المواقف الفريدة، والمحاورات العديدة، المتعلقة بقصة سليمان وملكة سبإ، وما تقتضيه تلك المواقف والمحاورات من تحليلات، وتوحي به ذيولها من توجيهات، فسنفرد الثمن الأول منه بحصة اليوم، وسنخصص للثمن الثاني منه حصة الغد بحول الله وقوته، وتبتدىء حصة هذا اليوم من قوله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ ﴾ وتنتهي عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل الحديث عن قصة سليمان، ويبرز جوانب متنوعة من شخصيته، وسياسته الحكيمة في رعيته، مما فيه عبرة للمعتبرين، من المسؤولين القدماء والمحدثين، فها هو سليمان بعدما استمع إلى الهدهد يتحداه ويقول: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عِلْماً، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ يجيبه بكل هدوء

قائلاً: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ﴾، فلم يسرع إلى ما توعده به من العذاب أو الذبح لأول ما وجده غائباً، طبقاً لما قال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾، وإنما وقف عند حد ما التزم به في الأخير إذ قال: ﴿ أَوْلَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾، فالأمر مرهون في النهاية بالحجة والبرهان، لا بالسطوة والسلطان، ومراد سليمان بالنظر في صدق الهدهد أو كذبه عندما قال له: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ ﴾ هو التأمل فيما اعتذر به الهدهد عن غيبته، وفيما أخبر به مما اكتشفه في رحلته، عملاً بما يجب من التحري في تلقي الأخبار، والتعرّف على الأسرار، ومن هذه الآية التي حكاها كتاب الله على لسان سليمان استنبط الإمام القشيري في كتابه (لطائف الإشارات) «أن خبر الواحد لا يوجب العلم، بل يجب التوقف فيه على حد التجويز، وأنه لا يُطرَح، بل يجـــب أن يُتعرَّف هل هو صدق أم كذب، وأن الوالي يمنعه عدله من الحيف على رعيته، ويقبل عذر من وجده في صورة المجرمين إذا كان صادقاً في معذرته». ونفس الرأي أخذ به القاضي أبو بكر (ابن العربي) وتابعه عليه القرطبي في تفسيره حيث قال: «في قوله ـ أصدقت أم كنت من الكاذبين ـ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة، وفي الصحيح: «ليس أحد أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل»، وحيث أن «الهدهد هو الذي قال ما قال لزمه الخروج من عهدة ما قال»، وقد كان لما أحاط به من العلم بشأن مملكة سبإ، واقتناع

سليمان بصدقه في الخبر أثر بالغ في ترشيحه للسفارة عنه، ونقل كتابه إلى الملكة الجالسة على عرشها، فأصدر إليه سليمان أمره قائلاً: ﴿ اذْهَب بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

ويلاحَظ على سليمان أنه لم يصدع بهذا الأمر إلى الهدهد فوْر ما سمعه يقول: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾، وإنما اهتز لذلك، ونطق بأمره، بعدما سمعه يقول: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾، فالأمر هنا لا يتعلق بالتوسّع في الملك، والمزيد من السطوة والسلطان، بقدر ما يتعلق بنشر التوحيد وعبادة الله، بدلاً من عبادة الطبيعة والأوثان، وإنما قال: ﴿ فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ﴾ بضمير الجمع بدلاً من (ألْقه إليها) لينسجم مع قوله قبل ذلك: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ فالكتاب موجّه إليها وإلى قومها، بدليل قوله فيه حسبما يأتي: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ بصيغة الجمع أيضاً، ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ألق الكتاب وتنحَّ عنهم، التزاماً للأدب، لكن كن حريصاً على استيعاب ما يدور بينهم من مراجعة في القول حول مضمون الكتاب ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال أبو حيَّان: « وفي قوله: ﴿ اذْهَب بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على إرسال الرسل من الإمام إلى المشركين يبلغهم الدعوة، ويدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك».

وهنا انتقل كتاب الله إلى حكاية ما دار بين ملكة سبإ وقومها

حول كتاب سليمان، بعد وصول كتابه على يد سفيره الناصح الناجح ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ ، وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ، قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ، قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

ومصداقاً لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الآية : ١٧٦]، استخرج علماؤنا رضوان الله عليهم بثاقب فكرهم من هذه القصة عدة توجيهات قرآنية، لها تأثير عميق في الحياة الإسلامية:

ـ أولها التزام الشورى في الشؤون العامة، وعدم الاستبداد بالبتّ فيها وتصريفها، ودعوة أهل الحل والعقد للنظر فيها، وعرض ما جدّ من الأحداث على أنظارهم دون تحفظ ولا اختزال، وهذا التوجيه يدل عليه ما حكاه كتاب الله من قول ملكة سبإ: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴾. وقولها: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾. وقد كان مجلس الشورى على عهد ملكة سبأ مؤلفاً من ثلاثمائة وثلاثة عشر عضواً، كل عضو يمثل عشرة آلاف، حسبما رواه التاريخ.

ـ والتوجيه الثاني تصدير الكتب والمراسلات باسم الله

الرحمٰن الرحيم، وهو استفتاح شريف في مبناه، فريد في معناه، ثم ذِكْر اسم المرسِل للكتاب قبل اسم المرسَل إليه، وقد كان رسم المتقدمين إذا كتبوا كتاباً أن يبدأوا بأنفسهم: من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار. روى الربيع عن أنس رضي الله عنه قال:«ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله ﷺ، وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدأوا بأنفسهم». على أن البدء باسم المكتوب إليه جائز وشائع، وقد يكون هو المناسب في بعض الأحيان، ومأخذ التوجيه الثاني هو قول ملكة سبإ: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وإنما وصفت ملكة سبإ كتاب سليمان بأنه (كتاب كريم) لأنه صيغ في لهجة مهذبة لا يشتم منها طمع في الملك، ولا رغبة في التوسع، وإنما تتضمن دعاءً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ أي لا تتكبّروا ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي مذعنين منقادين، مستعدين لمفارقة الشرك والدخول في ملة التوحيد، ووصْفُ الكتاب بالكريم هو غاية الوصف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ قال الإمام القشيري: «لما عرفَتْ قدر الكتاب وصَلَت باحترامها إلى بقاء ملكها، ورُزِقت الإسلامَ وصحبةَ سليمان».

ـ والتوجيه الثالث ما يجب أن تكون عليه الرعية ونوابها من نصرة الراعي، والاستعداد لبذل النفس والنفيس في حماية الأوطان والدفاع عنها كلما توقعت خطراً أو تعرَّضت لخطر، والالتحام التام بين الراعي والرعية، مع الاعتراف بالمنزلة السامية التي تمتاز بها الرياسة القومية، وذلك ما يتضمنه جواب الملأ لملكة سبإ، إذ

﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم أضافوا قولهم: ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾.

ـ والتوجيه الرابع ما ينبغي أن يكون عليه الراعي من حصافة الرأي وتقليب وجوه النظر، والجنوح إلى الوسائل السلمية في معالجة المشاكل السياسية، بدلاً من الوسائل الحربية، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه ملكة سبإ صراحة وضمناً، إذ ﴿ قَالَتِ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾، تريد بقولها أن الاشتباك في الحرب مع الغزاة ليس مضمون النتيجة، فقد تكون الغلبة لهم، والهزيمة لمن وقفوا في وجوههم، وتتعرض بلادهم بذلك للخراب والدمار، ويسلك الغزاة في معاملتهم مسلك الانتقام وأخذ الثأر، ولفظ (الملوك) في هذا السياق يعني «الملوك الغزاة» ومثلهم «الغزاة ولو كانوا غير ملوك» فالأمر يتعلق بالغزو والتغلب والاستيلاء على البلاد عَنْوة أولاً وأخيراً، قال جار الله الزمخشري: «وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية، ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حراماً فقد كَفَر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين».

والظاهر أن ملكة سبإ غلب على ظنها أن سليمان يطمع في ملكها ويريد مقاسمتها ثروتها، لا أن له هدفاً دينياً سامياً من وراء دعوتها ودعوة قومها إلى موالاته، والدخول في زمرته، بالرغم مما تضمنه كتابه إليها صراحة في الموضوع، فوجهت له وفداً يترأسه

مبعوث خاص من كبار قومها، حاملاً معه هدية عظيمة، وقد تنافس رواة الإسرائيليات في وصف هذه الهدية وتفصيل أنواعها، ولا يوجد لروايتهم سند إسلامي صحيح، وإلى خبر هذه الهدية يشير قولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، إلاّ أن سليمان لم يقبل هديتها ورد وفدها على عقبه، لأن الهدف الدّيني الأسمى الذي قصده من وراء دعوتها لا تعدل به أيّ هدية، ولا تقبل فيه فدية، والهدية في مثله إنّما هي رشوة كما قال القاضي أبو بكر (ابن العربي)، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أي جاءه وفد ملكة سبإ ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ، فَمَا ءاتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتَاكُم، بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وحيث أن الملأ من قوم سبإ عندما عَرضت عليهم ملكتهُم كتاب سليمان أظهروا منتهى الاعتزاز بقوّتهم وشجاعتهم، ولم يبادروا إلى الاستجابة لدعوته إذ ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اضطر سليمان إلى أن يرد عليهم بما هو من جنس لهجتهم، فقال لرئيس وفدهم ولمبعوثهم الخاص مؤكداً قوله بالقَسَم: ﴿ارْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَاتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها، لأنها جنود ملك فريد من نوعه، جمع النبوة والملك، وحيث أن ملكة سبإ ذكّرت الملأ من قومها بأن الغزاة إذا دخلوا قرية «أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة»، خشيةَ أن يقع لمملكتها، إذا اشتبكت مع سليمان في حرب، ما وقع لغيرها، ها هو سليمان ينذرها وقومها بنفس المصير إذا لم يأتوه مسلمين، فيصبح ما توقعوه أمراً واقعاً، وها هو يردد نفس المعنى ونفس

اللفظ إذ يقول لرئيس وفدهم ومبعوثهم الخاص: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّـةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ ومعنى ذلك أنهم يتعرضون لسلب مُلكهم، والنفي من أرضهم، والعيش في ديار الغربة عيشة الصغار والهوان.

غير أن سليمان عليه السلام لم يلبث إلاّ قليلاً حتى أُوحِي إليه بأن ملكة سبإ قد اقتنعت هي وقومها بأنها لا تستطيع الوقوف في وجه ملك مؤيد بالنبوة من عند الله، وأنها لا يسعها إلاّ المسير إلى خدمته والدخول في زمرته، فقرر أن يفاجئها عند وصولها إلى حضرته بأمر يُبرز قدرة الله الواحد الأحد، الذي يدعوها إلى الإيمان به، كما يبرز لها ولقومها ما أكرمه الله به من تسخير قوى الطبيعة وطاقاتها في أقل من لمح البصر، دون جيش ولا حرب، واختار أن يكون ذلك الأمر هو نقل عرشها بالذات إلى تَخْت مملكته، قبل وفادتها عليه ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾، فتبارى في تنفيذ أمره عفريت من الجنّ وعالِم من الإنس، وتعهد الأول بأن يأتيه بعرشها بكل أمانة دون تبديل ولا تغيير، قبل أن يقوم من مجلسه، بينما تعهد الثاني بأن يأتيه بعرشها في طرفة عين، وكان المؤهِّل الأكبر المرشِّح للقيام بهذه المهمة الخطيرة في نظر العفريت هو ما يتمتع به بين الجنّ من القوة، بصفته أقوى الجميع، بينما كان المؤهِّل الأعظم للقيام بها في نظر العالِم من الإنس ـ وهو صاحب سليمان ـ ما يتوفر عليه من علم الكتاب، الذي هو «علم إلٰهي المصدر» تتضاءل دونه «القوة» المجرّدة من العلم، ولا سيما إذا كان قبساً من

العلم الإلّهي المحيط، ففاز علم الثاني على قوة الأول في المباراة، وذلك شأن العلم في كل حين، وعن هذه المباراة وما دار فيها من حوار مع سليمان يتحدث كتاب الله إذ يقول: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾، وشاء الله أن تكون هذه الكرامة المنبثقة عن علم الكتاب، التي ظهرت على يد صاحب سليمان، إشراقة إلّهية، سابقة على ما كشف عنه لخلقه في هذا الزمان، من علم أسرار الجو والطيران.

ولعل البعض يستغرب ويتساءل كيف تحقق هذا الأمر على يد «صاحب سليمان» وهو مجرد تابع، ولم يتحقق على يد سليمان نفسه وهو النبي المتبوع الذي قال الله في حقه وحق والده: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْماً ﴾ وقال في كتابه على لسان سليمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ لكن من تذكر ما واجه به الهدهد ـ وهو مجرد طير من الطيور ـ سليمان عليه السلام عندما قال له فيما حكاه كتاب الله سابقاً: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ لا يستغرب من هذا الأمر شيئاً، فالله تعالى هو الذي أحاط بكل شيء علماً، على أن مثل هذا السؤال قد سبق إلى وضعه أحد علماء التصوّف الكبار وهو محمد بن علي الترمذي الحكيم ضمن الأسئلة التي وضعها لتمحيص المدعين في طريق القوم من غيرهم واختبارهم ـ ومجموعها مائة وخمسة وخمسون سؤالاً ـ تصدى للجواب عنها جميعاً (ابن عَرَبي)

الحاتمي في فتوحاته المكية، وخلاصة جوابه عن هذا السؤال ما معناه: أن العلم بهذا الأمر لم يُطْوَ عن سليمان، وإنما طُوِيَ عنه الأذن في التصرف به، تنزيهاً لمقامه، كما أن ظهور هذا الأمر على يد «صاحب سليمان» كان أتمَّ في حق سليمان، ما دام هذا الصاحب تابعاً له، مصدقاً بنبوته، قائماً في الخدمة بين يديه تحت أمره ونهيه، وكل من رأى بركة هذا الرسول التي عادت على صاحبه ـ سواء أكان من أتباعه الأولين، أو من الوافدين عليه من مملكة سبإ ـ سيزداد رغبة في متابعته والتعلق به والدخول في دينه، حتى ينال ما ناله هذا التابع، إذ متى كان أمر التابع بهذه المثابة كان أمر المتبوع فوق كل تقدير. وواضح أن كرامة الولي متى ثبتت ولايته تكون ملتحقة بمعجزة النبي، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوّته، لم تكن الكرامة تظهر على يد الخواص من أمّته، وإلى مثل هذا المعنى ينظر قول الشاعر:

والمرء في ميزانه أتباعُه فاقدُرْ إذن قدر النبي محمد

والآن وقد حقق الله لسليمان على يد صاحبه تلك الأمنية الغالية، وأصبح وصول ملكة سبإ إلى بلاطه قاب قوسين أو أدنى، وتمّ إعداد المفاجأة الكبرى لها بحضور عرشها بين يديه، قبل أن تُقدِم هي عليه، لترى رأي العين أن مُلْك سليمان مؤيد من الله بمعارف وأسرار، لا تقف دونها الحصون والأسوار، ها هو يشكر الله تعالى على ما أحاطه به من مظاهر العناية الإلّهية، وها هو كتاب الله يصف مشاعره الدفينة، في أبهى حلّة وأجمل زينة، إذ يقول: ﴿فَلَمَّا رءاهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، لكنه سلك مسلك الأدب مع الله، فقابل نعمته بالشكر على الامتنان، لا بالاستعلاء والطغيان، فنجح في الامتحان، وفاز في الرهان، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ
تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ
قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾
وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ
رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ

عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ
تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ
لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مُهۡلَكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَانظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ إِنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ
وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا
ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ
أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

عبـاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

بالكلام على الآيات الخمس الأولى في هذه الحصة نكون قد أشرفنا على الانتهاء من قصة سليمان وملكة سبإ، كما وردت في سورة النمل المكية، فهذه الآيات الكريمة تتحدث عن المرحلة الأخيرة من نفس القصة، حيث تصل ملكة سبإ إلى بَلاط سليمان، فتُفاجَأ بعرش سليمان وبجانبه عرش آخر، تخاله شبيهاً بعرشها إن لم يكن هو هو، وتفاجأ بقصر فريد في تخطيطه البديع، وهندامه الجميل، على خلاف ما هو متعارف في بقية القصور، وتُفاجَأ بملك حكيم تعلوه هيبة الملك، ويشرق عليه نور النبوّة، فلا يسعها إلاَّ أن تعلن ـ عن اقتناع وطواعية ـ دخولها في ملّته، والتزامها بموالاته وطاعته، ثم تعود إلى مملكتها

محفوظة الكيان، معززة السلطان.

ولتتضاعف عناصر المفاجأة التي أعدّها سليمان لملكة سبإ أَمَرَ بتنكير عرشها وإدخال تغييرات عليه في الشكل والْهيئة، كما يتنكر الشخص حتى لا يعرفه بقية الناس، وقَصْدُ سليمان من ذلك امتحان قوة ذكائها وصدق فراستها، وذلك ما حكاه كتاب الله عنه إذ قال لأعوانه من رجال بلاطه: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرَ أَتَهْتَدِيَ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وإنّما وجَّهوا الخطاب إلى ملكة سبإ بصيغة التشبيه (أهكذا عرشك) بدلاً من (أهذا عرشك) لئلا يكون ذلك تلقيناً لها، فيفوت الغرض من السؤال، وهو امتحان ذكائها، وإنما اختارت هي أن يكون جوابها بصيغة التشبيه أيضاً دون نفي ولا إثبات، حيث قالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، نَظَراً لما لاحظته من تغيير في شكل عرشها وهيئته، فقابلت تشبيههم بتشبيهها، وكانَ ذلك منتهى النجاح في الامتحان، ومنتهى البراعة في البيان، ولو قالوا لها أهذا عرشك لقالت نعم هو هو.

وبمناسبة قدوم ملكة سبإ على بَلاط سليمان، واستقبالها فيه، يظهر أن الحديث دار بين رجال بلاطه حولها وحول الملَّة التي كانت عليها هي وقومها من قبل، والملَّة التي أكرمهم الله بها وكانوا فيها من السابقين الأولين، فكان كتاب الله لحديثهم بالمرصاد، وسجله على لسانهم إذ يقول: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

وفوجئت ملكة سبإ من طرف رجال البلاط السليماني بدعوتها لمشاهدة بِرْكَة كبرى بساحة قصره العظيم، وكان بهذه البركة ماء كثير عميق، وقد غطيت بالزجاج الأبيض الصَّافي، والأسماكُ تسبح في مياهها كأنَّما تسبح في بحر أو نهر، بحيث يُرَى الماء تحت الزجاج في منتهى الصفاء، ولا يُميَّز بين الزجاج والماء، فلما طلبوا من ملكة سبإ ولوج تلك البركة ضمَّت أطراف ملابسها، وكشفت عن ساقيها، على عادة كل من يخوض غمرات الماء، ظنّاً منها أن البركة عارية من كل غطاء، لكن «الدليل» الذي كان يرافقها في زيارة القصر بادر بتنبيهها إلى أن سطح البركة مصنوع من الزجاج الأملس الشفاف، وأنه من أجل ذلك يبدو الماء على غاية الصفاء، بالرغم من ذلك الغطاء، وإلى هذا المشهد المثير يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً، وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ قال مجاهد: «الصَّرح هنا البِرْكة» وقال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: «الصَّرح بركة ماء ضرب عليها سليمان قوارير ألبسها إيَّاه» و«اللُّجة» الماء الكثير، و«الممَّرد» المملس، ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها، والفتى الأمرد الذي لم تنبت له لحية، و «القوارير» من زجاج.

وكان مسك الختام للزيارة التي قامت بها ملكة سبإ إلى بلاط سليمان هو إعلانها لمفارقة ما كانت عليه من الشرك «الذي هو ظلم عظيم»، والدخول مع سليمان في ملَّة التوحيد، التي لا تومن إلاّ بإلَه واحد هو ربّ العالمين، وكما التجأ آدم وزوجه إلى

الله إذ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، التجأت ملكة سبإ بدورها إلى ربّها، تائبة من شركها، مستغفرة لذنبها، إذ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ﴾، مستعملة نفس الصيغة التي أجاب بها إبراهيم ربّه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وإنما قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾إشارةً إلى مؤاخاتها له في الدّين، ولم تقل «وأسلمت لسليمان» تفادياً من الوقوع في شرك جديد، فالمومن الموحّد إنّما يسلم وجهه لله وحده لا لغيره، وملكة سبإ وسليمان، يصدق عليهما معاً في هذا المقام أنهما من «عباد الرحمـٰن» قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢]. وتتفق روايات التاريخ على أن سليمان أقرّ ملكة سبإ على ملكها، فعادت إلى مملكتها عزيزة مكرّمة، أما زواجه بها فلم يرد له ذكر في الكتاب ولا في السنة الصحيحة.

وهنا يُنهِي كتاب الله الحديث عن قصة سليمان، التي تفرعت عنها وتخللتها قصة النمل وقصة الهدهد وقصة ملكة سبإ، فاستغرقت من هذه السورة ـ سورة النمل المكية ـ اثنتين وثلاثين آية، لينتقل منها إلى الحديث عن قصة صالح، التي سبق له ذكر جانب منها في سورة الأعراف: ٧٣، وسورة هود: ٦١، وسورة الشعراء: ١٤٢، لكنه يعرضها في نسق جديد يتضمن عناصر جديدة، فيقول:﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً اَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَـٰنِ يَخْتَصِمُونَ ﴾، وهاهنا يؤكد كتاب الله للمرة

الثالثة أن الله إنّما أرسل إلى ثمود أخاً لهم ورسولاً من أنفسهم ينتسب إلى نسبهم، ليألَف ويُولَف، ويسهل عليهم التّفاهم معه، ويأخذ بيدهم إلى طريق الهدى والحق المبين، وإنما أشار إشارة خاطفة إلى انقسام قوم صالح بالنسبة لدعوته إلى فريقين اثنين، اكتفاءً بما سبق له من وصفهما بتفصيل في سورة الأعراف إذ قال: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ، قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ، قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]. وقد كان الملأ الذين استكبروا من قوم صالح «آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم» وكانوا يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً، فأطغاهم ما نالوه من الترف وسعة العيش، وأضافوا إلى الكفر بنعمة الله الشرك به والكفر برسله، ثم أخذ كتاب الله يبين كيف كان صالح يتلطف بقومه، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ، قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾. واستعجالُ قوم صالح بالسيئة قبل الحسنة يتجلّى في تحدِّيهم له، قائلين أحياناً: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقائلين له أحياناً أخرى: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠]، بينما باب التوبة مفتوح في وجوههم للحصول على المغفرة والثواب، بدلاً من المؤاخذة والعقاب ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴾. ومعنى ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ تشاءمنا بك وبمن معك من المومنين، إشارةً إلى ما أخذ ينزل بهم من الشدّة والقحط، بعد السعة والخصب، ابتلاءً لهم من الله حتى ينيبوا إليه، ومعنى ﴿ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أن مَرَدّ السعة والضيق، والخصب والقحط، ليس إلى أحد من البشر، وإنّما هو قضاء الله وقدره، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم، ولا يظلم ربك أحدًا، ويشبه قولَ ثمود هنا في التشاؤم بصالح قولُ بني إسرائيل في التشاؤم بموسى، إذ قالوا له: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الاعراف: ١٢٩]، قال القرطبي: «لا شيء أضرّ بالرأي ولا أفسد للتدبير، من اعتقاد الطِّيَرة، ومن ظن أن خُوار بقرة ، أو نعيق غراب، يرد قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل». ثم لفت صالح أنظار قومه إلى أن ما هم عليه من عناد وفساد، وما هم فيه من ضلال وعماء، هو السبب الحقيقي لما حلّ بهم من الضيق والابتلاء، فقال لهم: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وهاهنا يحسن التنبيه إلى أن ما دار بين صالح وقومه من تشاؤمهم به وبمن معه من المومنين، ورده عليهم ردّاً مفحماً بإبطال الطيرة من أصلها، لم يرد ذكره فيما سبق أن حكاه كتاب الله من قصة صالح، فهو عنصر جديد في سياق قصته بهذه السورة.

وإذا كان كتاب الله قد سلك مسلك الإجمال في ذكر المفسدين من قوم صالح الذين كانوا يقفون في وجهه، فحكى

عن صالح في سورة الشعراء تحذيره لقومه منهم إذ قال لهم: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الآيتان: ١٥١ ـ ١٥٢]، فها هو يسلك مسلك التفصيل في هذه السورة ولا يكتفي بالإجمال، إذ يقول: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، وبذلك اتّضح أن زعماء الشرك والضلال من قوم صالح كانوا تسعة أشخاص كرّسوا جهودهم للفساد والإفساد، بحيث لا يتخلل نشاطَهم ولو مثقالُ ذرة من الصلاح والإصلاح ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾. وهنا كشف كتاب الله الستار عن عنصر جديد من عناصر قصة صالح، ألا وهو تآمر أولئك المفسدين، وتحالفهم على مباغتة صالح وقتله وقتل أهله في غسق الليل، ثم على الحَلِف لأولياء القتيل أنهم ما شهدوا مصرعه ولا مصرع أهله، حتى يعتقدوا صدقهم ولا يؤاخذوهم بدمه ودم أهله ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ لكن الله تعالى الذي ينصر أولياءه عصم رسوله منهم، وعاجلهم بعقابه الشديد فجأة وعلى غِرّة ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وحيث أن كتاب الله سبق أن وصف نوع العذاب الذي حلّ بهم في سورة الأعراف إذ قال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الآية: ٧٨]، وفي سورة هود إذ قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الآية: ٩٤]. اكتفى في هذه السورة بذكر المصير المفجع الذي

آل إليه أمر العتاة التسعة المفسدين، ومن ائتمر بأمرهم من القوم الضّالين، فقال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ، إِنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

وانجلت معركة الحقّ التي كان يخوضها صالح عليه السلام لإزهاق الباطل ـ كما هو المنتظر دائماً ـ بنجاته ونجاة من معه من المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، مصداقاً للوعد العام الذي وعد الله به كافة الرّسل والأنبياء في سورة الأنبياء، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الآية: ٩].

ومن قصة صالح وما فيها من المَثُلات والعبر، انتقل كتاب الله للحديث مرّة أخرى عن قوم لوط، وما ابتدعوه من الفاحشة الكبرى التي غطت على بقية الفواحش، حتى عم مقتها وانتشر، بين كافة البشر، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَاتُونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.



الثمن الأول من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ
عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَ۬لَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ
لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَ۬لَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا

دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ
أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ
رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣
أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ٦٤ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ
إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥

الثمن الأول من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نشرع في تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، وسنقتصر فيها على تفسير الثُّمن الأول منه، لما يلزم من استقصاء القول فيه، وذلك ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

لقد كانت نهاية الربع الماضي بداية للحديث عن آخر قصة في سورة النمل المكية، وهي قصة لوط مع قومه، وهذه القصة تَجدَّد ذكرها في ثمان سور من القرآن الكريم، فتولى كتاب الله في سبع منها التشهير بعمل قوم لوط والتنفير منه، وذكر العقاب الإلَهي الصارم الذي عاقبهم به على فاحشتهم الكبرى، ألا وهي سور: الأعراف، وهود، والحِجْر، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والقمر، واقتصر في واحدة منها وهي سورة الصافات على وصف عقابهم دون وصف عملهم، اكتفاءً بما رددته السور الأخرى، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٨٠، ٨١]. وقال تعالى في سورة هود: ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِيَ﴾ - يشير إلى بنات قومه ويدعوهم إلى الزواج بهن - ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيَ، أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ، قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [٧٨، ٧٩]. وقال تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ قَالَ إِنَّ هَـٰؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾، وفيها أيضاً: ﴿ قَالَ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِيَ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ [الآيات ٦٨، ٦٩، ٧١] وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَـٰلَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنَ اَزْوَٰجِكُم، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [١٦٥، ١٦٦]. وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [٢٨، ٢٩]. وقال تعالى في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [٣٧]. وقال تعالى في نهاية الربع الماضي من سورة النمل: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [٥٤، ٥٥].

ومن عرض هذه الآيات البيِّنات في صعيد واحد يتضح ما كان لعمل قوم لوط من أبعاد خطيرة، وما يؤدي إليه عند انتشاره

من مفاسد كبيرة، فقد أوحى إليهم شيطانهم أن قضاء الشهوة هو الهدف الأول والأخير من وجود الغريزة الجنسية، وأنه لا معنى لوجود أيّ هدف أخلاقي أو اجتماعي من ورائها، وأنه لا ضرورة تدعو إلى التستر بها وكتمانها، وكانوا يحملون الكراهية والبغض للنساء عموماً، ويتبجّحون بإعلان النفور من معاشرتهن في كل المناسبات ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ ﴾ - ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ - ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ - ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ - ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾. وهذا الوضع الشاذ يؤدي عند استفحال عدواه إلى رفض الذكور للزواج، اكتفاءً بأمثالهم، ويتبعه في نفس الوقت - بصورة آلية - اكتفاء الإناث بأمثالهن، فلا يبقى أيّ حافز يحفز على الزواج وتأسيس الأسرة، لا بالنسبة للرجال ولا بالنسبة للنساء، وبذلك يقع القضاء التام على ملكة الإخصاب والإنجاب، لأنها لا تؤدي دورها إلاّ عند تزاوج الذكور والإناث، فيتوقف النسل في البداية، ثم ينقطع النسل في النهاية، وهكذا يتعرض المجتمع البشري - متى انتشرت فيه هذه العدوى وسادت العلاقات الجنسية - للاختلال والانحلال، ويتعرض النوع الإنساني تدريجاً في مختلف الأقطار للفناء والانقراض، وذلك خلاف مراد الله ونقيض حكمته، من حمل الإنسان للأمانة والجلوس على عرش خلافته ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنسَـٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومن هذه النبذة القصيرة يتبين السر في التشهير بعمل قوم لوط والتنفير منه في كتاب الله، والتعبير عنه في ثلاث سور مختلفة بلفظ (الفاحشة) مُعرَّفاً بالألف واللام، إبرازاً لشدة قبحه، وتنبيهاً إلى أنه أم الفواحش وأكبرها وأخطرها جميعاً، لما فيه إذا استفحل أمره من اخطار بالغة على نظام المجتمع، ومصير النوع الإنساني الذي يرتبط به عمران العالم. أضف إلى ذلك ما هو مركوز في العقول والفِطَر من قبحه وشناعته والنفور منه، حتى أصبح لفظ (الفاحشة) أصدق تعريف له، ولذلك خاطبهم لوط عليه السلام، كما حكى عنه كتاب الله، قائلاً لهم في سورة الأعراف: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٨١]، وفي سورة الشعراء: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [١٦٥]، وهنا في سورة النمل: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

وواضح أن من انحرف عن طريق الفطرة السويّ، ولم يستجب لداعي الميل الطبيعي المركوز في الذكر نحو الأنثى والأنثى نحو الذكر، وكرَّس حياته لمجرد قضاء الشهوة البهيمية من دون تحقيق أيّ هدف إنساني نبيل من ورائها، يكون قد بلغ الغاية في «الإسراف»، والغاية في «العدوان»، والغاية في «الجهل» بكلا معنييه: معناه المضاد للعلم، ومعناه المنافي لمكارم الأخلاق. و«الإسراف» في الشيء هو الزيادة المفسدة للغرض المقصود منه.

ولأجل أن نفهم قرار الشوّاذ المنحرفين من قوم لوط بنفي آل لوط ـ وهو لوط وَمَنْ آمن معه ـ إذ ﴿ قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ وتعليل القرار الذي أصدروه في حق لوط وصحبه

بقولهم عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ حسبما حكاه كتاب الله في سورة الأعراف [الآية: ٨٢]، وهنا في سورة النمل، ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة قول لوط وهو يخاطبهم في سورة هود: ﴿ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [الآية: ٧٨] فقد جعل الله أرحام النساء بالنسبة للرجال هي مقر البذر والإخصاب، وبدونها لا يستمر النسل ولا يحصل الإنجاب، وهذه الأرحام طاهرة من الأذى في أغلب الأوقات، فالبذر فيها ممكن متيسر من دون أدنى ضرر ولا خطر، اللهمّ إلّا في فترة الحيض المحدودة، طبقاً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً، فَاعْتَزِلُوا النِّسَآءَ فِي الْمَحِيضِ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [الآية: ٢٢٢]، ومن تعوَّد على الطهارة والنظافة في الجوارح والملابس والأنفاس، يربأ بنفسه أن يقرب مواقع الأقذار والخبائث والأنجاس، ولا يُعرِّض نفسه للأورام والأسقام التي تتولد من ذلك فيتعرض لها المنحرفون من الناس.

من أجل ذلك كله حرَّم الله عمل قوم لوط وشهَّر به في جميع الأعصار، ولو كان قليل الوقوع محدود الانتشار، كما حرَّم قليل الخمر ولو لم يكن مثل كثيره مُفضياً إلى الإسكار، لأن المعصية تدفع إلى مثلها، والعدوى تُضاعِف من فعلها، و (سدُّ الذرائع)، من أحكم وأوجب الشرائع.

وقد عرفت الشريعة الإسلامية من عقوبات هذه الفاحشة في الحالات القليلة التي واجهتها عقوبة الإحراق والرَّجم والقتل

والجَلْد والتعزير، وهذه العقوبات كلُّها طبقت عليها أيضاً خارج العالم الإسلامي في فترات مختلفة، حسبما تؤكده المصادر الأجنبية، ولا تزال القوانين الوضعية في كثير من أقطار العالم تدينها وتعاقب عليها حتى اليوم.

أما العقاب الإلّهي الذي عوقب به قوم لوط على فاحشتهم الكبرى وما كانوا يعملونه من مختلف السيئات، فقد فصَّله كتاب الله في سورة هود إذ قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [٨٢،٨٣]، وفي سورة الحِجْر إذ قال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [٧٣، ٧٥] وأجمله كتاب الله في هذه السورة بعد أن تحدث عن لوط والناجين من أهله إذ قال: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾، لأنها كانت متواطئة معهم وبقيت بجانبهم، فكانت من الهالكين ﴿ وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِم مَّطَراً، فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وإنما دخل في هذا العقاب الكبير والصغير، لسكوت الجُملة عليه والجماهير، فكان منهم فاعل، وكان منهم راضٍ، فعوقب الجميع، وبقي الأمر في العقوبة مستمراً على الفاعلين، إلى يوم الدين».

وفي ختام القصص التي قصَّها الله في هذه السورة على رسوله المصطفى، تثبيتاً لفؤاده، وتحذيراً لعباده، خاطبه الحق

سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ فدعاه إلى حمده تعالى على نصرة المحقين، وهزيمة المبطلين، والسلام على أصفيائه الأمناء المتقين، الذين بلَّغوا الرسالة وأَدَّوْا الأمانة، وجاء ذلك بمنزلة «صدر الخطبة» الذي يكون تمهيداً لما يليه من براهين الحق القاطعة، وحججه الساطعة.

قال جار الله الزمخشري وتابعه أبو حيان: «أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات، الناطقة بالبراهين على وحدانيته، وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه المصطَفين من عباده، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعثٌ على التيمن بالذِّكْرَيْن والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يُلقَى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المُسمِّع، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر، هذا الأدب، فحمدوا الله عز وجل، وصلُّوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسِّلون، فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني والحوادث التي لها شأن».

وقد بادر كتاب الله عقب حمد الله على نعمه وآلائه، والسلام على أصفيائه، بعرض دلائل وحدانيته وقدرته وحكمته، منتزعةً من واقع الكون وواقع الإنسان، إذ فيهما أوضح حجة وأسطع برهان.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فقال تعالى منبهاً ومذكّراً، ومبشّراً ومنذراً، والخطاب موجّه لمن يأتي من الأقوام في مستقبل العصور، ويسلك مسلك الأقوام السالفة في الجحود والإنكار والغفلة والغرور، ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، بَلَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، تَعَـٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّنْ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

وختم هذا العرض الباهر الذي كله حق مبين، بخطاب موجّه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكلّ من آمن برسالته إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

الثمن الثاني من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

الثمن الثاني من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثُمن الثاني من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إن تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

بعد أن عرض كتاب الله دلائل وحدانيته وقدرته وحكمته البارزة في الأنفس والآفاق، في الآيات الخمس الأخيرة من الحصة الماضية، وأعقب كل واحدة منها قولَه: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إلٓه إلاّ هو الحق المبين، يلاحظ أن كتاب الله ختم كل دليل بما يناسبه، فختم الدليل الأول بقوله: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾، أي يعدلون عن عبادته، أو يعدلون به غيرَه مما هو مخلوق مخترع. وختم الدليل الثاني بقوله: ﴿ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إشارةً إلى أن البعض من الناس يعلم ذلك ويفكر فيه، وختم الدليل الثالث بقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَّكَّرُونَ ﴾، إشارةً إلى توالي النسيان على الإنسان، إذ ينسى ربه الذي كان يدعوه من قبل، وختم الدليل الرابع بقوله: ﴿ تَعَـٰلَى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾، إذ كانت الأصنام والأوثان التي يعبدونها لا تهديهم في بر ولا بحر، ولا ترسل ريحاً طيبة ولا تنزل غيثاً نافعاً، وختم الدليل الخامس بخاتمة تنتظم مجموع تلك الدلائل، حيث خاطب المشركين والكافرين، وكافة الجاحدين والمعاندين في كل حين، متحدياً اياهم، مطالباً لهم بالحجة والبرهان، والكف عن التخريف والهذيان: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

ثم أعرب عن إحدى العقائد الأساسية في ملّة التوحيد، ألا وهي انفراد الحق سبحانه وتعالى بعلم الغيب من دون أحد من خلقه ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ومن ذلك انفراده وحده بعلم وقت الساعة المحدود، وما يصاحبها من نشر وحشر، وعرض وحساب، وثواب وعقاب ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ولفظ «أيان» هنا بمعنى متى، وهي مركّبة من أيّ والآن، وهو الوقت، أي لا يعرفون متى تقوم الساعة ولا متى يبعثون. وعن هذه الآية تفرع قوله تعالى في بداية هذا الثُمن: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ إشارةً إلى أن المشركين والكافرين والجاحدين في كل عصر اختلط عليهم الحابل بالنابل في شأن النشأة الأخرى والحياة الآخرة، وكثر منهم الخوض فيها من دون جدوى، وطال جدالهم في أمرها دون علم، فنفاها بعضهم، وشك فيها بعضهم، واستبعدها بعضهم، و«العلم»

هنا بمعنى الحكم والقول، أي تتابع منهم القول والحكم في شأن الآخرة من دون الوصول إلى نتيجة، وأصل «ادَّارَكَ» تدارك، أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل، وإنما تكرر في هذه الآية لفظ «بل» وهو للاضراب، ثلاث مرات، تبعاً لتقلب أحوالهم، وتناقض مواقفهم، ودرجات عنادهم، وحيرتهم الناشئة عن الشرك والكفر والجحود.

وبعد أن وصف كتاب الله حيرتهم البالغة ردَّد ما تناقلته الأجيال في كل عصر عن هذا الصنف الحائر السخيف، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِذَا كُنَّا تُرَٰباً وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ، إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾، وقال تعالى في نفس السياق حكاية عنهم أيضاً: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. والغريب في الأمر أن مزاعمهم تكاد تأتي بنفس الصيغة ونفس المعنى، رغماً عن تباعد العصور، ويغلب عليها طابع السطحية والسذاجة والتقليد الأعمى، كأنَّ من أبدع النشأة الأولى عاجز عن إبداع النشأة الثانية، لا أنه الخالق الذي يبدىء ويعيد، والقادر على أن يأتي بخلق جديد، أو كأنَّ عُمرُ النوع الإنساني على وجه الأرض يقف عند حد عمرهم وعمر آبائهم ولا يمتد وراء ذلك، أو كأنَّ عمر النوع الإنساني كله منذ ظهوره على سطح الأرض إلى أن يأذن الله بانقراضه يعتبر أمداً بعيداً، بينما هو بالنسبة للأرض نفسها ـ فضلاً عن بقية الأكوان المنتشرة في الملأ الأعلى ـ يُعدُّ أمداً قصيراً إلى أقصى الحدود، ولذلك كان الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه

يُقرّبون لأقوامهم أمَدَ البعث، مبالغة في التحذير، وكل آتٍ قريب.

ودعا كتاب الله رسوله الأمين إلى أن يحضَّ الناس، مومنَهم وكافرَهم، على التجول في أرض الله، للتأمل والاعتبار، حتى تحدّثهم عن مصارع الذين أجرموا بأصح الأخبار، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

ونظراً لأن خاتم النبيئين والمرسلين أرسله الله رحمة للعالمين، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحرصُ أشد الحرص على إنقاذ البشر من الضلال، رغماً عما يتحمله في سبيل ذلك من المتاعب والأهوال، وها هو كتاب الله يفرج عنه كربتهم، ويخفف وطأتهم، فيخاطبه قائلاً: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

وحيث أن أعداء الحق من المشركين والمنافقين واليهود ـ على عهد الرسالة ـ كانوا لا ينقطعون عن الكيد للإسلام والمسلمين، والمكر بهم سراً وعلناً، كما تشير إليه الآية السابقة ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ها هو كتاب الله يبشّر رسوله بأن عاقبة مكرهم آتية لا ريب فيها، ويدعوه إلى إنذارهم بقرب حلولها ونزولها بساحتهم قائلاً: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَّكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾، وسيأتي في سورة فاطر المكية قوله تعالى مؤكداً لهذا المعنى: ﴿ وَالذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُوْلَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [الآية: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [الآية: ٤٣]. ومعنى ﴿ رَدِفَ

لَكُم﴾ اقترب لكم ودنا منكم، وهو من رَدِفَ الشيءُ الشيءَ إذا تبعه وجاء في أثره.

وإمعاناً في تسلية الرسول الأعظم وتهدئة دوعِه من كيد الكائدين ومكر الماكرين ذكَّره كتاب الله بأن جحود الكثرة الساحقة من الناس لِنِعم الله المتواصلة، وإعراضهم عنها، وعدم قيامهم بحق شكرها، لن يحول دون استمرار مَدّه، إذ هو الرحمٰن الرحيم، والغني الكريم، فما على رسوله الأمين إلّا أن يواصل أداء رسالته إلى الناس كافة، شكروا أم كفروا، أخلصوا أم مكروا، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ويؤكد هذا المعنى قولُه تعالى فيما سبق من سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً، كُلًّا نُّمِدُّ، هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الآيات: ١٨، ٢٠].

ومعنى ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه القلوب التي في الصدور، من أَكَنَّ الشيء إذا أخفاه. قال جار الله الزمخشري: «يعني أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكايدهم، وهو مُعاقِبهم على ذلك بما يستوجبونه». وقال أبو حيان: «أسند ـ كتابُ الله ـ الإعلانَ إلى ذواتهم، إذ قال في هذه

الآية: ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، لأن الإعلان من أفعال الجوارح، ولما كان المضمَر في الصدور ـ وهو ما ينطوي عليه القلب ـ هو الداعي لما يظهر على الجوارح والسبب في إظهاره، قدَّم «الإكنان» على «الإعلان»، فقال تعالى: ﴿ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ » وهذا من لطائف التفسير. ومثل هذا التحليل يوجد عند الرازي إذ قال: «ما تُكِنُّه صدورهم هو الدواعي والقصود، وهي أسباب لما يعلنون، وهي أفعال الجوارح».

وبعد أن كشف كتاب الله الستار عن أعداء الإسلام، وأكد أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم ولا تلتبس عليه أحوالهم، عمم القول بأن الله تعالى يعلم كل المغيبات لا يخفى عليه منها شيء لا في الأرض ولا في السماء، وأن ما قد ينكشف منها للخلق لا ينكشف ويبرز إلى الوجود، إلاّ في وقته المحدود، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ قال ابن شجرة: «المراد بالغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خَلْقِهِ وغيَّبه عنهم، وهذا أمر عام».

ولما كان من الأمر الثابت في القديم والحديث ما تعرضت له كتب اليهود والنصارى المنزلة، من تبديل وتغيير، وتحريف وتزوير، وحمَى الله من ذلك كله كتابه الكريم والذكر الحكيم، إذ تعهد الله بحفظه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢] جعل سبحانه هذا الكتاب الإلَهي المحفوظ حَكَماً على الكتب الأخرى ورقيباً عليها، يبيِّن لأهلها الحق من الباطل، والحالي من العاطل، ويَفصِل بينهم فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى فيما سبق

من سورة المائدة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [الآية: ٤٨] وقال تعالى هنا في سورة النمل، التي قصَّ فيها على نبيه عدة قصص لها علاقة وثيقة بتاريخ بني إسرائيل وكتبهم المحرفة: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ ﴾، كما قال في مطلع هذه السورة قبل أن يشرع في قصة موسى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ [الآيتان: ٦، ٧]، وكما قال تعالى في سورة المائدة بعد التصريح بهيمنة القرآن على غيره من الكتب السابقة: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الآية: ٤٨] قال تعالى هنا في سورة النمل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾، ولما كان (القضاء) المفهوم من قوله تعالى: ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾ يقتضي العلم بما يُحكَم به، وتنفيذ ما يُقضَى به، جاءت عقبه الصفتان الملائمتان لذلك، وهما صفة «العلم» للوصول إلى معرفة الحكم، وصفة «العزة» التي هي الغلبة والقدرة، للتمكن من تنفيذه، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾.

وإمداداً للرسول الأعظم بمدد إلّهي جديد، وهو في خِضَمِّ المعركة مع قُوى الشرك والإلحاد، والشر والفساد، وتثبيتاً لفؤاده حتى يتخطى جميع العقبات والمزالق، وجَّه إليه كتاب الله هذا الخطاب الرقيق الرفيق: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾، ومن كان الله له نصيراً وعليه وكيلاً، لم ينل منه العدو

كثيراً ولا قليلاً. قال جار الله الزمخشري: «وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج، الذي لا يتعلق به الشك والظن، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل» ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وليُريح الحق سبحانه وتعالى ضمير رسوله من العناء الكبير، الذي يلاقيه ممن طبع الله على قلوبهم عندما لا يستجيبون لله ورسوله ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] وليرفع عنه كل مسؤولية في عدم استجابتهم، بعد بذل الجهد البالغ في أداء الأمانة، خاطبه قائلاً: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ، وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ فمن كان ميت القلب، أصم الأذن، أعمى البصر والبصيرة، لا شفاء له من دائه العَياء، ولا أمل في هدايته ولا رجاء، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وعلى العكس من ذلك مَنْ كان حريصاً على كشف حقيقة ذاته، والتعرف على جوهر إنسانيته، وإدراك دَوْره في الحياة ورسالته، فإنه لا محالة يفتح قلبه وعقله للتأمل والنظر، ويفتح أذنه وعينه لاستيعاب كل ما يسمعه ويراه من المَثُلات والعبر، فينقاد للحق الذي طالما بحث عنه وسعى إليه، بمجرد ما يكتشفه ويعثر عليه، وعلى مثل هذا الصنف من الناس يصدق قوله تعالى في ختام هذه الحصة: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

الثمن الأول من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

وَإِذَا وَقَعَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو
قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ ءَاتُوهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾
مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعِ يَوْمِئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾

وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ
الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ
وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

الثمن الأول من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

عبــاد الله

موعدنا اليوم في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، غير أننا سنقتصر فيها على تفسير الثُمن الأول منه، لِغزارة المادة المتعلقة بموضوعه الذي هو موضوع فريد من نوعه، وذلك على غرار ما فعلناه في الأحاديث الأربعة السابقة، مؤجلين تفسير الثُمن الباقي منه إلى الحصة القادمة بحول الله.

وبداية الثُمن الأول من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ، إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى في ختام سورة النمل المكية: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا، وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

عندما خلق اللّهُ النوع الإنساني اقتضت حكمته أن يَكِل إليه أمانة كبرى لم يَكِلْها إلى بقية الأكوان، وجعله خليفة في الأرض لا ليفسد فيها ويسفك الدماء، ولكن ليبرز ما آتاه الله من ذكاء وعبقرية في مجالات البناء والعمران، روحياً ومادياً، خلُقياً

واجتماعياً ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، وكلما تغلب الإنسان على نَهَم غرائزه السفلى، واهتدى بالتوجيهات الربانية ـ ولو جزئياً ـ فيما يمارسه من نشاط، أرخى له ربه العِنان، وأعانه على قطع المراحل والأشواط، حتى تستمر سنَّة التطور قائمة عَبْر الزمان، فإذا انقلب الحال وخابت فيه جميع الآمال، على تتابع الأجيال، انقطعت صلته بالله، وأصبح بقاؤه على وجه الأرض مناقضاً لحكمة الله، فأَذِن القاهر فوق عباده بفنائه من دون أن يبقى منه عين ولا أثر، لأنه لم يعد لوجوده أي مبرر ولا معنى يعتبر.

وفي مثل هذا الوضع المُتَدَهْوِر دينياً وأخلاقياً واجتماعياً في جميع أطراف العالم يبدأ ظهور العلامات التي يعقُبها قيام الساعة، وهي التي يطلق عليها في نصوص السنَّة «أمارات» الساعة و «أشراطها»، وهذه العلامات نوعان: صغرى وكبرى، وتظهر في شكل انقلاب خطير في المجتمع، وانقلاب غريب في الطبيعة، ويصل عددها إلى عشر علامات في حديث يُروى عن حذيفة الغفاري ورد نصه في صحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي، لكنه رُوِيَ عنه مرفوعاً حيناً، وموقوفاً عليه حيناً آخر كما نص عليه مسلم في الصحيح، وتفرد مسلم في صحيحه بحديث رواه أبو هريرة ذكر فيه من علامات الساعة ستاً لا غير.

ومن بين العلامات الواردة في كلا الحديثين «دابَّة الأرض» التي نص عليها كتاب الله هنا بالخصوص، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ، إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

وذِكرُ «دابة الأرض» في سورة النمل التي وصف فيها كتاب الله منطق الطير، وحديث النمل، وقطع المسافات البعيدة في أقلّ من طَرْفة عين، كما وقع في نقل عرش ملكة سبأ إلى بلاط سليمان، يناسب كل المناسبة ما سبق ذِكرُه فيها من العجائب والخوارق، التي تبرز قدرة الله لمن لا يومن بالله.

وكتاب الله تارةً يَذكرُ ما يكون علامة على قيام الساعة، كذكره «دابة الأرض» في هذه الآية، وتارة يصف الأمور التي تقع عند قيام الساعة، كما في فاتحة سورة الحج ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ، إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الآيتان: ١، ٢] وفي فاتحة سورة الواقعة: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ، خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ، إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [١، ٦] وفي فاتحة سورة التكوير ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ، وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [الآيات: ١، ٣] وفي فاتحة سورة الانفطار ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ، وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ، وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الآيات: ١، ٥].

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ، وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

[١٣، ١٦] وقولُه تعالى في سورة القيامة: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ، يُنَبَّؤُا الإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذِم بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [٧، ١٣] وقوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ، فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٧، ١٥] وقولُه تعالى في سورة النبأ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتاً، يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَاتُونَ أَفْوَاجاً، وَفُتِّحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً، وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [١٧، ٢٠].

وإذا رجعنا إلى الآيات الأخيرة في حديث الأمس وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ [الآيتان: ٨٠، ٨١] أدركنا العلاقة الوثيقة بينهما وبين الآية التالية، وهي قوله تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ لأنه إذا أصبح أكثر البشر «موتى» القلوب، قساةً لَا يمارسون أي نوع من أنواع الخير والبر فيما بينهم، «صُمّ» الآذان، لا يسمعون نصيحة ولا موعظة ولا حكمة ولا رأياً سليماً، «عُمْي» البصائر والأبصار، لا يهتدون في حياتهم الخاصة والعامة سبيلاً، وإذا نبذوا التعاليم الإلّهية وراء ظهورهم بالمرة، يكون ذلك إيذاناً بأنه «قد حقّت عليهم كلمة العذاب»،

لأنه لم يبقَ في صلاح حالهم أدنى أمل ولا رجاء، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حلَّ الوقت الذي يقع فيه سخط الله وغضبه عليهم، وعذابه لهم، طبقاً لما تضمنه «القول الأزلي» السابق من الله، في حق من انتهك حرمات الله، وتحدى أمره وعصاه، فوقوع القول يتضمن وجوب إنزال العقاب بهم، إذ مع الاستمرار في الإصرار والاستكبار لم يبقَ محل للإنذار ولا للإعذار.

ويتأكدُ هذا المعنى بقوله تعالى في آخر الآية نفسها في نفس السياق، وقد سيق مساق التعليل: ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾. وورد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

وقولُه تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يفهم منه أن هذه الدابة تنفذ من خلال طبقات الأرض، وذكرها في الآية بصيغة النكرة دون تعريف يفيد أنها دابة غريبة التكوين، على خلاف الدواب التي عَرَفَهَا البشر، وأنها فريدة في شكلها، وفي الأثر البالغ والهول العظيم الذي يحدثه ظهورها بين البشر، ولولا أنها خارقة للعادة في عالم الدواب لما جعلها الله علامة من علامات الساعة، ولما كانت مظهراً «لكلمة العذاب» التي حقت وقتئذ على الكافرين والفاسقين، والشاكِّين في ربهم والجاحدين.

وقد اقتصر كتاب الله في وصف هذه الدابة على أمر واحد هو أنها (تُكَلِّمُهُمْ) وهي بالتشديد على قراءة الجمهور، وقُرئت بالتخفيف أيضاً (دابة من الأرض تَكْلِمُهُم). والقراءة بالتشديد (دابة من الأرض تكلِّمهم) تفيد معنيين اثنين:

فعلى أن هذا اللفظ مأخوذ من «الكلام» وهو الخطاب يكون المعنى أنها تخاطبهم، وتفسره قراءة أبيّ (تنبئهم)، وقراءة يحيى بن سلام (تحدثهم).

وعلى أنه مأخوذ من «الكَلْم» وهو الجَرح، وجمعه كلوم، يكون التشديد فيه للتكثير والمبالغة، يقال كلَّم فلان فلاناً إذا بالغ في كَلْمه وجَرْحه، وفلان مُكلَّم، أي مُجَرَّح بجروح كثيرة، ويشهد لهذا المعنى القراءة الواردة هنا بالتخفيف (تَكْلِمهم) مضارع كلَمه يكلِمه إذا جرحه فهو مكلوم وكليم، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد وأبي زرعة وابن جبير وأبي رجاء وغيرهم، وسأل أبو الجوزاء ابن عباس عن هذه الآية: «تكلِّمهم أو تَكْلِمهم» فقال: «كلَّ ذلك تفعل، هي والله تُكلِّم المومن، وتَكْلِم الكافر والفاجر».

ولغرابة أمر هذه الدابة التي توعَّد الله بها الأشقياء من عباده قبل قيام الساعة أطلق غير واحد من المتقدمين والمتأخرين العِنان لخياله الخصب، فأخذ كل منهم يتحدث عنها كأنه يراها رأي العين، فوصفوا خِلْقتها وماهيتها، وقدروا جسمها وحجمها، وعيَّنوا موضع خروجها وكيفية خروجها وعدد المرات التي تخرج فيها،

وذكروا ماذا تقوله للناس وتفعله بهم بعد خروجها، واهتم الزمخشري والقرطبي بإيراد ما ورد من الاختلاف في وصفها، وعندما أشار أبو حيان في تفسيره إلى الاختلاف الواقع في أمرها عقب على ذلك قائلاً: «واختلفوا فيها اختلافاً مضطرباً يعارضُ بعضه بعضاً، ويكذّب بعضه بعضاً، فاطّرحنا ذكره، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح، وتضييع لزمان نقله». وقال الرازي في تفسيره أيضاً: «وأعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور، فإن صح الخبر فيه عن الرسول قُبِل، وإلاّ لم يلتفت إليه».

على أن هذا لا يمنع من تخيل هذه الدابة إذا كان ذلك على وجه الظن والتخمين، لإبراز أن خروجها من أمكن الممكنات طبعاً وسمعاً، فقد ثبت علمياً أن ظهور الإنسان فوق سطح الأرض سبقه وجود حيوانات غريبة في شكلها وحجمها، ثم انقرضت قبل أن يتولى الإنسان الخلافة عن الله، والله تعالى قادر على أن يخلق مثلها أو أكبر منها حجماً وضخامة ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]. وقد تكون الدابة عبارة عن إنسان مسيخ مسخه الله في شكل بهيمة، لكن أبقى له ملكة النطق، ليكلم شرار الخلق باللغة التي يفهمونها، كما مسخ أناسيّ من قبل، فجعلهم قردة وخنازير ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠] وقد تكون هذه الدابة في منتهى الصغر ودقة الحجم من جنس الحشرات الضارة،

والجراثيم الفتاكة الدقيقة التي لم يعرفها الإنسان أبداً، فتهجُم عليه في مختلف أطراف الأرض، وتتسلط عليه تسلطاً عاماً، وتؤذيه أذى كبيراً، دون أن يستطيع الخلاص منها ولا مقاومتها، رغماً عما يتبجح به من بسطة في العلم، وتفنن في وجوه الحيلة، فيكون ذلك آية من آيات الله البيِّنات، وعقاباً لمن انتهكوا جميع الحرمات، كما أشار إلى هذا الاحتمال الأخير الأستاذ فريد وجدي في موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين).

ومن السوابق في هذا الباب ما ابتلى الله به فرعون وقومه خاصة، من دون الناس عامة، إذ قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَاتِنَا بِهِ مِنَ - ايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [١٣٢، ١٣٣].

ومجمل القول أن الدابة التي جعلها الله من علامات الساعة لا يعلم أمرها على وجه التحقيق إلاّ الحق سبحانه وتعالى المنفرد بعلم الساعة، فلْنُومن بها على وجه الإجمال، ولنقف عند حدود ما وصفها به كتاب الله، ففي الوقوف عند ماقاله السلامة والنجاة.

وتحدث كتاب الله عن أحوال المكذبين بالحق، عندما يُبعثون ويقفون بين يدي الله، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً، امَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

ووصف كتاب الله حال عباده في الملأ الأدنى عندما تدق الساعة ويفاجأون بصوت مزعج لا يطيق سماعه أحد من البشر، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ ـ اتَوهُ دَاخِرِينَ ﴾ أي خاضعين صاغرين، و«الصور» البوق ينفخ فيه.

وبيَّن كتاب الله ما خص به عباده المكرمين من أنهم سيكونون يوم الفزع الأكبر آمنين، فقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ـ امِنُونَ، وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وذكَّر الله عباده ـ ولا سيما الجاحدين والغافلين ـ ببعض آياته البارزة في الكون، التي تدل على مبلغ علمه، وقدرته وحكمته، حتى يتدبروها ويتفكروا في نظامها المحكم الدقيق، ويستخلصوا من التدبر فيها نتائجه الحتمية، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ إشارةً إلى حركة دوران الأرض بما عليها من رواسي الجبال في حالتها العادية ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيَ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾.

وختمت سورة النمل بآيات بيِّنات أجراها كتاب الله على لسان خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه، وهي عهد منه والتزام في ذمة كل مسلم ومسلمة، إذ قال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ أَتْلُوَاْ الْقُرْءَانَ ﴾.

والإشارة «بهذه البلدة» إلى مكة المكرمة التي هي موطن نبيِّه، ومهبط وحيه، ومركز بيته الحرام، ومعنى «حرَّمها» جعلها حرماً آمناً يحترم بحرمتها الإنسان والنبات والحيوان، فلا يُعضَد شجرُها، ولا يُنفَّر صيدها، ولا يُعتدى على من لجأ إليها، ومن انتهك حرمتها كان من الظالمين، ثم خاطبه ربه قائلاً: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾، وكما لقنه كتاب الله أن يحمد الله ويسلم على أصفيائه بعدما فرغ من قصص الأنبياء السابقين في هذه السورة إذ قال وهو يخاطبه: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ ها هو يوجه إليه نفس الخطاب في ختام نفس السورة، مؤكداً نفس المعنى، فيقول له: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ ﴾ ثم يتوجه إلى الناس جميعاً، معلناً إليهم أنه سيأتي عليهم وقت تبهرهم فيه آيات الله، وتفرض نفسها عليهم، فلا يستطيعون لها رداً ولا إنكاراً ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ وقد عرف الناس في هذا العصر غير ما آية من آياته، وستعرف العصور القادمة بقية الآيات، تحقيقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

الثمن الثاني من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ اِمْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٖ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ
أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا اِن كَادَتْ لَتُبْدِے بِهِۦ لَوْلَآ أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١

الثمن الثاني من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

عبــاد الله

في هذه الحصة نتناول تفسير الثُمن الثاني من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من فـاتحة سـورة القصص المكية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ . طَسٓمٓ، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ، نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

في الحديث الماضي ختمنـا تفسير سـورة النمل المكيـة حـامدين الله شـاكرين، واليـوم نفتتـح تفسيـر سـورة القصص، مستعينين بالله، معتصمين به في البدء والختام، وهذه السورة مكية كسابقتها، وقد جاءت فاتحتها على غرار فاتحة سورة الشعراء، مبدوءة مثلها بنفس الحروف الهجائيـة المقطعـة، وهي في كل منهما الطاء والسين والميم ﴿ طَسٓمٓ ﴾ فكانت ثالثة السور التي جاءت على هذا النمط في نسق واحـد، تنبيهاً إلى أن آيـات الكتاب العزيز تتألف من نفس الحروف التي يؤلف البشر منها كلامهم، لكن الله الذي خلق الإنسان من طين ثم نفخ فيه روح

الحياة ينفخ في تلك الحروف من جلاله وعلمه وحكمته ما يجعلها معجزة باقية أبد الدهر لا قِبَل بها للإنسان، على ممر الزمان، ثم جاءت أول آية من هذه السورة بنفس النمط الذي جاءت به سورة الشعراء ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ وأطلق على هذه السورة «سورة القصص» أخذاً من قوله تعالى في إحدى آياتها وهو يحكي ما دار بين موسى عليه السلام و(صالح مدين) في أحد المواقف الحاسمة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٢٥].

و «القَصص» هنا بفتح القاف لفظ مفرد بمعنى الخبر المحكي المقصوص، ويطلق لفظ القَصص بمعنى رواية الخبر، أما القِصص بكسر القاف فهو جمع قصة، وتشغل قصة موسى مع قصة قارون من قومه أكبر جزء من هذه السورة، فلقصة موسى ثمان وأربعون آية، من الآية الثانية إلى الآية التاسعة والأربعين، ولقصة قارون من قومه سبع آيات، من الآية السادسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين، وبذلك يبلغ عدد آيات القصتين المرتبط بعضهُمَا ببعض خمساً وخمسين آية من مجموع آيات هذه السورة، وهي ثمانون آية.

ومن أهم ما يلاحظ في كتاب الله بالنسبة للقِصص التي تضمنها القرآن الكريم أن قصة موسى تردد ذكرها في سبع عشرة سورة، مختزلة أحياناً، ومختصرة أحياناً، ومتوسطة أحياناً، ومطولة أحياناً. وأطولها جميعاً هي التي سبقت في سورة الأعراف، حيث استغرقت من آياتها خمساً وخمسين ومائة آية، ويليها في الطول

قصته في سورة (طه) حيث استغرقت من آياتها تسعين آية، ويلي قصةَ موسى في سورة طه قصتُه في سورة الشعراء، حيث استغرقت من آياتها ستين آية، وتأتي في الدرجة الأخيرة من الطول قصته هنا في سورة القصص، حيث استغرقت منها مع قصة قارون من قومه خمساً وخمسين آية.

ومن أمثلة قصة موسى عندما ترد بشكل مختزل في آية أو آيتين قولُه تعالى فيما سبق من سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَيكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [٦]، وقولُه تعالى فيما سبق من سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيراً، فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا، فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيراً ﴾ [٣٥، ٣٦]، وقولُه تعالى فيما سيأتي من سورة الذاريات: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ، فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [٣٨، ٤٠].

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن إعادة كتاب الله لقصة من القصص في عدة سور لا يعني أن فيه شيئاً من التكرار، فبلاغة القرآن التي ميَّزه الله بها تعصمه من ذلك، وإنما تنصب الحكاية الجديدة للقصة على عناصر معينة منها، حيث يكون السياق يقتضي إبراز هذا العنصر بَدَلاً من ذلك العنصر الذي سبق في مقام آخر، أو تفصيل هذا العنصر مع إجمال ذلك العنصر الذي سبق في مناسبة

أخرى، وكتاب الله بوصفه كتاب هداية وتوجيه لا بد أن يلائم مقتضى الحال في كل الأحوال، يضاف إلى ذلك أن القصة عندما يتجدد ذكرها في سورة من السور لا مَحَالة أنها تأتي بزوائد وفوائد، وفي ذلك زيادة في البيان، وإقامة للحجة والبرهان، على درجة الإعجاز التي ارتفعت إليها بلاغة القرآن.

وعلى ضوء هذا التنبيه نراجع الآيات التي تصدَّرت قصة موسى في هذه السورة، ونقارنها بما ورد في بعض السور الأخرى، ففي سورة القصص التي نحن بصدد تفسيرها نجد في الطليعة وصف المرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام منذ طفولته إلى أن بلغ أشده، من الآية السادسة إلى الآية الثانية عشرة، ونجد وصف الحادثة التي اشتبك فيها موسى مع عدو لقومه، نصرة لرجل من شيعته، فأدَّت إلى مقتل ذلك العدو، واضطرار موسى إلى التوجه نحو مدين، من الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، ونجد وصف خطوبته وزواجه بابنة (صالح مدين وشيخها الكبير)، وما سبق ذلك من مقدمات، وما انتهى إليه من نتائج، من الآية الواحدة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين، كلُّ ذلك بغاية التوضيح والتفصيل، مما لم يتقدم نظيره في السور الأخرى، وإذا راجعنا قصة موسى الواردة في سورة الأعراف لا نجد فيها أيّ أثر لهذه الأحداث وهذه المراحل، وإنما نجد في سورة طه إشارة خفيفة إليها في سبع آيات لا غير، ونجد في سورة الشعراء إشارة خاطفة إليها في خمس آيات لا غير، ففي سورة طه سبق قول الله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ اوتيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسىٰ، وَلَقَدْ مَنَنَّا

عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ، إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ، وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُوناً، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيَ ﴾ [٣٦، ٤١]، وفي سورة الشعراء سبق قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَا۠ مِنَ الضَّآلِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴾ [١٨، ٢٢].

وبعد هذه التنبيهات والمقارنات لم يبقَ لنا إلا التوجه إلى تفسير الجزء الوارد من نفس القصة في هذه الحصة.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ، نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾: وصف الكتاب بكونه «مبيناً» لأنه يبيِّن ويميِّز الحق من الباطل، والحلال من الحرام، والهدى من الضلال، في العقائد والشرائع والأقوال والأفعال. ثم جاء بتمهيد يسبق الشروع في قصة موسى وفرعون، كأنما هو عبارة عن عنوان الموضوع، أو براعة الاستهلال التي يبدأ بها عند الشروع ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي تجبَّر وتكبَّر، حتى ادَّعى الربوبية والألوهية، والمراد «بالأرض» هنا أرض مصر.

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرّق بينهم فأغرى بعضهم ببعض، وسلّط بعضهم على بعض، حتى يكونوا أطوع له من بنانه، ويستسلموا لعدوانه وطغيانه.

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ ﴾ المراد «بالطائفة المستضعفة» في ذلك العهد بنو إسرائيل، ويجري على غيرها من الطوائف المستضعفة في بقية العهود ما جرى عليها. قال ابن عباس: «لما كثر بنو إسرائيل بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي، فسلّط الله عليهم القبط وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى».

﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ سجّل كتاب الله هنا على فرعون صفة «الفساد» التي هي أبغض صفة إلى الله تحرق الأخضر واليابس، وتدمر البلاد والعباد، وبهذا التسجيل الإلٓهي المؤكد أبرز كتاب الله أنه لا يرضى للرؤساء من عباده الكِبْر والجبروت، ولا يرضى للمرؤوسين منهم الفرقة والشتات، ولا يرضى استضعاف طائفة وتسخيرها وإهدار حقوقها لصالح بقية الطوائف، وإنما يرضى لهم جميعاً المساواة في الحقوق والواجبات والعيش الكريم.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ هذا وعد من الله بالنصر والتمكين لمن استضعفوا في الأرض، فالتجأوا إلى الله، واعتصموا بحبله واحتموا بحماه، فإذا استكبروا بعد

الضعف، وانقلبوا أئمة للكفر والفساد، وَكَلَهم الله إلى أنفسهم فانقلبوا صاغرين ورسفوا في الأغلال والأصفاد.

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ هـذا إنذار من الله لفـرعون وهـامان ومن سلك مسلكهمـا في الاستعـلاء والطغيـان، على ضعفاء بني الإنسـان، بأنّـه سيهدم بنيانهم، ويدُكُّ أركانهم، بأيدي أولئك الضعفاء حتى يضرب بهم المثل فيقال: (على الدُّنيا العَفَاء).

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ، إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَـاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أجمع العلماء على أن «أم موسى» لم تكن نبية، «فالوحي» المسند إليها هنا وحي إلهام، لا وحي إعلام، والمراد «باليمِّ» هنا وادي النيل الذي يخترق أرض مصر ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ أي لا تخافي من غرقه وضياعه، ولا تخافي من أن يلتقطه من آل فرعون من يقتله ﴿ وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ أي لا تحزني لمفارقتك إياه.

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هذا وعد صادق من الله لأم موسى، يهدىء روعها، ويُطَمْئِن قلبها، ويبشِّرها بحياته وجعله رسولاً ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَـٰلَتَهُۥ ﴾ قال أبو حيَّان: «استفصح الأصمعيّ امرأة من العرب أنشدته شعراً فقالت له: أبعد قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَـآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ، إِنَّآ رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فصاحة؟ وقد جمع بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين».

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ هذا مظهر من مظاهر العناية الإلّهية، فقد سخّر الحق سبحانه وتعالى ـ وهو اللطيف الخبير ـ لإنقاذ موسى من الغرق والقتل أعدى أعاديه من آل فرعون، فالتقطوه للتربية والتبني، ولو عرفوا سوء العاقبة الذي ينتظرهم على يده لاعتبروه أخطر عدو، وقضوا عليه في المهد، لكن الله تعالى الذي قدر الانتقام من طغيانهم وفسادهم، وكفرهم وعنادهم، على يد نبيه موسى، أعمى منهم البصائر والأبصار، لتنفذ فيهم عند حلول الأجل سهام الأقدار، والحَزَن بفتح الحاء والزاي على لغة قريش هو الحزن عند بقية العرب.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِئِينَ ﴾ أي كانوا خاطئين في كل شيء، ولم يصادفوا الصواب في أي شيء، فلا غرابة إذا أخطأوا في تربية موسى الذي اصطفاه الله لرسالته، ليكون مصيرهم المفجع على يده وبقيادته، ومعنى «الخاطىء» المتعمد للخطأ، ويطلق على من لا يتعمد الخطأ لفظ «مُخطِىء» وإنما أضيف الجند في هذه الآية: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ وفي الآية السابقة: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ إلى كل من فرعون وهامان، وإن كان هامان مجرد وزير لا جنود له، لأن المال هو قوام الجيش. وتسييرُ شؤون الدولة، وجبايةُ الأموال اللازمة لمرافقها، لا يتم أمرهما إلا على يد الوزراء وبمعونتهم، فلهم ضلع كبير في تحمل مسؤوليات الدولة وتنظيم جيشها وتسيير مرافقها العامة.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ، عَسَىٰ أَنْ

يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ لَمَّا رأت ما يبدو عليه من مخايل الخير واليمن والقبول توسمت فيه النفع لها ولفرعون أولاً، ثم مر بخاطرها أن تتبناه وتتخذه ولداً، ليكون قرة عين لها ولزوجها، ومبعث بهجة وسرور لأسرتها، فقالت لزبانية فرعون لا تقتلوه، ثم قال تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يدركون خطأهم العظيم في التقاطه ورجاء النفع منه، والتفكير في تبنيه، وغاب عنهم أن وليد اليوم هو رسول الغد، الذي سيكون هلاكهم على يديه، جزاءً وفاقاً لما مارسوه من ظلم وطغيان، واستهتار بحقوق الله وحقوق الإنسان.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغاً ﴾ أي أن أم موسى حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش، اعتقاداً منها بأن مصير وليدها هو القتل لا محالة، ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي تبدي أمره وقصته. قال ابن عباس: «كادت تصيح عند إلقائه في اليم: وَاولَداه، فينكشف أمرها وأمره» ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر، وألقى السكينة في قلبها، فلم تفضح سرها الدفين ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ ﴾ أي من الواثقين بوعد الله الذي لا يتخلف، لا بتبني فرعون وتعطف امرأته، ووعد الله هو رده إليها وجعله رسولاً: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. و«الربط على القلب» هنا كناية عن قراره واطمئنانه، شُبِّه بما يُرْبَط مخافة الانفلات، على غرار قوله تعالى في الفتية من أهل الكهف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾ [الآية: ١٤].

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره، وتتبَّعي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ أي أبصرته أخته عن بعد وهي تختلس النظر إليه، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لم يكونوا يشعرون بما تنطوي عليه أخته من اهتمام بأمره، وتتبع لحركاته، وقلق على مصيره، وأنه أخوها وهي أخته، وهكذا يتولى الله بحفظه ورعايته من أعدَّهم لتحمل رسالته، في مختلف المراحل والعهود، وفاءً منه سبحانه وتعالى بما واثقهم عليه من المواثيق والعهود ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب التاسع والثلاثين

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِے
اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنَ اَرَادَ أَنْ يَّبْطِشَ بِالَّذِے هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِے كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن
تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنَ اَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجِ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ
مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نلتقي مع الربع الثالث من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، وهذه الحصة مخصصة لتفسير الثُمن الأول منه، ابتداءً من قوله تعالى حكاية عن موسى في فجر طفولته: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ ﴾ إلى قوله تعـالى: ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

يواصل كتاب الله الحديث عن المـرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام، فبعدما نجّاه الله من الغرق في اليم والتقطه آل فرعون، وتدخلت امرأة فرعون لمنع ذبحه وقتله كغيـره من مواليد بني إسرائيل، ها هو فرعون وامرأته يبحثان عن مرضعة ترضعه، وعن ثدي يلتقمه، ليركن إلى عطفه وحنانه، ويُسلِم نفسه إليه، لكن الله تعالى ألهمه أن لا يقبل رضاع لبن سوى لبن أمه من النساء. وأشكل الأمر على أسرة فرعون، وأعيتهم الحيلة، خوفاً على حياة موسى، إذا استمر من دون تغذية، وهو لا يزال في فجر طفولته، وأخطر أطوار حيـاته، وهنـا تدخلت أختـه التي كانت

تتحسس كل ما يحيط بأخيها من الحركات والسكنات، من دون أن يعرف أحد من آل فرعون أنه أخوها وأنها أخته، فتقدمت إلى امرأة فرعون وزوجها تعرض استعدادها للبحث عن بيت يقوم بهذه المهمة الإنسانية على أحسن وجه، فيأخذعلى عاتقه إرضاع هذا الوليد وحضانته، ويُعنى بتربيته الأولى بكل نصح واعتناء، إلى أن يفارق مرحلة الرضاع، وتنجحُ أخته في مسعاها، فتأخذه معها إلى أمه، ويرده الله إليها كما وعدها من قبل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في بداية هذا الثُمن: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ألهمناه قبل ردِّه إلى أمه أن لا يقبل الرضاع من ثدي أية امرأة سواها، «فالتحريم هنا تحريم منع، لا تحريم شرع» كما قال القرطبي.

﴿ فَقَالَتْ هَلَ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ ﴾ والقائلة هي أخته ﴿ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾، وبذلك سكنت نفسها، وتَمّ أُنسها، وترقرقت في عينيها دموع الغبطة والفرح التي تكون باردة في العادة ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ من «القَر» ضد الحَرّ، لا ساخنة مثل دموع الحزن والكمد، وتمت هذه العملية الخطيرة في حفظ الله وستره، فلم يكتشف السر فيها لا فرعون ولا زوجه ولا بقية آل فرعون، اعتقاداً منهم جميعاً بأن المرضعة التي عثروا عليها بإرشاد أخته لا علاقة لها بالوليد الرضيع، لا من قريب ولا من بعيد، وأنَّها مجرد مرضعة وحاضنة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى تعقيباً على نفس الحادثة: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وهنا تنتهي الآيات التي عنيت بوصف الطور الأول من حياة موسى لتبدأ الآيات التي ستعنى بمرحلة نضجه وشبابه، ووصف ما آتاه الله من عقل وفهم، ومعرفة بدين آبائه الصالحين، وتهتم بما اعترض حياته في هذه الفترة من الحادث المزعج، الذي أدى إلى مقتل أحد الرعايا الفرعونيين، وما واجهه عقب ذلك الحادث من مخاوف ومتاعب، حتى اضطر لأن يفارق مصر إلى بلد لم تبقَ فيه سلطة لفرعون وآله، فراراً من عقابه وعذابه.

وبداية الآيات الخاصة بهذا الطور الثاني من حياة موسى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ﴾ أي استكمل قوته الجسمية وقوته العقلية ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ أي حكمة وفهماً ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي تلك سنَّة الله مع عباده المكرَمين، الذين اصطفاهم ليكونوا من رسله وأنبيائه، وأصفيائه وأوليائه، وقد سبق في سورة يوسف على غرار هذه الآية قوله تعالى منوِّهاً بمكانة يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الآية: ٢٢].

ويبدأ «بلوغ الأشد» عند بلوغ الحُلُم، ومن توابع ذلك أن يصبح الفتى أهلاً لممارسة الحياة الزوجية، وينظر لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ [النساء: ٦] ويشهد له قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ [الآية: ٥] وقولُه تعالى في سورة غافر: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ

شُيُوخاً ﴾ [الآية:٦٧]. وتصل مرحلة بلوغ الأشد إلى القمة عند بلوغ سن الأربعين، حيث تهيمن القــوة العقليــة على القــوة الجسمية، قال الرازي: «فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين سنة». وقد اعتنى كتاب الله عناية خاصة بمرحلة الأربعين من حياة كل إنسان، وما ينتظر أن يبلغ فيها من وعي ونضج واستقامة، فقال تعالى فيما سيأتي من سورة الأحقاف: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضِيٰهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيَ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الآية: ١٥].

ويلاحظ أن كتاب الله صدَّر الآيات المتعلقة بمرحلة الفتوة والشباب في حياة موسى عليه السلام بذكر ما أنعم به عليه من الحكمة والفهم، وسجَّل اسمه في سجل المحسنين الخالدين من عباده، وكأنَّ ذلك تمهيد لما سيقصه من الحادث الطارىء الذي أقض مضجع موسى قبل النبوة، وهو الحادث الذي لقيَ فيه على يده أحدُ الرعايا الفرعونيين مصرعَه، عقب لكمة لم يكن ينتظر أن تؤدّي إلى وفاته، وذلك حتى لا يسيء أحدُ الظنَّ بموسى ولا ينتقص من مقامه الرفيع عند الله، فقد كانت تلك اللكمة تأديباً للظالم، وإغاثة للمظلوم، ونصرة للحق، وإلى هذه الحادثة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنَ اَهْلِهَا ﴾ ووقت الغفلة يكـون عادة إمـا في وقت القيلولـة ـ في منتصف النهار ـ وإما بين العشاءين في الليل، عندما يتفرق الناس ويأوون

إلى مساكنهم، وتخلو الطرق ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَـٰنِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَغَـٰثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ ﴾ أي دفعه بكفه ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ولم يكن قصد موسى قتله، وإنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وهو معنى «فقضى عليه»، وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد «قضيت عليه». قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وإنما أغاثه ـ أي أغاث الذي هو من شيعته وقومه ـ لأن نصر المظلوم دِين في الملل كلها، وفَرْضٌ في جميع الشرائع».

ولم يلبث موسى بعد هذا الحادث المفاجىء أن استولى عليه الندم، لِما آل إليه تدخله في هذا الاشتباك، وتمنى لو أنه دفع الظالم بأيسر مما دفعه، ووَدَّ لو أن الأقدار مكَّنته من نصرة المظلوم وإغاثته، من دون أن يقع ما وقع ﴿ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَـٰنِ ﴾ مشيراً إلى ما استولى عليه من الحِدة والغضب أثناء الحادث المذكور ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الشيطان ﴿ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾. وتعبيراً عما أصابه من الحسرة والندم اتجه إلى ربه خاشعاً مستغفراً ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ على نهج آدم وزوجه، إذ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فاستجاب له ربه ﴿ فَغَفَرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ولا عتاب بعد المغفرة.

وبعد أن غفر الله له عاهد ربه على أن لا يتورط فيما يؤدي إلى مثل ما أدى إليه هذا الحادث، والتزم بأن يتروَّى في أمر كل من يستغيث به من الناس، فكم من مظلوم يلتبس أمره على الناس

فيُظَنُّ أنه من الظالمين، وكم من ظالم يخدع الناس بأنه مظلوم وهو من كبار المجرمين ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنَ اَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾. وقد استنبط أهل العلم رضي الله عنهم من هذه الآية توجيهاً أخلاقياً دقيقاً، ألا وهو وجوب البعد عن مناصرة الظلمة والفسقة، وعدم إعانتهم على ظلمهم وفسقهم بالمرة، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

ووصفت الآيات بعد ذلك انعكاسات الحادث على نفسية موسى من جهة وعلى وضعيته القلقة في المجتمع الفرعوني من جهة أخرى، ثم وصفت مضاعفات الحادث، وانتشار خبره بين الناس، وما يمكن أن يتطور إليه، وإلى ذلك كله تشير الآيات التالية: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ و «الترقّب» انتظار الأمر المكروه ﴿ فَإِذَا الذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْاَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ من الصراخ، أي يصيح به مستغيثاً من فرعوني آخر ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر الغواية واللَّدَد، يقصد بذلك عتابه وتأنيبه ﴿ فَلَمَّآ أَنَ اَرَادَ أَنْ يَّبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي عندما خُيِّل للفرعوني أن موسى يهُمُّ بدفعه والبطش به ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْاَمْسِ ، إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْاَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ومعنى «الجبار» في هذا المقام الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن.

ولما وقعت هذه الواقعة وخرجت من طي الكتمان، وشاع

أمرها بين الناس، وتردد اسم موسى بصفته مسؤولاً عنها، هَمَّ آل فرعون بمؤاخذته عليها ﴿ وَجَآءَ «رَجُلٌ» مِّنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ، قَالَ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّـٰصِحِينَ ﴾، والرجل الذي اطلع على هذا السر من مصدره، وتحمَّل مشقة الانتقال للافضاء به إلى موسى في غفلة عن الأنظار، وسباق مع الذين يتعقبون موسى، من زبانية فرعون الأشرار، حتى يخبره الخبر، فيبادر بمغادرة مصر قبل أن تمتد إليه أيديهم، هو فيما ذهب إليه أكثر المفسرين، «مومن آل فرعون» نفسه، الذي لم يكن على دين فرعون رغماً عن كونه ابن عمه، والذي كان على ملَّة يوسف قبل أن يتنبأ موسى ويومن به. والوصف «بالرجولة» و «الفتوة» لا يلقيه كتاب الله جزافاً، وإنما يصف به أصحاب المواقف الحاسمة في نصرة الحق والجهر به والدفاع عنه، والتمسك بحبله والثبات عليه، من أولي العزم الصادقين.

فمن الوصف «بالفتوة» التي هي كمال الصفات في الفتى، قوله تعالى في شأن إبراهيم: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقوله تعالى في شأن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ [الآية: ١٣].

ومن الوصف «بالرجولة» التي هي كمال الصفات في الرجل قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧]، وقوله تعالى هنا: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ

يَسْعىٰ ﴾، على غرار ما سيأتي في سورة يس: ﴿ وَجَآءَ مِنَ اَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ، قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْئَلُكُمُ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الآيتان: ٢٠، ٢١]، وفي سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّومِنٌ مِّنَ ـال فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَّقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [الآية: ٢٨].

ومعنى ﴿ يَاتَمِرُونَ بِكَ ﴾ يتشاورون في شأنك، والائتمار في الأصل التشاور، لأن من يحضر جمعاً من هذا النوع لا يخلو من أن يشير على الآخرين بأمر من الأمور، في الوقت الذي يشير فيه الآخرون عليه بأمر آخر، ومن ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَاتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ٦] أي ليأمر بعضكم بعضاً بالمعروف لا بالمنكر.

وكما دبَّر أعداء موسى مؤامرة للتخلص منه قبل فوات الأوان، لأنه اشتهر عنه ـ من قبل أن يُنَبَّأ ـ تسفيهُ عقائدهم الباطلة التي ليس عليها دليل ولا برهان، وتجريحُ تصرفاتهم الجائرة القائمة على الظلم والطغيان، فقد دبر أعداء الرسالة الإلٰهية التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين لرسوله الأمين، نفس المؤامرة، وعنها تحدث كتاب الله في سورة الأنفال فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الآية: ٣٠]. وبمجرد ما اطلع موسى على المؤامرة المدبرة للقضاء عليه من طرف فرعون وآله بادر إلى مغادرة مصر، ثقة بصدق الرجل الذي أسرَّ إليه بذلك

الخبر، وعملاً بنصيحته الخالصة لوجه الله. وكما قال تعالى عن موسى وهو لا يزال في المدينة: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾، ها هو يصفه وهو يغادرها بنفس الوصف ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾. قال القرطبي: «والخوف من الأعداء سنّة الله في أنبيائه وأوليائه، مع معرفتهم به وثقتهم في نصره. والخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه، فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله عليه نفوس بني آدم كاذب، وقد طبعهم على الهرب مما يضر نفوسهم ويؤلمها أو يتلفها».

و«المكروه» الذي كان يتوقعه موسى وهو داخل المدينة هو إدانته ومؤاخذته بالحادث الذي اعترض طريقه، و «المكروه» الذي أصبح يتوقعه بعدما فارقها هو أن يدركه الطلب، ويتعرض له في الطريق أعوان فرعون وجنوده، الذين يبحثون عنه في كل مكان.

وبدلاً من أن يقصد بُنَيَّات الطريق التي يطرُقها عادة مَن يريدون الإفلات من قبضة الحكام، تستراً بها عن الأعين، كما توقع أعوان فرعون وجنوده، وذهبوا يتتبعون أثره فيها، ألهم الله موسى أن يسلك طريقاً مأمونة ومطروقة من دون أن يشتبه في أمره أحد. فمضى في طريقه معتصماً بالله، ومحتمياً بحماه، واثقاً بأن الله تعالى هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وحيثما حلّ وارتحل، في سهل أو جبل ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

وبعد أن قطع مراحل الطريق في أمن وأمان، واستقبله «صالح مدين» استقبال ترحيب وحنان، قال له وهو يحاوره في نهاية

المطاف: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾. كما كانت بداية رحلة موسى وفاتحتها عند الشروع فيها: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾، فاستجاب الله دعاءه، وخيَّب أعداءه، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ، حَقّاً عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُومِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

الثمن الثاني من الربع الثالث
في الحزب التاسع والثلاثين

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي

ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ
أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧
قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ
فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨

الثمن الثاني من الربع الثالث
في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

موعدنا في حصة هذا اليوم مـع الثُمن الثاني في الـربع الثالث من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

يتحدث كتاب الله في آيات هذا الثُمن عن الفتـرة التي قضاها موسى مقيماً بمدين لدى صهره (صالـح مدين وشيخهـا الكبير) وذلك بعد مفارقته لمصر ونجاته من فرعون وصحبه، ويبدأ الحديث عن هذه الفترة بتوجه موسى إلى ربه قبل التوجه إلى ناحية مدين، الخارجة عن نفوذ فرعون، مستسلماً إلى رعاية الله وكفالته، سائلاً الحق سبحانه وتعالى أن يهديه سواء السبيل، حتى لا يضل الطريق إليها ويبلغها سالماً آمناً، وذلك قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾. والمراد «بسواء السبيل» وسط الطريق الذي يسلكه إلى مكان مأمنه. قال الرازي: «أما قول موسى: ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ فهو نظير قول جَده إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩]، وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاماً في الاستدلال، والجواب، والدعاء، والتضرع، إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام، وهكذا الخَلَف الصُّدُق - (الصُّدُق جمع صَدُوق) - للسلف الصالح، صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين».

وينتقل كتاب الله إلى الحديث عن رحلة موسى من بدايتها إلى نهايتها عندما وافى «ماء مدين» وكان الوقت وقت الهاجرة، ووجد الناس مُحَلِّقين حول بئرهم التي يسقون منها، إذ هي مورد شربهم وسقيهم، وهم يتناوبون على السقي منها الواحد تلو الآخر، ثم يصبُّون الماء في الحياض لسقي مواشيهم، وكانوا أهل ماشية، وذلك ما يشير إليه إشارة خاطفة قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾، والمراد «بالأمة» هنا جماعة كثيرة العدد من أُناس مختلفين، والظاهر أن موسى عليه السلام كان في حالة عطش من تعب الطريق وشدة الحر، فبادر إلى «ماء مدين» لريِّ عطشه وغسل أطرافه. غير أنه لاحظ في نفس الوقت وقوف امرأتين معتزلتين عن الزحام، مكتفيتين بحجز غنمهما عن حياض الماء وعن الاختلاط بأغنام الرعاة الأشداء الأقوياء، في انتظار انتهائهم من سقي مواشيهم وانصرافهم، عسى أن تنالا نصيبهما من الماء الذي يَفْضُل عن الآخرين إن اسعدهما الحظ، وذلك ما يشير إليه كتاب الله هنا في إيجاز وإعجاز إذ يقول: ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تحجزان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الرعاة وتخلو لهما البئر.

واستغرب موسى أن لا يلتفت أحد من ذلك الجمع الكبير من الرجال إليهما، فيأخذ بيدهما، ويسقي لهما ما يروي غنمهما ويزيل عطشهما، كما تقضي بذلك المروءة والرجولة والنجدة، لا سيما وهما المرأتان الوحيدتان من بينهم جميعاً، إذْ كان رجال مدين هم الذين يقومون بالسقي من دون النساء كما يفهم من السياق، فلم يلبث أن تقدم إليهما سائلاً مستفسراً، ولم تلبثا أن عبرتا له في جواب موجز، لكنه جامع مانع، عن حالهما وعن حال كبير أسرتهما الذي بلغ من الكِبر عُتِياً، فأصبح عاجزاً عن الحضور بنفسه لسقي الماء بدلاً منهما، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى حكاية عنه وعنهما: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ قال جار الله الزمخشري: «وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف ، والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة، متكافئة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم، مع غنيمتهما، مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النَّصَب وسقوط خُفِّ القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل، في متانة الفطرة، ورصانة الجِبِلَّة، وفيه ـ على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ـ ترغيب في الخير، وانتهازُ فُرَصِهِ، وبعثٌ على الاقتداء في ذلك بالصالحين، والأخذ بسيرهم ومذاهبهم» انتهى ما قاله الزمخشري.

ومعنى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما الغريب، و«الخطب» هو الأمر الخطير الذي يكثر فيه التخاطب، لكونه غير مقبول ولا مألوف، ولا شك أن الوضع الذي وجد موسى عليه المرأتين، من إهمال الرعاة الرجال لإسعافهما، وعدم المبالاة بإعانتهما، يُعَدُّ وضعاً غريباً، و«خطباً» عجيباً.

ومعنى ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ ﴾ أي حتى ينصرف رعاة الغنم بمواشيهم ويرجعوا من وردهم، و«الرعاء» أحد الجموع التي يجمع عليها لفظ الراعي، ومثله الرعاة.

ومعنى ﴿ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ فارق موقع السقي المعرض لأشعة الشمس، والتجأ إلى ظل ظليل، اتقاءً لشدة الحر، واستجماماً من عناء السفر الطويل.

وبعدما تنفس موسى الصُّعَدَاء، من ألم الجوع وشدة الإعياء، وهو وحيد فريد، توجه مرة أخرى إلى ربه الذي نجّاه من القوم الظالمين، يسأله الرِّفْد والمَدَد، والعطاء الذي لا ينفد ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

والظاهر أن المرأتين اللتين أسعفهما موسى وسقى لهما استرق سمعُهما ما تردد على لسانه من التوجه إلى الله، وكان موسى يعتقد أنه لم يسمع أحد صداه، فغلب على ظنهما أن موسى جائع يحتاج إلى ما يسُدُّ رمقه، لكنه يتعفف ولا يصرح بالسؤال، وأخبرتا والدهما «بعابر السبيل» الذي وفد على بلدهما، وما يبدو عليه من جميل الخصال وتبدل الأحوال، فقال لهما

أبوهما (صالح مدين وشيخها الكبير): «إذاً هو جائع وينبغي إطعامه».

ولو عرفنا موسى حق المعرفة لأدركنا أن همَّته العالية لا تهتم بالعيش الهنيء، والتمتع بأسباب الرفاهية، وإنما أراد بتوجهه إلى الله ومناجاته إياه إذ قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾: أن الخير الذي أسديتَه إليَّ يا إلٰهي عندما نجَّيتني من القوم الظالمين وحرَّرتني من رقِّ فرعون، منةٌ كبرى طوّقت بها عنقي، لا يقوم بحقها أيّ شكر، وما يَنعمَ به آل فرعون من شفوف وثروة وهناء، لا يساوي عندي شَرْبة ماء، إذ هو في الحقيقة عين الذل والفقر والشقاء، و«الفقر» في حمى الخالق هو «الغنى» على وجه التحقيق ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ الَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] أما الغِنى في حمى المخلوق فهو الفقر الذي لا فقر بعده.

ووجَّه صالح مدين إحدى بنتيه إلى موسى تدعوه لينزل ضيفاً عليه ويقدم له القِرَى ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَيٰهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ، قَالَتِ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ وإنما جاءت «على استحياء»، لأن الحياء الذي هو عبارة عن الحشمة والانقباض عن القبائح أبرز طابع يميز الفتيات العفيفات وكرائم النساء، ولاسيما إذا كان المخاطَب رجلاً وليس مَحْرَماً من محارمهن، وإنَّما قالت بنت صالح مدين: ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فبيَّنت الداعي والغرض من الدعوة، قياماً منها بتبليغ رسالة أبيها كما هي، وتوضيحاً لأن الدعوة صادرة منه لا منها، ورفعاً لكل

شبهة أو ريبة يمكن أن تحمل عليها، وكما أحسن موسى إلى بنتيْ (صالح مدين) عندما سقى لهما، وأراحهما من عناء السقي وطول الانتظار من دون سابق معرفة، ها هو أبوهما الصالح يرى من واجبه أن يقابل الاحسان بالاحسان، وأن يبادر بدعوة موسى إلى ضيافته، واستقباله في بيته مع أعضاء أسرته لمكافأته، وإن لم يكن يعرف عنه إلا مجرد الملامح التي وصفتها له بنته الكبرى وبنته الصغرى.

وأجاب موسى الدعوة التي وجهها إليه صالح مدين على لسان بنته تصديقاً لخبرها، فحضر من دون تأخر إلى بيته، ولما تعرَّف بعضهما إلى بعض، وجد كل منهما في الآخر ما يحببه في الصحبة والمرافقة، نظراً لما وجداه بينهما من مشاكلة وموافقة، وأفضى موسى بذات نفسه إلى صالح مدين، فما وسعه إلا أن يُسَلِّيه عما فات، ويُطمئِنَه على ما هو آت ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴾.

وحيث أن صالح مدين كانت له أغنام ولم يكن لديه أجير يرعى غنمه، وإنما كانت بنتاه هما اللتان تسوقان الغنم مكان الرعاة، لكونه لا عون له سواهما، فقد انتهزت إحدى بنتيه فرصة وجود موسى ضيفاً على أبيها، واقترحت عليه أن يستأجر موسى ليتولى رعي الغنم، وتستريح هي وأختها من عِبْئِهَا المضني ﴿ قَالَتِ إِحْدَيٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ ودعمت ترشيحها موسى لهذه المهمة بكونه يتوفر فيه وصفان اثنان قلَّما يجتمعان في كثير من الناس، وكل منهما له أهمية بالغة بالنسبة لأية مهمة، صغر شأنها

أو كبر: الوصف الأول أنه «قويّ»، والوصف الثاني أنَّه «أمين»، إذ قالت، فجرى قولها مجرى المثل: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾.

وسبق في سورة النمل على لسان العفريت من الجن ـ وهو يرشح نفسه لنقل عرش ملكة سبأ من مقرها إلى بلاط سليمان قبل أن يقوم من مقامه: ـ ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾، فدعم ترشيحه لتلك المهمة بكونه «قوياً» على نقل العرش، وكونه «أميناً» على ما فيه، والمراد «بالقوة» في هذا المقام ما يشمل القوة الجسمية والقوة الفكرية، من فطنة وكياسة، وسرعة بديهة، وحسن تصرف، ومَن كان قويّ الجسم ضعيف العقل، أو قويّ العقل لكنه ضعيف الجسم، لا ينهض بالمهمة الموكولة إليه، ويتسرب الخلل إلى العمل المكلف به، بقدر ما هو عليه من ضعف جسمي أو ضعف فكري، أما «الأمانة» فهي بالنسبة لكل عامل صِمَام الأمان، الذي يحول بينه وبين الغش والكسل والاهمال، ويحميه من سوء التصرف والرشوة والاستغلال، قال أحد العلماء الحكماء: «إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ـ الكفاية والأمانة ـ في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك، وتم مرادك».

واقتناعاً من (صالح مدين) وشيخها الكبير بما وصفت به بنتُه ضيفه موسى، حيث تأكدت فراستُها فيه بفراسته هو وحديثه معه، وإلماماً منه بما عليه موسى من كفاءة في الدين والحسب والنسب، وإحساساً منه بأن موسى يمر بمرحلة صقل وتصفية،

وتهذيب وتربية، فكَّرَ (صالح مدين) في أن يرتبط معه برابطة المؤاجرة والمصاهرة، تيمناً به وتبركاً. وحيث أن موسى أصبح فقيراً من الدنيا لا يملك ما يدفعه صداقاً للزواج المقترح، فقد عرض عليه صالح مدين العمل عنده أجيراً للرعي والسقي خلال ثمان سنين، على أن يكون ما يستحقه فيها عن عمله، من العوض المعلوم، هو مبلغ الصداق، وبهذه الطريقة يضمن استبقاءه إلى جانبه طيلة هذه المدة، ويكون ذلك عاصماً له من العودة إلى مصر، حتى لا يصاب فيها بأذى فرعون ﴿ قَالَ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنُ انكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَاجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾. لكن موسى إذا أمضى في عمله ثمان سنين، وأراد أن يتطوع بزيادة سنتين أخريين ليُتِم عشر سنين، كان أوفى وأكمل، وذلك من دون أي الزام بهذه الزيادة من طرف صالح مدين، ولا التزام بها من طرف موسى ﴿ فَإِنَ اَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ، وَمَآ أُرِيدُ أَنَ اَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ أي ستجدني يا موسى من الصالحين في حسن العشرة والوفاء بالعهد، واتكل موسى على توفيق الله ومعونته، في القيام بعمله وخدمته، وأكد لمستأجره أنه سيكون عند حسن ظنه في حسن المعاملة والقيام بالواجب، ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾: أي هذا تمام قول ونفاذ عقد ﴿ أَيَّمَا الَاجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ أي ثمان سنين أو عشر سنين ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ، وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي على ما تعاهدنا عليه وتواثقنا شاهد ورقيب، اكتفاء منهما بإشهاد الخالق سبحانه وتعالى عليهما من دون حاجة إلى إشهاد أحد من خَلْقِهِ.

وقد استمد علماؤنا رضي الله عنهم من هذه الآيات البيِّنات أربع فوائد:

ـ الأولى: مشروعية الإجارة، وأنها كانت أمراً معلوماً ومشروعاً بين أهل مدين، ودليل هذه الفائدة ﴿ قَالَتِ إِحْدَيٰهُمَا يَٰأَبَتِ اسْتَـٰجِرْهُ ﴾. على أن الإجارة أمر متعارف في كل ملّة، لأنها من ضروريات الخلطة والتعامل بين الناس.

ـ الثانية: عرض الولي الزواج بالبنت التي إلى نظره على من يراه كفوءاً لها.

ـ الثالثة: تولي الولي للعقد عليها.

ـ الرابعة: تقديم ذِكْر الزوج في عقد الزواج على ذكر الزوجة، لأنه الملتزم للصداق والنفقة، والقيِّم على الأسرة، ودليل هذه الفوائد الثلاث ﴿ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ انكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ ﴾.

وإنما لم يقع تعيين البنت التي يريد تزويجها هنا، لأن الأمر كان ما يزال مجرد «عرض» لا «عقد»، فلما وقع قبول العرض تعينت الزوجة وتم العقد، وبهذا يتبين أن قصص الأنبياء التي يتحدث عنها كتاب الله مصدر للتوجيه، ومنجم خصب للاستنباط، علاوة على النصوص الصريحة في الأحكام من آيات الذكر الحكيم، وسنّةِ رسوله الكريم، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الآية: ٩٠]، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿ وَاجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَـدَيْنَـٰهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الآية: ٨٧].

تعليق وتحقيق
حول الرجل الذي لقيه موسى
وبقي اسمه «مبهماً» في طي الكتمان
من دون أن يكشف عنه القرآن.

والآن، وبعد أن فرغنا من تفسير الآيات الكريمة المتعلقة بهجرة موسى من مصر وحلوله بأرض مدين، وما جرى له مع بنتي «شيخ مدين الكبير» وما انتهى إليه أمره معه من مؤاجرة ومصاهرة، وإقامة بجواره خلال عشر سنوات، من حق أيّ سائل أن يتساءل: من هو ذلك «الشيخ الكبير» الذي لم يصرح كتاب الله باسمه، وإنما تركه «مُبهَماً»؟ هل صحيح ما جرى على كثير من الألسنة والأقلام، من أن المراد به هو نفس النبي شعيب عليه السلام؟ أم أن ذلك مجرد تخمين أو التباس، أوقع فيه ما هو متعارف من كون «مدين» هي وطن النبي «شعيب»، وكون «شعيب» هو «أخ مدين» المرسل إلى أهلها، حتى أصبح اسم «مدين» مقروناً باسم «شعيب» واسم «شعيب» مقروناً باسم «مدين»، من باب «تداعي الخواطر والمعاني والأفكار»؟

وجواباً على هذا السؤال الملحّ نقدم الملاحظات التالية التي انتهينا إليها، بعد أن أعدنا النظر في هذا الموضوع، ودققنا البحث فيه بقدر المستطاع.

ـ أولاً: إن شعيباً عليه السلام ـ حسبما حكى عنه كتاب الله ـ لم يكن فريداً ولا وحيداً دون أتباع ولا أنصار، بل كان له

ـ كبقية الأنبياء والرسل ـ «رهط» من قومه المومنين به يقفون بجانبه في الشدة والرخاء، والسرَّاء والضرَّاء، حتى أن كفار مدين ـ رغماً عن مهاجمتهم إياه وتحديهم له ـ لم يسعهم إلا الاعتراف بأن له عُصْبة قوية تقف في وجوههم، وتدفع عنه أذاهم، وهم يتفادون المواجهة معها، بدليل قولهم لشعيب وهم يخاطبونه: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ كما حكى عنهم كتاب الله في سورة هود [الآية: ٩١]، بينما «الشيخ الكبير» الذي سقى موسى لبناته يصوِّره كتاب الله فريداً وحيداً عاجزاً عن القيام بشؤونه، ولذلك لجأ إلى تكليف بناته برعي غنمه وسقيها، وعندما يَرِدُ بناتُه «ماء مدين» يقفن منتظرات، من دون أن يبادر أحد من الرعاة الأشداء إلى مساعدتهن، اللهم إلا هذا الغريب و«عابر السبيل» الذي وفد من مصر إلى مدين ذات يوم، قبل أن يُنَبَّأ، واسمه «موسى»، ولو كان «الشيخ الكبير» الذي لقي موسى بناته هو نفس النبي شعيب عليه السلام لما وَكَله «رهطه» والمومنون برسالته إلى نفسه، ولما تركوا بناتِه يقمن بهذا العمل المضني، ولكان نبيهم هو أول من يسقون له ويرعون غنمه، ويقومون بخدمته، ولا سيما وهم يرون أنه بلغ سن الشيخوخة والكِبَر، الذي يعجز فيه أغلب الناس عن كثير من الأعمال، ويحتاجون إلى المزيد من البرور والإحسان.

ـ ثانياً: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بعث الله نبياً إلا في مَنَعة من قومه»، وفي لفظ آخر: «ما بعث الله نبياً إلا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده» ـ رواه الإمام أحمد في مسنده. وهذا

الحديث يتفق معناه مع الآية السابقة الواردة في سورة هود، التي تثبت أن لشعيب عليه السلام «رهطاً» ينصرونه ويقفون بجانبه، وبذلك كان شعيب عليه السلام فعلاً في «عز من قومه ومنعة في بلده»، بينما «الشيخ الكبير» الذي لقي موسى بناته لما «ورد ماء مدين» يصوره كتاب الله في عزلة تامة لا يأخذ بيده إلا بناته المحتشمات من دون غيرهن، ولا يأخذ بيدهن أحد، لولا المفاجأة التي حصلت لهن عند حلول موسى بأرض مدين.

ـ ثالثاً: إن كتاب الله وضح في سور عديدة المآل الذي آل إليه أمر شعيب عليه السلام، بعد أن بذل كل جهوده في تبليغ الرسالة إلى قومه ومحاجته لهم، ولم يبقَ له أمل في إيمان الكثرة الساحقة منهم، وهو أنه «تولى عنهم» وفارقهم بالمرة، غير «آسف عليهم ولا محزون»، ووكَلَهم إلى عقاب الله وعذابه، فأصاب كفار مدين من العذاب ثلاثة ألوان: عذاب «يوم الظُّلَّة»، وهي سحابة أظلتهم، فيها شَرَر من نَار ولهب ووهَج عظيم، وعذاب «الصَّيْحة» التي جاءتهم من فوق رؤوسهم، وعذاب «الرَّجْفَة» التي جاءتهم من تحت أرجلهم، فزهقت منهم الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾. ومعنى هذا أن قوم مدين الذين أرسل الله إليهم أخاهم شعيباً فكفروا به بادوا وانقرضوا. وإذن «فالأمة من الناس» الذين وجدهم موسى يسقون لما «ورد ماء مدين» لا يمكن أن يكونوا هم قوم شعيب الذين عاقبهم الله وقطع دابرهم، ولا يعقل أن يكونوا من الفئة القليلة التي آمنت به، إذ لو كانوا من المومنين برسالة شعيب، وشعيب لا

يزال حياً يرزق بين أظهرهم، لما أهملوا أمره وأمر أهله إلى هذا الحد، بل لا شك أنهم قوم آخرون عَمَروا هذا المكان، واستقروا به بعد ذهاب أهله وانقراضهم، وانتهاء عصر شعيب ورسالته، ودخولهما في ذمة التاريخ.

ـ رابعاً: على فرض أن النبي شعيباً عليه السلام عاش ولم يفارق مدين حتى أدركه موسى، وأنه هو الذي استضافه وصاهره واستأجره، فقضى موسى بجانبه عشر سنوات كاملة، هل يعقل أن لا يتحدث كتاب الله عن عشرتهما الطويلة ـ والحال أن الأول نبي ورسول، والثاني مرشح في علم الله للنبوة والرسالة ـ إلا حديثاً مقتضباً لا يتجاوز سبع آيات، من الآية ٢١ إلى الآية ٢٨ في هذا الثُمن، ومن دون أن يمس في الصميم أيّ جانب من جوانب الدين الأساسية، التي طالما حاور شعيب قومه في شأنها، والتي سيحاور موسى في شأنها فرعون وملأه بعد فترة من الزمن، عندما يفارق مدين ويُبعثُ من ربه رسولاً. بينما نجد كتاب الله يطيل النفَس في الحديث عن لقاء موسى، بعد نبوءته، بعبد من عباد الله آتاه الله من لدُنْه علماً، ويُفصِّل القول في تسجيل حوارهما الممتع والمثير، ويصف المفاجآت التي فوجىء بها موسى من طرف محاوره الصالح الحكيم أدقَّ وصف وأغربه. وها هي سورة الكهف شاهدة على ذلك، فقد خصصت للقائهما اثنتين وعشرين آية، من الآية ٦٠ إلى الآية ٨٢، هذا وموسى وقتئذٍ هو الرسول، ومحاوره إنما هو رجل صالح علَّمــه الله ما لم يكن يعلم، وليس في عداد الأنبياء، ألَا يدل هذا كله على أن «الشيخ الكبير» الذي

لقيه موسى بمدين لم يكن هو النبي شعيباً عليه السلام؟

ـ خامساً: إن كتاب الله عندما قص في سورة الأعراف قصة آدم في ست عشرة آية أتبعها بقصص مجموعة من الأنبياء والمرسلين على التتابع، فبدأ بقصة نوح مع قومه، التي استغرقت خمس آيات، أولها: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، ثم ثنّى بقصة هود مع عاد، التي استغرقت سبع آيات، أولها: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾، ثم ثلّث بقصة صالح مع ثمود، التي استغرقت سبع آيات أيضاً، أولها: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً ﴾، ثم ربّع بقصة لوط مع قومه، التي استغرقت أربع آيات، أولها: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾، ثم خمّس بقصة شعيب مع مدين، التي استغرقت ثمان آيات، أولها: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾، وعقّب على قصص هذه المجموعة من الرسل بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنْبَآئِهَا، وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ ﴾ إلى قوله تعالى تعقيباً على الجميع، وإلحاقاً بكل ما سبق من أخبار أولئك الرسل وأقوامهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ﴾، واستغرقت قصة موسى التي جاءت مستقلة عما سبقها من قصص الرسل السابقين أربعاً وخمسين آية. قال الزمخشري: «الضمير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ للرسل أو للأمم، يعني الأمم التي أرسلوا إليها». وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ أي من بعد الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين،

﴿ مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَـآ﴾ أي بحججنا ودلائلنا البيِّنة» انتهى كلام ابن كثير. وقال علاء الدين المعروف بالخازن: «قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ يعني ثم بعثنا بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم، وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿ مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَـآ﴾ يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه» انتهى كلام الخازن. وبشهادة هذه الآية الصريحة الواردة في سورة الأعراف وتفسيرها البيِّن يتضح لكل ذي عينين أن شعيباً عليه السلام كان سابقاً على موسى، ولم يكن معاصراً له حتى يمكن أن يتم بينهما اللقاء، وإذن «فالشيخ الكبير» الذي آجر موسى وصاهره ليس هو بشعيب المعروف «بخطيب الأنبياء»، لكنَّ الظاهر من حاله ومقاله أنه أحد الصالحين الأتقياء.

قال ابن كثير ما نصه: «قد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أُرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل رجل مومن من قوم شعيب، وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة، لأنه قال لقومه: (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد عُلم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال. ثم من المُقوِّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه

لأوشك أن يُنصَّ على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده».

ثم أشار ابن كثير إلى بعض الأقوال الأخرى التي حاولت تعيين الرجل الذي لقيه موسى، رغماً عن «إبهام» القرآن لاسمه، وختم كلامه بما انفصل عليه ابن جرير الطبري في الموضوع من دون أدنى اعتراض إذ قال: «الصواب أن هذا لا يُدرَك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك»، وإذن فلنقف عند حدود القرآن، فيما «أبهمه» ولم يثبت في شأنه أي بيان، والله تعالى أعلم.

الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين
في المصحف الكريم

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدًا
يُصَدِّقْنِيَ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ
عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اِتَّبَعَكُمَا اَلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا اَلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ
وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ اُلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ اُلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا اَلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِيَ
فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى اَلطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيَ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ اَلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾
وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي اِلْأَرْضِ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُمُوٓ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ
فِي اِلْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَٰهُمُوٓ أَيِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى اَلنَّارِ وَيَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ اِلدُّنْيَا لَعْنَةً

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا

يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد الله.

ابتداءً من اليوم نعود إلى تناول ربع كامل من الذكر الحكيم في كل حصة من الحصص، طبقاً للخطة التي جرينا عليها في أغلب هذه الأحاديث، وموعدنا اليوم مع الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية هذا الحزب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع ينتقل كتاب الله من الحديث عن إقامة موسى بين ظَهْرَانَيْ أهل مدين، حيث عقد مع «شيخ مدين الكبير» عقداً للزواج بابنته، وعقداً للإجارة والقيام بخدمته، إلى الحديث عن وفائه بكلا العقدين، وتأهبه للعودة إلى مسقط رأسه قرير العين، فها هو يغادر أرض مدين ويسير بأهله في رفقته، بعدما قضى «أتمَّ الأجلين وأوفاهما» في خدمة صهره ووالد زوجته، ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾.

ومن حكمة الله وقَدَره العجيب أن الطقس كان بارداً يتوقف على التدفئة، وأن الجو كان قاتماً يتوقف على الإنارة، فاحتاج

موسى إلى نور ونار، وبينما هو كذلك ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أي رأى ناراً تضيء على بُعْد، وكان في رؤيته لها نوع أنس ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ اَوْ جِذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾. وبينما كان موسى يتوقع العثور على نار للتدفئة ونور للإضاءة، إذا به يفاجأ بما لم يكن في الحُسْبان، ويتبين له أن النار التي تخيلها من بعيد إنما هي شجرة خضراء، وجَّهته القدرة الإلٰهية نحوها، ليتلقى من خلالها نداء الرحمٰن ﴿ فَلَمَّا أَتَيٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَٰرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَٰمُوسَىٰ إِنِّيٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ وشاطىء الوادي جانبه.

وحيث أنه كان يحمل معه عصاه التي يتوكأ عليها ويهُشُّ بها على غنمه خوطب في نفس الوقت بأمر الٰهي مطاع: ﴿ وَأَنَ اَلْقِ عَصَاكَ ﴾، فألقاها من يده في الحين، وإذا به يفاجأ بآية العصا، تلك الآية التي سيواجهُ بها في الأيام القادمة فرعونَ وملأه، ويُبطل بها سحر السحرة الذين حشرهم فرعون من جميع أطراف مملكته ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ من دون أن يلتفت إلى الوراء، وذلك لِهَوْل المفاجأة وشدة وقعها، ويتداركه الحق بلطفه ويهدىء رُوعَه في الحين، قائلاً: ﴿ يَٰمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفِ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾.

ثم يُجري الحق سبحانه وتعالى على اليد التي كان موسى يحمل بها عصاه آيةً ثانية، فيُغاير بين لونها ولون جسمه العادي، وتصبح بيضاء ناصعة البياض لها شعاع وبريق، لكن من غير عاهة

ولا برص، ويتلقى موسى خطاب ربه قائلاً: ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [الآية: ٢٢].

ثم يدعوه الحق سبحانه وتعالى إلى أن يضبط نفسه ويتجلد، ويسلك مسلك أولي العزم من الرسل، فلا يجزع ولا يخاف، لأن العناية الإلّهية ستحيطه كما أحاطتهم بخفيّ الألطاف، وهذا ما يشير إليه الخطاب الإلّهي الموجه إلى موسى إذ يقول: ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾.

ثم كشف الخطابُ الإلّهي عن السر فيما آتاه الله لموسى الكليم، من الرعاية والتكريم، إذ قال تعالى: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ﴾، إشارةً إلى أن تحويل عصا موسى بأمر الله إلى حَيّة تسعَى في الوقت المناسب، وتحويل يده من حالتها الطبيعية، إلى يد بيضاء تتلألأ، لها شعاع وبريق، إنما هما برهانان على صدق رسالته، وصحة نبوته، أكرمه الله بهما ليتغلب على عناد فرعون ومغالطته، عندما يُقبل على مخاطبته، ويتوجه إليه بدعوته، وعقّب كتاب الله على هذا القرار الإلّهي الحكيم بأن فرعون وملأه قد جاوزوا الحدود في تصرفاتهم ومعاملاتهم وحياتهم الخاصة والعامة، فلا بد من أن يوجَّه إليهم الإنذار الأخير، قبل الأعذار وسوء المصير ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ ﴾.

والآن وقد سُرِّي عن موسى ووعَى خطاب ربه، وأدرك مبلغ العبء الثقيل الذي وضعتْه الأقدار الإلّهية على عاتقه، أخذ يتعلل

بكل وجه، رجاءَ أن يُعفَى من تكاليف التبليغ، ومواجهة طاغية كبيـر يضرب به المثل في العدوان والطغيان في كل الأزمان ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾.

ثم تعلل بكونه ليس فصيح اللسان، و لا قـويّ التعبير والبيان، كأخيه هارون، وكأنه يشير من طرف خفي إلى ترشيح أخيه بدلاً منه لهذه المهمة الخطيرة، وذلك قوله فيما حكاه عنه كتاب الله: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾.

ثم يقـول متلطفـاً متعقبـاً: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِداً (رِدْءاً) يُصَدِّقُنِيَ ﴾ والردء: بمعنى المعين، ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾. لكن الحق سبحـانه وتعـالى أكد تكليف مـوسى بالـذهاب إلى فرعون، وأنعم عليه في نفس الوقت بالتصديق على مؤازرة أخيه هارون فيما وكله إليه ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾.

وتهدئةً لروع موسى وتأميناً له من كل خوف تعهد الحق سبحانه وتعالى برعايته ورعاية أخيه، وحمايتهمـا من كل أذى، وبشّرهما بأن الغلبة في النهاية ستكون لهما ولمن اتبعهما على الحق، ومعنى ذلك أن الهزيمة ستكون عاقبة فرعون وملائه، وهذا التعهد الإلٓهي النافذ هو ما نطق بـه قول الله تعـالى في نفس السياق: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ، أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَـٰلِبُونَ ﴾.

قال جار الله الزمخشري: «فإن قلت ما الفائدة في تصديق أخيه (رِداً يصدقْني)؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له:

صَدَقْتَ، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخِّص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة، فذلك جارٍ مجرى التصديق المفيد، كما يُصدِّق القولُ بالبرهان».

ومضى كتاب الله يقص على نبيه والمومنين كيف ذهب موسى إلى فرعون وملائه، ويحكي الحوار الذي دار بين الفريقين، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ، وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ الدَّارِ ﴾ وهذه لهجة خالية من المباهاة والعناد، مرغوب في استعمالها عند القيام بالدعوة والإرشاد، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾.

وعرض كتاب الله بعد ذلك ما قام به فرعون من مغالطة مكشوفة، تأييداً لعقيدته الفاسدة، وتثبيتاً لها في نفوس الأغرار والأغمار من قومه، مستعيناً بهامان مستشار دولته، والمدافع عن عقيدته ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي ﴾ أي أنا مالك رقابكم الوحيد، الذي تلزمكم طاعتي والخضوع لأمري دون غيري ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّيَ أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾، وما دام أيُّ بِناءٍ ولو بلغ أعلى عليين، لا يصل متسلقه إلى عرش رب العالمين، لكونه لا يحده زمان ولا مكان، ولا يدركه بصر أي إنسان، فسيتخذ فرعون من ذلك ذريعة لإنكار الألوهية، ويجعل موسى أمام الملأ موضع

تهكم وسخرية، مشككاً فيه وفي عقيدته إذ يقول: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ ﴾.

ووصف كتاب الله ما كان عليه فرعون وجنوده من عتو واستكبار، وإهدار لحقوق الخلق واستهتار، ثم عقب على ذلك بإغراقهم في البحر وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، جزاءً وفاقاً لكل طاغية متجبر، فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ، فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾.

قال الزمخشري: «هذا من الكلام الفخم الذي دل به (كتاب الله) على عظمة شأنه، وكبرياء سلطانه، شبههم ـ استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم ـ وإن كانوا الكثر الكثير، والجم الغفير ـ بحَصَيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره، وأن كل مقدور وإن عظم وجل فهو مستصغر إلى جنب قدرته سبحانه وتعالى».

وكما كافأ الله أئمة الهدى الذين يدعون الناس إلى الخير، فجعل لهم «لسان صدقٍ» أي لسان «مدح ومبرَّة» في الآخرين، كافأ أئمة الضلال الذين يدعون الناس إلى الشر، وجعل لهم لسان «قدح ومَعَرَّة» في الدنيا ويوم الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ، وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾.

وشاءت قدرة الله أن يكون قيام موسى بتبليغ دعوته، المقرون بالقضاء على فرعون ودولته، تمهيداً لإكرام موسى بنزول التوراة عليه، وإقامة نظام جديد مستمد من الوحي الإلّهي ومستند إليه، فقد مضى على الإنسانية قبله زمن طويل لم تعرف فيه أي مرشد أو دليل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وبعدما تلا كتاب الله على رسوله الأميّ الأمين، نبأ موسى وفرعون بالحق المبين، توجه إليه بالخطاب المستطاب، ممتناً بما قصّه عليه من أمرهما في محكم الكتاب، فقال تعالى مخاطباً لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾، و«الغربي» هنا وصف للمكان الواقع في شقّ الغرب من «الطور»، حيث تلقى موسى عنده أمر ربه، وقال تعالى مخاطباً له مرة ثانية: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي ما كنت مقيماً بين أظهرهم، فتروي لأمتك خبرهم وخبر إقامة موسى عندهم ﴿ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾. وقال تعالى مخاطباً له مرة ثالثة: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ أي طور سيناء أو «طور سينين» كما جاء في سورة التين ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي ليلة المناجاة والتكليم، لموسى الكليم.

وهكذا يُذكِّر كتابُ الله خاتم رسله بالمراحل التي قطعها موسى في حياته قبل أن يولد هو ويبعث بقرون، ويعرِّفه بالوقائع والمواقع التي تألفت منها قصة موسى بدءاً وختاماً، الأمر الذي لا

سبيل إلى معرفته، والتعرف عليه على حقيقته، لولا الوحي الذي أكرم الله به رسوله، وجعله برهان صدقه ودليله، يتحدَّى به الجاحدين والمكابرين، ويطاول به المشركين والكافرين، ويذكِّر به المومنين، ولذلك قال تعالى وهو يخاطب نبيه في الآية الأولى من هذا السياق: ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴾ أي لم تكن حاضراً لتلك الوقائع، ولا عارفاً بتلك المواقع، وقال تعالى في سياق الآية الثانية: ﴿ وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي نحن الذين اصطفيناك وأرسلناك، ومن عِلْم الغيب علَّمناك، وقال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿ وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَيٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي قصصنا عليك أحسن القصص وعلمناك ما لم تكن تعلم، رحمة وتذكرة للقوم الذين طال عليهم الأَمَد، فقد سبقت لهم العناية، واقتضت حكمة الله أن يُمِدَّهم على يدك بهذا المدد، عسى أن يُصلح الله أمرهم، ويجْبُر كسرهم، ويجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

ثم زاد كتاب الله هذا المعنى توضيحاً وتوكيداً، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾ ومعنى هذه الآية أن الله تعالى، رحمةً منه وفضلاً، نظر إلى حال «أهل الفترة والجاهلية الأولى» ولم يبادر إلى عقابهم بما يستحقون، رغماً عما اجترحوه من المعاصي والآثام، في سالف الأيام والأعوام، لأنه لو لم يُمهلهم، ولو بادرهم بالعقاب قبل

إرسال الرسول وإنزال الكتاب، لخُيِّل إليهم أنهم مظلومون، ولقالوا: كيف يعاقبنا الحق ونحن من الهداية محرومون، فلو أُرسَل إلينا رسولاً لآمنَّا به وصدقناه، ولو أنزل علينا كتاباً لأخذنا به واتَّبعناه.

ويعرِّج كتاب الله بعد ذلك على موقف المتعنتين المعاندين الذين تمسكوا بالضلال والخبال حتى بعد إعلان الرسالة ونزول الكتاب، وأخذوا يشترطون للإيمان بخاتم الرسل أن يكون له من الآيات مثل ما أُوتي موسى من قبل، والحال أنهم لم يومنوا برسالة موسى ولا برسالة عيسى من بعده، رغماً عن الآيات التي قارنت رسالتهما. على أنَّه لا يلزم أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام واحدة، كما لا يلزم فيما أُنزل عليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد.

وها هو كتاب الله يعلن كفرهم الصراح بجميع الرسالات والرسل دون استثناء، ويبيّن أنَّ ما كانوا يبررون به مواقفهم ليس إلا مجرد تستر وتهرب والتواء، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ وهو محمد خاتِم الرسل، والقرآن خاتِم الكتب ﴿ قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ، أَوَ لَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ وعن موسى ومحمد عليهما السلام: ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا، وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾.

ولقن كتاب الله لرسوله حجة أخرى تقطع أعذارهم، وتهتك أستارهم، فأمره أن يطالب أئمة الكفر بأن يقدموا له وللبشرية كتاباً

أهْدَى من التوراة التي أُنزلت على موسى، وأهـدى من القرآن الذي أُنزل بعده على محمد، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وأن يعلن إليهم أنه على أتم الاستعداد لإتّباع هذا الكتابِ المقترح عليهم إن جاؤوا به من عند الله، وكان أهدى مما جاء به رسول الله، والله يعلم في سابق علمه وأزله أنهم عاجزون عن الاتيان بهذا الكتـاب، وأنّهم عُبّاد هـوى وأتباع ضـلال لا يبحثون عن الحق ولا يهتدون إلى الصواب، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع مخاطباً لنبيه في إيجاز وإعجـاز: ﴿ قُلْ فَـاتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ، فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمَ اَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ، وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوِيٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن
قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ
مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ
شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا

مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن
مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ
إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

الربع الأول من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الأربعين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع أكد كتاب الله أن رعاية الحق، وعنايته بهداية الخلق، رعاية لا تنقطع على الدوام، وعناية لا تتضاءل مع مرور الأيام، وإن اعتصم كثير من الناس بحبل الضلال، ولَجُّوا في العناد والجدال، ولذلك توالت الرسالات والرسل عَبْر الأجيال، وبقيت أبواب الهداية مفتوحة في وجوههم دون أقفال، وها هو خاتم الكتب المنزلة تتوالى سوره وآياته، وتتلاحق نصائحه وعظاته، لخير البشرية جمعاء، وإنقاذها من الضلال والعماء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتبعنا رسولاً بعد رسول، وأردفنا كتاباً بعد كتاب.

وضرب الله المثل، لمن اغتنم فرصة ظهور الرسالة الخاتمة، ونزول الكتاب الخاتم، فبادر إلى الدخول في حظيرة الاسلام، بفريق من أهل الكتاب ما كادوا يسمعون رسول الله يتلو كتاب الله حتى أعلنوا إيمانهم، وأرضَوا ضميرهم ووجدانهم، واعترفوا بأن ما جاء به من عند الله هو الحق الذي لا غبار عليه، وأنَّ مرد كل شيء إليه، مؤكدين علاوة على ذلك، أنهم كانوا على بيِّنة من أمر هذا الكتاب، قبل أن ينزل ويُرفع عنه الحجاب، وذلك ما يتحدث عنه كتاب الله إذ يقول: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾.

ويُكرِم الله هذا الفريق الذي لم يُفرِّق في الإيمان، بين كتب الله ورسله، إذْ آمن بخاتم الرسل وخاتم الكتب، فيثيبهم على إيمانهم ثواباً مضاعفاً، حيث إن «الكتابي» الذي أدركه الإسلام كان مخاطباً من جهة نبيه أولاً، ثم خوطب من جهة نبينا ثانياً، فلما أجاب نبيّنا واتَّبعه، بعدما أجاب نبيه واتَّبعه، فاز بالحُسنيَيْن، وكان له أجر الملَّتين، وذلك ما ينطق بمعناه كتاب الله إذ يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

ونظراً إلى ما يتعرض له هذا الفريق من أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، وأقروا برسالة سيدنا محمد عليه السلام، من أذى أهل ملَّتهم الأولى، الذين أصرُّوا عليها عناداً واستكباراً، وأخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام سراً وجهاراً، فقد وصف

كتاب الله صبرهم على أذى المكابرين، وإعراضهم عن مهاترات الكافرين، واستهانتهم بما يُصَبُّ عليهم من وابل النقد والتجريح من طرف السفهاء الجاهلين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ، سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ ﴾ و«اللغو» ما حقُّه أن يُلغَى ويترك من العبث وغيره، ثم عقَّب كتاب الله على هذه الظاهرة المستحسنة، التي برزت في سلوك فريق من أهل الكتاب، فآمنوا بالدين الجديد، ونالوا أحسن الجزاء على ما قاموا به من عمل صالح والتزموه من قول سديد، مؤكداً لرسوله أن القاء نور الهداية إلى الحق في قلب هذا الفريق أو ذاك، أو هذا الفرد أو ذاك، أمر فوق طاقة الرسول مهما كان حريصاً عليه، ولو كان الأمر يتعلق بأقرب الأقربين إليه.
ذلك أن نور الهداية إلى الحق لا يحتل قلب أحد إلا إذا صاحبته العناية الإلّهية، ورافقه التوفيق، في جميع خطوات الطريق ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَـآءُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾. ولا تناقض بين قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ ﴾ وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، لأن المقصود بالهداية في الآية الأولى هو امالة القلب من الباطل إلى الحق، وذلك من خصائص قدرة الحق سبحانه، والمقصود بالهداية في الآية الثانية هو مجرد التبليغ والدعاء إلى الحق، وذلك واجب في حقه ﷺ، إذ ما بعثه الله إلا رحمة للخلق ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل: ٨١].

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن أحوال وأقوال المتثاقلين عن الاستجابة لله ولرسوله، فقد زعموا أنهم لو آمنوا بالله، واعتصموا بحبل الله، للحقهم ضرر كبير، وشر مستطير، متعللين بأن الجمهرة الغالبة من الناس مجمعة على خلافهم، لا تومن بهذا الدين، ولا تُصدق رسالة رسوله الأمين، فإذا آمنوا وحدهم أصبحوا عرضة للانتقام والعدوان، ونالهم ما لا يطيقونه من الذل والهوان، وقد كان هذا القول هو قول مشركي مكة قبل أن يسلموا، وهو قول أمثالهم في كل جيل، وذلك هو ما يحكيه كتاب الله عنهم إذ يقول: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنَ أَرْضِنَآ﴾.

لكنَّ كتاب الله بادر إلى إبطال مزاعم مشركي مكة في الحين، مذكراً لهم بأن القداسة التي تتمتع بها مكة، والحرمة التي اختصت بها وعاشوا في ظلها، إنما منحها لها اللهُ جل جلاله، فهو الذي جعلها مقر البيت الحرام، حتى أصبحت موضع التوقير والاحترام عند جميع الأقوام ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً تُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا﴾ وهذه الخاصية التي احتفظت بها مكة، رغماً عن تطاول السنين، حتى في عهد الجاهلية، لن ترتفع عنها إذا تطهَّرت من الشرك والمشركين، وعادت من جديد مهد الملَّة الحنيفية، بل ستصبح مكانتها أعظم وأكبر، وسيصبح ذكرها في العالم أسْيَر وأشهر ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وذكَّر كتابُ الله كلَّ من عنده إلمام ولو قليل بما تعاقب على

البشر من كوارث ونكبات، بأن الطغيان بالنعمة والغرور بها وسوء التصرف فيها، والاستكبار على الحق والخلق من أجلها، وعدم التوجه بالشكر إلى الله الذي أنعم بها، يؤدي حتماً إلى زوالها، وقطع دابر أهلها بالمرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا، فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾. وهذه الآية تحمل في طياتها تعريضاً بأهل مكة، وإنذاراً مباشراً لسادتها وكبرائها الذين ألفوا العيش الغض في رفاهية وترف لا نظير لهما عند بقية العرب، بفضل التجارة الواسعة التي كانوا يحتكرونها، ويُسيِّرون قوافلها جنوباً وشمالاً في ظلال الأمن الوارف، فما زادهم ذلك الأمن والاستقرار، إلا استكباراً على استكبار.

وتعرض كتاب الله في هذا السياق للحديث عن مبدأ أساسي في الاسلام يتجلى فيه العدل الإلٓهي المطلق، والرحمة الإلٓهية الواسعة، وهذا المبدأ الأساسي يتألف من شقين اثنين:

الشق الأول: أن الله تعالى لا يعاقب قوماً ولا يهلكهم إلا إذا تعدّوا حدود الله، وأصبح الظلم شيمتهم، والفساد في الأرض خطتهم، فلم يعودوا صالحين للخلافة عن الله فيها بعمارتها، وحسن التصرف في طيّباتها.

والشق الثاني: أن الله تعالى لا يهمل القوم الظالمين، ولكنه يمهلهم ويملي لهم، ويوجه إليهم الإنذار تلو الإنذار، والاعذار تلو الاعذار، عن طريق الرسل الذين يبعثهم إليهم، والكتب التي

ينزلها عليهم، فإذا لم يستجيبوا لله ورسوله ولم يهتدوا بكتابه سقطت حجتهم، وبطلت معذرتهم، ونفذ قضاء الله فيهم، فأهلكهم مادياً ومعنوياً، اجتماعياً وسياسياً، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

والمراد «بالقرى» في كلتا الأيتين نفس المدن الآهلة بالسكان، التي يكون لها من قوة الاشعاع والتوجيه شأن وأي شأن، لا ذَلِكَ المعنى المتعارف اليوم في تصنيف المدن والقرى، واعتبار القرية دون المدينة، و«أم القرى» هنا هي كبرى المدن التي تكون عاصمة لها أو بمنزلة العاصمة، كما كانت مكة عند ظهور الإسلام بالنسبة للعرب.

وبعدما بيَّنت الآيات السابقة عاقبة السوء التي تؤدي إليها الأثَرة والأنانية والبطَر، التفت كتاب الله إلى أولئك المنهمكين في جمع الحطام من الحلال والحرام، الذين تملَّكتهم شهوة الطمع والشره، ففقدوا راحتهم وأنسهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، ملوِّحاً لهم بالتخفيف من حدة التعب والنَّصَب، والتعفف والاعتدال في الطلب، مذكراً إياهم بالمصير المحتوم، في انتظار اليوم المعلوم، الذي يجب له الاستعداد، والتزود بخير الزاد، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى في هذا الخطاب، الذي لا يتذوق معناه إلا أولو الألباب: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا

وَزِينَتُهَا، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ، أَفَمَنْ وَعَدْنَـٰهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي من الذين يساقون مرغمين على الحضور أمام الله، ويحاسبون حساباً عسيراً على ما فرطوا في جنب الله، وكما وردت كلمة (المحضرين) في هذه الآية، وردت في آيــة ثانيــة: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وفي آية ثالثة: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧].

واختار كتاب الله من مشاهد القيامة في هذا السياق مشهدين اثنين جاوزت قوة الوصف فيهما قوة المشاهدة والعيان، مما يضطر كل عاقل إلى المبادرة بالإيمان والإذعان. المشهد الأول ينطلق من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، والمشهد الثاني ينطلق من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾:

ـ المشهد الأول: يمثل موقف دعاة الغواية والضلال، وما نالهم من خيبة الأماني والآمال، لا بالنسبة للمتبوعين ولا بالنسبة للأتباع، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا، تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ، مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ، وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ لَوَ اَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

ـ والمشهد الثاني: يمثل موقف الأمم والأفراد، أمام الأنبياء

والرسل عند جمع الجميع «يوم التناد» حيث يقف المكذبون بالرسالات الإلّهية حائرين مُبلسين، فهم جميعاً سواسية في منتهى الحيرة والافحام، والوجوم التام، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

واستبعد كتاب الله من هذا الموقف المهين من خرج من الكفر إلى الايمان، وانتقل إلى الطاعة بعد العصيان، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الفائزين.قال ابن كثير: «و(عَسَى) من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة»، وقال الزمخشري:«و(عَسَى)من الكرام تحقيق».

وانتقل كتاب الله إلى الرد على تطفل المتطفلين من عتاة المشـركين، حيث أخذوا يُنقِّصـون من قدر الـرسـول الكـريم، ويزعمون أن هناك من هو أحقّ منه بالرسالة، على حد قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، مبيناً أن إرادة الله التي هي فوق كل اعتبار، هي أساس الاختيار لرسالة المصطفى المختار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَـٰنَ اللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وكما قال تعالى في هذه الآية: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي أن الله تعالى لا يرسل من اختاروه هم، وإنما يرسل من اختاره هو، كما قال تعالى في آية

أخرى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وبعدما ردَّ كتاب الله على تطفل المتطفلين، الذين أرادوا أن يكون الترشيح للرسالة تبعاً لأهوائهم، وخادماً لمصالحهم، أتبع ذلك بآية كريمة تُلمِّح إلى ما تنضَح به ضمائرُهم، وتنطوي عليه سرائرهم، فقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وذكَّر كتاب الله الناس أجمعين، بحقيقة التوحيد الكبرى القائمة إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي المنفرد وحده بالألوهية والربوبية وتدبير الكون، ايجاداً وإمداداً، ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾ أي له الحمد في الأولى على رزقه ونعمته، وله الحمد في الآخرة على عدله ورحمته، وله الحمد فيهما على تدبيره وحكمته، فلا يفعل ربك إلا خيراً، أما الحمد في الدنيا فجميع الخلائق تحمده بلسان الحال دائماً، وبلسان المقال أحياناً ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وأما الحمد في الآخرة فمصداقه ما يجري على ألسنة الذين اصطفاهم الله من عباده عند لقائه إذ يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]، وما يجري على ألسنة المتقين الذين فُتِحت لهم أبواب الجنة، وقال لهم خزنتها: سلام عليكم طِبتم فادخلوها خالدين إذ يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي له الحكم

المطلق، المناسب لجلاله وكماله، الذي لا يتأثر بشهوة، ولا يصدر عن هوى، والحكم الأوفق بطبيعة الإنسان والأضمن لمصلحته شرعاً وقدراً، ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا ﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين: ٨] ثم قال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أحببتم أم كرهتم، فرادى كما خلقكم أول مرة ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وكمثال بارز على ألوهيته وربوبيته وتدبيره الحكيم دعا الناس أجمعين في هذا المقام إلى التفكير في ظاهرة كونية يرونها من دون انقطاع، لكنهم كثيراً ما يغفلون عن الحكمة الإلٓهية المتمثلة فيها، وعن المنفعة الكبرى التي يجنيها الإنسان والحيوان والنبات منها، وعن الوضع المفزع والمفجع الذي تتعرض له الأحياء جميعها لو لم تتكررْ هذه الظاهرة الكونية في مواعيدها، وتتجددْ كل مطلع شمس ومغربها في مواقيتها، ألا وهي ظاهرة تعاقب الليل والنهار وتبادل الضياء والظلام، بنظام وانتظام، وذلك قوله تعالى مخاطباً كافة خلقه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ومعنى «سرمداً» متصلاً على الدوام.

وبهذه المناسبة التي أبرز فيها كتاب الله بعض مظاهر الحكمة الإلٓهية الكبرى، والتدبير الإلٓهي العظيم، أعاد النداء الأول الموجَّه إلى المشركين بنفس الصيغة التي سبقت من قبل، تسفيهاً لرأيهم، وإبطالاً لزعمهم من جديد، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

وختم هذا الربع بخطاب موجَّه إلى كل من يجادل في صحة الإيمان وصدق القرآن، يطالبه ـ إن استطاع ـ بتقديم الحجة والبرهان، حتى إذا ما عجز عن الاحتجاج لإثبات معتقده، سُقِط في يده، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

والمراد «بالشهيد» هنا على سبيل الأصالة رسول كل أمة، فهو الذي يشهد على أمته ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ويشهد لهذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ٤١]، ويندرجُ تحت كلمة «شهيد» «بالتبع للرسول» مجموع الشهداء من أمته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الربع الثاني من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ
الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ۖ إِذْ
قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ
مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا
إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن
فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ
اللَّهُ عَلَيْنَا لَخُسِفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ
بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن
جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ
إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

الربع الثاني من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى في (سورة العنكبوت المكية): ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

لقد نبَّهنا عند الشروع في تفسير (سورة القصص المكية) التي ينتهي تفسيرها في هذه الحصة إلى أن أكبر جزء من آياتها تشغله قصة موسى مع فرعون وقومه، ثم قصة قارون مع قوم موسى، فهما القصتان الوحيدتان الواردتان في هذه السورة، أما بقية الآيات التي تتخللهُمَا فهي للتعقيب والتذييل واستخلاص المَثُلات والعِبر، وها هو كتاب الله بعدما عرض من القصة الأولى ما يعزز مركز الرسول ويؤكد صدق رسالته، ويكونُ عبرة له ولأمته، يشرع في الحديث عن قصة قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم.

ومن وصف كتاب الله لقارون وقصته يكتشف المومنون نموذجاً غريباً من حياة المترفين الأغرار، وما هم عليه من كِبْر

وبَطَر وعتو واستكبار، ويشاهدون الصراع القائم بين «العلم السطحي الأعمى» الذي هو أسير الشهوة والأثرة والأنانية، و«العلم العميق المستنير» الذي هو المعيار الصَّحيح لتمييز الحق من الباطل، والنعيم الباقي من النعيم الزائل.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ وبذلك يثبت لقارون صفة البغي والظلم، وأنه لم يَرْقُبْ في قومه إلاً ولا ذمة، وهذه الصفة وحدها كافية لأن ينال من أجلها العقاب الإلٓهي الصارم «فالظلم ظلمات يوم القيامة» - «ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب» كما جاء في الحديث الشريف.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ ﴾، إشارةً إلى الثراء الواسع الذي أصبح يتقلب فيه، حتى أن مفاتح خزائنه وحدها أصبحت -من كثرة كنوزه وتنوع مدخراته- تُكوِّن حِمْلاً ثقيلاً يعجز عن ضبط أمره والنهوض به الجمع القوي من الخَدَم والحشم. وكونُ قارون ممن يكنز المال ولا ينفقه في سبيل الله، ولا يشرك في النفع به أحداً من عباد الله، كافٍ ليجعله موضع غضب الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

ويرى عقلاء القوم المتبصرون، في سلوك قارون المنحرف وعمله الفاسد، ما يثير الاشمئزاز ويستحق الانتقاد، ولا سيما ما هو عليه من المبالغة في الاعجاب بالنفس والاستعلاء على العباد،

ويحاولون أن يُسْدُوا إليه النصح الخالص والموعظة الحسنة، عسى أن يصلح خطأه ويقوِّم اعوجاجه، ويندرجَ في عداد من يصدق عليهم مثل قول الرسول الأعظم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وذلك ما حكاه كتاب الله عنهم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَيٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لكنه لا يلبث أن يرد عليهم رد الجاهلين الذين أَمِنُوا مكر الله، ولا يعترفون بأيِّ فضل لله. وبينما يقول الله تعالى ممتناً على قارون ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾، مثبتاً أن العطاء كله إنما هو منه وإليه، ويقول له عقلاء قومه: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَيٰكَ اللَّهُ ﴾ موقنين بأن ما آل إليه من المال إنما استخلفه الله فيه، وجعله وديعة بين يديه، إذا به يرد عليهم في صَلَف وغرور، منكراً منَّة الله، ومتجاهلاً كلَّ من له حق في المال من ضعفاء عباد الله ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيَ ﴾. أما «نصيب الإنسان من دنياه» الذي تشير إليه الآية ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ فهو أن يعيش ويأكل ويشرب غير مضيَّق عليه، حسبما فسره الإمام مالك.

وعقَّب كتاب الله على تصريح قارون المليء بالجهل والكِبْر، مذكراً بسنَّة الله التي قد خلت من قبل في هذا النوع من عتاة المترفين، وأنه يمهلهم ولا يهملهم، بل ينتقم منهم ويهلكهم، ويصبحون أثراً بعد عين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾

والضمير يعود على قارون وكل من هو على شاكلته، ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾، إشارةً إلى حقارة هذا النوع المتكبر المتجبر وهَوَانه على الله، حتى أنه لا يسأل يوم القيامة سؤال استعتاب، لأنه ليس أهلًا للعتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤]. وهذا لا ينفي أن أمثال هؤلاء المجرمين سيسألون يوم القيامة سؤال تقريع وتوبيخ يتلاءم مع مقدار جُرمهم، وبالغ كبرهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وليوضح كتاب الله ما كان عليه قارون من فخر وتيه واختيال، واعتزاز شديد بالثروة والمال، قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي خرج على قومه مختالاً فخوراً في زينة فاخرة جاوزت الحدود، وتبرج أثيم فاق كل معهود، الأمر الذي فُتِنَ به ضعفاء النفوس والعقول من قومه، فأخذوا يتمنون على الله أن يصبحوا مثل قارون ثروة ومالاً، جاهلين أن الثروة التي لا يعترف صاحبها بفضل الله، ولا يؤدي عنها حقوق الله، كثروة قارون، إنما تجر على صاحبها عقاباً ووبالاً، لكن سرعان ما قام عقلاء القوم الذين هم على بيِّنة من حقائق الدين ووقائع التاريخ بنصحهم وتحذيرهم من مثل تلك الأماني الباطلة والشهوات الزائلة، وذكَّروا أولئك المعجبين المبهورين بثروة قارون وزينته:

بأنَّ الإيمان بالله والعمل الصالح هما أقرب سبيل إلى نيل رضا الله ورحمته، وضمان رزقه ونعمته، وأن الصبر عن الشهوات والأماني هو الطريق الوحيد إلى الفوز بنعيم الله ودخول جنته.

وإلى الانفعالات والتعليقات التي أثارها تبجح قارون وخروجه في زينته، بالنسبة لكلا الفريقين يشير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ قَالَ الذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، وَقَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْـمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنَ ـ امَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً، وَلاَ يُلَقَّيٰهَآ إِلاَّ الصَّـٰبِرُونَ ﴾.

وبقدر ما كانت «خَرْجَة» قارون في زينته، محفوفاً بالحشم والخدم، لافتة للأنظار، مثيرة للأفكار، ها هو الحق سبحانه وتعالى يأخذه أخذ عزيز مقتدر بشكل يدهش العقول ويبهر الأبصار، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدارِهِ الاَرْضَ، فَمَا كَانَ لَـهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لا حشم ولا خدم يستطيع أن يرد عنه عقاب الله، ولا مال ولا جاه يشفع له عند الله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾. قال الإمام القشيري وهو يصف قارون: «حمله حبُّ الدنيا على جمعها، وحمله جمعها على حبها، وحمله حبها على البغي على قومه، وصارت كثرة ماله سبب هلاكه».

ولا يكاد عقاب الله ينزل بقارون المتبرج المختال، حتى تزول الغشاوة عن أعين الذين كانوا بالأمس القريب يتمنون أن يكونوا مثله، فيعترفون بمنة الله عليهم، إذ لم يعاقبهم على ما تمنوه، ولم يخسف بهم وبديارهم كما فعل بقارون، ويقرّون بأن سعة الرزق أو

ضيقه إنما مردهما إلى حكمة الله وتدبيره، ويدركون ـ مشاهدة وعياناً ـ أن من أمن مكر الله، وكفر بأنعم الله، لا تكون عاقبته إلا خذلاناً وخسراناً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾.

وكلمة (وَيْ) في قوله تعالى هنا: ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾، وقوله: ﴿ وَيْكَأَنَّهُ ﴾ هي في الأصل كلمة مستقلة ومفصولة عن (كأن) التي جاءت بعدها، وإن كانت في رسم المصحف الكريم متصلة معها اتصال الكلمة الواحدة، وهي كلمة تقال عند التنبه للخطأ وإظهار التندم، وكتاب الله عندما استعمل كلمة (وَيْ) في هذا المقام أراد أن يبين أن قوم قارون قد تنبهوا إلى خطئهم في تمنيهم، عندما قالوا من قبل: ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾، وأنهم تندموا على ما فَرَط منهم من فلتات اللسان، عندما رأوا رأي العين أن مآل الكافرين بأنعم الله هو الخذلان والخسران، وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه قوله تعالى أوجز تعبير: ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وبعدما سجل كتاب الله نفاذ حكمه القاهر فوق عباده، في فرعون الطاغية المتجبر، الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، واستكبر هو وجنوده في الأرض حيث نبذه وجنوده في اليم نبذ

النواة، كما ورد ذلك في ختام قصة موسى، وبعدما سجل كتاب الله نفاذ حكم الله القاهر فوق عباده في قارون، الذي بغى على قومه، وخرج في زينته متبرجاً مختالاً، حيث خَسَف به وبداره الأرض، كما ورد ذلك في نهاية قصة قارون، انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة عامة تشملهما وتشمل كل من سلك مسلكهما وكان على شاكلتهما من الطغاة المفسدين، وعتاة المترفين، مبيِّناً أن من لم يعمل على إقامة العدل بين الناس، ونشر الصلاح في مجتمعاتهم، لن يكون له أدنى حظ من النعيم المقيم في دار الخلود، لأنه خان أمانة الخلافة عن الله في الأرض، وقابل نعمة الله بالكفران والجحود، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. وتقوى الله هي الحاجز الحصين من الوقوع في شَرَك الفساد، وهي الدواء الناجع لعقدة الاستعلاء والاستبداد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن سلوك الإنسان في حياته اليومية، وما يقضي فيه وقته من حسنات، تنفع الأفراد والجماعات، وما قد يرتكبه من سيئات لا يستريح ضميره إلا إذا كفَّر عنها بالحسنات، فبيَّن أن الحق سبحانه وتعالى الذي يريد الخير لعباده يجزي على الحسنة بخير منها ويضاعف أجرها، وأنه رفقاً بهم ونظراً إلى ضعفهم لا يعاقب على السيئة إلا بقدرها، نظراً لأن المومن الحق يأنف بطبعه من ممارسة السيئات، ولا تصدر منه السيئة إلا على أنها هفوة من الهفوات، وفلتة من الفلتات ﴿ إِنَّ الْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ

خَيْرٌ مِّنْهَا، وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

ولما انتهى كتاب الله من عرض قصة موسى مع فرعون وقصة قارون مع قوم موسى، وهما محور الحديث في «سورة القصص» توجه بالخطاب في الآيات الأربع الأخيرة من هذه السورة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، يَمُنُّ عليه بنعمة الوحي الذي آتاه، ويذكّره بتعاليم الحنيفية السمحة التي يهتدي بها في الدعوة إلى الله، ويأمره بالثبات على الحق والصمود في وجه أعداء الله، ويعرّفه بأنه مسؤول عن رسالته أمام الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي أن الذي فرض عليك تلقي القرآن، وحفظه وتلاوته، وتبليغه للناس، وتبيينه لهم بما أراك الله، والحكمَ به في شؤونهم الخاصة والعامة، لرادك إليه، وسائلك يوم القيامة عن جهادك في سبيل القرآن، وعن دَوْر رسالة القرآن، وأثرها في حياة أمة القرآن، وإلى هذا المعنى المناسب للسياق، والمتسق معه أحسن اتساق، ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] وقولُه تعالى في نفس الاتجاه: ﴿ وَجِيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩].

وكما قال موسى لفرعون وملائه فيما سبق بإرشاد من ربه: ﴿ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ الدَّارِ ﴾ ها هو كتاب الله يلقّن لنبيه الصادق الأمين نفس الأسلوب الحكيم، ويحضه على أن يتلطف في القول مع من يجادلونه، ويرخيَ لهم

العِنان، عسى أن يستدرج إلى الحق من يجادل في الحق بغير حجة ولا برهان، وذلك قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّـآ أَوِ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى اَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ٢٤] ثم خاطب نبيه مذكّراً إياه بنعمة الوحي والكتاب المنزل، الذي لم يكن يتوقع نزوله عليه بحال، فقد كانت النبوة قاصرة على أنبياء بني إسرائيل منذ عدة أجيال، لكن الله تفضّل فأنزل عليه كتابه المبين، وأرسله رحمة للعالمين ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَنْ يُّلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وتثبيتاً للرسول وأمته على الحق، بالرغم من جميع المعوّقات والعراقيل، وإغراءً بالمضي قُدُماً في الدعوة إلى الله دون ملل ولا كلل، والصمود في وجه أعداء الدعوة بصبر وجَلَد، كيفما كانوا وكيفما كانت أساليبهم الملتوية، قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَـٰفِرِينَ، وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنَ ـايَـٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذُ انزِلَتِ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَدْعُ مَـعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ـاخَرَ﴾. وإذا كَانَ هذا الخطاب موجهاً في ظاهره إلى الرسول، فإنه موجه في الحقيقة عن طريقه إلى كل فرد من أمة القرآن، في كل جيل وكل زمان.

وعندما أشرفت «سورة القصص» على التمام والكمال، ذكَّر كتاب الله كافة البشر، وفي طليعتهم كل من طغى وتجبر، بحقيقة أزلية كبرى تتهاوى أمامها جميع الادعـاءات الزائفـة والتحديـات الباطلة، ألا وهي أن الله تعالى هو وحده الحي القيوم، الدائم

الحياة والبقاء، الذي لا يلحقه موت ولا فناء، المتصرف في ملكه والقاهر فوق عباده من كافة الأحياء دون استثناء، وذلك قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ ﴾ على غرار قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي على الأرض ﴿ فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَـٰلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

ورداً على من يظن أن مسؤولية الإنسان تنتهي بمفارقة الروح للجسد، وأنه لا حشر ولا نشر، ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت، أعقب قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، بمعنى أن كل إنسان هالك عند الموت لا محالة، لكنه رغم موته لا بد أن يبعث ويحشر ويرجع إلى الله لينال جزاءه الأوفى، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر.

وأما هلاك الكون بالمعنى العام فقد فسره ابن حزم وابن القيم وفخر الدين الرازي بما يحدث في الكون من انقلاب شامل يَتجلَّى في تغيير معالمه وتبديل أحواله، حسبما وصفته وفصَّلته آيات الذكر الحكيم، وذلك طبقاً لمشيئة خالق الكون ومدبر أمره، الذي يفعل في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد. وحجتهم في ذلك وجوب الوقوف عند ظاهر قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ، وَبَرَزُواْ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [الآية: ٤٨].

والآن وقد انتهينا بفضل الله وتوفيقه من تفسير «سورة القصص» المكية نشرع بعون الله ومشيئته في تفسير «سورة العنكبوت» المكية أيضاً، وقد جاءت فاتحتها مبدوءة بالحروف

الهجائية المقطعة على غرار فاتحة السور الثلاث السابقة عليها: سورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ . أَلـمِ ﴾ وهذه الحروف هنا هي الألف واللام والميم، وإنما سميت «سورة العنكبوت» لقول الله تعالى فيها: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وفي فاتحة هذه السورة تصدى كتاب الله لتعريف المومنين الصادقين بأن ما هم عليه من ايمان وصدق لا بد أن يجلب لهم كثيراً من المتاعب، فالمعركة الدائرة بين الخير والشر والحق والباطل لا تفتر أبداً، وما عليهم إلا أن يُوطِّنوا أَنْفُسهم على الصمود في وجه الباطل، وتحمُّل ما تفاجئهم به الأيام من الفتن والمحن، فمن لم يثبت ولم يصمد أمام المحنة والفتنة اندرج في عداد الكاذبين، ولم يكن من المومنين الصادقين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓاْ أَنْ يَّقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَـٰذِبِينَ ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أن الذين يعملون السيئات، ظناً منهم أن الله لا يراهم ولا يحاسبهم، لن يفلتوا من قبضة الله، وأنه سيؤاخذهم بما كسبوا عاجلاً وآجلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَّسْبِقُونَا، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ثم بشَّر المومنين الصادقين بثمرة جهادهم للنفس، وثمرة جهادهم لأعداء الحق، فقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللَّهِ

فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِـهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ، وَالَّـذِينَ ءَامَنُـواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم
مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ

أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

الربع الثالث من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبــاد الله،

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ إلى قوله تعالى مخاطباً عَبَدة الأوثـان: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً، وَمَأْوَيٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

بعدما تحدث كتاب الله في الآيات الأولى من سورة العنكبوت عما يتعرض له الإنسان من فتن ومحن، وما يلزمه من الصبر عليها في سبيل الحفاظ على عقيدته المثلى، والتمسك بدين الحق، نبَّـه كتاب الله إلى نوع دقيق من الفتنة قد يتعرض له المومن الصادق من أقرب الأقربين إليه، ألا وهو أن يكون أبوه وأمه على خلاف عقيدته وأن يحاول كل منهما الضغط عليه لمتابعتهما على الباطل، بدلاً من بقائه على العقيدة الصحيحة التي اعتنقها عن بيِّنة واقتناع، كما وقع من بعض الوالدين عند بدء ظهور الإسلام، ففي هذه الحالة يوصي كتاب الله بأمرين اثنين:

الأمر الأول له علاقة بالجانب الإنساني ورابطة الأبوة والبنوة،

وهو يقضي بوجوب معاملة الولد لوالديه معاملة حسنة يتحقق معها معنى البرور بالوالدين. .

والأمر الثاني له علاقة بالجانب الاعتقادي ورابطة الفرد مع خالقه ورازقه الذي يحيي ويميت، وهو يَقضي بوجوب التمسك بالحق في وجه الباطل، ولو كان الوالدان هما الداعيان إليه والمحرِّضان عليه، إذ أن الفرد مسؤول عن عقيدته أمام الله قبل كل شيء، ولا يُعدُّ الثبات على الحق في وجه الباطل «عقوقاً» للوالدين، بينما متابعتهما على الباطل من أقبح المعاصي في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً، وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾. إلا أن الإحسان الذي أمر الله به في حق الوالدين يقتضي أن يكون رفض طاعتهما في الباطل مصحوباً برفق ولين، دون عنف ولا قول مَشِين، وذلك هو السر في تقديم الوصية بالإحسان إليهما، حتى يكون الإحسان هو الطابع السائد في معاملتهما.

ونظراً لاختلاط معنى البر والعقوق في نظر الوالدين متى كانا على غير حق، عقَّب كتاب الله بما يفيد أن الفصل في هذا النزاع مرده إلى الله، فهناك يُعرَف المبطل من المحق، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وحيث أن الثبات على الحق له الاعتبار الأول في مقامات الدين، فقد بشَّر كتاب الله مَنْ تمسك به وثبت عليه، بالدخول في زمرة الصالحين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ

لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ ﴾. والدخول في زمرة الصالحين هو متمنى الأنبياء والمرسلين، قال تعالى في التنويه بشأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى على لسان سليمان وهو يدعو ربه: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

ووصف كتاب الله حال المذبذبين في العقيدة من ضعفاء النفوس، مبيّناً أنهم متى تعرّضوا لنوع من أنواع الأذى في سبيل الله استعظموا الأمر وتراجعوا إلى الوراء، وتلمّسوا رضا الناس عنهم بدلاً من رضا الله، وعلى العكس من ذلك متى جاء النصر من عند الله حشروا أنفسهم في عداد المومنين، وأكدوا لمن لا يعرفهم أنهم كانوا في طليعة المنتصرين، لكن الله تعالى مطّلع على سرائرهم، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ، وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَٰلَمِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١]، ثم عقب كتاب الله قائلاً: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف مزاعم أئمة الكفر وزعماء الضلال، ممن يدْعون الناس إلى متابعتهم على الباطل، متعهدين لهم مقابل ذلك بحمل خطاياهم وتحريرهم من كلفة الحساب وتبعة

العقاب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ، وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ، إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قال جار الله الزمخشري: «ونرى في المتسمّين بالاسلام من يستن بأولئك، فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم، افعل هذا وإثمه في عنقي، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان، من ضَعَفة العامة وجهلتهم». وأكد كتاب الله أن أولئك الذين تعهدوا بحمل خطايا أتباعهم سيحملون خطايا أنفسهم مع خطايا أولئك الأتباع المضلَّلين، وبذلك يطول حسابهم، ويتضاعف عقابهم، جزاءً وفاقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وتذكيراً للإنسان، أيّ إنسان كان، حتى يفر من الشرك ويدخل في حظيرة الإيمان، وتحذيراً للمومن حتى لا ينقلب على عقبيه، ويتورط فيما يجلب له سوء العاقبة وقبح المصير، عرض كتاب الله في هذه السورة جملة من قصص الأنبياء والمرسلين، مذكِّراً بما كان عليه أقوامهم من وجوه الانحراف في العقيدة والمعاملة والسلوك، ومعرِّفاً ببعض ما دار بينهم وبين أولئك الأقوام من حوار وحجاج، وما أدى إليه إصرار المبطلين على باطلهم من عقاب إلهي صارم، وذلك قوله تعالى في قصة نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمُ أَلْفَ سَنَةٍ اِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، وقولُه تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَـٰناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾. ونظراً إلى أن كتاب الله عندما ذكر الطوفان الذي عاقب به قوم نوح لم يحدد زمن وقوعه ولا مدة استمراره، فلا يسعنا إلا الوقوف عند ما جاء في كتاب الله، ولا يسوغ لنا بعد ذلك التقول على الله.

وقوله تعالى حكاية عن ابراهيم وهو يدعو قومه: ﴿ فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ، وَاعْبُدُوهُ ﴾ يُلاحَظ فيه الجمع بين طلب الرزق من الله، والقيام بعبادة الله، وإنما كان الأمر الأول سابقاً، والأمر الثاني لاحقاً، لأن الإنسان لا يمكنه القيام بالعبادة على وجهها الصحيح إلا بعد كفاية ضرورياته وحاجياته. قال الإمام القشيري: «فبالقوة يمكنه أداء العبادة، وبالرزق يجد القوة» ﴿ وَاشْكُرُواْ لَهُ ﴾ حيث كفاكم أمر الرزق حتى تمكنتم من عبادته ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وعرض كتاب الله في ثنايا قصة نوح وقصة إبراهيم ما فيه أسوة حسنة، وموعظة وذكرى لرسوله الصادق الأمين، فقوله تعالى هنا في بداية قصة نوح: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ تثبيت لفؤاد رسوله على الحق، وضرب للمثل بصبر نوح على متاعب الدعوة إلى الله، والقيام بأعبائها، والصمود في وجه أعدائها جيلاً بعد جيل، مدة جاوزت الحد في الطول والامتداد، فما على خاتم الأنبياء والمرسلين إلا أن يصمد ويثابر، ويصبر ويصابر ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ يبين إلى أيّ حد بلغت قسوة قوم إبراهيم

وعداوتهم للحق، كما يبينّ في نفس الوقت إلى أي حد بلغ ثبات إبراهيم وتضحيته في سبيل الحق، فما على وارث سر إبراهيم ومُحيي ملّته من بعده، إلا أن يتحمل أذى قومه، ويأخذ رسالته بقوة، إلى أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

وكما وصف كتاب الله سوء العاقبة التي تعرَّض لها أعداء الإيمان، وصف لرسوله في نفس السياق حسن العاقبة التي أكرم الله بها أولي العزم من الرسل، فقال تعالى في شأن نوح: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ السَّفِينَةِ، وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى فيما يأتي من سورة الصافات: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـٰلَمِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٧٩، ٨٠]، وقال تعالى في شأن إبراهيم: ﴿ فَأَنجَيـٰهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾. وكما أنجى اللّه نوحاً وإبراهيم من سطوة العتاة الأشرار سينجي نبيه كلما حفت به المكاره والأخطار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ، حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُومِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

ومما يحسن التنبيه إليه أنه إلى جانب ما حكاه كتاب الله عن قصة إبراهيم مع قومه أورد عدة آيات أخرى تخللت نفس القصة، لمجابهة خصوم الرسالات الإلٰهية حيثما كانوا وأينما وجدوا، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ ﴾، إشارةً إلى أن وجود المكذبين بالحق إلى جانب المصدقين به أمر معروف في كل عصر وكل جيل، ما دام يوجد في العالم قَوْمٌ لا هَمَّ لهم إلا التضليل والتدجيل، لكنهم إذا اعتبروا

بعاقبة من سبقهم من المكذبين امتنعوا من التكذيب، وارتدعوا خوفاً من التعذيب، وصدَّقوا بما جاء به الرسول من البلاغ والبيان، المؤيد بالحجة والبرهان، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَواْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إشارةً إلى ما يتجدد ويشاهد كل لحظة من لحظات الزمان، من الخلق الجديد الذي لا ينقطع في عالم النبات والحيوان والإنسان، فضلاً عن بقية الأكوان، فالخلق كله يتجدد باستمرار، تحقيقاً لمشيئة الله الفاعل المختار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦]. ومن تأكد من إعادة الخلق في الدنيا عن طريق المشاهدة والعيان، كيف يسوغ له أن يقابل إعادة الخلق في الآخرة بالجحود والنكران، مع أن إعادة أي شيء كيفما كان، في المنطق المعتاد عند البشر، تعتبر دائماً أسهل وأيسر، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

وإغراءٍ بالمزيد من البحث في خلق الله، للتمكن أكثر فأكثر من معرفة الله، وتقدير قدرته وحكمته حق قدرهما، بعد التعمق في العلم بهما، خاطب الحق سبحانه وتعالى أولي الألباب، فقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ وهذه الآية تصدق بمحاولة البحث عن كيفية بدء الخليقة، وعن نشأة الحياة في الأرض وانتشارها وتطورها، والكشف عن أنواع الأحياء التي تعاقبت على سطحها، والإلمام بمختلف طبقاتها، والتعرف على مدخراتها وثرواتها، إلى غير ذلك من الأبحاث والدراسات التي

تندرج تحت قوله تعالى: ﴿ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾، وَمَنْ فتحَ عقله وقلبه للتعرف على مثل هذه الحقائق الثابتة لا يسعه إلا أن يتلو بلسانه وقلبه وعقله، عن بيِّنة واقتناع، قول الله تعالى في نفس المقام، دون تردد ولا إحجام: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ثم عاد كتاب الله، إلى مواجهة الذين يجادلون في الله بغير علم، مبيّناً لهم ولغيرهم أنهم مهما جادلوا وعاندوا، وعصوا وتمردوا، فلن يفلتوا من قبضة الله، ولن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض المحيطة بهم من كل جانب، إذْ هُمْ سجناؤها في الحياة وبعد الموت، فيد الله فوق أيديهم، وحكمه نافذ فيهم، أحبوا أم كرهوا، وذلك قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَّشَآءُ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ، وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ، وَالذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي، وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وقولُ إبراهيم لقومه فيما حكاه عنه كتاب الله: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَـٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾ يكشف الستار عن حقيقة متعارفة في سلوك الفئات الضالة في كل عصر، ألا وهي التعاون على إطفاء نور الحق، والتواطؤ على نصرة الباطل وتضليل الخلق، أما «المودة» التي يتظاهرون بها حفظاً لمصلحتهم، وضماناً لسيطرتهم، فإنما هي ستار برّاق، وسينكشف يوم القيامة ما كانوا عليه في الباطن من شقاق ونفاق، وذلك قوله تعالى في ختام هذا

الربع، مخاطباً لهم خطاب تبكيت وتوبيخ: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً، وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي
مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبۡنَا
لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ
وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ
إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠
وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ

أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى
دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

فَكُلًّا اَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنَ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنَ اَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْاَرْضَ وَمِنْهُم مَّنَ اَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اَللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ اُلذِينَ اَتَّخَذُواْ مِن دُونِ اِللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ اِلْعَنكَبُوتِ اِتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ اَلْبُيُوتِ لَبَيْتُ اُلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ اَلْعَزِيزُ اُلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ اَلَامْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا اَلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اَللَّهُ اُلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُومِنِينَ ﴿٤٤﴾ اُتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ اَلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ اِلصَّلَوٰةَ إِنَّ اَلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ اِلْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اُللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

الربع الأخير من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حصة هذا اليوم تفسير الربع الأخير من الحزب الأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَـَامَنَ لَهُ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيَ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية الحزب: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

يواصل كتاب الله في هذا الربع وصف قصة إبراهيم، ويُتبِعها بقصة لوط، ثم يستعرض نماذج من الأقوام التي هلكت، لخروجها عن المنهج الإلٓهي القويم، كقوم لوط وعاد وثمود، ونماذج من الأفراد الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، كقارون وفرعون وهامان.

أما تمام قصة إبراهيم التي مضى جزء منها في الربع الماضي فهي أن إبراهيم عليه السلام قد هدى الله على يديه ابن أخيه لوطاً، فكان أوَّل من صدقه وآمن به، وأدرك سر الله في تحويل النار عن طبيعتها عندما رماه قومه فيها، وجعلها برداً عليه وسلاماً ﴿ فَـَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾. وعندما أحس إبراهيم بوحي من ربه أن

قومه لن يتراجعوا عن ضلالهم القديم، ولن يومنوا بدعوته التي جاء بها من عند الله، لم يقف أمامهم مكتوف اليد، بل قرر هجرهم والبعد عنهم، والانتقال إلى مكان آخر أنسب لدعوته، وإلى قوم آخرين أكثر استعداداً لقبولها ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيَ ﴾، وبذلك سَنَّ لذريته من بعده سنة الهجرة، حتى قيل: «لكل نبي هجرة»، فهاجر محيي ملته، ومجدد دعوته، خاتم الأنبياء والمرسلين من مكة إلى المدينة، وإنما قال ﴿ إِلَىٰ رَبِّيَ ﴾ لأنه لم يهاجر إلى أيّ مكان كان بدافع شخصي، بل ولَّى وجهه بالخصوص نحو المكان الذي أمره الله بالتوجه إليه، ثم ذيَّل إبراهيم ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ اقتناعاً منه بأن الله تعالى لن يَكِله إلى نفسه متى فارق قومه، بل سيحميه من مكرهم ومكر كل ذي مكر، لأنه سبحانه (عزيز) ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ، وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] وإيماناً منه بأن تصرفات الله في خلقه كلها حكمة وسداد، وأن الاذن له في الهجرة بشير سعد وفأل خير، لأنه سبحانه (حكيم) ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وإكراماً من الله لابراهيم الخليل أقرَّ عينه ووهب له من فضله ذرية صالحة كانت على رأس الصالحين من عباده، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيئاً ﴾ [مريم: ٤٩]. أما اسحاق فهو ولد إبراهيم الأكبر، وأما يعقوب

فهو ولد اسحاق وحفيد إبراهيم الأظهر، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ اذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي، قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وعمَّ فضلُ الله وكرمه إبراهيم وذريته، فاتخذ الله ابراهيم خليلاً، وجعله للناس إماماً، وجعل في ذريته النبوءة والكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَـٰبَ ﴾. والمراد «بالكتاب» هنا جنس الكتاب، فيدخل تحته كل ما نزل على ذرية إبراهيم من الكتب الأربعة، التي هي التوراة والزبور والانجيل والقرآن، ومن أبرز البارزين في ذريته الطاهرة ابنه اسماعيل الذبيح عليه السلام، الذي اختار الله لختم نبوته ورسالته، نبياً من أرومته وسلالته، فتحققت على يده دعوة أبيه ابراهيم، ونال من ربه كل ثناء وتكريم.

ثم نوّه كتاب الله بالمقام المحمود الذي خص به إبراهيم، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا ﴾ قال عكرمة: «معنى ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا ﴾ إجماع أهل الملل عليه، فالملل كلها تدعيه وتقول هو منا»، وقال فخر الدين الرازي: «قد بدَّل الله أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها، فبعدما كان وحيداً فريداً معرّضاً من قومه لعذاب النار بدَّل الله وحدته بالكَثْرة، حتى ملأ الدنيا من ذريته، وبعدما كان أقاربه الأقربون ضالين مضلّين - و من جملتهم آزر - بدَّله الله منهم بذريته، فجعل فيهم النبوة والكتاب، وبعد أن كاد يكون شخصاً مجهولاً حتى قال قائلهم: «سمعنا فتى يذكرهم

يقال له إبراهيم» أصبح «إمام المرسلين» وصارت الصلاة عليه تقرن بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم الدين» وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وواضح أن كتاب الله عندما ساق قصة إبراهيم التي تُمثل منتهى الصبر والثبات على الدين الحق، ووصف لنبيه بدايتها ونهايتها، إنما أراد أن يقدم له نموذجاً مثالياً يستحق أن يكون له خير أسوة وقدوة، في البداية والنهاية، وإذا كان الله سبحانه قد بارك لإبراهيم في هجرته، وبارك له في ذريته، وآتاه أجره في الدنيا وجعله في الآخرة من الصالحين، فإن خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أرسله الله بالملّة الحنيفية السمحة، سينال من ربه الجزاء الأوفى في دنياه، والمقام المحمود في أخراه، وسيبارك له في هجرته، كما يبارك له في ذريته، وسيرفع ذكره في العالمين، كما جعل لإبراهيم «لسان صدق» في الآخرين.

ومن قصة إبراهيم انتقل كتاب الله إلى قصة لوط، ولا غرابة في ذلك، فبين القصتين ارتباط ناشىء عن القرابة الروحية والعائلية القائمة بين الاثنين، حتى أن إبراهيم لما أخبره الملائكة بأنهم موكلون بإهلاك قوم لوط والقضاء على قريتهم الظالمة انزعج لذلك، خوفاً من أن يشمل عقاب الله لهم لوطاً نفسه، ولم تُنسِه البشرى الخاصة به وبأهله، التي حملها إليه الملائكة الكرام، ما يمكن أن يتعرض له لوط وأهله من الخطر، وذلك ما ينطق به كتاب الله تعالى وهو يصفه إذ يقول: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ

بِالْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ، قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً، قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾. والمراد «بالبشرى» هنا البشرى بولده اسحاق وحفيده يعقوب.

واقتصر كتاب الله عند وصف الحوار الذي دار بين لوط وقومه في هذه السورة على موضوع الشذوذ والانحراف، الذي بلغوا به حد «الاسراف»، من دون أن يشير إلى ما كان يدعوهم إليه في نفس الوقت من توحيد الله وعبادته، والتمسك بطاعته، مما أثبته على لسانه في سور أخرى، إذ كان يقول لهم: ﴿ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾، فقال تعالى حكاية عن لوط وهو يصف شناعة أحوالهم، وفحش أعمالهم وأقوالهم: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾.

وقد وصف كتاب الله على لسان لوط هنا وفي سورتين أخريين الحرب العوان التي أشهرها على الشذوذ الجنسي، فظلت قائمة ضده في كل مكان وكل زمان، وقد أَطْلَقَ عليه هنا لفظ «الفاحشة» معرَّفاً «بأل» الدالة على أن هذه الشهوة الخسيسة بلغت الغاية في الفحش والقبح، لكونها أمراً يشمئز منه الطبع السويّ، وتنفر منه الفطرة السليمة، بينما وصفَ كتاب الله معصية الزنى بكونها «فاحشة»، وأتى بلفظ الفاحشة منكَّراً من دون «تعريف بأل»، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾

[الإسراء: ٣٢]، وواضح أن اشتراك هاتين المعصيتين في اسم الفاحشة يستلزم تماثلهما في نفس العقوبة الشرعية، فما شُرِع زاجراً في إحداهما يُشرَع زاجراً في الأخرى. على أن الشذوذ الجنسي في نظر الشريعة أحرم وأفحش، فكان بالعقوبة أحْرَى، كما حققه القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري.

وقد آخذ لوطٌ قومَه في نفس هذه الآية بجملة من المخالفات والمعاصي، منها قطع السبيل على المارة وتهديد الأمن العام، والمجاهرة بالمنكر والتواطؤ عليه من دون حياء ولا احتشام، علاوة على الفاحشة الكبرى التي ابتدعوها وأسرفوا بها وفيها، حتى لم يعودوا يُعرَفون ويُذكَرون إلا بها. لكن بدلاً من أن يستجيب له قومه ويرجعوا إلى جادة الصواب والميل الطبيعي للفطرة، أصروا على ما هم فيه، وأخذوا يتحدَّونه أن يأتيهم بعذاب الله، استهزاءً وسخرية ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ائِتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾.

ولما اقتنع لوط عليه السلام بإصرار قومه على ما هم فيه، وباستشراء الفساد فيهم إلى حد أنه لم يعد يرجى منهم ولا من عَقِبهم خير ولا صلاح، استنصر عليهم بالله، عسى أن يحل بهم عقاب الله ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ كما قال نوح من قبله بعدما يئس من قومه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ دَيَّاراً، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

واستجاب الله دعاء لوط على قومه، فأرسل ملائكته تنفيذاً لوعيده فيهم، ورغماً عن مقام النبوة الذي خص الله به لوطاً، فقد خشيَ لوط على نفسه من أن يعمّه عقاب الله مع قومه الظالمين المفسدين، لكن الملائكة هدَّأوا رُوعه كما هدأوا رُوع قريبه إبراهيم من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً، وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾، ثم أخبروا لوطاً بما سينزل بقومه من العقاب جزاء تحديهم له، واستهزائهم بعذاب الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ أي عذاباً صَدَر القضاءُ به من السماء ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾. وقد وضّحت الآيات الكريمة الواردة في سورة هود وسورة الحِجْر نوع العذاب الذي تعرض له قوم لوط، وهو أن الله تعالى دمر عليهم قريتهم فجعل عاليها سافلها، ورجمهم فأمطر عليهم حجارة من سِجِّيل.

واستناداً إلى ما عاقب الله به قوم لوط حيث أمطر عليهم حجارة، ذهب الإمام مالك وغيره إلى أن مَنْ سلك مسلكهم وفعل فعلهم يجب أن تطبق عليه بالخصوص عقوبة الرجم، إذ ما جرى على المثل يجري على المماثل، وقد طبق عبدالله بن الزبير هذه العقوبة على أربعة من الأزواج المحصَنين ارتكبوا نفس الجريمة، واكتفى في ثلاثة ارتكبوها ولم يكونوا محصَنين بعقوبة الجَلْد، وذلك بمحضر عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾،

إشارةً إلى أنه ترك مكان قريتهم عبرة للمعتبرين، حتى يرتدع عن ممارسة هذه الفاحشة كل من سمع خبرهم ممن يأتي بعدهم ولو بعد حين، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وذكَّر كتاب الله في هذا السياق بقصة شعيب مع مدين، لكنه أجملها في آيتين اثنتين، فقال تعالى في الآية الأولى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾. وقد فصل كتاب الله قصة شعيب مع مدين في سورة الأعراف، ابتداءً من الآية الخامسة والثمانين إلى الآية الثالثة والتسعين، كما فصلها في سورة هود ابتداءً من الآية الرابعة والثمانين إلى الآية الخامسة والتسعين، وكان على رأس ما يؤاخذهم به ويحضهم على تركه ما ألفوه في تجارتهم، من غشهم للناس في الميزان والمكيال، واستغلالهم للضعفاء أسوأ استغلال، وتصرفهم السيء فيما بين أيديهم من الثروات والأموال. وقال تعالى في الآية الثانية، مشيراً إلى عقاب أهل مدين: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ على غرار ما سبق في سورة الأعراف. والمراد «بالرجفة» الزلزلة، ووصف كتاب الله في سورة هود أيضاً ما لقوه من العذاب المقارِن لِلرَّجفة، فقال تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية: ٩٤]. «والصيحة» تصدق بالأصوات الهائلة المزعجة، التي متى بلغت

الغاية في القوة والازعاج لم يعد في طوق أي إنسان أن يسمعها، وبمجرد سماعها تضطرب أعصابه، ويرتجف فؤاده، ويقع صريعاً من صدمة الفزع والجزع، مصداقاً لقوله تعالى في سورة يس: ﴿إن كَانَتِ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ [الآية: ٢٩] ومتى وقعت الصيحة قارنتها الرجفة في الحين.

ومن لطائف أسلوب القرآن أنه كلما كان لقوم نبيٍّ نسبٌ معلوم اشتهروا به عند الناس ذَكر كتابُ الله اسمهم، كما ذَكر قوم شعيب باسمهم هنا فقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ وكما ذكر في آيات أخرى قوم هود فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُوداً ﴾، وقوم ثمود فقال: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾، بينما إذا لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها أضافهم إلى اسم نبيهم وعرفهم به فقال: «قوم نوح» و«قوم إبراهيم» و«قوم لوط».

وذيَّل كتاب الله ما أورده في هذه السورة من قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب بالإشارة إلى جملة من الأقوام والأفراد، اشتهروا بالجحود والعناد، فقال تعالى: ﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الاَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾.

ثم أجمل كتاب الله أنواع العذاب الذي نزل بهم جزاء ما ارتكبوه من طغيان وفساد، فقال تعالى: ﴿ فَكُلاًّ اَخَذْنَا بِـذَنبِهِ، فَمِنْهُم مَّنَ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل

بقوم لوط، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل بمدين وهم قوم شعيب، وبثمود وهم قوم صالح، كما ورد ذلك في شأنهم في سورة هود أيضاً: ﴿ وَأَخَذَ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل بقارون، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنَ اَغْرَقْنَا ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل بفرعون وجنوده.

وعقّب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إشارةً إلى أن الله تعالى إنما يستأصل شأفة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، رحمة ببقية الجماعات والأفراد، حتى ينعموا من جديد بحياة كريمة سليمة، مطبوعة بطابع الاستقامة والصلاح والرشاد.

وضرب كتاب الله المثل بنسج العنكبوت وبيته الرّخو المهلهل لمن اتخذ إلّهه هواه، واختار أن يعبد غير الله، أو جعل اعتمـاده المكين في حياته على غير الله، ظناً منه أنه نسج نسجاً متيناً، وبنى لنفسه وأهله بيتاً حصيناً، ناسياً أن القوة الحقيقية الوحيدة والدائمة، المتصرفة في الكون تصرف الحكمة والعدل، والتي هي الركن الركين والحصن الحصين، هي قوة الله القاهر فوق عباده، فمن سالمها فاز بالسلامة، ومن حاربها هلك وَعَضَّ بَنان الندامة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال

القشيري: «العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بعداً عن الخروج منه، فهو يبني، ولكن على نفسه يبني».

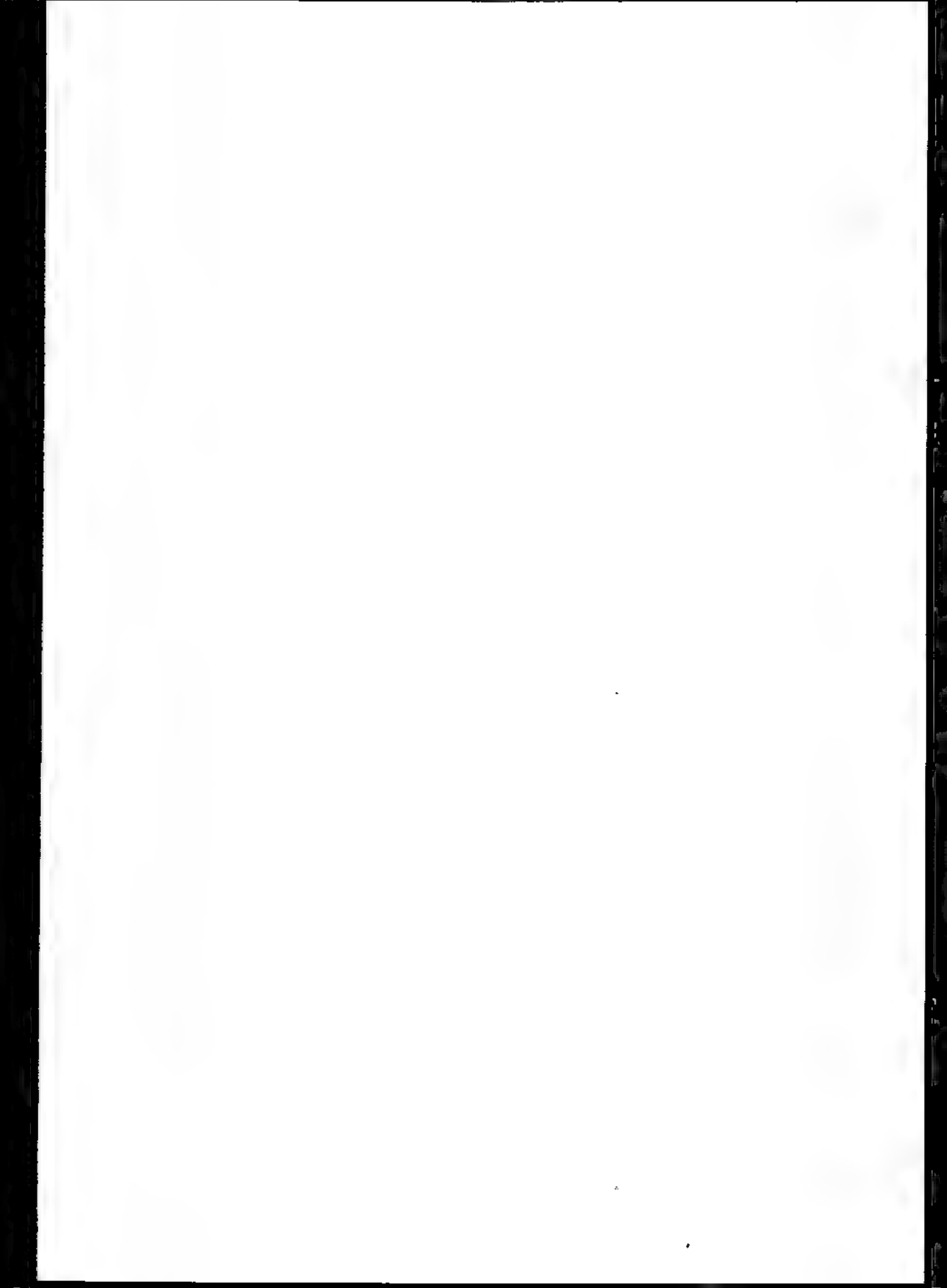
ثم عقب كتاب الله على هذا المثل فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَتِلْكَ الأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ الْعَـٰلِمُونَ ﴾ أي لأنهم قبل غيرهم هم الذين يدركون حسنها وصحتها وفائدتها وحكمة التمثيل بها ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾، فكل ما عارض الحق، الذي قامت به السماوات والأرض، من تصرفات الخلق، يعد تحدياً لحكمته، وتجاهلاً لعلمه وقدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُومِنِينَ ﴾.

وختم هذا الربع الذي اشتمل على كثير من المَثُلات والعبر، وتحدث عما حضر وعما غبر، بخطاب إلّهي رقيق، موجّه إلى الرسول الأعظم بالأصالة، وإلى كل فرد من أفراد أمته بالتَّبَع، فقال تعالى مخاطباً لنبيه في البداية: ﴿ اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ ﴾ وكأنه يقول له: لا تفتر عن تلاوة القرآن، ففيه وصف الداء والدواء، وفيه الشفاء والعَزاء، وهو المدد الدائم الممدود حبله إليك من السماء، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧]، ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠].

ثم قال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ حرصاً على دوام الصلة مع الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء. وبيّن

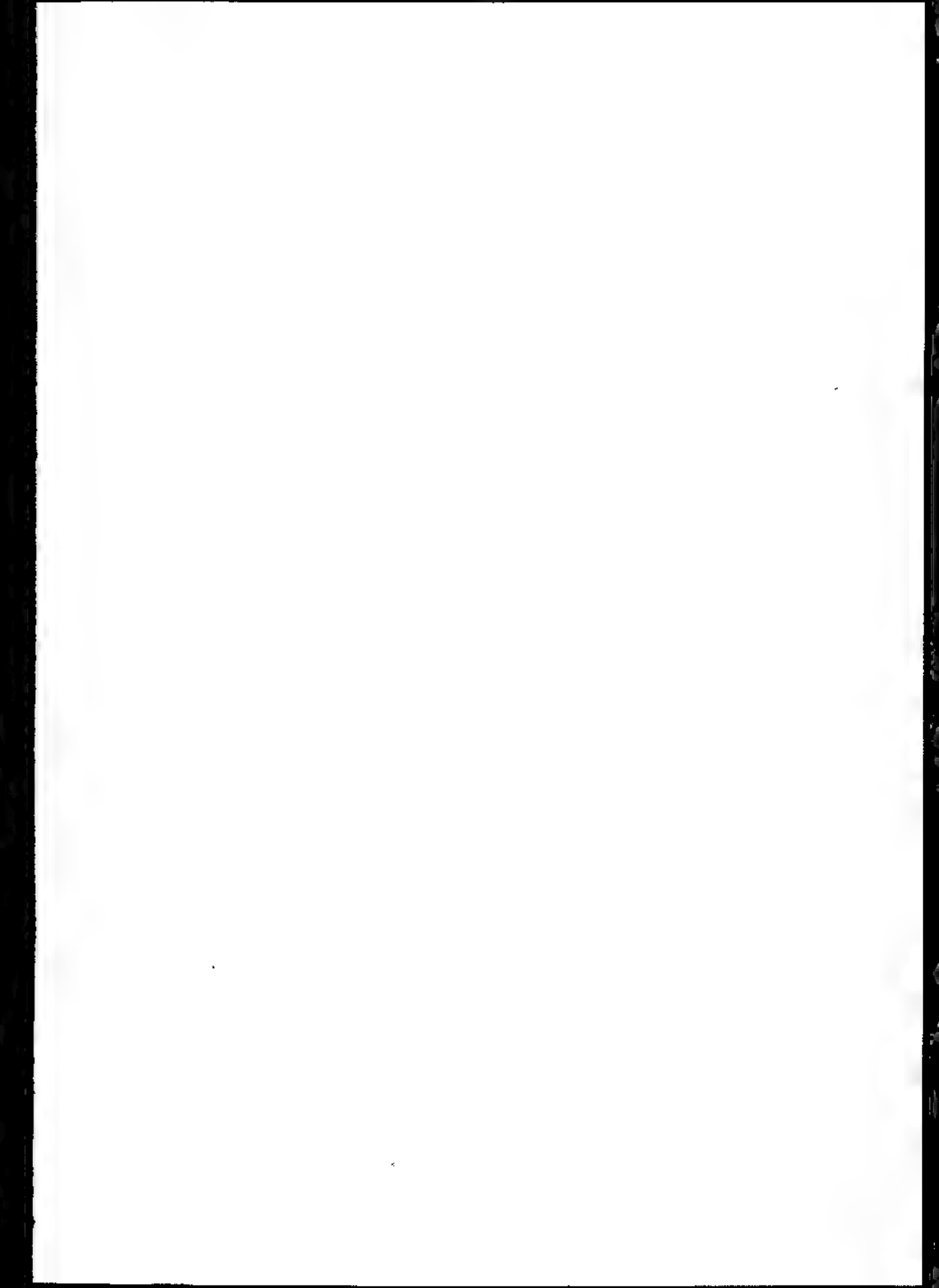
كتاب الله الأثر العميق الذي تحدثه إقامة الصلاة والمواظبة عليها في سلوك المصلّين وحياتهم الخاصة والعامة، متى أقاموها على الوجه الصحيح، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ﴾، إذ ما من جزء من أجزاء الصلاة إلا وقد جعل الله فيه ذكراً مقروناً بعمل، حتى يظل المصلّي حاضراً مع الله قلباً وقالباً، ولا يتعرض أثناء صلاته للغفلة عن مناجاة الله، أو شرود الذهن عن الوقوف بين يديه، ومن حكمة الله أن جعل أول عمل من أعمالنا كل يوم إذا أصبحنا هو صلاة الصبح، حتى نفتتح النهار بمناجاة الله ومخاطبة الحق، قبل أن نشرع في لقائنا العـادي مع أمثالنا من الخلق، وبذلك تكون بركة الصلاة سارية في حياتنا اليومية، وروحُها مهيمنة عليها، من بداية اليوم إلى نهايته ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ ﴾ [هود: ١١٤].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾، فمن ذكر الله في صلاته ذكر حضور وخشوع وإجلال واستحياء، خرج من صلاته متنكراً لكل «منكر» ومتبرِّئاً من كل «فحشاء»، وإنما كان ذكر الله في الصـلاة أجلّ عمـل فيها، وكـانت الصلاة مؤديـة إلى هذه النتيجة، لأن ذكر الله، بيقظة ووعي، يستدعي استذكار صفاته وكمالاته، واستذكار نعمه وامداداته، واستذكار رسالاته إلى أنبيائه، واستذكار حسابه وجـزائه، ﴿ فَـوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الـذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. على أن ذكر الله في كل مقام، يعد من أفضل وأكمل العبادات في الإسلام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.



بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
أحاديث التفسير



التَّيْسِير فِي أَحَادِيثِ التَّفْسِير

مِن إملاء

سماحة الشيخ محمّد المكّي النّاصِري

الجزء الخامس



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا
وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ
وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ
ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ
مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ
ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأول من الحزب الحادي والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾.

لقد سبق في علم الله أن دين الحق الذي هو دين الإسلام، رغماً عن ظهوره وانتشاره في أطراف الأرض، وإقبال مختلف السلالات على الدخول فيه أفواجاً، سوف لا ينفرد وحده بالبقاء في العالم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾، بل إنه ستعايشه باستمرار أديان أخرى، وستحاول أن تنافسه وتتحداه، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولا سيما «الأديان الكتابية» التي ينتمي إليها اليهود والنصارى.

ومعايشة الإسلام لغيره من الأديان، تفرض على أهله أن يدافعوا عنه في وجه الهجمات المضادة بالحجة والبرهان، وحتى

يتم القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، وجَّه كتاب الله في بداية هذا الربع الخطاب لكافة المومنين، ولا سيما المسلحين منهم بسلاح العلم والدين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَٰبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وبذلك أفهمَ المسلمين أولاً أن الإسلام لا يخشى من مواجهة خصومه، وأنه لا بد للمسلمين من أن يجادلوا عن دينهم، ويبطلوا ما يوجَّه إليه من الشبه الزائفة والتهم الباطلة، وأفهمهم ثانياً أن مجادلة المسلمين لمخالفيهم في العقيدة والدين لا تكون بأي شكل كان، بل لا بد أن تكون على شكل يؤدي بالخصم إلى الاقتناع والإذعان، وهذا المعنى هو ما عبرت عنه الآية الكريمة إذ قالت: ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

و﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وصفٌ للطريقة التي يجب أن يتبعها المجادل عن دينه في الدفاع عنه، حيث يختار لجداله طريقة مطبوعة بطابع الرفق واللين، لا تُشَمُّ منها رائحة الغلظة والجفاء، و﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ هي كذلك وصف للحجة التي ينبغي أن يحتج بها المجادل عن دينه للدفاع عنه، بحيث يختار من بين الحجج التي بين يديه أوضحها وأقواها، وأسرعها إيصالاً للمقصود والمطلوب، وبذلك ينصر دينه، ويبرُّ يمينه. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «لكن يكون الجدال بما يحسن من الأدلة ويجمل من الكلام، بأن يكون منك للخصم تمكين، وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلة أظهرها وأنورها، وإذا لم يفهم الخصم أعاد عليه المجادل الحجة وكررها».

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ معناه أن مَن

تصدّى للمسلمين بالظلم والعدوان لا يُجادَل بالرفق واللين، وإنما يُعامَل معاملة الظالمين، فيُحَدُّ من ظلمه بما يناسبهُ من الجدال أو الجلاد، إلى أن يرتدع عن ظلمه ويرجع إلى السداد، ومن الظلم الاعتداء على الحرمات والتهجم على المقدسات، وغدر العهود والالتزامات.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يتضمن مثالاً تطبيقياً لمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، قال ابن كثير: «فإذا أُخبرُوا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا نُقدِم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا نُقدم على تصديقه لأنه قد يكون باطلاً، ولكن نومن به إيماناً مجملاً، شريطة أن يكون أمراً منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً، وتفرد البخاري في صحيحه برواية حديث عن أبي هُرَيْرة قال: «كان أهلُ الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلينا وأُنزِل إليكم الآية».

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ معناه أن الخلق كلهم عيال الله، وأن رب العالمين الذي خلقهم ورزقهم إلهٌ واحدٌ، وإن كانت عقيدة التوحيد في الإسلام بالنسبة لغيرها من العقائد هي العقيدة الوحيدة الصحيحة والسليمة من كل الشوائب، مِصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (١٠٩/ ٦): ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي على خلاف ما عليه أهل الكتاب.

ثم اتجه الخطاب الإلٓهيّ إلى الرسول الأعظم، مذكراً إياه بأنه كما مَنَّ على الأنبياء السابقين بإنزال الكتب إليهم، ها هو يكرمه ويمنّ عليه بالكتاب الذي أُنزل إليه، مؤكداً، لمن لا يزال في شك من أمره، أن منصب النبوة والرسالة وتلقي الوحي الذي رشحته له العناية الإلٓهية، لم يكن يدور من قبلُ في خَلَده، ولم يكن له يد في اكتسابه، ولا تشوُّف إلى تلقي مدده، وإنما هو هبة من الله منحه إياها، ليثبت صدق رسالته إلى الخلق، حتى يُقلِعوا عن الباطل ويومنوا بالحق، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أيْ الموغلون في الكفر والراسخون فيه، ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ، إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: وكان لهم في ارتيابهم متعلق.

ثم قال تعالى في وصف كتابه العزيز: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾، أي: أن آيات الكتاب العزيز بلغت الغاية في قوة الدلالة ووضوح المعنى وبلاغة القول، بحيث يكفي أن يسمعها الإنسان لينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويقتنع بها فكره ولبه: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ ومن ثَم كان لا يجحدها ولا يتنكر لها إلاَّ الإنسان الذي قضى على نفسه بالظلم والحرمان: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وقد يسر الله آيات الذكر الحكيم، فجعلها في متناول العقول والأذهان، وحفظَها لفظاً ومعنى، نصاً وروحاً، في صدور

الذين آتاهم علم القرآن، فآمنوا بها وقاموا بحقها، حفظاً وتلاوة وتفسيراً وتلقيناً إلى آخر الزمان، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى(٣/ ٧) : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ ، وقوله تعالى في آية ثانية (١٥ : ٩) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف مزاعم المتعنتين، الجاحدين لآياته، الذين يتحلون لأنفسهم الأعذار، عسى أن لا يقعوا تحت طائلة الإنذار والإعذار، فقال تعالى حكايةً عنهم أولاً، ومبطلاً لمزاعمهم ثانياً: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اَلْآيَـٰتُ عِندَ اَللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

والآيات التي يقصدونها ويطالبون النبي بها هي من نوع «المعجزات المادية» التي رافقت رسالة بعض الرسل السابقين، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، مما كان سَنَداً لهم في دعوى الرسالة، وبرهاناً على صدقهم لدى من أُرسلوا إليه، لكنّ كتاب الله رَدَّ على أولئك الجاحدين بأنّ إنزال مثل تلك «الآيات المادية والوقتية» مردّه إلى الله وبيده وحده، لا دخل فيه لنبي ولا رسول.

على أن الله تعالى قد وهب خاتم أنبيائه ورسله كتاباً معجزاً: ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ يعدل بجميع تلك المعجزات، ولا يقتصر أثره على فترةٍ محدودة من

الأوقات، بل سيظل إعجازه قائماً، وأثره سارياً في كل زمان، وسيزداد إعجابُ الإنسان بما فيه من علم وحكمة، وما يدعو إليه من إحسان ورحمة، كلما ارتفع مستوى الإنسان، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِم، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ويشهد لتفسير هذه الآية من الحديث الصحيح قوله ﷺ: «مَا مِنَ الأنبياء من نبي إلاّ قد أُعْطِي من الآيات ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أُوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴾.

وَوَصَفَ كتابُ الله ما عليه أولئك الجاحدون من عناد وغرور وتَحَدٍّ للقدرة الإلٓهية وللرسالة المحمدية، فقال تعالى في وصفهم: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، لكن العذاب الذي يستعجلون به، ويتحدّون الرسول بطلبه، لا يأذن الله به إلاّ عند استنفاد جميع الوسائل لهدايتهم، وإصرارهم على ضلالتهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٢١ : ١٠٧)، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٧ : ١٥٦)، وفي الحديث القدسي: « رحمتي سبقت غضبي ».

واتجه كتاب الله بالخطاب إلى المومنين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وملأت عليهم أفئدتهم، وعَرَّفهم أن أرضه الواسعة مفتوحة في وجوههم، مُيَسَّرة الأسباب من أجلهم: ﴿خَلَقَ لَكُمَ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٢ : ٢٩)، كما أن رحمته الواسعة محيطة بهم من كل جانب، فما عليهم إلاّ أن يعتزوا بإيمانهم ويتمسكوا بدينهم، ولا يضيقوا ذرعاً بكيد الكائدين، وَمَكر الماكرين، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَاعْبُدُونِ ﴾. وهذه الآية كما فَتَحت الباب أمام المومنين للتفكير في الخلاص من أَذَى المشركين ، والهجرة من مكة إلى المدينة، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَمْ تَكُنَ اَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيها﴾(٤ : ٩٧) فَتَحت الباب أيضاً في وجه المسلمين أجمعين، للسير في أرض الله، والتعرف على صنع الله، والقيام بالدعوة إلى الله، وذلك هو ما قام به المسلمون الأولون، عند ما جابوا أَكْنَاف الأرض، طولها والعرض، فانشأوا «دار الإسلام»، وآخوا في دين الله بين مختلف السلالات والأقوام.

ونظراً لما تؤدي إِلَيْه مسيرة «إيمانية» عالَمية كبرى من هذا النوع، وما يمكن أن يتعرض له المومنون القائمون بها من متاعب وَأخطار، عقب كتاب الله على ذلك بِمَا يُطمئِنُ نفوسهم، ويؤكد ثقتهم بالله وبحسن جزائه في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ،وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

ثم أشار كتاب الله إلى أن سر النجاح في هذه المسيرة الإنسانية العظمى يَكْمُنُ في مواصلة العمل، لا في الجُمود والكسل، وفي التزام الصبر، لَا في الجَزَع والملل، وفي التوكل على الله بعد اتخاذ الأسباب، وطَرْق أبواب رزقه التي ليس عليها أيّ حجاب، فقال تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَكَأَيِّنْ مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اَللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف طائفة متناقضة مع نفسها كل التناقض، وُجِدت في القرون الخالية، ويوجد مثلها في العهود الحالية، أَلَا وهي تلك الطائفة التي تدَّعي أنها تقر بوجود الله، لكنها لا تومن برسله ولا بكتبه ولا باليوم الآخر، ولا تَدِين لخالقها ورازقها بالعبادة والطاعة لا في قليل ولا كثير، بل تقضي حياتَها مستغرقة في المُتَع والشهوات، ولا تلتفت إلى ما أنزل الله من الآيات البينات، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ، اَللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ اَلسَّمَاءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اَللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَمَا هَـٰذِهِ اِلْحَيَوٰةُ اَلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ اَلدَّارَ اَلْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي: الحياة الكاملة والدائمة، ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ، فَإِذَا رَكِبُواْ فِي اِلْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجِّيهُمْ إِلَى اَلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ، وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّـهِ ﴾ ، الوارد استطراداً في سياق هذه الآيات، خطابٌ لرسوله الأعظم، يدعوه إلى حمد الله وشكره، على ما أوضح من الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، وإن عَمِيَ عنها الجاحدون، وتَنكَّر لها المعاندون.

وأورد كتاب الله في هذا السياق آية تَصِفُ جحود رؤوساء الشرك ـ قبل أن يسلم منهم من أسلم ـ لنعمة الله التي أنعم بها على سكان مكة كافة، إذ جعل بلدهم ـ بفضله وكرمه ـ «حَرَماً آمِناً» يتمتع بالقداسة والاحترام، ومأمناً لهم وللوافدين عليهم من كل عدوان وانتقام، وكان من حقهم، بل من واجبهم، أن يشكروا نعمة الله، ويدخلوا في دِيـن الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَـٰطِلِ يُومِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ على غرار قولـه تعالى في آيـة أخرى: ﴿ اَلَّـذِينَ بَـدَّلُـواْ نِعْمَتَ اَللَّهِ كُفْـراً وَأَحَلُّواْ قَـوْمَهُمْ دَارَ اَلْبَـوارِ ﴾ (١٤ : ٢٨).

وحيث أن المُعَارِضين للحق، والمضللين للخلق، لا يخلو الواحد منهم من أحد أمرين: إما أن يكون «كاذباً» يعمل على ترويج الباطل، وإما أن يكون «مُكذِّباً» يعمل على إبطال الحق، وقد يجمع الواحد منهم بين الأمرين فيكون كاذباً ومكذِّباً، فقد تصدى لهم كتاب الله بما هم أهله، وأشار من طرف خفي إلى أن ما هم عليه من كِبْر واستعلاء له أثر كبير فيما ينشرونه وينصرونه من الكـذب والهُراء، فقال تعالى: ﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَـرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً، اَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ .

لكنّ من آمنوا بالحق وصدَّقوا بالرسالة، وجاهدوا في نشرها ونصرتها والدفاع عنها، سيسلك بهم ربُّهم مسالك النجاة والنجاح، وستصحبهم العناية الإلّهية في الغدوّ والرواح، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في ختام سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومن هنا ننتقل بعون الله وتسديده إلى «سورة الروم» المكية أيضاً، وقد جاءت مبدوأة بحروف الهجاء المقطّعة، وهي خامس سورة وردت على هذا الشكل على التوالي في نسق واحد، وإنما سميت «سورة الروم» لقوله تعالى في فاتحتها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ. الٓمٓ غُلِبَتُ الرُّومُ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية، وورد في سنن الترمذي ما خلاصته: أن الفرس كانوا يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم «أهل كتاب» وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُومِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ، يَنصُرُ مَنْ يَّشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ بينما كان مشركو قريش يحبون ظهور فارس، لأنهم وإياهم «ليسوا بأهل كتاب» ولا إيمانٍ ببَعْث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿ الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وعندما مضت سبعُ سنين ظهرت الروم على فارس، فأسلم عند ذلك ناس كثير، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وكان ذلك تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٣٠: ٦).

ثم نبّه كتاب الله إلى أن أكثر الناس يكتفون بالقشر بدل اللباب، وبالظاهر السطحي دون التعمق فيما وراء الحجاب، بينما الواجب يقتضي بذل الطاقة والجهد في التفكير العميق، والبحث الدّقيق، حتى يدرك الإنسان حقائق الأمور، ما ظهر منها وما بطن، ويكشف عن جوهرها المكنون والمستور، فيستوي في نظره السرّ والعَلَن، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَـٰهِراً مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا، وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ، أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ، مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين
في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَسِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ

فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا
مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الواحِد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلْاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى قولهِ تعالى: ﴿ فَمَنْ يَّهْدِي مَنَ اَضَلَّ اَللَّهُ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

مما يستلفت النظر ويثير الانتباه ما يدعو إليه كتاب الله ويحض عليه في غير ما آية، من السير في أكناف الأرض طولاً وعرضاً، وكتاب الله ينوّع الأساليب المتبعة في هذه الدعوة الملّحة، كما ينوّع الأهداف المرجوة منها، فأحياناً يدعو إلى السير في الأرض دعوة عامة، على أن يكون السير فيها بعقل متبصر، وأذن واعية، وعين متفتحة، كقوله تعالى فيما سبق من سورة الحج (٤٦): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْاَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ، أَوَ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى اَلاَبْصَـٰرُ وَلَكِنْ تَعْمَى اَلْقُلُوبُ اَلَّتِي فِي اِلصُّدُورِ ﴾ . وأحياناً يدعو إلى النظر فيها للتعرف على ما أودعه في طياتها من أسرار الخلق وبدائع المخلوقات، وخزائن

المُلك والملكوت، كقوله تعالى فيما سبق من سورة الأعراف: ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الآية: ١٨٥). وقوله تعالى فيما سبق من سورة العنكبوت : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (الآية: ٢٠)، وأحياناً يدعو إلى التنقل في الأرض والسير فيها للبحث عن وسائل العيش وطلب الرزق، كقوله تعالى فيما يأتي من سورة الجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، وأحياناً يدعو إلى السير في الأرض والنظر فيما تعاقب عليها من عمارة وخراب، وحضارات عظمى لم يحسن أهلها الخلافة عن الله في الأرض، فكَانَ تدميرهم وتدمير حضارتهم أعدل جزاءٍ وأوفى عقاب، كقوله تعالى فيما سبق من سورة النمل: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الآية: ٦٩)، وقوله تعالى في بداية هذا الربع من سورة الروم: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

ثم يَعقِد كتاب الله مقارنة بين الحال التي وجد الإسلامُ عليها الناسَ عند نزول القرآن، والحالة التي عرفتها البشرية قبل ذلك، في القرون الخالية والأمم البائدة، مشيراً إلى أن الحضارات السابقة كانت أقوى، وأن الأرض كانت أكثر ازدهاراً وعمراناً، لكن لما أساء أهلها التصرف فيما آتاهم الله من قوة وثروة وعمران، ولم يهتدوا بالمنهج الإلَهي في تدبير شؤونهم، ورَمَوا بِكُتُب الله ورسالاته عرض الحائط، أفلت من يدهم الزمام،

وحَكَم عليهم لسان القدرة بالاعدام، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ ﴾، أي حرثوها واستثمرها إلى أقصى حد، ﴿ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ، فَمَا كَانَ اَللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةُ الذِينَ أَسَٰٓـُٔو السُّوٓأَىٰ ﴾، ولما كانت السوأى (وهي تأنيث الأسوأ) هي عاقبة الذين أساؤوا كانت الحُسْنى (وهي تأنيث الأحسن) هي عاقبة الذين أحسنوا، كما قال تعالى في حقهم: ﴿لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ ﴾.

وبين كتاب الله السبب فيما نال الذين أساؤوا من عقاب ودمار، فقال: ﴿ أَنْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اِللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقد أكد كتاب الله هذه المعاني مجتمعة مرة أخرى عند قوله تعالى فيما يأتي من سورة غافر(٨٢): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ، وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي اِلْأَرْضِ، فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ اَللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَ يُعِيدُهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، ومِمَّا يدخل تحت هذا المعنى ويتصل به أوثق اتصال قولُه تعالى في آية أخرى (٤: ١٣٣): ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا اَلنَّاسُ وَيَاتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾، وقولُه تعالى في آية ثانية (٦: ٣٣٣): ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾، وقولُه تعالى في آية ثالثة (٣٥: ١٦): ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

وذكّر كتابُ الله بالحقيقة الكبرى التي أجمعتْ عليها كافة

النبوات والرسالات، وإن أنكرها المنكرون وجحدها الجاحدون، ألا وهي «قيام الساعة» وما يرافقها من انقلاب شامل وعام في الكون، وما يُوَاكِبُها من نشر وحشر، وتصنيف للبشر في صنفين اثنين: صنف المومنين الذين عملوا الصالحات، ولهم النعيم المقيم، وصنف الكافرين الذين عملوا السيئات ولهم العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي تصيبهم الحيرة والذهول، لأنهم لم يكونوا يتوقعون قيام الساعة أبداً، يقال: «أبْلَسَ الرجل» إذا سكت وانقطعت حجته ولم يؤمل أن تكون له حجة» ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَٰؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كَٰفِرِينَ،وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُون ﴾ من «الحبور» وهو السرور والفرح، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحضَرُونَ ﴾ أي يساقون إليه قهراً وقسراً، وقولُه تعالى هنا: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ عقِب قوله أيضاً: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٣٦: ٥٩): ﴿ وَامْتَٰزُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وبعد أن وصف كتاب الله مظاهر قدرته وحكمته، ودلائل وحدانيته وعظمته، البارزة في ملكوت السماوات والأرض، ووصَفَ تصرُّفَه المطلق في الكون، والتجاء الخلق إليه بَدْءاً وإعادة، إذْ هُو القاهر فوق عباده، بيَّن أن كل إنسان عاقل لَمَسَ جلال الله وجماله، وعظمته وكماله، في نفسه التي بين جنبيه، وفي الكون الباهر من حوله المتجلى أمام عينيه، لا يسعه إلاّ أن

يتوجه إلى الله بتنزيهه عن كل نقص، وتمجيده بكل كمال، إقراراً بفضله وكرمه، وشكراً على مَدَده ونِعَمه، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى تلقيناً لعباده: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ اَللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾.

وَواضحٌ أن تنزيه العبد لربه يتناول تنزيهه بالقلب، عن طريق الاعتقاد الصحيح الجازم، وتنزيهَه باللسان، عن طريق ذكره الحسن بأسمائه الحسنى، وتنزيهه بالجوارح، عن طريق الأعمال الصالحة، وعلى رأسها الصلاة التي هي عماد الدين، لكونها هي الصلة القائمة والدائمة بين العبد وربه، ﴿ فَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ ﴾ لفظ عام يشمل كافة وجوه التنزيه، ويدخل فيه من باب أولى وأحرى إقامة الصلوات الخمسِ التي يُجدد فيها المومن عهده مع الله خمس مَرات في اليوم والليلة، قيل لابن عباس رضي الله عنه: «هل تجدُ الصلوات الخمس في القرآن؟» قال نعم، وتلا هذه الآية: ﴿ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء، و﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الفجر، ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ صلاة العصر، و﴿ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر.

ولا شك أن مواقيت الصلاة المتعاقبة ترافقها ظواهر كونية يومية عظمى، تتجلى فيها قدرة الله وعظمته، وعلمه وحكمته، وجلاله وجماله، فتكون أنسب الأوقات لإعلان العبد عن تعلقه بالله، وإيمانه بوحدانيته وربوبيته، وتمسكه بعبادته وطاعته.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾ بيْن قولِه قبلها: ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وقوله بعدها:

﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ تنبيهٌ إلى أن تنزيه العبد لربِّه لا يكون تنزيهاً حقيقياً وتاماً إلّا إذا صاحبه القيام بحمد الله وشكره على الدوام، إذ هو المحمود سبحانه وتعالى بكل لسان، بلسان الحال ولسان المقال، من كافة الأنام: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (١٧ : ٤٤).

وكيف لا يُنزِّهُ العاقلُ رَبَّهُ سبحانه وهو المنفرد بالإيجاد والامْداد، وهو الذي ينفخ الروح في الكائنات فتسري فيها الحياة متى شاء، ويقبض روحها متى شاء، وإذا كان الله سبحانه قادراً على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي في النبات والحيوان والإنسان، فكيف لا يكون قادراً على إحياء الميت، قدرتَهُ على إماتة الحي، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

وأبرزُ مثالٍ لما ورد في الكتاب، إخراج نَوْع الإنسان ـ وهو سيد الأحياء ـ من بين الطين والتراب، وذلك ما يشير إليه في نفس السياق قولُه تعالى هنا: ﴿ وَمِنْ ءَايَتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ وقولُه تعالى في آية أخرى (٢٠ : ٥٥): ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

ومضى كتاب الله يصف آياته الباهرة، المبثوثة في الأنفس

والآفاق، معرفاً ببالغ حكمته، وكامل قدرته، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ءايَٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنَ اَنفُسِكُمُ أَزْوَٰجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

ويلاحَظ أنّ كتاب الله أتْبَع خَلق الإنسان بخلق الزوجة، لأن بها يتم الأُنس وينتظم العيش ويزدهر العمران، فهل أحدٌ غير الله يستطيع أن يجعل من الزوج والزوجة، رغم اختلاف طبيعة تكوينهمَا العُضويّ والنفسيّ والعاطفي، شخصيةً واحدة متكاملة، في ازدواجها سرُّ وحدتها، وهذاالمعنى هو الذي يوحي به قوله تعالى هنا في تأكيد الوحدة والألفة بين الزوج والزوجة: ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنَ اَنْفُسِكُمُ أَزْوَٰجاً ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ هُوَ اَلذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية (٧: ١٨٩)، ويوحي به قولُه تعالى أيضاً في التعريف بسر الزوجية الدَّفِين، حيث يصبح الفرد زوجاً، والزوجُ فرداً، عندما يقول: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾، و«السكينة» طمأنينة القلب، وراحة البال، ومفتاح السعادةً، كما يوحي به قولُه تعالى هنا في تحديد نوع العلاقة العاطفية بين الزوج والزوجة: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾، و«المودة» شعور هادىء نبيل، متسم بالعمق والصدق والدوام، لا شعور سطحي ثائر وعابر، كالهشيم تَذْروه الرياح، و«الرحمة» هي العروة الوثقى التي تربط بين الزوجين بعضهما مع بعض، وتربط بينهما وبين من له عليهما أوْ لَهُمَا عليه حَقٌّ من الحقوق: حقوق الأبوة وحقوق البنوة، فبالرحمة المتبادلة والتعاطف المزدوج يشتد التلاحم، لمواجهة الشدائد والملمات، ويسهل تَخَطِّي العقبات،والتغلب على الأزمات.

ونظراً لما يتوقف عليه استيعاب هذه المعاني الرئيسية التي تَنْبَنِي عليها الحياة الزوجية، من تأمل وتدبر وتعمق، جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ثم عرض كتاب الله آية أخرى من آياته الكونية الباهرة، وهذه الآية تبدو لكل ذي عينين في خلق السماوات والأرض، واختلاف أَلْسِنة البشر، واختلاف ألوانهم، فالشخصُ العادِيّ مَتَى سَرَّح طرفه وأجال فكره في ملكوت السماوات والأرض لا بد أن يومن بأن وراء هذا الكون خالقاً مبدعاً حكيماً: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾، وَمَتَى نظر إلى تكوين الإنسان عضوياً ونفسياً وعقلياً وجَد أنه في خصائصه العامة واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف، ولكنه مع ذلك مختلف اللغات واللهجات، مختلف الألوان والصفات، بل إنه حتى عند استعمال اللغة الواحدة يختلف في أشكال النطق والأصوات، فمن الذي جعل من النوع الإنساني نوعاً واحداً، ومن الذي جعل من هذه الوحدة أصنافاً لا حد لها ولا حصر، سوى الحق سبحانه وتعالى الذي له الخلق والأمر. أما الشخص الذي بلغ من العلم درجة كافية، فإنه يجد المجال أمامه فسيحاً لاستكشاف أسرار الكون ونواميس الخليقة، مِمَّا يؤهله أكثر فأكثر، لتذوق لطائف الحكمة وعلم الحقيقة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وحسب قراءة ﴿الْعَـٰلَمِينَ ﴾ بفتح اللام كما في قراءة ورش عندنا يكون المعنى أن التعرف على هذه الآيات الكونية والبشرية

في متناول عموم الخلق، لا يختص به فريق دون فريق، لأنه على مرأى ومسمع منهم جميعاً، وتُروَى فيه قراءة أخرى بكسر اللام، وطبقاً لهذه القراءة الثانية يكون المعنى: إن الذين يذّركون أسرار هذه الآيات ويستخلصُون منها النتائج القريبة والبعيدة، الجامعة بين العلم والإيمان، هم الذين بلغوا درجة كافية من العلم، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَـٰلِمُونَ ﴾.

وإذا كان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان عند دعاة «العنصرية والشعوبية» مصدراً للتمييز بين السلالات البشرية، ومبرراً لتصنيفها طبقات عليا وسفلى، فإن كتاب الله أزال عن هذه الظاهرة كل ما تشم منه رائحة التمييز العنصري بين البشر، واعتبر اختلاف الألسنة والألوان في النوع البشري، مع وحدته الأصلية، آية من آيات الله الكبرى، ودليلاً من دلائل قدرته وبالغ حكمته.

وانتقل كتاب الله إلى آية أخرى من آيات الله في الأنفس، وهي ظاهرة النوم بعد اليقظة، والسكون بعد الحركة، التي أكرم الله بها الإنسان، ليستطيع مواصلة الكد والسعي بِنشاط وفعالية وإتقان، إذ لو لم يمنح الحقُّ سبحانه عبادَه حق «الراحة اليومية» بعد التعب، لتعطلت طاقات الجسم والعقل عن العمل، ولما استطاع الإنسان القيام بخلافته عن الله في الأرض على أحسن وجه وأنفع أسلوب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ـايَـٰتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون القرآن فيصدقونه، والحق فيتبعونه.

فراحة الاستغراق في النوم خصص لها الحق سبحانه وتعالى فترة الليل، المناسبة للهدوء والسكون، والسعي المتواصل للعمل وكسب الرزق خصص له الحق سبحانه وتعالى فترة النهار، المناسبة للحركة والنشاط، على أن القليل من الاسترخاء والنوم الخفيف خلال بعض فترات النهار كالقيلولة، مِما يساعد على تهدئة الأعصاب، وتجديد النشاط، ومضاعفة الإنتاج، حسبما دلت عليه الأبحاث الحديثة، وبذلك نفهم السر في قوله تعالى: ﴿ مَنَامُكُم بالَيْلِ وَالنَّهارِ ﴾، قال جار الله الزمخشري: «ويجوز أن يراد منامكم في الزمانَيْن وابتغاؤكم فيهما»، إذ من الناس من ينام في الليل ومنهم من ينام في النهار، ومن الناس من يسعى لكسب رزقه في النهار، ومنهم من يسعى لكسب رزقة في الليل، حسب ظروف كل واحد ونوع عمله، وهذا هو ما عليه الحال في عصرنا الحاضر، ومقتضى هذه الآية وما شابهها أنّ الإنسان مطالب من ربه بالكد والعمل على مر الأيام، مُعترَفٌ له في نفس الوقت بحق الراحة والاستجمام.

واستعرض كتاب الله آية أخرى من آيات الله في الآفاق، وهي آية الغيث والمطر، الذي يُنزله من سَمْت السماء على الأرض، عَذْباً زلالاً، فيُحيي به الإنسان والحيوان والنبات، ويختزنه بقدرته وحكمته في خزائن أرضه لصالح الأحياء كافة، فيُجْريه عيوناً وينابيع وأنهاراً تسد حاجاتهم باستمرار ودون انقطاع، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً، وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وحيث أن البرق والرعد وتحريك الرياح وتسخير السحاب من الظواهر التي تسبق أو ترافق نزول المطر، طبقاً لسنّة الله المنظِّمة للكون، نجد كتاب الله في غير ما آية يَلْفِت إليها الأنظار، لما تحتوي عليه من حكم وأسرار، جديرة بالدرس والتحليل والتأمل والاعتبار.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾، إشارةٌ إلى ما يتقلب فيه الإنسان بطبعه من الخوف والرجاء، فالإنسان عندما يشاهد وَمِيض البرق، أو يسمع هدير الرعد، يخشى أن يكون البرق برقاً خُلَّباً لا مطر فيه، أو يكونَ نذيراً بالصواعق المُزَمْجِرة، والزلازل المدمرة، أو يكونَ مصحوباً بأمطار طوفانية تهلك الحرث والنسل، كما أنه يأمُل ويرجو أن يكون البرق مصحوباً بالغيث النافع، فيغاث به الإنسان والحيوان، وتحيا به الأرض بعد موتها، فتنبت من كل زوج بهيج، وسبق بهذا المعنى في سورة الرعد قوله تعالى مع مزيد من البيان: (١٢ : ١٣): ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً، وَينشِيءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ، وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي اِللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾.

أما محاولة «استمطار» السحاب بطريقة صناعية فهي محاولة قاصرة، إذ لا بد من توافر الرياح الصاعدة التي تلقح السحاب ببخار الماء حتى يَجُود بالمطر، واللَّهُ تعالى وحده القادر على أن يرسل الرياح نُشُراً بين يدي رحمته، لِأن إرسال الرياح وتصريفها يحتاج إلى طاقة عظمى وتدبير كبير هما

فوق طاقة الإنسان وقدرته المحدودة.

ثم جاء كتاب الله بآية أُخرى تَبْهَر الأبصار والبصائر، وتثير في الإنسان أعجب الخواطر وأعمق المشاعر، ألَا وَهِيَ آية قيام الكرة الأرضية في الفضاء، في موقعها المحدد لها بأمر الله، واستمرار أجرام السماء سابحةً في الفضاء، في نفس الأماكن والمَدَارات المقدرة لها من عند الله، دون أن تزيغ عن مسارها، أو يصطدمَ بعضُها ببعض في فضاء الكون الفسيح، ودون أن تعتمد على أعمدة أو دعائم، مما اعتاده الإنسان في كل بناء قائم، وذلك ما يفصح عنه كتاب الله هنا في إيجاز وإعجاز، إذ يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.. ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتفصيلاً قوله تعالى فيما سبق من سورة الرعد (٢): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، وقولُه تعالى فيما سبق من سورة الحج (٦٥) : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ، وقولُه تعالى فيما سيأتي من سورة فاطر (٤١) : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ .

وهذه الظاهرة الكونية هي التي اصطلح العلم الحديث فيما وصل إليه حتى الآن من بحث واستطلاع، على تسميتها «بقوة الجاذبية» وهذه الجاذبية قائمة بين الأرض وما عليها، وبين الأرض وما عداها من الكواكب، وبين كل كوكب وآخر.

ومن وصف آيات الله في الأنفس والآفاق اتجه كتاب الله

إلى تذكير الغافلين والجاحدين بحقيقة البعث التي لا مجال للشك فيها، وحقيقة السطوة الآلهية المبسوطة على خلقه، الأحياء منهم والأموات، ولو كان بعض المتكبرين منهم لها كارهين، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أي خاضعون لأمره المطاع: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وإنما قال: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ تقريباً للفهم، وجرياً على المُعتاد بيْن الناس، من أن إنشاء الشيء لأول مرة يكون أصعب من إعادته، وإعادته تكون أسهل من إنشائه، وإلاّ فالحق سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بدءاً وإعادة: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣٦: ٨٢)، وهذا التنزيه عن التشبيه هو المراد بقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾، أي هو فوق تصورات الخلق وتخيلاتهم، وله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله إذ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

ثم تصدى كتاب الله للاعتراض على المشركين البسطاء، الذين يشركون بالله الأوثان والأصنام، إذ يقولون: «لَبَّيْك لا شريك لك» إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، مبيّناً تناقضهم وتهافتهم في منطقهم الساذج البسيط، عندما لا يقبلون أن يكون مماليكهم شركاء لهم في شيء ، نظراً للفرق الشاسع الذي يعتقدونه قائماً بين الفئتين، بينما هم يعتبرون أصنامهم مملوكين لله

وشركاء له في وقت واحد، الأمر الذي لا يرضَوْنه لأنفسهم بالنسبة لمماليكهم، وذلك قوله تعالى خطاباً للمشريكن ﴿ضَرَبَ لكم مَّثَلاً مِّنْ أنفُسِكُمْ، هَلْ لَكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتَ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ، تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. وواضح أن كتاب الله يجعل الرزق مشتركاً ومشاعاً بين جميع الفئات، ولا يرضى بأن تحتكره طبقة من الطبقات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

وبعد أن استوفى كتاب الله في هذا الربع وصف عدد من آيات الله في الأنفس والآفاق عقَّب على ذلك كله قائلاً: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فجعل ملكة العقل هي مفتاح الإقناع والاقتناع، مَتَى استعملها الإنسان استعمالاً موضوعياً ومنهجياً سليماً، وكان باحثاً عن الحق الصراح والحقيقة المجردة دون هوى سابق، ولا تعصب لاحق، وتأكيداً لهذا المعنى قال تعالى في ختام هذا الربع: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ يَهْدِي مَنَ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ
وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً
فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا
هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا
الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن
رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم
مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ
مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ
كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ
فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾
فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ
إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَتَ اَللَّهِ اِلتِي فَطَرَ اَلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إن تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وعن طريقهِ إلى كافة المومنين، يثبّت فؤادهم على الدّين الحنيف، ويدعوهم إلى التفاني في التمسك به والثبات عليه، دون التفاتٍ لما سواه، ويُذكِّرهم بأن الإسلام هو «دين الفطرة» القيّم، الذي لا تناقض في عقيدته، ولا إعوجاج في شريعته، فهو الملائم للفطرة المنسجمُ معها منذ البداية، وهو الموافقُ للنظر الصحيح، والمطابقُ للعقل السليم في النهاية، وكيف لا وهو الدين الوحيد الذي يُعلِن وحدة النوع الإنساني على اختلاف ألسنته وألوانه وأقوامه، ويعلن وحدة الكون على اختلاف أجزائه وتنوع أجرامه، ويعلن وحدة المكوِّن المدبِّر للكون

والمهيمن على قيامه ووحدة نظامه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، قال جار الله الزمخشري موضحاً لمعنى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾: «من اهتم بالشيء عقد عليه طَرْفه، وسدَّد إليه نظره، وقوَّم لـه وجهَهُ مقبلاً عليه» وقال أبو حيان في توضيح معنى «الفطرة»: «رَجَّح الحذّاق أن الفطرة هي القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله، والاستدلال بها على وُجُوده، فيومن به ويتبع شرائعه، لكن قد تَعْرِض له عوارض تَصْرفه عن ذلك، كتهويد أبويه لـه وتنصيرهما، وإغوّاء شياطين الإنس والجن»، ونقل القرطبي عن شيخه أبي العباس قوله في تحليل معنى الفطرة: «إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهمْ وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودينُ الإسلام هو الدين الحق».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ إمّا أن يكون خبراً بمعنى الطلب، وإمّا أن يكون خبراً على بابه، فعلى الوجه الأول يكون معناه النهيَ عن إفساد الفطرة وتغييرها بالتربية الفاسدة، والقدوة السيئة، والاعتقاد الباطل، والإبقاءَ على الفطرة كما خلقها الله، مع توجيهها في نفس الاتجاه، وعلى الوجه الثاني يكون معناه الإخبار بأنه لا تبديل للقابلية التي توجد في الطفل من قِبَل الخالق، فقد ساوى بين الناس في الفطرة السَّليمة وجعلهم فيها سواسية.

ثم أمر الحقُّ سبحانه وتعالى عباده المومنين بالإنابة إليه وتقواه، وإقامة الصلاة والاعتصام بحبل الله، وحذَّرهم مما كان عليه غيرهم من الفرقة والاختلاف، حتى يظلوا في أخوة وائتلاف، وذلك قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ، وَاتَّقُوهُ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ، وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً، كُلُّ حِزْبِۢ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف بعض الحالات النفسية التي يكون عليها ضعفاء النفوس وضعفاء الإيمان، عندما تنزل بهم نائبة من النوائب، فيضطرهم الخوف والجزع، إلى أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء، حتى إذا تخلصوا من أزماتهم أشركوا بالله غيره، ومن الشرك أن يتخذ الواحد منهم إِلَهَهُ هواه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، و«الضر» هنا الشدة، و«الرحمة» الخلاص منها ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، أي: ليُمعِنوا في تجاهل نعمتنا والكفر بإحساننا، ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾: هذا إشعار لهم بأن العذاب ينتظرهم، ﴿ أَمَ اَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰناً ﴾، أي: كتاباً فيه حجة لهم وبرهان، ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ، يُشْرِكُونَ ﴾.

وكذلك الأمر إذا نالوا حسنة انبسطت لها أسارير وجوههم غبطة وسروراً، وإذا نزلت بهم سيئة أصابهم اليأس والقنوط، واعتبروا ما نزل بساحتهم لعنة وثبورا، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بما يفيد أنّ سَعة الرزق لا تتعلق بإرادة الإنسان وحده، بل تتدخل فيها عدة عوامل، ومردها في النهاية كما في البداية إلى الله، ولذلك وُجد بين الناس موسر ومعسر، ووُجد في البلدان بَلَد يزخر بالثروات الطبيعية، وبلد يكاد يكون قاعاً صفصفاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

لكنَّ كتاب الله بادر في الحين بالتوجه إلى كُلّ من وسَّع الله رزقه، فعَرَّفه بأن عليه في ماله حقوقاً للغير، وطالبه بأداء تلك الحقوق لأصحابها كفايةً لحاجتهم، وذكَر على سبيل المثال ذوي القربى، والمساكين، وعابري السبيل، ممن تنقطع بهم الأسباب وهم في سفر، ولا يجدون ما ينفقون، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقدم «ذا القربى»، لأن بره فيه صدقة وصلة للرحم.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾، إشارةٌ إلى أن الاعتبار بالنية والقصد، لا بمجرد الفعل وحده، ومعنى ﴿ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أن يكون العطاء خالصاً لله، وسعياً في رضاه، نظير قوله تعالى في آية أخرى (٩٢: ٢٠): ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾.

ثم انتقل كتاب الله إلى الموازنة بين الربا والزكاة، وما يحُلُّ بساحة المرابين من نقص مادي ونفسي، وما يناله المُزكُّون من نَماء مادي وروحي، فقال تعالى مخاطباً للفريق الأول: ﴿ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّباً لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ ﴾ وقال تعالى مخاطباً للفريق الثاني: ﴿ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾.

وهكذا أنذر الله المرابين الذين يُمارسون الربا لتنمو أموالهم على حساب الآخرين، بأن أموالهم لا بد أن تؤول إلى نقصان، وإن كانت في الظاهر تنمو وتزداد باستمرار، والأعمال والأمور بخواتيمها، أما النقصان النفسي الذي يصيبهم فقد تضمَّنه قول الله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٧٥): ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـٰنُ مِنَ الْمَسِّ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ ﴾، وعلى العكس من ذلك بشَّر الله الذين لا يستغلون الخلق، بل يتبادلون النفع معهم، ويزكون أَمْوالهم ابتغاء مَرضاته، بنماء أرزاقهم، ومضاعفة ثوابهم، وهذا معنى قوله تعالى هنا: ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٢ : ٢٤٥): ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾، وفي آية ثالثة: (٢ : ٢٧٦): ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَـٰتِ ﴾، أي: يُنمّيها ويضاعفها.

ولتذكير الأشِحَّاء والبخلاء من الأغنياء، المقصِّرين في أداء حقوق المعوِزين والفقراء، بأنهم مدينون لله سبحانه بنعمة الإيجاد

ونعمة الإمداد، قال تعالى: ﴿ اَللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾، فالخلق كله من صنع الله، والرّزق كله من عند الله، والحياة والموت بيد الله، وما على الإنسان إذا كان عاقلاً إلّا أن يتذكر هذه الحقائق البديهية، ويستخلص نتائجها الحتمية، ثم قال تعالى رداً على المشركين: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّنْ يَّفْعَلُ مِّن ذَالِكُم مِّن شَيْءٍ، سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وتصدّى كتاب الله بعد ذلك للكشف عن حقيقة اجتماعية وأخلاقية بعيدة الأثر، أَلَا وهي أن الإنسان وحده هو العنصر الأساسي في كل فساد يقع في الأرض، وكل انحرافٍ يصيب المجتمع، وأنه هو المسؤول مباشرة عن نتائج فساده وإفساده مادياً وروحياً، فما عليه إلّا أن يتحمل نتائج عمله انحلالاً واختلالاً، خراباً وزوالاً، ولو وقف الإنسان في سلوكه عندَ حد الصلاح والإصلاح، اللذين من أجلهما تَوَّجَهُ اللَّهُ بالخلافة عنه في عمارة الأرض، لما وقع في الأرض فساد، ولسعدت البلاد والعباد، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ اَلْفَسَادُ فِي اِلْبَرِّ وَالْبَحْرِ، بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِي اِلنَّاسِ، لِيُذِيقَهُم بَعْضَ اَلذِي عَمِلُواْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، قُلْ سِيرُواْ فِي اِلَارْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾.

ومن مظاهر الفساد في الأرض الإباحيةُ التي تتحدّى كل القيم والأخلاق، واحتكار الثروات والأرزاق، والتنكرُ لدين الحق، وتجاهلُ الخالق واحتقار الخلق، ومن آثار الفساد زوالُ الطمأنينة، وانتشار الخوف، وفقدان الثقة بين الأفراد والدول، والتلوث

الساري في مختلف الأجواء والأرجاء، والنقص من الأموال والأنفس والثمرات. وإلى ما يتعرض له الإنسان من الابتلاء والامتحان، يشير قوله تعالى هنا: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ﴾.

وقولُه: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، إشارةٌ إلى أن الله تعالى لا يريد الانتقام من عباده، عند ما يسلط عليهم آثار أعمالهم، وإنما هي بمنزلة السَّوْط يؤدبُهم به، عسى أن يغيِّروا ما بأنفسهم، ويعودوا إلى صراط الله الحميد، فيبسُط لهم من جديد بساط نعمته، ويخلع عليهم ردَاء رحمته، وبنفس هذا المعنى جاء قوله تعالى في آية أخرى (٧: ١٦٨): ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ دليل على أن الذين عاقبهم الله على الفساد والإفساد لم يكونوا كلهم مشركين، بل بعضهم مشرك، وبعضهم ليس بمشرك، ولكنه من عُصاة المومنين المصرين على المعصية، وإذن فما دون الشرك من المعاصي يؤدي إلى نفس النتيجة، ويكون سبباً فيما ينزل بالخلق من الشدائد والأزمات، والنوائب والمُلِمَّات.

ووَجَّهَ كتابُ الله الخطاب إلى كل إنسان عاقل يريد تحقيق إنسانيته، مع السلامة في الدنيا من الآفات، والنجاة في الآخرة من الأهوال والشدائد، داعياً إلى الإقبال على دين الله الذي هو الدين القيِّم، والتعلق به، وعدم الالتفات إلى غيره، فقال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾، أي: يتفرقون: فريق في الجنة وفريق في السعير، ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾، من «المَهْد والمهاد» بمعنى الفراش، أي: يوطِّئون لأنفسهم في القبر مضجعاً مُريحاً، وفي الجنة مقراً فسيحاً، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ ﴾.

ثم لَفَت كتابُ الله أنظار البشر جميعاً إلى ما مَنَّ عليهم به من تحريك الرياح وتصريفها، طبقاً لنواميس كَوْنية محكمة، تسهّل عليهم الوصول إلى تحصيل منافعهم، وتحقيق مصالحهم في البر والبحر، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَٰتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾، أي: مبشرات بالمطر، لأنها تسبقه وتتقدمه، ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ ﴾، وهي رحمة الغيث والخصب، ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾، أي: عند هبوب الرياح وغيرها من الوسائل المُلاَئِمة للملاحة في البحر ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، والمراد «بالفضل» هنا الحصول على الرزق من طريق الكسب والتجارة ونحوِهَا، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: تتوجهون بالشكر لله على نعمه، الظاهرة والباطنة.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة خاتم أنبيائه ورسله، مذكِّراً إياه بالمآل الذي يصير إليه المجرمون المكذبون برسالات الله، ومعرفاً له بمصير رسله والمومنين، وأنه نصر مؤزر من عند الله وفتح مبين، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ، فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ، فَانتَقَمْنَا مِنَ الذِينَ أَجْرَمُواْ، وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ ﴾.

وعاد كتاب الله مرة أخرى إلى الكشف عن أسرار الرياح التي ينفرد بتحريكها وإرسالها مَنْ لَه الخلق والأمر، والدَّورِ الذي تقوم به في إثارة السحب وإنزال الأمطار، إغاثة للعباد ورفقاً بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي يُرْسِلُ الرِيَـٰحَ، فَتُثِيرُ سَحَاباً، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، والإشارة هنا إلى السحاب عندما يكون متصلاً يملأ أرجاء الأفق: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾، أي: قطعاً، والإشارة هنا إلى السحاب عندما يكون متقطعاً، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾، أي: المطر، ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِ ﴾، أي: من خلال السحاب، ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، فرحاً منهم بنزول الغيث، لحاجتهم إليه، وتوقفهم عليه، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾، أي: كانوا قبل نزول المطر في ذهول وحيرة، قانطين من نزوله، لطول عهدهم بالجدب، مكتئبين خوفاً من القحط والمجاعة التي تهدد حياتهم، ولهذا كان استبشارهم على قدر إبْلاَسِهم واغتمامهم.

وكون الرياح هي التي تثير السحاب وتُلَقِّحه ببخار الماء لكي يمطر، حقيقة علمية كبرى كشف الستار عنها عالِمُ الغيب الذي يعلم السر في السماوات والأرض، منذ انزل كتابه العزيز قبل أربعة عشر قرناً، عندما قال هنا: ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾، وقال في آية أخرى سبقت في سورة الحجر: (٢٢):

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾، ولم يهتد العلم الحديث لإدراك هذه الحقيقة، ودراسة دورات الرياح العامة والخاصة إلاّ في العهد الأخير. ثم قال تعالى مذكّراً ومعقّباً: ﴿ فَانظُرِ اِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ اِللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ اِلاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ اِلْمَوْتَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ووصَف كتابُ الله حال الزرّاع الذين تتعرض مزارعهم أحياناً لريح تجعل زرعهم يابساً مصفرّاً، وبدلاً من الرضى بالقضاء والقَدَر يُظهِرون السخط والامتعاض، ناسين ما أنعم الله عليهم به من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنَ اَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾، أي: رَأَوْا زرعهم مصفراً، ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بخطاب إلٰهي رقيق، موجّه إلى الرسول الأعظم، حتى لا يضيق صدره ولا يحزن، بعدما بلغ الرسالة وأدّى الأمانة: ﴿ فَمِنِ اِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (١٠: ١٠٨)، ولا مسؤولية على الرسول بعد ذلك، ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلَـٰغُ ﴾ (٥: ٩٩)، وذلك قوله تعالى مبرّئاً لرسوله من كل تقصير أو إهمال: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ اَلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ اَلدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنْتَ بِهَـٰدِ اِلْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ، إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين
في المصحف الكريم

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن
ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ
كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ
لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن
تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ

لُقْمَٰنُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي
وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن
فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ
الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١

الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الواحد والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ اَللَّهُ الذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ﴾، إلى قوله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾.

في أواخر الربع الماضي تحدث كتاب الله عن تصريف الرياح وإثارة السحب وإنزال الأمطار، ونبَّه كلَّ إنسان متبصر إلى آثارها الحميدة في الأرض، مما يستوجب شكر الله والاعتراف بفضله وكرمه، إذ قال تعالى: ﴿ فَانظُرِ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، وهذه الظواهر الطبيعية كلها من آيات الله في الآفاق.

وفي بداية هذا الربع أورد كتاب الله آية أخرى من آياته في الأنفس، فتحدث عن خلق الإنسان والمراحل التي يتقلب فيها من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف، منذ عهد الطفولة إلى عهد

الشَّيْخوخة، مما يمر به النوع الإنساني في حياته الطبيعية، وذلك قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾.

وواضح أن أمام الإنسان في كل مرحلة من تلك المراحل مجالاً واسعاً للتأمل والاعتبار، وفرصةً مناسبة للتعمق فيما يحيط بنشأته وتكوين بِنْيته، وأجهزة جسمه، من لطائف وأسرار، مما يساعده على اكتشاف أثر رحمة الله وبالغ حكمته، ويحمله على الاقتناع التام بواسع علم خالقه وعظيم قدرته: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِم ﴾ (٣٠ : ٨)، ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١ : ٢١)، وقد شغلت الدراسات والبحوث المتعلقة بالإنسان حيزاً كبيراً من العلوم والمعارف، التي تحاول أن تكشف عما في الإنسان من عجائب خَلْقِ الله وبدائع صنعه، عضوياً ونفسياً، عقلياً وروحياً، لكن لا تزال جوانب عديدة من هذا الكائن المعلوم و«المجهول» في آن واحد، الذي هو الإنسان، لغزاً من ألغاز الخليقة، وسرّاً من أسرار الطبيعة، إلى الآن وحتى الآن: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١٧ : ٨٥).

وكما وصف كتاب الله الإنسان بكونه مخلوقاً من عَجَل عندما قال (٢١ : ٣٧): ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾، ليلتزم الأناة في مساعيه، والتؤدة في تصرفاته، وصفه هنا بكونه مخلوقاً من ضعف: ﴿ خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾، رغماً عما منحه من قوة فكرية، ولياقة بدنية، تنبيهاً له على التماس أسباب القوة المادية

والروحية، حتى يُعوِّض النقص الذي يعانيه في كل مرحلة من مراحل حياته المتتالية.

وكما قال تعالى في الربع الماضي في شأن السحاب الذي تثيره الرياح: ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، قال هنا في هذا الربع، عقِب ذكره للمراحل التي يمر بها الإنسان: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ رداً على الجاحدين، وتنبيهاً للغافلين وتذكيراً للناس أجمعين، بأن إرادة الله «الخالق البارىء المصور» مهيمنة على الكون بصفة مستمرة، وأن مشيئة الله التي لا تحدها حدود هي التي تحدد النواميس لتكوين الإنسان، وغيرِهِ من بقية الأكوان، فلا شيء من سُنن الكون خارجٌ عن إرادته، بل الكل متعلق بتدبيره وجارٍ وفق مشيئته، ولذلك جاء التعقيب بقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾، الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير.

وانتقل كتاب الله إلى وصف حال المُعَانِدين البسطاء، المكذبين بالبعث، عندما يُفاجَأون بقيام الساعة، فيحاولون الاعتذار عن كفرهم، زاعمين أنهم لم يتمكنوا من معرفة الحق خلال حياتهم القصيرة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾، أي: كما كانوا يمارسون الأفك والكذب في الدنيا ها هم يحاولون أن يمارسوه من جديد في نفس الآخرة، مؤكدين كذبهم بالقَسَم واليمين، ﴿ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٥٨ : ١٨): ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ،

اَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَـٰذِبُونَ ﴾، لكن لا يلبث «أُولُو العِلم وَالإيمان» أن يتصدَّوْا في الآخرة لزعمهم بالرد، ولكذبهم بالرفض، كما تصدّوا لذلك في الدنيا: ﴿ وَقَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ اِللَّهِ إِلَى يَوْمِ اِلْبَعْثِ، فَهَـٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ، وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وبيَّنَ كتابُ الله أنه عندما تقوم الساعة لا يُقبَل من الظالمين أيُّ اعتذار، لانصرام الآجال المحدّدة للإعذار، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾، إذْ لا مجال للتوبة والتلاوم والعتاب، بعد أن حَقت عليهم كلمة العذاب.

ثم جدَّدَ كتابُ الله التعريف برسالة القرآن، مؤكداً أنه جعل هذه الرسالة مُيَسَّرة للفهم والإدراك في متناول الناس أجمعين، وأن كتاب الله قد وضَّح مَعَالِمَها، بما لا يدع مجالاً للشك فيها، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا اَلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ (٥٤: ١٧)، فلا غموض ولا إبهام في الرسالة، ولا تقصير ولا إهمال من جانب الرسول، واللومُ كل اللوم يقع على عاتق المعاندين المبطلين، الذين يجادلون في الله بغير علم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا اَلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَل، وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ اَلذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَ اَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُون، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ اِلذِينَ لَايَعْلَمُونَ ﴾، أي: يطبع الله على قلوب الجهلة المعاندين عندما تقسو وتصدأ، ولا يرجى منهم قبول للحق ولا انقياد إليه، وكيف لا وهم يُسَمُّون المحِقين «مبطلين» متحدِّينَ الله

ورسوله والمومنين، ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾، بينما هم في الواقع أَعْرَقُ الناس في الباطل.

وأخيراً وجَّه كتابُ الله الخطاب إلى الرسول الأعظم، وإلى كل مومن بصدق رسالته، آمراً رسوله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، بالصبر على أذى المخالفين، والثبات أمام استفزاز الجاحدين، مؤكداً له ولمن اهتدى بهديه أنَّ وعد الله بالنصر المكين، والفتح المبين، وعدٌ لا يتخلف، لأنه وعد حَق، صادر عن الحق، ﴿ وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٣٠: ٦)، وذلك قوله تعالى في ختام سورة الروم المكية: ﴿ فَاصْبِرِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

ومن سورة الروم المكية ننتقل إلى سورة لقمان المكية أيضاً سائلين من الله الإعانة والمدد، وهذه السورة هي سادس سورة وردت مبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة، المتعارفة «بفواتح السور» في نسق واحد وسلسلة واحدة، ابتداءً من فاتحة سورة الشعراء ﴿ طسم ﴾ فسورة النمل ﴿ طس ﴾ فسورة القصص ﴿ طسم ﴾ فسورة العنكبوت ﴿ الم ﴾ فسورة الروم ﴿ الم ﴾ فسورة لقمان التي نحن بصدد تفسيرها ﴿ الم ﴾ وقد بينّا في عدة مناسبات ما ترمز إليه هذه الحروف، وكونَها تأتي متبوعة بالحديث عن الذكر الحكيم، والتعريف به والانتصار له، إمَّا تلويحاً وإمَّا تصريحاً كما في هذه السورة: ﴿ الٓمٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴾ إشارةً إلى أن الحروف العادية التي ينطق بها الناس تنقلب إلى وحي سماويّ بالغ الحكمة والإعجاز، عندما ينفخ فيها

الحق سبحانه وتعالى من سر علمه وحكمته، ويَنزِل بها على قلب رسوله «الروحُ الأمين»، ومِثْل ذلك يجري في العناصر الطبيعية التي هي مُلْقاة بين أيدي الناس، لَكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا منها كائناً حَيّاً يضاهون به صنع الله ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

وإنما سميت هذه السورة «سورة لقمان» لورود اسمه فيها مقروناً بجملة من الوصايا النافعة التي وعظ بها ابنه، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ الآية.

وكما قال تعالى فيما سبق من «سورة يونس» عقِبَ الافتتاح بالحروف الهجائية: ﴿ أَلَر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ـ الْكِتَـٰبِ الحكيم ﴾ قال تعالى هنا في «سورة لقمان»: ﴿ أَلَمٓ. تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْحَكِيمِ ﴾ وسبقهما في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾.

وإنما وُصِف الكتابُ بكونه «حكيماً» أي: ذا حكمة، لأن الحكمة هي إصابة الحق في الاعتقاد والقول والفعل، والسلوك الخاص والعام، لِلأفراد والجماعات، وما تضمنه كتاب الله في هـذه المجالات صـادر عن أحكم الحاكمين، العليم الحكيم، الذي لا يَضِل ولا يَنسَى، والذي يعلم السر والخفي: ﴿ قُلَ اَنزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي اِلسَّمَـٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ ﴾ (٢٥ : ٦)، ومن أجل ذلك كان عِيَاراً على ما سواه، ومهيمناً على ما عداه، فما وافقه حق، وما خالفه باطل، سواء كان سابقاً أو لاحقاً.

ووصَف الحقُّ سبحانه وتعالى كتابَه بكونه: ﴿ هُدىً وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ و«المحسنون» هم الذين أحسنوا فهمه، وأحسنوا تطبيقه، وأحسنوا الدفاع عنه، وراقبوا مُنزِل الكتاب، فلم يهجروا الكتاب، وبذلك يكون «هدى لهم» فلا تختلط عليهم السبل، ولا يعمهم الجهل والضلال، ويكون «رحمة لهم» فلا تصيبهم الشرور والآفات، ولا تحل بساحتهم الأزمات تلو الأزمات، وإنما يَنْدَرجون في عداد المحسنين، فينعموا بهداية الله ورحمته، إذا أدوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وحق الله الأول: هو إقامة الصلاة على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً، والدوام عليها في أوقاتها دون انقطاع، وحق العباد الأول: هو إيتاء الزكاة للمعسرين، وحصولهم على ما يَكفي حَاجَتهم من مال إخوانهم الموسرين؛ وهذان الحقان متلازمان لا يفترق أحدهما عن الآخر، ولا يغني أحدهما عن الآخر، ولذلك وصف كتاب الله المحسنين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في فاتحة سورة البقرة: ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾، إشارةً إلى أن الإيمان لا يكون تاماً وكاملاً إلاّ إذا انْدَرج فيه الإيمانُ بعالَم الشهادة وعالَم الغيب، والإيمانُ بالنَّشأة الأولى والنشأة الآخرة، لأنهما متلازمان تلازم المقدمة والنتيجة. والإيمان بالآخرة يتضمن الإيمان بجزاء الله، لمن ابتغى بعمله وجه الله، أما الإيمان بالشهادة دون الإيمان بالغيب فلا فضل فيه لأحد، إذْ يستوي فيه المومن والكافر، والبَرُّ والفاجر ثم نوَّهَ كتابُ الله

بالمومنين المحسنين فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وبهذه الصيغة نفسها، نوَّه كتاب الله في بداية سورة البقرة، بالمومنين المتقين.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الْمُتْرَفين المتكبرين في الأرض، الذين يُضِلون الناس بغير علم، ووصَف تفننَهم في أساليب التَّرَف والتمويه والتضليل، وسخاءَهم ببذل المال في هذا السبيل، واستعمالهم لمختلِف وجوه الإغراء والإغواء، حتى يُعوِّدوا الناس على حياة اللهو والعبث وعدم المبالاة، وخَلْع بُرْقُع الحَياء، فينصرف الناس عن سماع الحق واستيعابه، ولا يَطرُقون بعد ذلك باباً من أبوابه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اَلنَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ اَلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اِللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَّخِذَهَا﴾، أي: يتخذ سبيل الله، ﴿هُزُؤاً، اوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ، وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا، كَأَنَّ فِيَ أُذْنَيْهِ وَقْراً﴾، أي: ثِقلاً وصَمماً، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾، وجزاء الكِبْر الإهانة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣: ١٧٨)، إذِ الجزاءُ من جنس العمل، وعلى العكس من ذلك يكون جزاء الصالحين من المومنين، الذين يمارسون الصالحات، فينفعون وينتفعون، وذلك قوله تعالى: ﴿اِنَّ اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ النَّعِيمِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَعْدَ اَللَّهِ حَقّاً﴾، أي: لا خُلْفَ فيه ولا تراجع، ﴿وَهُوَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وأعاد كتاب الله في هذا المقام الحديثَ عن جُملة من الظواهر الكونية في السماء والأرض، ليَلْفِت إليها الأنظار، عسى

أن تهتدي بها البصائر والأبصار.

الظاهرة الأولى: قيام السماوات، وثباتها في أماكنها دون استناد إلى عَمَـد.

والظاهرة الثانية: استقرار الأرض، وتوازنها بالجبال الرواسي مِنْ فوقها، حتى لا تضطرب بمَن عليها من الإنسان والحيوان، وَمَا عليها من معالم الحضارة والعمران.

والظاهرة الثالثة: عمارة الأرض بسلالات الإنسان، وغيره من أصناف الحيوان، على اختلاف الصور والأحجام والألوان.

والظاهرة الرابعة: إنزال المطر من السماء، أي: إنزاله من جهتها وسَمْتها، وإنبات النبات في الأرض بعد موتها.

وذلك قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَـرَوْنَهَا، وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾، أي: حتى لا تهتز ولا تضطرب، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

ولا يَسَعُ الإنسان العادي أمام كل ظاهرة من هذه الظواهر الكونية، فضلاً عن الباحث المتطلع إلى معرفة أسرار الكـون، والمعنيِّ بـالكشف عن نواميس الـطبيعـة، إلّا أن يقف مبهـوراً أمامها، مأخوذاً بعظمة مُبدعها وصانعها، هاتفاً من أعماق قلبه مع كتاب الله إذ يقول: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ، بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٣١: ١١).

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة التي وجهها إلى ابنه وهو يعظه، حتى يسلكَ مسلكَه كلُّ أب رشيد، وقد سجل كتاب الله من بينها خمس وصايا:

الوصية الأولى: أن يومن بوجود الله ووحدانيته وربوبيته، ولا يشرك به أحداً، ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

الوصية الثانية: أن يراقب الله في حركاته وسكناته، وخواطره ومتمَنَّيَاته، لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ، فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي اِلْاَرْضِ يَاتِ بِهَا اَللَّهُ، إِنَّ اَللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾.

الوصية الثالثة: أن يقيم الصلاة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويوطِّنَ نفسه على تحمل الأذى في هذا السبيل، ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ اِلصَّلَوٰةَ، وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ، إِنَّ ذَالِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُورِ ﴾.

الوصية الرابعة: أن يتواضع لعباد الله، ويقبل عليهم بوجهه مستأنساً، وأن يبتعد عن مظاهر الكِبْر والخُيَلاء في حديثه معهم، ومِشْيته بينهم، ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي اِلْاَرْضِ مَرَحاً، اِنَّ اَللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾.

الوصية الخامسة: أن لا يجهَرَ بِأكثر من الحاجة ولا يرفع صوته على الناس، فضلاً عن أن ينهَرَهم مهدداً متوعداً، أو

ساخطاً وغاضباً، ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ، إِنَّ أَنكَرَ الاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾.

وبتسجيل هذه الوصايا الخمس من وصايا لقمان «الحكيم»، في آيات الذكر الحكيم، فتَحَ كتابُ الله الباب على مصراعيه في وجه «حكمة» الحكماء، وبين أنَّ الحكمة تؤخذ من كل أحد إذا كانت حكمة صحيحة موافقة للدين والأخلاق، وليست مجرد مُهاترة أو هُراء، كما هو الشأن في المتطفلين على الحكمة من الأدعياء.

وتخللت الحديثَ عن لقمان ووصاياه الخمس عِدَّةُ آيات كريمة، في طليعتها آية تحدثت عن تلقين الله الحكمةَ للقمان، ودعوته إلى شكر الله على نعمه: ﴿ وَلَقَدَ ـاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ اَلْحِكْمَةَ أَنُ اشْكُرْ لِلَّهِ، وَمَنْ يَّشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اَللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، ثم آيتان في التذكير بحقوق الوالدين والبرور بهما فيما لا معصية فيه، وإبرازِ الأهمية الخاصة لدور الأمّ في حياة الأسرة، ﴿ وَوَصَّيْنَا اَلإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ، وَفِصَـٰلُهُ فِي عَامَيْنِ، أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ، إِلَيَّ اَلْمَصِيرُ ﴾ الآية، ثمَّ آية أخرى تَوجَّه فيها الخطابُ الإلَهي إلى كافة البشر، ممتناً عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وتسخير ما في الكون من الطاقات والثروات لمنفعتهم، ﴿ أَلَمْ تَرَوَاْ اَنَّ اَللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلاَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾.

وخُتِمَ هذا الربع بآيتين كريمتين كشف فيهما كتاب الله الستار عن عناد الذين استولى عليهم التقليد الأعمى، فأخذوا

يجادلون في الحق دون حجة ولا برهان، وسَنَدُهم الوحيد هو التمسك بالهوى ومتابعةُ الشيطان، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين
في المصحف الكريم

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ
ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ
قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن
شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى

ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ
مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم
مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ
وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ
جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ
مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في هذه الحصة نشرع في تفسير الحزب الثاني والأربعين بالمصحف الكريم، وبداية الربع الأول منه قوله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ ﴾، ونهاية هذا الربع قوله تعالى في سورة السجدة المكية أيضاً: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا ضَلَلْنَا فِي اِلْاَرْضِ، إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

تتحدث الآيات الأولى في هذا الربع عمن أسلم وتمسك بالإسلام، وعمن كفر وأصرَّ على الكفر، فالمسلم عندما يسخِّر مواهبه لِطَاعة الله، ويتصرف في حياته طبقاً لمنهج الله، يأوى إلى ركن ركين، ويَنال الفوز المبين، لأنه انسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومع التعاليم الإلَهية التي أرشدهم إليها، ومَن كانت حياته في وئام وانسجام، مع نواميس الطبيعة والنظام الخُلُقي العام، كان أهلاً لكل عون ورعاية وإكرام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ اِلْوُثْقىٰ، وَإِلَى اَللَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾، وكما قال

تعالى هنا: ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، لتوقف الطاعة على «الإحسان»، قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُومِنٌ ﴾، لتوقف العمل الصالح، نيةً وثواباً، على «الإيمان»، و«العروة الوثقى» مِن باب التمثيل، فكما أن من أراد التَّدلِّي من شاهق مَثَلاً مع ضمان النجاة من السقوط لا يَسَعُه إلّا أن يستمسك بأوثق عروة في أمتن حبل، كذلك من أراد النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة لا يجد عروة يستمسك بها أوثق من الإسلام، أما من كفر وأصرّ على كفره فسيقضي فترة حياته القصيرة في المُتَع والشهوات، لكنه سيعاقَب على استهتاره وتهاونه عقاباً لا يجد منه خَلاصاً ولا انفكاكاً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يُحْزِنكَ كُفْرُهُ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله إلى أن فريقاً من الكافرين والجاحدين عندما يُوجَّهُ إليهم السؤال عن خلق السماوات والأرض لايجدون مَناصاً من الإقرار بربوبية الله وخلقه للكون، لكنهم لا يستخلصون النتائج الحتمية لهذا الإقرار، فيطيعوا الله ورسوله، بل يصرون على أن ينكروا فروع الدين وأصوله، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ، قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: يقفون عند حد «القول» دون العمل، ويتجاهلون قواعد الدين، لتعوُّدهم على الإهمال والخمول والكسل، وقولُه تعالى في وسط هذه الآية: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تلقين لكل مومن أن يحمد الله ويشكره على ما هداه

إليه من نعمة الإيمان، إذ لا نعمة تعادلها بالنسبة لسعادة الإنسان، ثم جاءت الآية التالية تؤكد إيمان المومنين، وتمسكهم بالحق المبين، ﴿ لِلَّهِ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

وبعد أن تحدث كتاب الله عن خلق السماوات والأرض، وانفراد الحق سبحانه وتعالى بتخطيط الكون وتدبيره، وتنظيمه وتسييره، أشار إلى أن «كتاب الكون» الفسيح لا تقف الكتابة فيه أبداً، بل إن الأوامر الإلٓهية بشأنه لا تقف عن الصدور، ولا يسع كلماتِه كتابٌ مسطور، ولا رَقٌّ منشور، وكما أنه لا نهاية لقدرته ولا لمقدوراته، فلا نهاية لعلمه ولا لكلماته ، إذ «الَاَبدِيّ لَا يتناهَى» وهذا معنى قوله تعالى الوارد هنا على وجه التمثيل والتقريب: ﴿ وَلَوَ اَنَّمَا فِي اِلْاَرْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ ، إِنَّ اَللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، قال القفال: «لما ذكر الله تعالى أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأنه أسبغ عليهم النعم، نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مِداداً ، فكُتِبَتْ بها عجائبُ صنع الله، الدالةُ على قدرته ووحدانيته، لم تنفَدْ تلك العجائب»، وقال القرطبي: «وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غاية ما يعهده البشرُ من الكثرة، لا أنَّ كلماتِه تنفدُ بأكثرَ مِن هذه الأقلام والبحور».

وإقناعاً لمن لا يزال في شك من أمر البعث، قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ اَللَّهَ سَمِيعُۢ

بَصِيرٌ﴾، وما دامَت عمليّةُ الخلق ونفخِ روح الحياة في الأَحياء متجددة في كل لحظة وكل ساعة، فما الذي يمنع من تجديد الحياة في الموتى وبعثهم عند «قيام الساعة»؟.

ثم أشار كتاب الله إلى تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، مذكِّراً بما وراء هذا التخطيط الإلّهي الحكيم، الملائم لِحياة الإنسان والحيوان والنبات، من منافع ومصالح، لولاها لما عرفت الأرض عمراناً ولا ازدهاراً، ولما استطاع أحد من الأحياء عيشاً فوقها ولا استقراراً، وذلك قوله تعالى موجِّهاً الخطاب إلى كل إنسان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى، وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

و«إيلاج الليل في النهار» يقع عند طول الأول وقصر الثاني، كما يقع «إيلاج النهار في الليل» عندما يصبح النهار طويلاً والليل قصيراً، وهكذا يتبادلان القِصَر والطول، تبعاً لاختلاف الفصول، أما جَرَيان الشمس والقمر فلا يقف إلّا بانتهاء أجلهما المحدود، عند حلول اليوم الموعود.

وتعقيباً على هذه الظواهر الكونية التي سخرها الله لكافة الخلق، ولا يستطيع تدبيرها وتسييرها إلّا الإلّه الخالق الحق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فالعاجز عن الإيجاد والإمْداد، ليس له من ذاته أيُّ اعتبار ولا اعتداد، وصدق الشاعر القائل: «ألَا كلُّ شيء ما خلا اللّهَ باطل».

وأضاف كتابُ الله إلى ما سبق من ظواهر الطبيعة ظاهرة كونية أخرى هي ظاهرة المِلاحة، التي تقوم بها السفن في البحر فتطفو على سطح الماء، فلولا أن الله تعالى خلق الماء في البحر على الصفـة التي يمكن معها جَرَيان السفن، ولولا أن الله هدى الإنسان إلى الطريقة الصالحة لبناء السفن، وهداه إلى الكشف عن العلاقة القائمة بين كثافتها وكَثافة الماء، ولولا أن الله هداه إلى معرفة التيارات المائية والهوائية المنتظمة، لبقيت البشرية، بسبب تعذر المواصلات البحرية، في قطيعة تامة، طيلةَ قرون وأجيال، ولما انتظم بين أبنائها تبادل ولا اتصال. قال الحسن البصري: «مفتاح البحار السُّفُن، ومفتاح الأرض الطُّرُق، ومفتاح السماء الدُّعاء»، وإلى هذه الظاهرة يشير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾، و«نعمة الله» هنا تصدق بلطفه وتسخيره للسفن في البحر، كما تصدق بما تَحمِله السفن من صادرات وواردات، وما تقوم به من مبادلات تجارية نافعة. وذِكْرُ «الصبر والشكر» في هـذا السياق مناسب للمقام غاية المناسبة، فالملاحة البحرية لا يقوم بها ولا يتحمل مسؤوليتها إلاّ من تحلوا بالصبر، وَمَن جَنَى ثمارها وعرف قدرها لا يسعه إلاّ التوجه إلى الله بالحمد والشكر، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

وفي نطاق الملاحة بالبحـر، وما يعـرض لها من شـدائد وأهوال، تولى كتاب الله وصف بعض الحالات التي قد يتعرض لها رُكّاب السفن، وما يصيبهم من انزعاج وهَلَع، عندما تحيط

بهم أمواج البحر العاتية من كل جانب، فيُحسون بالخطر الداهم، ويلجأون إلى الله خاشعين، داعين أن ينجيهم من الغرق، حتى إذا هدأت الأمواج وزال شبح الخطر، وانتهى السفر، عاد كل واحد إلى حالته التي كان عليها من قبل، ونسي الخطر والنجاة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين، فَلَمَّا نَجَّيٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ، فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾، و«الظُّلَل» هنا جمع ظُلَّة، وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، فقد ترتفع الأمواج في البحر حتى تشبه الجبال، وقد تشبه في لونها وكثافتها «السَّحاب الثقال».

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾، أي: مِن الذين نجوا من الغرق مَن بقي متوسطاً في عمله، رغم ما شاهده من أهوال كانت حَريَّة بأن تدفعه إلى المزيد من طاعة الله، شكراً على الخلاص والنجاة، وتفسير لفظ ﴿ مُّقْتَصِدٌ ﴾ هنا بمعنى المتوسط في العمل مطابق لتفسيره في قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ (٣٥: ٣٢)، على أنَّ مِن الذين نجوا من خطر الغرق مَن عاهد الله، ثم نقض عهده وغَدَر، فكان «ختاراً»، ولم يشكر الله على نجاته، بل جحد وكفر، فكان «كفوراً» كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾.

ووجَّهَ كتابُ الله الخطاب إلى الناسِ كافة، داعياً إياهم إلى تقوى الله والاستعداد لليوم الآخر، و«التقوى» هي السبيل الوحيد «لوقايتهم» من الآفات والعاهات، والشدائد والأزمات، فحول هذه

«الوقاية» تدور الأوامر والنواهي والوصايا والمواعظ، مبيِّناً أنّ كل فرد سيقف أمام الله مسؤولاً عن نفسه وعمله، فلا والد ينفع يوم الفصل ولده، ولا مولود ينفع والده، رغماً عما بينهما من قرابة وتعاطف وشفقة، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (٢٣: ١٠١)، ناهياً لهم عن الغرور بالحياة الدنيا وطول الأمل، منبّهاً إلى أن العبرة كلها بالتقوى وصالح العمل، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ، وَٱخْشَوْا۟ يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً، إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ وهو الموت والبعث والحساب والجزاء، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾، والمراد «بالغرور» هنا هو الشيطان، الذي يطيل حبل الأمل للإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (النساء: ١٢٠).

وخُتمت سورة لقمان بذكر «مفاتح الغيب» الخمس التي لا يعلمها على وجه التحقيق إلاّ الله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾، والمراد بالساعة هنا الساعة التي يأذن الله فيها بحدوث انقلاب شامل في الكون، فتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، فالعلم الجازم بموعدها، والمحيطُ بكيفية حدوثها، خاصٌّ بالله تعالى وحده ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (٧: ١٨٧).

ثم قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾، والغيث هنا هو المطر الذي يُحيي الله به الأرض بعد موتها، عندما يأذن بتحريك الرياح وإثارة السحب، فيكرم به البشر أجمعين، على النطاق العالمي

كله، دون تفريق بين بلد وبلد وجنس وجنس، ودون تكاليف ولا مصاريف. وتحريكُ الرياح في الكرة الأرضية، الذي هو العامل الأكبر في إثارة السحب ونزول الأمطار، لا يَقوَى عليه إلاّ الله تعالى وحده، ولا يعْلم مواعيده ومواعيد نُزول المطر، ومبلغ كَمّياته قبل أن ينزل، على وَجْهِ التحقيق والتدقيق، إلاّ خالق الخلق ورازقهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾، وكلمة (ما) لفظ عامّ يشمل أولاً تصويرَ الله للأجِنّة في الأرحام، ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (٣ : ٦)، والعلمَ بما يستقر في الأرحام وما يسقطُ، ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (٢٢ : ٥)، والعلمَ بكون ما في الرحم ذكراً أو أنثى، واحداً أو متعدداً، أبيض أو أشقر أو ملوّناً، ذكياً أو غبياً، سعيداً أو شقياً، طويلاً أو قصيراً، غنياً أو فقيراً، معمَّراً أو قصير العمر، ويشمل العلمَ بمدة حمله هل تنقص عن المعتاد أم تزداد، أو تنتهي في الوقت المعتاد، على أن قوله تعالى: ﴿ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾، لا يخص أرحام النساء وحدهن، بل يشمل أرحام الحوامل من كل الإناث، سواء في ذلك إناث الإنسان وأناث غيره من الحيوان، فعلم الله تعالى محيط شامل، وإحصاؤه لخلقه إحصاء كامل، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (١٣ : ٨)، وصدق الله العظيم إذ قال (٥٣ : ٣٢): ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾، فقد يعزم الإنسان على عمل الخير ثم لا يُوفَّقُ إليه ويتورط في الشر، وقد ينوي القيام بمشروع مهمّ فتحول دونه الموانع، وقد يكون مُعْوِزاً فيُفاجأ بهبة من صديق، أو وصية من قريب، وقد يكون معتمِداً على راتبه من الوظيف الذي يشغله، فيفاجأ بالطرد من الوظيف والتعرض للخَصاصة والفقر، وقد يكون منتظراً لربح عظيم، فتنزل به خَسارة عظمى، أو يقبض الله روحه فجأة، فتنتقل مكاسبه في الحين إلى ورثته، وهكذا دَوَالَيْك.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾، فقد يكون الإنسان مصراً على أن يقضي حياته ببلده إلى الموت، ثم تَرمي به الأقدَار خارج بلده لسياحة أو تجارة أو علاج، أو طلب علم، أو صلة رحم، فإذا به يلقَى الموت في بلد لم يخطر له ببال، ويموت ويُقبَر حيث يشاء الله، ﴿ إِنَّ اَللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

والآن وقد انتهينا من تفسير سورة لقمان ننتقل إلى سورة السجدة المكية أيضاً، وهي آخر سورة في سلسلة السور المبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة، التي وردت متتابعة على التوالي، ابتداءً من سورة الشعراء، وانتهاءً عند هذه السورة. وسميت «سورة السجدة» أَخْذاً من قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة: ﴿ إِنَّمَا يُومِنُ بِئَايَـٰتِنَا اَلذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً، وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

وقد تصدى كتاب الله في بداية هذه السورة للرد على خصوم القرآن، وتبيين الرسالة العُظمى التي جاء بها لهداية الخلق،

فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ . الٓمٓ. تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ، لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

ثم تحدث كتاب الله عن خلق السماوات والأرض، وتدبير الخالق الحكيم للكون، وعلمه المحيط بكل شيء، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾، وحتى لا يظن ظانٌّ أن «الأيام الستة» التي تم فيها خلق الكون من جنس أيامنا القصيرة المحدودة، قال تعالى في نفس السياق: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ، ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وبيَّنَ كتابُ الله ما في خلق الله وصنعه من إحكام وإتقان، وضرَب المثل بالمراحل التي مر بها نوع الإنسان، ونوّهَ بالخصائص الممتازة التي ميّزه بها على سائر الحيوان، فقال تعالى: ﴿ الَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالإشارة إلى ما يستغربه منكرو البعث من أن يُبعثوا بعد موتهم، وقد تحللت أجسامُهم إلى تراب، واختلطت بتراب الأرض، حتى لم يَعُدْ من الممكن التمييز بين الاثنين،

نَاسِين أن الله تعالى الذي خلق الإنسان عند نشأته الأولى من تراب، قادر على أن يبعثه عند نشأته الثانية أيضاً من تراب، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾، أي: اختلط تراب أجسامنا بترابها، ﴿ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ يَتَوَفَّيكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُومِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ
فَلَهُمْ جَنَّٰتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوِيٰهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنْهَآ
أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّذِے كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنِيٰ دُونَ الْعَذَابِ
الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ
ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدَ ـاتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِے مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى
لِّبَنِےٓ إِسْرَآءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمُۥ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ
كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِے مَسَٰكِنِهِمُۥٓ
إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ اَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ
إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَاكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمُۥٓ

أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّيكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة السجدة: ﴿ فَأَعرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرِ، إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع خاطب الحق سبحانه وتعالى رسوله الأمين، آمراً له أن ينذر الذين كفروا بلقاء الله، بأنهم مهمَا ترددوا، وعاندوا وتمردوا، فلن يفلتوا من قبضة الله، الذي خلق الموت والحياة، وأنهم في النهاية راجعون إليه، وواقفُون وقفة الذلة والضراعة بين يديه، ووقتئذ يُصَدِّقُ الخُبْرُ الخَبَر، ولا يبقى مجال لما اعتادوا التفوه به من الهراء والهَذَر، أمَّا ما يُعبِّرون عنه بعد فوات الوقت من مظاهر الإيمان والندم، فلا عبرة به، لأنه بمنزلة العدم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّيكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ، وَلَوْ تَرىٰ إِذَ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ، رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا

نَعْمَلْ صَـٰلِحاً، إِنَّـا مُوقِنُـونَ ﴾، ومعنى ﴿ يَتَـوَفَّيكُم ﴾ سيتـوفى روحكم وينتزعها من الجسم، فتنتقل إلى عالم الأرواح، ومعنى ﴿ وُكِّلَ بِكُـمْ ﴾ أن مَلَك الموت لا يغفل عنكم، فإذا جاء أجلكم لا يؤخركم لحظة واحدة، ومعنى ﴿ نَاكِسُـواْ رُءُوسِهِـمْ ﴾ أنهم يكونون مطأطِئي الرؤوس من الذل والخزي الذي يلحقهم، والندم والغم الذي يصيبهم، ومعنى ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، أي: عند محاسبة ربهم لهم على كفرهم بلقاء الله، ومعنى قوله: ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾، أي: زالت عنا الشكوك الآن، وآمَنَّا بالبعث الذي كنا ننكـره، وقَبْضُ الروح وتَوَفِّي الأنفس مَرَدُّه في الحقيقة إلى الله سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢)، وقـولـه تعـالى: ﴿ قُـلِ اللَّهِ يُحْيِيكُمْ ثُـمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ (الجاثية: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ ﴾ (الملك: ٢)، ويُنسَب «التوفي» مَجازاً إلى الملائكة عموماً، كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام: ٦١)، وإلى مَلَك الموت خصوصاً، كما في آية هذا الربع: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾، إشارةً إلى أن الملائكة يتولون قبض الأرواح بأمر الله.

وجواباً عما قد يدور في الأذهان، أو يجري على اللسان، لماذا وُجد الضالّ إلى جانب المهتدى، والفاجـر إلى جانب المتقى، والكافر إلى جانب المؤمن، والشقيّ إلى جانب السعيد، قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَـوْ شِئْنَـا لَأٰتَيْنَا كُـلَّ نَفْسٍ هُدَيٰهَا ﴾، أي: لو أراد الله أن يخلق الإنسان على نمط الملائكة

المسخَّرين، الذين لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون، لتمت كلمته، وتحققت إرادته، لكنَّ الله تعالى شاءت حكمته أن يخلق الإنسان حراً مختاراً، وأن يُجهّزه بملَكات وطاقات يستطيع أن يستعملها في الخير أو الشر، وتَبَعا لما آتاه من حرية واختيار وضع على عاتقه أمانة التكليف، وحَدَّدَ لَهُ المنهج الذي يتبعه في حياته دون زيغ ولا تحريف، فكان بذلك مسؤولاً عن تصرفاته، لكونه شخصيّة حرة مُدبِّرة، لا آلة صماءَ مُسخَّرة، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: (٩١: ٨): ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيٰهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا، قَدَ افْلَحَ مَن زَكَّيٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيٰهَا ﴾، وقوله تعالى في آية ثانية: ﴿ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى اَلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ لِمَن شَآءَ منكُمُ أَنْ يَّسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨)، وكما قال تعالى هنا: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ءَلَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيٰهَا ﴾، وقال تعالى فيما سبق في سورة (الانعام: ٣٥)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اَللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى اَلْهُدَىٰ ﴾، وقال تعالى فيما سبق من سورة (يونس: ٩٩)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي اِلْاَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ اَلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، إشارة إلى مصير الذين اختاروا الضلالة على الهدى والكفر على الإيمان، من عصاة الجن والأنس، وأنهم سيلقون ما يستحقونه من العقاب.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة المكذِّبين بلقائه وباليوم الآخر، فاخبرهم أن الله تعالى سيعاملهم في الآخرة بالإهمال، فلا

يمُنُّ عليهم بعفوه ورحمته، ولا بدخول جنته، جزاءَ إهمالهم في الدنيا لعبادته وطاعته، وإصرارهم على متابعة الباطل بدلاً من اتِّباع هدايته، وذلك معنى قوله تعالى هنا «على وجه المقابلة»: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ، إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ، وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وكما يُستعمَل «الذوق» في الإحساس بالمطعوم يستعمل فيما تحس به النفس من مختلِف الإحساسات وإن لم يكن شيئاً مطعوماً، ومن الاستعمال الثاني قولُه تعالى هنا: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ... وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾، وقولُه في آية أخرى: ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾، و«عَذَابَ الخُلْدِ»، هو العذاب الدائم الذي لا ينقطع.

وبعدما تحدث كتاب الله عن الفئة الغافلة المستكبِرة، المصرَّة على التمسك بضلالها وإهمالها، أخذ يتحدث عن الفئة الواعية المومنة، الخاشعة لله، التي لا تفارقها خشية الله في جميع اللحظات، فوصفها بأن سماعها لكلام الله يزيدها هدىً وإيماناً، فلا تلبث أن تَخِرَّ ساجدة لِجلاله وجماله، وتسبِّحَ في تهَجُّدها بحمده وكماله، وإذا نامت فإنها لا تستغرق في النوم، بل تظل قلقة في مضاجعها بين الخوف والرجاء، ويهْجُم عليها الأَرَق ما بين فترة وأخرى، فتجد راحتها في التوجه إلى الله بالدعاء، وعَقْد النية على التوجه إلى الخلق بالرِّفْد والعطاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ إنما يومنُ بـآيـتنا الذين إذَا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحوا بِحَمْدِ ربهم وهمْ لا يستكبِرُون. تَتَجافَى جُنُوبُهم عن المَضاجع يَدْعُونَ ربَّهم خوفاً وطَمَعاً، ومِمَّا رزقنـٰهُم ينفِقون ﴾ على غرار قوله

تعالى فيما سيأتي من سورة الذاريات (١٧ ـ ١٩): ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اَلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالاَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾.

وَعَقَّب كتاب الله على ذلك بالكشف عما أعده الله للصالحين من عباده في دار النعيم، فتَقَرُّبهُ أعينهم، مما لا عين رَأَتْ، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزَآءٌ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله إلى الفرق الشاسع بين الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، وأنهما لا يستويان أبداً، ولذلك كان جزاء كل واحد منهما مناقضاً للآخر، لا متماثلاً ولا متحداً، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُومِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً، لَّا يَسْتَوُونَ، أَمَّا اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ الْمَأْوَىٰ، نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ و﴿ النُّزُل ﴾ ما يهيأ للضيف النازل عند وصوله: ﴿ وَأَمَّا اَلذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَيٰهُمُ النَّارُ، كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ اَلنَّارِ اِلذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

ثم عرَّفَنا كتابُ الله بأن عذاب الله الذي يسلطه على الكفار والعصاة من خلقه، لتأديبهم وعقابهم، نوعان: النوع الأول «العذاب الأدنى» وهو الأصغر، والنوع الثاني «العذاب الأبعد» وهو الأكبر، أما «العذاب الأدنى» فهو عذاب الدنيا، ويصدق بالمصائب والاسقام التي يُبْتَلى بها الخلق، تأديباً لهم، حتى يتوبوا إلى الله ويرجعوا

إلى صراطه المستقيم، ومما يندرج في هذا النوع من العذاب حدودُ الجرائم والقتل، والأَسرُ في الحرب، والقحط والغلاء، واضطرابُ حبل الأمن في السِّلْم، وأما «العذاب الأبعد» فهو عذاب الآخرة بشدائده وأهواله، على اختلاف أصنافه وأحواله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾، وهو العذاب الأصغر ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾، وهو العذاب الأبعد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، فإنْ أفاد الأول في التأديب، لم تبق حاجة إلى ما فوقه من أنواع التعذيب، ومن لطائف التفسير ما نبه إليه فخر الدين الرازي في هذه الآية، من أن وَصْفَ عذاب الدنيا بكونه «قريباً» هو الذي يصلح للتخويف والإنذار، لا كونُه صغيراً، لأن العذاب العاجل ـ وإن كان قليلاً ـ يحترِز منه الناس أكثر مما يحترزون من العذاب الشديد إذا كان آجلاً، ووصْفَ عذاب الآخرة بِكونه «كبيراً وعظيماً» هو الذي يصلح للتخويف والإنذار، لا كونُه بعيداً، فاختار كتاب الله في كلا العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف بهما، بدلاً من مقابلهما غير المناسب، ولذلك قال في عذاب الدنيا: ﴿ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾، ولم يقل العذاب الأصغر، وقال في عذاب الآخرة: ﴿ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾، ولم يقل العذاب الأبعد.

وعقَّب كتابُ الله على ما ذكره من وصف أحوال الفريقين ووصف مصيرهما في الدار الآخرة، بأنه لا ظالم لنفسه أظلمُ ممن عُرِض عليه كتاب الله، الذي فيه أهدى الهدى، وأحكم الحكمة، وشفاء الصدور من الشك والغم ومنتهى الرحمة، وبدلاً من أن

يُقبِل عليه إقبال الظمآن على الماء يُعرِض عَن آياته دون خجل ولا استحياء ، وذلك ، قوله تعالى: ﴿ وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ، إِنَّا مِنَ اَلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾.

وعاد كتاب الله مرة أخرى إلى مخاطبة خاتم أنبيائه ورسله، مُذكِّراً إياه، بأنَّهُ كما أُنزل على موسى التوراة أُنزل عليه الذكر الحكيم، ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ اَلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ (٥ : ٤٨)، وكما لاقى موسى العَنَت من فرعون وملائه، ومِن بَني إسرائيل أنفسهم، دون أن يتراجع أو يتقهقر، فإنّ خاتم الأنبياء والرسل لَنْ يَضِيق ذَرْعاً بما سيلقاه من عنت المشركين والكافرين، وكما اختار الحقُّ سُبحانه من بين ذرية موسى وقومه أئمة يهدونهم بين الفترة والأخرى، فسيختار من الأمة المحمدية أئمـة عدولاً يحملون هذا الدين، ويبلغونه للعالمين، ويجدِّدون شبابه كلما احتاج للتجديد إلى يوم الدين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ ـاتَيْنَا مُوسَىٰ اَلْكِتَـٰبَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ، وَجَعَلْنَـٰهُ هُدىً لِّبَنِيَ إِسْرَآءِيلَ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمُ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُـونَ ﴾، وهذا الصبر نوعان: صبر على حمل الدين وممارسته بكل ثبات ويقين، وصبر على تحمل الأذى في سبيـل حمله وتبليغه والـدفاع عنـه ضد هجمـات المدعين والمبتدعين، وبالصبر مع العلم واليقين، تنال الإمامة في الدين.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، إشارةً إلى أن القول الفصْل فيما بين البشر من نزاعات واختلافات حول العقائد والأديان، والحُكْم العدل فيها

وفي غيرها من شؤون الإنسان، سيصدر عن رب العالمين وأحكم الحاكمين، عندما يَجمعُ الناسَ ليوم لا ريب فيه وطبقاً لقوله الفصْل الصادر في شأنهم، وحكمِه العدل، المقضّى به لهم أو عليهم، يلتحقون بدار النعيم أو بدار الجحيم، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (١٨ : ٤٩).

ووجَّه كتاب الله بعد ذلك أنظار الجاحدين والمكذبين إلى الاعتبار بآيتين من آياته الكونية البارزة: الأولى آية يتجلّى فيها مبلغ غضب الله ونقمته، والثانية آية يتجلى فيها مبلغ إحسانه ونعمته، أما الآية الكونية الأولى فَيَتَضمنها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾، وأما الآية الكونية الثانية فيتضمنها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

وفي الآية الأولى إشارةٌ إلى ما يتعرض له خصوم الرسالات الإلٓهية من هلاك، وما تتعرض له مساكنهم من تدمير، عندما لا يُرجى لهم صلاح، وتذكيرٌ بأخبار القرى البائدة والقرون الخالية المتواترة، التي يتناقلها جيل عن جيل، فما بالهم لا يعتبرون بها بعد سَماعها ويعودون إلى حظيرة الحق؟.

وفي الآية الثانية إشارة «إلى الماء الذي يسوقه الله إلى الأرض اليابسة التي لا تُنبِت، من السيول والأمطار، والعيون والأنهار، فلا تلبث أن تهتز وتربو، وتوتي أُكلها لخير الإنسان والحيوان، فما بالهم لا يعتبرون بها وهم يرون رأْي العين أَثَرَ

رحمة الله، المهداة إلى كافة الخلق؟.

وكما قال تعالى هنا: ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾، بتقديم ذكر الأنعام على الأنفس، قال تعالى فيما سبق من سورة الفرقان (٤٩): ﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً ميتاً، ونُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَـٰماً وأناسِيَّ كَثِيراً ﴾، ولعل في ذلك إشارةً إلى أن الإنعام على الأنعام بالسقي من المـاء، والأكل من الزرع، هو في الحقيقة إنعـام من الله على الإنسان نفسه، لما للإنسان في الأنعام من منافع ومصالح لا تستقيم حياته بدونها.

وعلّق أبو حيان على قوله تعالى هنا: ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعـاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾، فقال: خصَّ الزرعَ بالذكر، وإن كان يخرجُ اللَّهُ بالماء أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعُشْب المنتفع به في الطب وغيره، تشريفاً للزرع، ولأنه أعظم ما يُقصَد من النبات، وأوقع «الزرعُ» موقع النبات، وقُدِّمت الأنعام، لأن ما يَنْبُتُ تاكله الأنعام أولاً بأول، قبل أن يأكلُ بنو آدم الحَب».

ووصَف كتابُ الله لوناً من ألوان السخرية والاستهزاء التي كان يلجأ إليها الجاحدون والمكذبون، متسائلين عن الساعة واليوم الآخر: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، والمراد «بالفتح» هنا الفصل والقضاء، والحُكْم الأخير الـذي يقع يـوم القيامة، وهو «يوم الفتح»، ثم رد عليهم كتاب الله قائلاً: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾، مؤكِّداً بذلك أنَّ من لم يومن قبل الموت لا يُقبل منه يوم القيامة إيمان ولا

عمل، ولا حَقَّ له في أي رجاء أو أمل، وسيأتي في سورة سبأ (٢٦) قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾، أي: يقضي بيننا بالحق، ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾.

قال ابن كثير: «ومن زعم أن المراد من هذا الفتح «فتح مكة» فقد أبعد النُّجْعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبِل فيه رسول الله ﷺ إسْلام «الطُّلقاء» وقد كانوا قريباً من ألْفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قَبِل إسلامهم، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

وحرصاً على كرامة الرسول الأعظم من سَفَه السفهاء وجدلهم الفارغ، دعاهُ الحق سبحانه وتعالى إلى الإعراض عنهم عندما يقوم بتبليغ الرسالة، ما داموا لا يبحثون عن الحق، وإنما يجادلون من أجل الباطل، كما دعاه إلى ملازمة الصبر، في انتظار النصر. وكما ينتظِرُ الرسول والمومنون معه نصر الله، ينتظر الكافرون والجاحدون عذاب الله، وذلك قوله تعالى في ختام سورة السجدة المكية ونهاية هذا الربع، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتَظِرِ، إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ
ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي
تَظَّهَّرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ
قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾
ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ
فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن
مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيٓءُ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ

بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ
إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾
وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ
لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا
وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ

مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾
قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ
إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأحزاب المدنية: ﴿بِسمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ. يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ اتَّقِ اِللَّهَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا اَلذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اَللَّهِ إِنَ اَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اِللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾.

في ختام الربع الماضي انتهينا من تفسير «سورة السجدة» المكية، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير «سورة الأحزاب» المدنية، وقد أُطلق عليها «سورة الأحزاب»، أخذاً من قوله تعالى في آيتها العشرين: ﴿يَحْسِبُونَ اَلاَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ، وَإِن يَاتِ اِلاَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوَ اَنَّهُم بَادُونَ فِي اِلاَعْرَابِ﴾ وقوله تعالى في آيتها الثانية والعشرين: ﴿وَلَمَّا رَءَا اَلْمُومِنُونَ اَلاَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُم إِلاَّ إِيمَـٰناً وَتَسْلِيماً﴾.

وفي بداية هذه السورة خاطب الحق سبحانه وتعالى خاتِم

أنبيائه ورسله، والخطاب يَعُمُّ كل فرد من أفراد أمته، فأمره بالتقوى، والأمر بِتقوى الله لمن هو متلبِّس بها، بل بأعلى دَرَجَاتِها ـ كما هو حال الرسول ـ أمرٌ بالازدياد منها، والديمومة عليها، كما حذَّره من كيد الكافرين وخداع المنافقين، حتى لا يركنَ إليهم إذا تقدموا إليه برأي أو مشورة أو طلب، وما أكثرَ الحبائل التي نصبوها لدعوته، والحِيَل التي دبروها لتثبيطه عن أداء رسالته، ودَعَاه إلى اتِّباع الوحي الذي ينزل عليه من ربه، والعمل به دون تساهل ولا هوادة، فباتباعه يتحصن من مكر أعداء الله وخداعهم، وينجو من دسائسهم ومؤامراتهم، ثم أمرَه بعد ذلك بالتوكل على الله، والاعتماد ـ بَعد اتخاذ الأسباب ـ على تدبير مولاه.

وفي خِلال هذه الأوامر والتوجيهات الإلَهية اختار كتاب الله جملة من أسماء الله وصفاته، لها علاقة وثيقة بالموضوع، ومناسَبة تامة للمقام، ألَا وهي اسمُ «العليم»، لأن الله هو الذي يعلم حق العلم الحقَّ من الباطل، والصواب من الخطأ ، واسمُ «الحكيم»، لأن الله هو الذي يدبِّر أمر عباده أحكم تدبير، ويضع الأشياء مواضعها دون خلل ولا تقصير، واسمُ «الخبير»، لأن الله هو الذي يعلم سرائر الخلق وأسرار الخليقة، على وجه الحقيقة، واسمُ «الوكيل»، لأن الله هو الذي يتولى حفظ أوليائه، ويعصمهم من كيد أعدائه، وبهذا التفسير المستطاب، يتضح معنى الآيات الأولى من سورة الأحزاب. قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَـنِ اِلرَّحِيمِ . يَـاأَيُّهَا اَلنَّبِـيٓءُ اتَّقِ اِللَّهَ، وَلَا تُطِعِ اِلْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ، إِنَّ اَللَّهَ

كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، إِنَّ اَللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً، وَتَوَكَّلْ عَلَى اَللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾

وقولُه تعالى في بداية هذه السورة: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ ﴾، كقوله تعالى في سورة الأنفال (٦٤): ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ حَسْبُكَ اَللَّهُ وَمَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُومِنِينَ ﴾، وقوله في سورة التوبة (٧٣) وسورة التحريم (٩): ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ جَـٰهِدِ اِلْكُفَّارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾، هَذَا أُسلوبٌ قرآني خاص، يستعمله كتاب الله عند مناداة رسوله الأعظم، فيناديه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ ﴾ أو ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾، تنويهاً بقَدْره، وتشريفاً لأمره، بينما يقتصر في نداء غيره من الرسل والأنبياء، على مجرد ذكر الأسماء، فيقول مثلاً: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، وهذا لا ينقص من قَدْرهم، أذ هم جميعاً في أُصل النبوة والرسالة سواء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ اَللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، إشارةً إلى أنه لا يمكن أن يجتمع في قلبٍ واحد إيمانٌ وكفر، كما يتصور المنافقون، إذ يحاولون التظاهر بالإيمان، بينما قلوبهم منطوية على الكفر، فالكفر لا يجتمع مع الإيمان، كما لا يجتمع الشكُّ مع اليقين، والشركُ مع التوحيد، والانزعاج مع الطمأنينة في وقت واحد، وحالة واحدة.

وجاء كتاب الله في نفس السياق بحالتين عرفتهُمَا الجاهلية قبل الإسلام، فدعا إلى الحد منهما وإبطال مفعولهما: الحالة الأولى هي «الظهار» من الزوجة، واعتبارُها بمنزلة «الأُم»، والحالة

الثانية هي «تَبَنِّي أولاد الغير» واعتبارهم بمنزلة الأولاد الأصليين.

ففي حالة «الظِّهار»، وهي الحالة الأولى، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّـٰئِي تَظَّـٰهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾، بمعنى أن المرأة الواحدة لا يمكن أن تكون زوجة للرجل وأمّاً له في نفس الوقت، فهناك فرق كبير بين الوضعيتين والحالتين مادياً وأدبياً، وما جرى عليه العرب في جاهليتهم من مفارقة زوجاتهم عند غضبهم، وقطع العِشْرة الزوجية معهن، بمجرد قول الزوج لزوجته: «أنتِ عَلَيَّ كظهر أمي»، لم يَعُدْ له نفسُ الاعتبار في الإسلام، بل أصبح هذا النطق في نظر الإسلام منكراً من القول وزوراً، وأصبح تحريم مِسَاس الزوجة والاستمتاع بها بمقتضى هذا القول أمراً مؤقتاً، ويمتد إلى غاية محدودة، هي القيام بالكفارة من طرف الزوج، و«كفارة الظهار» حسب الترتيب في الدرجة الأولى: تحرير رقبة، وفي الدرجة الثانية: صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا، وفي الدرجة الثالثة: إطعام ستين مسكيناً، طبقاً لما يأتي من الآيات في سورة المجادِلة. قال جار الله الزمخشري: «فإن قلت ما معنى قولهم أنتِ عَلَيَّ كظَهر أُمي؟ قلت: أرادوا أن يقولوا: أنتِ عليّ حرام كبطن أمّي؟ فكَنَّوا عن البطن بالظهر، لئلا يذكروا البطن الذي ذِكْرُهُ يقارب الفرج، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر، لأنه عمود البطن»، وكما قال تعالى هنا: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّـٰئِي تَظَّـٰهَّرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾، قال تعالى في سورة المجادِلة الآتية (٢): ﴿ الَّذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا الَّـٰئِي وَلَدْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ

ٱلْقَـوْلِ وَزُوراً ﴾.

وفي حالة «التبني»، وهي الحالة الثانية، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ، وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ، وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾، بمعنى أن تبنيَ ولد أو بنت ليس من صُلْب المتَبَنِّي، وإنما هو أو هي من صُلب رجل آخر، معروفٍ أو مجهول، عملٌ غير مشروع لا يرضى عنه الله، ولا يقبله الشرع، لأنه مجرد تزوير، وقلب للحقائق، ومن أجل ذلك سمَّى كتاب الله هذا الولد المتَبَنَّي كالبنت المتبناة «دَعِيّاً» أي ولداً ليس بأصيل، والجمع «أَدْعِياء»، وبالرغم عن تسميته ابناً من طرف الأب الطارىء المتبَنِّي، فإن الله تعالى يرفض قبوله ابناً للمتبَنِّي، ويعتبره دخيلاً في الأسرة ومتطفلاً عليها. وتأكيداً لرفض بنوته وإن ادعاها المتبَنِّي قال تعالى في نفس السياق: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾، أي: لا عبرة به شرْعاً، لأنه مخالف للواقع وكذب على الله، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، لا يرضى بسواه بديلاً، ﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، فما أقرَّه اتبعناه، وما أنكره رفضناه.

وقد كان هذا النوع المصطنع من الأبوة والبنوة معروفاً عند العرب في الجاهلية، ولا سيما بالنسبة للأولاد الذكور، كما كان معروفاً عند غيرهم، لكنَّ كتاب الله أعلن فساده وبطلانه، وفرض على المسلمين أن لا يغيروا خلق الله، وأمرهم أن ينسبوا الولد أو البنت إلى الأب الحقيقي مَا دام الأب معروفاً، أو يكتفوا في معاملته كأخ في الدِّين، أو كمَوْلًى من موالي القبيلة أو العشيرة، إن كان مجهول الأب مجهول النسب، وذلك قوله تعالى مخاطِباً

لعباده المتقين: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله على أن من نَسب وَلَداً إلى غير أبيه وكان ذلك صادراً منه على وجه الخطأ لا على وجه العمد، فإنه لا إثم عليه، لكن المتعمِّد لنسبة الولد إلى غير أبيه، مثل متبنِّيه، قاصداً لذلك مصرّاً عليه، سيؤاخذُ بِمَا تَورط فيه من قول الزور، ما لم يتب إلى الله، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾.

والحكمةُ في تحريم «التَّبَنِّي» ومنعه شرعاً منعاً باتّاً أنّ مرتكبه يعمل على إفساد الأنساب واختلاطها، بدلاً مما أمر الله به من حفظ الأنسَاب وصيانتها، كما يعمل على انتزاع الحقوق من أهلها وتمكين الغير منها دون حق، لأنه يجعل وَلَدَ الغير ولداً للطُّلْب، وبذلك يصبح غيرُ المحارم، من زوجة المتبنِّي وأولاده الأصليين، وقرابته الأقربين، محارمَ لمن تبناه، وهو في الحقيقة أجنبيٌّ عنهم، يحِل لهم منه ما يحِل منهم لغيره، ويصبح الولد المتبنَّى شريكاً لَهم في الإرث، دون أن يكون له أدنى حق فيه، إلى غير ذلك من التعقيدات والمضاعفات التي تغير طابع الأسرة المسلمة، وتفسد نظامها من الأساس، وَإذا كان الإسلام قد أقفل بَابَ التبني ولم يأذن به، لَمَا يترتب عليه من مفاسد ومضار، فإنه فتح بَابَ الإحسان في وجه من يريد الإحسان لأطفال المسلمين، ولو كانوا مجهولي الآباء، مَتَى تعرض المجتمعُ الإسلامي لآفات اجتماعية، أو كوارث طبيعية، وذلك بتربيتهم وتعليمهم، والأخذ بيدهم في

المراحل الأولى من حياتهم، وبتخصيص الهبات والوصايا لصالحهم، عندما يبلغ أحدهم أَشُدَّه، وبهذه الطريقة يتمّ ادماجهم في المجتمع الإسلامي بصورة مشروعة، فيها نفع لهم من جهة، وليس فيها ضرر على الأسرة المسلمة وَلاَ اعتداءً على حقوقها الشرعية من جهة أخرى، ويجب على من تورط في عملية التَبَنِّي أن يُعرِّف الولد المتبنَّى في الوقت المناسب بأنه ليس ولداً له من الصُّلب، وإنما هو أخ في الدين، لهُ حقّ العون والإحسان، لا حقوقُ الأولاد الأصليّين، ولْيَكُن ذلك على وجه لا يُشعره بخزيٍ ولا عار، ولا سيما إذا كان في الأمر ما ينبغي ستره من الأسرار.

وكما يحرم على الغير نسبة الابن إلى غير أبيه، فإن انتساب الشخص من تلقاء نفسه إلى غير أبيه يكون حراماً من باب أولى وأحْرى، جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَن ادَّعَى إلى غير أبيه»، أي: انتسب، «وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»، ثم قال تعالى: ﴿ وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾، أي: غفوراً للمتعمد إذا تاب، رحيماً بالمخطىء، حيث رفَع عنه إثم الخطأ.

ثم تصدى كتاب الله لتحديد العلاقة القائمة بين عامة المسلمين ورسوله الصادق الأمين، وبينهم وبين أزواج الرسول من أمهات المومنين، والعلاقة القائمة بين الأقارب من أولى الأرحام بعضهم من بعض، فقال تعالى: ﴿ اِلنَّبِيٓءُ أَوْلَىٰ بِالْمُومِنِينَ مِنَ اَنفُسِهِمْ، وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ، وَأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَـٰبِ اِللَّهِ ﴾، ومعنى كون الرسول عليه السلام أولى بالمومنين من أنفسهم أنه أرأف بكل واحد منهم ، وأَشْفَقَ عليه من نفسه

التي بَيْـنَ جنبيه، إذ هو يدعو كل مومن إلى النجاة دائماً، بينما النفس الأمارة بالسوء تدعوه إلى الهلاك غَيرَ ما مرة، ومثل هذا المعنى يؤخـذ من قـولـه تعـالى في وصف رسـولـه الأعـظم (٩: ١٢٨): ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ اَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى في وصفه أيضاً (٧: ١٥٧): ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلَـٰلَ اَلتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وقد اتسع نطاقُ رأفته ﷺ بالمؤمنين ورحمتِه لهم، حتى أخذ يسَدِّد دَيْن من مات منهم وعليه دين ،طبقاً لقوله ﷺ، ونَصُّه كما رواه البخاري في كتاب الفرائض من صحيحه: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه دَيْن ولم يترك وَفَاءً فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته».

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾، أن أزواج النبي ﷺ أُنزِلن منزلة أمهات المؤمنين في وجوب البرور والتوقير والاحترام، وكذلك في منع الزواج بهن من بعده، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٣٣: ٣٥): ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُوذُواْ رَسُولَ اَللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَداً، اِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اَللَّهِ عَظِيماً﴾. أما بنات أزواجه وأخواتهن فالزواج بهن حلال بالإجماع، وإن كان بعض الأئمة يتساهل في التعبير، فيُطلق على بنات أزواج النبي «أخوات المؤمنين».

ومعنى قوله: ﴿وَأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَـٰبِ اِللَّهِ﴾، أن ذوي القرابات من أهل الفرائض أحق من غيرهم بالتوارث فيما بينهم، وبذلك يُمنع إشراكُ الولد المتبَنَّى مع

ولد الصُّلْب في إرث أبيه أو أمه، لأنه لا رحم بينه وبينهما، وليس من أولادهما الشرعيين الأصليين.

ويمقتضى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾، وضَعَ كتابُ الله حَدّاً للتوارث بمجرد الهجرة والمؤاخاة في الدين التي كانت قد حلت مؤقّتاً محل القرابة، بين الأنصار والمهاجرين، فعاد الأمر إلى نصابه، وعادت المواريث إلى أهلها من ذوي القرابات، الذين لهم حق في الميراث، سواء في ذلك أُولو الأرحام من عموم المؤمنين أو خصوص المهاجرين، طبقاً لقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ مِنَ ٱلْمُؤمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفاً ﴾، باب واسع فتحهُ كتابُ الله في وجه من يريد الإحسان إلى من لهُ به علاقة خاصة، لكن لاحق له في الإرث، إما لكون درجة قرابته رغم إسلامه لا تعطيه صفة الوارث شرعاً، وإمّا لِأنه على غير ملة الهالك، كالزوجة الكتابية التي لم تسلم، ففي هذه الحالة التي لا إرْثَ فيها لا مانع من البر والإحسان، عن طريق الهِبَة أو «الوصية» التي جاء بها القرآن.

ولِيُؤكِّدَ كتابُ الله من جديد وجوبَ قصر التوارث على أولي الأرحام بعضهم مع بعض، وإلغاءَ كل ما خالف ذلك مما سبق في الجاهلية أو وقع في صدر الإسلام، قال تعالى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُوراً ﴾، بمعنى أن هذا الحكم هو الحكم الأساسي الذي شرعه الإسلام، على وجه الاستمرار الدوام.

وَلِيُثَبِّتَ الحقُّ سبحانه وتعالى فُؤاد خاتِم أنبيائه ورسله على الحق المبين، حتى يقف في وجه الكافرين والمنافقين، ويتحمل كل عَناءٍ في سبيل تربية أصحابه المؤمنين، وتبليغ رسالته إلى العالَمين، ذكَّره كتابُ الله بالميثاق الذي أخذه عليه وعلى كافة الأنبياء في هذا الصدد، مؤكِّداً أن ذلك الميثاق «ميثاق غليظ»، لجسامة أمره، وجلالةِ شأنه، مخبِراً بأن الصادقين من أتباعه وأتباع الأنبياء السابقين، سيُسألون يوم القيامَة عن مدى تصديقهم لذلك الميثاق، ومدى تنفيذهم له في دُنياهم، لينالوا أحسن الجزاء في أخراهم، أما الذين كفروا بميثاق الأنبياء فسينالون ما يناسبهم من العقاب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَ اَخَذْنَا مِنَ اَلنَّبِيِّينَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ ، وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى اَبْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقاً غَلِيظاً، لِّيَسْـَٔلَ اَلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ، وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَاباً اَلِيماً ﴾، وكما يُسألُ أتباعُ الرسل عن هذا الميثاق يُسألُ عَنهُ الرسلُ أنفسهم، مصداقاً لقوله تعالى (٥: ١٠٩): ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾.

ويلاحَظ في هذه الآية البدء بذكر خاتم الأنبياء قبل نوح: ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾، ثم ذكر بقية أولي العزم من مشاهير الرسل ـ حسب تَسَلْسُلِهم التاريخي قبل الرسالة المحمدية ـ لأنه هو وارثهم وممثلهم، وخاتمهم الذي أرسله الله إلى الناس جميعاً، بينما ورد ذكره بعد ذكر نوح في قوله تعالى: ﴿ ٤٢: ١٣): ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ الآية، لأن المراد في هذه

الآية هو وصف دين الإسلام بالأصالة والقِدم. قال جار الله الزمخشري: «فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بُعث عليه نوح في العهد القديم، وبُعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبُعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير».

وكمثال بارز لحرص الرسول الأعظم والصادقين من أصحابه على تنفيذ ميثاق الله، الذي أخذ عليه وعلى بقية الأنبياء، مَهْمَا كلفهم من تضحيات، قَصَّ كتابُ الله قصة أحزاب الشرك والكفر التي تألَّبت عليه وعلى المسلمين، بتحريض من يهود بني النَّضِير، وقررت الزَّحْف على مدينة الرسول بعشرة آلاف مقاتل، عِلاوة على يهود بني قُرَيْظَة، للقضاء على الإسلام والمسلمين، فتصدى رسول الله ﷺ، والمؤمنون الصادقون معه، للوقوف في وجه زَحْف تلك الأحزاب، وأقاموا حول المنطقة المكشوفة من المدينة - بإشارة سَلْمان الفارسي - خَندَقاً كان الرسول عليه السلام على رأس من يقوم بحفره، وتفتيت صَخْرِه، ونقل ترابه، والغبارُ يتراكم على جسمه الشريف، وهو يرتجز برجز ابن رواحة، تشجيعاً لأصحابه بالقول والعمل والأسوة الحسنة، واستعدَّ الرسول والمؤمنون معه لِمواجهة زحف الشرك والكفر، وإن كان عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف وعدد الأحزاب أكثر من عشرة آلاف، واستمر الحصار مضروباً على المدينة شهراً كاملاً، وباءت محاولات اقتحام الخندَق كلُّها بالفشل، وخذَل اللّهُ أحزاب الشرك والكفر، وسلَّط عليهم ريحاً قوية قلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الخيام،

وأطفأت النيران، وأكْفَأت القدُور، وجال الخيل بعضها في بعض، وأمر رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب بمبارزة عمرو بن عَبْدِ وُدّ العامري، من فرسان الجاهلية المشهورين، فلم يلبث أن سقط سريعاً بين يدي عليّ، وكان ذلك علامة النصر للإسلام والمسلمين، وارتحل أعداء الله ورسوله خائبين خاسرين، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّها اَلذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ اِلاَبْصَـٰرُ، وَبَلَغَتِ اِلْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ اِلظُّنُونَا، هُنَالِكَ اَبْتُلِيَ اَلْمُومِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾.

وكشَفَ كتابُ الله الستار عن موقف المنافقين وتربصهم الدوائر بالمسلمين، وانتحالهم الأعذار، واختلاق المبرّرات للتراجع والفرار، في انتظار النتيجة التي يتوقعون أن تكون على المسلمين لا لهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ، مَّا وَعَدَنَا اَللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً، وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ، وَيَسْتَـٰذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيٓءَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾، أي: مكشوفة غير محصّنة، ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، اِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنَ اَقْطَارِهَا ﴾، أي: لو دُخلت عليهم المدينة من جوانبها، ﴿ ثُمَّ سُيِلُواْ الْفِتْنَةَ ﴾، أي: الردةَ عن الإسلام، ومقاتلةَ المسلمين، ﴿ لَأَتَوْهَا، وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيراً ﴾.

وفضحهم كتاب الله فضيحة أكبر وأشد، عندما وصمهم

بوصمة الخيانة العظمى، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَـٰرَ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

وتعقيباً على ما وصفهم به كتاب الله من التخاذل والتآمر أمر رسوله الأمين أن يُعرّفهم بأنهم مهما حاولوا التراجع والفرار، وتولية الأدبار، فإنه لا مفرّ لهم من قضاء الله وَلَنْ يُفلتوا من قبضته، فقال تعالى في ختام هذا الربع مخاطباً رسوله الذي وفّى بالعهد والميثاق، وتَحَمّل في سبيله التضحيات والمشاق: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ، وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً، قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ
وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الثاني والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ اَلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ يَـٰنِسَآءَ اَلنَّبِيِّءِ مَنْ يَّأْتِ مِنكُمْ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا اَلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَالِكَ عَلَى اَللَّهِ يَسِيراً ﴾.

يواصل كتاب الله في هذا الربع كشف الستار عن المنافقين الذين كانوا مندسين بين المسلمين، فبرز نفاقهم بشكل واضح، عندما زحفت أحزاب الشرك والكفر على مدينة الرسول، تريد القضاء عليه وعلى دينه والمؤمنين، فقال تعالى وهو يصف ما قاموا به من تعويق وتثبيط وراء الجبهة، ومن تثاقل عند الاضطرار للالتحاق بها، وتكاسل عن العمل مع الآخرين فيها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ، وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا، وَلَا يَأْتُونَ اَلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، اَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾.

ثم وَصَفَ كتابُ الله حالَ المنافقين الجبناء عندما رأوا قوة

أحزاب الشرك والكفر، فتملَّكَهم الخوف من كل جانب، وحالَهم بعد ما وَلَّت تلك الأحزاب الأدبار، لا يهمهم إلاّ النجاة بأنفسهم إن توقعوا للمسلمين الهزيمة، وإذا غَلَبَ المسلمون كانوا أكثر الناس شَرَهاً وطمعاً في الغنيمة، ولو أن دورهم في كلا الحالين قاصر على مجرّد الدس والغِيبة والنميمة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ، اَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ، أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يُومِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ﴾.

ورغماً عن أن أحزاب الشرك والكفر التي تجمعت حول المدينة أُلقى الله في قلوبها الرُّعْب، واضطرت إلى الرحيل، فإن المنافقين ظلوا في شك من هذا الأمر، معتقدين أنها لا تزال تحاصر المدينة، ففَرُّوا إلى بيوتهم، حرصاً على السلامة، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْسِبُونَ ٱلاَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾.

على أن أمنية المنافقين كانت هي أن يقع زحف الأحزاب على المدينة وهُمْ متغيبون عنها في البادية بين الأعراب، حتى لا يتورطوا في نزال ولا قتال، ويكتفوا في هذه الحالة بمجرد السؤال: ما هي أنباء المعركة التي تدور بين المسلمين وأعدائهم؟ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَّاتِ ٱلاَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوَ اَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلاَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنَ اَنۢبَآئِكُمْ ﴾ وإذا تظاهر أحد منهم بالاستعداد لخوض المعركة، رغبةً في التجسس وحب الاستطلاع، لم يبذل إلاّ أقل التضحيات وأضعف الجهود، كمال قال تعالى في نفس

السياق: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُمْ مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، تأكيداً لقوله تعالى في وصفهم أوائل هذا الربع: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وإذا كان كتابُ الله قد سجل على المنافقين خيانتهم لعهد الله، وتحفُّظهم المُريب وتثاقلهم عن إداء الواجب، كلما دعاهم رسول الله، فها هو كتاب الله على العكس من ذلك ينوِّه بجهود المؤمنين الصادقين، ومسارعتِهم إلى بذل الأنفس والأموال، وخوضِهم المعارك دون تحفظ ولا تثاقل، كلما اضطروا إلى حمل السلاح والقتال، وفاءً بما عاهدوا الله عليه، ودفاعاً عن دين الحق الذي أكرمهم الله بالانتماء إلَيْه، وعلى رأسهم جميعاً سيد الخلق «نبي المَرْحَمة، ونبي المَلْحَمَة» رسولُ الله وخاتم النبيئين، الذي هو قدوتهم وقدوة كافة المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كان يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْاخِرَ، وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً، وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلْاحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمُ إِلَّا إِيمَـٰناً وَتَسْلِيماً، مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُم مَّنْ يَنتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا، لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنْ شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

وواضحٌ أن رسول الله ﷺ كان خيرَ قدوة لأصحابه من الأنصار والمهاجرين، وهو خيرُ قدوة لكافة المؤمنين إلى يوم الدّين، وقد ضرب المثل بنفسه للذين آمنوا معه، عندما دعاهم

إلى مقاومة أحزاب الشرك والكفر، ووافق على إقامة خندق للدفاع عن المدينة، وكان أول من شمّر عن ساعده، وتناول آلة الحفر وآلة تفتيت الصّخر بيده الكريمة، إلى جانب أصحابه الكرام، وهم يقومون بحفر الخندق، فكان حفره بقيادة رسول الله وبركته من أعظم المفاجآت، التي حالت بين تلك الأحزاب والاستيلاء على عاصمة الإسلام الأولى.

ولما كان الائتِسَاء برسول الله والاقتداء به على الوجه الأكمل، مَقاماً كبيراً في الدين، لأنّ رسول الله ﷺ يمثّل الإنسان الكامل بين العالَمين، نَبَّهَ كتابُ الله على أن هذا المقام لا يبلغهُ إلّا الأصفياء الأتقياء من أقوياء الإيمان واليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾، بعد قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

وقولُ المؤمنين عندما رأوا تألُّب الآلاف المؤلفة من أحزاب الشرك والكفر عليهم: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾، إشارةٌ إلى قوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، مخاطِباً للمؤمنين الأولين (٢١٢): ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ، وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾، وقولُهم: ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إشارةٌ إلى قوله تعالى في خِتَام تلك الآية: ﴿ أَلآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾، أي: من وَفَّى

بما عاهد عليه الله، كمن كان عليه دَيْن وقضى دَيْنه، واستُعْمِل «النَّحْب» هنا بمعنى النَّذْر الذي يلتزم به الشخص، أو العهد الذي يأخذه على نفسه، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَّنتَظِرُ ﴾، أي: من ينتظر الشهادة في سبيل الله وفاءً بالعهد، وانتظاراً للوعد، ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾، أي: ما بدلوا نَذْرهم ولا عهدهم، والله تعالى لا يُخلِف وعدَهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ اَلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ اَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ ﴾، معناه أنهم إذا ماتوا على النفاق عُذّبوا وكانوا في الدَّرك الأسفل من النار، وإذا تابوا من نفاقهم وآمنوا حق الإيمان تاب الله عليهم، وأُلحقوا بالمؤمنين الأبرار، ﴿ إِنَّ اَللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

ثم تولى كتاب الله وصفَ النهاية الفاشلة التي انتهى إليها حِلف أحزاب الشرك والكفر ضد الرسول والمؤمنين، ووصفَ النهاية الظافرة، التي توَّجت جهود المقاومة الإسلامية، برَحيل تلك الأحزاب، وعودتها من حيث أتت بخُفَّيْ حُنَيْن، وتقليم أظفار يهود بني قُرَيْظَة، الذين بادروا إلى نقض عهدهم مع المسلمين، والتحالف مع الأحزاب، بمجرد زحفها على المدينة، أَمَلاً في القضاء على الإسلام، والتخلص منه في الحين. فقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اَللَّهُ اَلذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ﴾، أي: ردهم بأخسر صفقة، خائبين منهزمين، ممتلئين غيظاً وحنقاً، ﴿ وَكَفَى اَللَّهُ اَلْمُومِنِينَ اَلْقِتَالَ ﴾، أي: بما آتاهم من عون ظاهر وخفي، فقد وفقهم إلى مفاجأة المغيرين بما لم يكن في

الْحِسْبان، وذلك بحفر خندق يحمي المدينة أثناء حصارها من كل عدوان، كما سلط الله على أعدائهم ريحاً عاتية شتتت شملهم، وقطَعَت حَبْلهم، وجعلتهم في حالة رُعْبٍ وفزعٍ وعويلٍ، لا يهمهم معها إلاّ الانصراف والرحيل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾، أمَّد رَسوله والمؤمنين بقوته، وأعزَّ دينه الحقَّ بعزته، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، أي: مكَّن الله للمسلمين من يهود بني قُرَيْظَة، الذين تقع مساكنهم على بعد بضعة أميال من المدينة، فاستغلوا قربهم منها، وقلَبوا للمسلمين ظَهْرَ المِجَنّ، وتضامنوا مع أحزاب الشرك الزاحفة عليهم، ظناً منهم أنَّ فرصة القضاء على الإسلام قد حلَّ أجلُها، مع أنهم يُعَدُّون من «أهل الكتاب»، كما وصفهم الله في هذه الآية، لا من أهل الوثنيّة والشرك. والحليفُ الطبيعيُّ لهم، الذي كان المَنطِقُ يقضي بتأييده وَمُناصرته هو دين الحق، الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، لا دين الوثَنية الباطل، الذي لا يؤمن بأيِّ كتاب، ولذلك ما كاد رسول الله ﷺ يعودُ من رباطه بالخندق، بعد جَلاء الأحزاب عن المدينة، حتى أُوحِي إليه أن ينهض من فَوْره إلى حصار بني قُرَيْظَة في قراهم المحصنة، القريبة من نفس المدينة، عقاباً لهم على جريمة الغَدْر، وتأديباً لهم على خيانة العهد والضَّرب من الخَلْف، فحاصرهم رسول الله والمؤمنون خمساً وعشرين ليلة، ولما طال عليهم الحصار، ولم يجدوا وسيلة للفرار، لم يسعهم إلاّ الخضوعُ والاستسلام، لجنود الإسلام، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تنزِلون

على حكمي» فأَبَوْا، فقال: «على حكم سَعْدِ بْنِ مُعاذ» فرضوا به، لأن سَعدَ بن معاذ كان هو سيد الأوْس، والأَوس كانوا في الجاهلية حُلفاء لبني قُرَيْظة، فاستدعاه رسول الله ﷺ من المدينة، حيث كان نازلاً في قُبَّة بالمسجد النبوي، يُعالَج فيها من سهم أصابه أيام الخندق، فلما حضر ودنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله: «قوموا إلى سَيِّدكم»، فقام إليه المسلمون وأنزلوه من مَطِيَّته، إجلالاً واحتراماً له في مَحَلِّ ولايته، ليكون ذلك أنفذ لحكمه، فلما جلس قال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء ـ وأشار إلى بني قُرَيْظة ومعهم سيدهم كعب بن أَسَد الذي نقض العهد ـ قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بِما شئت، فقال سعد: «وحُكمِي نافذ عليهم؟» فقال رسول الله: «نعم» ثم قال سعد: «وعَلَى من في هذه الخَيْمَة؟» قال رسول الله: «نعم» ثم قال سعد: «وعلى مَنْ هَا هُنا» ـ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسولُ الله ﷺ، وهو مُعرِضٌ بوجهه عن رسول الله إجلالاً وإكراماً ـ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فنطق سعد بن معاذ بحكمه بعد أن ارتضاه الجميع حَكَماً، والتزمت الأطراف المَعْنِيَّة كلها تنفيذ حكمه، وقال: «إني أحكم أن تُقتَل مُقاتلتُهم، وتُسبَى ذريتُهم وأموالُهم»، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أَرْقِعة»، أي: من فوق سبع سماوات. وكان مُقاتلتُهم ما بين سبعمائة إلى الثمانمائة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا في نفس السياق بغاية الإيجاز والإعجاز: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَاسِرُونَ فَرِيقاً، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾، لأنها كانت خاصة بهم،

ومحرماً دخولُها على غيرهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾، يعفو عمن يستحق العفو والإكرام، وينتقم ممن لا ينفع فيه إلّا الانتقام.

وكما تحدث كتاب الله في الربع الماضي عن حالة «الظِّهار» وحالة «التَّبنِّي» وعلاقة أولي الأرحام بعضهم مع بعض، وعلاقة المؤمنين بالرسول الأعظم وبأزواجه أُمهات المؤمنين، فبيّن حكم الله فيما وصفه من تلك الحالات، وحدّد نوع العلاقات الشرعية في تلك المجالات، ها هو يعود مرة أخرى إلى الحديث عن بعض الموضوعات التي لها نوع ارتباط واتصال بما سبق، وفي طليعتها وضع الأسرة النبوية، من الناحية المادية والناحية الأدبية.

وحيث أن للإنسان حالتين: حالة هو فيها تسمى «الدنيا»، وحالة لا بدّ أن يصير إليها وهي «الأخرى»، والإنسان فيما بينهما إمّا أن يحْصر مطالبه ويُرَكِّز اهتمامه على الحالة الأولى، أو يحصر مطالبه ويُركِّز اهتمامه على الحالة الثانية، أو يهتم بالحالتين معاً وبما يلزمهما من مطالب مشتركة، فقد أمر اللَّهُ رسوله أَنْ يُجري استفتاءً بين أزواجه، ويطلب منهن التعبير بصراحة عن رغبتهن الدفينة: هل يُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها، ولا يجدِنْ الراحة وهدوء البال، في عيشة الإقْلال وضِيق الحال، التي اختارها رسول الله ﷺ لنفسه وأهله، أم يُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة، فيقنَعْنَ من متاع الدنيا بالقليل، ويكتفين بالمكانة الدينية والأدبية التي ينفرِدْن بها عن نساء العالم، إذ ليس لها بينهُنَّ مثيل، وذلك

ما يتضمنه قوله تعالى مخاطِباً رسوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾.

وهكذا أصبح أزواج رسول الله ﷺ أمام اختيار حاسم، فمَن اختارت منهن الحياة الدنيا وزينتها واعتبرت الجانب المادي أهمّ من الجانب الروحي كانَ لها الحق في السراح الجميل والمتاع بالمعروف، ونتيجةُ ذلك مفارقة بيت الرسول والخروج من عصمته، ومَن اختارت الله ورسوله، وقدَرَتْ حُظْوَة الانتماء إلى بيت الرسول، والاندماجِ في أهله حقَّ قَدْرها، دون أن تعير اهتماماً كبيراً للجانب المادي العابر، بقيت في بيت الرسول، فحافظت على مالها من مَقام كريم، وفازت من الله ـ جزاء إحسانها ـ بالأجر العظيم.

والمراد (بالسَّرَاح الجميل) في هذه الآية مفارقة الزوج لزوجته دون أن يُلحق بها أيَّ ضرر، لا من الناحية الأدبية، بالإساءة إلى عِرضها أو ذكر عيوبها، ولا من الناحية المادية، بمفارقتها في غير الوقت المشروع للفراق، أو بتضييع حق من حقوقها. ونظيرُ هذا المعنى قولُه تعالى في سورة البقرة في آية سابقة (٢٢٩): ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾، وقولُه تعالى في آية لاحقة من هذه السورة (٤٩): ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾.

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾، أي: أمنحْكُنَّ عند

الفراق عطاءً مناسباً، من باب المواساة والتسلية، والعون على اجتياز مرحلة الفراق الصعبة، في انتظار استئناف حياة زوجية جديدة، وسبق في سورة البقرة (٢٣٦) قولُه تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وقولُه تعالى في آية أخرى (٢٤١): ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، أمّا نتيجةُ استفتاء الرسول لأزواجه حول نَمَط العيش الذي يرغبْن فيه، ويحرِصْنَ عليه، فقد كانت هي موافقة الواحدة تلو الأخرى، عن رضي واقتناع، على البقاء في عصمته، والتمسك بعدم مفارقته، والاكتفاء بما قَسَم الله له في معيشته، تَعلُّقاً بمحبته وطاعته.

وإشعاراً لأزواج الرسول عليه السلام، بالمكانة الخاصة التي يتمتعن بها، والمسئولية التي تقع على عاتقهن بسبب وجودهن في بيت الرسول، وكونهن من أهله، وموضعَ الاقتداء لأمته أخبرهن كتاب الله من باب التنبيه والتحذير: أنه كلما عظمت الحُرُمات، تضاعفت عند هتكها العقوبات، وكلما ازداد الفعل قُبحاً ازداد عقابه شدة، وذلك قوله تعالى وهو يخاطبهن في نهاية هذا الربع: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين
في المصحف الكريم

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾
وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ
مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ

وَالصَّٰبِرَٰتِ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ وَالصَّٰٓئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا
أَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى
نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ
فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ
اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحاً، نُؤتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ، وَدَعْ أَذيٰهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾.

وَاصَلَ كتاب الله في الآيات الأولى من هذا الربع خطابه لأزواج الرسول عليه السلام، مبيناً أولاً أن صيانة الحُرُمات توجب مضاعفة الثواب، كما أن هَتْك الحُرُمات يوجب مضاعفة العقاب، وذلك مايتضمنه قوله تعالى مخاطباً لنساء النبي: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحاً نُؤتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ و«القنوت» الطاعة، و«الرزق الكريم» هو ما أعده الله لهن في دار النعيم، وإنما ضوعف أجرُهنَّ لطلبهن رِضَا الله بالطاعة والعمل الصالح، وطلبهن رِضَا الرسول بحسن

الخلق، وطيب المعاشرة، والقناعة بما هُنَّ عليه من العيش دون إلحاح ولا إزعاج.

ثم قال تعالى وهو يخاطب أزواج النبي: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾، مؤكداً بذلك شرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وعظيم مسؤوليتهن، منبهاً إلى أن «تَقْوَى الله» هو الأساس الذي تبنى عليه كل المزايا والفضائل، وأن من لم يتق الله لا يستحق إلاّ أسفل الدرجات وأَحَطَّ المنازل.

وإمعاناً في تهذيب أزواج الرسول عليه السلام، وتمكينهن من تسنم أعلى المقامات في التربية والسلوك، حتى يَكُنَّ خير قدوة للمؤمنين والمؤمنات، لقنهن كتاب الله جملة من الآداب النافعة، والوصايا الجامعة، التي تخلع عليهن مزيداً من الجلال والوقار، وتجعلهن في مَنْأى عَن كل الشبهات والأوزار. والخطَاب وإن كان موجهاً إليهن بالأصالة فهو موجه بالتَّبَع إلى جميع نساء المسلمين.

الوصية الأولى: أن يكون كلامهن جزلاً، وقولهن فصلاً، دون ترقيق مصطنع، قد يبعث الغريب على الطمع، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾، أي: في قلبه ريبة، ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾، أي: قولاً حسناً، لا ليِّناً ولا خشناً.

الوصية الثانية: أن يصرفن عنايتهن الخاصة واهتمامهن الزائد إلى تدبير بيوتهن، إذ لا تتحقق سعادة البيت والأسرة على

الوجه الأكمل إلاّ بالاستقرار، والتعاون والوقار، وعدم التعرض لمخالطة الأشرار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾.

الوصية الثالثة: أن يترفعن، عند الحاجة للخروج من البيت، عن التلبس بمظاهر الجاهلية الجهلاء، ويبتعدن كل الابتعاد عن «التبرج» الذي هو أخطر وسيلة للإغراء والإغواء، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، أي: لا تُحدثْنَ في الإسلام جاهليةً أخرى، على غرار الجاهلية الأولى قبل الإسلام، فإنها محرمة من باب أولى وأحرى، وسبق قوله تعالى في سورة النور (٦٠): ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ، وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: «يا معشر النساء: قصتكن قصة امرأة واحدة، أحل الله لَكُنَّ الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروا منكن محرّماً».

الوصية الرابعة: أن يُقِمن الصلاة التي هي عِمَاد الدين، والحق الأول من حقوق الله، ويوتين الزكاة التي هي عماد التكافل بين المؤمنين، والحق الأول من حقوق عباد الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

الوصية الخامسة: أن يُطِعنَ الله ورسوله طاعة عامة مصحوبة بالرضى والتسليم، طبقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾.

وبعْدما انتهى كتاب الله من عرض الآداب والوصايا التي وجه الخطاب بها إلى أزواج الرسول وأمهات المؤمنين بَيَّنَ الحكمة

الإلٓهية من وراء ذلك، ألا وهي أن المستوى الأخلاقي العالي الذي يريده لأزواج الرسول عليه السلام، وأهل بيته الكرام، في سلوكهم الخاص والعام، إنما يطالبهم به لتظل منزلتهم الخاصة في القلوب بمَنْأًى عن كل نقد أو تجريح، لا بطريق التصريح ولا بطريق التلويح، فبِتساميهم في السلوك والتزامه عادة وديدَنا، لا يجد من في قلبه مرض مغمزاً ولا مطعناً، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾، وإنما قال: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ... وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾، نظراً لاشتمال بيت النبوة على رسول الله ﷺ وعليّ والحسن والحسين، بالإضافة إلى أزواج الرسول وبنته، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر.

ونبه جار الله الزمخشري إلى أن كتاب الله استعار كلمة (الرجس) للذنوب، وكلمة (الطهر) للتقوى، لأن عِرْض المقترفِ للسيآت والقبائح يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس والخبائث، بينما عِرض الذي يمارس الحسنات ويتشبث بالمحاسن يظَلّ نقياً مصوناً، كنقاء الثوب الطاهر النظيف.

وليؤكد كتاب الله نفس التوجيهات السامية، ويعمق معناها ومغزاها في قلوب أمهات المؤمنين وعقولهن وَجَّهَ إليهن أمراً جديداً بأن يتذكرن على الدوام ما يتلقاه الرسول عليه السلام من الوحي، فيتلوه عليهن غَضّاً طرياً، ويستمعن إليه بكرة وَعَشِياً، وبقدر الأسبقية والأولوية في المزية، تتضاعف المسؤولية، وذلك

ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

والأمر بذكر ما يتلي في بيوتهن يصدق بامتنان الله عليهن بهذه النعمة ووجوب شكره عليها، إذْ أكرمهن فجعلهن أزواجاً لرسول كريم يتلقى الوحي من ربه، ويصدق بوجوب تدبره والتفكر فيه والعمل به، ويصدق بوجوب حفظه وقراءته وتبليغه إلى الناس، كما يصدق بهذه المعاني جميعاً، إذ لا تناقض بينها ولا تعارض، بل يكمل بعضها بعضاً.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد «بآيات الله» هنا آيات القرآن، و«بالحكمة» سنة الرسول التي هي بيان وتطبيق للقرآن، وذهب جار الله الزمخشري عند تفسير هذه الآية إلى أن ﴿ءَايَـٰتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ شيء واحد، حيث إن كتاب الله كتاب جامع بين أمرين، فهو «آيات بينات» تدل على صدق النبوة، لأنّه معجزٌ بنظمه، وهو «حكمة» وعلوم وشرائع، وأحسن القاضي أبو بكر (ابن العربي) وأجاد وأفاد، عند ما قال: «آيات الله حكمته، وسنّة رسوله حكمته، والحلال والحرام حكمته، والشرع كلُّه حكمة».

ويؤخذ من قوله تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾، أن لطف الله بنساء النبي، وعلمه بما في قلوبهن من خير، هو الذي اهّلهن لنيل هذه المنقبة، حتى حُزْنَ بين نساء العالمين أعلى مرتبة.

ومن الحديث عن أزواج الرسول عليه السلام وأهل بيته، الذي استغرق سبع آيات: ثلاث آيات في نهاية الربع الماضي وأربع آيات في هذا الربع، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن أعضاء المجتمع الإسلامي عموماً، رجالاً ونساءً، وحدد الصفات البارزة التي يجب أن يتميز بها أعضاء هذا المجتمع المثالي المهذب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ، وَٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَـٰتِ، وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ، وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ، وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ، وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ، وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ، وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ، وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ، وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ، أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾. وطبقاً لهذه الآية الكريمة يكون على كل عضو من أعضاء المجتمع الإسلامي أن يستوفي عشر صفات:

الصفة الأولى: صفة الإسلام، وهذه الصفة تقتضي الانقياد التام للتوجيه الإلٓهي، والعيش في ظله وتحت رعايته، في سلام وانسجام.

الصفة الثانية: صفة الإيمان، وهذه الصفة تقتضي التصديق بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وبكل ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين عن رب العالمين، تصديقاً جازماً عن علم ويقين.

الصفة الثالثة: صفة القنوت، وهذه الصفة تقتضي القيام

بالطاعة في حالة اطمئنان وسكون، والمداومة عليها إلى جانب غيرها من الشؤون.

الصفة الرابعة: صفة الصدق، وهذه الصفة تقتضي التحرّيَ في قول الحق، والإخلاصَ في النية والعمل، والوفاءَ بالعُهود والعقود، وعدمَ تعدي الحدود.

الصفة الخامسة: صفة الصبر، وهي تقتضي الصبر عن المعاصي والخصال الذميمة، وذلك بالابتعاد عنها وعدم تناولها، والصَّبْرَ على الطاعات والخصال الحميدة، وذلك بالتمسك بها وعدم إهمالها، والصبرَ عند مفاجآت الأقدار، وذلك بعدم السخط من أجلها، وعدم الِاعتراض على الله فيها.

الصفة السادسة: صفة الخشوع، وهذه الصفة تقتضي انكساراً في النفس، وسكينة في القلب، وسكوناً في الجوارح.

الصفة السابعة: صفة التصدق، وهذه الصفة تقتضي الإحسان إلى القادر على الكسب، مَتَى كان في وَقتٍ معين لا كسب له، والإحسان إلى العاجز عن الكسب، ما دام لا كاسِبَ له، وتشمل الصدقة بالفرض والنفل، وتتسع أحياناً فتشمل الصدقة بالنفس، علاوةً على الصدقة بالمال.

الصفة الثامنة: صفة الصيام، وهذه الصفة تتحقق بصيام الفرض كرمضان، وصيام النفل كصيام عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، وتتسع أحياناً فَتَشْمَلُ الإمساك عن كل ما هو مرذول شرعاً من الأقوال والأفعال.

الصفة التاسعة: صفة العفة في العلاقات الجنسية، وهذه الصفة تقتضي التحرز من الوقوع في المآثم والمحارم التي تشوه هذه العلاقات، مما لا يقبله الشرع الحكيم، ولا يرضى عنه العقل السليم، وتستلزم الاِقتصار على ما هو موافق للشرع، وملائم للطبع.

الصفة العاشرة: صفة الذِّكْر، وهذه الصفة لا تقتصِرُ على ذكر الله باللسان، بل تقتضي ذكره وحضوره في الذهن والقلب والخاطر باستمرار، وبذلك تكون مراقبة العبد لربه في تصرفاته متصلة دون انقطاع، لا في الليل ولا في النهار. ومِنْ ذكر الله قراءةُ القرآن، والاشتغال بالعلم النافع لبني الإنسان.

فمن استوفى مجموع هذه الصفات، التي يعود نفعها على الغير كما يعود نفعها على الذات، كان أهلاً لأن ينال مغفرة الله وثوابه، وأَمِن في الآخرة عذابَه، ومن استوفي بعضها دون بعض كان له من الثواب بقدر ما استوفاه، وآخذه الله بما أهمله واتبع فيه هواه.

ويلاحظ أن كتاب الله عندما عرض هذه الصفات لم يذكر في الثمانية الأُوَل متعلَّق أي صفة، بينما ذكر المتعلَّق في الصفتين الأخيرتين، إذ قال تعالى: ﴿ وَالْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَـٰفِظَـٰتِ، وَالذَّاكِرِينَ اَللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾، ففي ذكر متعلَّق ﴿ وَالْحَـٰفِظِينَ ﴾، تنبيه إلى أخطار الشهوة الغالبة، ومكانها الذي يجب الحرص على صونه وحفظه من طَرَف الرجال والنساء، تجنباً للوقوع في الحرام، وبعداً عن العدوان والاِعتداء، وفي ذكر متعلَّق

﴿وَالذَّاكِرِينَ﴾، تنبيه إلى أن الذكر ينبغي أن يكون بالاسم الأعظم وهو «الله» إذ هو الاسم العَلَم المحتوي على جميع صفات الحق سبحانه وتعالى، فمن ذكره بهذا الإِسم كان كمن ذكره بجميع صفات الكمال، واستحضر في ذكره صفات الجلال وصفات الجمال.

وقولُه تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾، عاد الضمير فيه على المسلمين والمسلمات، وما عطف عليهما، طبقاً للتغليب المتَّبَع في الأسلوب العربي عند اجتماع الذكور والإناث.

وعقَّبَ كتابُ الله على ما شرعه الإسلام في هذه السورة من التشريعات والأحكام، للقضاء على مخلفات الجاهلية، التي كانت بعض رواسبها لا تزال سارية، فقرَّر قاعدة عامة يجب أن يلتزمها كل مؤمن ومؤمنة، ألا وهي أنه إذا حكَمَ اللّهُ ورسولُه في شيء من الأشياء، خاص أو عام، بحكم من الأحكام، فلا تسوغ معارضته ولا الوقوف في وجههِ بأيِّ حال، وإنما يلزم قبوله وتنفيذه بمُنْتَهى التسليم والإِمْتِثال، سواء كان الحكم لصالح المحكوم له، أو كان عليه، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ اِذَا قَضَى اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً اَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٤ : ٦٤): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُومِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾، ثم بيّن كتاب الله أن من يعْتَرِض على حكم الله ورسوله ويتعَرَّض له إنما يسلك مسالك الضلال، فقال تعالى هنا في نفس السياق: ﴿وَمَنْ يَّعْصِ اِللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَّلَّ

ضَلَٰلاً مُّبِيناً ﴾، كما توعد في آية أخرى من يخالف أمر الله ورسوله بالفتنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، فقال تعالى (٢٤ : ٦٣): ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ اَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

ويمقتضى ما خولته هذه القاعدة القرآنية لرسول الله ﷺ في مجال التشريع والحكم، ورغبةً منه في إهدار الفوارق الاجتماعية في الزواج، التي كانت متعارفة في الجاهلية، أعلن لأمته أن مجرد الاشتراك في العقيدة والدين، شرط كاف في «الكفاءة» بين الزوجين، وأنه من الخير للإسلام والمسلمين أن يُفتَح بابُ الزواج والمصاهرة بين من هم متفاوتون اجتماعياً إذا كانوا متساوين دينياً، وبديهيٌّ أن قريشاً كانت مدعوة في الطليعة لأن تطبق هذا المبدأ الإسلامي، فتفتح باب الزواج بينهَا وبين «المَوَالي» على مصراعيه، وها هو رسول الله ﷺ يتقدم بنفسه ليضرب المثل لغيره، فيرسل إلى زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته أُمَيْمَة بنت عبد المطلب، يخطبها لمولاه زيد بن حارثة، الذي عاش في كفالة الرسول وخدمته، منذ وهبته له زوجته خديجة، عند زواجه بها قبل النبوة، فأعتقه وتبناه، وقد كان ابنُ أخ زوجته خديجة، حكيمُ بن حِزام بن خُوَيْلد هو الذي وهبه لها، حيث آل إليه بالشراء من سَبْي من الشام سَبَتْهُ خيل من تهامة، وعندما علمت زينب بنتُ عمة الرسول أنه لم يخطبها لنفسه وإنما خطبها لمولاه زيد بن حارثة استنكفت من زَيْد وقالت: أنا خير منه حَسَباً، اعتباراً لنسبها في صميم قريش، الذي يُعَدُّ عند العرب نسباً رفيعاً، بَيْنَما

نسبُ زيدٍ لا يزالُ يُعَدُّ في نظرهم نسباً وضيعاً، إذ هذه أول سابقة من نوعها أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يفتح بها الباب، ليزيل ما كان بين العرب ومواليهم من الفوارق والحجاب، لكن بعدما استَمَعَت بنت عمته إلى كتاب الله وهو يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ اِذَا قَضَى اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً اَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْ﴾، لم يسعها إلاّ النزول على أمر الرسول، والرضى بزيد بن حارثة زوجاً لها والقبول، فدخل بها ومكثت عنده ما يقرب من سنة أو يزيد قليلاً، غير أن العِشْرة بينهما لم تكن مريحة ولا مطمئنة، فللاعتبارات الاجتماعية التي توارثها العربُ لا تزال رواسبها حية في النفوس، ومن الصعب أن تمحي بسرعة وسهولة، ولا سيما في هذه المرحلة الأولى، ولذلك ما لبث زيد بن حارثة أن أخذ يحس بالهُوّة التي تَفرِق بينه وبين زوجته زينب، وابتدأ يتردد على رسول الله، شاكياً إليه بنت عمته التي زوَّجهُ بها، وكان يشكو منها على الخصوص غلظة قول، وعصيان أمر، وتعظماً بالحسب والنسب، ويُعرِبُ في كل مناسبة عن نُفْرته منها، ورغبته في فراقها، فتأكد لدى الرسول عليه السلام أن العشرة بينهما لن تأخذ طريقها السَّويّ، وأن زواجهما لا بد آئل إلى الفراق، لكنه بالرغم من ذلك لم يزل يوصي زيداً بإمساكها، حيث أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (٢: ٢١٦)، ولَم يَغب عن علمه ﷺ ما سوف تتعرض له بنت عمته من الضياع إذا لم يُقبل على الزواج بها من يماثلها أو يقاربها حسباً ونسباً بعد فراق زيد لها، لا سيما والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي خطبها وأشرف على زواجه بها، ولولا

تدخله المباشر لما قبلت الزواج بزيد مولاه، وبالرغم من هذه الخواطر التي كانت تشغل بال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينه وبين نفسه، والعواقب التي كان يتوقعها من فراق زيد لبنت عمته ومصيرها بعد فراقه، لم يشأ أن يبُتَّ في هذه المشكلة بمجرد الاستنتاج والاجتهاد، وكان عليه أن ينتظر، حتى ينزل في شأنها وحي إلَهي صريح، فقد كان يخشى على الناس أن يقعوا في الفتنة من جرّاء قصة زيد التي لها طابع خاص من جهة، لما احتفَّ بها من الظروف والملابسات، وطابع عام من جهة أخرى، لأنها أول سابقة من نوعها في حياة العرب ينطبق عليها حكم الإسلام الصارم، بعد ما ألفوا «التبني» ورتبوا عليه آثارَهُ الباطلة قروناً طوالاً، لا سيما والمرجفون من المنافقين مُنْدَسُّون بين أظهرهم، يتحينون الفرص للدَّسّ والإرجاف وبث البلبلة، فجاء كتاب الله بحل هذه المشكلة النفسية والاجتماعية، معلناً بالنسبة لزيد وزينب إذنَه لرسول الله بالزواج من بنت عمته، بعد ما أصرَّ على فراقها زيدٌ مولاه، وفارقها من تلقاء نفسه، وبذلك يتحَدَّدُ مصير بنت عمته، فلا تبقى أيِّماً دون زوج، ولا تذوق أَلَمَ الإهمال والغربة، مع ما يتبعهما من غم وكربة، ويكافؤها الله على طاعتها لرسوله بقبول الزواج من مولاه ـ لِفتحِ الباب في وجه المصاهرة بين العرب والموالي ـ في البداية، فتصبح من بين أزواجه أمهات المؤمنين في النهاية: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾، ومعلناً في نفس الوقت أن النهاية التي آلت إليها قصة زيد إنما هي نموذج خاص للحكم العام الشامل، الذي تندرج تحته كل مشكلة من هذا النوع، بالنسبة للسلف والخلف: ﴿ لِكَيلَا يَكُونَ

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً ﴾.

وهذا الحل الذي نطق به كتاب الله في الآية السابعة والثلاثين من هذه السورة هو النتيجة المنطقية المستخلصة من قوله تعالى في الآية الرابعة منها: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾، إذ بمقتضى هذه الآية أصبح الإبن الذي ليس بابن الصلب ـ وهو الذي وصفه كتاب الله بوصف (الدَّعِيّ) والجمع (أدعياء) ـ شخصاً أجنبياً عن متبنِّيهِ السابق، وأصبح هذا المتبَنِّي ـ الذي كان يُدعَى (أباً) بالرّغم من أنه ليس بأب ـ مسموحاً له بالزواج من امرأة الابن الدعيّ، متى فارقها وأنهَت عِدتها، لأنها بالنسبة إليه زوجة أجنبي عنه، وليست زوجة ابنه الحقيقي، والمحرَّم على الآباء هو الزواج بزوجات أبنائهم الحقيقيين من الصُّلب، لا زوجات أدعيائهم الذين وقع تبنِّيهِم وليسوا من أبنائهم الأصليين، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق من سورة النساء (٢٣): ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ ويُلحق بهم الأبناء من الرضاع، إذ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

وعن هذه النازلة الفريدة المليئة بالعِبَر تحدث كتاب الله مخاطِباً رسوله الصادق الأمين الذي لا يكتم وحي ربه ولا يمين، مبيناً ما تضمنته من حِكَم وأحكام، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، وَٱتَّقِ ٱللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ، وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَٰكَهَا، لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى

ٱلْمُومِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمُ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً، مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيٓءِ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ، سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً، ٱلذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً اِلَّا ٱللَّهَ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً، مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ، وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتِمَ ٱلنَّبِيٓـِٔنَ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾.

والمراد «بالذي أنعم الله عليه وأنعم عليه رسوله» هو زيد بن حارثة، فقد أنعم الله عليه بالسبق إلى الإيمان، وخصه من بين الصحابة بذكر اسمه الصريح في القرآن، وأكرمه بالشهادة في سبيل الله والفوز بنعيم الرضوان، وقد أنعم عليه الرسول عليه الصلاة والسلام بالعتق والحرية، والكفالة والتربية، وبتزويجه ببنت عمته القرشية، وتنصيبه أميراً على المجاهدين في جميع السرايا التي بعثه فيها، وآخرها غزوة مُؤْتَة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة.

ثم وجه كتاب الله الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعياً إياهم إلى الإكثار من ذكر الله وتسبيحه بقدر المستطاع، باللسان والجَنان، وعدم الغفلة عن نعمه المتوالية على بني الإنسان، مبشراً للمؤمنين بصلاة الله عليهم، ودعاء الملائكة لهم بتلقي المزيد من الهداية والرحمة والإحسان، مع وعدهم بالنعيم المقيم، والأجر الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ، وَكَانَ بِالْمُومِنِينَ رَحِيماً، تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾.

وخُتم هذا الربع بخطاب إلهي رقيق، موجه إلى الرسول الأعظم، يُبرز مبلغ منة الله عليه، ومبلغ المنّة العامة التي أسداها بإرساله إلى البشرية جمعاء، ومبلغ المنّة الخاصة التي خصّ بها المؤمنين من أمته، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيٓءُ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اَللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً، وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اَللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾، وكما قال تعالى في الآية الأولى من فاتحة هذه السورة مخاطباً لرسوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ اتَّقِ اِللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ ﴾، ها هو كتاب الله يجدد نفس الخطاب، ويؤكد نفس المعنى في الآية الثامنة والأربعين من نفس السورة، وذلك في ختام هذا الربع إذ يقول: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَـٰفِرِينَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ ﴾، ونظراً لما تعرض له الرسول والمؤمنون من أذى الكافرين والمنافقين في مختلف المواقف والمناسبات، مما وصفه لنا كتاب الله تصريحاً أو تلويحاً، فيما سبق بهذه السورة من الآيات، جاء في نفس السياق الأمر بالصبر على أذاهم، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، إذ قال تعالى: ﴿ وَدَعَ اَذيٰهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اَللَّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً
مُّومِنَةً اِنْ وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيٓءِ اِنَ اَرَادَ ٱلنَّبِيٓءُ أَنْ
يَّسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُومِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا
مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ اَيْمَٰنُهُمْ
لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٥٠﴾
تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُووِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ

وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ
مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ
لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟
فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ
مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ
حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ
أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟
شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾
لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ
وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ

شَےْءٍ شَهِيداًۖ ﴿٥٥﴾ إِنَّ اَ۬للَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى اَ۬لنَّبِےٓءِۖ
يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماًۖ ﴿٥٦﴾ إِنَّ
اَ۬لذِينَ يُوذُونَ اَ۬للَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اُ۬للَّهُ فِے اِ۬لدُّنْيا وَالَاخِرَةِ
وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناًۖ ﴿٥٧﴾ وَالذِينَ يُوذُونَ اَ۬لْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ
بِغَيْرِ مَا اَ۪كْتَسَبُواْ فَقَدِ اِحْتَمَلُواْ بُهْتَٰناً وَإِثْماً مُّبِيناًۖ ﴿٥٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لنَّبِےٓءُ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ اِ۬لْمُومِنِينَ
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۖ ذَٰلِكَ أَدْنَيٰٓ أَنْ يُّعْرَفْنَ فَلَا
يُوذَيْنَّۖ وَكَانَ اَ۬للَّهُ غَفُوراً رَّحِيماًۖ ﴿٥٩﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُوذَيْنَ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

تحدث كتاب الله في الآية الأولى من هذا الربع عن إحدى الحالات التي تتعرض لها الحياة الزوجية، وهي حالة من أمضى عقد النكاح، لكن قبل الدخول بمن عقد عليها دعاه داع ملح إلى فراقها، ففي هذه الحالة لا تجب عليها عدة، وتستطيع استيناف الزواج بمجرد الفراق، بينما يجب على مطلِّقها أن يؤدي لها في الحين نصف الصداق المسمى في العقد، وإذا لم يكن الصداق «مُسمّى»، لأن النكاح «نكاح تفويض»، ووقع الطلاق قبل التراضي على الصداق كان لها الحق في «المُتْعة» وحدها، وهي ما يقدمه الزوج للزوجة عند طلاقها، لمساعدتها مادياً على تَخَطِّي

مرحلة الطلاق، في انتظار المرحلة القادمة من الزواج، وهذه المتعة شبه التعويض بلغة العصر، وليُفارقها على وجه جميل، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَـٰتِ، ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾.

ويلاحظ في هذه الآية وصف الزوجات المعقود عليهن بوصف ﴿ ٱلْمُومِنَـٰتِ ﴾، فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُومِنَـٰتِ ﴾، إرشاداً من الله لعباده إلى أن أفضل زواج ينبغي أن يختاره المؤمن لنفسه هو الزواج بمؤمنة مثله تَدِين بدينه، وتشعر بشعوره، وتكون لها نفس النظرة إلى الحياة التي يحياها، ونفس الاحترام للمقدسات التي يقدسها، والقِيَم التي يحافظ عليها، فينشأ أولاده في بيئة مؤمنة يسودها الانسجام والوئام، نفسياً وروحياً واجتماعياً، أمّا الزواج (بالكتابيات) فلم يندب إليه الإسلام أصالة، وإنما أباحه بصفة استثنائية، لتحقيق بعض الأغراض الشرعية، بحيث مَتَى أصبح ذلك الزواج عاجزاً عن تحقيقها كان البعد عنه أوجب وأولى، لما له من عواقب سيئة محققة، على الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامي.

كما يلاحظ في هذه الآية إطلاق «النكاح» على العقد وحده، قال ابن كثير: «وليس في القرآن آية أصرح في ذلك من هذه الآية».

ويشهد لما ذكرناه من وجوب أداء نصف الصداق «المسمّى» إلى الزوجة المطلقة قبل الدخول قوله تعالى فيما سبق من سورة

البقرة (٢٣٧): ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾.

أما «الْمُتْعَة» بالنسبة لمن كان نكاحُها نكاح «تفويض» لأنه لم يُسَمَّ صداقهاقبل الطلاق، فيراعَى في قدرها حال الزوج المفارق، مصداقاً لقوله تعالى في نفس السورة (٢: ٣٦): ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وأما الزوجة التي تم العقد عليها ثم مات عنها زوجها قبل الدخول، فلا بد لها من أن تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وهي في ذلك سواء مع الزوجة التي مات عنها زوجها بعد الدخول، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٣٤) ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾.

والحكمة في ذلك بالنسبة لمن مات عنها زوجها قبل الدخول إشعار الزوجة المتوفَّي عنها زوجُها بأن اختياره لها، وتعلقَ قلبه بها، وحرصَه على تكوين أسرة معها، ومفاجأتَه بالموت قبل تحقيق أمنيته، كل ذلك يستحق من جانبها تقديرَ فقده واحترام ذكراه، وعدمَ التسرع في الزواج بغيره في الحين، فالزواج تحيط به اعتبارات إنسانية وأخلاقية متعددة، وليس عقداً مادياً صرفاً.

وخصص كتاب الله الآية الثانية من هذا الربع للحديث عما

أحل الله لرسوله من الزواج، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيٓءُ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾، وأطلق لفظ «الأجور» هنا على نفس «المهور» تجوزاً وتوسعاً، وإن كان الصداق والمهر ليس بأجرة، وعقد الزواج ليس عقد إجارة، وإنما قال تعالى: ﴿ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾، إشارةً إلى أن سَوْق المهر إلى الزوجة عند العقد عليها والدخول بها أفضل من تسميته وتأجيله، فاختار الله لرسوله الأفضل والأولى، قال جار الله الزمخشري: «وكان التعجيل ـ أي: بالمهر ـ دَيْدَن السلف وسنّتهم، وما يُعرَف بينهم غيرُه».

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾، أي: مما حل لك من الغنائم، ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ، وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾، أي: اللاتي دخلن في الإسلام وهاجرن معك إلى المدينة، ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّومِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيٓءِ ﴾، أي: عرضت نفسها للزواج به دون مهر، ﴿ انَ اَرَادَ ٱلنَّبِيٓءُ اَنْ يَّسْتَنكِحَهَا ﴾، أي إن أراد الزواج بها، وقد كانت إباحة الزواج على هذه الصفة من خصائص الرسول وحده، إذ لا يصح زواج أحد من أمته إلاّ بمهر، ولبيان الصفة الاستثنائية لهذه الحالة من الزواج قال تعالى هنا في نفس السياق: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُومِنِينَ ﴾، إذ الرسول وأمته سواء في الأحكام، إلاّ فيما خصَّهُ الدليل، لكن الرسول عليه السلام بالرغم من إباحة الزواج بالهبة له خاصة لم يتزوج إلاّ بمهر، لأن اختيار هذا النوع من الزواج علقته الآية الكريمة على رغبته وإرادته: ﴿ إِنَ اَرَادَ

﴿ٱلنَّبِيّءُ أَنْ يَّسْتَنكِحَها﴾، فلم يكن إذن مُلزَماً بقبول الهبة، وقد روى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: «لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة».

ويادر كتاب الله إلى التنبيه في هذا السياق على أن تخصيص الرسول ببعض الأحكام يقتضي قصرها عليه، وعدم السماح بتطبيقها على كافة المؤمنين، فلا بد أن يقفوا عندما حد لهم الشارع من شروط وقيود، سبق علم الله بها، وقضاؤه بحكمها، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في جملة اعتراضية: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾، أي: على المؤمنين، ﴿وَمَا مَلَكَتَ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾، وعقَّب كتاب الله على ما خص به نبيه فقال: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

ثم عاد سياق الآيات إلى موضوع أزواج الرسول، فتحدث كتاب الله إلى نبيه عن طريقة معاملته لأزواجه في نطاق الحياة اليومية، والعِشْرة الزوجية المثالية، وفوَّض له في ذلك، انطلاقاً مما وصفه الله به من «الخُلُق العظيم» وأنه «بالمؤمنين رؤوف رحيم»، فقال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـٔوِيَ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ، وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فلِكُل واحدة منهن حق معلوم في رعاية الرسول ومودته، وحظ مقسوم في التمتع بحسن عشرته، ولذلك قال تعالى مؤكداً هذا المعنى الإنساني الرفيع، وكاشفاً عما فيه من سر بديع: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ، وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، فالله تعالى

يريد لأمهات المؤمنين أن يكُنَّ قريرات الأعين في بيت الرسول، وأن يعشْنَ عيشة راضية في جو عائلي مقبول، وما دام الرسول عليه السلام هو خيرَ أسوة لكافة المؤمنين، فمن واجبهم أن يمتعوا أزواجهم بما متع به رسول الله أزواجه أمهاتِ المؤمنين: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ اَللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴾.

ومبالغةً في إكرام الله لأزواج رسوله، إذ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولم يرضَيْن بفراق رسوله من أجل متاع الدنيا وزينتها، خاطبه الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يحل له، من بعد ذلك الاختيار، إلاّ مقابلته من جانبه باختيار مثله، بحيث لا يزيد عليهن، ولا يبدِّلُهن بغيرهنّ، ما عدا «مِلك اليمين» الذي قد يؤول إليه من غنائم الجهاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ اَلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ، وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ، وَلَوَ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾، وعقّب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اَللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾، وشعور أزواج الرسول عليه السلام برقابة الله عليه وعليهن ضمانةٌ إضافية لهناء عيشهن، وإحسانٌ بالغ من الله إليهن.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَلَوَ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾، توكيدٌ لوصف «البشرية» الذي لا يعد وصمة، وإنما يعد كمالاً، في حق «الإنسان الكامل» الذي هو الرسول الأعظم، فقد اصطفاه الله لرسالته، واختارَ أن يكون « بشراً رسولاً »، وفيه إشارة إلى أن النظر إلى المخطوبة عند خِطبتها جائز، وإلى أن حسن المرأة من جملة الدوافع الطبيعية للزواج بها، وإن اعتبار

هذا العنصر لا حرج فيه في نظر الإسلام، لكن يجب أن يكون مدَّعماً بعنصر «التديُّن» الذي هو صِمام الأمان، من تقلبات القلوب وطوارىء الزمان.

ثم وجَّه كتابُ الله الخطاب إلى المؤمنين من ضيوف الرسول، الذين يدعوهم الرسول لتناول الطعام عنده، ولقَّنهم آداب الضيافة، وفي طليعتها الميل إلى التخفيف في الجلوس والحديث، والانصراف بمجرد انتهاء المأدُبة التي حضروها، حتى يتفرغ الرسول عليه السلام لرعاية أهله، إذ لأهله عليه حق. ونبه كتاب الله في نفس السياق إلى منع دخول بيوت النبيء دون إذن منه، إبطالاً للعرف الذي كان سائداً في الجاهلية بدخول البيوت من غير إذن أصحابها، ثم استمر في صدر الإسلام. كما نبه إلى منع «التطفل» دون دعوة سابقة، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيٓءِ الَّا أَنْ يُؤذَنَ لَكُمْ ﴾، وهذا النص هو الذي يمنع الدخول إلى البيت دون إذن صريح، إذ لا بدّ من الدعوة والإذن في فتح الباب والدخول، وقوله: ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَيٰهُ ﴾، أي: لا تحضروا وتنتظِروا وقت نضج الطعام واستوائه دون سابق دعوة، ﴿ وَلَـٰكِنِ اِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلواْ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُم فَانتَشِرُواْ ﴾، أي: اذهبوا لحال سبيلكم، ﴿ وَلَا مُسْتَـٰنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾، أي: لا تطيلوا الجلوس والتبسط في الكلام، بعد الانتهاء من تناول الطعام.

وبعد ما ميز كتاب الله ما هو سائغ ومقبول مِمَّا هو مرفوض

ومرذول، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾، و«الإذاية» كل ما تكرهه النفس، وكما كان ذلك يؤذي النبي عليه السلام كان يؤذي أزواجه، لكن لما كان البيت بيت النبي ﷺ والحق حقه أضيف ذلك إليه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾، وهكذا وجّه كتابُ الله الخطاب إلى ضيوف الرسول في هذا الشأن، دفعاً للأذى والحرج الذي كان يصيبه ويصيب أهله في بعض الأحيان، لكنه لم يكن يفصح عنه، لغلبة الحياء عليه ﷺ.

وبهذه المناسبة لفت كتاب الله أنظار الذين تدعوهم الحاجة لمخاطبة أزواج الرسول، إلى أن الواجب يقضي عليهم بمخاطبتهن من وَراء حجاب، لا وجهاً لوجه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا ﴾، أي: حاجة، ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾، أما الحكمة في هذا التدبير المُحكم فقد بينها كتاب الله إذ قال: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾، فطهارة القلوب من خواطر السوء، بالنسبة للرجال والنساء على السواء، مرهونة بالعفاف وغض البصر.

ولما انتهى كتاب الله من تفصيل القول في الحياة العائلية للرسول وهو على قيد الحياة، أعلن كتاب الله حكمهُ في مصير أزواج الرسول بعد أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، فحرم الزواج بهن من بعده على كافة المؤمنين، إذْ هن بمنزلة أمهاتهم في الحُرمة والحِرمة إلى يوم الدين. يضاف إلى ذلك ما في هذا التّدْبير من توقير للرسول يتناسب مع عظيم منزلته، وسامي مكانته، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُوذُواْ رَسُولَ اَللَّهِ، وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَداً، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اَللَّهِ عَظِيماً، إِن تُبْدُواْ شَيْئاً اَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اَللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾.

ورفعاً للحَرج في العلاقات العائلية المتشابكة التي لا غنى عنها أسقط كتاب الله الحجاب عن النساء، بالنسبة لعدد من أقارب العائلة الأقربين ومن في حكمهم، فقال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ، وَلَآ أَبْنَآءِ اخْوَٰنِهِنَّ، وَلَآ أَبْنَآءِ اَخَوَٰتِهِنَّ، وَلَا نِسَآئِهِنَّ، وَلَا مَا مَلَكَتَ اَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ولم يَذْكُر العم والخال، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ويقومان مقامهما، بدليل نزولهما منزلتهما في حِرمة النكاح. وقد جاءت تسمية العلم أبا في كتاب الله على لسان أبناء يعقوب وهم يخاطبون أباهم، وذلك في قوله تعالى (٢: ١٣٣): ﴿ قالوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾، فأطلقوا لفظ «الأب» على إسماعيل الذي هو عم أبيهم يعقوب، كما نبه على ذلك الزمخشري والقرطبي.

وسبق في «سورة النور» ذكر الأقارب الذين لا حرج في رؤيتهم لزينة النساء، ومن بينهم نفس الأقارب المذكورين ومن في حكمهم، إذ قال تعالى (٣١): ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوَ ءابَآئِهِنَّ، أَوَ ءابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوَ اَبْنَآئِهِنَّ، أَوَ اَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوِ اِخْوَٰنِهِنَّ، أَوْ بَنِيَ إِخْوَٰنِهِنَّ، أَوْ بَنِيَ أَخَوَٰتِهِنَّ، أَوْ نِسَآئِهِنَّ، أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَٰنُهُنَّ، أَوِ اِلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي اِلاِرْبَةِ مِنَ اَلرِّجَالِ، أَوِ الطِّفْلِ اِلذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ اِلنِّسَآءِ ﴾.

ويعد أن أَذِن كتاب الله للنساء برفع الحجاب عند مقابلة هؤلاء الأقارب ومن في حكمهم ومعاملتهم، أوصاهن الحق سبحانه وتعالى بالتزام تقواه ومراقبته في الخلوات والجلوات، حماية لهن من كل زيغ، وصيانة لهن من كل شبهة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقِينَ اَللَّهَ، إِنَّ اَللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾.

وتزكيةً للرسول من ربه، وتنويهاً بقدره لدى أمته ولدى الإنسانية جمعاء، وتعريفاً بسامي منزلته في الملأ الأعلى عنده، تفضل الحق سبحانه وتعالى فقال: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى اَلنَّبِيٓءِ ﴾، وصلاة الله على رسوله والصالحين من عباده ترمز إلى ذكره الجميل لهم، وثنائه عليهم، وصلاة الملائكة عليهم دعاؤهم لهم بالرحمة والرضوان، ولرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأوفر، والحظ الأكبر.

ثم لقن كتاب الله كافة المؤمنين والمؤمنات ما يجب عليهم نحو الرسول الكريم، من التعظيم والتكريم، بالصلاة عليه والتسليم، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾، قال ابن كثير: «أَمَر تعالى أهلَ العالم السُّفلي بالصلاة والسلام عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمين، العُلْوي والسُّفْلي جميعاً».

واستناداً إلى هذه الآية الكريمة ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وأئمة الشريعة إلى أن الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة في الصلوات الخمس، بحيث لا تصح الصلاة بدونها، خصوصاً في التشهد الأخير. ومن أشهر القائلين بوجوبها في الصلوات

الخمس الإمام محمد بن إدريس الشافعي، والفقيه المالكي المشهور محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز، وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «الصلاة على النبي ﷺ فرض في العمر مرة بلا خلاف، فأما في الصلاة فقال محمد بن المواز والشافعي إنها فرض، فمن تركها بطلت صلاتُه، وقال سائر العلماء: هي سنة في الصلاة، والصحيح ما قاله محمد بن المواز للحديث الصحيح: (إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك)، فعَلَّم الصلاة ووقتها، فتعيَّنا كيفيةً ووقتاً». ولْيَجْمَع المصلي بين الصلاة عليه والتسليم، ولا يقتصرْ على أحدهما دون الأخر، و«الصلاة الإبراهيمية» التي علمها رسول الله ﷺ لأصحابه أفضل صيغ الصلاة، والصيغة التي رواها الإمام مالك هي أصح صِيَغها سنداً، أما الصلاة على غير الأنبياء، من عامة المؤمنين، فهي مخالفة لما درج عليه السلف الصالح من تخصيصها بمقام النبوة والرسالة.

ونظراً لخطورة الأذى الذي يوجهه أعداء الرسالات الإلٓهية إلى أنبياء الله ورسله، إذ يصدون الناس عن رسالته، ويقفون في وجه انتشار تعاليمه والعمل بتوجيهاته، وما يُلْحِقُه أَذَاهُمْ البالغ ومكرهم السيء بعدد كبير من البشر، فيما بطن من حياتهم وما ظهر، أعلن كتاب الله غضبه عليهم، ولعنته لهم، وتوعَّدَهم بالعذاب المُهين في يوم الدين، وذلك كاف للتنفير من قربهم، والحَضّ على هجرهم وعدم الثقة بهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً

مُهيناً ﴾، وكما استنكر كتاب الله أذى أعداء الرسالات الإلهية لما فيه على الإنسانية كلها من ضرر كبير، استنكر الأذى الموجَّهَ إلى أعراض المؤمنين والمؤمنات دون حق، لما فيه من اعتداء وتزوير، والله تعالى لا يرضى لأمة الإسلام فيما بينها إلاّ التعامل بالصدق، والوقوف عند حدود العدل والحق، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ يُوذُونَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَـٰناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾.

وبعد ما تحدث كتاب الله عن خطورة الأذى العام الذي يمتد إلى كافة البشر، والأذى الخاص الذي ينال من عِرْض المؤمنين والمؤمنات، نبه في ختام هذا الربع إلى نوع أخص من أنواع الأذى قد تتعرض له الأسرة المسلمة في كل وقت، إذا لم تأخذ في علاقاتها مع الغير عند الحاجة، بالحِيطَة والحذر، ولم تتحصن من عناصر السوء، بالمزيد من التعفف والتصاون، حتى لا تنزلق نحو حافة الخطر، وذلك قوله تعالى مخاطباً لرسوله وملقناً لأمته: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيٓءُ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُومِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾، والجلباب هو الثوب الذي يستر جميع البدن: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُّعْرَفْنَ فَلَا يُوذَيْنَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا
ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾
يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ
لَعْنًا كَثِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا

مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ
الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم

مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والأربعين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في هذه الحصة نتناول تفسير الربع الثالث، من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة الأحزاب المدنية: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾، إلى قوله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

عند بداية هذا الربع وجه كتاب الله إنذاراً صريحاً إلى العناصر المندّسة بين المؤمنين في مدينة الرسول وعاصمة الإسلام الأولى، محذراً تلك العناصر من عواقب نشاطها الهدام، البارز فيما تقوم به من دس جلي أو خفي، وتمسك بالانحراف الخلقي الذي اعتادته في الجاهلية، وبث للبلبلة في صفوف المجتمع الإسلامي الناشيء، عن طريق ترويج الإشاعات الكاذبة، والدِّعايات الانهزامية المتكررة، كلما قام الرسول والمؤمنون بالدفاع عن كيان الإسلام، الذي لا يزال مهدداً من طرف أحزاب الشرك والكفر في الداخل والخارج، وقد أقسم كتاب الله على

هذا الإنذار الإلهي الخطير، وهو يخاطب رسوله الأعظم إذ قال: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ ﴾. و«الارجاف» هو إشاعة الكذب والباطل بقصد التماس الفتنة وتهييج الخواطر، وتثبيط الهمم، وشل العزائم، والمراد بقوله تعالى: ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾، أي: لنسلطنك عليهم، فتنزل بهم ما هم أهل له من العقاب، و«اللعنة» هي الطرد من رحمة الله، قال جار الله الزمخشري: «والمعنى ـ لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفَسَقَةُ عن فجورهم، والمرجفون عما يلفِّقون من أخبار السوء ـ لَنَأْمُرَنَّك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها» وإنما عَطَف (بثُمَّ) «ثم لا يجاورونك فيها» لأن وَقْع الجلاء عن الوطن أعظمُ من جميع ما يصابون به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه.

ومن تسليط الله لنبيه عليهم وإغرائه له بهم، عِلاوة على النفي والتشريد، تهديدهم إن لم ينتهوا عنْ موقفهم المريب، ويكُفُّوا عن نشاطهم الهدام، بوضع اليد عليهم حيثما وُجدوا متلبسين بالجريمة، وتعريض أنفسهم للاعتقال والقتل أينما ذهبوا، جزاء تعريضهم «سلامة الدولة الإسلامية» الناشئة للخطر، وذلكْ قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، تأكيداً لِنَامُوسِ الحياة الذي عرفته البشرية من

أقدم العصور، في الدفاع عن سلامتها ضد الأخطار المحدقة بها، وقيامها بعزل العناصر الهدامة، وتقليم أظفارها، كلما أصبح نشاطها يُشكِّل خطراً محققاً عليها. قال أبو حَيَّان: «والظاهر أن المنافقين انتهوا عما كانوا يؤذون به الرسول والمؤمنين، وتسترَ جميعُهم وكَفُّوا، خوفاً من أن يقع بهم ما وقع القَسَم عليه، وهو الإغراء والجلاء، والأخذ والقتل».

غير أنهم لم يمتثلوا للانتهاء امتثالاً عاماً وشاملاً، ولم تزل تبدو منهم نزوات، وتفلت منهم فلتات، فيتعرضون من أجلها لمعاملة استثنائية، دون أن ينفذ عليهم الوعيد الذي هم متوعدون به كاملاً، ومن وجوه تلك المعاملة الاستثنائية إخراجهم من المسجد النبوي في بعض الأحيان، وعدم إقامة صلاة الجنازة على موتاهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾، وما أُنزل من الآيات للكشف عن مواقفهم في عدة وقائع ومواقع، ولا سيما ما نزل في حقهم في سورة التوبة.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ تفادى عقابهم بالقتل، وإن كان هذا العقاب مسموحاً به مبدئياً، بمقتضى قوله تعالى هنا: ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾، لأنهم كانوا مندسين في غمار أصحابه وعامتهم، ولو حَكَم بقتل أحدهم لاختلط الأمر فيه على الناس، ولتحدث المرجفون أن محمداً يقتل أصحابه، ورسول الله ﷺ يترفع عن ذلك.

ونظراً لما عليه خصوم الرسالات الإلٓهية من الكبر والغرور،

والمماحكة فيها لا يوافق هواهم من الأمور، يلحّون في السؤال عن قيام الساعة: إمَّا سؤالَ استبعاد يتضمن التكذيب والإنكار، وإمَّا سؤال استعجال وتَحَدٍّ يراد منه الامتحان والاختبار، لكن الله تعالى الذي عنده وحده علم الساعة يلقِّنُ رسوله الجواب الوحيد عن مثل هذا السؤال، تفادياً من كل مماحكة وجدال، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ، قُلِ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إذ لم يُطْلِع عليها ملَكاً ولا نبياً، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾، أي: ما يعلمك، ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾، أي: تأتي في وقت قريب، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (٥٤: ١): ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وانشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾، وقوله تعالى في آية ثالثة (٢١: ١): ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، وفي إجابة السائلين عن الساعة بقرب موعدها ـ ولودون تحديد ـ نوع من الوعيد والتهديد، وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعةُ كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى من يده الكريمة، تلميحاً إلى أن الرسالة التي جاء بها من عند الله لا يفصِل بينها وبين قيام الساعة أيّ حاجز حصين، وأنها مستمرة دون انقطاع إلى يوم الدين.

وبعد ما أكد كتاب الله قيام الساعة وقرب موعدها تولى وصف أحوال المكذبين بها عند ما يفاجأون بما لم يكونوا ينتظرونه من الحساب والعقاب، فقال تعالى في شأن أئمة الكفر وقادة الضلال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً، خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً، لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ

يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولاَ ﴾، وقال تعالى في شأن أتباعهم المضلِّلين وأنصارهم المخدوعين: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاَ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ، وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾، فيتبرأ المرؤوسون من رؤوسائهم، والأتباع من سادتهم وكبرائهم، ويصُبُّون عليهم وابل اللعَنات، لِمَا أوقعوهم فيه من المتاعب والحسرات، وكما سجل كتاب الله في هذه الآية تبرؤ الأتباع من المتبوعين، سجل كتاب الله في آية أخرى تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، فقال تعالى (٢ : ١٦٦): ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلأَسْبَـٰبُ ﴾.

وتوكيداً للنهي عن الأذى بسائر أشكاله وأصنافه، مما تحدثَتْ عنه عدة آيات سابقة في هذه السورة، جاء كتاب الله في هذا الربع بنهي عام شامل عن جميع أنواع الأذى، ولا سيما أذى الرسول الأعظم، وأذى الرسول يصدق بانتحال كل ما يخالف عقيدته وشريعته، والنطقِ بما لا يناسب مقامه وشخصيته، ونبّه كتاب الله إلى أن وجود فئة شريرة وسيئة النية تؤذي الأنبياء والرسل ليس أمراً طارئاً ولا غريباً، فقد تعرض موسى الكليم عليه السلام لأذى بني إسرائيل في عدة مناسبات، كَمَا تعرض الرسول الأعظم أحياناً لأذى قومه وأذى مخالفيه وَلَم يَضِرْهُ ذلك: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، لكن الأذى الواقع في حَقه يجر صاحبه إلى الهلاك، وإلى هذا النهي العامّ يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءَاذَواْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهاً ﴾، ومن هذا الباب حديث الرجل الذي قال في غيبة

الرسول عليه الصلاة والسلام، تعليقاً على قَسْم قَسَمه: «إن هذه لِقسمة ما أريد بها وجهُ الله»، فغضب رسول الله ﷺ عندما بلغه الخبر، فقال: «رحم الله أخي موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر» والحديث مروي في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

وإذا كان الله تعالى لا يرضى لعباده المؤمنين أن يتورطوا في أي نوع من أنواع الأذى، فإن أفضل ما يتقربون به إليه هو النطق بالكلام الطيب، والإقبالُ على العمل الصالح، وذلك ما وصى به كتاب الله عند ما قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، فقد دعا المؤمنين إلى التمسك بتقوى الله، حذَراً من مكايد الشيطان، ودعاهم إلى السَّداد في القول، بالتزام الحق والصدق وعفة اللسان، ضماناً لحسن المعاملة والبعد عن الشَّنآن، وتوثيقاً لعُرَى التفاهم بين الإنسان وأخيه الإنسان: «والقول السديد» الوارد في هذه آلاية الكريمة مأخوذ من تَسْدِيد السهم ليصاب به الغرض، يقال سَدَّدَ السهمَ نحو الرَّمِيَّة إذا لم يَعْدِل به عن سَمْتها، وفي ذلك تنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يتكلم بالعبث، ولا أن يُلقِي الكلام جزافاً دون رويَّة ولا تفكير، بل من واجبه أن يتحرى في القول، وأن لا يقول إلَّا حقاً وصدقاً، ولم يقتصر كتاب الله على الأمر بالتقوى وسداد القول، بل بيَّن في نفس السياق حكمة هذا الأمر الإلٰهي الحكيم، وما يؤدي إليه امتثالُه في الدنيا والآخرة من الفوز العظيم، فمن نتائجه المباشرة توفيق المؤمن وتوجيهه إلى ممارسة العمل الصالح بصورة مستمرة، بحيث تصبح أعماله كلها موجهة

نحو الصلاح والإصلاح، لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لغيره، ويصبح شعاره الدائم في الحياة هو شعار شعيب عليه السلام (١١ : ٨٨)، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، ومن نتائجه المنتظرة إكرام المؤمن بِمَحْو السيئات وغفران الذنوب، والإنعام عليه بعيشة راضية لا يمسه فيها نَصَب ولا لغوب، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾، وإنما كان الفوْزُ العظيم في الدنيا والآخرة مرهوناً بطاعة الله ورسوله، والخسرانُ المبين معقوداً بناصية العصاة الخوارج عن تلك الطاعة، لأن طاعة الله ورسوله تعني التطبيق الدَّقيق للنواميس الخلقية التي وضعها الله لضبط سلوك الإنسان، حِمايةً له من الوقوع في المزالق والعثرات، وتحصيناً له من عواقب النكسات والأزمات، فيخرج سليماً منها، منتصراً عليها، ويعيش في وئام وانسجام مع توجيهات خالقه ورازقه، ومدبر أمره، الذي «طَبَع الطبيعة» و«شَرَع الشريعة».

وبعدما أبرز كتاب الله الأثر العميق الذي تحدثه طاعة الله ورسوله في حياة الإنسان المؤمن، وهو الفوز العظيم بسعادة الدنيا والآخرة، انتقل كتاب الله مباشرة إلى الحديث عن «الأمانة العظمى» التي انفرد بحملها الإنسان دون بقية الأكوان، أليس الإنسان هو الذي تَوَّجَهُ اللَّهُ في الملأ الأعلى بتاج الخلافة في الأرض؟ أليس

الإنسان هو الذي سخر الله له ما في السماوات والأرض وخلق له ما في الأرض جميعاً؟ أليس الإنسان هو الذي كرَّمه الله فخلقه في أحسن تقويم، وحمله في البر والبحر، وفضَّله على كثير ممن خلقه تفضيلاً؟ لذلك كُلِّه أصبح الإنسان يشعر من أعماق قلبه بأنه هو المخلوق الوحيد المؤهَّل لحمل تَبِعَة الأمانة ومسؤولية التكليف، وأدرك تمام الإدراك أنه لا يكون منطقياً مع نفسه إلّا إذا تقدم ورشح نفسه أمام ربه لهذه المهمة السامية وهذا العبء الجسيم، إيماناً منه بأن الحقوق والمزايا التي منحه الله إياها ـ تفضلاً منه وكرماً ـ لا يُعقل أن يتمتع بها ويمارسها، دون أن يقوم بواجبات تقابلها، ويتحمل تَبِعات تستتبعها وتنشأ عنها.

وتمثيلاً لعَظَمة قدر «الأمانة» التي رشح الإنسان نفسه لحملها، وتصويراً لخطورة مسؤوليتها وتَبِعاتها ضرب كتاب الله المثل بالسماوات والأرض، وخص منها الجبال بالذكر، لكونها أوتاد الأرض الصلبة، ورواسيها الثابتة، التي لها علاقة وثيقة باستقرارها وتوازنها، مبيناً أن السماوات والأرض التي التزمت منذ نشأتها بطاعة الله طاعة مطلقة، قائمة على مجرد «التسخير» ، لا تريد أن تزُجَّ بنفسها في أمر التسيير والتدبير، ومن أجل ذلك أشفقت كل الإشفاق من عرض الأمانة عليها، واستعفت من حملها وتحمل مسؤوليتها، بالرغم مما تتوافر عليه من الخصائص الطبيعية الكبرى التي لا نسبة بينها وبين خصائص الإنسان، ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ (٤٠ : ٥٧)، وإلى ذلك المَثَل يشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا اَلِانسَٰنُ ﴾.

وكما ضرب كتاب الله المثل في هذا السياق، بما عليه السماوات والأرض والجبال من إباء وإشفاق، سيضرب المثل في «سورة الحشر» بخشوع الجبل وتصدعه، من شدة التأثر بكتاب الله، والخشية من الله، إذ يقول (٥٩ : ٢١): ﴿ لَوَ اَنزَلْنَا هَٰذَا اَلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اِللَّهِ، وَتِلْكَ اَلَامْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وتشمل «الأمانة» التي حملها الإنسان كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي، وشأنِ دين ودنيا، ويدخل في ذلك الحفاظ على الدين والنفس والعقل والعِرْض والنسل، وبالإجمال تشمل الأمانة قيام الإنسان بالواجبات كلها، أصولها وفروعها، على أن يتقبل العقاب إذا تخلى عنها، وينتظر الثواب إذا وفَّى بها، وكلما كان الشيء المؤتمن عليه مَخْفِيّاً لا يطَّلع عليه إلاّ الله كان أحق بالحفظ وأولى بالرعاية.

وبعد ما نوه كتاب الله بشجاعة الإنسان وترشيح نفسه لحمل الأمانة، وقبوله لعرضها، والتزامه للقيام بحقها، أشار إلى ما يعترض حياته من ضعف واختلال، يؤديان به إلى الانحراف والانحلال، ﴿ وَخُلِقَ اَلِانْسَٰنُ ضَعِيفاً ﴾ (٤ : ٢٨)، فيظلم نفسه ويظلم غيره، ويتصرف في شؤونه تصرف الجاهل الذي لا يميز الضار من النافع، ولا يفرِّق بين الصالح والطالح، وذلك قوله تعالى تعقيباً على مَا سبق: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾، أما

«ظلمه» البالغ لنفسه وغيره، فلأن الأمانة هي صِمام الأمان بالنسبة للفرد والجماعة، ومَن خان الأمانة أفلت من يده الزِّمام، ولم يَرْعَ أيَّ ذِمام، وتعرض لتقلُّبات الدهر وعوادي الأيام. وأما «جهله» الفاضح، فلأنَّ أبسط شيء من العلم والتجربة يقود الإنسان إلى الاقتناع بأن الأمانة هي محورُ الثقة التي يمكن أن يتمتع بها، وأساس السمعة الحسنة التي يحرص عليها، ومفتاح السعادة التي يطمح إليها، ومن خان الأمانة عاش في هم ونكد، وظل منبوذاً من أهله وقومه طول الأمد، لكن من حسن حظ الإنسانية ما هي عليه من ازدواج وامتزاج، يُعدِّل مزاجها، ويصلح حالها، فالظالمُ لا بد أن يجد من يَحُدُّ من ظلمه، وهو أخوه الإنسان، الذي حمل أمانة العدل، والجاهل لا بدّ أن يجد من يَحُدُّ من جهله، وهو أخوه الإنسان، الذي حمل أمانة العلم، ﴿وَلَوْلَا دِفَعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (٢: ٢٥١)، وبذلك يضيق الخِناق على من خان الأمانة من الجهلة والظالمين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٨: ٥٨).

ومن نتائج حمل الأمانة والوفاء بها، أو حملها وخيانتها، انقسمَ الناسُ إلى قسمين، فمَن ضيَّعها بالمرة كان أهلاً للعقاب والعذاب، ومن وفَّى بها كُلِّياً، التزاماً بعهده ووعده، نال أجزل الثواب، ومن وفي بها جُزئياً، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، لم يخب رجاؤه في مغفرة الله إذا تاب وأناب، وذلك ما ينطق به كتاب الله إذ يقول في ختام سورة الأحزاب المدنيّة: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، والمنافقون هم

الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله، ويبطنون الكفر مُتابعة لأهله، والمشركون هم الذين تواطأ باطنهم وظاهرهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿ وَيَتُوبَ اَللَّهُ عَلَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ، وَكَانَ اَللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

وبعدما منَّ الله علينا بتفسير سورة الأحزاب المدنيّة ننتقل إلى سورة سبأ المكية، وإنما سميت «سورة سبأ» لقول الله تعالى فيها: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾، وتتضمن فاتحة هذه السورة حمد الله في الأولى والآخرة، وتمجيد حكمته وقدرته، والتعريف بعلمه الذي أحاط بكل شيء من مخلوقاته، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ ، اِلْحَمْدُ لِلَّهِ اِلذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي اِلَارْضِ ، وَلَهُ اَلْحَمْدُ فِي اِلَاخِرَةِ، وَهُوَ اَلْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي اِلَارْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنزِلُ مِنَ اَلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ اَلرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي اِلَارْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

ثم جدد كتاب الله الحديث عن قيام الساعة وموقف المكذبين بها،عن جهل، أو عناد، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَاتِينَا اَلسَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ اِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، اَفْتَرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً، اَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾.

ووصَفَ مآل الذين استجابوا لِلَّهِ ورسوله فقال في حقهم:

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ، أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، وبين السر في وقوفهم هذا المَوقف، وهو ما هم عليه من علم وإيمان، فقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ، ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ، وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، كما وصَفَ مآل المعاندين الذين يتحدُّون الله ورسوله فقال في حقهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾.

وخُتم هذا الربع بدعوة الجاحدين والمعَاندين إلى النظر في خلق السماوات والأرض، والتدبر في آيات الله البارزة فيهما، واستخلاص النتائج الحتمية من التدبر العميق في عظمة خلقهما، مع تهديدهم إن لم يتراجعوا عن جحودهم وعنادهم بعذاب مُفاجىء، يسلَّط عليهم من تحت أرجلهم أو من فوق رؤوسهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟
مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ يُجْزَىٰٓ إِلَّا ٱلْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا
فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا
بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ

عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الثالث والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُواْ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

في بداية هذا الربع بين كتاب الله لمن لا يزالون في شك من أمر النبوة أن الرسول الأعظم ليس بِدْعا من الرسـل، وأن الرسالات الإلٰهية التي جاءوا بها كما تُعنَى بالشؤون الروحية للنوع الإنساني تُعنَى بشؤونه المادية المباشرة، بل تأخذ بيده فتسـدد خطواته الأولى في نفس المجال التقني والصناعي، و«الآخرة» التي دعا الرسلُ والأنبياء إلى الإيمان بها إنما هي المرحلة الأخيرة في مسيرة جهاد الإنسان المتواصل، من أجل صلاح الإنسان، وازدهار العمران، حيث يجني الإنسانُ ثمرة عمله، ويصل إلى تحقيق رجائه وأمله، إن وَفَّى بما عاهد عليه الله في خلافته، ولم يتنكر لدينه وشريعتـه، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـا مَا عَلَى اَلاَرْضِ زِينَـةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾. (١٨ : ٧).

يقول الله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ﴾، وهذا الفضل الذي آتاه الله إيّاه يظهر بشكل بارز في عدة مظاهر روحية ومادية:

المظهر الأول: تسبيح الجبال معه عندما يتلو «الزّبور» الذي أنزله الله عليه، وإصغاء الطير أثناء تِلاوته إليه، فالجبال تردد صدى صوته القويّ العظيم، وأسراب الطير تلتف حوله وتَطرَب عند سماع صوته الرخيم، فيشترك في تمجيد الله في آن واحد الجمادُ والحيوان والإنسان، وتبرز من خلال تمجيد الله وتوحيده وحدةُ الأكوان، ﴿ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ اِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١٧ : ٤٤)، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى وهو ينادي الجبال لتُسَبِّح لله مع نبيه داوود: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾، وسيأتي في سورة (ص) قوله تعالى في شأن داوود عليه السلام (١٨): ﴿ اِنَّا سَخَّرْنَا اَلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالِاشْرَاقِ ﴾، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو يقرأ في الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال: (لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامير آل داوود)، فأجابه أبو موسى قائلاً: «لو علمت أنك تسمع لَحَبَّرته لك تحبيراً» والثوب «المحبَّر» هو المخطط بالألوان، أي: لجعلته لك أنواعاً حساناً. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) تعليقاً على نفس الحديث في سياق كلامه على هذه الآية: «فيه دليل على الإعجاب بحسن الصوت، والقلوبُ تخشع بالصوت الحسن كما تخضع للوجه الحسن، وما تتأثّر به القلوب في التقوى أعظم في الأجر، والأصوات الحَسنة

نعمةٌ من الله تعالى، وزيادة في الخَلْق ومِنَّة، وأحق ما لَبِس هذه الحُلة النفسية والموهِبَة الكريمة كتابُ الله، فنِعَمُ الله إذا صُرِفت في الطاعة قُضي بها حقُّ النعمة».

المظهر الثاني من مظاهر الفضل الذي آتاه الله داوود: تمكينه من استعمال معدن الحديد فيها تتوقف عليه سلامة الدولة، وإطلاعُه على سر صناعته، وتطويعه في يده، حتى عاد كالطين المبلول والعجين والشمع. وللحديد أهميةٌ خاصة في حياة الشعوب والدول نبه إليها كتاب الله فيما سيأتي من سورة الحديد، إذ قال تعالى (٢٥): ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾.

المظهر الثالث من مظاهر فضل الله على داوود: تعريفه بالطريقة التقنية المُثْلَى لصنع الدروع، حتى تَحمِي المحاربين من سهام الأعداء، مَتى اضطروا لحمل السلاح، وتنبيهُهُ إلى أن الدِّرْع الذي يحمِي لابسه يلزم أن يكون على قدر جسمه وقامته، لكي يستره ستراً تاماً، وإرشادُه إلى أن كل حَلْقَة من حلقات الدرع يلزم تقديرها بقدر الحاجة، بحيث تجمع بين الخفة التي لا تُضعِف من مناعة الدِّرع، وبين الحصانة التي لا تثقل الجسم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾، ويقال لصانع الدرُوع «سرّاد وزرّاد» بإبدال السين زاياً، ويزيد هذا المعنى توكيداً وإيضاحاً قولُه تعالى فيما سبق من سورة الأنبياء في شأن داوود عليه السلام (٨٠): ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ

ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ، وَكُنَّا فَٰعِلِينَ، وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عما امتن به على سليمان بن داوود من فضل أشمل وأعظم، وهذا الفضل يتجلى في عدة مظاهر:

المظهر الأول: تسخير الريح له في زمان محدود ومكان محدود، وجعلها أداة سريعة في يده ويد أعوانه، للقيام بأسرع ما يمكن من التنقلات والمواصلات، بحيث يكون من المستطاع قطع مسافة شهر في الغدو ومسافة شهر في الرواح، أي قطع مسافة شهرين في يوم واحد، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق في سورة الأنبياء (٨١): ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾، وقوله تعالى فيما سيأتي من سورة (ص: ٣٦): ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾.

والمظهر الثاني: تمكينه من استعمال معدن النحاس، وتعريفُه بالطريقة التقنية المُثْلى لتذويبه وإسَالته، وإرشادُه إلى استعماله في صنع ما يلزم من آلات وأدوات، للنفع الخاص والنفع العام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ أي: معدن النحاس، وقولُه تعالى في نفس السياق:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ، وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾، و«المحاريب» جمع «محراب»، وهذا اللفظ يُطلق على كل بناء مرتفع ممتنع، وعلى أشرف بيوت الدار، كما يطلق على المكان الذي يصلِّي فيه الإمام، لأنه يجب أنْ يُرفع ويُعظَّم، وهو أرفع مكان في المسجد، و«التماثيل» جمع «تمثال»، وهو اسم للشيء المصنوع باليد، المُمَثَّل بغيره، أي المشبَّه به من إنسان أو حيوان أو غيرهما، و«الجِفان» جمع «جَفْنة» وهي القصعة الكبيرة، وشبهت في هذه الآية «بالجَوَابِي» جمع «جابية»، لِاتِّساعها وكِبَرها، ومعنى «الجابية» الحوض العظيم الذي يجمع فيه الماء، و«القدور الراسيات» هي القدور الثوابت التي لا تُحمَل ولا تُحرَّك لعظمها، ومنها يُغرف الطعام في الجفان. قال (ابن العربي): «ورأيت برباط أبي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً، من غير استئثار أحد منهم على أحد».

وتعليقاً على كلمة (تماثيل) الواردة في هذه الآية وما تفيده من إباحة التصوير على عهد سليمان قال (ابن العربي) ما نصه: «ورد على ألسنة أهل الكتاب أنه كان أمراً مأذوناً فيه، والذي أوجب النهي عنه في شرعنا ـ والله أعلم ـ ما كانت العرب عليه من عبادة الأوثان والأصنام، فكانوا يصوِّرون ويعبدون، فقطع الله الذريعة وحمَى الباب».

ومن لطائف التفسير ما نبه إليه الرازي أثناء تفسيره لهذه الآيات من «أن كتاب الله ذكر ثلاثة أشياء في حق داوود، وثلاثة

أشياء في حق سليمان عليهما السلام، فتسخير الجبال لداوود هو من جنس تسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير للأول هو من جنس تسخير الجن للثاني، إذ الشأن في الطير النفور من الإنس، والشأن في الإنس النفور من الجن، ومع ذلك صار الطير لا ينفُر من داوود، بل يستأنس به ويطلبه، وأصبح سليمان لا ينفُر من الجن، بل يُسخِّره ويستخدمه، وأما القِطْر، أي: النحاس والحديد فتجانسهما غير خفي» وذكر كتاب الله في حق داوود اشتغاله بآلة الحرب، بينما ذكر في حق سليمان اشتغاله بمهام السلم؛ لأن مُلكه كان موطَّداً من عهد أبيه.

ثم أننا نجد كتاب الله يُدْرِج في سياق التنويه بفضل الله على نَبِيِّه سليمان عليه السلام آياتٍ يدور الحديث فيها حول نوع «الجن» الذي يقابل نوع «الأنس»، والمراد بهم نوع خفي من الكائنات يَعمُر الكون عِلاوة على الإنسان، وهو خاضع مثلَه للتكليف في الدنيا والجزاء في الآخرة، حسبما تدل عليه عدة آيات في سورة الأنعام وسورة الأعراف وسورة فُصِّلت وسورة الذاريات وسورة الرحمان وسورة الجن، غير أن كتاب الله لم يُفصِّل القول في هذا النوع الخفي من الأحياء، واقتصر على بيان أن الله خلقه من نار، وترك تفاصيل أمره مستورة ومحجوبة عن الأنظار، ﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (١٥ : ٢٧)، ﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (٥٥: ١٥).

ونظراً إلى أن بعض الأغرار من البشر تكونت عندهم فكرة غامضة وسخيفة عن الجنّ من نسج الخيال، وأخذوا يعبدونهم،

ظناً منهم أنهم يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب، واستمر اعتقادهم الباطل، يتناقله جيل عن جيل، إلى حين ظهور الإسلام، فقد تصدى كتاب الله في سياق الحديث عن سليمان لأبطال هذا الاعتقاد الفاسد، مبيناً أن الجن ليسوا إلّا عبارة عن كائنات خفية، خاضعة لأمر الله، ومسؤولةٍ عما كُلِّفت به أمام الله، فليس للجن في الكون أمر ولا نهي، ولا سطوة ولا تأثير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى واصفاً تسخير سليمان لهم أثناء حياته: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنبياء (٨٢): ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، وقوله فيما سيأتي من سورة (ص: ٣٧ ـ ٣٨)، ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾.

وللدلالة على أن علم الجن علم قاصر ومحدود، وأنهم لا يعلمون من الغيب شيئاً، على خلاف ما يعتقده الأغرار البسطاء، أورَد كتابُ الله شاهداً على ذلك موتَ سليمان، مبيناً أن الجن الذين كانوا يعلمون بين يديه لم يشعروا بموته، واستمروا على أداء الخدمات الشاقة التي عاقبهم بها، ظناً منهم أنه لا يزال حياً يملك ويحكم، ولولا أن «العصا» التي كان يتوكأ عليها أكلتها الأرَضَة وانكسرت، فسقط جثمانه على الأرض، لَمَا أدرك الجنّ أنه مات، ولَمَا توقفوا عما كان قد كلفهم به من الخدَمات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَاكُلُ مِنْسَاتَهُ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾، والمراد «بدابة الأرض» هنا الأَرَضَة التي تأكل الخشب، والمراد «بالمِنساة» العَصَا.

وتنويهاً بداود وآله قال تعالى في نفس المقام: ﴿ وَاعْمَلُواْ صَٰلِحاً، اِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى يرعَى عمل الصالحين من عباده بعين رعايته، ما داموا لا يفترُون في عملهم عن خشية الله ومراقبته. وقال تعالى: ﴿ اِعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُدَ، شُكْراً ﴾، إشارةً إلى أن شكر الله على نِعمه مَتَى كان محوَر الحركات والسكنات، والدافع الأول إلى ما يقوم به العبد من صالح الأعمال وجميل الحسنات، أثمر لصاحبه في الدنيا والآخرة أطيب الثمرات. قال الزمخشري: «فيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدَّى على طريق الشكر»، وقال أبو بكر (ابن العربي) «حقيقة الشكر استعمال النعمة في الطاعة، والكُفران استعمالها في المعصية».

وقد نوه كتاب الله بشكر سليمان في غير ما آية، كقوله تعالى في سورة النمل (١٩): ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضِيهُ ﴾، وقولِه تعالى في نفس السورة حكاية عن سليمان وقد رأى عرش ملِكة سبأ بين يديه (٤٠): ﴿ فَلَمَّا رءاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيَ ءَآشْكُرُ أَمَ اَكْفُرُ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾، إشارةٌ إلى أن أكثر من يتقلبون في نعم الله الظاهرة والباطنة لا يؤدون حق شكرها، بل هم في غفلة ساهون، حتى إذا ذهبت النعمة، وحلت النقمة، أفاقوا من غفلتهم، وندموا على سكرتهم، ولات حينَ مَندم، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١٤ : ٧) و﴿ ٱلشَّكُورُ ﴾، هو المتوفر على أداء الشكر، الباذل وُسْعَهُ فيه، الذي يشغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكَدْحاً، حسبما عرّفه جارُ الله الزمخشري، ومن شاء أن يكون من عباد الله الصالحين فلْيَكُن من هذا الفوج القليل.

ومن قصة آل داوود التي يتجلى فيها فضل الله ومقابلة فضله بالشكر، انتقل كتاب الله إلى قصة، «سبأ» التي يتجلى فيها فضل الله، لكن مع مقابلته بالجحود والكفر:

أما فضل الله على سبأ فينطق به قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آية، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً، وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ، سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءامِنِينَ ﴾.

وأما جحود سبأ وكفرهم بنعمة الله، وما نشأ عنه من تبدل الأحوال، والتعرض للدمار والزوال، فينطق به قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ، وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ اكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَالِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُواْ، وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا ٱلْكَفُورُ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا

بَـعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا، وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ، فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ، إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُومِنِينَ ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَـٰكِنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾، أي: أن ما أكرم الله به قوم سبأ من خصوبة الأرض وجودة التربة، ونقاوة الهواء، واختلاف الزروع والأشجار، وتنوع الثِّمار، وامتداد الظلال، وجريان الأنهار، يُعَـدُّ آية من آيات الله، الناطقة بقدرته وحكمته ورحمته، الباعثة على عبادته وشكره وطاعته: ﴿ جَنَّتَـٰنِ عَنْ يَّمِينٍ وَشِمَـالٍ ﴾، أي: أن مساكنهم تَحُـفُّ بهـا من جهة اليمين ـ كما تحف بها من جهة الشمال ـ بساتين خضراء، ومزارع فيحاء، على مدِّ البصر، حتى كأنَّ ما على اليمين من البساتين والمزارع يُكوِّنَ جَنة واحدة، وما على الشمال منها يُكوِّن جنـة واحـدة أيضاً، لاتصـال تلك البساتين والمـزارع بعضها ببعض، وتداخل بعضها مع بعض، ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ ﴾، أي: أن كل ما حولهم كانَ لسانُ حاله يوحي إليهم بالإقبالَ على مَائِدة الله، والتمتع بالطيبات من الرزق، والشكر لله على نعمـه المتواصلة، فقد أتم الله عليهم نعمتـه من جميع الـوجوه، ولا يسعهُم إلاّ أن ينهضوا بِشكرها فرِحين مبتهجين.

يقول الله تعالى: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾، هذا تعقيب مستأنف، أوجز فيه كتاب الله وصف أرض سبأ ووصف أهلها، فالأرض أرض طيبة، وطِيبها يصدق بكونها أرضاً خصبة لا سَبْخَة، وكونِ مُناخها مُناخاً صحياً طيب الهواء، لا وخامة فيه ولا وباء،

ولا هوامٌّ كالعقرب والحَيَّة والحِرْباء، والناس في هذه الأرض يعبدون الله ويشكرونه، ويذكرون فضله ويستغفرونه، فيغفر لهم ما فَرَطَ منهم من السيآت، ويتقبل منهم ما قدموه من الحسنات: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١١: ١١٤).

يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ، سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾، أي: أن الله تعالى أكرم قوم سبأ بعمران مزْدَهر متصل الحلقات، ترتبط فيه المدن الكبرى بسلسلة من القرى الصغيرة العامرة، المبثوثة في أطراف البادية، وهذه القرى قريبٌ بعضها من بعض، ويتراءى بعضُها لبعض، والسير فيما بينها يمكن ليلاً ونهاراً، بما تتوفر عليه من استقرار وأمان، ناشئَيْن عن ازدهار واتصال العمران، وقد دلت الكشوف الأثرية الحديثة على أن الحضارة العربية في عهد دولة سبأ بلغت غاية النمو والازدهار، لا فرق في ذلك بين الناحية الإدارية، والناحية العمرانية، والناحية الثقافية، والناحية الصناعية، والناحية التجارية، والناحية الزراعية.

ومما يتصل بموضوع الآيات الواردة هنا عن سبأ اتصالاً وثيقاً، ويلقى الأضواء عليها: أن دولة سبأ بلغ أهلُها في العلم بالهندسة وتنظيم الريّ وحسن الاستفادة من مياه الأمطار درجةً عالية، فأنشأوا من السدود والقنوات ما كان مثاراً للدهشة والإعجاب في أطراف العالم إذْ ذاكَ، إذْ أَنَّ تلك السدود العربية تعتبر أقدم السدود التي عرفها التاريخ، مما كان له أثر كبير فيما وصفه كتاب الله بأنه «آية» من آيات الله، إذ قال تعالى هنا: ﴿ لَقَدْ

كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾، وقال: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

لكن لما أعرض قوم سبأ عن عبادة الله وطاعته، وانصرفوا عن شكره على نعمته، بَطَراً وطغياناً، وجحوداً وكفراناً، بدَّلهم الله من حال إلى حال، وسلَّطَ عليهم الكوارث والأهوال، فتهدم «سدّ مأْرب» الذي كان يعد من أعاجيب العالم القديم، إذْ كَانَ أوسع السدود وأشهرها، [وهو يبعد عن مدينة صنعاء بنحو ستين ميلاً، ولا تزال بقاياه ماثلة للعيان إلى الآن]، وطغى ماء السد وماء السَّيْل على ما كان عندهم من بساتين ومزارع وأبنية، فذهب العمران والازدهار، وحل محله الخراب والدمار، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾، و «العَرِم» السيل الذي لا يطاق.

يقول الله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ اكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ، وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾، ها هنا يبين كتاب الله ما حلّ بمزارعهم ومعايشهم من ضياع وإهمال، حيث تحولت البساتين والمزارع إلى غابات وأدْغال، والمراد «بالخَمْط» كل شجر ذي شوك فيه مرارة، و«الأَثْل» نوع من الخشب شبيه بالطَّرْفَاء لا ثمرة له في الغالب، و«السِّدْر» شجر النبِق، وبعد ما أصبح السِّدْر أحسن أشجارهم لم يبق منه إلاّ القليل. وإنما قال تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَـٰهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ اكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ ﴾، لأجل «المشاكلة» بين النوعين، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَجَزَآؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، إذ مِثْلُ هذا النبات الوحشي لا يسمى في

الحقيقة «جنة» ولا بستاناً. ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُمْ بِمَا كَفَرُواْ، وَهَلْ يُجَـٰزَىٰ إِلَّآ ٱلْكَفُورُ ﴾.

وبعدما تحولت مزارع قوم سبأ وبساتينهم الفيحاء إلى غابات وأدغال، وأصبحت قراهم المزدهرة وعمرانها المتصل في خبر كان، ولم يبق منها إلَّا الخرَاب والأطلال، تذكروا الله والتجأوا إليه، لكن كان أمر الله قدَراً مقدوراً، فَاسْتبدلهم بعيشتهم الراضية، «معيشة ضَنكاً» كلُّها متاعب مُضنية، تحتاج إلى ركوب أخطار عديدة، والتقلب في أسفار طويلة وبعيدة، لا يكفي فيها زاد ولا راحلة، ولا تنجو من مخاوفها ومفاجآتها أيّ قافلة، وبذلك جعلهم عبرة للمعتبرين يتحدثون بهم، ويتمثلون بمصيرهم المفجع قائلين، «تفرقوا أيادِي سَبَأ» وذلك ما يُشيرُ إليه قوله تعالى، عقاباً على بَطَرهم وعدَم شكرهم: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَـا، وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ، فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَاَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله أن إبليس لا سلطان له على الخلق، وإنما يُغْرِي ويُغوِي مَن اختار الغواية والضلال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّومِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾، أي: لنكشف للناس عما سبق في علمنا من أمر المؤمن والكافر، ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

ثم خاطب كتابُ الله المشركين متحدياً لهم، وطالباً منهم أن

يدْعُوا شركاءهم: ﴿ قُلُ ادْعُواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اِللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـوَاتِ وَلَا فِي اِلَارْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍ ﴾، مبيناً لهم أن الله تعالى غنيٌّ عن الشركاء والأعوان: ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾.

وخُتم هذا الربع بالإشارة إلى أنَّ سَبْقَ الإذن من الحق سبحانه وتعالى للشفعاء والمشفوع فيهم أمر ضروري قبل كل شفاعة، وأن الشافعين والمشفوع لهم يكونون أثناء انتظارهم لإِذْنِهِ سبحانه في حالة جزعٍ وفزعٍ لا يدرون هل يُؤذَن لهم أو لا يؤذن، فإذا صدر الإذن بالشفاعة من الرحمان الرحيم، ذي العرش العظيم، تبادلوا البشرى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَـٰعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنَ اَذِنَ لَهُ،حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾، أي: زال الفزع وارتفع، بالإذن لهم في الشفاعة، سأل بعضُهم بعضاً، ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُواْ الْحَقَّ ﴾، أي: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لِمَن ارتضى، فليس لملَك ولا نبي أن يتكلم في ذلك اليوم إلاّ بإذنه، ﴿ وَهُوَ اَلْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين
في المصحف الكريم

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟

لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ ۝٣١
قَالَ اَلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ لِلذِينَ اَسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ اِلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ
اَلذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اُلَّيْلِ وَالنَّهَارِ
إِذْ تَامُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ اُلنَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُاْ اُلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا اَلَاغْلَٰلَ فِےٓ أَعْنَاقِ اِلذِينَ كَفَرُواْ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٣٣ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِے قَرْيَةٖ مِّن
نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤
وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلِ
اِنَّ رَبِّيَ يَبْسُطُ اُلرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِالتِے تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَيٰٓ إِلَّا مَنَ اٰمَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ اُلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِے اِلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧ وَالذِينَ يَسْعَوْنَ فِےٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِے اِلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلِ اِنَّ
رَبِّيَ يَبْسُطُ اُلرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ
وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَےْءٖ فَهْوَ يُخْلِفُهُۥ وَهْوَ خَيْرُ اُلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ
كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ
كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا
بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الرابع والأربعين، في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَّرْزُقُكُم مِّنَ اَلسَّمَٰوَاتِ وَالاَرْضِ، قُلِ اِللَّهُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

في الآيـات الأخيرة من الـربع المـاضي وجه كتـاب الله الخطاب إلى نبيه، آمراً له أن يتحدى المشركين، ويطلب منهم دعوة شركائهم الذين يتمسكون بعبادتهم، ويعلقـون الأمل على شفاعتهم، مسجلاً على أولئك الشركاء العَجَزَة المفاليس، فقرَهم المدقع وعجزَهم التام، إذ قال تعالى فيما سبق: ﴿ قُلُ اِدْعُـواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اِللَّهِ، لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي اِلسَّمَٰوَاتِ وَلاَ فِي اِلاَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾.

وفي بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى نبيه، آمراً له أن يواصل تحدِّيَه للمشركين، ويوجه إليهم سؤالاً مِلِحّاً عمن يـرزقهم، وهـل أولئـك الشـركـاء الـذين يعبـدونهم هم الـذين يرزقونهم، مع أنهم لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وحيث أنه كان من المنتظر أن يتلعثموا ولا يجيبوا، فقد

أذن الله لنبيه أن يتولى هو بنفسه الجواب نيابةً عنهم، بمقتضى لسان الحال، الذي هو أفصح من لسان المقال، وذلك قوله تعالى في السؤال: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، فكان الجواب، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾.

قال جار الله الزمخشري محللاً السر في توجيه السؤال وتلقي الجواب من مصدر واحد، وهو نفس النبي عليه السلام: «أَمَره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، وذلك للإشعار بأنهم مقرُّون به بقلوبهم، إلاَّ أنهم رُبَّمَا أَبَوْا أن يتكلموا به، لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق، مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزِمَهم أن يقال لهم: فَمَا لَكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ، أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾، (١٠ : ٣١) إلى أن قال: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ (١٠ : ٣٢)، فكأنهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة، ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وإصراراً، وحذراً من التزام الحجة».

ورغماً عن وضوح الحجة وسلامة البرهان، على أن الله الذي يرزق عباده هو الذي يستحق عبادتهم وطاعتهم، وَمَنْ عَبَده هو الذي يكون على هدى، وأن من لا تأثير له في خلق ولا رزق، ولا شِرْكَ له في السماوات والأرض، ينبغي أن يُهمَل ويُسقَط من الحساب، ومَن عَبده هو الضال المضل، قال تعالى

مستدرجاً للكافرين المشركين، وإن كان الحق كله مع المؤمنين الموحّدين، ﴿ وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ، قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا، وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

ونظراً إلى أن اختلاف البشر في معتقداتهم لا سبيل إلى القضاء عليه في الحياة الدنيا ما داموا موكولين إلى اختيارهم، فإن فصل القضاء بينهم لا يتم إلّا عند حشرهم ووقوفهم جميعاً بين يدي الله يوم القيامة، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾، أي: القاضي بالحق، العليم بأحوال الخلق.

ولتبكيت المشركين وتسفيه معتقداتهم من جهة، والمزيد من التنازُل، أملاً في إقناعهم بالرجوع إلى الحق من جهة أخرى، أمر الله تعالى نبيه أن يقترح عليهم عقد مقارنة وموازنة بين خصال الشركاء الذين ألحقوهم بالله، وبين كمالات الله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، وبديهي أنه لا مجال للمقارنة بين صفات الخالق وصفات المخلوق، وبين الحي القيوم، والجماد الشبيه بالمعدوم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ، كَلَّا ﴾، أي: ليس له شركاء، ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، أي: ذو العزة الذي قهر بعزته كل شيء، الحكيم في تصرفاته وكلماته، وشرعه وقَدَره.

ووجه كتاب الله الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله، ممتناً عليه، ومؤكداً للناس أجمعين أن الرسالة التي جاء بها رسالة عامة إلى كافة البشر، ولا يفُلُّ من حَدِّها ولا ينقص من شأنها كونُ

الجاهلين والمعاندين أصروا على تجاهل أمرها، وعدم الإقرار بها، فستفرض نفسها بحجتها البالغة عليهم جميعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ومن لوازم عموم الرسالة أن يتوجه الرسول إلى الإنسانية جمعاء بالتبليغ والتبشير والإنذار، وأن يكفهم عن الضلال ويرشدهم إلى الهدى على ممر الأجيال والأعصار، وبنفس المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأعراف (١٥٨): ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾، وقوله تعالى في سورة الفرقان[1]: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيراً ﴾، و«البِشارة» لمن أسلم وجهه لله بإحسان، و«النِّذارة» لمن أسلم وجهه للهوى والشيطان.

وأورد كتاب الله سؤالاً عن موعد قيام الساعة، وهو أحد الأسئلة الغريبة التي يوجهها المتعنتون والمعاندون في كل مناسبة، لا بقصد الاسترشاد، ولكن بقصد التحدي والعناد، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، ولَقَّنَ رسولَه الجواب المناسب لهذا السؤال: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً، وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾، و«الميعاد» ظرف الوَعْد من مكان أو زمان، وهو هنا للزمان، ولم يُخْفِ كتاب الله وجود طائفة من الكافرين بلغ بها الجحود والعناد، والغلوُّ في الكفر والإلحاد، ليس فقط إلى عدم الاعتراف بالقرآن، وإنكار ما تضمنه من العقائد الثابتة بالحجة والبرهان، بل إلى إنكار جميع الكتب السماوية والعقائد التي جاءت بها الأديان، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

ثم بين كتاب الله لرسوله الأعظم ما سيكون عليه يوم القيامة حال الأتباع والمتبوعين، والرؤوساء والمرءوسين، الضالين منهم والمضلين، وهم يتبادلون الاتهام والملام، ويتراشقون بلاذع القول وقارص الكلام، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، أي: محبوسون في موقف الحساب بين يدي الله، ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾، أي: لو رأيت تحاوُرَهم وتناكُرَهم وتراجُعَهم في القول لرأيت مشهداً مُريعاً، وموقفاً فظيعاً: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ ﴾، وهم الأتباع، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾، وهم القادة، ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾، وهم القادة، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ ﴾، وهم الأتباع: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ﴾، أي: الأتباع، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾، أي: القادة، رداً عليهم، ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ، إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ، وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَاداً ﴾، أي: أن الإجرام لم يكن من جهتنا، بل من جهة مكركم وخداعكم لنا، واحتيالكم علينا، وبث معتقداتكم الباطلة بيننا باستمرار، في الليل والنهار.

ولما رأوا العذاب رؤساء ومرؤوسين، استولى عليهم الذُّعْر والندَم، من الرأس إلى أخْمَص القَدَم، فبرزت آثاره على أسارير وجوههم، وأحاطت الأغلال بأعناقهم. أما القادة والرؤساء فمن

أجل ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، وأما الأتباع والمرؤوسون فمن أجل تسليم مقادتهم لهم والانقياد لأوامرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا الأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾: للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذابٌ بحسبهم، وبدلاً من سلاسل الخداع والتضليل، التي كانوا يوثقون بها أعناق الجيل بعد الجيل، ها هي أعناقهم موثقة بسلاسل من أغلال الحديد الثقيل.

وانتقل كتاب الله إلى كشف الغطاء عن الخطة العَدائية التي جرى عليها الطغاة المترَفوَن كلما بُعِث إلى الناس نبي أو رسول، وما تواطأوا عليه من غلط كبير، ووهم خطير، إذ يظنون أن سعة أموالهم، وكثرة أولادهم هي من دلائل حظوتهم عند الله، فيأمَنون مكر الله، جاهلين أن الله تعالى إنما يُمهل الظالمين، وأن كيده متين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ، وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾، فسعة الرزق عند الغنيّ لا تدل على مقامه الكريم عند الله، وضيق ذات اليد عند الفقير لا يفيد هوانَه على الله، ووجود الترف، لا يدل على الشرف، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثم قرر كتاب الله حقيقة دينية ثابتة قام عليها الإسلام، ألا وهي أن قيمة الإنسان عند ربه تقدر بخُلُقه القويم، وسلوكه المستقيم، بشكل متواصل ومستديم، ولا دخل للغِنَى والفقر في

هذا التقويم، وذلك ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾، أي: ليست الأموال والأولاد دليلاً على حظوتكم عندنا وقربكم منا، إذا لم يزينها الإيمان والعمل الصالح: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً ﴾، فمن أدى في أمواله حق الله، وأنفق أمواله في سبيل الله، وعلّم أولاده الخير وفقههم في الدين، ورباهم على طاعة الله، كانت له الأموال والأولاد نعم الزُّلْفَى إلى الله: ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾، أي: لهم الجزاء المضعَّف «الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف»، ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾، أي: آمنون من العذاب والأسقام والأحزان.

أما الذين حَادُّوا اللَّهَ ورسوله كِبْراً وعناداً، فستتلقاهم الزبانية يوم القيامة من سبعة أبواب، وسيساقون أذلاء مستسلمين إلى ساحة العذاب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا ﴾، أي: يسعون في إبطال أدلتنا، وتكذيب ما أنزلناه في كتابنا، ﴿ مُعَـٰجِزِينَ ﴾، أي: معاندين لنا، محاولين تعجيزنا، ﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾، أي: يساقون مرغمين على الحضور، جزاء ما أصروا عليه من كفرٍ وفجور.

وأكد كتاب الله مرة أخرى أن مقدار الرزق الذي يناله الإنسان لا يدل على مقامه عند الله، فكثرة الرزق لا تدل على التكريم، وقلته لا تدل على الهوان، لكن «نِعم المال الصالح للرجل الصالح» كما جاء في الحديث الشريف، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ،

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾، أي: يخلفه عليكم ويعطيكم بدله، إذا كانت النفقة في طاعة الله، وذلك إما بمثله، وإما بالثواب عليه وادِّخاره للآخرة: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ (٣: ٣٠)، وإما بالقناعة وغنى القلب، «والقناعة كنز لا ينفَدُ»، على أن كل ما عند العبد إنما هو من خَلق الله ورزقه، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾، إذ هو سبحانه خالق الرزق، وخالق الأسباب التي بها يَنتفِع المرزوقُ بالرزق، وخزائن رزقه لا تتناهى ولا تفنى ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٦٣: ٧)، قال مجاهد: «لا يتأَوَّلَنَّ أحدُكم هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾، مَنْ كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فيه، فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قُسِم له قليل، ولا يُنفِقْ جميع ما في يده، ثم يبقى طول عمره في فقر».

وكما استنكر كتاب الله في الربع الماضي «عبادة الجن» وقضى على رواسبها المتخلفة من عهد الجاهلية، عند ما قال في شأنهم: ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾، وعندما قال: ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾، استنكر كتاب الله في هذا الربع عبادة فريق من الناس للملائكة، وجاء هذا الاستنكار، في صيغة سؤال واستفسار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾، أي: نحشر الكافرين والمشركين في عَرْض شامل جامع: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾، أي: هل أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، وكنتم راضين عن عبادتهم، فيتبرأ الملائكة منهم

بالمرة، ويبدأون جوابهم بتنزيه الله عن كل سوء: ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ ﴾، أي: تعاليت وتقدست عن أن يُعبَد أحدٌ سواك، ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾، أي: أنت ربنا الذي نتولاه وحده بالعبادة، ونخلص له الطاعة، لا نتولى غيرك ولا نعبد سواك.

وسبق في كتاب الله سؤال من هذا النوع، موجَّه إلى عيسى عليه السلام مع جواب مماثل (٥: ١١٦)، ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ. قَالَ، سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾، ثم واصل الملائكةُ جوابَهم قائلين: ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّومِنُونَ ﴾، أي: أن شياطين الجن هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وخيلوا إليهم أن تلك الأوثان هي على صُوَر الملائكة، فصدَّقوهم وآمنوا بهم، ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ (٦: ١٠٠)، ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ﴾ (٣٧: ١٥٨)، قال جار الله الزمخشري: «قد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين بَرءاء مما وُجِّه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون تقريعُ مَن عبدوهم أشد، وتعييرُهم أبلغ، وخجلُهم أعظم».

ثم بَيَّن كتابُ الله أن الآمال التي كان يعلقها عَبَدة الأوثان والجن والملائكة على معبوداتهم آمال ضائعة، وأن رجاءهم في نفعهم عند نزول الشدائد مآله الخيبة والخسران، فقال تعالى مخاطباً لهم جميعاً: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً، وَنَقُولُ لِلذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا

تُكَذِّبُونَ ﴾، إذ الآخرة دار حساب وجزاء، لا دار تكليف وابتلاء.

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن مزاعم أعداء الرسالة والرسول، وما يحدِثونه من البلبلة في النفوس والعقول، وذلك قوله تعالى في وصفهم ووصف مزاعمهم الباطلة: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ، قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾، والإشارة هنا إلى الرسول عليه السلام، ﴿ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾، والإشارة هنا إلى القرآن، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، والإشارة هنا إلى الحق.

وهكذا انحصرت مزاعمُهم ضد الرسالة والرسول في وجوب التقليد الأعمى لمعتقدات الجاهلية والتمسك بها، ورَمْي الرسالة بكونها مجرد كذب وسحر، دون الدخول في مناقشة محتوياتها، ومحاولة التصدي لإبطالها بالدليل والبرهان، علماً منهم بأن رسالة القرآن وحدها هي التي تأخذ قَصَب السبق وتفوز في الرِّهان، لأن حجتها فيها، ودليلها منها، إذ لا كتاب أُبين من كتاب الله، ولذلك وصف كتاب الله الآيات بأنها «بينات»، والحق أن موقف الذين تمسكوا بالشرك والكفر من العرب كان موقفاً غريباً، فبعدما ظلوا قروناً طوالاً منذ عهد إسماعيل يتطلعون إلى أن يُبعَث إليهم رسول، وَيَنزِل على رسولهم كتاب، مثل الأقوام الآخرين، ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾، إذا بهم عندما أكرمهم الله بخاتم رسله، وأنزل عليه خاتم كتبه، يتنَكرون له، ويكفرون به، ويعلنون الحرب عليه، وكان من

المعقول والمنتظر أن يتلقفوا رسالته ويتلقوها بكلتَا اليدين، لأنها رسالة حق وصدق لا شك فيها ولا مَيْن.

وخُتم هذا الربع بالإشارة إلى أن وجود رَوافضَ مُكذبين يتبجحون بتكذيب الرسل ورفض الرسالات الإلٓهية ليس بِدعاً في تاريخ البشر، لاختلاف الاستعدادات الطبيعية، واختلاف المستويات الفكرية، واختلاف الأهواء والاختيارات الشخصية، واختلاف البيئآت الاجتماعية، لكن عاقبة الرفضِ والتكذيب كانت دائماً هي إنزال العقاب بالمكذبين، وكان عقابهم من الله بالتدمير والتعذيب، وذلك هو «النكير» العظيم، الذي يشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَـٰهُمْ، فَكَذَّبُواْ رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ
جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ
يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ
يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ
أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ
لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موعدنا في هذا اليوم مع الربع الثاني من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة فاطر المكية أيضاً: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

في بداية هذا الربع لَقَّنَ كتابُ الله لرسوله الأعظم ما يُواجِهُ به الشاكين والمعاندين، لإفحامهم وإقناعهم، وللقضاء على شكهم وعنادهم، داعياً إياهم إلى الالتقاء معه على كلمة سواء، وهذه الكلمة الواحدة الجامعَة المانعة هي أن ينهضوا وينتصبوا للبحث عن «الحق المطلق» في أمر الرسول وأمر الرسالة، متجردين من كل هوىً وعصبية وفكر مُسْبَق، مستخدمين العقل والمنطق، وملكة التفكير العميق، في دراسة هذا الأمر دراسة موضوعية، على أن تتم هذه الدراسة بطريقة «فردية» متأنية، حتى لا يتأثر أحدهم بالآخر، وبطريقة «ثنائية» وجماعية، حتى يناظر كل واحد الآخر، ويقارن النتيجة التي وصل إليها بما وصل إليه قرينه

من رأي، وبهذا الأسلوب المزدوج، من تمحيص أمر الرسول والرسالة تمحيصاً موضوعياً، دون عصبية ولا هوى، يَثبتُ الحق ويزهَقُ الباطل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾، أي: بكلمة واحدة هي أجمع جوامع الكلم، ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ أي: أن تقوموا للبحث عن الحقيقة وطلب الحق بكامل التجرد والإخلاص لوجه الله، ﴿ مَثْنَىٰ ﴾، أي: اثنين، عندما يكون الواحد منكم مع غيره، ﴿ وَفُرَٰدَىٰ ﴾، أي: واحداً واحداً عندما يكون الواحد منكم منفرداً بنفسه، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾، أي: منفردين ومجتمعين، وتستخدموا فكركم على فطرته وسجيته، وتُقَلِّبُوا وجوه النظر في أمر الرسول وأمر الرسالة، قال جار الله الزمخشري: «أما الاثنان فيتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه متصادقَيْن متناصِفَيْن، لا يميل بهما اتِّباع الهوى، ولا يَنبِض لهما عِرْقُ عصبية، حتى يهجُم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح، على جادة الحق وسَنَنه، وكذلك الفرد، يفكر في نفسه بعد ونَصَفة، من غير أن يكابرها، ويعرضُ فكره على عقله وذهنه، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاريِ أحوالهم» ونقل القرطبي عن بعض المفسرين تعليقاً على قوله تعالى هنا: ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾: «أن العقل حجة الله على العباد، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا ﴿ فُرَٰدَىٰ ﴾ كانت فكرةً واحدة، وإذا كانوا ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ تقابَل الذهنان، فتراءى من العلم لهما ما أضْعَف على الانفراد»، أي: ما زاد على الانفراد، أضعافاً مضاعفة.

ومَتَى أنعموا النظر، على هذا الوجه المعتبر، رفضوا مزاعم المعاندين والمكذبين، وأدركوا عن علم ويقين، إن محمّداً عليه الصلاة والسلام رسولُ الله حقاً وصدقاً، وأنه خاتم الرسل المبعوثُ إلى الخلق أجمعين، وبذلك يبطل تلقائياً قولُ من زعم أنه «ساحر»، إذ لا أثر في أفعاله وأقواله لأي نوع من أنواع السحر، ويبطل قول من زعم أنه «شاعر» إذ لا تشابه بين آيات الذكر الحكيم وبين أي نوع من أنواع الشعر، ويبطل قولُ من زعم أنه «مجنون»، إذ لا يبدو في تصرفاته وأحواله أي أثر من آثار الجنون. وكيف ينسب الجنون إلى من آتاه الله الكتاب والحكمة، وأكرمه بمزية التحصين والعصمة: ﴿مَا بِصَـٰحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وجرياً على ما دَرَج عليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم منذ أقدم القدم، من التطوع بتبليغ الرسالة إلى أقوامهم، والترفع عن تناول أيّ أجر على ما يقومون به من تبليغ رسالات ربهم، خاطب كتابُ الله خاتم رسله قائلاً: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنَ اَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ،إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اَللَّهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم إنَّ «الحقَّ»، لا بدّ أن ينتصر، و«الباطلَ»، لا بدّ أن يندحر، وما على الرسول الأعظم إلاّ أن يضع كلَّ مَن عنده شك أمام هذه الحقيقة الناصعة: ﴿قُلِ اِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾،! أي: يرمي به الباطل، فيدمَغه فإذا هو زاهق، ﴿عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ، قُلْ جَآءَ اَلْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، أي: لا يُبدىء الباطل لأهله خيراً ولا يعيده، لا في الدنيا ولا في الآخرة،

وسبق قوله تعالى في سورة الإسراء (٨١): ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ، إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾.

ومن المواقف الحاسمة التي طُبِّقت فيها هذه الآيات الكريمة، في الوقت المناسب، والموقف المناسب، أن رسول الله ﷺ عندما فتح مكة ودخل الكعبة، ووجد حولها ثلاثمائة وستين صنماً جعل يطعنها بِسِيَة قوسه ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ، إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾، و(سِيَة القوس) ما عُطِف من طَرَفَيْها.

ورداً على ما كان يزعمه المشركون من أن عقيدة التوحيد التي يدعُو إليها رسول الله، ويبرهن عليها كتاب الله، إنما هي مجرد ضلال وانحراف، وأن الوثنيَّة التي درجوا عليها هي الحق الصراح، أكد لهم الرسول عليه السلام بأمر من ربه أنه سيظل وفياً لعقيدة التوحيد، متمسكاً بها، وداعياً إليها، حاملاً رايتها، متحملاً كل النتائج التي تترتب على الإيمان بها والدعوة إليها، بالرغم من كونهم يعتبرونها ضلالاً وانحرافاً، مُهتدياً بالمبدأ القرآني القويم، المَطابِق للمنطق السليم، ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (١٧ : ١٥)، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾، وهذا هو الشق الأول من الرد، أما الشق الثاني فقد جاء بأكثر مما كان يُنتظَر، إذ تضمن إشارة إلى أن قدرة العقل على التفكير الصحيح ومعرفة الحق، التي سبق التنبيه إليها عند قوله تعالى في الآية الأولى من هذا الربع، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾، هي وإن كانت أساساً للنظر، والوصول

إلى الاقتناع والاعتقاد، تظَلُّ قُدرةً محدودة تكتنفها السُّحُب والغيوم في كثير من الأحيان، ولذلك فهي لا تستغني عن الهداية الإلَهية، التي يحمل «الوحي الإلَهي» مشعلها الكشاف المنير، فالوحي الإلَهي ـ لكونه منبثقاً من منبع النور نفسه ـ له نور قوي تخترق أشعته جميع الحجب التي تعترض العقل في طريقه، فيهتدي العقل بمعونته إلى اكتشاف الحق ومعرفته في كثير من المجالات، وهذا هو المعنى الإضافي الذي جاء به الشق الثاني من رد الرسول على المشركين ومن كان على شاكلتهم إذ يقول: ﴿ وَإِنِ اِهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّيَ ﴾.

ثم عقَّب كتابُ الله على ذلك كله بقوله: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ إشارةً إلى أن الله تعالى مطلع على كل ما يدور بين الرسول وخصوم الرسالات من جدل وحوار، وأنه يبارك ذلك الحوار الموصول الحلقات، عسى أن يقتنع الشاكون والجاحدون بما يقدمه لهم كتاب الله من الحجج والبراهين، ويهتدوا إلى الحق المبين، وبقوله: ﴿ قَرِيبٌ ﴾، إشارةً إلى أن من طرق باب الحق سبحانه وتعالى ملتمساً للهداية، نال منه ما يرجوه وأشرف على الغاية، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا اَلإِنسَـٰنَ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ اِلْوَرِيدِ ﴾، (٥٠: ١٦).

وتعريفاً ببعض المشاهد المثيرة التي سيكون عليها خصوم الرسالات الإلَهية يوم الفَزَع الأكبر، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾، ووقت الفَزَع هو وقت البعث وقيام الساعة، ومعنى ﴿ لَا فَوْتَ ﴾، أنهم لا يُفلِتون من سطوة الله، ولا أمل لهم

في النجاة، ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، فمن كان منهم في مكان سحيق لم يحُلْ بعدُ المسافة بينه وبين عذاب الله، ومن حاول منهم الفرار لم يستطع أن يفلت من قبضة الله، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (٣٩: ٧١)، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: عندما رأوا العذاب رأي العين آمنوا بالرسول ورسالته بحكم الاضطرار، لكن الإيمان من هذا النوع وفي مثل هذا الوقت ليس له أيّ اعتبار، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ، وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: أنّى لهم أن يتداركوا في الآخرة ما ضيعوه في الدنيا، مع أن الدنيا هي دار التكليف والابتلاء، والآخرة إنما هي دار الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إشارةً إلى أنهم كانوا يُلقون الكلام على عواهنه دون تحفظ أو تثبت، ويتفننون في إلقاء التهم دون تريث، فتارة يتهمون الرسول بأنه ساحر، وتارة أخرى يتهمونه بأنه شاعر، وتارة يتهمونه بأنه كاهن، وتارة أخرى يتهمونه بأنه مجنون، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام بريء من ذلك كله، بعيدٌ عنه بُعْدَ السماء من الأرض، ولا سند لهم في ذلك إلّا «الرَّجم بالغيب» والتحدِّي بالعناد والرفض، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، أي: لما كان همهم الأول والأخير وشغلهم الشاغل هو التمتع بالشهوات والملذات، في جميع الأحوال والأوقات، فوجئوا في دار الجزاء بالحرمان التام، كما فُعِل بمن كان على شاكلتهم من سالف الأمم والأقوام.

ثم كشف كتاب الله عن السر فيما تعرضوا له من الأهوال،

مبيناً أن «الشك» الذي كان مسيطراً على عقولهم هو علّة العلل فيما أصاب حياتهم من الانتكاس والاختلال، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبِۭ ﴾.

والآن وقد انتهينا بفضل الله وعونه من تفسير سورة سبأ المكية نشرع بحول الله وقوته في تفسير سورة فاطر المكية أيضاً، وتسمى أيضاً سورة (الملائكة) وإنما أطلق عليها سورة فاطر وسورة الملائكة معاً، لقول الله تعالى في الآية الأولى منها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾.

وقد افتتح كتاب الله هذه السورة الكريمة بتمجيد الله والثناء عليه، تلقيناً لعباده المؤمنين، حتى يقدُرُوا الله حق قدره، ويلتزموا طاعته والوقوف عند نهيه وأمره، مبيِّناً أن أحق من يحمده العباد ويعبدونه هو المَنعِم عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الأمداد، خالق الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، ومُرسِل الملائكة إلى الرسل والأنبياء، لهداية الإنسانية جمعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾، أي: خالقهما، ﴿ جَاعِلِ الْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾، أي: بينه وبين الأنبياء، كما قال تعالى في آية أخرى (٤٢: ٥١)، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، ﴿ أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾، أي: رسلاً لتبليغ الأوامر الإلٰهية، وتنفيذ مقتضياتها في العوالم العُلْوية والسُّفلية، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٧٤: ٣١)، ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، أي: إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار،

لا تحُدُّ قدرتَه حدود، ولا تقيد مشيئتَه قيود، فعملية الخلق لا تنقطع على مر الأيام، وخَلقُه قابلٌ للزيادة والتطور على الدوام، ومن ذلك ما تتمايزُ به الأفراد والأقوام، رغم اشتراكها مع غيرها في التكوين العام، قال جار الله الزمخشري عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾: «والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجـرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذَلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تَأَنٍّ في مزاولة الأمور، وما أشبه ذلك، مما لا يحيط به الوصف».

ثم بين كتاب الله إلى أي حد تبلغ سعة رحمة الله وسعة قدرته، منبهاً إلى أنه لا أحد في الكون يستطيع كَفَّ رحمته وإمساكَهَا، في الوقت الذي تقتضي حكمَتُه إرسالها، كما أنه لا أحد في الكون يستطيع إرسال رحمته، في الوقت الذي تقتضي حكمته إمساكها، وفي كلا الأمرين حكمةٌ إلٰهية بالغة، ومصلحة محققة لنفس الإنسان، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (١٥: ٢١)، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اِللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِ، وَهُوَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ومن رحمته إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتصريف الرياح وإثارة السحب، ومن رحمته الهدايةُ والتوفيق، إلى أقوم طريق، والتوبة من الذنوب، وتفريج الكروب. وقولُه تعالى: ﴿ مِن رَّحْمَةٍ ﴾، بالتنكير يتناول

جميع أنواع الرحمات في السر والعلن، ما ظهر منها وما بطن.

ووجَّه كتابُ الله في هذا الربع خِطَابَيْن اثنين إلى الناس أجمعين، لا فرق بين المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، ففي الخطاب الأول دعاهم إلى الإفاقة من سكرتهم وغفلتهم، واستحضار نعمة الله عليهم، والقيام بالشكر الواجب في حقهم، وذكَّرهم بأن كل ما يتصرفون فيه من أرزاق ويتقلبون فيه من نعَم، إنما هو من فضله العميم، وعطائه الكريم، ثم نَعَى عليهم انصرافهم عن شكره، وتحديَهم لأمره، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا اَلنَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَالاَرْضِ ﴾، ومن رزق السماء المطر، ومن رزق الأرض النبات، وبدونهما لا يمكن للنوع الإنساني عيش ولا اقتيات، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ، فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ ﴾ من «الإفك» بالكسر، وهو ممارسة الكذب، أو من «الأفك» بالفتح وهو الصرف عن الأمر والاِنصراف عنه. وعقَّب كتاب الله على ذلك بأن ما تتعرض له رسالة الرسول من شَغَب وتشويه لا ينال مَقام الرسول بسوء، وأن القول الأخير والفصل في شأن خصوم الرسالات، سيتم يوم الفصل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ، وَإِلَى اَللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾.

وفي الخطاب الثاني الموجه إلى الناس كافة مثل الأول، دعاهم كتابُ الله إلى التخلي عن الظن والشك والوهم والتخمين، والإيمان باليوم الآخر بجميع سوابقه ولواحِقه عن بينة ويقين، وحضُّهم على الاعتدال في الأخذ من حظوظ الدنيا، بُغية التفرغ

لحقوق الآخرة، لإقامة توازن وتكامل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، ووعده الحق هو التعرض للموت والبعث والثواب والعقاب ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾، والغرور بها هو استغراق العمر كله أو جُلِّه في التمتع بلذاتها، ونسيانُ الآخرة بعدم الاستعداد لعواقبها، والغفلةِ عن التفكير في تَبِعاتها، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾، هذا تَحْذِير من وساوس الشيطان، الذي تعهد، منذ استخلاف آدم في الأرض، بخداع الإنسان، ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٤: ١٢٠)، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنَ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

وتعريفاً بما يؤول إليه أمر الكافرين والمؤمنين في الآخرة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

وحيث إن الرسول عليه السلام كان يغتَمُّ كثيراً، ويحزن حزناً كبيراً، لإصرار المشركين على شركهم، والكافرين على كفرهم، والمنافقين على نفاقهم، دعاه الحق سبحانه وتعالى إلى الرفق بنفسه، إذ ليس عليه هداهم، وإنما عليه البلاغ، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً، فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران (١٧٦): ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾.

واستعرض كتاب الله في هذا السياق، جملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، ليذكّر بها من يمرون عليها وهم عنها معرضون.

فمن آيات الله في الأنفس قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ انثىٰ، وَلاَ تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ، اِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اَللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، قال سعيد بن جُبَيْر: «ما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبله فهو الذي يُعمِّره، وبذلك تتفق هذه الآية مع قوله تعالى (١٠: ٤٩)، ﴿ اِذَا جَآءَ اَجلُهُمْ فَلاَ يَسْتَـخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

ومن آيات الله في الآفاق قولُه تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الذِيَ أَرْسَلَ اَلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً، فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ اِلاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَٰلِكَ اَلنُّشُورُ ﴾، أي: أن بعث الأموات يماثل إحياء الأرض الموات، وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي اِلْبَحْرَانِ ﴾، أي: ما تستوي البحار وكبريات الأنهار، ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ، وَهَـٰذَا مِلْحٌ اجَاجٌ، وَمِن كُلٍّ تَاكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى اَلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، وقد كان المتعارف بين الناس أن الحِلية إنما تستخرج من البحار، لكن أثبت البحث الآن أنها تستخرج حتى من بعض الأنهار، مصداقاً لما ورد في القرآن، وفُسِّرت الحلية في هذا المقام باللؤلؤ والمرجان. وقولُه تعالى: ﴿ يُولِجُ الَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اِلَيْلِ، وَسَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، والأجل المسمى «هو الذي يتوقف فيه جريان الشمس والقمر»، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَٰتُ، وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الْوَٰحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (١٤: ٤٨).

ولْنَعُد الآن إلى الآيات الكريمة التي تخللت آيات الله في الأنفس والآفاق، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾، أي: أنَّ من طلب العزة من الله بافتقار وخضوع، وخشية وخشوع، وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة، لأنها بالصدق والإخلاص مطلوبة، ومن طلبها من سواه، لم ينل مناه. وقال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُ ﴾، أي: إن العمل الصالح إذا تعاضد مع القول الطيب زاد في قبوله ورفعه، وضاعف من حسن وقعه، كما أن القول الطيب إذا تعاضد مع العمل الصالح كان العمل به أتم وأكمل، وأشرف وأفضل. قال ابن عطيّة: «والحق أن العاصي إذا ذكر الله وقال كَلَاماً طيباً فإنه مكتوب له، متقبَّل منه، وله حسناته، وعليه سيآته». وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُوْلَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾، أي: أن من يمكر بالناس ويوهمهم أنه في طاعة الله، كذباً ورياء، سيعذبه الله في الآخرة، وسيكشف زيفه في الدنيا، فمن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾، أي: أن الله تعالى هو الذي بيده الملك والملكوت، وعنده خزائن السماوات والأرض، فهو الخالق والرازق والمدبر الذي يدبر الأمر، وما يتصرف فيه الإنسان، ـ انطلاقاً من نفسه التي بين

جنبيه - إنما هو عارية مستردَّة على وجه الارتفاق والانتفاع، ولا يملك أحد - على وجه التحقيق - مِلْكِية مطلقة، حتى القشرة الرقيقة البيضاء، التي تفصل بين التَّمْرة والنَّواة، وهي ما يطلَقُ عليه اسم «القِطْمير»، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

وختم هذا الربع بتسفيه معتقدات الشرك، وإقامة الحجة على المشركين الذين تتعلق آمالهم «بشركاء» عاجزين، لا ينفعونهم في الدنيا، ويتبرأون منهم في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، وحيث أن الحق سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم السر في السماوات والأرض، ولا أحد أخبرُ منه بخلقه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧ : ١٤): ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

الثمن الأول من الربع الثالث في
الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا
لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا
يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ
وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ
بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا
يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ
مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ
شَكُورٞ ﴿٣٠﴾

الثمن الأول من الربع الثالث في
الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

بعدما دعا كتاب الله في الربع الماضي الناس كافة، البرُّ منهم والفاجر، والمؤمنَ والكافر، إلى أن يتذكروا نعمة الله عليهم، ومدده الواصل دون انقطاع إليهم، إذ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ﴾، وبعدما أعلن للجميع أن الله تعالى هو وحده مالك الملك، لا يشاركه في ملكه أحد، إذ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾، عقَّب على ذلك في بداية هذا الربع بتقرير حقيقة كونية وبشرية لا مفر لكل إنسان من الاعتراف بها، ولو حاول أن يتجاهلها ويتغافل عنها، ألاَ وهي أن النوع

الإنساني وإن بلغ ما بلغ من العتو والاستكبار، والادعاء العريض للسعة والغنى والتحكم في مجاري الأقدار، كان ولا يزال وسيظل يتعثر في أذيال الفقر والاِحتياج باستمرار، وذلك قوله تعالى هنا يخاطب الناس جميعاً، حتى يُخففوا من غُلَوائهم، ويتراجعوا عن غرورهم وادعائهم: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اَللَّهِ ﴾، فقراء إلى توجيهه وهدايته، فقراء إلى توفيقه ورعايته، فقراء إلى رزقه ورحمته، فقراء إلى عفوه ومغفرته، وأنتم من بين جميع الخلائق أشدُّ الخلائق افتقاراً إليه، واضطراراً إلى الاعتماد عليه، لتنوع حاجاتكم، وكثرة رغباتكم، وما أنتم عليه من إغراق في الخيال، وتعلق شديد بالأماني والآمال، وعناد وإلحاح ودلال، ﴿ وَخُلِقَ اَلإِنسَـٰنُ ضَعِيفاً ﴾ (٤ : ٢٨)، فالفقر هو صفة الإنسان الطبيعية، وغناه الطارىء إنما هو مجرد عارية، والغِنَى الحقيقي والمطلق والدائم هو صفة الذات العلية ﴿ وَاللَّهُ هُوَ اَلْغَنِيُّ ﴾، وكل ما تتقلبون فيه من النعم الظاهرة والباطنة إنما هو من صنع الله، وهبة مهداة إليكم من الله، وقولُه تعالى: ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ بعد وصفه «بالغنيّ» إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى وإن انفرد بوصف الغِنَى الحقيقي دون عبادِهِ الفقراء، فإنه لا يبخل عليهم بالإمداد المتواصل والعطاء، وإذن فليس في وصف الله لهم بالفقر أي تحقير أو ازدراء، وإنما هو نوع من الإثارة والتنبيه والإغراء، والذين يَقْدُرون نِعَم الله عليهم حق قدرها، لا بدّ أن يحمدوا المُنعِم بها ويؤدوا واجب شكرها، فهو «غني» يسُدُّ فقرهم، «حميد» يستحق شكرهم، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (٣٩ : ٧).

ويكفي أن يتذكر الإنسان ما يصيبه من حيرة وذهول، عندما يفاجأ بما لم يكن في الحُسبان، فتختل موازين حياته العادية، ويشعر بأنه قد نزلت بساحته أكبر داهية، وبذلك يظهَر الفقرُ الطبيعي للإنسان، ويتجلى عجزه البالغ للعيان، ولا تعود حياته سيرتها الأولى إلاّ إذا حفته الألطاف الخفية، فمنَّ الله عليه، وأمده من جديد بما يحتاج إليه، وصدق الله العظيم إذ قال في فاتحة هذه السورة: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَه مِن بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وتنبيهاً للغافلين السادرين في غفلاتهم، وتحذيراً للعصاة المصرين على عصيانهم، المتمردين على طاعة الله، والمتعدين حدود الله، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، شعوباً أو دولاً أو حكومات، خاطبهم الحق سبحانه وتعالى منذراً ومحذراً، فقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

ذلك أن الله تعالى لم يستخلف الإنسان في الأرض ليفسد فيها ويسفك الدماء، ويمارس المنكر والفحشاء، وإنما استخلفه ليقيم فوق سطحها دولة الفضيلة والصلاح والعدل والإخاء، وهو سبحانه وتعالى قادر على أن يعاقب الإنسان بالسلب بعد العطاء، مَتى أخل برسالة الخلافة وأهملها، ولم يتعظ بعاقبة السوء التي أصابت كل من تنكر لها وعطلها، وصدق الله العظيم إذ قال (٦ : ١٣٣): ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ ﴾، وإذ قال (٤ : ١٣٣): ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾.

وليؤكد كتابُ الله إمكان هذا التأديب الإلّهي الصارم، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، أي: ليس ذلك على قدرة الله وحكمته بمتعذر ولا ممتنع، بل هو أمر واقع، ليس له من دَافع، فكم من أجيال فاسدة لقيت مصرَعها ودخلت في خبر كان، فحلت محلها أجيال صالحة، لأن كَفتها أصبحت في كَفِّ القَدَر وميزان الحق راجحة.

على أن قوله تعالى هنا في سورة فاطر المكية: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، إنما هو تأكيد جديد لنفس الإنذار الإلّهي الذي سبق في سورة إبراهيم المكية أيضاً، في مثل هذا السياق، وبنفس اللفظ والمعنى، حيث قال تعالى (٢٠): ﴿ مَثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اِشْتَدَّتْ بِهِ اِلرِّيَٰحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ اَلضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللَّهَ خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، وسيجدد كتاب الله التذكير بهذه الحقائق مرة أخرى في سورة «محمّد» عند قوله تعالى (٣٨): ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ، وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾.

ونظراً لأن الدنيا دار ازدواج وامتزاج يوجد فيها الصالح والطالح، والعاصي والمطيع، ومن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإن كتاب الله اعتبر كل شخص مسؤولاً عن عمله الخاص من صلاح أو فساد، وطاعة أو معصية، ولم يعتبره مسؤولاً شخصياً عن

عمل غيره من الناس، وإن كانت عاقبة فساد المفسدين قد تعم الجميع في الحياة الدنيا، فتُهلك الحرث والنسل، وتحرق الأخضر واليابس، على حد قوله ﷺ وقد سئل: «أنهلِكُ وَفِينَا الصالحون؟» قال: «نعم، إذا كثر الخبث».

وهذا المبدأ، مبدأ المسؤولية الفردية، المتعلقة بكل شخص بمفرده، يوم الجزاء، وأمام القضاء، قرره كتاب الله وأكدّه في غير ما سورة وغير ما آية. وورد بنفس اللفظ والمعنى في سورة الأنعام: (١٦٤)، وسورة الإسراء: (١٥)، وسورة الزمر: (٧)، وسورة النجم: (٣٨)، وهنا في سورة فاطر، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، وهذه السوَرُ كلها سور مكية، مما يدل على أن مبدأ مسؤولية كل فردٍ عن عمله الخاص، وعدم مؤاخذته بعمل غيره، ولا مؤاخذة الغير بعمله، يُكوِّن جزءاً لا يتجزء من العقيدة الإسلامية، وأصلاً أساسياً من أصول التشريع الإسلامي، ومن بين الآيات التي قررت وأكدت هذا المبدأ العادل قوله تعالى (٥٢: ٢١): ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾، وقوله تعالى (٥٣: ٣٩): ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾، وذلك على خلاف المعمول به في عرف الطغاة المستبدّين، قديماً وحديثاً، من مؤاخذة الفرد بعمل غيره، وإن كان لا دخل له فيه من قريب ولا من بعيد.

وليُوَضِّح كتاب الله ثقل المسؤولية الشخصية، الملقاةِ على عاتق كل فرد، صوّر لنا الشخص وهو يمشي مثقلاً بأوزاره، يلتمس من رفاقه في القافلة إعانته والتخفيف عنه، فلا يستجيب له

أحد، ولو كان من أقرب الأقربين، لأن كل واحد منهم ينوء بحمله الخاص، ولسان حاله يقول: «نفسي نفسي»، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٨٠: ٣٧) ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

وقولُه تعالى خطاباً لنبيه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ، وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ ﴾، إشارةٌ إلى أن الموعظة الحسنة إنما تُحدِث أثرها، وتؤتي أكلها على الوجه الأكمل، عندما يكون المستمع إليها والمنتفع بها ممن يؤمن بالله، ويؤدي حقوق الله، ومَن فَعل ذلك وأقبل عَلى ممارسة العمل الصالح عادت بركته عليه، وانجرَّ نفعه إليه، فَعَاشَ عيشة طيبة طاهرَ القلب، طاهر العِرض، زكي النفس: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾، أما اللَّهُ تعالى فهو غنيٌّ عن عباده غِنىً مطلقاً، بحيث لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾، أي: إليه سبحانه مرجع الخلق أجمعين، العصاة منهم والطائعين، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (١٨: ٤٩).

وتصويراً للبون الشاسع بين المؤمن وغير المؤمن، حتى إن الفرق بينهما يماثل الفرق بين الأعمى والبصير، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾، ومثّل كتاب الله أوهام الشرك وضلالات الكفر «بالظلمات»، وحَقيقة الإيمان والتوحيد «بالنور»، فقال تعالى: ﴿ وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴾، أي: لا تستوي الظلمات والنور أبداً، وحيث أن مخالطات الشرك ووجوه الكفر

متعددة لا تحصى جاءت كلمة «الظلمات» المعبِّرة عنها بصيغة الجمع، على خلاف حقيقة الإيمان والتوحِيد، التي هي حقيقة واحدة لا تقبل التعدد، فجاء لفظ «النور» المعبِّر عنها بصيغة المفرد.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾، إشارةً إلى ما يكرم الله به المؤمنين من عباده في الجنة من الظل الظليل والنعيم المقيم، وما يسلطه على المشركين والكفرة في حر جهنم من العذاب الأليم، وذلك عِلاوة على ما تنعَم به قلوب المؤمنين في الحياة الدنيا من سكينة وطمأنينة، وما تكون عليه قلوب غيرهم من قلق وبلبلة واضطراب، وتعرض لانهيار الأعصاب، لِأَتْفَه الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾، إشارةٌ إلى أن التفاوت بين المؤمن وغير المؤمن قد تتسع شقته، فيتجاوز درجة الفرق بين الأعمى والبصير، ليصل إلى درجة الفرق بين الحي والميت، نظراً لرسوخ الكفر في قلب الكافر، وتبلُّد حسه الباطن والظاهر، وسبق في سورة الأنعام قولُه تعالى (١٢٢): ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَٰهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ، كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾.

ثم قال تعالى مكتفياً من رسوله الأمين بما قام به من تبليغ وإنذار، في حق من أصرَّ على كفره بالغ الإصرار: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ، وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ، إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾.

وتذكيراً لرسوله الأمين، بما أصاب الرسل السالفين، وما تعرضت له رسالاتهم من طرف المكذبين، رغماً عما رافقها وأيدها من المعجزات التي تثبت أنهم كانوا صادقين، وتعريفاً للناس أجمَعين، بما لحق أعداء الرسالات السابقة من العذاب المُهين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ، وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ، وَبِالزُّبُرِ، وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾، أي: أن عقاب الله لهم كان فوق الوصف، فلْيَحذر اللاحقون أن يعاقبوا بمثل ما عوقب به السابقون.

وبعد ما وصف كتاب الله جملة من أحوال المكذبين الضالين، وما يتعرضون له من شقاء في الدنيا وعذاب يوم الدِّين، استأنف كتاب الله دعوته المثلى، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فوجه الخطاب إلى كل إنسان عنده بصر وبصيرة، ليتفكر ويتدبر في ظواهر الكون الفسيح المحيط به، حتى يتكون عنده شيء من العلم بتلك الظواهر، فيسخرها وينتفع بها، وينطلق منها إلى الإيمان بوجود خالقها ووحدانيته، والاعتراف بقدرة مبدعها وحكمته، والإقرار بوجوب طاعته وعبادته، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ كَذَٰلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُاْ،

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، ففي هذه الآيات الكريمة دعوة من الله للإنسان، أيّاً كان، إلى أن يستعمل حواسه وعقله، في تتبع واستقراء كل ما يراه حوله، عسى أن يستخلص النتائج والعِبَر من ذلك الاستقراء، للارتفاع إلى مصاف العلماء.

وقد أبرز كتاب الله في هذه الآيات بالخصوص ظاهرة اختلاف الألوان، في الحيوان والإنسان، والجماد والنبات:

فبالنسبة لألوان النبات نجد قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾.

وبالنسبة لألوان الجماد نجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

وبالنسبة لألوان الإنسان والحيوان نجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾.

وسبق في سورة «الروم» قوله تعالى (٢١): ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾.

وواضح أن من استعرض في صعيد واحد نماذج من جميع أصناف الإنسان والحيوان، المنتشرة في أطراف العالم، أو استعرض نماذج من جميع أنواع النبات وأصناف الثمرات، التي تزخر بها الطبيعة، ولاحظ ما بينها من تفاوت في الألوان والسِّمات، وتفاوت في نفس اللون الواحد الذي تختلف فيه الدرجات، لرأى العجب العجاب، مما تَحار فيه الألباب، وكذلك

الأمر عندما يستعرض الإنسان أنواع الأحجار والصخور والجبال، وما هي عليه من ألوان تبهر الخيال، وتُمثل الجمال والجلال، فيرى إلى أي حد تتصرف قدرة الله الكبير المتعال.

ولفظ «الجُدَد» في قوله تعالى هنا: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾، جمع «جُدَّة»، وتطلق على الجزء من الشيء الواحد، إذا كان لونُه يخالف لون الباقي، وواضح أن شعاب الجبال وثناياها يختلف لون بعضها عن بعض، فتزداد تنوعاً وتألقاً، يقال: «طريق مجدود» أي طَريق مسلوك، و«الجادة» وسط الطريق.

ولفظ «الغرابيب» في قوله تعالى هنا: ﴿ غَرَابِيبُ سُودٌ ﴾، جمع (غِربيب)، أي: شديد السواد، تشبيهاً بلون الغراب الأسود.

ولفظ ﴿ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾، لا يقتصر على أهل الفقه والأثر، الذين ورثوا «العلم النبوي الشريف» فكانوا أمناء على تبليغه ونشره، بل يشملهم ويشمل كل من نال حظاً من العلم، ـ ولا سيما العلم بأسرار الكون وحقائق الطبيعة ـ فسخره لخير الإنسان، وجعله معراجاً للدخول في حظيرة الإيمان، والتحق بركب الصالحين من «عباد الرحمان»، والمراد «بالخشية» هنا تلك الحالة النفسية والروحية التي تهز كيان المؤمن، فتجعله يُقبِل على الله من كل قلبه، ويتهيب الأقدام على معصية ربه، ولا ينبغي أن يُفهم من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾، أن الخشية لا تكون إلّا من عالم منتصب لنشر العلم، إذ كثير من المؤمنين، غير العلماء المنتصبين، يخشون الله، لأن عندهم حظاً من العلم بالله،

وإنما المراد أن الخشية على وجهها الصحيح الكامل لا يتصف بها إلّا العالم الكامل، قال ابن كثير: «كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر» وقال القشيري: «من فقد العلم بالله فلا خشية له من الله»، وقال الربيع بن أنس: «من لم يخش الله تعالى فليس بعالم».

وقولُه تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾، إشارةً إلى أنه بوصفه «عزيزاً»، سيعامل المُسيء بمقتضى «العزة»، وبوصفه «غفوراً» سيعامل المحسن بمقتضى «المغفرة».

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة المؤمن المثالي، التي ينبغي أن يطمح إليها كل مؤمن. ويُستخلَصُ من الآيات الواردة في هذا الوصف أن المؤمن «المثالي» هو الذي يتخذ من كتاب الله دليله ورفيقه في حياته اليومية، وهو الذي يؤدي حقوق الله وحقوق العباد عن رغبة وطواعية، وهو الذي لا يختلف حاله في السر عن حاله في العلانية، وأضاف كتاب الله إلى هذا الوصف ما يكون عليه المؤمن «المثالي» من تفاؤل ورجاء، في حسنِ العاقبة وحسن الجزاء، فقال تعالى في وصف هذا الصنف من المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ، وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُم سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾، إشارةً إلى أنه تعالى يتولاهم بعفوه ومغفرته، ويثيبهم أجزل ثواب بمحض كرمه وإرادته.

الثمن الثاني من الربع الثالث في
الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ

نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ
فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الرابع والأربعين من المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَالذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَّعِدُ الظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ﴾.

لا يخفى على كل مؤمن أن الذكر الحكيم هو حجر الزاوية في بناء صرح الإسلام، والحصن الحصين الذي يحمي الأمة الإسلامية من كوارث الدهر وتقلبات الأيام، ولذلك يتجه أعداء الإسلام في كل حين إلى الطعن في مبانيه، والتشكيك في معانيه، وهم يرددون في كل عصر ما قاله الكافرون الأولون (٤١ : ٢٦): ﴿ وَقَالَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾، من أجل ذلك نجد كتاب الله يرفع في كل مناسبة عَلَم الحق والحقيقة، مؤكداً أن الذكر الحكيم كتابُ وحيٍ إلَهي كريم، يُحق الحق ويُبطل الباطل، ويكشف ما هو زيف وزور عند الأواخر والأوائل، فما وافقه في القديم والحديث فهو

حق وصدق، وما خالفه فهو باطل وزور، وذلك قوله تعالى في بداية هذا الثمن: ﴿ وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، ويمثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة البقرة (٩٧): ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ، بِإِذْنِ اللَّهِ، مُصَدِقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران (٣): ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآية، وقوله تعالى في سورة المائدة (٤٨): ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾. الآية.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى «الخبير» ببواطن عباده و«البصير» بظواهرهم، لا يمكن أن يُنزِل لهدايتهم إلّا كتاباً كله حق وصدق، ﴿ لَّا يَاتِيهِ اِلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ (٤١: ٤٢)، مَتى اتبعوه كانوا من الفائزين، وصدق الله العظيم إذ قال: (٦٧: ١٤)، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اَللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى التحدث عن المنّة الكبرى التي منَّ الله بها على الإنسانية، وأبقاها نعمة مسترسلة متوارثة في الأمة الإسلامية، ألا وهي نعمة القرآن الكريم، والذكر الحكيم، الذي جعله الله خاتم الكتب المنزلة، ودستور «الأمة الوسط» التي آصطفى دينها وفضّله، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ اَلذِينَ آصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾، و«توريث الكتاب» يقتضي الحرص التام على القيام بحفظ نصوصه ومبانيه، والعمل المتواصل على تطبيق

أحكامه وتفسير معانيه، بما فيه من عقائد وشرائع، ومحاسن وبدائع، والعنايةَ البالغة بكل ما يعين على حفظه وفهمه وتطبيقه، من فروع المعرِفَة القديمة والحديثة، إذ هو منبع التراث الإسلامي الأصيل، الذي يجب أن يتلقاه غضاً طرياً جيل عن جيل، دون تحريف ولا تبديل، والمراد «بالاصطفاء» الاختيار والاجتباء، مشتق من «الصفو» وهو الخلوص من شوائب الكَدَر، وهذا المعنى يتضمنه أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة (١٣٢): ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، وقولُه تعالى في سورة آل عمران (٨٥): ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، وقولُه تعالى في سورة المائدة (٣): ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾.

ثم تولى كتاب الله تصنيف المؤمنين من عباده، حسب سلوكهم الخاص والعام، وحسب الدرجة التي يحتلونها في سُلَّم الاستقامة والانحراف، فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، فالظالم لنفسه من لم يشكر نعمة الله عليه ووضعها في غير موضعها، فغلبته زلاته، وتتابعت سقَطاته، والمقتصد من مال إلى القصد والاعتدال، وحاول أن يعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها، والسابق بالخيرات من حاز قصب السبْقِ في الحسنات والمبرات، ونال رفيع الدرجات، وبذلك يكون «المقتصد» واسطة بين طرفين: طرف «الظالم لنفسه» من جهة، وطرف «السابق بالخيرات» من جهة

أخرى، وسبق في سورة آل عمران قوله تعالى (٦٦): ﴿ مِنْهُم أُمَّةٌ مُّقْتَصِدةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَـسِقُون ﴾. وسبق في سورة لقمان قوله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه (١٩): ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، من «القَصْد» بمعنى التوسط، على أن الشأن في المؤمن، إذا تورط في ظلم نفسه بارتكاب السيآت وتناول الموبقات،أن لا يُصرَّ عليها، وأن يتوب إلى الله منها، اعتماداً على الوعد الحق الذي وعد الله به المذنبين التائبين، إذ قال تعالى (٤٢ : ٢٥): ﴿ وَهُوَ اَلذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، بعد قوله: ﴿ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ تنبيه إلى أنه لا يرتفع إلى درجة السابقين المتقين، إلّا من أعانه الله وشمله برعايته، فكان من الموفَّقين، وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه بكل صراحة الآية الكريمة التي سبقت في سورة النور (٢١): ﴿ وَلَوْ لاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَداً ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ اَلْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾، إشارةً إمَّا إلى نعمة «توريث القرآن العظيم لهذه الأمة، واصطفائها لأداء أسمى مهمة، وإمَّا إلى نعمة السبق بالخيرات، ورفع الدرجات، وإمَّا إلى نعمة التوفيق الحاصل بإذن الله، لمن وفقه الله، ولا مانع من أن تكون إشارةً شاملة لهذه المعاني مجتمعة، إذ لا تناقض بينها، فكلها فضل كبير من الله، وعلى رأسها جميعاً كتابُ الله.

وتعريفاً بحسن العاقبة التي يؤول إليها أمر المصطفَيْن

الأخيار، وما يَنْتَظرهم من فضله الكبير عند الانتقال من هذه الدار إلى تلك الدار، قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ، مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ، وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الذِيَ أَحَلَّنَا دَارَ اَلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾، والبدأ بقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾، قبل قوله، ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾، يؤدي معنى لطيفاً: هو المسارعة والمبادرة إلى تبشيرهم بحسن مصيرهم، فيفاجئون بما هوسار، من الأخبار، إذ ما أعظم الفرق بين دخول الجنة ودخول النار.

وقوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ ﴾، الآية، يشعر بأن الجنة ليست دار تكليف وابتلاء، وإنما هي دار نعيم مقيم وسعادة وهناء، ولذلك تكون أيدي المنعَم عليهم محلاة بالأساور، المرصعة باللآليء والجواهر، ويزيد هذا المعنى توضيحاً قوله تعالى على لسانهم في نفس السياق: ﴿ لَاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾، أي: لا يصيبهم فيها تعب، ولا يلحقهم فيها إعياء، لأنهم معفَوْن في الآخرة من جميع التكاليف والأعباء.

وكما ورد هنا قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ سبق في الآية الثالثة والعشرين من سورة الحج نفس النص ونفس النظير، وسيأتي في سورة الإنسان قوله تعالى (٢١): ﴿ وَحُلُّوَاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾، إشارةً إلى أن حِلْية المنعم عليهم كما تكون من ذهب تكون من فضة، حسب مقاماتهم ودرجاتهم في الجنة، ولله الفضل والمنّة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾، تعبيرٌ عما أخذوا يحسون به من سكينة وطمأنينة، ورضا واستبشار، عند حلولهم بجنات عَدْن، فقد فارقتهم الأحزان كلها، ولا سيما الحزن الأكبر الناشىء عن خوف العاقبة، ومن أجل ذلك ها هم يحمدون الله ويسبحون بحمده، ولفظ ﴿ الحَزَنَ ﴾، الوارد في هذه الآية بفتح الحاء والزاي هو لغة في (الحُزْن) بضم الحاء وسكون الزاي.

وقولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾، تعبيرٌ عما هم عليه من أدب مع الله، وإعلانٌ «للاعتراف بفضله سبحانه، إذ هو الغفور الذي يغفر السيآت ولو كثرت، وهو الشكور الذي يثيب على الحسنات ولو قَلَّت، وفيه كذلك تنبيه إلى أن الدنيا إنما هي دار مرور وعبور، وأن الآخرة هي دار القرار، لأنها دار الإقامة الدائمة والاستقرار. قال فخر الدين الرازي تعليقاً على هذه الآيات الكريمة: «كما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العُقْبى، حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة، وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الأنابة، فقالوا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، وقالوا: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾، اعترافاً بتقصيرهم، وقالوا ﴿ شَكُورٌ ﴾، إقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم، وقالوا: ﴿ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾، أي: لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله».

وعلى العكس من ذلك ما حكاه كتاب الله عن الكَفَرة الفجار، إذا قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، لَا يُقْضَىٰ

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا، رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾، فهم في عذاب دائم لا تخفيف فيه، حتى لا يتعودوا عليه، وهم يتمنون الموت السريع، لكن لا يجابون إليه، ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ، لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ (٤٣ : ٧٧)، وهم يملأون جهنم بصُراخهم، طالبين العودة إلى ديارهم، زاعمين أنهم إذا رجعوا إليها سيعملون عملاً صالحاً، غير العمل الفاسد الذي درجوا عليه طيلة حياتهم، ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ (٦ : ٢٨).

وقولُه تعالى في وصفهم: ﴿ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾، مأخوذ من «الصراخ» الذي هو الصياح بجهد وشدة، ويلاحظ فيمَا حكاه كتابُ الله عنهم في هذا السِّياق: ﴿ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ ﴾، ما هم مطبوعون عليه من الأسلوب الجاف، والكلام النازل إلى حد الأسفاف، لكونه خالياً من كل أدب مع الله، والغريب في الأمر هو إصرارهم على ذلك حتى في الوقت الذي هم فيه أحوج ما يكون إلى فضل الله ورحمته، وهم بين يديه لا يستطيعون الإفلاتَ من قبضته، فكان الرد عليهم أنسب ما يكون لطلبهم، إذ قال تعالى تأنيباً لهم: ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى قد أمهلهم ولم يعجل موتهم، عسى أن يتداركوا ما فاتهم، لكنهم استمروا على ما اعْتَادُوه من التمرد والعصيان، ولم يُفَكِّروا لَحظة واحدة في الانتقال من الكفر إلى الإيمان، لا عن طريق التأمل والتذكر والاعتبار، ولا عن

طريق ما جاءتهم به الرسل من التبشير والإنذار، وحيث أنهم وضعوا نعمة الله في غير موضعها، وأتوا بالمعذرة في غير وقتها، قيل لهم، جَزَاءَ كفرهم وكبرهم: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وتعليقاً على قوله تعالى هنا: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، قال جار الله الزمخشري: «إنه يتناول كل عُمُر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قَصُر، إلاّ أن التوبيخ في العمر المتطاول أعظم» ونقل ابنُ كثير عن ابن عباس: أن العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في هذه الآية هو ستون سنة، وهذا موافق للحديث الذي رواه البخاري في «كتاب الرِّقَاق» من صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أعذر الله عز وجل إلى أمرىء أَخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة) ومعنى «أعذر إليه» أي بلغ به أقصى العذر.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، إشارةً إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء عِلْماً، وأنه لا يخفي عليه شيء، ولعلمه بخبث سرائر المصرِّين على الكفر المستحقين للعذاب، لم يفتح في وجوههم للرحمة أي باب.

ووجَّه كتابُ الله الخطاب من جديد إلى كافة البشر، ولا سيما الجاحدين والمعاندين، مذكراً إياهم بأنه هو الذي خلقهم واستخلفهم في هذا الكوكب الأرضي السابح في الفضاء، وأنه هو الذي خصصه لهم وكيَّفَه بشكل يتناسب مع حياتهم، ويستجيب

لمطالبهم، ملقياً على عواتقهم مسؤوليتهم عن أنفسهم إيماناً أو كفراً، وعن الخلافة الموكولة إليهم فساداً أو إصلاحاً، فقال تعالى: ﴿ هُوَ اَلذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي اِلَارْضِ، فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ، وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمُ إِلَّا مَقْتاً، وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمُۥٓ إِلَّا خَسَاراً ﴾.

ثم قال تعالى متحدياً لمن أشركوا به غيره، مبرزاً سفاهة رأيهم، وسقوط زعمهم: ﴿ قُلَ اَرَآيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ اَلَارْضِ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ، أَمَ ـاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَٰتٍ مِّنْهُ، بَلِ اِن يَعِدُ الظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً اِلَّا غُرُوراً ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

موعدنا في هذه الحصة مع الربع الأخير من الحزب الرابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾، إلى قوله تعالى في سورة يس المكية أيضاً: ﴿ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع خص كتاب الله بالذكر ظاهرة كونية كبرى تحار فيها العقول والأفهام، ألَا وهي ظاهرة تماسك الكائنات وتجاذبها بعضها مع بعض في السماء والأرض، دون أن تكون مرتكزة على أي شيء، أو معلَّقةً بأي شيء، وذلك بالنسبة لجميع الكواكب والشموس والأجرام، السابحة في أفلاكها في الفضاء، بنظام وانتظام، على مر الليالي والأيام، والقرون والأعوام، مما لا يحيط به علماً وعَداً، ولا يقوم به صيانة وحفظاً، إلا خالقُه بديع السماوات والأرض،وذلك ما ينطق بـه قولـه تعالى في إيجـاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا، وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِ ﴾، قال الفراء: «أي ولو

زالتا ما أمسكهما من أحد» فبالقوة الماسكة التي أودعها الله في السماوات والأرض حماهما من التصدع والانهيار، وأنعم على الإنسان بنعمة الطمأنينة والاستقرار، وذلك بالرغم مما يقترفُهُ من الذنوب والأوزار: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾.

وسبق في التنبيه إلى هذه الظاهرة الكبرى قوله تعالى في سورة الرعد (٢): ﴿ اَللَّهُ الذِي رَفَعَ اَلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، وقولُه تعالى في سورة لقمان (١٠): ﴿ خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، قال القُشَيْرِي: «أمسكهما بقدرته، وأتقنهما بحكمته، ورتبهما بمشيئته، وخلق أهلهما على موجب قضيته، فلا شبيه في إبقائهما وإفنائهما يُساهِمه، ولا شريك في وجودهما ونظامهما يقاسمه»، وسبق في سورة الحج قوله تعالى (٦٣): ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى اَلاَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحديث عن أعداء الرسالات ومواقفهم الملتوية، وتقلباتهم المزرية، ومن بينهم أئمة الكفر وقادة الجاهلية، حيث أنهم اعتادوا أن يُقسِموا الأَيمان الغليظة على استعدادهم لقبول الرسالة إذا جاءتهم، ويُعلنوا رغبتهم في أن يكونوا أَهْدَى من بقية الأمم التي سبقتهم، حتى إذا جاءهم الرسول المنتظر نفروا، واستكبروا ومكروا، ولم ينفع فيهم أي إنذار، وأصروا على الكفر أيّما اصْرار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنِ اِحْدَى اَلاُمَمِ ، فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمُ إِلاَّ نُفُوراً، اسْتِكْبَاراً فِي اِلاَرْضِ وَمَكْرَ اَلسَّيِّءِ ﴾، ثم قال تعالى تأكيداً

لغلبة الحق على الباطل، وتذكيراً بعذاب الله الذي حل بأئمة الكفر الأوائل: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾، أي: سنّة الله التي أجراها في الأولين.

وأعاد كتاب الله تقرير حقيقة كونية اجتماعية ثابتة، ألا وهي أنَّ لِلَّه في خلقه سُنَناً منتظمة ومحكمة، ترتبط فيها الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، ارتباطاً وثيقاً، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الأحزاب (٦٢): ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الإسراء (٧٧): ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

و «التبديل» المرفوض هنا بالنسبة لأئمة الكفر هو تبديل العذاب بغيره، فالعذاب قائم بهم، وثابت لهم، و«التحويل» المرفوض بالنسبة لهم هو تَحويلُ العذاب عنهم إلى غيرهم، فالعذاب واقع على من استحقه، لا يتجاوزه إلى غيره أبداً، ونبه القرطبي إلى أن كلمة «سُنَّة» في هذا السياق تضاف أحياناً إلى الله، وأحياناً إلى غيره، لتعلق الأمر بالجانبين، مَثَلُها في ذلك مَثَل كلمة «الأجل»، تضاف إلى الله كما في قوله تعالى (٢٩ : ٥) ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾، وتضاف إلى غيره كما في قوله تعالى (٧ : ٣٤): ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن الجاحدين والمعاندين الذين أصروا على عتوهم واستكبارهم وتمردهم على الله لو فتحوا أعينهم،

والتفتوا إلى ما حولهم، وساروا في الأرض سَيْر الناظر المتفحص، لأخذوا العبرة من مصارع الشعوب والحضارات التي سبقتهم، بالرغم مما كانت عليه من توسع في العمران، وقوة متنوعة الأشكال والألوان، فالبقاء والفناء، والقوة والضعف، سُنن لا تَتَخَلَّف قديماً وحديثاً، وذلك ما يقرره قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾، على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الروم (٩): ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾، ونفس المعنى سبق في سورة التوبة عند قوله تعالى (٦٩): ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَـٰداً ﴾، كما نص عليه كتاب الله أيضاً في سورة غافر مرتين، وذلك قوله تعالى في الآية الواحدة والعشرين: ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ ﴾، وفي الآية الثانية والثمانين: ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ ﴾، وذلك حتى لا يغتر الأقوياء بقوتهم، ما دامَت لا تساندها قوة الله، إذ قوة الله القاهرة، لا يعجزها أي شيء من قوة البشر الظاهرة، كيفما كانت وتنوعت، وطغت وتجبرت.

وللتحفيف من غُلَواء البشر المتبجحين بقوتهم، ومواجهة تحدِّيهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾، ﴿ عَلِيماً ﴾، بمبلغ قوتهم المحدودة، ﴿ قَدِيراً ﴾، على أخذهم وتأديبهم في

ثوان معدودة، وصدق الله العظيم إذقال في كتابه في سورة فصلت (١٥): ﴿ اَوَلَمْ يَرَوْاْ اَنَّ اَللَّهَ اَلذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾، وفي سورة البقرة (١٦٥): ﴿ وَلَوْ تَرَى اَلذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ اَلْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾، قال الرازي: «لو أن قائلاً قال: هَبْ أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً، لَكِنَّا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم، ونستعين بأمور أرضية لها خواص، أو كواكب سماوية لها آثار، لَقال تعالى أي جَواباً على هذا الإشكال: ﴿ وَمَا كَانَ اَللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي اِلْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾.

ثم أبرز كتاب الله مبلغ حلم الحق سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة بالخلق، حيث يمهل العصاة من عباده، فلا يستعجلهم بالمؤاخذة والعقاب، ويتخولهم من حين لآخر بالموعظة الحسنة واللوم والعتاب، عسى أن يَعُودوا إلى جادة الصواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ، وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ، إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، فيؤخر كلَّ فرد إلى حلول أجله، وكلَّ أمة إلى حلول ساعتها، والجنسَ البشريَّ كله إلى حلول الساعة الكبرى، والضمير في: ﴿ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾، يعود على الأرض التي فيها مستقر الناس ومعاشُهم، وقد سبق ذكر «اِلْأَرْضِ»، عطفاً على السماوات قبل هذه الآية، والمراد «بالدابة» هنا كل ما دَبَّ فوق الأرض ودَرَج، بما في ذلك الإنسان والحيوان: ﴿ فَإِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ فَإِنَّ اَللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾، بصيراً بأحوالهم، بصيراً بأعمالهم، بصيراً بما يستحقه كل فرد من ثواب

أو عقـاب، قال القشيري في (لطائف الإشارات) تعليقاً على هذه الآية الكريمة « لو عَجَّل لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلة به، ولم تتسع أيامهم القصيرة له، فأَخَّرَ ذلك ليوم الحشر، فإنه طويل، والله على كل شيء قدير، وبأمور عباده خبير بصير».

والآن وقد انتهينا بفضل الله وتوفيقه من تفسير سورة فاطر المكية نشرع بحول الله وقوته في تفسير سورة (يس) المكية أيضاً، وقد افتتح كتاب الله هذه السورة بحرفين اثنين من حروف الهجاء المقطعة، هما الياء والسين، على غرار ما بدأ به (طه) و(طس) فيما سبق، وعلى غرار (حم) الذي تتكون منه مجموعة سور (الحواميم) الآتية.

وقد سبق من هذا النوع المبدوء بحروف الهجاء المقطعة مجموعة أولى مكونة من سورتين متتابعتين لا غير، هما سورة البقرة (﴿الٓمٓ﴾)، وسورة آل عمران ﴿الٓمٓ﴾ أيضاً، ومجموعة ثانية مكونة من ست سور متتالية: أولها سورة يونس ﴿الٓر﴾، وآخرها سورة (الحِجْر) أيضـاً ﴿الٓر﴾، ومجموعـة ثالثـة تشتمل على سورتين متتابعَتين لا غير، هما سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وسورة (طه): ثم مجموعة رابعة تشتمـل على سبع سـور يَتلو بعضها بعضاً، أولها سورة الشعراء ﴿طسٓمٓ﴾، وآخرها سورة السجدة ﴿الٓمٓ﴾.

ويـلاحظ أن سورة ﴿يسٓ﴾ التي نحن بصـدد تفسيرهـا جاءت على انفراد، إذ لم يأت ما يماثلها من هذا النوع، لا قبلها

ولا بعدها، فقد سبقتها سورة (فاطر)، ولحقتها سورة (الصافّات)، وبدايتهما معاًبحروف التهجي العادية، ونفس الشيء وقع مثله في سورة الأعراف ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، التي لم يسبقها ولم يلحقها مباشرة ما يماثلها من نفس النوع، حيث سبقتها سورة (الأنعام)، ولحقتها سورة (الأنفال) وبدايتهما معاً بالحروف العادية أيضاً، ولا بد من التنبيه هنا إلى أنه لا علاقة بين حرف الياء وحرف السين الواردين في فاتحة هذه السورة ﴿يسٓ ﴾، وبين قوله تعالى في سورة (الصافّات) بعدها في ختام قصة «إلْيَاس عليه السلام: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالَ يَاسِينَ ﴾، الذي جاء على غرار قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، وقد رواها بعض القرّاء، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْيَاسِينَ ﴾، بدلاً من (آل ياسين)، وإلْيَاسِين وإلْيَاس ويَاسِين شيء واحد حسبما نص عليه ابن جنى والنحاس ونقله القرطبي. وإذن ففاتحة هذه السورة يجري عليها ما جرى على فواتح السور الأخرى التي تماثلها في التكوين من حروف الهجاء المقطعة، مما سبق وما سَيأتي.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فهو قَسَم من الله تعالى يؤكد به للشاكين والكافرين أن محمداً رسول من عند الله حق، وأن دين الإسلام هو دين الحق. وإبرازاً لعظمة القرآن الكريم، وتنبيهاً إلى أنه هو المعجزة الكبرى الباقية والدائمة، الدالة على صدق الرسول وصدق الرسالة في جميع العصور، اختار الحق سبحانه وتعالى أن

يُقسم في هذا المقام بالقرآن نفسه، حتى يَقتنع كل من في قَلبه شك أو ريب بأن أحكَمَ كتاب عرفته الإنسانية ـ منذ ميلادها إلى فنائها ـ هو كتاب الله «أحكم الحاكمين»، وكيف لا يكون القرآن «حكيماً» وهو: ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١١: ١)، وكيف لا يكون القرآن «حكيماً»، وهو ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. (٤١: ٤٢).

ومن وجوه حكَمته أن مبانيه محكمة لا يلحقها عيب ولا خلل، ولا ينشأ من الإقبال عل تلاوتها وتدبرها أدنى سأم أو ملل.

ومن وجوه حكَمته أن معانيه محكمة لا يلحقها تناقض ولا بطلان، ولا تفنى عجائبها ولا تبلَى جدتها بمرُور الزمان.

ومن وجوه حكمته التي أقرتها التجارب المستمرة، الكَرَّة بعد الكَرَّة، أن من اتخذه دليله في حياته من الأفراد والجماعات نَال السعادتين، وفاز في الدارين، فهو دليل حيٌّ ناطق بالحكمة الإلٰهية، يَهدي من تتبعه وتبعه في كل حين إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ من لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (١٦: ٦). وسبق في آيات أخرى وصف القرآن بكونه «حكيماً»، مثل قوله تعالى في سورة آل عمران (٥٨): ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾، وقولُه تعالى في سورة يونس (١) وسورة لقمان (٢) معاً، ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾، إشارةٌ إلى رحمة الله بعباده، وأنهم كلما

طَال عليهم الأمد وقست قلوبهم، ونسُوا ما ذكِّروا به، بعث الله إليهم رسولاً من عنده مؤيداً بكتابه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويوقظهم من سِنة الغفلة ونشوة الغرور، عسى أن ينالوا حظهم من السعادة، وينالوا الحسنى وزيادة، وكما قال تعالى هنا: ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّآ أُنْذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾، قال تعالى في سورة السجدة (٣): ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَيٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، وقال تعالى في سورة سبأ (٤٤): ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾.

وكلمة ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الملاصقة لكلمة ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ في قوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، ترمز إلى معنى الإنذار، لمن رفضوا الهدى وأصروا على الضلال، حيث يعاملهم الحق سبحانه وتعالى بمقتضى وصف «عزته» كما ترمز كلمة ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ إلى معنى البشرى، للذين اهتدوا وآمنوا، حيث يعاملهم الحق سبحانه وتعالى بمقتضى وصف «رحمته».

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة المصممين على الكفر، المصرين على الضلال، السابحين في بحار الخيال والوبال، فضرب بحالتهم أشنع وأفجع الأمثال، لأنهم أقاموا بينهم وبين الحق والحقيقة أعظم سور، حتى لا ينفذ إليهم أيُّ شعاع من النور، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُومِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ، فَهُم مُّقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدّاً فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، مما يدل على أن قلوبهم مُقفلة،

وعقولهم معطلة، و«المُقمَح» هو الرافع رأسَه الذي لا يستطيع الإطراق، لأنه قيَّد نفسه بقيود تحول بينه وبين الحركة والانعتاق، ومعنى «أغشيناهم» جعلنا على أبصارهم غشاوة، وإذن فلا سبيل إلى إقناعهم والأخذ بيدهم، ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله أن الدعوة إلى الحق إنما تعمل عملها، وتحدث أثرها ومفعولها، فيمن فتح بصره وبَصيرته للنظر والاعتبار، وكان عنده استعداد خاص للبحث عن الحق والحقيقة، وتقبُّل الهداية وتلقِّي الأنوار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾، أي: راقب الله في سره وإن كان لا يراقبه أحد. ثم قال تعالى مبشراً مَن وُفِّق في هذه الخُطوة، فنال من ربه الرضى والحُظْوَة: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾، و«الأجر الكريم» هنا هو الأجر الكبير الوافر.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾، ردٌّ على منكري البعث في القديم والحديث، وقد كان البعث ولا يزال موضوع شك وجدل، عند من أصيبت عقولهم بالكَلال والخلل، فتصدى كتاب الله لتقريره بشتى الوجوه حتى يستقر في الأذهان، لأنه عقيدة جوهرية في الدين لها أكبر الأثر في سلوى الإنسان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، تعريف بمضمون العدل الإلٰهي المطلق نحو كل إنسان كيفما كان، فالله تعالى لا يُضِيعُ عمل

عامل من ذكر أو أنثى ولا ينساه، بل ما من عمل عمله الإنسان - خيراً كان أو شراً - إلاّ وسجله له أو عليه وأحصاه، لا فرق في ذلك بين عمل الإنسان المباشر وهو على قيد الحياة، وبين الآثار المترتبة على عمله باستمرار بعد الوفاة، سواء كان ذلك الأثر من قبيل الحسنات كعلم نافع علّمه، أو رباط للجهاد أسسه، أو كان ذلك الأثر من قبيل السيآت، مثل حان هيأه لتناول الخمور، أو ناد زخرفه للقمار، أو ماخور أعده للفسق والفجور، فكلما تجددت منفعة الأثر الحسن كُتِب لصاحبه من الحسنات بقدرها، وكلما تضاعفت مضرة الأثر السيء كُتِب لصاحبه من السيآت بقدرها، بناء على الأصل الإسلامي الثابت في السنة النبوية الشريفة «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». «وقال ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده» والمراد (بالإمام) في قوله تعالى هنا: ﴿ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، الكتاب المقتدَى به، الذي هو حجة للإحصاء ويزيد معنى هذه الآية توضيحاً قوله تعالى في سورة الكهف (٤٩): ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَيٰهَا، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾.

وليُثبِّت الحقّ سبحانه وتعالى فؤادَ خاتم رسله حتى يتحمل أذى قومه، ويقابل أعراضهم بالصبر والتجمل، وليتأكد عبد الله

ورسوله من أن المكذبين من قومه ليسوا بِدْعاً من الأقوام، بل لهم سلف طَالح في العناد والتكذيب، وجَّه إليه كتابُ الله الخطاب، داعياً إياه إلى التدبر في قصة «أصحاب القرية» الذين جاءتهم رسل من عند الله فكذبوهم، ورفضوا دعوتهم، وقابلوهم بالسوء من القول، وهددوهم بالرجم والتعذيب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ، فَقَالُوٓاْ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُواْ ﴾، أي: قال أصحاب القرية المكذبون، ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا ﴾، أي: قال رسل الله رداً على أصحاب القرية: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ، قَالُوٓاْ ﴾، أي: قال أصحاب القرية المعاندون، ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾، أي: شددنا أزرهما، وقوينا رسالتهما برسول ثالث، وهذه هي القصة الوحيدة التي يتحدث فيها كتاب الله عن تكليف ثلاثة من الرسل في آن واحد، ومكان واحد، بتبليغ رسالة واحدة، وذلك بالإضافة إلى ما هو متعارف عند الجميع، من اشتراك موسى وهارون في تبليغ رسالة واحدة، مما تناولته عدة آيات في عدة سور، من بينها قوله تعالى في سورة «المؤمنون» (٤٥): ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ﴾.

ومعنى قول أصحاب القرية في خطابهم للرسل الثلاثة:

﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾، أي: تشاءمنا منكم وبكم، تعبيراً عن كراهيتهم للرسل، ونفورهم من الرسالة، مَثَلهُم في ذلك مَثَل قوم فرعون، الذين وصفهم كتاب الله بنفس الشيء، حيث قال تعالى في شأنهم ﴾ (٧: ١٣١): ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾، ومثل قوم صالح، الذين واجهوا نبيهم وأخاهم صالحاً بالسوء، فقالوا: ﴿ اطَّيَّرنا بك وبمن معك ﴾ (٢٧: ٤٧)، لكن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله إلى أصحاب القرية ردوا عليهم رداً مُفحماً: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾، أي أن الشؤم الذي تحسون به إنما هو نتيجة لفسادعقيدتكم، وأثر من آثار كفركم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُمْ ﴾، أي: أَمِن أجل أننا ذكرناكم بالله، ودعوناكم إلى توحيده وعبادته، تطيرتم بنا، وتشاءمتم برسالتنا، وهددتمونا بالرجم والتعذيب، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ مِن «الاسراف» بمعنى مجاوزة الحد، أي: أنتم قوم مغرقون في الضلال والعصيان، مُمعِنون في الغي والعدوان.

ولعل سائلاً يدفعه حب الاستطاع إلى أن يتساءل ما هي القرية التي جرت فيها هذه القصة؟ والجواب أن بعض قدماء المفسرين، قد اهتموا بهذا الأمر الجانبي، وبناء على ما تلقفوه من بعض الأخبار صرحوا بأن هذه القرية هي «أنطاكية»، لكن ابن كثير، المفسر والمحدث والمؤرخ، تصدَّى في تفسيره لإبطال هذا الرأي من عدة وجوه، مستنداً إلى حجج تاريخية وواقعية مقنعة، وبذلك بقي اسم هذه القرية مبهماً، على ما هو عليه في كتاب الله دون تعيين.

وواضح أن هذه القرية ليست هي القرية الأولى والوحيدة التي وقف أصحابها في وجه الرسل ورسالاتهم، فهذا النوع من المواقف تجدَّدَ كلما تجددت الرسالات عَبْر العصور والأجيال، والعِبرَة في القصة بالمواقف التي سجلتها، لا بالمكان الذي وقعت فيه، إذ ليست للمكان في هذا المقام أدنى خصوصية مميّزة.

وانتقل كتاب الله إلى حكاية الشق الثاني من قصة أصحاب القرية، وهو ما يتعلق بمواطن آمن بالله وبرسله، فانطلق يدعو قومه إلى اتِّباع الرسل واعتناق دينهم، ويعلن أمام الملأ سفاهة ما عليه قومه من الشرك والضلال، فلم يلبثوا أن ضاقوا به وبدعوته ذَرْعا، وقضوا عليه وعليها قضاءً مبرماً، لكن الحق سبحانه وتعالى أكرمه بدخول الجنة جزاء إيمانه وصَدْعه بالحق، وما كاد يحُل بدار النعيم حتى أخذ يتمنى على الله أن يعرِف قومُه المنزلة الرفيعة التي أنزله فيها، عسى أن يؤمنوا بمثل ما آمن، ويفوزوا بمثل ما فاز به من النعيم المقيم، وذلك حرصاً منه على نجاتهم وسعادتهم، وقد حقق الله أمنيته عندما سجل قصته في كتابه العزيز من بدايتها إلى نهايتها، ليعرفها السلف والخلف، ويلاحظ في الشق الثاني من هذه القصة ذكر لفظ «ٱلْمَدِينَةِ»، بدلاً من لفظ «ٱلْقَرْيَةِ» الوارد في الشق الأول، وليس في هذا الاستعمال أي إشكال، لأن لفظ «ٱلْقَرْيَةِ» في لسان العرب يستعمل في غير ما موضع مرادفاً للفظ «ٱلْمَدِينَةِ»، وإلى قصة هذا المؤمن السعيد يشير قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنَ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ، قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ، ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ،

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونِ، إِنِّيَ إِذاً لَّفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ،قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا
صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾
قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَامْتَنْزُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الحديث عن مصرع أصحاب القرية، الذين حكى قصتهم في الربع الماضي، ليبين ما تعرضوا له من سوء العاقبة، جزاء شركهم بالله، واعتدائهم على كرامة رسله، وحيث أن الحق سبحانه وتعالى يفعل في ملكه ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، ولا يَظلم أحداً، فإنه يختار لكل قوم العقاب اللائق بهم، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٢٩ : ٤٠): ﴿ فَمِنْهُم مَّنَ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُم مَّنَ اَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الاَرْضَ، وَمِنْهُم مَّنَ اَغْرَقْنَا ﴾، وقد اختار لعقاب أصحاب القرية الظالِم أهلُها من أنواع العقاب التي أشارت إليها هذه الآية النوع الثاني منها دون غيره، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، أي: قوم «مؤمن القرية» الذي انفرد

عنهم جميعاً بإعلان إيمانه، والثبات عليه، والموت في سبيله، ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ، وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ، إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً ﴾، أي: إن كانت الواقعة أو العقوبة إلّا صيحة واحدة، ﴿ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾، إشارةً إلى سرعة هلاكهم، وخمود حركتهم، كما تخمُد النار فتصير رماداً.

ونظراً لما اتصف به الحق سبحانه وتعالى من رحمة بعباده، وحِرْصٍ على هدايتهم والأخذ بيدهم، إنجازاً لوعده بتمكينهم من وسائل الهداية حتى لا يبقوا هَمَلاً، ولا يُتركوا سُدًى، مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة (٣٨): ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، وقوله تعالى في سورة طه (١٢٣): ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾، فإن كتاب الله أراد أن يُبرز للعالم أجمع مبلغ التعجب والاستغراب والأسى، الذي يوحِي به موقفُ الضالين المعاندين، المعرِضين عن هداية الله، والمكذِّبين برسله ورسالاته، رغماً عن كونها إنما جاءت لإنقاذهم، وهي منهم «على طَرَف الثُّمام»، مبيّناً لهم أنهم مهما طال عليهم الأمد، فلن يفلتوا من قبضة الله، وأنهم سيساقون جميعاً إلى حضرته، ويقفُون بين يدي جلاله وعظمته، ويا ويلهم من العقاب والعذاب، عند حلول يوم الحساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بإيجاز وإعجاز: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ، مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ، أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ، وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾.

وحيث أن كثيراً من الناس تسيطر عليهم الغَفلة والنسيان، وتستغرق شهواتُهم وملذاتهم كل أوقاتهم، وإن طال عليهم العمر وامتد بهم الزمان، فلا يلتفتون إلى ما حولهم من آيات الله، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنَ ءايَةٍ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾، (١٢: ١٠٥)، ها هو كتاب الله يقرع أسماعهم من جديد، ويثير انتباههم إلى جملة من آياته الكونية الكبرى، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم، ويلتفتوا إلى آياته في الأفاق وفي أنفسهم، التفاتة تدبر واعتبار، تنير منهم البصائر والأبصار:

أما الآية الكونية الأولى في هذا السياق فهي الأرض التي جعلها الله للإنسان موطناً ومَرْتَعاً، ومستقراً ومستودعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الاَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَاكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ اَلْعُيُونِ لِيَاكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾، أي: ليأكلوا مما خلق الله من الثمر، ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

ومن غريب أمر الإنسان أنه لا يقدّر نعمة الله عليه بالأرض والماء، والنبات والغِذاء، إلاّ عند ما ينتشر القحط ويعُمُّ الجدب، فيصبح شَبَح الجوع والعطش أمامه ماثلاً، ويصبح ميزان عيشه مختلاً وشائلاً، ويحس بقلق بالغ لا مزيد عليه، ويا ليته يرجع ألى الله ويدرك أنه لا ملجأ منه إلاّ إليه.

وقولُه تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ اَلذِي خَلَقَ اَلاَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الاَرْضُ وَمِنَ اَنفُسِهِمْ ﴾، يتضمن الإشارة إلى معنيين جليلين: المعنى الأول ما أبدعته القدرة الإلّهية في النبات والإنسان،

ومثلهما بقية الحيوان، من أجناس وأنواع وألوان، وما هي عليه من أشكال وصور وأحجام، لا سبيل إلى حصرها ووصفها في هذا المقام، والمعنى الثاني ما قام عليه الكون من الثنائية والازدواج في التكوين من ذَكَر وأنثى وسالِب وموجِب، وتعميم ذلك في النبات والحيوان والإنسان، مما يدل على وحدة التكوين ووحدة المكوِّن سبحانه وتعالى، وسيأتي بهذا المعنى العام،الشامل للثنائية والازدواج،قولُه تعالى في سورة الذاريات (٤٩): ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

ولاتساع البحث ودقته في هذا المجال، وفَتْح باب الاكتشاف فيه أمام الأجيال، قال تعالى في نفس الموضوع: ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: مما لا يعلمه المخاطَبون عند نزول القرآن، لكن يمكن أن يكتشفه من يأتي من بعدهم، مَتَى رُفع عنه الحجاب في مستقبل الزمان، وذلك على غرار قوله تعالى في آية سابقة (١٦: ٨): ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وأما الآية الكونية الثانية في نفس السياق فهي آية السماء، وما سخره الله فيها من شمس وقمر، وليل ونهار، لمصلحة الإنسان ومنفعته، وانتظام عيشه وراحته، وتحقيق أكبر حظ من هنائه وسعادته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾، فبتنظيم الحياة اليومية للإنسان وتقسيمها إلى وقت

ملائم لليقظة والنشاط والعمل: هو النهار، ووقت ملائم للاستجمام والراحة والنوم هو الليل، ويتعاقب الليل والنهار على الأرض ومن فيها وما فيها، بالحرارة والبرودة الملطفة لها، وبضياء الشمس ونور القمر، استطاع الإنسان أن يتحمل تكاليف العيش فوق سطح الأرض، وأن يكيف حياته فيها التَّكْييف المناسب، وعبّر كتاب الله عن إدْبار النهار بضيائه، وإقبال الليل بظلامه، ببلاغته المعهودة فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾، أي: خارجون من ضياء النهار، وداخلون في ظلام الليل في الحين.

وقولُه تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، أي: تسير على ترتيب معلوم، ونظام مرسوم، لا تفاوت فيه ولا اختلاف، وهذا النظام يتجلى في دورانها حول نفسها أولاً، وفي جريانها حول مَدَارها ثانياً، وذلك دون توقف وفي اتجاه واحد، في الفضاء الكوني الواسع، وبفعل دَوَران الأرض حَول نفسها من الغرب إلى الشرق تتراءى لنا الشمس أيضاً وهي تجري من الشرق إلى الغرب، وهذا المعنى الكوني الرائع يؤكده قوله تعالى في آية أخرى (١٤: ٣٣)، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾، أي: لا يفتران ولا يقفان، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾، أما «مُسْتَقَرُّ» ، الشمس الذي نطقت به الآية الكريمة فيصدق بمستقرها في المكان، وهو مَدَارُها الذي لا تتجاوزه في الفضاء، ويصدق بمستقرها في الزمان، وهو ما تتعرض له في الأخير، من انقلاب وتغيير، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْاَرْضُ غَيْرَ الْاَرْضِ

وَالسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ (١٤: ٤٨)، طبقاً لقوله تعالى (٣١: ٢٩)، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، وقوله تعالى (٨١: ١)، ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾، الآية.

وقولُه تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ ﴾، أي: وآية لهم القمر، معطوف على ما قبله، فيه إشارةٌ إلى أن الله تعالى جعل سير القمر منازل متوالية، بحيث ينزل كل ليلة منها بمنزل، وعدد منازله ثمانية وعشرون منزلاً، وسبق في سورة يونس قولُه تعالى مبيناً حكمته البالغة في ذلك (٥)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً، وَٱلْقَمَرَ نُوراً، وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾.

وحيث أن القمر يشرعُ نورُه في التناقص والتراجع بعد الليلة الرابعَة عشرة، ولا يأتي آخر الشهر حتى يكون قد بلغ غاية النقص، فقد شبهه كتاب الله في هذه الحالة بالعنقود اليابس من الرُّطَب إذا تَقَوَّسَ وانحنى وأصبح عتيقاً، وذلك قولـه تعالى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾، والعُرْجُون من «الانعراج» وهو الانعطاف.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن النواميس الثابتة والسنن المنتظمة، التي يسير بمقتضاها كل جزء من أجزاء الكون، دون خلل ولا اضطراب، حتى لا يعترض أحدُها طريق الآخر، فقال تعالى مُمَثِّلاً بالشمس والقمر والليل والنهار: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ، وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾، وسيأتي في سورة المُلْك ما يؤكد نفس المعنى ويزيده

إشراقاً وتألقاً، لكن من زاوية أخرى، حيث قال تعالى (٣: ٤): ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾، أي: من شقوق وثغرات، ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبِ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾، ينصبُّ معناه على الآية الكونية الأولى والآية الكونية الثانية، فهو تعقيب على ما سبقه، وتمهيد لما لحقه، إذ المراد به تنبيه كل غافل أو متغافل، وكل جاهل أو متجاهل، إلى أن هذا التنظيم الدقيق للكـون، الملائم في كلياته وجزئياته لحياة الإنسان، والمنسجمَ مع فطرته وطبيعته، والضامنَ لمنفعته ومصلحته، إنمـا هو من صنـع الله وحسن تدبيره، ولولا فضل الله على الإنسان ورحمته به لما تمكن من الانتفاع به، ولعجز عن تسخيره.

وأما الآية الكونية الثالثة التي وردت في نهاية هذا السياق فهي آية البحر وتسخير مياهه لجري السفن وحمل الإنسان، ونقل البضائع والأمتعة على وجه التبادل والتجارة من مكان إلى مكان، بحيث أصبح البحر هو الطريق الممهَّد والمطزوق بين القارات، والفُلْك التي تمخُر فيه هي أداة الاتصال المباشـر بين مختلف الأجناس والسلالات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّـتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيـخَ لَهُمْ ﴾، أي: لا مغيث يغيثهم، ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّـا وَمَتَـٰعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾، وسبق في سورة النحل قوله تعالى (١٤): ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ

فِيهِ، وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، وسيأتي في سورة الجاثية، قوله تعالى (١٢): ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وكلمة «الذرية» هنا تصدق على الأبناء والآبـاء، لأن من الآباء تُذْرَأُ الأبناء، و«الْفُلْكُ المشحـونُ»، حمله بعض المفسرين على «سفينة نوح» التي كانت أول سفينة من نوعها، وكانت سفينة النجاة لنوح ومن حمل معه من ذرية آدم ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ (١٧ : ٣)، وطبقاً لهذا التفسير يكون وَصفُ «الْفُلْـكِ»، بالمشحون، لأن نوحاً «شحنَ» فيه من كل زوجين اثنين، إبقاءً على جملة من الكائنات الحية، حتى لا تتعرض للإبادة والفناء بفعل الطوفان، ولفظ «الْفُلْـكِ»، يستعمل في كتاب الله أحياناً بصفته مفرداً كما جاء في هذه الآية، وأحياناً بصفته جمعاً كما جاء في قوله تعالى (١٦ : ١٤)، ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾، الآية.

والمراد بقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ما أَلْهَمَهُ الله للبشر من بناء السفن الصغرى والكبرى لركوبهم لُجج البحر، انطلاقاً من سفينة نوح التي كانت بالنسبة للأوائل سفينة نموذجية، وفي هذه الآية تنبؤ صريح بما سيهتدي إليه الإنسان من بناء البواخر والبوارج التي تمخُر البحار، وإيذان من الله بما سيظهر من طائرات الجو وسفن الفضاء، التي يمتطيها الإنسان في الليل والنهار، فهي وما شابهها تندرج كلها تحت قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾، والتعبير فيه بصيغة الماضي: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم ﴾، حقٌّ وصدق، لأن الله تعالى يعلم ما كان وما سيكون.

وبعد أن استعرض كتاب الله جملة من آيات الله في الآفاق والأنفس، عسى أن يهتدي بحكمتها الضالون، ويستيقظ بعظمتها الغافلون، عاد كتاب الله إلى وصف حالة هذا النوع من البشر، الذي استولى عليه الشك والخَوَر، والقلق والضجر، فلم يعد يُصْغِي بسمعه إلى أي مقال، وإذا عُرض عليه الحق قابله بالإعراض واشتط في الجدال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، أي: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ﴿ وَمَا تَاتِيهِم مِّنَ ـايَةٍ مِّنَ ـايَـٰتِ رَبِّهِمُ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾، سواء كانت الآية من الآيات المبثوثة في الكون العظيم، أو من الآيات الواردة في الذكر الحكيم، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾، أي: على الفقراء والمحتاجين ﴿ قَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ، إِنَ اَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ناسين أن المال الذي بأيديهم هو مال الله، وإنما استخلفهم فيه، وفيه حق معلوم، للسائل والمحروم.

ثم بين كتاب الله ما هم عليه من شك في البعث، واستهزاء بالوعد والوعيد، وأكد الحق سبحانه وتعالى لمن في قلبه أدنى شك أن كل آت قريب وليس ببعيد، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا اَلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ، مَا يَنظُرُونَ ﴾، أي: ما ينتظرون، ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَاخُذُهُمْ وَهُمْ يَخَصِّمُونَ ﴾، أي: يختصمون، ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وكشَف كتابُ الله الستار عن هول المفاجأة التي تبهرهم،

وتهز كيانهم، فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي اِلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ اَلاَجْدَاثِ ﴾، أي: من القبور، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ، قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾، وردّاً على سؤالهم يقال لهم: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ اَلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ اَلْمُرْسَلُونَ ﴾.

وللتذكير بقدرة الله القاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿ إِنْ كَانَتِ اِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، كما قال تعالى في أوائل هذا الربع: ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، وللتذكير بعدل الله المطلق بالنسبة للعاصي والمطيع والمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وخُتم هذا الربع بالحديث عن أصحاب الجنة المُكرمين، وما هم عليه وأزواجهم من نعيم مقيم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ اَلْجَنَّةِ اِلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ هُـمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾، أي: مسرورون مغتبطون بتخطي الأهوال، وتجاوز الأخطار، وجواز الصراط، وضيافة الله لهم في الجنة، ﴿ فِي ظِلَـٰلٍ، عَلَى اَلاَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ، لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ، وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾، أي: ما يتمنّونه ويطلبونه يأتيهم، ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، أي: يدخل عليهم الملائكة بالتحية من رب العالمين، بينما المجرمون يذوقون ألوان العذاب الأليم، ﴿ وَامْتَـٰزُواْ اَلْيَوْمَ أَيُّهَا اَلْمُجْرِمُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الَاعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
اَمْ مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾
وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَ۬ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا الَاوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾
فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِے كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾



الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة يسٓ المكية: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة الصافات المكية أيضاً: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

وجه كتاب الله في بداية هذا الربع خطاب تقريع وتوبيخ إلى الجنس البشري كله، مذكراً بني آدم بقصة إبليس الذي وسوس إلى أبيهم آدم، معلناً ما بينه وبينهم من العداوة الراسخة والصراع الدائم إلى يوم الدين، نظراً لما تحداهم به إبليس اللعين، من إغوائهم أجمعين، إلّا عباد الله المُخلَصين: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (٢٠ : ١٢٣).

وتساءل كتاب الله كيف يقع بنو آدم في فخ الشيطان، رغماً عن الوصايا المتتالية التي أوصاهم الله بها في جميع رسالاته وكتبه، للحذر من وساوس الشيطان، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾، أي: لا تطيعوه ولا

تمتثلوا أمره، ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، أي: ثابت العداوة لكم سراً وعلناً ظاهراً وباطناً، ﴿ وَأَنُ اَعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، فعبادة الله وحده هي الطريق اللاّحب، والنهج الصائب، ﴿ وَلَقَدَ اَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ﴾، أي: أن الشيطان قد أغوى وأضل منكم خلقاً كثيراً، فكانت عاقبة الضالين منكم هي العذاب الأليم، لانحرافهم عن الصراط المستقيم، ﴿ اَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وها هو كتاب الله يصف سوء عاقبتهم، حتى أن «أَيْدِيهِمْ»، التي كانوا يبطشون بها أصبحت هي الشاهدة عليهم بما اجترحوه من الآثام في خطواتهم، بدلاً من أفواههم وألسنتهم، التي لم تعد لها أدنى قدرة على الجواب، لأن أصحابها أُبلسوا عند الحساب، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، اَصْلَوْهَا اَلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾، وكإرهاص سابق في الدنيا من هذا القَبِيل، ما هو معروف الآن من أن بصَمات الأصابع وفك الأسنان، تكشف أثناء التحقيق في الجرائم عن شخصية الإنسان. قال القرطبي: (فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾، فجعل ما كان من اليد كلاماً، وما كان من الرّجل شهادة؟ قيل: إن اليد مُباشِرة لعمله والرِّجْلُ حاضرة، وقولُ الحاضر على غيره «شهادة»، وقول الفاعل على نفسه «إقرار» بما قال أو فعل، فلذلك عبَّر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل «بالشهادة») وهذه لطيفة من لطائف التفسير ونفائسه.

ومضى كتاب الله ينذر الذين ضلّوا سواء السبيل، بالطمس والمسخ في الآخرة، جزاء ما ارتضوه لأنفسهم في الدنيا من انطماس البصائر والأبصار، وتعطيل العقول وفساد الأفكار، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ، فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ، وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَـٰعُواْ مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾، ومن كان عديم الإرادة مشلول الحركة كيف يخترق الصفوف وسط الزحام، ولا سيما عندما تلتف الساق بالساق، ومن كان مطموس العين فاقد البصر كيف يجتاز الصراط الذي هو «أرقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف». بل كيف ينجح مثله في مثل هذا السباق؟ ألم يقل الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (١٧ : ٧٢).

ومن الإنذار بالمسخ الذي هو تبديل خلقة الإنسان، وقلبها إلى جماد أو حيوان، مما يُعدُّ عقاباً إلٓهيّاً صارماً، انتقل كتاب الله إلى وصف ما يتعرض له المعمَّرون الذين طال عليهم العمر في أغلب الأحيان، سواء كانوا أبراراً أو فجاراً، مؤمنين أو كفاراً، فقال تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾، أي: رددناه بعد القوة إلى الضعف، وبعد النشاط إلى العجز، وبعد الشباب إلى الهرم، وهذه الحالة يصدق عليها معنى النكس والانتكاس، يقال: نكسْتُ الشيء فانتكس إذا قلبتَه على رأسه، ووصف كتاب الله في سورتين سابقتين هذه الحالة «بأرذل العمر»، لما يعتورها من التراجع والتناقص في القوى والملكات، على العكس من «أفضل

العمر»، الذي تنمو فيه القوى والملكات، وتزداد يوماً بعد يوم، فقال تعالى في سورة النحل (٧٠): ﴿ وَمِنكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾، وقال تعالى في سورة الحج (٥): ﴿ وَمِنكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾.

وتعرض كتاب الله لوصف هذه الحالة نفسها بالتفصيل في سورة الروم السابقة أيضاً، فقال تعالى (٥٤): ﴿ اَللَّهُ الذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، وَهُوَ اَلْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾، وفي صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ ويقول: «أعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر»، وقد استجاب الله دعاء رسوله فانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره لا يزيد عن ثلاثة وستين عاماً. ثم قال تعالى تعقيباً على ذلك: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، إشارةً إلى أن الله الذي خلق الإنسان وقضى بتنكيسه في الخلق، بعد مروره بعدة أطوار، قادر على أن يفعل به ما يشاء من موت وبعث وحشر وحساب، ينتهي بالثواب أو العقاب.

وكأنَّ الحق سبحانه وتعالى إنما منح الإنسان في «أفضل العمر» المزيدَ من القوى والملكات، على العكس من «أرذل العمر»، ليجعله في محَكِّ الاختبار، ويُبرز كل ما في دخيلة نفسه من الطوايا والأسرار، حتى إذا ما حدد اختياره بِمَحض إرادته إصلاحاً أو إفساداً، وقرر مصيره بنفسه إشقاءً أو إسْعاداً، وأخذت قواه وملكاته في التراجع والنقصان، وأحس بالتخلف عن الحركة،

والعجز عن مسايرة الركبان، تولى الحق سبحانه وتعالى إعداده شيئاً فشيئاً لاستقبال الدار الآخرة، التي هي وحدها دار الخلود والإقامة، وهنالك ينال الإنسان ما هو أهل له عند ربه من المهانة أو الكرامة، ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (٣٥: ٣٧).

وليُبطلَ كتابُ الله إحدى شُبَه المشركين الزائفة التي كان يروّجها أعداء الرسول وخصوم الرسالة في فجر الإسلام، وهي ادِّعاء كون الرسول شاعراً، وكون الكتاب الذي جاء به من عند الله إنما هو من صنف الشعر المتعارف عند العرب، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ، وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، لأن رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، التي أرسله الله بها إلى الناس كافة، أجلُّ وأعلى من أن تنزل إلى مستوى الشعر والشعراء أجمعين، فهي مخالفة للشعر شكلاً وموضوعاً، أصولاً وفروعاً، ومنذ ذلك العصر تبخرت هذه الشبهة ولم يعد لها أي رواج. ومما نبّه إليه القاضي أبو بكر (ابن العربي) في هذا المقام «أن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، لا يتضمن عيب الشعر، كما أن قوله تعالى (٢٩ : ٤٨): ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، لا يقتضي عيب الكتابة».

ثم نطق كتاب الله بالقول الفصْل في شأن القرآن وشأن الرسالة، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ، لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، أي: من كان حَيّ القلب حَيّ الضمير، أو كل حَيّ على وجه الأرض، ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لتقوم

الحجة عليهم، ومن أنذر فقد أعذر، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٧: ١٥).

وانتقل كتاب الله إلى التذكير بنعمه على الخلق، خصوصاً نعمه الظاهرة التي يتقلب فيها الإنسان كل يوم، ومن بينها (الأنعام) التي سخرها الحق سبحانه وتعالى لمصلحة الإنسان، ومنافعها المتعددة الأصناف والألوان، أكلاً وشرباً ولباساً وتأثيثاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، أي: مما أبدعناه دون شريك ولا معين، ﴿أَنْعَـٰماً فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾، أي: يتصرفون فيها، دون منازع ولا مانع، ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾، أي: سخرناها لخدمتهم، ووضعناها تحت تصرفهم، قال جار الله الزمخشري: «ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ اَلذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (٤٣: ١٣)، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي: مركوبهم، كالإبل التي هي سفن الصحراء، ﴿وَمِنْهَا يَاكُلُونَ﴾، أي: ما يختارون لحمه للتغذية والأكل الشهي، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾، أي: لهم فيها عِلاوة على ما سبق منافع أخرى من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود والشحوم، و﴿مَشَارِبُ﴾، إشارةً إلى ما يتمتعون به من ألبانها السائغة للشرب، على غرار ما سبق في قوله تعالى في سورة النحل (٦٦): ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي اِلاَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ، لَبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾، وقوله تعالى في نفس السورة (٨٠): ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ اِلاَنْعَـٰمِ بُيُوتاً

تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنَ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾، أي: أفلا يتذكرون هذه النعم الجليلة التي لا يطيب لهم العيشُ بِدُونها، ويشكرون الله عليها، بالعبادة الخالصة، والطاعة الدائمة، والتوحيد الكامل الذي لا تخالطه ذَرة من الشرك، لا من الشرك الجليّ ولا من الشرك الخفيّ.

ومن مَقام التذكير بالنعم الإلّهية التي أسبغها الحق سبحانه وتعالى على خلقه، عسى أن يعودوا إلى الله ويقْدُرُوه حق قَدْرِه يعود كتاب الله إلى وصف ما عليه المشركون الضالون، ومن سلك مسلكهم، من الجهل بعظمة الله، والشرك بربوبيته، وعدم الاعتراف بوحدانيته، وعبادة الأصنام والأوثان بدلاً من عبادته، والتصدي لمقاومة كل من يطعن في معبوداتهم ويكشف عن حقيقتها، أملاً في تلقي نصرها ومعونتها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ، لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ، وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾.

وللتخفيف من هموم الرسول ومشاغله، من أجل ما يلقاه عليه الصلاة والسلام من أذى المشركين وتعنتهم كل مطلع شمس، خاطبه ربُّه قائلاً: ﴿ فَلاَ يُحْزِنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وكما ذكَّر كتابُ الله الإنسان بنعمة «الانعام» التي لا يطيب له العيش بدونها ولا المقام، ها هو كتاب الله يذكِّرُ الإنسان

بنفسه التي بين جنبيه، ويتساءل بمنتهى الاستغراب كيف ينسى الإنسان أن الله هو الذي أوجده من العدم، وأنه خلقه من ماء مَهِين، ثم صوره في أحسن صورة، وجعله في أحسن تقويم، وزوده بالعقل والنطق واللسان، إلى أن أصبح فصيحاً بليغاً يحسن الجدل والقول والبيان، وبَدَلاً من أن يعترف بفضل الله عليه، ها هو يجادل في الحق ويكابر، ولا يتورع عن المجاهرة بأسخف سؤال يوجهه المخلوق إلى الخالق، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ اَلإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، أي: يتولى مخاصمة مبدعه وخالقه، ويتشدق بتحدّي ممده ورازقه، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ: مَنْ يُّحْيِي اِلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾، لكن لم يلبث أن جاءه الجواب المُفْحِم القاطع: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا اَلذِيَ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾، قال القشيري: «وما دامت الإعادة في معنى الإبداء، فأي إشكال يبقى في جواز الإعادة في الانتهاء».

وأضاف كتاب الله إلى هذا الجواب، الذي لا يدخله الشك والارتياب، ظاهرة باهرة أخرى هي ظاهرة انقداح النار من الشجر الأخضر، مع مَا بين الماء والنار من تضاد في المَخْبَر والمَظْهَر، وهي ظاهرة معترف بها في القديم والحديث، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ اِلذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَلشَّجَرِ اِلاَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

وليقضيَ كتاب الله على جحود المتنطعين وعنادهم، وعلى شك المتحذلقين واستبعادهم، ألقى عليهم الحق سبحانه وتعالى

سؤالاً ضخماً لا يمكن أن يكون جوابه إلاّ بالتسليم، من كل ذي عقل سليم، فقال تعالى: ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾، الذي عم خلقه كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وختمت سورة (يسۤ) بخاتمة كلها تسبيح وتقديس، واعتراف بحكمة الله الباهرة، وتمجيدٌ لقدرته القاهرة، وتذكير بسطوته الباطنة والظاهرة، ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

والآن وقد انتهينا بحمد الله من تفسير سورة (يسۤ) المكية ننتقل بعون الله إلى تفسير (سورة الصافات المكية) أيضاً، قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. وَالصَّافَّاتِ صَفّاً، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾.

هذا قَسَم من الله تعالى بملائكته، ﴿ الصَّافَّاتِ ﴾ بالملأ الأعلى في عبادته، ﴿ وَالزَّاجِرَاتِ ﴾، عبادَه عن معصيته، و﴿ التَّالِيَاتِ ﴾، كلامَه المنزل على رسله لإرشاد الإنسان وهدايته، وهذه الصفة الأخيرة للملائكة جاءت هنا على غرار قوله تعالى فيما سيأتي في سورة المُرْسَلات(٥ - ٦): ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً، عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾، وقال جار الله الزمخشري: «يجوز أن يُقسِم الله بنفوس العلماء العمال، ﴿ الصَّافَّاتِ ﴾، أقدامَها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ ﴾، بالمواعظ والنَّصائح، ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ﴾، آيات الله، والدارسات

شرائعه، أو بنفوس قُوّاد الغزاة في سبيل الله، التي «تَصُفُّ» الصفوف، و«تزجُر» الخيل للجهاد، و«تتلو» الذكر مع ذلك، لا تشغلها عنه الشواغل، كما يُحكَى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

وجواب القَسَم، المُقسَمُ عليه «بالصافات والزاجرات والتاليات» هو قوله تعالى في نفس السّياق: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَـٰرِقِ ﴾، وما أحسن ما علق به الإمام القشيري على هذه الآية حيث قال: (ومعنى كونه «واحداً» تفرُّده في حقه عن القسمة، وتقدُّسه في وجوده عن الشبيه، وتنزُّهه في مُلكه عن الشريك، «واحدٌ» في جلاله، «واحدٌ» في جماله، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في كبريائه، بنعت عَلائه، ووصْفِ سنائه) وجُمعت كلمة «الْمَشَارِقِ»، إما باعتبار كل ما يسبح في الفضاء من شموس وأقمار، وإما باعتبار الشروق اليومي للشمس وحدها طيلة كل نهار.

وبمناسبة ذكر السماوات ومشارقها في فاتحة هذه السورة لفت كتاب الله الأنظار إلى السماء الدنيا وزينتها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا اَلسَّمَآءَ اَلدُّنْيَا بِزِينَةٍ اِلْكَوَاكِبِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧ : ٥): ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا اَلسَّمَآءَ اَلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾، ثم عرَّفنا بأن الملأ الأعلى الذي ينزل منه الوحي على الأنبياء والمرسلين، هو على الدوام في مأمن من تطفل الكهان والشياطين، وأن من حاول منهم النفاذ إلى حماه، للتشويش على الوحي المنزل من عند الله، أو لهتك أستار «عالم الغيب»، كان

معرّضاً للطرد والرَّجْـم دون أدنى ريب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ، لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ، وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ، دُحُوراً ﴾، أي: يطردون طرداً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦٧: ٥): ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾، أي: موجع ومؤلم، من الوَصَب وهو المرض، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾، هذا الاستثناء يرجع إلى غير الوحي، لأن الوحي لا سبيل إلى التطفل عليه، بدليل قوله تعالى هنا: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، وقوله في آية أخرى (٢٦: ٢١٢): ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾، أما «عالَم الشهادة» المادي فهو مفتوح الأبواب، في وجه كل إنسان، منذ قديم الزمان.

ثم أعاد كتاب الله الكرة لمجابهة منكري البعث وخصوم الرسالة، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً، أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾، أي: من السماوات والأرض وما فيهما، وهذه الآية على غرار قوله تعالى (٤٠: ٥٧): ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾، أي: طين لاصق بعضه ببعض، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، أي: أنت عجبت من إنكارهم للبعث، وهم يسخرون من إثباتك له، ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ، وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً ﴾، أي: من آيات الله في الآفاق والأنفس، ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾، أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ. أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً

وَعِظَٰماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ. قُلْ نَعَمْ. وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾، أي: مغلوبون على أمركم صاغرون.

وختم هذا الربع بوصف المفاجأة الكبرى التي تنتظرهم، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾، أي: إذا هم قيام يَنْظُر بعضهم إلى بعض، و«الزَّجْرة الواحدة» هنا هي الصيحة الواحدة، ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، فرد عليهم الملائكة الموكّلون بهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، والمراد «بيوم الدّين» يوم الجزاء، و«بيوم الفصل» يوم القضاء، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٤٢ : ٧).

الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ

النعيم ﴿٤٣﴾ على سرر متقابلين ﴿٤٤﴾ يطاف عليهم بكأس من معين ﴿٤٥﴾
بيضاء لذة للشاربين ﴿٤٦﴾ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴿٤٧﴾
وعندهم قاصرات الطرف عين ﴿٤٨﴾ كأنهن بيض مكنون ﴿٤٩﴾
فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴿٥٠﴾ قال قائل منهم إني
كان لي قرين ﴿٥١﴾ يقول أئنك لمن المصدقين ﴿٥٢﴾ أذا متنا وكنا
ترابا وعظاما إنا لمدينون ﴿٥٣﴾ قال هل أنتم مطلعون ﴿٥٤﴾ فاطلع
فرءاه في سواء الجحيم ﴿٥٥﴾ قال تالله إن كدت لتردين ﴿٥٦﴾ ولولا
نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴿٥٧﴾ أفما نحن بميتين ﴿٥٨﴾ إلا موتتنا
الأولى وما نحن بمعذبين ﴿٥٩﴾ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴿٦٠﴾ لمثل
هذا فليعمل العاملون ﴿٦١﴾ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ﴿٦٢﴾ إنا
جعلناها فتنة للظالمين ﴿٦٣﴾ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴿٦٤﴾
طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴿٦٥﴾ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها
البطون ﴿٦٦﴾ ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ﴿٦٧﴾ ثم إن مرجعهم لإلى
الجحيم ﴿٦٨﴾ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴿٦٩﴾ فهم على ءاثارهم
يهرعون ﴿٧٠﴾ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴿٧١﴾ ولقد أرسلنا
فيهم منذرين ﴿٧٢﴾ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴿٧٣﴾

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قـوله تعـالى: ﴿ اَحْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ اِلْجَحِيمِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُومِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلاٰخَرِينَ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل الحديث عن المشركين بـالله، والمنكرين للبعث والشّاكّين في الوقوف بين يديه، مسجلاً الأوامر الإلٰهية الصادرة في شأنهم وشأن رفقائهم، ليلقَوا الجزاء المناسب عن جريمة الشرك بالله، وجريمة الشك في البعث، اللتَّيْن هما أكبر الجرائم، رافعاً الستار عما يدور بين أئمة الكفر الطغاة، وأتباعهم المخدُوعين المغلوبين على أمرهم، وهم يتحاورون في جهنم ويتلاومون، لكن بعد فوات الوقت، ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ ﴾ (١٠ : ٥٤)، وأول أمر صدر في حق هؤلاء الأئمة والأتبـاع سجله كتاب الله في بـداية هـذا الربـع قولـه تعـالى: ﴿ اَحْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾، أي: أشياعَهم وأتباعهم،

﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار.

وتمهيداً لحكاية الحوار الذي يدور بينهم في هذا المشهد الرهيب قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

فمن كلام الأتباع المخدوعين، وهم يخاطبون أئمة الكفر، حكى كتاب الله قولهم: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾، ولفظ ﴿ الْيَمِينِ ﴾، هنا مستعار للقوة والقهر، كما حكى قول نفس الأتباع في التنديد والتشهير بما كان عليه أئمة الكفر من استبداد وطغيان: ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَٰغِينَ ﴾.

ومن كلام أئمة الكفر الطغاة وهم يخاطبون الأتباع المخدوعين حكى كتاب الله قولهم: ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾، مقلِّدين بهذا الأسلوب في التضليل والتلبيس إمامهم الأكبر إبليس، إذ قال في مثل هذا المجال: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ، إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ (١٤ : ٢٢).

ثم سجل كتاب الله عليهم اعترافهم ـ بعد اللف والدوران ـ بجُرمهم، واعترافهم بعدل الله في عقابهم على ظلمهم، فقال تعالى على لسانهم بالنسبة للاعتراف الأخير: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ، إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾، أي: ذائقون عذابَ الله لا محالة، وقال

تعالى على لسانهم بالنسبة للاعتراف الأول: ﴿ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾ مخاطبين أتباعهم.

وفي خلال هذا الحوار وصف كتاب الله ما آل إليه أمر المتبوعين والأتباع من تخاذل واستسلام، في هذا المقام، حيث لم ينصُر أحدُ الفريقين الفريقَ الآخر، للخلاص من العذاب، ولم ينصر كلا الفريقين ما كانوا يعبدونهُ من دون الله، من الشياطين والأوثان والأصنام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾، أي: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً الآن، ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾.

وسجل كتاب الله القول الفصل، والحُكْم العدل في هذه القضية وأمثالها، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾، لكن لكل فريق منهم نصيبه المناسب لجُرمه، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾، وسبق في سورة الأحزاب موقف قريب من هذا الموقف، يكشف فيه الأتباع المخدوعون زيف القادة الذين خدعوهم، ويلعنونهم لعناً كبيراً، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم (٦٧): ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾، وإنما استحقوا ﴿ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾، لأنهم ضلوا وأضلوا.

وتثبيتاً للحكم الصارم الذي حكم به الحق سبحانه وتعالى في شأنهم جاء كتاب الله بحيثيات الحكم وأسبابه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾، أي: إذا قيل لهم

قولوا لا إلـه إلاّ الله، ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾، فهم يشركون بالله ولا يرضون به رباً، وهم يطعنون في الرسول ولا يرضون به نبياً، وكفى بإنكار الربوبية وإنكار النبوءة مبرراً لاستحقاق العذاب، في نظر أولي الألباب، ـ ومنذ أبَى إبليس من السجود لآدم واستكبر فدخل في عداد الكافرين أصبح الاستكبار عن عبادة الله وطاعته سنة متبعة عند أهل الكفر، وقاسماً مشتركاً بينهم في كل جيل وعصر، حتى أنه كلما ذُكِر في القرآن «الكفر والكافرون»، ذُكِر بجانبه في الغالب «الكِبْر والمستكبرون».

ورداً على مزاعم المشركين في حق الرسول، وإبطالاً لها من الأساس، قال تعالى: ﴿ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، فرسالته عليه الصلاة والسلام تجديد وتكميل لرسالات الرسُل جميعاً، والذي جاء به من عند الله، هو الحق الذي لا حق سواه، وما خالفه كله باطل، ﴿ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (١٧ : ٨١)، ورفعاً لكل إبهام والتباس فيما جرى على لسان أئمة الكفر، إذ قالوا فيما سبق: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾، قال تعالى موضحاً ومفصحاً: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الاَلِيمِ ، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَاكُنتُم تَعْلَمُونَ ﴾.

وفتح كتاب الله صفحة جديدة في سجِلّ عباد الله المخلَصين الذين لا يذوقون العذاب، ولا يناقَشون الحساب، لوفائهم بعهدهم مع الله، ﴿ وَمَنَ اَوْفىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهِ اِللَّهَ فَسَنُوتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٤٨ : ١٠)، ووصَف أنواعَ الإنعام والإكرام

المخصصة لهم في جنات النعيم، فقال تعالى مستثنياً لهم ممن يذوقون العذاب: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، ومعنى ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾، بفتح اللام على قراءة نافع المدني وبرواية ورش المتبعة في المغرب: «الذين أخلصهم الله لطاعته، واستخلصهم لولايته» وقرىء بكسر اللام أيضاً أخذاً من «الإخلاص» بمعنى إفراد الله وحده بالعبادة، وتصفية عبادته من كل الشوائب، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَٰكِهُ ﴾، أما «الرزق المعلوم» ففي شأنه جاء قوله تعالى في آية أخرى (١٩: ٦٢): ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾، وأما «الفواكه» ففي شأنها جاء قوله تعالى في آية أخرى (٥٦: ٦٢): ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾، ثم قال تعالى على وجه التعميم والشمول: ﴿ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴾، والإكرام بمعناه العام لا يقتصر على ما ورد في هذا السياق وما ماثله، بل يشمله ويشمل غيره، «مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر، على قلب بشر»، حسبما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه أزكى الصلاة وأزكى السلام، وفي طليعة ذلك كله: «رضوان الله» الذي هو غاية الغايات، عند أصفياء الله وأوليائه. قال تعالى (٩: ٧٢): ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ومضى كتاب الله يعدد جملة من نعمه الظاهرة على عباده المخلَصين، فبعد أن وصف طعامهم من قبل، ها هو يصف

مجالس أُنْسِهم، ونوع شرابهم، وحلائل أزواجهم، حيث يقول: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾، أي: جالسون على سرر متقابلين، وذلك ليأنس بعضهم ببعض، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ بَيْضَآءَ، لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾، أي: بكأس لا تحدث لهم مَغَصاً في البطن، ولا صداعاً في الرأس، ولا غيبوبة في العقل، وكلمة «الغَوْل» هي التي أُبدلت في اللسان الدارج غلطاً باسم «الكحول» تقليداً للنطق الأجنبي المحرف، ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾، أي: عندهم زوجات عفيفات يغضضن أبصارهن، وهن حسان الأعين، ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾، أي: مصون.

ومن المشاهد المثيرة والمؤثرة التي سجلها كتاب الله في هذا السياق مشهد أحد نزلاء الجنة وهو يحكي لرفاقه بعض ذكرياته، ومنها محاولة أحد قُرَناء السوء لإغرائه بالكفر وإغوائه، وتشكيكه في أمر البعث والحساب، والثواب والعقاب، وعندما ينتهي من قصته يُبدي لرفاقه رغبته في البحث عن مصير هذا القرين وَمَقَره الأخير في الدار الآخرة، فإذا به يكتشف أن قرينه الذي كان يخادعه في الدنيا يوجد بين نزلاء جهنم، ويحمد الله على أن قرين السوء الذي كان يستدرجه للكفر لم يبلغ منه ما يريد، وإلّا لهلك مثلَه وكان له نفس المصير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَ.نَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَـٰماً إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾، أي: مَجزيُّون ومحاسَبون بعد

الموت، ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أي: قال لرفاقه: هل تشرفون من مكان عال، وتطلّعون معي على المعذبين، لتروا بأعينكم معي هذا القرين، ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴾، أي: رأى قرينه يَرْتَـعُ في بَحْبُوحة جهنم، فلما رآه على تلك الحال، ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾، أي: قال وكأنه يتحدث إلى ذلك القرين الشقي: إن كِدتَ لَتُهلكني، وأكد هذا القول بالقَسَم، ثم استحضر العناية الإلّهية، التي حمته من الوقوع في فخ ذلك القرين والسقوط في الهاوية، فقال مُعترفاً بفضل الله عليه: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾، أي: لكنت من الذين يساقون إلى جهنم سوق المجرمين.

وتعبيراً عما في ضمائر نزلاء الجنة المنعَّمين، وتمنيهم للحياة فيها حياة لا يذوقون بعدها الموت، نطق كتاب الله بلسان حالهم قائلاً: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، وعندما أدركوا أن ما تمنوه من حياة الخلود هو بفضل الله عليهم من باب تحصيل الحاصل، تيقنوا أن ما يَشغَل الناس في الدنيا ويلهيهم عن الله إنما هو ظل زائل، أما نعيم الآخرة فهو وحده النعيم المقيم، ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾، وليحُضّوا غيرهم على الاهتداء بهديهم واللحاق بركبهم، قال تعالى على لسانهم: ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَـٰمِلُونَ ﴾.

وحيث أن الأشياء إنما تعرف بأضدادها بادر كتاب الله إلى تصوير حالة الأشقياء المعذبين، الذين ظلموا ربهم، فأشركوا به غيره، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣١: ١٣)، وظلموا عباده،

فاستعبدوهم وأضلوهم، وظلموا أنفسهم، فرفَضُوا دين الحق الذي لا يقبل اللَّهُ سواه، وافتتح كتاب الله هذا العرض بسؤال عجيب لا يجد له الأشقياء جواباً، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾، أي: أَنُزُل أصحاب الجنة ورزقهم خير، ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾، التي هي نُزُل أصحاب الجحيم، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴾، أي: امتحاناً لهم واختباراً، ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾، أي: ثَمَرُها مكروه مستقبح، كما يكرَه الناسُ ويستقبحون صورةَ الشيطان، التي هي في خيالهم أشدُّ الصور تجسيماً للبشاعة والقبح. وكما اعتقد الناس في «المَلَك» أنه خير محض، فشبهوا به أحسن الصور وأجملها، اعتقدوا في «الشيطان» أنه شر محض، فشبهوا به أقبح الصور وأبشعها، ومن ذلك قوله تعالى على لسان صواحب يوسف في التشبيه بالمَلَك: ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١٢ : ٣١)، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا ﴾، أي: من شجرة الزقوم، ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ ﴾، أي: شراباً من الماء الحار، مَشُوباً ببعض الأخلاط الرديئة، مما يزيدهم عذاباً على عذاب، وعقاباً على عقاب، ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى (٥٥ : ٤٤)، ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾.

وتنبيهاً إلى عدل الله في عقابه للظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم وظلموا ربهم، وتمسكوا بالتقليد الأعمى

للآباء والأجداد في ضلالهم، وأصروا على اتِّباع آثارهم وحمل أوزارهم، قال تعالى تعقيباً على ما سبق: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾، أي: وجدوهم على ضلال فاقتدوا بهم، ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾، أي: يسيرون عليها سيراً حثيثاً، ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، استثناءً من قوله تعالى: ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾، عقب قوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾، أو استثناءً من قوله تعالى: ﴿ عَـٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾، عقب قوله (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ). ويصح أن يكون الاستثناء منهما معاً، لأن «عباد الله المخلَصين» اهتدوا فلم يكونوا، ﴿ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴾، وسبقت لهم الحُسْنى والبُشْرى فلم يكونوا، ﴿ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴾.

وبعد ما أشار كتاب الله إلى المُنذِرين الذين أرسلهم الله لإنذار الضالين وهدايتهم، وإلى المنذَرين الذين أصروا على ضلالتهم، تصدى لذكر نماذج فريدة في نوعها من كلا الفريقين، مما فيه عبرة وذكرى لكافة المؤمنين، وترويح وتسلية لخاتم الأنبياء والمرسلين: وأول اسم تصدَّر في هذا المقام اسم «نُوح» عليه السلام، فقال تعالى في شأنه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيٰنَا نُوحٌ، فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، أي: بعد أن يئس نوح من هداية قومه ولم يؤمن معه إلاّ قليل، استغاث بنا واستنصر، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ دَيَّاراً ﴾ (٧١: ٢٦)، واستجبنا دعاءه ونصرناه عليهم، ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، أي:

نجيناه ومن آمن معه من الطوفان الذي سلطناه على الكافرين من قومه، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، لأن الكافرين من قومه بادوا مع ذرياتهم وماتوا غرَقاً، فلم يبق منهم عين ولا أثر، وإنما بقي منهم مجرد العبرة والخبر، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى (١١ : ٤٨): ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَـذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وتنويهاً برسالة نوح عليه السلام، وإبرازاً لمكانته الخاصة عند الله وعند الناس، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ،سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـٰلَمِينَ ﴾، أي: أبقينا له ذكراً جميلاً على مر الزمان، وسخرنا للسلام عليه كل لسان، ثم قال تعالى مبيّناً استحقاقَ نوح ومن سار على هديه لحسن الجزاء، وكونَه أهلاً لكل تنويه وثناء: ﴿ إِنَّا كَذَ ٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾، فالإيمان والإحسان هما الطريق الموصل إلى رضا الرحمان، ورضا الرحمان هو الوسيلة إلى زرع محبة الإنسان في قلب أخيه الإنسان، أما الذين وقفوا لنوح ورسالته بالمرصاد، فقد انتقم الله منهم شر انتقام، لأنهم طغوا في البلاد، وكانوا من شر العباد: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾، قال جار الله الزمخشري: «علَّلَ مجازاة نوح عليه السلام بتلك التَّكْرِمة السنية، من تبقية ذكره، وتسليم العالَمين عليه إلى آخر الدهر، بأنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، ليُرِيَك جلالة محل الإيمان، وأنه القُصَارَى من صفات المدح والتعظيم، وليُرَغِّبك في تحصيله

والازدياد منه، فاللهمّ زدنا إيماناً وإحساناً، ولْنَتْلُ مرة أخرى تلاوة مجردة قوله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـٰلَمِينَ، إِنَّا كَذَالِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْاَخَرِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين
في المصحف الكريم

وَإِنَّ

مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ
تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ
فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا
بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ
أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾
قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ
هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ
نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا
ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ
أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ
يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ
فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾
فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، إلى قوله تعالى عن يونس: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

بعدما أوجز كتاب الله الحديث عن نوح عليه السلام في الآيات الثمان الأخيرة من الربع الماضي واصل الحديث في بقية هذه السورة عن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم عن موسى وهارون، ثم عن إلياس، ثم عن لوط، ثم عن يونس، عليهم سلام الله جميعاً، لكن قصة إبراهيم أخذت من هذه السورة الحظ الأوفر بالنسبة إلى قصص الأنبياء الآخرين، فقد استغرقت وحدها إحدى وثلاثين آية، أي: مجموع الثمن الأول من هذا الربع بأكمله. والحديث عن إبراهيم الخليل في كتاب الله وارد في خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، من بينها سورة إبراهيم وسورة الأنبياء، وفي سورة الأنبياء السابقة استغرقت قصته ثلاثاً وعشرين آية.

يقول الله تعالى في بداية هذا الربع، عقب الانتهاء من قصة نوح مباشرة: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾، أي: أن إبراهيم كان في الدعوة إلى توحيد الله وطاعته، والتفاني في نشر دينه وإعلاء كلمته، على منهاج نوح وسنته.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، معناه أن إبراهيم أقبل على ربه بكل قلبه، بحيث لا يشغله عنه شيء سواه، فقلبه خالٍ من الشرك، خالٍ من الشك، نقيٌّ جميع الآفات التي تعترى القلوب. وسبق في سورة الشعراء، في ختام مجموعة من الأدعية الإبراهيمية، التي كان يدعو بها إبراهيم ربه، دعاؤه الذي يقول فيه (٨٩): ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، فتقبل الله دُعاءه، وحقق في الدنيا قبل الآخرة رجاءه.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَئِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾، إشارةً إلى ما قام به إبراهيم من دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وتوحيده، بدلاً من عبادة الأصنام التي يزعمون أنها آلهة، مع أن هذا الزعم لا يعتمد على حجة، ولا يستند إلى برهان، وإنما هو مجردُ أفك وبهتان، وهذه الآية هنا على غرار قوله تعالى فيما سبق من سورة الأنعام (٧٤): ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً، إِنِّي أَرَيٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، والسؤال الوارد هنا في قوله: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾؟ سؤال من إبراهيم، يتضمن الإنكار والاستنكار، لما عليه قومه من ضلال في العقائد والأفكار، وكلمة (الافك) تطلق على أسوأ أنواع

الكذب، وهو الكذب الذي لا يثبت،ويضطرب صاحبه، ولا يعني ذلك أن في الكذب ما هو أحسن أو مستحسن.

وقولُه تعالى على لسان إبراهيم وهو يخاطب قومه: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ اِلْعَـٰلِمِينَ ﴾؟ يؤدي معنيين بإثنين:

ـ المعنى الأول تذكيرهم بأن الله «رَبِّ اِلْعَـٰلَمِينَ»، هو وحده الذي يستحق العبادة من الناس أجمعين، لا هذه الأصنام التي يَسْخَر من عبادتها العقل والدين.

ـ والمعنى الثاني تحذيرهم من لقاء الله وهم به مشركون، والوقوفِ بين يديه وهم لغيره عابدون، إذ بأي وجه يلاقونه، وبأي لسان يخاطبونه.

وقولُه تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي اِلنُّجُومِ ﴾، إشارةٌ في منتهى الإيجاز إلى ما حكاه كتاب الله عن إبراهيم في سورة الأنعام بتفصيل، حيث قال تعالى (٧٥: ٧٩): ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ اَلسَّمَـٰوَٰتِ وَاَلْاَرْضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ اَلْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اِلَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي، فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ اُلْاَفِلِينَ، فَلَمَّا رَءَا اَلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي، فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ اَلْقَوْمِ اِلضَّآلِّينَ، فَلَمَّا رَءَا اَلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي، هَـٰذَآ أَكْبَرُ، فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ اَلسَّمَـٰوَٰتِ وَالْاَرْضَ حَنِيفاً، وَمَآ أَنَا۠ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ ﴾، فقد كان أبوه وقومُه يعبدون الأصنام والكواكب، والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ

في معتقداتهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويُعرّفهم بأن النظر الصحيح لا يقبل أن يكون شيءٌ من تلك المعبودات إلّهاً، ولا يتردد في الإيمان بأن وراء تلك الكواكب مُدبراً دَبَّر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها.

وقولُه تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، أَوْهَمَ به إبراهيمُ قومَه أنه أصيب بسَقَم ومرض، ولعلهم فهموا أن مرضه من أمراض الجسم المُعْدِية، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾، أي: أدبروا عنه وتركُوه وحيداً فريداً، فراراً مما تخيَّلُوه من العَدْوى، لكنّ إبراهيم لم يكن سقيماً بالمعنى الذي فهموه، وإنما كان سقيماً بمعنى آخر، فهو يريد أن يعتزلهم ويختلي بنفسه، ليتمكن من تنفيذ مخططه في الهجوم على أصنامهم والتمثيل بها، وبذلك يزول سقمه، إذ أن الضمير الحي للمؤمن الحق لا يستريح إلّا بتغيير المنكر والقضاء عليه، ولا سيما إذا كان في درجة إبراهيم ومقامه العظيم الذي بلغ القِمَّة، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (١٦: ١٢٠)، وإذن فقولُ إبراهيم: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ لا يندرج تحت معنى «الكذب»، وإنما هو من جملة «المعاريض» التي تستعمل لتحقيق مقصد شرعي مقبول، وثبت في الحديث الشريف: «إن في المعاريض لَمَنْدُوحة عن الكذب»، وما ورد في بعض الأحاديث من إطلاق لفظ «الكذب» على مِثل هذا القول وغيره من مقالات إبراهيم المأثورة إنما هو مجرد «تجوز» في التعبير، وليس المراد به الكذب المنهيّ عنه شرعاً، والمستهجن طبعاً، فالأنبياء والرسل ـ وفي طليعتهم إبراهيم خليل الله ـ معصومون من جميع

النقائص، والكذب من أشنع النقائص وأبغضها إلى الله والناس.

ثم قال تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾، هذا وصف موجز لما قام به إبراهيم في غيبة قومه، بعد أن خلا بنفسه وبقي وحده في معبدهم، فقد وجد أمام الأصنام التي يزعمون أنها آلهة طعاماً أحضروه خصيصاً للمعبد، تقرّباً إلى الأصنام، وتبركاً بها، فلم يسَعْه إلاّ أن يخاطب الأصنام التي هي جماد مُخاطبةَ العقلاء، إمعاناً منه في السخرية بها والاستهزاء، وذلك قوله مخاطِباً لإصنامهم: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾؟ وفي هذه الخلوة الفريدة من نوعها سنحَت له الفرصة التي كان ينتظرها ليتحدى ضلال قومه، ويكشف سفاهة رأيهم وسخافة معتقداتهم، فانهال بيمينه على أصنامهم يضربها ويحطمها، حتى تناثرت أشلاؤها بالهدم والتدمير، ولم يترك منها ـ لحكمةستظهر من بعد ـ إلاّ الصنم الكبير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾، وإنما خص الضرب ﴿ بِالْيَمِينِ ﴾ لأنها أقوى والضرب بها أشد، وسبق قوله تعالى في سورة الأنبياء (٥٨): ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾، أي: فتاتاً، ﴿ إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾، ومعنى «راغ» مال سراً وذهب في خفية، والمصدر رَوْغ ورَوَغان كما يقال: «روغان الثعلب».

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾، هذا بيان لما أصاب قوم إبراهيم من هول المفاجأة،

إذ بمجرد ما بلغتهم أصداء ذلك الحَدَث الخطير هبّوا مسرعين إلى معبدهم للدفاع عن أصنامهم، ولما واجهوا هذا العمل بالاستنكار واجههم إبراهيم بالحق الصراح الذي ليس عليه غبار، فأخذ يسأل ويتساءل هل من المعقول أن يعبد الإنسان الصنم الذي ينحّته بيده من الحجر، ولا يعبد الله الذي خلق البشر، وخلق ما يعمله كل من صَنَّع ومَهَر، واخترع وابتكر، إذ لولا المواهب والملكات التي وهبها الله للإنسان، والمواد الخام التي سخّرها له، لما كان أيٌّ شيء من ذلك في حيز الإمكان: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، وروى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة مرفوعاً: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته».

وأجمل كتاب الله في هذه السورة ما قام به قوم إبراهيم من «تحقيق» في هذه الحادثة التي أثارت غضبهم، وهيجت تعصبهم، وما آل إليه «التحقيق» من محاكمة علنِيّة أصدروا الحكم في إثرها بإعدام إبراهيم حرقاً، بدلاً من إعدامه شنقاً، مبالغةً في العقاب والتعذيب، لكي لا يتجرأ أحـد بعده على سلوك مسلكـه الشاذ والغريب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ قَالُواْ ابْنُواْ لَهُ بُنْيَـٰناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾، أي: في النار الموقدة، لكن الله تعالى لم يحقق حُلمهم، ونقض حكمهم: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْـداً فَجَعَلْنَـٰهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾، وسبق في سورة الأنبياء عرض هذا الجانب وغيره من قصة إبراهيم بتفصيل أكثر، ابتداءً من الآية الواحدة والخمسين حيث قـال تعالى: ﴿ وَلَقَـدْ ءَاتَيْنَآ إِبْـرَٰهِيمَ رُشْـدَهُ مِن قَبْـلُ، وَكُنَّا بِهِ عَـٰلِمِينَ ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ قَالُواْ

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ. قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَـٰماً عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَـٰهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾.

وبعد أن نصر الله خليله إبراهيم على قومه بأعظم أنواع النصرة، ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ (٩ : ٤٠)، فكر إبراهيم عليه السلام في اعتزال قومه والهجرة من ديارهم، ليأسه من صلاح حالهم، فتوكل على الله، ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾، أي: ذاهب إلى مكان آمن أتمكن فيه من عبادة الله، وموطن صالح للدعوة أواصل فيه الدعوة إلى توحيد الله، ابتغاء مرضاة الله، قال القرطبي: «هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام»، ولثقة إبراهيم بهداية الله إياه، في الحَلِّ والترحال، وتوفيق خطواته في الحال والمآل، عقَّب على ذلك بقوله: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾، إيماناً منه بأن هداية الله له حاصلة لا محالة، واقتداء بهذه المقالة التي قالها إبراهيم عليه السلام قال موسى عليه السلام أيضاً: ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢٨ : ٢٢)، وقال: «إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢٦ : ٦٢).

وليطمئن إبراهيم على انتشار دعوته واستمرارها تمنى على الله أن يرزقه خَلَفاً صالحاً يحمل الدعوة من ذريته، فالتجأ إلى الله يقول: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، ولفظ «الهبة» يستعمله القرآن في الولد والأخ، لكن يغلب استعماله في الولد، كما ورد في هذه الآية، ومن استعماله في الأخ قوله تعالى (١٩ : ٥٣): ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيّاً ﴾.

وتعليقاً على دعاء إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، قال فخر الدين الرازي: «أعلم أن الصلاح أفضل الصفات، بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٢٦ : ٨٣)، وطلبه للولد فقال: ﴿ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، وطلب سليمان الصلاح بعد كَمَال درجته في الدين والدنيا فقال: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٢٧ : ١٩)، وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد».

وكم كانت البشرى باستجابة دعاء إبراهيم سريعة معجَّلة، فضلاً من الله وكرماً، حيث قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾، وكلمة ﴿ غُلَـٰمٍ ﴾، تفيد أن المولود المتمنى على الله سيكون ذكراً، وأنه سيتجاوز مرحلة الطفولة ويبلغ الحُلُم، وكلمة ﴿ حَلِيمٍ ﴾، تدل على أنه سيلقى من الابتلاء ما يحتاج إلى الحِلْم في تحمله، وبذلك يكون حليماً مثل أبيه، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾، (١١ : ٧٥) والوصف «بالحِلْم» يشعر بأن الغلام المبشَّر به في هذا المقام هو إسماعيل لا إسحاق، لأن الوصف بالحلم أنسبُ به أكثرَ من أخيه، وأيّ حِلْم أعظم من حِلْمه حين عَرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

ومن الحديث عن تبشير الله لإبراهيم ﴿ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾، انتقل كتاب الله فجأة إلى عرض الملحمة الكبرى التي ابتلى الله فيها هذا الغلام، ووالده «الإمام» فكانت مناسبة لامتحان مبلغ ما

عند الوالد والولد من «حِلْم» عظيم، وفرصَة لإبراز مالهما عند الله من مقام كريم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيَ أَرىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرىٰ؟ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُومَرُ، سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اَللَّهُ مِنَ اَلصَّـٰبِرِينَ، فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَنْ يَـٰإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْـزِي اِلْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ اَلْبَلَـٰٓؤُ الْمُبِينُ، وَفَـدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾.

ذلك أن إبراهيم وإبنه لما علما أن رؤيا الأنبياء من وحي الله، واستسلما لقضاء الله، الأول «إبراهيم» في قُرَّة عينه، والثاني «إسماعيل» في نفسه، وتهيئا للعمل، ذاك بصورة الذابح، وهذا بصورة المذبوح، وكان ما كان من أمر إبراهيم امتثالاً، ومن إسماعيل انقياداً، أكرم الله إبراهيم وابنه ﴿ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾، وإنما كان «عظيماً» لأنه فداء لولد إبراهيم العظيم، وما أدراك ما إبراهيم وآل إبراهيم، ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَـاماً ﴾ (٢: ١٢٤)، الآية، وبذلك رفع الحق سبحانه وتعالى عن إبراهيم وولده «الذبيح» مِحْنةً مزدوجة تَعُمُّ الوالد والولد، ولا محنة أصعب منها ولا أشد، ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ اَلْبَلَـٰٓؤُ الْمُبِينُ ﴾، ولو تمت تلك الذبيحة لكانت «سنّة»، ولذبح أَتْبـاعُ إبراهيم أبنـاءهم، لكن الله سلم، فشُرِعت الأضحية في الإسلام، رمزاً إليها وتذكيراً بها، وشكراً لله على نعمة الحياة التي أكرمنا بها، ودعانا إلى الحفاظ عليهـا، وأمر الله رسوله «بيوم الأضحى، فجعله عيداً لهذه الأمة» كما ورد ذلك في حديث شريف صححه ابن حبان.

وكما ختَمَ كتابُ الله قصة نوح في الربع الماضي بالتنويه به والثناء عليه إذ قال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الَاخِرِينَ، سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـٰلَمِينَ. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ ﴾، ختم قصة إبراهيم في هذا الربع أيضاً بمثل ذلك، فقال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الَاخِرِينَ، سَلَـٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ ﴾.

وقبل أن ينتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة موسى وهارون أخبرَ بالبشرى الثانية التي بشر الله بها إبراهيم وهي ولادة إسحاق الذي يَصغُر عن أخيه إسماعيل ببضع عشرة سنة، وأثنى عليه وعلى والده والمحسنين من ذريتهما، فقال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ، وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَـٰقَ، وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾، ومما يلاحظ في هذا الصدد أن البشارة بإسحاق التي وردت في سورة الحِجْر (الآية: ٥٣)، تضمنت وصفه «بِالْغُلَـٰمِ العَلِيمِ»، ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلِ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾، بينما البشارة هنا بأخيه إسماعيل فظلت وصفه «بالْغُلَـٰمِ الحَلِيمِ»، ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾، وتأكيداً لحلم إسماعيل وصبره قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّـٰبِرِينَ ﴾ (٢١ : ٨٥).

وتنويهاً بقدر إسماعيل، على غرار أخيه إسحاق، قال تعالى (١٩ : ٥٤، ٥٥): ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً، وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ، وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾، وفي حقه وحق أخيه قال تعالى على لسان أبيهما

إبراهيم، حمداً لله وشكراً: ﴿ اِلْحَمْدُ لِلَّهِ اِلذِي وَهَبَ لِي عَلَى اَلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ (١٤: ٣٩).

وكما أجمل كتاب الله في الربع الماضي قصة نوح عليه السلام، أجمل في هذا الربع قصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس:

فعن موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ اَلْكَرْبِ اِلْعَظِيمِ ﴾، أي: من الرق الذي خلَّص منه قومه أولاً، ومن الغرق، الذي لحق فرعون وجنوده وحدهم أخيراً، ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ اُلْغَٰلِبِينَ، وَءَاتَيْنَٰهُمَا اَلْكِتَٰبَ اَلْمُسْتَبِينَ ﴾، ثم ختم كتاب الله قصتهما بنفس الأسلوب الذي ختم به قصة نوح وإبراهيم فقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي اِلْاخِرِينَ، سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي اِلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا اَلْمُومِنِينَ ﴾.

وعن إلياس عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ اَلْخَٰلِقِينَ ﴾، أي: أتدعون صنماً اتخذتموه رباً، وتتركون أحسن من يقال له «خالق»، ﴿ اَللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْاَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾، أي: لمسوقون إلى جهنم سَوْقاً، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اَللَّهِ اِلْمُخْلَصِينَ ﴾، وسلك كتاب الله في ختام قصة إلياس نفس النمط الذي ختم به قِصص نوح وإبراهيم وموسى

وهارون فقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ، سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُومِنِينَ ﴾، .وفي قراءة أخرى سلام على إِلْيَاسين كما يقال في إسماعيل إسماعين.

وفي الآيات الأخيرة من هٰذا الربع ذكَّر كتابُ الله بقصة لوط وقصة يونس:

فعن لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزاً فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾، وهي امرأته التي كانت موالية لقومها ممالئة لهم على الضلال، طبقاً لقوله تعالى في آية أخرى (١٥: ٦٠): ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾، أي: الهالكين غير النَّاجِين، ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾، أي: بالرجم بحجارة من سجيل، ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِالَّيْلِ ﴾، أي: تمرون على أرضهم في أسفاركم ليلاً ونهاراً، ومع ذلك لا تعتبرون، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وعن يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذَا أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾، ذلك أنه فارق قومه متستراً لينجو بنفسه دونهم، فلم يجد إلَّا سفينة مثقلة بالركاب والتحق بها، وسرعان ما أصبحت مهددة بالغرق، «فأقرع» الركاب فيما بينهم ليخففوا من أثقالها، وإذا به يفاجأ بأن يكون نصيبه هو أن يُلقَى في البحر، تنفيذاً لنتيجة «القرعة» التي أجراها ركاب السفينة، ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾، أي: هو داخل في الملامة، لأنه أتى بما يلام

عليه، حيث أنه فارق قومه دون إذن من مولاه، ناسياً أن رقبته ملك خالص لله، قال الترمذي الحكيم: «سماه (آبقاً ومليماً) لأنه أبق عن عبودية الله، ولم يُصب عين الصواب الذي عند الله» ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، أي: الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾، أي: في بطن الحوت، عقاباً له، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا
عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ
أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا
وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟
بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ
هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا

لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ

عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا
يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟
فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾
وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾
إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا
صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا
قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا
دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ
يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الصّافات المكية: ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة صّ المكية أيضاً: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾.

والآيات الأولى من هذا الربع هي تتميم لما سبقها في شأن يونس وقومه، ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، الآيات، ذلك أن يونس عليه السلام بعد أن قضى وقتاً طويلاً في تسفيه معتقدات الشرك والوثنية بين قومه، ولم يصل معهم إلى نتيجة حاسمة، ضاق صدره، ونَفَد صبره، إذ لم يكن مندرجاً بين «أولي العزم» من الرسل، الذين لا يضيق صدرهم، ولا ينفَدُ صبرهم، فغضب على قومه، وقرر الرحيل عنهم والفرار منهم، بعد أن أنذرهم بالعذاب الإلٓهي الشديد، لكنه لم يبن قراره بالرحيل عنهم على وحي إلٓهي صريح، وإنما بناه على مجرد اجتهاد شخصي، وكان الأولى به ـ كما ظهر فيما بعد ـ أن لا يضيق صدره، ولا ينفد

صبره، وأن ينتظر حكم الله بينه وبين قومه، وذهب يونس يضرب في الأرض، فراراً من قومه، حتى انتهى به المطاف إلى شاطىء البحر، فوجد جماعة يَعبُرونه، وركب معهم سفينة مشحونة بالأثقال، غير أنه ما كادت سفينتهم المشحونة تمخُر عباب البحر حتى هاجت عليها الأعاصير، وتلاطمت فوقها الأمواج، ولم يجدوا وسيلة للخلاص من الغرق إلّا بالتخفيف من حُمُولتها، فأقرعوا بين ركابها، ووقعت القرعة على يونس، ثم أعيدت القرعة عدة مرات، لكن نتيجتها كانت مثل المرة الأولى، وضَنَّ الركاب به أن يلقوه في البحر، احتراماً لمظهره المهيب، لكن يونس أدرك بنور إيمانه أن الله سراً وأيَّ سر في «القرعة» التي خرج سهمها فيه، وفيما كتبه الله عليه، فألقى بنفسه في البحر راضياً مطمئناً، مستسلماً لإرادة الله وحكمه الحكيم، فالتقمه الحوت لطفاً من الله، حتى لا يموت غريقاً، وأخذ الحوت يتقلب به في أعماق البحر وهو في بطنه، دون أن يقتطع منه لحماً، أو يكسر له عظماً، وكانت فرصة سانحة ليونس يدرك بها سر الله في البحر وقدرتَه الباهرة، كما أدرك سر الله وقدرته في البرّ، وأحس يونس أن فيمَا كتبه الله عليه نوعاً من التأديب الإلٓهي على ما أقدم عليه من مفارقة قومه، والتوقف عن مواصلة رسالته بينهم، دون إذن سماوي صريح، فما وسعه ـ وهو في بطن الحوت لا يستطيع أن يفلت من قبضة الله ـ إلّا الالتجاء إلى الله بالتضرع والدعاء والندَم على ظلمه لنفسه، والتعلق بواسع عفو الله وخفي لطفه، فاستجاب الله دعاءه، بعد أن نال ما قدره له من جزاء، وألقاه الحوت بأمر الله في أرض عَراء، لا نبات بها ولا بناء، وأذن الله بإنبات شجرة عليه تظله بورقها،

وتطعمه من ثمرها، وما كاد يستعيد عافيته ويزول عنه السقم، حتى بادر للعودة إلى قومه مسرعاً، واستأنف الرسالة السامية التي ألقاها الله على عاتقه، وكم كان سروره عظيماً، وابتهاجه بالغاً، عندما وجد أن الله قد حقق أمنيته، وأن قومه قد شرح الله صدورهم للإيمان، وهجروا الأصنام والأوثان، بمجرد ما شاهدوا نُذُر العذاب الذي كان أنذرهم به، فعرفوا صدقه وآمنوا برسالته، وذلك قوله تعالى في سورة الصافات التي نواصل تفسيرها: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ، فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، ويزيد هذه الآيات تفسيراً وتوضيحاً قولُه تعالى في سورة الأنبياء (٨٧): ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وقولُه تعالى في سورة (يونس) إحدى سور القرآن المسماة باسمه (٩٨): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ويظهر من السياق أن الحكمة المقصودة من الإتيان بقصة يونس كخاتمة لِقصص الأنبياء والرسل، منذ عهد نوح عليه السلام، في هذه السورة المكية، هي ضرب المَثَل لخاتم الأنبياء والمرسلين، بمن سبقه من «أولى العزم» الأولين، وتحذيره من

التهاون في أداء الرسالة الملقاة على عاتقه، إذ لا يُعفيه منها شيء، وَلَا يبرر التخلي عنها أي أذى يلحقه من قِبَل المشركين، مهما كان أذاهم بالغاً، بل تجب عليه المثابرة ويلزمه الصبر، إلى أن يتحقق النصر، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (٨: ١٠) كما تتضمن هذه القِصَّة تنبيهاً صريحاً للرسول عليه السلام، حتى لا يسلك مسلك أخيه يونس، عندما فارق قومه مغاضباً لهم، ساخطاً عليهم، فاضطرته الأقدار للعودة إليهم من جديد، إذْ لا بُدَّ لَهُ من تحقيق مراد الله، وتبليغ رسالته، ولو كره المشركون.

وبهذا التوجيه الوجيه يظهر مغزى ما جاء بعد ذلك في هذا الربع نفسه من الآيات البينات، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى تثبيتاً لرسوله على الحق، والدعوة إليه دون انقطاع ولا فتور (١٧١ : ١٧٢): ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾، وما دام الحق سبحانه وتعالى قد وعد رُسُله بنصره، وعلى رأسهم خاتم الرسل والأنبياء، ووعد جنده بالغلبة، فلا مناص من المثابرة والمصابرة، ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ (٤٠ : ٥٥)، ﴿ لَا يُخلِف الله وعده ﴾ (٣٠: ٦).

أما بقية الآيات من سورة الصافات في هذه الحصة فهي وصف كاشف للمُعتقدات الوثنِيّة الباطلة، التي كان عليها مشركو الجاهلية، ومِن قَبلهمْ كافةُ المشركين في العالم، وإتيان القرآن بها يُقصد منه إبراز ما بين الشرك والتوحيد من البون الشاسع، وما بين المشركين والموحدين من تفاوت بالغ في درجة التفكير ومستوى

العقـل، ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَـهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

والآن فلنشرع على بركة الله في تفسير سورة (ص) المكية أيضاً:

لقد ركزت الآيات الأولى من هذه السورة اهتمامها، في إلقاء الأضواء على خصوم الرسالة المحمدية، وكشفت الستار عن السبب الدفين والوحيد في خصومتهم وعنادهم، فهم من جهة ألى اهلُ ﴿ عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، وهم من جهة ثانية مقيدون بسلاسل التقليد الأعمى لا يستطيعون عنه حِولاً، وذلك قوله تعالى فيما يتصل بالنقطة الأولى: ﴿ صٓ. وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ، بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ شِقَاقٍ ﴾، «والعزة» هنا بمعنى الاستكبار والحَمِيّة، و«الشقاق» بمعنى التعصب والعناد، ثم قوله تعالى فيما يتعلق بالنقطة الثانية: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ، وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً، إِنَّ هَـٰذَا، لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾.

على أن قادة الشرك وزعماء الوثنية لم يكتفوا بما هم عليه في ذات أنفسهم من كِبْر وعناد، وتقليد للآباء والأجداد، بل رَاحُوا ينظمون الحمـلات تلو الحملات، لحمـل عامـة المشركين على التمسك بالوثنية وتشكيكهم في دعوة التوحيد، مدعين زوراً وبهتاناً إن المِلَلَ السابقة على الإسلام لا تؤيد رسالة خاتم الأنبياء عليه السلام، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَانطَلَقَ ٱلْمَـلَأُ مِنْهُمْ أَنِ

امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا اخْتِلَـٰقٌ. أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾، ثم أبطل كتاب الله ما أدْلَوْا به من شُبَه وأباطيل، مشيراً إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم حيث يجعل رسالاته، ويَهَبُ من خزائنه الواسعة ما يريد لمن يريد، فقال تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ، أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَلْيَرْتَقُواْ فِي الْأَسْبَـٰبِ، جُندٌ مَّا هُنَالِكَ، مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾.

وأخيراً تولت الآيات الكريمة الإشارة إلى ما قام به من العناد والتكذيب قَبْل مشركي قريش قومُ نوح وعادٌ وثمودُ وقومُ لوط وأصحابُ الأيكة، أي: الغابة الملتفة ـ وفرعونُ «ذُو الْأَوْتَادِ»، إشارةً إلى الأهرامات الشامخة البناء، التي نصبها الفراعنة، فكانت كالأوتاد الممدودة نحو السماء، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ، أُوْلَـٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ، إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾.

وانتهى هذا الربع بالحديث عن داود عليه السلام، وما آتاه الله من القوة، ومنحه من تسخير الجبال والطير، وجاء ختامه بهذا التنويه الإلٰهي الكريم: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟
عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا
عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ
وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ
ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ
لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ
ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا
عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا
عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا
لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ
تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ
أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾
وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ
وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾
وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ

ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي
ٱلْأَيْدِي وَالْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ
عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ
عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم هو الربع الثاني من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَهَلَ آتَيكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾.

ترتبط الآيات الأولى من هذا الربع بما سبقها في نهاية الربع الماضي، والحديث فيها جميعاً يدور حول داود عليه السلام، غير أن القِسْم السابق منها كان تنويهاً بما أكرم الله به حَمَلة الرسالة، ومن بينهم داود عليه السلام، من تأييد وتسخير، ونفوذ روحي لا يقف عند حد، إذ يتجاوز دائرة الإنسان، ويمتد إلى الجماد والحيوان، ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا اَلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالِاشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾، كما كان تنويهاً بما أكرم الله به رسله ـ وداود منهم وإليهم ـ من نصر مؤزر، وفتح مبين، وسلطة رحيمة وحكيمة، يستعملونها لخير الإنسانية جمعاء، ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ اَلْخِطَابِ ﴾.

ومغزى هذا الجزء ومعناه الذي يدل عليه السياق هو أن العزيز الوهاب الذي أكرم نبيه داود، وأنعم عليه بالحكمة والسلطان، وتسخير الإنسان والجماد والحيوان، لن يَكِل رسوله محمّداً إلى نفسه، ولن يتركه عُرْضة لأذى المشركين وسيطرتهم، بل إنه سينصره عليهم، وسيُظهِر دينه على أباطيلهم، وسيجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، ودولته أكبر دولة عرفها العالم، فلا ينْبغي له أن ييتئس أو ييأس، وهو في غمرة الكفاح مع الشرك والمشركين، ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧: ١٢٨).

أما القِسْم الأخير من نفس الآيات في نفس الموضوع، وهو ما جاء في بداية هذا الربع الذي نحن بصدد تفسيره، فهو تقرير «ضِمْني» لأن الله تعالى عندما يَكِل إلى رسله سلطة الحُكم بين الناس، والخلافةَ عنه فيهم، لن يتركهم حيارى يتخبطون في مشاكل الخلق ونزاعاتهم، دون مَدد ولا سَند، بل إنه سبحانه يُمِدُّهم برعايته وعنايته، وتوفيقه وتوجيهه، باستمرار، ولا يقرّهم في أيِّ شأن من الشؤون على الخطأ، إذا اجتهدوا وتعرضوا للخطأ من غير قصد، وكما أمد الحق سبحانه وتعالى داود عليه السلام برعايته وتوجيهه، عندما أولاه مقاليد الحكم، فسيُمِد رسوله محمّداً عليه السلام بنفس المدد، عندما يحين الوقت لذلك، وينصُر رسولَه، ويُظهر دينه، ويقيم دولة الإسلام الكبرى، الخالدة إلى يوم الدين.

وعلى ضوء هذا المعنى نفهم قولَه تعالى مخاطِباً لخاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ

الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ، قَالُواْ لاَ تَخَفْ، خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ، وَاهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ ﴾، ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾، وقولَه تعالى في نفس السياق، مذكِّراً بالخطاب الإلّهي الذي وجهه إلى داود: ﴿ يَـٰدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي الاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، وفهمُ القرآن على هذا النحو وشبهه من الإيحاء والتوجيه والإرشاد، وتحليلُ آياته في إطار الجو الذي نزلت فيه، هو ما يدعو إليه كتاب الله نفسُه في هذا السياق، ﴿ كِتَـٰبٌ اَنْزَلْنَـٰهُ إِلَيْـكَ مُبَـٰرَكٌ، لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الاَلْبَـٰبِ ﴾.

أما قصة الخصمين اللذين احتكما إلى داود عليه السلام، بالتفاصيل التي يذكرها بعض المفسرين، مما لم يرد في كتاب الله، فقد قال عنها الحافظ ابن كثير في تفسيره: «أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روي ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد،وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يُقتصَر على مجرد تلاوة القصة، وأن يُرَدَّ علمُها إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً».

والآن فلنقرأ ما حكاه كتاب الله بإيجاز وإجمال عن مضمون الدعوى، ولْنَسمع كيف عرض المدعِي دعواه على داود عليه

السلام، ولْنُسَجِّل ماذا حكم به داود لصالح المدعِي، إذ سلم له المدعَى عليه ولم يطعن في دعواه: ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾، أي: اجعلها في كفالتي وملكي، ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾، أي: أغلظ عليّ في القول، ﴿ قَالَ ﴾، أي: داود، ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَآءِ ﴾، أي: من الأقرباء والشركاء، ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، أي: يظلم بعضهم بعضاً، ﴿ إِلاَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ، وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ ﴾، أي: اختبرناه وامتحنّاه، ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾، علق عليه ابن كثير في تفسيره فقال: «هذه وصية من الله عزَّ وجلَّ لولاة الأمور، أَنْ يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، وأن لا يَعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله» وذكر (ابن العربي) المعافري في معنى قوله تعالى: ﴿ خَلِيفَةً ﴾، أن معنى «الخلافة» لغة هو قيام الشيء مقام الشيء، وبين أن الله قد جعل الخلافة لخلقه **على العموم**، كما في قوله عليه السلام: «إن الله مستخلفكم فيها ـ أي في الدنيا ـ فناظرٌ كيف تعملون»، وجعلها **على الخصوص**، كما في قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾، وذكَر أن «الخلفاء» على أقسام: أولهم الإمام الأعظم، وآخرهم العَبْد في مال سيده، واستشهد على ذلك بقوله ﷺ: «كلكم راع

وكلكم مسؤول عن رعيته، والعبد راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

وها هنا لطيفة لا ينبغي إغفالها، ألا وهي أن لفظ «المُلْك» لا يناقض لفظ «الخلافة»، وأن من الممكن أن يجتمعا في محل واحد، كما هو الشأن هنا، إذ وقع إطلاقهما معاً في كتاب الله على داود عليه السلام، فهو في آن واحد «ملِك» بدليل قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾، و«خليفة» بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً ﴾، والعبرة في استعمالهما وتواردهما على محل واحد: إنما هي بالتزام حدود الله، والاهتداء بهَدْي الوحي المنزل من عند الله، وبناءً على ذلك يكون الخليفة «ملِكاً» ويكون الملك «خليفة».

ثم تناولت الآيات بالذكر شيئاً من حياة سليمان بن داود عليهما السلام وسيرته، وما آتاه الله من نفوذ وتسخير، وما تعرض له إلى جانب ذلك من الامتحان، وناله من الرضى والغفران، وذلك قولُه تعالى تنويهاً بسليمان: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ، نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾، وقولُه تعالى حكايةً لدعاء سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيَ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾، وقولُه تعالى تعريفاً بمكانة سليمان: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

وفي نفس السياق ذكر كتاب الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، وإسماعيل واليَسع وذَا الكِفْل، وكلهم من ﴿ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾، وذكَر كتابُ الله في هذا

المقام قصةً خاصة ـ مواساةً لنبيه حتى يصبِر على أذى مشركي قريش ـ قصة أيوب عليه السلام، الذي يُضرب به المثل في الصبر والرضى، ونوه به قائلاً: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِراً، نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

وانتهى هذا الربع بالحديث عما أعدّه الله للمتقين من الجزاء الحسن والنعيم المقيم، ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ، وإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ، جَنَّـٰتِ عَدْنٍ، مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَٰبُ، مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا، يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ
بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ
فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾
قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ
ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا
لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلّٞ
يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾
خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٖۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقٗا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ
عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

الربع الثالث من الحزب السادس والأربعين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

حديثنا في هـذا اليوم يتنـاول الربـع الثالث من الحـزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة (صٓ) المكية: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة الزُّمَر المكية أيضاً: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل وصفه «المعجز» لِما أعده الله في دار البقـاء، من نعيم يسعد بـه «المتقون»، وعـذاب يشقى به «الطّاغُون». ومما يستلفت النظر هنا ما أبرزه الاستعمال القرآني في هـذا السياق بـالخصـوص، من المقـابلة بين ﴿ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ و﴿ ٱلطَّـٰغِينَ ﴾، حيث قـال تعـالى: ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾، إذ من شأن «المتقي» أن يكون مُلاَزِماً للاحتياط والحذر، واقفاً عند حدود الله، بينما غير المتقي من شأنه أن يكون متجرِئاً على الله، منتهكاً حُرُماتِه، لا يقف أيُّ شيء دون انطلاق أهوائـه وطغيان شهواته، فَهُو لا يعرف الحدود والقيود، ولا يحسُب لهـا أدنى حِساب، وبهذه المقـابلة بين التقوى والـطغيان، التي جـاء بها

القرآن، نستطيع أن نفهم روح التقوى، ونميز مَلامح المتقين.

ومن المناسب في هذا المقام عقد مقارنة ولو على وجه الإجمال بين الوصف الذي وصف به كتاب الله أهل الجنة من ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾، والوصف الذي وصف به أهل النار من ﴿ الطَّٰغِينَ ﴾، فالآيات القرآنية في ختام الربع الماضي وبداية هذا الربع لم تعرِّج مطلقاً على أي حديث يمكن أن يعتبر حديثاً نابياً بين أهل الجنة فيما بينهم، لأنهم جميعاً يعيشون عيشة راضية، وقد أُلِّفت بينهم وحدة العقيدة، ووحدة السلوك، ووحدة المصير، ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ (١٥ : ٤٧)، بينما الآيات التي تسجل مشاعر ﴿ الطَّٰغِينَ ﴾، وهم في جهنم، وانطباعات بعضهم عن بعض، وردود الفعل للمحاورات والمجادلات التي يتبادلونها وهم يتلَقون عذاب الله، كلها تصورهم وهم يتراشقون بالتهم والشتائم واللعنات، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ (٧ : ٣٨)، فعندما يفاجَأ بعضهم بقدوم فريق جديد من الطاغين عليهم، ويقال: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾، يرُدُّ ذلك البعض على هذه المقالة شامتاً متشفياً ويقول: ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾، لكن الفريق الذي يسمع هذه التحية المنكرة، لا يلبث أن يرد على الشامتين تحيتهم، مُلْقِياً عليهم مسؤولية التردي في هوة الشقاء والعذاب، ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا، فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾، ومن المفارقات في هذا المشهد المفجع أنهم يتجهون إلى الله مهْطعين خاشعين، داعين على من أضلهم وأغواهم، وأمسك بمقادتهم إلى النار: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن

قَدَّمَ لَنَاهَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي اِلنَّارِ ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى الخيبة التي يُمْنَى بها «الطاغون» عندما يستقر بهم المَطَاف في جهنم، حيث لا يستَدْبِرُون مفاجأةً إلاّ ليستقبلوا مفاجأة أدهى وأمر. نعم لقد كانوا في حياتهم يَعتبِرون ﴿ اَلْمُصْطَفَيْنَ اَلاَخْيَارِ ﴾، عبارةً عن منبوذين أشرار، لا يستحقون إلاّ السخرية والاستهزاء، وها هم الآن يتساءلون عنهم في لهفة وحسرة: أين يوجد أولئك الرجال الذين كانوا يُعدُّونهم أشراراً، هل هم يُرافقونهم في جهنم لكن لا تقع عليهم أعينهم الزائغة؟ أم أنهم ليسوا في جهنم أصلاً: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ اَلاَشْرَارِ، أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سُخْرِيّاً، اَمْ زَاغَتْ عنهم الاَبْصَـٰرُ ﴾. ويعقّب كتاب الله على هذا الوصف الكاشف الذي يبرز حَيْـرة الطاغين الخارجين عن طاعة الله، المكـذبين لرسله، ويكشف الستار عما هم عليه من شقاق وخلاف وتضارب في الآراء، ولو في دار الشقاء، قائلاً: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ: تَخَاصُمُ أَهْلِ اِلنَّارِ ﴾.

وتنتقل الآيات فيما بعد ذلك إلى قصة خلق آدم وسجود الملائكة له، امتثالاً لأمر الله تعالى بتكريمه، وترشيحاً لِما أعدته له الأقدار من الخلافة في الأرض، وحمل أمانة التكليف التي عجزت عن حملها بقية المخلوقات، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا اَلاَمَانَةَ عَلَى اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَـا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا اَلِانسَـٰنُ ﴾ (٣٣: ٧٢)، وتنتهي القصة بالإشارة إلى أخطر سابقة في عالم الكِبْر والغواية، وهي سابقة إبليس اللعين: ﴿ فَسَجَدَ اَلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

ٱلْكَـٰفِرِينَ، قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ، قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾، ثم حكى كتاب الله تحدِّيَ إبليس اللعين: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وختمت سورة (صٓ) بآية كريمة هي آية في الإعجاز وتثبيت النبوة، والتنبؤ بما ستلِده الأيام من أحداث واكتشافات تزيد المؤمنين إيماناً، وتبهَر الشاكّين والمكذبين، فلا يسعهم إلّا أن يذعنوا لها إذعاناً، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾، إشارةً إلى أن ما جاء به القرآن، وعلّمه للإنسان، ستثبت الأيام أنه حق لا ريب فيه، وصواب لا خطأ فيه، على مر الأزمان، وما مِن جيل إلّا وسيكتشف من لطائفه وأسراره ما لم يصل إليه غيره، فكتاب الله «لا يَشبَع منه العلماء، وَلاَ يَخْلَقُ على كثرة الرَّدِّ، وَلا تَنقضي عجائبه»، كما جاء في الأثر عن عليّ كرم الله وجهه، وبمعنى هذه الآية سبق قوله تعالى في سورة الحج (٥٤): ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، فَيُؤْمِنُواْ بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾، وسيأتي في سورة فصلت قوله تعالى (٥٣): ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

والآن فلنشرع على بركة الله في تفسير سورة الزُّمَر «المكية أيضاً، مستعينين بالله، وإنما سميت بهذا الاسم أخذاً من آيتين في نفس السورة وردت فيها كلمة ﴿ الزُّمَرِ ﴾، جمع «زُمْرة» بمعنى

الفوج والجماعة، حيث قال تعالى (٧١): ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾، وقال تعالى (٧٣): ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً ﴾.

وأول موضوع في هذه السورة يطرق الآذان هو موضوع نزول القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ، إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وثاني موضوع فيها هو إبراز دعوة التوحيد، والإلحاح على التمسك بها والإخلاص فيها، حيث قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾، وثالث الموضوعات يتناول تسفيه أنواع الشرك والكفر التي يدين بها المشركون والكافرون، حيث قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ، إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾، وهذا رد على المشركين الذين نسبوا إليه أنه «اتخذ من الملائكة إناثاً» وعلى النصارى الذين نسبوا إليه أنه اتخذ من المسيح ولداً، ﴿ سُبْحَـٰنَهُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾، والموضوع الرابع تصدى فيه كتاب الله للرد على المعتقدات الباطلة بالبراهين القطعية، والدلائل الكونية، مما يضطر إلى التسليم به، ويتواطأ على قبوله: الحس والعقل والوجدان، وذلك قوله تعالى مذكراً بآياته الكونية في الآفاق: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ، يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، وقوله تعالى مذكراً بآياته الطبيعية في الأنفس:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾، ثم عقَّب كتاب الله على الآيات الباهرة التي أبرزها في الأنفس والآفاق، مستخلصاً منها نتائجها المنطقية، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

وبعد هذه الجولة القرآنية في عالم المُلْك والملكوت خاطب الحق سبحانه وتعالى عباده جميعاً، مبيناً لهم أنه سبحانه إنما يريد بهم ولهم خيراً، وأن من اهتدى منهم فلنفسه أحسن، ومن ضل فإنما يضل عليها، وأن كل فرد مسؤول عن نِيَّته وعمله أمام الله، وذلك قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ

ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ

هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ
ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟
ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ
عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾
أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ

فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾
فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن
كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى
عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ
مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع يصف كتاب الله بكل دِقة، وفي إيجاز وإعجاز، نفسية ضعفاء الإيمان من بني الإنسان، ومواقفهم المتناقضة في كل زمان ومكان، ولا سيما الموقف الذي يكونون عليه في حالة الضراء، والموقف الذي ينقلبون إليه في حالة السراء، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (١٠ : ١٢): ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَـٰنَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾، وقوله تعالى في آية ثالثة (١٧ : ٦٧): ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّيٰكُمْ إِلَى الْبَرِّ

أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ ٱلإِنسَـٰنُ كَفُوراً﴾، وقوله تعالى في آية رابعة (٣٩: ٤٩): ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍۭ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وجميع هذه الآيات تسجل على ضعفاء الإيمان ما هم عليه من تناقض وتذبذب وتردد، وتكشف الستار عن خَلَجات نُفوسهم ونبضات قلوبهم في حالتي اليسر والعسر، والشدة والرخاء، فهم حينما تنزل بساحتهم كارثة من الكوارث، أو داهية من الدواهي، يجزَعون ويفزَعون، ويُحسُّون من أعماق أعماقهم بما هم عليه من الضعف والعجز والهوان على الله وعلى الناس، ويدركون بغريزتهم الفطرية أنهم لا يستطيعون لما نزل بهم دفعاً، وأنه لا خلاص لهم من المحنة، ولا نجاة لهم من الكَرْب، إلّا بالالتجاء إلى الله وحده القاهر فوق عباده، ويجدون أنفسهم مدفوعين بدافع قهري وخفي إلى التمرغ في أعتاب مَن بيده المُلك والمَلَكوت، طارقين بَابَه بمنتهى الخضوع والخشوع، حتى إذا ما استجاب الله دعاءهم، بواسع رحمته، وجميل لطفه، نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم، ولم يعُودُوا يتذكرون المحنة التي نَكَّست رؤوسهم، وأثقلت ظهورهم، وأقضت مضاجعهم، وزلزلت كيانهم، بل استانفوا من جديد كل ما كانوا عليه من التظاهر والتجاهر بالفساد والطغيان، ولَجُّوا في العناد والعدوان، وأقبلوا على ممارسة شهواتهم، والانغماس في لذاتهم، والجري وراء أهوائهم، والتسابق إلى الطاعة العمياء، لمن يشركونهم بالله من السادة

والكبراء، وإن كان في رضاهم سخط الله، وفي الاعتماد عليهم شِرْك بالله، وذلك كله من أجل متعة مؤقتة مآلُها إلى زوال، وفي سبيل منفعة عاجلة نهايتُها إلى وبال، وإلى هذا الموقف المزري الذي يقفه ضعفاء الإيمان في وقفتهم الخاسرة، ومقابلتهم لطف الله بالجحود بدلاً من الشكر، وبالإساءة بدلاً من الإحسان، ينظر قوله تعالى في نفس الموضوع: ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً، إِنَّكَ مِنَ أَصْحَـٰبِ النَّارِ ﴾، بينما المتحررون من رِبْقة الشرك الظاهر والخفي، ومن كل عبودية لغير الله، جاءتهم البشرى من الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّـٰغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ، فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾.

وتعالج آية أخرى من هذا الربع بالوصف والبيان، حالة الإنسان الكامل، الذي أكرمه الله بقوة الإيمان، بحيث لا تأخذه سِنَةُ الغفلة والنسيان، فهو قانت خاشع، معلَّق قلبُه بين الخوف والرجاء، إذا خاف فإنه لا يخاف شيئاً إلّا عذاب الله، وإذا رجا فإنه لا يرجو أحداً وإنما يرجو رحمة الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، وأدْرَجت الآيةُ ﴿ ءَانَآءَ الَّيْلِ ﴾، في هذا المقام بالخصوص وهو مَقامُ الذكر والفكر، لأن ساعات الليل في الواقع هي أصلح الأوقات لسكون النفس، وطمأنينة القلب، وتركيز الفكر في مناجاة الرب، وهي أبرك اللحظات للتأمل في جلال الكون وجماله، وإدراك قدرة المكوِّن وكماله. وكما ذُكِرَتْ ﴿ ءَانَآءَ

اللَّيْلِ ﴾، في هذه الآية تنويهاً بقدرها، وإشارةً إلى خفي سرها، فقد ذُكِرَتْ مرة أخرى في قوله تعالى (٣: ١١٣): ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً، مِّنَ اَهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ، يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾.

وحيث أن أسمى غاية للعلم والمعرفة بالنسبة للإنسان هي الوصول إلى «الحقيقة الأولى» التي هي مصدر النور ومنبع الحياة، وربط الاتصال بها قلباً وقالباً، جاء كتاب الله ينوه بها، ويلفت النظر إليها، معتبراً أن كل علم لا يؤدِّي إليها، ولا يصل بصاحبه إلَى إدْراكها، إنما هو نوع من الجهل، بل هو «الجهل المركب الغليظ»، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، في أعقاب قوله تعالى: ﴿ سَاجِداً وَقَآئِماً، يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، فمن لا يرجو الله ولا يخافه معدود بين الجهلاء، وإن كان عند نفسه وعند الناس من العلماء.

وتأتي آية خاصة في هذا الربع لتصف مَآل الخاسرين، ثم تتلوها آية أخرى لتصف مَآل الفائزين، غير أن الربح والخسارة في لغة القرآن لهما ميزان خاص، غير الموازين المتعارفة بين الناس، فالخاسرون في هذا الميدان هم أولئك الذين خرجوا من هذه الدار وقد ضيعوا رأس مالهم، وهو خلاص أنفسهم ونجاتها، وضيعوا الربح الذي كان على مقربة منهم، وهو خلاص أهلهم وذويهم ممن كانوا تحت ولايتهم، فلا هم اهتدوا في أنفسهم، ولا هم أعانوا على الهداية مَن كانوا إلى نظرهم من الأزواج والأولاد

والخَدَم، ولم يَقُوا أنفسَهم وأهليهم ناراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ، أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ، لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾.

أما الفائزون الذين لم تلحقهم خسارة ولا إفلاس فهم على العكس من ذلك: أولئك الذين نجوا بأنفسهم فلم يخسِرُوها، إذ صرفوا حياتهم ـ وهي رأس مَالهم ـ في الرُّشْد والخير والصلاح، ولم يخسروا أهليهم وذويهم، بل قادوهم إلى طرق الخير والبر، فكان ربحهم مضاعَفاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ، وَعْدَ ٱللَّهِ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

وتمضي الآيات الباقية من هذا الربع في تعداد نِعَم الله على خلقه، ووصف مظاهر لطفه بهم مادياً وروحياً، والمقارنة بين نور الإسلام وظلمة الكفر، وآثار كل منهما في النفوس، حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهُۥ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ، فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ، أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ثم تمضي في استعراض خصائص القرآن العظيم الذي يجب أن يظل نِبْراساً للمسلمين إلى يوم الدين، ووَصْفِ ما خَلَع الله عليه من حلل المهابة والجلال، وجعل له من السيطرة على القلوب،

والهيمنة على المشاعر، حيث قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾، حسبما رُوي عن سفيان بن عيينة، (أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد يشبه بعضُه بعضاً، فهذا من «المتشابه»، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، أي في معنيين اثنين، كذكرِ المؤمنين ثم الكافرين، وكوصف الجنة ثم وصف النار، وما أشبه هذا، فهذا من «المثاني» مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (٨٢: ١٤). قال ابن كثير: «وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم عندما يسمعون كلام الله من تلاوة رسوله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون، والأدب والخشية ما لا يلحقهم فيه أحد، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهو من الشيطان».

ومعنى قوله تعالى هنا في وصف كتابه العزيز: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾، إنه نزل بلسان عربي مبين لا التباس فيه ولا انحراف، ولا تناقض ولا اختلاف، على غرار قوله تعالى في

سورة الكهف[1]: ﴿ اِلْحَمْدُ لِلَّهِ اِلذِيَ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ اِلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً ﴾، وقوله تعالى في سورة النساء (٨٢): ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اِللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اِخْتِلَـٰفاً كَثِيراً ﴾.

وخُتِم هذا الربع بضرب المثل للمشرك التي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلاّ الله وحده لا شريك له، وبأن الموت هو مصير جميع الأحياء، وأن الكفار سَيُخاصِم بعضُهم بعضاً في الدار الآخرة، وسيحتج عليهم الرسول بأنه بلَّغهم فكذبوا، ودعاهم فلم يستجيبوا، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اَللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ، وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَـٰنِ مَثَلاً، اِلْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ
إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى
جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم
مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ

قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ
فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا
لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا
هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى
مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ

جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ
نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ
ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾
قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن
رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

الربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم نخصصه للربع الأول من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأول ما يواجهنا في هذا الربع هو تقريعٌ وتوبيخٌ يوجهه كتاب الله لخصُوم الرسالة وأعداء التوحيد، أولئك الذين يفترون على الله الكذب، فينسبون إليه من الصفات والنعوت والشركاء ما هو منزه عنه سبحانه، ثم لا يكتفون بكذبهم وافترائهم على الله، بل يضيفون إليه تكذيب كتبه ورسله دون حياء ولا خجل، وفي إصرار وعناد، فهؤلاء أجرأ خلق الله على الظلم: ظلم الحق، وظلم الحقيقة، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣١: ١٣)، وذلك قوله تعالى في صيغة سؤال على وجه التقرير: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَافِرِينَ ﴾، بمعنى أنه لا أحد أشدُّ ظلماً من هذا الصنف من الخلق، لأنه جمع بين طرفي الباطل، فقد كذَب على الله وكذَّب

رسله، وقال الباطل ورد الحق، وعلى العكس من ذلك أولئك الذين جاءوا بالصدق عن الله، فلم يصفوه سبحانه وتعالى إلاّ بصفات الكمال، ونعوت الجلال، والذين صدّقوهم، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله دون شك ولا جدال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالذِي جَآءَ بِالصِّدقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ، ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ الْمُحْسِنِينَ ﴾، فالذي ﴿ جَآءَ بِالصِّدْقِ ﴾، إشارةٌ إلى الأنبياء والرسل، والذي ﴿ صَدَّقَ بِهِ ﴾، إشارةٌ لأتباعهم من المؤمنين إلى يوم الدين.

وكما أعلن الحق سبحانه وتعالى في الآية السابقة جزاء الظالمين المكذبين إذ قال: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾، أعلن في الآية التالية جزاء الصادقين والمصدِّقين، فقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ، ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ الْمُحْسِنِينَ ﴾، وفي هذه الصيغة من دلائل الرضى والإكرام ما يؤكد أن الله سيكرمهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتَعرِض آيات أُخَر، ما حاوله المشركون ومن لَفّ لفهم من تهديد الرسول وتخويفه بأذى الأصنام وسخط الأوثان، لأنه أشهر عليها الحرب العوان، وناوأها العدوان، وفي نفس الوقت ترسُم نفسُ الآية للرسول عليه السلام، ولكل من سار على نهجه في مقاومة الباطل وأهله، طريق الغلبة والنصر، وذلك بالاعتماد الكلي على الله، والاعتصام بحبله، والثقة بوعده، فقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اَللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ،وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِينَ مِن دُونِهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اَللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي اِنتِقَامٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلَ

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ، هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ، هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

وينتقل السياق فجأة إلى الحديث عن كتاب الله المنزل، وعن الحكمة في نزوله، وعن الرسالة التي يؤديها إلى الناس كافة، مبيناً أن شعار هذا الكتاب الإلٓهي الكريم هو «الحَقّ»، وإن دعوته هي دعوة «الحَقّ»، وأن شريعته هي الدين «الحق»، وأن النهج الذي اختطه للسلوك في جميع مجالات الحياة وجنباتها بالنسبة لجميع الناس هو النهج «الحق»، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾، وكلمة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾، في هذا المقام لها أكثر من معنى، فكتاب الله لم ينزل على رسوله ليصبح تميمة من التمائم، أو يُكتفَى بقراءته على الأموات في القبور، وإنما نزل ليكون حَكَماً بين الناس، حاكماً عليهم، ورائداً موجهاً لهم، حيثما حلوا وارتحلوا، ولا سيما بين المنتمين إلى الإسلام، فإذا اتخذوا القرآن مهجوراً كانوا أحق الناس بالخزي والملام، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى هنا: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾، في أعقاب قوله تعالى قبله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾، مباشرة، دون فاصل بين الاثنين.

وذكَّر كتاب الله الناس أجمعين بما يتعرض له كل إنسان من «الوفاة الصغرى» عند النوم، و«الوفاة الكبرى» عند الموت: وأن بيده سبحانه أرواح الخلق، يمسك منها ما يشاء، ويرسل منها ما يشاء، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وسبق هذا المعنى بتفصيل في سورة الأنعام (٦٠ ـ ٦١).

وفي هذا الربع آية عجيبة هي وحدها كافية لأن تكون إحدى المعجزات، إذ إنها وصفت بكل دقة ملامح الشاكين والمترددين، ومشاعر الملحدين الضالين، لا في عهد الجاهلية الأولى وحدها ولكن في جميع العصور، أولئك الذين إذاذكر الله اشمأزت قلوبهم، وانقبضت نفوسهم، وإذا ذكر الذين من دونه هشوا وبشوا وانطلقت أسارير وجوههم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، والسر فيما عليه هذا الفريق من التنكر للهداية، والتفتح للضلال، هو ما أصابهم من انحراف الفطرة، نتيجةً لسوء التربية وفساد التوجيه، فتنكروا لجميع القيم الروحية، واستهانوا بسائر المُثُل العليا، وأكبرُها وأجلُّها الإيمان بالله، والثقة بتوجيهه، وانشراح الصدر لإشراق نوره، وتلقي مدده، وحيث أن الإسلام دين الإقناع والإقتناع، لا دين الإكراه والاستكراه، فقد جاء التعقيب مباشرة على الآية التي وصفت المنحرفين الضالين، بقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ، أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

ويُختَم هذا الربع الأول من الحزب السابع والأربعين بأَرْجَى آية وردت في كتاب الله، إذ أنها تفتح باب التوبة والإنابة في وجه العصاة اليائسين، والمذنبين القانطين، بعدما أغواهم الشيطان، وأسرفوا في العصيان، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، قال ابن عباس: «من أَيْأَسَ عباد الله من التوبة بَعْدَ هذا، فقد جحد كتاب الله عزّ وجلّ»، وقال ابن كثير في تفسيره: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة، من الكَفَرة وغيرهم، إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زَبَد البحر، ولا يصح حملها على غير التوبة، لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه، ولا يقنطَنَّ عبدٌ من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾، وقال عزّ وجلّ (٤ : ١١٠): ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ
ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ
وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ
مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾
أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ
حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾
بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ
مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى
ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾
وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ
إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن
مِّنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ
وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَالسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا
مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾
وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ
وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ

هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾
قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى
ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ
لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾
وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ
رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

يتناول حديث اليوم تفسير الربع الثاني من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة الزُّمر المكية: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ، وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

في مطلع هذا الربع تتناول الآيات البيّنات وصف عدة أصناف من أهل الزيغ والضلال، فتُسجّل ما كانوا عليه من سوء الحال في الدنيا، وتتنبأ بما سيتعللون به من أتفه الأسباب والعلل في الدار الآخرة، فمنهم الساخر المستهزىء الذي كان يتهكم على الوحي والرسالة والإيمان، ويعتبر الحياة التي يقضيها مجرد مهزلة ومسخرة، بحيث لا يلزم التفكير فيما وراءها، ولا الاستعداد لما بعدها. ومنهم الفاسق الغارق في أوحال الفسق، والمتردي في مهاوي الفساد طيلة حَياته، دُون أن يحاول إصلاح حاله، فضلاً عن أن يفكر في مصيره، ومنهم المسيء إلى نفسه وإلى الناس، المتجني على شخصه وعلى المجتمع، دون أن يفكر في اكتساب

حسنة أو إسداء إحسان، حتى إذا فارقوا الدنيا وأتاهم اليقين أخذوا يَعَضُّون بَنان الندم، ويحاولون أن يبرِّرُوا أمام أنفسهم وأمام الله مواقفَهم الشاذة، وأعمالهم المنكرة.

فالساخر المتهكم يدرك حينئذ أن الأمر أمر جَدٍّ لا هزل، وَيَتَيَقَّنُ أنه قد فرّط في حق الله، فتذهب نفسه حسرات، ويقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنۢبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّـٰخِرِينَ ﴾، لكن ماذا تنفعه الحسرة، وماذا يجديه الاعتراف بعد فوات الإبّان؟.

والفاسق الذي أحاطت به سيآته من كل جانب يحاول أن يَجِدَ له تُكَأَة يتكيء عليها في عقيدة «الجَبْرية والقَدَرية» فيقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾، وهذه تَعِلَّة كافة الفسّاق والمنحرفين، في جميع العصور والأزمان، كأنَّ الله لم يبعث الرسل، وكأنه لم يمنح للناس جميعاً مَلَكة العقل والتمييز، ـ وهي الميزان الذي يزنون به حقائق الأشياء ـ، ووحيَ الوجدان والضمير، ليختاروا طريق الهدى، ويتجنبوا طريق الضلال «وهديناه النجْدَيْن».

والمسيء الذي لم يعرف في حياته طريق الحسنة والعمل الصالح، ولم يتمتع أبداً بلذة الإحسان والبر، يتمنى العودة إلى الدنيا ليدارك ما فات، وهيهات هيهات، فيقول فيما تحكي عنه الآية: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وأُمنية العودة إلى الدنيا بعد الإقامة في دار العذاب هي

أمنية جميع المسيئين، الذين يظلون طيلة حياتهم سكارى بعبادة أنفسهم وشهواتهم، حتى إذا ما حلوا بدار الجزاء ندموا على ما ضيعوا من الفرص في دار العمل، فالواجب على كل إنسان عاقل أن يبادر لاستثمار وقته ـ ما دام في الحياة الدنيا ـ استثماراً جِدِّياً، يضمن له الأمن والنعيم، عندما ينتقل إلى الدار الآخرة، وذلك باتباع النهج القويم، الذي رسمه الله لسلوك الصالحين من عباده، وبالتنازل عن مرضاة النفس الأمارة بالسوء، في سبيل مرضاة الله ورسوله، وإلى هذه المعاني وما يتصل بها يشير قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ، وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم، مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ورداً على أولئك المترددين الضالين، المتعللين بالعلل الفارغة، والمتمنين للأماني الكاذبة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَىٰ، قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾، وهذا خطاب لمن كان يسخر من دين الله، ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾، وهذا خطاب لمن كان ينتهك حرمات الله ويتعدى حدوده، ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، وهذا خطاب لمن لم يشكر نعمة الله عليه، فاستعملها في السيآت دون الحسنات، وفي الإساءة دون الإحسان.

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى وصف الحالة التي يكون

عليها أهل النار، والحالة التي يكون عليها أهل الجنة، فالذين كَذَبوا على الله وكفروا به وافتروا عليه بما خَيَّلَت لهم أوهامهم الفاسدة، وعقولهم الضالة، سينالهم من عذاب الله وعقابه، ما يجعلهم عبرة لمن اعتبر، وسينالهم من التقريع والتوبيخ في دار العذاب، والاستجواب والحساب، ما يُنكِّس رؤوسهم، ويُخجِل كبرياءهم.

أما أهل النار فقد جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِّحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا. قَالُواْ: بَلَىٰ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

ومما تجب ملاحظته في هذا المقام ما ورد فيه من التأكيد في وصف أهل النار بصفة «التكبر»، فقد وُصِفوا به في هذا الربع مرتين متتاليتين، المرة الأولى في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، والمرة الثانية في قوله تعالى: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾. والسر في ذلك أن خصلة «الكِبْر» وممارسة «التكبر» ـ مما يعتاده ضعفاء النفوس وسخفاء العقول ـ هي أكبر سبب في ضلال الضالين، وسخرية الساخرين، وأكبر حافز للكافرين والفاسقين على تحدي الحق المبين، ومن لم تصبه عاهة «الكِبْر» كان أسرع إلى قبول النصيحة فَوْرَ سماعها، وإلى اتباع الهداية بمجرد إشراق نورها.

وأما أهل الجنة الفائزون فقد جاء في وصفهم قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ، لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾، ثم يصف كتاب الله كيف تكون ارتسامات أهل الجنة وانطباعاتهم، لأول حلولهم بدار النعيم، فيقول حاكياً على لسانهم: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾، أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم وجزاؤكم، كما في تفسير ابن كثير.

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة عند حلولهم بها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾، ينظر إلى قوله تعالى في آية أخرى حاكياً الدعاء الذي كان يجري على ألسنتهم في الدنيا: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

وقوله تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾، المراد بالأرض هنا أرض الجنة نفسها، كما فسر ذلك أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدِّي وابن زيد، بدليل قول أهل الجنة مباشرة بعد ذلك فيما تحكيه الآية عنهم: ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾،

أي: حيث شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا، وبمثل هذا المعنى فسر ابن كثير قوله تعالى في الآية الأخرى (٢١: ١٠٥): ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فالأرض التي يرثها الصالحون من عباده إرثاً خالداً مؤبّداً هي أرض الجنة، لا هذه الأرض التي يعيش الإنسان على ظهرها إلى الوقت المعلوم، والتي يشير إليها قوله تعالى (٣٠: ٢٥): ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وقولُه تعالى بعد فصل القضاء في مصير الكافرين والمتقين: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، تصويرٌ للحالة التي يكون عليها الملائكة وهم محدقُون بالعرش، من الطمأنينة والارتياح، عندما يرون كل فريق قد نال جزاءهُ العادل، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٤٢: ٧)، فتنطلق ألسنتهم بحمد الله وتقديسه وتنزيهه، إذ هو الحَكَم العدل الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة.

وقولُه تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، الضمير هنا إما أن يعود على أقرب مذكور، وهو لفظ ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾، بمعنى أن الملائكة يتفاضَلُون أيضاً في الثواب، نظراً لِتَفاضُل مراتبهم وتفاضل أعمالهم، وذلك هو القضاء بينهم بالحق، وإما أن يعود الضمير على العباد كلهم والخلائق بأجمعهم، ويكون القضاء بينهم بالحق هو إدخال بعضهم النار، وإدخال بعضهم الجنة.

وخُتِم هذا الربع بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَـٰلَمِينَ ﴾، وقد فسره ابن كثير على وجه طريف يُعَدُّ من لَطَائف التفسير فقال: «أي نَطَقَ الكونُ أجمعه، ناطقه وبَهِيمُه، بالحمد لله رب العالمين، في حكمه وعدله، ولهذا لم يُسنِد القول إلى قائل، بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت لله بالحمد، ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنۢبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣
مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي
الْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ
كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ
فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَٰتُ رَبِّكَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۝٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ
حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ

مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا
ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ
خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ
كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ
ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ
ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى

ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم نخصصه لتفسير الربع الثالث من الحزب السابع والأربعين، في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة غافر المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ، تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنبِ، وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ، ذِي الطَّوْلِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

من الآيات التي تستلفت النظر بوجه خاص في مطلع هذه السورة قولُه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ، فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَٰدِ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ، وَجَٰدَلُواْ بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، ففي هذه الآيات وصف مُوجَز للصراع القائم المستمر بين الحق والباطل، والضلال والهدى، ووصف للمَعركة الفاصلة بين الاثنين، وتعريف بأن مآل هذه المعركة دائماً إلى غلبة الحق

وانهزام الباطل، وبأن العقاب الإلٓهي يتدخل في نهاية الأمر، ليضع حداً لِكَذب المكذبين، وجدل المبطلين.

وها هنا يكشف الحق سبحانه وتعالى النقاب عن حقيقة كبرى قلَّما يلتفت إليها كثير من الناس، ألا وهي أن جميع ما خلقه الله من العوالم والأكوان، بما فيها من جماد ونبات وحيوان، يَدين كله بالطاعة لله، ويسبح بحمده، ولا يجادل في آية من آياته، ما عدا شرذمة كافرة مستهترة من بني الإنسان، هي التي تجادل في آياته، وتقف موقف التحدي لتوجيهاته، وتتبرم بطاعته، وتتصدي لمعصيته، ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، لكن الله تعالى يُطَمْئِن رسوله والمؤمنين في نفس الوقت على أن مصير هذه الشرذمة من الكافرين، الذين يتظاهرون بالكِبْر والجبروت والاستعلاء، سيكون مصيراً مُفْجِعاً ومُفزِعاً، وأن الثمرة الوحيدة التي سيجنونها من جدالهم في آيات الله، وتصديهم للكفر به، عناداً واستكباراً، لن تكون إلاّ الخيبة والبوار، والهزيمة المُرة، في الدنيا أولاً، والآخرة ثانياً، ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾، ولقد صدقَ لله نبيَّه وعده، عندما انهزم الشرك والمشركون في جزيرة العرب أولاً، ثم في غيرها من بقية أطراف العالم ثانياً، وظهر الإسلام على غيره من المعتقدات الباطلة، في كثير من بقاع المعمور، وها هو لا يزال يشق طريقه المرسوم، إلى أن يتم له النصر والظهور. وكما مرت في الربع الماضي آية خاصة في خاتمة سورة الزُّمَر، تصف وضع الملائكة وهم حول العرش يسبحون الله ويحمدونه (٧٥): ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾، جاءت في هذا الربع أيضاً آية كريمة أخرى تهز أعطاف المؤمنين الصادقين، إذ في هذه الآية تحدَّث كتاب الله عن حَمَلَة العرش من الملائكة، وأنهم ـ عِلَاوَة على كونهم يسبحون بحمده سبحانه ـ يتطوعون بالاستغفار للذين آمنوا من أهل الأرض، وفيها حكى كتاب الله نفس الأدعية التي يَدْعون بها ربهم وهم في الملأ الأعلى لخير المؤمنين، مما يُعطِي الدليل القوي على متانة «رابطة الإيمان» التي تجمع بين ملائكة السماء والمؤمنين في الأرض، ويُوضِّح إلى أي حد بلغت درجة التعاطف والتجاوب بين هاذين الفريقين من المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ اِلذِينَ يَحْمِلُونَ اَلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فها هنا يبين كتاب الله لكافة المؤمنين في الأرض أنهم ليسوا غرباء في هذا الكون ولا مجهولين، بل إن لهم إخواناً في الله يفكرون فيهم وفي مصيرهم، من عالم الملائكة والملأ الأعلى، ولا سيما بين حَمَلة العرش المقربين إلى الله، فها هم الملائكة، إخوان المؤمنين، يتوجهون إلى الله في أدب وخشوع، طالبين من الله لإخوانهم في الأرض، توبةً من «واسع الرحمة» ومغفرةً من «واسع العلم»، ممهِّدين للدعاء، بهذا النداء: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾، ثم يدْعُون لإخوانهم المؤمنين التائبين، الملتزمين للصراط المستقيم، بغفران الذنوب، والنجاة من الكروب، ﴿ فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ اَلْجَحِيمِ ﴾، ولا يكتفون بهذا الدعاء وحده، بل يضيفون إليه دعاء ثانياً يتضمن التماس الوفاء من الله بوعده الصادق، وإدخالَ المؤمنين إلى جنات عَدْن، وها

هنا لا يَقصُرون الدعاء على المؤمنين وحدهم، بل يُدرِجون في دُعائهم ويدمجون فيه كل من صلَح من آباء المؤمنين، وأزواج المؤمنين، وذريات المؤمنين، سائلين لهم من الله جميعاً الرضى والرضوان، والإلتحاق بهم في جنات عَدْن، تتميماً للنعمة عليهم، بجمع الشمل في دار البقاء، بعد انتشاره في دار الفناء: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَـدْنٍ اِلتِي وَعَـدتَّهُمْ، وَمَن صَلَحَ مِنَ ـابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَـٰتِهِمْ، إِنَّـكَ أَنتَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وقولُه تعالى على لسان الملائكة: ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾، إخراجٌ لمن لم يكن من الصـالحين من آباء المؤمنين أو أزوَاجهم أو ذرياتهم، فهؤلاء لا يلحقون بهذا الركب في الآخرة، بعدما فارقوه عقيدةً وسلوكاً، طيلة حياتهم وهم في الدنيا، ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ (١١: ٤٦)، ﴿ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (٢٣: ١٠١).

ويختم حَمَلة العرش من الملائكة دعاءهم المستجاب في الملأ الأعلى لخير المؤمنين، بالتضرع إلى الله أن يحول بين هؤلاء وبين ارتكاب السيآت، وأن يحميهم من العِثَار في مزالقها والسقوط في مهاويها، مبينين أن وقاية الله للمؤمن من ارتكاب السيآت تُعَدُّ أجل رحمة وأعظم فوز، إذ أن السيئة تدعو إلى مثلها حتى تجر صاحبها إلى الهلاك والبوار، ويكون من أهل النار: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ، وَمَن تَقِ اِلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ، وَمَن تَقِ السَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ

فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾، يدل على أن المعنى الأصلي المراد من استعمال كلمة «التقوى» هو أن يجعل المؤمن بينه وبين ارتكاب السيآت وممارستها حائلاً قوياً، وحاجزا حصيناً، وأن يتخذ للوقاية منها جميع التدابير.

ويَمضِي الحديث في هذا الربع من كتاب الله، في وصفِ ما أعده الله من العقاب والعذاب لمن دعاهم الرسول إلى الإيمان، فأصروا على الكفر والضلال، ووَصْفِ ما ينالهم يوم القيامة من مَقْت الله وخزيه البالغ، عِلاوة على المقت الذي يشعرون به آنذاك من أنفسهم نحو أنفسهم، من أعماق الأعماق، وذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ، قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ، فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾، لكن لا سبيل لهم إلى الخروج ولا رجاء، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

ولا بد من وقفة خاصة عندما حكاه كتاب الله على لسان الكافرين الذين كانوا يكذبون بالبعث والدار الأخرة، ثم لما استقروا في دار الجحيم، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾، فما معنى الموت مرتين، وما معنى الحياة مرتين، وما هو ترتيب الموتَتَيْن والحياتين؟.

والجواب المأثور في هذا الصدد عن عبد الله بن مسعود

وابن عباس وجملة من مفسري السلف هو أن أحسن تفسير لهذه الآية يؤخذ من نص الآية الثانية والعشرين، الواردة في سورة البقرة، حيث قال تعالى مخاطباً للكافرين محتجاً عليهم (٢٨): ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ، وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً، فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، فمعنى ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً ﴾، في هذه الآية: كنتم عَدَماً قبل أن يمنّ الله عليكم بنعمة الإيجاد، على حد قوله تعالى في آية أخرى (٧٦: ١): ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾، ومعنى ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾: أخرجكم من العدم ونفخ فيكم روح الحياة، ومعنى: ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أي: يقبض أرواحكم عند حلول الأجل ومفارقة الدنيا، ومعنى ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، أي: يبعثكم من مرقدكم يوم القيامة للحساب في دار الجزاء، وبذلك يتضح معنى المَوتَتَيْن ومعنى الحياتين، وهكذا يكون الموت الأول ـ على سبيل المجاز ـ هو العدم السابق قبل الخلق، والموت الثاني بالنسبة إليه هو قبض الروح عند مفارقة الدنيا، وهذا هو أول «موت حقيقي» بعد ممارسة الحياة، وقد نفى كتاب الله الابتلاء به في دار النعيم بعد الابتلاء به في الدنيا، فقال تعالى في سورة الدخان (٥٦): ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ، إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، أما الحياة الأولى فهي الخلق والإيجاد بعد العدم، أو الحياة الثانية فهي الإحياء للبعث يوم القيامة، وهذا القول في تفسير الآية هو الذي اختاره ابن عَطِيَّة، وصححه ابن كثير، ترجيحاً لتفسير القرآن بالقرآن. ويسجل كتاب الله ما يتميز به الموقف في يوم القيامة من الهول والجلال والسلطان الإلٓهي المطلق، والعدل الإلٓهي الكامل،

إذ يقول: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ويقول: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ويقول في النهاية: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين
في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي اِ۬لَارْضِ فَيَنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُ۬لَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمُۥٓ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي اِ۬لَارْضِ فَأَخَذَهُمُ اُ۬للَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اَ۬للَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اُ۬للَّهُ
إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ اُ۬لْعِقَابِ ۝٢٢ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ[1]
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ
فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا
قَالُواْ اُ۟قْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ اَ۬لَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَاسْتَحْيُواْ
نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ اُ۬لْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٢٥
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيَ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥ إِنِّيَ أَخَافُ
أَنْ يُّبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يَّظْهَرَ فِي اِ۬لَارْضِ اِ۬لْفَسَادُ ۝٢٦ وَقَالَ

مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ اِ۬لذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِےٓ ءَايَٰتِ اِ۬للَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ
اَتِيٰهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اَ۬للَّهِ وَعِندَ اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ اُ۬للَّهُ عَلَيٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَامَٰنُ اُ۪بْنِ لِے صَرْحاً لَّعَلِّيَ أَبْلُغُ اُ۬لَاسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعُ إِلَيٰٓ إِلَٰهِ مُوسَيٰ وَإِنِّے لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِباً
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصَدَّ عَنِ اِ۬لسَّبِيلِ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِے تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ اَ۬لذِےٓ ءَامَنَ
يَٰقَوْمِ اِ۪تَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَ۬لرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ اِ۬لْحَيَوٰةُ اُ۬لدُّنْيا مَتَٰعٌ وَإِنَّ اَ۬لَاخِرَةَ
هِيَ دَارُ اُ۬لْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَيٰٓ إِلَّا
مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ اُنث۪يٰ وَهُوَ مُومِنٌ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ اَ۬لْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم نعالج فيها الربع الأخير من الحزب السابع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلْاَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الـذِينَ كَانُـواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَو اُنثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

في بداية هذا الربع يعرض القرآن الكريم على أنظار المشركين الذين لا يزالون متمسكين بمعتقدات الجاهلية الأولى ومن ماثلَهم نبذة من أحوال الأمم الغابرة، مبيناً بعض ما جرى لها من مجريات، ونزل بها من أحداث، وخاصة ما دار في ديارها من صراع عنيف بين دعوة الأنبياء والرسل الذين أُرسِلوا لهدايتها، ودعاية المتكبرين، والجبابرة الضالين، الذين أَضلوها وأصروا على التحكم في مصيرها.

وفي نفس الوقت يحضّ كتاب الله كل باحث عن الحق، متطلّعٍ إلى معرفة الحقيقة في أمر النبوات والرسالات، على أن يسير في أرض الله باحثاً منقباً لاستكشاف آثار الأمم الغابرة،

ومشاهدة البقية الباقية من حضارتها الذاهبة، ففي ذلك العبرة البالغة، والدليل القاطع، على المصير المظلم الذي ينتظر الضالين، والنهاية المحزنة التي تصيب الكافرين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي اِلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُواْ هُمُ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي اِلْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اَللَّهِ مِنْ وَّاقٍ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّاتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، ففي هذه الآية وما ماثلها يبين الحق سبحانه وتعالى ما أصاب الأمم الغابرة، والحضارات القديمة، من التلاشي والزوال، وما نزل بساحتها من الدمار والاضمحلال، ويؤكد كتاب الله أن أكبر سبب للدمار الذي أصابها، والاضمحلال الذي نزل بها، هو أنها سلكت طريقاً مضاداً من كل الوجوه، للتوجيه الإلهي الرشيد، الذي جاء به الأنبياء والرسل، ولم تتبع سنة الله التي رسمها لصلاح الخلق ورشادهم في هذه الدنيا، فانقلبت قوتها القاهرة، إلى ضعف وفناء، وأصبحت آثارها الباهرة، عبارة عن أطلال وأشلاء، رغم كل ما بذلته في سبيلها من المال والجهد والعناء، ﴿ وَكَانُواْ هُمُ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي اِلْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اَللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

وتتولى الآيات التالية فيما بعد عَرْض نموذج حَيٍّ من الحضارات الزائلة والأمم الغابرة، وذلك بالحديث عن قصة موسى الكليم وفرعون مصر، حديثاً يكشف الستار، عما جرى من الصراع بين الحق والباطل في تلك الديار، فها هو موسى

يرسله الله إلى فرعون وهامان وقارون، اللذَيْن هما أقرب المقربين إليه، وها هو فرعون يحاول أن يقتل موسى للتخلص منه، وها هو موسى يتحصن بالله ويعتصم به، فيعصمه من عدوان فرعون، وها هو فرعون ورجالُه يضعون خطة للقضاء على دعوة موسى، بقتل أبناء الذين آمنوا به، حتى لا يبقى لدعوته أيّ أثر في الجيل الصاعد، وها هو فرعون يُدلِّس على قومه، مصرّاً على تضليلهم، محاولاً إقناعهم بوجوب التمسك بما هُم عَليه من المعتقدات الباطلة، والتقاليد الزائفة، مدعياً أمامهم أنه يخاف عليهم من أن يبدِّل موسى دين أجدادهم، وأن يُظهر الفساد في ديارهم، مثيراً بذلك حَمِيَّتهم، وموقداً نار التعصب في نفوسهم، بل ها هو فرعون يتحدى قدرة الله ساخراً مستهزئاً، فيطلب إلى هامان أن يبني له صرحاً شامخاً، وبُرجاً مرتفعاً في عَنان السماء، عسى أن يطرق بيده أبواب السماوات، و «يطَّلِعَ إلى إلَاه مُوسَىٰ» على حد تعبيره الذي حكاه عنه كتاب الله، إذ أن فرعون في ذلك الوقت لم يكن يعترف بإلَه موسى إلَهاً له وللعالَمين، فضلاً عن أن يعترف بصدق موسى وكونه من المرسلين، وإلى هذه المواقف تشير الآيات التالية: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ، فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ، فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ، وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ، إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ، أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ابْنِ

لِي صِرْحاً لَّعَلِّيَ أَبْلُغُ اَلاَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ اَلسَّمَٰوَٰتِ، فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِباً ﴾.

وجاء تعقيب الآيات على قصة فرعون، وخطته الماكرة للقضاء على موسى والتخلص من دعوته، بما يؤكد فشل خطة فرعون ورجاله بدءاً وختاماً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، وقوله تعالى من قبل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

ويبرز كتاب الله في وسط هذه المعركة القائمة بين الحق والباطل، ما تركته دعوة موسى ـ رغماً عن مقاومة فرعون ورجاله ـ من الأثر العميق والحميد بين آل فرعون أنفسهم وبعض قرابته الأقربين، فالبذرة الصالحة مَتى وجدت تربة طيبة أسرعت إلى النمو فوراً، ذلك أن رجلا من آل فرعون قد شرح الله صدره للإيمان بما جاء به موسى من عند الله، لكنه كَتَم إيمانه عن فرعون فترة من الزمن، ولم يعلنه لأحد من الناس، وبدافع من إيمانه الخفي المكتوم أخذ على عاتقه الدفاع عن موسى حتى لا يناله أذى فرعون، وبسبب تدخله لم يُقدِم فرعون على تنفيذ حكم الأعدام في موسى، بل إن هذا المؤمن من آل فرعون مضى في سبيل الدفاع عن عقيدته الإيمانية الجديدة خُطوة أبعد، فأخذ يمهد السبيل ويهيء الجوّ، حتى يتمكن موسى من أن ينشر دعوته بين الناس وهو آمن على نفسه وعلى دعوته، دون مضايقة ولا متابعة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّومِنٌ مِّنَ ـالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً اَنْ يَّقُولَ رَبِّيَ اَللَّهُ، وَقَدْ جَآءَكُم

بِالْبَيِّنَـٰتِ مِنَ رَّبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَـٰذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾.

وينص كتاب الله على أن مؤمن آل فرعون ـ وإن كان لم يعلن إيمانه بموسى في الحين ـ فقد تولى بنفسه نشر جزء مهم من دعوة موسى بين أعضاء الحاشية التابعة لفرعون، بصفة أنه مجرد «ناصح لقومه أمين» لا بصفة كونه تابعاً من أتباع موسى وصحبه، وذلك ما تحكيه الآيات الكريمة على لسان «مؤمن آل فرعون» نفسه إذ يقول: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، ظَـٰهِرِينَ فِي اِلْأَرْضِ، فَمَنْ يَّنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اِللَّهِ إن جَآءَنَا ﴾، ﴿ وَقَالَ اَلذِيٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ اِلْاَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ، وَمَا اَللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ، وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ اَلتَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اَللَّهِ مِنْ عَـٰصِمٍ ﴾، ﴿ وَقَالَ اَلذِيٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَلرَّشَادِ، يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ اِلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَـٰعٌ، وَإِنَّ اَلْاَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾.

ومُؤمنُ آل فرعون باختياره لهذا التعبير بالخصوص وهو: ﴿ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَلرَّشَادِ ﴾، كان يقصد، من بعيد، إبطالَ ما ادعاه فرعون أمام قومه عندما قال لهم مضللاً مزوّراً: ﴿ مَآ أُرِيكُمُ إِلَّا مَآ أَرىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمُ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾، وذلك لنقض ادعائه الباطل، وهكذا أيد الله موسى وهو يصارع فرعون ويقارعه، فلم تذهب دعوته سُدىً، ورزقته العناية الإلّهية من بين آل فرعون أنفسهم سنداً وَمَدداً.

ومما يحسن التنبيه إليه من مفردات هذا الربع كلمة «سُلْطَٰنٍ»، وكلمة «اِلْأَحْزَابِ»، وكلمة «اَلتَّنَادِ»، فقد وردت كلمة «سُلْطَٰنٍ»، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ثم في قوله تعالى: ﴿اِلذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِ اِللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ اَتَيٰهُمْ﴾، والمراد بها في كلتا الآيتين: الحجة والبرهان، التي تفرض نفسها على الخصم، ولا يسعه عند سماعها إلّا الاقتناع والإذعان، ووردت كلمة «اِلْأَحْزَابِ»، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اَلذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ اِلْأَحْزَابِ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، وكما استعملها كتاب الله في «سورة الأحزاب» للتعبير عن المجتمعين الذين تحالفوا على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، استُعملت في هذا الربع وغيره من بقية السُّور، للتعبير عن جميع من تَحَزَّبوا على أنبياء الله ورسله، وتصدَّوا لهم بالمعارضة والمقاومة في مختلف الأجيال والعصور، فكان لكل «حزب» منهم يومه الموعود، ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ اَلْأَحْزَابِ﴾ (٣٨: ١١)، ووردت كلمة «اَلتَّنَادِ»، في قوله تعالى على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ اَلتَّنَادِ﴾، وهي مصدر: «تَنادَى القومُ، أي نادى بعضُهم بعضاً. قال ابن عباس وغيره: «التناد» خفيفة الدال، هي التنادي، والمراد «بيوم التناد» يوم القيامة، وسمي بذلك لما يقع فيه من نداء الناس بعضهم بعضاً عند قيام الساعة والتوجه إلى المحشر، وما يقع فيه من مناداة كل قوم بأعمالهم عند الحساب،

ومناداةِ أهل النار لأهل الجنة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ، قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (٧: ٥٠)، ومناداةِ أهل الجنة لأهل النار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ (٧: ٤٤)، ومناداةِ: «أَصْحَابِ ٱلْأَعْرَافِ»، للوافدين عليهم لتمييز أهل الجنة من أهل النار، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ (٧: ٤٨)، قال ابن كثير: (واختار البغوي أن يوم القيامة سمي «بيوم التناد» لِمجموع هذه المعاني، وهو قول حسن جيد، والله أعلم).

الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ
جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾
إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

وَمَا يَسْتَوِے اِ۬لَاعْمَيٰ وَالْبَصِيرُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ وَلَا اَ۬لْمُسِےٓءُ قَلِيلاٗ مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
إِنَّ اَ۬لسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَ۬لنَّاسِ
لَا يُومِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ اُ۟دْعُونِےٓ أَسْتَجِبْ لَكُمُۥٓ
إِنَّ اَ۬لذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِے سَيُدْخَلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اَ۬للَّهُ اُ۬لذِے جَعَلَ لَكُمُ اُ۬ليْلَ لِتَسْكُنُواْ
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً اِنَّ اَ۬للَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَ۬لنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَ۬لنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اُ۬للَّهُ رَبُّكُمْ
خَٰلِقُ كُلِّ شَےْءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّ۪يٰ تُوفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَٰلِكَ يُوفَكُ اُ۬لذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ اِ۬للَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾
اَ۬للَّهُ اُ۬لذِے جَعَلَ لَكُمُ اُ۬لَارْضَ قَرَاراٗ وَالسَّمَآءَ بِنَآءٗ
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ اَ۬لطَّيِّبَٰتِ
ذَٰلِكُمُ اُ۬للَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَٰرَكَ اَ۬للَّهُ رَبُّ اُ۬لْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾
هُوَ اَ۬لْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ اُ۬لدِّينَ
اَ۬لْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ اِ۬لْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديثنا اليوم هو الربع الأول من الحـزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمُ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

لا تزال الآيات البيّنات تحكي في هذا الربع ذيول قصة موسى وفرعون، وتصف الدور الإيماني الكبير الذي اضطلع به «مؤمن آل فرعون» بعدما كان يكتم إيمانه بموسى ورسالته، فانتقل تدريجياً من مرحلة الكتمان، إلى مرحلة الجهر بالإيمان، وأخذ يوجه النقد اللاذع لما عليه فرعون وقومه من معتقدات باطلة، لا علاقة لها بالحق والصدق، لا من قريب ولا من بعيد، مبيناً لهم أن ما يَدْعُونه ويعبدونه من دون الله لا يضر ولا ينفع، وأن التعلق بغير الله محض ضلال وخبال، وذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون بعد ما جَهَـر بإيمانه: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَالِي أَدْعُـوكُمُ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَآ أَدْعُوكُمُ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ، لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ

إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى العناية الإلٓهية التي عصمت «مؤمن آل فرعون» من أذى فرعون ومكره، كما عصمت موسى من قبله، فلم تمتد إليه يد فرعون بالقتل والتعذيب، بينما تَعرَّض فرعون ورجاله لعقاب الله وعذابه، فكانوا مضرب الأمثال لمن بعدهم من أهل الكِبْر والجبروت، وذلك قوله تعالى عن مؤمن فرعون أولاً: ﴿ فَوَقَيٰهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾، وعن آل فرعون ثانياً: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ الْعَذَابِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾، يستفاد منه أمران:

الأمر الأول: أن فرعون وآله ممن كذَّبوا موسى ولم يؤمنوا برسالته يعذبون باستمرار، عقاباً لهم من الله، فأرواحهم تُعرَض على النار صباحاً ومساءً منذ عوقبوا بالغَرَق إلى قيام الساعة.

الأمر الثاني: أنه إذا قامت القيامة ووقع النشر والحشر والحساب فإن الحق سبحانه وتعالى يأمر خَزَنة جهنم بأن يدخلوا فرعون وآله أشد العذاب ألماً، وأعظمه نكالاً، جزاءً وفاقاً. قال ابن كثير في تفسيره: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿ النَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾»، ثم بيّن ابن كثير: أن هذه الآية إنما دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصّاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم تدل عليه إلاّ السنة، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدُك، حتى يبعثك الله عز وجلّ إليه يوم القيامة»، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر.

ويعقّب كتاب الله على ما يتعرض له الأنبياء والرسل ومن آمن بهم من المحن والمتاعب، مبيناً ما ينالهم في النهاية، بعد الثبات والصبر، من الفوز المبين، والنصر المكين، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى في صيغة من التأكيد لا تأكيد فوقها: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾.

ويصف كتاب الله ـ بمناسبة ذكره لقصة موسى وفرعون ـ ما يكون عليه يوم القيامة حالُ الأقوياء الضالين المضلين، وحال الضعفاء من أتباعهم المستضعفين، حيث يحتج الأتباع على المتبوعين والمَرْءُوسون على الرؤساء، طالبين منهم أن يتحملوا عنهم بعض أثقالهم، وأن يقوموا مقامهم في أخذ نصيبهم من العقاب والعذاب، إذْ أنهم إنما ذهبوا ضحية تضليلهم، وفريسة أغوائهم،

لكن كُبَرَاءهم الذين استكبروا عن قبول دعوة الحق يجيبونهم صاغرين محْزونين، معتذرين لهم بأنهم هم أيضاً لهم نصيبهم من النار، بل إن نصيبهم من العذاب أكبر وأشد، على قدر ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، إذ كانوا قدوة سيئة «فالمرء في ميزانه أتباعه»، ومن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» كما قال عليه الصلاة والسلام، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي اِلنَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ اَلنَّارِ؟ قَالَ اَلذِينَ اَسْتَكْبَرُوٓاْ: إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ، إِنَّ اَللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ اَلْعِبَادِ ﴾.

ثم تنتقل الآيات الكريمة للحديث عن بعض المفارَقات التي تبرز بين المعذبين في النار، فها هم أولئك الذين كانوا طيلة حياتهم يسخَرون من الإيمان والمؤمنين، ويستهزئون بالرسالة والرسل، ويكفرون بالله أو يشركون به غيره، يعُودون في دار العذاب إلى صوابهم، ويدركون ما هم عليه من الضعف والهوان، لكن بعد فوات الأوان، ويمدُّونَ يَد الضراعة إلى «خَزَنة جهنم» أنفسهم، طالبين منهم صالح الدعاء، عسى أن يخفف الله عنهم العذاب ولو يوماً واحداً، إلاّ أن «خَزَنة جهنم» يوجهون إليهم سؤال استفسار واستنكار في وقت واحد، إذ يسألونهم عن الرسل هل جاؤوهم بالبينات؟ هل بلَّغوهم الرسالة أم لا؟ فلا يسع ضيوف جهنم أيّ إنكار أو استنكار، بل يعترفون بأن الرسل قد بلَّغوا رسالاتهم عن الله كاملة غير منقوصة، وحينئذ يأمر خَزَنَةُ جهنم أولئك المعذبين أن يتولوا الدعاء لأنفسهم بأنفسهم، ويرفضون

الدعاء لهم، إذ لا يستطيعون التدخل في شأنهم، ولا الشفاعة فيهم لتخفيف العذاب، وهم يعرفون مُسْبَقاً أن دعاء الكافرين الذين لم يتوبوا من كفرهم ـ وهم في حياتهم ـ لا يقبل ولا يستجاب، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ، قَالُوٓاْ: أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ. قَالُواْ: بَلَىٰ: قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴾.

وتناولت آيات هذا الربع بالإشارة ذكر موسى عليه السلام، وذكر بني إسرائيل قبل أن ينحرفوا ويُحرِّفوا، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾. ثم اتجهت الآيات الكريمة إلى مجابهة منكري البعث الذي يُصِرُّون على إنكاره دون حجة ولا برهان، كِبْراً منهم عن الانقياد للحق، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَيٰهُمْ، إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾، وتعبيراً عما تُمْنَى به مخططاتُهم من خيبة وفشل، قال تعالى في نفس السياق: ﴿ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ﴾، وأتبعه بقوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. إشارةً إلى أن خلق السماوات والأرض أكبر مما يستغربون منه ويتعجبون من أمره، وهو بعث الناس وخلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا رميماً، على أن هذه الآية تتضمن في نفس الوقت حقيقة كونية كبرى هي تحديد «مركز الإنسان» بالنسبة إلى بقية الأكوان، حتى لا يداخله الزَّهْوُ والغرور، ولا يضع مقادته بيد الشيطان «الغَرُور».

وقولُه تعالى: ﴿ ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ لَكُمُ ﴾، معناه أستجبْ لكم إن شئت، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ بَلِ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ (٦: ٤١)، والاستجابة تكون إما بنفس الشيء، وإما بما هو خير منه، وتكون عاجلة كما تكون آجلة، ومفتاح الدعاء: الحاجة والاضطرار، وشرطه: الأكل من الحلال، وقد تكون الاستجابة بصرف السوء عن الداعي، قال عليه السلام: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلّا آتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» رواه الترمذي والحاكم.

ومضى كتاب الله يعرض على الإنسان جملة من آياته الكونية، وبراهينه الفطرية، متحدثاً عن تعاقب الليل والنهار، الذي جعله الله موافقاً لنظام حياة الإنسان كل الموافقة، وعن تكوين السماء والأرض، المطابق لتكوين الإنسان والمستجيب لاحتياجاته كل المطابقة، فقال تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اليْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ وقال تعالى: ﴿ اَللَّهُ الذِي جَعَلَ اَلاَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾.

ونظراً لما يتعرض له الإنسان، ويسيطر عليه من الغفلة والنسيان، ذكَّره كتاب الله بما أسبغ عليه من النعم، وما منحه من واسع الكرم، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنَّاسِ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَرَزَقَكُم مِّنَ اَلطَّيِّبَـٰتِ ﴾، وفي هذا الخطاب الموجه بالخصوص إلى الناس، من «رب الناس ملك

الناس» غاية الإكرام والتكريم، لمن جعله الله خليفة في الأرض وأنزل عليه الذكر الحكيم، وقال في حقه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَـٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾.

وجاء مسك الختام مُطَابقاً لما يوحي به المقام، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ، هُوَ ٱلْحَيُّ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

الربع الثاني من الحزّب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ
أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ
مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ
شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾
إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي
ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾



الربع الثاني من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثاني من الجزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة غافر المكية: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة فصلت المكية أيضاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

في هذا الربع يتجدد الحديث عن جملة من الحقائق الإيمانية، تثبيتاً لها في النفوس، وتركيزاً لها في العقول:

من جملتها قصة حياة الإنسان، ووصف نشأته الأولى وتطوره في مختلف الأطوار.

ومن جملتها وصف حالة الأنبياء والرسل، وما يعترض طريقهم من العقبات، وما يلزمهم في سبيل إبلاغ الرسالة الإلٓهية من العزم والثبات والصبر، وما يؤول إليه أمرهم من الفوز والغَلَبة والنصر.

ومن جملتها ما يحُلُّ بساحة المعاندين الذين يجادلون في آيات الله ويتحدون رسله، من الهلاك والدمار في دار الدنيا، وما

يحاولونه في آخر ساعة من تدارك للإيمان، بعد فوات الأوان، ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا، سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

ومن جملتها ما ينتظر المكذبين بالله وكتبه ورسله من الوعيد الشديد في الدار الآخرة، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

وأول آية من هذا الربع هي خطاب من الله تعالى لنبيه يُلَقِّن فيها رسوله كيف ينبغي له أن يرد على المشركين، مسَفِّهاً سعيهم لحمله على مهادنة الشرك وعدم التعرض لعبادة الأصنام والأوثان، وقاطعاً لهم كل أمل في الإبقاء على المعتقدات الزائغة التي يدينون بها، والتقاليد الزائفة التي يقدسونها، وهذه الآية تتضمن في نفس الوقت بيان السبب الرئيسي الذي من أجْله أشهر الرسول عليه الصلاة والسلام حرباً شعواء على الشرك والمشركين، فقد أنزل الله عليه من البينات الصارخة، والحجج القارعة، منذ اختاره رسولاً إلى العالمين، ما يهدم صروح الشرك، ويدُكُّ قلاع المشركين، وقد أمره الله أن يحرر البشرية كلها من أغلال الشرك بالله، وأن يعيدها إلى فطرتها الأولى، وهي الإسلام والاستسلام لله، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (٣٠: ٣٠)، وذلك قوله تعالى مخاطباً لنبيه وملقناً: ﴿ قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وتأتي آية أخرى تذكِّر الغافلين من بني الإنسان ـ وما

أكثرهم ـ بما لله من أسرار وآثار في نشأتهم الأولى ونشأتهم الآخرة، وما يتقلبون فيه من حالات وأطوار، قبل خروجهم من بطون أمهاتهم وحلولهم بهذه الدار، إذ أنهم على الرغم من مشاهدتهم لقصة الحياة والموت على مر الأيام، وعلى الرغم من عجزهم البالغ أمام هذه القصة السَّرْمدية، المتكررة في كل لحظة وثانية، وعلى الرغم من جهلهم الفاضح بأسرارها وأطوارها، وبدايتها ونهايتها، لا يتذكرون ولا يعتبرون، وفي آيات الله البارزة، وحججه البالغة، لا يزالون يجادلون، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا، ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ، ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ، وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ، فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن، فَيَكُونُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾.

وقولُه تعالى في نفس هذه الآية: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وقبل قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فيه إشارةٌ صريحة إلى أن الإنسان متى فكر في مراحل نشأته وحياته وموته بعقل يَقِظ، وبصيرة نافذة، عرف الله حق المعرفة، وآمن به حق الإيمان، وأحس من أعماق قلبه أنه عاجز أمام القوة الإلّهية لا يستطيع لتصرفها رداً ولا دفعاً، وأنه مدين لها بكل مَلَكاته وجوارحه، وبجميع النعم التي يتقلب فيها، وأن الله قد أحسن إليه وفيه صنعاً.

وفي هذا الربع آية كريمة لا بدّ من الوقوف عندها وقفة

خاصّة، ذلك أن طائفة كبيرة من الناس بلغ بها الكِبْر والأنانية إلى حد أن تستغرق حياتها في المُتَع واللذات، وتستنفد طاقتها في الجري وراء الشهوات، فهي لا تفكر في الليل أو النهار، إلاّ في قضاء ما لـذّ لها وطاب من مختلف الأوطار، ناسية ما وراء ذلك من الـواجبات والتَّبِعات، والحقـوق التي عليهـا نحو الله ونحـو الناس، حتى إذا ما حان حينها، ووافاها الأجل، أدركت أنها لم تتزود بأي زاد، ووجدت رصيدها في حالة يرثى لها من الخُسرَان والإفـلاس، وإلى هذه الطائفـة التي بلغت الغـايـة في الغفلة والتغفيل، ومن شابهها من الأنانيين والمتكبرين، يشير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي اِلْأَرْضِ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ، وَبِمَا كُنتُمْ تَمْـرَحُـونَ، اَدْخُلُوٓاْ أَبْـوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَـا، فَبِيسَ مَثْـوَى اَلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

وأمامَنا آية أخرى تعتبر أكبر عُدَّة لدعاة الحق، الصابرين المصابرين من الأنبياء والرسل وأتباعهم الصـادقين، ومضمونهـا الدعوة إلى الثبات على الحق، وإلى التفاني في نشره ونصره، والدفاع عنه مهما كلف من التضحيات والمتاعب، وهي في آن واحد تجديد لعهد الله القاطع، بنصر من نصره، وتأكيد لوعده الصادق، بغلبة أهل الحق وهزيمة أهل الباطل، وهي في نفس الوقت بشارةٌ من الله لجنده، بأنهم سيجنون بعض ثمرات جهدهم وهم على قيد الحياة، وأنهم سيرون انتصار الحق وزهوق الباطل رأي العين، وذلك قوله تعالى في خطابه لنبيه، ولكل من سار على نهجه القويم في حمل الأمانة: ﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ، فَإِمَّا

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾، وكما حقق الله وعده، ونصر جنده فيما مَضى، فدان بدينه العرب والعجم، ودخلت فيه عدة شعوب وأمم، فسيحقق وعده فيما يستقبل من الأيام، وسيظهر الله دينه الحق في مشارق الأرض ومغاربها، وسيحفظ «ذكره الحكيم» إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

أما «سورة فصلت المكية» التي تقع بدايتها في آخر هذا الربع، فقد تحدثت آياتها الأولى أولاً عن كتاب الله العزيز ونزوله باللسان العربي المبين، والحكمةِ في نزوله على رسوله الصادق الأمين، وثانياً عن أول موقف وقفه المشركون من كتاب الله، عندما كانت حُجُب الشرك الغليظة لا تزال تحول بينهم وبين الاهتداء بنوره، وثالثاً عن الجواب «الحليم الحكيم» الذي أجابهم به رسول الله وهو يدعوهم إلى الحق، ويتفانى في سبيل هدايتهم وهداية بقية الخلق، ورابعاً عَرضت نموذجاً من «النذارة» التي وجهها القرآن الكريم إلى المشركين ومن سار على نهجهم، ونموذجاً من «البشارة، التي وجهها إلى المؤمنين الأولين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ففيما يخص النقطة الأولى جاء قوله تعالى: ﴿ حمٓ. تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ، كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ويَبرُزُ «تفصيل آياته» البينات فيما ورد منها في وصف ذات الله وصفاته وعجائب خلقه في الأنفس والآفاق، وفيما ورد منها في التكاليف المتعلقة بالقلوب

والجوارح، وحقوق الله وحقوق العباد، وفيما ورد منها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودركات أهل النار، وفيما ورد منها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس والنصائح والمواعظ، وفيما ورد منها في قصص الأولين وتواريخ الماضين، إلى غير ذلك من الموضوعَات والمباحث، قال فخر الدين الرازي: «وبالجملة، فمن أنصف عَلِم أنه ليس في يَدِ الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمَباحث المتنوعة مثل ما في القرآن».

وفيما يخص النقطة الثانية جاء قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾، وصَوَّر كتاب الله أروع تصوير رفض المشركين لقبول الحق واعتناقه، وتقززهم من سماعه، والهُوَّة السحيقة التي تفصل بينهم وبين عقيدة التوحيد التي جاء بها الرسول، فقال حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾، مثل قولهم في آية أخرى (٢ : ٨٨) ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾، و«الأكنة» جمع «كِنان» وهو الغطاء، و«الغلف» جمع «غلاف» وهو الغشاء، ﴿ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾، أي: صمم ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾.

وفيما يخص النقطة الثالثة حكى كتاب الله جواب رسوله لهم متلطفاً ومتعطفاً، طبقاً لمقتضى الحكمة والموعظة الحسنة، ﴿ قُلْ : إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾.

وفيما يخص النقطة الرابعة قال تعالى في كتابه بصفته

«نذيراً»: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾، وقال تعالى في كتابه بصفته «بشيراً»: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن
فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً
لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ
أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ
لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى
فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ
اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ
تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ
ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم هو الربع الثالث من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ اينَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ اَلاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً، ذَلِكَ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ يَّصْبِرُواْ فَـالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ، وَإِنْ يَّسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ اَلْمُعْتَبِينَ ﴾.

يتحدث هذ الربع لأول ما يبدأ، مخاطباً الكافرينالمصرِّين، على كفرهم عِناداً واستكباراً، مستغرِباً موقفهم الشاذ الذي ليس مفهوماً بالمرة، ذلك أنهم عِلاوة على ما يجهلون من أسرار أنفسهم وما لله فيها من آيات قائمة ـ وهي أقرب شيء إليهم ـ يجهلون أو يتجاهلون كل ما حولهم من العوالم والأكوان، فهم في غفلة عنها معرضون، فلا عيون متفتحة، ولا عقول متبصرة، ولا قلوب مستيقظة، وهذه الأرض بكل من عليها، وتلك السماء بكل ما فيها، لا تثير في نفوسهم أية رغبة في الاستطلاع، ولا تُنِيرُ في ضمائرهم شعلة الإيمان، رغماً عما فيهما من دلائل القدرة ومظاهر الإبداع، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلَ اَينَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ

اَلاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا، وَبَـٰرَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ، ثُمَّ اَسْتَوَىٰ إِلَى اَلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلاَرْضِ: اِيتِيَا طَوْعاً اَوْ كَرْهاً. قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ، فَقَضَيـٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا. وَزَيَّنَّا اَلسَّمَآءَ اَلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ، وَحِفْظاً. ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾. وها هنا يحسن بنا أن نلفت النظر إلى أن «أيام الله» التي تشير إليها هذه الآيات، بالنسبة لخلق الأرض والسماوات، لا تُقدَّر بقدر أيامنا التي نعرفها في كوكبنا الأرضيّ الخاص، بل هي من نوع آخر يعلمه خالق الزمان والمكان، علىٰ حد قوله تعالى في سورة الحج (٤٧): ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾، وقوله تعالى في سورة السجدة (٥): ﴿ يُدَبِّرُ الاَمْرَ مِنَ السَّمَـآءِ إِلَى اَلاَرْضِ، ثُمَّ يَعْـرُجُ إِلَيْهِ فِي يَـوْمٍ كَانَ مِقْـدَارُهُ أَلْفَ سَنَـةٍ مِّمَّـا تَعُدُّونَ ﴾.

ومفاد هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها اليوم: أن الله قد خلق الأرض بما عليها في أربعة أيام من «أيام الله» فخَلْقُ أصلِ الأرض تَمَّ بأمر الله في يومين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ الذِي خَلَقَ اَلاَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾، وخَلْقُ ما عليها تَمَّ بأمر الله في يومين آخرين، وبهما كمل خلق الأرض أصلاً وفرعاً، وتم عدد الأيام المحددة لخلقها أربعة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾، إشارةً إلى الجبال التي تُرسِي الأرض حتى لا تميد، ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِي أَرْبَعَةِ

أَيَّامٍ ﴾، أما خلق السماوات فقد تم بأمر الله في يومين اثنين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ فَقَضَيْهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾، ويرى بعض المفسرين من القدماء والمحدثين أن عدد «السبع» الوارد في كتاب الله عند ذكر السماوات لا يُراد منه حصرها في نفس ذلك العدد ونفي ما سواه، حسبما يقتضيه المفهوم، وإنما هو وارد على حد قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اَللَّهُ لَهُمْ ﴾، فالسبع في تلك الآية كالسبعين في هذه الآية، ومن يدري فقد تكشف الأيام من أسرار الكون مَا يوضح معنى «السبع» الوارد في غير ما آية في كتاب الله، ومن بينها قوله تعالى في سورة الطلاق: (١٢) ﴿ اِللَّهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ، وَمِنَ اَلاَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾، فالكون لا يزال لغزاً كبيراً، ولا يُشكِل على تفسير الآيات التي هي موضوع هذا الحديث قوله تعالى في سورة النازعات (٢٧ ـ ٣٣): ﴿ ءَآنتُمُ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ. بَنَيٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّيٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَيٰهَا، وَالاَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيٰهَآ: أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَيٰهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَيٰهَا. مَتَـٰعاً لَّكُمُ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾، لأن المعنى المقصود من هذه الآية كما أجاب به ابن عباس وذكره البخاري في صحيحه عند تفسيره لها: هو أن دَحْو الأرض وحده هو الذي كان بعد خلق السماء. وقد تولت الآية الكريمة نفسها تفسير معنى الدَّحْو حيث قالت: ﴿ دَحَيٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَيٰهَا، وَالْجِبَالِ أَرْسَيٰهَا، مَتَـٰعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾، وليس المقصود منها أن خلق أصل الأرض كان متأخراً، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

أما قولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾، فمن المفسرين من حمله على أنه حوار حقيقي صحبته الحياة والإدراك والنطق الفعلي من الأرض والسماء، على غرار قوله تعالى في نفس السورة (٢١): ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا، قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، ومنهم من حمله على أنه مجرد مجاز، من باب ضرب المثل، أي لا يتعسر عليه سبحانه شيء مِمَّا خلقه، فله من خلقه ما أراده، والمقصود إنما هو تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، دون أن يكون هناك خطاب ولا جواب.

وقولُه تعالى: ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾، إشارةٌ إلى سَعَة رحمة الله، وبسط مائدة رزقه لكافة خلقه، دون تمييز بين طبقة وأخرى، ولا بين أمة وأخرى، فالبساط الإلّهي ممدود لجميع السائلين على السواء، على حد قوله تعالى في آية أخرى (١٤: ٣٤): ﴿ وَءَاتَيٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوه ﴾. وقولُه تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾، إشارةٌ إلى أن أقوات الخلق مقدرة في الأرض بتقدير إلّهي حكيم. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحِجْر (٢١): ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وقولُه هنا: ﴿ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، ينظر إلى قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ. وَلَا يَـُٔودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، فكما أن الله تعالى هو

الذي أبدع الأكوان، وخلق العوالم على غير مثال سبق، وجهزها بجميع ما قَدَّرَ احتياجَها إليه من النواميس والقُوَى والطاقات، تكفل هو سبحانه كذلك بإمدادها بعد إيجادها، وتعهد جلّ علاه بتدبيرها وصيانتها وحفظها من كل خلل، دون أن يؤثر ذلك كله على قدرته القاهرة، وحكمته الباهرة، في قليل ولا كثير.

ويتحدث كتاب الله مرة أخرى عن إعراض المشركين عن الحق، ويذكّرهم بما آل إليه أمر عاد وثمود، وما تعرضوا له من عذاب الله، جزاء إعراضهم عن الإيمان به وبرسله، ﴿ فَإِنَ اَعْرَضُواْ فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمُ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اَللَّهَ ﴾، ويصف استكبارَ عاد عن قبول دعوة الحق، كما يصف استهتارَ ثمود، وتنكرها لهداية الله: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي اِلْأَرْضِ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ ﴾، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ، فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى اَلْهُدَىٰ ﴾، رُوِي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ لينتقدَ عليه مخالفته لقومه، فلما تكلم عتبة قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ حمٓ ﴾، ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَ اَعْرَضُواْ فَقُلَ اَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾، فأُرْعِد عتبةُ بن ربيعة، ووقف شَعَرُه، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرَّحِم أن يمسك، وقال حين فارقه: «واللَّهِ لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي».

وتصف الآيات الكريمة حال أعداء الله وحال أوليائه في الدار

الآخرة: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ، وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

ويفضح الحق سبحانه وتعالى في ذلك المشهد الرهيب، أمام الملا، أعداءه وأعداء رسله، فضيحة كبرى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ. وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وفي مثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة يس (٦٥): ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين
في المصحف الكريم

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ
فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ
ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ
وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ
عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَمَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ
إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ
ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى
وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، إلى قوله تعالى جلّ علاه: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِۦ، وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

في بدَاية هذا الربع يتولى كتاب الله وصف دعاة الباطل وقرنائهم، ودعاة الحق وأوليائهم، بما يوضح سِماتهم للناس جميعاً في جميع العصور:

أما دعاة الباطل فمن شأنهم إغواء الخلق، وإغراؤهم على مقاومة الحق، وهم معتزون بالباطل الذي هم عليه، مصرّون على التمسك به، لا يحاولون أن يعيدوا فيه النظر، ولا أن يستبدلوا به غيره أبداً، وبحكم الغواية التي اختاروا طريقها لا يجدون لهم أي أنس أو متعة في الحياة، إلاّ في معاشرة قرناء السوء ومتابعتهم، والثقة بوساوسهم في جميع الشؤون.

والشأن في «قرناء السوء» تشجيع قرينهم على الاندفاع في

طريق الباطل، وإعانته على إعداد مشاريع السوء بالنسبة للحاضر والمستقبل، وتزيين جميع ما قام به في الماضي من الأعمال والمساعي المنكرة، واستحسانها ولو بلغت أقصى غاية في الانحراف والشذوذ، فهم لا يُقدِّمون لقرينهم أي نصح، ولا ينيرون له أي طريق من طرق الخير، وإنما يزيدونه خبالاً في الفكر، وعماءً في البصيرة، إلى أن يسقط في مهاوي الهلاك، وتحق عليه كلمة العذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ، فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم، مِّنَ اَلْجِنِّ وَالإِنسِ، إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦: ١١٢): ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٓءٍ عَدُوّاً شَيَٰطِينَ اَلاِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً ﴾.

وفي نفس هذا السياق جاء كتاب الله بنموذج حيّ يوضح طريقة دعاة الباطل وقرناء السوء الملازمين لهم، ونوع الدعوات الضالة التي يقومون بها، وينشرونها بين الناس، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا اَلْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾، فها هم أولاء يَدْعُون الناس لأن يقفلوا آذانهم عن سماع القرآن، أي يدعونهم لمقابلته بالإعراض والإهمال، والعناد وعدم الانقياد، إذ من شأن الإنسان مَتَى أصغى إلى الحق، واستمع إليه بانتباه ورويَّة، أن يتمعن ويتدبر ويتأثر، فإذا لم يستمع إليه كان بِنَجْوة من تأثير الدعوة، وفي مأْمَن من مفعولها المنتظر، في أغلب الأحيان.

ثم ها هم أولاء يَدْعون الناس إذا اخترق القرآن أسماعهم ونفذ إليها بالرغم عنهم، أن يَلْغُوا فيه، ومعنى «اللغو» فيه: افتعال الضجيج والصفير والمكاء والتخليط، ومواجهتُه بالتعييب، والتشكيك، ومقابلته بالجحود والإنكار.

ولقد كانت هذه الطريقة، التي كشف كتاب الله عنها الستار، ولا تزال هي الطريقة التقليدية التي يتبعها دعاة الباطل وقرناؤهم لمحاربة أهل الحق، ومقاومة دعوتهم في كل زمان ومكان، فهم يأمرون أتباعهم المضلَّلين بالابتعاد عن دعاة الحق، ويتفادي الاحتكاك بهم، وعدم غشيان مجالسهم، فإذا أخذت دعوة أهل الحق في الانتشار، رغماً عنهم، تصدَّوْا لها بالنقض والتشكيك والمهاترات، وعملوا بكل الوسائل على خنقها وإغراقها في بحر لُجِّيٍّ من أمواج الباطل المتراكمة، لعلهم يغلبون الحق عن طريق الباطل، لكن الحق سبحانه وتعالى يتولى دعاة الباطل وقرناءهم، من الكفار فَمَن دونهم، بما هم أهل له من الخذلان والعقاب والعذاب، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ اَلذِينَ كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَسْوَأَ اَلذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، أي: أنه تعالى سيجزيهم بشر أفعالهم، وسيء أعمالهم. وبعدما يصفهم كتاب الله بأنهم «أعداء الله» يواصل الحديث عن الجزاء الذي ينتظرهم، ﴿ ذَالِكَ جَزَآءُ اَعْدَآءِ اِللَّهِ اِلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ اُلْخُلْدِ، جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

ثم يشير كتاب الله إلى الحيرة والحسرة التي يكون عليها دعاة الباطل، من الكفر فما دونه، في دار العذاب، إذ يتساءلون

في جهنم عن قرنائهم الذين أعانوهم على الضلال، ضارعين إلى الله أن يُرِيَهم مكانهم في جهنم، متمنين على الله أن يكون أولئك القرناء أشدَّ منهم عذاباً، بل تحت أقدامهم في الدَّرْك الأسفل من النار، لأنهم زينوا لهم أعمالهم، وأضلوهم ولم ينصحوهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا اَلذَيْنِ أَضَلَّنَا مِنَ اَلْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا، لِيَكُونَا مِنَ اَلاَسْفَلِينَ ﴾. ونقل ابن كثير في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معنى ﴿ اَلذَيْنِ أَضَلَّنَا ﴾، الوارد في هذه الآية بصيغة المُثَنّى: إبليس من جهة، وابنُ آدم الذي قتل أخاه من جهة أخرى، واسمه قابيل، فإبليس يدعو بدعوته كلَّ صاحب شرك، وابن آدم القاتل لأخيه يدعو بدعوته كلَّ مرتكِب كبيرة، وثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما قُتِلَت نفسٌ ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كِفل من دَمِها، لأنه أول من سن القتل.

وأما دعاة الحق فمن شأنهم الإيمان بالله، والاستقامة على هداه، والثبات على شرائط الإيمان بِجُملتها، دون الإخلال بأي شيء منها، وضربُ المثل الصالح لغيرهم، بممارسة الأعمال الصالحة، والدعوةُ إلى الله دون انقطاع، وهم لا يعتزون بغير الإسلام، ولا ينتمون إلى ما سواه من المذاهب والأقوام، ولا يلتزمون نحو غيره بأيّ التزام، وفي سبيل الدعوة التي يقومون بها ويمارسونها يتحملون الأذى بصَدر رحب، فلا يقابلون الإساءة بمثلها، وإنما يَدْفعُون الإساءة بالإحسان، وإن كانوا أبعد الناس عن وصف

الضعف والهوان، وبذلك يؤثِّرون على النفوس الجامحة، فتُسلِس لهم قيادها، وتعود إلى رشدها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اَللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَسْتَوِي اِلْحَسَنَةُ وَلاَ اَلسَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا اَلذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ اَلذِينَ صَبَرُواْ، وَمَا يُلَقَّيْهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، قال ابن عباس في تفسير هذه الآيـة: «أمرَ الله المؤمنين بـالصبر عنـد الغضب، والحِلم عنـد الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم كأنه ولي حميم»، وقال عمر بن الخطاب: «ما عاقبْتَ مَن عصى الله فيك، بمثل أنْ تُطِيعَ الله فيه» ومعنى ﴿ ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ادفع السيئة بالخَصْلة التي هي أحسن، فإذا أساء إليك أحد كانت «الحَسَنة» أن تعفو عنه ولا تعامله بالمثل، «والتي هي أحسن»: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، ومعنى ﴿ فَإِذَا اَلذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾: أنك إذا فعـلت ذلك صافاك عدوّي واقترب منك، وأشبه الولي الحميم، وهذا لا يستلزم أن يصير ولياً مخلصاً بالمرة، ومعنى قوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ اَلذِينَ صَبَرُواْ ﴾ ما يُلَقَّى هذه الخصلة ويقوم بحقها، أو ما يمتثل هذه الوصية ويعمل بها ـ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ـ إلاّ من تعوَّد على الصبر في معاناة الخلق، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِـكَ لَمِنَ عَزْمِ اِلأُمُـورِ ﴾ (٤٢: ٤٣) ومعنى ﴿ وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾: ما يلقاها إلاّ ذو نصيب وافر من الخير والتوفيق.

وكما تحدث كتاب الله فيما سبق عن قرناء السوء الذين يُزيِّنون لدعاة الباطل أعمالهم، والذين يوحون إليهم بمحاربة الحق وأهله، وبيَّن موقف بعضهم من بعض في الدنيا والآخرة، تحدث كتاب الله أيضاً عن «أولياء» أهل الحق، الذين يثبِّتون قلوبهم، ويسددون خطواتهم، ويعينونهم على التزام الحق، والدعوة إليه، وتحمل الأذى في سبيله، حتى لا يحزنوا ولا يخافوا، وبيّن كتاب الله أن هؤلاء الأولياء الذين يتولون دعاة الحق في الدنيا والآخرة هم من الملائكة المقربين، وأنهم يتنزّلون عليهم، ويكونون بجانبهم في مختلف المواقف، ولا سيما في المواقف الحرجة التي قد تزِلُّ فيها الأقدام، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَـمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم الْمَلَـٰئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنيا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾، أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، أي: ضيافةً وعطاءً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم، قال زيد بن أسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، أنهم يُبشِّرون الداعي إلى الله عند موته، وفي قبره، وحين يُبعث. قال ابن كثير: «وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حَسَن جداً».

الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ
الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا
لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ
لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ
أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ
مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ

ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ في سورة فصلت المكية، إلى قوله جلّ علاه: في سورة الشورى المكية أيضاً: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

والثمن الأول من هذا الربع، وهو خاتمة سورة فصلت المكية، يتناول بالذكر موضوعات أربعة.

الموضوع الأول: ما ينفرد بعلمه علّام الغيوب دون خلقه، من المغيبات.

الموضوع الثاني: ما يكون عليه الإنسان من أحوال مختلفة، ومشاعر متباينة، في ظروف الشدة والرخاء.

الموضوع الثالث: ما يكون عليه حال الذين كفروا بكتاب الله العزيز، من الحيرة والتردد.

الموضوع الرابع: ما وعد به الحق سبحانه وتعالى عند نزول

القرآن، من الحقائق الكونية والنفسية المؤيدة للإيمان، التي سيَكشِف عنها لبني الإنسان في مستقبل الأزمان.

ففي الموضوع الأول ورد ذكر القرآن للساعة وموعد قيامها، وللثمرات المستورَة في أكمامها، وأحمال النساء المستقرة في أرحامها، فالساعة التي يضع الله فيها حداً للحياة على سطح هذا الكوكب الأرضي موكول علمها إلى الله وحده، لا يعلمها أحد سواه، وفي شأن السؤال عنها أجاب رسولُ الله ﷺ جبريل عليه السلام قائلاً: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» والشيء الوحيد الذي تناقلته السنّة في موضوع الساعة هو التنصيص على بعض «أشراطها»، ووصف بعض العلامات التي تسبقها، مثل ما رواه البخاري في صحيحه في «باب يَقِلُّ الرجالُ ويكثر النساء» عن أنس رضي الله عنه قال: «لأُحَدِّثَنكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من أشراط الساعة أن يُرفَع العِلْم، ويَكثُر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقلَّ الرجال، ويكثرَ النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيِّمُ الواحد» قال البخاري: «وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: وترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة، يَلُذْن به من قلة الرجال وكثرة النساء».

وكما أن عِلْم الساعة موكول إلى الله دون سواه، فكذلك الثمرات التي هي في باطن النبات قبل أن تخرج وتبرز تُعَدُّ سِرّاً مكتوماً في عالَم الغيب لا يستطيع أمهر الزراعيين معرفته على وجه التحقيق قبل أن يُبرزه الله.

ومِثْل ذلك الحَمْلُ قبل ظهوره، لا يستطيع أن يعرفه الرجل ولا المرأة، فالله سبحانه هو المنفرد بعلم مآل النطفة، هل يترتب عليها إخصاب وإنجاب، أم لا يترتب عليها شيءٌ مطلقاً، ومثل ذلك الحملُ قبل وضعه، هل سيوضع حياً أو ميتاً، ذكراً أم أنثى، هل سيوضع ليلاً أم نهاراً؟ هل سيوضع اليوم أو غداً؟ لا يعلم أمره على وجه القطع إلاّ الله وحده، وذلك قوله تعالى في شأن الأمور الثلاثة: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنَ اَكْمَامِهَا، وَمَا تَحْمِلُ مِنُ انثىٰ وَلَا تَضَعُ، إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾، ويمثل هذا المعنى ورد قولُه تعالى في سورة الأعراف (١٨٧): ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وقوله تعالى في سورة الأنعام (٥٩): ﴿ وَمَا تَسْقُطُ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، وقولُه تعالى في سورة الرعد (٨): ﴿ اِللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثىٰ وَمَا تَغِيضُ الْاَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾.

وفي الموضوع الثاني ورد وصف القرآن لأنانية الإنسان، وما هو عليه من شدة الإلحاح والمبالغة في طلب الخير لنفسه، فهو لا يَسأم ولا يمل من دعاء ربه لطلب «الخَيْر»، والمراد «بالخير» هنا المال والصحة وما ناسبهما من المطالب العديدة المؤدية إلى السعادة حسبما يتخيلها الإنسان، كما ورد وصفه باليأس والقُنوط عندما يمسه أدنى شر أو أذىً، بحيث ينقلب في الحين متذمراً ساخطاً، قَلِق الفكر، حرج الصدر، ويكثر من الدعاء والابتهال إلى أقصى حد، حتى إذا كشف الله عنه الضر وأذاقه رحمة من عنده أخذ حينئذ يتبَجَّح ويتكبر، مستعلياً بنفسه، معتزاً بمكانته،

مدعياً أن ما نالـه من الخير بعـد الشر إنمـا نالـه عن جدارة واستحقاق، وأنه إنما وصل إليه بمقدرته الفائقة، وعبقريته النادرة المثال، وكأنَّ لسـان حالـه ينفي أن يكون عليـه فيمَا نـاله أيُّ فضـل لله أو منّة منه سبحانه، بل إنه ليبلغ به البَلَه والبطر والغرور إلى حد أن ينسى نعمة الله عليه ويُعرض عنه بالمرة، ويتصرف تصرف من لا يومن بقيام الساعة ولا ينتظرها مطلقـاً، وإذا مَرَّ بخاطره أن الساعة آتية ـ على سبيل الفرض عنده والتقدير ـ فإنه يعلن بكل تبجح وصفاقة وجه أنه حتى في هذه الحالة لن يكون إلّا منعماً مكرماً، وأنه لن يجد عند ربه إلّا الحسنى، لأنه عند نفسه وفي نظره القاصر يتمتع بامتيازات وحصانات خاصة من لدن الله، وهو في تقديره الخاص فوق القانون السماوي والعدل الإِلٓهي، اللذين يسري مفعولهما على بقية الناس، وذلك ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ الإنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْـرِ، وَإِن مَّسَّهُ الشَّـرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَآ لِي. وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً، وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾، ويؤكده قوله تعالى في نفس السّياق: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾.

وفي الموضوع الثالث ورد استفسار القرآن الكريم للكافرين به، ماذا يكون عليه موقفهم عندما يتأكدُ لهم أَنَّهُ من عند الله، ويجدون أنفسهم قد ضيعوا فرصَة لن تعود، إذ كفروا به وأعرضوا عنه، ويدركون أنهم أخسر الناس صفقة، إذ كانوا أشد الناس

ضلالاً وخبالاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾.

وفي الموضوع الرابع وعد كتاب الله المؤمنين خاصة وبني الإنسان عامة، بأن الحق الذي قامت على أساسه السماوات والأرضون، وقامت على أساسه عقيدة القرآن وشريعته وأخلاقه، سيزداد جلاءً وظهوراً بمرور الأيام، وأن الله تعالى سيرفع الحجاب عن الفكر الإنساني، وسيلهمه أن يكتشف من خفايا الطبيعة وخبايا النفس ما يكون سَنَداً لذلك الحق، ودِعامة للإيمان بخالق الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾، وقد أنجز الله وعده لبني الإنسان، بمقتضى ما وعد به عند نزول القرآن، فكشف لهم خلال الأربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، ما لم تعرفه البشرية من قبل في عشرات القرون وآلاف السنين، ولا يزال باب الكشف مفتوحاً بإذن الله، وفي كل كشف آية جديدة تدل على صدق كتاب الله.

والآن فلنوجز موضوعات الثُّمُن الثاني من هذا الربع، وهو فاتحة «سورة الشورى» المكية:

إن الحديث في فاتحة هذه السورة يتناول بالذكر إثبات الوحي من الله إلى رسوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ويتناول استغفار الملائكة للمؤمنين في الأرض: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾، ويتناول بيان الحكمة في نزول القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾،

ويتناول ضرورة التحاكم إلى الله، عند ظهور الاختلاف بين الناس: ﴿ وَمَا اَخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اَللَّهِ ﴾.

وفيما بين هذه الموضوعات يزيد كتاب الله معتقدات الشرك تسفيهاً وتفنيداً، كما يزيد عقائد التوحيد بياناً وتأييداً: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا۟ الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ

دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا
يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾
ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ

حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ
ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾
وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
وَيَعۡلَمُ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً، وَالذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾، ونهايته قوله جلّ علاّه: ﴿ وَالْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتاب الله قاعدة أساسية من القواعد التي قام عليها الإسلام، ألا وهي أن الدين الذي بعث الله به الأنبياء والرسل جيلاً بعد جيل إنما هو في جوهره دين واحد، متّسم بطابع الوحدة والتسلسل عَبْر القرون، وذلك لأن منبع الدين ومصدر الوحي واحد أزلاً وأبداً، وهو الله تعالى الذي خلق الكون وسن لتسييره السنن والنواميس الطبيعية المناسبة، وخلق الإنسان وسنّ لسلوكه السنن والنواميس الأخلاقية الملائمة، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالَامْرُ ﴾ (٧: ٥٤)، وهذه القاعدة الأساسية من قواعد الإسلام هي التي تفسر ما فرضه الله على المسلم من الإيمان بالله وبجميع رسله وجميع كتبه دون تمييز ولا استثناء، حتى أن من كفر برسول

واحد أرسله الله، أو كتاب مُنزل من عند الله، يعتبر في دين الإسلام كافراً غير مؤمن، فالمسلم يحترم النبوات والرسالات جميعاً، والمسلم يؤمن بالكتب المنزلة كلها ما دامت محتفظة بنصها الأصلي، لا يستثنى من ذلك شيئاً إلاّ ما أُدخِل على نصوصه «تحريف» أو «تأويل سيء»، مما قام به الذين يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه، وبفضل هذه العقيدة الأساسية في الإسلام لا يحس المسلم بأي حقد أو ضغينة أو عقدة نفسية نحو بقية الأنبياء والرسل، فضلاً عن أن ينظر بعين النقص إلى مقامهم الرفيع عند الله، جملة أو تفصيلاً.

وكما أكد كتاب الله في هذا السياق معنى الوحدة الاعتقادية والدينية، القائمة بين جميع الأنبياء والرسل، تبعاً لوحدة الواحد الأحد، واهب النبوات والرسالات، الذي نبّأهم وأرسلهم إلى خلقه، فإنه حَضَّ المؤمنين جميعاً على حفظ تلك الوحدة الدينية التي تمسك بها الأنبياء والرسل، وأمرهم بصيانتها من عوامل الفرقة والاختلاف.

وهذا التوجيه القرآني - وإن كان موجهاً بالأصالة إلى المسلمين - فإنه يمكن أن يمتد أثره حتى إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل إلى نفس المشركين العرب، ما داموا يدَّعون أنهم من بقايا ملة إبراهيم، فهؤلاء جميعاً إذا أنصفوا وراجعوا أنفسهم، وعادوا إلى المنبع الأول والصافي للدين الحق، يلتقون جميعاً في نقطة واحدة، ويجتمعون على كلمة سواء، وهي كلمة الإسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ

نُوحاً، وَالذِيّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وَعِيسىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: (يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾، فذكر أولَ الرسل بعد آدم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، وآخرَهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر مَنْ بَيْنَ ذلك مِنْ أولي العزم، وهم إبراهيم وموسى وعيسى، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى (٣٣: ٧): ﴿ وَإِذَ اَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَـٰقَهُمْ، وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى اَبْنِ مَرْيَمَ ﴾ الآية. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلاَّت، دينُنا واحد»، أي: أن القَدْر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جلّ جلاله (٥: ٤٨): ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾)، انتهى ما قاله ابن كثير.

وذكر أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ﴾ نبذة مهمة تُلقِي كثيراً من الأضواء على هذا الموضوع إذ قال: «إن آدم كان أول نبي بغير إشكال، غير أنه لم يكن معه إلاّ بَنُوه، ولم تُفرَض له الفرائض، ولا شُرِعَت له المَحارم، وإنما كان

ما عنده تنبيهاً على بعض الأمور، واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء»، ثم قال ابن العربي: «واستقرَّ المَدَى إلى نوح، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم، واحداً بعد واحد، وشريعة إِثْر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملتنا، على لسان أكرم الرسل، نبينا ﷺ، فكان المعنى - أي معنى الآية - أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي: التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرُّب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والتزلُّف إليه بما يَرُدُّ القلب والجارحة إليه، والصدقُ، والوفاءُ بالعهد، وأداءُ الأمانة، وصلةُ الرحم، وتحريمُ الكفر والقتل والزنا، وتحريمُ الإذاية للخلق كيفما كانت، وتحريمُ الاعتداء على الحيوان كيفما كان، وتحريمُ اقتحام الدناءات، وما يعود بخَرْم المُرُوءات، فهذا كله شُرِع ديناً واحداً، وملة متحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾، أي: اجعلوه قائماً، يريد: دائماً مستمراً، محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه، ولا اضطراب عليه، فمن الخلق مَن وَفَّي بذلك، ومنهم من نَكَثَ به، «فَمَن نَكَثَ فإنما يَنكُثُ على نفسه» (٤٨ : ١٠)، وَختم «ابن العربي» تحليله لهذا الموضوع» قائلاً: «واختلفت الشرائع وراء هذا في معان، حسبما أراده الله، مما

اقتضته المصلحة، وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم، والله أعلم».

ثم مَضى كتابُ الله يبين السر في موقف العناد الذي يقفه المشركون من الرسول عليه السلام، وأنهم فوجئوا بما اختاره الله له من الرسالة دونهم جميعاً: ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. اِللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ يُّنِيبُ ﴾.

وبيَّنت الآيات الكريمة أن الفُرقة التي آل إليها أمر أهل الملل والأديان إنما جاءت بعد العلم بالدين الواحد والملّة المتحدة، وأن سبب الفُرقة بين الملل ليس نابعاً من أصل الدين الصحيح، وإنما هو ناشىء عن تأثير الأغراض والشهوات، التي سيطرَتْ على أَتباع الديانات، فالفُرقة من صنع الناس لا من وحي الدين، ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاۢ بَيْنَهُمْ ﴾، كما بينت الآيات الكريمة أن الشك الذي يوجد عند «أهل الكتاب» ممن عاصروا عهد الرسالة المحمدية، والحَيْرة التي تتجلى في مواقفهم المتناقضة من الإسلام، يعود الأمر فيهما إلى ما ورثوه عن أسلافهم في الدين، من خلافات واختلافات، أدت بهم إلى الشك في نفس الكتب التي أنزلت عليهم، نظراً لما أصابها من التحريف والتأويل والتدليس، ﴿ وَإِنَّ اَلذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

ويخاطب الحقُّ سبحانه وتعالى رسولَه، مُحَصِّناً له من أهواء المشركين، وأهل الكتاب المختلفين المتفرقين، داعياً إياه إلى

التمسك بالدعوة، والقيام بحقها، والاستقامة عليها، مذكراً بجوهر الدعوة وأساسها المتين، ألا وهو الإيمانُ بالله وبكتبه، وإقامةُ العدل بين خلقه، ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ. اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾، وهذا الخطاب موجه إلى كل مؤمن ومؤمنة، ولا سيما ولاة المسلمين وعلماءهم، وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ معناه أننا برآء من كل ما خالف دعوة الإسلام، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (١٠ : ٤١): ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن الساعة وموقف الذين يؤمنون بها، والذين يمارون فيها، ﴿ أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾، ووصفت ما ينتظر الظالمين من عذاب مقيم، وما ينتظر الصالحين من عباده من فضل كبير، وأكدت أن الرسول عليه السلام لا يَقبَلُ على أداء رسالته أي أَجْر، وإنما يريد أن تترك له حرية الدعوة إلى الله، حتى لا تتأزم العلاقات بينه وبين ذوي قُرْباه، ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾.

روى البخاري في صحيحه وانفرد به، بسنده إلى عبد الملك بن مَيْسَرة قال: سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾، فقال سعيد بن جُبَيْر: «قُرْبَى آل محمد»، فقال ابن عباس: «عجِلتَ. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلاّ

كان له فيهم قرابة، فقال: «إلاّ أن تَصِلوا ما بيني وبينكم من القرابة»، ونبَّه الحافظ ابن كثير في تفسيره إلى أن هذه الآية مَكية لا مدنية، وأن فاطمة الزهراء رضي الله عنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنه إلاّ بعد غزوة بدر، من السنة الثانية من الهجرة، فهذه الآية نزلت قبل زواجها وولادتها، ثم تابع ابن كثير كلامه قائلاً بالحرف الواحد: «والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه كما رواه عنه البخاري، وختم ابن كثير كلامه قائلاً: «ولا ننكر الوَصَاة بأهل البيت، والأمرَ بالإحسان إليهم، واحترامِهم وإكرامِهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجِد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية، الصحيحة الواضحة الجليَّة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعليّ وأهل بيته وذريته، رضي الله عنه أجمعين».

الربع الثالث منَ الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ
يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ
هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ
فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ
ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾
وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ
خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾
وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ

يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا
الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ
إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اَللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي اِلْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ إِنَثاً، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَثاً، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَآءُ عَقِيماً، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يقرر كتاب الله حقيقة كونية طالما غفلت عنها الأنظار، ألا وهي أن الحق سبحانه وتعالى منذ اقتضت مشيئته أن يتكفل برزق الإنسان اقتضت حكمته أن لا يرزقه إلاّ بحساب، وبقدر محدود، وأن لا يمنحه كل ما يطمع فيه، إذ أن أنانية الإنسان الجامحة، وميله إلى التبذير والإسراف، لا يحدهما شيء، فالإنسان كائن ضعيف تستهويه الملذات، وتغريه المغريات، ﴿ وَخُلِقَ اَلِانسَـٰنُ ضَعِيفاً ﴾ (٤ : ٢٨)، وقلما يعرف التوازن والاعتدال في سلوكه ومطالبه، بل إنه مَتى استغنى طغى وبغى ﴿ إِنَّ اَلِانسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّءاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٩٦ : ٦)، وفقد توازنه،

ونسي ربه، واستغل عطاء الله الواسع في المزيد من المعاصي والسيئات، لا في المزيد من الحسنات والطاعات، والله تعالى حين يَقْدِرُ رزق الإنسان ولا يبسطه له إلى أقصى الحدود إنما يتصرف في ملكه عن خِبرة تامة بهذا الإنسان الذي خلقه من العدم، وعن علم محيط بخلَجَات نفسه، وهواجس حسه، ولأجل أن لا ينقلب الإنسان طاغياً باغياً مطلق العَنان في هذا الكون بالمرة جعل الحق سبحانه وتعالى مقاليد رزق الإنسان بيده، واضطر الإنسان لأن يبقى معلقاً بين الخوف والرجاء دائماً، ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اَللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾.

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة لا يَسْتَغرِبُ أحد أن يسمع صَيْحَاتِ الخطر والإنذار، التي تطلقها المنظمات الدولية المختلفة، بقرب مجاعة عالمية قد تكتسح العالم، وتكون كارثة كبرى على البشرية، فالشعور بهذا الخطر قائم لا محالة بشكل أو آخر، ومن مقتضيات الحكمة الإلّهية أن يكون شَبَح هذا الخطر ماثلاً للأنظار، حتى يتذكر الإنسان ـ تحت تأثيره ـ رسالته الحقيقية في هذا الكون، ويعود إلى حظيرة الاعتدال والتوازن في مطالبه وشهواته قدر الإمكان، وكما قال تعالى في هذه الآية: ﴿ وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾، قال في آية سابقة عند الكلام على خلق الأرض: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾، ثم عقَّب على ذلك فقال: ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٤١: ١٢).

وبعد تقرير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكونية أتْبعها

كتاب الله بالتعقيب عليها، مبيِّناً أن لطف الله بالإنسان، ورحمتَه إياه، لن يُمْسِكَهُما عن خلقه كلما احتاجوا إليهما، وتوقفوا عليهما، إذ أن رحمته وسعت كل شيء، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ، وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وفي سياق هذه الآية جاءت كلمة «الغَيْث» بالخصوص، بدلاً من كلمة «المطر» التي هي أكثر استعمالاً وشيوعاً، إشارةً إلى أن الحق سبحانه وتعالى متكفل بأن يغيث عباده ويرحمهم بعد اليأس والقُنوط، فيُنجدهم بإنزال المطر كلما بسطوا أكف الضراعة إليه، سائلين الغوث والنجدة من خالقهم ورازقهم على الدوام، على غرار قوله تعالى في سورة الروم: (٤٨ ـ ٤٩) ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ، فَانظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف لخلقه إلاّ بما ينفعهم دنيا وأخرى، فهو «وليهم» الحق، الذي يتولاهم بفضله وإحسانه، والذي يجب أن يتولَّوْهُ بالسعي إلى مرضاته، والانقياد لأوامره، وهو سبحانه «الحميد» أي المحمود العاقبة في جميع ما يُقدِّره ويفعله، لتوجيه خلقه ومصلحتهم.

ومضى كتاب الله يتحدث عن آيات الله الباهرة في كونه الفسيح، وفي الطليعة: خلق السماوات والأرض وما بثه سبحانه في العالم العُلْوي والعالم السُفْلي من كائنات وأَحياء لا يحصيها عد، وقد مضى على الإنسان منذ ظهوره على سطح الأرض مئَآتُ

الآلاف من السنين، وهو لا يزال عاجزاً عن فهم هذا النظام العجيب، مشدوهاً أمام أسراره وعجائبه.

وبيَّنَ كتابُ الله أن الخالق الذي خلق هذه الكائنات والأحياء، وبثها ووزعها في السماوات والأرض قادر على أن يجمعها جميعاً في صعيد واحد مَتى شاء، وفي ذلك مظهر آخر من مظاهر قدرته المبسوطة على كل شيء، ومظاهر علمه المحيط بكل شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾، ولفظ «دابة» في هذه الآية حمله ابن كثير على ما يشمل الملائكة والجن والإنس وباقي الحيوانات، بخلاف لفظ «دابة» الوارد في قوله تعالى (٣٥: ٤٥): ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾، فإنَّ معناهُ قاصرٌ على ما يَدِبُّ من الكائنات الحية فوق ظهر الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾، يشير إلى ما يأمر به الحق سبحانه وتعالى عند قيام الساعة من «جَمْعِ المخلوقات» كلها عند النشر والحشر والحساب في عَرَصات القيامة، وفقاً لقوله تعالى فيما سبق من هذه السورة (٧): ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾، ولقوله تعالى في سورة التغابن (٩): ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ: ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾، ولقوله تعالى في سورة الكهف (٩٩): ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعاً ﴾ ولقوله تعالى في سورة آل عمران (٩): ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ، إِنَّ اللَّهَ

لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، ولقوله تعالى في سورة الواقعة (٥٠): ﴿قُلِ اِنَّ اَلَاوَّلِينَ وَاَلَاخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ولا يصح حمل هذه الآية على «رواد الفضاء» كما ارتآه بعضهم، فإن ذلك تكلُّف لا تُطَاوعه هذه الآية ولا الآيات الأخرى التي تفسر معناها أوضح تفسير.

وتناولت آيات هذا الربع الحديثَ عن قدرة الله القاهرة في تحريك الرياح وتسكينها، وما لها من تأثير بالغ على نشاط الإنسان في عالم الملاحة البحرية، والحديثَ عن «الذين يجادلون في آيات الله»، والحديثَ عن «الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»، والحديثَ عن «الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق»، والحديثَ عن الخاسرين «الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة». كما تناولت الآيات ذكر «الشورى» بين المسلمين، ومن أجل ذلك أُطلِق على هذه السورة اسم «سورة الشورى» تنويهاً بها، فقال تعالى: ﴿وَالذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ اَلِاثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالذِينَ اَسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ، وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ، وَالذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، ففي هذه الآية الكريمة وصَفَ اللَّهُ المؤمنين حقاً بالأوصاف الكاشفة عن حقيقتهم، وبالنعوت المنبثقة عن عقيدتهم، فهم قبل كل شيء مجتنبون للآثام والفواحش، بحيث لا يقرَبُونها، ملتزِمُون للاعتدال والرضي في علاقاتهم، مَالِكُون لأنفسهم عند الغضب، سالمون من الحقد على غيرهم، وهم لا يتخلفون عن الاستجابة لأوامر الله والعمل

بتوجيهاته في مختلف الشؤون، وهم قوامون بالصلاة التي هي عماد الدين، يؤدونها ويؤدون لها حقها، فتنعكس آثارها الظاهرة والباطنة في حياتهم اليومية، وهم كرماء الأيدي لا يبخلون بالإحسان والإنفاق مما رزقهم الله، في وجوه الخير وسبيل المعروف، وهم أعزاء النفوس، لا يتحملون من خصوم الحق أي ضَيْم أو هوان، بل ينتصفون منهم، وينتصرون للحق وبالحق عليهم، وهم إلى جانب هذا كله، وفي هذاالجو الأخلاقي السليم، والروحي الطاهر، يتشاورون فيما بينهم في شؤونهم العامة، بنفوس طاهرة، وقلوب صافية، ولا غرض لهم من الشورى إلّا تحقيق أهداف الإسلام السامية، ولأمر ما أُدمجت الآيةُ الكريمة صفة «التشاور بين المسلمين» ضِمْنَ مجموعة متناسقة من الصفات الضرورية، التي لا غنى للإسلام عنها، والتي لا يتحقق مدلوله بدونها، ولم تأت بصفة «الشورى» وحدها مجردةً عن بقية الصفات، ولا منفصلةً عن بقية الشروط، لأن الشورى في نظر الإسلام لا تؤتي أُكلها، ولا تؤدي الغرض منها، إلّا إذا كانت تحيطها كافة الضمانات الدينية والأخلاقية والنفسية المطلوبة في أهل الشورى، فهذه الآية الكريمة تعطي للمسلمين التوجيه الكافي، وتضع أيديَهم على الصفات الضرورية، والمؤهلات البارزة، المطلوبة فيمن يختارونه ليكون من أهل الشورى، ومما تجب ملاحظته في هذا المقام ـ ونحن في سورة الشورى المكية ـ أن الشورى في الإسلام كانت من عقائده الأساسية التي بَرَز بهَا وهو لا يزال في نفس مكة، والإسلامُ إذ ذاك لم يتمكن بعدُ من إقامة دولته الأولى بالمدينة المنورة، فعقيدة

الشورى وعقيدة التوحيد بَرَزَتا في الإسلام في وقت واحد، وهما من خصائص المجتمع الإسلامي ومميزات الدولة الإسلامية منذ نشأتهما الأولى. قال القاضي أبو بكر «ابن العربي» المعافري عند تفسيره لهذه الآية: «الشورى أُلفة للجماعة، ومِسْبار للعقـول، وسبب إلى الصواب، وما تشاوَر قوم إلاّ هدُوا. ونقـل عن بعض العقلاء أنه قال: ما أخطأتُ قط: إذا حَزَبني أمر شاورت قومي، ففعلت الذي يرون، فإن أصبتُ فَهم المصيبون، وإن أخطأتُ فهم المخطئون».

وفي ختام هذا الربع تناولت الآيات الكريمة موضوعاً قوي الحساسية بالنسبة للنسل والذرية، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ إِنَـٰثاً، وَيَهَبُ لِمَنْ يَّشَآءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَـٰثاً، وَيَجْعَلُ مَنْ يَّشَآءُ عَقِيماً. إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾، وبديهي أن موضوع «الذرية» له علاقة وثيقة بموضوع «الرزق» الذي أشارت إليه أول آية في هذا الربع: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اَللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الْأَرْضِ ﴾، فكما أن الله يُنَزِّلُ بقَدَر ما يشاء من الرزق، كذلك يَهَب من يشاء من الذرية أو لا يهب. قال ابن كثير في تفسيره تعليقاً على مضمون هذه الآية: «فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعهم هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بمن يستحق كلٌّ قسم من هذه الأقسام، ﴿ قَدِيرٌ ﴾، أي على مَا يشاء من تفاوت الناس في ذلك»، ثم مضى ابن كثير يقول: «وهذا المقام شبيه بمقام آخر،

حيث خلق الله الخلق على أربعة أقسام، فآدم عليه السلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وعيسى عليه السلام مخلوق من أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام مخلوقون من ذكر وأنثى، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير».

الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ

الاولين ﴿٨﴾ ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن
خلقهن العزيز العليم ﴿٩﴾ الذي جعل لكم الارض
مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴿١٠﴾
والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك
تخرجون ﴿١١﴾ والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من
الفلك والانعام ما تركبون ﴿١٢﴾ لتستووا على ظهوره ثم
تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان
الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴿١٣﴾ وإنا إلى ربنا
لمنقلبون ﴿١٤﴾ وجعلوا له من عباده جزءا إن الانسان لكفور
مبين ﴿١٥﴾ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفيكم بالبنين ﴿١٦﴾
وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه
مسودا وهو كظيم ﴿١٧﴾ أو من ينشؤا في الحلية وهو
في الخصام غير مبين ﴿١٨﴾ وجعلوا الملائكة الذين
هم عند الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب
شهادتهم ويسألون ﴿١٩﴾ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم
ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴿٢٠﴾ أم اتيناهم

كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأخير من الحـزب التاسع والأربعين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة الشورى المكية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً، أَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ، اَوْ يُرْسِلُ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾، ونهايته قوله تعالى في سورة الزخرف المكية أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

يتحدث كتاب الله في مطلَع هذا الربع عن مقامات الوحي الذي يتلقاه الأنبياء والرسل عن الله عزّ وجلّ، وقد ثبت في كتب السنّة النبوية عن رسول الله ﷺ أنه تلقى الوحي عن ربه من أربعة طرق:

الطريق الأول: أن يُلقِي المَلَك في رُوعِه وقلبه ما يوحَى إليه، من غير أن يرى الملك، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نَفَثَ في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

الطريق الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وكان هذا النوع هو أشد أنواع الوحي عليه، حتى أن جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً في اليوم الشديد البرد.

الطريق الثالث: أن يتمثل له المَلَك رَجُلاً فيخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول.

الطريق الرابع: أن يرى المَلَك في صورته التي خُلق عليها، فيوحِي إليه ما يشاء اللَّهُ أن يوحيه. قال ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»: (وقد وقع هذا له مرتين، وورد ذكره في سورة النجم).

وهذا الموضوع موضوع الوحي من الله إلى أنبيائه ورسله هو ما تضمنه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً، أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾،

فقولُه تعالى: ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ يندرج تحته الطريق الأول والطريق الثاني للوحي، كما عرفهما رسول الله ﷺ.

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، يندرج تحته ما أوحاه الله إلى موسى الكليم، بعد تكليمه وحَجْبه عن الرؤية، رغماً عن سؤاله لها.

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾ يندرج تحته الطريق الثالث والطريق الرابع للوحي، كما وصفهما الرسول عليه السلام، وكما وقع لكثير من الأنبياء والرسل، حيث

نزل عليهم بالوحي جبريلُ وغيره من الملائكة المقربين، بإذن الله العلي الحكيم.

وانتقل كتاب الله للحديث عن الوحي بالقرآن إلى الرسول عليه السلام، وعن مبلغ النعمة التي أنعم الله بها على نبيه، عندما اختاره لختم الرسالة من بين خلقه، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا اَلْكِتَٰبُ وَلَا اَلإِيمَٰنُ، وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾، ففي هذه الآية وصف للقرآن بإنه «روح» من عند الله، أنزله لإحياء نفوس الأشباح من البشر، الذين فقدوا مقومات الحياة، وفي هذه الآيــة وصف للقرآن بأنه «نور» من عند الله، أنزله لهداية الضالين الحيارى من مختلف الأمم والمِلل.

وكم كان هذا الوصف صادقاً، وكم كانت هذه الحقيقة أمراً واقعياً، بالنسبة للبشرية جمعاء، فمنذ نزل القرآن ودَخلت البشرية تحت رايته، عرفت من ألوان التقدم والازدهار والحضارة ما لم يسبق له مثيل في آلاف السنين التي سبقت نزول القرآن، ولا يزال موكب العلم والكشف عن حقائق الكون يواصل طريقه بإذن من الله، منذ فَتح له القرآنُ السبيل، ومهد له الطريق.

وأكد كتاب الله مرة أخرى ما في اتِّباع رسالة خاتم الرسل من ضمانة حقيقية لصلاح الخلق ورشادهم، حيث أن هذا الرسول إنما يهدي الناس إلى النهج القويم الذي رسمه لهم، وارتضاه لسلوكهم، خالقُهم وخالق الكون كله، وإذا كان الكونُ كلُّه مطواعاً

وفي قبضة الله، لَا يَتَخَلَّف عن إرادته ورضاه، فيتَّبع النواميس والسنن التي رسمها له دون تردد ولا اعتراض، فَأَحْرِ بالإنسان الذي كرمه الله بالعقل، وبالخلافة عنه في الأرض، وبحمل الأمانة التي أشفقت منها بقيةُ المخلوقات، أن يكون أكثر طواعية للنواميس الخلقية، وأشد التزاماً للتعاليم الإلٓهية، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اِللَّهِ اِلذِي لَهُ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اَللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾.

وَهنا تُودِّعُنا «سورة الشورى» المكية، لِنَنتقل منها إلى «سورة الزخرف» المكية أيضاً، وإنما سميت «سورة الزخرف» أخذاً مِن قوله تعالى في آيتها الخامسة والثلاثين: ﴿ وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفاً، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيا ﴾، ومعنى «الزخرف»: الزينة من كل شيء، وقد اتجهت الآيات الأولى من هذه السورة إلى مُواصلة الحديث عن كتاب الله، وعن تعداد مزاياه، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ، وَالْكِتَٰبِ اِلْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ اِلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾،وها هنا بيّن الحق سبحانه وتعالى منزلة كتابه في الملأ الأعلى، ليقدسه ويعظمه ويُطيعَه أهل الأرض، أسوة بالملائكة المقربين. والمراد «بأمّ الكتاب» اللوح المحفوظ، كما فسره ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما، وبقوله «لَعَلِيٌّ» أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، وبقوله «حكيم» أي مُحكَم بريء من اللبس والزيغ والتناقض.

وفي معنى التنويه بكتاب الله وبيان عظيم مكانته جاء أيضاً

قوله تعالى (٨٠: ١١): ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾، وجاء قوله تعالى (٥٦: ٧٧ ـ ٨٠): ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. قال ابن كثير: «ومن هاتين الآيتين استنبط العلماء أن المُحْدِث لا يمس المصحف، وإذا كان الملائكة يعظمون القرآن في الملأ الأعلى، فأهلُ الأرض أولى بذلك وأَحْرى، لأنه نزل عليهم، وخطابُه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم».

ثم اتجه كتاب الله إلى خطاب المنحرفين عن الحق من المشركين والكافرين، مستفسراً لهم: هل من الخير أن يتركهم الحق سبحانه وتعالى هَمَلاً، فلا يبعث إليهم الرسل، ولا يُنزل عليهم الكتب: ﴿ أَيَحْسِبُ الإِنْسَٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ (٧٥: ٣٦)، وهل من مصلحة الإنسانية ونفعها أن تقف الدعوة وهي في حالة جَزْر لا في حالة مَدّ، وأن تتعطل حكمة الله البالغة في تَوَالي النبوات والرسالات على الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً إن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾، وكأنَّ الله تعالى يقـول: «إنَّ رُبُوبِيَّتِي لَكُمْ تَقْتَضِي أَنْ أُمِدَّكُمْ بِرَحْمَتِي وإحسَانِي، وَلَوْ كُنْتُمْ مُسْرِفِينَ ظَـٰلِمِينَ مُنْحَرِفِيـنَ»، وهذا هو السر في مواصلة الأنبياء والرسل للدعوة الإلٰهية، حتى يتحقق الهدف منهـا وهو إرشاد الخلق وإصلاحهم جميعاً، أو رَشَاد فريق منهم وصلاحه على الأقل ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اَللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ اَلرُّسُلِ ﴾ (٤ : ١٦٥). فمن لطف الله ورحمته بخلقه أن لا يترك دعاءهم

إلى الخير، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أَمَرَ رسله بذلك، ليهتدي من يريد الهدى، ولتقوم الحجة على من يريد الضلال. قال قتادة: «والله لو أن هذا القرآن رُفع حين رَدَّتْهُ أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، فكرَّره عليهم، ودعاهم إليــه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك».

واهتمت الآيات الباقية من هذا الربع بالحديث عن موقف أعداء الرسالات عَبْرَ القرون والأجيال، فقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّۢ فِي اِ۬لْأَوَّلِينَ، وَمَا يَاتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ اِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وبالحديث عن حقائق الإيمان وعقائد التوحيد التي يدعو إليها كتاب الله، مؤيِّدةً بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، فقال تعالى: ﴿ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اُ۬لْأَرْضَ مِهَٰداً، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَالذِي نَزَّلَ مِنَ اَ۬لسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتاً، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ، وَالذِي خَلَقَ اَ۬لْأَزْوَاجَ كُلَّهَا، وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اَ۬لْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في هذا السياق. كما اهتمت نفس الآيات بوصف معتقدات الوثنية وخرافات الجاهلية، وصفاً مصحوباً بتسفيه دُعاتها وأتْباعَها، وهدم الدعائم المنهارة التي قامت على أساسها، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، - ﴿ وَجَعَلُواْ اُ۬لْمَلَٰٓئِكَةَ اَ۬لذِينَ هُمْ عِندَ اَ۬لرَّحْمَٰنِ إِنَٰثاً، اَ۟شْهِدُواْ خَلْقَهُمْ، سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾، - ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي على دين مشترك ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الخمسين في المصحف الكريم

قُلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ
أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي
بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ
هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ
ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ
يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم
بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ

أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ
شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ
بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ
ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ
إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ
أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ
أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ
أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا
وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا
قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصُدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَآلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا
ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا
عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

الربع الأول من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع الحديث في هذا اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلَ اَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿ وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

بعدَما أشارت الآيات الكريمة في نهاية الربع الماضي إلى ما اعتاده خصوم الرسالات الإلّهية من التكذيب بها، والتصدي لمحاربتها بالجهل الفاضح والتقليد الأعمى، منذ فجر الحياة، وبعدما أشارت إلى وقوف مشركي العرب، من خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، موقفاً مماثلاً لموقف مَن سبقهم إزاء بقية الرسل، اتجه خطاب الله في بداية هذا الربع إلى نبيه ﷺ، ملقّناً إياه سؤالاً وجيهاً، موجَّهاً إلى مشركي قريش، المعتصمين بالتقاليد البالية، والمتسترين وراء تقديس ما كان عليه الآباء والأجداد، وهكذا يقول الله تعالى: ﴿ قُلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾، أي هل من المنطق والعقل ن تتبعوا التقاليد الفاسدة،

والمعتقدات الباطلة، لمجرد أن آباءكم اتبعوها وآمنوا بها، ولو كان الذي جئتُكُم به هو أفضل وأرشد، وأحق وأصدق، مما وجدتم عليه آباءكم؟ أليس من الحكمة والتبصر في العواقب أن تتأملوا فيمَا أعرضه عليكم، وأن تقارنوا بينه وبين ما وجدتم عليه آباءكم، لتهتدوا بعد الضلال، وتؤمنوا بعد الكفر.

ثم تشير الآيات الكريمة مرة أخرى إلى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع أبيه وقومه، وما كان له من صراع عنيف معهم، من أجل إحقاق التوحيد الحق، وإبطال الشرك الباطل، وفي ذلك رد صريح على ما يدعيه مشركو العرب لأنفسهم، من كونهم على ملة أبيهم إبراهيم، إذ ملته الحقيقية هي ملة التوحيد لا ملة الشرك، وعقيدة التوحيد هي التي أوصى بها إبراهيم بَنِيه، وهي التي حملها من أبنائه وعَقِبه: موسى، وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن عهد «الفَتْرة» التي مرت بجزيرة العرب، دون أن يُبعَث فيها نبي أو رسول، وأن الله لم يؤاخِذ المشركين خلال تلك الفترة بما ارتكبوه من ذنوب، وبما اعتقدوه من ضلالات، بل إنه ـ تفضلاً منه وكرماً ـ قد أمْهَلَهم، و«مَتَّعَهُم وآباءهم»، في انتظار حلول الوقت الذي تقتضي الحكمة الإلٓهية أن تَبرُز فيه الرسالة المحمدية، وها هي تلك الرسالة قدحان

موعدها لإخراج المشركين من الظلمات إلى النور، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾.

غير أن مشركي العرب، إمعاناً منهم في الشقاق والعناد، واسوة بمن سبقهم من خصوم الرسالات المكذبين بالرسل، بدلاً من أن يُقبِلوا على اعتناق الحق، ويعتزِلوا الباطل، وبدلاً من أن ينتقلوا إلى دين التوحيد الخالص، وينبِذوا معتقدات الشركِ، أخذوا يواجهون خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام بمثل ما واجه به فرعونُ وقومُه موسى الكليم، وكما وصف فرعونُ موسى بأنه «ساحر» وادعى أن دعوته إنما هي مجرد «سحر» ها هم مشركو قريش يرددون نفس الاتهام، ويكررون نفس النغمة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَٰفِرُونَ ﴾، على غرار ما حكاه كتاب الله عن فرعون وقومه في نفس هذا الربع وهم يخاطبون موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ (٤٩).

ثم يُبرِز كتاب الله ما انطوى عليه تكذيب مشركي قريش للرسول عليه السلام من اعتبارات وأسباب سياسية ومادية، فهم بالرغم عن كونهم لا ينكرون شرف مَحْتِد الرسول، وكونه «خياراً من خيار»، نسباً وحسباً، إلاّ أنهم يرون أنه لا يتمتع بزعامة قَبَلية، ولا برياسة زمنية، وإذن فليس هناك ما يؤهله في نظرهم لحمل الرسالة، وهم يرون أنه إذا كان ولا بد من إرسال رسول إليهم، فالأوْلَى أن يكون هذا الرسول أعظم رجل في مكة أو في الطائف

عصبية ونُفُوذاً، طبقاً «لاعتبارات الجاهلية» الخاصة، وذلك ما يحكيه عنهم قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ وكأنَّ مشركي قريش كانوا بهذه الاعتبارات ينظرون إلى الموقف الذي وقفه قبلهم فرعون من موسى، عندما أخذ يحُطُّ من مقامه، مدعياً أنه غيرأهل للرسالة، لأنه لا سلطان له ولا مال، ولا يلبس مثله أساورة من ذهب، وذلك ما حكاه كتاب الله عن فرعون في هذا الربع نفسه، إذ قال: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ، وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (٥٣).

لكنَّ كتاب الله رد على المشركين ادعاءهم، مبيناً أن اعتباراتهم الواهية ما بين مادية وسياسية، لا عبرة بها عند الله، بالنسبة إلى النبوة والرسالة، وأن الله تعالى هو الذي يتولى اختيار الأنبياء والرسل، بمحض مشيته، وأنه يختارهم لحكمة سامية هو المنفرد بعلمها قبل ظهورها للناس، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟ ﴾، إشارةً إلى أن النبوة والرسالة مظهر من مظاهر رحمة الله، وأنه يختصُّ برحمته من يشاء كما يشاء، وأنه هو الذي «يعلم حيث يجعل رسالاته» دون بقية الخلق، فالرسالة عطية إلٓهية مجردة، واختيار إلٓهي صرف، بحيث لا ينفع فيها التمني، ولا تنال بالسعي والاكتساب، ولا بالاقتراح والترشيح من الأحباب والأصحاب.

وفي هذا السياق، رفع كتاب الله الستار عن حقيقة اجتماعية واقعية لها تأثير في نظام المجتمع البشري، وما يلزم أن يكون عليه من تعايش وتعاون وتكامل، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾، أي: قسمنا لكل إنسان حظه في العيش، من المطعم والمشرب والمسكن وما يتوقف عليه من المنافع، وأذِنَّا له في تناوله، على أن يسلك في تناوله الطرق المشروعة، حتى تكون قسمته حلالاً طيباً، ثم قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾، أي: أن الله تعالى فاوت بين خلقه، فيما وهبهم من العقول والفهوم والقُوَى الظاهرة والباطنة، والاستعدادات المختلفة، والميول المتعددة، فسلكَ بعضُهم طريقاً، وسلك بعضهم طريقاً آخر، إذ لم يكونوا في درجة واحدة من تلك الهبات، وبذلك تنوعت أعمالهم ومكاسبهم، واحتاج بعضهم إلى ما عند البعض الآخر، وأصبح كل فريق منهم متوقفاً على خبرة الآخر ومعونته، مسخَّرا لخدمته، وذلك لخير المجتمع كله، وخدمة الصالح العام، وهذه هي الحكمة الإلٰهية من وراء التفاوت الذي جعله الله بين خلقه ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾، كما قال تعالى، وليس المراد أن فريقاً يعتبر «أعلى» وفريقاً يعتبر «أدنى»، فلا طَبَقية في الإسلام، وكلمة «سُخرِيّاً» الواردة في هذه الآية من «التسخير» بالمعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣١: ٢٠)، لا من «السُّخْرِيَة» بمعنى الاستهزاء، الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ (١١: ٣٨)، قال الإمام القشيري: «لو كانت المقادير متساوية

لتعطلت المعايش، ولبقي كلٌّ عند حاله».

ولِيُريحَ كتابُ الله ضمير الرسول من كل قلق يساوره، بعد أن بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة، ولم يستجب له في الحين «الصُّمّ» الذين لا يسمعون، و«العُمْي» الذين لا يهتدون، خاطبه ربه قائلاً: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وكأنه يذكره بخطابه الآخر: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (١٣ : ٤٠)، وبيَّن كتابُ الله أن الحق سبحانه وتعالى قادر على الانتقام من خصوم الرسالة، حتى لو انقطعت عنهم الرسالة، بحلول أَجَل الرسول، وأن تملصهم من الاستجابة لها لا يغنيهم شيئاً، كما أنه سبحانه قادر على أن يُطيل حياة رسوله حتى يُرِيَه رأي العين ما يصيبهم من هزيمة وخذلان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾.

وفي هذه الغمرة من غمرات الكفاح ضد الشرك والمشركين يتوجه كتاب الله إلى الرسول عليه السلام مخاطباً إياه، وموصياً لَهُ بالثباتِ على ما جاء به من عند الله، فقال تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾، وهذه دعوة إلى المزيد من الثباتِ والصُّمود، وعدم التبرم والضجر، والتصلب في الحق والدفاع عنه إلى آخر رمق. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، تأكيداً لما عليه الرسول من ثبات في الفؤاد، ورسوخ في الاعتقاد، فكتاب الله هو المُفضِي إلى صراط الله المستقيم، والموصِّل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وهذا

الخطاب موجه أيضاً بالتَّبع إلى كل مسلم ومسلمة في القديم والحديث.

وإمْعَاناً في تكريم الرسول والرسالة، وإنْعَاما عليه بأعلى درجات التوقير والجلالة، خاطبه ربه قائلًا: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وكلمة «الذِّكْر» هنا تحتمل معنيين لا تعارض بينهما، فكتاب الله يتضمن تذكير الرسول وتذكير عشيرته الأقربين، كما يتضمن تذكير الناس أجمعين، مصداقاً لقوله تعالى (٢١ : ١٠): ﴿ لَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وكتاب الله في نفس الوقت هو شرَف للرسول الذي اصطفاه الله لرسالته، وشرف لقومه ولغته، وشرف لِمجموع أمته، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٩٤ : ٤)، ولما كان السابقون الأولون أفْهَمَ الناس لكتاب الله كانوا أقوم الناس به وأعْمَلَهم بمقتضاه، ﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾، أي: سوف تُسألون عن هذا القرآن: هل قمتُم بحقه، وشكرتم الله على أن خصكم به؟ ومن هنا كان فهم اللسان العربي المبين، أكبر عَون على فهم الدين، والتمسك به عن بينة ويقين، فهذه الآية الكريمة عند نزولها تنبأت بما سيؤول إليه أمر رسالة الإسلام التي حملها إلى الخلق رسول الهدى والحق، وأن هذه الرسالة سيكون لها وله بفضلها، ذكر خالد في العالمين، وسيستمر هذا الذكر العاطر إلى يوم الدين: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ

تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَاكُلُونَ ﴿٧٣﴾
إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ
وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم
مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾
أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسِبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ
وَنَجۡوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ
وَلَدٞ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡارۡضِ رَبِّ
ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ
يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي
ٱلۡارۡضِ إِلَٰهٞ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَٰرَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡارۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ
إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَهُۥ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ
لَّا يُومِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ
تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ
وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا
مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾
أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى
اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ
أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ

هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ
ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤

الربع الثاني من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في «سورة الزخرف» المكية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ اَلذي تَخْتَلِفُونَ فِيه ﴾، ونهايته قوله تعالى في «سورة الدخان» المكية أيضاً: ﴿ وَاتْرُكِ اِلْبَحْرَ رَهْواً، إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾.

في الآيات الأخيرة من الربع الماضي جرى الحديث عن عيسى بن مريم عليهما السلام، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ اَبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً اِذَا قَوْمُكَ مِنْه يَصُدُّونَ ﴾، وذلك في سياق الرد على المشركين الذين أرادوا أن يساووا بينه وبين معبوداتهم من الأوثان والأصنام، نظراً لأن النصارى يتوجهون إليه بالعبادة كما يتوجهون هم بها إلى معبوداتهم، وفي بداية هذا الربع جاءت تتمة الرد عليهم، وإبطال قياسهم الفاسد، فقد نقلت كتب السيرة أن مشركي قريش هالهم ما تلاه رسول الله ﷺ أمامهم من قوله تعالى في خطابه لهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (٢١ : ٩٨)، إذ إن مضمون هذه الآية يقتضي أن المشركين وجميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله سيكونون في جهنم، فأورد المشركون على رسول الله ﷺ «إشكالاً» بما يقوم به النصارى من عبادة لعيسى بن مريم، وسألوه هل سيكون عيسى بنُ مريم أيضاً في جهنم كما تكون فيها أصنام المشركين وأوثانهم التي يعبدونها من دون الله، هذا وهم يعلمون مُسْبَقاً أن عيسى بن مريم كان رسولاً ولم يكن صنماً، لكنهم أرادوا أن ينتقلوا من هذا القياس الفاسد ـ لأنه قياس مع وجود الفارق ـ إلى أن آلهتهم ومعبوداتهم لن تكون في النار، ما دام عيسى بن مريم لا يدخل النار، وهو في نظرهم ليس خيراً من آلهتهم، ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾، فغرضهم في الحقيقة هو الجدل والمشاكسة، لا الوصول إلى جوهر الحق في الموضوع: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾، وقد كانوا ينتظرون من رسول الله أن يقول لهم: إن آلهتكم خير «فيكون ذلك إقراراً لهم على عبادتها» أو يقول: «إن عيسى خير من آلهتكم» فيكون إقراراً منه بأن عيسى أهل للعبادة، أَوْ أن ينفي «الخَيْرية» عنهم جميعاً، وذلك طعن في عيسى، فكان فحوى جواب النبي ﷺ: «إن عيسى خير من آلهتكم، ولكنه لا يستحق أن «يعبد». وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

وهكذا تولي كتاب الله إبطال قياسهم لعيسى بن مريم على آلهتهم، وبيّن أن الدعوة التي دعا إليها عيسى النصارى كانت

قاصرة على إفراد الله بالعبادة، والاعتراف له بالعبودية، والتعريف بإلوهيته ووحدانيته المطلقة دون سواه، فهو لم يَدْعُ أحداً من أتباعه لا إلى عبادته ولا إلى تأليهه، ولا إلى اعتباره ابناً للإله، كما ادعاه النصارى المبطلون، وذلك قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُون فِيهِ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ على غرار ما جاء في آية أخرى حكايةً عن عيسى ابن مريم (٥: ١١٧): ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم، وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ثم عَقَّبَ كتاب الله على هذا الرد المفحم الذي أبطل شُبَه المشركين، موضحاً مصدر العقائد الباطلة التي انتشرت عن المسيح بين فِرَق النصارى المختلفة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ إشارةً إلى الشِّيَع والمذاهب والفرق التي انقسمت إليها النصرانية بعد عيسى عليه السلام، والتي اخترعت بمحض خيالها عقيدة «المسيح الإلَه»، أو «المسيح ابن الله»، وما شابههما من المعتقدات الزائفة، التي هي «ظلم في حق الله» ـ إذ يصدق على معتقِديها أنهم ما قَدَرُوا الله حق قَدْره ـ «وظلم في حق المسيح»، لأنه لم يكن سوى عبدٍ لِلَّه، فغالى فيه أَتباعُه ورفعوه إلى مرتبة الإلَه، وهذا الظلم الصارخ هو الذي يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَوَيْلٌ

لِّلذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ اَلِيمٍ ﴾ عقب الإشارة لاختلاف الفِرَق والمذاهب النصرانية، التي تضمنها قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ اَلاَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾.

وأشار كتاب الله في هذا السياق إلى ما يقوم بين أهل الأهواء والضلالات من صداقة مدخولة، وخُلَّة مشبوهة، أساسها التضامن ضد الحق وأهله، والتعاون على الإثم والعدوان، مُبَيِّناً أن هذه الصداقة مهما طالت فمآلها إلى عداوة صريحة، وكراهة بالغة، بحيثُ تنفصم عُرَاها لأول احتكاك يقع بينهم من أجل المغانم أو المغارم، فلا يلبث بعضهم أن يتبرأ من بعض، وتتجلى هذه القطيعة بينهم على أشدها يوم القيامة، حيث لا ينفع أحد منهم الآخر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ اَلاَخلاَّءُ يَوْمَئِذِم بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، على غرار قوله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ الخليل وهو يُخَاطبُ قومَه الضالين (٢٩ : ٢٥): ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اَتَّخَذتُّم مِّن دُونِ اِللَّهِ أَوْثَٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾. أما الصُّحْبة في الله من أجل التعاون على البر والتقوى، والتزام الحق والصدق دون مُدارة ولا مُداهَنة، فهي نافعة في الدنيا، وأثرها ممتد إلى الآخرة بفضل الله وكرمه، وذاك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بصيغة الاستثناء: ﴿ إِلَّا اَلْمُتَّقِينَ ﴾، وبَشّر كتاب الله المتآخين في الله، الذين قامَت أخوتهم على تقوى من الله ورضوان، بأنهم سيُدْعَون يوم القيامة بأفضل نداء يُدْعَى به المقربون عند الله، فقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اُلْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾، ثم بيَّنَ السر

فيما أعد الله لهم من نعيم مقيم، إذ قال تعالى في وصفهم: ﴿ اَلذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾، فقد آمنوا بآيات الله حقاً وصدقاً، وقد أسلموا وجوههم لله رِقّاً وعِتْقاً.

وعرَّج كتاب الله بعد ذلك على العقيدة الباطلة التي يعتقدها المشركون وبعض اليهود والنصارى، حيث يدّعون أن لله ولداً، وهذه العقيدة هي التي أشار إليها كتاب الله في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً، إِنَّ اَلإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾، وفي الآية الثلاثين من سورة التوبة حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ اِلْيَهُودُ عُزَيْرٌ اُبْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ اِلنَّصَـٰرَى اَلْمَسِيحُ اُبْنُ اللَّهِ ﴾، واتجه الخطاب الإلٓهي إلى الرسول ﷺ في هذا الربع ملقناً إياه ماذا يقوله لمن يعتقد هذه العقيدة الباطلة: ﴿ قُلِ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَـٰبِدِينَ ﴾، أي: فأنا أول من يعظم ذلك الولد، لكن الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد.

ومن هنا انتقلت الآيات الكريمة إلى تَنزيه الله عن كل صفة من صفات النقص، وإلى تمجيده بكل صفة من صفات الكمال: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّ اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبِّ اِلْعَرْشِ، عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، ﴿ وَهُوَ اَلذِي فِي اِلسَّمَآءِ اِلَـٰهٌ وَفِي اِلأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٦ : ٣) ﴿ وَهُوَ اَللَّهُ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَفِي اِلأَرْضِ ﴾، أي: لا إلٓه سواه، لا في الأرض ولا في السماء، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ اَلْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، وَتَبَـٰرَكَ اَلذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

واتجه الخطاب إلى الرسول عليه السلام مرة أخرى يدعوه إلى انتظار وعد الله بشأن مصير المشركين، فقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ الذِي يُوعَدُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَهُ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُومِنُونَ، فَاصْـفَـحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

والآن وقد انتهينا من سورة «الزخرف» المكية ننتقل بعون الله إلى «سورة الدخان» المكية أيضاً، وقد أُطلق عيها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى، فيها: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي اِلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾، وبمجرد الشروع فيها نجد أنفسنا أمام آيات كريمة تنوه بكتاب الله، وتصف «الليلة المباركة» التي أنزله الله فيها على قلب رسوله الصادق الأمين، وتَلفِت نظر الإنسانية جمعاء إلى أن كتاب الله إنما هو رحمة مرسلة من عند الله، أنزله لهداية البشر، والأخذ بيدهم لسلوك مسالك الرشاد والسداد، وذلك قوله تعالى: ﴿ حمٓ . وَالْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ اِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ اَمْراً مِّنْ عِندِنَآ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّـوقِنِيـنَ ﴾. ويتصـل بنفس الموضـوع قـولـه تعـالى (٢ : ١٨٥): ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ اَلذِيَ أُنزِلَ فِيهِ اِلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ اَلْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾، وقولُه تعالى: (٩٧: ١): ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةِ اِلْقَدْرِ، وَمَآ أَدْرِيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنَ اَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فبمقتضى هذه الآيات الكريمة يتبين أن كتاب الله ابتدأ نزوله في شهر رمضان المبارك، الذي شُرع صيامُه ذكرى

لنزول القرآن، وأن أول ليلة وقع بدأ نزوله فيها هي إحدى ليالي رمضان، وهي بالذات «ليلة القدر» التي هي عند الله خير من ألف شهر، وهذه الليلة هي التي نوه بها كتاب الله في فاتحة هذه السورة التي نحن بصدد تفسيرها، حيث وصفها بأنها «ليلةٌ مباركة»، لأن القرآن الذي ابتدأ نزوله فيها كان أكبر بركة أنعم الله بها على بني آدم، بما فتح لهم من آفاق جديدة في العلم والمعرفة، وما هداهم إليه من وجوه الإصلاح الروحي والمادي لمختلف مرافق الحياة، وما أتاح لهم من الوسائل الفعّالة، لترميم صرح الحضارة المتداعي، وبعث الإنسانية من مرقدها الطويل.

وقولُه تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِّنْ عِندِنَآ ﴾ إشارةٌ إلى ما تولى كتاب الله الكريم بيانه من معالم الدين، وما شَرّعه من الأوامر والنواهي التي جعلها شرعة خالدة للمسلمين، ومنهاجاً دائماً للمؤمنين، فما من أمر أو نهي في كتاب الله إلاّ وهو يتضمن من الحكمة والرشاد، ما يضمن صلاح العباد ﴿ أَلَيْسَ اَللَّهُ بِأَحْكَمِ اِلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (٩٥: ٨).

وقولُه تعالى في وصف كتابه: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ تعريف لعباده المؤمنين بأبرز خاصَّة من خواص كتابه الكريم، فلا يُعرف في تاريخ البشرية أن كتاباً غيرَ القرآن ماثَلَه ـ فضلاً عن أن يفوقه ـ في الأخذ بيد الإنسان، وتحريره من سيطرة الأوهام ورِقِّ الأوثان، ودفع عَجَلة تقدمه ونهضته إلى أقصى حدود الإمكان، ويكفي لِتقدير فضله الواسع، ومعرفة تأثيره العميق، إلقاء نظرة ولو بسيطة

على تـاريـخ الأمم التي دخلت، بفضله، في عـداد الأمم المتحضرة، والتي أصبح لها في ظله كِيان وسلطان، والتي في إمكانها إذا عادت إلى حظيرته بعزيمة وإخلاص أن تستعيد مجدها وتفرض وجودها إلى آخر الزمان.

الربع الثالث من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا
قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾
وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ
هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

طَعَامُ الْاَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ

عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقِ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا

كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ اَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ

وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ

وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْاُولَىٰ وَوَقِيٰهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾

فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ

بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبِ اِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ

لَاَيَٰتٍ لِّلْمُومِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا

بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ

ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُومِنُونَ ﴿٦﴾

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ اَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا

كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا
اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ
الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

الربع الثالث من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في «سورة الدخان» المكية: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾، إلى قوله جل علاه في «سورة الجاثية» المكية أيضاً: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع يضرب الله الأمثال لِـمُشركي قريش بما وقع للأمم السابقة من قبلهم، فيتحدث كتاب الله عن الكارثة التي نزلت بفرعون وقومه، جزاء تحديه للرسالة الإلٓهية التي برزت على يد موسى الكليم، ومُحارَبَته لها مع الملأ من قومه بجميع وسائل التمويه والتهريج والتعذيب، ومُجارَاة عامة قومه لـه ضد الحق المبين، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَٰسِقِينَ ﴾ (٤٣ : ٥٤). وقد نعى كتاب الله ما خلّفوه وراءهم من بساتين ناضرة، وزروع مثمرة، ومياه جارية، وقصور عالية: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا

فَـٰكِهِينَ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾.

وبيّن كتاب الله هَوَانَ فرعون وقومه على الله وعلى الناس أجمعين، حتى أنه لم يَأْبَه أحد لنكبتهم، ولم تبك عين على ما أصابهم فجأة من العقاب والعذاب، إذ لم يتركوا وراءهم أي عمل صالح، أو ذكرى طيبة يذكرهم بها أهل الأرض أو أهل السماء: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالاَرْضُ، وَمَا كَانُواْ مُنظَرِين ﴾، قال قتادة: «كانوا أهونَ على الله عزّ وجلّ من أن تبكي عليهم السماء والأرض»، وقد سئل أحد أئمة التفسير الأولين: «أتبكي الأرض والسماء؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يَعْمُرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دويٌّ كدوي النحل؟».

وأشارت نفس الآيات الكريمة إلى بعض الأسباب التي أوجبت غضب الله على فرعون وقومه، فهذا عذاب مُهين كان يُعذِّب به الذين آمنوا بموسى من بني إسرائيل، ظلماً وعدْواناً، وهذا إسراف بالغ كان لا يفترُ عنه في اللذات والشهوات، وهذا استعلاء وكبرياء كان يتحدى بهما قدرة الله المطلقة، وسطوته البالغة، ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الاَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ، وَيَسْتَحِيْ نِسَآءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢٨ : ٤).

وتناولت الآيات في هذا السياق ما يدَّخِره الحق سبحانه وتعالى للمعذَّبين في الأرض المغلوبين على أمرهم، من النجاة والفوز والنصر، في نهاية الأمر، وفي هذا تثبيت للمسلمين الأُوَل،

الـذين كانـوا يتحملون من مشركي مكـة أنواع الأذى وصنـوف الإساءات، فتحدث كتاب الله ضارباً لهم المَثَل بنجاة بني إسرائيل من عذاب فرعون، وخروجهم من قبضته، واختيارهم على غيرهم من أهل زمَانهم لحمل الأمانة، بقيادة موسى الكليم عليه السلام، إذ أنهم كانوا وقتئذ أفضل معاصريهم وأولاهم بحمل الأمانة، رغماً عما يعلمه الحق سبحانه وتعالى فيهم من وجوه النقص المتعددة، التي كان يعالجها بالتهذيب والتشذيب موسى وأخوه هارون ومن جاء بعدهما، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ ـ عَلَىٰ عِلْمٍ ـ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾، أي: آتيناهم من الحُجَجِ والبراهين وخوارق العـادات ما فيـه اختبار ظاهر، وامتحان جلي، لمن اهتدى به وكان من المهتدين.

وبعد ما تحدث كتاب الله عن إنكار مشركي قريش لعقيدة «البعث» الأساسية في الدين، وعن ادعائهم أنه لا نشر ولا بعث بعد الموت، وعن مطالبتهم للرسول عليه السلام ببعث آبائهم من القبور فوراً، وإرجاعهم إلى الحياة الدنيا، حتى يُذْعنوا ويؤمنوا بالبعث المنتظر يوم القيامة، تساءل كتاب الله هل مشركو قريش خير عند الله من قـوم «تُبَّع» الـذين أهلكهم وأهلك من قبلهم بشركهم وإجرامهم، وكأنه يقول: إن المصير الذي انتهى إليه قوم تُبَّع، ومَن ماثلهم من الأقوام المنحرفة عن الحق، سيكون هو نفس المصير الذي يؤول إليه أمر مشركي قريش، وذلك قولـه تعالى مشيراً إليهم: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُـولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَـوْتَـتُنَا

ٱلْأُولَىٰ، وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ، فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ. أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ، وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾.

وفي تفسير ابن كثير: «إن قوم تُبَّع هم «سَبَأ» أهلكهم الله فخرب بلادهم، وشردهم، ومزقهم كل ممزق، وقد كانوا عرباً من قَحْطان، كما أن هؤلاء المشركين عرب من عدْنان، وقد كانت حِمْيَر ـ وهم سبأ ـ كلما ملك فيهم رجل سمّوه «تُبّعاً» كما كان يقال «كسرى» لمن ملك الفرس، و«قَيْصَر» لمن ملك الروم، و«فرعون» لمن ملك مصْر، و«النجاشي» لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس»، قال قتادة: «ذُكِر لنا أن كَعْباً كان يقول في تُبّع: إنه نُعت نعت الرجل الصالح، فقد ذم الله تعالى قومه، ولم يذُمّه، قال: وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «لا تسبوا تُبّعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً»، ثم قال ابن كثير: «وحجَّ تُبّع البيت الحرام في زمن الجُرْهُميين، وكساه المُلاَءَ والوَصَائل من الحرير وَالحبير، ونحَرَ عنده ستة آلاف بَدَنة، وعظمه وأكرمَه، ثم عادَ إلى اليمن، وقد ساق قصته بطُولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة».

وانتقل كتاب الله إلى تأكيد حقيقة إسلامية طالما قررها وأكدها لترسخ في الأذهان، ألا وهي أن الله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثاً ولا لعباً، وإنما خلقه لحكمة سامية اقتضت خلقه، ولأمر عظيم أراده من وراء إبداعه، وهذه الحكمة السامية وهذا الأمر العظيم ينبغي أن يحاول الإنسان فهمهما، والإلمام بهما، إذ

عن طريق هذا الفهم وهذا الإيمان يدرك الإنسان ما لخالق الكون من جلال وجمال بارزيْن في خلقه، ويدرك السر الذي اقتضى خلق الإنسان، وترشيحه للخلافة عن الله في هذا الكون، فمن لم يعرف الغاية من خلق الكون عموماً لم يدرك الغاية التي من أجلها خُلق الإنسان، الذي هو جزء لا يتجزأ من هذا الكون، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ، مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّ يَوْمَ اَلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمُ أَجْمَعِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى (٣٨ : ٢٧): ﴿ وَمَا خَلَقْنَا اَلسَّمَآءَ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلاً. ذَٰلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُواْ، فَوَيْلٌ لِّلذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَلنَّارِ ﴾، وقوله تعالى (٢٣ : ١١٥): ﴿ أَفَحَسِبْتُمُ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَٰلَى اَللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾.

ومضى كتاب الله يصف أهوال الجحيم، التي تنتظر أعداء الحق من المشركين والكافرين، كما يصف مَسَرَّات دار النعيم، التي تنتظر أهل الحق من المؤمنين المتقين، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا اَلْمَوْتَ، إِلَّا اَلْمَوْتَةَ اَلْاُولَىٰ، وَوَقَيٰهُمْ عَذَابَ اَلْجَحِيمِ، فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ، ذَٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ ﴾.

وها هنا ننتهي من «سورة الدخان» المكية لننتقل إلى سورة الجاثية» المكية أيضاً، وإنما أُطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾، وفي مطلعها نجد أنفسنا أمام حديث مستأنَف عن القرآن الكريم، والتنويه بمقامه العظيم: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. حمٓ. تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ

مِنَ اَللَّهِ اِلْعَزِيزِ اِلْحَكِيمِ ﴾، ثم تشرع السورة في تعداد آيات الله المبثوثة في آفاق الكون الواسعة، وتعداد آيات الله الناطقة في كل إنسان إنسان وحيوان حيوان، وآيات الله البارزة في الظواهر الكونية، التي تتعاقب وتتوالى دون انقطاع وفي كل وقت، مما يَحْمِلُ على الإذعان لِقدرة الله وحكمته، ويقوِّي اليقين بعدله ورحمته، ويدفع إلى التطوع بعبادته وطاعته، نتيجةً لاهتداء العقل إلى معرفته، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقد أحسن جار الله الزمخشري في تفسير هذه الآيات حيث قال: (المعنى أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فآمنوا بالله وأقروا، ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال، وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيْقنوا وانتفى عنهم اللبس ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً، وقَبولاً ودَبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾) وحلل ابن كثير قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ ﴾، فقال: أي جنوباً وشمالاً، ودَبوراً وصَباً، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو

للمطر، ومنها ما هو للِّقاح، ومنها ما هو غذاءٌ للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا يُنتِجُ، وسُمِّي المطرُ في هذه الآية «رزقاً»، لأن به يحصل الرزق، ونبه إلى السر في قوله تعالى أولاً: ﴿ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُومِنِينَ ﴾، وقوله ثانياً: ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، وقوله ثالثاً: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُـونَ ﴾، وأن ذلك ترَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وقال القشيري: «جعل الله العلوم الدينية كسبيّةً مصحّحة بالدلائل، محقَّقة بالشواهد، فمن لم يستبصر بها زلَّت قدمه عن الصّراط المستقيم».

وهذه الآيات الكريمة شبيهة بآية سورة البقرة (١٦٤): وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ، وَاخْتِلَـٰفِ الَيْلِ وَالنَّهارِ، وَالْفُلْكِ اِلتِي تَجْرِي فِي اِلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ، وَمَآ أَنزَلَ اَللَّهُ مِنَ اَلسَّمَآءِ، مِن مَّآءٍ، فَأَحْيا بِهِ اِلاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُـلِّ دَآبَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَـٰحِ وَالسَّحَابِ اِلْـمُسَخَّرِ بَيْنَ اَلسَّمَآءِ وَالاَرْضِ ءلَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بآية جامعة مانعة في هذا المجال، هي نقطة الانطلاق ومحور التفكير في الحال والمآل، فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي اِلاَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءلَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ
عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ
مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ
إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾
قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ
جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ
لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ

بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

الربع الأخير من الحزب الخمسين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حـديث هذا اليـوم نتناول الـربع الأخيـر من الحزب الخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قولـه تعالى: ﴿ قُـل لِّلذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اَللَّهِ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾، ونهايته قوله تعالى في ختام «سورة الجاثية»: ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالْاَرْضِ، وَهُوَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

يتوجه الخطاب الإلّهي في مطلع هذا الربع إلى الرسول عليه السلام ليرشد السابقين من المؤمنين، الذين يتحملون معه بمكة صنوف الإذايات، وضروب الإساءات من طرف المشركين، إلى ضرورة الصبر على أذاهم، والاغضـاء عن إساءتهم، ذَلـك أن هؤلاء المشركين الضالين جديرون في هـذه المرحلة التمهيـدية بالإهمال والرثاء، أكثر مما هم جديرون بالمؤاخذة والجزاء، فهم لا يزالون عُمْـى البصائر، ضعفاء العقول، فاقدين لقوة التمييز بين الحق والبـاطـل، محـرومين من نـور الإيمـان، شـاكّين في «أيّـام الـله»، التي لا ريب فيها ولا شك، فالأَوْلى عدم الرد على أذاهم بمثله، وعـدم التسابق معهم في مجـال الإسـاءآت

والمضايقات. وفي الموقف الذي يقفه المؤمنون من أذى المشركين، مساعدة لهؤلاء الحيارى على إدراك التأثير الروحي العميق، الذي أحدَثه الإسلام في معتنقيه، وعلى مقارنة التهذيب الإسلامي والأخلاق الإسلامية السمحة، بما هم عليه من أخلاق «الجاهلية الأولى» وتقاليدها الصبيانية والعدوانية.

يضاف إلى ذلك أن صبر المسلمين على أذى مشركي مكة يُحْسَبُ لهم عند الله من الأعمال الصالحة، التي يُجزَوْن عليها الجزاء الحسن، كما أن أذى المشركين للمؤمنين سَيضاعف لهم ـ إن لم يؤمنوا ويتوبوا ـ الجزاء السيء عندما يحُل موعد الجزاء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ، لِيَجزِيَ قَوْمَا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة فوْراً للتذكير بمبدأ إسلامي أصيل، وعقيدة جوهرية من عقائده الأولى، ألا وهي أن كل فرد مسؤول عن نفسه، وأن كل فرد مَجزِيٌّ على عمله، وما دام الأمر هكذا فلا موجب لمُغالاة المؤمن في حمل المخالف له على اعتقاد ما يعتقده هو، بوسائل الضغط والإكراه، بمعنى أن المؤمن، عندما يدعو المخالِفَ له إلى الإيمان، ويبلغه رسالة ربه بالتي هي أحسن، يكون قد أدى واجبه كاملاً غير منقوص، وليس مطالَباً بأن يحمل غير المؤمن على عقيدة الإيمان كَرهاً، فهؤلاء المشركُون الذين لا يزال المسلمون يعايشونهم في مكة، قبل أن يؤذَن لهم بالهجرة إلى المدينة، قد اسْتمعوا إلى كتاب الله، ودعاهم الرسول والمؤمنون

معه إلى الحق المبين، وبذلك أصبحوا مَسؤولين عن أنفسهم، موكولين إلى اختيارهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ، وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية (٥٢ : ٢١)، ﴿ كُلُّ امْرِيءٍم بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾.

وأعاد كتاب الله الحديث عن قصة بني إسرائيل ليضرب بهم المثل للمؤمنين، حتى لا يسلكوا مسلكهم ولا يتعَرَّضُوا للعزل عَنْ خلافة الله في الأرض، التي أراد أن يُعِدَّهم لها بخاتم كتبه، على يد خاتم أنبيائه ورسله، فقد مرّ بَنُو إسرائيل بفَتْرَة اختارهم الله فيها من بين جميع معاصريهم لحمل الرسالة الإلّهية التي جاء بها موسى عليه السلام، وفي ذلك الطور آتاهم الله الكتاب والحكم، والنبوءة والعلم، ثم تبع هذا الطور طور آخر من الخلاف والانحراف، والعناد والفساد، والطغيان والعدوان، فبعث الله عيسى بن مريم، إذ «أنعمَ عليه وجعله مَثَلاً لبني إسرائيل»، وذلك ليبين لهم بعض الذي اختلفوا فيه، ويردهم إلى حَظِيرة الاستقامة، وطريق السلامة، وبدلاً من أن يستجيبوا لِدَعوته، كانوا حرباً عليه وعليها، فنزع الله عن بني إسرائيل أهلية الخلافة وشرف النبوة، واقتضت الحكمة الإلّهية تكليف فرع آخر من عقب إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل الذبيح، عليهما السلام، بحمل الرسالة، وأداء الأمانة، وتجديد الدين الحق، بين الخلق، والخلافة عن الله في الأرض، على أساس ملة إبراهيم، وكان ذلك على يد سيدنا محمد بن عبدِ الله صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا السياق

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ، وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ، وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، أي: فضلناهم على معاصريهم وأهل زمانهم، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾، أي: حُججاً بينة وبراهين قاطعة، من الشريعة التي جاء بها موسى، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾، أي: أنهم من بعد قيام الحجج الثابتة بالوحي اختلفوا فيما بينهم، وحرفوا الكَلِم عن مواضعه، ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾، أي: حسداً من بعضهم لبعض، وبغياً من بعضهم على بعض، اتِّباعاً للأهواء والأغراض والشهوات.

وعقَّب كتاب الله على الخلافات التي قامت بين بني إسرائيل ففرقت جمعهم، وأدت إلى نزع صَوْلَجان الخلافة عن الله من بين أيديهم، وإخراج النبوة نهائياً من سلالتهم، فخاطَب الرسولَ عليه السلام قائلاً: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يشير إلى أن الخلافات التي نشأت بين بني إسْرائيل فيما بينهم، وبين بقية الملل والأديان، أصبحت خلافات مُزمِنة لا سبيل إلى علاجها، بل إنها سترافقهم على مر الزمان إلى اليوم الموعود، وهذه الحقيقة ماثلة للعيان، منذ نزل القرآن، إلى الآن وحتى الآن.

غير أن كتاب الله ـ وهذا هو الغرض المقصود من الحديث عن بني إسرائيل، ووصِف ما تعرضوا له في حالتي الرضى والغضب من جانب الله ـ وجَّهَ الخطاب إلى خاتم الأنبياء والرسل،

وعن طريقه وجه الخطاب إلى كافة المؤمنين، داعياً له ولهم إلى وجوب التمسك بشِرْعة الإسلام التي حلت محل الشرائع السابقة، وإلى ضرورة اتِّباعها وعدم الخروج عنها، والحذر من الوقوع في شبكات الأهواء المفرِّقة، والاختلافات الممزِّقة، إذْ أن أصحاب الأهواء ودعاة الفرقة الذين يَدْعُون لأهوائهم، ويستدرجون إليها أهل الحق، لا يستطيعون أن يردوا غضب الله، عمن حاد عن شريعة الله، وتعدى حدود الله، وهم أعجز من أن يُبْقُوا على عرش الخلافة عن الله، مَن خان الأمانة وأشهر الحرب على الله، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ويؤكد كتاب الله هذا المعنى لافتاً نظر الرسول عليه السلام إلى حال أهل الكتاب، الذين اتبعوا أهواءهم من بعدما جاءهم من العلم، وما هم عليه من تناقض وتخاذل وحيرة وارتباك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ، وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً، فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومما ينبغي الانتباه إليه في هذا المقام كلمة «الأمر»، التي تكررت في هذا الموضوع، ولأمر ما كان هذا التكرار والربط في نفس السياق، ففي الحديث عن بني إسرائيل سبق قوله تعالى هنا: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وفي الخطاب للرسول عليه السّلام ورد قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وكلاهما ينظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف (٥٤):

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، مما يوضح أن الله تعالى كما انفرد بخلق الإنسان وجميع الأكوان، فهو وحده الذي له حق «الحاكمية» على الإنسان، إذ هو سبحانه المنفرد بعلم حقيقته ووجوه نقصه في كل زمان ومكان، وإلى كتاب الله ومزاياه يشير قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

ومضى كتاب الله في المقارنة بين الصالحين والفاسقين، وما هنالك من فوارق أساسية وجوهرية بين الفريقين في الحياة وبعد الممات، فقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ويصف كتاب الله عقيدة «الدَّهريين» الباطلة ومن لف لفهم فيقول: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، ويبطل كتاب الله عقيدتهم بحجج الفطرة القاطعة، وشواهد التجربة الناطقة، مؤكداً مرة أخرى أنه سيجمع خلقه يوم الجمع ليفصل بينهم، ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن اليوم الموعود، واجتماع كافة الأمم فيه أمام خالقها وهي «جاثية» على رُكَبِها، وعن دعوة كل أمة منها إلى كتابها، إذ أن «العهد» بين الله وبينها هو ما أنزله إليها من كتبه، وما أرسله إليها من رسله، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٤: ١٦٥)، «وَدَعْوة كُل أُمة إِلَى كِتَابِها»

تقتضي محاسبتها من الله حسَاباً عسيراً على ما فعلت بالكتاب الذي أنزل إليها، هل اتبعته ووفَّت بما عاهدت الله عليه، أم اتخذت كتابها مَهجوراً، ونبذته وراءَ ظهرياً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا، ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَيٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا، وَمَأْوَيٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

وخُتِمت هذه السورة بشكر الله على آثار نعمته وجماله والخشوع والخضوع أمام عظمته وجلاله، إذ قال تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْـدُ، رَبِّ السَّمَـٰوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ، رَبِّ الْعَـٰلَمِينِ، وَلَـهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.



دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـ ص.ب. 5787-113 بيروت ـ لبنان

رقم الإيداع القانوني
١٩٨٣ - ٤٢٧
الرباط

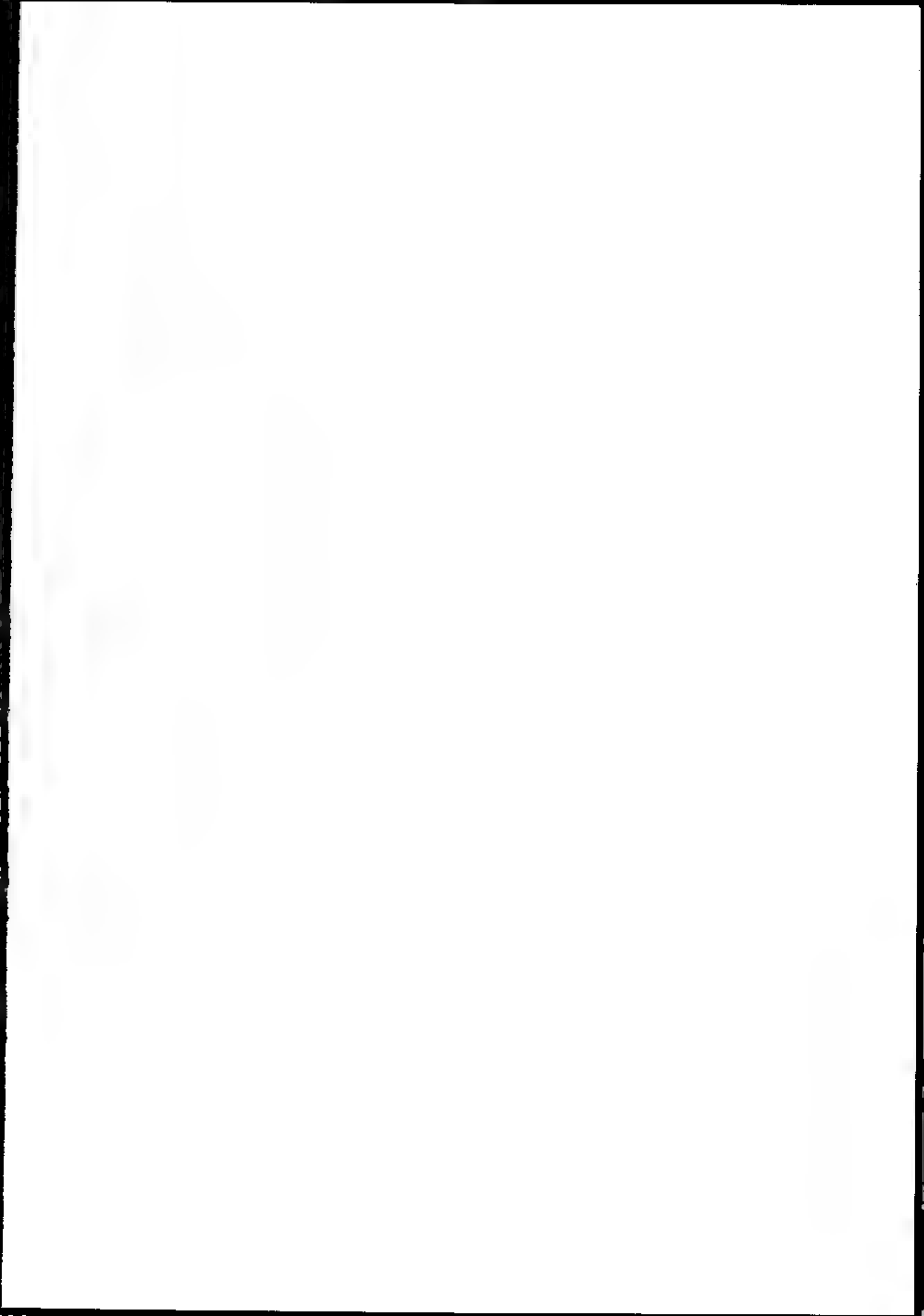
الرقم 85/4/3000/49

التنضيد : كومبيوتايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ـ بيروت



التيسير
في
أحاديث التفسير



التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري



الجزء السادس



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ

كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾
قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ
بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم
بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ
وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ
إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ
قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ
ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

وَوَصَّيْنَا اَ۬لْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كَرْهاً وَوَضَعَتْهُ
كَرْهاً وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْراً حَتَّيٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ اَ۬لَّتِيَ أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَيٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضَيٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيَ
إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ اَ۬لْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ اَ۬لَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمُۥٓ
أَحْسَنُ مَا عَمِلُواْ وَيُتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ اِ۬لْجَنَّةِ وَعْدَ
اَ۬لصِّدْقِ اِ۬لَّذِے كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالذِے قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ
أَتَعِدَانِنِيَ أَنُ اُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ اِ۬لْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ
اِ۬للَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنِ اِنَّ وَعْدَ اَ۬للَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
اُ۬لْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ اَ۬لَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ اُ۬لْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِم مِّنَ اَ۬لْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ
دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِنُوَفِّيَهُمُۥٓ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَيَوْمَ يُعْرَضُ اُ۬لَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى اَ۬لنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ
اُ۬لدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ اَ۬لْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي اِ۬لْأَرْضِ بِغَيْرِ اِ۬لْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديثنا هذا اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته فاتحة سورة الأحقاف المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ، حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، مَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

في مطلع هذا الربع ينوّه كتاب الله بتنزيل القرآن العظيم، وكونه متضمناً لحُكْم الله ﴿ الْعَزِيزِ ﴾، ولحِكْمة الله ﴿ الْحَكِيمِ ﴾. ويتحدث مرة أخرى عن مبدأ «الحق» الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، فما من شيء في أجواء السماء، وما من شيء في أرجاء الأرض، إلاّ وهو يَنْطِقُ بالإبداع والنظام والتنسيق، ويُفصِح عن التناسب والتوازن والتقدير الإلٓهي الدقيق، ويشير كتاب الله إلى أن خلق السماوات والأرض وما بينهما لم يكن عَبَثاً، ولا لعباً، ولا باطلاً، بل له حكمة يرمى إليها، وغاية ينتهي

عندها، وأَجَلٌ مضروب لَهُما محدود في علم الله لا يـزيد ولا ينقص، متـى تحققت الحكمة الإلَهية من خلقهما، ومتى استنفدَ النوعُ البشري جميع الطاقـات والمؤهلات التي رشحتـه لعمارة الأرض والخلافة فيها عن الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اَللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى مواجهة المشركين بأسئلته المُفحِمة، وحججه البالغة، مُنَدِّداً بما يعتقدونه من الشرك بالله، مستفسراً لهم هل عندهم حجة على أن المعبودات التي يعبدونها شاركت الحق تبارك وتعالى في خلق الأرض أو في خلق السماوات في قليل أو كثير، حتى يعبُدُوها معه، أو يعبدوها من دونه؟ هل هناك كتاب سابق على القرآن من عند الله يستند إليه المشركون في إثبات شركهم؟ هل هناك دليل بَيِّنٌ أو علم قاطع انفرد به المشركون وحدهم، حتى آثروا الشرك على التوحيد؟ وواضح أن هذه الأسئلة القرآنية لا يمكن للمشركين الجواب عنها بأي جواب مفيد، اللهمّ إلّا مجرد العناد والتقليد. يضاف إلى ذلك أن هذه المعبودات التي يعبدها المشركون لا تستجيب لدعواتهم، ولا تحس بعباداتهم، إذ أنها عبارة عن جمادات أو أموات، لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة، فما الفائدة إذَن من دعائها وعبادتها؟ وإلى هذا الموضوع يشير قوله تعالى: ﴿ قُلَ اَرَآيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الاَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ اِيتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوَ اَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ اِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُواْ

مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾. قال القاضي أبو بكر «ابن العربي» المعافري في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير هذه الآية ما نصه: «المسألة الأولى في مَسَاق الآية، وهي أشرف آية في القرآن، فإنها استوفت أدلة الشرع عقليَّها وسَمْعِيَّها، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾، فهذا بيان لأدلة العقل المتعلقة بالتوحيد وحدوث العالم، وانفراد البارىء بالقدرة والعلم والوجود والخلق. ثم قال: ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا ﴾، أي بكتاب شاهد على ما تقولون؟ وهذا بيان لأدلة السمع، فإن مُدْرَكَ الحق إنما يكون بدليل العقل أو بدليل الشرع حسبما بيناه في مراتب الأدلة في كتب الأصول، ثم قال: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾، يعني أو علم يُؤثَر، أي يُروَى ويُنقَل، وإن لم يكن مكتوباً، فإن المنقول عن الحفظ مثل المنقول عن الكتب».

ثم تتحدث الآيات الكريمة من جديد عن موقف المشركين من الوحي والرسالة، وقد كان الوحي والرسالة هما مَحور الصراع القائم بين الجاهلية والإسلام، فها هو كتاب الله يُرَدِّد صَدَى اتهامات المشركين وادعاءاتهم من أن آيات القرآن البينات إنما هي سحر مبين، وها هو يسجل ما هم عليه من التساؤل والتشكك في طبيعة القرآن، هل هو صدق من عند الله، أم افتراء من صنع الإنسان، وها هو كتاب الله يبطل ادعاءاتهم، ويَرُدُّ اتهاماتهم، مُبيناً

أن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بِدْعاً من الرسل، بحيث لم يسبقه سابق، أو يُعَدُّ أمرُه مفاجئاً للناس، بل هو خاتِم الأنبياء والرسل جميعاً، وسلسلةُ الرسل أَمرُها ثابت تاريخيّاً، ومعـروف واقعيّاً، وخَبرُ الكتب المنزلة من عند الله شائع بين كافة البشر، يعرفه المومنون وغير المومنين، وإذن فلا مجال لاستغراب الوحي الذي أنزله الله على رسوله، فقد أُنزله على رسله السابقين، ولا موجب لاستغراب الرسالة التي كلفه الله بتبليغها للناس، فقد كلف غيره من الرسل بتبليغ رسالته منذ قرون، فالوحي والرسالة إذن ظاهرتان طبيعيتان روحيتان أثبتهما التاريخ، وسجلهما واقع الحياة الاجتماعية، إلى جانب الظواهر الطبيعية الأخرى ولا مجال لإنكار وجودهما، أو طمس معالمهما.

ونبّه كتاب الله إلى العلاقة الوثيقة والرابطة الروحية بين الكتاب الذي أنزله الله على موسى الكَلِيم عليه السلام، والكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد الأمين عليه السلام، وأن القرآن العظيم جاء مُصَدِّقاً للكتاب الذي أنزل على موسى، كما جاء مصدقاً لبقية الكتب المنزلة، فكتُبُ الله يُصدِّق بَعضُها بعضاً، ورسله يتلقون الوحي جميعاً من منبع واحد هو الواحد الأحد. وذلك قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ قُلِ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾، ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾، ﴿ إِنَ ٱتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَآ أَنَآ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾،

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾، ويتصل بهذا الموضوع قوله تعالى في سورة الفرقان حكايةً عن شبهات المشركين والجواب عنها: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفرقان: ٥، ٦).

وفي نفس هذا السياق عَرَّج كتاب الله على وصف شيء من أقوال المشركين ودعاويهم في تبرير ما هُم عليه من تمسك بالشرك، وتعلق بالوثنية، فنبه إلى أن رَدَّ الفعل الذي أُحدثه إقبال المستضعفين في مكة، من الفقراء والعبيد والإماء، على الإيمان بالله ورسوله في فجر الإسلام، هو إثارةُ غضب المشركين المتكبرين، وإثارة سخريتهم، ودَفعُهم إلى الوقوف من رسول الله ومن كتاب الله موقف الاستعلاء والاستكبار، وموقف العناد والمعارضة، لأنهم أحسوا بالخطر الكامن وراء ما مَهَّدَ له الإسلام من تحرير المستضعفين في الأرض، وما يستتبعه ذلك التحرير الذي سيتم على يديه، من تغيير جذري في الأوضاع الاِجتماعية والسياسية والاِقتصادية لجزيرة العرب وللعالم أُجمع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى التوصية بالإحسان لِلأمهات والآباء، قضاء لحقوق الوالدين، وبروراً بهما، ولا سيما الأمهات القائمات بحق الأمومة خير قيام، إذ يتحمّلْن من المتاعب، ويبذُلن من

التضحيات، أثناء الوَحَم والحمل، وأثناء الوضع والرضاع، وفي جميع مراحل الطفولة من أجل تربية الأولاد وتهذيبهم، وطبعهم بالطابع الاجتماعي السليم، ما لا يتحمله غيرُهم من الناس، وكلُّ ذلك بمنتهى التفاني والإخلاص، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلإنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهاً وَوَضَعَتْهُ كَرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْراً ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلإنسَـٰنَ ﴾، إشارةٌ إلى أن الإحسان إلى الوالدين من مقتضيات «الإنسانية المجردة»، بحيث لا يكون الإنسان إنساناً، ولا يُثبِت إنسانيَّته بطريقة عملية، أيّاً كان دينُه أو مُعْتقدُه، إلاّ إذا أحسن إلى والديه، بروراً بهما، وأداءً لحقهما.

وقوله تعالى هنا: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهاً وَوَضَعَتْهُ كَرْهاً ﴾، إشارةٌ إلى أن الأم عندما يأذن الله لها بأن تحمل، أو يأذن لها بأن تضع الحمل، إنما هي منفذةٌ لأمر الله الموكول إليها تنفيذُه، وقائمةٌ بتحقيق مراد الله في عمارة الأرض، واستمرار حياة الإنسان القصيرة على سطحها، لا اختيارَ لها في حمل ولا في وضع، وإنما هي تحت حكم القدرة الإلّهية المُسخِّرة للكون كله، ولَيْسَ المراد أن الأم تَكرَه الحمل وتَكرَه الوضع، ولا ترغب فيهما، فقد زرع الله في «الأنثى» على العموم محبة النسل والولد، رغماً عن جميع التضحيات والمتاعب والمشاق التي تتحملها في هذا السبيل.

وقوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْراً ﴾، إشارةٌ إلى

أقل مدة يمكن أن يقع فيها الحمل وهي ستةُ أشهر، وإلى أطول مدة يمكن أن يتم فيها الرضاع وهي أربعة وعشرون شهراً.

ومن وصية الله للإنسان بالإحسان إلى الوالدين انتقل كتاب الله إلى وصفِ نَموذجين من نماذج الأولاد التي يواجهها الآباء والأمهات في حياتهم باستمرار:

الأول: نموذج الولد البارّ المهتدي الذي يَمْتَثِلُ وصية الله بالإحسان إلى والديه، ويقوم بها حق القيام، وهذا له الجزاء الحَسَن عند الله.

والثاني: نموذج الولد العاقّ الضال، الذي يُهمل وصية الله، فيعامل والديه بالإساءة والتأفُّف دون أيِّ اعتبار، وجزاؤه الخُسْرَان والهَوان في الدنيا والآخرة.

وإلى النموذج الأول وهو الولد البار المهتدى يشير قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ ﴾، أي: ألهمني، ﴿ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ اَلتِيَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضِيٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيَ ﴾، وإلى ما ادَّخره الله له من الجزاء الحسن يشير قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ اَلذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمُ أَحْسَنُ مَا عَمِلُواْ وَيُتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِيَ أَصْحَٰبِ اِلْجَنَّةِ وَعْدَ اَلصِّدْقِ اِلذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾.

وإلى النموذج الثاني وهو الولد العَاقُّ الضال يشير قوله تعالى: ﴿ وَالذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيَ أَنُ اُخْرَجَ ﴾، أي: أبعث، ﴿ وَقَدْ خَلَتِ اِلْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾، أي: مضى

الأموات من قبلي ولم يرجع منهم أحد، ﴿ وَهُمَا ﴾، أي: وَالِدَاه، ﴿ يَسْتَغِيثَـٰنِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ﴾، أي: الولد العاق الضال، ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، وإلى ما أعده الله له من العذاب والنكال يشير قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾، أي: حق عليهم العذاب، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾.

وعَقَّب كتابُ الله على نموذج الوَلَد البار المهتدى، ونموذج الولد العاق الضال فقال: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ
بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟
بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ
مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾
وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ
قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة «الأحقاف» المكية: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، إلى قوله تعالى في سورة «مُحَمَّدٍ» المدنيّة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

في هذا الربع يوالي كتاب الله إمْدَاد رسوله الأعظم عليه الصلاة والسلام بأخبار من سبقه من الرسل، وأخبار من سبق أمته من الأمم، وهو إذ يستعرض أمام رسوله هذه الأخبار يُثَبِّت قلب رسوله على الحق، كما يُثَبِّت قَدَم رسوله في محاربة الباطل، وإذ يستعرضها أمام مشركي قريش يُنذرهم بعاقبة الإنكار والجحود، ويُحذِّرهم من الإصرار على معارضة الرسالة الإلٓهية التي هي خاتمة الرسالات، ومن الوقوف في وجهها، ويُذَكِّرهم بالهلاك والدَّمار الذي أصاب قوماً آخرين سبقوهم، وهم من نفس جنسهم ومن جيرانهم الأقربين.

وفي هذا السياق يتناول كتاب الله قصة هود عليه السلام وعَاداً وقومَه، فيَذكرُ نوع الدعوة الإلّهية التي دعا إليها جميعُ الأنبياء والرسل، وهي الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿ وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ اِذَ اَنذَرَ قَوْمَهُ بِالاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ اِلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اَللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، ثم يَحكِي كتابُ الله الرد الذي قابلت به عادٌ دعوة هود عليه السلام، وما يتضمنه هذا الرد من شك وتكذيب وعناد، وما احتوى عليه من التحدي لقدرة الله، رغماً عن أنه القاهر فوق عباده: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَافِكَنَا عَنَ آلِهَتِنَا ﴾، أي: لِتَصُدَّنا عنها، ﴿ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ اَلصَّٰدِقِينَ ﴾، أي: فاتنا بالعذاب الذي تنذرنا به من عند الله.

ويتصدَّى هود عليه السلام لجواب قومه عادٍ جواباً خالياً من الادِّعاء والتطاول على الله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِندَ اَللَّهِ ﴾، أي فهو سبحانه الذي يعلم متى يُذيقكم العذاب، ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّيَ أَرِيكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾، أي: تُصرُّون على الجهل بوحدانية الله وقدرته، وتردون دعوة الله الموجَّهة إليكم رداً غير جميل.

ويمضي كتاب الله في وصف ما آل إليه أمر عاد في النهاية، إذ تعرَّضُوا لغضب الله، جزاءَ عنادهم وإصرارهم وتحديهم لقدرة الله، فقد نقلت الروايات أن عاداً أصابها الحَرّ الشديد، وطال عليها الجفاف والجدب، واحتبس عنها المطر، حتى أصبحت جميع الأنظار فيها متطلعة نحو السماء، تنتظرُ تصريف

الرياح وتسخير السُّحُب بالغَيث النافع، فلما رأوا السحاب مقبلاً على أوديتهم فرحوا واعتقدوا أنه سحاب غيث وإحياء، لا سحاب هلاك وإفناء: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، ولكن الحق سبحانه وتعالى الذي ينجز وعده بالثواب لمن يستحقه، لا يُخلف وعيده بالعقاب لمن تحدى أمره وتحدى رسله، رغماً عن توالى الحجج والبينات، وها هو لسان القدرة يُعيد على أسماعنا في كتاب الله نفس الجواب الحاسم، الذي تلقته عاد، أشدَّ ما تكون خيبةَ أمل، وكأنها تستمع إليه الآن: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اَسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ اَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، ثم يصفُ كتاب الله مشهدَ الدمار والخراب الشامل، الذي حل بعاد فأصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق من ذكرياتها إلاّ مساكنها، لكنها خاليةٌ موحشة يَنعَقُ فيها البُوم: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ تَرَىٰ إِلاَّ مَسَـٰكِنَهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى اِلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ ﴾.

ويتعرض كتاب الله في أعقاب هذا الحديث إلى ما كانت عليه عاد من الذكاء والقوة، لكنها لم تستعملهما في مرضاة الله، إذ لم تستجب إلى دعوته. فعاقبها وأخذها أخذاً وبيلاً: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَـٰراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلاَ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ اِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ اِللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقولُه تعالى في بداية هذه القصة: ﴿ وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ ﴾، إشارةٌ إلى هود عليه السلام نفسِه، لكنّ كتاب الله ذكَره هنا بصفته

لا باسمه، تنبيهاً إلى رابطة الأخوة التي كانت تربطه بقومه، وتستوجب عطفه عليهم، وحرصه على هدايتهم.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾، إشارةٌ إلى موطن عاد في جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعُمَان، وقد قامت دولة عاد الأولى في جنوب الجزيرة العربية قبل ميلاد المسيح بعشرين قرناً، وقبل الهجرة النبوية بسبعة وعشرين قرناً، و«الأَحْقَافُ» جمع «حِقْف» وهو الكَثِيب المرتفع، أو الجبل المستطيل من الرمال.

وقولُه تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، إشارةٌ إلى أن الظواهر الكونية على اختلافها ـ والريح من جملتها ـ إنما هي كائنات مسخَّرة بأمر الله، لا تتحركُ إلاّ وَفْق مراده، طبقاً لنواميس كونية معلومة، ولا تُنفِّذ إلاّ خططاً إلٰهية مرسومة.

ثم عَقَّب كتابُ الله على قصة عاد وما أصابها من الهلاك والدمار، بآية أخرى تُذكِّر مشركي قريش بما أصاب الأقوام الذين كانوا من حولهم عموماً، وما حل بديار أولئك الأقوام من العذاب الشديد، وما نالهم من الخيبة واليأس، عندما رأوا المعبودات التي كانوا يَدْعونها ويتقربون إليها بالقرابين عاجزةً كل العجز عن إغاثَتهم وإنقاذهم في وقت الشدة واليأس، وقد تخلت عنهم وتجاهلتهم، لأنها في الحقيقة لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، أي: وَالَيْنا عليهم مختلف الآيات والقوارع،

واحدةً بعد واحدة، عسى أن تؤثر فيهم هذه الآية إن لم تنفع فيهم الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، أي: فهل نصرتهم معبوداتهم عند احتياجهم إليها في وقت الشدة، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

والإشارةُ في قوله تعالى هنا: ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾، إلى أقوام من العرب أيضاً يشاركون مشركي قريش في نفس الجنس والسلالة، وهم «عاد» بالأحقاف، و«سَبَأ» باليمن وكلاهما في جنوب الجزيرة العربية، وثمودُ ومدينُ في شمالها بين الحجاز والشام، ولوطٌ التي يمر بِبُحَيْرتها تُجّار قريش في رحلتهم إلى الشام، والمعنى المقصود من هذه الإشارة هو أن عاقبة الجحود والعناد واحدة بالنسبة للجميع، بالنسبة لغير العرب ولنفس العرب، وإذا كانت الآيات القرآنية تحدثت في مكان آخر من كتاب الله عن مصير فرعون وقومه في مصر البعيدة عن جزيرة العرب، فها هي تتحدث الآن عن مصارع أقوام من نفس العرب، قريبة من المشركين، بحيث يرون آثارها، ويشاهدون أُطلالها، ويرْوُون أخبارها، عسى أن تكون الموعظة بِمَن هُم من جنسهم، وحَوْلَ ديارهم، أوقعَ في النفس، وأعمق في التأثير.

وكما سجل كتابُ الله في سورة أخرى أن جميع المخلوقات تدين لله بالتسبيح والتنزيه، إلاّ أن البشر لا يفهمون تسبيحها، إذ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)، تحدثت الآيات الكريمة في هذاالربع عن نفر من الجن هداهم الله للاستماع إلى القرآن،

فأنصتوا إليه خاشعين، ثم وَلَّوا إلى قومهم منذرين، محذِّرين إياهم من الضلال المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجن ولا رآهم، فلما سمعوا القرآن وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر استمعوا له»، وقال الحسن البصري: «أنه ﷺ ما شَعَر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه خبرهم».

ويتصل بهذا الموضوع قولُه تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ (الجنّ: ١)، وفيه دليل على أنه ﷺ آنما عَرف قول الجن، عن طريق الوحي الذي أُنزل عليه، كما رواه البخاري ومسلم.

ثم اتجه الخطاب الإلٓهي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام آمراً له بالثبات على الحق، والصبر إلى النهاية على تكاليف الدعوة ومتاعبها، ومسؤولياتها وأخطارها، ضارباً له المثل بصبر «أولي العزم» من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ليكون خامسهم وخاتمهم، وقد ورد ذكر أسمائهم جميعاً في آيتين من سورة الأحزاب وسورة الشورى، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

والآن ونحن ننتهي من سورة «الأحقاف» المكية تستقبلنا

سورة مدنية لا مكية، يطلق عليها «سورة محمد» لذكر اسمه الشريف فيها، كما يطلق عليها «سورة القتال»، لأنها تضمنت الإذن للرسول وصحبه بالجهاد في سبيل الله، ردّاً لعدوان المشركين، وحمايةً لحِمَى المومنين، ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ﴾ (محمد: ٢٠)، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾، ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾، ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾
أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ
غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ
لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا
فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا

مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلذِينَ أُوتُواْ اُ۬لْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاًۖ اُوْلَٰٓئِكَ
اَ۬لذِينَ طَبَعَ اَ۬للَّهُ عَلَيٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۖ ﴿١٦﴾
وَالذِينَ اَ۪هْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُديٗ وَءَاتِيٰهُمْ تَقْوِيٰهُمْۖ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا اَ۬لسَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةٗۖ فَقَدْ جَآءَ اَشْرَاطُهَاۖ
فَأَنَّيٰ لَهُمُۥٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرِيٰهُمْۖ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمَ اَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اَ۬للَّهُ
وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثْوِيٰكُمْۖ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ اُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٞ مُّحْكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا اَ۬لْقِتَالُ رَأَيْتَ اَ۬لذِينَ فِے قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ اَ۬لْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ اَ۬لْمَوْتِۖ فَأَوْلَيٰ لَهُمْۖ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ
وَقَوْلٞ مَّعْرُوفٞۖ فَإِذَا عَزَمَ اَ۬لَامْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ اُ۬للَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْۖ ﴿٢١﴾
فَهَلْ عَسِيتُمُۥٓ إِن تَوَلَّيْتُمُۥٓ أَن تُفْسِدُواْ فِے اِ۬لَارْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ
أَرْحَامَكُمُۥٓۖ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ اَ۬لذِينَ لَعَنَهُمُ اُ۬للَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَيٰٓ أَبْصَٰرَهُمُۥٓۖ ﴿٢٣﴾
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ اَ۬لْقُرْءَانَ أَمْ عَلَيٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآۖ ﴿٢٤﴾ إِنَّ اَ۬لذِينَ اَ۪رْتَدُّواْ
عَلَيٰٓ أَدْبٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ اُ۬لْهُدَي اَ۬لشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ
وَأَمْلِيٰ لَهُمْۖ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اَ۬للَّهُ سَنُطِيعُكُمْ
فِے بَعْضِ اِ۬لَامْرِۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْۖ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ اُ۬لْمَلَٰٓئِكَةُ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾. ونهايتهُ قوله جلّ علاه: ﴿ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

يتساءل كتابُ الله في مطلع هذا الربع عن مشركي قريش بشيء من الاستغراب، كيف أنهم لم يعتبروا بمصير الأقوام الذين سبقوهم فسقطوا صرعى، ولا بمصير الديار التي عمرها أولئك الأقوام فأصبحت بعدهم بلاقع، وكيف أنهم يُصِرُّون على الجحود والعناد، والفساد في البلاد، غافلين عن المصير السيء الذي يمكن أن يكون مصيرهم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ الْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

ويصفُ كتابُ الله حالة الكافرين الذين ملأ الكفر قلوبهم، وأحاطت بهم خطيئاتهم من كل جانب، وما يكونون عليه من

الانهماك في اللذات، والإسراف في الشهوات، على نحو بهيمي سافل، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، فهم لا يعرفون إلّا شهوتي البطن والفرج، يقبلون عليها بنَهَم وشَبَق وهمجية بالغة، وهم قَلِقون متهافتون في كل لحظة من اللحظات على هذا النوع من العيش باستمرار، إذ يرون أن حياتهم على سطح الأرض قصيرة الأجل، محدودة المَدَى، ولا أمل لهم ولا رجاء فيما وراءها، لأنهم لا يومنون بحياة ثانية أطول أمداً، وأفضل نُعْمَى، كما هو شأن المومنين الذين يَدَّخرون من يومهم لغدهم، ومن دنياهم لآخرتهم والذين تنتظرهم عند الله حياة أدوم وأخلد، وأفضل وأسعد، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَٰرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ويشير كتاب الله في هذا الربع إلى الضغط المادي والأدبي الذي مارسه مشركو قريش لِمُحاصرة الدعوة الإسلامية، حتى اتَّجهَ الرسولُ وَمَنْ معه من أصحابه إلى مفارقة مكة والانتقال عنها إلى المدينة، الأمر الذي يوازي في لغة الواقع إخراج قريش للرسول من مكة، مهد الرسالة ومنزل الوحي الأول، مُبيِّناً أن ما تعتز به قريش ـ المُهيمنة إذ ذاك على مقاليد مكة ـ من القوة والمال والرجال، لا يقف أمام قوة الله وقدرته، فقد أهلك الله قبلها دياراً

لا تُحصَى عَدّاً كانت أشد منها قوة وأكثر مَنَعة، وذلك قولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ اَلتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا اَلسَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ اشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرِيٰهُمْ ﴾، ويكشف كتاب الله السرَّ فيما أصاب تلك الديار، من الهلاك والبوار، وأَنَّ اتِّباعَ الهوى، والفسادَ في الأرض، يَجُرّان دائماً إلى الخراب والدمار: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

وتصف الآيات الكريمة مشهداً من مشاهد «المنافقين» بالمدينة، وهم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، عجزاً منهم عن المجاهرة بالعداء للإسلام، إذْ أصبح له جنود وأنصار، وقوةٌ تزخَر بها الديار، فهُم بحكم انتمائهم إلى الإسلام يحضرون مجالس الرسول عليه الصلاة والسلام، ويستمعون إليه وهو يتلو القرآن، لكنهم بحكم ما انطووا عليه من الكفر لا يجدون في أنفسهم أيَّ استعداد لفهم ما أُنزل عليه، بل هم في حَيْرة وخَبال، والتباس دائم وإشكال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلذِينَ أُوتُواْ اُلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً اوْلَٰٓئِكَ اَلذِينَ طَبَعَ اَللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾. وفي مقابل هذا الوصف الذي كشفت به الآيات الكريمة وَقْعَ القرآن في نفوس المنافقين جاءت بوصف آخر لوَقْع القرآن في نفوس المومنين حتى تتم المقارنة بين الفريقين، إذ قالت: ﴿ وَالذِينَ اَهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدىً وَءَاتِيٰهُمْ تَقْوِيٰهُمْ ﴾.

وَتَصدَّى كتابُ الله مرة أخرى لوصف المنافقين، فهم العنصر الجديد والعنيد، الذي أصبح يقوم في المدينة بالدور الذي يقوم به المشركون في مكة، وها هنا يصف الحقُّ سبحانه وتعالى وَقْع القرآن في نفوس المنافقين عندما تنزلُ أوامُره بذكر الجهاد في سبيل الله، فبِحُكْم أنهم ينتمون إلى الإسلام في الظاهر يجب عليهم أن يتقدموا للفداء في سبيله، وبحُكْم أنهم أعداء للإسلام في الباطن لا يرون مُبرِّراً للتضحية بأرواحهم في سبيله، ولا مصلحة لهم في ترجيح كَفَّته على كفة الشرك، الذي هو في الحقيقة سَنَدُهم الأصيل، ومُنطلَق حبّهم الأول، وذلك ما يسجله عليهم قولُه تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾.

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن المنافقين تلويحاً وتعريضاً، داعياً إياهم إلى التبصر في العواقب وحسن الاختيار، إذْ أن نجاتهم من عذاب الله متوقِّفة على طاعة الله ورسوله، وعلى تطهير القلب من الوساوس، وصيانة اللسان من مُنكَر القول والزور، وذلك قولُه تعالى: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾.

ويمضي كتاب الله في هذا السياق إلى نهايته، موجِّهاً خطابه للمنافقين، متسائلاً عن احتمال عودتهم إلى الشرك مرة ثانية،

وبصفة علانية، بدلاً من الإسلام الذي يتظاهرون به، فيبين أن مآل أمرهم إذا ارتدوا إلى الشرك هو العودة إلى ما كَانُـوا عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض، وسفك الدماء، وقطيعة الأرحام، وأنهم إن عادوا إلى شركهم الأول، بدلاً من أن يمضوا قُدُماً في الإخلاص للإسلام، فلن يكونوا سوى عبيد مسخرين للشيطان الذي استهواهم وأغواهم واستَخَفَّهُم فأطاعوه، وذلك قولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

ويهتك كتاب الله أستار المنافقين بالمرة، فينبه إلى المؤامرات والدسائس التي يدبرونها مع حلفائهم من المشركين والكتابيين ضد الإسلام، ويبين أن الله عالم بأسرارهم، وأنه قادر على إبراز أضغانهم، وأنه لو شاء لعَرَّفهم لرسوله بسيماهم، وفي لَحْن القول الذي يجري على ألسنتهم، ويكشف عن دخائل نفوسهم «فمن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها» وذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾.

ويتنبأ كتاب الله بالمصير المفجع الذي ينتظر المنافقين والكافرين جزاء نفاقهم وكفرهم: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ

وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾، كما يتنبـأ بما سينـالهم من العذاب الأليم عند موتهم أوّلاً، ومن الخسران المبين عند بعثهم أخيراً، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربُع: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَاقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟
ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟
إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ
تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ
اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ

شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾
سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا
ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل
لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾
قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾
لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ نُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة «محمد» المدنية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾، إلى قوله تعالى جلّ علاه في سورة «الفتح» المدنية أيضاً: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ نُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

لا تزال التوجيهات الإلٓهية تترى على المسلمين الأولين بما يهديهم ويُسَدِّد خطواتهم، ويُقِيم دعائم دولتهم الأولى بالمدينة المنورة، على أساس متين، من الحق المبين.

ففي هذا الربع يتجه الخطاب الإلٓهي إلى المومنين بأحب وصف إليهم، وأعز شعار عليهم، وهو وصف «الإيمان» بالدين الحنيف، وشعاره المنيف: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى أمره لهم بطاعة الله وطاعة رسوله، طاعةً كاملة مطلقة، لا تردد فيها ولا التواء، وذلك حذراً من إبطال

أعمالهم، وإحباط مساعيهم، إذَا لم يبادروا إلى الامتثال، أو ظهرت منهم بَوَادر الإهمال: ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾.

ثم يتحدث كتاب الله عن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، بما يضعونه في طريق المومنين من العراقيل، وما يدبرونه من المؤامرات والدسائس لعرقلة الدعوة الإسلامية، حتى لا تتمكن من تحقيق أهدافها، والوصول إلى غاياتها، ويُنذِر هؤلاء الأعداء الألـداء للإسلام والمسلمين بأنهم إذا واصلوا نفس الخطة تجاه الإسلام، ولم يتراجعوا عنها إلى أن أدركهم الموت، فإنه لا سبيل إلى غفران ذنوبهم، ولا إلى نجاتهم من العذاب الأليم الـذي ينتظرهم، ومعنى هذا أن فرصتهم الوحيدة المواتية إلى الآن وحتى الآن هي تداركُ ما فات بالدخول في حظيرة الإسلام، والتوقفُ عما اعتادوه من الدسائس والآثام، فإذا تـابوا إلى الله قبـل أن يدركهم الموت توبة نصوحاً كان لهم في الإسلام رِدْءٌ وأيُّ رِدء، وجُنَّة واقِية من عذاب الله، إذ الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اِللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَّغْفِرَ اَللَّهُ لَهُمْ ﴾.

واتجهَ خطَابُ الله بعد ذلك مرة أُخرى إلى المومنين جميعاً، ناهياً لهم عن الـرضى بالـوَهَن والفشل والتخـاذل، وعن الميل إلى مُوَادَعَة الأعداء ومسالمتهم، إن كانت تلك الموادعة والمسالمة لا خير فيهما للإسلام، ولا نفع من ورائهما للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى اَلسَّلْمِ ﴾، قال القاضي أبو بكر

(ابن العربي): «إن الصلح إنما هو إذا كان له وجه يُحتاج فيه إليه، ويفيد فائدة».

ووضَّحَ كتاب الله السر في نهي المسلمين عن التخاذل والوَهَن، وعن الصلح إذا لم تكن فيه فائدة محققة للإسلام، فقال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾، إشارةً إلى أن الدعوة الإسلامية التي يدافع المسلمون عن حريتها، ويجاهدون في سبيل استقرارها واستمرارها دعوة ساميَة يجب أن يُكتبَ لها البقاء، لأنها أجل قدراً وأعظم مقاماً، وأجدى نفعاً للبشرية جمعاء، من دعوة الشرك والجاهلية التي هي دعوة سافلة منحطة يجب القضاء عليها إلى الأبد، ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾. يضاف إلى ذلك أن الدعوة الإسلامية دعوة إلَهية من الملأ الأعلى تُسدِّد خطواتِها إرادةُ الله النافذة، وحكمتُه البالغة، فمن نصرها وحمل لواءها كان الله معه في حركاته وسكناته: ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾، ومن كان الله معه لم يقف في وجهه شيء: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾ (النساء: ٤٥)، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾، أي: لن يقطع عنكم جزاء أعمالكم، بل يمنحكم الجزاء الأوفى.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التهوين من شأن المصالح المادية، والمنافع الشخصية، التي قد تعُوق الإنسان عن الفداء والتضحية في سبيل عقيدته السامية، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَإِن تُؤمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾، إشارةً إلى أن خير زاد يتزودُ به المسلم في هذه الدار لتلك الدار هو ما يملأ به قلبه من الإيمان، وما يشغل به جوارحه من الأعمال الصالحة

المزدوجة النفع، دنيا وأخرى، فذلك هو الزاد الذي يدوم ويبقى، أما ما عداه من الشهوات والملذات، والأغراض البشرية الصرفة التي يصرف الناس فيها حياتهم، فمآلها إلى الانصراف والزوال، وهي تنتهي بانتهاء وقتها في الحال.

واتجه كتاب الله إلى مخاطبة المسلمين في موضوع حسّاس بالنسبة لحياتهم المادية، ألا وهو موضوع البذل في سبيل الله، والإنفاق على الدعوة الإسلامية، وعلى الجهاد الإسلامي المشروع، لحماية هذه الدعوة وضمان وجودها، مُنبِّهاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يأمر المسلمين بإنفاق كل ما يملكونه في هذا السبيل، لأنه لو أمرهم بإنفاق كل ما يملكون لَشَقَّ عليهم هذا التكليف وضاقوا به ذرعاً، إذ يكون فيه نوع من الإحراج: ﴿ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾، ومبدأ الإسلام الأساسي: «لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها» وقاعدته الأصلية: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» لكن المطلوب من المسلمين هو أن لا يتخلفوا عن واجباتهم الأساسية، وأن يبذلوا من أموالهم في سبيل تحقيقها والوفاء بها ما هو ضروري لذلك في حدود المستطاع، وامتثالُ المسلمين لهذا الأمر الإلّهي يعود عليهم قبل غيرهم بالصلاح والرشاد، ويضمن لهم القوة والهَيْبة بين العباد، فإذا بخِلوا بأموالهم، وتخلّوا عن واجباتهم جَنَوا ثمرة بُخلهم ضعفاً في أنفسهم، وهواناً على الله وعلى الناس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ هَآنتُمْ هَـٰؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُمْ

مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ﴾. قال ابن كثير: «وصْفُ اللَّهِ بالغِنَى وصفٌ لازم له، ووصفُ الخلق بالفقر وصفٌ لازم لهم لا ينفكون عنه»، وهذا أمر واضح، ما داموا فقراء إلى رزقه في الدنيا، وإلى أجره في الآخرة.

وخُتِمت سورة «محمد» أو سورة «القتال» بخاتمة تعتبر إنذاراً أو شبه إنذار، مما كان له وقع عظيم عند المسلمين الأولين، ذلك أنها تعلن في حزم وصراحة أن الدعوة الإسلامية التي وَكَلَها الله إلى رسوله والمومنين إنما هي أمانة مُودَعة بين أيديهم، شرفهم الله بها وميزهم بفضلها على بقية الناس، فإن وَفَّوْا بها، وقاموا بحقها، وضَحَّوْا في سبيلها، كانوا أهلاً لها، ومضوا في حمل أمانتها إلى يوم الدين، وإن تخلوا عنها، أو أهملوا شأنها، أو بخِلوا في سبيلها ببذل النفس والمال نزع الله أمرها من بين أيديهم، واستبدل بهم غيرهم، وجعل هذا الغير أفضل منهم في القيام بحقها، والوفاء لها، والتفاني في سبيلها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في خطابه للمومنين: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُمْ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الفتح» المدنية أيضاً، وهذه السورة نزلت في السنة السادسة من الهجرة عقب «صُلح الحُدَيْبِيَّة» الشهير، «والفتح» الذي تشير إليه هو صُلح الحُدَيْبِيَّة نفسُه، باعتبار ما كان فيه من المصلحة في البداية، وما آل إليه أمره في النهاية، لا «فتحُ مكة» كما يتبادر إلى بعض الأذهان، قال عبد الله بن

مسعود: «إنكم تَعُدُّون (الفتح) فتح مكة، ونحن نَعدُّ الفتح صلح الحديبية»، وقال جابر: «ما كنا نَعُدُّ الفتح إلاّ يوم الحديبية»، وروى البخاري بسنده عن البراء قال: «تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نَعُدُّ الفتح بَيْعة الرِّضوان يوم الحديبية». إلى آخر الحديث. ذلك أنه مضت خمسة أعوام منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة والمشركون يمنعونه ويمنعون المومنين من دخول مكة ولو في الأشهر الحُرُم، حتى كان العام السادس للهجرة، فخرج رسول الله ﷺ لزيارة بيت الحرام في رُفقة ألف وأربعمائة من المسلمين، وذلك في شهر ذي القعدة، وخرج «مُعْتَمِراً» لا يريد حرباً، وساق معه الهَدْي سبعين بَدَنة، إيذاناً للمشركين بأنه فعلاً غيرُ عازم على حربهم ولا على فتح مكة، لكنَّ قريشاً لبسوا «جُلُودَ النُّمور» وخرجوا لملاقاته، إذْ تعاهدوا فيما بينهم على أن لا يدخلها أبداً، وتبودلت الرسل بين الفريقين، وكان عثمانُ بن عفان رسولَ رسول الله إلى قريش، وكان سُهَيْلُ بن عمرو رسولَ قريش إلى رسول الله، وانتهى الأمر بكتابة صلح الحديبية الشهير، الذي كان من جملة ما تضمنه أن يرجع الرسول عَامَه ذاك، ثم يأتي إلى مكة من العام القابل، وكان عليٌّ رضي الله عنه كاتب الصحيفة المتضمنة لشروط الصلح، وعند مُنصرَف رسول الله ﷺ من الحديبية وهو في طريقه إلى المدينة المنورة نزلت عليه سورة «الفتح» المدنية التي نحن بصدد تفسيرها الآن، وبمناسبة نزولها قال رسول الله ﷺ كما رواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك بن أنس: «نزل عَلَيَّ البارحةَ سورة هي أَحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿ إنَّا فَتَحْنَا

لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِك وَمَا تَأَخَّرَ﴾، فقد كان هذا الخطاب الإلّهي الكريم بشرى مضاعفة لرسول الله ﷺ بما يناله في الدنيا وما يناله في الأخرة، وذلك بالإضافة إلى ما تضمنه من تصديق لمعاهدة الصلح التي عقدها مع قريش، ومن إعلان الله لرضاه عن الأهداف السامية الموفقة، التي رمت إليها تلك الخطة النبوية الكريمة.

وقولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، يتضمن إحدى الخصائص التي يختص بها رسول الله ﷺ ولا يشاركه فيها غيره من الناس. قال ابن كثير: «وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغير رسول الله ﷺ أنه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهذا تشريف عظيم لرسول الله، هذا وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة، التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين».

وانتقلت الآيات إلى الحديث عن «السكينة» التي أنزلها الله في قلوب المومنين، وما ينتظرهم من الجزاء الحسن عند الله، وما ينتظر المنافقين والمشركين من العذاب الأليم، وبينت الآيات أن مبايعة المومنين لرسول الله تحت الشجرة في «بَيْعة الرِّضوان» بالحديبية إنما هي مبايعة لله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ولم يهمل كتاب الله الحديث عن موقف المنافقين من الأعْراب الذين تخلفوا عن رسول الله، وعن الأعذار التي يُنتظَر أن ينتحلوها ليبرروا بها تخلفهم عنه، ويفضح كتاب الله نواياهم الحقيقية، ومخاوفهم الوهمية: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ

أَبَداً ﴾، ويحدد كتاب الله الموقف المناسب اتخاذه منهم، فيما يُستقبل من معارك الجهاد الإسلامي، كما يتنبأ بما سيُمْتَحَنُون به في مستقبل الأيام: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ اَلاعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ اوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمُ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾.

ويُعرِّج كتابُ الله في نهاية هذا الربع على الأعذار المقبولة شرعاً للتخلف عن الجهاد، والإعفاء من الواجبات العسكرية، وفي هذه الأعذار ما هو لازم ودائم، كالعَمَى والعَرَج المستمر، وما هو عارض ومؤقت، كالمرض الذي يطرأ ثم يزول، إذ يُعتَبر المريض مُلَحقاً بذوي الأعذار العارضة حتى يبرَأ من مرضه، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى اَلاعْمَىٰ حَرَجٌ، وَلاَ عَلَى اَلاعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى اَلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾.

وتُختَمُ آياتُ هذا الربع بنفس المبدأ الذي كان فاتحة لها، ألا وهو مبدأ الطاعة لله والطاعة لرسوله، وَمَا يناله المطيع من الجزاء بالحُسْنى، وما يناله العاصي من العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُّطِعِ اِللَّهِ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلاَنْهَـٰرُ وَمَنْ يَّتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَاباً اَلِيماً ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيراًۖ ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً اَن يَّبْلُغَ مَحِلَّهُۥۖ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّومِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّومِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُۥٓ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَّشَآءُۖ لَوْ تَزَيَّلُواْ
لَعَذَّبْنَا ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً اَلِيماًۖ ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ
ٱلذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُومِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۖ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَےْءٍ
عَلِيماًۖ ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيا بِالْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ
ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً
قَرِيباًۖ ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلذِےٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداًۖ ﴿٢٨﴾
مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۖ وَالذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰناًۖ سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ اَثَرِ ٱلسُّجُودِۖ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَيٰةِۖ وَمَثَلُهُمْ

فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى
عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اَللَّهُ عَنِ اِلْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا وَكَانَ اَللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه: ﴿وَعَدَ اَللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـلِحَـتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

تتحدث الآيات الكريمة في مطلع هذا الربع عن «بَيْعَة الرِّضوان» التي دعا إليها رسول الله ﷺ في السنة السادسة للهجرة كُلَّ من رافقه من المسلمين عندما كانوا بالحديبية، وذلك في فترة انتظارهِ لِجواب قريش، بعدما بلَّغهم عزمَه على زيارة البيت الحرام مُحرِماً بالعمرة، وبصحبته ألف وأربعمائة من أصحابه، وكانت قريش قد احتبست عندها عثمان بن عفان الذي وجهه رسول الله ﷺ إليها لإبلاغها ما عزم عليه، وراجت إشاعة قوية مؤداها أن قريشاً قد قتلت عثمان بن عفان مبعوث رسول الله إليها

في هذه المهمة، فنادى منادي رسول الله: «ألا إن روح القدس قد نَزَلَ على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة، فاخْرُجوا على اسم الله تعالى» وكان المسلمون قد تفرقوا في ظلال الشجر، فما كادوا يسمعون المنادى حتى ساروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة، وأحدقوا به من كل جانب، وتسابقوا إلى بيعته، فبايعوه على الاستماتة والثبات معه إلى النهاية، فأرعبَ ذلك المشركين من أهل مكة، وأرسلوا من احتبسوه عندهم من المسلمين، ودَعَوْا رسولَ الله والمومنين إلى الموادعة والصلح، فكان من ذلك كله «صلح الحُدَيْبِيَة».

ومما يستحق الذكر في هذا المقام أن عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله إلى قريش بمكة كان غائباً حين ابتدأ عقدُ هذه البيعة، إذ لم يزل عثمان آنَذَاك مُحْتَبَساً عندهم، فلما بايع الناسُ رسول الله ﷺ تولى الرسولُ بنفسه النيابة عن عثمان في بيعته إياه، وقال ﷺ: «اللهمّ إن عثمان في حاجة إلى الله تعالى وحاجة رسوله»، ثم ضرب الرسول ﷺ بإحدى يديه على الأخرى، إيذاناً بِبَيعة عثمان له، فحَلَّت يدُ رسول الله محل يد عثمان، وكانت بالنسبة إليه خيراً من أيدي بقية المسلمين لأنفسهم، كما روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن لطائف «بيعة الرضوان» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يبلغه خبر البيعة كان قد وَجَّه ابنه عبد الله بن عمر، للإتيان بفرس له عند أحَد الأنصار المرافقين للرسول عليه الصلاة والسلام، إذ كان عمر يَسْتَلْئِمُ للقتال، واحتاج إلى فرسه ليقاتل

عليه إذا دعت الضرورة، نظراً للإشاعات القوية التي بلغت المسلمين عن عزم قريش على مقاومتهم، والإشاعة التي راجت عن قتل قريش لعثمان بن عفان مبعوث الرسول إلى مشركي مكة، وبينما عبدُ الله بن عمر في طريقه للإتيان بفرس أبيه إذَا به قد وجَد المسلمين يبايعون رسول الله فبايعه أوّلاً، ثم ذهب إلى الفَرَس فجاء به إلى أبيه عمر، وأخبره أن رسول الله يُبايِع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، ومن هنا تحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. والحقُّ أن الوالد أسلم قبل ولده، روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: «كنا يومِ الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه وعُمَرُ آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرَةٌ» الحديث. وروى مسلم أيضاً عن مَعقِل بْنِ يسار قال: «لقد رأيتُني يوم الشجرة والنبيُّ ﷺ يُبايع الناس، وأنا رافع غُصناً من أغصانها على رأسه، ونحن أربعَ عَشْرَة مائة» الحديث. وحدَّث جابرُ بنُ عبد الله أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بيعة الرضوان: «أنتم خَيْرُ أهل الأرض اليوم» وما قاله لهم رسول الله ﷺ يومئذ هو مصداقُ قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اَللَّهُ عَنِ اِلْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا﴾، ومن أجل رضى الله عن المومنين بسبب هذه البيعة سميت «بيعة الرضوان». أما الشجرة التي كان رسول الله ﷺ يتلقى البيعة ـ وهو مستظل بظلها ـ فقد كانت شجرة سَمُرَة كما سبق في حديث جابر الذي رواه مسلم، وأما ما انطوت عليه قلوبُ المومنين وهم يبايعون رسول الله ﷺ في الحديبية، فهو

الوفاء والصدق، والثباتُ على الحق، وكظمُ غيظهم أمام حرب الأعصاب التي شنها المشركون عليهم، عن طريق الاستفزاز والتهديد، والتزامُ السمع والطاعة لله ورسوله في المَنْشَط والمَكْرَه، وأما «السكينة» التي أنزلها الله على المومنين فهي ما ألقاه في قلوبهم من الطمأنينة على مصير الإسلام، ومن الثقة بوعد الله الذي لا يستطيع أحد أن يَحُول دون إنجازه مهما بلغ من القوة والعناد، وأما «الفتح القريب» الذي عَوَّضهم به الحق سبحانه وتعالى عن زيارة بيت الله الحرام في ذلك العام، فهو صلح الحديبية نفسه، الذي أجراه الله على أيديهم بينهم وبين أعدائهم، إذْ كان بدايةً لفتوح كثيرة متتالية، من بينها فتح «خيبر»، وكان على رأسها فتح مكة، الذي تم بعد سنتين من صلح الحديبية فقط، ثم فتحُ سائر البلاد والأقاليم في دنيا الإسلام، قال الزُّهْري: «ما فُتح في الإسلام فتح قبل صُلْح الحديبية كان أعظمَ منه، إنما كان القتال حيث الْتقى الناس، فلما كانت الهدنة - أي: صلح الحديبية، وأمِنَ الناسُ بعضُهم بعضاً والتقَوْا لم يُكَلَّمْ أحَدٌ في الإسلام يَعقِلُ شيئاً إلاّ دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنِك السنتين، أي: بين صلح الحديبية وفتح مكة: مِثْلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر» قال ابن هشام: «والدليل على قول الزُّهْري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف».

وقولُه تعالى في التعقيب على ذلك: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾، فيه إشارةٌ إلى ما أكرم الله به المومنين من «العزة»

المنافية للذلة، فقد أَمَدَّهم من عِزَّته بما أَدَّى إلى حفظ كرامتهم وحفظ كرامة الإسلام، كما أن فيه إشارةً إلى «الحكمة الإلَهية» التي كانت تقود خطوات الرسول ﷺ، عندما عزم على زيارة بيت الله الحرام، استعمالاً لحق المسلمين الذي أنكره عليهم المشركون منذ الهجرة، ثم عندما قرر تأجيل هذه الزيارة إلى العام القابل، على أساس صلح الحديبية، الذي فتح في وجه الدعوة الإسلامية آفاقاً جديدة، وكسب لها حقوقاً واسعة، هي بداية النهاية للشرك والمشركين.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾، قال مجاهد: «هي جميع الغنائم إلى اليوم»، يريد جميع المغانم التي تقع عليها أيدي المجاهدين أثناء جهادهم في سبيل الله إلى يوم الدين، وها هنا لا بد من التنبيه إلى أن كتاب الله عندما يذكر «المغانم» في سياق الجهاد لا يذكرها باعتبار أنها هدف أساسي من الجهاد في سبيل الله، وإنما يذكرها عَرَضاً في هذا السياق، إيحاءً للمسلمين بضمان الفوز والغلَبة لهم، والنصر على أعدائهم، إذ «الغنيمةُ لا تقع تحت يد الغالب إلاّ بعد هزيمة المغلوب، فالغنيمة إنما تكون بعد الهزيمة».

وقولُه تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾، إشارةٌ إلى صلح الحديبية نفسه كما رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقولُه تعالى: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾، إشارةٌ إلى أن الله كفى المومنين القتال هذه المرة، فلم يَنَلْهُمْ أعداؤهم بسوء، رغماً عما أضمروه واستعدوا له من الحرب والقتال.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾، إشارةٌ إلى نفس وقعة الحُدَيْبِيَّة وصلحها الشهير، فقد كان هذا الصلح مفاجأة كبرى لبعض المسلمين أول الأمر، حتى خُيِّلَ إليهم أن فيه شيئاً من التراجع إلى الوراء، لكن الله الذي يسدد خطوات نبيه بالوحي من عنده، هو الذي كان يَعلَم ما لهذا الصلح من عواقب محمودة الأثر، سريعة الظهور، وها هو الحق سبحانه وتعالى يُثبِت للمومنين أن هذا الصلح نفسه سيكون آية لهم، ومعجزة جديدة للإسلام، وكذلك كان الأمر، فصدَقَ اللَّهُ وعْدَه، ونصر جنـده.

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ اَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنَ اَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾، إشارةٌ إلى ما أقدم عليه فريق من مشركي مكة: حيث تسللوا وهم مسلحون إلى المكان الذي ينزل فيه رسول الله ومن معه بالحديبية، عسى أن ينالوا منه ومن المسلمين شيئاً، فَسِيقُوا أُسَارى إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم عليه السلام: «هل جئتم في عهد أُحَد؟ أَوْ هَلْ جعلَ لكم أحدٌ أماناً؟ فقالوا: لا» فعفا عنهم وخلى سبيلهم، كما رواه النسائي في سننه.

وانتقل كتاب الله إلى وصف هذه الوقعة المؤثرة، والدور الذي لعبته قريش فيها، وإلى ذكر ما أنزله الله من السكينة على رسوله والمومنين، حتى أخذت الأحـداث مجرىً آخـرَ لصالـح الإسلام والمسلمين، فقال تعالى: ﴿ هُمُ الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ اِلْمَسْجِدِ اِلْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً اَنْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾، وقال

تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾.

ثم عَرَّج كتابُ الله على قصة الرؤيا التي رآها الرسول عليه الصلاة والسلام في منامه، وأخبر بها أصحابه وهو بالمدينة قبل عام الحديبية، وهو «أنه دخل مكة وطاف بالبيت»، فلما سار في طريقه إلى مكة ظنَّ جماعةٌ منهم أن تعبير تلك الرؤيا سيتم في نفس هذا العام، ونبَّه كتابُ الله إلى أن رؤيا الرسول ﷺ إذا لم تتحقق في نفس هذا العام، أي: في السنة السادسة للهجرة، فإنها ستصدق في فرصة أخرى، لأنها رؤيا صالحة، «والرؤيا الصالحة جزء من النبوة»، وهي واقعة لا محالة بحول الله وقوته: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾، فلما كان ذو القعدة من العام السابع للهجرة، وهو العام التالي لصلح الحديبية، خرج رسول الله ﷺ إلى مكة مُعتمِراً هو ومن كان معه في الحديبية، فأحرم من ذي الحُلَيْفَة، وساق معه الهَدْى إلى ذي طُوَى، ودخل مكة ومعه أصحابه يُلَبُّون، وهو على ناقته القَصْوَاء، وهي نفس الناقة التي كان يركبها عليه الصلاة والسلام في الحديبية من العام الماضي، وعبد الله بن رواحة الأنصاري يقود ناقته، وكلٌّ من في مكة من الرجال والنساء والولدان يتطلعون إلى طلعته البهية من مختلف المنازل والطرق، ما عدا رؤوس الشرك الذين لم يستطيعوا رؤية ذلك المشهد العظيم، ففارقوا مكة طيلة

زيارة الرسول، وبذلك تحققت رؤيا رسول الله، وتَمَّ وعدُ الله، وأكد كتاب الله أن الخطة التي اختطها رسوله لحل أزمة الحديبية عن طريق الصلح كانت بوحي الله وتوفيقه: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ، فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾.

وتنبأ كتابُ الله بنصرة دينه وإظهاره على بقية الأديان، وذلك ما تم على يديه وعلى أيدي خلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿ هُوَ ٱلذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُمْ مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ
ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن
تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ

وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ
ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ
وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ
خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ
وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ
ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ
لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الحُجُرات» المدنية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

هذه السورة الكريمة سميت «سورة الحجرات» أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَآءِ الْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، وأول ما يلفت النظر في هذه السورة الكريمة على العموم، وخاصة في الربع المُخَصَّص لِهذا اليوم، أَنَّ آياتها البينات تُعْنَى على الخصوص بإرشاد المومنين إلى ما ينبغي أن يكونوا عَليه في سلوكهم نحو الله ورسوله، وما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوك بعضهم نحو بعض، في حالة الطمأنينة وحالة الاضطراب، وما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم جميعاً نحو غيرهم من بقية الناس.

ففيما يتعلق بسلوك المومنين الواجب عليهم نحوَ الله ورسوله أوصاهم الحق سبحانه وتعالى بأن لا يُسرعوا في معالجة الأمور قبله، وأن لا يفتاتوا على رسول الله بشيء، حتى يقضِي الله فيه من عنده، بحيث يكونون تَبَعاً له، بَدَلاً من أن يتقدموا بين يديه، فالمومن ينبغي له أن لا يَسبق ربه في أمر ولا نهي، وعليه أن يُوَجِّهَ رأيه وإرادته في الطريق السَّويِّ المرسوم من ربه، ابتغاء مرضاة الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، قال الضحاك: «أي لا تقضُوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم».

وفيما يتعلق بسلوك المومنين نحو رسول الله خاصة أوصى الله عباده المومنين بأن يحترموا مقام الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا يرفعوا أصواتهم على صوته إذا كانوا في مجلسه الشريف، وذلك يستلزم أمرَهم ـ من باب أَوْلَى وأَحْرَى ـ بأن لا يتجادلوا فيما بينهم أمامه، فضلاً عن أن يجادلوا الرسول أو يعارضوه فمَقام الرسول عند ربه وفي أمته ليس هو مَقامَ بقية الناس بعضهم مع بعض، وما جاز للصحابة في معاملة بعضهم لبعض لا يجوز لهم في معاملة الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾، وحذَّرَ كتابُ الله من عاقبة سوء الأدب مع الرسول ورفع الصوت عليه، فقد ينتهي ذلك بما لا تُحمَد عقباه، ويؤدي إلى إحباط عمل المومن وخسرانه، وذلك قوله تعالى:

﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، أي: إنما نهيناكم عن ذلك خشية أن يَحْبَط عملُكم. جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل لَيتكلَّم بالكلمة في رضوان الله تعالى لا يُلقِي لها بالاً يُكتَب لَهُ بها الجنة، وأن الرجل لَيتكلَّم بالكلمة من سُخط الله تعالَى لا يُلقِي لها بالاً يَهْوِي بها في النار أبعدَ ما بين السماء والأرض».

ثم نَدَب الله تعالى المومنين إلى خفض أصواتهم عندما يكونون بمحضر رسول الله، فذلك دليل على ما يملأ قلوبهم من إخلاص وسكينة وهيبة لمقام الرسول، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. وَمِمَّا يتصل بهذا المقام ما روى عن أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه في عهد خلافته كان بمسجد النبي ﷺ، فسمع رجلين قد ارتفعت أصواتهما في المسجد، فأقبل عليهما قائلاً: «أتَدْرِيَان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ فقالا من أهل الطائف، فقال لهما عمر: «لو كنتما من أهل المدينة لأوجَعْتُكما ضرباً». ونص العلماء على أنه يُكرَه رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام، كما كان رفع الصوت أمامه مكروهاً في حياته سواء بسواء، لأنه ﷺ مُحترَم حياً، ومحترم في قبره دائماً.

ومضت الآيات الكريمة في نفس السياق، فنبهت إلى أن الاِستعجال بمناداة الرسول ﷺ من خارج بيته الشريف، للخروج إلى الناس، واستقبالِهم لقضاء حاجاتهم، بدلاً من انتظار خروجه

دون منادَاة ولا إزعاج، إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدل على الجهل وسوء الأدب وقلة العقل، وبذلك يحُضُّ كتابُ الله على وجوب انتظار المسلمين للرسول، إلى أن يَفْرَغَ من شؤونه الخاصة. ويخرج إليهم، وإذ ذاك يُقبل عليه من له عنده حاجة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وفيما يتعلق بسلوك المسلمين بعضهم مع بعض نبهت الآيات الكريمة بادىء ذي بدء إلى وجوب التَّثَبُّت في كل ما يُنسَبُ إلى الغير من أقوال وأفعال، فكثيراً ما يكون الأمر المنسوب إلى الغير كَذِباً، وكثيراً ما تكون نِسبته إلى الغير خَطَئاً، وإذا لم يقع التثبت في نسبة الأقوال والأفعال هل هي حق أم باطل، وإذا لم يَحصُل التحقق منها ومن مُلاَبَساتها، وقعَ المسلمون في البلبلة أحياناً، وفي الظلم أحياناً، وارتكبوا من الشَّطَط وسوء التقدير، ما يؤدي إلى سُوءِ المصير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾، قال ابن كثير: «مِن هَا هنا امتنع طوائف من العلماء من قَبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقِه في نفس الأمر».

ثمَّ لَفَتَت الآياتُ الكريمة أَنظار المومنين إلى أن رسول الله ﷺ ليس مُلزَماً بموافقة أصحابه وترضيتهم في جميع ما يَعرِضون عليه من رغبات وآراء، فقد يرغَبون في شيء يظنُّونه خيراً

وليس بخير، وقد يرون الرأي يعتقدونه صالحاً وهو غير صالح، فالمرجعُ الأعلى للمسلمين يجب أن يظلّ دائماً وأبداً هو مَقام الرسالة الأسمى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اَللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ اَلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾، أي: اعلموا أن بين أظهُركم رسولَ الله، فعظِّمُوه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكُم، ورأيُه فيكم أتمُّ من رأيكم لأنفسكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى الحرج الذي ليس من الدين، وإلى مثل هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَوِ اِتَّبَعَ اَلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ اِلسَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المومنون: ٧١).

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اَللَّهِ ﴾، هذا بالنسبة إليه وهو لا يزال على قيد الحياة بين أظهُر المسلمين، فإذا فارقهُم الرسول وانتقل إلى الرفيق الأعلى كان حاضراً بينهم أيضاً، إذْ أن كتاب الله وسنّة رسوله حاضران وخالدان بين المسلمين على الدوام، فلا بُدَّ من الرجوع إليهما والاهتداء بهديهما، على حد قوله ﷺ: «تـركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم بـه لن تَضِلُّوا بعدي: كتابَ الله وسنتي».

ثم عقَّب كتاب الله بما يُقَوِّي في المسلمين روح الطاعة والامتثال، وَيَدْفَعُهم إلى المزيد من التأدب مع مقام الرسالة، والمزيد من التفاني في تحقيق الأهداف التي رَسَمَتْها للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اَللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الاِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ

فَضْلاً مِّنَ اَللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، وهذه الآيات ترسم في نفس الوقت معالم الإيمان الصحيح لكل من يريد أن يلتحق بركب المومنين الصادقين في أيِّ جيل من الأجيال، أو عصر من العصور، ألا وهي محبةُ الإيمان وكُرْهُ الكفر، ومحبةُ التقوى وكُرْهُ الفُسوق، والتزامُ الطاعة لله ورسوله، وعدم التجرُّؤ على عصيانهما، فمن كان على هذه الوتيرة خرج من دائرة «السفهاء» ودخل في عداد «الراشدين». ولعل التعبير «بالراشدين» في هذه الآية، هو السَّنَد الذي استند إليه السلف الصالح في إطلاق لقب «الخلفاء الراشدين» على خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام الأولين، رضي الله عنهم أجمعين، علاوة على الحديث الوارد في شأنهم بهذا اللقب.

وفيما يتعلق بسلوك المومنين بعضهم مع بعض في حالة الاضطرابات والقلاقل أوصَى كتابُ الله بفَضِّ كل نزاع قد يقع بينهم، على أساس العدل المطلقَ، وفي إطار الأخوة الإسلامية الصميمة، التي تعتبر المومنين كلَّهم إخْوَةً في دين الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ اَلْمُومِنِينَ اَقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتِ إِحْدِيهُمَا عَلَى اَلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُواْ التِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اُلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ثم عادت الآيات الكريمة مرة أخرى إلى ذكر الآداب السامية التي يجب أن يلتزمها المسلمون في معاملة بعضهم

لبعض، منبهةً إلى وجوب تبادل الاحترام وحسن الظن فيما بينهم، وعدم الوُلُوغ في أعراض الآخرين، سواء كانوا حاضرين أو غائبين، وذلك قولُه تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَـٰبِ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾.

وخُتِمت آياتُ هذا الربع بخطاب مُوجه إلى بني الإنسان عموماً وإلى المسلمين خصوصاً، يتضمن الإشارة إلى أن «الإنسانية» رغم ما فيها من اختلاف في الأجناس والألوان والأديان، تُعتبَر وَحْدة مترابطة فيما بينها، فلا بُدَّ للمسلمين إذَن من التعارف مع غيرهم، ومن التعاون مع كل من يَجْنَح إلى التعاون معهم على ما فيه خير الإنسانية عموماً، وخير الإسلام خصوصاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ

ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَ۟ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ
بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ
يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۢ
بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ
لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ
قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ
سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي
جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ
مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سورة «الحُجُرات» المدنية: ﴿ قَالَتِ الْاَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُومِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة (ق) المكية: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الذِي جَعَلَ مَعَ اَللَّهِ إِلَٰهاً ـ اخَرَ فَأَلْقِيَٰهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾.

كما تحدث كتاب الله في «سورة الفتح» عن المُخَلَّفين من الأَعْراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله عام الحُدَيْبِيَة، لظنهم بالله ظن السوء، تحدث كتابُ الله في مطلع هذا الربع من سورة «الحجرات» المدنية عن طائفة أخرى من الأعراب دخلوا في الإسلام، ثم أخذوا يتبجحون ويَمُنُّون على رسول الله، بأنهم انضمُّوا إلى صفوف المسلمين ولم يقاتلوهم، كما قاتلهم غيرُهم من العرب.

وقد فهِم الإمام البخاري من الآيات الواردة في هذا الربع،

بشأن هذه الطائفة من الأعراب أنهم داخلون في عِداد المنافقين، بينما فهمها ابن عباس وإبراهيم النَّخَعي وقتادة على أن القصد منها هو أن أُولئك الأَعراب لم يكونوا منافقين، وإنَّمَا لَمْ يستحكم الإيمانُ في قلوبهم، وادَّعَوْا لأنفسهم مَقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأُدِّبُوا على ذلك حتى لا يَمُنُّوا على الله ورسوله بشيء، ولو كانوا منافقين بالمرة لَعُنِّفُوا وفُضِحُوا كما عُنِّف غيرُهم في سورة أخرى، وهذا الفهم هو الذي اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره وارتضاه ابن كثير، ﴿ قَالَتِ اِلاَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾، فقيل لهم تأديباً: ﴿ قُلْ لَّمْ تُومِنُواْ ﴾، أي: لم تومنوا الإيمان الكامل، ﴿ وَلَٰكِنْ قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾، أي: استسلمنا وسالمنا، فالإسلام هنا لا يزيد على الإعتراف باللسان، والانقياد بالجوارح، وعصمة الدم والمال، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ اِلايمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، أي: ولم يتمكن الإيمان الكامل من قلوبكم بعد، ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَٰلِكُمْ شَيْئاً ﴾، أي: أن الله تعالى ـ رغماً عن أنّ إيمانكم لم يصل بعد إلى درجة الكمال ـ لَا يَنقُصكم من أجوركم شيئاً إذا التزمْتُمَ الطاعة لله ورسوله، فلن تضيع أعمالكم كما تضيع أعمال الكفار. ﴿ اِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ «غفور» لمن تاب، «رحيم» لِمَن أناب.

ثم وصَفت الآياتُ الكريمة خصال المومنين الكاملين الذين يُضرَب بهم المثل في الإيمان، فقال تعالى: ﴿ اِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ ﴾، أي: المومنون الكاملون إيماناً، ﴿ اَلذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾، أي: ثَبَتوا بعد أيمانهم على وتيرة واحدة من

التصديق القلبي الخالص، دون تردد ولا تزعزع ولا اضطراب، فقد يومن الشخص العادي ثم تعرض له عوارض وطوارىء تزعزِعُ إيمانه، وتهُزُّ كيانه، أما المومن الحق فلا يُزعزِع إيمانَه أيُّ شيء، لا في الشدة ولا في الرَّخاء، لَا في السَّراء ولا في الضَّراء، وهذه الآية: ﴿ ٱلذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾، واردةً على غِرار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ (فصلت: ٣٠)، فالسر كله في «الاستقامة» إذ عن طريقها ومن خِلالها يبرُز ما ينطوي عليه القلب من عقيدة صالحة وإيمان صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، هذه صفة أخرى مميِّزة لكاملي الإيمان، فهم يومنون بأن كل ما يملكونه من نفس ونفيس إنما هو عَطِيَّة من الله وَهِبَةٌ منه، ولذلك فهم لا يبخلون ببذل هِبَاته وَعَطَايَاهُ، بما فيها المُهَجُ والأرواح، ما دامت في سبيله وابتغاء مرضاته.

وَعَقَّبَ كتابُ الله على هذه الصفات المثالية لأهل الكمال من المومنين، بما يفيد أن المتصفين بها قولاً وعملاً، والعاملين بمقتضاها سراً وعلناً، هم «الصادقون» في إيمانهم، إذْ تشهدُ بذلك تصرفاتهم وتضحياتهم، كما يشهد به وفاؤُهم وثباتُهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾، بخلاف أولئك الأَعْراب الذين يَمُنُّون على رسول الله بإعلان إسلامهم، وكونهم لا يقاتلونه مثل بقية العرب، فهؤلاء لا زالوا في المرحلة الأولى من مراحل الإيمان، وهم يتدرجون في طريقهم إلى بقية المراحل، بقدر ما

تخالطُ بَشاشةُ الإيمان قلوبَهم يوماً بعد يوم.

ثم خاطب كتابُ الله أولئك «الأعراب السُّذَّج»، مُبيِّناً لهم أن الحق سبحانه وتعالى ـ الذي يعلم السر وأخفى ـ غَنِيٌّ عن أن يكشِفوا له عما في ضمائرهم، فمَن أحاط بكل شيء علماً، وهو يعلم ما في السماوات ومَا في الأرض، لا يتوقف على تصريحاتهم، ليَطَّلِع على مكنوناتهم، ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وكشفت الآياتُ الكريمة الستار عن طبيعة الموقف الساذج الذي وقفه أولئك الأعراب، والذي دعا إلى تأديبهم وتهذيبهم حتى لا يعودوا لمثله، فقال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمْ ﴾، ثم يَتَّجِهُ إليهم خطاب الله على سبيل التنزل، بأنهم على فرض أنهم صادقون في الجمع بين الإسلام والإيمان، فإن المِنة في إسلامهم وإيمانهم إنما هي لله ورسوله، إذ هو الذي هداهم إلى طريق الإيمان أولاً وأخيراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وَخُتِمَت سورة «الحُجُرات» المدنية بما يؤكد إحاطة علم الله بكل شيء، ولا سيما العلم بغيب السماوات والأرض، بما فيه غَيْبُ السرائر والضمائر، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

والآن فلنقبل على تفسير سورة (ق) المكية، مستعينين بالله جلت قدرته وأول شيء يستلفت النظر في هذا المَقام هو أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه السورة الكريمة يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس، كما روى ذلك مسلم في صحيحه، وأبو داود والنسائي وابن ماجه في السنن، وقد تلقاها من لسان رسول الله ﷺ وحَفِظَها عددٌ من الصحابة عن هذا الطريق، قال ابن كثير: «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكِبار كالعيد والجُمَع، لِاشْتمَالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمَعاد والقِيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب».

وأولُ ما تتحدث عنه آيات هذه السورة الكريمة، كتاب الله المجيد، الملتَفُّ في حُلل المجد والعظمة، وها هنا نجد الحق سبحانه يُقسِم به، دلالةً على عظيم منزلته عنده، وإرشاداً إلى المنزلة العظمي التي يجب أن يحتلها في قلوب الناس وفي حياتهم اليومية.

وحرف (قٓ) الذي هو أول حرف في كلمة «قرآن» وأول حرف ورد في هذه السورة حتى سميت باسمه، إشارةً إلى أن كتاب الله المعجز للبشر يتألف لفظه من نفس الحروف التي ننطق بها، غير أنه لا يَقدِر على تأليفه المعجز أحدٌ سوى الله، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ أَمْرِنَا ﴾، (الشورى: ٥٢)، كما أن المادة التي يتكوَّن منها الأحياء مُلقاة على قارعة الطريق، بحيث يراها الناس ويعيشون معها، ولكنهم لا يستطيعون أن يُؤلِّفوا

منها ولو كائناً حَيّاً واحداً في أبسط صُوَرِه وأشكاله، لأَنَّ ذلك من صُنع الله وحده.

ويشير كتاب الله إلى تعجب المشركين واستغرابهم من إرسال رسول إليهم من بينهم، أي من البشر لا من الملائكة، ومن العرب، لا من بني إسرائيل، بَعْدَ أن ظَلَّت النبوةُ والرسالة مستمرةً في بني إسرائيل زمناً طويلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

وعَـرَّجَ كتابُ الله على عقيـدة «البعث» التي هي عقيـدة أساسية في دين الله الذي لا يتبدل، والتي دعا إلى الإيمان بها كافةُ الأنبياء والرسل، وتحدث عن الشُّبَه السخيفة والحجج الواهية، التي يلوكها بألسنتهم مَنْ لا يُومنون بهذه العقيدة الثابتة، ومَرَدُّ شُبَهِهم كلِّها إلى استبعاد الحياة من بعد الموت، نظراً لما يلحق جُثث الأموات من تحلل وفناء، ناسين أو متناسين أن الله الذي أنشأ الحياة قبل الموت هو الذي تكفل بأن ينشيء الحياة بعد الموت، فنشأةُ الحياة بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى عملية سابقة أولاً، ومكرّرة ثانياً، وليس فيها ما يُستغرَب ممن هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم، وذلك قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿أَ. ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾، أي: بعيد الوقوع، ثم يتولّى الحق سبحانه وتعالى الرد عليهم قائلاً: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ ﴾، وهذا هو الجواب عن القَسَم الذي جاء في مطلع سورة «قٓ» حسبما حكاه

ابن جرير الطبري عن بعض النحاة، كما رَدَّ الحقُّ سبحانه على منكري البعث ردّاً مُفحِماً إذْ قال: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

ويعرِضُ كتاب الله بعض آيات الله البارزة في الآفاق، مما يدل على قدرته، وعلمه وحكمته، ويَصِف بالخصوص كيف يُحيي الله الأرض بعد موتها، مُبَيِّناً أنَّ حَياة الإنسان بعد موته شبيهة بها كل الشَّبَه: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾، فخروج الإنسان من تحت الأرض بعد موته، وبعثُه في الوقت المعلوم، عمليةٌ لا تختلف في جوهرها كثيراً عما يراه الناس في كل وقت دون أن يتنبهوا إليه، إذْ تكون الأرض هامدة قاتمة مَيِّتة من أثر القَحط والجَدب، فينزل عليها المطر من عند الله، وإذا بها تُصبِح مضرِب الأمثال في الخِصب والنَّماء والإنتاج، ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾.

وأشارت الآيات الكريمة إلى مصير المكذبين بالرسالة، وفي طليعتهم: ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، والمراد «بالرَّسّ» هنا البير المَطوية، غير المبنية، والمراد «بالأَيْكَة» الشجرُ الملتف الكثيف، وسبق ذكر «أصحاب الأيْكة» في الآية الثامنة والسبعين من سورة «الحِجْر» وفي الآية السادسة والسبعين بعد المائة من سورة «الشورى»، وفي الآية الثالثة عشرة من سورة «ص».

واستعرض كتابُ الله حالةَ الإنسان المتمرد على طاعة الله، كيف يكون أثناء حياته، وعند موته، وحين بعثه، ووقتَ حسابه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، أي: أقرب إليه من العِرق الذي يجري فيه دمه، وتتم بواسطته دورتُه الدموية، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾، ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾، ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾، ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾.

وأجملَ كتاب الله في إحدى آيات هذا الربع ما يكون عليه المكذبون بالحق في كل عصر وجيل، أفراداً وأُمماً، من اضطراب في الفكر، وتناقض في الرأي، وقلَق في النفس، وحَيْرة في الاتِّجاه، بسبب أنهم لم يعتصموا بالحق، فتقاذَفتهم الأهواء المختلِفة من كل جانب، وتجاذَبتهمُ التَّيارات المتعارضة من كل فجّ، وذلك قولُه تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾، قال ابن كثير: «والمريج المختلِف المضطرب الملتبِس، كقوله تعالى في سورة «الذاريات» التالية: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾. وهذا حال كل من خرج عن جادة الحق، وارتمى في أحضان الباطل، مهما قال أو فعل بعد ذلك فهو باطل، لأنه دخل في تِيه الحَيْرة والغواية، الذي لا تُعرفُ له بداية ولا نهاية.

الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ

مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ
بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ
ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾
قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحفِ الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «قٓ» المكية: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الذاريات» المكية أيضاً: ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

في نهاية الربع الماضي تحدث كتاب الله عن المَلَك المُوَكَّل بتسجيل عمل ابن آدم، وأنه سيشهد على ابن آدم يوم القيامة، بكل ما فعل، إذْ يكون السجِل الذي أعده عن حياته مهيَّأً حاضراً من غير إبطاء ولا انتظار، ودون زيادة ولا نقصان ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾، فيصدُرُ حكم العلي الأعلى في حقه بما هو أهل له من ثواب أو عقاب.

وفي بداية هذا الربع تحدث كتاب الله عن قرين للإنسان من نوع آخر، ألا وهو «قرين السوء» الذي يُزيِّن له الشر، ويوقِعُه في شِباك الخبال والضلال، وقرين السوء الأكبر هو الشيطان الرجيم، ثم أولياؤه ومساعدوه الأقربون، المجندون تحت لوائه

لإغواء الخلق، من الدُّعاة المفسدين، فهذا القرين الذي يكون من بين قرناء السوء مستشاراً للإنسان، ومحلاً لثقته طيلةَ حياته، هو نفسُه الذي يتبرأ من ابن آدم يوم القيامة أمام الله، مُلقِياً على عاتقه وحده تَبِعةَ أعماله وتصرفاته، متهِماً إياه بأنه هو الذي اختار لنفسه بمحض إرادته الضلالَ على الهدى، والشرَّ على الخير: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾، وقد جاء ما يُشبه هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

ثم أشارت الآيات الكريمة إلى ما يُنتظَر أن يقوم يوم القيامة بين الشيطان وضحاياه، من تَلاؤم وتخاصم أمام الله، فيأمر الحق سبحانه بوضع حد للخصام والمَلام، إذ لا محل لهما في ذلك المَقام: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ويصِفُ كتابُ الله الحالة التي تكون عليها جهنم، وهي تستقبل أفواج المشركين والكافرين، والمُصِرِّين على الذنب والعصيان من العصاة المذنبين، ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

وينتقِلُ كتابُ الله إلى وصف الجنة التي أُعدت للمتقين، وما يلقَوْنه فيها لدى مَلائكة الرحمن من الثناء العاطر وحسن

الاستقبال، جزاءَ ما قاموا به ومَارَسُوه في حياتهم من صالح الأعمال، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، إذْ كل ما هو آت قريب، وفي خلال هذا الوصف نوَّهت الآياتُ الكريمة بالأوصاف التي رَشَّحَت أهلَ الجنة للجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾، و«الأواب» هو الذي إذا أذنب بادر إلى الإقلاع عن ذنبه وتاب منه توبة نصوحاً، و«الحفيظ» هو الذي إذا عاهد الله حفِظ العهد، وحافظ عليه من المهد إلى اللحد، ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾، أي: مَن راقب الله وإن كان غائباً عن أعين الرُّقباء، وهذه الآية شبيهة بقوله ﷺ في الحديث الشريف: «ورَجُلٌ ذكَر اللَّهَ تعالى خالياً ففاضت عيناه»، من بين السبعة الذين يُظِلُّهم الله بظله يوم لا ظل إلاّ ظله. ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾، أي: لقيَ الله بقلب سليم يملؤه الخشوع والخضوع.

وقولُه تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ إشارةٌ إلى التحية التي يتلقى بها ملائكةُ الرحمن ضيوفَهم من أهل الجنة، عندما يأذنون لهم بالدخول إلى دار الخلود، التي لا يفارقونها ولا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً: ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾، أي: مهما اختاروا وجدوا، ومهما طلبوا أُحضر لهم، وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، كقوله تعالى في سورة يونس (٢٦): ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقوله جلّ علاه في سورة التوبة (٧٢): ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وعادت الآيات الكريمة مرة أخرى إلى تذكير المشركين بمصارع الأمم الغابرة التي أَصَرَّت قبلهم على الضلال، فأصبحت

مضرب الأمثال بين بقية الأجيال، ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى سابقة: ﴿ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (غافر: ٨٢)، قال قتادة: «نَقَّبُوا في البلاد»، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب والمتاجر أكثرَ مما طُفتم. يقال لمن طَوَّف في البلاد «نَقَّبَ فيها». وقولُه تعالى: ﴿ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴾، أي: لا مَفرَّ لهم ولا لكم من عذاب الله، وكما أن قوتهم، وثروتهم لَمْ تحولا دون قضاء الله وقَدَره، فلن تُفلتوا أيها المشركون من قبضة الله القاهر فوق عباده.

ثمّ عَقَّب كتابُ الله على ما استعرضه من أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار، وعلى ما وصفه مِن مصارع الغابرين، ومواقف المكذبين بالرسالة من السابقين واللاحقين، بما يفيد أن الحكمة في هذا الاستعراض إنما هي تنبيه من له قلبٌ حَيّ وذهنٌ متيقظ، إلى استخلاص العِبْرة والانتفاع بالذكرى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير بقدرة الله، بديع السماوات والأرض، والتذكير بكونه سبحانه منزَّهاً عن أن يلحقه أيُّ تعب أو إعياء، لا بالنسبة لإيجاد المخلوقات، ولا بالنسبة لإمدادها، لا بالنسبة للنَّشأة الأُولى، ولا بالنسبة للنشأة الآخرة، ويدخل في ذلك دخولاً أوَّلِيّاً عمليةُ البعث والنشور، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾، أي: ما مسنا تعبٌ ولا نَصَب، وإلى

نفس هذا المعنى يشير قولُه تعالى في سورة (الأحقاف: ٣٣): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقولُه تعالى في سورة (النازعات: ٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾، وقولُه تعالى في سورة (غافر: ٥٧): ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

وقد نبهنا في حديث سابق إلى أن «الأيام الستة» التي خلق الله فيها السماوات والأرض وما بينهما ليست من جنس أيامنا التي نقضيها فوق هذا الكوكب الأرضي، وإنما هي من الأيام التي أشار إليها قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)..

واتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم عليه السلام داعياً إياه إلى المزيد من الصبر على أذى المشركين، وإلى الالتجاء إلى الله بالعبادة والتسبيح والدعاء: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

وخُتِمت سورةُ (قٓ) بنفس الموضوع الذي كان فاتحة لها، وهو موضوع البعث والحياة بعد الموت: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً

ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الذاريات» المكية أيضاً، وفي بدايتها نجد التذكير بنفس البعث والمعاد، والقَسَم من الله على وقوعهما: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْواً فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْراً فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْراً فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾، والمراد «بالذاريات ذَرْوا» الرياح، والمراد «بالحاملات وِقْرا» السُّحُب، لأنها تحملُ الماء، والمراد «بالجاريات يُسْراً» السُّفُن، لأنها تجري في البحر بسهولة، والمراد «بالمُقَسِّمَاتِ أمراً» الملائكة، لأنها تنزل بأوامر الله الكونية والشرعية وهذا التفسير مروى عن عمرَ بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وتحدث كتابُ الله عن «الخَرَّاصين» المُرتابين الذين يَكذِبون على الله ورسوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾، وعن المتقين وما ادَّخر لهم الحق سبحانه في دار النعيم، جزاءَ إيمانهم وإحسانهم، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى ما لله من آيات ناطقة بقدرته، متجلية في الأرض والسماء والأنفس، فقال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

وخُتم هذا الربعُ بالحديث عن قصة إبراهيم وضيوفه من الملائكة المُكرَمين، وكيف أن إبراهيم الخليل عليه السلام استقبل ضيوفه أحسن استقبال، حتى أصبح عملُه دستوراً في «آداب الضيافة» معمولاً به عند السَّلف والخلَف، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى في هذه القصة: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰماً. قَالَ سَلَٰمٌ ﴾، ثمّ قولُه تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾، أي: أن إبراهيم جاء لضيوفه بالطعام بسرعة ودون سابق إشعار، ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي أنه أتى بأفضل ما عنده، وهو عجل فَتِيٌّ مشويّ (فَقَرَّبَهُ إليهم) أي وضعه بين أيديهم، ثم قال لهم على سبيل العَرْض والتلطُّف، لا على سبيل الأمر والتكلف: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾؟.

واشتمل سياق هذه القصة على تبشير الملائكة لإبراهيم بغلام يولَد له: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾، لكنَّ امرأته استغربت من هذه البشرى، نظراً لكونها تشعر أنها ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ إلاّ أن الملائكة ردُّوا عليها ردّاً يُزيل من ذهنها كلَّ تعجب واستغراب، ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ. إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وقد حقق الله لإبراهيم وزوجه هذه البشرى بولادة إسحاق عليه السلام، لأن الأقدار الإلَهية هي التي تكون نافذة الأحكام على الدوام، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢).

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين
في المصحف الكريم

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ
وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾
وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا

فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا
تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ
عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم
مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم
بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا
لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الذاريات» المكية: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الطور» المكية أيضاً: ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن إبراهيم وضيوفه من الملائكة المكرمين، ويبين لنا كيف استفسر إبراهيم ضيوفه عن المهمة التي أُرسلوا لإنجازها في هذه الرحلة المستعجَلة، كما يعرض علينا كتاب الله فحوى الجواب الذي أجابوا به إبراهيم عن سؤاله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: ما شأنكم، وفيم جئتم أيها المبعوثون، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، والمراد «بالقوم المجرمين» هنا قوم لوط حسبما يؤخذ من قوله تعالى في آية أخرى عن قصة إبراهيم وضيوفه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ

يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود: ٧٤، ٧٥، ٧٦). ثم يكشِفُ ضيوف إبراهيم لمُضِيفِهم الكريم، كما في نفس هذه الآية، عن الغَرض الأساسي من بعثهم وإرسالهم إلى قوم لوط، ألَا وهو إنزال العقاب الإلَهي بهم، بِانْتِقاء نوع خاص من الحجارة وقعَ عليه الِاختيار الإلَهي، ورجمِهم به من السماء، فيفعل بهم فعل الطاعون والوباء، وذلك قوله تعالى على لسان ضيوف إبراهيم: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾.

غيرَ أن الله جلت قدرته، ودقت حكمته، لم يجمع في عذابه بين «المسرفين» و«المومنين»، فيؤاخذ هؤلاء بجرم أولئك، بل نَجّى من العذاب لوطاً ومن كان معه من المومنين، وذلك قوله تعَالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُومِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، وقد نصّ كتابُ الله في آية أخرى على أن امرأة لوط ـ واسمها «وَاغِلة» فيما يرويه المؤرخون ـ لم تكن من بين الناجين، بل كانت من الهالكين، كما قال تعالى في سورة (العنكبوت: ٣٢): ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا، لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾.

ولا يستغربنَّ أحدٌ اهتمامَ إبراهيم الخليل بقصة قوم لوط، وحوارَه مع ضيوفه في شأن لوط وقومه، فعلاقة إبراهيم الخليل بلوط عليهما السلام علاقة وثيقة جداً، إذْ أن لوطاً هو ابن أخ إبراهيم، وكانَ إبراهيمُ الخليل يحبه حباً شديداً، واشترك معه في رحلته إلى الشام، إلى جانب امرأته «سارة» فاستقر إبراهيم

بفلسطين، واستقر لوط بالأردن، وأرسله إلى أهل «سَدُوم» وما يليها، وكانوا كفاراً يأتون من الفواحش ما لم يسبقهم به أحد من العالمين إذِ استغنى الرجالُ بالرجال والنساء بالنساء، فلما طال تماديهم في غيِّهم ولم يَنزَجروا دعا عليهم لوط عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٠)، فأجاب الله دعاءه، وانتصر له بإهلاك مُكذِّبيه، ودَمَّر قُرَى قوم لوط، فأصبحت أثراً بعد عين، كما قال تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ (هود: ٨٢).

ثم عقَّب كتابُ الله على ما دار من الحِوار بين إبراهيم الخليل وضيوفه حول مصير قوم لوط، بما يفيد أن العذاب الأليم الذي استحقوه إنما ضرب الله به المَثَل لمن يأتي بعدهم، حتى يكون لغيرهم عبرةً وذكرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾، وقد أثبت البحث أن المكان الذي كان يعيش فيه قوم لوط قد تحوَّل منذ حلّ بهم عذاب الله إلى بُحَيْرة خبيثة مُنتِنة يَتجنبها الناس.

ثم أعاد كتابُ الله الكَرَّة بذكر قِصَص الأمم الغابرة التي كذبت الرسل وأعرضت عن رسالات الله، وورد ذلك هنا على وجه الإجمال، بعد ذكرها مفصلة في سُوَرٍ أُخرى، وفي أول القائمة قصةُ «فرعون» وقومه وما أَصابهم من الغرق، وقصة «عادٍ» وما أصاب ديارهم من دَمار بالريح، وقصة «ثمودَ» وما فعلت بهم الصاعقة، وقصة «قوم نوح» وما فاجأهم من الطوفان، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: بحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾، أي: اغتر فرعون بقوته، واعتمد على قومه، ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾، أي: الريح التي تُهلك ولا تُنتج شيئاً، ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾، أي: إلّا قضت عليه بالذبول والفناء، كالجسم المنحل الفاني، ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (فصلت: ١٧)، ويتصل بها قولُه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (هود: ٦٥)، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾، أي: واذكر قوم نوح من قبل بقية الأقوام، لأنهم سبقوهم جميعاً، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تذكير عباده بوجوب النظر والتأمل في كتاب الكون الأكبر، المفتوحةِ صفحاتُه لعقول الناس وقلوبهم جميعاً، بما فيه من سماء وأرض وأحياء، وما فيه من أنواع وأصناف بلغت في التعدد والتنوع إلى حد يفوق كل إحصاء، وذلك قولُه تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ ﴾، أي: بنيناها بقوة، ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا ﴾، أي: جعلناها مستقراً ملائماً للإنسان كأنها الفراش الذي يأوي إليه، ونظراً لكونها مَهداً لحياة الإنسان فقد مَهَّدنا له فيها سبل العيش، ووفَّرنا له فوق سطحها وسائل الحياة

وإمكاناتها، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: أن قدرة الله بلغت غَاية الغاية في الإنشاء والإبداع على غير مثال سابق: حتى أنها لم تكتف بخلق جنس واحد، أو نوع واحد، أو صنف واحد، بل انفردت بخلق مختلِف الأجناس والأنواع والأصناف، وشَمِل ذلك جميع المخلوقات، بما فيها الحيوانات والنباتات والجمادات، فهناك على سبيل المثال سماء وأرض، وبر وبحر، وشمس وقمر، وليل ونهار، وضياء وظلام، وحياة وموت، وسعادة وشقاء، وهكذا إلى ما لا نهاية له، حتى «الذَّرّة» نفسها مؤلفة من زَوْج من الكهرباء: مُوجِب وسالِب.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تنبيهٌ على أن استخلاص العبرة، والوصول إلى معرفة الله عن طريق إعمال الفكر في مخلوقاته، هو الثمرة المرجوة من النظر فيها، والتأمل في عجائبها وأسرارها، ولذلك وقع التعقيب على هذه الآية مباشرةً بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والفرار إلى الله معناه التخفُّف من أثقال البشرية، والتحرُّر من أُغلالها الوهمية، وفي الطليعة الفرار من عبادة الأوثان، إلى عبادة الرحمن، والفرار من الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن العُبودية للأصنام والطواغيت إلى العبودية لله وحده، وبها يتم التحرر الكامل الشامل، ويتحقق الاعتماد الكليُّ في جميع الأمور على خالق الخلق، ورازقهم الذي يُحيي ويميت: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وَذَكَّرَ كتابُ الله بظاهرة غريبة سجلها تاريخ النبوات

والرسالات منذ البداية إلى النهاية، ألا وهي تَصَدِّي طائفة من البشر لمحاربة الرسل، والتشنيع عليهم، والتشهير بهم، ووصفهم بأقبح الصفات، حتى كأن خصوم الرسالات الإلٰهية يتواصَوْن فيما بينهم عَبْرَ الأجيال بنفس الادعاءات، إذ يرددون على ألسنتهم دائماً نفس الاتهامات، وإلى هذه الظاهرة الغريبة يشير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ اِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ اَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾، وإلى هذا المعنى نفسه يشير قوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ (فصلت: ٤٣).

وكَأَنَّ كتابَ الله عندما ذَكَّر خاتِم الرسل عليه الصلاة والسلام بهذه الظاهرة الغريبة التي واجهها جميع الأنبياء والرسل من قبله أراد أن يُهَدِّىء من رَوْعه، ويخفف عنه وقعَ الاتهامات التي يوجهها إليه المشركون من قومه، ولذلك أتْبَعها بدعوته إلى تجاهل ما يوجهونه إليه من الأذى والتعنيف، والإعراض عنه كأنه لم يكن، فقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ اَلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسْ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَآ اُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾، إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى متصف بصفة «الغِنَى المطلق»، فهو غنيّ عن خلقه على الدوام، كما أن فيه إشارة إلى أن تحقُّق المخلوق بِكَوْنِهِ مخلوقاً، وبكوْنه محتاجاً على الدوام إلى رعاية خالقه، وإحسان رازقه، كَافٍ لأن يجعله مقبلاً

على الله، يبتغي طاعتَه ويلتمس رضاه، ويرجو نَواله ونُعماه، وإلاّ فكيف يُعقَلُ أن يعرف المخلوق أنه «مخلوق» ثم يتجاهل الله الذي خلقه ورزقه، وأوجده من العدم؟، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾.

والآن وقد فرغنا من تفسير سورة «الذاريات» المكية نشرع في تفسير سورة «الطُّور» المكية أيضاً، مستعينين بالله. وأول ما يستقبلنا في هذه السورة الكريمة قَسَمٌ من الله عظيم، على أن «الساعة» آتية لا ريب فيها، وعلى أن المَعَاد حَقٌّ بكل توابعه ونتائجه، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ، وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ، سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. ومعنى «الطّور» الجبل إذا كان فيه شجر، ومعنى «البحر المسجور» الذي يتأجج ناراً، و«المَوْر» تحرك السماء بأمر الله ومَوْج بعضِها عند قيام الساعة، ومعنى «يُدَعُّون إلى نار جهنم» يُدفَعون إليها ويُساقون.

وبعدَما وصفت الآيات الكريمة حالة المكذِّبين بالرسل، وما أعد الله لهم في جهنم من العذاب الأليم، تولت بالشرح والوصف والمقارنة حالة المتقين وهم في جنات ونعيم، وأشارت

بالخصوص إلى ما يتفَضَّلُ به الحق سبحانه عليهم، إذْ يجمعُ شمل المومنين من الآباء والأبناء في مَقـام واحد، ويُقِـرُّ أعين الآباء، فيُلحِق بهم ما لهم من أبناء، وإن كان بعضُهم أعلى درجة من البعض الآخر عند الله، بالنسبة إلى عمله الصالح وتقـواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَـٰنٍ اَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّن عَمَلِهِمْ مِّن شَيْءٍ ﴾.

ولَمَّا أخبر كتاب الله عن «مَقام الفضل» وهو رَفْـعُ درجة الأبناء إلى منزلة الآباء، من غير عمل كاف يقتضي ذلك، أخبر عن «مَقام العدل»، وهو أنه لا يؤاخِذ أحداً منهم بذنب الآخر وأنَّ كل امرىءٍ مُرتَهَنٌ بعمله، لا يُحمَل عليه ذنبُ غيره من الناس، سواءٌ كان أَباً أو ابناً، فقـال تعالى: ﴿ كُـلُّ امْرِىءٍ بِمَـا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَـتُ رَبِّـكَ صِـدْقاً وَعَـدْلاً ﴾ (الأنعـام: ١١٥).

الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين
في المصحف الكريم

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ
بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ
رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ
خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ

فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ

نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ
ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾
إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «الطور» المكية: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾، ونهايتُه قوله تعالى في سورة «النَّجْم» المكية أيضاً: ﴿ أَمْ لِلإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾.

في بداية هذا الربع يصف كتاب الله نوع الأحاديث التي يتبادلها أهل الجنة فيما بينهم، عندما يستقرون، بفضل الله، في «دار الخلود» فها هم أُولاء يُقبلُ بعضُهُم على بعض في مودة وإخاء، ويسأل بعضُهم بعضاً في ثقة واطمئنان وها هم يستعيدون ذِكْرَيَاتهم عما مضى لهم في الحياة الـدنيا، وهـا هم يُحلِّلون حالتهم النفسية والخُلُقية التي كانوا عليها في «دار التكليف» وها هم يستخلِصون النتائج والعِبَر مما كانوا عليه، ومما صاروا إليه، وذلـك ما تضمَّنـه قولُـه تعـالى: ﴿ وَأَقْبَـلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَيـنَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنَ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾.

ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي: كنا في حد ذاتنا، وفيما بين أهلنا ووسَط عشيرتنا، ملتزِمين لتقوى الله، متجنِّبينَ لمعصية الله، خائفين من حساب الله، ولم نكُن طاغينَ ولا متمرِّدين ولا غافلين، ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾، أن الله تعالى تفضل علينا بما آتانا من النعيم المقيم، وبما نَجَّانا منه من العذاب الأليم. واعترافُهم في هذا المقام «بمنّة الله عليهم» دون «الامتنان عليه» بعَمَلهم، أو باستحقاقهم للجزاء عليه، يَدُلُّ على مبلغ ما هم عليه من أَدَب مع الله، فهم يعتبرون الأعمال الصالحة التي عملوها في «دار الفناء» مُجرَّد توفيق من الله، ويَعُدُّون الجزاء الحسن عليها في «دار الجزاء» مجردَ مِنَّة من الله، وذلك منتهى الكمال في الأدب، في الدنيا والآخرة.

ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾، أنهم كانوا على الدوام يطرقون باب الله، دون أن يمَلُّوا من الدعاء والتضرع والابتهال، إذْ كانوا واثقين بأن «الدعاء هو مُخُّ العبادة» كما جاء في الحديث الشريف، بحيث يلتجئون إليه سبحانه في السراء والضراء، والشدة والرخاء، إيماناً منهم بأنه لا ضارَّ ولا نافع سواه، وتجاوُباً منهم مع التوجيه الإلّهي القاطع: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل: ٦٢)، وهم عندما كانوا يتوجهون بدعائهم، ويتَّجهون فيه إلى الله وحده، لم يكن يُداخلُهم أدنى شك في برِّ الله لهم، ورحمته إياهم، إذ هو سبحانه «البَرُّ الرحيم» بأوسع معاني البر، وأعم وجوه الرحمة.

وانتقل كتاب الله إلى تثبيت قلب الرسول عليه السلام، وحملِه على الصبر إلى النهاية، في سبيل تبليغ الرسالة، دون أن يتأثر بما يوجهه إليه أعداءُ الله من قذف بالكِهانة حيناً، وبالجنون حيناً، فقد حماه الله منهما، وأنعم عليه بأكبر النِّعم، إذ اختاره سبحانه وتعالى لأمر عظيم، وأكرمه بخُلُق عظيم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾.

ثم استنكر كتابُ الله ما يُلفِّقه المشركون أحياناً أُخرى من وصف الرسول عليه السلام بأنه مجرد «شاعر»، على نَمَط ما اعتادوه من الشعراء المغرفين في الخيالات والنَّزَوات والأحلام، وإن كانوا يعرفون حق المعرفة أنَّ كلام الله الذي يُتلَى عليهم ليس من الشعر ولا من النثر في شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، أي: يزعمون أنه مجرد شاعر، ويرون أنه لا بأس - إذا اقتضى الحال - بِغَضِّ الطَّرْفِ عنه، في انتظار أن يدركه الموت، فيستريحوا منه ومن شعره، كما كان أمرُهم مع الشعراء الأولين، ثم يرُدُّ عليهم كتابُ الله قائلاً: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾، أي: قل لهم يا محمد: انتظروا فإني منتظر معكم. وكأنه يقول لهم: إن الأمر هنا على خلاف ما تظنون، فهو يتعلق برسالة خالدة إلى يوم الدين، يموتون هم جميعاً ولا تموت هي أبداً، وإنَّ الأمر يتعلق بكتاب إلٓهي خالد، قد تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظه في الصدور، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليس الأمر متعلقاً - كما يَدَّعُون - «بشعر جاهِليّ» يعيش في ظل الجاهلية، ثم يموت وينتهي مفعوله

إلى الأبد. كما استنكر كتابُ الله ما يدَّعيه المشركون في مناسبات أخرى، مِن أَن الوحي الذي تنَزَّل على رسول الله ﷺ إنما هو مجردُ «تَقَوُّل» من عنده وافتراءٍ على الله، متحدِّياً لهم أن يأتوا بمثله إذا كان ما يَدَّعُونه حقاً وصدقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾، وهيهات لهم ذلك، فإنّ كتاب الله تَسْري فيه روح من أمر الله، ومعانيه نابعةٌ من مَعِين علم الله، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحسن في كل شيء صنعاً.

وعرَّج كتابُ الله مرة أخرى على قصة «بدأ الخليقَة»، ومركز الإنسان الحقيقي بالنسبة لبقية المخلوقات، وتحَدَّى المشركين الذي يجهَلون أو يتجاهلون أن الله واحد أحد، وأنه لم يلد ولم يُولَد، وذلك قولُه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُواْ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

واستغرب كتابُ الله ما عليه المشركون من إعراض عن الرسالة العظمى التي جاءهم بها الرسول عليه السلام، رغماً عن أن هذه الرسالة مجردُ عطية إلٰهية، وهِبة ربانية، تَكرَّم عليهم بها الحق سبحانه وتعالى، هدايةً لهم، وأخذاً بيدهم، ورغماً عن أن القائم بها والداعيَ إليها لا يطلب لنفسه أيَّ أجر عليها، ولا

يُلزِمهم بأداء أيّ مَغْرَم خَفّ أو ثَقُل، مُقابلَ تبليغها لهم، ونشرها بينهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى أن العذاب الذي يسلطه الله على المشركين والمكذِّبين، ومَن لَفّ لَفَّهم من العُصَاة المذنِبين، والْمُسْرِفين الظالمين، نوعان اثنان:

النوع الأول: «العذاب الأكبر» وهو العذاب الماحِق الساحق، الذي ينتهي بالإبادة والفناء في الدنيا، وبالخلود في جهنم في الآخرة.

النوع الثاني: «العذاب الأدنى» وهو العذاب الذي يراد به مجرد التذكير والتأديب والتَّلَوُّم في الدنيا، عسى أن يُقبِل المشركون على الإيمان بالله، وعسَى أن يعودَ العُصاةُ إلى طاعة الله، وعسَى أن ينتهي الطُّغاة عن تعدي حدود الله.

فبالنِّسبة للنوع الأول قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾، أي: إنْ يَرَوا عذاباً نازلاً عليهم من السماء يقولُوا جُحوداً وعناداً إنه سحابٌ مُقبِل عليهم بالماء والحياة والبَرَكة، ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

وبالنسبة للنوع الثاني قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَإِنَّ لِلذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، وهذا النوع من العذاب يَبْتلى به اللَّهُ الأمم التي انحرفت عن الطريق السَّوِيّ، ولا يرفعُه عنها إلَّا

إذا عادت إلى رشدها، وخرجت من تِيه الغَواية والضلال، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢١).

وينتقلُ كتابُ الله من مُحَاجَّة المشركين، والرد على ادِّعاءاتهم الباطلة، ووصفِ ما هم عليه من الجحود والعناد، إلى مُخاطبة الرسول عليه السلام، ودعوتِه إلى الاِستمرار على ما هو عليه من صبر مُزدوج: صبرٍ في أداء الرسالة بكل تَفانٍ وثبات وإخلاص، وصبرٍ على أذى المشركين الذي لا ينقطع أبداً، والذي يأخذ كل يوم لوناً جديداً من التقولات والاِدعاءات وحرب الأعصاب، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: أن الله تعالى قد تكفل بأن يعصمك من الناس، وبأن يرعاك بعينه التي لا تنام. وفي هذا الخطاب الإلٰهي الرقيق مُنتهى التأييد والإعزاز والإكرام.

ثم دَعا نبيَّه عليه السلام إلى الاستعانة على ما هو بصدده من أعباء الرسالة العظمى، بالعبادة والدعاء والتسبيح، فذلك أكبرُ مَدد يُمِدُّ الله به أصفياءهُ من خلقه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾.

وبهذا العرض الواضح نختم سورة «الطّور» المكية، وننتقل إلى سورة «النجم» المكية أيضاً، وأول ما يواجهنا في هذه السورة الكريمة قَسَمٌ من الله عظيم على صدق الرسول في رسالته،

وعلى تصديق الوحي الذي ينزل عليه من عند الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَٰحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

ويشير كتابُ الله في إيجاز وإعجاز إلى أول لقاء ونعارف تَمَّ بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام في بداية نزول الوحي، عندما بعثه الله على رأس الأربعين، ورأى جبريلَ على صورته، وذلك قولُه تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ ﴾، أي: ذو قوة، والمراد به هنا جبريل، ﴿ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، أي: على بُعد ما بين القوسين أو أدنى، تعبيراً عن مُنتهَى القرب منه، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾، أي: أوحى جبريلُ إلى عبد الله ورسوله ما أوحاهُ إليه ربُّه: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾، أي: أن رؤية النبي عليه السلام لجبريل الذي نزل عليه بالوحي كانت رؤيةَ مشاهدةٍ وعِيان، ويقين قاطع، بحيث لا تَقبَل شكّاً ولا جدالاً: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾.

ثم أشار كتاب الله بالخصوص إلى لقاء آخر تَمَّ بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام، إذْ رآه على هيئته التي خلقَه الله عليها ليلة الإسراء والمعراج، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، يستفاد منه معنيان: المعنى الأول أن رؤية النبي ﷺ لجبريل (ع) ليلة الإسراء كانت رؤية حَقيقية ليس فيها أدنى غلط في المشاهدة، مما قد يَعْتَورُ أعين الناس العاديين حيث يقعُ لهم أحياناً غَلَط في الرؤية، وخَلْطٌ في النظر بالبصر، والمعنى الثاني أن رسول الله ﷺ لم يُجاوِزْ فِي هذا المقام العظيم ما أُمِرَ به، ولم يتطلع لكشف ما لم يُؤذَنْ له فيه، ولم يَسأَل أكثرَ مما أُعْطِي، فلا زَهْو ولا إلحاح ولا تَطَاوُل. بل كان عليه السلام في منتهى الطاعة ومنتهى الثبات ومنتهى الأدب. قال ابن كثير: «وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جَنة المأْوَى وما فوقَها وَلَوْ رأى غَيرُه ما قَدْ رآهُ لَتَاهَا»

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنَ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، تنويهٌ بما أَطْلَعَ اللَّهُ عليه خاتمَ الرسل عليه الصلاة والسلام، من آثار قدرته الباهرة، ودلائل سطوته القاهرة، في العالم العُلْوي الفسيح، وذلك عِلاوةً على ما أوحاه إليه في كتابه المبين، مِن الدلائل القاطعة، والحجج الساطعة. وحكمتُه سبحانه في ذلك كلِّه أن يُزَوِّد رسولَه بأكبر زاد من المعرفة واليقين، وأن يُعِدَّه لحمل رسالته على أكمل وجه إلى العالَمين.

وانتهى هذا الربعُ بتسفيه معتقدات المشركين ومقدَّساتهم من الأصنام والأوثان: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾، وبيَّن كتابُ الله أنهم لا يعتمدون في معتقداتهم الباطلة إلاّ على مجرد الظنون والأهواء والأماني، وكل

منها لا يصلح أساساً للاعتقاد، ولا سَنَداً للسلوك: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ
اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَٰٓئِكَةَ
تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا
يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ
الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾
الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ
فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾
أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ
الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَيٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ
إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾
وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾
وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ
رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ
أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا
مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا
سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾
وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا
تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديثنا هذا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم. ابتداء من قوله تعالى في سورة «النجم» المكية: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا اِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَّاذَنَ اَللَّهُ لِمَن يَّشَآءُ وَيَرْضَىٰ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة «القَمَر» المكية أيضاً: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾.

كانت آخر آية في نهاية الربع الماضي هي قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ اِلْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾، وأول آية تليها في ربع اليوم هي قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾، والآيتان مرتبطتان كل الارتباط، فكتاب الله يريد أن يؤكد للجميع، وخصوصاً لمن أشركوا بالله غيرَه، فعبدوا الأصنام والأوثان والشياطين، أو الملائكة، أن جميع ما يُخَيَّلُ إليهم أنهم يتقربون بعبادته، ويتوسلون به، ويُعلِّقون عليه الآمال، من غير الله، لن ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، ذلك أن الحياة الأولى ـ وهي الدنيا ـ لا تُفلِت من قبضة الله، وأن الحياة الآخرة لا أمر فيها ولا

سلطان لغير الله، ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾، ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر: ١٦). وما دامَتْ هذه هي الحقيقة الناصعة التي لا حقيقة سواها، فكلُّ ما يُمَنِّي به المشركون أنفسَهم ومَن لَفَّ لَفَّهُم من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لا يُغني عنهم من الله شيئاً، وذلك قولُه تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾، اللهمّ إلاّ إذا أذن الله للشفيع بأن يشفع، وللمشفوع فيه بأن يناله حظّ الشفاعة، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (سبأ: ٢٣)، قال ابن كثير: «فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجُون أيُّها الجاهلون شفاعةَ هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو تعالى لم يَشْرَع عبادتَها ولا أَذِن فيها، بل قد نَهَى عنها على أَلْسِنَة جميع رُسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كُتبه» فالأمرُ إذن متعلّق بدءاً وختاماً بمشيئة الله ورضاه، وعليه لا على غيره يجب أن يكون الاعتماد، وإليه لا إلى غيره يلزم أن يكون التوجه. على أن نفس أولئك المقربين الذين تُعلّق عليهم آمال الشُّفاعة للمذنبين، لا يسمحُ لهم مقتضى ما هم عليه من الأدب مع الله، والمعرفة الكاملة بمَدَى جلاله وعظيم سلطانه، أن يتقدموا بين يديه، دُون إذْنه ورضاه، أو أن يشفعوا فيمن يعرفون أنهم أعداءُ اللّهِ، فضلاً عن أن يضمَنوا للمستشفِعين بهم مُسْبَقاً الغفرانَ والرِّضوان، ودخول الجِنان.

وأشارت الآيات الكريمة إلى معتقَد باطل من معتقدات المشركين التي جاء لمحاربتها القرآن، ألا وهو اعتقادهم أن الملائكة إناثٌ وبنات، بناء على مجرَّد الظنون والأوهام، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً ﴾.

ثم تَوَجَّه الخطابُ الإلّهي إلى الرسول عليه السلام، طالباً منه الإعراض عن المشركين الذين أُصروا على معتقدات الشرك، مع علمهم بأنها ضلال في ضلال وخَبال في خبال، ما داموا قد اختاروا لأنفسهم الاستمتاع البهيمي المطلق، بملذات الحياة وشهواتها، وفَضَّلوا عدم التقيد بأي قيد من قيود الدين والأخلاق، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ اِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَـمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اِهْتَدَىٰ ﴾.

وعادَ كتابُ الله مرةً أخرى للحديث عن الجزاء العادل الذي يناله المحسنون والمسيئون، مُبيِّناً أن كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، بما فيهم الشفعاء والمقرَّبون الذين تُعلَّقُ عليهم الآمال، من طَرَف المقصِّرين المهمِلين لصالح الأعمال، إنما هو مِلْك لله وفي قبضته، وتحت قهره ومشيئته، وإذن فلا مفر للمُسيئين من انتظار العقاب، ولا سبيل لحِرمان المحسنين من انتظار الثواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَافِي اِلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلَارْضِ لِيَجْزِىَ اَلذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ اَلذِينَ أَحْسَنُواْ

بِالْحُسْنَى﴾، فَتَفَرُّدُ الحق سبحانه وتعالى بمُلكه وحُكمه هو الضمانة الوحيدة للجزاء العادل، الذي ينتظره الخلق جميعاً يوم القيامة، على يَدِ أحكَم الحاكمين.

ومن هذا الموضوع انتقلت الآيات الكريمة إلى وصف «المحسنين» الذين تنتظرهم «الحُسْنَى» عند الله، فأوضح كتابُ الله أن شأن المحسنين أن يجتنبوا كبائر الإثم، وأن يجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يتوبُوا إلى الله توبة نصوحاً، بمجرد ما يقع منهم أدنى تقصير أو تفريط، «فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدمَ» كما قال عليه السلام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

وعَقَّبَ كتابُ الله على ما وصَف به المحسنين من عباده، بما يفيد أن الإنسان العادي قدخلق ضعيفاً عن مقاومة شهواته ونَزَواته في كل الأوقات، وأنه بحكم ضعفه البشري قد يتعرض لِارتكاب بعض الذنوب في بعض الفترات، ودواء ذلك هو المبادرة بالإقلاع عن الذنب، وعدم الإصرار عليه، والتوبة منه توبة نصوحاً، وفي هذا السبيل أعفَى الحقُّ سبحانه وتعالى عبادَه من ادِّعاءِ ما ليس فيهم، وأعلن أنه لا يرضَى منهم بتزكية أنفسهم وتقديسها، ومدحِها أمامَ الغير بسلوك نهج الاستقامة والتقوى على الدوام، فالجَواد يَكْبُو، والسيفُ يَنْبُو، كما يقول المثل العربي الشهير، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟

أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾.

وانتقل كتابُ الله إلى وصف نموذج من الناس تفيض فيهم عاطفة البر والإحسان، فيبادرون في بعض الأَحْيَان إلى إسداء الخير لمستحِقّيه، وبذلِ المعروف لأهله، ثم تجِفُّ في قلوبهم هذه العاطفة النبيلة، فينقلبون إلى بُخَلاء أشحَّاء، مُوَسْوَسِين بالتفكير في «اليوم الأسود» الذي يفاجئهم بالعسر بعد اليسر، وبالفقر بعد الغِنى، وأبطل كتاب الله مخاوفَ هذا الصنف من الناس الذين يقبِضون أيديهم بعدما بَسَطوها بالبر والإحسان، مؤكداً لهم أن علم الغيب أمر قاصر على الله، وأنه لا مبرر لخوفهم من المستقبل المظلم، من جَرَّاء مداومتهم على عمل البر، فذلك أمر لا يتفق مع التصديق بوعد الله، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ أَفَرَآيْتَ اَلذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾.

ثم استعرضت الآياتُ الكريمة جملةً من التعليمات الإلَٰهية، والعقائد الدينية الإسلامية، التي احتوت عليها صُحفُ إبراهيم وموسى، مما يُعتَبَرُ تراثاً دينياً خالداً مشترَكاً بين جميع الأنبياء والمرسلين، وكافة المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ اَلذِى وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزِيهُ الْجَزَآءَ اَلاَوْفَىٰ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ اَلْمُنتَهَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً اَلاُولَىٰ وَثَمُوداً فَمَآ أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا

هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّيٰهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، معناه أنه لا تحمل نفسٌ حِمْل أخرى، وإنما تحمل كل نفس وزرَها وحدها، دون أن يُسمحَ للغير بالتخفيف عنها، ولا أن يُسمحَ لها بتثقيل كفة الغير.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، معناه أن الإنسان كما لا يحمِل وزر غيره، فإنه لا يُؤجَر إلاّ على عمله الخاص، ولا يشاركُ غيرَه فيما يناله الغير من أجر على العمل الذي قام به دونه. قال ابن كثير: «فأما الدعاء والصدقة فهُما مجمعٌ على وصول ثوابهما إلى الميت، ومنصوص من الشارع عليهمَا»، وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ، إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث، من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم يُنتفَعُ به» فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعي الإنسان وكَدِّه وعمله، كما جاء في الحديث: «إنَّ أطيب ما أكلَ الرجلُ من كَسْبِه، وإنَّ ولدَهُ مِن كَسْبه». والصدقةُ الجارية، كالوقف ونحوه هي من آثار عمله، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِـى الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ (يسٓ: ١٢)، والعلم الذي نشرَه في الناس، فاقتدى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دَعا إلى هُدى كان له من الأجر مثلُ أُجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً». انتهى ما أورده ابن كثير.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَيٰهُ الْجَزَآءَ الْاَوْفَىٰ ﴾، معناه أن الإنسان سيُعرَض عليه يوم القيامة كلُّ ما عمله في حياته من خير أو شر، وأنه سينال على سعيه وعمله جزاءه العادل، دون زيادة ولا نقصان، على غِرار قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اِعْمَلُواْ فَسَيَرَى اَللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَـٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ اَلْمُنتَهَىٰ ﴾، معناه أن مآل الإنسان ومصيرَه المحتوم هو الرجوع إلى الله، أَحبَّ أم كره، رضِي أم سَخِط، فلا مأوى له في نهاية المطاف إلاّ في دار النعيم أو في دار الجحيم، وفي هذا تنبيهٌ للإنسان إلى أن يُفكِّر ويُقدِّر منذ بداية رحلته في هذه الحياة، حتى يلائم سلوكَه مع نهايته المحتومة، ويُكيِّف حياتَه الفانية، بما ينسجم مع حياته الباقية.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّه هُوَ أَضْحكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيا وَأَنَّهُ خَلَقَ اَلزَّوْجَيْنِ اِلذَّكَرَ وَالانثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ اِذَا تُمْنَىٰ ﴾، إشارةٌ إلى جُملة من عجائب صنع الله في خلقه، ولا سيما ما في خلق الإنسان وتكوينه من أسرار ظاهرة وباطنة، لم يصل الإنسان نفسُه حتى الآن إلى تحديدها، واستكناه حقيقتها، رغماً عن مرور القرون الطويلة على حياته فوق سطح الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾، إشارةٌ إلى

النجم الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة، والذي تبلغُ قوة نوره خمسين ضِعْفاً من نور الشمس، وقد كان لهذا النجم من يَرْصُده ويعبُده من دون الله فبَيَّنَ الحقُّ سبحانه أن «الشِّعْرَى» ليست إلّا جزءاً بسيطاً من مخلوقاته، وأنه هو «رب الشعرى» ورب كل النجوم صغيرها وكبيرها، بل ربُّ السماوات والأرض وما بَينهما: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، والحديثُ عن «الشعرى» في هذه السورة الكريمة مناسب لاسمها الذي هو «سورة النجم» التي نفسرها، فقدْ تصدرَ مطلعَها قَسَمُ الله العظيم على صدق رسوله، إذ قال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَـٰحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، إشارةٌ إلى ما سلف من الأخبار عن الأقوام التي هلكت في سالف الزمان كما فسره أبو مالك الغِفاري، وقال قتادة ومحمد بن كعب وأبو جعفر: إنه إشارةٌ إلى رسول الله ﷺ الذي افتتحت به هذه السورة في أولها، تأكيداً لأنه عليه السلام لَيسَ بِدْعاً من الرسل، وأنه نذير من بين «النُّذُر» الذين أرسلهم الله إلى خلقه على التتابع، لهدايتهم إلى سَواء السَّبيل.

كما أشارت الآيات التالية إلى قرب الساعة بعد ظهور الرسالة المحمدية، وذلك أمر لا غرابة فيه، ما دامت الرسالة المحمدية هي آخر الرسَالات الإلّهية إلى الخلق، فلا رسالة بعدها، ولا رسول بعد الرسول الذي جاء بها، رُوي أن رسول الله ﷺ قال: «مَثلي ومَثَلُ الساعة كهاتين»، وفرق عليه

السلام بَيْنَ أُصبُعيه الوسطى والتي تلي الإبهام. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾، على غرار قوله تعالى في السورة الآتية: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهَا من دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي: لا يكشف هولها وخَطبها إلاّ الحق سبحانه وتعالى، أوْ لا يكشف عن وقت حلولها سوى الله، وكلا التفسيرين صحيح.

وسَجّلَ كتابُ الله ما يُوحِي به إعراضُ المشركين عن القرآن العظيم، من التعجب والاستغراب، فبدلاً من أن يتعظوا به عند سماعه، وتقشعِرَّ جلودهم، وتخشع قلوبهم، يضحكون منه، ويعرضون عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾.

والآن فلْنُلق نظرة على سورة «القمر» المكية أيضاً، وسنجد بدايتها مرتبطة أُوثق ارتباط بالآيات الختامية لسورة «النجم» السابقة عليها في الترتيب، ومنسجمةً معها كل الانسجام، فقد سبق لنا في نهاية سورة «النجم» قولُه تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾، وها هي سورة «القمر» تبتدىء بقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾، مما يؤكد نفس المعنى ويقويه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾، يشير إلى ظاهرة كونية تعرّض لها القمر في الماضي، وسيتعرض في المستقبل لِما هو أَخطرُ منها وأكبر، وذلك عند قيام الساعة، على غرار قولِه تعالى

في سورة (القيامة: ٧، ٨، ٩، ١٠)، ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾، وقوله تعالى في سورة (الإنشقاق: ١، ٢): ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾، والإتيانُ «بإنشقاق القمر» في سياق الحديث عن «اقتراب الساعة»، دليل واضح على ما بينهما من ارتباط وثيق، فما علينا إلاّ التصديق بآيات الله الشرعية والكونية، ولله في خلقه شؤون.

وإثباتُ القرآن «لإنشقاق القمر» دليل على أن ما أصابه سيُصيب غيرَه من بقية الكواكب، ولا سيما عند قيام الساعة، وفي ذلك رَدٌّ قوي وحجة بالغة على «الدهريّين ـ الماديين» الذين ينكرون «أن الساعة آتية»، بدعوى أن العالم لا بداية له ولا نهاية، وأنه سيظل على حاله مهما طال الزمان، وسيبقى فيه ما كان على ما كان. قال فخر الدين الرازي: «إن مُنكِر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارَها، وكذلك قولُه في كل جسم سماويّ من الكواكب، فإذا انشق بعضُها ثبت خلافُ ما يقول به، وأنَّ خراب العالم جائز»، وما قاله الرازي من جواز خراب العالم هو ما يثبته العِلم الحديث بمختلف فروعه في هذا العصر، مؤكداً أن لِلعالَم بداية ونهاية. وذلك ما سبق إلى إثباته كتابُ الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

وأخيراً استنكر كتابُ الله ما عليه المشركون من تجاهل لآيات الله التي تتعاقب أمام أنظارهم يوماً بعد يوم، دون أن

ينزجروا عن غَيِّهم، أو يتراجعوا عن ضلالهم المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ اَلاَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِى اِلنُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً اَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ اَلاَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى اَلدَّاعِ يَقُولُ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾
وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ
عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ
إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ
النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف لكريم، وبدايتُه قـوله تعـالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

لا نزال نتذكرُ أن كتاب الله ـ في نهاية الربع الماضي ـ أعاد إلى الأذهان قصة نوح وقومه حيث قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾، وفي بداية هذا الربع يتوالى الحديث عن نفس القصة، إذْ يبينُ كتابُ الله أن نوحاً عليه السلام، بعد جهود متواصلة وتضحيات متوالية، وصل إلى مرحلة قَطَع فيها كل رجاء وأمل في إصلاح حال قومه، أو إنقاذهم من الضلال الذي هم فيه، فلم يجد نوح عليه السلام بُدّاً من أن يُعلن أمام ربه عجزَه عن إصلاحهم، ويستنجدَ عليهم بقوة الله القاهر فوق عباده، وذلك قوله تعالى هنا حكايةً عن نوح: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾، وعِلْمُ الله الذي أحاط بكل شيء لم

يفاجئه يأس نوح من قومه، ولا طلبُه النصرَ عليهم من الله، فقد كان دعاءُ نوح مجردَ سبب، لأن ينالَ قومُ نوح من العذاب الأليم ما هم أهل له. وما أَسْرَعَ ما وقع انتصارُ الله لدينه ولنبيه، بتسليط طُوفانٍ عارم على قوم نوح، اشتركت فيه السماء والأرض على السواء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾. ونجّى اللّهُ نوحاً من عذاب الطوفان على ظهر سفينة كانت تكلَؤُها عنايةُ الله، وتحمِيها من كل خطر، كما قال تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾، و«الدُّسُر» مساميرُ السفينة أو أضلاعُها. ثم قال تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: تجري بأمرنا وتحت حفظنا. وقوله تعالى: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾، إما أن يكون المراد به رِعَايَةَ الله لنوح، وحَمْلَهُ ومَن آمن معه في «سفينة النجاة» إكراماً له من الله، وإنقاذاً له من كفران قومه به وبرسالته، وإمَّا أن يكون المرادُ به عذابَ الطوفان الذي سلطه الله على قوم نوح، جزاءً لهم على كفرهم وعنادهم، وسوء معاملتهم لنوح عليه السلام.

وأشار كتابُ الله إلى أن الحكمة في عرض مثل هذه القصة على المشركين والكافرين هي تذكيرُهم بما وقع للأقوام والأمم من قبلهم، حتى يَعودوا إلى رشدهم، ويتجنَّبوا الوقوع تحت ضَرَبات السَّوْط الإلَهي الذي يُمهِل ولا يُهْمِل، وتعريفُهم بأن عاقبة الصلاح واحدة، وعاقبة الفساد واحدة، إذْ «ما جرى على المِثْل يَجري على المُماثِل». وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ

ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١١).

ثم أورد كتابُ الله قصة عاد مع هود عليه السلام وما حل بهم من العقاب الإلّهي الشديد، وقد كانت مَنازلهم في جنوب جزيرة العرب، إذْ سلط الله عليهم ريحاً عنيفة في منتهى البرودة، فأخذت تقتلعهم من الأرض حتى تُغَيِّبَهم عن الأبصار، ثم تنكُسُهم وتُلقِي بهم على رءوسهم، فيسقطون صَرْعى وهم جثث هامدة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾.

واتجه الخطابُ الإلّهي إلى كل من يسمع القرآن ويُتلَى عليه من الناس، مذكِّراً أربعَ مرات في هذا الربع، بأن هذا الذكر الحكيم الذي أكرم الله به البشر قد جعله الله مُيسَّراً للفهم، ميسَّراً للحفظ، ميسَّراً للتلاوة، بحيث يكفِي أن يُنصِت إليه الإنسان، وأن يَفتح له عقله وقلبه، ليُدرك أثَره في نفسه ومشاعره، وفي حياته كلِّها دون إبطاء، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، ومعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، فيما نقله الإمام البخاري تعليقاً عن مَطَر الوَرَّاق: «هل من طالِب علمٍ، فيعانَ عليه؟».

وأشارت الآيةُ الكريمة في هذا السياق إلى قصة ثمود مع

صالح عليه السلام، وقد كانت منازلهم في شمال جزيرة العرب، وما واجهوه به من السَّفَه والتحدي والعناد، وعدم الطاعة والانقياد، وما ابتلاهم الله به من أمر «الناقة» التي قَاسَمَتْهم الماء: يومٌ لها ويومٌ لهم، فضاقوا بها ذَرْعاً ولم ينقادوا لأمر الله، ولم يصبروا على ابتلائه، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ. أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ فَنَادَوْاْ صَٰحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَنَادَوْاْ صَٰحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾، إشارةٌ إلى عاقر الناقة الذي كان أشقَى واحدٍ في قومه، وإليه يشير قوله تعالى في سورة (الشمس: ١٢): ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَيٰهَا ﴾، وهو أحد الرهط المفسدين الذين يشير إليهم قوله تعالى في سورة (النمل: ٤٨): ﴿ وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾، أي: أنهم بادوا عن آخرهم ولم يبق منهم باقية، كما يقع للزرع والنبات عندما يَيْبَسُ ويحترق وتذروه الرياح.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى التذكير مرة أُخرى بقصة لوط، حيث سلَّطَ اللَّهُ عليهم ريحاً تحمل حجارة من طين، فاقتلعت

قراهم، وقضت عليهم القضاء المبرم، جَزاءَ تمردهم على الله، وانحرافهم عن الفِطْرة التي فطر الله الناس عليها، بممارسة الشذوذ الجنسي البغيض، حتى وصل بهمُ الأمر إلى مراودة ضيوف لوط عليه السلام، ومحاولة الاعتداء عليهم أنفسهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾. ثم تعرض كتابُ الله لقصة فرعون وقومه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ، كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

ووجَّه كتابُ الله بعدَ ذلك كله إلى المشركين عدةَ أسئلة كلها تقريع واستنكار: هل يعتبرون أنفسهم خير مِن كل مَن سبقهم من الأقوامِ والأُمم، التي عاقبها الله أَشد العقاب على كُفرها وعنادها؟.

هل إن عند المشركين صَكّاً إلَهياً مسجَّلاً في الكتب المنزلة من عند الله يعطيهم حَصانة دائمة، وبَراءة قاطعة من كل عقاب وعذاب؟.

هل يعتقدون أن لهم من القوة والمَنَعة ما يتقون به الخذلان والهزيمة، وما يقف في وجه القوة الإلَهية التي لا تُغلَب ولا تُغالَب؟.

وإلى ذلك كله يشير قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾. وردَّ الحقُّ سبحانه على المشركين ردّاً مفحماً فقال: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

وتحدث كتاب الله عن مصير المجرمين الذين أصروا على الشرك والكفر، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

وأكَّد كتابُ الله مرة أُخرى ما للحق سبحانه من حِكَم بالغة في خلقه، ومن أسرار باهرة في صُنعه، وما لقدرته من سرعة الإبداع والإنجاز، والتنفيذ والقضاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾.

وعَقَّبَ كتابُ الله على ما سبق من قِصَص الرسل مع أقوامهم، وما عاقب به مُكذِّبيهم، فقال تعالى مخاطباً لمشركي قريش، الذين هم ورثة أولئك المكذبين: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾.

وخُتِمَ هذا الربع من كتاب الله بما أعده الله للمتقين من عباده، فقال تعالى منوِّهاً بهم، ومُمتنّاً عليهم بمغفرته ورضوانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤
ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨
وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ
وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١
وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ
مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨
مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ
مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا
مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ
مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ
إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾
ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ

عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الرحمّان» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ إلى قوله تعالى في ختام نفس السورة: ﴿ تَبَـٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَـٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾.

تتضمن هذه السورة الكريمة امتنان الله على خلقه، بإنزال القرآن عليهم وتعليمه لهم، وامتنانَه سبحانه بخلق الإنسان، وما منحه من المنطق والبيان، ثم تستعرض السورة آياتِ الله الناطقة، ونِعَمه السابغة، التي بثها في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، من شمس وقمر، ونجم وشجر، وسماء وأرض، وما خلقه من جِن وإنس، ومشرِق ومغرِب، وماء أُجَاج وماء عَذْب، وتُعَقِّبُ السورة على ذلك كله بمشهد الفَناء المطلق لجميع الخلائق، ومشهد البقاء المطلق لوجود الخالق.

فقولُه تعالى: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾، امتنانٌ من الله على عباده بنزوله، وتيسير حفظه وفهمه، وهدايتهم باتِّباع تعاليمه،

وإسعادِهم بتطبيق شرائعه، وتهذيبهم بالتخلق بأخلاقه.

وقولُه سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، امتنانٌ على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وتزويدِه بالنطق والفهم والإدراك السليم، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَـٰرَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ (النمل: ٧٨).

وقولُه تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، إشارةٌ إلى تسخير الله لهما بالخصوص لخير الإنسان. نعم، إنَّ هنالك من النجوم ما هو أكبر وأعظم، ولكن ليست له علاقة مباشرة بحياة الإنسان، ولا تأثير مباشر على سطح الأرض «كالشِّعْرَى» و«السماك الرامح» و«سهيل» وإن كان نورها أقوى من نور الشمس أضعافاً مضاعفة، أما «الشمس» فهي أهمّ شيء بالنسبة للإنسان ولحياته، إذْ لولا ضوءُ الشمس وحرارتها وجاذبيتها لَمَا أمكن للإنسان أن يعيش على سطح الأرض، فضلاً عن النبات والحيوان، اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان، وكذلك الشأن في «القمر» فرغماً عن كونه تابعاً صغيراً للأرض يُعتبرُ ذا أثر قويٍّ في حياتها، وحياة الإنسان المستقر فوقها، وقد ربَط اللَّهُ بالقمر حركة المَدِّ والجَزْر في البحار، وهذه الحركة الدائمة هي التي عليها في فن المِلاَحَة المَدار.

وقولُه تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، إشارةٌ إلى خضوع جميع الكائنات لمكوِّنها ومبدِعها، وإلى سلطة الله

المبسوطة على جميع خلقه، فالكل مرهون بربوبيته، بحيث لا يتخلف عن مشيئته أيُّ مخلوق، جَلّ شأنه أو صغُر، في الأرض أو في السماء، والكل ينشأ وَينمو ويفنَى طِبقاً للسنن الثابتة، التي رسمتها للجميع قدرةُ الله وحكمتُه وعلمُه، وذلك على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي اِلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي اِلْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ اَلنَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨).

وقولُه سبحانه: ﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ اَلْمِيزَانَ ﴾، تنبيهٌ للإنسان على استجلاء عظمة الله وبالغ قدرته، من خِلال هذا الفضاء الواسع المُترامِي الأَطراف، الذي تَسبَح فيه ملايين الملايين من النجوم، على اختلاف أصنافها وأحجامها وأبعادها، دون أن يصطدمَ بعضُها ببعض، ودون أن يصيبها خَلل أو فتور، و«الميزان» الذي وضعه الله لهذا الكون هو تقديره المُحكَم الذي لا يختل، القائم على أساس التناسق والتناسب والإنسجام والتكامل.

وقولُه تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي اِلْمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ ﴾، تنبيهٌ للمومنين إلى أنهم ينبغي أن يتخلقوا بخُلُق الله، وأن يستمدوا من سُنن الله الثابتة في خلقه منهاج سلوكهم في حياتهم، بالنسبة لأنفسهم وبالنسبة لبقية الناس، وذلك أن يقيموا حياتهم على أساس من الحكمة والعدل، وحسن التقدير والتدبير، حتى لا يلحقها خلل كبير أو صغير.

وقولُه سبحانه: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْاَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾، إشارةٌ إلى ما أنعم الله به على الإنسان من تمهيد للأرض، كَيْ يسهل عليه الاستقرار فوقها، ويستطيع الانتفاع بخيراتها وثمراتها، ولو لم تكن الأرض ممهدة كالفِراش لَاستحال عيشُ الإنسان فوقها بالمرة، ويكفي أن نَتخيل منطقة بُرْكَانية أو زَلْزالية في حركة دائبة تنفُث الرُّعْبَ، واللهَب، لنُدرِكَ استحالة العيش فيها، وتعذُّرَ الحياة بين جَنَباتها، ولنُقَدِّر ماذا يكون عليه الإنسانُ من شقاء سَرْمَدِيّ وتشرُّد أبدِيّ.

وقولُه تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾، إشارةٌ إلى شروق الشمس وشروق القمر، وغروب الشمس وغروب القمر، وذلك بمناسبة ذكرهما والامْتِنان بهما في الآية السابقة: ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾، ويمكن أن يُفْهَمَ من «الْمَشرقَيْن» مَشرِق الصيف ومشرق الشتاء، ومن «المغرِبَين» مغرب الصيف ومغرب الشتاء، كما جاء في آية أخرى قولُه تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَـٰرِقِ وَالْمَغَـٰرِبِ ﴾ (المعارج: ٤٠)، إشارة إلى اختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، بالإضافة إلى ما يتضمنه الشروق والغروب في حد ذاتهما من المنافع والفوائد للإنسان وبقية الأحياء.

وقولُه سبحانه: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾، إشارةٌ إلى ما أقامته القدرة الإلَهية من حاجز حصين يفصل ماء البحر المالح عن الماء العذب المستودع في الأنهار، رغماً عن اتصالهَا بالبحَار، فلا مَاء البحر ينقلب حلواً، ولا ماء

النهر ينقلب ملحاً، إذْ بينهما برزخ إلّهي غيرُ منظور، يَحُول دون تجاوز كلٍّ منهما لِحَدِّه المقدور.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَأَاتُ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلَمِ ﴾، إشارةٌ إلى الفُلْكِ التي تمخَرُ البحار، والتي لولا تسخيرُ الله لها لَمَا استطاعت ـ وهي فوق الماء وبين الأمواج ـ أن يقِرَّ لها أيّ قرار.

وقولُه سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾، إشارةٌ إلى تفرد الحق سبحانه بالبقاء، وإلى اختفاء أشباح الخلائق وظِلالها عندما يدُق ناقوسُ الفَناء.

وقولُه تعالى: ﴿يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنس إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنَ اَقْطارِ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنٍ ﴾، إشارةٌ إلى الحصار الإلّهي المضروب من حول خلقه، أقوياء وضعفاء، أغنياء وفُقراء، مرءوسين ورؤساء، فلا سبيل لهم إلى الإفلات من قبضة الله، ولا مَفرَّ من الوُقوع بين يديه، والانتهاء في نهاية المَطاف إليه. وإذا أصبح في إمكان الإنسان أن يجول بين بعض ﴿ اَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾، وَداخلَها فإنّ ذلك لا ينفي أنه عاجز كل العجز عن أن يتجاوزها ويفارقها ويخرج منها بالمرة، وذلك هو «النفاذ منها».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن قيام الساعة، وما يبرُز فيها من ظواهر كونية خارقة للعادة: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾، وإلى الحديث عن مصير المُجرمين من

خصوم الرسالات الإلٓهية، وما يَلقَوْنه من العذاب الأليم: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤخَذُ بِالنَّوَاصِى وَالأَقْدَامِ ﴾، وعن مصير المتقين، الصادقين الراشدين، وما ينالونه من النعيم المقيم، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾، ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَٰنِ إِلَّا الإِحْسَٰنُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَآلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، الذي تكرر في سياق هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، معناه كما قاله مجاهد وغيره: «بِأَيِّ النعم يا معشر الثَّقَلَيْن من الإنس والجن تكذبان»، أن النعم ظاهرةٌ عليكم، وأنتم مغمورون بها، فكيف تستطيعون إنكارَها وجحودَها.

وخُتِمت سورةُ «الرحمان» بتمجيد اسم الله وتقديس جلاله وعظَمته، فهو سبحانه أهلٌ لأن يُشكَر ويُذْكَر، فلا يُنسَى ولا يُكفَر، وذلك قولُه تعالى في ختام هذه السورة الكريمة، «وختامُها مسك»: ﴿ تَبَٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَٰلِ وَالإِكْرَامِ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ اِ۬لْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ اِ۬لَارْضُ رَجّاً ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ اِ۬لْجِبَالُ بَسّاً ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثّاً ﴿٦﴾
وَكُنتُمُۥٓ أَزْوَاجاً ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ اُ۬لْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ اُ۬لْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ اُ۬لْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ اُ۬لْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّٰبِقُونَ اَ۬لسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ اَ۬لْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِے جَنَّٰتِ اِ۬لنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ اَ۬لَاوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ
مِّنَ اَ۬لَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَيٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن
مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ اِ۬للُّؤْلُوِ اِ۬لْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَاثِيماً ﴿٢٥﴾ اِلَّا قِيلاً
سَلَٰماً سَلَٰماً ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ اُ۬لْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ اُ۬لْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِے سِدْرٍ

مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ
مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾
عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾
وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾
فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ
شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ

عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم
مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ
نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ
أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ
أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً
وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُـه فاتحةُ سورة «الواقعة» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾، ونهايتُه قولـه تعالى في نفس السـورة: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَـا تَذْكِـرَةً وَمَتَـٰعاً لِّلْمُقْوِينَ، فَسَبِّـحْ بِـاسْمِ رَبِّـكَ الْعَظِيمِ ﴾.

موضوعُ سُورة «الواقعة» المكية التي نفتتح بها هذا الرُّبُع هو وَصْفُ يوم القيامة، ذلك اليوم الذي تُحيطه هَالَـة من الرَّهبـة والجلال، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْـلٍ حَمْلَهَا وَتَـرَى النَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَـا هُم بِسُكَـٰرَىٰ ﴾ (الحج: ٢)، ثم عَرْضُ قضيةِ «النشأة الآخرة» على وجه يُبطل شُبَه المشركين والمكذِّبين. وبذلك يطابقُ موضوعُ السورة نفسَ الإسم الذي سُمِّيت به، إذْ لفظ «الواقعة» هنا مرادف في معنـاه ليوم القيَامة، وإنما سمي يَومُ القيامة «بالواقعة» لتحقُّق وقوعه، رغماً عن جدَل المجادلين، وشكِّ الشاكين، وذلك معنى قوله تعالى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾، قال قتادة: «أي ليس فيها ارتداد ولا رجعة، فلا صارف يَصرفها، ولا دافع يدفَعُها»، وهذه الآيةُ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٧)، قال ابن جرير: «الكاذبة» هنا مصدر، كالعاقبة والعافية.

وقولُه تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾، معناه أنها تَخفِض أقواماً وترفَع آخرين، قال محمد بن كعب: «تَخفِض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفِعين، وترفَع رجالاً كانوا في الدنيا مَخفُوضِين». وقال السّدّي: «خَفَضتِ المتكبِّرين، ورفعت المتواضعين»، وذلك لأن القِيَم المتعارَف عليها بين الناس كثيراً ما يكون ميزانها مُختَلاً، فلا يستقيم ميزانُ القِيَم على الوجه الصحيح إلاَّ بَيْنَ يَدَي الله.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾، إشارةٌ إلى ما يَعتري الأرض عند قيام الساعة من الاضطرابِ والحركة والاهتزاز طولاً وعرضاً، كقولِه تعالى في آية أخرى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزلزلة: ١)، وقولِه تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١). كما أن فيه إشارةً إلى ما يعتري رواسِيَ الجبال الصلبة من نَسْف وتَفتُّت يجعل الجبالَ عبارة عن فُتاتٍ طائر في الهواء، كالهَباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، والشَّرَر الذي يقع منها فلا يبقَى له أيُّ أثر.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تحديد الأَصناف التي سيكون

عليها الناس يوم القيامة، وتصنيفهم درجاتٍ على أساس جديد، وبينتْ أنهم سينقسمون باعتبار أعمالهم والجزاء عليها فقط، لا باعتبار الغِنَى والفقر، ولا بحسب القُوة والضعف، ولا على أساس الرياسة والتَّبِعية، ولا على أساس فوارق الجنس واللون، مما تعارف عليه البشر فيما بينهم، فالناس يوم القيامة وأمام ربهم لا يخرُجون عن ثلاثة أقسام: القسم الأول هُمُ «السابقون»، والقسم الثاني هم «أصحاب المَيْمَنَة»، والقسم الثالث هم «أصحاب المَشْأَمَة»، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَـٰثَةً فَأَصْحَـٰبُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ الْمَيْمَنَـةِ وَأَصْحَـٰبُ الْمَشْئَمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّـٰبِقُونَ السَّـٰبِقُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة (فاطر: ٣٢): ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾. قال ابن عباس: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: أصنافاً ثلاثة. وقال مجاهد: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: فِرَقاً ثلاثة. وقال عثمان بن سراقة: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: اثنان في الجنة وواحد في النار.

و «السّابقون» إنما أُطلق عليهم هذا الوصف، لأنهم سابقون بين يدي الله عزّ وجلّ: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ ﴾، فَهُم أَخصُّ وَأَحْظَى وأقرب من «أصحاب اليمين» الذين يَلُونهم في المنزلة، وعلى رأس السابقين الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ثم الصِّدِّيقون والشهداء والصالحون، وألحقَ ابنُ كثير بالقسم الأول، وهم «السابقون» جميعَ الذين

بادَرُوا إلى فعل الخيرات، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحديد: ٢١)، فمن سَابَقَ في هذه الدنيا وسَبَق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاءَ من جنس العمل، وكما تَدِين تُدان.

وستأتي الإشارة إلى هذه الأقسام الثلاثة مرة أخرى في آخر هذه السورة الكريمة، تأكيداً لما ورد في أولها، مما يدل على الأهمية الخاصة التي يُوليها كتابُ الله لهذا التقسيم الشامل والعادل.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، إخبارٌ من الله تعالى عن هؤلاء السابقين المقرَّبين، وأنهم بالنسبة إلى غيرهم كثرةٌ في الأولين، وقلة فِي الآخِرين اختارهُم الله، وآتاهم من الرعاية والعناية، ما أعانهم على أن يخترقوا الصفوف، ويكُونُوا في طليعة الطليعة إخلاصاً وصلاحاً، وعزماً وصبراً وطاعةً وتَقوَى.

والمراد في هذه الآية «بالأولين» الأممُ الماضية، «وبالآخِرين» الأمةُ الإسلامية، فيما رُوِي عن مجاهد والحسن البصري، وهذا التفسير اختاره ابن جرير. ورجَّح ابن كثير أن المراد «بالأولين» صَدْرُ هذه الأمة الإسلامية، و«بالآخِرين» الذين يَلُونهم من بعدهم إلى يوم الدين، ونَسَبَ إلى ابن سيرين القولَ

بأن الجميع من هذه الأمة. ثم عقَّبَ ابنُ كثير على ذلك بقوله: «ويحتمل أن تعُمَّ الآيةُ جميع الأُمم، كل أُمة بحَسَبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ القرون قرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث.

ووصَفَ كتابُ الله مآل «السابقين» المقرَّبين، وما ادُّخرَ لهم الحقُّ سبحانه من مختلِف العطايا، وميَّزهم به من المزايا في جنات النعيم، وعقَّب على ذلك بما يفيد أن الله تعالى قد صَدَقهم وعدَه: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، وأنهم أثناء إقامتهم في دار الخلد، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَٰماً سَلَٰماً ﴾.

ثم انتقل كتاب الله إلى وصف مآل «أصحاب المَيْمَنة» الذين يَلُون السابقين المقرَّبين في المنزلة، فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ الْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي: جماعةٌ كثيرة من الأولين، وجماعةٌ كثيرة من الآخرين، مِمَّا يُفيد أن عدد «أصحاب اليَمين» أكثر من عدد «السابقين» المقرَّبين.

ومن «أصحاب اليمين» ينتقل كتاب الله إلى وصف ما ينتظر «أصحاب المَشْأَمَة» من عذاب أليم، وسَمُوم وحَميم، فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ الشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ

وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾.

ويُذَكِّرُ كتابُ الله في نفس السياق بما كان عليه «أصحابُ الشِّمال» في حياتهم من الغفلة والتَّرَف، وما كانوا يمارسونه من الكَذِب والزور، وما كانوا يُنكِرونه من البَعث والنشور، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، ثم يُبادر كتابُ الله بالرد على دعواهم الباطلة قائلاً: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

ويعودُ كتابُ الله إلى مُخاطبة «أصحاب المشأمة» وهم يتلقّون عذاب الله في جهنم، فيواجهُهم قائلاً: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾، ويُعقِّب كتابُ الله على ذلك كلّه بقوله: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ إشارةً إلى أن هذا النوع من المآكل والمشارب هو ضيافتُهم المفضلة يوم حسابهم، تدشيناً لعذابهم، وإنهُ لَعذاب دائم لا راحة بعده أبداً.

وعادتِ الآياتُ الكريمة إلى عَرْض جملة من آيات الله الكونية البارزة في خلقه، ووَصْفِ طائفةٍ من نِعَمه السابغة، التي يتقلبُ فيها الإنسان ليلَ نهارَ صباحَ مساءَ دون أن يحسُب لها حِساباً:

ـ فهذه آية «الحياة» والنشأة الأولى التي أكرم الله بها الإنسان: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾.

ـ وهذه آية «الموت» في انتظار النشأة الآخرة، التي يُجازى فيها الإحسان بالإحسان: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

ـ وهذه آية «الزرع» الذي منه يقتات الإنسان: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾، حتى إذا ما وقع ذلك، وأصبح الزرع حُطاماً يئستم وحِرْتم وقال بعضكم لبعض: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾.

ـ وهذه آية «الماء» الذي يُروَى به الإنسانُ والنباتُ والحيوان: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾.

ـ وهذه آية «النار» التي لولا أن الله أنعم بها على الإنسان لَما استطاع أن يتقدم خطوة واحدة في مَيدان الحضارة والصناعة والعُمران: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾.

وعقَّبَ كتابُ الله على آية «النار» التي ننتفع بها في هذه الدنيا بما يشير إلى نَارِ الله المُوقَدة، التي تَطَّلِع على الأفئدة، في

الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً ﴾، أي: تُذَكِّرُكم بالنار الكُبْرى، كما قال مجاهد وقتادة. رَوَى البخاري من حديث مالك، ومُسلمٌ من حديث أبي الزِّناد أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدمَ التي يُوقِدُون جُزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالُوا يا رسول الله: إنْ كَانَتْ لَكافية. فقال: «إنها قد فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأشارَ كتابُ الله إلى ما في النار من منافع وفوائد لجميع البشر، فقال تعالى: ﴿ وَمَتَـٰعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾، أي مَتَاعاً للمستَمْتِعين، من الناس أجمعين. قال ابن كثير: «وهذا التفسير أعمُّ من غيره، فإنّ الحاضر والباديَ من غَنيٍّ وفقير، الجميع مُحتاجونَ إلى النّار للطَّبخ والاصْطِلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع».

وانتهت الآياتُ الكريمة في هذا السياق بتمجيد الله وتقديس اسمه الأعظم، بعد أن استعرضت آثار قدرته في الأكوان، وما تفضل به سبحانه وتعالى على الإنسان، من نِعَم سابغة تُقَوِّي في القلب روح الإيمان، وتستوجب الطاعة والإذعان، وتستحق مُضاعفةَ الشكر والامتنان. وذلك قولُه تعالى في ختام هذا الربع من كتاب الله الكريم: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ

السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَےْءٍ قَدِيرٌ ۝٢
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّٰهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَےْءٍ عَلِيمٌ ۝٣
هُوَ الَّذِے خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِے سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى
الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِے الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمُۥ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤
لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ الَّيْلَ
فِے النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِے الَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦
ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُومِنُونَ بِاللَّهِ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمُۥ إِن كُنتُم
مُّومِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِے يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩
وَمَا لَكُمُۥ أَلَّا تُنفِقُوا فِے سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِے مِنكُم مَّنَ اَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ
اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَن ذَا الَّذِے يُقْرِضُ

اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن
قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ
فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ
جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ
وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الواقعة» المكية: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، إلى قوله عزّ وجلّ في سورة «الحديد» المدنية: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

أول ما يُفتتَح به هذا الربع قَسَمٌ من الله تعالى: ﴿ بمَوَاقع النجوم» على أن القرآن الكريم إنما هو تنزيل من عند الله، نَزَّله على رسوله الصادق الأمين وليس كما يزعمُ المشركون ومَن لَفَّ لَفَّهم، شِعْراً أو سِحْراً أو كِهَانة، أو مِن أَساطير الأولين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

والمراد «بمواقع النجوم» مَنازلُها ومَطالُعها ومَشارِقُها، وقد كان أَغلبُ الذين عَاصَروا هذا الخطاب الإلّهي عنـد نزولـه لا

يَعرِفون عن النجوم ومواقِعِها الشيءَ الكثير، وتَبَعاً لذلك لا يستطيعون أن يُقدِّرُواْ قَسَم الله بها كاملَ التقدير، إذْ لم تكن لديهم مَراصد عظيمة، ولا آلاتٌ دقيقة لرَصْدِ النجوم وتتبع حركاتها في الأجواء البعيدة، ولكنَّ خطاب الله موجّه إلى كل عصر وجيل، والعصر الذي نعيش فيه أصبح يعرف عن النجوم ومواقعها ما يجعل الإنسان مبهوتاً حائراً أمام قدرة الله وحكمته، ويستطيع أن يُقدِّر تقديراً أوْفَى قَسَم الله العظيمَ، الذي أُقسمه «بمواقع النجوم»، ومن ذلك أن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تُحْصَى وهي «مجموعة المجرّة» التي تنتمي إليها الشمس تبلغ ألف مليون من النجوم، وهذه النجوم منها ما يمكن أن تراه العين المجرَّدة، ومنها ما لا تراه العين إلّا بالأجهزة الفَلَكِية والمَجاهر، ومنها ما لا تراه العين ولو عن طريق الأجهزة الفلَكية، وإنما تُحِسُّ به الأجهزة وحدَها دون أن تراه، وما من نجم نجم إلّا وهو مُنَسَّقٌ بقدرة الله ـ في آثاره وتأثيراته ـ مع بقية النجوم والكواكب، فلا اصطدامَ في الفضاء الواسع بين نجم وآخر، ولا تَطاوُلَ من أيِّ نجمٍ على المَجَال المغناطيسي الخاص بغيره من النجوم، بل الكُلُّ يَسير طِبقاً لتدبير الله وتقديره نحو هَدَفه المرسوم، إلى ميقات يوم معلوم، فمَن عرف أسرار الأفلاك وعجائبَ النجوم أدرك إلى أيِّ حَدٍّ كان قَسَم الله عظيماً «بمواقع النجوم»، وأن ذلك القَسَم يُعَدُّ أكبرَ تزكيةٍ لخاتم الأنبياء والمرسلين، وأصدقَ شاهد على صحة الوحي المُبين، وهكذا كلَّما مرت الأيام، وتقدمت معارف البشر، ازداد بُرهان القرآن وضوحاً، وازداد نورُه توهجاً، وازدادت عقيدة الإيمان نصراً وفَلَجاً.

وقوله تعالى: ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، نفيٌ قاطع لمزاعم المشركين والكافرين الذي ادَّعَوا أنه قد تنزلت به الشياطين، إذ لا يَتصورُ عاقل أن كتاب الله المَصُون في علمه، والمحفوظ بحفظه، يُمكن أن تسطوَ عليه الشياطين من قريب أو بعيد، وهي على ما هي عليه من الرِّجْس والخَبَث والشرّ والطرد من رحمة الله، وإنما تتنزَّلُ بكلام الله على رسله الملائكةُ الأبرار الأطهار، فهذه إحدى المَهامّ السامية الموكولة إليهم، والمقصورةِ عليهم، ولذلك جاء التعقيب المباشِر بقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وَإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٠، ٢١١، ٢١٢).

ثم وجَّه كتابُ الله الخطابَ إلى المشركين المكذِّبين بالنشأة الآخرة والبعث والنشور، يستغربُ تكذيبَهم لما يَقُصُّه عليهم الحق سبحانه في كتابه المبين، ويستغربُ جحودَهم لنِعَم الله الظاهرة والباطنة، دون أيِّ اعتراف بمنته عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾، أي: مكذِّبون غير مُصدِّقين، ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾، أي: بَدلاً من أن تشكروا الله، تكذِّبون كلامَ الله.

وتساءلَ كتابُ الله عمّا ذَا سيفعلون عندما تبلغُ الروح حُلوقَهم حين الاِحتضار، وهم في منتهى العجز والحَيْرة والجَزَع والاضطراب والذهول، ينظرون ذلك المشهد الرهيب، دون أن

يستطيعوا لشبح الموت ولا لسَكَراتِها رَدّاً، وملائكة الرحمان حاضرةٌ لذلك المشهد قريبةٌ منه، لكنها لا تقع عليها أنظار البشر المحدودة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾.

ويُواصِلُ كِتابُ الله تقريع المشركين وإحراجَهم بالسؤال، عندما يستفسرهم هل أنتم قادرون على إرجاع الروح إلى مَقرِّها الأول، بعد أن بلغت الحُلْقوم وهي في طريقها إلى مفارقة الجسد بالمَرَّة؟. هل في إمكانكم أن تحجزوا الروح في مكانها فلا تَدَعُوها متُفلِتُ من صاحبها، وتَحُولُوا بينها وبين ما هي ذاهبة إليه بأمر الله، من حساب وجَزَاء عند الله؟. هذا وأنتمْ حولَها مَبهُوتُون مقهُورون، وعن رَدِّها عاجزون، وذلك قولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، ومعنى «غيرَ مَدِينين» أي غيرَ محاسَبين كما قال ابن عباس، من «الدِّين» بمعنى الجَزاء:

وعادتِ الآياتُ الكريمة إلى الحديث عن الأَصناف الثلاثة الذين ينقسم إليهم البشر يوم القيامة، دون أيِّ اعتبار خاصّ في التقسيم والتصنيف، ما عدا اعتبارَ العملِ الذي قاموا به في الدنيا، والجزاءِ الذي استحقوه في الآخرة. وذلك قوله تعالى عن «السابقين» المقرَّبين: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّـٰتُ نَعِيمٍ ﴾، وقولُه تعالى عن «أصحاب المَيْمَنَة»: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾، وقولُه تعالى عن «أصحاب المشأمة»: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ

اَلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾.

وخُتمت سورة «الواقعة» المكية بما يؤكد أنَّ ما جاء به كتابُ الله من حقيقة البعث والنشور والنشأة الآخرة هو عَين الحق ومنتهَى اليقين، وأنَّ ما خالفه من المعتقدات الباطلة هو الضلال المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلْعَظِيمِ ﴾.

والآن فلننتقلْ لِسورة «الحَدِيد» المدنية، مستعينين بالله، سائلين منه الهداية والتوفيق، وقد أُطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى في آيتها الخامسة والعشرين: ﴿ وَأَنزَلْنَا اَلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾.

وأولُ ما نلاحظه في هذه السورة الكريمة أنها بدأت بتنزيه الله وتقديسه، والتوجه إليه بالتسبيح والتعظيم، على غرار ما جاء في خاتمة سورة «الواقعة» السابقة، ففاتحة سورة «الحديد» في غاية التناسب والتناسق مع تلك الخاتمة، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

والفَرْق الوحيد بين خاتمة سورة «الواقعة» المكية وفاتحة سورة «الحديد» المدنية أنَّ تلك الخاتمة تتضمن أمراً للرسول عليه الصلاة والسلام ـ ولجميع المومنين عن طريقه ـ بتسبيح الله وتعظيمه، وهذه الفاتحة تتضمن الإخبار بأن جميع المخلوقات في الأرض والسماوات تَدِين لله بالطاعة، وتعترف له بالعبودية، وتلتزم

السير بموجب السُّنن التي سَنَّها لتسيير الكون، لا تتخلَّفُ عن أمره، ولا تتصرَّف على غير مُراده، وذلك بالنسبة إليها هو منتهى «التسبيح» والتنزيه.

وقولُه تعالى في نفس السيَاق: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، إشارةٌ إلى الصفة التي جعلت الحق سبحانه هو وحده المستحِق لأن يكون منزَّهاً معظَّماً مُطَاعاً من كافة خلقه، فهو سبحانه الذي خضع كلُّ شيء لعِزَّته، وهو الذي تَجَلَّى في تقديره وتدبيره وتشريعه بالغُ علمِه وحكمَتِه.

واستعرضت الآيات الكريمة بعد ذلك جملة من أسماء الله وصفاته، ومظاهر قدرته، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليُعيدَ المشركون النظرَ فيما هم عليه من جحود وعِناد، وذلك قولُه تعالى: ﴿ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. ونقلَ البُخاري في صحيحه تفسير معنى «الظاهر والباطن» عن يحيى حيث قال: «الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً»، والمراد بيحيى هنا يحيى بن زياد الفَرّاء صاحب كتاب «معاني القرآن». وقال ابن كثير: «قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنتُمْ ﴾، أي: رقيبٌ عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم، من برّ أو بَحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القِفار، الجميع في عِلمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم

وجهركم كما قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ (الرعد: ١٠)».

ثم وجَّهَ كتابُ الله خطابه إلى المومنين، داعياً إياهم إلى البذل في سبيل الله، والإنفاق مما رزقهم الله، مذكِّراً لهم بأن الرزق رزقُه، والمالَ مالُه، وإنما هو وَديعة بين أيديهم استخلفهم فيها، ليُبَلِّغوها إلى أهلها، وليَصرفُوها في الوجوه المشروعة لصرفها، وذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، وقولُه تعالى أيضاً: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

وتحدث كتابُ الله عن الحالة التي يكون عليها المومنون في دار النعيم، وما أكرمهم الله به من نور يسعى بين أيديهم، وبأيمانهم، كما وصف كتاب الله الحالة التي يكون عليها المنافقون والكافرون في دار الجحيم، حيث يلتمسون النور دون جَدْوَى، فلا يجدون بين أيديهم ولا من حولهم إلاّ ظُلُمات، بعضُها فوق بعض، فقال تعالى في وصف المومنين السعداء: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وقال تعالى في وصف المنافقين والكافرين الأشقياء: ﴿ يَوْمَ

يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾.

وبيّنَ كتابُ الله ما يصيب المنافقين من خَيْبة وحسرة، وما يحاولونه من التطفل على المومنين السعداء والسير في ركابهم، وما يسمعونه من تقريع وتوبيخ، جزاءً وِفاقاً: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ امْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُوخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَيٰكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَيٰكُمْ وَبِيسَ الْمَصِيرُ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ
فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ
لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ
إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا
بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ
كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ
ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ
بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اِللَّهِ وَمَانَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه: ﴿ وَأَنَّ اَلْفَضْلَ بِيَدِ اِللَّهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ اِلْعَظِيمِ ﴾.

يتحدثُ كتاب الله في مطلَع هذا الربع عن المومنين الذين أكرمهم الله بما أُنزَل عليهم من الذكر الحكيم، وبما هداهم إليه من الحق المبين، ومع ذلك لا يزالون متقاعسين عن الاستجابة لنداءاته، بعيدين عن التجاوب معه، مُخِلِّينَ بِتطبيقه في حياتهم اليومية، فلا قلوبُهم تخشع لذكر الله، ولا نفوسُهم تستشعر عظمة الله ولا جوارحُهم تأْتمر بأمر الله.

وفي معرض هذا العتاب الإلّهي الرقيق الرفيق يُذَكِّر كتابُ الله الغافلين عنه من المومنين، بما وقع فيه أهل الكتاب قبلَهم من الغفلة عما أُنزل إليهم، والتهاون بحقه، والإهمال لشأنه، ونسيان تعاليمه، وتحريف كَلمه عن مواضعه، ونقضِهم

الميثاق الذي وَاثَقُوا اللَّهَ به وعاهدوه عليه، منبِّهاً للمومنين من هذه الأمة المحمدية إلَى أن لا يسلكوا مسلك أهل الكتاب قبلهم، فيتخذوا القرآن «مهجوراً» لأن ذلك سَيؤدي بِهم إلى أسوأ العواقب ديناً ودُنيا، وذلك قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوٓاْ كَالذِينَ أُوتُواْ اُلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، وقد بين كتاب الله في غير ما آية، ماذا صدر من أهل الكتاب، وماذا عوقبوا به من العقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: ١٣).

ثم نبَّه كتابُ الله إلى أنه إذا وقع المومنون في غفلة عن كتاب الله المنزَل لهدايتهم، وطال عليهم الأَمَدُ وقست قلوبُهم، كما طال الأَمَدُ على أهل الكتاب قبلهم وقست قلوبُهم، فإن باب التوبة يَظَلُّ مفتوحاً في وجوه المومنين، وفي إمكانهم أن يعودوا إلى الله، ويرجِعوا إليه تائبين خاشعين، وبذلك تلين قلوبُهم لذكر الله، ويعتصمون من جديد بحَبْل الله، وتُشرِقُ عليهم شمس الإيمان بضيائها وحرارتها وجاذبيتها، ويعود كتابُ الله بين أظهرهم حَيّاً مذكوراً، بعد أن تركوه في فترة الغفلة مَهْجُوراً، وإلى هذا المعنى يُلَوِّحُ قولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ اَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اَللَّهَ يُحْيِ اِلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وإذا كانت الأرض تَحيا بفضل الله بعد موتها، فتزخَرُ بالخيرات والثمار، وتصبحُ مضرب المثل في الخصب والنَّماء والازدهار،

فإن القلوب القاسية لا تَقِلُّ عنِ الأرض الميِّتة استعداداً للخير والصلاح، وفي إمكانها أن تَلِين أيضاً بذكر الله بعد قسوتها، وأن تحيا بهدايته بعد موتها، وأن يَنْجلىَ بنوره الصَّدَأُ عن مِرآتها، وأن يعود إليها الإشراق والتألق الذي تمتاز به قلوبُ المومنين حقاً، المعتصِمين بكتاب الله، والملتزمين لرضاه.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحَضّ على الإنفاق في سبيل الله، والتنويه ببذل المال ابتغاء مرضاته، وهذا أصل أساسي من أصول الإسلام، لا تقوم بدونه أُسرة ولا أمة ولا دولة، والتنويهُ به يتكرر في غير ما آية وفي غير ما مناسبة، إذ المالُ قِوام الأعمال، ولولا أن المسلمين الأولين من سلفنا الصالح رضي الله عنهم استجابوا لله وَلِرَسوله، ولم يبخَلوا بأموالهم ولا بأنفسهم في سبيل الملة والأمة، لما ارتفع للإسلام لِواء، ولما ملأت دعوتُه الخافِقَيْن، وبلغتْ رسالتُه المشرقَيْن والمغربَيْن، وذلك ما يشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، وهو تأكيد قويّ لما سبق في الربع الماضي، عند قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، وعند قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، فقد تعهد الحقُّ سبحانه لمن أنفق في سبيله بالأجر على ما أنفق، والخَلَف عما أنفق، ووصف سبحانه في الربع الماضي نوعَ الأجر أولاً بأنه «أجر كبير» ووصفه ثانياً بأنه «أجر كريم»، وكرر وصفه في هذا الربع أيضاً بأنه «أجر

كريم». ولينفقَ المومنُ في سبيل الله عن سخاء وطواعية، ولا يبخلَ بما استخلفه الله فيه يكفيهِ أن يتذكر وعد الله له على ما أنفقه «بالأجر الكبير والكريم» الكبير مرة، والكريم مرتين. وأجرٌ يَصِفُه الغنيِ الكريم نفسه «بالكِبَر والكَرَم» أَجَلُّ من أن يُوصَف، وأكبرُ من أن يُقَدَّر، فما عليك أيها المومن إلاّ أن تُنفق في سبيل الله، وأن تقول كما قال رسول الله: «أَنفِق بلالاً، ولا تخْشَ من ذي العرش إقْلالاً»، ﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الروم: ٦٠)، ولا تكن ممن يبخلون أو يَدْعُون الناس إلى البخل، فقد ذَمَّهُمُ الحقُّ سبحانه وأعلن سُخْطه عليهم، وأنّه غَنِيٌّ عنهم وعن عَطائهم، فقال تعالى في نفس هذا الربع: ﴿ اِلذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَامُرُونَ اَلنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَّتَوَلَّ فَإِنَّ اَللَّهَ اَلْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

وبيّن كتاب الله أن في إمكان المومن في أيِّ عصر وفي أيِّ جيل أن يبلغ أعلى درجات الإيمان التي بلغها السابقون الأولون، وهي درجة «الصديقية» متى آمن بالله ورسوله إيماناً قوياً يُهيمِن على حياته، ويقوده في جميع خطواته، بحيث تصبح حركاتُه وسكناتُه انعِكَاساً حقيقيّاً لعقيدته، ومرآةً صادقة لدخيلة نفسه، وذلك ما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾.

وبعد ما بينت الآيات الكريمة فيما سبق فضل الإنفاق في سبيل الله ونوهت ببذل المال في وجوه الخير النافعة للإسلام والمسلمين، انتقلت إلى بيان ما في التضحية بالنفس، وبذل

المهج والأرواح، والشهادة في سبيل الله، من أجر عظيم، ونُور عميم، بالإضافة إلى ما يناله الإسلام على أيدي جنوده وشهدائه من الفتح المبين، والعز والتمكين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾، وقد نزلت في نفس المعنى عدة آيات قرآنية، ووردت عدة أحاديث نبوية.

ولعل تسمية هذا النَّمط الرفيع من المومنين باسم «الشهداء» جاءت من أنهم أعطوا الدليل بتضحيتهم، وبذل أرواحهم في سبيل دينهم، على صدق إيمانهم، وحماسِهم لعقيدتهم، وبذلك جاوزوا العَتَبة، وأصبحوا فوق متناوَل الشُّبُهات، كما أنهم بتضحيتهم بأنفسهم أعطوا الدليل أيضاً على أن العقيدة الإسلامية إذا خالطت بشاشتُها القلوبَ تفعلُ بمعتقديها الأعاجيب، وترفعُ نفوسَهم إلى درجة عليا من السمو والإيثار والتفاني والإخلاص، بحيث يهونُ عليهم في سبيلها كلُّ غال ورخيص، ويجودون من أجلها بالنفس والنفيس، ثم ذكرت الآياتُ الكريمة في هذا السياق ـ على وجه المقارنة ـ ما يكون عليه الكافرون والمكذِّبون يوم القيامة من العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ ﴾.

واتجهَ خطابُ الله إلى البشر عموماً، والمومنين خصوصاً، ليُعَرِّفَهم بحقيقة طالما غَفَلوا عنها وهم يرونها كل يوم، ألا وهي أن الحياة الدنيا بجميع علائقها ومتعلقاتها حياة عابرة لا ثبات لها ولا استقرار، وهي سائلة، مثل الزمن الذي تتمُّ فيه، دون أن يقر لها قرار، ومهما طالت حياة الإنسان فحياته عبارة عن «يوم

مكرّر»، وإذا أدركَ الإنسانُ رغباتِه اليوم فسيفتقر إلى نفس الرغبات التي تتجدد له غداً، بحيث يظَل طيلةَ حياته أسيراً لشهواته ورغَباته، في دوَّامَة لا تفتُر ولا تنقطع، حتى إذا أقبل عليه نذيرُ النُّقْلة إلى الدار الآخرة وجد نفسَه فارغ الوِفاض، باديَ الإنفَاض، ولم يتزود بأي زاد، وأصبحت حياتُه التي قضاها في الدنيا - بالنسبة إلى حياته المقبلة - عبارةً عن فراغ شامل، وإفلاس كامل، إذ لم يَدَّخِرْ من الدار الفانية للدار الباقية، لا قليلاً ولا كثيراً. وهذا ما يحرص كتاب الله على لَفْتِ الأنظار إليه، حتى تكون حياة الناس متوازنة متكاملة، فيها للدنيا نصيب، وفيها للآخرة نصيب. فقال تعالى: ﴿ اِعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ﴾.

فقوله تعالى هنا: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾، أي: كمَثَل مطر نزل من السماء بعد اليأس والقُنوط الناشىء عَن الجَدْب والجفاف. وقوله تعالى: ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾، أي: اعجب الزرَّاع ما أنبته الغيث، و«الكافر» هنا بمعناه اللغوي هو الزارع، وفي اختيار هذا التعبير هنا تلميح إلى شدة اهتمام الكفار وإعجابهم بالحياة الدنيا، فهم أكثرُ الناس حرصاً عليها، وميلاً إليها. وقولُه سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾، أي: بعد ما كان النبات خَضِراً نَضِراً يصبح مُصْفَرَّ اللون وقت الحَصاد. وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ﴾، أي: يصير يابساً متحطماً، وكذلك شأن الحياة على سطح الأرض في أطوارها المختلفة، وشأن الإنسان نفسه فوقها،

فالإنسان في أول عمره وعنفوان شبابه يكون غضّاً طرياً ليّن الأعطاف، بهيّ المنظر، ولا يكاد يدخل في طور الكهولة حتى تتغير طباعه، ويفقد بعض قُواه، ثم يكبُر فيصير شيخاً ضعيف القُوى قليل الحركة، يُعجزه الشيء اليسير. قال ابن كثير: «ولما كان هذا المَثَل دَالاًّ على زوال الدنيا وانقضائها، وأن الآخرة كائنة لا مَحالة، حذَّر من عذابها، ورغَّب فيما فيها من الخير»، فقال تعالى: ﴿ وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾، أي ليس في الآخرة إلاّ هذا أو هذا، فإمّا العذابُ الشديد، وإمّا المغفرةُ والرضوان، فليَخْتَر العاقلُ لنفسه ما يشاء. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾، أي: إنما هي متاع مهما طال فهو فانٍ، فلا ينبغي للعاقل أن يَركَن إليها، ويَقصُر اهتمامه عليها، فضلاً عن أن يخادع نفسه ويعتقد أنه لا دارَ سواها، ولا مَعادَ وراءَها.

وانتقل كتابُ الله إلى تبيين عقيدة أساسية في الإسلام تجعل المومن بها أقرب إلى الرِّضَى والاغتباط، بما يعتورُه في حياته من عُسْر ويُسْر، وشدة ورخاء، بحيث لا يصيبه أيُّ ذهول أو حَيرة، أمام أحداث الحياة ومفاجآتها المتنوعة. «فما أصابَ المومنَ لم يكن ليُخطِئه، وما أخطأه لم يكن ليُصِيبَه»، ما دامت القدرة الإلَهية من وراء الإنسان، ولها الكلمةُ الأولى والأخيرة في كل شأن وفي كل آن، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾: أي: من قبل أن نخلق الخليقة،

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، لأنه سبحانه كما يعلم ما كان وما يكون، يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾، أي: لكيْ لا تحزنوا وتأسَفوا على ما فاتكم، إذ لو قُدِّرَ شيء لكان: ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾، أي: لكيلا تفخروا على غيركم بما أنعم الله به عليكم، فلا تتخذوا نِعَم الله أَشَراً وبَطَراً، وفَخْراً وزَهْواً، إذ مرجعُها قبل كل شيء إلى فضل الله وإحسانه، لا إلى مجرد سعيكم وكَدِّكم، كما قد يُخيِّل إليكم: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، أي: أنه سبحانه لا يحب كل متكبر فخور على غيره، قال عكرمة: «ليس أحدٌ إلاّ وهو يَفرح ويحزَن، لكن اجعلوا الفرَحَ شكراً، والحُزنَ صبراً».

وأوضح كتابُ الله مرة أخرى حكمة الحق سبحانه في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وأنها لا ترمي إلاّ إلى شيء واحد وهو إسعاد الإنسان بالهدايَة والإرشاد، وإقامة ميزان العدل والمساواة بين العباد، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

و«الكتاب» هنا إشارةٌ إلى سِجِلّ الوحي الإلّهي المتضمِّن للشرائع والأحكام، و«الميزان» هنا رمز إلى العدل الإلّهي الذي أَرسل الله به ولإقامته جميعَ الرسل والأنبياء، وكما جاء «الميزان» هنا معطوفاً على «الكتاب» لأنه هو هدفُه الأسمى وغايتُه الأخيرة، فقد جاء «الكتاب والحُكم» و«الكتاب والحكمة» متعاطفين في عامَّة القرآن، تأكيداً لتلازم الشريعة الإلّهية مع الحكم بها بأسلوب حكيم، وإقامة العدل على أساسها السليم. وذكْرُ القرآن الكريم

«للميزان» في هذا السياق بصفته «رمزاً للعدل» هو السبب الذي نبّه غير المسلمين إلى أن يقتبسوا منه هذا الرمز، ويجعلوا صورة «الميزان» رمزاً للعدالة في أختامهم ومنشوراتهم الخاصة بالقضاء.

وأشار كتابُ الله إلى ما أنعم به على البشر من خلق معدن «الحديد» وتسخيره لحاجاتهم المدنية والعسكرية، فقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾. أمّا ما فيه من «البأس الشديد» فيتجلى في ردعه للمعتدين، وفي فصله الحاسم بين المتنازعين وأمّا ما فيه من «المنافع للناس» فشيء يفُوق العَدّ، ويتجاوز القياس، وما من حِرفة حِرفة وصِناعة صناعة إلّا وللحديد فيها سَهْمٌ كبير، وللحديد في تطورها وازدهارها أكبر تأثير.

وقولُه تعالى في نفس هذا السياق: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾، تلميحٌ إلى الجهاد بالسلاح في سبيل الله، حمايةً لنشر دِينه، ودفاعاً عن دعوته، مما يقوم به المسلمون بين الحين والحين، حفظاً لوجودهم وكيانهم، وضماناً لنفوذهم وسلطانهم على بلدانهم، وعَقَّب كتابُ الله على ذلك، بما يفيد أن قوة الله وعزته لا تفتقرَانِ إلى نصرة أحد ولا إلى تأييده، لا بسلاح ولا بغيره، وأن مَرَدَّ النصرة والدفاع في الحقيقة إنما هو نفسُ الدعوة الإسلامية وأهلُها، الذين يجب أن يكونوا على أُهبة الدفاع عن عقيدتهم وسيادتهم دائماً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى ما وقع من تحريف للرسالات الإلّهية،

وخَاصَّةً على أيدي أهل الكتاب، مُبيِّناً أنه إلى جانب العدد القليل الذي اهتدى منهم قد وُجدَ فيهم كثير من المنافقين: ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾، ﴿ فَـَٔاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾.

ثم اتجه الخطاب الإلٓهي في ختام هذا الرُّبُع إلى المومنين، مبشِّراً لهم برحمة الله وغفرانه، ومُعَرِّفاً بما خصهم به من رعايته ورضوانه، فقال تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُوتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ
ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن
ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ
ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ
ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ
لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ
بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ
لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ
وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ
وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، إبتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «المجادلـة» المدنيـة: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اَللَّهُ قَوْلَ اَلتِي تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اَللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحةُ سورة «المجادلة»: ﴿ قَدْ سَمِعَ اَللَّهُ قَوْلَ اَلتِي تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾، تنـاول كتابُ الله بالتهذيب والتشذيب عادة من عادات «الجاهلية» التي كانت شائعة بين العرب، وكانوا يُطلقون عليها اسم «الظِّهار»، وهي من جملة العادات السيئة التي كان فيها عُدوان على حقوق المرأة، فقد كان الرجل «الجاهلي» إذا غضب على امرأته اعتبرها مثل أُمه، فحرَّم على نفسه مِساسَها كحرْمة مِساس أُمه عليه سواء بسواء، وقال لها تعبيراً عن قصده: «أنتِ عليَّ كظهر أُمّي» وبذلك تصبح علاقته

الزوجية معها منقطعة حسب العرف «الجاهلي» لكنها بالرغم من تحريمها عليه تبقى «معلَّقة» دون طلاق، بحيث لا يمكن لها أن تتزوج من غيره، فلا هي حلٌّ له في رأيه حتى تستمر علاقتها الزوجية معه قائمة، ولا هي مطلَّقة منه حتى تكون حرة في نفسها، وتبحث عن زوج آخر.

ولأوّلِ ما صدَر هذا العملُ من أحد الأزواج المسلمين رفعت زوجتُه المسلمة شكوى به إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في أمرها، وتسألُه الفصل في نزاعها مع زوجها، وبمناسبة وقوع هذه الحادثة التي هي الأولى من نوعها في المجتمع الإسلامي الناشىء نزل كتاب الله مُبيِّناً حكم الله فيها خصوصاً، وفي شأن «الظهار» عموماً، وابتدأت الآيات الكريمة بالإشارة أولاً إلى الشكوى المرفوعة إلى رسول الله، وإلى الحوار الذي دَار بينه وبين الزوجة المشتكية حول ظروف الحادثة وملابساتها، وما قد يترتب عليها من آثار، وقد حفظت دواوين السنّة اسم الزوجة واسم زوجها، فهي خَوْلَة بنت ثَعلبة، وهو أوس بن الصامت، وكان لهما صِبْية صغار، وكان قد تقدم به السن وساء خلُقه في معاملة زوجته، فلما اشتد به الغضب قال لها: «أنتِ عليَّ كظهر أمي»، فقالت له: «والله ما أراك إلاّ قد أثِمت في شأني، لَبِست جِدَّتي، وأفنيتَ شبابِي، وأكلت مالي، حتى إذا كبِرَتْ سِنّي، ورَقَّ عَظمي، واحتجْتُ إليكَ فارَقتَني»، ولما ذهب عنه الغضب قال لها: «ما أكْرَهَني لذلك»، ثم أقبل عليها وحاول مِساسها من جديد، فقالت له: «والذي نفسُ خُوَيْلَةَ بيده ـ تشير إلى اسمها بصيغة التصغير والدَّلال ـ لا تخلصُ

إلي وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكم الله ورسوله بيننا بحكمه»، فقال لها: «اذهبي إلى رسول الله ﷺ فانظُري هل تجدين عنده شيئاً في ذلك». وهذه الواقعة هي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، وفي هذه الآية دليل على مبلغ عناية الله بهداية خلقه وإرشادهم، وإصلاح ما فسد من أحوالهم، وعلى تمام رعايته للمظلومين، ونصرته لهم، برفع الظلم الواقع عليهم ولو من أقرب الأقربين.

وبيّنَ كتابُ الله في الآيات التالية حكم الشريعة الإسلامية في «الظهار»، وخلاصة الحكم الشرعي فيه: أنّ «الظهار» يستلزم تحريم مِساس المرأة على الزوج، وتحريم جميع أنواع الاستمتاع، إلاّ أن مجرد «الظهار» لا يُعتبرُ في الإسلام نوعاً من أنواع الطلاق ولا قائماً مقامه، نعم، إن رغبة الزوج في مِساس زوجته والاستمتاع بها بعد ظهاره منها، وعوْدَته إلى ما حرمه على نفسه بالظهار، لا بد أن تسبقه «كفارة» يُكفر بها الزوج، عن الإثم الذي وقع فيه بالإقدام على إعلان الظهار.

وهذه الكفارة مُطالَب فيها بالترتيب والتدريج، فتبدأ أولاً بتحرير رقبة من الرقّ، وذلك في حق الزوج القادر على العتق، بحيث لا يسمح الشرعُ له بمِساس امرأته إلاّ بعد تحرير تلك الرقبة، فإن لم يكن بيده من المال ما يستطيع به إنقَاذَ رقبة من الرق وتحريرَها، وجب عليه صيام شهرين على التتابع والتوالي، بحيث يلزمه أن يصوم ستين أو ٥٩ يوماً دون أي فصل بينهما ولا

انقطاع، وبعد انتهاء صومه طيلة شهرين كاملين يباح له الاتصال بزوجته التي كان قد ظاهر منها، فإن كان عاجزاً عن تحرير رقبة من الرق، وعاجزاً عن صيام شهرين متتابعين لعذر يقبله الشرع، لم يبق أمامه إلّا مخرج واحد من الوَرْطة التي تورط فيها، وهذا المخرج هو القيام بإطعام ستين مسكيناً مقابل ما عجز عنه من صيام ستين يوماً. قال الزمخشري: «فإن قلت: هل للمرأة أن تُرافع المظاهِر إذا امتنع مِن الكفارة؟ قلت: لها ذلك ـ وعلى القاضي أن يجبره على أن يُكفِّر وأن يحبسه، ولا شيء من الكفارات يُجبَر عليه وَيُحْبَسُ إلّا كفارةُ الظهار وحدها، لأنهُ يضر بالمرأة في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع، فيلزم أيضاً حَقُّها».

وفي نفس الوقت الذي شرع فيه كتاب الله هذه الحدود والقيود للظهار، حتى لا يُقبِل عليه المسلمون كما كان الأمر في «الجاهلية»، نادَى كتاب الله بتسفيه رأي أولئك الذين يعتقدون أنهم بمجرد ما يُشَبِّهون زوجاتهم بوالداتهم تصبحُ زوجاتُهم في حكم الأمهات فعلاً، مبيِّناً أَن أُمهاتِهم على الحقيقة وفي هذا المقام هُنَّ النساءُ اللاتي ولَدْنَهم، لا غيرهن من النساء، أما في غير هذا المقام فإن «المرضعاتِ» ملحقاتٌ بالأمهات، لأنهن لمَّا أرضعْن دخلنَ بالرَّضاع في حكم الأُمهات، وكذلك أزواج رسول الله ﷺ «أمهات المومنين» لأن الله حرم نكاحهن على الأمّة، فدخلْن بذلك في حكم الأُمهات، كما نادَى كتاب الله باعتبار «صيغة الظهار» التي تعارفها العربُ في الجاهلية صيغة

منكرة وزوراً من القول في نظر الإسلام، إذْ أنَّ أُم الزوج هي التي ولدته، ولا يُعقَل أن تُصبِح الزوجة أُمّاً للزوج بمجرد كلمة يَفُوهُ بها، تعَسُّفاً واعْتباطاً، وهي ليست أُمّاً له في الحقيقة، ولا داخلة في حكم الأمهات، وهذه المعاني في جملتها هي التي تضمنتها الآيات الكريمة التالية حيث قال تعالى: ﴿ الذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ امَّهَـٰتُهُمْ إِلاَّ آلَّـٰئِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِّنَ اَلْقَوْلِ وَزُوراً، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَالذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُومِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾. وجاء في «موطأ» الإمام مالك رحمه الله ما نصه: «قال مالك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾، قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يتظاهر الرجلُ من امرأته، ثم يُجمع على إمساكها وإصابتها، فإن أجمع على ذلك فقد وجَبت عليه الكفَّارة، وإن طَلقها ولَمْ يُجْمع بعد تظاهره منها على إمساكها وأصابتها فلا كفارة عليه، قال مالك: فإن تزوجها بعد ذلك، أي بعد طلاقِهِ لها دون كفارة، لم يَمسَّها حتى يُكفِّر كفارة المُتظاهر».

وبعدما بينت الآيات الكريمة حدود الله في شأن «الظهار»، ووضعت بذلك حداً للهوى والتعسف واستبداد الأزواج بزوجاتهم، مما كان شائعاً في «الجاهلية» قبل الإسلام، عقَّبَ كتابُ الله بما

يفيد أن الذين لا يَقِفُون عند الحدود التي حدَّها لهم الشرع إنما يَجنُون على أنفسهم جناية كبرى، فسيعاقِبهم الحق سبحانه بالخِزْي والهوان، جزاءَ تمردهم على الشريعة واسْتِنْكَافِهم عن الانقياد لنُظُمها، وعدم اعترافهم بسلطتها. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى مَزِيدٍ من الوصف لعلم الله الشامل الكامل، إذ لا يغيب عن علمه شيء، فهو يعلم السر والنجوى، «السر» المكتوم الذي يحتفظ به كل واحد منهم دون أن يُطلع عليه الغير و«النجوى» التي يكشف بعضُهم خِلالها عما في نفسه للبعض الأخر، لكن في تسَتُّر وحَذَر، وإذا كان الناس يَنسَون أعمالهم ولا يتذكرونها في أغلب الأحيان، فإن الله سبحانه يُحْصِي عليهم أنفاسهم، ويسجل لهم أعمالهم، وينبِّئُهم بما عَمِلوا مَتَى حلَّ موعد الحساب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا ﴾، أي: وملائكتنا، ﴿ لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٠).

وتحدث كتاب الله عن طائفة من المنافقين والكافرين يفضِّلون الاجتماع في غفلة عن الأنظار، بدلاً من أن يجتمعوا على مرأى ومسمع من الناس وذلك بُغيةَ التآمر في اجتماعاتهم الخاصة، وأشار إلى النهي الذي وُجِّه إليهم من قبل حتى لا يَعقِدوا مثل هذه الاجتماعات التي يُبَيِّتون فيها الشر والأذى للإسلام والمسلمين، لكنهم بالرغم من النهي الذي وُجِّه إليهم عادوا لما نُهُوا عنه، من التناجي فيما بينهم بما فيه «ضرر خاص» وهو المعبر عنه هنا «بالإثم»، وبما فيه «ضرر عام» وهو المعبر عنه هنا (بالعدوان)، وأكبر عدوان هو ما يتآمرون عليه من معصية الرسول، وعدم التنفيذ لأوامره، والخروج على تعليماته، وهذا المعنى هو ما يشير إليه قوله تعالى في خطابه لنبيه عليه السلام: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى اَلذِينَ نُهُواْ عَنِ اِلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِالِاثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾.

ووصَفَ كتابُ الله ما تنطوي عليه نفوس طائفة من المنافقين، وما يَبرُزُ على ألسنتهم من عبارات السخرية والتعريض، وعدم التوقير الواجب لمقام الرسالة، وما تُحَدِّثهم به أنفسهم عند ذلك، من أنه لو كان الرسول رسولاً حقاً لَعُذِّبوا في الحين، جزاءَ ما يقولونه في حقه من الأقوال الخارجة عن حدود الأدب ومقتضيات الإيمان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اِللَّهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اَللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِيسَ اَلْمَصِيرُ ﴾.

ووجَّهَ كتابُ الله خطابه إلى المومنين، داعياً إيَّاهم، عندما

يجتمعون للتناجي فيما بينهم في اجتماعات خاصة، إلى أن يتجنبوا في أحاديثهم كل ما فيه ضرر فرديّ أو جماعي، وأن يتناجوا فيما بينهم بالبر والتقوى دون الإثم والعدوان، وأن يستبعدوا من مذاكراتهم كلَّ ما تُشَمُّ منه رائحة التمرد وعَدَم الامتثال، وكلَّ ما يؤدي إلى معصية الرسول، فطاعةُ الله وطاعةُ رسوله دعامتان أساسيتان من دعائم العقيدة الإسلامية، ورُكنان من أركان الدولة الإسلامية، وإلى ذلكَ يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللَّهَ الذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله إلى أنه لا ينبغي للمومن أن يناجي آخر فيُسِرَّ إليه بالحديث، ما دام حَاضراً معهما مومنٌ ثالث لا يعرف ما يدورُ بينهما، وقد يتأذى من حديثهما الذي يَجهَل فحواه، إذ تُوَسْوِس إليه نفسه أن الحديث الذي هو نجوى بين الاثنين، ويتسارَّان به فيما بينهما، يتضمن استهزاءً به، أو تآمراً عليه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ لِيُحْزِنَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً اِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ ﴾، وفي مثل هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث إلّا بإذنه، فإن ذلك يُحزِنه». وهذا النص انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

وبدلاً من استعمال «الشعر» وسيلة لقضاء الحاجات، حسبَما كان متعارفاً عند العرب، لأنه من أفضل ما عندهم، فكان الرجل يُقدِّمه أمام حاجته «يَستمطِر به الكريم، ويستنزِلُ به اللئيم» على

حَدِّ قول عمر بن الخطاب، جاء كتابُ الله بنمَط جديد يتفق مع روح الإسلام وأهدافه الإنسانية السامية، فخاطب المومنين الذين يرغبون في مُناجاة الرسول والتحدث إليه في شؤونهم الخاصة أن يتقربوا إلى الله قبل لقاء الرسول، بتقديم الصَّدَقات إلى الفقراء المسلمين، ثم يَأتُوا إليه وقد ازدادُوا طُهراً وصفاء، أما الذين لا يملكون ما يتصدقون به على الفقراء، لكونهم من نفس الفقراء، فلا حَرَج عليهم في لقائه ومناجاته دون تقديم أية صدقة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾، أي: أردتم ذلك، ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ثم وسَّع اللَّهُ عليهم ولم يضيق، فقال تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ولعل من بين أسرار هذا التوجيه الإلَهي الحكيم ما كان عليه المسلمون من التزاحم على لقاء رسول الله، ورغبةِ كلِ فرد في الاختِلاء به والاستئثار بوقته واهتمامه، لقضاء الحاجات، وتلقِّي التوجيهات، الأمر الذي لوْ لَمْ يوضَع له حَد لأصبح من الصَّعْب عَلَيْه القيامُ بالمهامِّ الكبرى التي تستلزم تكريس وقته لأدائها أولاً بأول، وذلك لخير الجماعة الإسلامية جمعاء، فلما تلقَّى المسلمون هذا التوجيه الإلَهي كان لهم بمنزلة «الفِطام». وكان فيه نوع من التخفيف على رسول الله، حتى يستطيع التفرغ للقيام بمهام الرسالة الجسام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم
مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا
يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سـورة «المجادلـة» المدنيـة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «الحشر» المدنية أيضاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وكتاب الله في مطلع هذا الربع يحذِّر الرسول عليه السلام من طائفة المنافقين، ويبين له ما هم منطوون عليه من موالاة اليهود الذين لا يضمرون أيّ خير للعرب، لا للعرب المسلمين، ولا حتى للعرب المنافقين الذين يمالئونهم في الباطن. ويهتك كتابُ الله الستر عن أسلوب التضليـل والتدْجيـل الذي يستعمله «المنافقون» تقليداً لليهود لجلب المومنين الصادقين إلى صفهم والتأثير عليهم، ولا سيما ما يُقسِمُون به من الأَيْمَان المغلظة،

تأييداً لدعاويهم، وتدعيماً لأكاذيبهم، ويبين كتابُ الله أن الأَيْمَانَ المغلَّظة التي يحلفونها إنما هي ستار كثيف يُخفون به مقاصِدَهم، وسلاح خفيف يحمون به أنفسهم، حتى لا تفتضح نياتُهم، ولا تنكشف عوراتهم، وحتى تستمر أحكام الإسلام الظاهرة جارية عليهم، باعتبار أنهم «مسلمون». وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

ثم يتحدث كتاب الله عن المصير السيء الذي ينتظر «المنافقين» يوم القيامة، وأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم في الآخرة من الله شيئاً، إذْ لا يستطيعون فِدْيَةَ رقابهم بالمال، ولا يستطيعون نصرة أنفسهم بالرجال، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاً أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

وحيث أن من عَاشَ على شيء مات عليه، وحيث أن المنافقين قد تمكَّن النفاقُ من قلوبهم، واعتادوا الحَلِف بالأَيْمَان الكاذبة وهم على قيد الحَيَاة في الدنيا، واتخَذوا من أَيْمَانهم الفاجرة وقايةً يتقون بها سطوة الإسلام وسلطانَه، فإنهم سيواصلون نفس الخطة وهم في الآخرة، وسيحلفون أمام الله على الكذب، كما كانوا يحلفون عليه أمام رسوله والمومنين، جهلاً منهم بأن الله يعلم السر والنجوى، وظناً منهم أن ذلك سيُنجيهم من عذاب الله،

مثل ما أنجاهم كذبُهم في الدنيا من متابعة الناس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴾.

ونظراً لأن البشر على اختلاف أجناسهم إنما هم فريقان: فريق يدعو إلى «الحق» ويسعى في الصلاح، وفريق يدعو إلى «الباطل» ويسعى في الفساد، فقد اعتنت الآيات الكريمة هنا بتحديد الفروق الواضحة والسِّمات المميِّزة التي يتميز بها الفريق الأول وهو «حزب الله» عن الفريق الثاني وهو «حزب الشيطان»، وذلك ليَعرِف المومنون عن بيِّنة، في جهة من يجب أن يضَعوا ثقتَهم، وفي يد من يجب أن يضَعوا أيديهم:

ـ فأما «حزب الشيطان» الذي يقود الشيطانُ خطواته، ويوحِي إلى أهله زخرف القول غروراً، فهو الذي اسْتَحْوَذ عليه الشيطان استحواذاً تاماً، بحيث أنساه ذكر الله بالمرة، فلا هو يومن بالرسل ورسالاتهم، ولا هو يومن بالكُتُب المنزلة وشرائعها، ولا هو يومن بالآخرة وعذابها، بل هو يتحدى أوامر الله ونواهيه تحدياً صارخاً، فينتهك الحرمات، ويتعدى الحدود، ويحاولُ أن يقف في وجه كل شيء له علاقة بتوجيه الله وهدايته، ويعمل كل ما في وسعه جاهداً لطمس معالم الوحي والدين، بين البشر أجمعين، وإلى هذا الحزب الضال المُضِل مِنَ البشر يشير قوله تعالى: ﴿ اَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَٰنُ فَأَنسَيٰهُمْ ذِكْرَ اَللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اَلشَّيْطَٰنِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴾.

ـ وأما «حزب الله» فهو الذي شرح الله صدره للإيمان، وحَبَّبه إليه، وأقرَّه في قلبه، وأيَّده بروح منه، وثبَّته بالقول الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وألْقى في قَلْبـه محبة المومنين بالله ورسولُه ومودَّتهم، وعداوةَ غيرهم إلى الأبد، ولو كان هذا الغير من أقرب الأقربين. وإلى حزب الله من الهادين المهتدين، الذين هم النبراس المضيء في الدنيا والدين، يشير قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوَ اَبْنَآءَهُمْ أَوِ اِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الِايمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا اَلَانْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ اَللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اَللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

ومما يجب التنبيه إليه ما جاء في سياق التفرقة بين حزب الله وحزب الشيطان من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلَّذِينَ يُحَآدُّونَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي اِلَاذَلِّينَ كَتَبَ اَللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيَ إِنَّ اَللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، فهذه الآية «تتوعَّدُ حزب الشيطان» بأن مصيره المحتوم هو الخزي والذل والهوان، مهما تطاول على الله وجاهره بالشَّنآن والعدوان. كما أنها «تَعِد حزب الله» الذي يرعاه الله، ويتصدَّره «أُولو العزم» من الرسل، بالغَلَبة على حزب الشيطان والنصر عليه، لا في الآخرة وحدها، ولكن حتى في الدنيا قبلها، طبقاً لصريح قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ فِي اِلْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الَاشْهَـٰدُ ﴾ (غافر: ٥١)، وقد صدق الله وعده لحزبه فعلاً، فغلب الإيمان

على الكفر، وانتصر التوحيد على الشرك في رقعة واسعة من العالَم، وأظهر اللَّهُ دينه الحنيف على كثير من المعتقدات الزائفة، والتقاليد الباطلة، التي كانت قبل ظهوره سائدةً في جميع أطراف الأرض، فآمنت بالله ورسوله، ودانت بدين الله، مِآتُ الملايين من البشر، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وها هو مَدُّ الإسلام، لا يزال في امتداد مستمرّ على الدوام، رغماً عما تَعرَّض له المسلمون عَبْر الأجيال والقرون من بطش وضغط، ومكر سيء، وكَيْدٍ خَفي، يُلاحقُهم به أعداءُ الإيمان، في كل مكان. أما مَوْجات الكفر والإلحاد التي تتصاعد في بعض الفترات وفي بعض الأجيال، وفي بعض البقاع، فإن مآلَها دائماً إلى تقهقر وتراجع، أمام تيار الإيمان الصاعد، الذي يُمِدُّهُ كلَّ يوم مَدَدٌ جديد من العلم بأسرار الكون، والمعرفة بعجائبه، والاكتشافات الحديثة لِآفاقه الواسعة، وبذلك كله تتحقق الغَلَبة لله ولرسله في الدنيا كما هي مُحقَّقة في الآخرة.

وقولُه تعالى في التعقيب على هذا المعنى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، إشارةً إلى أن «قوةَ» الله التي لا تُعادلها قوة، وإلى أن «عِزته» التي لا يلحقها ضَيْم، هما أكبرُ ضمان لحزب الله في صراعه مع حزب الشيطان، وما دام الأمرُ كذلك فمَن تمسك بحبل الله، وانضمَّ إلى حزب الله، كان أقوى من كل قويّ، وأعزّ من كل عزيز، إذْ أنه يَأوِي إلى ركن ركين، ويعتمد على سَنَد متين.

والآن فَلْنتقل إلى سورة «الحشر» المدنية أيضاً، وقد سميت «سورة الحشر» أخذاً من قوله تعالى في الآية الثانية منها: ﴿ هُوَ

الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، وهذه السورة الكريمة تشير إلى يهود «بَني النَّضِير»، وجلائهم عن المنازل التي كانوا يسكنونها، والحصون التي كانوا يتحصنون بها خَارِجَ «المدينة» على أميال منها من الناحية الشرقية، وذلك بعدما حاصرهم رسول الله والمومنون سِتَّ لَيَالٍ، على رأس ستة أشهر من «غزوة أُحُد» أوائلَ السنة الرابعة من الهجرة، فنزلوا واستسلموا، على أساس الكفِّ عن دمائهم، والجَلاء عن منازلهم وحصونهم، وأَنَّ لهم ما أَقَلَّتْه إبلُهم وحملته من الأموال والأمتعة، فاحْتَملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، إلاّ «الحَلْقَة» وهي السلاح الكثير، فلم يَسمَح لهم بحمله معهم، واتجه فريق من بَني النَّضِير إلى «خَيْبَر»، واتجه فريق آخر إلى «أَذْرِعات» من أعالي الشام.

والسبب المباشر لحصار «بَنِي النَّضِير» ونزولهم على «الجلاء» فيما يذكره أصحاب المغازي والسِّيَر هو أنهم تواعدوا مع رسول الله على أن يخرج إليهم في طائفة من أصحابه، وأن يخرج إليه منهم طائفة من أحبارهم، حتى يلتقي الفريقان ويسمعوا منه، فيومنوا به إن صَدَّقَه أحبارهم، فلما حَلَّ الموعد غدا عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «إنكم لا تُومَنُون عندي إلاّ بعهد تُعاهِدُونَنِي عليه»، فأَبَوْا أن يعطوه عهداً، رغماً عن مُهادنته لهم منذ هجرته إلى المدينة، وما أَعطَوه له من العهد والذمة إذ ذاك، وبهذه المناسبة خلا بعضهم ببعض، فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، وكان رسول الله مستنداً إلى

جَنب جدار من بيوتهم، فهل من رجل يَعْلُو على هذا البيت فيُلْقِي صخرةً على محمد فيُرِيحَنا منه؟» وانتدبوا لِذلك واحداً منهم، فصعد أشقاهُم ليُلقِي الصخرة على رسول الله ﷺ، ورسولُ الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأوحى الله إلى رسوله بما أراد القوم من اغتياله، وقفَل وَحْدَهُ راجعاً إلى المدينة، ولما أقبل عليه أصحابُه أخبرَهُم بخيانة «بَنِي النَّضِير» ونقضهم للعهد الذي عاهدوا عليه الرسول، ومحاولتهم لِلغدر به وهو بين أظهرهم، وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهَيُّؤ لحربهم والمسير إليهم، ولما أعدُّوا العُدَّة سار إليهم بالكتائب حتى نزل بهم، فتحصنوا في الحصون، وبعد مُضيّ مدّةِ الحصار الإسلامي المضروب على حصونهم طلبوا الصلح، وسألوا رسول الله أن يَحقِن دماءهم ويُجلِيهم عن ديارهم، فصالحهم على ذلك، وتم جلاء «بَنِي النَّضِير» عن منازلهم التي كانوا بها خارج المدينة، ولم يُسلِم منهم بهذه المناسبة إلاّ رجلان أسلما على أموالهما فأحرزَاها، وهما يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب. وإلى هذه الواقعة تشير الآيات الكريمة الواردة في «سورة الحشر»، وكان ابنُ عباس يطلق عليها أيضاً «سورة بني النضير».

وقد ابتدأت هذه السورة بما يفيد خضوعَ جميع المخلوقات، في الأرض والسماوات، لعزة الله وجلاله، وتنزيهَها لخالقها عن كل نقص أو عجز، واعترافَها بحكمته وكماله، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

ثم شرعت الآيات الكريمة في وصف حصار «بَني النَّضِير» وجلائهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أن الوضع المادي الذي كان عليه «بنو النَّضِير» من المال والسلاح والحصون كان يوحي إليهم بأنهم في عز ومَنَعة، بحيث لا يستطيع أن يطاولهم أحد، فضلاً عن أن ينتصر عليهم: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، كما كان هذا الوضع نفسه يوحي إلى الجماعة الإسلامية الناشئة بأن الاستيلاء على «بَني النَّضِير» يحتاج إلى تضحيات جُلّى، إن لم يكن في حكم المتعذِّر بالمرة، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، فلما فتحوا أبواب حصونهم وخرجوا منها مستسلِمين، يَعرِضون بأنفسهم على رسول الله ﷺ أن يكُفَّ عن قتالهم، وأن يُجلِيهم عن ديارهم، كان ذلك أمراً إلّهياً خارقاً للعادة، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، إذْ لم يكن هذا المصير الذي انتهَوا إليه بعد سِتِّ ليالٍ من حصارهم منتظَراً، لا عِند المسلمين، ولا عند «بَني النَّضِير» أنفسهم، وقد كان في الإمكان أن يطول الحصار أسابيع وشهوراً. وإذَنْ «فالرُّعْب» الذي ألقاه الله في قلوبهم، والهزيمةُ التي استولت على نفوسهم، هما العاملان الأساسيان في خروج «بَني النَّضِير» من حصونهم، واستسلامهم للرسول والمومنين، ورضاهم بالجلاء عن «المدينة» عاصمة الإسلام الأولى، وفي هذا الإطار من الظروف والملابسات نستطيع أن نفهم المراد بقوله تعالى في هذا

السياق: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾، في وصف «بَني النَّضِير» وهم يتأهبون للجلاء عن ديارهم، إشارةٌ إلى ما قاموا بهَدمه من مبانيهم، وما قاموا بنقضه من سقوفهم، وما قاموا بقلعه من أَخشاب أبوابهم، وما قاموا بحَمله من مختلف الأمتعة والرياش التي كانت بمنازلهم، وبذلك خرَّبوا بيوتهم بأيديهم وتركوها خراباً يَبَاباً.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَيْدِى ٱلْمُومِنِينَ ﴾، إشارةٌ إلى ما قام به المسلمون أَثناء حصارهم «لبني النضير»، فقد كان المسلمون إذَا ظهروا على دَرْب أو دار هدموا حِيطانها ليتسع المكانُ للقتال.

وقوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُواْ يَٰأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ تعقيبٌ على ما في هذه الواقعة الفريدة من نوعها من مختلِف العظات والعِبَر، فهي درس عملي أَعطاه الإسلام للمشركين، وللمنافقين، وللكافرين من أهل الكتاب على السواء.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، إشارةٌ إلى «الفيء» الذي آل إلى المسلمين من أموال «بني النضير»، وفي حكمه كلُّ ما يؤول إلى المسلمين من هذا النوع، والمراد «بالفيء» كل مال أُخِذَ من الكفار أثناء الجهاد من غير إيجافِ خيل ولا رِكاب، أي:

من غير مبارزة ولا مصاولة، ولا ركض بخيل أو جِمال. والشأن في هذا النوع أن يُرَدَّ على المسلمين، ويُصرَفَ في وجوه البِرّ والمصالح العامة.

ثم بين كتابُ الله «مَصارِف الفيء» الذي يؤول إلى المسلمين أثناء جهادهم في سبيل الله، والوجوهَ التي ينبغي أن يُصرف فيها فقال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾، معناه كما قال ابن كثير: «جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كي لا يَبْقَى مأْكَلَةً يتغلبُ عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون من الفيء شيئاً إلى الفقراء».

وللزيادة في بيان من يستحق الأخذ من مال «الفيء» ضرب كتابُ الله المثَل «بفقراء المهاجرين» الذين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم، وبهذه المناسبة نوَّه «بالأنصار» الذين آووهم وآثَرُوهم على أنفسهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾، إلى آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ ﴾، إلى آخر الآية إشارةٌ إلى قِسم ثالث يستحق فقراؤهم أن يُصرَف إليهم من «مال الفيء»، ما دام الجهاد قائماً في سبيل الله. فبالإضافة إلى فقراء المهاجرين وفقراء الأنصار هناك فقراء المومنين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، على غرار قوله تعالى في سورة التوبة (١٠٠): ﴿ وَالسَّٰبِقُونَ اَلْاَوَّلُونَ مِنَ اَلْمُهَٰجِرِينَ وَالْاَنصَارِ وَالذِينَ اَتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾، والمراد «بالتابعين لهم بإحسان»، كما قال ابن كثير: «المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية»، ﴿ رَبَّنَا اَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا اَلذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)
لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ
أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ
أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ
شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ

قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ
ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾
لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ
جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾
هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الحشر» المدنية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الممتحنة» المدنية أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمُ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

في بداية هذا الربع تناول كتابُ الله وصف الدَّوْر السافل الذي قام به «المنافقون» في قصة «بَنِي النَّضِير»، حيث شجعوهم على نقض عهد رسول الله ومخالفته، والتآمر عليه وعلى المسلمين، ووعَدوهم بالنجدة والنُّصْرة إذا تعرَّضوا لاصطدام مع القوة الإسلامية الفَتيّة، فأَطْلَعَ اللَّهُ رسولَه على هذه المؤامرة عن طريق الوحي المبين، وذلك قوله تعالى مخاطِباً لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ

لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾، وقد كان عبدُ الله بنُ أُبَيّ ابنِ سَلُول وعصابته من المنافقين بعثوا إلى يهود «بني النضير»: «ان اثبتُوا وتَمنَّعوا، فأنَّا لن نُسلِمكُمْ، إن قُوتلتُم قاتَلْنَا معكم، وإن خرجتُم خَرَجْنَا مَعكم»، فتربَّص «بنو النضير» ذلك، وانتظروا نصر المنافقين لهم أثناء فترة الحصار الإسلامي، لكنَّ الله قـذف في قلوب المنافقين الرُّعب فلم ينتصروا لليهود، وقـذف في قلوب «بني النَّضِير» الرعب فاستسلموا للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾، وبيّن كتاب الله السر في فشل يهود «بني النضير» وحلفائهم وإخوانهم من المنافقين، وهو أنهم يخافون الخلق أكثر مما يخافون الخالق فقال تعالى مخاطباً رسوله والمومنين: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

ووصفت الآياتُ الكريمة ما عليه يهود «بَنِي النَّضِير» ومن لفَّ لَفَّهم من الجُبن والهلَع، فهم لا يقـدرون على مـواجهـة «كتائب» الإسلام الفتية، ومبارزتها وجهاً لوجه في الفضاء الطلق، وإنما يتستَّرون ويَتَتَرَّسُون بالحصون والجُدُر، ليقاتلوا من ورائها، وهم في مأمن من المفاجآت والمغامرات، وذلك قوله تعـالى: ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرىً مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾، ثم يكشف كتاب الله عن سِرٍّ دَفِين يتبينُ من خِلاله مقدارُ ما بين المنافقين وكفار أهل الكتاب من التضامن والتعاون، وأن تحالف الفريقين إنما هو تحالف مصالح وأغراض إن اتفقت حيناً اختلفت

أحياناً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

وأعاد كتابُ الله إلى أذهان المومنين ما أصاب كفار قريش «يوم بدر»، مشيراً إلى أن العاقبة كانت عليهم إيضاً لاَ لَهم، فمّا أصاب «بَنِي النَّضِير» إنما هو تتمة لما أُصاب كفار قريش من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وشبَّهَ كتابُ الله موقفَ «المنافقين» الذين شجعوا يهود «بَنِي النَّضِير» على نقض العهد، والتآمر على حياة الرسول عليه السلام، والذين وعدوهم بالنصرة والتأييد، ثم أُخلفوا وعدهم وأسلموهم لسوء العاقبة، بموقف الشيطان من الإنسان، عندما يغريه بالكفر فيغترّ به، ويكفر تحت تأثير إغرائه، حتى إذا كان يوم القيامة تبرأ الشيطان منه براءةَ تامة، وَتَنَصَّل من تَبِعة عمله كل التنصل، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَٰلَمِينَ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ الظَّٰلِمِينَ ﴾.

واتجه الخطاب الإلّهي إلى المومنين يُناديهم بأحب الصفات إليهم، داعياً إياهم إلى تقوى الله، مكرراً أمره بالتقوى في هذا السياق مرتين على التوالي، و«تقوى الله» تقتضي أن يَقِي المومنُ نفسَه من عذاب الله وسخطه، وذلك بالتزام الصلاح والاستقامة،

وسلوك الطريق السويِّ، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، «فَالْغَدُ» الذي هو عبارة عن الحياة القادمة والدائمة مهما كان بعيداً فهو قريب، والتزودُ له أمر تقضي به الحكمة والرُّشْد، ويستلزمهُ حسنُ التدبير، وسلامةُ التفكير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ لَا يَسْتَوِى أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

وتحدث كتابُ الله من جديد عن رُوحانية القرآن الكريم، وكونه «روحاً من أمر الله» يُشِعُّ من خلال كلماته كلُّ ما لله من صفات الكمال، ومظاهر القدرة والحكمة والجلال، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَـٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وخُتِمت سورة «الحشر» بعقد نفيس من أسماء الله الحسنى يُذَكِّر المومنين بجملة من مظاهر ربوبيته، وآثار ألوهيته، في الآفاق وفي أنفسهم: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُومِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾، ثم يكون «مسك الختام» تسبيحاً لله وتنزيهاً، على لسان جميع المخلوقات في الأرض وفي السماوات، وكما ابتدأت سورة «الحشر» هكذا: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، تنتهي بنفس المعنى هكذا: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، وبذلك انسجمت البداية مع النهاية.

ولننتقل الآن إلى سورة «الممتحنة» المدنية، مستعينين بالله معتمدين عليه، وأطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى في الآية العاشرة منها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾، وأولُ ما يستقبلنا من هذه السورة الكريمة نداءٌ من الله إلى فريق خاص من المومنين، يُحذِّرهم فيه من أن يتخذوا أعداءه أولياء، أو يُلقوا بالمودة إلى مَن كفروا بالحق، وألْجأوا الرسولَ والمومنين إلى الخروج من «مَنزِل الوحي الأول» مُبيِّناً لهم أن «رابطة العقيدة» هي الرابطة التي يجب أن يرْعوها حق رعايتها، وما عَداها من الأواصر والروابط العائلية أو المالية يجب إخضاعه لهذا الاعتبار قبل أي اعتبار آخر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُومِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾.

ثمّ بيّن كتابُ الله لهذا الفريق من المومنين الذين كانوا لا يزالون على شيء من السَّذاجة والبَساطة أنهم لو سَقطوا في أيدي مشركي قريش لنَكَّلُوا بهم شر تنكيل، ولفعَلُوا بهم أقبح الأفاعيل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً

وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾.

وكشفَ كتابُ الله السرَّ في تحذيره لهذا الفريق من المومنين، فقد كانوا لا يزالون متأثّرين بروابط القَرابة والرَّحِم التي تربطهم بأقربائهم من مشركي مكة، وكانوا يَحِنُّون إليهم ما بين الحين والحين، فقال تعالى مخاطِباً لهم: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وضرَب كتابُ الله المثلَ لهذا الفريق من المومنين ببَراءة إبراهيم الخليل من قومه هو وَمَن آمن معه ورمْيِه برابطة القَرابة معهَم عَرضَ الحائط، عندما أصبح الأمرُ يتعلق بعقيدة التوحيد والإيمان بالله فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُومِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اَللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾، وكان استغفارُ إبراهيم لأبيه قبل أن يستيقِنَ إصرارَ أبيه على الشرك، مصداقاً لقوله تعالى في سورة التوبة (١١٤): ﴿ وَمَا كَانَ اَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾.

وخُتم هذا الربُع بما يؤكد نفس الغرض ونفس التوجيه، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمُ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ اَلآخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين
في المصحف الكريم

عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم
مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ
لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا
إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
جَاءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ
يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا
أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ

أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ
بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى
مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ
أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا
زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا

جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ
لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨
هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ
وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم
مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ
لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ
فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ
وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارًا
لِّلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ
ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت
طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سورة «الممتحنة» المدنية: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «الصّفّ» المدنية أيضاً: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴾.

في بداية هذا الربُع عاد كتاب الله إلى فتح باب الأمل والرجاء في وجه فريق من «المهاجرين» كانوا يُعانُون بعض القلق النفسي من مقاطعة أهلهم وعشيرتهم الذين لا زالوا على شركهم بمكة، فبعدما أَمَرَهُم الله تعالى بعداوة المشركين والبراءة منهم ولو كانوا من ذوي الأرحام ومن أقرب الأقربين إِسْوَةً بإبراهيم الخليل عليه السلام الذي تبرأ من أبيه نَفسِه، أشارت الآيةُ الكريمة إلى أن الأمل في إنقاذهم لم ينقطع، وإلى أنَّ الرَّجاء لا يزال معقوداً على هدَاية الله لهم إلى الحق، فهو سبحانه قادر على أن يشرحَ صدورهم للإيمان، فيدخلوا تحت طاعة الإسلام، ويعمَلُوا تحت

لوائه، وإذ ذاك يجمعُ الله شمل الجميع في ظل الإسلام الحنيف، ولا يبقى أيُّ مبرِّر لعداوتهم، ولا للبراءة منهم، بل تصبح مودتُهم واجبة، بمقتضى رابطة العقيدة الإسلامية المشتركة، التي هي أقوى رابطة بين المسلمين، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى في مطلع هذا الربع: ﴿ عَسَى اَللَّهُ أَنْ يَّجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اَلذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تقعيد قاعدة أساسية في معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل الأخرى، ألا وهي معاداةُ من اعتدى على المسلمين أو تضامَن مع المعتدِي عليهم، ومسالمةُ مَن لم يعتد على المسلمين ولم يتضامن مع المُعتدِي عليهم. ويُعتبرُ «معتدياً على المسلمين» كل من قام باعتداء على ديارهم، بعدَ مَا سالَمَهم، أو خانَ عهدهم بعد ما عاهدهم، أو حال بينهم وبين أن ينشُروا عقيدتهم، أو منَعهم من أن يُطبِّقوا شريعتهم، ويمارسوا شعائرهم، وإلى هذه القاعدة الأساسية في الإسلام يشير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَيكُمُ اللَّهُ عَنِ اِلذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِي اِلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمُ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اُلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَيكُمُ اَللَّهُ عَنِ اِلذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِي اِلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمُ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَّتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ اُلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

والآن فلنتحدث عن «آية الامتحان» التي بها سميت هذه السورة المدنية الكريمة سورة «الممتَحنة».

لقد تضمن «صلح الحُدَيْبِيَّة الذي انعقد بين المسلمين وكفار

قريش قبل فتح مكة بسنتين فَقرةً فيها شيء من الغموض، يقول نصها ما يأتي: «على أنه لا يأتيك منّا أحد وإن كان على دينك إلاّ رَدَدْتَهُ إلينا»، وبينما رسول الله ﷺ لا يزالُ بأسفل الحُدَيْبِيَّة عَقِب عقد الصلح بينه وبين قريش أَقبل عليه نساءٌ مسلمات، ممَّن كنَّ مقيمات بمكة يرغبْنَ في مفارقة أزواجهن المشركين، ويطلُبْنَ الهجرةَ إلى المدينة مع إخوانهن المسلمين، فأنزل الله على نبيه «آية الامتحان» تَسْتَثْنِي النساءَ المسلمات من تلك الفقرة الغامضة التي تضمنها «صلح الحديبية» حتى لا يقع رَدُّهن إلى أيدي المشركين، نظراً لحُرمة الإسلام التي يتمتعْن بها من جهة، ورقتهن وضعفهن من جهة أخرى، وتبيَّن بذلك أن «شرط الردّ إنما كان في الرجال لا في النساء» وأن الشيء الوحيد الذي يُردّ إلى الأزواج المشركين إنما هو صداقُ زوجاتهم المسلمات اللاتي فارَقْنَهم وأَرَدْنَ الهجرة مع رسول الله إلى «المدينة» وذلك حتى لا يقع عليهم خسْرَانٌ مزدوج: خسران الزوجة وخسران المال، كما طالب كتابُ الله المشركينَ بنفس الشيء إذا جاءتهم امرأةٌ من طَرَف المسلمين أن يردّوا صداقَها إلى زوجها المسلم، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾، أي: أن المسلمات من الآن فصاعداً أصبحنَ حراماً على المشركين، كمَا أن المشركين أصبحوا حراماً على المسلمات: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، أي: ادفعوا إلى المشركين الذين كانوا أزواجاً للمسلمات المهاجرات ما أنفقوا عليهن من الأَصْدِقة، ويُنَفَّذ لهم

ذلك من «بيت المال»، ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾، أي: لا حرج عليكم في الزواج بأولئك المسلمات المهاجرات، المفارقات لأزواجهن المشركين إذا دفعتم لهنّ صداقاً من عندكم وانقضت عدتُهن: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾، أي: حرامٌ عليكم أيُّها المسلمون أن تتزوجوا بالمشركات من الآن فصاعداً، كما أن استمرار زَواجكم بالمشركات اللاتي سبق تزوجُكم بهن أصبح حراماً، وهذه دعوة صريحة إلى فراقهن: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾، أي: طالبوا المشركين بما أنفقتم من صداق على زوجاتكم إن ارتدت إحداهن وذهبت إليهم بمحض اختيارها، كما أن للمشركين أن يُطالِبوكم بما أنفقوا من صداق على زوجاتهم المسلمات اللاتي هاجرْنَ مع المسلمين وهذه المطالبة تقوم على أساس المعاملة بالمثل: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾، أي: هو حكم الله يحكم به في «صلح الحديبية» فلا رَدّ للمسلمات بعد الآن إلى أزواجهن المشركين، طبقاً لحكم القرآن، قال ابن كثير: «فعلى هذه الرواية تكون الآيةُ مخصِّصةً للسنة، وهذا من أحسن الأمثلة لذلك».

ونبّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري إلى أن الوضع الخاص الذي عالجه «صلح الحديبية» للتبادل بين المشركين والمسلمين على الأساس الذي قررته هذه الآية، إنما كان «مخصوصاً بذلك الزمان، وفي تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة» (والله عليم حكيم).

أمَّا الطريقةُ التي كان يَتِمُّ بها امتحان المومنات المُهَاجِرات اللاتي يفارقْن أزواجهن من المشركين، رغبةً في الهجرة مع المسلمين، فهي فيما وصفه قتادة: «أن يُسْتَحْلَفْنَ باللَّهِ مَا أخرجَكُنَّ النشوز، وما أَخرجَكُنَّ إلاّ حُبُّ الإسلام وأهلِه، وحِرصٌ عليه»، فإذا قلنَ ذلك قُبِل منهن، وفيما وصفهُ عكرمة يُقالُ لها: «ما جاءَ بكِ إلاّ حبُّ اللَّهِ ورسولِه، وما جاء بكِ عشقُ رجلٍ منا، ولا فرارٌ من زوجك»، فإذا قالت ذلك قُبِلَ منها. وفيما وصفه مجاهد: «أن يُسأَلْنَ عما جاء بهن، فإن كان بهنَّ غضبٌ على أَزواجهن، أَو سخطة، أو غَيْرةٌ، ولَمْ يُومِنَّ أُرْجِعْنَ إلى أَزواجهن».

وتحدث كتاب الله عن حالة ما إذا لم يكن بين المسلمين والمشركين أيُّ عهد خاص، وذهبت امرأة من طرف المسلمين إلى المشركين، ورَفضَ المشركُ الذي تزوجها أن يرُدَّ إلى زوجها المسلمِ السابق مَا كان قد دَفَعه زوجها المسلم من صَداق، فها هنا يقوم المسلمون أنفسهم بتعويض أخيهم المسلم عن المهر الذي كان قد دفعه لها، وذلك إمَّا من الفَيْء، أو من الغنيمة، أو مما فضل بأيدي المسلمين من مهور أزواج المشركين، وإلى الحكم بتعويض المسلمين لأخيهم المسلم عن مهر زوجته التي ذهبت إلى الكفار يشير قوله تعالى مخاطباً للمومنين: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَئَاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتَ أَزْوَاجُهُم﴾، أي: من المومنين، ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾، أي: مثل ما انفقوه على أزواجهم من قبل، قال الزُّهْري في بيان سبب نزول هذه الآية: «إن المومنين أقرُّوا بحكم الله، فأدَّوْا ما أُمِرُوا به من

نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، لكنَّ المشركين أبَوْا أن يُقِرُّوا بحكم الله فيما فَرَض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمومنين به: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ الآية، وعقَّبَ كتاب الله على هذه الأحكام بما يفيد وجوب تطبيقها والعمل بها في الظروف الخاصة التي شُرعت فيها، فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيَ أَنْتُم بِهِ مُومِنُونَ ﴾ قال ابن عطية: «هذه الآية كلها قد ارتفع حكمها»، وكلمة «فعاقبتم» في هذه الآية هي من قولهم: «عاقبَ الرجلُ صاحبَه في كذا» أي: جاء فعلُ كلٍّ واحد منهما يَعْقُب فعل الآخر.

وبمناسبة الحديث عن حرص المسلمات على مفارقة دار الشرك والالتحاق برسول الله ﷺ في «دار الهجرة» وما نصَّ عليه كتاب الله من امتحانهن لمعرفة الأسباب الحقيقية التي دفَعَتْهُن إلى القيام بالهجرة جاء كتابُ الله بآية «المبَايَعة» التي تُحدِّد شروطها، فكان رسول الله ﷺ يمتحِنُ بهذه الآية مَن هاجر إليه من المومنات، قالت عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري: «فمَن أَقرَّ بهذا الشرط من المومنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتُكِ كلاماً، ولا وَالله ما مسَّتْ يدُه يدَ امرأة في المبايعة قط، ما يُبايعهن إلَّا بقوله: قد بايعتُكِ على ذلك»، وهذا لفظ البخاري في الصحيح. وإلى هذه المبايعة وشروطها يشير قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيٓءُ إِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ

لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾، يعني من جاءك منهنّ يبايع على هذه الشروط فبايِعْها على أن لا يُشرِكْنَ بالله شيئاً الآية.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾، أي: لا يسرِقْن أموال الغير، وللزوجة إذا كان زوجُها مُقصِّراً في نفقتها أن تأكل من ماله بالمعروف، في حدود ما جرت به العادة بالنسبة لأمثالها، وإن كان ذلك من غير عِلمه، عملاً بقوله ﷺ لهند بنت عُتْبة التي اشتكت إليه شُحَّ زوجِها وتقصيرَه في نفقتها: «خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيكِ ويكفي بنيكِ»، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ﴾، أي: لا يقتلْن الأولاد بعد ولادتهم كما كان يفعل بعض أهل «الجاهلية» وكذلك الأمر بالنسبة للجنين، فلا يسوغ لهن التسبب في قتله بالإجهاض ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾، أي: لا يُلْحِقْن بأزواجهن، ولا يَنسُبْنَ إليهم أولاداً غير أولادهم. روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيُّمَا امرأةٍ أدخَلَتْ على قوم مَن لَيس منهم فليست من الله في شيء، ولن يُدخِلَها اللَّهُ الجنة، وأيُّمَا رجلٍ جَحَدَ ولدَه وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضَحهُ على رءوس الأولين والآخرين».

وقولُه تعالى في ختام شروط البيعة: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، أي: لا يعصِينَك فيما أَمرْتَهُن به من معروف ونهيْتَهُنَّ عنه من منكر. قال ميمون بن مَهران: «لم يجعل اللَّهُ طاعتَه لنبيه إلّا في المعروف، والمعروف طاعة».

ومن المناسب أن نقف وقفة خاصة عند هذا الشرط الذي يعتبر أحد قواعد الدستور الإسلامي الخالد، فهو يستلزم بالأَصالة طاعة الرعية لإمامها، ويستلزم بالتّبع استجابةَ الإمام لرغبة رعيته فيما يأْتَمِرَان به معاً، من معروف يتفق مع أحكام الشريعة وأصول الملة وشعائر الدين، فالإمامُ المسلم والأمة الإسلامية إنما يُنظِّمان علاقاتِهما بمقتضى شريعة الله، إذ لا حكم عليهما لسواه، ومصدر السلطات بالنسبة للمسلمين هو شرع الله الذي جاء به الرسول، وإمامُ المسلمين نائِبٌ عنهم في حراسته والحِفاظ عليه، فإذا عَرَض لهم أمر لا نصَّ عليه فيما جاء به الرسول استنبَطوا له حكماً شرعياً يوافِقُ ما جاء به.

وفي مثل هذا السياق يستدل كثير من الناس بقوله تعالى في سورة «الحشر» من الربع الثاني في هذا الحزب[٧]: ﴿وَمَا ءَاتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾، فيحملون هذه الآية على معنى أنه مهما أمركم الرسول بأمر فافعلوه، ومهما نهاكم عن أمر فاجتنبوه، كما فسرها ابن كثير، اعتماداً على تأويل عبد الله بن مسعود، بينما هذه الآية وردت بالأَصالة في موضوع توزيع «الفيء» الذي أَفاءه الله على المسلمين بعد جلاء بني النَّضِير، وما حصل من التأثر عند بعض الأنصار، بعدما وزَّع

رسولُ الله ﷺ الفَيْ على فقراء المهاجرين، فعاتبَ اللَّهُ مَن تأثّر منهم من ذلك التوزيع، وأمَرهم بقبول أيّ نصيب يُعطيه لهم الرسول من الفَيْء إن أعطاهم، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ءَاتِيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾، أي: خذوا ما أعطاكم، كما أمرهم بعدم مطالبته بالفيء إن لم يُعطهم شيئاً، وهذا هو معنى: ﴿ وَمَا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾، إذ «الإمامُ» مفوّض في توزيع الفيء تمام التفويض، وذلك قطعاً لكل نزاع في هذا الشأن، وإلى مثل هذا المعنى ومثل هذا الموقف أشار قوله تعالى في سورة (التوبة: ٥٨): ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَيٰـهُـمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الصّفّ» المدنية، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾، وهذه السورةُ تبتدىء بتسبيح الله وتنزيهه، على لسان العالم العُلْويّ والعالَم السُّفْلى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ثم يتجهُ الخطاب فيها إلى فريق من المومنين يَعِدُون ولا يَفُونَ بوعدهم، ويقولُون ولا يلتزمون بقولهم، فينكِر عليهم كتابُ الله هذا الموقف المتناقض: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾. وبيَّنت الآياتُ الكريمة، للذين كانوا يتمنّون الجهاد في سبيل الله قبل أن

يفرض عليهم، أنَّ الوقت قد حان لتحقيق أُمنيتهم، فما عليهم إلاّ أن يبادِروا للتضحية والفداء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام، ووقوف قومهما منهما موقف الزَّيْغ والعناد: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، وسجل كتاب الله بشارة عيسَى لبني إسرائيل برسول يأتي من بعده، ويكون هذا الرسول سيحمل اسم «أحمد» وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾، كما تحدثت الآيات الكريمة عن الهُـدَى ودين الحق المرسَل بهما إلى العالَمين.

ووجَّه كتابُ الله الدعوةَ إلى المؤمنين ليكونوا أنصاراً لله كما كان الحواريون أنصاراً لله، وأمرهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ووعدَهم على ذلك بالفوز العظيم، وبنصر من الله وفتح قريب: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بوعدٍ من الله لا يتخلف، عما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين من ظهور وانتشار، في مختلف القارّات والأقطار، ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ
وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ
ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا
قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟
رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الجمعة» المدنية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «المنافقين» المدنية أيضاً: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وفاتحة هذا الربع التي هي بداية «سورة الجمعة» تنطق بحقيقة كونية رائعة، ألا وهي اعتراف جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، عُلْوِيّها وسُفْلِيّها، بألوهية الحق سبحانه وتعالى وربوبيته، وبعبوديتها له، وافتقارها إليه، إذْ هو سبحانه «مالك» أمرها، والمتصرف فيها على الحقيقة في كل حين، وهو سبحانه المتصف بجميع صفات الكمال، «والمقدس» عن النقائص والمنزه عنها على اختلاف أنواعها، وهو سبحانه «العزيز» الذي يخضع له، ويضطر إلى طَرْقِ بابه، والتمرّغ على أعتابه، أشدُّ الخلق

سطوة، وأكثرهم قوة، فضلاً عن الضعفاء والمستضعَفين، وهو سبحانه «الحكيم» في جميع تصرفاته الكونية، وكافة أحكامه الشرعية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾.

ثم تحدث كتابُ الله ممتّناً على المسلمين الأولين، الذين اختارهم الله لتلقي رسالة الإسلام ونقلها إلى العالَمين، فبعد ما كانوا محرومين من نور الله، يعيشون في صحرائهم منعزلين على هامش الحياة، وبعدما ظلوا فترة طويلة «أمِّيين» محرومين من الوحي والرسالة، أكرمهم الله برسالة سيدنا محمد عليه السلام، وأنزل الله عليه «الذكر الحكيم» ليكون دستور الإنسانية وقانونها العام، وبيّنَ الحق سبحانه أنّ كتاب الله إنما أنزله ليؤدي مهمتين اثنتين في وقت واحد، فهو من جهة: كتابٌ يُعلِّم الإنسانية ما لم تكن تعلم، إذ ينقذها من الجهل والضلال، وهو من جهة أخرى: يُزَكِّي الإنسانية، إذ يُهذب أخلاقها ويطهرها من تقاليد الجهالة والفساد، وبذلك كانت مهمة القرآن الكريم مهمة مزدوجة: مهمة تعليمية تثقيفية، ومهمة أخلاقية تربوية، وبفضله تكونت المدرسة الإسلامية المثالية، الجامعة بين تثقيف الفكر وتهذيب النفس، على أساس من التناسق والتكامل والانسجام، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

ولا بد من لفت النظر إلى حكمة يتضمنها قوله تعالى هنا:

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾، فقد جاء اللفظ الدال على التزكية «ويزكيهم» مقدَّماً، بينما اللفظ الدال على التعليم «ويُعلِّمهم» جاء مُؤخَّراً، والسر في ذلك - والله أعلم - أنَّ الإسلام يهتم بتربية النفس وتهذيب الأخلاق في الدرجة الأولى، ويهتم بتثقيف العقل وتوسيع معلوماته في الدرجة الثانية، بحيث إذا خُيِّر الإنسانُ بين علمٍ واسع مع خُلُقٍ فاسد، وعلمٍ محدود مع خُلُقٍ فاضل، كانت الأَولوية لمكارم الأخلاق ولو مع قليل من العلم، لا لكثرة العلم مع فساد الأخلاق، إذْ فساد الأخلاق يُضيِّع ثمرة العلم، ويجعل صاحبه أَخطر من الجاهل بالمرة.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ ﴾، إشارةٌ إلى ما أكرم الله به هذه الأمة، فقد آتاها (الكتاب)، وبالكتاب أخرجها من «الأمية»، كما آتاها (الحكمة)، وبالحكمة أخرجها من «الجاهلية».

وقولُه تعالى: ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾، امتنانٌ خاص على العرب، فبفضل رسول الله وخاتم رسله أصبحت الأُمة العربية ذات مكانة خاصة بين الأُمم، وبفضل الإسلام الذي كان العرب أول من حمل لواءه قام العرب بدور بارز في تاريخ الإنسانية يَغبِطهم عليه أكثرُ الأمم، وبفضل القرآن الكريم الذي نزل «بلسانٍ عربي مبين» أصبحت اللغة العربية لغة الدين والعلم والحضارة في دنيا الإسلام الواسعة.

ثم أشار كتاب الله إلى الأجيال الإسلامية القادمة بعد الجيل الإسلامي الأول من عرب وعجم، ومن كافة الأمم، وهي

الأجيال التي ستتلقى شُعلة الإسلام من أيدي العرب، لتُنير بها أرجاء العالَم عَبر القرون، فقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾. قال مجاهد: «هم الأعاجم وكُلُّ من صَدَّق النبيَّ ﷺ من غير العرب». وأشار ابن كثير إلى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في شأن نزول سورة «الجمعة» على رسول الله، وفيها هذه الآية، ثم قال: «ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، ودليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، ولهذا كتب كُتُبَه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وَإلى اتِّباع مَا جَاء به».

وعقَّبَ كتابُ الله على هذا الموضوع كله بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَآءُ ﴾، فهو سبحانه ذو «العزة» التي لا تضام، و«الحكمة» التي لا ترام، وهو المتفضل على خلقه، يمنح فضله لمن يشاء، فَنُبوة سيدنا محمد ﷺ، من فضل الله عليه، واختيارُ المسلمين الأولين لحمل الرسالة وتبليغها إلى غيرهم من الأمم، من فضل الله عليهم، وتقديرُ الله في أزله هدايةَ الأجيال القادمة من مختلف الشعوب، ودخولَها في الدين الحَنيف، من فضل الله عليها، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

وضَرَبَ كتابُ الله المَثَل للمسلمين بما وقع لبني إسرائيل، حيث أنزل الله التوراة على نبيهم موسى عليه السلام، وبدلاً من أن يحافظوا عليها، ويعملوا بمقتضاها، ويتفادَوْا تحريفها، ضيَّعوا

أمانتها، ولم يحملوها على الوجه المطلوب، بل حرفوها وأوّلوها طِبقاً للهَوَى المتَّبع والرأي المرغوب، وكتابُ الله بذكره لِلتوراة وما أصابها من الإهمال، وإشارته إلى العوامل التي قضت على كثير من أحكامها بالإبطال، يريد أن يحَذِّر المسلمين من الوقوع في نفس الغلط وارتكاب نفس الهفوة، بالنسبة للقرآن الكريم، ويريد أن يحضهم على التمسك بكتاب الله وشريعته قولاً وفعلاً، وعلى حمل أمانته باستمرار، وحفظه والمحافظة عليه جيلاً بعد جيل، وذلك قولُه تعالى: ﴿ مَثَلُ اَلذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ اِلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِيسَ مَثَلُ الْقَوْمِ اِلذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِ اِللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى اِلْقَوْمَ اَلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

ومن هنا اتَّجهَ الخطاب الإلٓهي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، يُلَقِّنُه ما ينبغي أن يرُدَّ به على بعض دعاوى اليهود، فقد كانوا يفخَرون على غيرهم بأن الله يخُصُّهم بالحب والموالاة دون بقية الناس، وهذه الدعوى تقتضي أن يحرصوا على مفارقة الحياة الدنيا بسرعة، وأن يحبوا الموت العاجل، رغبةً في لقاء الله، حتى يتمتعوا في الآخرة برضوان الله، لكنهم على العكس من ذلك يَفِرُّون من الموت، ويكرهون لقاءها والتعرض لها، بسبب ما قدمتْه أيديهم من السيئات، وهم «أحرص الناس على حياة»، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا اَلذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمُ أَنَّكُمُ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ اِلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ قُلِ اِنَّ اَلْمَوْتَ اَلذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وانتقل كتابُ الله إلى تقعيد قاعدة أساسية من قواعد الإسلام، وتأصيل أصل عظيم من أصول الدين، ذلك أنَّ الدين الإسلامي دين توازن وتوسط واعتدال، لا يُرجِّح جانبَ الروح على حساب المادة، ولا جانبَ المادة على حساب الروح، بل يُعطِي لكلا الجانبين حقَّهما المشروع، ويَحُضُّ المومن على أن يعمل لينال في الدنيا حسنة، ويعمل لينال في الآخرة حسنة. وهذا المعنى واضح كل الوضوح فيما دعا إليه كتاب الله من إيقاف البيع عند النداء لصلاة الجمعة، والسعي إلى ذكر الله مع جمهرة المومنين المصلين، ثم ما دعا إليه من الانتشار في الأرض، وابتغاءِ فضل الله عند الانتهاء من صلاة الجمعة، وبذلك جمعَ كتابُ الله بين مصلحة المومن المادية وحاجته الروحية، دون إجحاف بأيّ واحد منهما، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، ولذكر «الجمعة» وصلاتها في هذه الآية سميت السورة «سورة الجمعة»، والمراد بقوله تعالى هنا: ﴿ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾: أي تأهَّبوا لصلاة الجمعة واهتموا بالسير إلى حيث تقام، قال ابن كثير: «وليس المراد بالسعي هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُومِنٌ ﴾ (الإسراء: ١٦)، فأما المشي السريع إلى

الصلاة فقد نُهِي عنه، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَة فَامْشُوا إِلَى الصَّلاَةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، ولا تُسْرِعُوا، فَمَا أدركْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا».

وبهذه المناسبة عاتب الله فريقاً من المومنين كانت لهم علاقات تجارية مع قافلة لدِحْيَة بن خليفة وصَلت المدينة، والرسولُ ﷺ يخطب على المنبر، واستعملت الطبول لإعلام زبنائها، فتركوا رسول الله قائماً يخطب على المنبر، وذهبوا لقضاء مصالحهم خشية الفوت، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾، أي: تركوك قائماً تخطب الناس، ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ،وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾.

والآن وقد ختمنا بفضل الله سورة «الجمعة» المدنية ننتقل لتفسير سورة «المنافقين» المدنية أيضاً، مستعينين بالله، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من آيتها الأولى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾. ففي مطلع هذه السورة يتحدث كتاب الله عن تصريحات المنافقين وأقوالهم المعسولة: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾، كما يتحدث عن الأَيْمَانِ المغلَّظة والفاجرة التي يكثرون منها، تدعيماً لأحاديثهم، وتأييداً لدعاويهم، وتغطيةً لمواقفهم، وعصمةً لدمائهم وأموالهم، إذْ أنهم يُحِسّون من أعماق قلوبهم شكّ الناس فيهم وفي دعاويهم، فقد «كاد المُرِيب

أن يقول خُذوني» كما يقول المثل العربي.

ووصَف كتابُ الله ما يكون عليه المنافقون عادةً من حسن الهِندام وذَلاقة اللسان، وما يكونون عليه أيضاً من جُبن وهَلَع، وخوف وفَزَع، إذ أنهم يخشَون الفضيحة ويتوقعونها دائماً: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾، ﴿ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾، ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بتحذير رسول الله والمومنين من طائفة «المنافقين» التي هي أخطر من الكفار والمشركين، فقال تعالى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله ما عليه «المنافقون» من صَلَف وكِبْر، وما يقومون به من تَثْبيط العزائم، وَبَثّ روح الهزيمة في نفوس المومنين، حتى لا يَبَرُّوا بإخوانهم الفقراء الملتفّين من حول الرسول عليه السلام، وحتى يَكُفُّوا عن بذل أموالهم في سبيل الله، وإلى ذلك يشير قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ هُمُ الذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾. لكنَّ الحق سبحانه وتعالى ردَّ على المنافقين وسفَّهَ رأيهم، وعطَّلَ تدبيرهم، وأكد أن الوَقْع الذي يتوقعونه من دعاياتهم ودسائسهم لن يكون له أيُّ تأثير، بالنسبة إلى خزائن الله الواسعة، التي لا هَيْمنة عليها، لا لهم ولا لغيرهم من الناس، وما دامت رسالة الإسلام ودعوتُه مؤيدةً من عند الله، فاللَّهُ تعالى قد تكفل بإمدادها على الدوام، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾. كما تكفل الحق سبحانه بإعزازها وإذلال خصومها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا
مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا
فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُومِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُومِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُومِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في سورة «المنافقين» المدنية: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾، ونهايتُه قولُه تعالى في ختام سورة «التغابن» المدنية أيضاً: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

في بداية هذا الربع تُواجهُنا آيةٌ كريمة تَلْفِت نظر المومنين إلى أن خُطة الاعتدال والتوسط هي أرشد خطة يسلُكها المومنون، بالنسبة لأداء الحقوق والواجبات، بحيث يُؤدُّون حقوقَ الله كما يُؤدون حقوقَ أنفسهم وحقوقَ أهلهم وحقوقَ عامة الناس دون إفراط ولا تفريط، وبناءً على هذا الأساس لا ينبغي للمومنين أن تُلهيهُم أموالُهم، أو يُلهيَهم أولادُهم عن حقوق الله، فيهملُوها ويضيِّعوها، بدعوى أن مَشاغلهم المالية أو العائلية لا تترك لهم وقتاً للتفكير في أداء هذه الحقوق، وإذا كان الإسلام يعتبر لِلإنسان على نفسه حقاً، ولأهله وأولاده عليه حقاً، ويشجعُه على الوفاء بهذه

الحقوق، بل يطالبه بها إن قصَّر فيها أو أهملَها بالمرة، فإنه لا يَسمح للمسلم أن يسلك مسلك «الإفراط» في العناية بحقوقه الشخصية والعائلية، ويسلك مسلك «التفريط» فيما لِلّه عليه من حقوق، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾، فَمَصَبُّ النهي في هذه الآية وما شابهها ليس هو مجرد العناية بالأموال والأولاد، وإنما مَصَبُّ النهي بنص الآية هو الانهماك في الاشتغال بشؤون الأموال والأولاد، إلى حَدٍّ أن ينسى معه المسلمُ القيامَ بواجباته نحو الله، بحيث يستغرق استغراقاً تاماً في حظوظ نفسه وحظوظ عائلته، وفي ترضية شهواته المختلفة دون انقطاع، ويُلهيه مالُه وولَدُه عن الله.

وانتقل كتاب الله إلى حَضِّ المسلمين مرة أخرى على إنفاق أموالهم في سبيل الله، فقد كانت فريضة الجهاد التي فرضها الله عليهم ـ وهم بالمدينة ـ دفاعاً عن حوزة الإسلام ودولته الأولى، فريضةً كبرى تحتاج إلى مَدَد لا ينقطع، وتضحية مستمرة بالأموال والأنفس.

وبيَّن كتابُ الله أنَّ «خير البر عاجلُه» وأن الصدقة قبل «حلول الأجل» أضمن منها عند حلوله وأكثر ثواباً، إذ عند «حلول الأجل» لا يبقى أيُّ مجال للانتظار ولا لتدارك ما فات، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ اجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

والآن فلننتقل إلى «سورة التغابن» المدنية أيضاً، وقد سميت بهذا الاسم أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ ذَالِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾، وهي آخر السور المبدوءة بتسبيح الله، المعروفة «بالمسبّحات» من بين سُور القرآن الكريم.

وبعد ما سجلت فاتحةُ هذه السورة تَوَجُّهَ جميع المخلوقات إلى ربها بالتنزيه والحمد: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الَارْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، إن لم يكن منها كُلِّها بلسان المقال، فبلسان الحال في كل الأحوال، انتقلت الآياتُ الكريمة إلى التعبير عن حقيقة طبيعية ونفسية مَيَّزَ الله بها الإنسان من بين جميع المخلوقات، ألَا وهي تزويدُه بالاستعداد التام، للاِتّجاه نحوَ الخير إن أراده، والاِتّجاه نحو الشر إن رغب فيه، وجعلَه حراً في اختيار ما يشاء من الهُدَى أو الضلال، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ هُوَ اَلذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّومِنٌ ﴾، أي أنَّ مَن اختار الكفر منكم كفر، ومَن اختار الإيمان منكم آمن، ومن حرية الاِختيار التي زوّد اللَّهُ بها الإنسان نشأت مسؤوليتُه عن عمله، وجزاؤُه خيراً إن عمل خيراً، وشراً إن عمل شراً. أما من ناحية الخَلْق والتكوين فقد خلق الله الإنسانَ متساوياً مزوَّداً بنفس الملَكات اللازمة، ونفس الأجهزة الضرورية، وله بعد ذلك أن يختار، وعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره في الدنيا وفي الآخرة، وقد جاء التعقيب المناسب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾،

أي: أنه سبحانه يُحصى أعمالكم، ويراقب اختياراتِكم، ثم يجازيكم عليها بما أنتم أهل له.

وعاد كتاب الله إلى التذكير بقدرة الله، والتنويه بحكمته، المتجلِّية في خَلق السماوات والأرض، وفي تصوير الإنسان على أحسن صورة، وفي ذلك تنبيهٌ للإنسان ـ ولا سيما إذا كان منحرفاً عن الحق ـ إلى أن يعود إلى الله، ودعوةٌ له إلى أن يتدبر آياته في الآفاق والأنفس، إذ لا فضل عليه لأحد سواه، فهو الذي خلقه أحسن خَلق، وصوَّره أحسن صورة، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وهو الذي يستحق أن يُحمَد ويُشكَر ويُعبَدَ ولا يُكفرَ، لا سيما وأن منه كان البَدأ، وإليه ستكون العودة، وذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، يشير بالأصالة إلى تكوين الخِلْقة الإنسانية وصُنعها في حد ذاتها، وإلى هندستها الفريدة بين المخلوقات، وإلى ما مَيَّزها الله به من أجهزة ووظائف وخصائص جعلت الإنسان عموماً «سيد الأحياء» المتفوِّق عليها جميعاً، ولو كان شكلُ بعض أفراده دَميماً وغيرَ جميل، فجمالُ الخِلقة الإنسانية، وكمالُ التركيب الإنساني لا يختلَّفان، بالنسبة لغيره من الحيوانات غير الناطقة، وإن كانت أشخاصُ الإنسان تتفاوت بعضُها عن بعض في نسبة الجمال والتناسب.

ثم وضَّحَ كتابُ الله أنَّ عِلم الخالق سبحانه محيط بجميع

خَلقه، بحيث لا يخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه مطلع على ظواهر الناس وبواطنهم دون أيّ فرق ولا استثناء، وبذلك لا يستطيع الإنسان ـ وإن أسَرَّ ما في نفسه، وأخفى ما في صدره ـ أن يتملَّص من رِقابة الله، أو أن يتخلص من عين الله التي تراه «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فما على المومن إلّا أن يحسُب الحساب لِرقابة الله عند كل خطوة يخطوها نحو الخير أو الشر، وأن يُقَدِّر نتائجَ عمله وعواقبَه كل التقدير، وإلى هذا المعنى يُنبِّه قولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى اِلسَّمَـٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ اِلصُّدُورِ ﴾.

وذكَّرَ كتابُ الله مشركي قريش ومن لَفَّ لَفَّهم بمصرع الأمم الغابرة التي تمردت على طاعة الله، وتنكرت لأنبيائه ورسله، واستكثرت على أفراد من البشر يعيشون بين ظهرانيها أن يختارهم الله لرسالته، بدلاً من إرسال ملائكته، فأنِفَت من طاعتهم، واستكبَرت عن اتّباعهم، فعاقبها الله بالخَبال والوبال، وقضى عليها بالخراب والدّمار، وذلك قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَؤُاْ الذينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّاتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّاسْتَغْنَى اَللَّهُ﴾ أي: استغنى عنهم، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

وكتابُ الله عندما يُذَكِّر مشركي قريش بهذه الحقائق والوقائع يريد أن يُبطل اعتراضهم على رسالة سيدنا محمد ﷺ، فاعتراضُهم هو من جنس اعتراض الأمم الغابرة التي أصبحت في خبر كان، ولو حققوا في الأمر لأدركوا أن الرسالة المحمدية

وماسبقها من الرسالات إنما هي كرامة من الله للجنس البشري الذي استخلَفه في الأرض، وحمَّلَه أمانة «التكليف»، وإذا كان الحقُّ سبحانه قد أَوْجَدَ الإنسان من العَدم، ونفخ فيه روح الحياة الناطقة، التي ميَّزه بها على بقية الأَحياء، فما المانعُ أن يَخْتار من بين خَلقه مَن يؤهلهم لاستقبال رسالته، وتلقِّيها من الملأ الأعلى، ثم حملِها وتبليغِها إلى كافة الناس: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وأَثَارَ كتابُ الله من جديد قضيةَ «البعث والنشأة الآخرة» وردَّ على مزاعم المشركين والكافرين، المنكِرين لهذه الحقيقة الثابتة، مُبيِّناً أن «النشأة الآخرة» في منطق العقلاء هي أَيسر وأقرب من «النشأة الأولى» لو كانوا يعقلونَ.

قال ابن كثير: «أَمر اللَّهُ رسولَه أن يُقسِم بربه عزّ وجلّ على وقوع المَعاد ووجوده في ثلاث آيات من كتاب الله:

ـ الآية الأولى في سورة (يونس: ٥٣): ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

ـ والآية الثانية في سورة (سَبأ: ٣): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾.

ـ والآية الثالثة هنا في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

وبعد قَسَم الرسول ﷺ بربه على تَوْكيد أمر البعث ثلاث

مرات في ثلاث سور لا يبقى محل لأي تَوكيد آخر».

ووجَّه كتابُ الله خطابَهُ إلى المومنين ليزدادوا إيماناً بالله ورسوله، وليستضيئوا بالنور الذي نَزَل معه، وهو «نور القرآن»، فهو في حقيقته نور منبثق من نور الله: ﴿ اَللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥)، وهو في آثاره الظاهرة والباطنة نور لا يعادله أيُّ نور، فَبِه تُشرِق القلوب، وتنشرح الصدور، وبه يَخرُج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى في هذا الربع وفي هذه السورة أيضاً: ﴿ وَمَنْ يُومِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وانتقلت الآياتُ الكريمة للحديث عن يوم القيامة، وما يناله فيه المومنون «المصدِّقون»، والكافرون «المُكذِّبون» وبيَّنَ كتابُ الله أن «يوم الجَمْع» هو «يوم التغابن» وسُمِّي يومُ القيامة «يوم الجَمْع» لأنه سيُجمَع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، من جميع الأجيال ومن جميع الخلائق. بما فيهم ملائكة الرحمان، وسُمِّي يومُ القيامة أيضاً «يوم التغابن» نظراً لأنه يفوز فيه فريق بدخول دار النعيم، ويخسر فيه فريق بدخول دار الجحيم، فالخاسرُ «مغبون» بالنسبة للفائز، ولا أمل له في الرجوع «بالغبن» أبداً. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ اِلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾.

وكما ابتدأت الآيات في هذا الربع بحَضِّ المومنين على

عدم الاستغراق في الشؤون الشخصية والعائلية، إلى حَدٍّ أن تَضيعَ معهُ حقوق الله، التي لا يسوغ التفريط فيها، إذْ قال تعالى فيما سبق: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾، عادت الآيات الكريمة إلى الحديث في آخر هذا الربع عن نفس الموضوع، فبيَّنت أن تكاليف الزوجات والأولاد، ورغباتِهم وشهواتِهم، قد تُعرِّض الزوج والوالد إلى التفريط في حقوق الله، أو تدفعُه إلى الاعتداء على حقوق الناس، وذلك حرصاً منه على تلبية رغبات عائلته وخدمة مصالحها، وبذلك تنقلب الزوجة «عدُوّاً» لزوجها، وينقلب الأولاد «أعداء» لوالدهم، إذ يُورِّطونه فيما لا تُحمد عقباه، مع الناس ومع الله، ويُوقِعُونه في مآزقَ لا مخرجَ له منها إن لم يصحبه لُطف الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، وهذا تنبيه من الله للزوجات والأولاد، حتى لا يُكثِروا من الضغط على الأزواج والوالدين، إذْ رُبَّما دفعهم ذلك الضغط إلى ارتكاب ما لا يرضى عنه الخُلُق والدين، ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).



الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ

أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ
لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ
لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ○
وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ
وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ
ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ
وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾
رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ○

الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، وهذا الربع يستغرق بتمامه سورة «الطلاق» المدنية من بدايتها، وهي قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰأَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾، إلى نهايتها، وهي قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدَ اَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾.

أكثرُ ما يدور عليه الحديث في هذا الربع من كتاب الله المحتوي على سورة «الطلاق» المدنية هو بيان أحكام الله في الطلاق وتوابعه، اهتماماً بشؤون الأسرة الإسلامية، وحرصاً على ضمان حقوق أعضائها في مختلِف الظروف، وقد وُجِّهَ الخطابُ في أول هذه السورة إلى النبي ﷺ بصفته المسلمَ الأوَّل والرئيسَ الأعلى للأمة الإسلامية جمعاء، فقال تعالى في بداية الخطاب: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّبِيءُ ﴾، ثم وُجِهَ الخطابُ بعده مباشرةً إلى أمته: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ الآية، وَالشأنُ في خطاب الله

الموجَّه إلى رسوله أن يكون شاملاً له ولأمته، كما يكون خطابُ الله الموجَّهُ إلى الأمة شاملاً لها وللرسول، إلَّا فيما اختصَّ به الرسول عليه السلام من «الخصائص».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، أمرٌ من الله للزوج المسلم إذا اضطر إلى طلاق زوجته بأن لا يُطلِّقها وهي حائض، وإنَّما يُطلِّقُها بعد أن تَطْهُر من الحَيض، وتكون في طُهر لم يُباشِرْها فيه بالمَرَّة.

رُوِي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، أنه قال: «لا يطلقُها وهي حائض، ولا في طُهر قد جامَعَها فيه، لكن يَتْرُكها، حتى إذا حاضتْ وطَهُرتْ طلَّقها تطليقة»، أي: واحدة، وقال عكرمة: «لا يطلِّقُها وقد طاف عليها، ولا يدرِي حُبْلَى هي أم لا».

قال ابن كثير: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقَسَّموه إلى طلاق «سنّة» وطلاق «بدعة». «فطلاق السُّنّة» أن يطلِّقها طاهرةً من غير جماع، أو يطلقَها حاملاً قد استبانَ حَملُها، و«البِدْعِيّ» هو أن يطلِّقها في حال الحيض، أو في طُهر قد جامَعها فيه، ولا يَدرِي أحَمَلتْ أم لا. وطلاقٌ ثالث لا سُنّة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة، والآيِسَة، وغيرِ المَدخُولِ بها».

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَحْصُواْ الْعِدَّةَ ﴾، أمر بإحصاء أيام «العِدَّة» لِمعرفة بدايتها ونهايتها، حتى لا يقع الغلط بالزيادة، فتطول مدّتُها على المرأة، ويتأخر زواجُها من الغير، أو بالنقص، فتقصُر مدةُ

العِدّة، وتتزوجُ المرأة قبل انتهاء أَمَد العِدَّةِ المحدود. وتـوكيداً لِامتثال هذا الأمر والتدقيق في تنفيذه عَقَّب عليه كتاب الله بقوله: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾، أي: التزموا تقوى الله في هذا المجال، ولا تُعَرِّضُوا أوامره للإهمال أو للإبطال.

وقولُه تعالى: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾، يقتضي أنه إذا طلق الرجلُ زوجته فليس له الحق في أن يُخرجها من بيته ما دامت في عِدَّتها، إذْ هي «معتدة» منه بالخصوص، وبذلك كان لها على الزوج المـطَلِّق حقُّ السكنى، واختيارُ القـرآن الكريم لاستعمال لفظ «بيوتهن»، بدلاً من استعمال لفظ «بيوتكم» تأكيدٌ للنهي عن إخراجهن، وإشارةٌ إلى أنَّ حق الزوجة في السكنى لا يزال قائماً بحكم «الاِستصحاب» وما دامت المرأةُ معتدةً فإنها تعتبرُ كأنها في بيتها، وكما أنه لا يجوز للزوج إخْرَاجُها من البيت، فإنها لا يجوز لها أيضاً الخروج منه، صِيانةً لحق الزوج أيضاً، رُوِي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما السكنى والنفقة للمرأة إذا كان لزوجها عليها رَجْعَة» الحديث.

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾، يقتضي أن المرأة لا تُخرَجُ من بيتها إلّا إذا ارتكبت فاحشة مُبَيِّنة، و«الفاحشة المُبيِّنة» تشمل الـزنا كمـا قالـه ابن مسعود وابن عبـاس، ومن وافقهما، وتشمل ما إذا نَشَزَت المرأةُ، أو بَذَتْ على أهل الرجل وآذَتْهم في الكلام والفِعَال، كما قاله أُبيٌّ بن كعب وعِكرمة، ومَن وافقَهما، وحمَلَها ابنُ عمـر على «خروج المـرأة من البيت بغير حق».

وقولُه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾، يقتضي وجوبَ احترام المسلمين لِشرائع الله كما شرعها، وعدمَ انتهاككم لحُرُماته كما يقتضي تحذيرَهم من الخروج عنها، وتركَ الِائتمار بها، لأنَّ في الخروج عنها وعدم احترامها إضراراً من الإنسان بنفسه قبل غيره، فمَن أهملَ جُزءاً من الشرائع ولو قَلَّ، احتاج إليه ولم يجده، وصدَقَ عليه المثلُ العربي: «على نفسِها جَنَتْ بَرَاقِشُ».

وقولُه تعالى: ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً ﴾، إشارةٌ إلى الحكمة التي توخاها الشارع في إبقاء المرأة المطلَّقة خلال مدة العِدَّةِ ساكنةً في منزل الزوجية، وحيث «أن أبغضَ الحلال إلى الله الطلاق» كما قال ﷺ فقد شَرَع الله العِدَّةَ عقِب وقوع الطلاق، وألزمَ الزوجَ بإبقاء زوجته المطلَّقة في بيتها خِلال مدة العِدَّة، عسى أن يندَم الزوجُ على طلاق زوجته، ويُلقِيَ الله في رُوعِه الرغبةَ في ارتجاعها، فيكون أمرُ ارتجاعها أيسر وأسهل، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ أمراً ﴾ في الآية، وهو دليل واضح على كراهة الإسلام للطلاق وعدم تشجيعه عليه، وتهيئته الجوَّ الصالح للندم، والعودة إلى الحياة الزوجية العادية، رُوي عن فاطمة بنت قيس في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً ﴾، قالت: «هي الرَّجْعة»، وكذا قال قتادة وعطاء والثوري والشعبي ومَن وافقهم.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾، يقتضي أنه إذا «قارَبَت» المرأة المطلَّقة وقتَ

انقضاء عِدَّتها، وعزَم الزوجُ على ارتجاعها وإعادتها إلى عصمته، فله الحق في إمساكها بالرجعة، والاستمرارِ بها على ما كانت عليه عنده، لكن مع الإحسان إليها في عِشرتها وصُحبتها بالمعروف، كما أنه إذا أصرَّ على مفارقتها، ولم يلحقْه أيُّ نَدَم ولا تراجُع خلال فترة العِدَّة فله ذلك، لكن يجب عليه أن يفارقَها بالمعروف وعلى وجه جميل، دون مُقابَحة ولا مُشاتَمة ولا تَعنيف ولا ضِرار.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أمرٌ من الله بالإشهاد على الرجعة إذا عزم الزوج على ارتجاع زوجته المطلَّقة، وكان عطاء يقول: «لا يجوزُ في نكاح ولا طلاق ولا رِجَاع إلاّ شاهدَا عدل كما قال الله عزّ وجلّ، إلاّ أن يكون من عُذر» وسئل عِمْرَانُ بن حُصَيْن عن الرجل يُطلِّق المرأة ثم يقع بها، ولا يُشهِدُ على طلاقها ولا على رَجْعتها فقال للسائل ولعله هو نفس الرجل: «طَلّقْتَ لغير سنّة، ورَاجَعْتَ لغير سنّة، أشهِدْ على طلاقها وعلى رَجْعَتِها، ولا تَعُدْ».

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، حضٌ للمومنين على احترام ما أَمَرَ الله به من الإمساك بالمعروف، والفراق بالمعروف، والإشهاد على الرجعة بعد الطلاق، مثل الإشهاد على النكاح حين العقد.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، حمله عكرمة على أن المراد به «مَن طَلَّق كما أمره الله»، أي: التزم في فراقه لزوجته عند اضطراره لفراقها

مقتضياتِ الإحسان والمروءة والمعروف، «يَجْعَل اللَّهُ له مَخْرَجاً»، وبهذا التفسير جعل عكرمة هذه الآية مرتبطةً بنفس الموضوع. ونفسُ هذا الرأي رُوي عن ابن عباس والضَّحاك. وقال السُّدّي: «معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾، أي: من يُطَلِّقْ للسنّة، ويُراجِعْ للسنّة، يجعلِ اللَّهُ له مَخرجاً» يريد بذلك مَن اتبعَ السنةَ في طلاقه وفي رجعته، ولم يَجِدْ عنها مطلقاً. وحمل ابنُ مسعود هذه الآية على معنى أوسعٍ وأعم فقال: «أن أكبر آية في القرآن فَرَجاً، هي: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ ».

وقولُه تعالى: ﴿ وَالّٰئِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالّٰئِى لَمْ يَحِضْنَ ﴾، يقتضي أن المرأة إذا يئست من الحيض لكِبَرها وانقطاعِ الحيض عنها فإنَّ عدتها إذا طلقها زوجُها تنحصر في ثلاثة أشهُر، وذلك بدلاً من «الثلاثة قُرُوء» المقرَّرة في حق المرأة التي تحيض، حسبما سَبَق في سورة البقرة (٢٢٨)، كما أن المرأة الصغيرة التي لم تبلُغ سنَّ الحَيض إذا كانت متزوجة وفارقَها زوجُها فإن عِدَّتها تنحصرُ في ثلاثة أشهر أيضاً مثل عِدة الكبيرةِ الآيِسة سواءً بسواء.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾، معناه إن ارتبتُمْ في حُكم عِدَّتهنَّ ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا التفسير مرويّ عن سعيد بن جُبَيْر. قال ابن كثير: «وهو اختيارُ ابن جرير الطبري، وهو أظهر في المعنى».

وقولُه تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ

حَمْلَهُنَّ ﴾، يقتضي أن المرأة المطلَّقة إذا كانت حاملاً فعِدَّتُها تنتهي بمجرد وضع حَملها، فالعبرة بوضع الحمل لا غير. قال ابن كثير: «وهذا هو قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نصُّ هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنَّة النبوية».

وقولُه تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾، هذا أمرٌ من الله للأزواج بإسكان الزوجة المطلَّقة إلى أن تَنقضي عدَّتُها، ومعنى ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾، أي: من سَعَتكم. قال قتادة: «إن لم تجد إلّا جنب بيتك فأسكِنْهَا فيه».

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾، يقتضي منع الرجل من الضغط على المرأة، بُغيةَ أن تفتدي منه بمالها، أو بُغيةَ أن يُخرجها من مَسكنها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾، حمَلَه البعضُ على المطلقة «طلاقاً بائناً» إذا كانت حاملاً، فإنَّ الرجل يُطالَب بالإنفاق عليها حتى تضعَ حملها، وإلى هذا التفسير ذهب ابن عباس وطائفة من السلف والخلف. وحمله البعض على المطلَّقة «طلاقاً رجعياً» باعتبار أن السياق كله في الرجعيات.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾، يقتضي أنه إذا وَضَعت المرأةُ المطلَّقة حملَها فقد بَانَتْ بانقضاء عِدتها، ولَها حينئذ أن تُرضع الولد، ولها أن تمتنع عن رضاعه، لكن بعد أن تُغَذِّيهُ «ببَاكُورَة اللَّبن» الذي لا قِوام للمولود غالباً إلاّ

به، فإن عاقَدتْ أباه أو وليَّه كان لها من الأُجرة على رضاعه ما اتَّفقا عليه، وإن لم تُعاقِدْ على ذلك استحقَّتْ أُجرةَ مثلها.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾، يقتضي أنه إذا اختلف الرجل والمرأة في أُجرة الرضاع فله أن يسترضع لولده غيرَ أُمه، لكن إذا رضيت الأُمُّ بما يُستأجر به غيرُها كانت أحقَّ بولدها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ﴾، أي: لِيُنفِقْ والدُ المولود أو وليُّه على الولد، بحسب استطاعته وقدرته.

وخُتمت سورة «الطلاق» بالإشارة إلى عاقبة المكذبين، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾، وبدعوة المومنين إلى تقوى الله والعمل الصالح، ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، وبوصف ما ينتظِرُ الفريقَ الأول من العقاب، ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾، وما ينتظِرُ الفريقَ الثانيَ من الثواب، ﴿وَمَنْ يُومِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُّدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً قَدَ اَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾، وبتذكير المومنين بقدرة الله الواسعة وعلمه المحيط بكل شيء، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدَ اَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ
وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ
عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا
عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا
خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ
ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «التحريم» المدنية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾، إلى قوله تعالى في ختام نفس السورة: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾.

وأولُ ما يَلْفِتُ النظر في هذا الربع أن الآية الأُولى منه لها علاقة وثيقة بقوله تعالى في سورة المائدة (٨٧): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾، غير أن الصيغة التي وردت بها في هذا المقام، والسؤالَ الذي جاء في سياقها، وتوجيهَ الخطاب بالخصوص فيها إلى الرسول عليه السلام دون غيره، جعلَها تكتسي صبغةً خاصة، وتتضمن معنى جديداً زائداً على ما في آية «المائدة». وهذا المعنى لا يخرُج عن كونه عتاباً رقيقاً من الحق سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام في بعض شؤونه العائلية، وتنبيهاً خفيفاً إلى الحَلِّ الأَمثلِ في أمره، فقد كان

الوحيُ الإلّهيُّ يتتبع خطوات الرسول بالتوجيه والرعاية باستمرار لا فرق في ذلك بيْن حياته العامة، وحياته الخاصة، وصدق رسولُ الله عندما قال: «أدَّبني ربي فأحسَن تأديبي».

وكما أدَّب رسولُ الله ﷺ زوجاتِه على ما فاه به بعضُهن من الهَفوات في حقه أوفى حق شريكاتهن، فاعتزَلَهُنَّ «مِن شِدة مَوْجِدَته عليهنَّ» ها هو كتابُ الله يدعُوه إلى وضع حد لذلك الحادث الطارىء، واستيناف حياته العائلية في وئام وانسجام، بينه وبين زوجاته، وبين زوجاته بعضِهن مع بعض، طبقاً لما هو معهود في بيته الشريف.

وليس غريباً من أمر الرسول عليه السلام أن يتأثر شعورُه الرقيق من هفوات بعض الزوجات، لما تُثيره بينهنَّ من الحَساسيات، ما دام عليه السلام هو في وقت واحد «بشراً رسولاً»، وإن كان عند رَبه وعند الناس بشراً لا كالبشر، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤). كما أنه ليس غريباً أن يقف كتابُ الله إلى جانب رسوله في هذه الحادثة بالتوجيه والتسديد، ثم بالتأييد المطلق والتعضيد.

وإلى الموقف الذي اتخذه الرسول عليه السلام من الامتناع عن معاشرة زوجاته، واعتزالهن فترةً من الزمن في مَشْرُبَة خاصة، يشيرُ قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وإلى السبب المُباشر الذي حدا بالرسول إلى اتِّخاذ هذا الموقف يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ

ٱلنَّبِىٓءُ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ولا يَبعدُ أن يكون لذلك الموقف أسبابٌ أُخرى كانت قد أدّت من قبل إلى شيء من التوتُّر بين زوجات الرسول بعضِهن مع بعض، فلمّا طرأ هذا الحادث الأخير رأى رسولُ الله من الحكمة والحزم أن يَقف منه موقفاً حاسِماً، ويضعَ له حدّاً فاصلاً، حتى لا يتكررَ مثلُه مرة أخرى، وحتى لا يشغَلهُ شيء من هذا النوع عن مَهامّ الرسالة العظمى، التي وكَلَها اللّهُ إليه.

أمّا تأييدُ الله لرسوله ووقوفُه إلى جانبه موقف التعضيد، هو وجنودُه التي لا يُحصيها إلاّ هو، فقد فصّل كتابُ الله القول فيه تفصيلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، وفي هذه الآية الكريمة إنذارٌ صريحٌ بعاقبة التجنّي على رسوله الأمين، واشتباكٌ في الحرب مع الله والملائكة والمومنين، ثم قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾، ففي هذه الآيات الكريمة أيضاً تحذيرٌ صريح، لأمهات المومنين، من مضايقة الرسول عليه السلام، وشَغْله بأمور جانبية يتعذّرُ معها الوئامُ والانسجام، وفيها توجيهٌ خاصٌّ لأمهات المومنين «الثيِّبات منهن والأبكار»، إلى المزيد من التحَلّي بجميع الصفات الفاضلة التي تتناسَبُ مع مقام زوجات الرسول، من «إسلام» يُهيمِن على

الجوارِح ، و «إيمانٍ» يعمُر القلوب ويشرحُ الصدور، و «قُنُوتٍ» يتجلَّى أثَرُه في الطاعة والخشوع، و «توبةٍ» تدفع إلى تدارُك ما فات، والحَذَر مما هو آت، و «عِبادةٍ» تصلُ المخلوق بالخالق، و «سياحة» بالصوم أحياناً، والتأمل بالفكر والروح في مَلَكوت الله الواسع، ومُلكه الشاسع، أحياناً أخرى.

وفي خلال هذه الآيات البينات وجَّه كتابُ الله الخطاب مباشرةً إلى الزوجتين اللتين كان لهما أثر في إثارة هذا الحادث، يدعوهما من الآن فصاعداً إلى تجَنُّب فلَتات اللسان، والتحفُّظ في كل ما ينبغي فيه التحفظُ والكِتمان، حفظاً لذات البَيْنِ بين جميع أمهات المومنين، عليهن الرحمة والرضوان، فقال تعالى مُشعِراً لهما بوجوب المُبادرة إلى التوبة مما فَرَط منهما في حق الرسول عليه السلام، وداعياً لهما إلى الاعتصام بحسن الظن وصَفاء السريرة على الدوام: ﴿ إن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾.

وبعد أن ألقينا بعض الأضواء على الحادث الطارىء الذي أزعج هناء البيت النبوي الشريف، وجمعنا في نَسَق واحد الآيات التي ألَمَّت بجميع أطرافه، وما تضمنته من توجيهات إلَهيةٍ خاصّة بالرسول الكريم وأزواجِه الطاهرات، نَنْتَقِلُ إلى الآيات الكريمة الأخرى، التي لها طَابَع توجيهي عامّ لجميع المومنين والمومنات، وذلك قولُه تعالى في الآية الثانية من هذه السورة: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ إلى آخر الآية، وقولُه تعالى في الآية السادسة منها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾، إلى آخر الآية.

ففيما يخص الطريقة المثلى للتحلل من اليمين إذا ظهر عند التدبُّر في عواقبه أنَّ غيره خيرٌ منه شرعاً وطبعاً يَنبغِي للمؤمن أن لا يَتأخَّر عن فعل ما هو خير، بدلاً مما حَلَف عليه، وفي نفس الوقت يُكَفِّرُ عن يمينه، طبقاً لما شَرَعه الله في «كفارة اليمين»، تعظيماً لاسم الله الأقدس، الذي وقع الحَلِفُ به، وعملاً بمقتضى الرعاية الإلّهية، والحكمة الربانية، والعلم المحيط بخلَجات النفوس، ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَيْكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. وهذه الكفارة هي التي سبق بَيانها بالتفصيل في الآية الواحدة والتسعين من سورة «المائدة» حيث قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وفيما يخُصُّ المثَلَ الأعلى لتربية النفس والأهل والأولاد دعا كتابُ الله الجميعَ إلى أن يجعلُوا بينهم وبين ما يُوجِب عقابَ الله وعذابَه في الدنيا والآخرة وقايةً فعّالة وحجاباً منيعاً: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾، والأهلُ يشمل الزوجة والأولاد وما أُلحق بهم، والوقايةُ السابقة خيرٌ من العلاج اللاَّحق، ووقايةُ النفس تكون بالسلوك الحسن الذي يقيها من الزّلات والعثَرات، ووقاية الأهل تكون بحسن توجيههم وتقويم اعوجاجهم، ووقايةُ الأولاد تكون بحسن تربيتهم، والعمل المتواصل على إعدادهم للحياة الصّالحة ديناً ودنيا منذ الطفولة الأولى. قال أبو بكر (ابن العَرَبي)

المعافري: «فعلَى الرجل أن يُصلح نفسه بالطاعة، ويُصلح أهلَه إصلاحَ الراعي للرعية، وكما يُؤدِّبُ ولدَه في مصلحتهم يؤدِّبُ أهلَه فيما يُصلِحه ويُصلِحهم أدباً خفيفاً». وقال أبو بكر الرازي الجصّاص: «وهذا يدلُّ على أنَّ علينا تعليمَ أولادنا وأهلينا الدِّينَ والخيرَ، وما لا يُستغنَى عنه من الآداب، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه: ١٣٢)، ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، ويدل على أن لِلأقرب فالأقرب مِنا مزيَّةً، في لزومِنا تعليمَهم، وأمرَهم بطاعة الله تعالى، ويَشهَدُ له قول النبي ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، ومعلوم أن الراعي كما عليه حفظُ من استُرْعِيَ وحمايتُه والتماسُ مصالحه فكذلك عليه تأديبه وتعليمه).

وبذلك يكون الأزواج والآباء «قوامين» بالمسؤولية الدينية والاجتماعية الملقاة على عواتقهم خير قيام، وتكون حياتُهم الشخصية والعائلية في مأمَن من الهزّات والأزمات، وإلاّ حَقت عليهم وعلى من يَقعُ تحت ولايتهم كلمةُ العذاب، في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤). ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نحَلَ وَالِدٌ ولَداً خيراً من أدب حسن».

ووَصَفَ كتابُ الله «وَقُود النار» التي تُهدد النَّفس والأهل والولد بكونه من الناس أولاً، ومن الحِجارة ثانياً، كما وَصفَ المكلَّفين بإيقادها من الملائكة بكونهم «غِلاظاً شداداً» على من استَحقُّوا عذاب الله، جزاءَ تفريطهم في حقوق العباد وحقوق الله،

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا اَلنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اَللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾.

ثم دعا كتابُ الله جميعَ المومنين إلى التوبة مما اقترفوه من الذُّنوب «توبةً نصوحاً»، مُبَيِّناً لهمُ أنّ باب التوبة مفتوح على مِصْراعَيْه في وجوههم دون واسطة أيّ مخلوق، فما عليهم إذا أغراهمُ الشيطان وانخدعت له النفس الأمّارة بالسوء إلاّ أن يُبادروا إلى ذكر الله واستحضاره، والإنابة إليه واستغفاره، ليستأنِفُوا حياتَهم الأُولى، حياةَ الطاعة والتقوى والخشوع والإنابة، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ تُوبُوٓاْ إِلَى اَللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمُ أَنْ يُّكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا اَلْأَنْهَٰرُ ﴾.

و«التوبة النصوح» فيما قاله العلماء: هي أن يُقلع المومن عن الذنب في الحاضر، ويندَم على ما سلَف مِنه في الماضي، ويَعزِم على أن لا يفعل الذنب في المستقبل. رُوِي عن الحسن أنه قال: «التوبةُ النَّصوح أن تُبغض الذنب كما أحببْتَه، وتستغفرَ منه إذا ذكرتَه». قال ابن كثير: «فأما إذا جزَم بالتوبَة وصمَّم عليها فإنها تَجُبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، والتوبةُ تَجُبُّ ما قبلَها».

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اِللَّهُ النَّبِىٓءَ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، هذا وَعْدٌ صادق من الله

لنبيه وللمومنين، وامتنان عليهم بالنور الإلهي الذي سيُشِعُّ عليهم، فيُعرَفون به من بين الأمم، ويهتدون به وسط الزِّحام الرهيب يوم الحشر إلى مَقَرِّهم في جنة الخلد، مُتميِّزين بذلك عن بَقِية الخلائق والأمم.

وقولُه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، هذا تجديدٌ من الله لأوامره الصارمة، بمكافحة الكفر والنفاق، ومواجَهة الكفار والمنافقين، بمنتهى الحزم والصرامة، حتى تُقلَّمَ أظفارُهم، ولا يستطيعُوا إلحاق أيّ أذىً بالإسلام والمسلمين.

ثم ضربَت الآياتُ الكريمةُ المَثَل بنساء كافرات كُنَّ في بيوت الأنبياء، ومع ذلك لم تنفعْهن مُعايشةُ الأنبياء ولا معاشرتُهن لهم في الخَلاص من عذاب الله، لأنَّهنَّ لم يكُنَّ مومناتٍ بالدين الذي جاء به أُولئك الأنبياء، ومثال ذلك امرأةُ نوح عليه السلام، وامرأةُ لوط عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾، أي: كانتا على غير دينهما، ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾.

وضربَت الآياتُ الكريمة المَثَل بنساءٍ مومنات كُنَّ يعِشْنَ في بيوت الكفار، فعاملهنَّ اللّهُ بالحسنى، وأكرمهن بالرحمة والغفران، والجنة والرضوان، دون أن تُؤثِّر في مصيرِهنَّ مخالطَتُهنَّ للكفار، ولا معاشَرَتُهنَّ لهم، إذْ كُنَّ مومناتٍ بدين الحق، ولا يشارِكْنَ

أولئك الكفارَ في عقيدتهم الباطلة، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾.

ولَعَلَّ في هذه الأَمثال التي ضربها كتابُ الله بالنوع الأول والنوع الثاني من النساء بالخصوص في هذه السورة بالـذات، تنبيهاً لأمهات المومنين، فضلاً عن غيرهنَّ، إلى ما يجب عليهن من مزيد التَّفاني في طاعة الله ورسوله، وما يلزمُهنَّ من البُعد كل البعد عن كل ما يُنَغِّصُ عليه العيش، أو يجلب له الأَذى، حيث أنّ مجردَ القرب من الأَنبياء لا يُغني عن القيام بالواجب نحوَهم، ولا يَشفعُ في إهمال أيِّ حق من حقوقهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾
ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم
مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾
وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى
ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ
شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ
إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ
أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب السابع والخمسين من المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في فاتحة سورة «المُلْك» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَـٰرَكَ ٱلذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ونهايتُه قولُه جلّ علاه في سورة «القلم» المكية أيضاً: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾، وفي هذا الربع سنتناول بحول الله وقوته تفسير سورة «المُلْك» المكية بأكملها، وتفسير جزء من سورة «القلم» المكية أيضاً.

وسورة «المُلْك» تدعو إلى التأَمل في الحياة والموت وما وراءهما، وتبعث على التفكير في العالَم العُلْوي، والتَّملِّي من مظاهر الإبداع الإلٓهي، المبثوثة في آفاقه الواسعة، وتَحْدُو أَسرَاءَ الحِسّ إلى استِبطان دخائل نفوسهم، والاِهتمام بمراقبة ضمائرهم، عِلاوة على ضبط حواسِّهم، وتَحُضّ على التفكير في مصدر الرزق، وما يتعرضُ له من سَعَة وضِيق، وإمساك وإطلاق، وهي إلى جانب هذا كله تصفُ حالَ المومنين وحال الكافرين، ومصير المهتدين ومصير الضالين.

وقد تفرَّعت آياتُ هذه السورة كلُّها عن فاتحتها المتضمنة لحقيقة «المُلْك» وحقيقة «القُدرة»، إذْ قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

فمن «المُلْك» ومن «القُـدْرة» كان خَلْقُ المـوت والحياة، وكان الابتلاءُ بهما، وكان خلْقُ السماوات وتزيينها بالمصابيح، وكان العِلْم بالسِّر والجَهْر، وكان الرزقُ كما يشاء الله، ومَتَى شاء، وكان عذابُ الكافرين، وكان نعيمُ المومنين.

فقـولُه تعـالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ ﴾، إشـارةٌ إلى زيـادة بـركـة الله ومضاعفة نعمته، وشمول رحمتـه، وذلك نـوع من تمجيد الله، والتسبيح باسمه.

وقـولُه تعـالى: ﴿ ٱلَّذِى بِيَـدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾، تـذكيـرٌ لكـافـة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن الله تعالى هو وحده الذي يَملِك ـ على وجه التحقيق ـ التصرفَ الكامل الشامل، في جميع أجزاء الكون، بكل ما فيه، من رِقَاب ومنافع، وناطِق وأعجم، وحَيٍّ وجامد، وشاهِدٍ وغَائب، وهو الذي له المُلْك الحَقيقي في الدنيا، والمنفردُ بالمُلْك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، تذكيرٌ لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن اللَّهَ تعالى هو وحده الذي لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه قادر على أن يرفع الإنسان إلى «أعلى عِلّيين» إذا ائتمر بأمره وانتهى بنهيه،

وقادرٌ على أن يرده «أسفلَ سافلين» إذا خالف عن أمره وأعرض عن وحيه.

وقولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾، تأكيدٌ لما لَه سبحانه من سلطان شامل كامل على خلقه، وتصرّف حرّ مطلق فيهم من البداية إلى النهاية، فهو سبحانه وحده الذي يُنشئهم من العَدم، وينفُخ فيهم روح الحياة متى شاء، وهو سبحانه وحده الذي يُوقِف فيهم تيار الحياة ويطفىء مصابيحها في اللحظة التي يريد، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ (الطلاق: ٣)، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١١). وما دام الإنسانُ غير قادر على أن يُقدِّم موعدَ قدومه إلى عالَم الأحياء، وغيرَ قادر على أن يُؤخر موعدَ سفره من هذا العالم إلى الوقت الذي يشاء، فهو عاجزٌ كلَّ العجز، ومقهور كامل القهر، وإن ادَّعى من القدرة والسَّطوة لنفسه أكبر نصيب.

وقـولُه تعـالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، بيانٌ لحكمة الله في خلق الإنسان، وفي تزويده بمَلَكة العقل والتمييز والاختيار. ذَلك أن الله تعالى يريد أن يُبرز لكل إنسان ما في نفسه من طاقاتٍ كامنة، ومن استعداداتٍ للخير والشر، ومن قدرة على اختيار الهُدى أو اختيار الضلال، والإنسانُ لا يكتشفُ نفسَه على حقيقتها إلاّ عندما تكون وسائل العمل حاضرة بين يديه، وأجهزةُ التنفيذ مُتَوافِرة لديه، وإذ ذاك يتضحُ اختياره، وتتكشف أسراره، ويتحمل مسئوليةَ عمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، فالله تعالى لم يخلق الإنسان عَبَثاً، ولم يترُكه سُدًى، وإنما خلَقه ليقوم بدور

مرسوم له في هذه الأرض، وهذا الدور هو الخلافة عن الله في عمارتها وصلاحها، وإقامة شريعة العدل والحق بين أهلها، ومجالُ السِّباق فيها مفتوحٌ على مصراعيه أمام المتسابقين «والعاقبة للمتقين».

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾، إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وإن كان «عزيزاً غالباً»، مَنيع الجَناب، فإنه سبحانه يصفَح عن الذنوب ويغفر الخطايا لمن تاب إليه وأناب.

وانتقل كتابُ الله إلى التحدث عن آثار قدرته، ومظاهر حكمته، فأشار إلى ما خلقه الله من السبع الطباق، وما تميزت به من الضبط الذي لا خلل معه، والنظام الذي لا فوضى بَعده، ووجَّه كتابُ الله الدعوةَ مكررةً إلى الإنسان، ليتذكر «صنع الله» في السماوات، ويرى هل يكتشف في صُنعه بعض النقائص والآفات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ الذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقاً ﴾، أي: طبقات على أبعاد متفاوتة، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾، أي: لا عيب فيه ولا خلل ولا تنافر، ﴿ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾، أي: هل ترى من شقوق وخروق، ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾، أي: مرتين، مرة بعد أخرى، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾، أي: كليل من الإعياء بعد تكرار النظر، دون اكتشاف أيّ نقص، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾، أي: زينا السماء القريبة إلى الأرض، بالكواكب والنجوم الظاهرة للعين، ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾، أي: جعلنا جنسَ المصابيح رجوماً للشياطين، وذلك في صورة «شُهُب»

كما جاء في سورة (الصافات: ٦، ١٠): ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ، وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾، أي: عِلاوة على الشُّهُب التي يَرجُم الله بها الشياطينَ في الدنيا أَعدَّ الله لهم في الآخرة عذابَ جهنم. وتحذيراً من استعمال «علم الفلك والتنجيم» استعمالاً سيئاً قال قتادة: «إنَّما خُلقت هذه النجوم لثلاث خصال، خلقَها الله زينةً للسماء، ورُجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها، فمَن تأوَّلَ فيها غيرَ ذلك فقد قال برأيه، وأَخطأ حظَّه، وأَضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علم له به» وهذه الخصال الثلاث التي ذكرها قتادة لا تمنع وجود خصال أُخرى وأسرار كبرى يكشفُ الله عنها لمن يشاء، في الوقت الذي يشاء.

وانتقل كتابُ الله، من الإشارة إلى رَجْم الشياطين بالشُّهُب في الدنيا وعقابهم بعذاب جهنم في الآخرة، إلى الحديث عن «أولياء الشياطين» من الكفار، وما ينتظرُهم من العقاب الشديد والعذاب الأليم، واصفاً شهيقَ جهنم وغيظَها من كفرهم وعنادهم، واستقبالَ خَزَنتها لهم أسوأ استقبال، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً ﴾، أي: صياحاً، ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾، أي: تَغلِي بهم، ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾، أي: تكاد تتمزق من شدة حَنَقها عليهم، ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾،

وذلك لإقامة الحجة عليهم، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾، أي: أنهم عادوا على أنفسهم باللوم، وندِموا حيث لا ينفعهم الندَم.

ثم تحدث كتابُ الله عن مُراقبة الله في «الغيب»، تلك المراقبة الدقيقة التي لا يَتِم الإيمان بالغيب دُونها، وهي أن ينكفَّ المومن عن معصية الله وإن كان لا يراه أحد، وأن يقوم بطاعة الله وإن كان لا يشاهده أحد، «كمن دَعَتهُ امرأة ذاتُ مَنْصِبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله، وكمن تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تُنفق يمينه» فاستحقَّا أن يكونا من «السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلّا ظله»، كما ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيحين. وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وامتَنَّ كتابُ الله على عباده بالأرض التي سخرها لهم، وأعدها لِانتفاعهم، إذْ بارك فيها وقَدَّر فيها أقواتها، ودعاهم إلى التمتع بما آتاهم من رزقه، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

ثمَّ أَعاد كتابُ الله الكَرَّة مرة أخرى ليَلفِت نظرَ الإنسان إلى

أن جميع ما آتاه الله من النعم مُعرَّضٌ للزوال والسَّلْب، إن لم يقابله بالشكر والامتنان، والطاعة والإذعان:

ـ فهذه الأرض الذَّلول المستقرة من الممكن أن يحُل بها الخسف والاضطراب، ﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَنْ يَّخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾.

ـ وهذه السماء التي ترسل «الغَيث» من الممكن أن ترسل «ريحاً حاصباً» تأتي على الأخضر واليابس، ﴿أَمَ اَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَنْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾.

ـ وهذا الرزق الذي لا يعيش بدونه الإنسان، من الممكن أن يُمسكه الله عنه، فيُعرِّضه للجوع والحرمان، ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمُ إِنَ اَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾.

ـ وهذا الماء الذي يشرب منه الناس ويسقُون به الزروع والدوابَّ من الممكن أن «يغور»، ولا يجدوا منه قطرة واحدة ولو في أعماق الأرض، ﴿ قُلْ اَرَايْتُمُ إِنَ اَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «القلم» المكية أيضاً، وفي مطلعها قَسَم من الله عظيم «بالقلم والكتابة»، تنويهاً بهما، وتبييناً لِعظم منفعتهما، في حفظ العلم والدين، ونقل ثمرات الحضارة والتمدين: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نُّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ـ ثم تحدث كتابُ الله عما أُكرم به خاتم الأنبياء والمرسلين

من الخُلُق العظيم وإنه لَتنويهٌ فوق كل تنويه، بمقام الرسول الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، واتَّجهَ الخطابُ الإلّهي إلى نبيه، مُنبِّهاً إياه إلى رفض كل مساومة من طرَف المشركين: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾.

وسجلَ كتابُ الله وصفاً دقيقاً لبعض أقطاب الشرك وزعماء الوثنية، وبذلك عرَض على المسلمين نمُوذجاً حيّاً من نماذج الخَبال والضلال التي يصادفونها في حياتهم، والتي يجب أن يتجنبوها كل التجنب، ويمقتوها كل المَقت، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءِ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

- فهو «حَلَّافٌ»، أي: كثير الحَلِف، ولا يُكثر الحَلِف إلّا الكاذب.

- وهو «مَهِينٌ» ، أي: لا يحترم نفسه ولا يحترمه الناس.

- وهو «هَمَّازٌ»، أي: يهمِز الناس ويعيبهم في حضورهم وغيبتهم.

- وهو «مَشَّاءٌ بِنَمِيمٍ»، أي: يمشي بين الناس بما يُفسد قلوبهم، ويقطع أرحامهم.

- وهو «مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ» ، أي: يمنع الخير عن نفسه وعن الناس.

- وهو «مُعْتَدٍ»، أي: متجاوزٌ للعدل وللحق باستمرار.

- وهو «أَثِيمٌ»، أي: يرتكب المعاصي ويمارس الآثام على الدوام.

- وهو «عُتُلٌّ»، أي: غليظٌ جافِي الطبع، لئيم النفس، سيء المعاملة.

- وهو «زَنِيمٌ»، أي: مشهورٌ بالخبث والشر إن لم يكن «ظَنيناً» في النسب.

وعقاباً لهذا الصنف من المشركين ومَن لَفَّ لَفَّهم في سائر العصور والأجيال، عقَّب كتابُ الله قائلاً: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾، و«الخُرطُوم» طرف الأنف من الخنزير الوَحْشي، وذلك تلويح إلى ما هو أهل له من التحقير والتأنيب، والإهانة والتعذيب. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦).

الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين
في المصحف الكريم

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ
سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا
فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَٰحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ
نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟
ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ
بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾
وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى

ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «القلم» المكية: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، إلى قوله جلّ جلاله في سورة «الحاقة» المكية أيضاً: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾.

في آخر الربع الماضي فسّرنا الآيات الكريمة التي تناولت بالوصف والتحليل، ما كان عليه بعض أقطاب الشرك والتدجيل من عقلية جامدة، وأخلاق فاسدة، وقد وصفها الحق سبحانه لعباده المومنين، حتى يتجنبوها ويُقاطِعوا كلَّ من اتصف بها من الفاسدين المفسدين، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾، إلى قوله تعالى في نفس الآية: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. وبذلك أشار كتاب الله إلى أن هذا النموذج المنحرف من نماذج الضلال والخَبَال كان يَستعلِي على الرسول والمومنين، وكان يتكاثَرُ بما

عنده من مال وبنين، ناسياً أن الله له بالمِرصاد، وأنه إنما يُملِي له ويستدرِجُه من حيث لا يعلم.

وبمناسبة ما أشار إليه كتابُ الله في هذا الموضوع من استكبار هذا النموذج المتكبر، وبَطَرِه بنعمة الله، انتقلت الآيات الكريمة مباشرةً من الحديث عنه إلى الحديث عن قصة قديمة لها علاقة وثيقة بهذا الصنف من الناس، الذين يقابِلون نعمة الله بالكفر لا بالشكر، فينتزعُها الله منهم، ويعاقبُهم بالسَّلْب والحرمان، والحديثُ عن هذه القصة العجيبة هُوَ الذي يستغرِق الآيات الأولى من الربع الذي نفسره اليوم.

وخلاصةُ هذه القصة فيما تنقُله الروايات أن جماعة من أهل اليمن كانت لهم قُرْبَ صَنعاء ضَيْعةٌ مزدهرة تحتوي على أنواع الثمار والفواكه، وهي في غاية النَّضارة والازدهار، فلما حلَّ أوانُ قَطف ثمارها أخذوا يتذاكرون فيما بينهم، هل عندما يَقطِفون ثمارَها يُعطون من مَحْصولِها جزءاً للمساكين صدقةً عليهم، وشكراً لله على فضله، أم أنهم يستأثِرون لأنفسهم بكل شيء، ولا يعطُونَ للمساكين شيئاً، وكان من بينهم وَاحِدٌ يُحب الخير والإحسان، فأشار عليهم بأن لا يهملوا حق المساكين من ثمرات تلك الضَّيعة، غير أن الأغلبية منهم رفضت قبول نصيحته، رغبةً في الاستئثار بمجموع المحاصيل، والانفرادِ باستغلالها والانتفاع بها المائة في المائة، واتفقت تلك الأغلبيةُ على قَطف ما في الضَّيْعة دون التصدق منه بقليل ولا كثير، وتواعدَ أفرادُ الجماعة فيما بينهم على موعد القَطف، وتستَّرُوا ما أَمكنهم التستر، حتى لا

يبلغ الخبر إلى المساكين، فيضايقونهم بطلَب الصدقة منهم حين قَطْف الثمار، لكنَّ اللَّهَ الذي يعلمُ السر وأخفى اطَّلع على ما بيَّتوه من سوء، فلما حانَ موعدُ القطف ووصلوا إلى الضَّيعة فُوجئوا أقبحَ مفاجأة، إذْ وجدُوا كل ما فيها أصبح هشيماً أسودَ كالحاً، كأنه أصابه الحريق، فقد علِم اللَّهُ ما بَيَّتُوا وعامَلَهم بنقيض قصدهم، وسلَّط على ضَيعتهم آفة سماوية أهلكت الضَّيْعة بكل ما فيها. ولشدة هَول المُفاجأة التي واجهتهم أخذوا يتساءلون فيما بينهم أهذه هي ضَيْعَتُنا أم هي ضيعةٌ أُخرى؟ إذْ كانت بالأمس مثمرةً في غاية النَّضارة، واليوم أصبحت قاتمة محترقة في غاية الذُّبول، وبُدِّلت الأرضُ غيرَ الأرض. وبعدما تأكدُوا أن الضَّيعة هي نفس ضيعتهم شرَعُوا يتلاوَمُون فيما بينهم، ويعترفُون بسوء نيتهم، وبسوء تصرُّفهم، وأدركوا أن الله المطلع على الغيب قد عاقبهم على كفرهم بنعمته، فحرمهم منها بالمرة حرماناً تاماً، وبذلك خسِروا رأس مالهم، وخسِروا الربح الذي ينتظرونه من رأس المال، جزاءَ ما بيَّتوه من هضم حقوق المساكين، والاِمتناع من الصدقة على المحرومين، التي هي من أعظم حقوق الله وحقوق العباد.

وإلى هذه القصة المليئة بالعِبَر، لِمن تقدم أو تأخر، يُشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ ﴾، أي: اختبرناهم، ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾، أي: أصحاب الضَّيْعة، ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾، أي: حلفوا أن يقطعوا ثمارها صبيحةَ الغد، ويستأثروا بها وحدهم، دون أن يقولوا: «إن شاء الله»،

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾، أي: أصابتها آفة سماوية بأمر الله في الوقت الذي كانوا يَغِطّون في نومهم، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، أي: أصبحت كأنها مقطوعةُ الثمار، لأن الآفة السماوية قضت على ثمارها، ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴾، أي: لمّا كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً أن يذهبوا إلى قطف الثمار، ﴿ فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴾، أي: ذهبوا وهم يتكلمون بصوت منخفض، يحذر بعضهم بعضاً من أن يدخل عليهم المساكين وهم يَقطِفون الثمار، لأنهم لا يعترفون للمساكين بأيّ حق فيما آتاهم الله من فضله، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾، أي: لمّا رأوا مزرعتهم على حالة يُرثى لها ظنوا أنهم دخلوا إلى مزرعة أخرى غيرِ مزرعتهم، وذلك من هَوْل المفاجأة، ولما تأكدوا أنها هي بنفسها لا غيرها، قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾، أي: أدركوا أن الله عاقبهم وعاملهم بالحِرمان، جزاءَ كفرهم بنعمته وعدم شكره عليها، ولمّا تيقنوا من عقاب الله، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾، أي: ذكّرهُم أرجحُهم عقلاً وأفضلهم سلوكاً، بما كان قد نصحَهم به من قبل، من إعطاء المساكين حقَّهم في ثمرات تلك المزرعة، شكراً لله على ما آتاهم، ولمّا عرفوا أنه كان مُحِقّاً فيما نصحهم به، ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴾، أي: أخذ بعضُهم يلوم البعض الآخر، واعترفوا بذنبهم جميعاً، ﴿قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴾، أي: كنا على غير حق فيما بَيّتناه من هضم حقوق

المساكين وحرمانهم، وها نحن قد أصابَنا ما أصابَنا جزاءَ أنانيتنا وطغياننا. ثم التجأوا إلى الله مضطرين، ولم يذكروه إلاّ في ذلك الحين، طالبين مغفرته وإحسانه قائلين: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾، لكنّ كتاب الله أكّد أنهم، عِلاوة على العذاب الذي نالهم في الدنيا، سينالُهم في الآخرة عذابٌ أكبر وأشد، ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وكتابُ الله عندما سجل هذه القصة بين دَفَّتي المصحف الكريم إنما يريد ضرب المَثَل لكافة المومنين، حتى يؤدوا للمساكين والمحرومين ما لهم من حقوق معلومة في أموالهم وثمراتهم، فبأداء تلك الحقوق تزكُو أموالُهم، وتنمو ثرواتُهم، وإلاّ ضاع عليهم رأس المال والربح، جزاءَ ما ضيعوه من الصدقة والزكاة، وخسروا خُسْراناً مبيناً.

وتساءل كتابُ الله هل يُعقَلُ أن يكون الذين آمنوا واتَّقَوْا، ـ عند ربهم ـ في درجة الذين كفروا وأجرموا، وإنه لسؤال لا يصعب الجواب عنه جواباً منطقياً: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ، كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.

ثم وجه كتابُ الله إلى المشركين عِدةَ أسئلة «استنكارية» تُعجِزهم وتُفحِمُهم، إذ لا يستطيعون الجواب عنها بأي جواب مقنع:

ـ هل عندكم أيها المشركون «كتابٌ مُنَزَّل» تتدارسونه فيما

بينكم، تستمدون منه هذه الأحكام السخيفة التي تحكمون بها لأنفسكم، وتحكمُون بها على غيركم، طبقاً لشهواتكم وأهوائكم: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾.

ـ هل عندكم أيها المشركون عهود ومواثيق من الله أعطاها لكم، وعاهَدكم عليها، وواثَقكم بمقتضاها، حتى تفعلُوا ما تشتهون، وتحكُموا بما تشاءون، ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ، إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾.

ثم أمر الحقُّ سبحانه نبيه عليه السلام أن يسأل المشركين: مَنْ مِنهم تكفَّلَ لهم بتلك العهود، وضمِن لهم تلك المواثيق: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾، ودعا كتابُ الله المشركين أن يحضِروا معهم شركاءَهم من الأصنام والأوثان، إن كان شركاؤهم صادقين في بذل العون لهم عند الحاجة، وَإغاثتهم وقتَ الضيق: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴾، وبيْن كتابُ الله أنّ أولئك الشركاء لن يُعينوا المشركين الذين أشركوهم بالله في قليل ولا كثير، بل سيُسْلِمُونهم إلى مصيرهم المُفجع يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴾. ثم اتجه الخطابُ الإلّهي إلى الرسول عليه السلام طالباً منه أن يَكِل عاقبةَ أمر المشركين إلى سَطوة الله وقدرته القاهرة، ليفعلَ بهم ما يشاء، ويقضيَ فيهم بما يُريد، مُبيِّناً له أن الله تعالى إنما يعطيهم ليسلبهم، وإنما يُمِدُّهم ليَحْرِمَهم، وإنما يُمْهِلُهم ولن يُهْمِلَهم: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ

سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

وعقَّبَ كتابُ الله على ذلك كله بدعوة الرسول عليه السلام إلى المزيد من الصبر على تحمُّل أذى المشركين الذي لا ينقطع، والمزيد من الصبر على القيام بأعباء الرسالة التي لا يُثقل الكاهلَ مثلها شيء، لافتاً نظره إلى أنْ لا يسلك مسلك أخيه نبيّ الله «يُونس» عليه السلام، الذي تخلّى عن حمل أعباء الرسالة عندما ضاق صدرُهُ وذهبَ مُغاضِباً لقومه، سائحاً في أرض الله، حتى وجد قوماً يركبون سفينة في البحر، فركبَها معهم، وانتهى الأمرُ به إلى أن يلتقمه الحوت، ويحفظه في بطنِه إلى حين، فَنادَى ربَّه وهو في بطن الحوت: ﴿لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧). فتداركَهُ لُطف الله، وألقاه الحوت في أرض عَرَاء، وأنبت الله عليه شجرةً من يَقْطِينٍ، ليأكلَ من ثمرها، ويستظل بظلها، وإذْ ذَاك فَهِم عن الله، وعاد إلى قومه وكان سروره بالغاً عندما وجدَهم قد اهتدوا بدعوته، وآمنوا برسالته، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَـٰحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ لَّوْلَآ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَـٰهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾، فالمراد بصاحب الحوت هنا هو يونس عليه السلام كما سبق في سورة «الصافات».

وتحذيراً من أن يَفهمَ بعضُ المومنين من هذه الآيات الكريمة تنقيصاً من قدر يونس عليه السلام نبّه رسول الله ﷺ أُمته إلى احترام مقامه وتوقيره، وعدم المفاضلة بينه وبين يونس،

فقال ﷺ كما رُوي في الصحيحين: «لا ينبغي لِأحد أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن مَتَّى».

وأشــارَ كتابُ الله إلى ما كان للمشركين من حَنَق على رسول الله ﷺ، وبُغض له ولدينه، من شِدة وَقْع الإسلام عليهم، وتسفيهه لمعتقداتهم، وبيَّن أنه لولا حِفظُ الله لنبيه، وعصمتُه له من الناس، لآذاهُ المشركون بأعينهم الشريرة إذايَةً بالغة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾. وعلَّق ابنُ كثير على هذه الآية قائلًا: «إن فيها دليلًا على إصابة العين، كما وردت بذلك الأحاديث المروية مِن طرق متعددة».

وهنا تنتهي سورة «القلم» المكية، وتبتدىء سورة «الحاقة» المكية أيضاً، والحديث في مطلعها يتعلق بيوم القيامة، فمن أسماء هذا اليوم اسم «الحاقة»، لأن فيه يتحقق الوعد والوعيد اللذان نزلت بهما الكتب الإلٓهية، وجاء بهما الأنبياء والرسل.

وذكَّر كتابُ الله بأنواع العذاب التي أصابت في الدنيا طائفة من الأُمم الخالية، جزاءَ كُفرها وعنادها، فبادَت واندَثرت ولم يبق لها أيُّ أثر: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾، ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُوتَفِكَـٰتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾.

ووصَف كتـابُ الله أهوال السـاعـة، ومـا يصيب الأرض والسماء عند حلولها من ظواهر كونية خارقة للعادة، تُؤدِّي إلى

انقلاب في العالم عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، ولا يبقى على ما هو عليه إلّا عرشُ الله ووجهُه الكريم، ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾، فما على عقلاء المومنين إلّا أن يحسُبوا لهذا اليوم ألف حساب، وأن يتفانوا في العمل الصالح ويُقدّموا بين أيديهم ما يستحقون به عند الله الأجر والثواب.

الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين
في المصحف الكريم

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَالَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي
ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ
أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَيٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾
يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۢ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ

عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ
قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ
فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ
أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في سورة «الحَاقَّة» المكية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ اوتِىَ كِتَٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ ﴾، ونهايتُه قولُه جلّ عـلاه في سورة «المعـارج» المكية أيضاً: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيءٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربـع يواصـلُ كتاب الله وصفَـه لمشاهـد القيامة، وما يكون عليه أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال، ويشيرُ إلى أنَّ من أُوتي كتابه بيمينه يدرك لأول وهلة أنه ممن كُتِبت لهم السعادة، فيتناولُ كتابه هَاشّاً بَاشّاً، ولا يَخجَل من أن يَعرِضَه على إخوانه السعداء من أهل الجنة المُكْرَمين، مؤكِّداً أنه كان على يقين بحساب الله وجزائه، ولم يكن يُداخِلُه أدنَى شك في عقيدة البعث والحياة الآخرة، ولذلك يُكرِمُه الله تعالى بالعيش الطيب في الجنة، ويُنعم عليه بكل ما تشتهيه الأَنفس وتَلَذُّ الأَعين، جزاءً وفاقاً لما أَسلفَهُ من العمل الصالح في حياته، وما كان عليه من

طاعة الله والسعي في مَرْضاته، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾، أي: كنتُ موقناً بأن هذا اليوم قادم لا محالة، ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾، أي: عيشة مرضية، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾، أي: ثمارها سهلة للقطف. وقوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾، حكايةٌ لخطاب التكريم والامتنان، الذي يوجِّهُه إليهم ملائكةُ الرحمان من خَزَنَة الجِنان، بينما أصحابُ الشِّمال بمجرد ما يُؤْتَوْنَ كتابَهم بشِمالهم، يدرِكون أنهم من الأَشقياء المعذَّبين عند الله، وفي الحين تنطق ألسنتُهم بما يعبر عن دخائل نفوسهم، إذ يتمَنَّون، وما تنفعهم الأماني، لَو أَنهم لم يُوتَوا أَيَّ كتاب، ويتمنَّوْن لو أَنهم لم يَعرِفوا أَيَّ حساب، ويتَمَنَّون لوْ أنهم ماتُوا مَوْتَة واحدة لا حياة بعدها ولا عقاب، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾.

ويفاجَأُ أصحابُ الشِّمال بالحقيقة المؤلمة التي لم يكونوا ينتظرونها ولا يحسُبون لها أَيَّ حساب، وهي أَن «مَالَهم» الذي كانوا يتبجحون به على الفقراء، «وسُلطانَهم» الذي كانوا يَسْتَعْلُون به على الضعفاء، لا يُغنيان عنهما من الله شيئاً، فالآخرة إنما هي «دارُ الجزاء» على العمل: الجزاء بالثواب على العمل الصالح، والجزاء بالعقاب على العمل الفاسد، ولا عبرةَ فيها بما تواطأ عليه الناس من الاِعتبارات السطحية، والقِيم الوهمية، وذلك ما ينطق

به لسانُ الشقي من أصحاب الشِّمال إذ يقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾.

ثم يصفُ كتابُ الله ما يَصدُر إلى خَزَنَة جهنم من الأوامر الإلّهية الرهيبة، بشأن كل واحد من أصحاب الشِّمال الضالين المُضِلين، إذ يقال لهم: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾، أي: ضعوا في عنقه الأغلال، ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾، أي: اغمرُوه في جهنم من قِمّة رأسه إلى أخمَص قدمَيْه، ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾، أي: أَدْخِلوه.

ووضَّحَ كتابُ الله أن عقاب الله لأصحاب الشِّمال إنما هو عقاب عادل، لا غبار عليه، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩)، فقد كانوا فُرادَى وجماعاتٍ ينكرون حقيقة الحقائق، وهي الإيمان بالله، وكانوا يُنكرون كل ما لله من صفات العظمة والكمال، ومظاهر الجلال والجمال، وكانُوا حَجَر عَثرة في طريق انتشار دعوته، وتبليغ رسالته، وحَرْباً على كُتُبه المنزلة وشريعته، وكانوا عنصرَ فساد وتخريب في الأرض، لا يؤدون لعيال الله وعبيده أيَّ حق، ولا يُقدِّمون إليهم أيَّ عَون مما آتاهم من الرزق، وإلى «حيثيات هذا الحكم الإلّهي العادل»، الذي صدرَ بعقاب أصحاب الشِّمال يُشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾، أي: أنه كان لا يؤدي حقوق الله ولا حقوق الناس، ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾، أي: ليس له من صديق حميم يستطيعُ أن يُخلِّصه ويُنقذه من عذاب الله، أو يتطوعُ بالنيابة عنه في تحمل العقاب

المحكوم به عليه، ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾، و«الغِسلين» شرُّ طعام أهل النار كما فسره قتادة.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى دعوة الناس أجمعين للإيمان بكتاب الله المنزل من عنده، والاهتداء بهديه، مؤكدةً أنَّ ما احتوى عليه كتاب الله من عقائدَ وآداب، وشرائعَ وشعائر، وحقائقَ كونية ونفسية، هو حقُّ اليقين، ولُبُّ الحكمة، وأَصْدَقُ العلم. وأبطلت الآياتُ الكريمة ما يُلفِّقُه المشركون ومن لَفَّ لَفَّهم من اتِّهام الرسول بالشعر والكِهَانة والافتراء على الله، وأكَّد كتابُ الله أنه لو تجرأ أيُّ رسول على الله وتَقوّل عليه لعاقبه الله عقاباً شديداً لا يعاقِب به غيرَه من العالمين، وللتدليل على صِدق هذه الحقائق بأقوى الدلائل أَقسمَ الحقُّ سبحانه وتعالى بكل ما خلَقَه في كونه، من محسوس وغير محسوس، من منظور وغير منظور، في عالَم الغيب وعالَم الشهادة، فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾، أي: أنه قولٌ صادر من الله يَقوم بتبليغه إليكم رسولٌ كريم، ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾، أي: لا يَقدرُ أحدٌ منكم أن يحولَ بينه وبين عقاب الله، لو تَقوَّلَ على الله. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: كتابَ الله، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي: أن كتاب الله يثير في نفوس الكافرين، وهم في الدنيا، مشاعرَ الأسى والحسرة على ما

هم غارقون فيه من الأوحال، كما يكون عليهم حسرةً في الآخرة، بما ينالهم من عذاب الله، طبقاً لما هو مسجل في كتاب الله: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾، أي: أنه هو الخبر الصادق، والشرع العادل، والعقيدة الصحيحة.

وخُتِمت سورة «الحاقة» المكية بالأمر بتسبيح الله، وتنزيه اسمه وصفاته عن كل نقص أو عيب، فقال تعالى مخاطباً لنبيه وللمومنين عن طريقه: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

ومن هنا ننتقلُ إلى سورة «المعارج» المكية أيضاً، وتبتدىء هذه السورة الكريمة بالحديث عن البعث والنشور والحساب والعقاب، وأُطلِق عليها اسم سورة «المعارج» لورود كلمة «المعارج» في الآية الثالثة منها: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَالَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾، أي: تساءل سائلٌ عن العذاب المنتظَر، يستعجل به لماذا لم يَنزِل عليه في الحِين، على حَدِّ ما ورد في قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (الحج: ٤٧)، وما ورد في قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وقولُه تعالى: ﴿ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾، أي: معارج السماء، كما قال مجاهد، أو المَرَاقي في السماء كما قال الحسن.

وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَٰئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾، الضميرُ هنا

يعود على الله، والمراد عرشُه، أي تصعد الملائكة إلى العرش، كما تصعد أرواح بني آدم إليه عند قبضها حين الموت.

وقولُه تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾، إما أن يكون إشارةً إلى يوم القيامة، وما فيه من طُول الموقف والشدائد والأهوال، وإمَّا أَن يكون إشارة إلى مُدّة اليوم الذي يَعرُج فيه المَلَك، وأَن مقدارَ مسافته لو عَرَجه آدميٌّ خمسُون أَلفَ سنة، من أَيام البشر، ونسبَ أَبُو حيان هذا القول إلى «ابن عباس وابن إسحاق وجماعة من الحذاق منهم القاضي منذر بن سعيد». وسبق في سورة «الحج» ذكرُ اليوم الذي يعدل بأَلف سنة، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧)، وبهذا يكون كِلاَ اليومين من الأيام التي لا تندرج في عداد «أيام البشر»، إذ حساب أَيام البشر تابع للزمان المعتاد بينهم، والمعهود عندهم، وهذه أيام أخرى ليست من جنس أيامهم، ولله في خلقه شؤون.

ودعا كتابُ الله الرسولَ عليه السلام إلى المزيد من الصبر، ومن «الصبر الجميل» الذي لا شكوى معه ولا يأْس ولا قنوط، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾.

ثم عادتِ الآياتُ الكريمة إلى وصف يوم القيامة وأهواله، وما يقع فيه للمخلوقات من اضطراب وتَناكُر، وحرص كلِّ فردٍ على النجاة بنفسه إن استطاع النجاة والخلاص، ناسياً كلَّ الروابط التي كانت تربطه بغيره، وَمتجاهلاً كل العلاقات التي كانت تجمَع

بينه وبين أقربائه وأصدقائه، فالكل يقول: «نفسي نفسي»، ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾، أي: لا يسألُ صديق عن صديق، ولا قريب عن قريب، وإن كان يراه في أسوأ الأحوال، إذْ هو مشغول بنفسه قبل كل شيء، ومعنى «المُهْل» ما أُذيب من المعادن، مثل مُذاب الذهب، أو مُذاب الفضة، أو مُذاب النحاس والرّصاص والحديد، وسبق في سورة (الدخان: ٤٣، ٤٦)، قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ اَلزَّقُّومُ طَعَامُ اَلاَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِى فِى اِلْبُطُونِ كَغَلْىِ اِلْحَمِيمِ ﴾، ومعنى: «العِهْن» الصوف المصبوغ الذي تُطيِّره الريح إذا كان «مَنفُوشاً»، وسيأتي في سورة (القارعة: ٥)، قولُه تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ اِلْمَنْفُوشِ ﴾، ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ اِلَّتِى تُـْوِيهِ وَمَن فِى اِلَارْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوىٰ تَدْعُواْ مَنَ اَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾، أي: أن النار تدعُو إليها الكافرين والمجرمين، الذين يُحاولون الفرار منها، كما تدعو الأغنياءَ والمُترَفين الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، ويَمنعَون الفقراء من حق الله.

ثم تحدث كتابُ الله عن بعض الصفات اللاصقة بالإنسان إذا كان فارغ من الإيمان، ذلك أنه يكون «هَلُوعاً جَزُوعاً» إذا مسه الشر، و«بخيلاً مَنُوعاً» إذا ناله الخير، بخِلاف المومن الذي هو على صلة دائمة بالله، عن طريق الذكر والصلاة، فإنه يكون محافظاً على حقوق إخوانه المومنين يؤديها لهم، كما يؤدي ما

عليه من حقوق الله سواء بسواء، وبهذه المناسبة تناولت الآياتُ الكريمةُ بالشرح والتحليل تعدادَ صفات المومنين، وما يميّزهم عن غيرهم من الكفار والمنافقين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ وَالذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتَ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ وَالذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ وَالذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾.

وتساءل كتابُ الله مرةً أخرى، مُنكراً على الكفار والمشركين ما هم عليه من عناد ونفور، واستكبار وغرور، رغماً عما يقرَع أسماعهم، ويزعزِع كيانهم، من آيات الله البينات، وما يشاهدونه كل يوم على يد رسوله من المعجزات، ﴿ فَمَالِ الذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾، أي: ما لهؤلاء الكافرين نافرين، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾، أي: متفرقين يميناً وشِمالاً، معرضين مستهزئين، ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيءٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الفارّين المستهزئين المغرورين أن يَدخل الجنةَ وهو على ما هو عليه، عناداً للحق، وإصراراً على الكفر، ثم يُجيب كتابُ الله ردّاً على ما يتمنونه من الأماني الفارغة: ﴿ كَلَّا ﴾، أي: لا سبيل لهم إلى دخول الجنة أبداً،

﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: أنهم يعرفون من أي شيء خلقناهم، فلا مفرَّ لهم من الاعتراف بالخالق الذي خلقهم، والمُبدِع الذي أنشأهم، ولا سبيل لهم إلى الجَنة إلّا سلوك الطريق الوحيدة المؤديةِ إليها، ألَا وهي طريق الإيمان بالله وبكتبه ورسله واليوم الأخر، ولا سيما الإيمان بالذكر الحكيم، والتصديق برسالة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾، يُشبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (المدثر: ٤٩).

الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ
جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ
الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ
رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا
وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا
وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا
فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾
وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾
إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «المعارج» المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «نوح» المكية أيضاً: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُومِناً وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتابُ الله أن للقدرة الإلٰهية من إمكانات الخلق والإبداع على غير مثال سابق، ما يشمَل الكون كلَّه من أدناه إلى أقصاه، إذِ الحقُّ سبحانه وتعالى هو ربُّ المشارق وهو رَبُّ المغارب على تعددها، والكل منه وإليه، ولن يُعجِزَه ما قَدَّرهُ من المَعاد والبعث والنشور، كما يزعم المشركون، الذين سيطر عليهم الجهل والغرور، بل إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يعيدهم بنفس الأجساد التي كانوا عليها في الدنيا، وقادرٌ على أن يُبدِّلهم من أجسادهم في الدنيا أشكالاً أُخرى خيراً منها في

الآخرة، وما دام الحقُّ سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان على غير مثال سابق، وهو سبحانه غيرُ مسبوق بغيره في خَلق الإنسان وإبداعه، فأمرُ إعادة الإنسان بعد موته شيء يَسِير وَهَيِّن بالنسبة لقُدرته وحِكمته، ولا حاجة إلى القَسَم عليه، وإلى هذا المعنى يُشير قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ، وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الواقعة: ٦١).

وهناك تفسيرٌ آخر لقوله تعالى: ﴿ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾، بمعنى أن نخلق بدَلَهم أُمة أُخرى تطيعُ الله ولا تعصيه، وتُصدِّق بيوم الدين ولا تشُكُّ فيه، على غِرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ١٩). وهذا التفسير الأخير، هو الذي اختاره ابن جرير.

واتَّجهَ الخطابُ الإلَهي إلى الرسول عليه السلام، آمراً له بالإعراض عن المشركين والكافرين، بعد أن بلَّغ الرسالةَ إليهم، وأقام الحجة عليهم، مُبيِّناً أنَّ من اختار منهم الضلال على الهدى والكفر على الإيمان، سيلقَى جزاءه مقروناً بالذلة والهَوان، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلذِى يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْاَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُوفِضُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلذِى

كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾، ومعنى «يُوفِضُون» يُسرِعون، و«النُّصْب» ما نُصِب للإنسان من عَلَم أو بناء أو صَنم، فهو يقصده مُسرِعاً إليه.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «نوح» المكية أيضاً، وفي بدايتها يتحدث كتابُ الله عن الرسالة الأولى التي كلَّف الله بها رسوله نوحاً عليه السلام، وما دعاهم إليه من عبادة الله وتقواه، وما حضَّهم عليه من طاعة الله ورسوله لنيل غفرانه ورضاه، وما حذَّرهم منه من حلول الأجل وهم غافلون، وحلول النِّقمة وهم مستكبِرون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ففي هذه الآية يؤكد كتابُ الله لرسوله والمؤمنين والناس أجمعين، أنَّ مَصدر الرسالة، ومَنبَعها الأول والأخير، كان ولا يزال في جميع العهود، وبالنسبة لجميع الأنبياء والرسل، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين، هو الله تعالى خالق الخلق ومَصدرُ الوجود، فهو الذي خلق الخلق وأرسل إليهم الرسل، لهدايتهم إلى سَواء السبيل، وهو الذي كلَّف رسلَه جميعاً بالدعوة إلى عبادة الله وتقواه، وإلى طاعة رُسُله فيما يُبلِّغونه عن الله: ﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾، لكنَّ قومَ نوح لم تزدهم دعوة رسولهم إلاّ عناداً واستكباراً، ولم يزدهم إلحاحُه على هدايتهم، وحرصُه على إنقاذهم، إلاّ نفوراً منه وفِراراً، وأصرُّوا

على كفرهم إصراراً، رغماً عن كل ما بذله نوح عليه السلام من محاولات طويلة ومُضنية لإصلاح حالهم، وما عرَض عليهم من وعْد الله حيناً ووعيده حيناً، ورغماً عما لَفَت أنظارَهم إليه من دلائل القدرة الإلّهية، وآثار الحكمة الربانية، في آفاق الكون الظاهرة، وآفاق النفس الباطنة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى حكايةً على لسان نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىَ إِلاَّ فِرَاراً وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَواْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰراً مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾.

ومما يجبُ التنبيهُ إليه في هذا المقام أنَّ «أُسلوب الدعوة» الذي حكاه كتابُ الله عن نوح عليه السلام لا يختلف في شيء عن أُسلوب الدعوة الذي استعمله خاتَمُ النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما أن الحُجج والبراهين الكونية والنفسية التي كان نوح يُقارِعُ بها قومَه هي نفس الحُجج والبراهين التي واجَهَ بها رسولُ الله مُشركي قريش ومَن لَفَّ لَفَّهم،

وسلَك طريقهم، مما يُوضِّحُ لكل ذي عينين أنَّ طبيعة الرسالة الإلّهية واحدة، وأنَّ مصدر الوحي الإلّهي واحد، وأن الشُّبَه التي تَعرِض لقِصَارِ النظر، والضلالات التي يقعُون فيها، على تَبَاعُد ما بين العصور والأجيال، هي شُبَهٌ وضلالاتٌ متقاربة، إن لم تكن متماثلةً في أغلب الأحيان، وكما أنَّ الداء البشري واحد، فالدواءُ الإلّهي واحد.

وبعد ما قامَ نوح عليه السلامِ بتبليغ الرسالة عن ربه، واستعمل مع قومه جميعَ وسائل الترغيب والترهيب، وقضى أكبرَ قسم من حياته الطويلة في أداء الواجب دون الوصول معهم إلى جَدْوَى أخذ يستعيذُ بالله من كفرهم وعصيانهم، ويبرَأ إليه من مكرهم وعدوانهم، وذلك ما يحكيه عنه قولُه تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾، أي: مكراً كبيراً وعظيماً.

ووصف كتابُ الله الدعوة الضالة المضِلة التي كان يقوم بها قوم نوح لإفساد الناس، وتحريضهم على الاِستمساك بالشرك والوثنية، والتزام عبادة الأصنام، كما وصف كتابُ الله أثَر دعوتهم الضالة في النفوس، واستيلاءها على الأفكار، فقال تعالى حكايةً عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾.

وهذه الأصنام وغيرها قد استمرت تقاليدُ عبادتِها إلى حين ظهور الإسلام، إذِ انتقلت عَدْوَاهَا من قوم نوح إلى العرب، فكان لقبيلة كلب صنمٌ يُدْعَى «وُدّاً»، وكانَ لقبيلة هذيل صنم يدعَى

باسم «سُوَاع»، وكان لقبيلة مراد ثم لبني غطيف صنم يُدعَى باسم «يَغُوث»، وكان لقبيلة همدان صنم يُدعى باسم «يَعُوق»، وكان «نسر» صنماً لقبيلة حِمْير.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَدَ اَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾، إشارةٌ إلى هذا المعنى، إذْ أنَّ السابقة الخبيثة والسنة السيئة التي سنّها قوم نوحٍ قد انتقلت عدواها منهم إلى غيرهم من البَشر، ولا تزال عبادةُ الأَصنام قائمةً إلى اليوم في عدة شعوب أَضلَّها سادتُها وكبرَاؤها، ولولا أَنْ مَنَّ اللَّهُ على البشرية بالإسلام لكان كثيرٌ من أَبنائها حتى اليومِ غارقاً في عبادة الأَصنام، وإلى تقرير هذه الحقيقة نفسِها يشيرُ دعاء إبراهيم الخليل بعد نوح عليهما السلام، فقد حكَى الله تعالى عن إبراهيم قولَه في دعائه: ﴿ وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ اَلاَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ اَلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم: ٣٥، ٣٦).

ثم أَخذت الآياتُ الكريمة تُسجِّل أَدعية نوح على الضالين المُضِلين من قومه، بعد أَنِ استفرغَ جُهدَه في هدايتهم، واستنفدَ طاقتَه في دعوتهم، ولم يَصِل معهم إلى أَية نتيجة مُرضِية، وذلك قولُه تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾، وقولُه تعالى حكايةً عنه أيضاً: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى اَلاَرْضِ مِنَ اَلْكَـٰفِرِينَ دَيَّاراً ﴾، أي: لا تُبقِ منهم أَحداً على وجه الأرض.

وبينت الآيات الكريمةُ أَن الله قد استجاب دعاء نوح عليه

السلام، فأهلك جميعَ من كان على وجه الأرض من الكافرين وأغرقهم، ولم يستثنِ منهم أحداً حتى ولدَ نوح من صُلبه، الذي كان اعتزل عن أبيه، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، فردَّ عليه أبوه نوحٌ قائلاً: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، ولم يجدْ ولدُ نوح وسيلة للخلاص من العذاب، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، وإنما نجَّى اللَّهُ سفينة نوح وحدَها بمن فيها من أصحابه المومنين، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. وإلى إغراق قوم نوح في الدنيا وعذابهم في الآخرة يُشير قوله تعالى هنا: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَاراً﴾.

على أن الدافع الذي دفع نوحاً عليه السلام إلى الدعاء على قومه بالإبادة والهلاك لم يكن مجرَّدَ الرغبة في الانتقام منهم، على عدم استجابتهم إلى دعوته، وعدم إيمانهم برسالته، وإنما كان دعاؤه عليهم اقتناعاً منه بأنهم قد بلَغوا في الانحراف والفساد والضلال، إلى حد أنه لم يبق أيُّ أمَل في هدايتهم، ولا أدْنى رَجاء في إصلاحهم، فقد أصبح مرضُهم مُزمِناً وداؤُهم عُضالاً، والعُضْوُ المُتآكِلُ لا ينفع فيه إلاّ البَتْر، «وآخِرُ الدَّوَاء الكَيُّ» وإلى هذا المعنى المُبرِّر لدعاء نوح عليه السلام على قومه، يشيرُ قوله تعالى حكايةً عنه وهو يخاطب ربَّه قائلاً: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

وبعدما عرض كتابُ الله دعاءَ نوح على الكافرين، نقَلَ إلينا صورةً حيّةً من دعائه للمومنين إلى يوم الدين، وفي نقل القرآن لهذه الصورة من الدعاء الصالح توجيهٌ وإرشادٌ إلى كيفية الدعاء، وإلى صيغته وآدابه، وإلى من يستحق الدعاء له بالخير ومن لا يستحقه، وذلك قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُومِناً وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾، أي: لا تزد الظالمين إلّا هلاكاً وخساراً.

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ اُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اُسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ اَلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِي إِلَى اَلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ
رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اَللَّهِ
شَطَطًا ﴿٤﴾ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ اَلْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾
وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ اَلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ اَلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾
وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اَللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَاءَ
فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ اِلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَإِنَّا
لَا نَدْرِي أَشَرٌّ اُرِيدَ بِمَن فِي اِلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾
وَإِنَّا مِنَّا اَلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَإِنَّا ظَنَنَّا
أَن لَّن نُّعْجِزَ اَللَّهَ فِي اِلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا

الْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَنْ يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ﴿١٣﴾
وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ
رَشَداً ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اِ۪سْتَقَٰمُواْ
عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقاً ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ
يُّعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ نَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ
فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴿١٨﴾ وَإِنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَداً ﴿٢٠﴾
قُلِ اِنِّيَ لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً ﴿٢١﴾ قُلِ اِنِّيَ لَن يُّجِيرَنِي مِنَ
اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَداً ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ
وَمَن يَّعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَداً ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنَ اَضْعَفُ
نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴿٢٤﴾ قُلِ اِنْ أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ
أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيَ أَمَداً ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ
أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ اِرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَداً ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدَ اَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴿٢٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ⑭ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑮ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ⑯ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ⑰ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ⑱ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ⑲

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في فاتِحة سورة «الجن» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَئَامَنَّا بِهِ وَلَنْ نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «المُزَّمِّل» المكية أيضاً: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

تستغرق سورةُ «الجن» المكية أكبر جزء من هذا الربع، وإنما سميت باسم سورة «الجن» لِمَا ورد فيها من الإِخْبار باستماع نفر من الجن إلى كتاب الله، وما كان له من وَقْع عـظيم في نفوسهم، وتَأثير قويّ على مشاعرهم.

وهذه السورة الكريمة توضِّحُ عدة حقائق كانت قبل نزول القرآن مجهولة عند العرب وغيرهم من الأُمم.

ـ الحقيقةُ الأولى: أنَّ عالَم الجن يُشابِه عالَم الإنس في الاِستعداد للخير والشر، وأنه يمكن أن يَختار الهدَى فيكون من

المهتدين، وأن يَختار الضلال فيكون من الضالين، اللهمّ إلاّ إبليس اللعين الذي طرده الله من رحمته، فأقسم على أن يُغوي الناس أجمعين، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، ﴿ وَإِنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾.

ـ الحقيقةُ الثانية: أن عالَم الجن لا سلطة له على عالَم الإنس، وأن مخاوف الناس من الجن ترجع إلى أسباب وهمية أكثر مما ترجع إلى حقيقة واقعية، وهذا ردٌّ على مشركِي قريش ومن لَفَّ لَفَّهم من العرب وغير العرب، الذين كانوا يعتقدون أنَّ للجن سلطاناً على الأرض، وأنَّ لهم قدرة على النفع والضر، حتى كان الواحد منهم إذا نزل بوادٍ أوْ قَفْرٍ استعاذَ «بعظيم الجن» الذي يَعتقِد أنه حاكمٌ في تلك الأرض قائلاً: «أعـوذ بسيد هذا الوادِي من سفهاء قـومه»، بَينمـا الجن لا ينفعون الإنس حين يلوذُون بهم، بل يزيدون في إرهاقهم ما داموا يعوذون بهم ولا يستعيذُون بالله، وإلى هذه الحقيقة يُشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾.

ـ الحقيقة الثالثة: أنَّ عالَم الجن لا يعرف من «علم الغيب» شيئاً، وأن علم الغيب مَقْصُورٌ على الله تعالى وحده، وهذا إبطال لِمَا كان شائعاً في الجاهلية، ولا يزال شائعاً حتى اليوم في أوساط الجهـال، من أنَّ الجن تـطَّلِع على الغيب وتُخبـر بـه الكُهَّـان والعَرَّافين، فذلك إنما هو محض ادِّعاء وافتراء على الله، ولا سيما

بعد نزول كتاب الله، حيث لم يعد «استراقُ السمع» ممكناً، وإلى هذهِ الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً، وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ اِلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً وَإِنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ اُرِيدَ بِمَن فِى اِلْاَرْضِ أَمَ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾، وبذلك أبطل كتابُ الله الكهانة والعِرافة من الأساس، وأعلن تحرير العقل البشري من هذا الوسواس.

ـ الحقيقة الرابعة: أَنَّ عالَم الجن الذي وُجِدَ بين الناس مَن يعبدُه من دون الله، ووُجِد بين مشركِي العرب مَن ينسبُ إلى الله سبحانه أنه اتخذ من بين أفراده زوجة هي التي تلد له الملائكة، تعالى الله عن ذلك علّواً كبيراً، هو نفسه يُكذِّب هذا الادِّعاء، ويُسَفِّه هذا الاعتقاد، مُنكِراً على من يعبدون الجن عبادتَهم، ومنكِراً على مَن ينسبون الزوجة والولد إلى الله نِسبتَهم، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحداً وَإِنَّهُ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾.

ـ الحقيقة الخامسة: أَنَّ عالَم الجن يعترفُ بعجزِهِ وقصورِهِ وضعف حِيلته أمامَ قدرة الله، وبذلك يُبيِّن لمن يستعين بهم من الإنس، ولمن يجعل بينهم وبين الله نَسَباً مثل مشركِي قريش، أن القوةَ الوحيدة والغالبة والمتصرِّفة في الكون هي قوةُ الله وحده دون سواه، باعتراف الجن أنفسِهم، فالكل مقهورٌ لقدرته، ولا يستطيع الفِرار من قبضته، وإلى هذه الحقيقة يشير قولُه تعالى هنا في

سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾.

وبعدما بَيَّنَّا الحقائق التي تحتوي عليها سورة «الجن» المكية فَلْنَتَناول الآيات الكريمةَ الواردةَ في هذا السياق على التتابُع.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، إشارةٌ إلى إخْبار الله لِرسوله بأن طائفة من الجن ـ والطائفة ما بين الثلاثة والتسعة ـ وهذا هو «النفر» ـ قد اسْتَمعت إليه وهو يُرَتِّل كتاب الله أثناء صلاته بالمسلمين. وقد أَكَّد ابنُ عباس أن النبي ﷺ ما قرأ على الجن ولا رَآهم بنفسه أبداً، وإنما أخبره اللَّهُ باستماعهم إلى تلاوته لا غير، قال شيخ الإسلام المصلح الكبير المرحوم السيد محمد الخضر حسين في تعليقه على «موافقات الشاطبي»: «مضى صدر الإسلام، وليس من مُدَّعٍ رؤيةَ الجن، أو التلقيَ عنهم، أو التزوج بهم، أو استحقاقَهم لِأَنْ يُتَقرَّبَ إليهم بالذبائح والأطعمة، حتى قام من يزعم ذلك كله، واتَّسع خَرق هذه الضلالة، فكانت إحدى العلل التي فتَكت بعقول كثيرة، وألْقتْ بها في تَخَيُّلات سخيفة، ومزاعِمَ يتبرأ منها الشرع الحكيم، قبل أن يتهكم بها النظر الصحيح».

وقولُه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا عَجَباً يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، حكايةٌ لوَقْع القرآن الكريم في نفوس هذا النَّفَر من الجن، وأَنَّهم وجدوه «عَجَباً»، أي: على غير المألوف والمعهود في كلام الخَلْق، لأنه تحيطه هَالَة من الهيبة والجلال، وتنبعث منه

أشعةٌ نورَانيَّة تخترق جميع الحُجُب، بوصفه «كلام الله»، وأنهم وجدوه «يَهْدِي إلى الرُّشْد»، أي: يفتح الأبصار، ويُنير البصائر، ويُوجِّه نحو الطريق السوِيّ في السلوك والمعاملة والتصرف، وأنَّهم بعدما تأَثَّروا بأسلوبه وروحه ومُحتواه لم يَسَعْهُم إلاّ الإيمان به دون تردد: ﴿ فَئَامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً ﴾.

وقولُه جلّ علاه: ﴿ وَإِنَّهُ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾، تنزيهٌ لله تعالى واعتراف بعظمته، وتقديرٌ له حَقَّ قَدْره، «فالجَدُّ» هنا بمعنى القَدْر والمَقَام، وهذه الآية تكذيب من مومِني الجن لمشركِي قريش فيما كانوا يعتقدونه من تناسل الملائكة عن الجن، ونسبةِ الصاحبة والولد، إلى الواحد الأحد، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَد.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اَللَّهِ شَطَطاً ﴾، استنكارٌ من مومِنِي الجن لِما يقولُه سفهاء الجن وكفارهم من الافتراء على الله، نظير ما يقوله سفهاء الإنس وكفارُهم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ اَلاِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً ﴾، أي: ما حَسِبنا أن الإنس والجن يتمالَؤُون على الكذب والبهتان، فَيَنْسُبون لله ما يستحيلُ في حقه من الزوجات والولدان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ اَلاِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ اَلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾، أي: إن الجن لما رأت أن الإنس يَعوذون بهم لخوف الإنس منهم زادُوهم تخويفاً وإرهاباً، وازدادت

الجنُّ بذلك جُرأة على الإنس.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اَللَّهُ أَحَداً﴾، أي: إن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ظنوا كما يظن كفار الجن أن الله لَن يبعث رسولاً عقب «الفَتْرة» التي مرت منذ بعثة عيسى عليه السلام، لكن ها هو الرسولُ قد بعثه الله، وها هو الكتابُ قد أُنزله الله.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ اِلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾. يفيد أن الجن كانوا خلال «عهد الفترة» بين رسالة عيسى عليه السلام ورسالة خاتِم الأنبياء والمرسلين يحاولون الاِتصال بالملأ الأعلى لِاستراق السمع، لكن هذه المحاولة لم يبق لها مكان ولا إمكان، منذ بعث الله رسوله محمداً عليه السلام، وأنزل عليه القرآن، فالطريق إلى الملإِ الأعلى محروس بحَرَس شديد من عند الله، ويُحيط به خَطٌّ من الشُّهُب المُوَجَّهة للحيلولة دون التطاول على أسرار علم الله.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ اُرِيدَ بِمَن فِى اِلْأَرْضِ أَمَ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾، اعترافٌ من مومنى الجن بأنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم تَبَعاً لذلك لا يعرِفون حكمةَ الله فيما أحاط به مكنون السماء، من الحَرَس الشديد، والشُّهُب الثاقبة.

ومن اللطائف هنا ما في التعبير المحكي عنهم من الأدب مع الله، فقد أسندوا «الشَّرّ» إلى المجهول، ولم يُبيِّنوا فاعله:

﴿ لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الْأَرْضِ ﴾، بينما أسندوا «الخَيْر» مباشرةً إلى الله تعالى: ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا الصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾، تقريرٌ لأن عالَم الجن يُشبه عالَم الإنس، بما فيه من الاستعداد للالتحاق بركب الصالحين أو بغير الصالحين، فهم أيضاً مختلفون في الاتِّجاه والعمل، منهم الكافرُ ومنهم المومنُ.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِى الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾، إشارةٌ إلى إيمانهم بأنَّ قدرةَ الله حاكمةٌ عليهم، وأنَّهم حتى لو حاولوا الهروب منها لَمَا استطاعُوا إلى ذلك سبيلاً.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُّومِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ﴾، إعرابٌ عن إيمانهم بكتاب الله بعد سماعه. وعن اهتدائهم بهَدْيه، وعن ثِقتهم بوعد الله الذي لا يَظلِم أحداً من عباده مثقالَ ذرة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً وَأَمَّا الْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾، تأكيدٌ لِأنَّه يوجد بين الجن مومنُون وكافرُون. ومن اللطائف هنا التعبير عن «الكافر» بلفظ «قاسط» أي: ظالم، لِأن الكفر يُجامع الظلم ويُمَاشيه، بينما وقع التعبير عما يقابل «القاسط» أي الظالم بكلمة «مسلم»، كأنَّ لفظ «مسلم» مرادفٌ لِلَفظ «عادل»، وذلك إشارةٌ إلى أن المسلم متى كان مُسلِماً حقاً لا يكون إلَّا مُلْتزماً للعدل مطبوعاً على الإحسان، عَدُوّاً للظلم والظالمين.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن الاستقامة وما يترتب عليها من الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً ﴾، وإلى الحديث عن حُرمة المساجد وقداستها ورسالتها في الإسلام: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾، وإلى الحديث عما يتحملُه رسولُ الله ﷺ من أَذى المشركين وتكتُّلهم ضد الدين الحنيف: ﴿ وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾.

واتجه الخطاب الإلهي إلى خاتم النبيين والمرسلين، مُلقِّناً إياه ما يَرُدُّ به هجماتِ المشركين، وما يُبطِل ادِّعاءاتِهم، ويُوقِف اعتداءاتِهم، مشيراً إلى ما يَحرُس به رسولَه من الحَفَظة الكرام، حتى يُبَلِّغ رسالة ربه في حفظ الله ورعايته: ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «المُزَّمِّل» المكية، وفي مطلَعها أمر من الله لرسوله عليه السلام بالقيام والخروج من دِفْء البيت إلى أكبر مُعترَك في الحياة، ألَا وهو أداءُ الرسالة، التي أعدَّته لها الأقدار الإلهية، إلى الناس كافة، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾.

ومنذُ صَدَرَ هذا الأمر الإلّهي لخاتِم الأنبياء والمرسلين وهو قائم على قَدَم وساق يُبلِّغ الرسالة، ويُؤدِّي الأمانة، حوالَي ثلاث وعشرين سنة، دون ملَل ولا فتور، مُمْتَثِلاً أمرَ ربه بالصبر على أذى المكذِّبين، مُحذِّراً إياهم من عذاب يوم الدين: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً اَلِيماً يَوْمَ تَرْجُفُ اُلاَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ اِلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾، ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً اِلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾.

وخُتِم هذا الربعُ بالإشارة إلى أن هذه السورة، بما فيها من آيات بينات، إنما هي موعظةٌ لمن أراد أن يتَّعظ، وتذكرةٌ لمن أراد أن يتذكَّر، والسعيدُ كلُّ السعيد من اتَّعظَ وتذكر، وفكَّر في عاقبة أمره وتدبر، ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اَتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين
في المصحف الكريم

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ
أَصْحَٰبَ النَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَٰفِرُونَ
مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾
وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا
لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ
رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾
وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ الشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «المُزّمّل» المكية: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِن ثُلُثَيِ اِلَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ اَلذِينَ مَعَكَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «المُدَّثّر» المكية: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ اُلتَّقْوىٰ وَأَهْلُ اُلْمَغْفِرَةِ ﴾.

تعود الآيات الكريمة في مطلَعِ هذا الربع إلى الحديث مرة أخرى عن «قيام الليل» الذي كان أوجبه الله على المسلمين في فجر الإسلام، وعلى رأسهم أولُ المسلمين سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام، فقد اقتضت حكمةُ الله، إعداداً لنبيه، واختباراً للطائفة الأولى من المومنين، أن يَفرِض عليه وعليهم التهَجُّدَ بالليل، واستمرت هذه الفريضةُ ساريةَ المفعول مدةً غيرَ قصيرة، وإلى فرضها أشار قولُه تعالى في الرُّبع الماضي: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلْمُزَّمِّلُ قُمِ اِلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوُ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً اَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ اِلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾.

ورُوِي عَن عائشة أَنها قالت: «إن اللَّهَ افترض قيامَ الليل في أول هذه السورة ـ تقصد سورة المُزَّمِّل ـ فقام رسولُ الله وأَصحابُه حَوْلاً، حتى انتفخَتْ أَقدامُهم، وأَمسكَ اللَّهُ خاتمتَها في السماء اثنَيْ عَشرَ شهْراً، ثم أَنزل اللَّهُ التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيامُ الليل تطوُّعاً، من بعد ما كان فريضة»، وإلى هذا «التخفيف» وجعل قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فرضاً يُشير قولُه تعالى في هذا الربع الذي هو موضوع حديث اليوم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾، قال ابن كثير: «وقد قال ابن عباس وعِكْرِمة ومجاهد والحسن وقتادة وغيرُ واحد من السلف إن هذه الآية نَسَختْ ما كان اللَّهُ قد أوْجبهُ على المسلمين أوّلاً من قيام الليل».

ورغماً عن إسقاط فريضة «التهَجُّد» فإن رسول الله ﷺ بقي يتهجدُ بالخصوص طَوال عهد الرسالة، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولم يَقِلَّ قيامُه عن ثُلُث الليل، وكان ﷺ يُوتِر بإحدى عشرة ركعة، فلما تقدم به السِّنُّ أَخذ يُوتِر بسبع ركَعات، ثم يُصَلِّي ركعتين وهو جالس، كما روى عن عائشة رضي الله عنها، وذلك امتثالاً لقوله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿ ومنَ الليل فتَهَجَّدْ به نافِلةً لكَ عَسَى أن يَبعثك ربُّك مَقاماً محموداً ﴾. قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورةَ فيُرَتِّلُها، حتى تكون أَطوَل من أطْوَل مِنهَا»، وسُئلَت أُمُّ سَلَمة عن قراءة رسول الله، فقالت: «كان

يُقَطِّع قراءتَه آيةً آية: «بسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمان الرحيم. مالك يوم الدين».

وقولُه تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾، أي: إنه سبحانه يُطيل مِن هذا، ويُقصِرُ من ذاك فيطول الليل وَيَنقص، ويأخذُ هذا من هذا أحياناً، ويعتدلان أحياناً، طِبْقاً للناموس الذي وضعَه الله لهما.

وقولُه تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾، إشارةً إلى فرض قيام الليل، الذي كان اللَّهُ قد فرضه على المسلمين اختباراً لهم، وإن كان يعلمُ عجزَهم عن مُوالاة القيام به دَائِماً، وها هُوَ الحقُّ سبحانه يُخَفِّفُه عنهم، حتى لا يكونَ عليهم في الدين من حَرَج، ويشهد لمعنى هذه الآية قولُه تعالى في آية أخرى: ﴿ اَلَـٰنَ خَفَّفَ اَللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً ﴾ (الأنفال: ٦٦).

وقولُه تعالى: ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ اَلْقُرْءَانِ ﴾، إِذْنٌ من الله تعالى للمومنين بِأن يكتفُوا بقراءة ما تيسر من القرآن، أثناء صلاة الليل، وفَسَّر ابن كثير هذه الآية بمعنى: «قوموا من الليل ما تيسر» من غير تحديد، لا بثُلُثي الليل ولا بنصفِه ولا بثُلُثه».

وقولُه تعالى: ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي اِلَارْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اِللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اِللَّهِ ﴾، إشارةٌ إلى حكمةِ الله في التخفيف عن المسلمين من فريضة قيام الليل، وجعلِ قيامه تطوُّعاً لا غير، فهنالِكَ

«مَرْضى» لا يسمح لهم مرضهم بقيام الليل، وهناك «مسافرون» يضربُون في الأرض، سعياً في طلب الرزق والتكسب بالتجارة، ابتغاءَ فضل الله، قد يَضطَرُّون إلى السفر ليلاً فضلاً عن النهار، وهنالك «مجاهدون» يُنتظَر أن يُكَرِّسوا حياتَهم للجهاد في سبيل الله، قد تدعُوهم الضرورةُ إلى الانتفاع بالسُّرَى والمشي إلى ساحة الجهاد لَيْلاً، «وعند الصَّباح يَحمدُ القومُ السُّرَى» كما يقولُ المَثَل العربي.

ثمّ عقَّب كتابُ الله على هذه الأَعذار الشرعية المعقولة وما ماثلَها، بإعادة أمر «التَّخفيف» وتكريره مرةً أُخرى فقال تعالى: ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾، أي: الآنَ خففَ اللّهُ عنكم، فخفِّفُوا إذَنْ على أنفسكم، واكتفُوا بقِراءة ما تيسر من القرآن فيما تَيَسَّر من صلاة الليل، حسبما تسمح به ظروفُكم، دون مشقة زائدة ولا إرهاق. وكان الحسنُ البصري يرى أنَّ من الواجب على حَمَلة القرآن أن يقوموا بقراءة شيء منه في الليل.

ونبَّه ابنُ كثير إلى أن ذِكْرَ «القتال في سبيل الله» في هذه السورة المكية، ولم يكن القتالُ قد شُرِعَ بعد، يُعَدُّ من أكبر دلائل النبوة، لأنه من بابِ الإِخْبار بالمُغيَّبات المستقبَلَة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾، يُفيد صدور الأمر الإلّهي للمسلمين بأداء الصلاة مع إيتاء الزكاة مُنذ كانُوا بمَكة، وقبل أن ينتقِلوا إلى المدينة، قال ابن كثير: «وهذا يدُلُّ لِمن قال إنَّ فرض الزكاة نزلَ بمكة، لَكِنَّ مقادير النُّصُبِ والمُخْرَجَ مِنها لم يُبَيَّنْ إلّا بالمدينة، والله أعلم».

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾، أي: انَّ ما تقدمونَهُ بين أيديكم لآخرتكم تجدونـهُ عند الله خيراً لكم مما أبقيتُم وراءكم في دُنْيَاكم. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّما مَالُ أَحَدِكُمْ ما قَدَّم، وَمَالُ وارِثِه ما أَخَّر»، رواه البخاري في صحيحه والنسائي في سُنَنِه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، إشارةٌ إلى الأثَر الطيب الذي يُثمِرهُ العملُ الصالح، فإنه طريق إلى غفران الله ونَيْل رضوانِه.

ولْنَنْتقل الآن إلى سورة «المُدَّثِّر» المكية أيضاً، مستعينين بالله، وقد ثبَت في صحيح البُخاري عن جابر بْنِ عبدِ الله أنه كان يقول: «أولُ شيءٍ نَزَلَ من القرآن ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾، فقد سأله أبُو سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نَزَل من القرآن، فقال له: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾، قال أبو سَلَمة: قلت: يقولُون: ﴿ ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلذِى خَلَقَ ﴾، قال له جابر: لا أُحَدِّثُكَ إلاّ ما حدَّثَنا رسول الله ﷺ، ورواه مسلم أيضاً وفيه: أن جابر بن عبد الله سمع رسولَ الله ﷺ يُحَدِّثُه عَن فَترة الوحي، وأنه نزل عليه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، ثم حَمِي الوَحْيُ وتتابَع. قال ابن كثير: «وخالفَ الجمهورُ جابرَ بنَ عبد الله، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قولُه تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١)، ثم بَيَّنَ أن الجمع بين رواية جابر بْن عبد الله ورأى الجمهور

ممكنٌ وغيرُ متعذر، على أسا أن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ هو أَوَّلُ قرآن نزل على رسول الله، لأول ما تَلَقّى الوحْيَ مِن عند الله، ثم فتَرَ الوَحْيُ مُدَّة، وبعدَ استِيناف الوحي إلى رسول الله كان أَوّلُ شيء يَنزل عليه من القرآن سورة «المُدَّثِّر»: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، إلى آخر الآيات.

وقولُه تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾، انتدابٌ وجَّهَهُ الحق سبحانه وتعالى إلى رسوله للقيام بتلقي الرسالة وتبليغها إلى الناس، وإغراءً لهُ على استقبالِ مَرحلة جديدة من الحياة، هي حياةُ الكفاح والجهاد في سبيل الله، والتطوُّعِ الدائم لهداية الخَلِيقة إلى خالقها، وإرشادِ الإنسانية إلى مُبْدِعِها.

وقولُه تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، أمرٌ من الله لرسوله بالطهارة التي هي مِن أُولَى شعائر الإسلام وضرورياته. ونبّه ابن كثير إلى أن هذه الآية قد تشمل الطهارة من الذنوب، والطهارة من الإثم، وطهارة الجسم والثياب، وطهارة القلب أيضاً. فإن العرب تطلق لفظ «الثياب» حتى على القَلب، بحيث يكونُ من جملة معاني الآية: «وقلبَكَ فطَهِّر».

وقولُه تعالى: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾، أي: حاربِ الأصنام والأوثان، وادعُ الناس إلى هَجْرها.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾، قال ابن عباس: «أي: «لا تُعْطِ العطيةَ تلتمِسُ أكثرَ مِنها»، وقال الحسن البصري: «لا تَمْنُنْ بعملك على ربك تَسْتكثِره»، واختاره ابن جرير.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾، أمرٌ للرسول عليه السلام بالتأهُّب والاِستعداد لتحمل تكاليف الرسالة وأعبائها، وعدم التأثُّر بما يَقِف في طريقها من العَقبات والعراقيل، وأنواع الأذى، على غرار قوله تعالى في سورة «المُزَّمِّل» السابقة: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾، وكما أن «الصَّبْر الجميل» هو الذي لا شَكوَى معه «فالهَجْر الجَمِيل» هو الذي لا عِتاب مَعَه.

وقولُه تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾، تَوَعُّدٌ من الله جلَّ جلاله لِمَن أنعم عليه ربُّه بأجلّ النعم، فكفَر بأَنْعُمِ الله، وقابَلَها بالجحود والعصيان، ولم يعترف لربه بأيّ شكر أو امتنان، على غرار قوله تعالى في سورة «المُزَّمِّل» السابقة: (١٠ - ١٢) ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾، أي: ما جعلنا خَزَنَة جهنم، المكلَّفين بها، إلاّ من الملائكة، وقد وصف الحقُّ سبحانه في آية أخرى خَزَنَة جهنم بأنهم «غِلاظٌ شِدَادٌ لَا يَعصون اللَّهَ مَا أمرَهُم وَيَفعلُون ما يُومَرُون» فالمراد «بأصحاب النار» في هذه الآية بالخصوص خَزَنَةُ جهنم، لانفس المُعَذَّبين فيها، بَينما المراد «بأصحاب النار» في غيرها من الآياتِ أهلُ النار أنفسُهم، المعذَّبون فيها على الدَّوام.

وتحدث كتابُ الله في الآيات الباقية من هذا الربع عن إيمان المومنين الذين يزداد إيمانهم على مر الأيام، وعن نفاق المنافقين الذين في قلوبهم مَرَض، وعن جنود الله المبثوثة في أرجاء الكون، والتي لا يُحصِيها إلاّ خالقُها، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾، وعن عذاب النار وأهوالها، وما يلقاهُ المجرمون فيها، وعن نعيم الجنة المُقِيم، وما يلقاه المومنون فيها من الرّعاية والتكريم.

ووضَّحَ كتابُ الله «حَيْثِيّات الحُكم الإلَهي» العادل، الصادِر بعذاب المجرمين، إذ قال تعالى حَاكِياً لاِعترافاتهم وعلى لسانهم: ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ حَتَّىٰ أَتَيٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾، ثم عقَّب كتابُ الله على اعترافاتهم قائلاً: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾، إشارةٌ إلى القُرآن العظيم، ورسالتِه السامية التي يُؤديها للخلق، فهو الذي يُذَكِّر الناسين، ويُنبِّه الغافلين، ويَهدِي الضَّالِّين.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، تنبيهٌ إلى وُجوب الأدب مع الله في كل ما يَاتيه المومنُ من أعمال وتصرفات، بحيث يربطها في ذهنه ويقِينه دائماً بمَشيئة اللَّهِ العُليا، فهو الذي بيده مقاليدُ الكون الظاهرةُ والباطنةُ، وكما أنَّه سبحانه «أَهْل» لأن يتقِيَهُ عبادُه، ويلتزموا طاعتَه وتقواه، فهو سبحانه أيْضاً «أَهْل» لأن يغفر لعباده إذا أنابوا إلى ربهم وتابُوا إليه من ذنوبهم، ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ
أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَٰنُ
لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ
الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ
مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ
وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾
كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ

السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾
وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا
الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ
السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾
إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ
وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾
مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً

عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في فاتحة سورة «القيامة» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «الإنسان» المكية أيضاً: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾.

في مطلَع هذا الربع وهو فاتحة سورة «القيامة» المكيـة، إشارةٌ إلى أمرين اثنين: الأمـر الأول القيامـةُ وأهوالهـا. والأمر الثاني: النفسُ وأحوالها، وكأنَّ فاتحةَ هذه السورة بَراعَةُ استهلال، فقد استغرق الحديثُ عن هذين الأمـرين السورة بتمـامها، من بدايتها إلى نهايتها، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَـةِ ﴾، والمُقسَم عليه في هـذا المقام هو نَفْيُ ما يزعمُه المشركون، من أنه لا قيام للساعة ولا بعث للإنسان، والتأكيد على إثباتِ المعاد، وبعث الأجساد.

أما «يوم القيامة» فمعروف، وأما «النفس اللوامة» فقد قال

مجاهد: «هي التي تندَم على ما فات وتلُومُ عليه»، وقال الحسن البصري: «إنَّ المومن ـ وَاللّهِ ـ ما نراهُ إلاَّ يلومُ نفسه، مَا أردتُ بكلِمتي؟ ما أردتُ بأُكْلَتي؟ ما أردتُ بحديثِ نفسي؟، وإنَّ الفاجر يَمضِي قُدُماً ما يُعاتِبُ نفسَه»، والأشبه بظاهر التنزيل في رأي ابن جرير أن «النفس اللوامة» هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندَم على ما فات، وقال ابن عطية: «كلُّ نفس متوسطة ليست بمُطمَئِنة ولا أمارة بالسوء، فإنها لَوَّامةٌ في الطرفين، مرةً تَلومُ على ترك الطاعة ،ومرةً تلُومُ على فَوْت ما تشتهِي، فـإذا اطمأنت خَلَصتْ وَصَفَتْ، ولعل كلمة «الضمير» بالمعنى المتعارف اليوم ترادف كلمة «النفس اللوامة»، ولا سيما إذا كان ضميراً حَيّاً لا ميتاً، فوَخْزُ الضمير يشابه لوم النفس من عدة وجوه.

وتساءلَ كتابُ الله عن الوهم الذي يُداخِل بعض النفوس الضعيفة، ولا سيما نفوس المشركين، وهو استبعادُهم إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته، المعبَّرَ عنها هنا «بجَمْع عِظامه بعد افتراقها» حيث قال تعالى: ﴿أَيَحْسِبُ الإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، ثم أجاب كتابُ الله على هذا التساؤل الغريب بما يفيدُ أن الله قادر على ذلك وعلى أكثر منه، وليس بعزيز على قدرته سبحانه أن يُنشِيء الإنسان في خلق جديد، أو أن يُعيد تكوينه على ما كان عليه بأدقِّ أجزائه وجميع تفاصيله، بحيث لا ينقص من الإنسان المعروف أيُّ عضو من أعضائه مهما صغر، ولا يتبدل فيه شكلُ أيّ عضو مهما دَقَّ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾، ولا غرابة في هذا، فإنّ الإنسان

ليس إلّا مخلوقاً من صُنع الله وإبداعه، وهو سبحَانَهُ الذي انفردَ بإنشائه سلالةً وَنوعاً وأَفراداً، منذ ظهر على وجه الأرض إلى يوم الدين: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

ثم بيّن كتاب الله لماذا يَميلُ ضعاف النفوس إلى عدَم الإيمان بالبعث والنَّشأة الآخرة، موَضِّحاً أَن السبب في ذلك هو ما يطغَى عليهم من الشهوات واللذات، وما يُغْرِقون فيه من أَنواع الفسق والفجور، وما يحرصون عليه من تَفادِي كل ما يُنغِّصُ عليهم هذا النوع التافه من «العيش البهيمي» الذي أَلِفُوه ولا يستطيعون عنه انفكاكاً، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾، قال مجاهد: «لِيفجُرَ أَمامَه» أي: ليمضيَ أَمَامَه راكباً رَأْسَه.

ووضَّح كتابُ الله نفسيّة ضعاف النفوس الفَجَرة، وإصرارَهم على ما هم فيه من فسق وفجور، ومحاولتَهم بكل الوسائل لدفع «شَبَح» البعث والنشأة الآخرة عن خيالهم المريض، وذلك بتكذيبهم لوجوده حيناً، واستبعادهم لوقوعه حيناً آخر، وإلى هذا المعنى يُشير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يَسأَلُ ذلك الإِنسان عنه سؤالَ استبعادٍ لِوُقوعه، حتى لا يَقُضَّ مضجعه، ولا يُنغِّصَ عيشَه، لأَنه يرغب في أَن يفجُر، وأَن يمضيَ في فجوره باستمرار، دون مُكدِّر ولا مُعقِّب، لكن الإِنسان المكذِّب بالبَعْث، المستبعدَ لوقوعه، حرصاً على الاستمتاع بشهواته دون حساب، لا يلبث أَن يُفاجَأَ بالحقيقة المُرَّة، عندما يرى أَن القيامة قد قامَت، وأَن ساعة

البعث قد حلّت، فيتساءل إلى أين الفرارُ؟ ويجد نفسه وقد سقط في شَرَك الأقدار، أحقرَ وأعجزَ من فار: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾.

ويردُّ كتابُ الله على سؤال الفاجر المستهتِر، المكذِّب بالبعث والنشور، ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾، أي: ها أنت قد وقعْتَ في قبضة الله، وليس لك أيُّ مكان تعتصمُ فيه من عذاب الله، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾، أي: إليه المرجع والمصير: ﴿ يُنَبَّؤُا ٱلإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾، أي: يُخبَرُ الإنسان بجميع أعماله، أولها وآخرها، قديمِها وحديثِها، صغيرِها وكبيرِها، ما قدَّمه قبل وفاته من الأعمال، وما يترتَّب على تلك الأعمال بعد وفاته من الآثار، هل سَنَّ سُنَّةً حسنة فيكون له أجرها وأجرُ من عمل بها؟ أو سَنَّ سُنة سيئة فيكون عليه وِزرُها ووِزرُ من عمل بها؟ وها هنا ينكشف الستار، وتسقُط الأعذار، فها هو الإنسان قد اطّلع على كتابه، وها هو قد تلقّى سجل حسابه، وكفى بنفسه عليه حسيباً، وشاهداً ورقيباً: ﴿ بَلِ ٱلإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾.

واتجه الخطابُ الإلّهي بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، مُلقِّناً إياه الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها عند تلقي الوحي من عند الله، والمراحل التي تتبع ذلك، فقال تعالى في خطابه لنبيه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، فالحالة الأولى بعد تلقيه

القرآن من المَلَكَ جَمعُه في صدره ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾، والحالةُ الثانية تلاوتُه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾، والحالة الثالثة تفسيرُه وإيضاحُ معناه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ معناهُ إذا تلاه عليك المَلَكُ عن الله تعالى فاستمعْ له، ثم اقرأْهُ كما أَقرأَك.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، أي: بعدَ حفظه وتلاوته نبينُه لك، ونُلهمك معناه على ما أَردنا وشَرَعنا، كما فسره ابن كثير، وإلى هذا الموضوع نفسِه يشيرُ قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه: ١١١)، قال المفسر الشهيد: «إن الإيحاءَ الذي تتركه في النفس هذه الآياتُ هو تكفُّل الله المطلق بشأن هذا القرآن، وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً، وإسنادُه إليه سبحانه بكليته، ليس للرسول ﷺ من أمره إلّا حملُه وتبليغُه، ثمَّ لَهفةُ الرسول ﷺ وشدةُ حرصه، على استيعاب ما يُوحَى إليه، وخشيتُه أن يَنسَى منه عبارة أو كلمة، مما كان يدعوه إلى متابَعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية، وكلمة كلمة، يستوثِق أَنَّ شيئاً منها لم يَفُتْه، ويتثبَّتُ من حفظها فيما بعد».

ثم عاد كتابُ الله إلى مخاطبة الغافلين المغرورين الذين يستغرقون كلَّ حياتهم في الشهوات والملذات دون أن يحسُبوا لما بعدها أَيَّ حساب، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾، وكأَنَّ في هذا الخطاب تلويحاً إلى ما في طبع الإنسان

من غريزة «العَجَلة»: ﴿خُلِقَ اَلإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، فبحكم هذه الطبيعة البدائية يَميل الإنسان الغافل إلى الاستمتاع بيومه قبل غده، ويلتهم العيش التهاماً، دون أن يفكر في العواقب، على حَد قول القائل: «ولك الساعةُ التي أنت فيها»، لكن العاقل من شَغَل عُمرَه بما يستمر ويَبقَى، لا من يَشغله بما يمُرُّ ويفنَى. ولعل هذا هو السرّ في وصف القرآن الكريم للدنيا في هذه الآية باسم «العَاجلة» إيماءً إلى قِصَر مدتها، وسرعةِ فنائها، وإشارةً إلى استغراق الغافلين المغرورين في شهواتها وملذاتها، خشيةَ فواتها.

وانتقل كتابُ الله بعد ذلك إلى وصف ما أَعَدَّهُ الله في الآخرة للمتقين المُصَدِّقين، وما أعده فيها للمَحْرُومين المكذِّبين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

ويتساءلُ كتابُ الله سؤال استنكار واستغراب: ﴿أَيَحْسِبُ اَلإِنسَـٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾، أي: أيظنُّ الإنسان أنه خُلِق ليترك في حياته هَمَلاً لا يُؤمَر ولا يُنهَى، وأنه خُلِق ليُترك بعد موته مَنسِياً لا يحاسَب ولا يعاقَب: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَـىٰ أَنْ يُحْيِـيَ اَلْمَوْتَىٰ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الإنسان» المكية أيضاً، مستعينين بالله، سائلين منه الهداية والتوفيق.

وفي مطلَع هذه السورة الكريمة يعود الحديث من جديد إلى موضوع الإنسان الذي لم يخلقه الله سُدى، ويبينُ كتاب الله أنه قد مَضى زمن طويل على العالَم دون أن يكُون فيه لِلإنسان وجود ولا ذكر، ويشير إلى أن وجوده فيه إنما هو طارىء عليه، لحكمة إلٰهية اقتضت إيجاده وإمداده، وهي حكمة الإبتلاء والتكليف والخلافة عن الله في الأرض، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وواصلَ كتابُ الله الحديث عن الأبرار والفجار من بني الإنسان، فوصف كلا الفريقين، ووضّح جزاءَ الطرفين، فعن الفجار وجزائهم قال تعالى هنا: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾، وعن الأبرار وجزائهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾.

وعرَضَ كتابُ الله في نفس السياق مكارم الأخلاق التي يدخل بها الناس في عداد «الأبرار» السعداء حيث قال تعالى في وصفهم: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى الحديث عن جزاء الأبرار حيث قال

تعالى في حقهم: ﴿ فَوَقَيٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً وَجَزَيٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾، إلى قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾
لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾
أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى
ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى
بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الإنسان» المكية: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «المرسَلات» المكية أيضاً: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ﴾.

تُواصل الآياتُ الكريمة في بدَاية هذا الربع وصفَ ما أعده الله لعباده «الأبرار» من ضروب النعيم وصنوف الإحسان، وفي خلال هذا الوصف يقول الله تعالى في خطابه لنبيه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾، أي: إذا رأيتَ يا محمد الجنَة وما هي عليه رأَيتَ نعيماً حقيقياً لا يُنغِّصه أيُّ منغِّص، ولا يساويه أيُّ نعيم عرفه الناس، ورأيت مُلكاً إلّهياً كبيراً، تتضَاءَلُ دونَه جميعُ مظاهر المُلك البشَريّ المحدود، فمُلْكُ الله لا يُعادله غيرُه في السلطان الباهر، والنفوذ القاهر. ولا غرابة فيما يفاجَأ به الذين آمنوا بالله ورسوله في دار النعيم، فقد وعدهم الله أن يُكرمهم «بِمَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وفي خِلال هذا الوصف يَقول الله تعالى بشأن عباده الأبرار: ﴿ وَسَقَيْهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾، وقد فسره ابن كثير بأن الله تعالى طهَّر بواطنهم من الحسد والحقد والغِل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، اعْتماداً منه على أَثَر روي في الموضوع عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبذلك جمعَ لهم الحقُّ سبحانه وتعالى بين نَضَارة الظاهر وجَمال الباطن، إذ قال تعالى في حقهم في الربع السابق: ﴿ وَلَقَّيْهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾.

وتفضَّلَ الحقُّ سبحانه وتعالى، فأعلنَ إلى عباده «الأبرار» أنَّه قد بَرَّ بوعده، وأوفى بعهده، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾، بمعنى أن هذا النعيم المقيم الذي يتقلَّبون فيه ـ على سَعته وعظمته ـ هو إحسان من الله إليهم، تكريماً لتقواهم، وتقديراً لنواياهم، بالرغم من أنه لا نِسبة بين عَمَلِهِمُ المحدود المنتهِي في الدنيا، ونعيمِ الله الواسع الذي لا نهاية له في دار الخُلود.

وانتقلَ كتابُ الله إلى دعوة الرسول عليه السلام إلى الثبات على الحق، وإلى تبشيره بمددٍ رُوحانيّ جديد يُمِدُّه الله به من عنده، حتّى يَقوَى على مواجهة قريش بعنادها وإصرارها وتكتُّلها، ومن ورائها إذ ذاك ـ من الوجهة المعنوية ـ قواتُ الشِّرك والكفر والطغيان في العالَم أجمع، مذكِّراً له بالرسالة العظمى التي أُنزلها عليه في الذكر الحكيم، آمِراً له بالاِعتصام بالصبر والثبات، في وجه جميع العراقيل والعقبات، داعياً إياه إلى مكافحة الإثم والكفر كفاحاً لا هَوانة فيه ولا تنازل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾.

ولا بأس من التنبيه هنا على أن التعبير في هذه الآية وأمثالها بصيغة «نَزَّل»: ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴾، يفيد بمقتضى الاستعمال اللغوي لهذه الصيغة بالذات أن كتاب الله لَمْ يَنزل على رسوله دفعةً واحدة، وإنما نَزَلَ بالتدريج وبالتتابع على دَفَعات، حسَبَ التخطيط الإلّهي لمُناسبات نزوله، وحسَبَ الوقائع والأحداث، وبذلك يؤدي لفظ «نزّل» في هذا السياق معنى خاصّاً لا يؤديه غيره من الأفعال الأُخرى المشتقة من هذه المادة.

ثم اتجه الخطابُ الإلّهي إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، آمراً له بالذكر والعبادة والتسبيح والسجود، ولا سيما في خَلوات الليل، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾، على غِرار قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ (الإسراء: ٧٩)، وذلك لأن العبادة بكافة أشكالها وأنواعها عَوْنٌ عظيم على تحمُّل الأعباء الجسام، ولا سيما أعباء الرسالة، وإلى هذا المعنى ينظرُ قولُه تعالى في آية أُخرى: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ﴾.

والتنويه «بعبادة الليل» في هذا المَقام، وحضُّ الرسول عليها بالخصوص، يناسب ما يمتاز به الليلُ من السكون والهدوء، وما يساعد عليه من جمع الفكر والتأمل والتدبُّر في آيات الله القرآنية

والكونية، والاستغراق في مُناجاتِه دون انقطاع، على حدِّ قوله تعالى في سورة (المزَّمِّل: ٥): ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾، بمعنى أنَّ قيام الليل هو أشدُّ مواطأةً بين القلب واللسان، وأجمعُ للخاطر عند تلاوة القرآن.

وعادَ كتابُ الله مرة أخرى إلى التنديد بموقف المشركين والكفار، وما هم عليه من الاستغراق في الشهوات والاستهتار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾، وقد جاء التعبير عن الدنيا في هذه السورة أيضاً باسم «العاجلة»، على غرار ما سبق في سورة (القيامة: ٢٠، ٢١)، إذ قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، «فالعاجِلةُ» هي الحياةُ الدنيا، التي مهما طالت فهي قصيرة الأَجل، ومهما أبطأت فهي مُسرعة الخُطَى، وحظُّ كلِّ إنسان منها أسرع وأقصر، بحيث لا يستحق أن يُذكَر، «واليوم الثقيل» الذي تركوه أمامهم، وتشير إليه الآية هنا، هو «يوم القيامة». فهو «ثقيل» بتَبِعاته الكبيرة، ومسئولياته الخطيرة، حيث يُحشَر الخلقُ أمام خالقهم للعرض والحساب، وهو «ثقيل» بنتائجه وعواقبه، حيث يتلقى الخلقُ أحكامَ خالقهم، إمَّا بالثواب وإمَّا بالعقاب.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى التهوين من شأن «أصحاب العاجلة» المغرورين المستغرِقين في شهواتهم، المنتهِكين لحُرمات الله، والمتَعدِّين لحدوده، مبيِّنةً أنهم مَدينون بكل شيء لله الذي خلقهم، والذي أَمَدَّهُم بكل ما يستعملونه من طاقات وملكات، وأن ما يسيئون التصرف فيه، من نِعَم الله وعطاياه، إنما

هو عاريَةٌ مستَرَدّة، وسيحاسَبون عليها حساباً عسيراً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾، وقوله تعالى في نهاية السياق: ﴿ وَالظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾، يُمكنُ تفسيره بمعنى أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم يوم القيامة ويُعيد خلقَهم من جديد، من باب الاستدلال بالنشأة الأُولى على النشأة الآخرة، ويمكن تفسيره بمعنى أن الله تعالى إذا شاء أبادَهم من الدُّنيا عقاباً لهم، وأتى بغيرهم من الناس، على حد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ (النساء: ١٣٣)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (فاطر: ١٦، ١٧).

وعادت الآياتُ الكريمة مرةً أُخرى إلى الحديث عن «كتاب الله» والتنويه بما جاء به من الهداية والنُّور للإنسانية جمعاء، مع الإشارة إلى أن في طليعة أهدافه تذكيرَ الناسين، وتنبيهَ الغافلين، إلى ما عليهم من حقوق لله وحقوق لمخلوقاته يلزمهم القيام بها، وصرف الوِجْهة إليها، وذلك قولُه تعالى هنا، ونفسُ هذا النص سبق نظيرُه في سورة (المزمل: ١٧): ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾، ولا طريق إلى الله والوصول إلى معرفته ورضاه، أفضل وأضمن من كتاب الله، رُوي عن أمير المومنين علي كرم الله وجهه أنه سئل عن المَخْرَج من الفِتَن فقال: «المَخْرَج منها كتابُ الله، فيه نَبَأُ مَن قبلكم، وخبرُ ما

بعدكم، وحكمُ ما بينكم، هو الفَصْل ليس بالهَزْل، من تركَهُ من جَبَّارٍ قَصَمهُ الله، ومن ابتغَى الهُدَى في غيره أَضلَّه الله، فهو حبلُ الله المتين، ونورُه المبين، والذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لاتزيغُ به الأَهواء، ولا تلتبس به الأَلسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبَع منه العلماء، ولا تَملُّهُ الأَتقياء، ولا يَخْلَقُ عَن كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضِي عجائبُه، من عَلِم عِلْمَه سَبَق، ومن قال به صَدَق، ومن حَكَم به عدل، ومن عَمِل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم». قال ابن كثير: «وقد وهم بعضهم في رفع هذا الحديث».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، يمكن أن يُفهم على وجهين:

ـ الوجه الأول: أَنَّ المومنَ ينبغي له أن يربط أعماله وتصرفاته بمشيئة الله، أدباً مع الله من جهة، وتوكلاً عليه من جهة أُخرى، بحيث لا يعتقد أَنَّ إرادته المحدودة هي الكلُّ في الكل، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف: ٢٣).

ـ والوجه الثاني: أَنَّ المومن ينبغي له أن يلْتجىء إلى الله دائماً، ويطلبَ منه الهداية والتوفيق فيما يُقدِم عليه من أعمال وتصرفات، حتى يُيسر له أَسباب النجاح من جميع الوجوه، وقد سبق في ختام سورة «المدَّثِّر» قولُه تعالى: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، وهو يشابه تمام المشابهة قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

ثم عقَّب كتابُ الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾، أي: «عليماً» بِنواياكم في أعمالكم وتصرفاتكم، «حكيماً» في تيسير أسبابها والتصديق عليها إن كانت خيراً، أو في تعطيل أسبابها، والتعرضِ لها، إن كانت شراً، ولله الحجة الدَّامِغَةُ، والحكمة البالغة.

والآن فلْنَنْتَقِلْ بعون الله وتوفيقه إلى سورة «المرسَلات» المكية أيضاً، وهذه السورة الكريمة تتناول بالوصف مشاهد القيامة وأهوالها بالنسبة لجميع الأكوان، ولا سيما ما يتعرض له الإنسان، وكما سبق في سورة «الرحمان» التعقيب على كل نعمة من نِعَم الله بِقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وتكرَّر ذلك إحدَى وثلاثينَ مَرة، نجدُ التعقيبَ ها هنا على كل حجة وبرهان، من حُجج الله القاطعة، وبراهينه الساطعة، بقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾، ويتكررُ ذلك عَشْرَ مرات، عَقِب مختلِف الآيات.

وقد سَجَّلتْ هذه السورةُ في مطلَعها قَسَماً غليظاً بعدد من القوات المسخَّرة لله، المبثوثة في الآفاق، وهذا القَسَمُ يَنصَبُّ على أن ما وَعَد اللَّهُ به من قيام الساعة، والبعث، والحشر، والجزاء، واقعٌ لا مَحالة، وإن كَذَّب به المكذِّبون، وأنكره المنكِرون، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفاً فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفاً وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْراً فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقاً فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

والمراد «بالمُرسَلات» هنا الرياح، بناءً على ما يُستفاد من

قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢)، وفي آية ثالثة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الأعراف: ٥٧)، و «العاصفات» و «الناشرات» هُنا وصفان للرياح «المَرسَلات»، إذ كثيراً ما تصحَب الرياحَ عواصفُ تهُبُّ معها، وسُحُبٌ تنتشر في السماء إِثْرَها.

والمراد ﴿بِالْفَرِقَٰتِ فَرْقاً، الْمُلْقِيَٰتِ ذِكْراً﴾ الملائكةُ المُكْرمُون، كما قاله ابن مسعودُ وابن عباس ومن تابَعهما، فإن الملائكة تنزل بأمر الله على رسُله بما يُفرِّقُ بين الحق والباطل، والهُدَى والضلال، والحلال والحرام، وتُلقِي إلى رُسُله من الوحي ما فيه إعذارٌ للخلق حيناً، وما فيه إنذارٌ لهم حيناً آخر، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾.

ثم عَرَض كتابُ الله على جميع الأنظار صورة حيّةً من مشهد الانقلاب العظيم الذي سيشهده الكون عندما ينفرطُ عِقْده، وتتقوّضُ أركانه، وهذا المشهد قادم لا مَحالةَ بشهادة القرآن العظيم أولاً، وهذه الشهادة عندنا هي الأساس، واعترافِ البحث العلمي الحديث ثانياً، وهذا الاعتراف لِمَن له به اسْتئناس، فسيأتي يوم تتفجّرُ فيه القُوَى المخزُونة في الكون، ويكفي أن يقع الِانفجار في كَوْكَب واحد ليمتدَّ منه الِانفجارُ إلى الكواكب الأخرى فيحيلها دُخاناً وغُباراً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، أي: ذهب ضَوْءُها ونورُها، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾، أي: انفطرت وانشقت، ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، أي: أصبحت هبَاءً منثوراً بعد نَسْفها واقتلاعها من أُصلها.

وقولُه تعالى: : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾، إشارةً إلى أنَّ يوم القيامة هُو الموعد الذي يُقدِّمُ فيه الرسلُ إلى بارئهم حساباتِهم معَ الذين أُرسِلوا إليهم من البشر، ويَعرِضون فيه النتائج التي أثمرتْهَا الرسالةُ الإلَهية إلى مختلِف الأمم والشعوب، سَلْباً وإيجاباً، على حدِ قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ وَجِيٓءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٦٩)، وقولِه تعالى في آية ثالثة: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٩)، فقد أُجِّل هذا الموعد الفَصْل: ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

ومضَى كتابُ الله يتحدث عن مصارع الأُمم الغابرة، وعن آيات الكون الباهرة، وعن أهوال الآخرة، وعمَّا يكون فيه المتقون من النعيم المقيم: ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾، وعمَّا يكون فيه المجرمون المكذِّبون من العذاب الأليم: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾.

وللمرة العاشرة جاء قوله تعالى في هذا السياق: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثمّ جاء التعقيب عليه بسؤال مُقتَضب يثير الاستغراب والعَجَب، ألَا وهو قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ أي إذا أصرُّوا على التكذيب بالقرآن، ولم يومنوا بما فيه من حكمة وبيان، وحجة وبرهان، وهو ﴿ الذكي الحكيم ﴾ الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه ﴾ فبماذا سَيُومنون؟ أيومنون بالرأي العقيم، والفكر السقيم، ويُعَطِّلون مَلَكَة العقل السليم والفهم القويم؟ وقد سبق في (سورة الأعراف: ١٨٥) وَضْعُ هذا السؤال في سياق قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظرُوا في مَلَكُوت السَّمـٰوٰت والأرض وما خَلَق اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أن يكونَ قد اقترَبَ أَجَلُهُمْ، فَبِأَيِّ حديثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ
الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ
السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ

أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَّكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرِيٰهُ
ٱلْايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾
فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْاعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ
ٱلْاخِرَةِ وَٱلْاولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَآنتُمُۥٓ أَشَدُّ
خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَيٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّيٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضُحَيٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْارْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا
وَمَرْعَيٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَيٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في فاتحة سورة «النَّبأ» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾، ونهايتُه قولُه جلّ علاه في سورة «النازعات» المكية أيضاً: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ﴾.

في مطلَع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «النَّبأ» المكية، يتحدث كتابُ الله مرةً أُخرى عن البعث «يوم الفَصْل» الذي يُصدِّق به المومنون، ويكذِّب به الكافرون، فهم في شأنه مختلِفون، وقد سماهُ الله تعالى في فاتحة هذه السورة الكريمة (بالنَّبأ العظيم)، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾، أي: أن هذا النبأ نبأٌ صادق مطابق للواقع، وليس لصدقه ولا لوقوعه من دافع، وسيرَوْنَه عِياناً، ويُذعِنون له إذعاناً، ثُم انقطع الحديث عن «يوم الفصل» في هذا السياق، لينتقل إلى

استعراض جملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، وكلُّها تدل على قدرة الله التي لا يحُدُّ طاقتَها حَدّ ولا يصعب عليها شيء، وهذا الانتقالُ إنما هو في الحقيقة تمهيد للعودة إلى تفسير «النَّبأ العظيم»، ووصفه وصفاً كاشفاً مثيراً، فقال تعالى مُبكِّتاً للشَّاكِّين في النبأ العظيم والمكذِّبين به، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾.

ومن هنا عاد الحديثُ «إلى النَّبأ العظيم» وهو البعث «يوم الفصل»، فقال تعالى في شأنه أوَّلاً: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾، وقال تعالى في شأنه أخيراً في ختام هذه السورة: ﴿ رَّبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَـَٔابًا إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾. وقال مجاهد: «النَّبأ العظيم هو القرآن».

وتناوَل كتابُ الله بهذه المناسبة الحديثَ عن «الطَّاغين» وعقابِهم، فقال تعالى في شأنهم: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا

حَمِيماً وَغَسَّاقاً جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ وكشفَ الحقُّ سبحانه عن أكبر ذنب ارتكبوه، واستحقوا من أجله العقاب والعذاب، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَاباً وَكَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَا كِذَّاباً وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰباً، فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾.

ثم عرَّج كتاب الله على ذكر «المتقين» وثوابهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً، حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾.

والآن فلْنَقِفْ وقفةً خاصةً عند بعض الآيات من هذه السورة الكريمة:

فقولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾، امتنانٌ من الله تعالى على الإنسان بأن مَنحه راحة النوم، وجعل نومه قَطْعاً للحركة اليومية وتوقُّفاً عنها، حتى يستريح جسمه ويستجِمّ، وتهدأ أعصابُه من مواصلة السعي وكثرة التردد، عِلاوةً على ما في سكون النوم من تعويضٍ عن الجُهد المبذول خلال اليقَظة، وأثناء الانشغال بمَتاعب الحياة، وشاءت حكمةُ الله وَرَحمتُه أن يتمَّ النومُ بطريقة غَيْبية وقهرية، لا دَخَل فيها لتصرّف الإنسان، ولا قدرة له على مقاومتها مَتَى حَلَّ موعدُ النوم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾، إشارةٌ إلى السُّحُب التي تثيرها الرياح، فيتساقطُ ما فيها من الماء، وينزلُ على الأرض لصالح مَن فيها، من الإنسان والنبات والحيوان، و«الماء الثَّجّاج» هو المتتابع الصَّبّ، وإلى هذا المعنى يشير قوله

تعالى في آية أخرى: ﴿ اَللَّهُ اَلذِى يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَـاباً فَيَبْسُطُهُ فِى اِلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى اَلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِ ﴾ (الروم: ٤٨).

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى اِلصُّورِ فَتَـاتُونَ أَفْـوَاجاً ﴾، المراد «بالصُّور» شيء يشبه البوق، سيُنفَخ فيه يوم القيامة لدعوة الخلائق إلى ميقات جمعهم المعلوم، ولم يُضِفْ كتابُ الله إلى ذكر اسمه أيَّ بيان عنه ولا عن كيفيته، فذلك من «علم الغيب».

وقولُه تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ اِلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾، أي: أن الجبال التي كانت ثابتةً في مكانها قبل يوم القيامة لا يبقى منها عند قيام الساعة عينٌ ولا أثر، نظير المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ اَلظَّمْـَٔـانُ مَآءً حَتَّىٰ إِذَا جَـآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ (النور: ٣٩).

وقـولُه تعـالى «للطاغين» الوارد في مقـابلة قـولـه تعـالى «للمتقين» في هذه السورة، إشارةً إلى أَنَّ «تَقوَى الله» من شأنها أن تحول بين صاحبها وبين انتهاك حُرُمات الله، وأن لا تَسمح له بتعدِّي حدود الله، وبذلك يكون بعيداً عن الظلم والطغيان، ملتزِماً في تصرفاته للعدل والإحسان.

وقولُه تعالى في شأن الطاغين: ﴿ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَـاباً ﴾، أي: ماكثين في جهنم أحقاباً، والأحقاب جمع «حُقُب» كما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ اَلْبَحْرَيْنِ أَوَ اَمْضِىَ حُقُباً ﴾ (الكهف: ٦٠)، والحُقُب هو المدة الطويلة من الدهر،

«والحِقْبة» من الدهر تُجمَع على حِقَب وحُقُوب، وهذه الآية حمَلها خالد ابن مَعدان على «أهل التوحيد»، ومِثْلُها عنده قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في (سورة هود: ١٠٧)، بمعنى أنَّ العُصاة من المومنين إذا عُذِّبوا بجهنم فإنهم لا يخلدونَ فيها، وإنما يلبَثون فيها مدةً محدودة، ثم يفارِقُونها إلى الجنة بمغفرة من الله ورحمة منه، وحمَلَ قتادةُ هذه الآية: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً﴾، على غيرهم، أي أن «الطاغين» يُعذَّبون في جهنم عذاباً لا انقطاع له، بحيث كلَّما مضى «حُقُبٌ» جاء بعده حُقُبٌ آخر، وهذا التفسير هو الذي رجحه ابن جرير فقال: «والصحيحُ أنَّها أي الأحقاب لا انقضاء لها كما قال قتادة والربيع بن أنس، ويشهد لهذا التفسير ويؤكده قوله تعالى في نفس هذه السورة وفي نفس السياق: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾، أي: يُقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلّا عذاباً من جنسه، على حَدِّ قوله تعالى في سورة (صٓ: ٥٦ ـ ٥٧): ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾. قال عبد الله بن عمرو: «لم يَنزِل على أهل النار آيةٌ أشدّ من هذه الآية، فهم في مزيد من العذاب أبداً»، وقولُه تعالى في شأن «الطاغين»: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّاباً﴾، أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

وقولُه تعالى في شأن المتقين: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً﴾، أي: أن أسماعهم لا يؤذيها سماع اللغو العاري عن الفائدة، ولا سماعَ التكذيب المتبوع بالجدل، وما داموا في «دار السَّلام»، فهم في دار لا خِصام فيها ولا ملام، وإلى هذا المعنى

ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ (الطور: ٢٣)، وقولُه تعالى في آية ثانية: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (يوسف: ٩٢).

وقولُه تعالى: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾، أي: عطاءً كافياً وافياً، تقول العرب أعطاني فأَحْسَبَنِي أي: كَفاني، ومنه «حَسْبِيَ اللَّهُ» أي: أن الله كفاني، ويشبهه قوله تعالى في آية سالفة: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُوراً ﴾ (الإنسان: ٢٢).

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفّاً ﴾، أي: يوم يقوم جبريل والملائكة معه، استناداً إلى قوله تعالى عن جبريل: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٣).

وقولُه تعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ ﴾، يشابهُ قولَه تعالى في «آية الكرسي»: ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾، (البقرة: ٢٥٤) وقولَه تعالى في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (هود: ١٠٥).

وقولُه تعالى حكايةً عن الكافر: ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰباً ﴾، معناه أن الكافر حين يعايِن عذاب الله يوم القيامة يوَدُّ أن لم يُخلَق، ولم يُخرَجْ إلى الوجود، ويتمنّى لو أنه كان تُراباً، ولم يكن إنساناً.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «النازعات» المكية أيضاً،

مستعينين بالله، وفي مطلع هذه السورة إشارةٌ إلى جملة من القوات الكونية التي سخرها الله وبثها في الكون، لتنفيذ أمره فيه، وتدبير شؤونه طبقاً لمشيئته، ووفْقاً لحكمته. فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقاً وَالنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطاً وَالسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحاً فَالسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقاً فَالْمُـدَبِّرَاتِ أَمْـراً يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾.

ولتقريب معنى هذه الأشياء المُقسَم بها من الأذهان يُمكن أن يكون معنى «النازعات غَرْقاً» كل ما أُودِعتْ فيه قوةُ نَزْع الأشياء من مقارِّها بشدة، وأن يكون معنى «الناشِطات نَشْطاً» كلٌّ ما أُودِعت فيه قوةُ إخْراج الأشياء في خفة ولِين، وأن يكون معنى «السابحات سَبْحاً» كلٌّ ما أُودعت فيه قوَّة السرعة في تأدية وظائفه بسهولة ويُسر، وأن يكون معنى «السَّابقاتِ سَبْقاً» كلُّ الأشياء التي تسبق في أداء ما وُكِل إليها سَبْقاً عظيماً، وأن يكون معنى «المُدبِّرات أمراً» كلُّ الكائنات التي وكَل اللَّهُ إليها تدبير الأُمور وتصريفَها، بما أُوْدَعَ فيها من خصائص، وهذه المعاني التي اختارتها لجنة (المُنتخَب في تفسير القرآن الكريم)، هي أعمّ ما يمكن أن تُحملَ عليه المفردات الواردة في مطلَع هذه السورة، المُقسَم بها على قيام الساعة وزلزلتها العظمى، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١)، وبذلك يقع تَفادِي ما وقع في تفسير هذه المفردات من تضارب واختلاف عند قدماء المفسرين، وقال ابن عباس: «الرَّاجفة والرَّادِفة» هما النفختان الأُولى والثانية» وقال مجاهد: «أمَّا الأُولى وهي قوله تعالى هنا: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ

الرَّاجِفَةُ ﴾، فهي كقوله جلت عظمته: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ (المزمل: ١٤)، وأما الثانية وهي قوله تعالى هنا: ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾، فهي كقوله جلّ علاه: ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ (الحاقة: ١٤). ويمكن حمل «الرادفة» على السماء، بمعنى أنها تَرْدُف الأرضَ وتتبعُها في الانقلاب الكوني عند فناء العالم، حيث تنشقُّ وتتناثرُ كواكبها.

وقولُه تعالى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾، إشارةٌ إلى ما يملك القلوبَ يوم القيامة من الهَلَع والخوف، وما يُصيب الأبصار من الذل والانكسار، لهول الموقف وشدَّته.

وقولُه تعالى حكايةً عن المشركين المكذِّبين ومن لَفَّ لَفَّهم: ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَٰماً نَّخِرَةً ﴾، معناه أنهم يستبعدون الخروج من القبور، ويشُكُّون في البعث والنشور، ويتساءلون كيف «يُرَدُّون» أحياء بعدما أصبحوا عظاماً نَخِرَة، ثم لا يلبثون أن يتخيلوا أن «البعث» قد وقع، وأنهم كانوا على غير حق في استبعاده، فيعودون على أنفسهم باللوم قائلين: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾، أي: قال المشركون الذين يُنكرون البعث: لئن أحيانا الله بعد الموت لَنخسَرَنَّ خسارة مؤكدة، وخسارتُهم آتيةٌ من تكذيبهم بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾، إشارةٌ إلى أرض المحشر التي يُحشَر إليها الخلائق، وموقعُ هذه الأرض هُو من «علم الغيب» الذي اختصَّ اللَّهُ به دون خلقه. وقال مجاهد: «كانوا

بأسفل الأرض فأُخرِجوا إلى أعلاها».

وانتقل كتابُ الله من وصف يوم القيامة وذكر أحواله وأهواله إلى الحديث عن قصة موسى وفرعون، باعتبارهما نموذجاً لانتصار الحق على الباطل، فبيَّن الدعوة التي وجهها موسى عليه السلام إلى فرعون مصر بأمر الله، وبيَّنَ ما كان عليه فرعونُ وملأوُه من الكِبْر والغرور والتطاول على الله: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾.

وعادَ كتابُ الله إلى التذكير بآيات الله البارزة في كونه، التي لا يجادلُ فيها إلاّ أعمَى البصر والبصيرة: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾.

وخُتِمَ هذا الربع باستيناف الحديث عن النَّشأة الآخرة، وما يناله «الطاغون» من عذاب، و«المتقون» من ثواب، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَيٰهَا ﴿٤٢﴾
فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَيٰهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَيٰهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخْشَيٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَيٰهَا ﴿٤٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ
فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا
عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ
عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾
مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا
أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾
فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾
وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ
سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ
نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾
وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا

هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ
أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾



الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «النازعات» المكية: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾، إلى قوله جلّ جلاله في ختام سورة «التكوير» المكية أيضاً: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع، وهي نهاية سورة «النازعات» المكية يواصل كتابُ الله الحديث عن قيام الساعة، وتَساؤل الناس عن موعدها، وخاصة منهم المكذِّبين الذين يشكون في قيامها، والذين يستعجِلون العذاب ليتأكدُوا من حساب الله وعقابه، وذلك قوله تعالى حكاية لسؤالهم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾.

ثم يخاطبُ اللَّهُ نبيه عليه السلام، منبِّهاً إياه إلى أن أمر الساعة أعظم وأخطر من أن يَسأل عنه سائل، أو يُجيبَ عنه مُجيب، وأن الرسول عليه السلام مهما سُئِل عن موعدها وألحّ عليه السائلون في الجواب فإنه لا يستطيع أن يعطيهم جواباً شافياً، لأن العلم بموعد الساعة مَرَدُّهُ إلى الله، فقد انفردَ به دون

سواه، ولا أَحَدَ من الخلق ـ مهما علت منزلته ـ ولو كان رسولاً أو نبياً، يعلم وقتها على التحديد والتعيين، وذلك قوله تعالى خطاباً لنبيه: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَا ﴾.

ولَفَت الوحيُ الإلَهي نظرَ الرسول عليه السلام إلى أن مهمته الوحيدة، ورسالَته المحدودة، بالنسبة لقيام الساعة، لا تتجاوز حدَّ التعريف بها وبأشراطِها، والإنذار بها وبأهوالها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾.

وبَيَّنَ كتابُ الله أن عُمُر الحياة الدنيا مهما طال فهو قصير بالنسبة إلى الحياة القادمة، فستَقومُ الساعة في موعدها المحدَّد الذي لا يعلمه إلاّ الله وحده، وسيُبعث الناسُ من قبورهم عند قيامها، وسيُدركون لأول وَهْلة أن الفترة التي قضوها قبل البعث ـ بمَا فيها فترةُ الحياة والموت معاً ـ كأنها عشيةٌ من العَشَايا، أو ضَحْوَةٌ من الضَّحايا، في قصرها وسرعة انقضائها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾، «عشية» أي: ما يعادل فترة العصر إلى غروب الشمس «أو ضُحَاها» أي: ما يعادل فترة طلوع الشمس إلى الزوال.

وهنا ننتهي من سورة «النازعات» المكية لنَنْتَقل إلى سورة «عبس» المكية أيضاً، سائلين من الله التوفيق.

ومطلَعُ هذه السورة يخصِّصه كتاب الله لأمر جَلَل، ألَا وهو التنبيه إلى التزام «مَبدأ المساواة» بالنسبة لجميع السائلين والمستفتين، في نشر الهداية وتعليمِ الدين، وإيثارُ «الراغب في

الحق» بإعطائه الأسبقية في العَون والإرشاد، بدَلاً من إيثار «الراغب عَن الحق»، الذي لا يزال متأرْجحاً بين الصلاح والفساد، فقد بنِي الإسلامُ على أن أحق الناس في نظره بالإكرام والاعتبار والتقدير هو أقواهم إيماناً، وأشَدُّهم استقامة، وأكثرُهم تقوى، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

وقد أراد كتابُ الله أن يُركِّز هذا المعنى في أذهان المؤمنين، ويقوّي أثره في نفوسهم، حتى تكون «المساواة» في العلم والدين شريعتَهم الأولى والأخيرة، فاتخذ الوحيُ الإلّهي من إحدى المناسبات التي كان فيها رسولُ الله ﷺ جالساً مع زُمْرة من صَنَادِيد قريش، ـ وكان يتصَدَّى لهم كثيراً ويحرِصُ على أن يومنوا بالله ورسوله ـ ثم أقبل عليهم في نفس الوقت، وانضمَّ إلى مجلسهم فَجأةً عبدُ الله بن أمِّ مَكْتوم الذي كان ضَريراً فقيراً، مناسَبةً لتأكيد المبدأ الإسلامي الأصيل، في اعتبار القِيَم الأخلاقية والمعنوية للناس، قبل القِيَم المادية والاجتماعية المتعارَفة:

ذلك أن رسول الله ﷺ كان في مجلسه هذا مشغولاً بالنَّفَر الذين قدِموا عليه من صَنَادِيد قريش إذ ذاك، مستغرقاً في الحديث معهم يَعرِض عليهم الإسلام، ويُحاول أن ينتزع من صدورهم رواسبَ الشرك، عسَى أن يشرح الله صدورَهم للإيمان، ويكُونُوا قوةً للإسلام والمسلمين، فلما جاء عبدُ الله بنُ أمِّ مكتوم وهو ضَرير لا يَرَى ولا يَعرِف من هم الجالسون مع رسول الله ﷺ، أخذ يقطع على رسول الله حديثَه معهم، وأخذ يُلِحُّ عليه في تعليمه بعض آيات من الذكر الحكيم، ويقول له: يَا رسولَ الله:

(عَلِّمْني مما علمك الله)، وصادفَ أن رسول الله عليه السلام لم يُجبه في الحين إلى ما طَلب، لأنَّه كان في ذلك المجلس منهمكاً في إقناع صَنَاديد قريش بالإسلام، حرصاً منه على استجابتهم لله ورسوله، وقياماً بما أوجب الله عليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ولا سيما لهؤلاء الذين لا يزالون على شركهم، والذين يُنتظرُ أن يكونوا مدداً جديداً للإسلام لو دخلوا في دين الله، أما عبدُ الله بنُ أمِّ مكتوم فقد كَان إذ ذاك مؤمناً بالله ورسوله، بل مُؤذِّنَ رسول الله الثاني بعدَ بلال، مؤذنِه الأول.

وعما حدث بهذه المناسبة يتحدث كتاب الله فيقول: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾، إشارةً إلى مجيء عبد الله بن أم مكتوم وانضمامه إلى مجلس الرسول عليه السلام، والرسولُ مستغرقٌ في عَرض الإسلام على أولئك النفر من صناديد قريش، وإلى تأثُّر الرسول عليه السلام من قَطْع ابن أم مكتوم عليه حديثَه معهم، ومن إلحاحه عليه أن يُعلِّمه فوراً بعض آيات الذكر الحكيم، بينما كان في إمكانه أن ينتظر، إذْ هو مؤمن أولاً، ومُرافِق للرسول وفي صحبته دائماً.

وبعد هذا العتاب الإلٓهي المَسُوق في صيغة الغائب: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، تخفيفاً من وقعه على رسول الله ﷺ، يتجه الخطاب الإلٓهي إلى الرسول عليه السلام وجهاً لوجه، قائلاً له: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾، وفي هذا النص بيانٌ لأولوية ابن أم مكتوم ومن كان في معناه من المومنين، الراغبين في المزيد من العلم والمعرفة بالدين.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾، إشارةً إلى أولئك النَّفَر من صَنَادِيد قريش إذ ذَاكَ، وما هم عليه من رغبة عن الحق، وتظاهر بالاِستغناء عن الإسلام وعدم الحاجة إليه، إذْ لا يزالون يُحَاجُّون الله ورسوله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴾، وليس المرادُ بلفظ «استغْنَى» معنى الغِنَى وكثرة المال، كما قد يتبادرُ إلى بعض الأذهان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾، إشارةٌ إلى أن واجب الرسول عليه السلام هو مجرد التبليغ، بحيث إذا قام بهذا الواجب تَبْرَأُ ذِمتُه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (الشورى: ٤٨).

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَمَّا من جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾. إشارةٌ إلى ابن أم مكتوم ومن كان في معناه من المومنين، الذين يرغبون في الحق ويُقبلون عليه، فالله تعالى يحضُّ رسوله ـ وعن طريقه يحضُّ كافة المسلمين ـ على الاِهتمام بطلاب الحق وتلبيةِ رغبتهم، والأخذِ بيدهم في طريق الهداية والإرشاد والتعبيرُ «بالتَّلَهِّي» هنا إشارةٌ إلى استغراق رسول الله ﷺ في حديثه مع وفد قريش حول الدعوة الإسلامية، وكأنَّ في هذا التعبير تلميحاً إلى أن الله قد اطلَّع على قلوب ذلك الوفد القرشي، وعلم أن الدعوة لا تُثمر فيهم ولا تُجْدِي، رغماً عما بذلهُ الرسولِ عليه السلام من جُهد بالغ في سبيل إقناعهم، على حد قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٣٣).

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التحدث عن «الذكر الحكيم»،

وأثره في النفوس التعطشة إلى الحق، ومنزلته العظمى عند الله ومنزلته في المَلأ الأعلى، تَنويهاً بقَدْره، وحضاً للمومنين على تقديسه وتعظيمه، والاهتداء بهديه، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا ﴾، أي: آيات القرآن الكريم، ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾.

ثم عادَ كتابُ الله إلى الحديث عن كفر الإنسان وجحوده وتجاهُله لنعم الله، بينما الإنسانُ، بجميع ما يملكه من طاقات ومَلكات وممتلكات، إنما هو «هِبَة» من الله أولاً وأخيراً، فليس له من نفسه ولا من أمره شيء، فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَـٰنُ ﴾، أي: لُعِن الإنسان الجاحد، ﴿ مَآ أَكْفَرَهُ ﴾، أي: ما أشدَّ كفرَه وجحوده، ﴿ مِنَ اَىِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ اَلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾، أي: بيَّن له الطريق وهداه إليه، ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَآءَ انشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾، أي: أن الإنسان يستغرق في غفلته حتى يموت ويُبعث، دون أن يكون قد أدى ما أوجب الله عليه من حقوق، ودون أن يكون قد نفَّذ ما أمره به من أوامر، وبذلك تكون خسارته كبرى لا تَعْدِلُها خسارة.

وأخذَ كتابُ الله في تذكير الإنسان بنعم الله عليه، ولا سيما نعمة الرِّزق والغذاء، التي بدونها يتعرض للإملاق والفَناء: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾.

وعاد الحديث في ختام هذه السورة إلى «القيامة» وأهوالها، وما يجازِي به الحقُّ سبحانه عبادَه المومنين الأبرار، وما يُعاقِب الله

به الكفار والفجار: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾. ومعنى ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾: مُسْتَنِيرة. و﴿ الغَبَرة ﴾ من الغُبار، و﴿ القَتَرَةُ ﴾ بمعنى السواد، كنايةً عما يصيب تلك الوجوه من تغيُّر وغَمّ.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «التكوير» المكية أيضاً، مستعينين بالله، والآيات الأولى من هذه السورة الكريمة تَعرِض على البشر مشاهد القيامة، مَشهداً مَشهداً، ولا سيما الانقلاب الكوني الشامل، بما يَصحبُه من تغيُّرات مفاجئة في العالم العُلْويّ والعالَم السُّفْلِي وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾، ثُمَّ قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾، وعن مَشهد النشر والحشر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾.

وقد ذهب المفسرون لهذه الآيات إلى أن المراد «بتكوير» الشمس إظلامها وذهابُ نورها، و«بانكدار» النجوم انتثارُها، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ (الانفطار: ٢)، و«بِتَسْيير» الجبال تحركها من مكانها ونسفُها وزوالُها، وأن المراد «بتعطيل العشار» إهمالُ خِيار الإبل من النُّوقِ

الحوامل، وتركُها من طَرَف أصحابها دون رعاية ولا انتفاع، لانشغالهم عنها، رغماً عن كونهم من أرغب الناس فيها، وأحرصهم على تربيتها، ولفظ «العِشار» يطلق على النُّوق إذا بلغت مدةُ حملها عشرة أشهر، والمراد «بحشر الوحوش» خروجها منزعجةً من أوكارها وأجحارها لهول الموقف، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ (ص: ١٩)، والمراد «بتَسْجِير البحار» اشتعالُها ناراً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ (الطور: ٦)، والمراد «بكَشْطِ السماء» طَيُّها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلكِتَبِ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) والمراد «بتزويج النفوس» جمعُ كل شكل إلى نظيره في الجنة والنار، على غرار قوله تعالى: ﴿ اَحْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (الصافات: ٢٢).

وقولُه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، معناه أنه إذا وقعت هذه الأمور كلها فحينئذ سيُكشفَ لكل نفس عما عَمِلت من خير أو شر، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وانتهى هذا الربعُ بالحديث عن الوحي الإلٓهي الذي أكرم اللَّهُ به رسوله وبلغه إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وجاء هذا الحديث في صيغة القَسَم، توكيداً لأهميته، وعظيم منزلته، والمقسَم به في هذا السياق هي الكواكبُ التي تَبدُو لَيْلاً لكنها

«تَخنُسُ» بالنهار، وَ«تَكْنِسُ» كالظِّباء فتوارى عن الأنظار، ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾، ثم الليلُ عند إدباره، والصبحُ عند إقباله، ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، والمقسَم عليه هو كتابُ الله: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾، أي: أنه لَتبليغ من الله إلى رسوله على لسان جبريل، وبهذه المناسبة وصفت الآياتُ الكريمة ما جَبَل الله عليه جبريل من الخصال الرفيعة، وما أكرمه به من المكانة عنده، فقال تعالى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾، كما وصفت الآياتُ الكريمة ما تحقق من رؤية الرسول ﷺ له مشاهدةً وعياناً: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾.

وخُتمت سورة «التكوير» بالتنويه بكتاب الله، ودعوة العالَمين إلى الاهتداء بهديه والاستنارة بنوره، فقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾
إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا
يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ
لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم
مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ
إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ

يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالۡيَوۡمَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ الۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى الۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ الۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بِسۡمِ اللَّهِ الرَّحۡمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا الۡأَرۡضُ
مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا الۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا
مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾
فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ
مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ
بَصِيرًا ﴿١٥﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في فاتحة سورة «الانفطار» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «الانشقاق» المكية أيضاً: ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «الانفطار» المكية يتناول كتاب الله الحديث عن انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبَعْثَرة القبور، ويشير إلى أن هذه الظواهر الكونية الغريبة التي تُزعزِع كيان الكون، وتقلبه رأساً على عقب، سترافقُها وستصاحبُها ظاهرة أخرى تُزعزِع كيان الإنسان، لا تقل عنها قوةً ولا تأثيراً، ألا وهي ظاهرةُ كَشْفِ الإنسان عن حقيقة نفسه بنفسه، واطِّلاعُه على دخيلة أمره، حتى لا تبقى زاويةٌ من زواياه، ولا سرٌّ من أسراره، إلاّ وقد انكشف له انكشافاً تاماً،

وأُلقيت عليه الأَضواء من كل جانب، والإنسان ـ حَسبَمَا ـ يعيش عليه في دنياه ـ يكذِبُ على نفسه كثيراً، ويخيَّلُ إليه غير ما مرة أنه أحسنُ مما هو عليه في الواقع، ويحاولُ أن ينسَى كل ما ارتكبه من سيآت ومُخالفات، وأن يتناسى كل ما يَصُبُّه على غيره من إذايات وإساءات، ويخادعُ نفسه كلما دعته الضرورة إلى خداعها، تفادياً من وَخْزِها وتبكيتها، فإذا جاء الموعد لاطِّلاعه على حقيقته كما هي، وظهر عارياً من كل الأَصباغ ومساحيق التجميل، التي اعتاد استعمالها لتستُّر ما ظهَر من عيوبه وما بَطَن، فستكون مفاجأتهُ بنفسه على حقيقتها أكبر مفاجأة، وسيخِيبُ ظَنُّه في نفسه، قبل أَن يَخيب ظنُّه فيما كان يُمَنِّي به نفسَه من الجزاء الحسن، وقبل أَن يَخيب ظنُّ غيرِه فيه، مِمَّنْ كان يحاولُ أَن يظهَر أَمامهم في دنياه بمظهر الصلاح والاستقامة وحسن السلوك، فيكتشفون في الآخرة ـ بدورهم ـ أنه إنما كان مجرَّد وحش في صورة إنسان، وشبحَ مَلَك في حقيقة شيطان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾.

ويتجه الخطابُ الإلٓهي بعد ذلك إلى الإنسان المملؤ زَهْواً وغروراً، لافتاً نظرَه إلى أَنه لا ينبغي له أَن يبقى سادراً في غُلوائه، متجاهلاً ما عليه نحوَ ربه وخَلْقه من حقوق وواجبات، وإلى أَنَّ كرمَ الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد أَوْلَى أن يكون حافزاً للإنسان على شكر مولاه وطاعته، والسعِي في

مرضاته، بَدَلاً من أن يكون دافعاً له إلى كفر نِعمـه، وجحود كَرمه، وهكذا يُوجِّه كتابُ الله إلى الإنسان، هذا العتاب الإلٓهي الرَّقيق، عسى أن يُحرِّك في قلبه أوتارَ الإيمان: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

ويلتفتُ كتابُ الله مرة أخرى إلى الذين لا يزالون يُكذِّبون بالمعاد والجَزاء، مؤكِّداً لهم أنه قد وكَّل بهم ملائكةً يحفظون أعمالهم، فلا سبيل إلى نسيانها، ويُسجلونها بالكتابة، فلا سبيل إلى مَحْوِها، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يُغري عباده في نفس الوقت بالإستقامة والصلاح والتقوى، حتّى لَايُثيـروا اشمئـزازَ الحَفَظة الكـرام وسُخطهم، فضـلاً عن أن يُثِيروا بمعـاصيهم سُخْط الله وغَضَبه، إذ «المعاصي بَريدُ الكفر»، والمعصية تجُرُّ إلى أختها، ثم تَدْفَع إلى ما هو أكبـرُ منها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامـاً كَـٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

وينتقل كتابُ الله إلى التَّذْكِيرِ بمصير الأبرار ومصير الفجار من خلقه، وما أَعَدَّهُ في الآخرة لكلا الفريقين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله أهمية «يوم الدين»، وهو يوم الجَزاء الأكبر، يومَ تُفصَلُ شؤون الخلائق أمام محكمة العليّ الأعلى القاهرِ فوق

عباده، والذي لا مُعَقِّب لحكمه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَيٰكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَيٰكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالاَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾.

ولننتقل الآن بعون الله وتوفيقه إلى سورة «المطففين» وهي مكية في قول ومدنية في قول آخر، وقد سميت بهذا الاسم، لما ذكر فيها من أمر «المطفِّفين»، والمراد «بالمطفِّفين» التجار الذين ينقصون الكيل إذَا كَالوا للناس، وينقصون الوزن إذا وَزنوا لهم بَيْنَما إذا كالوا أو وزنوا لأنفسهم يأخذون أكثر من حقهم، وإذا كان التطفيف في الكيل والميزان يتمشى مع روح «الجاهلية الأولى»، وما عرف فيها من الربا الفاحش والعقود الفاسدة، فإنه لا ينسجم مع روح الإسلام في قليل ولا كثير، ولذلك نزل كتابُ الله بمحاربته، والتنفير منه ومن أصحابه، وتهديدِهم بالخسران والهلاك والوَيْل، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾.

وتَولَّى كتابُ الله بنفسه تفسيرَ المعنى المُراد «بالمطففين» فقال تعالى في وصفهم: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اَكْتَالُواْ عَلَى اَلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾، أي: إذا اكتالوا لأنفسهم من الغير بأن كانوا همُ المشترينَ والغيرُ هو البائع أَخذوا حقَّهم بالوَافي والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾، أي: وَإذا كالوا أو وزنوا لغيرهم ـ بأن كانوا همُ البائِعين وكان الغيرُ هو المشتري ـ نَقَصُوا من حقه في الكيل والوزن، وأَعطوه أَقل مما يستحقُّ، وأَلحَقوا به الخسارة عن طريق «التطفيف».

ثم تَوَعَّد الحق سبحانه هؤلاء اللصوص المحترِفين، الذين

يختلسون أموال الناس عن طريق التطفيف في الكيل والميزان، في كل جيل وفي كل زمان، وهَدَّدهم بالحساب العسير يوم القيامة أمامَ الله، فقال تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾، أي: يوم يكون الناس كلُّهم واقفين أمام الله في موقف رهيب، ينطق كلُّ ما فيه بالعظمة والجلال، ويُوحِي بالرَّهبة والخوف من الكبير المتعال.

ثُم أَخذ كتابُ الله يَصِفُ حالةَ «الأبرار»، وحالة «الفجار»، إذ لا عبرة في الآخرة إلّا بهذا الاعتبار. فأما «الأبرار» الذين عملوا الصالحات، واتَّبعوا في حياتهم مقتضى الآيات البينات، فقد نزل في وصفهم وجزائهم ـ ترغيباً في سلوك طريقهم والاقتداء بهم ـ قولُه تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

وأما الفُجّار الذين عملوا السيآت وانتهكُوا الحُرُمات، ووقفوا في وجه ما جاءت به النبوات والرسالات، فقد نزل في وصفهم وجزائهم ـ تنفيراً من تقليدهم واتِّباعهم ـ قولُه تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ

هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

وألقَتِ الآياتُ الكريمة في هذه السورة بعض الأضواء الكاشفة على السر الدفين، الذي يَدْفعُ الفجار إلى التكذيب «بيوم الدين» ألَا وهو ما هم عليه من الإغراق في الظلم والعُدوان، ومن الاِستغراق في المعاصي والآثام، وهذه الحالة الجُنُونية التي يكونون عليها، ولا ينفكُّون عنها طيلة حياتهم، تجعلُهم حريصين كلَّ الحرص على أن يُبعِدوا عن خيالهم كل الأشباح المُزعِجة، التي تَدِينُهم على ما يرتكبونه من المظالم والآثام، ولو كانت أشباحاً وأحلاماً في المنام، فما بالُكَ بعَذابِ الله، الذي ينتظرهم يوم الحساب أمام الله، وإلى هذا المعنى يشير قولُه تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾، أما «المقسطون» الذين لا يعتدون ولا يظلمون، وأما «الصالحون» الذين لا يَعصُون ولا يأثَمُون، فإنهم يُحبون لقاء الله ويشتاقون إلى يوم اللقاء، أضعافَ أُضعافِ اشتياق الظَّمآن إلى الماء. «ومَنْ أَحبَّ لقاءَ الله أَحبَّ اللَّهُ لقاءه» كما في الحديث الشريف.

وكشفَ كتابُ الله الستارَ عن الاِستخفاف وَالتَّهوين من «قِيمة المسلمين»، في نظر الكفار، وأنَّ الكفار يضحكون من الذين آمنوا ويستهزؤون بهم، ويعتبرُونهم ضالين عن سواء السبيل، ولا يحملون لهم أدنى تقدير أو احترام، بينما الكفارُ في خاصة أنفسهم يعتزون بما هم عليه، ويعودون إلى بيوتهم وهُم بالمسلمين يَهْزأون، وبأحوالهم يتفكَّهُون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟

كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾، إشارةً إلى ما في الكفار من الفضول الزائد، وتتبُّع أحوال المُومنين والاِشتغال بهم، وإن كانُوا غير مسئولينَ عنهم.

وقولُه تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾، يُمكن تفسيره على وجهين:

ـ الوجه الأول: أَن مُجازاة الكفار على معاملتهم للمسلمين، بالتنقيص من قدرهم، والاستهزاء بهم ـ وهي موضوع السؤال ـ قد تولاها الحقُّ سبحانه بنفسه، وسيعاقبهم «يوم الفصل» بما يستحقون.

ـ الوجه الثاني: أن يكون السؤال وارداً بمعناه الأصلي، إشارةً إلى أَن معاملة الكفار للمسلمين يجب أن يَـرُدَّ عليها المسلمون بالمِثل، فيفرضوا احترامَهم على الغير، ولا يسمَحوا للغير بأن يَجعلهم محلَّ استهزاء أو سخرية، وذلك لا يتم تحْقِيقهُ إلاّ بالتزام الوصايا الإلّهية والتوجّيهات الإسلامية في معاملة غير المسلمين.

ولننتقل الآن إلى سورة «الانشقاق» المكية، مستعينين بالله، والحديث في مطلَعها يتناولُ فَناء العالم، وظواهر الانقلاب الكوني الشامل ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾.

ثم يُوجِّهُ الله تعالى خطَابَه إلى الإنسان الغافل المُتثاقل الخُطَى، مذكِّراً له بأن رحلته على ظهر الأرض مهما طالت فهي رحلة قصيرة، وبأنَّ حياته فيها مهما امتدت فهي حَياةٌ عابرة، عِلاوةً على ما في الحياة بطبيعتها من مَتاعبَ ومشاقّ، وشَدائدَ وأهوال، وكَدٍّ وجَهْد، فإن لم يَدَّخِر الإنسانُ من يومه لغده، ومن حياته الأولى لما بعدها، كانت صفقتُه صفقة خاسرة، وكان من الأخسرين أعمالاً، ﴿الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف: ١٠٤)، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا الانسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَٰقِيهِ ﴾، وكأنَّ اللَّهَ تعالى يقول لعبده «الخَاوِي» الوفاض، البادِي الإنفاض» بماذا سَتُلاقي ربّك؟ هل ستلاقيه باليد الفارغة والكتاب الأسود؟ إن الأمر ليس أمر هَزْل، ولكنه أمرُ جِدّ، فماذا أنتَ فاعلٌ أيها الإنسان الوَسْنَان؟.

ثم يُعَقِّبُ كتابُ الله على هذا النداء المباشر بذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وما ينالُه كلاَ الفريقين، عسى أن تتحرك هِمم الكُسَالى المتخاذِلين: ﴿ فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَٰبَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً وَيُصَلَّىٰ سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً اِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَّحُورَ ﴾، أي: أنه كان يعتقد أنه لن يرجع إلى الله، ولن يُبعَث بعد الموت، و«الحَوْرُ» هو الرجوع، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ

جهنم ولهم عذاب الحريق ﴿١٠﴾ إن الذين ءامنوا وعملوا الصلحت لهم جنت تجري من تحتها الانهر ذلك الفوز الكبير ﴿١١﴾ إن بطش ربك لشديد ﴿١٢﴾ إنه هو يبدئ ويعيد ﴿١٣﴾ وهو الغفور الودود ﴿١٤﴾ ذو العرش المجيد ﴿١٥﴾ فعال لما يريد ﴿١٦﴾ هل أتيك حديث الجنود ﴿١٧﴾ فرعون وثمود ﴿١٨﴾ بل الذين كفروا في تكذيب ﴿١٩﴾ والله من ورآئهم محيط ﴿٢٠﴾ بل هو قرءان مجيد ﴿٢١﴾ في لوح محفوظ ﴿٢٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والسمآء والطارق ﴿١﴾ ومآ أدريك ما الطارق ﴿٢﴾ النجم الثاقب ﴿٣﴾ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴿٤﴾ فلينظر الانسن مم خلق ﴿٥﴾ خلق من مآء دافق ﴿٦﴾ يخرج من بين الصلب والترآئب ﴿٧﴾ إنه على رجعه لقادر ﴿٨﴾ يوم تبلى السرآئر ﴿٩﴾ فما له من قوة ولا ناصر ﴿١٠﴾ والسمآء ذات الرجع ﴿١١﴾ والارض ذات الصدع ﴿١٢﴾ إنه لقول فصل ﴿١٣﴾ وما هو بالهزل ﴿١٤﴾ إنهم يكيدون كيدا ﴿١٥﴾ وأكيد كيدا ﴿١٦﴾ فمهل الكفرين أمهلهم رويدا ﴿١٧﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الانشقاق» المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة «الطارق» المكية أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾.

أولُ ما يواجهُنا في هذا الربع من كتاب الله هو التلويح بالقَسَم على أنه لاَ مَفَرَّ للإنسان من التقلب في عدة أطوار، خِلال حياته الأولى وعند مماته، ثم في حياته الثانية، طِبقاً لمشيئة الله وحكمته، وقد استعرض كتابُ الله أمام الإنسان عدةَ مشاهدَ كونية تَدْفَعُه إلى مزيد من التأمُّل والتدَبُّر والاِعتبار، واختار الوحيُ الإلٓهي هذه المشاهد هنا من بين مشاهد الليل، لاَ مِن بين مشاهد النهار، إذِ الليلُ أَجمعُ للفكر، وظواهره أَدْعَى إلى التأمل العميق، والاعتبار الدَّقِيق، فأشار كتابُ الله في هذا السياق إلى «الشَّفَق الأحمر» الذي يلاحق غروب الشمس في أول الليل، ويمتد إلى

وقت العِشاء، وَلِمنظره رَوعة وأيةُ روعة، وإيحاءٌ وَأيُّ إيحَاء.

وأشار كتاب الله في نفس السياق إلى «الليل المظلم» وما يرافقُ قُدومَه من مظاهر وظواهر تختلف كل الاختلاف عَن مظاهر النهار وظواهره، ولظلام اللَيل رهبةٌ وأَيةُ رهبة، وجلالٌ وأيُّ جلال.

وأشار كتاب الله في نفس السياق إلى «القمر المنير»، ولتكامُل نوره إذا استدارَ تأثيرٌ وأيُّ تأثير، وجَمالٌ وأيُّ جمال.

وإذا كانت قُوات الكون كلُّها مسخرةً لله تتحرك بأمره كما يشاء، وتؤدي وظيفتها كما يريد على أحسن الوجوه، إلى ميقاتِ يومٍ معلوم، فهل يستطيعُ الإنسان، وهو جزء صغير من هذا الكون الذي لا يَتجزأ، أن يُفلِت من قبضة الله، أو أن يتحرك على خلاف مشيئته وبعكسِ إرادته؟ إنه لن يستطيع ذلك، ولا بدَّ من أن يندمج في ناموس الكون العام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾.

ومعنى قوله تعالى ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾، أي: وما جمع، ومن جُملة ما يجمعه الليلُ الظلام والنجوم والحيوان والإنسان، عندما يأوي كلٌّ منهما إلى مأواه، ومعنى قوله تعالى ﴿ إِذَا اتَّسَقَ ﴾، أي: إذا استدار وتكامل نوره، ومَعنى قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ ﴾، أي: لَتتقَلبون في حياتكم من حال إلى حال، منذ بدايتها إلى نهايتها، ومن ذلك أن يصبح أَحدُكم رضيعاً ثم فَطِيماً، بعدما كان جنيناً، وكهلاً ثم شيخاً، بعدما كان شَابّاً، وأن ينتقل من شدة رَخاء، ومن رَخاء إلى شِدة، ومن فَقْر إلى غِنى، ومن

غِنى إلى فقر، ومن سَقَم إلى صحة، ومن صِحة إلى سَقَم، كما يتضمن قولُه تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾، معنى ثانياً! وهو ما سيلقاه الإنسانُ بعد موته وحين بعثِه من الشدائد والأهوال، أُثناء الحشر والحساب والجزاءِ في عرصات القيامة نفسها. فَمُعَاناةُ الإنسان لهذه الأطوار والأحوال كلها في حياته الأولى وحياته الثانية هي التي عبر عنها الذكر الحكيم هنا «بالرُّكُوبِ»: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾، جرياً على المعهود في اللسان العربي من التعبير «بركوب الأخطار»، إشارةً إلى مُعاناتها وتحمُّلها، والتقلُّب فيها عند الاضطرار، على حد قول الشاعر العربي:

إذا لم تَكُنْ إلاّ الأَسِنَّةُ مَرْكَباً فما حِيلةُ المُضطَرِّ إلاَّ رُكُوبُهَا

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى التساؤل، باستغراب وتعجب، لماذا يُصرُّ الكافرون على عنادهم، ويتمسك الجاحدون بجحودهم، ضاربين صفحاً عن الاستجابة لما يُحييهم، وكتابُ الله يُتلَى أمامَهم، وَيَقرعُ أسماعَهم، فقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُومِنُونَ وَإذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾، أي: أن كل ما تعرضه الدعوة الإسلامية على خصومها والمكذِّبين بها من آيات كونية وآيات قرآنية، إنما يَدْفَع إلى الإيمان لا إلى الكفر، وإنما يُعين على إيقاظ الضمير وإثارة الشعور، لا على الغفلة والغرور، ومِن هُنا جاء التساؤل والاستغراب في هذا الباب.

ثم عَقَّب كتابُ الله بما يؤكد أنه عليم بذات الصدور، مُطَّلع على ما يُضمره الكافرون من إصرار على التكذيب وإمعان في الغرور، داعياً نبيَّه إلى إنذارهم بالعذاب الأليم، وتبشير المومنين

بالنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، أي أعلَمُ بما تنطوي عليه صدورهم، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، واستعمال «البشارة» هنا فيه نوع من المُفاجأة والتبكيت، إذ لو رغبوا في «البشرى» على وجهها الصحيح لَسَلَكُوا إليها طريقها الوَحِيدَ، وهو طريقُ الإيمان والإذعان، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: لكنّ المومنين المتقين لهم أجر غيرُ منقوص ولا مقطوع، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٨)، وانتقد ابن كثير قول بعضهم في تفسير آية ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أن معناها لهم أجر غير ممنونٍ عليهم، فإن الله عزّ وجلّ له المنة على أهل الجنة في كل حال، وإنما دخلوها بفضله ورحمته، لا بأعمالهم، فله عليهم المنّة دائماً سَرْمَداً.

ولننتقل الآن إلى سورة «البُرُوج» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة الكريمة تتحدث عن قصة «أصحاب الأُخْدُود» وهم فئة من المومنين الأولين كانوا قد آمنوا قبل ظهور الإسلام، وتعرّضوا للتعذيب بالنار على يد الكفار من إخوانهم، عقاباً لهم على إيمانهم.

وقد ابتدأت السورة الكريمة باستعراض جُملة من الأشياء التي ينبغي الوقوف عندها وَقْفَة خاصة، والتأمل فيها وفيما وراءها، بقصدِ الذكرى والاعتبار، ففي مطلَعها إشارةُ إلى السماء مع

وصفها «بذات البُرُوج» ومعنى «البروج» في هذا السياق حسبما اختارهُ ابن جرير: منازل الشمس والقمر، التي يسير فيها كلّ واحد منهما بنظام مطَّرِد.

وفي مطلَع هذه السورة إشارةٌ إلى «اليوم الموعود» وهو يوم القيامة، وإشارةٌ إلى «الشاهد والمشهود»، و«المشهود» هو ما يَبْرُز يوم القيامة من ظواهر كونية غريبة، وما يجري من أحوال وأهوال في عَرَصاتها، و«الشاهد» هو الخَلْق، الذي يجمعُه الله بعد شَتات وافتراق في صعيد واحد، ليشاهد فَناء العالم، والنشرَ والحشر، والثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾.

ثم استعرضت الآيات الكريمةُ قصة «أصحاب الأُخْدُودِ»، والمراد «بالأُخْدُود» هنا الحُفرَةُ التي حفرها الكفار في الأرض وأوقدوا فيها النار، ثم ألقَوْا فيها المومنين الذين آمنوا بالله، وكفروا بمعتقداتهم الباطلة، من الرجال والنساء، وأحرقوهُم بالنار، عقاباً لهم، وتنفيراً من عَقيدتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُومِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ولعل السر في الإتيان بهذه القصة هو مواساةُ المومنين المستضْعَفين الذين كان سفهاءُ المشركين يعذبونهم أشد العذاب بمكة في فجر الإسلام، وتعريفُهم بما سبق للمومنين قبلهم في

عصور قديمة، من التعرض لأنواع الإذاية والتنكيل، وبما آل إليه أمرُ الكافرين الذين عذّبوهم، من سوء العاقبة والعذاب الوبيل، ولذلك جاء التعقيب هنا مباشرة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُومِنِينَ وَٱلْمُومِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾، أي: سيُعذّبون عذاباً أليماً من جنس ما عذّبوا به المومنين: حريقاً بحريق، وبَطْشاً ببَطش.

وهذه الآية كَمَا يندرجُ تحتها قدماء الكفار الذين حفروا الأُخْدُود لإحراق المومنين قبل الإسلام، تشمَلُ أيضاً مُشرِكِي قريش الذين أخذُوا يُعذّبون المستضعَفين من المومنين في فجر الإسلام.

ثم تولّى كتابُ الله التنويه بالمومنين الذين تحملوا الشدائد والتضحيات في سبيل إيمانهم، دون أن يتنازلوا عن عقيدتهم، وذكَرَ ما نَالُوه عند الله من الفوز الكبير، جزاء تضحيتهم الكبرى، وما أعدّه الله لهم من النعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

وعرج كتابُ الله على جُمْلة من صفات الله وأسمائه الحسنى، التي تبرز فيها وتنعكس من خِلالها آثارُ جماله وجلاله، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، فهو سبحانه «غفور» لمن تاب من ذنبه، وأناب إلى ربه.

وهو سبحانه «وَدُود» لمن آثر طاعتَه على طاعة غيره، وكرَّس حياته لاجتناب نهيه وامتثال أمره، وهو «ذُو العَرْش» الذي وسع كرسيُّه السماوات والأرض، وهو «المَجِيدُ» الذي يتضاءَلُ كل شيء أمام عظمته وجلاله، وهو «الفَعَّالُ لِمَا يُرِيد» ذو المُلْك والملَكوت، الذي لا يقف شيء في وجه إرادته وقدرته، ولا يَحُول مخلوق دون تنفيذ مشيئته وَفْقَ حكمته.

وأشار كتابُ الله إشارةً موجزَة إلى بطش الله الشديد، بفرعونَ وثمودَ، فقال تعالى: ﴿ هَلَ اَتَىٰكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾.

وخُتمت سورة «البزوج» بتسفيه مَا عليه الكفار من تكذيب وعناد، وتأكيد أنهم مهما كفروا وعاندوا فلن يستطيعوا الإفلات من قبضة الله، الذي هو لهم بالمرصاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ الذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾، وما دام اللَّهُ سبحانه ﴿ مُحِيطاً بهم ﴾ فهو الذي ينطق بالقول الفصل في شؤونهم جميعاً.

وقولُه تعالى في نهاية السورة: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٌ ﴾، إشارةٌ إلى ما لكتاب الله من منزلة عظيمة ومَقام كريم، وإلى ما تولاه به الحق سبحانه من «الحفظ الخاص»، بحيث لا يلحقه تحريف ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقص، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ (الحِجْر: ٩).

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الطارق» المكية أيضاً، مستعينين بالله.

ويتصدر في بدايتها قَسَم من الله عظيم، بالسماء التي رَفَع سَمْكَها، وبالنجم الثاقب الذي أعدَّه ليخترق حُجُب الظلام الكثيفة، بشعاعه النافذِ المُضيء، وذلك قولُه تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ وَمَآ أَدْرَيٰكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾.

ثم بيَّن كتابُ الله الحقيقة التي أُقسم عليها تنويهاً بها، وتركيزاً للأنظار من حولها، ولا سيما أنظار الغافلين المستهترين، ألاَ وهي حقيقة «الرِّقابة الإلَهية الدائمة» الموضوعة على الإنسان، حتى يسلُك سبيل الرشاد، ويتفادى الوقوع في أشراك الفساد، وذلك قولُـهُ تعالى: ﴿ إن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾، أي: كلّ نفس عليها من الله حافظ يراقبُها ويحرُسها ويَرعاها، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١).

وأخذَ كتابُ الله يُذكِّر الإنسان بأطوار نشأته الأولى منذ كان نُطفةً من مَنِيٍّ تُمْنَى، ويُعرِّفه بأن القدرة الإلَهية التي أبدعته من لا شيء، وأخرجته من العدم إلى الوجود في الحياة الأولى قادرةٌ كذلك على أن تُخرجه من عدم الموت إلى الوجود في الحياة الثانية، وأنه إن لم يُمْدِدْهُ اللَّهُ بقوته ونصره في الدنيا والآخرة، وتركه مَوْكُولاً إلى نفسه أصبحَ مضربَ المثل في العجز والخذلان التام، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾، و«الصُّلبُ» في جسم الرجل، و«التَّرائِب» في جسم المرأة، والمراد «بيَوْمَ تُبْلَى السرائر» يومُ القيامة، الذي تَظهر فيه مكنوناتُ الصدور وخفاياها، فلا تَبقَى سِرّاً من الأسرار.

وخُتمت سورة «الطارق» بقَسَم آخرَ من الله عظيم: «بالسماء» التي يَنزل منها الغَيْث، و«بالأرض» التي يَنبُتُ فيها النبات، والمُقسَمُ عليه هُنا الذي هو محل العِبْرة: هو أنَّ ما جاء به كتابُ الله في شأن البعث والنشأة الآخرة هو «القول الفصل» الذي لا مرد له، فهو قول حاسم لا يقبل جدلاً ولا تردداً ولا معارضة، وأن كل محاولة للغضّ من هذه الحقيقة، أو التشكيكِ فيها، أو الكيد لمَن آمنوا بها ستبوءُ بالخيبة والفشل، وسيكون النصرُ المبين حليف الإيمان والمومنين، والفشَلُ الذريعُ حليف الكفر والكافرين، وذلك قولُه تعالى: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾.

الربع الأول من الحزب الستين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾
فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى
الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾
وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾
إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ
الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا

مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ
إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ
بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾
وَتَاكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾
كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ
صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيٓءَ يَوْمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ
لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ
وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةٗ مَّرْضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

الربع الأول من الحزب الستين
في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الستين في المصحف الكريم، وبدايتُه فاتحة سورة «الأعلى»: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾، ونهايتُه قوله تعالى في ختام سورة «الفجر» المكية أيضاً: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾.

وأولُ ما يفتتح به هذا الربع في فاتحة سورة «الأعلى» هو أمر الله لرسوله وللمومنين معه بتمجيد اسم الله وتنزيهه، واستحضار أسمائه وصفاته الحسنى، استحضاراً تاماً وعاماً، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾، وذكرُ «الربوبية» هنا يوحي برعاية الله لخلقه، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، رغم ما هُم عليه من جحود وعناد، وإضافة «الرب» إلى «كاف المخاطَب» الموجه للرسول عليه السلام تدل على ما له ﷺ من ارتباط وثيق بالله، وما له من مقام كريم عند الله.

ثم بيّـن كتاب الله أن للحق سبحانه على عباده حقوقاً ثابتة في ذِممهم، مقابل نِعَمِهِ المتوالية عليهم، فهو سبحانه الذي انفرد بخلقهم وإبداعهم: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾.

وهو سبحانه الذي حدد لكل مَخلوق رسالته المنوطة به في هذا الوجود، وهداه إلى وسائلها ومسالكها: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

وهو سبحانه الذي أكرم الإنسان والحيوان، فوفر لكلٍّ منهما ما يحتاج إليه من أنواع الغِـذاء الضرورية للعيش في مختلِفِ فصـول السنـة، وفي مختلِف أجـواء الأرض، الحـارة والبـاردة والمعتدلة: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾، والمراد «بالمَرْعَى» هنا جميع صنوف النباتات والزروع، والشأن في النبات أن يخرج أَخْضر، وهو معنى «أَحوى»، ثم يَذْوِي وَيَيْبَس فإذا هو «غُثَاء».

واتجـه الخـطاب الإلّهي بعـد ذلـك إلى خـاتم الأنبيـاء والمرسلين صلوات الله وسلامهُ عليهم، ممتناً عليه بأن الله تعالى قد تعهد بإقرائه الذكر الحكيم، كما تعهد سبحانه بإعانته على حفظ آياته البينات، إثْرَ تلقينها له، دون أن يقرَب ساحته ذهولٌ ولا نسيان: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾.

وقولُه تعـالى: ﴿ إِلَّا مَا شَـآءَ ٱللَّهُ ﴾، جارٍ على مُقتضى الأدب مع الله، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَاتَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الانسان: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَاتَذْكُرُونَ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (المدثر: ٥٦)، وقوله تعالى في آية ثالثـة:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ (الكهف: ٢٣، ٢٤)، فمشيئة الله فوق كل شيء، وهي الضمان الأول والأخير لكل شيء.

وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾، تذكيرٌ للمومنين بوجوب مراقبة الله، ولزوم استشعار ضمائرهم لمراقبته الدائمة باستمرار، فذلك عَوْن لهم على التمسك بالاستقامة، والاعتصام بالتقوى، «والإحسان هو أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك» كما في الحديث الشريف.

ثم بَشَّر الحقُّ سُبحانه رسولَه خاتم الأنبياء والمرسلين ببشرى عظيمة لا تَعدِلُها بشرى، أَلَا وهي تيسيره «لليُسْرَى»: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ ﴾، وهذه البشرى مزدوجة: بشارةٌ بما يُرافِقُ حَياتَه ﷺ وحياة أمته من لطف وعناية وتيسير، وبشارةٌ بما يميز شريعته من سَماحة وبُعد عن كل حرج أو تعسير، على حد قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). جاء في الصحيحن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلاّ اختار أيسرَهما). وروى البخاري أن رسولُ الله ﷺ قال: «إن هذا الدينَ يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدينَ أحد إلاَّ غَلَبَهُ» وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تحديد مهمة الرسول عليه السلام، وأنها لا تتجاوز ـ بالنسبة للمعاندين ـ مجرد تبليغ الرسالة

والتذكير بها، أما ثمرةُ التبليغ ونتيجة الدعوة فأمرهما موكول إلى الله، فمَن اختارَ لنفسه طريق السعادة والهُدى أقبل على دعوته واتَّعظ بها، ومَن اختار لنفسه الشقاء والضلال تجنَّبها، وأقفل قلبه دونها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرِ اِن نَّفَعَتِ اِلذِّكْرىٰ، سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَّخْشىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا اَلاَشْقَى﴾.

ثم وصف كتابُ الله «مصير» الشقيِّ الذي لم ينفُذ نور الإيمان إلى قلبه، وأنه سيُعذَّب في جهنم عذاباً لا يتمتع خلاله بنعمة الحياة، ولا ينعَم أثناءه براحة الموت، إذ يكون حياً وميتاً في آن واحد، فقال تعالى: ﴿ اَلاَشْقَى اَلذِى يَصْلَى اَلنَّارَ اَلْكُبْرىٰ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيىٰ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله طريق الفوز والفلاح، لمن أراد سلوكه من أهل التقوى والصَّلاح، فقال تعالى: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكّىٰ وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ فَصَلّىٰ ﴾، بمعنى أن الفائز برضوان الله هو مَن أدَّى ما عليه من حقوق لله، وحقوق لعياله، إذْ أَحَبُّ الخلق إلى الله أنفعُهم لعِياله» كما في الحديث الشريف.

«فحقُّ الله» يؤديه بالذكر والصلاة، وما ناسبهما، و«حقُّ الخلق» يؤديه بالصدقة والزكاة وما شابههما، قال قتادة في تفسير هذه الآية: «قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى»، أي: زكى ماله، وأرضى خالقه، وقال أبو الأحوص: «إذا أتى أحدَكم سائل وأنت تريد الصلاة، فلتُقدِّمْ بين يَدَىْ صلاتك زكاة، فإن الله يقول: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكّىٰ وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ فَصَلّىٰ ﴾، ورُوي عن أمير

المومنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمرالناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾، وقال ابن كثير: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾، أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابعَ ما أنزل الله على رسوله، ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾، أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله وامتِثالاً لشرع الله.

ثم اتجه الخطابُ الإلٓهي إلى الذين أَسَرتْهم شهواتُ الحياة الدنيا، وأغرتهم ملذاتُها فنَسُوا ما وراءها، فقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، إشارةً إلى أن حسن التدبير، وسلامة التفكير، لا ينصحان مَن له مُسْكَة من العقلَ بإيثار ما يفنى على ما يبقى، وإيثار ما يزول ويَبيد على ما يخلُد ويَدُوم، بل إنهما لَيَنصحانه بأخذ نصيبه من الدنيا، والتزوُّد لنصيبه في الآخرة، إن لم ينصحاه بإيثار آخرته على دنياه، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ٢٠١).

وخُتمت سورة «الأعلى» المكية بالإشارة إلى ما بين الرسالات الإلٓهية من تَوافُق وتلاحُم وتكامُل وصلةِ رَحِم، فهذه التوجيهات الإلٓهية التي تضمَّنها الذكر الحكيم قد سبق أن نزلت بمضمونها ومحتواها صحفُ موسى وإبراهيم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾، وقدْ سبق في سورة «النجم» إشارةً أخرى لصحف إبراهيم وموسى في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ (النجم: ٣٦، ٣٧).

روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود وابن ماجة في سننهما، أنه لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤)، قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوها في ركوعكم» فلما نزلت: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، قال: «اجعَلُوها في سجودكم».

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الغاشية» المكية أيضاً مستعينين بالله.

و«الغاشية» من أسماء يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لأنها تغشَى الناس وتعُمهم كما قال ابن عباس وغيره، وقد تصدت الآياتُ الكريمة في صَدْر هذه السورة لوصف مشاهد يوم القيامة وأهوالها، وما يكون عليهِ الخلق عند حشرهم في عَرَصاتها، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾، قال رسول الله ﷺ: «نَعَم. قد جاءني»، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾، أي: هناك طائفة من الناس تعلو وجوههم - يوم القيامة - الذلةُ والكآبةُ، ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾، «عاملة» أي: عملت عملاً أَحْبَطَهُ الله فلم يَقبَله منها ولم ينفعْها به، فهي من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، «ناصبة» أي: هي يوم القيامة في نَصَب وتعاسة وشقاء، بالعذاب الأليم الذي تتلقاه، لأنها لم تُقَدِّم بين يديها عملاً صالحاً يقبَله اللَّهُ ويثيبها عليه: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾، أي: من عين بلغت

أعْلَى درجةٍ في الحرارة والغَلَيان، كما قال ابن عباس وغيره: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾، و«الضَّرِيع» شجر شائك مسموم، وقال قتادة «هو شرُّ الطعام وأبشعُه وأخبثه».

وهناك طائفة أخرى من الناس يظهر على وجوهها أثر النِّعمة يوم القيامة، وهي طائفة السعداء من المقربين والأبرار، وفي وصفها يقول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾، أي: أنها راضية عن عملها الذي وفقها الله إليه وقدمته بين يديها، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴾، أي: لا لغو فيها ولا تأثيم، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَـٰماً سَلَـٰماً ﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦)، ثم قال تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾، وهذا من باب التمثيل والتقريب، إذ فيها «ما لا عَينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»

ثم أخذَ كتاب الله يَعرض ما أنعم به سبحانه على الإنسان، وما أَبْدَعَ صنعه في مختلف الأكوان، تذكيراً بما له سبحانه من الفضل والإحسان، وتنبيهاً على أن هذه النعم تستحق أن تُقَابَل بالشكر والامتنان، لا بالجحود والكفران، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾، وإنما ذُكرت «الإبلُ» في هذا السيَاق من الآيات، لأنها فِعْلاً من

عجائب المخلوقات، فقد ميزها اللهُ تعالى على غيرها بعينين وأذنين ومنخرين لا يوجد لهما نظير عند بقية الحيوانات، لا في شكلهِمَا ولا في وظيفتهِمَا، كما زودها بقوائم طويلة وأقدام منبسطة جعلت منها «سفينة الصحراء» التي تنقل الإنسان وتحمل الأثقال، على امتداد العصور والأجيال مع استغنائها عن الماء لمدة شهرين متتاليين في فصل الشتاء وتَحَمُّلِهَا وطأةَ العَطَش في فصل الصيف، وحملها لكُتَل من الشَّحْم في سَنامها فوق ظَهْرها، دفعاً لغائلة الجوع عنها، وضماناً لاستمرار سَيرها.

وخُتمت سورة «الغاشية» بخاتمة تريح ضمير الرسول عليه السلام، وتحدِّد مهمته في الِاقتصار على تبليغ الرسالة إلى الخلق، وإقامة الحجة عليهم، حتى لا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرِ اِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ اِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْاَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ (ق: ٤٥)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠)، وفي ذلك تخفيف عن الرسول ومُواساةٌ له من ربه، فقد كان ﷺ يحزَن حزناً شديداً عندما يرى الضالين مُصرِّين على ضلالهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في (سورة الشعراء: ٣): ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾.

ولننتقل الآن إلى سورة «الفجر» المكية أيضاً، وفي مطلَع هذه السورة قَسَمٌ عظيم بأوقات العبادات، وأنواع من القُرُبات،

التي يتقرب بها إلى الله عبادُه المتقون، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾، أما «الفجر» فمعناه واضح، وأما «الليالي العشر» فالمراد بها عشر ذي الحجة كما قال ابن عباس وغيره. وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: (مَامِنْ أيامٍ، العملُ الصالحُ أَحَبُّ إلى الله فيهن، من هذه الأيام)، يعني عشر ذي الحجة، وأما «الشَّفع والوَتْر» فهي الصلاة، بعضُها شفع وبعضها وتر، كما رواه أحمد في مسنده مرفوعاً.

وقولُه تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾، أي: لذي عقل ولب، وأنما سمي العقل «حِجْراً» لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير بمصرع عادٍ وثمود وفرعون، جزاء كفرهم وعنادهم وتمردهم على الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَـٰدِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْاْ فِى الْبِلَـٰدِ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾.

ثم تحدث كتاب الله عما يُدَاخِلُ الإنسان من زَهْو بنفسه إذا نالهُ رخاء، وعما يشعر به من هَوانٍ إذا نزلت به شدة، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ابْتَلَيٰهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَيٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَـٰنَنِ ﴾، وردَّ

الحقُّ سبحانه على الإنسان حتى لا يعتقد هذا الاعتقاد السخيف، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾، أي: ليس الأمرُ أمرَ إكرام ولا إهانة كما يزعم الإنسان، فإن الله تعالى يُوسِّع الرزقَ لِمَن يُحبُّه ومن لا يُحبه، ويضيِّق الرزق على من يحبه ومن لا يُحبه، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المومنون: ٥٥، ٥٦). وكل ذلك منه سبحانه ابتلاءٌ واختبار وامتحان، لمبلغ ما عند الإنسان من ثقة بالله وإيمان.

وانتقدَ كتابُ الله ما عليه أشرار الخلق من الأَثرة والأنانية، وقسوة القلب، والتلهف على كسب المال من أيِّ وجهٍ كان، وما هُم عليه من شحّ وبُخل وإهمال للبر والإحسان، فقال تعالى: ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾، وابتدأ كتاب الله هنا بذكر «اليتيم»، إشارةً إلى رعاية الإسلام رعايةً خاصةً لليتامى لكونهم فقدوا الحنان الأبويّ الذي لا يُعَوِّضُه شيء، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ باليتامى، وبَشَّر مَن يكفُلهم خيرَ كفالة بمرافقته في الجنة جَنْباً لجَنْب، فقال ﷺ فيما رواه أبو داود في سننه: (أَنَا وكافِلُ اليتيم كهاتَيْن في الجَنة)، وقرن بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

ثم عاد كتابُ الله إلى الحديث عن فَناء العالم وقيام الساعة، وحَشر الخلائق للحساب، إمَّا للعقاب وإمَّا للثواب،

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ، يَـٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَـادْخُلِى فِى عِبَـٰدِى وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

الربع الثاني من الحزب الستين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسِبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسِبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ
عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ
الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ

وَمَا طَحَٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾
فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ
عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا
تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾
وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ
مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

الربع الثاني من الحزب الستين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الستين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في فاتحة سورة «البلد» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «الضحى» المكية أيضاً: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وفي بداية هذا الربع، وهو فاتحة سورة «البلد» المكية، قَسَم عظيم من الله تعالى على حقيقة واقعية تُجْمِل حياةَ الإنسان من بدايتها إلى نهايتها، وكتاب الله عندما يأتي في سُوَرِه بهذه الأنواع من القَسَم يتوخى أمرين اثنين:

ـ الأمر الأول: لَفْت نظر المومنين والناس كافة إلى الأهمية الخاصة التي تكون للشيء المُقسَم به في حد ذاته، فَالتنبيهُ إليه، وتركيزُ الفكر حوله، مدْعَاةٌ إلى التأمل فيه تأملاً كافياً يُعين على تحقيق الغرض المطلوب.

ـ والأمر الثاني: لَفْتُ نظر المومنين والناس كافة إلى الحقيقة الكبرى التي تنعكس من خلال المعنى المُقسَم عليه، فإدراك تلك

الحقيقة والتعمقُ فيها هو الهَدَف الرئيسي للقَسَم من أصله، بما يحتوي عليه من صيغة القَسَم والمقسَم به والمُقسَم عليه.

والمُقسَم به هنا في فاتحة هذه السورة «هذا البلد»، أي: مكة «أم القرى» حيث يوجد بيت الله الحرام، أولُ بيت وضع لعبادة الله وتوحيده في الأرض، وحيثُ يلتقي جميع الناس في أمن وسلام، ودماءُ بعضهم على بعضٍ حَرام.

ويُدرج كتابُ الله في سياق هذا القَسَم بالذات إقامة رسوله عليه السلام بنفس البلد، واستقرارَه به، إشارةً إلى تكريم الله تكريماً جديداً لمكة، بجعلها في نهاية المطاف مَهْد الرسالة، ومَنزِلَ الوحي، والمقرَّ الأول لسكنى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكأَنَّ الأقدار الإلٰهية تُلوِّح هنا بأن «آية الإيمان» هي التي ستستقر بمكة إلى الأبد، وأنها ستمحو ظلمة الشرك من شِعابها وبطاحها، فتعود مياهُ التوحيد إلى مجاريها، على ملة إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾، يمكن أن يَكون إشارة إلى نعمة التوالد والتناسل، التي أنعم الله بها على كثير من خلقه، كما يُمكِن أن يَكون إشارة خاصة إلى إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، فالوالد هو إبراهيم، والولد هو إسماعيل، ولا يخفي ما في هذه الإشارة من التناسب والانسجام، مع نفس السياق في هذا المقام، فقد كان إبراهيم الخليل هو باني البيت الحرام، بمساعده

ابنه إسماعيل عليهما السلام.

وأما الحقيقة المُقسَم عليها فهي أن الإنسان منذ أن يستقر جنيناً في بطن أمه وطيلةَ حياته إلى حين وفاته، لا ينفكُّ عن مكابَدَة المتاعب، ومواجهة الشدائد، وتحمل المشاق، من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى أخرى، ولا يُهَوِّنُ من ضغط هذه الحقيقة التي تفرض نفسها على كل إنسان أن تختلف طرقُ الكفاح باختلاف الناس، فلكل صنف منهم متاعبُه الخاصة، وكفاحه الدائم، الذي لا ينتهي إلّا بانطفاء جذوة الحياة في الجسم وحلول الأجل، والهدَفُ المتوخى من تذكير الإنسان بهذه الحقيقة التي تستغرق كلَّ حياته هو تنبيهه إلى أنه إذا كان ولا بد سيكابِدُ متاعب الحياة الدنيا، لينتقل منها إلى مكابَدة متاعب أشدَّ هولاً منها في الحياة الثانية، فإنه سيكون أخسر الخاسرين، ولذلك ينبغي له أن يعمَل عملاً صالحاً في دنياه، حتى يلقى اللَّهَ وعنده من الحسنات، ما يَضَعُ حداً نهائياً لِمتاعبه المعتادة في حياته الأولى، وبذلك يستأنف حياة ثانية كلُّها نعيم مقيم، ورضوان من ربه الكريم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾، وها هنا يَنْعَى كتاب الله على البخلاء الإشحاء بخلَهم وشحهم بالإنفاق في سبيل الله، إذ ينفقون أموالهم في غير وجهها المشروع، وكلما دُعُوا إلى الإنفاق في وجوه البر والإحسان تبجحوا بأنهم قد أنفقوا مالاً كثيراً، ﴿ مَالاً لُّبَداً ﴾، وإن كان ما أنفقوه إنما صرفوه في الشهوات والملذات، وفي المعاصي

لا في الطاعات، وينسَوْن أنَّ الله سائلهم عما استخلفهم فيه من المال، من أين اكتسبوه، وأين أنفقوه، وأنهم سيحاسَبون عليه حساباً عسيراً.

ثم أخذ كتاب الله يستعرضُ مِنَنه على الإنسان الذي هو مَدِينٌ لخالقه بكل شيء، وذكَرَ على سبيل المثال العينين اللتين يُبصر بهما، واللسانَ الذي يُعبِّر به، والشفتين اللتين يستعِين بهما على الكلام وأكل الطعام، بالإضافة إلى ما في تكوين كل عضو من أعضاء الإنسان عموماً من دِقة الصنع، وإبداع التكوين، وغرابة التركيب، مما لا يستطيع أيُّ مخلوق أن يصنع مثله، ولا أن يُبدِع نظيره، لا مِن الأولين ولا من الآخرين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾.

وأضاف كتابُ الله إلى هذه النعم نعمةَ العقل والتفكير التي أكرم بها الإنسان، وجعلها وسيلةً في متناوَل يده، ليميز بِهَا الخير من الشر، والحق من الباطل، والضلال من الهدى، وهذه النعمةُ التي وهبها له الحق سبحانه هي مَناط التكليف والتشريف، ومَناط الثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾، أي: طبَعنا طبيعته على استعداد مزدوج: استعدادٍ للخير إن اختاره، واستعدادٍ للشر إن أراده، و«النجدان» نَجْدُ الخير ونَجْدُ الشر، أي الطريقان المؤديان إليهما. ورُوي عن ابن عباس أنه فسر «النجْدَين» بالثديين، بمعنى أن الله هدى الإنسان بمجرد خروجه من بطن أُمه إلى التقام ثَدْيَيْها، إلهاماً منه وإحساناً. ويشهد

للتفسير الأول ـ وهو الذي رجَّحه ابن جرير ـ قولُه تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعاً بَصِيراً، إِنَّا هَدَيْنَٰهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (الإنسان: ٢، ٣).

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَآ أَدْرَيٰكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوِ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾، حَضٌّ من الله لعباده المومنين على مُغالبة أنفسهم، والتغلُّب عليها بسلُوك طريق النجاة والخير. والمراد «باقتحام العقبة» اقتحامُ الحواجز النفسية والمادّية، التي تحول دون الإيثار والبر والإحسان، والإقبالُ على الإنفاق في سبيل الله، ومن وجوه الإنفاق الصالحة: المساعدةُ في عتق الأرقاء، وكَفالةُ اليتامى، وإطعام المساكين.

وبيّنَ كتابُ الله أن مما يُساعِد على اقتحام العقبات والتغلب عليها: الإيمانَ بالله، والتواصيَ فيما بين المومنين «بالصبر والمَرْحَمَة»: الصبر على القيام بالتكاليف التي تُعزِّزُ الإيمان، وتجعل المومنين كالبُنيان المرصوص يشُدُّ بعضُه بعضاً، والمَرْحَمَة التي تجعل من مجتمعهم مجتمعاً تسوده الرحمة ويعمُّه الإخاء، ويبرز فيه التكافل بين كافة الفقراء والأغنياء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ﴾، ثم بَشَّر كتاب الله الذين آمنوا، وبَرَزت في أخلاقهم ومعاملاتهم رُوحُ الإيمان، بأنهم سيكونون يوم القيامة من أصحاب اليمين المنعَّمين، ﴿ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ ﴾، وأنذر الذين

كفروا بالله وكفروا بنِعَمه بأنهم سيكونون في ذلك اليَوْم من أصحاب الشمال المعذبين، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾، أي: نار مُطبِقة عليهم لا محيد لهم عنها.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الشمس» المكية أيضاً مستعينين بالله.

وهذه السورة الكريمة يتصدرها قَسَم من الله بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، والنفس ذات الاستعداد المزدوج، ومَنَاطُ القَسَم فيها هو تأكيدُ طبيعة النفس البشرية، وزيادةُ التعريف بميزَتها الخاصة، ألا وهي استعدادها في كل وقت للميل نحو الخير، وللميل نحو الشر، فإذا مالت نحو الخير كانت نفساً زكية طاهرة، وإذا مالت نحو الشر كانت نفساً شقيّةً قَذِرة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَيٰهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَيٰهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيٰهَا﴾، أي: جلى البسيطة وأنار أرجاءها، ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَيٰهَا﴾، أي: يَغْشَى البسيطة فتظلمُ آفاقُها، ﴿وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَيٰهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَيٰهَا﴾، أي: بسطها ودَحاها، نظير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيٰهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَيٰهَا﴾ (النازعات: ٣٠، ٣١)، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيٰهَا﴾، أي: ما خلقها عليه من الفطرة المستقيمة، نظير قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠)، ثم قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا﴾، أي: جعلها قادرةً على التمييز بين خيرها

وشرها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّيٰهَا﴾، أي: فاز من نمّى في نفسه استعداد الخير، وطهّر نفسه بطاعة الله وتقواه، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيٰهَا﴾، أي: خسِر من أضعف في نفسه روح الخير، وأقبل على المُوبقات والمعاصي.

وبهذه المناسبة عرض كتاب الله نموذجاً من نماذج النفوس الشريرة، فتحدث عن أشقى رجل من ثمود قام «بعقر الناقة» عصياناً لله ورسوله، رغم تَحْذِير صالح عليه السلام، وقد سبق الحديث عن «نَاقَة صالح»، وموقف قومه منها بتفصيل في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الإسراء، وسورة الشعراء، وسورة القمر، ثم تجددت الإشارة إليها في هذه السورة، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيٰهَآ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَيٰهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾، أي: احذروا أن تمسُّوا ناقة الله بسوء، أو تتعرضوا لها في يوم سقياها، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّيٰهَا﴾، أي غضب الله عليهم وأهلكهم بجُرْمِهم جميعاً، ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾، أي: أنَّ عاقر الناقة لم يكن يُقدِّر عاقبة ما صَنَع. أو المراد: أن الله تعالى لَا يَخاف تَبِعَةَ أُحد، على حد قوله سبحانه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

ولننتقل الآن إلى سورة «الليل» المكية أيضاً، وفي بداية هذه السورة قَسَم من الله بالليل والنهار، وبخَلْق الذكر والأنثى، والمُقسَم عليه فيها أمر يتعلق بالإنسان الذي هو مِحْور الرسالة ومِحْور التكليف: ذلك أن الإنسان بحكم طبيعته مختلِف الميول، متعدِّد الاتجاهات، متبايِن الاستعدادات، وليس لجميع أفراده

استعدادٌ واحدٌ، ولا مؤهلاتٌ واحدة في جميع المجالات، ومن أجل ذلك يختلف اتِّجاهه، ويختلف تقديرُه، ويختلف عمَلُه، ويختلف سعيُه، ويختلف جزاؤُه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾.

ومعنى ﴿ منَ أعطى واتَّقى ﴾ من بذل من نفسه وماله ابتغاء وجه الله، ومعنى ﴿وصَدَّق بالحُسنى﴾ من وثق بما عندَ الله من العاقبة الحسنة والجزاء الحسن، ومعنى ﴿اليُسْرَى﴾، أن الله تعالى يُيَسر أموره ويسهِّل عليه بلوغ مقاصده دون شدة ولا عَنَت، ومعنى ﴿مَن بخِل واستغنَى﴾، من بخل بما أعطاه الله، وخُيِّلَ إليه أنه مُستغنٍ عن الله، فلم يؤد حقوق الله ولا حقوق العباد، ومعنى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ من أساء الظن بالله، وَلَمْ يَثِقْ بما وعده به من العاقبة الحسنة والجزاء الحسن، ومعنى ﴿ فَسَنُيَسِّره للعسرى ﴾ سنخذلُه ولا نوفِّقه، وسيصطَدم في طريقه بكل المعوقات والعراقيل، والتعبير عن هذا المعنى بلفظ «التيسير» مثل التعبير بلفظ «التبشير» في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمران: ٢١)، من باب التبكيت والتنكيت، ومعنى ﴿ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ إذا هلك وهَوَى في الدَّرَك الأسفل من النار.

ثم بيَّنَ كتابُ الله أن عناية الله بالإنسان عنايةٌ بالغة، ومن أجل ذلك، أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكُتبُ، وله بعد ذلك

أن يختار لنفسه ما يَشاء، وأن يتحمَّل تَبعَة اختياره في دار الجزاء، فإما أن يكون ﴿ أَتْقَى ﴾، وإما أن يكون ﴿ أَشْقَى ﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾.

ولننتقل الآن إلى سورة «الضحى» المكية أيضاً، وهذه السورة تُعبِّر عن رعاية الله لرسوله من فوق سبع سموات، وتُسَجِّل ما يتمتع به من رضى مولاه وتأييده في الشدة والرخاء، وفي بداياتها قَسَم «بالضُّحى والليلِ إذا سَجى». و«الضُّحى» وقت ارتفاع النهار وامتدادِ الشمس، و«سَجى» بِمَعْنى سَكَن وَهَدأ، والمُقسَم عليه فيها هو أن الله تعالى يَرْعَى نبيَّه بعين رعايته التي لا تَنام، وأنه لا يُمكِن أن يَجْفُوَ رسولَه عليه السلام، ولا أن يَكِلَه إلى نفسه، بعدما اختاره لرسالته، وأعدَّه لِحمل أمانته، وأنَّ ما ادَّخرهُ له سبحانه من الفضل والعطاء، يتجاوزُ العَدَّ والإحصاء، ويَفُوق كلَّ ما يؤمله من الثواب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾، أي: ما أَبغضك وما هَجرك، ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾.

ثم اتجه الخطابُ الإلَهي إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، يُذكِّره بما رافق حياتَه منذ بدايتها وفي جميع أطوارها من العناية الربانية والمَدَد الإلَهي، مؤكِّداً له «أن الكريم إذا بدأ كَمَّل»،

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَئَاوىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدىٰ ﴾، أي: وجدك «يتيماً» فسخَّر لك من يَحْنو عليك ويقف بجانبك في السراء والضراء ووجدك «ضالاًّ» بين قوم سيطرت عليهم «الجاهلية»، وأنت تتلمَّسُ طريق الهُدى: فعصَمك من جاهليتهم، وأعدَّك لتكون رسولَه إلى العالمين على غرار قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّن أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ﴾ (الشورى: ٥٢). ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾، أي: أكرمك بقناعةِ النفس وغِنَى القلب، فلم تُلهِك الدنيا ولا شهواتُها ولا مطامعها.

وخُتِمت هذه السورة الكريمة بالدعوة إلى كَفالة اليتيم والإحسان إليه، وإكرام السائل والعطف عليه، والتحدث بنِعَم الله التي أنعم بها على رسوله والمومنين، وعلى رأسها نعمة الإيمان والإسلام، والذكر الحكيم الذي أنزله الله رحمةً للعالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾، أي: اكفُلْه وقرِّبْه وأصلح أمرَه. ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾، أي: إمّا أن تُعطيه مما أعطاك الله، أو تَعِدَه، أو تردّه ردّاً جميلاً بكلمة طيبة ويندرج تحت هذه الآية السائلُ عن دينه من أجل البيان والمعرفة. ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾، أي: اشكر إحسان الله إليك وإنعامه عليك، بالجوارح واللسان والجَنان.

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ

أَلِانسَٰنَ لَيَطْغَيٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ اُ۪سْتَغْنَيٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَيٰ رَبِّكَ اَ۬لرُّجْعَيٰٓ ۝٨
أَرَٰٓيْتَ اَ۬لذِے يَنْهَيٰ ۝٩ عَبْداً اِذَا صَلَّيٰٓ ۝١٠ أَرَٰٓيْتَ إِن كَانَ عَلَي اَ۬لْهُدَيٰٓ ۝١١
أَوَ اَمَرَ بِالتَّقْوَيٰٓ ۝١٢ أَرَٰٓيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّيٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اَ۬للَّهَ يَرَيٰ ۝١٤
كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلْيَدْعُ
نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ اُ۬لزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِے لَيْلَةِ اِ۬لْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْر۪يٰكَ مَا لَيْلَةُ اُ۬لْقَدْرِ ۝٢
لَيْلَةُ اُ۬لْقَدْرِ خَيْرٞ مِّنَ اَلْفِ شَهْرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ اُ۬لْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّيٰ مَطْلَعِ اِ۬لْفَجْرِ ۝٥

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الثُّمُن الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم، ويشتمل هذا الثمن على سورة «الشَّرْح» وسورة «التِّين» وسورة «العَلَق» وسـورة «القَدْر»، وكلها سُـوَر مكية، وبدايتُه قولـه تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ ۝ أَلَمْ نَشْرَحْ لَـكَ صَدْرَكَ ﴾، ونهـايتُه قـوله جـلّ علاه: ﴿ سَلَـٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ اِلْفَجْرِ ﴾.

وسورة «الشرح» المكية التي هي فاتحة هذا الثُّمُن تتضمن خطاباً من الحق سبحانه لنبيه، فيه مناجاةٌ له من ربه، تنسجمُ كل الانسجام، وتتناسب كل التناسب، مع الخطاب الإلَهي الـذي وجهه إليه في سورة «الضحى» قَبْلها، حتى لَكأنهُما سورةٌ واحدة في موضوع واحد.

وأولُ ما يُسجله الخطاب الإلَهي في هذه السورة ما آتاهُ الله لنبيه مِنْ رحابةِ صدرٍ، وانشراح خاطرٍ، وهدوءِ بالٍ، وطمأنينةِ قلبٍ حتى يستطيع أن يواجه مسؤوليات الرسالة الملقاةَ على عاتقه، ويتحملَ أعباءها برضىً تام وعزم راسخ، وذلك ما يشير إليه قولُه

تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، وإن «شرح الصدر» بالنسبة لأي إنسان كيفما كان، لدليلٌ على هداية الله له وتوفيقه في الحياة، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فما بالك بمقام الرسول عليه السلام.

وثاني شيء يسجله الخطاب الإلهي في هذه السورة ما آتاه الله من صبر جميل، وقدرة خارقة على مواجهة الشدائد، ومعاناةِ المتاعب، في سبيل تبليغ الرسالة الإلهية، وإعلانِ الدعوة الإسلامية، رغمَ مُعارضة أقطاب الشرك، ومقاومة قادة الوثنية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾، أي: خففنا عنك العَناء الذي أثقل ظهرك، وأعَنَّاك على حَمله، بما أمددناك به في كل حين، من تيسير وصبر وثبات ويقين.

وثالث شيء يسجله الخطاب الإلهي في هذه السورة ما أكرم الله به نبيه من الذكر الجميل الخالد على مر الدهر: الذكر الخالد في اللوح المحفوظ والمَلأ الأعلى، والذكر الخالد في أرجاء الأرض شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، وإلى هذا المعنى ينظرُ قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (الزخرف: ٤٤).

وهل هناك ذكر أجمل وأرفع من ذكر اسمه بعد اسم الله، كلما تحركت بذكر الله الشفاه، (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله)،

وهل هناك ذكر أجمَل وأرفع من ذكر اسمه من أعلى ملايين المآذن الشاهقة، المرتفعة في دنيا الإسلام الواسعة، عند النداء لكل صلاة، (أشهدُ أن لا إلّه إلاّ الله، أشهدُ أن محمداً رسول الله). قال قتادة: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهِّد ولا صاحب صلاة إلاّ يُنادِي بها: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله».

وهل هناك ذكرٌ أجمل وأرفع من ذكره عليه السلام في مَجْمَع الأنبياء والمرسلين، وهو لا يزال في عالَم الغيب في أصلاب آبائه الأولين، ومِن أَخْذِ اللّهِ على أنبيائه ورسله ميثاقاً غليظاً بالإيمان به وبدعوته، وتأييده ونصرته، مِصْداقاً لقوله تعالى في سورة (آل عمران: ٨١): ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴾، وفي مثل هذا المقام قال حسان بن ثابت:

أغرُّ عليه للنبوة خاتَم ... من الله من نور يَلُوحُ ويَشْهَدُ
وضمَّ الإلّهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ «أشهدُ»
وشَقَّ له مِن اسمِه ليُجِلَّه ... فذُو العرش «محمودٌ» وهذا «محمدُ»

ثم انتقل كتابُ الله إلى تبشير الرسول والمومنين بأنهم إذا واجهتْهُم شدة في الحياة، وكانت وجهتهم في أعْمالهم خالصةً لوجه الله، فإن العناية الإلّهية تتعهد دائماً بتحويل شِدَّتهم إلى رَخاء، وعُسرِهم إلى يُسر، وإذَنْ فلا ينبغي لهم أن يَقنَطوا من

رحمة الله، ولا أن يُسيئوا الظنَّ بالله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً ﴾، قال قتادة: (ذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ بَشَّر أصحابه بهذه الآية فقال: «لن يغلب عُسرٌ يُسْرَيْن»، ذلك أن لفظ «العسر» وَرَد مُعرَّفاً في الحالين، فهو «واحد»، وأن لفظ «اليُسر» ورد منكَّراً في كلا الموضعين، فهو «متعدد»، «فالعسر الأول» هو عين الثاني، و «اليسر الثاني» زائد على «اليسر الأول».

واتجه الخطاب الإلّهي مرة أخرى إلى الرسول السلام، يأمره بمواصلة الكفاح والعمل في سبيل الدعوة دون انقطاع، بحيث أنه كلما فرغ من أمر تصدى لما بعده، ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾، إذ أن أعباء الرسالة متعددة، وتكاليف الدعوة متنوعة، ووجوه النشاط الإسلامي متسلسلة يُسلِمُ بعضُها لبعض. وقد وَفَّى الرسولُ عليه السلام بما عاهد عليه الله، فلم يَذُق طيلة عهد الرسالة للراحة طَعْماً، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ترك من ورائه عقيدة راسخة، وشريعة قائمة، ودولة حاكمة.

ودعا اللَّهُ نبيَّه في ختام هذه السورة إلى أن يجعل همَّه الأكيد في كل أعماله ومساعيه ابتغاءَ مرضاة الله، والتقربَ إليه دون سواه، بكل تجرد وإخلاص، ودون أي اعتبار خاصّ، وذلك قولُه تعالى في إيجاز وإعجاز، والخطابُ له وَلكل مومن من أمته: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «التِّين» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة الكريمة يتصدَّرُها قَسَمٌ عظيم «بالتين والزيتون، وطُورِ سِينِين،» والبلد الأمين» والمِحْور الذي يدورُ عليه القَسَم فيها هو خَلْقُ الإنسان، وما يتعرض له في حياته من فوز أو خِذْلان، وربح أو خسران.

فالله تعالى يمتنُّ هنا على الإنسان بأنه قد خلقهُ أحسن خَلق، وأبدعه أكمل إبداع، وميَّزه بمَزايا خصوصية على غيره من أنواع الحيوان، عسَى أن يَعرِف فضل الله عليه، فيتحلَّى بحلية الإيمان، عن اقتناع وإذعان، ويُقبل على طاعة الله بكل اغتباط وامتنان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، ونقَل ابنُ كثير عن بعض الأئمة أن المُقسَم به هنا هي مَحَالّ ثلاثة، بعَثَ اللَّهُ في كل واحد منها نبيّاً مرسلاً من أُولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأول مَحَلُّ التِّين والزيتون وهو بيت المقدس، حيث بعث الله عيسى ابن مريم، والثاني طُورُ سِيناء، حيث كلَّم الله مُوسَى بْنَ عِمران، والثالث مَكَّة، وهي البلد الأمين، الذي مَن دخله كان آمناً، حيث بُعِث فيه محمدُ بنُ عبد الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم ينبِّه كتابُ الله إلى أن الإنسان قد يسيء إلى نفسه بتصرفه تصرُّفَ السفهاء، فيما آتاه الله من طاقات، ومِلَكات، ومُمتلكات، فيتخذُها ذريعةً للكفر والفساد، بدلاً من اتخاذها عَوْناً على الإيمان والصلاح، ويتردَّى من قِمة المكارم والفضائل، إلى هُوَّة الفساد والرذائل، وإذ ذاك يَنزِلُ بمحض اختياره من أعلى

علّيّين، فيعاقبه الله على ذلك، ويجعلُه أسفلَ سَافلين، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾، سُئل مجاهد عن الخطاب الوارد في هذه الآية، هل هو مُوَجَّه إلى النبي ﷺ؟ فقال: «مَعَاذَ الله، إنما عُنِي به الإنسان». وهكذا قال عكرمة وغيره، أي: أن الخطاب مُوَجَّه إلى ابن آدم عُموماً، وإلى من يُكذِّب بيوم الدِّين على وجه الخصوص.

وخُتمت هذه السورة الكريمة بذكر ما يَنعَمُ به في الجنة المومنُون، من الأَجر الْمُتواصل غيرِ المَمْنُون: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾، كما خُتِمت بالتنويه بحكمة الله البالغة، التي لا تماثِلها حكمة، وبحكم الله العادل، الـذي ليس كمثله حُكْم: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَـٰكِمِينَ ﴾، بَلَى. وإنا على ذلك مِنَ الشاهدين.

ولننتقل الآن إلى سورة «العَلَق» المكية أيضاً: مستعينين بالله.

ومطلع هذه السورة الكريمة هو أول نَفْحَةٍ من نفحات السماء المباركة، التي نزلت على خاتم الأنبياء والمرسلين، شفاءً لما في الصدور ورحمةً للعالمين، حيث تَلقَّى الرسولُ عليه السلام من ربه لأول مرة تكليفَه بالرسالة، ونزلَ عليه هذا القِسْمُ الأَولُ من القرآن الكريم، الذي هو «براعة الاستهلال» لِدينه القويم، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ • اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ

اَلإنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ، اِقْـرَأْ وَرَبُّكَ اَلاَكْـرَمُ اَلذِى عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ عَلَّمَ اَلإنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، وتعليقاً على هذه الآيات الكريمة قال ابن كثيـر: «أول شيء نـزلَ من القـرآن هـذه الآيـات الكـريمـات المباركات، وهي أولُ رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأولُ نعمةٍ أنعم بها عليهم، وفيها التنبيهُ على ابتداء خلق الإنسان من عَلَقة، وأنَّ مِن كَرمِه تعالى أن عَلَّم الإنسان مـا لم يَعْلم، فشرَّفـه وكرَّمـه بالعلم، وهو القَدْرُ الذي امتـاز به أبو البرية آدم عن الملائكة، والعلم تارَةً يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبَنان، فهو ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي ـ نسبةً للرسم والكتابة ـ يستلزمهما من غير عكس».

فقولُه تعالى: ﴿ اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾، توجيهٌ من الله لرسوله إلى أن «القراءة» هي شعار الإسلام البارز، المميِّز له من بين الأديان، وتنبيهٌ إلى أن دعوته تقوم على أساسها، وتنتشر بقـدر انتشارها، فهي دعوةُ هداية ونور، لا دعوةُ ضلال وظلام.

وذكرُ «اسم الله» هنا تعريفٌ بأن الله وحده هو منبَع الهداية والنور، فحيثما كانت الحُجة البالغة، والبرهانُ الساطع، والعقيدةُ الصحيحة، والشريعة السَّمْحة، فَثَمَّ وجهُ الله جلّ جلاله، وهناك اسمُه الأعلى. وحيثما كـانت الأوهام والأبـاطيل، والمعتقـدات الفاسدة والأضاليل، فهناك الأصنام والأوثان، وأولياء الشيـطان، وطواغيتُ الجَهَلة من بني الإنسان، التي لا يجتمع معها اسم الله في أيِّ مكان. ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اَللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُـوبُ اَلذِيـنَ

لَا يُومِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾، إشارةٌ ـ أولاً ـ إلى صفة «الخَلْق» البارزة، التي هي إحدى صفات الكمال الإلَهي، والتي بفضلها، كان بدأُ الخليقة من أصلها، وكان العالَم العُلويُّ والعَالَم السُّفلِيّ وَفْقَ تصميمها، وإشارةٌ ـ ثانياً ـ إلى خَلْقِ الإنسان، الذي توّج الله بخلقه نشأةَ الأكوان، وجعله مِحْوَر الرسالة، ومُستودَع الأمانة، ومستقرٌ الخلافة، ومن أجل هدايته أرسل الرسل وأنزل الكتب: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وقولُه تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾، حَضٌّ من الله لرسوله والمومنين على مُواصلة القراءة باستمرار ودون انقطاع، لأنها إكرام عظيم من الله للإنسان، لا تتحقق إنسانيتُه على الوجه الكامل إلاّ بتحققها واستمرارها على مَرِّ الزمان.

وقولُه تعالى: ﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾، تعريفٌ للرسول والمومنين بقيمة «القَلَم» عند الله، وأثَره العميق في تهذيب الإنسانِ وتمدينه وتحضيره، وحفظ تراثه الفكريّ عَبْر القرون والأجيال، وإشارةٌ إلى الدور العظيم الذي سيلعبُه القلم في إنشاء الحضارة الإسلامية العَريقة، ﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾، ولولا القَلَم الذي أكرم الله به الإنسان، وهداه إلى اكتشافه واستعماله، لبقيَ الإنسانُ عبارةً عن حيوان أعجم، لا رَصيدَ لهُ من الثقافة ولا من الحضارة، ولا أثرَ له في سِجِلّات الحياة.

وقولُه تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، امتنانٌ من الله على الإنسان، أيِّ: إنسان كان، بأنه سبحانه هو منبع العلم ومصدر المعرفة، فهو ـ أولاً ـ الذي جَهَّز الإنسان بجميع الحواس والمَلَكات والطاقات القابلة للتعليم، والملائمة لإدراك المعلومات وتصوُّر الحقائق، وهو ـ ثانياً ـ الذي يَفتحُ لعباده بقَدَرٍ ما يَشَاءُ من مُغلَقات الأسرار في الوجود، فتتفتحُ عيونُهم وعقولُهم كل يوم على حقائق جديدة، ومعلومات مفيدة، ولو لم يَكْشِفها لهم بنوره لَمَا اكتشفوها إلى الأَبد، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾، (طه: ١١٤)، فمصدر التعليم الأول والأخير هو الله العليم الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما يُصيب الإنسانَ من انحراف في السلوك، وخبال في التصور، وما يضيفُه إلى ذلك كلِّه من تثبيطِ غيره عن العمل الصالح، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ ٱلإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّءاهُ ٱسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾.

وعقَّب كتابُ الله على ذلك بإنذار خطير وجَّهَهُ إلى الإنسان الطاغي، الباغي على الخلق المنحرف عن الحق، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾، أي: لنجعلنَّ في ناصيته سِمَةَ سَوَادٍ تَفضَحُهُ يوم القيامة بين الناس، ﴿ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾، أي: فليدعُ قومَه وعشيرتَه لينصروه، إن كانوا

يستطيعون له نصراً، لكنهم لن يستطيعوا، ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾.

ووَجَّه كتابُ الله الخطاب إلى المومن الذي يُثَبِّطُه غيره عن العمل الصالح، محذِّراً إياه من طاعة المُثَبِّطين، والسَّير في ركاب المُعَوِّقين، داعياً إيَّاه إلى الثبات على الإيمان، والاعتصام بحبل الله في كل آن، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾.

ولننتقل الآن إلى سورة «القَدْر» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورةُ الكريمة تبيِّن فضل ليلة القدر ومكانتَها عند الله، بما دَشَّنَتْهُ القدرة الإلٰهية فيها من نزول الوحي على رسول الله ﷺ، فكانت ليلة مباركة، عَمّت بركتُها الإنسانية جمعاء.

و«ليلةُ القدر» هي إحدى ليالي شهر رمضان، الذي فرض الله صيامه على المسلمين شكراً لله، واحتفاءً بذكرى نزول القرآن: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

وإنما سميت «ليلة القدر» لما أُعلِن فيها من تقدير الله وتدبيره الحكيم، ولما لها عند الله من القِيمة الكبرى والمقام العظيم، وقيل إنها سميت بذلك لأن الله أنزل فيها كتاباً «ذا قَدْر»

على رسول «ذِي قَدْرٍ»، لأُمة «ذات قَدْر»، فهي «ليلة القـدر» العظيم، والفضل العميم، وإليها يشير قوله تعالى في سورة (الدخان: ٣): ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وفي فضل قيامها ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تَقدَّمَ من ذنبه». وفي الحض على تَحرِّيهَا ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَرَّوْا ليلةَ القدر في العشر الأواخر من رمضان».

الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الثُّمُن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم، ويشتمل هذا الثُّمُن على سورة «البيّنة» وسورة «الزلزلة» وسورة «العاديـات»، وبدايـة هذا الثمُن قولُه تعالى في فاتحة سورة «البينة»: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَـٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾، ونهايتهُ قوله تعالى في سورة «العاديات»: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

أوّلُ ما تتحدث عنه سورة «البينة» هو التعريف بموقف الكافرين والمشركين من رسالة خاتِم الأنبياء والمرسلين، ذلك الموقف المضطرب المتناقض، فقد كان أهل الكتاب على أَثارة من العلم بالرسول «الخاتم»، وكان المشركون يبرِّرون ما هم عليه بعدم إرسال رسول إليهم مثل غيرهم، فلما جاءهم رسول من عند الله جحَدوا الرسالة وكذّبوا الرسول، وبدلاً من أن يتدبروا ما جاء به من الآيات البينات، وينصرفوا عما هم عليه من فاسد المعتقدات، حسبما كان منتظَراً، أصرّوا على ما هم فيه من الضلال، ولم يَنفكوا عن المُمَاحَكَة والجدال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾.

وتعريفاً «بالبَيِّنة» التي جاء بها الرسول، وتأكيداً لأن ما جاء به كلُّه دلائل واضحة وبراهين ساطعة من المحسوس والمعقول، قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾، أي: يقرأ عليكم صُحُفاً منزهة عن كل المَطاعِن والشُّبُهات، ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾، أي: فيها آيات مكتوبة كلها ناطقة بالحق، مستقيمة لا عوج فيها، على غرار قوله تعالى في سورة (الكهف: ١): ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾.

ثم خصّ كتاب الله بالذكر «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى لعِظَم مسؤوليتهم، فقد كانوا على علم بظهور الرسول «الخاتِم» والرسالة «الخاتِمة»، وكانوا يُبشِّرون المشركين ببعثته ورسالته، مبيّناً ما آل إليه أمرُهم بعد ظهور الرسول والرسالة من الجحود والإنكار، والحَسَد والاستكبار، مما كان له أثرٌ كبير على المشركين في التمسك بشركهم، اقْتداءً بتمسك الكافرين بكفرهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾، والمراد «بتفرقهم» تفرقهم عن الحق، أو تفرقهم فِرَقاً، فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر، ومنهم من عرف الحق وعاند.

وانتقلَ كتابُ الله إلى التذكير بمضمون الدعوة الإسلامية،

والتعريف بجوهرها وفحوَاها، وأنها دعوةٌ جامعة للناس أجمعين، إلى عبادة الله وحده، وإفراده بالطاعة والعبودية، وأداءِ حقوق الله ـ وعلى رأسها إقامة الصلاة ـ وأداء حقوق العباد ـ وعلى رأسها إيتاء الزكاة ـ مع الإخلاص لله في القول والعمل، والإبتعاد عن كل ما هو باطل وفاسد، نيةً واعتقاداً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى، مذكراً أهل الكتاب بما أُمِرُوا به في الكُتُب المُنَزلة: ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾، أي: لا يميلون إلى الباطل من قريب ولا من بعيد، ﴿ وَيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُوتُواْ الزَّكَوٰةَ ﴾، ثم قال تعالى منوِّهاً بدين الحق والمبادىء السامية التي يدعو إليها، ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾، أي: ذلك دين الملة المستقيمة، ودين الشريعة المستقيمة.

وتَولَّى كتابُ الله في هذا السياق التعريف «بخير الخَلْق» والتعريف «بشَرّ الخَلْق»، وما يكون عليه كلا الفريقين في الدنيا والآخرة من حق أو باطل، وسعادة أو شقاء، فقال تعالى واصفاً لحال الأشرار في كل عصر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيٓئَةِ ﴾، أي: هم شرار الخلق، وقال تعالى واصفاً لحال الأخيار في كل جيل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيٓئَةِ ﴾، أي: هم خيار الخلق، ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾، أي: جناتُ استقرار وإقامة ودَوام، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا اَلْاَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ﴾، أي: مقيمين فيها باستمرار، ﴿ رَّضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ ﴾، أي: حقق لهم جميع الأماني، ثم خلَع

عليهم رداء الرضوان الذي لا سَخَط بعده أبداً، «ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم» (التوبة: ٧٢) ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، أي: رضوا بالله ربّاً، وبالإسلام دِيناً، وبمحمد نبيّاً ورسُولاً، وشكروا إحسان الله إليهم، ونِعَمَهُ عليهم، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾، أي: إن هذا الجزاء الحسن إنّما يناله من اتقى الله حق تقواه، وعَبَده كأنه يراه، وعَلِمِ أنه إن لم يَرَه فإنه يراه.

وبعد الانتهاء من سورة «البينة» المدنية تستقبلنا سورة «الزلزلة»، وهي مكية على الأرْجح، وهذه السورة تُصوّر حالة الإنسان، وما يكون عليه من الذهول والفزع عندما تقوم الساعة، التي هي «يوم الفزع الأكبر»، ويُحشرُ الناس من كل مكان للجزاء والحساب، والثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى بعد البسملة: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ اِلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾، أي: إذا زلزلت الأرض زلزالَها الذي لم يَسبق له مثيل، وأضيف «الزلزال» إلى «الأرض» لأنه «زلزال كلّيّ» يعمُّ الكوكب الأرضيّ بأسره من أدناه إلى أقصاه، لا «زلزال» جُزْئيّ» يخصُّ جانباً منهُ دون آخر، ﴿ وَأَخْرَجَتِ اِلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾، أي: لفَظَت ما في جوفها من الدفائن والخزائن، والكنوز والمعادن، وألقَتْ ما في بطنها من أفلاذِ كبدها، وحشَرَتْ مختلِف الأحياء الذين يُوجَدون بها إلَى سطحها، ﴿وَقَالَ اَلِانسَـٰنُ مَا لَهَا ﴾، أي: أن الإنسان على العموم يُفاجَأ بما يواجهه من أحوال وأهوَال لم يسبق له أن عَايَنها من قبل، «وليس الخبرُ كالعِيان»، «فالمومن بالبعث» إنما يتساءل متعجِّباً مما يراه من الهول العظيم، و«الكافر بالبعث» يتساءل مستنكِراً قيامَ الساعة نفسِه، لأنه كان

يعتقدُ أنه مجردُ أسطورة من أساطير الأولين، الأول يقول: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢). والثاني يقول: ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ (يس: ٥٢).

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾، فَسَّرَهُ ابن مسعود والثوري وغيرهما بأن يَخلُقَ اللّهُ في الأرض نفسها حياةً وإدراكاً، فتشهدُ بما عُمِل عليها من صالح أو فاسد، وفسَّرَهُ ابنُ جرير وغيرُه بإحداث الله تعالى في الأرض أحوالاً تقومُ مقامَ التحديث باللسان، حتى يَنظرَ من يقول: «مالها» إلى تلك الأحوال، فيعْلَم أن هذا هو ما كانَ الأنبياءُ يُنذرون به ويُحدِّثون عنه، ومعنى الآية عند الزمخشري: «تُحدِّث أخبارها بسببِ إيحاء رَبِّكَ لها، وأمرِهِ إيَّاها بالتحديث» ومعنى «أوحى لها» ألهمهَا، أو أَذِنَ لها.

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾، أي: ليُحاسَبوا، يمكن تفسيره على وجهين كِلاهُما صحيح: ـ الوجه الأول ـ يَصْدُر الناسُ عن مخارجهم من القبور إلى موقف الحساب، فُرادَى، كلُّ واحد وحْدَهُ لا ناصر له ولا معين، مِصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام: ٩٤). ـ والوجه الثاني ـ يَصْدُر الناس عن موقف الحساب متفرقين حسب أعمالهم، بين سعيد يُومَر به إلى الجنة، وشَقِيٍّ يُومَر به إلى النار، وقال السدِّي: «أشتاتاً»، أي: فِرَقاً، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾، أي: يَرَه في كتاب حسابه ويَسُرّه ما يَراه، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾، أي:

يَرَهُ في سجِلِّ حسابه ويُحزِنُه ذلك، وفي الأَثر: «من زادت حسناتُه على سيآته مثقالَ ذرة دَخَلَ الجنة». ورَوَى أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومُحَقَّرات الذنوب، فإنهنَّ يجتمعْنَ على الرجل حتى يُهْلِكْنَهُ».

والآن وقد فرغنا من تفسير سورة «الزلزلة» نستعين بالله على تفسير سورة «العاديات» المكية، وهي ثالثُ ـ وآخرُ سورة في هذا الثُّمن، وفي مطلَعها قَسَم من الله عظيم، بالخيل التي جعلها الله قوةً للجهاد في سبيله، والدفاعِ عن دينه، فكانت عُدَّةَ الفتوحات الإسلامية في مختلِف بقاع الأرض، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿ وَالْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحاً فَالْمُورِيَٰتِ قَدْحاً فَالْمُغِيرَٰتِ صُبْحاً ﴾، أقسمَ بخيل الغُزاة المجاهدين في سبيل الله، «العادياتِ ضَبْحاً»، أي: التي تجري وتَعْدُو عند سيرها، و«تَضْبَحُ» أثناء عَدْوِها، و«الضَّبْحُ» هو الصوت الذي يُسمع من جوف الخيل حين تَعْدُو، «المُوريَاتِ قَدْحاً»، أي: التي ينقدحُ الشَّرَرُ من حوافرها إذا أصابَتْ سنابكُها الحجارةَ بالليل، «المُغيراتِ صُبْحاً»، أي: التي تُغير على الأعداء وقت الصباح، ولا تُباغتهُم في ظلام الليل، وقد كان رسول الله ﷺ يُغير صباحاً ويستمعُ الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك وإلاّ أغار.

وقولُه تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾، وَصْفٌ لما يقوم به فُرسان الإسلام، وتقوم به خيلهم، من إثارة الغبار، عندما تُقبل على ساحة المعْركة، فتتوسط جُموعَ الأعداء، وتخترق صفوفهم بكل شجاعة وحماس.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ وَإِنَّـهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾، هذا هو الشيء المُقسَم عليه وجَوابُ القسم، وكأنَّ كتاب الله يريد أن يقول: إن نِعَم الله على الإنسان لا يُحصيها عَدّ، وفي مقدمتها تمكينُه من وسائل القوة والظَّفر، وتسخيرُ الحق سبحانه وتعالى له طاقاتِ الحيوان والبشر، وبالرغم من ذلك فإنِ الإنسان يتنكَّرُ لنِعَم اللّه، ويَصرِفُها في غير مَحلها، ويتصرَّفُ فيها تصرُّف المستهتِرين السخفاء، والطُّغاةِ السفهاء، فمعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾، إنه لجاحدٌ لنعمة ربه، كافرٌ بها، غيرُ شاكرٍ لها، وقال الحسن: «الكَنُود هو اللاَّئِمُ لربه الذي يَعُدّ المصائب، وينسَى نِعَم الله عليه». ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّـهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾، إن الجاحدَ لنعمة الله لَيشهَدُ على جحود نفسه بنفسه، إذْ لاَ يَستطيع تكذيبَ ما ينطقُ به لسانُ حاله، وما يتجلَّى في أقواله وأفعاله، ومن ذلك قولُ الشاعر: «فكلُّ إناء بالذي فيه يَنْضَحُ»، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾، إن الإنسان تميل نفسه إلى حب المال، والبخل به، والشحّ في إنفاقه، و«الخير» هنا بمعنى المال، على غرار قوله تعالى في سورة (الفجر: ٢٠): ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾. قال ابن كثير: «وفي معنى هذه الآية مذهبان: أحدهما: أن المعنى، وإنه لشديدُ المحبَّة للمال ـ والثاني: أن المعنى، وإنه لحريصٌ بَخِيلٌ، من أجْلِ مَحبتِه للمال، وكلاهما صحيح».

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ
فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ
اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧
إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الثُّمُن الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم، وهذا الثُّمُن من كتاب الله يشمل بقية سورة «العاديات» وسورة «القارعة» وسورة «التكاثر» وسورة «العصر» وسورة «الهُمَزَة» وسورة «الفيل»، وكلها سور مكية.

وأول هذا الثُّمُن يحتوي على ختام سورة «العاديات» التي تناول الحديثُ فيها جحودَ الإنسان لنعمة ربه، رغماً عما يتقلب فيه من الهبات الإلّهية، والعطايا الربانية، التي لا حدّ لها ولا حصر، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

ففي ختامها تساءل كتابُ الله هل بلغ الجهل والغرور بالإنسان، الكافر بالله، الجاحد لنِعَمه، إلى حدّ أن يتجاهل ما هو مُقبِلٌ عليه ـ أحبَّ أم كرِهَ ـ من مفارقة القبر بعد نزوله، وانتقاله منه، بعد سكناه الموقتة، إلى دار البقاء والخلود، ليُحاسَب فيها على ما أَصرّ عليه من الكِبْر والجحود: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾، أي: إذا أُخرِج مَن كان مقبوراً فيها من الأموات،

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، أي: أُبرزَ ما كان مكتوماً فيها من النيات والسرائر، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾، أي: أنه سبحانه سيُفاجِىء الناسَ يوم القيامة، بأنه كان مطّلِعاً على جميع أعمالهم وتصرفاتهم، وأنه سيُحاسبُهم عليها بمقتضاها، ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩).

ومن هنا ننتقل إلى سورة «القارعة» المكية، و «القارعة» أحدُ الأسماء التي تُطلَق في كتاب الله على يوم القيامة، كالحَاقّة، والطّامّة، والصّاخّة، والغَاشِيَة، وفي هذه السورة يَصِفُ الحقُّ سبحانه بعضَ أهوال الساعة ومشاهدِها الرهيبة، ولا سيما ما يصيب الإنسانَ عند قيامها من ذهول واضطراب، وما يُصيب الجبالَ من نَسْف وخراب، وما ينالُ السُّعداءَ والأشقياءَ من ثواب وعقاب، وذلك قوله تعالى بعد البَسملة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَيٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾، أي: يوم يكون الناس في حَيرة وذهول، متفرقين شَذَرَ مَذَر، كالفَراش الذي أعشى النورُ بصرَهُ، فانتشر من حوله، وتراكَم بعضُه على بعض، لا يدري ماذَا يَصنع، ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، أي: تُصبح الجبال التي كانت أوتاداً صلبة تُرسِي الأرض في منتهى الرَّخاوة واللِّين والتفتُّت، كأنها صُوفٌ منفوشٌ تذرُوه الرياح، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾، أي: فأما مَن رَجَحت حسناتُه على سيآته، فثَقُلَت كفّةُ الحسنات في ميزانه، فهو في عيشة خالدة يَرْضَى عنها اللّهُ، ويَرْضَى عنها عَبدُه كل الرِّضَى، إذْ يَرَى فيها وفاءً من الله بوعده، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ٩)، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾، أي: وأما من رَجَحت سيآته على حسناته، فخفَّتْ كفَّةُ الحسناتِ في ميزانه، فالنارُ هي أمُّه ومأْوَاه كما قال ابن زيد وقتادة، وبذلك يكون قولُه تعالى هنا: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾، تفسيراً قرآنياً «للهاوية». وَلِتَصَوُّرِ ما عليه النارُ من درجة الحرارة، أعاذنا الله منها جميعاً، يكفِي أن نعرف قول رسول الله ﷺ في شأنها: «نارُ بني آدم التي تُوقِدُون جُزءٌ من سبعينَ جُزءاً من نار جهنم»، رواه البخاري وأحمد.

ولننظر الآن في تفسير سورة «التكاثر» المكية مستعينين بالله، وهذه السورة يدور الحديث فيها عن استغراق الغافلين، في شؤونهم المادية، ومصالحهم الشخصية، حتى يدركهم الأجل، وهم لم يتزودوا لآخرتهم بأيّ زاد من العمل الصالح، وفيها تأكيدٌ للخلق، وتعريفٌ لهم بأنهم سيُسألون يوم القيامة عمّا آتاهم الله من فضله، وسيُحاسَبون على النقير من نِعَمِه والقِطْمِير، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾، أي: ألهاكم الإِنهماكُ في التفاخُر والتكاثر من الأموال والأولاد عن طاعة الله، وأداء حقوقه وحقوق خَلْقه، ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾، أي: حتى أتاكم الموت ودُفِنْتُم في القبور، دون أن تُقدِّموا بين أيديكم ما ينفعكم عند الله.

والتعبيرُ هنا بلفظ «زُرْتُم المقابر» دون التعبير مثلاً «بسَكَنتم المقابر» فيه إشارةٌ واضحة إلى أن إقامة الإنسان في قبره بعد الموت إنما هي مجردُ إقامة موقتة، شبيهةٍ بالزيارة أياماً معدودة،

لا سكنَى مستمرة، أما منزله الذي سيسكُنه وسيستقر فيه فهو إمّا الجنة وإما النار. عن ميمون بن مهران قال: «كنت جالساً عند عُمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ أَلْهَيٰكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾، فلبِث هنيهَةً ثم قال: «يا ميمون ما أَرَى المقابرَ إلاّ «زيارة»، وما للزّائر بُدٌّ من أن يرجع إلى منزله» قال أبو محمد: «معنى أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو إلى نار».

وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، هذا وعيدٌ مضاعَف من الله تعالى للغافلين عن آخرتهم، الشاكّين في بعثهم وحسابهم، وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾، هذا تفسير من الله للوعيد الشّديد الذي توعّد به الشاكّين والكافرين، وفيه تأكيد بالغٌ لما سينالهم من عذاب الله، جزاءَ شكِّهم وكفرِهم، و«عين اليقين» درجةٌ زائدة على «علم اليقين»، إذ هي «الرؤيةُ التي هي نفس اليقين وخالِصَتُه».

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾، هذا تأكيدٌ قويٌّ لأن الله سبحانه سَيتولى سؤال عباده عن كل ما تقلَّبُوا فيه من النعم أثناء حياتهم في الدُّنيا، ومن تلك النعم الأمنُ والغنى، والشّبَع، والظّلّ، والنوم، واعتدالُ الخَلْق، وصحةُ الأبدان، وسلامةُ الأسماع والأبصار. قال مجاهد: «النعيم عبارة عن كل لذة مِن لذات الدنيا»، وقال ابن عبّاس: «يسألهم الله عن نِعَمِه فِيمَا استعمَلُوها، وهو أعلمُ بذلك منهم»، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾

(الإسراء: ٣٦). رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾، ثم قال: (يقول ابنُ آدم مالِي مالِي، وهل لك من مالك إلاَّ مَا أَكلْتَ فأفنيْتَ، أو لبِسْت فأبلَيْتَ، أو تصدقتَ فأمضيْتَ)، رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يتبَعُ الميتَ ثلاثةٌ، فيرجعُ اثنان ويبقَى معهُ واحد، يتبعُه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجعُ أهلُه ومالُه، ويَبقَى عمله»، رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

ولنستقبل الآن سورة «العصر» المكية أيضاً، ومَدارُ الحديث في هذه السورة على التعريف بالقِيمة الحقيقية لحياة الإنسان، والإشارةُ إلى أن العبرة في حياته إنما هي بنوع المساعي التي يسعى فيها، والتصرفات التي يتصرفها، خَيْراً أو شَرّاً، صلاحاً أو فساداً، وفي هذه السورة قَسَم من الله «بالعصر»، وهو مفرد العصور، والمراد به الزَّمَن الذي يقطعه الإنسانُ في حياته، وتقع فيه شتَّى حركاته وتصرفاته. وكما ذكَر كتابُ الله هنا لفظ «العصر» الذي هو مفرد العصور، ذكر في آية أخرى لفظ «الدهر» الذي هو مفرد الدهور.

والمُقسَم عليه هنا هو إثبات أنّ الإنسان يَظَلّ خاسراً لنفسه ولحياته، ولا يُعتبرُ من الفائزين المفلحين، إلاّ إذا تحوّل من إنسان جاحِد، فاسدٍ، أنانيّ، إلى إنسان مومنٍ بالله، قائم بالعمل الصالح، متمسكٍ بالحق، «ومُوصٍ» لغيره بالتمسك به، معتصم بالصبر، و«مُوصٍ» لغيره بالاعتصام به، وذلك قوله تعالى بعد «البَسملة»: ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾، وقد كتب عُمر بن الخطاب إلى أبِي الحسن الأشعري يقول: (عليك بالصبر، واعلم أن الصَّبر صبران أحدهما أفضلُ من الآخر، الصبرُ في المصيبات حَسَن، وأفضل مِنهُ الصبرُ عَمَّا حَرَّم الله تعالى). وقال علي بن أبي طالب: «بُني الإيمانُ على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل».

ومن هنا ننتقِلُ إلى سورة «الهُمَزَة» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة يدور الحديث فيها على تنفير المومنين من الغِيبة والنميمة، ومن الطعن في الناس والازدراء بهم قولاً أو فعلاً، وفيها وعيدٌ شديد من الله بالعذاب الأليم، لمن يتخذ من أعراض الناس وأحوالهم مجالاً للتنقِيص والاِزدراء، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾، أي: هَلاكٌ وخَسارٌ لكل هَمَّاز لمَّاز، و«الهمَّاز اللمَّاز» من يزدري الناس بقوله أو بفعله، بعينه أو لسانه أو يده، قال ابن عبَّاس: «هُمَزة لُمَزة أي طعَّان مِعْياب» وقال الربيع بن أنس: «الهُمَزةُ يهمِزُه في وجهه، واللمَزَةُ يلمِزُه من خَلْفه».

وقولُه تعالى: ﴿ الذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾، هذا وعيد من الله بالخصوص لأولئك الذين يطغيهم الغِنَى والمال، فينظرون إلى مَن دونهم من الفقراء، نظرةَ التحقير والاِزدراء، ويتخذون منهم مادَّة رخيصة لسُخريتهم وهَمزهم ولَمْزهم من أجل كونهم ضعفاء، ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ وَمَآ

أَدْرِيكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾، أي: مُقْفَلَةٌ عليهم بحيثُ لا يفارقونها، ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾، أي: في قيود ثقيلة لا يُفلتون منها.

ولنُلقِ الآن نظرةً على سورة «الفيل» المكّية أيضاً، وهذه السورة تتضمنُ امتناناً من الله على رسوله بأحَـدِ «الإرْهَاصـات» الكبرى التي سبقت ولادتَه ونبوتَه، فقد عزم «أَبْرَهَةُ الحبشي» على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجـود قبيل ولادة الـرسول عليـه السلام، وأقبل على مكة في جيش عَرَمرم تتقدَّمه الفِيَلة، وعلى رأسها فيلُ أبرهة نفسه، وكان فيلاً ضخم الجُثة لم يُرَ مثلُه، فلما وجهوه نحو «الكَعبة» بَرَك في مكانه، واستعصى عليهم أمرُه، رغماً عن ضربه ضرْباً مبرِّحاً، وكان كلما وجَّهوه نحوَ الجهات الثلاث الأُخرى يُهرِول ويسير، حتى إذا ما وجهُوهُ نحو «الكعبة» صاح وبَرَك من جديد، وامتنع من السير، وبينما هم كذلك إذ أرسل اللَّهُ عليهم طيراً مِنَ البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طـائر ثـلاثةُ أحجار، كل حَجَر دون حبّة الحمص وفوق حَبّة العَدَس، واحد في منقاره واثنان في مخْلَبَيْه، ولم تُصِب تلك الأحجار أحداً منهم إلّا هَلَك في الحين، فخـرجَ من بقي منهم يبتـدرون الـطريق هاربين، وبقيت الكعبة رابضةً في مكانها خالدةً إلى يوم الدين. قال ابن إسحاق: «حدَّثني يعقوب بن عتبة أنه حُدِّثَ أن أول ما رؤيت الحصْبَة والجُدَرِيّ بأرض العرب ذلك اليَوْم، فلما بعث اللَّهُ محمداً ﷺ كان فيما يَعُدّ على قريش من نِعَمِـه عليهم وفضلِه ما رَدَّ عنهم من أمرِ الحبشة» وقال ابن كثير: «ان هـذا من باب

الإرهاص والتوطئة لِمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلِد على أشهر الأقوال، ولسانُ حال القَدَر يقول: «لَمْ نَنصـركُمْ يا معشر قريش على الحَبَشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي سنشرِّفُه ونعظِّمه ونوقِّره ببعثة النبي الأمّيّ محمد ﷺ خاتم الأنبياء؟» وذلك ما يشيرُ إليه قولُه تعالى خطاباً لنبيه وامتناناً عليه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾، أي: أبطل كيدَهم، وخيَّب سعيهم، يقال: «ضلَّلَ كيدَه» إذا أبطلَه وجعله ضائعاً، ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾، أي: أسْراباً متتابعة، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾، أي: طين مطبوخٍ بالنار مختلطٍ بحجَر، ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾، أي: كالتبن الذي جُزَّ لعَلَف الدَّواب فأكَلَتْه ورَاثَتْه، وهذا التَّعبيرُ جاء على أسلوب «أدب القرآن»، على غرار قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلَـٰنِ الطَّعَامَ ﴾، قال أبو حيّان في تفسيره، (البحر المحيط): في خطابه تعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾، تشريفٌ له عليه السلام، وإشادةٌ بذكره، كأنه قال: ﴿ ربُّك ومَعْبُودُك هو الذي فَعَل ذلك، لا أَصنامُ قريش، إسَاف ونائلة وغيرهما».

وقال القشيري في «لَطائِف الإشارات»، إشارةً إلى دور عبدِ المطَّلب في هذه القصة، ودعائه على أبرهة الحبشي وَجَيْشِه دفاعاً عن البيت: «إذا كان عبدُ المُطَّلب عندما أخلص في التجائه إلى الله، لاسْتدفاع البلاء عن البيت، لم يُخيِّب الله رجاءه، وسَمع دعاءه، فالمؤمنُ المخلص إذا دعا ربه لا يَردُّهُ خائباً».

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الستين من المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ③

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ⑤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ

ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى
يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦



الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـاد الله

حديث هذا اليوم هو مِسْك الختام لأحاديثـنا التفسيـرية، وسنتناول فيه بحول الله وقوته «السور التسع» الباقية من الحزب الستين في المصحف الكريم، ابتداءً من سورة «قريش» وانتهاءً بسورة «الناس»، وكلُّها سُـوَر مكية، ما عدا سورة «النصر».

أما سورة «قريش» وهي الأُولى في هذا الحديث، فرغماً عن كونها مستقلةً عن سورة «الفيل» التي قبلها، ومفصولةً عنها في «المصحف الإمام» هي في الحقيقة متعلقةٌ بها وتتمةٌ لها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمان بن زيد، فَمَعْنَى قوله تعالى: ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴾، عند ابن إسحاق وابن زيد: «حَبَسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله «لإيـلاف قريش»، أي: لائتـلافهم واستمرار اجتمـاعهم في بلدهم آمنين، وكذلـك لما سيؤول إليه أمر مكة والكعبة، عنـدما يُبعَثُ إلى الخلق خـاتِمُ الأنبياء والمرسلين.

وقولُه تعالى: ﴿ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾، امتنـانٌ من الله على قريش بما أفاضه عليهم من الرزق الواسـع، عن

طريق القوافل التجارية، التي كانت تسير في الشتاء إلى اليمن جنوباً، وفي الصيف إلى الشام شمالاً.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾، دعوةٌ من الله لقريش أن يشكروا نعمتَه عليهم، وأن يُطَهِّروا بيتَه الحرام من الأَصنام والأوثان، إذ «البيت الحرام» بيتُ الله، ولا رَبَّ للبيت يستحقُّ العبادة سواه. قال القشيري: «ووجهُ المِنَّةِ في الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله، فإنَّ من لم يكن مَكفِيَّ الأمور لا يتفرغُ إلى الطاعة، ولا تساعدُه القوة ولا القلب إلاّ عند السلامة بكل وجه، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ (البقرة: ١٥٥)، فقدم «الخَوْف» على جميع أنواع البلاء».

وتُواجهنا بعد ذلك سورة «المَاعُون»، وهذه السورة تكشِف النقاب عن سريرة المكذِّبين بالبعث والجَزاء، وأَن الدافع لهم إلى التكذيب بالنشأة الآخرة هو علمُهم بأنهم ليسوا على شيء، وخوفُهم من سوء العاقبة، لما هُم عليه من قَبْضٍ في اليد، وغَفْلةٍ في الفكر، وقَسْوةٍ في القلب، ورِيَاءٍ للناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بعد البسملة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾، أي: يُكذِّب بالمعاد والجَزاء، ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، أي: يظلمُه ويقهَره ولا يُحسِن إليه، ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾، أي: ساهون عن فعلها بالمرة، أو ساهون عن أدائها في الوقت المقرَّر لها شرعاً، أو ساهون عن الخشوع فيها والتدبُّر لمعانيها. قال ابن كثير: «فهذا

اللفظُ يشمَل ذلك كلَّه. ولكل من اتصفَ بشيء من ذلك قِسطٌ من الآية، ومَن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبُه منها، وكمُل له النفَاقُ العَمَلي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق»، الحديث.

وقولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾، أي: الذين يُراءُون الناس بأعمالهم وعباداتهم، ويفعلونها من أجل رُؤْيَة الناس، ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾، أي: يمنعون بَذْل المعروف كما فسره محمد بن كعب. قال عكرمة: «رأسُ الماعون زكاة المال، وأدناه المُنْخُل والدَّلو والإبرة». وقال ابن كثير: «هذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلُّها إلى شيء واحد، هو أن المراد «بمنع الماعون» تَرْكُ المعاونة بمال أو منفعة».

والآن فلنقفْ وقفةً خاصة عند سورة «الكوثر»، والخطابُ الإلّهي في هذه السورة الكريمة موجَّهٌ إلى الرسول عليه السلام، وهي تتضمن امتنان ربه عليه بما أعطاه من الخير الكثير في الدنيا والآخرة، كما تتضمن أمرَه بالاِستمرار على ما هو عليه من التوجه إلى الله في صلاته ونُسُكه في كل حين، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾، قال ابن عباس: «الكَوْثَرُ هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه»، وقيل لسعيد بْنِ جُبَير: «إنَّ ناساً يزعمون أنه نَهرٌ في الجنة»، فقال سعيد: «النهرُ الذي في الجَنّة من الخير الذي أعطاه الله إياه». ورُوي عن أَنَس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف: «أن الكوثر نهر في الجنة».

وقولُه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾، أي: أخلِصْ صلاتك لربك، وبذلك تخالفُ المشركين الذين يعبدُون غير الله، وأخلِصْ نحرَك لربك، وبذلك تخالفُ المشركين الذين لا يذكرون على ذبائحهم اسمَ الله، على غِرار قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)، قال ابن كثير: (والصحيح أن المراد «بالنحر» ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يُصلِّي العيد ثم يَنحَر نُسُكَه ويقول: «من صلى صلاتَنا ونَسَك نُسُكَنا فقد أصاب النُّسُك، ومن نَسَك قبل الصلاة فلا نُسُك له»).

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾، دفاعٌ من الله عن كرامة رسوله، فقد تهجم أبو لهب على مقام الرسول عليه السلام، وقال عنه إنه «قَدْ بُتِر» لوفاة ابنه الذَّكَر، وكان العرَبُ يقولون ذلك، لمَن مات أولاده الذكور، يريدون أنه إذا مات الإبنُ الذكر أصبح أبوه «أبتر»، وانقطعَ ذكره، غيرَ أن «أبا لهب» الذي شَنَأ الرسولَ عليه السلام، ومِثْلُه كلُّ من حَمَلَ لِرَسُول الله ﷺ عَداوة أو بُغضاً، هو الذي بَتَرهُ الله من الوجود. وقد كتبَ قلمُ القدرة اسم «محمد» وآله الطاهرين في سجلِّ الخلود، وها هو ذكره باقٍ على رؤوس الأشهاد، وحُبُّه يملأ في دُنيا الإسلام كلَّ فؤاد.

ومن هنا نتنقل إلى سورة «الكافرون» وهذه السورة عبارةٌ عن «بَرَاءة» من الشرك والمشركين، والكفر والكافرين، يُعلنها كلُّ مسلم في كل حين، بتصميم وعزم ويقين: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ

الرَّحِيمِ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٤١)، قال القشيري: «والعبودية لله هي القيامُ بأمره على الوجه الذي به أَمَر، وبالقَدْر الذي به أَمَر، وفي الوقت الذي فيه أَمَر».

والآن نستقبل سورة «النصر» المدنية، وهذه السورة بِشارةٌ من الله لرسوله بما سيناله الإسلام من الظهور والانتشار، في مختلِف الديار، وما سيقع من تسابُقٍ بين الأمم والشعوب على اعتناقه، وتَفانٍ في سبيل رفع رايته ومَدِّ رِوَاقه، وذلك قولُه تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾، أي: يُسلِمون جماعات جماعات، شعوباً وقبائل، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾.

قال ابن كثير: «والمراد (بالفَتْح) هُنَا فتحُ مكة قولاً واحداً، فإنَّ أَحْياء العرب كانت تتلَوَّمُ بإسلامها فتحَ مكة، يقولون: إن ظهر عَلى قومه فهو نبيٌّ. فلما فَتَحَ الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تَمْضِ سنتان حتى استَوْسَقَتْ له جزيرةُ العربِ إيماناً، ولم يَبقَ في سائر قبائلِ العَرَبِ إلاَّ مُظهِرٌ للإسلام، ولله الحمد والمنة».

ومن المعاني التي فهمها ابن عباس من هذه السورة ووافقه

عليها عمرُ بْنُ الخطاب رضي الله عنهما أنها حينَمَا نزلت نَعَتْ لرسول الله ﷺ نفسَه، فأخذ بأشدِّ ما كانَ قَطُّ اجتهاداً في أمر الآخرة. ويناسب هذا التأويل قولُه تعالى في ختام السورة: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «المَسَد»، وهذه السورةُ وعيد شديد من الله «لفرعون قريش» المكنَّى «بأبي لهب» لإشراق وجهه ووَضاءَته في البداية، ولتعذيبه «بلَهيب» النار في النهاية، واسمُه عبدُ العُزَّي، وقد كان كثيرَ الإذاية لرسول الله ﷺ والبُغضِ له ولدينه، والدعايةِ ضدَّهُ في الأسواق والمجتمعات يُلاحِقُه في كل مكان يحُلُّ به للدعوة إلى دين الله، وكان أحول العينين، ذا غَديرَتَيْن، ففي شأنه وشأن زوجته يقول الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، أي: خسرَتْ يَدَاه، وضلَّ سعيُه وعملُه، ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾، أي: ما أغنى عنه ذلك كلُّه شيئاً، ﴿ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾، إشارةً إلى أنها كانت تحمل الشّوك وتلقيه في طريق الرسول عليه السلام وصحبه الكرام، وإذا كانت في الدنيا عَوْناً لزوجها على كفره وعناده، فستكونُ في الآخرة عَوْناً عليه في عذابه، تحمِل الحطب وتُلقيه على زوجها في النار. ﴿ فِى جِيدِهَا ﴾، أي: في عنقها، ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، قال مجاهد: «أي في جيدها طَوْقٌ من حديد. وقال سعيد بن المسيب: «كانت لها قِلادة فاخرة، فقالت لأُنْفِقَنَّهَا في عَداوة محمد، فأعقبَها اللَّهُ منها حَبْلاً في جِيدِها من مَسَد النار» و«المَسَد» في الأصل لِيفٌ

يُتَّخَذ من جريد النخل ومن الجلد أو غيرهما «فيُمْسَدُ» أي يُفتَل. . .

وبعد الانتهاء من «سورة المَسَد» نتناول سورة «الإخلاص» مستعينين بالله، وهذه السورة الكريمة نزَلت رَدّاً على المشركين الذين قالُوا لرسول الله: «يا محمد انْسُبْ لنا رَبَّكَ»، فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، إلى آخر السورة. وقال عكرمة: «لما قالت اليهود نحن نعبُدُ عُزَيْر ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبُدُ المسيحَ ابن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون نحن نعبد الأَوثان أنزل اللَّهُ على رسوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا يُطلَق هذا اللفظ على أَحَد في الإثبات إلاّ على الله عزّ وجلّ، لأنه المُنفَرِدُ بالكمال في جميع صفاته وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾، أي: السيدُ الذي يصْمُد إليه الخلائق في حوائجهم ورغباتهم ويَلجَأون إليه في الأزمات والشدَائد.

وقولُه تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾، نفيٌ لجميع المعتقدات الباطلة، التي شاعت بين أَتباع الأَديان الأخرى، الكتابية منها وغيرِ الكتابية، فليس لله والد، وليس له ولد.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾، أي: ليس له من خلقه نظير يُسامِيه أو يدانيه، ولذلك تنزه جلَّ جلاله عن اتخاذ الزوجة، كما تنزه عن الوَلَد، على حدّ قوله تعالى: (٦: ١٠١): ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَـٰحِبَةٌ

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٠١).

قال القشيري: «يقال هذه السورة بعضُها تفسيرٌ لبعض: مَن هو الله؟ هُـو الله. مَنِ اللَّهُ؟ هو الأَحَدُ. مَنِ الأَحد؟ هو الصَّمَدُ. مَنِ الصَّمَدُ؟ هُوَالذي لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ. مَن الذِي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ؟ هو الذي لَمْ يكُنْ لهُ كُفُوّاً أَحدٌ».

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الفَلَق» ويطلق عليها وعلى سورة «الناس» بعدَها اسم «المُعوِّذَتَيْن»، وهذه السورة والتي تليها كلاهُما توجيه من الله لرسوله والمومنين إلى الاِلتجاء لكَنَف الله، والاحتماء بِحِماهُ، من كل أمر مَخُوف، ظاهرٍ أو خفيّ، معلومٍ أو مجهُول، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ ﴾ ومعنى «الفلق» «فَلَقُ الصبح». وهذا المَعْنَى هو الذي صوّبه ابن جرير في تفسيره، واختاره البخاري في صحيحه. وقال البعض: «إن معنى الفَلَق عمـومُ الخَلْق»، ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، أي: الشمس إذا غَرَبَتْ، والليلِ إذا أقبلَ بظلامه، ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّـٰثَـٰتِ فِى الْعُقَدِ ﴾، أي: من شرِّ النساء السَّوَاحـر، اللاتي يتعـاطين السحر، وينفُثْن في العُقَـد، ويُوهِمْنَ إدخالَ الضرر على الغير بذلك، ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، أي: إذا ركّز حقد نفسه الشريرة على ذات المحسود، وعلى النعم التي يتقلب فيها.

ونختمُ بسورة «الناس»، ومدارُ الحديث فيها الاِستعاذةُ برب الناس من «شر الوسواس الخنّاس»، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ اَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَـٰهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾.

فها هنا توجيهٌ من الله للرسول والمومنين إلى الاعتصام بحبل الله، والالتجاء إليه، والاِحْتِمَاء بما لَه من صفات الربوبية والمُلْك والألوهية، تلك الصفات التي يتصرّف بها سبحانه في الكون، ويهيمِنُ بها على مقاليد السماوات والأرض، وإلى سؤاله سبحانه وتعالى أن يَعصِم المومنين من وساوس الشيطان، وأن يُعينهم على التخلص من كيده وإغرائه وإغوائه، قال ابن عباس: «الشيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم، فإذا سَهَا وغفل وَسْوَسَ. وإذا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَّسَ» و«إن الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجْرَى الدم»، كما ورد في الحديث الشريف.

وقولُه تعالى: ﴿ مِنَ اَلجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾، تفسيرٌ للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَـٰطِينَ اَلاِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الأنعام: ١١٢).

وهذه السورة الكريمة تبيّن لكل ذي عقل أن في إمكانه أن لا يَسقُط فريسة للشيطان وعُمَلاَئه، وأن لا يكونَ مَغْلُوباً على أمره إزاء وساوسِه ومكايده، وذلك إذا التجأ إلى ربه ومَلكه وإلَهه المسيطرِ على الخلق كلِّه، ولم يقطعْ صلتَه به في أيّ وقت من الأوقات، فمن ذَكَرَ الله واعتصمَ بحبله كان في نَجْوَةٍ من كل شر،

وكان في مأمَن مِن كل وسواس، لأنه في حماية رب الناس، ملك الناس إله الناس.

صدق الله العظيم

* * *

والآن وقد أكرمنا الله جميعاً بختم القرآن، فَلْنَتَوجه إلى الله ضارعين خاشعين، سائلين مِنْهُ سبحانه أن يختم لنا بالخاتمة الحسنى، وأن يُصلح الأمة المحمدية، ويجعل كتابه شفاءً لأدوائها، ورحمةً لأبنائها، وأن يَهدِيَها سواء السبيل، ويُعيد لها مَجْدَها الأثيل، ويَجمَع آراء قَادَتِها وكلمتَهم على الحق والصدق، ويملأ قلوبهم بالمحبة والرفق، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ولجميع المسلمين.

اللهمّ اجعل القرآن لنا ولكافة المسلمين في الدنيا قريناً، وفي القبر مؤنساً، وعلى الصراط نوراً، وفي الجنة رفيقاً، ومن النار سِتْراً وحِجاباً، وإلى الخيرات كلِّها دليلاً، وصلّى الله على سيدنا محمد خير خلقه وخاتم أنبيائه، وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.



دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـ ص.ب. 113-5787 بيروت ـ لبنان

رقم الإيداع القانوني
١٩٨٣ - ٤٢٧
الرباط

الرقم 85/8/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ـ بيروت

